المجموع المفيد

شرح كتاب التوحيد

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

شروحات كبار العلماء

سماحة الشيخ/ عبد العزيز بن باز

فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين

فضيلة الشيخ/ صالح بن فوزان آل فوزان

جمع وإعداد وتحقيق عبد العظيم محمود عمران

مكتبة عباد الرحمن
مصر

مكتبة العلوم والحكم
مصر


بسم الله الرحمن الرحيم

المجموع المفيد
شرح كتاب التوحيد

للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب

شروحات كبار العلماء

الطبعـة الأولى

١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م

رقم الإيداع	٢٠٠٧/٧٢١٩

مطبعة العمرانية
تليفون ٣٧٥٦٢٩٩

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أرسل رسله؛ ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويهدي بهم الناس إلى عبادته وحده مخلصين له الدين، لا يدعون معه شريكًا ولا ندًا، يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ويشهدون أن الله هو الرب الإله المعبود، المتفرد بكل كمال.

فالتوحيد هو رسالة الرسل، وهو الطريق إلى رضا الله سبحانه وتعالى وجنته، وهو طريق النجاة من النار، وهو الملاذ والملجأ الذي ينعم في ظله المؤمن الموحد بنعيم العبادة، ولذة الطاعة، وأمن العبادة لله وحده.

والتوحيد هو إفراد الله تعالى بالعبادة، بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

وتوحيد الربوبية هو إفراد الله - عز وجل - بالخلق، والملك، والتدبير.

وتوحيد الألوهية هو إفراد الله - عز وجل - بالعبادة.

وتوحيد الأسماء والصفات هو إفراد الله - عز وجل - بما له من الأسماء والصفات.

وقد صنف في التوحيد عدد من العلماء قديمًا وحديثًا تناولوا مسائله بالشرح والبيان، وذلك لإدراكهم مدى أهميته، ومدى مكانته العظيمة، وكان من هذه المصنفات العظيمة التي تناولت مسائل التوحيد، هو كتاب التوحيد للشيخ العلامة محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

هذا الكتاب تبوأ مكانة عظيمة، وشهد له كثير من العلماء بالفضل.

يقول الشيخ عبد الرحمن بن حسن في مقدمة كتابه فتح المجيد: «وأما كتابه المذكور (أي: كتاب التوحيد): فموضوعه في بيان ما بعث الله به رسله من توحيد العبادة، وبيانه بالأدلة من الكتاب والسنة، وذكر ما ينافيه من الشرك الأكبر، أو ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر ونحوه، وما يقرب من ذلك أو يوصل إليه».

وقد تناول هذا الكتاب بالشـرح عدد من العلماء فجاءت شروحهم مفيدة للطلاب فصلت ما أوجزه الشيخ رحمه الله، وشرحت ما أجمله، وبينته بالأمثله، وكان من بين هذه الشروح ثلاثة شروح استفاد منها المسلمون كثيرًا مع عدم الغض من مكانة الشروح الأخرى، وهذه الشروح هي:

شرح الشيخ ابن باز رحمه الله.

شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله.

شرح الشيخ صالح الفوزان حفظه الله.

ومن هنا جاءت فكرة جمع هذه الشروح الثلاثة في كتاب واحد حتى تعم بها الفائدة، وحتى يصبح بين يدي القارئ نصوص هؤلاء المشايخ الأجلاء في شرح مسائل كتاب التوحيد في صورة متجاورة تكمل بعضها بعضًا، وتلتقي بمصابيحها الثلاثة على نص واحد فيزداد وضوحًا وإشراقًا، وكانت الخطوات التي اتبعتها إلى هذه الغاية:

* قمت بجمع الشروح الثلاثة بغرض إخراجها في كتاب واحد، مما يزيد استفادة القارئ منها.

* نظرًا لطول شرحي الشيخين ابن عثيمين رحمه الله، والشيخ صالح الفوزان حفظه الله، فقد قمت باختصارهما اختصارًا غير مخل مع المحافظة على عبارة الشيخين تمامًا، وروح الشـرح، وسلاسة السياق.

* قمت بتقسيم متن كتاب التوحيد إلى مقاطع وأعطيت كل مقطع رقمًا مسلسلًا، ثم أثبت أسفله ما يقابله من شروح المشايخ الثلاثة بعد التوفيق بينها بحيث تبدأ مع بداية المقطع الخاص بالمتن، وتنتهي بنهايته حتى يسهل ربط الشـرح بالمتن.

* بدأت بشرح الشيخ ابن باز، ثم الشيخ ابن عثيمين، ثم الشيخ صالح الفوزان.

* خرجت الأحاديث التي وردت في الشروح.

وبعد، فإني أحمد الله تعالى أن وفقني إلى هذا العمل، فله سبحانه الفضل والمنة، راجيًا أن ينفع الله به المسلمين في كل مكان، وأسأله سبحانه أن يغفر لنا ذنوبنا إنه هو الغفور الرحيم، وصل اللَّهُمَّ على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد العظيم محمود عمران

بسم الله الرحمن الرحيم

١) كِتابُ التَّوْحِيدِ.

---

١) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** «التوحيد»: مصدر وحد يوحد توحيدًا. «والتوحيد»: إفراد الله تعالى بالعبادة.

* **ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله: كتاب التوحيد.

لم يذكر في النسخ التي بأيدينا خطبة للكتاب من المؤلف، فإما أن تكون سقطت من النساخ، وإما أن يكون المؤلف اكتفى بالترجمة؛ لأنها عنوان على موضوع الكتاب، وهو التوحيد، وقد ذكر المؤلف في هذه الترجمة عدة آيات.

والكتاب بمعنى: مكتوب، أي: مكتوب بالقلم، أو بمعنى مجموع من قولهم: كتيبة، وهي المجموعة من الخيل.

والتوحيد في اللغة: مشتق من وحد الشيء إذا جعله واحدًا، فهو مصدر وحد يوحد، أي: جعل الشيء واحدًا.

وفي الشرع: إفراد الله - سبحانه - بما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

أقسامه: ينقسم التوحيد إلى ثلاثة أقسام:

١- توحيد الربوبية. ٢- توحيد الألوهية. ٣- توحيد الأسماء والصفات.

القسم الأول: توحيد الربوبية:

هو إفراد الله - عز وجل - بالخلق، والملك، والتدبير.

فإفراده بالخلق: أن يعتقد الإنسان أنه لا خالق إلا الله...

أما ما ورد من إثبات خلق غير الله؛ كقوله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ﴾

....

[المؤمنون: ١٤]، وكقوله ﷺ في المصورين: يقال لهم: «أحيوا ما خلقتم»[١].

فهذا ليس خلقًا حقيقة، وليس إيجادًا بعد عدم، بل هو تحويل للشيء من حال إلى حال، وأيضًا ليس شاملًا، بل محصور بما يتمكن الإنسان منه، ومحصور بدائرة ضيقة؛ فلا ينافي قولنا: إفراد الله بالخلق.

وأما إفراد الله بالملك:

فأن نعتقد أنه لا يملك الخلق إلا خالقهم...

وأما ما ورد من إثبات الملكية لغير الله؛ كقوله تعالى: ﴿إِلَّا عَلَىٰٓ أَزۡوَٰجِهِمۡ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُمۡ فَإِنَّهُمۡ غَيۡرُ مَلُومِينَ﴾ [المؤمنون: ٦]، وقال تعالى: ﴿أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ﴾ [النور: ٦١]، فهو ملك محدود... وكذا هو ملك قاصر...

وأما إفراد الله بالتدبير:

فهو أن يعتقد الإنسان أنه لا مدبر إلا الله وحده؛ كما قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلۡحَقُّۖ فَمَاذَا بَعۡدَ ٱلۡحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُۖ فَأَنَّىٰ تُصۡرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١].

وأما تدبير الإنسان؛ فمحصور بما تحت يده، ومحصور بما أذن له فيه شرعًا.

القسم الثاني: توحيد الألوهية:

ويقال له: توحيد العبادة باعتبارين؛ فباعتبار إضافته إلى الله يسمى: توحيد الألوهية، وباعتبار إضافته إلى الخلق يسمى توحيد العبادة.

وهو إفراد الله - عز وجل - بالعبادة.

والعبادة تطلق على شيئين:

الأول: التعبد: بمعنى التذلل لله - عز وجل - بفعل أوامره واجتناب نواهيه؛ محبة وتعظيمًا.

---

(١) البخاري: كتاب اللباس/ باب عذاب المصورين يوم القيامة (٥٦٠٧)، ومسلم: كتاب اللباس والزينة/ باب تحريم صورة الحيوان (٢١٠٨).

....

الثاني: المتعبد به؛ فمعناها كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة».

تنبيه:

من العجب أن أكثر المصنفين في علم التوحيد من المتأخرين يركزون على توحيد الربوبية، وكأنما يخاطبون أقوامًا ينكرون وجود الرب - وإن كان يوجد من ينكر الرب، لكن ما أكثر المسلمين الواقعين في شرك العبادة!!.

ولهذا ينبغي أن يركز على هذا النوع من التوحيد حتى نخرج إليه هؤلاء المسلمين الذين يقولون بأنهم مسلمون، وهم مشركون، ولا يعلمون.

القسم الثالث: توحيد الأسماء والصفات:

وهو إفراد الله - عز وجل - بما له من الأسماء والصفات.

وهذا يتضمن شيئين:

الأول: الإثبات، وذلك بأن نثبت لله - عز وجل - جميع أسمائه وصفاته التي أثبتها لنفسه في كتابه أو سنة نبيه ﷺ.

الثاني: نفي المماثلة، وذلك بأن لا نجعل لله مثيلًا في أسمائه وصفاته؛ كما قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

فالواجب: أن نؤمن بما وصف الله وسمى به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله ﷺ، من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل.

هكذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية وغيره من أهل العلم.

ولا يتجاوز الإنسان حده إلى التكييف أو التمثيل؛ لأنه إذا كان عاجزًا عن تصور نفسه التي بين جنبيه؛ فمن باب أولى أن يكون عاجزًا عن تصور حقائق ما وصف الله به نفسه، ولهذا يجب على الإنسان أن يمنع نفسه عن السؤال بـ «لِمَ» «كيف» فيما يتعلق بأسماء الله وصفاته، وكذا يمنع نفسه من التفكير بالكيفية.

وهذا الطريق إذا سلكه الإنسان استراح كثيرًا، وهذه حال السلف رحمهم الله.

أما في عصرنا الحاضر؛ فنجد من يقول: إن الله ينزل إلى السماء الدنيا حين

....

يبقى ثلث الليل الآخر كل ليلة، فيلزم من هذا أن يكون كل الليل في السماء الدنيا؛ لأن الليل يمشي على جميع الأرض؛ فالثلث ينتقل من هذا المكان إلى المكان الآخر، وهذا لم يقله الصحابة رضوان الله عليهم، ولو كان هذا يرد على قلب المؤمن؛ لبينه الله إما ابتداءً أو على لسان رسوله ﷺ، أو يقيض من يسأله عنه فيجاب، كما سأل الصحابة رسول الله ﷺ أين كان الله قبل أن يخلق السماوات والأرض، فأجابهم[١].

فهذا السؤال العظيم يدل على أن كل ما يحتاج إليه الناس فإن الله يبينه بأحد الطرق الثلاثة.

والجواب عن الإشكال في حديث النزول[٢]: أن يقال: ما دام ثلث الليل الأخير في هذه الجهة باقيًا، فالنزول فيها محقق، وفي غيرها لا يكون نزول قبل ثلث الليل الأخير أو النصف، والله - عز وجل - ليس كمثله شيء، والحديث يدل على أن وقت النزول ينتهي بطلوع الفجر.

وعلينا أن نستسلم، وأن نقول: سمعنا، وأطعنا، واتبعنا، وآمنا؛ فهذه وظيفتنا لا نتجاوز القرآن والحديث.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال رحمه الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾ بدأ كتابه بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»؛ اقتداء بالنبي ﷺ، حيث كان يكتب «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» في أول رسائله إلى الناس، وكان يبدأ- عليه الصلاة والسلام- أحاديثه مع أصحابه بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾».

وقال ﷺ: «كل أمر ذي بال لا يُبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم؛ فهو أبتر» أي: ناقص البركة. وفي رواية: «بالحمد لله»[٣].

---

(١) البخاري: كتاب بدء الخلق/ باب ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَؤُا الْخَلْقَ﴾ (٣٠١٩).

(٢) البخاري: كتاب التهجد/ باب الدعاء في الصلاة آخر الليل (١٠٧٧)، ومسلم: كتاب صلاة المسافر/ باب الترغيب في الدعاء والذكر آخر الليل(٧٥٨).

(٣) انظر تخريج الحديث والكلام عليه في إرواء الغليل حديث ١، ٢ .

....

فالبداءة بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» في الأمور المهمّة في المؤلَّفات، والخطب، والمحاضرات، والأكل والشرب، وجميع الأمور التي هي من الأمور المهمة، تُبدأ بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» تبركًا بهذه الكلمة العظيمة، وافتتاحًا للأمور بها.

ومن هنا نعلم أن هؤلاء الذين لا يكتبون «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» في أول مؤلفاتهم في هذا العصر؛ أنهم قد خالفوا السنة، واقتدوا بالغربيين.

ومعناها- كما قرر أهل العلم-: «﴿بِسْمِ اللَّهِ﴾» الجار والمجرور متعلق بمحذوف يجب أن يكون مؤخَّرًا، تقديره: أستعين، بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، أو أبتدئ بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» كتابي ومؤلَّفي، أو ابتدئ كلامي بـ «﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، فالجار والمجرور متعلق بمحذوف مؤخر.

و «﴿اللَّهِ﴾ الله» عَلَمٌ على الذات المقدّسة، وهو لا يُسمّى به غير الرّب سبحانه وتعالى، لا أحد تسمّى بهذا الاسم أبدًا، حتى الجبابرة، حتى الطواغيت والكفرة، ما أحد منهم سمّى نفسه «﴿اللَّهِ﴾» أبدًا، فرعون قال: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ﴾ ما قال: أنا الله، مع كفره لم يجرؤ أن يسمّي نفسه هذا الاسم«﴿اللَّهِ﴾»، وإنما هذا خاص بالله سبحانه وتعالى.

«الله» معناه: ذو الألوهية، والألوهية معناها: العبادة، يقال: أَلَهَ يأْلَهُ: بمعنى: عبَد يعبُد، فالألوهية معناها: العبادة، فـ«﴿اللَّهِ﴾ معناه: ذو الألوهية والعبودية على خلقه أجمعين، كما جاء في الأثر عن ابن عباس رضي الله عنه.

و «﴿الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾» اسمان لله عز وجل يتضمنان الرحمة، والرحمة صِفة لله عز وجل، وكل اسم لله فإنه يتضمن صِفة من صفاته سبحانه وتعالى.

ثم قال بعد ذلك: «كتاب التّوحيد».

قد يسأل سائل فيقول: لماذا لم يبدأ كتابه بالحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي ﷺ؟

....

الجواب: أنه اكتفى رحمه الله بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»؛ فإنها كافية في الثناء على الله سبحانه وتعالى، وكافية بالابتداء.

هذا جواب.

والجواب الثاني كما ذكر الشارح العلامة الشيخ: عبد الرحمن بن حسن -رحمه الله- يقول: «عندي نسخة بخط المؤلِّف فيها أنه بدأ هذا الكتاب بقوله: الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد».

فإذًا؛ يكون في هذه النسخة جمع بين الفضيلتين؛ البداءة بـ«﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، والبداءة بـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، وهذا أكمل بلا شك، ثم قال: «كتاب التّوحيد».

فـ «التّوحيد» معناه لغةً: إفراد الشي عن غيره.

أما معناه شرعًا: فهو إفراد الله- تعالى- بالعبادة. هذا هو التّوحيد شرعًا.

و «التّوحيد» ثلاثة أنواع -على سبيل التفصيل-:

النوع الأول: توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله - تعالى- بالخلق، والرزق، والتدبير، والإحياء، والإماتة، وتدبير الخلائق.

وهذا النوع من أقرّ به وحده لا يكون مسلمًا؛ لأنه قد أقرّ به الكفار، كما ذكر الله - جل وعلا- في القرآن في آيات كثيرة: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿أَمَّن يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾.

النوع الثاني: توحيد الألوهية، ومعناه: إفراد الله -تعالى- بالعبادة، هذا غير إفراده بالخلق والرزق والتدبير، بل إفراد الله بالعبادة؛ بأن لا يُعبَد إلا الله سبحانه وتعالى لا يُصَلّى، ولا يُدعى، ولا يُذبَح، ولا يُنذَر، ولا يُحَج، ولا يُعتَمر، ولا يُتصَدق، ولا... إلى آخره؛ إلا لله سبحانه وتعالى، يبتغى بذلك وجه الله سبحانه وتعالى. وهذا هو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرسل والأمم.

الحاصل: أن النوع الثاني هو توحيد الألوهية، وهو: إفراد الله تعالى بالعبادة،

....

وترك عبادة من سواه، وهذا هو الذي بعث الله به الرسل، وأنزل به الكتب، كما تقرءون في هذه الآيات التي سمعتم، وكما في قوله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ما قال: إلّا ليقروا بأني أنا الرّب، لأن هذا موجود ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ ما قال: أن أقروا، بأن الله هو الخالق الرازق؛ لأن هذا موجود، وهو وحده لا يكفي.

وهذا النوع -توحيد الألوهية- جحده المشركون، وهم أكثر أهل الأرض في قديم الزمان وحديثه، أبوا أن يتركوا آلهتهم، وأن يفردوا العبادة لله عز وجل، ويخلصوا الدين لله عز وجل؛ زاعمين أن هذه الوسائط وهؤلاء الشفعاء يشفعون لهم عند الله، وأنهم يقرّبونهم إلى الله، وأنهم... وأنهم.. إلى آخره ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ﴾.

النوع الثالث: توحيد الأسماء والصفات، بمعنى: أننا نثبت لله سبحانه وتعالى ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسول الله ﷺ من الأسماء والصفات، من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

فنثبت لله الأسماء كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

وكذلك الصفات، نصِف الله عز وجل بما وصف به نفسه؛ أنه عليم، وأنه رحيم، وأنه سميع بصير، يسمع ويُبصر سبحانه وتعالى، ويعلم، ويرحم، ويغضب، ويُعطي ويمنع، ويخفض ويرفع، وهذه صفات الأفعال.

وصفات الذات كذلك؛ أن له وجهًا- سبحانه، وأن له يدين، وأن له سبحانه وتعالى الصفات الكاملة، نثبت لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله من صفات الذات ومن صفات الأفعال.

هذه أنواع التوحيد الثلاثة:

توحيد الربوبية: وهذا في الغالب لم ينكره أحد من الخلق.

توحيد الألوهية: وهذا أنكره أكثر الخلق، ولم يثبته إلّا أتباع الرسل- عليهم

٢) وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ » [الذاريات: ٥٦].

الصلاة والسلام- كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

ما أثبت توحيد الألوهية إلَّا أتباع الرسل- عليهم الصلاة والسلام- وهم المؤمنون من كل أمة، هم الذين أثبتوا توحيد الألوهية، وأبى عن الإقرار به المشركون في كل زمان ومكان.

والثالث: أثبته أهل السنة والجماعة، فأثبتوا لله الأسماء والصفات، وحرّفها وأوّلها الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة، ومشتقاتهم من سائر الطوائف التي سارت في ركابهم؛ فهؤلاء منهم من نفاها كلها، ومنهم من نفى بعضها وأثبت بعضها، المهم أن نعرف مذهب أهل السنة والجماعة في هذا.

٢) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه هي الحكمة الشرعية من خلقهم، فلم يخلقهم ليكثر بهم من قلة، كما أنه خلقهم ليبتليهم أيضًا.

كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وليعلموا صفاته، كما قال: ﴿لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًۢا﴾، فخلقهم ليعلمهم أنه الخالق الرازق والقادر، وابتلاهم بالأوامر والنواهي والتكاليف ليعبدوه على بصيرة، ولأجل هذا بعث الرسل وأنزل الكتب، ليعلموا حقه ويتمسكوا به.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ استثناء مفرغ من أعم الأحوال؛ أي: ما خلق الجن والإنس لأي شيء إلا للعبادة.

واللام في قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ للتعليل، وهذا التعليل لبيان الحكمة من

....

الخلق، وليس التعليل الملازم للمعلول.

قوله: ﴿خَلَقْتُ﴾، أي: أوجدت، وهذا الإيجاد مسبوق بتقدير، وأصل الخلق التقدير.

قال الشاعر:

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ـضُ الناس يخلق ثم لا يفري[1]

قوله: ﴿الْجِنَّ﴾: هم عالَمٌ غيبيٌّ مخفيٌّ عنا، ولهذا جاءت المادة من الجيم والنون، وهما يدلان على الخفاء والاستتار، ومنه: الجَنة، والجِنة، والجُنة.

قوله: ﴿الْإِنسَ﴾ سموا بذلك، لأنهم لا يعيشون بدون إيناس، فهم يأنس بعضهم ببعض، ويتحرك بعضهم إلى بعض.

قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فُسِّر: إلا ليوحدون، وهذا حق، وفُسِّر: بمعنى يتذللون لي بالطاعة فِعلاً للمأمور، وتركًا للمحظور، ومن طاعته أن يوحد سبحانه وتعالى؛ فهذه هي الحكمة من خلق الجن والإنس.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وقول الله» بالكسر معطوف على «التّوحيد»، وهو مجرور بالإضافة، (وقولِ الله تعالى) معطوف على المجرور، ويجوز الرفع (وقولُ الله تعالى) يكون على الابتداء.

«﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ لاحظوا دِقّة الشيخ رحمه الله، قال: «كتاب التّوحيد. وقول الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» ليُبيّن لكم ما هو معنى التّوحيد؟ بأن التّوحيد معناه: إفراد الله بالعبادة، وليس معناه: الإقرار بالربوبية، بل معناه: إفراد الله بالعبادة، بدليل هذه الآية وغيرها.

يقول الله -جل وعلا-: «﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» يُبيِّن الله سبحانه وتعالى الحِكمة من خلقه للجن وخلقه للإنس.

الحاصل: أنه ما كل شيء موجود لابد أننا نراه، هناك أشياء كثيرة وكثيرة

---

(١) البيت لزهير بن أبي سلمى يمدح رجلًا، انظر لسان العرب (١٠/ ٨٥)، مادة خلق.

٣) وقَوْلُهُ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ الآية [النحل: ٣٦].

وكثيرة لا نراها، وربما تكون تعيش معنا، ولله الحِكمة سبحانه وتعالى، ومن ذلك الْجِنُّ وهم عالم عظيم، إلّا أننا لا نراهم، وهم مكلّفون مثل الإنس.

وأما ﴿وَالْإِنسَ﴾ معناها: بنو آدم، من الاستئناس؛ لأنهم يأنس بعضهم ببعض، ويألف بعضهم بعضًا.

الله سبحانه وتعالى بَيّن لنا الحِكمة من خلقه الثقلين: الجن والإنس، وهي: أنه إنما خلقهم لشيء واحد، وهو: العبادة، ولهذا جاء بالحصر «﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» حَصَر الحِكمة من خلق الجن والإنس في شيء واحد وهو: أنهم يعبدونه، فالحِكمة من خلق المخلوقات هي: عبادة الله سبحانه وتعالى، خلق الله الجن والإنس للعبادة، وخلق كل الأشياء لمصالحهم، سَخَّرها لهم؛ ليستعينوا بها على عبادته سبحانه وتعالى.

ومعنى ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ أي: يفردوني بالعبادة، أو تقول بعبارة أخرى: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾ ليوحِّدون، لأن التّوحيد والعبادة شيء واحد.

وما دام أن الله سبحانه وتعالى خلق الثقلين لعبادته فهذا يدل على أن العبادة هي الأصل، وأن التّوحيد هو الأصل والأساس.

٣) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾.

أي: اعبدوا الله وحده واجتنبوا الطاغوت.

«**والطاغوت**»: ما عبد من دون الله، وهو راض، أما ما عبد من دون الله، وهو لا يرضى بذلك، كالرسل والأنبياء، فليسوا بطاغوت، لأنهم لم يأمروا بذلك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: ﴿وَلَقَدْ﴾: اللام موطئة لقسم مقدر، وقد: للتحقيق.

....

وعليه؛ فالجملة مؤكدة بالقسم المقدر، واللام، وقد.
قوله: ﴿بَعَثْنَا﴾؛ أي: أخرجنا، وأرسلنا في كل أمة.
والأمة هنا: الطائفة من الناس.
وتطلق الأمة في القرآن على أربعة معانٍ:
الطائفة: كما في هذه الآية.
الإمام: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ﴾ [النحل: ١٢٠].
الملة: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ﴾ [الزخرف: ٢٣].
الزمن: ومنه قوله تعالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ [يوسف: ٤٥].
فكل أمة بعث فيها رسول من عهد نوح إلى عهد نبينا محمد ﷺ.
والحكمة من إرسال الرسل:
إقامة الحجة: قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].
الرحمة: لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].
بيان الطريق الموصل إلى الله تعالى، لأن الإنسان لا يعرف ما يجب لله على وجه التفصيل إلا عن طريق الرسل.

قوله: ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ أن: قيل تفسيرية، وهي التي سبقت بما يدل على القول دون حروفه؛ كقوله تعالى: ﴿فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنِ اصْنَعِ الْفُلْكَ﴾ [المؤمنون: ٢٧]، والوحي فيه معنى القول دون حروفه، والبعث متضمن معنى الوحي؛ لأن كل رسول موحى إليه.

وقيل: إنها مصدرية على تقدير الباء؛ أي: بأن اعبدوا، والراجح الأول؛ لعدم التقرير. أي: تذللوا له بالعبادة، وسبق تعريف العبادة.

قوله: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ أي: ابتعدوا عنه بأن تكونوا في جانب، وهو في جانب، والطاغوت: مشتق من الطغيان، وهو صفة مشبهة، والطغيان: مجاوزة الحد؛ كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة: ١١]؛ أي:

....

تجاوز حده.

وأجمع ما قيل في تعريفه هو ما ذكره ابن القيم رحمه الله بأنه: «ما تجاوز به العبد حده من متبوع، أو معبود، أو مطاع».

ومراده من كان راضيًا بذلك، أو يقال: هو طاغوت باعتبار عابده، وتابعه، ومطيعه؛ لأنه تجاوز به حده حيث نَزَّله فوق منزلته التي جعلها الله له، فتكون عبادته لهذا المعبود، واتباعه لمتبوعه، وطاعته لمطاعه طغيانًا لمجاوزته الحد بذلك.

فالمتبوع مثل: الكهان، والسحرة، وعلماء السوء.

والمعبود مثل: الأصنام.

والمطاع مثل: الأمراء الخارجين عن طاعة الله، فإذا اتخذهم الإنسان أربابًا يحل ما حرم الله من أجل تحليلهم له، ويحرم ما أحل الله من أجل تحريمهم له؛ فهؤلاء طواغيت، والفاعل تابع للطاغوت، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، ولم يقل: إنهم طواغيت.

ودلالة الآية على التوحيد: أن الأصنام من الطواغيت التي تعبد من دون الله.

والتوحيد لا يتم إلا بركنين، هما:

الإثبات.

النفي.

إذ النفي المحض تعطيل محض، والإثبات المحض لا يمنع المشاركة.

مثال ذلك: زيد قائم، يدل على ثبوت القيام لزيد، لكن لا يدل على انفراده به. ولم يقم أحد، هذا نفي محض.

ولم يقم إلا زيد، هذا توحيد له بالقيام؛ لأنه اشتمل على إثبات ونفي.

قوله: «الآية» أي: إلى آخر الآية، وتقرأ بالنصب؛ إما على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره أكمل الآية، أو أنها منصوب بنزع الخافض؛ أي: إلى آخر الآية.

ووجه الاستشهاد بهذه الآية لكتاب التوحيد: أنها دالة على إجماع الرسل عليهم الصلاة والسلام على الدعوة إلى التوحيد، وأنهم أرسلوا به؛ لقوله تعالى: ﴿أَنِ

....

ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وقوله: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» يُخبر سبحانه وتعالى أنه بعث في كل أمة، و (الأمة) معناها: الجماعة والجيل والطائفة من الناس ﴿فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾، و (الرسول) هو: من أوحي إليه بشرع وأُمِرَ بتبليغه، والرسل كثيرون، منهم من سَمّى الله -جل وعلا- لنا في القرآن، ومنهم من لم يُسَمِّ لنا ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَٰهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾، فنحن نؤمن بجميع الرسل من أوّلهم إلى آخرهم، من سمى الله لنا ومن لم يسم، والإيمان بالرسل أحد أركان الإيمان الستة.

﴿أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ﴾ هذا أمر، ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذا أمر بمعنى النهي.
والطاغوت: مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحَدِّ في كل شيء، والطاغوت يُطلق ويُراد به الشيطان، وهو رأس الطواغيت- لعنه الله- ويُطلق ويُراد به الساحر والكاهن، والحاكم بغير ما أنزل الله، والذي يأمر الناس باتباعه في غير طاعة الله، فالطاغوت- كما يقول ابن القيم-: «كل ما تجاوز به العبد حَدّه من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله فهو طاغوت»...

ف «﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» يعني: كل ما يُعبد من دون الله عز وجل.

وفي الآية الأخرى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ فهذا هو معنى «لا إله إلّا الله»، لأن «لا إله إلّا الله» معناها: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، مثل قوله: «﴿ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» نفيٌ وإثبات.

ولاحظوا قوله: «﴿وَٱجْتَنِبُواْ﴾»، ما قال: اتركوا عبادة الطاغوت؛ لأن «اجتنبوا» أبلغ؛ يعني: اتركوا كل الوسائل التي توصِّل إلى الشرك والاجتناب أبلغ من الترك، فالاجتناب معناه: أننا نترك الشيء ونترك الوسائل والطرق التي توصِّل إليه، فهذه الآية فيها: أن الرسل بُعثوا بالتّوحيد، الذي هو عبادة الله وترك عبادة الطاغوت، من

٤) وقـــــولُهُ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾» الآية [الإسراء: ٢٣].

أولهم إلى آخرهم.

٤) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ج- ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ﴾

أي: أمر وأوصى أن لا تعبدوا إلا الله؛ لأنه هو المستحق للعبادة، فلا إله إلا الله، أي: لا معبود بحق إلا الله فاعبدوه وحده، ولا تشركوا معه في عبادته أحدًا من نبي أو ملك، أو ولي، أو غير ذلك، فعلى الإنسان أن يحذر من الشرك كله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ الآية.

قوله: ﴿قَضَىٰ﴾ قضاء الله - عز وجل - ينقسم إلى قسمين:

١- قضاء شرعي. ٢- قضاء كوني.

فالقضاء الشرعي: يجوز وقوعه من المقضي عليه وعدمه، ولا يكون إلا فيما يحبه الله.

مثال ذلك: هذه الآية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]؛ فتكون قضى بمعنى: شرع، أو بمعنى: وصى، وما أشبههما.

والقضاء الكوني: لابد من وقوعه، ويكون فيما أحبه الله، وفيما لا يحبه.

مثال ذلك: قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَتُفْسِدُنَّ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٤] فالقضاء هنا كوني؛ لأن الله لا يشرع الفساد في الأرض، ولا يحبه.

قوله: ﴿أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ﴾. ﴿أَن﴾ هنا مصدرية بدليل حذف النون من تعبدوا، والاستثناء هنا مفرغ؛ لأن الفعل لم يأخذ مفعوله؛ فمفعوله ما بعد إلا.

....

قوله: ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ ضمير نصب منفصل واجب الانفصال؛ لأن المتصل لا يقع بعد إلا، قال ابن مالك:

وذو اتصال منه ما لا يبتدا ولا يلي إلا اختيارًا أبدًا

والخطاب في الآية للنبي ﷺ ولكنه قال: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ولم يقل «أن لا تعبد»، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١].

أقسام العبودية:

تنقسم العبودية إلى ثلاثة أقسام:

عامة، وهي عبودية الربوبية، وهي لكل الخلق، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، ويدخل في ذلك الكفار.

عبودية خاصة، وهي عبودية الطاعة العامة، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، وهذه تعم كل من تعبد لله بشرعه.

خاصّة الخاصّة، وهي عبودية الرسل عليهم الصلاة والسلام، قال تعالى عن نوح: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، وقال عن محمد: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال في آخرين من الرسل: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥].

قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أي: قضى ربك أن نحسن بالوالدين إحسانًا، والوالدان: يشمل الأم، والأب، ومن فوقهما، لكنه في الأم والأب أبلغ، وكلما قربا منك كانا أولى بالإحسان، والإحسان بذل المعروف، وفي قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ بعد قوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ دليل على أن حق الوالدين بعد حق الله - عز وجل.

وقوله: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ أي: كُف الأذى عنهما؛ ففي قوله: ﴿إِحْسَٰنًا﴾: بذل المعروف، وفي قوله: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾: كف الأذى، ومعنى «أف»: أتضجر؛ لأنك إذا قلته؛ فقد يتأذيان بذلك.

....

قوله: ﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾، أي: لينًا حسنًا بهدوء وطمأنينة؛ كقولك: أعظم الله أجرك، أبشري يا أمي، أبشر يا أبي، وما أشبه ذلك.

والشاهد في هذه الآية: قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾؛ فهذا هو التوحيد لتضمنه للنفي والإثبات.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وقوله: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾» القضاء له عِدة معان، منها: القضاء والقدر، ومنها: الحُكم والشرع، ومنها:

الإخبار ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ يعني: أخبرناهم، ومنها: الفراغ ﴿فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ﴾ ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ يعني: فرغتم منها. فالقضاء له عدة إطلاقات، المراد منها هنا: الأمر والشرع، «﴿وَقَضَىٰ﴾» معناه: شرع «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾»، والله لم يشرع عبادة غيره أبدًا، لم يشرع عبادة الأصنام، ولم يشرع عبادة الأولياء والصالحين، ولم يشرع عبادة الأضرحة والقبور، ولم يشرع عبادة الأشجار والأحجار، أبدًا، هذا شرعه الشيطان، أما شرع الله فهو عبادة الله -سبحانه- وحده لا شريك له.

وهذا هو معنى «لا إله إلَّا الله» «﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟﴾» هذا نفي، «﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾» هذا إثبات، فهو معنى «لا إله إلَّا الله» تمامًا.

ولما أمر بحقه -سبحانه- أمر بحق الوالدين: «﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾» فيأتي حق الوالدين بعد حق الله سبحانه وتعالى مباشرة؛ لأن الوالدين هما أعظم محسِن عليك بعد الله -سبحانه- ومعنى «﴿إِحْسَـٰنًا﴾» يعني: أحسن إليهما كما أحسنا إليك.

والشاهد من الآية: «﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾» لأنها تفسِّر التَّوحيد، وهو: عبادة الله وترك عبادة ما سواه، هذا هو التَّوحيد، أما عبادة الله بدون ترك عبادة ما سواه فهذا لا يسمى توحيدًا، فالمشركون يعبدون الله ولكنهم يعبدون معه غيره فصاروا مشركين، فليس المهم أن الإنسان يعبد الله فقط، بل لابد أن يعبد الله، ويترك عبادة ما سواه، وإلَّا لا يكون عابدًا لله، ولا موحِّدًا، فالذي يصلي

٥) وقولُهُ: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ »الآية [النساء: ٣٦]. وقولُهُ: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗاۖ وَلَا تَقۡتُلُوٓاْ أَوۡلَٰدَكُم مِّنۡ إِمۡلَٰقٖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكُمۡ وَإِيَّاهُمۡۖ وَلَا تَقۡرَبُواْ ٱلۡفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنۡهَا وَمَا بَطَنَۖ وَلَا تَقۡتُلُواْ ٱلنَّفۡسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلۡحَقِّۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ۝١٥١ وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۖ وَأَوۡفُواْ ٱلۡكَيۡلَ وَٱلۡمِيزَانَ بِٱلۡقِسۡطِۖ لَا نُكَلِّفُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَاۖ وَإِذَا قُلۡتُمۡ فَٱعۡدِلُواْ وَلَوۡ كَانَ ذَا قُرۡبَىٰۖ وَبِعَهۡدِ ٱللَّهِ أَوۡفُواْۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ۝١٥٢ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ ذَٰلِكُمۡ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ﴾ »الآيات [الأنعام: ١٥١-١٥٣].

قالَ ابنُ مَسعُودٍ رضي الله عنه: مَنْ أَرادَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى وَصِيَّةِ مُحَمَّدٍ ﷺ الَّتِي عَلَيْها خاتَمُهُ فَلْيَقْرَأْ قَوْلَهُ تَعالَى: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ﴾ - إلى قولِهِ -: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا﴾ الآية.

ويصوم ويحج، ولكنه لا يترك عبادة غير الله ليس بمسلم، ولا تنفعه صلاته ولا صيامه ولا حجه؛ لأنه لم يتمثل قوله تعالى: «﴿أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾».

٥) **الشرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾.

هـ - ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ ... الآيات.

أي: قل يا أيها الرسول: تعالوا أيها الناس أخبركم وأقص عليكم ما حرمه الله عليكم، وأتل على علم ويقين، لا عن شك وظن، وأول هذه المحرمات: الشرك.

....

و«لا» صلة فحرم الشرك كما حرم المحرمات، وأعظم هذه المحرمات هو الشرك.

«والشرك»: صرف أي نوع من أنواع العبادات لغير الله.

واشتملت هذه الآيات على عشرة أمور:

«الأول»: الشرك.

«الثاني»: الإحسان إلى الوالدين، وذكرهما بعد ذكر حق الله، يدل على عظم حقهما، والإساءة إليهما من أجرم الذنوب والمعاصي، وقرنهما الله بحقه في غير ما آية.

«الثالث»: عدم قتل الأولاد.

«الرابع»: عدم قرب الفواحش من الغيبة والنميمة والزنا والسرقة وغيرها.

«الخامس»: عدم قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

«السادس»: عدم أكل مال اليتيم، واليتيم هو الذي مات أبوه قبل الاحتلام.

«السابع والثامن»: الكيل والوزن بالقسط.

«التاسع»: الوفاء بعهد الله.

«العاشر»: العدل.

«وعهد الله»: ما أوصى به من عبادته، وعدم معصيته وإفراده.

«والفواحش»: هي المعاصي، وسميت بذلك، لأن العقل السليم ينكرها، والفطرة السليمة تنكرها.

«الوصية»: الأمر المؤكد، أوصى بشيء إذا أكده.

«والعقلاء»: هم الذين يعقلون هذه الأمور، ويلتزمونها بعقولهم.

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسْتَقِيمًا﴾ صراط الله هو فعل الأوامر، وترك النواهي، والإخلاص له، فعليهم أن يستقيموا عليه، ويلتزموا به.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾، والسبل: هي البدع، والأهواء، والشهوات المحرمة، وذكر العقل أولاً، لأن العبد يتفكر أولاً، ثم يتأمل، فيعرف، ويتذكر، ثم يتقي

....

فيعمل بما ينفعه، ويترك ما يضره ويغضب ربه.

قال ابن مسعود: «من أراد أن ينظر إلى وصية محمد ﷺ التي عليها خاتمه...» أي: كأنه كتبها ختمها بختمه، فهذه وصية الله، وهي وصية رسول الله ﷺ، وكأن الصحابة قد أسفوا لما أراد النبي ﷺ أن يوصي، ثم ترك ذلك، وذلك أنه حين أراد أن يوصي قال بعضهم: أحضروا كتابًا، وقال بعضهم: لا تشغلوه، وهو مريض، فأمر بإخراجهم، وقال: «ما ينبغي عندي التنازع»[(١)].

قال ابن عباس: إن الرزية كل الرزية، ما حال بين الرسول وبين أن يكتب الوصية[(٢)].

وجاء في الحديث: أن الرسول ﷺ قال لأصحابه: «ألا تبايعوني على هذه الآيات؟»[(٣)].

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗا﴾ الآية.

﴿وَلَا تُشۡرِكُواْ﴾ في مقابل «لا إله»؛ لأنها نفي.

وقوله: ﴿وَٱعۡبُدُواْ﴾ في مقابل «إلا الله»؛ لأنها إثبات.

وقوله: ﴿شَيۡـٔٗا﴾ نكرة في سياق النهي؛ فتعم كل شيء: لا نبيًا، ولا ملكًا، ولا وليًا، بل ولا أمرًا من أمور الدنيا؛ فلا تجعل الدنيا شريكًا مع الله، والإنسان إذا كان همه الدنيا كان عابدًا لها؛ كما قال ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميلة، تعس عبد الخميصة»[(٤)].

قوله: ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنٗا﴾ يقال فيها ما قيل في الآية السابقة.

قوله: ﴿وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾؛ أي: إحسانًا.

---

(١) رواه البخاري (١١٤) ومسلم (١٦٣٧) من حديث ابن عباس.

(٢) كلام ابن عباس -رضي الله عنه- ذكر بعد رواية البخاري ومسلم السابقة.

(٣) رواه الحاكم (٢/ ٣١٨) وابن أبي حاتم في التفسير (٨٠٧٧).

(٤) البخاري: كتاب الجهاد/ باب الحراسة في الغزو (٢٦٧٣).

....

وذو القربى هم من يجتمعون بالشخص في الجد الرابع.

واليتامى: جَمْعُ يتيم، وهو الذي مات أبوه، ولم يبلغ.

والمساكين: هم الذين عدموا المال؛ فأسكنهم الفقر.

وابن السبيل: هو المسافر الذي انقطعت به النفقة.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾ الجار: الملاصق للبيت، أو من حوله، وذي القربى؛ أي: القريب، والجار الجنب؛ أي: الجار البعيد.

قوله: ﴿وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ﴾، قيل: إنه الزوجة، وقيل: صاحبك في السفر، لأنه يكون إلى جنبك، ولكل منهما حق؛ فالآية صالحة لهما.

قوله: ﴿وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ هذا يشمل الإحسان إلى الأرقّاء والبهائم؛ لأن الجميع ملك اليمين.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾.

المختال: في هيئته.

والفخور: في قوله، والله لا يحب هذا، ولا هذا.

الآية الخامسة إلى السابعة قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾.

الخطاب للنبي ﷺ أمره الله أن يقول للناس: ﴿تَعَالَوْا۟﴾؛ أي: أقبلوا، وهلموا، وأصله من العلو كأن المنادي يناديك أن تعلو إلى مكانه، فيقول: تعالى؛ أي: ارتفع إلي.

وقوله: ﴿أَتْلُ﴾ بالجزم جوابًا للأمر في قوله: ﴿تَعَالَوْا۟﴾.

وقوله: ﴿مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ «ما» اسم موصول مفعول لـ ﴿أَتْلُ﴾، والعائد محذوف، والتقدير: ما حرمه ربكم عليكم.

وقال: ﴿رَبُّكُمْ﴾ ولم يقل: ما حرم الله؛ لأن الرب هنا أنسب، حيث إن الرب له مطلق التصرف في المربوب، والحكم عليه بما تقتضيه حكمته.

قوله: ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟﴾ أن: تفسيرية، تفسر ﴿أَتْلُ مَا حَرَّمَ﴾؛ أي: أتلو عليكم ألا

....

تشركوا به شيئًا، وليست مصدرية، وقد قيل به، وعلى هذا القول تكون «لا» زائدة، ولكن القول الأول أصح، أي: أتل عليكم عدم الإشراك؛ لأن الله لم يحرم علينا أن لا نشرك به، بل حرم علينا أن نشرك به، وما يؤيد أنّ «أنْ» تفسيرية أن «لا» هنا ناهية لتتناسب الجمل؛ فتكون كلها طلبية.

قوله: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾، أي: وأتل عليكم الأمر بالإحسان إلى الوالدين.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم﴾، بعد أن ذكر حق الأصول ذكر حق الفروع.

والأولاد في اللغة العربية: يشمل الذكر والأنثى، قال تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ﴾ [النساء: ١١].

قوله: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ﴾، الإملاق: الفقر، و ﴿مِّنْ﴾ للسببية والتعليل؛ أي: بسبب الإملاق.

قوله: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ﴾، أي: إذا أبقيتموهم؛ فإنّ الرزق لن يضيق عليكم بإبقائهم، لأن الذي يقوم بالرزق هو الله.

وبدأ هنا برزق الوالدين؛ وفي سورة الإسراء بدأ برزق الأولاد، والحكمة في ذلك أنه قال هنا: ﴿مِّنْ إِمْلَـٰقٍ ۖ﴾؛ فالإملاق حاصل، فبدأ بذكر الوالدين اللذين أملقا، وهناك قال: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ﴾ [الإسراء: ٣١]؛ فهما غنيان، لكن يخشيان الفقر، فبدأ برزق الأولاد قبل رزق الوالدين.

وتقييد النهي عن قتل الأولاد بخشية الإملاق بناءً على واقع المشركين غالبًا، فلا مفهوم له.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ﴾، لم يقل: لا تأتوا؛ لأن النهي عن القرب أبلغ من النهي عن الإتيان؛ لأن النهي عن القرب نهي عنها، وعما يكون ذريعة إليها.

قوله: ﴿مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ﴾، قيل: ما ظهر فحشه، وما خفي.

وقيل: ما أظهرتموه، وما أسررتموه، فالإظهار: فعل الزنا -والعياذ بالله- مجاهرةً، والإبطان فعله سرًّا.

وقيل: ما عظم فحشه، وما كان دون ذلك؛ لأنّ الفواحش ليست على حد

....

سواء، ولهذا جاء في الحديث: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر»[(١)]، وهذا يدل على أن الكبائر فيها أكبر وفيها ما دون ذلك.

قوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، النفس التي حرم الله: هي النفس المعصومة، وهي نفس المسلم، والذمي، والمعاهد، والمستأمن؛ بكسر الميم.

والحق: ما أثبته الشرع.

والباطل: ما نفاه الشرع.

فمن الحق الذي أثبته الشرع في قتل النفس المعصومة أن يزني المحصن فيرجم حتى يموت، أو يقتل مكافئه، أو يخرج على الجماعة، أو يقطع الطريق؛ فإنه يقتل، قال ﷺ: «لا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والتارك لدينه المفارق للجماعة»[(٢)].

وقال هناك: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، وقال قبلها: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم﴾؛ فيكون النهي عن قتل الأولاد مكررًا مرتين: مرة بذكر الخصوص، ومرة بذكر العموم.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾، المشار إليه ما سبق، والوصية بالشيء هي العهد به على وجه الاهتمام، ولهذا يقال: وصيته على فلان؛ أي: عهدت به إليه ليهتم به.

قوله: ﴿تَعْقِلُونَ﴾، العقل هنا: حسن التصرف، وأما في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣]، فمعناه: تفهمون.

وفي هذا دليلٌ على أن هذه الأمور إذا التزم بها الإنسان؛ فهو عاقل رشيد، وإذا خالفها؛ فهو سفيه ليس بعاقل.

---

(١) البخاري: كتاب الشهادات/ باب ما قيل في شهادة الزور (٢٥١١)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان الكبائر(٨٧).

(٢) البخاري: كتاب الديات/ باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ....﴾ (٦٤٨٤)، ومسلم: كتاب القسامة/ باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦).

....

وقد تضمنت هذه الآية خمس وصايا:

الأولى: توحيد الله.

الثانية: الإحسان بالوالدين.

الثالثة: أن لا نقتل أولادنا.

الرابعة: أن لا نقرب الفواحش.

الخامسة: أن لا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق.

قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِىَ أَحْسَنُ﴾، قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ﴾ هذا حماية لأموال اليتامى أن لا نقربها إلا بالخصلة التي هي أحسن.

والحسن هنا يشمل: الحسن الدنيوي، والحسن الديني.

قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾، ﴿حَتَّىٰ﴾ هنا: حرف غاية؛ فما بعدها مخالف لما قبلها.

أي: إذا بلغ أشده؛ فإننا ندفعه إليه بعد أن نختبره، وننظر في حسن تصرفه، ولا يجوز لنا أن نبقيه عندنا.

ومعنى أشده: قوته العقلية والبدنية، والخطاب هنا لأولياء اليتامى أو للحاكم.

قوله: ﴿وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾، أي: أوفوا الكيل إذا كلتم فيما يكال من الأطعمة والحبوب.

وأوفوا الميزان: إذا وزنتم فيما يوزن؛ كاللحوم مثلاً.

والأمر بالإيفاء شاملٌ لجميع ما تتعامل به مع غيرك.

قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾، أي: بالعدل، ولما كان قوله: ﴿بِٱلْقِسْطِ﴾ قد يشق بعض الأحيان؛ لأن الإنسان قد يفوته أن يوفي الكيل أو الوزن أحيانًا، أعقب ذلك بقوله: ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: طاقتها.

قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُواْ﴾، معناه: أي قول تقوله؛ فإنه يجب عليك أن تعدل فيه.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾، أي: المقول له ذا قرابة، أي: صاحب قرابة، فلا

....

تحابيه لقرابته، فتميل معه على غيره من أجله.

وقد أقسم أشرف الخلق، وسيد ولد آدم، وأعدل البشر، محمد ﷺ، وقال: «**وايم الله؛ لو أن فاطمة بنت محمد سرقت؛ لقطعت يدها**»[1].

قوله: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، قدم المتعلق؛ للاهتمام به، وعهد الله: ما عهد به إلى عباده، وهي عبادته سبحانه وتعالى والقيام بأمره.

قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، هذه الآية الكريمة فيها أربع وصايا من الخالق عز وجل:

الأولى: أن لا نقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن.

الثانية: أن نوفي الكيل والميزان بالقسط.

الثالثة: أن نعدل إذا قلنا.

الرابعة: أن نوفي بعهد الله.

والآية الأولى فيها خمس وصايا. صار الجميع تسع وصايا.

ثم قال عز وجل: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾، هذه هي الوصية العاشرة، فقوله: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي﴾ يحتمل أن المشار إليه ما سبق؛ لأنك لو تأملته وجدته محيطًا بالشرع كله؛ إما نصًا، وإما إيماءً، ويحتمل أن المراد به ما علم من دين الله؛ أي: هذا الذي جاءكم به الرسول ﷺ هو صراطي؛ أي: الطريق الموصل إليه سبحانه وتعالى.

والصراط يضاف إلى الله عز وجل، ويضاف إلى سالكه؛ ففي قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧] هنا أضيف إلى سالكه، وفي قوله تعالى: ﴿صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [الشورى: ٥٣] هنا أضيف إلى الله عز وجل؛ فإضافته إلى الله -عز وجل- لأنه موصل إليه، ولأنه هو الذي وضعه لعباده جل وعلا، وإضافته إلى سالكه؛ لأنهم هم الذين سلكوه.

---

(١) البخاري: كتاب الحدود/ باب كراهية الشفاعة في الحد إذا رفع إلى السلطان (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف (١٦٨٨).

....

قوله: ﴿مُسْتَقِيمًا﴾ هذه حال من «صراط»؛ أي: حال كونه مستقيمًا لا اعوجاج فيه فاتبعوه.

قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ السبل؛ أي: الطرق الملتوية الخارجة عنه.

وتفرق: فعل مضارع منصوب بأن بعد فاء السببية، لكن حذفت منه تاء المضارعة، وأصلها: «تتفرق»، أي: أنكم إذا اتبعتم السبل تفرقت بكم عن سبيله، وتشتتت بكم الأهواء وبعدت.

وهنا قال: ﴿السُّبُلَ﴾: جمع سبيل، وفي الطريق التي أضافها الله إلى نفسه قال: ﴿سَبِيلِهِ﴾ سبيل واحد؛ لأن سبيل الله - عز وجل - واحد، وأما ما عداه؛ فسبل متعددة، ولهذا قال النبي ﷺ: «**وستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة**»[1]؛ فالسبيل المنجي واحد، والباقية متشعبة متفرقة، ولا يرد على هذا قوله تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ﴾ [المائدة: ١٦]، لأن «سبل» في الآية الكريمة؛ وإن كانت مجموعة؛ لكن أضيفت إلى السلام فكانت منجية، ويكون المراد بها شرائع الإسلام.

وقوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أي: ذلك المذكور وصاكم لتنالوا به درجة التقوى، والالتزام بما أمر الله به ورسوله ﷺ.

قوله: قال ابن مسعود: «من أراد...» إلخ. الاستفهام هنا للحث والتشويق، واللام في قوله: «فليقرأ» للإرشاد.

قوله: «وصية محمد»، الوصية بمعنى العهد، ولا يكون العهد وصية إلا إذا كان في أمر هام.

وقوله: «محمد ﷺ، أي: رسول الله محمد بن عبدالله الهاشمي القرشي ﷺ.

قوله: «التي عليها خاتمه»، الخاتم بمعنى التوقيع.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٣٢)، (٣/ ١٤٥)، (٤/ ١٢٠)، وسنن أبي داود (٤٥٩٦)، والترمذي (٢٦٤٠)، وابن ماجه (٣٩٩١)، والحاكم وصححه (١/ ١٢٨).

....

وقوله: «وصية محمد ﷺ» ليست وصية مكتوبة مختومًا عليها؛ لأن النبي ﷺ لم يوص بشيء، ويدل لذلك: أن أبا جحيفة سأل علي بن أبي طالب: هل عهد إليكم النبي ﷺ بشيء؟ فقال: لا. والذي فلق الحبة وبرأ النسمة إلا فهمًا يؤتيه الله تعالى في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قيل: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر[1].

وقوله: «فليقرأ قوله تعالى...» إلخ الآيات سبق الكلام عليها.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: والآية الرابعة: «﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾»، الآيات على نَسَق واحد، ومنهجها واحد فـ «﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾» مثل: «﴿أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» تمامًا؛ لأنها تخرج من مِشكاة واحدة «﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾» هذا أمر من الله سبحانه وتعالى بعبادته «﴿وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾» هذا نهي عن الشرك، وهذا هو معنى ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، لأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ معناها: نفي الشرك وإثبات العبادة لله عز وجل، ومعنى «﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ﴾» أي: أخلصوا له العبادة، والعبادة لابد من معرفة معناها، هي: الذل والخضوع، هذا أصلها، في اللغة، يقال: طريق معبَّد يعنى: طريق ذلّلته الأقدام بوطئها.

وأما العبادة في الشرع فهي كما عرّفها شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأعمال والأقوال الظاهرة والباطنة»، فالعبادة هي: فعل ما شرعه الله سبحانه وتعالى. فالصلاة عبادة، والصوم عبادة، والحج عبادة، وصلة الأرحام عبادة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عبادة، والإحسان إلى اليتيم عبادة، إلى آخره، كل ما شرعه الله فهو عبادة، ليست العبادة: أن الإنسان يتقرب إلى الله بشيء من عند نفسه فهذه بدعة، وكل بدعة ضلالة، إذًا العبادة: ما شرعه الله من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

---

(١) البخاري: كتاب الديات/ باب العاقلة (٦٥٠٧).

....

بدأ بأعظم المحرَّمات فقال: «﴿أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾»، فأعظم المحرمات هو: - الشرك بالله سبحانه؛ فإذا قيل لك: ما هو أعظم المحرّمات؟، تقول: الشرك بالله عز وجل، وإذا قيل لك: ما أعظم ما نهى الله عنه؟، تقول: الشرك بالله؛ وإذا قيل: ما أعظم المنكرات؟ تقول: الشرك بالله؛ وإذا قيل: ما هو أكبر الكبائر؟، تقول: الشرك بالله، كما قال النبي ﷺ: «أكبر الكبائر: الشرك بالله».

فالشرك- والعياذ بالله- هو أخطر الذنوب، وأعظم ذنب عُصي الله به، وهو: عبادة غيره معه سبحانه وتعالى بصرف أيِّ نوعٍ من أنواع العبادة لغير الله.

«﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾» أي: وصّاكم أن تُحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ فكلمة: «﴿إِحْسَانًا﴾» منصوبٌ على فعل محذوف، تقديره: وأحسنوا بالوالدين إحسانًا؛ وهذا - كما ذكرنا في القاعدة المتقرِّرة-: أن الله سبحانه يبدأ بحقه أوّلاً، ثم يثنّي بحق الوالدين دائمًا وأبدًا، إذا أمر بتوحيده أمر أيضًا ببرِّ الوالدين، هذا في كثير من الآيات.

فهذا فيه الأمر بالإحسان إلى الوالدين بالبر، والصِّلة، والإكرام، والتوقير أحياءًا وأمواتًا: أما برُّهم في الحياة فبالإحسان إليهما بالكلام اللِّين، والتواضُع، والنفقة، والقيام بخدمتهما، والتماس رضاهما في غير معصية الله سبحانه وتعالى كما قال- تعالى-: ﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ۝ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾؛ ففي حال حياتهما يَبَرُّ بهما بأنواع البر، ولا يسيء إليهما أيَّ إساءة، لأن الإحسان إليهما بر، والإساءة إليهما عقوق، والعقوق من أكبر الكبائر بعد الشرك بالله سبحانه وتعالى؛ ففي الأمر بالإحسان إليهما نهيٌ عن الإساءة إليهما.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ﴾ هذه الوصية الثالثة، وهي: تحريم قتل الأولاد من إملاق، يعني بسبب الفقر، كانوا في الجاهلية يقتلون أولادهم خشية الفقر، يسيئون الظن بالله تعالى، كأن الرزق من عندهم، ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا كَبِيرًا﴾

....

وهنا قال: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾ إذا كنتم أنتم لا ترزقون أنفسكم فكيف ترزقون غيركم.

ومن الناس اليوم من ورِث هذه الخصْلة الذميمة فصاروا يسعون لتحديد النسل خشية الفقر، يقولون: يحصُل في الأرض انفجار سُكّاني من كثرة النسل، والموارد قليلة فيحصل مجاعات؛ فيطلبون تحديد النسل.

فالآن قضية المطالبة بتحديد النسل قائمة على قدم وساق، والدافع لهذا هو خشيتهم الفقر، وهذا لأنهم لا يؤمنون بالله سبحانه وتعالى، ولا يؤمنون أنّ الأرزاق من الله سبحانه وتعالى.

وانْخدع بهذه الدعاية بعض المسلمين، فصاروا يكرهون كثرة الأولاد، وبعضهم يحاول تنظيم النسل، وبعضهم يحاول تحديد النسل، وهناك كلام فارغ يردَّد، وكلُّ هذا باطل.

وطلب الذرية، وكثرة الذرية، وكثرة الإنجاب أمرٌ مطلوبٌ في الإسلام، لأن هذا فيه تقوية للمسلمين، وتكثير لعدد المسلمين، وأما الرزق فهو على الله سبحانه وتعالى: ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ هذه الوصية الرابعة؛ الفواحش جمع فاحشة، والمراد بها: المعصية، سُمِّيت المعصية فاحشة؛ لقبْحها وشناعتها، يعني: لا تقربوا المعاصي.

ولاحظوا قوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾ ما قال: ولا تفعلوا الفواحش، بل قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا﴾؛ ليشمل ذلك المنع من الوسائل التي تؤدِّي إلى المعاصي. حرّم المعاصي وحرّم الوسائل المؤدِّية إليها.

وكذلك حرّم قتل المعاهدين من الكفّار الذين لهم عهدٌ عند المسلمين بالذمة أو بالأمان: فالذمة وهم الذين يدفعون الجزية، أو بالأمان وهم الذين دخلوا بلادنا بالأمان، لا يجوز قتلهم والتعدّي عليهم، لأنهم في ذمّة المسلمين، وفي أمان المسلمين، لا يجوز خيانة ذمة المسلمين، ولهذا جاء في الحديث: «من قتل معاهَدًا

لَمْ يَرِحْ رائحة الجنة»[١].

﴿إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ أي: إلَّا بإحدى هذه الثلاث: قصاص أو زنا أو ردة؛ هذا قتل بالحق شرعه الله سبحانه وتعالى، ما عدا ذلك فلا يجوز قتل المسلم، قال تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ وقتل النفس من أعظم الكبائر بعد الشرك بالله سبحانه وتعالى.

ثم قال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ من الكبائر المحرّمات: أكل أموال اليتامى بغير حق.

واليتيم هو: الصغير الذي مات أبوه؛ هذا هو اليتيم؛ أما إذا بلغ فإنه يخرُج عن حدِّ اليُتم، وكذلك لو ماتتْ أمه، وأبوه حيٌّ لا يسمى يتيمًا، لأن أباه يقوم عليه ويُنفق عليه ويربيه، ويتعاهده، ويحميه؛ فاليتم هو: فُقدان الآباء في وقت الصغر.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ إلَّا بشيء فيه مصلحة لليتيم؛ كأن تتاجر فيه؛ من أجل أن يربح وينمو.

﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ﴾ هذا من الوصايا الربّانية؛ للإنسان الذي يبيع على الناس السِّلع بالوزن أو بالكيل، أو بالأكياس، أو بالصناديق يجب عليه أن لا يبخسها، بل يوفيها بالمكيال والميزان.

المكيال للحبوب مثلًا والأشياء التي تُكال؛ والميزان للأشياء المائعة التي توزن؛ فالمعيار الشرعي هو المكيال أو الميزان.

فقوله: ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ﴾ يعني: بالعدل؛ فالقسط معناه: العدل، بأن تزِنَ بالميزان العادل، وتكيل بالمكيال العادل الذي لا يظلم البائع ولا يظلم المشتري.

﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ يعني: لو حصل أن الإنسان اجتهد في أن يوفي

---

(١) البخاري (١٠/٤٢٣)، باب: إثم من قتل معاهدًا...، وابن ماجه: (٨/١٤٦)، باب: من قتل معاهدًا.

....

الحق وأن يوفي الكيل، ولكن حصل نقص يسير لم يتعمّده، فهذا لا يؤاخذه الله عليه ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ أنت اعدل بقدر ما تستطيع، فإذا حصل شيءٌ لا تستطيعه، ولا تعلم عنه فإنك لا تؤاخذ لأن الله لا يكلِّف نفسًا إلَّا وسعها، إنما الكلام في الإنسان الذي يتعمّد الخديعة، ويتعمّد البخس، ويتعمّد النقص، لأن العدل تمامًا لا أحد يستطيعه إلَّا الله سبحانه وتعالى، الإنسان يعجز، ولكن الله عز وجل يعفو عمّا لا يستطيعه الإنسان ﴿لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ لمّا أمر بالوفاء بالكيل والوزن أمر بالوفاء بالكلام أيضًا؛ إذا تكلّمت في شخص فعليك بالعدل لا تمدحه بشيء ما هو فيه. ولا تذمُّه بشيء ما هو فيه، بل الزم العدل، قل ما تعلم فيه من الصفات، لا تمدحه مدحًا لا يستحقُّه، ولا تذمُّه ذمًّا لا يستحقُّه؛ وإذا كنت لا تعرفه فقل: لا أدري، لا أعرفه، لا تدخل نفسك في شيء لا تعرفه.

فالعدل مطلوب، قامتْ به السماوات والأرض. العدل مطلوب مع العدو، ومع الصديق، ومع القريب، ومع البعيد، ومع كلِّ أحد؛ لا يجوز للإنسان أن يتبع الهوى وشهوات النفس ويتكلّم على حسب رغبته، أو يكتم الشهادة على حسب رغبته.

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا﴾ قلتم بالتزكية، قلتم في الشهادة، قلتم في التجريح- تجريح الرواة أو تعديلهم-، ﴿فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ يعني: ولو كان المتكلّم فيه قريبًا لك، لا تحملك قرابته والشفقة عليه أن تحيد في حقه، بل قل فيه الحق، واشهد عليه بالحق؛ واشهد بالحق ولو كان لعدوك وخصمك، هذا هو العدل الصحيح.

﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ وهذا من الوصايا العظمية: الوفاء بعهد الله عز وجل؛ والوفاء بعهد الله المراد به: الوفاء بالمواثيق التي تكون بين العبد وبين ربه، والتي تكون بين الناس بعضهم مع بعض؛ العهد الذي بينك وبين الله أن تعبده ولا تشرك به شيئًا ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ هذا عهدٌ بينك وبين الله، تعاهده أن لا تعبد إلَّا إياه، ولا تستعين إلَّا به؛ فالعهد الذي بين العبد وبين ربه هو: أن يقوم

....

بعبادة الله سبحانه وتعالى.

ثم ختم هذه الوصايا بالوصية العاشرة العظيمة فقال جل وعلا:

﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ﴾ ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي﴾: الصراط في اللغة معناه: الطريق؛ والمراد بالصراط هنا: كتاب الله سبحانه وتعالى وسنة رسوله ﷺ، لأنهما طريقٌ إلى الجنة، أي: ما أوحيته إليكم بواسطة رسولي من الأوامر والنواهي في هذا القرآن العظيم وفي السنة النبوية هذا هو الصراط.

فالذي يسأل عن الطريق إلى الله، نقول هو كتاب الله، وكذلك سنة النبي ﷺ لأنها تابعة للقرآن، ومفسِّرة للقرآن؛ فالسنة داخلة في كتاب الله عز وجل.

﴿مُسۡتَقِيمٗاۖ﴾ نُصب على الحال؛ والمستقيم هو: المعتدل، فطريق الله عز وجل معتدل، ليس فيه ميلان، وليس فيه منعطفَات، وليس فيه غموض، طريق واضح يوصلك إلى الجنة، تمشي فيه على نور، وعلى برهان، وعلى طريق واضح.

وأضاف ﴿ٱلصِّرَٰطَ﴾ إليه سبحانه وتعالى إضافة تشريف وتكريم؛ ثم وصفه بأنه مستقيم، يعني: معتدلٌ بخلاف الطرق الأخرى فإنها معوجَّة ومتعرِّجة، تضلِّل صاحبها؛ لأن هناك طرقًا كثيرة للشياطين؛ شياطين الإنس والجن، ومذاهب، وهناك جماعات متعدّدة، هناك.. وهناك..، لكن طريق الله واحدة، ما فيها تعدُّد، ولا فيها انقسام.

ولهذا وحّد صراطه وعدّد السبل قال: ﴿وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ﴾ لأن الطرق والسبل التي غير القرآن وغير الشريعة طرقٌ كثيرة ليس لها حصر، كل صاحب مذهب له طريقة، وكل صاحب نِحْلة له طريق، وكل جماعة من الضُّلّال لهم طريق، وكل مَن اخْتلف عن الحق صار له طريق غير طريق الآخر؛ وهذه علامة أهل الضّلال أنهم لا يجتمعون على شيء، ولا يتوافقون أبدًا، بخلاف أهل الحق فإنهم يتوافقون، لماذا؟ لأنهم يسيرون على طريق الله سبحانه وتعالى.

❁ ❁ ❁

(٦) وعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنْتُ رَدِيفَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى حِمَارٍ فَقَالَ لِي: «يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَنْ لَا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا أُبَشِّرُ النَّاسَ؟ قَالَ: «لَا تُبَشِّرْهُمْ فَيَتَّكِلُوا» أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ.

---

(٦) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن معاذ -رضي الله عنه- قال: كنت رديف النبي ﷺ على حمار فقال. . .

في الحديث تواضع النبي ﷺ، وحسن خلقه من وجوه:

كونه راكبًا على حمار.

وكون له رديف.

ومحادثته لمعاذ رديفه.

بخلاف ما يفعله بعض المتكبرين.

وفيه: إخراج الفائدة والحكم بصيغة السؤال، وهذا له وقع في قلب السامع، ويكون متهيئًا ومتحمسًا للجواب، بخلاف ما لو ذكر الحكم ابتداء، فربما لم ينتبه السامع.

وقوله: الله ورسوله أعلم، فيه حسن خلق معاذ، حيث لم يتكلف ما لا يعلمه، وهذا هو الواجب أن يقول: لا أدري، أو الله ورسوله أعلم، في حال حياته، وبعد وفاته يقول: الله أعلم، أو لا أدري، ولا يقول: الله ورسوله أعلم، لأن النبي ﷺ لا يدري ما أحدث الناس بعده كما في حديث الحوض حين يقول: «أصحابي أصحابي» فيقال له: إنك لا تدري ما أحدث الناس بعدك[1]. اهـ.

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٦)، ومسلم (طرف حديث ٢٤٦).

....

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «رديف» بمعنى: رادف؛ أي: راكب معه خلفه.

قوله: «على حمار»، أي: أهلي؛ لأن الوحشي لا يركب.

قوله: «أتدري»، أي: أتعلم.

قوله: «ما حق الله على العباد؟»، أي: ما أوجبه عليهم، وما يجب أن يعاملوه به، وألقاه على معاذ بصيغة السؤال؛ ليكون أشد حضورًا لقلبه حتى يفهم ما يقول ﷺ.

قوله: «وما حق العباد على الله؟»، أي: ما يجب أن يعاملهم به، والعباد لم يوجبوا شيئًا، بل الله أوجبه على نفسه فضلاً منه على عباده، قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ٥٤].

فأوجب سبحانه على نفسه أن يرحم من عمل سوءًا بجهالة؛ أي: بسفه وعدم حسن تصرف ثم تاب من بعد ذلك وأصلح.

ومعنى كتب؛ أي: أوجب.

قوله: «قلت: الله ورسوله أعلم»، لفظ الجلالة الله: مبتدأ، «رسوله»: معطوف عليه، وأعلم: خبر المبتدأ.

والمعنى: أعلم من غيرهما، وأعلم مني أيضًا.

قوله: «يعبدوه»، أي: يتذللوا له بالطاعة.

قوله: «ولا يشركوا به شيئًا»، أي: في عبادته وما يختص به، وشيئًا نكرة في سياق النفي؛ فتعم كل شيء لا رسولاً ولا ملكًا ولا وليًا ولا غيرهم.

وقوله: «وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، وهذا الحق تفضل الله به على عباده، ولم يوجبه عليه أحد، ولا تظن أن قوله: «من لا يشرك به شيئًا» أنه مجرد عن العبادة؛ لأن التقدير: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ولم يذكر قوله: «من يعبده»؛ لأنه مفهوم من قوله: «وحق العباد»، ومن كان وصفه العبودية؛

....

فلابد أن يكون عابدًا.

ومن لم يعبد الله ولم يشرك به شيئًا؛ هل يعذب؟

الجواب: نعم، يعذب؛ لأن الكلام فيه حذف، وتقديره: من يعبده ولا يشرك به شيئًا، ويدل لهذا أمران:

الأول: قوله: «حق العباد»، ومن كان وصفه العبودية؛ فلابد أن يكون عابدًا.

الثاني: أن هذا في مقابل قوله فيما تقدم: «أن يعبدوه، ولا يشركوا به شيئًا»؛ فعلم أن المراد بقوله: «لا يشركوا به شيئًا»؛ أي: في العبادة.

قوله: «أفلا أبشر الناس»، أي: أأسكت فلا أبشر الناس؟ ومثل هذا التركيب: الهمزة ثم حرف العطف ثم الجملة لعلماء النحو فيه قولان:

الأول: أنَّ بين الهمزة وحرف العطف محذوفًا يقدر بما يناسب المقام، وتقديره هنا: أأسكت فلا أبشر الناس؟

الثاني: أنه لا شيء محذوف، لكن هنا تقديم وتأخير، وتقديره: فألا أبشر؟ فالجملة معطوفة على ما سبق، وموضع الفاء سابق على الهمزة؛ فالأصل: فألا أبشر الناس؟ لكن لما كان مثل هذا التركيب ركيكًا، وهمزة الاستفهام لها الصدارة؛ قدمت على حرف العطف.

والبشارة: هي الإخبار بما يسر.

وقد تستعمل في الإخبار بما يضر، ومنه قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الانشقاق: ٢٤]، لكن الأكثر الأول.

قوله: «لا تبشرهم»، أي: لا تخبرهم، ولا ناهية.

ومعنى الحديث: أن الله لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، وأن المعاصي تكون مغفورة بتحقيق التوحيد، ونهى ﷺ عن إخبارهم؛ لئلا يعتمدوا على هذه البشرى دون تحقيق مقتضاها؛ لأن تحقيق التوحيد يستلزم اجتناب المعاصي؛ لأن المعاصي صادرة عن الهوى، وهذا نوع من الشرك، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ﴾ [الجاثية: ٢٣].

«فيه مَسائِلُ:

الأُولى»: الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ الجِنِّ وَالإِنْسِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ العِبَادَةَ هيَ التَّوْحِيدُ؛ لأَنَّ الخُصُومَةَ فِيهِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ مَنْ لَمْ يَأْتِ بِهِ لَمْ يَعْبُدِ اللهَ، فَفِيهِ مَعْنى قَوْلِهِ: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون: ٣].

«الرَّابِعَةُ»: الحِكْمَةُ في إِرْسَالِ الرُّسُلِ.

ومناسبة الحديث للترجمة: فضيلة التوحيد، وأنه مانع من عذاب الله.

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة من خلق الجن والإنس، أخذها رحمه الله من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ فالحكمة هي عبادة الله لا أن يتمتعوا بالمآكل والمشارب والمناكح.

الثانية: أن العبادة هي التوحيد، أي: أن العبادة مبنية على التوحيد؛ فكل عبادة لا توحيد فيها ليست بعبادة.

وهذا مطابق تمامًا لما استنبطه المؤلف -رحمه الله- من أن العبادة هي التوحيد؛ فكل عبادة لا تبنى على التوحيد فهي باطلة، قال ﷺ: «قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري؛ تركته وشركه»[(١)].

وقوله: «لأن الخصومة فيه»، أي: في التوحيد بين الرسول ﷺ وقريش.

وقوله في الثالثة: ففيه معنى قوله: ﴿وَلَآ أَنتُمْ عَـٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾، لستم عابدين عبادتي؛ لأن عبادتكم مبنية على الشرك، فليست بعبادة لله تعالى.

الرابعة: الحكمة في إرسال الرسل، أخذها رحمه الله تعالى من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

فالحكمة هي: الدعوة إلى عبادة الله وحده، واجتناب عبادة الطاغوت.

---

(١) مسلم: كتاب الزهد/باب من أشرك في عمله غير الله (٢٩٨٥).

«الخامسة»: أَنَّ الرِّسَالَةَ عَمَّتْ كُلَّ أُمَّةٍ.

«السادسة»: أَنَّ دِينَ الأَنْبِيَاءِ وَاحِدٌ.

«السابعة»: المَسْأَلَةُ الكَبِيرَةُ أَنَّ عِبَادَةَ اللهِ لا تَحْصُلُ إِلَّا بِالكُفْرِ بِالطَّاغُوتِ؛ فَفِيهِ مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ﴾ الآية. [البقرة: ٢٥٦]

«الثامنة»: أَنَّ الطَّاغُوتَ عَامٌّ فِي كُلِّ مَا عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ.

«التاسعة»: عِظَمُ شَأْنِ ثَلَاثِ الآيَاتِ المُحْكَمَاتِ فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ [١٥١-١٥٣]عِنْدَ السَّلَفِ. وفِيهَا عَشْرُ مَسَائِلَ، أَوَّلها النَّهْيُ عَنِ الشِّرْكِ.

«العاشرة»: الآيَاتُ المُحْكَمَاتُ فِي سُورَةِ الإِسْرَاءِ، وفِيها ثَمَانِيَ عَشْرَةَ

الخامسة: أن الرسالة عمت كل أمة، أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

السادسة: أن دين الأنبياء واحد، أخذها من قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥].

السابعة: المسألة الكبيرة أن عبادة الله لا تحصل إلا بالكفر بالطاغوت.

ودليله قوله تعالى: ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، فمن عبَدَ الله ولم يكفر بالطاغوت؛ فليس بموحد، ولهذا جعل المؤلف رحمه الله هذه المسألة كبيرة؛ لأن كثيرًا من المسلمين جهلها في زمانه وفي زماننا الآن.

الثامنة: أن الطاغوت عام في كل ما عبد من دون الله. فكل ما عبد من دون الله، فهو طاغوت.

التاسعة: عظم شأن الثلاث آيات المحكمات في سورة الأنعام، المحكمات؛ أي: التي ليس فيها نسخ، أخذ ذلك من قول ابن مسعود رضي الله عنه.

العاشرة: الآيات المحكمات في سورة الإسراء. وهي قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾

مَسْأَلَةً، بَدَأَهَا اللهُ بِقَوْلِهِ: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾ [الإسراء: ٢٢]؛ وَخَتَمَهَا بِقَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، وَنَبَّهَنَا اللهُ سُبْحَانَهُ عَلَى عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ المَسَائِلِ بِقَوْلِهِ: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾ [الإسراء: ٣٩].

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: آيَةُ سُورَةِ النِّسَاءِ الَّتِي تُسَمَّى آيَةَ الحُقُوقِ العَشْرَةِ، بَدَأَهَا اللهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النساء: ٣٦].

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: التَّنْبِيهُ عَلَى وَصِيَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ عِنْدَ مَوْتِهِ.

﴿لَا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣]، وفيها ثماني عشرة مسألة بدأها بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، وختمها بقوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾.

وقد نبهنا الله - سبحانه - على عظم شأن هذه المسائل بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مِمَّا أَوْحَىٰ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ الْحِكْمَةِ﴾.

فبدأها الله بالنهي عن الشرك بقوله تعالى: ﴿لَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا﴾، والقاعد ليس قائمًا؛ لأنه لا خير لمن أشرك بالله، مذمومًا عند الله وعند أوليائه، مخذولاً لا ينتصر في الدنيا ولا في الآخرة.

وختمها بقوله: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ٣٩]، فهذه عقوبته عندما يلقى في النار كلٌّ يلومه ويدحره فيندحر والعياذ بالله.

الحادية عشرة: آية سورة النساء التي تسمى آية الحقوق العشرة، بدأها بقوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فأحق الحقوق حق الله، ولا تنفع الحقوق إلا به فبدئت هذه الحقوق به.

الثانية عشرة: التنبيه على وصية رسول الله ﷺ عند موته. وذلك من حديث ابن مسعود رضي الله عنه، ولكن النبي ﷺ لم يوص بها حقيقةً، بل أشار إلى أننا إذا

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ حَقِّ اللهِ تَعَالَى عَلَيْنَا.
«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ حَقِّ العِبَادِ عَلَيْهِ إِذَا أَدَّوْا حَقَّهُ.
«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ هَذِهِ المَسْأَلَةَ لايَعْرِفُهَا أَكْثَرُ الصَّحَابَةِ.
«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ»: جَوَازُ كِتْمَانِ العِلْمِ لِلْمَصْلَحَةِ.
«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: اسْتِحْبَابُ بِشَارَةِ المُسْلِمِ بِمَا يَسُرُّهُ.

تمسكنا بكتاب الله؛ فلن نضلّ بعده، ومن أعظم ما جاء به كتاب الله قوله تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام: ١٥١].

الثالثة عشرة: معرفة حق الله علينا. وذلك بأن نعبده ولا نشرك به شيئًا.

الرابعة عشرة: معرفة حق العباد عليه إذا أدوا حقّه. وذلك بأن لا يعذّب من لا يشرك به شيئًا، أما من أشرك؛ فإنه حقيقٌ أن يعذّب.

الخامسة عشرة: أن هذه المسألة لا يعرفها أكثر الصحابة. وذلك أن معاذًا أخبر بها تأثمًا، أي: خروجًا من إثم الكتمان عند موته بعد أن مات كثيرٌ من الصحابة؛ وكأنه رضي الله عنه علم أن النبي ﷺ كان يخشى أن يفتتن الناس بها ويتكلوا، ولم يرد ﷺ كتمها مطلقًا؛ لأنه لو أراد ذلك لم يخبر بها معاذًا ولا غيره.

السادسة عشرة: جواز كتمان العلم للمصلحة. هذه ليست على إطلاقها؛ إذ إن كتمان العلم على سبيل الإطلاق لا يجوز لأنه ليس بمصلحة، ولهذا أخبر النبي ﷺ معاذًا ولم يكتم ذلك مطلقًا، وأما كتمان العلم في بعض الأحوال، أو عن بعض الأشخاص لا على سبيل الإطلاق؛ فجائزٌ للمصلحة؛ كما كتم النبي ﷺ ذلك عن بقية الصحابة خشية أن يتكلوا عليه، وقال لمعاذ: «لا تبشّرهم فيتّكلوا».

ونظير هذا الحديث قوله ﷺ لأبي هريرة: **«بشّر الناس أن من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه دخل الجنّة»**(١).

السابعة عشرة: استحباب بشارة المسلم بما يسره. لقوله: «أفلا أبشّر الناس؟»،

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على أن من مات على التوحيد دخل الجنة (٣١).

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ»: الخَوْفُ مِنَ الاتِّكَالِ عَلَى سَعَةِ رَحْمَةِ اللهِ.
«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ»: قَوْلُ المَسْئُولِ عَمَّا لا يَعْلَمُ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.
«العشرون»: جَوَازُ تَخْصِيصِ بَعْضِ النَّاسِ بِالْعِلْمِ دُونَ بَعْضٍ.
«الحَادِيَةُ وَالْعِشْرُونَ»: تَواضُعُهُ ﷺ لِرُكُوبِ الحِمَارِ مَعَ الإِرْدَافِ عَلَيْهِ.

وهذه من أحسن الفوائد.

الثامنة عشرة: الخوف من الاتّكال على سعة رحمة الله. وذلك لقوله: «لا تبشّرهم فيتكلوا»، لأن الاتّكال على رحمة الله يسبب مفسدة عظيمة هي الأمن من مكر الله.

وكذلك القنوط من رحمة الله يبعد الإنسان من التوبة ويسبب اليأس من رحمة الله.

التاسعة عشرة: قول المسئول عما لا يعلم: الله ورسوله أعلم، وذلك لإقرار النبي ﷺ معاذًا لما قالها، ولم ينكر النبي ﷺ على معاذٍ، حيث عطف رسول الله ﷺ على الله بالواو، وأنكر على من قال: «ما شاء الله وشئت»، وقال: «أجعلتني لله ندًا؟! بل ما شاء الله وحده»[1].

فيُقال: إن الرسول ﷺ عنده من العلوم الشرعية ما ليس عند القائل، ولهذا لم ينكر الرسول ﷺ على معاذ.

بخلاف العلوم الكونية القدرية؛ فالرسول ﷺ ليس عنده علم منها.

فلو قيل: هل يحرم صوم العيدين؟

جاز أن نقول: الله ورسوله أعلم، ولهذا كان الصحابة إذا أشكلت عليهم المسائل ذهبوا إلى رسول الله ﷺ فيبينها لهم، ولو قيل: هل يتوقع نزول مطر في هذا الشهر؟ لم يجز أن نقول: الله ورسوله أعلم، لأنه من العلوم الكونية.

العشرون: جواز تخصيص بعض الناس بالعلم دون بعض. وذلك لأن النبي ﷺ خص هذا العلم بمعاذ دون أبي بكر وعمر وعثمان وعلي.

الحادية والعشرون: تواضعه ﷺ لركوب الحمار مع الإرداف عليه.

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢١٤)، وابن ماجة: كتاب الكفارات/ باب النهي أن يقال: ما شاء الله وشئت، وقال أحمد شاكر، إسناده صحيح (١٨٣٩).

الثانية والعشرون: جَوَازُ الإِرْدَافِ عَلَى الدَّابَّةِ.

الثالثة والعشرون: فَضِيلَةُ مُعَاذِ بنِ جَبَلٍ.

الرابعة والعشرون: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ المَسْأَلَةِ.

النبي ﷺ أشرف الخلق جاهًا، ومع ذلك هو أشد الناس تواضعًا.

الثانية والعشرون: جواز الإرداف على الدابة، وذلك أن النبي ﷺ أردف معاذًا، لكن يشترط للإرداف أن لا يشق على الدابة، فإن شق؛ لم يجز ذلك.

الثالثة والعشرون: عظم شأن هذه المسألة. حيث أخبر النبي ﷺ معاذًا، وجعلها من الأمور التي يبشر بها.

الرابعة والعشرون: فضيلة معاذ رضي الله عنه. وذلك أن النبي ﷺ خصه بهذا العلم، وأردفه معه على الحمار.

ثالثًا. قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «قال: كنت رديف النبي ﷺ»، يعني: راكبًا معه. «على حمار» هذا فيه: تواضع النبي ﷺ وأنه يركب الحمار، مع أنه أشرف الخلق على الإطلاق، وتواضعه- أيضًا- ﷺ في إرداف صاحبه معه، وفيه: جواز الإرداف على الدّابّة إذا كانت تُطيق ذلك، ولا يشق عليها.

«فقال لي: يا معاذ» أراد النبي ﷺ أن يعلمه هذا الحكم العظيم، ولكنه ﷺ أراد أن يُلْقِيَه إليه بطريقة السؤال والجواب، ليكون ذلك أَدْعى إلى الانتباه والاهتمام، فإن التعليم عن طريق السؤال والجواب من أعظم الطرق الناجحة في تعليم العلم، لأنك لما تسأل الطالب عن شيء يجهله ثم يتطلع إلى الجواب، أحسن من أن تلقي إليه المسألة ابتداءً، وهو على غير انتباه واستعداد لاستقبالها، وهذه طريقة من طرق التعليم، وهي طريقة نبويّة، استعملها النبي ﷺ في كثير من الأحوال.

«أتدري ما حق الله على العباد، وما حق العباد على الله» هذه مسألة عظيمة.

قال معاذ: «قلت: الله ورسوله أعلم» هذا فيه: تأدب طالب العلم في أنه إذا سُئل عن شيء وهو لا يعرفه، أن يقول: الله ورسوله أعلم، ولا يدخل ويَتَخَرَّص في شيء لا يعرفه، بل يَكِلُ العلم إلى عالِمه، هذه أيضًا من طرق التعلُّم الناجحة،

....

هي: أن الإنسان إذا سُئل عن علم لا يعلمه أو عن مسألة وهو لا يعرفها، لا يحمله الأنفة بأن لا يقول: لا أدري، بل يقول: لا أدري، أو يقول: الله أعلم.

ولا غَضَاضة عليه في ذلك، بل هذا يدل على فضله وورعه وأدبه مع الله سبحانه وتعالى، وأدبه مع المعلم.

فلما تهيّأ معاذ للجواب وتنبّه وتطلع؛ ألقى عليه النبي ﷺ الجواب، فقال: «حق الله على العباد: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» هذا هو حق الله سبحانه وتعالى على عباده، من أولهم إلى آخرهم، كما في الآية التي في مطلع الباب:

وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، هذا هو حق الله على العباد، وهو أول الحقوق، وآكد الحقوق، لأن الإنسان منّا عليه حقوق، أعظمها: حق الله، ثم حق الوالدين، ثم حق الأقارب، ثم حق اليتامى والمساكين والجيران والمماليك، كما في قوله-تعالى-: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ

وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ

مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ﴾ فهذه عشرة حقوق، ذكرها الله -سبحانه- في هذه الآية، أولها: حق الله سبحانه وتعالى وكما في الآيات في سورة الإسراء التي ذكر الله فيها خمسة عشر حقًّا، أولها: حق الله في قوله تعالى: ، ثم جاء بحق الوالدين ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ ، إلى قوله:

مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ

ختم الآيات بما بدأها به وهو حق الله على عباده أن يعبدوه، ولا يكفي هذا، أن يعبدوه، بل ولا يشركوا به شيئًا، لأن العبادة لا تكون عبادة إلَّا إذا خَلَصَتْ من الشرك، أما إذا خالطها شرك فإنها لا تكون عبادة لله، كما قال تعالى:

يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ ، لأن الشرك يُبطل العبادة، ويُبطل سائر الأعمال، ولا يصحُّ معه عمل، مهما كلّف الإنسان نفسه بالعبادات، إذا كان عنده شيء من الشرك الأكبر فإن عبادته تكون هباءً منثورًا:

يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ ، قال تعالى:

....

ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ ، وقال تعالى لما ذكر الأنبياء في سورة الأنعام: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ إلى آخر الأنبياء الذين ذكرهم الله، قال - جلّ وعلا-: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ ، فالشرك يُحبط الأعمال، ولهذا كثيرًا ما يأتي الأمر بالعبادة مقرونًا بالنهي عن الشرك: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ «أن يعبدوه ولا يُشركوا به شيئًا»، وهذا هو معنى لا إله إلّا الله، لأن لا إله إلّا الله تشتمل على النفي وعلى الإثبات، النفي: نفي الشرك، والإثبات: إثبات التّوحيد.

«أن يعبدوه» والعبادة أيضًا كما أنها لا تكون عبادة إلّا مع التّوحيد، كذلك لا تكون عبادة إلّا إذا كانت موافقة لما شرعه النبي ﷺ.

هكذا تكون العبادة، لابد أن تكون العبادة خالصة لوجه الله عز وجل، ليس فيها شرك، وأن تكون أيضًا على وفق ما جاء به رسول الله ﷺ تمامًا ليس فيها بدعة.

«وحق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، هذا الحق للعباد على الله ليس بحق واجب على الله، وإنما هو تفضُّل منه سبحانه وتعالى، لأن الله لا يجب عليه حق لأحد، ولا أحد يوجب على الله شيئًا، كما هو مذهب المعتزلة، فهم الذين يرون أن الله يجب عليه أن يعمل كذا، يوجبون على الله بعقولهم، أما أهل السنة والجماعة فيقولون: الله سبحانه وتعالى ليس عليه حق واجب لخلقه، وإنما هو شيء تفضّل به سبحانه وتكرّم به، كما قال تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ ، هذا حق تفضل به، ونظم ذلك الشاعر بقوله:

ما للعباد عليه حق واجب ... كلا ولا سعي لديه ضائع
إن عُذِّبوا فبعدله أو نُعِّموا ... فبفضله وهو الكريم الواسع

فمعنى «حق العباد على الله» يعني: الحق الذي تفضل الله تعالى به، وأوجبه على نفسه، من دون أن يوجبه عليه أحد من خلقه، بل هو الذي أوجبه على نفسه،

....

تكرّمًا منه بموجب وعده الكريم الذي لا يُخلفه- سبحانه- ﴿وَعْدَ ٱللَّهِ لَا يُخْلِفُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ﴾.

«أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» فدلّ هذا على أن من سَلِم من الشرك الأكبر والأصغر فإنه يسلم من العذاب، وهذا إذا جَمعته مع النصوص الأخرى التي جاءت بالوعيد على العُصاة والفسقة، فإنك تقول: العُصاة من الموحّدين الذين لم يشركوا بالله شيئًا، ولكن عندهم ذنوب دون الشرك من سرقة، أو زنا، أو شرب خمر، أو غيبة، أو نميمة أو، إلى آخره، فهذه ذنوب يستحق أصحابها العذاب، ولكن هي تحت مشيئة الله إن شاء الله غفر لهم من دون عذاب وأدخلهم الجنة، وإن شاء عذبهم بقدر ذنوبهم، ثم يخرجهم بتوحيدهم، ويدخلهم الجنة.

فالموحّدون مآلهم إلى الجنة، إما ابتداءً وإما انتهاءً، وقد جاء في الأحاديث أنه يُخرج من النار من في قلبه أدنى مثقال حبة من خردل من إيمان، ويُخرج من النار أُناس كالفحم، قد امتحشوا، ثم يُنبت الله أجسامهم بأن يُلقوا في نهر على باب الجنة، يُقال له: نهر الحياة، فتنبت أجسامهم، ثم يدخلون الجنة، ويُخلّدون فيها.

فأهل التّوحيد مآلهم إلى الجنة، حتى ولو عذبوا في النار فإنهم لا يخلدون فيها وذلك بسبب التّوحيد، أما الكفار والمشركون والمنافقون النفاق الأكبر، فهؤلاء مآلهم النار خالدين مخلّدين فيها، لا يدخلون الجنة أبدًا ﴿لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ﴾.

ولما قال النبي ﷺ: «حق العباد على الله: أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا» فمعاذ استبشر بهذا الحديث الشريف، وفرح به غاية الفرح، وقال: يا رسول الله ألا أبشر الناس؟، قال النبي ﷺ: «لا تبشرهم فيَتّكِلُوا»، يعني: أن النبي ﷺ خشي إذا سمعه الناس، فإنهم يتّكِلون على جانب الرجاء ويتساهلون في المعاصي، ويقولون: ما دمنا موحّدين فالمعاصي لا تضرنا، لأن الرسول يقول: «أن لا يعذب من لا يشرك به شيئًا»، ونحن والحمد لله لسنا مشركين، ونحن لا نعبد إلّا الله، فيتساهلون في المعاصي، فيغلّبون جانب الرجاء على جانب الخوف.

....

فهذا من الحكمة؛ أن العلم لا يوضع إلَّا في مواضعه، فإذا خيف من إلقاء المسائل على بعض الناس محذور أكبر، فإنهم تُكتم عنهم بعض المسائل من أجل الشفقة بهم، ورحمتهم من الوقوع في المحذور، فإن النبي ﷺ أمر بكتمان هذا النوع من العلم عن عامة الناس، وأخبر به معاذًا، لأن معاذًا من الجهابذة، ومن خواص العلماء.

فدلَّ على أنه يجوز كتمان العلم للمصلحة، إذا كان يترتب على إيضاح بعض المسائل للناس محذور: بأن يفهموا خطأً، أو يَتَّكِلوا على ما سمعوا، فإنهم لا يُخبَرون بذلك، وإنما تلقى هذه المسائل على خواص العلماء الذين لا يُخشى منهم الوقوع في المحذور، فأخذ العلماء من هذا الحديث جواز كتمان العلم للمصلحة.

وإنما أخبر معاذ رضي الله عنه بهذا الحديث عند وفاته، خشية أن يموت وعنده شيء من الأحاديث لم يبلِّغه للناس.

فهذا الباب اشتمل على فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: بيان تفسير التَّوحيد، وأنه عبادة الله وحده لا شريك له، هذا هو التَّوحيد، لأن كل الآيات التي في الباب تأمر بالعبادة وتنهى عن الشرك: "﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾"، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾، ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾، ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، فهذه الآيات تفسر التَّوحيد بأنه العبادة.

الفائدة الثانية: أن الرسل بعثوا بالدعوة إلى توحيد العبادة، لا بالدعوة إلى توحيد الربوبية، فليس هناك آية واحدة قالت: أقروا بالربوبية، أو أَقِرُّوا أن الله هو الخالق الرازق، لماذا؟ لأن هذا موجود في الناس.

فهم مقرُّون بأن الله هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، المدبِّر، فتوحيد الرُّبوبية موجود في غالب البشر، لأن الفِطَر تقتضيه، لأن العاقل من الناس يعلم أن هذا الخلق لابد له من خالق: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ﴾، ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالآيات

....

ما جاءت تطالب الناس بالإقرار بتوحيد الرّبوبية، لأن هذا موجود، والإقرار به لا يكفي في الدخول في الإسلام، وإنما جاءت كلها على نَسَق واحد تأمر بالعبادة، وإنما تذكر توحيد الربوبية للاستدلال به على توحيد الألوهية.

الفائدة الثالثة: في قوله: «﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾» هذه الآية فيها: أن الحكمة من خلق الجن والإنس هي عبادة الله سبحانه وتعالى، الآية الثانية: «﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾» فيها: أن الرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم جاءوا بالأمر بعبادة الله، وترك عبادة ما سواه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾، فدلّ على أن التّوحيد هو الذي بُعثت به الرسل، كما أنه هو الذي خلق الخلق من أجله.

الفائدة الرابعة: أن العبادة لا تنفع مع الشرك، فمن أشرك بالله شيئًا فإنه لم يُؤَدِّ حق الله سبحانه وتعالى، فالذي لا يَعبد الله مطلقًا كالملاحدة، وكذلك الذي يعبد الله مع الشرك، كلهم سواء، الملحد والمشرك، إنما الذي يعبد الله حقًّا هو الذي يعبده ولا يشرك به شيئًا، هذا هو الذي يعبد الله حق عبادته وهو الذي تنفعه عبادته.



٧) ٢-بَابٌ

فَضْلُ التَّوْحِيدِ وَمَا يُكَفِّرُ مِنَ الذُّنُوبِ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ الآية [الأنعام: ٨٢].

---

٧) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:

أ- أراد المؤلف به بيان شيء من فضل التوحيد، وأنه أعظم الأعمال في تكفير الذنوب، لأنه أساس الأعمال وأصلها، والأعمال لا تصح إلا بعد وجوده.

وذكر ذلك حتى يعرفه المؤمن، ويكون أكثر إقبالاً عليه وتشوقًا إليه.

قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾.

«آمنوا»: أي: وحدوا الله، وأخلصوا العبادة، وآمنوا أنه إلههم الحق.

«ولم يلبسوا»: أي: لم يخلطوا.

«إيمانهم»: توحيدهم.

«بظلم»: بشرك، بل أخلصوا له العبادة سبحانه.

«لهم الأمن»: أي: الأمن الكامل والهداية الكاملة، إذا كان إيمانهم سليمًا من الظلم كله دقه وجله، من الشرك، وما دونه من المعاصي، وظلم العباد.

ولما نزلت هذه الآية، شق ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، وجاءوا إليه، وقالوا: أينا لم يظلم نفسه، ظنوا أنه أراد جنس الظلم، أي: جنس المعاصي- فقال: «ألم تسمعوا قول العبد الصالح: إن الشرك لظلم عظيم»[(١)].

«فالمراد من الظلم هنا»: الشرك، بخلاف المشرك، فلا أمن له، بل إلى النار، والمؤمن إذا سلم من الشرك الأكبر والأصغر، وظلم العباد، فله الهداية الكاملة،

---

(١) رواه البخاري (٣٢) ومسلم (١٢٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

....

والأمن التام في الدنيا والآخرة، أما إذا سلم من الشرك الأكبر، ولم يسلم من الأصغر، ومن بعض الذنوب فهدايته ليست كاملة، وأمنه ليس كاملًا، بل ربما يدخل النار بالمعاصي التي مات عليها، وفي شرح الآية بين الرسول أن الهداية والأمن المطلقين لا يحصلان إلا بترك الشرك، لكن دلت النصوص الأخرى أن الهداية لا تكمل، والأمن لا يكمل إلا بالسلامة من المعاصي، وظلم العباد، وسائر أنواع الشرك الأصغر.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** .... هنا ذكر المؤلف فضل التوحيد، ولا يلزم من ثبوت الفضل للشيء أن يكون غير واجب، بل الفضل من نتائجه وآثاره.

قوله: «وما يكفر من الذنوب». معطوف على «فضل»؛ فيكون المعنى: باب فضل التوحيد، وباب ما يكفر من الذنوب، وعلى هذا؛ فالعائد محذوف والتقدير ما يكفره من الذنوب، وعقد هذا الباب لأمرين:

الأول: بيان فضل التوحيد.

الثاني: بيان ما يكفره من الذنوب، لأن من آثار فضل التوحيد تكفير الذنوب.

فمن فوائد التوحيد:

١- أنه أكبر دعامة للرغبة في الطاعة.

٢- أن الموحدين لهم الأمن وهم مهتدون.

قوله: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوٓاْ﴾، أي: يخلطوا.

قوله: ﴿بِظُلْمٍ﴾، الظلم هنا ما يقابل الإيمان، وهو الشرك.

* **والظلم أنواع:**

أظلم الظلم، وهو الشرك في حق الله.

ظلم الإنسان نفسه؛ فلا يعطيها حقها، مثل أن يصوم فلا يفطر، ويقوم فلا ينام.

ظلم الإنسان غيره، مثل أن يتعدى على شخص بالضرب، أو القتل، أو أخذ

. . . .

مال، أو ما أشبه ذلك.

وإذا انتفى الظلم، حصل الأمن، لكن هل هو أمنٌ كامل؟

الجواب: أنه إن كان الإيمان كاملًا لم يخالطه معصيةٌ؛ فالأمن أمنٌ مطلق، أي: كامل، وإذا كان الإيمان مطلق إيمانٍ غير كامل؛ فله مطلق الأمن؛ أي: أمن ناقص.

قوله: ﴿[illegible]﴾، أل فيها للجنس، ولهذا فسرنا الأمن بأنه إما أمن مطلق، وإما مطلق أمن حسب الظلم الذي تلبس به.

قوله: ﴿[illegible]﴾، أي: في الدنيا إلى شرع الله بالعلم والعمل؛ فالاهتداء بالعلم هداية الإرشاد كما قال الله تعالى في أصحاب الجحيم: ﴿[illegible]﴾ [الصافات: ٢٢، ٢٣].

* [illegible] قال الشيخ رحمه الله: «باب فضل التّوحيد وما يكفِّر من الذنوب»، ثم ساق في هذا الباب آية من كتاب الله، وأحاديث عن رسول الله ﷺ تُبيّن فضل التّوحيد، وتُبيّن ما يكفِّره من الذنوب، والمناسبة بين هذا الباب والذي قبله، مناسبة ظاهرة، فإنه رحمه الله لما بيّن في الباب الذي قبله حقيقة التّوحيد، ومعنى التّوحيد المطلوب، ووضّح ذلك بالآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، ناسب أن يذكُر فضله ليرغب فيه، ويحث عليه، لأن الشيء إذا عُرفت مزاياه فإن النفس تتعلق به.

قال رحمه الله تعالى: «وقول الله تعالى ﴿[illegible]﴾»، هذه الآية جاءت بعد ذكر مناظرة إبراهيم الخليل- عليه الصلاة والسلام- لقومه، لأن قومه كانوا يعبدون الكواكب، وهم الصابئة، في أرض العراق، فالله سبحانه وتعالى بعث نبيّه ورسوله إبراهيم الخليل- عليه الصلاة والسلام- للدعوة إلى التّوحيد، وإنكار هذا الشرك، ولم يكن هناك مسلم وقت بعثته- عليه الصلاة والسلام-، كلهم على الوثنيّة- والعياذ بالله.

فقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ هذا هو الحكم الإلهي، ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهذا عام في قوم إبراهيم، وغيرهم من الخلق، يعني: الذين وحّدوا الله، وأخلصوا له العبادة، ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ المراد بالظلم هنا: الشرك، لأن الظلم -كما بيّن أهل العلم- ثلاثة أنواع:

النوع الأول: وهو أعظمها-: ظلم الشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ لماذا سُمي الشرك ظلمًا؟ لأن الظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، والشرك معناه: وضع العبادة في غير موضعها، وهذا أعظم الظلم.

والنوع الثاني: ظلم العبد نفسه بالمعاصي، فالعاصي إنما ظلم نفسه، لأنه عرّض نفسه للعقوبة، وكان الواجب عليه أن يُنقذ نفسه، وأن يضعها في موضعها اللائق بها، وهو الطاعة، والكرامة ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾.

النوع الثالث: ظلم العبد للناس: بأخذ أموالهم، أو غيبتهم، أو نميمتهم، أو سرقة أموالهم، أو التعدي عليهم في أعراضهم بالغيبة والنميمة والقذف والهمز واللمز وغير ذلك من التنقُّص، أو في دمائهم بقتل الأبرياء بغير حق، أو بالضرب والجرح والإهانة بغير حق، فهذا تعدّ على الناس.

هذه هي أنواع الظلم: ظلم الشرك؛ وهذا أعظم أنواعه، وظلم العبد نفسه، وظلم العبد لغيره من المخلوقين.

وقوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ﴾ هل المراد في: الأمن المطلق يعني: أنهم لا يعذبون أبدًا، أو المراد مطلق الأمن؛ أي: أنهم وإن عذبوا فلابد أن يدخلوا الجنة؟، الآية محتملة.

وعلى كلا التفسيرين فالآية تدلُّ على فضل التّوحيد، وأنه أمن من العذاب إما مطلقًا وإما يُؤَمّن من العذاب المؤبّد. فالآية فيها فضل التّوحيد، وأنه يمنح الله لأصحابه الأمن على حسب درجاتهم في التّوحيد والسلامة من الذنوب والمعاصي، ودلّت الآية بمفهومها على أن من أشرك بالله وخلط توحيده بشرك أنه ليس له أمن- والعياذ بالله، فهذا فيه خطر الشرك، وأن من عبد الله، ولكنه يدعو مع الله غيره،

....

ويستغيث بالموتى، ويذبح للقبور، ويطوف بالأضرحة مستعينًا بها، فهذا خلط إيمانه بشرك، وليس له أمن أبدًا حتى يتوب إلى الله عزّ وجلّ، ويُخلص التّوحيد.

فليس المقصود أن الإنسان يعبد الله فقط، بل لا بد أيضًا أن يتجنّب الشرك، وإلّا فالمشركون لهم عبادات، كانوا يحجون، وكانوا يتصدقون، وكانوا يطعمون الأضياف، وكانوا يُكرمون الجيران، ولهم أعمال لكنها ليست مبنيّة على التّوحيد، فهي هباء منثور، لا تنفعهم شيئًا يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾، ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ﴾ ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ أَعْمَٰلُهُمْ كَرَمَادٍ ٱشْتَدَّتْ بِهِ ٱلرِّيحُ فِى يَوْمٍ عَاصِفٍ ۖ﴾ لا يثبّت الأعمال إلّا التّوحيد، ما دام هناك شرك فالأعمال لا قيمة لها، مهما أتعب الإنسان نفسه فيها.

وهذا يدلُّنا على فضل التّوحيد، ومكانة التّوحيد، وأنه مُؤَمّن من عذاب الله عزّ وجلّ بخلاف المشرك، فإنه لا أمن له من عذاب الله، والأمن يكون في الدنيا، كالأمن من الأعداء، والأمن من الحروب، تعرفون قيمته، وخطر الخوف، هذا في الدنيا فكيف بالأمن في الآخرة من النار؟ النار أشد من الحروب، وأشد من الأعداء، وأشد من كل شيء، إذا كان الأمن في الدنيا هذه قيمته، وهذه منافعه، فكيف بالأمن في الآخرة.

ثم قال: ﴿وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ هذه مزيّة ثانية من مزايا التّوحيد، وهي حصول الهداية للموحّدين المخلصين لله، أنهم في الدنيا يكونون مهتدين في أعمالهم، يعبدون الله على بصيرة، سالمين من الشرك في الأعمال، وسالمين من البدع والخرافات، بخلاف أهل الشرك، فإنهم غير مهتدين في الدنيا، بل هم ضالون، لأنهم يعبدون الله، ويخلطون العبادة بالشرك، ويعبدون غير الله، فهم ضالون لا مهتدون.

❊ ❊ ❊

٨) عَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ رضي الله عنه قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ شَهِدَ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ، وَالْجَنَّةُ حَقٌّ وَالنَّارُ حَقٌّ أَدْخَلَهُ اللَّهُ الْجَنَّةَ عَلَى مَا كَانَ مِنَ الْعَمَلِ». أَخْرَجَاهُ.

---

٨) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث عبادة بن الصامت مرفوعًا: «من شهد أن لا إله إلا الله... أدخله الله الجنة...».

«روح منه»: أي: روح من الأرواح التي خلقها وأوجدها.

فمن شهد هذه الشهادة صادقًا أدخله الله الجنة، وهذا من الأحاديث المطلقة الدالة على فضل التوحيد، ولكن دلت النصوص على أن هذا الإطلاق مقيد بمن أدى حق هذه الشهادة، أي: شهد شهادة جازمة بذلك تتضمن إخلاص العبادة له وحده، عن صدق وانقياد، ومحبة، وقبول، وإخلاص، ومتابعة لنبيه ﷺ، وطاعته.

فمن شهدها ولطخها بالمعاصي والسيئات، أو قالها باللسان فقط، وهو يشرك بقلبه أو عمله كالمنافقين، فهذا لا تنفعه الشهادة، بل لابد من قولها، والجزم بها، والعمل بالأوامر، وترك النواهي، واتباع النبي ﷺ، وإلا فتكون الشهادة مدخولة لا تقوى على دخول صاحبها الجنة إلا بمشيئة الله.

قوله: «على ما كان من العمل»: أي: على ما كان عنده من صلاح وفساد إذا قالها عن إخلاص وإيمان، ولكن هذا الدخول قد يكون من أول وهلة، أي: يدخل ابتداءً إذا مات على توبة، وعمل صالح وصدق، وقد يكون بعدما يبتلى به من جزاء السيئات والمعاصي، وبعدما يمحص في النار، ويعذب فيها، ثم مصيره إلى الجنة، فمن أدى هذه الشهادات، وقضى ما عليه دخل الجنة من أول وهلة، وإذا مات على المعاصي، فهو تحت مشيئة الله، إن شاء عذبه، وإن شاء أدخله الجنة.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»، الشهادة لا تكون إلا عن علم سابق، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، وهذا العلم قد يكون مكتسبًا وقد يكون غريزيًا.

....

فالعلم بأنه لا إله إلا الله غريزيٌّ، قال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة»(١).

وقد يكون مكتسبًا، وذلك بتدبر آيات الله، والتفكر فيها.

ولابد أن يوجد العلم بلا إله إلا الله ثم الشهادة بها.

قوله: «أن» مخففة من الثقيلة، والنطق بأن مشددة خطأ، لأن المشددة لا يمكن حذف اسمها، والمخفّفة يمكن حذفه.

قوله: «لا إله» أي: لا مألوه، وليس بمعنى لا آله، والمألوه: هو المعبود محبةً وتعظيمًا، تحبه وتعظمه لما تعلم من صفاته العظيمة وأفعاله الجليلة.

قوله: «إلا الله»، أي: لا مألوه إلا الله، ولهذا حكي عن قريش قولهم: ﴿أجعل الآلهة إلهًا واحدًا إن هذا لشيء عجاب﴾ [ص: ٥].

قوله: «من شهد أن لا إله إلا الله»، (من): شرطية، وجواب الشرط: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

والشهادة: هي الاعتراف باللسان، والاعتقاد بالقلب، والتصديق بالجوارح.

وقوله: «لا إله إلا الله»، أي: لا معبود على وجه يستحق أن يعبد إلا الله، وهذه الأصنام التي تعبد لا تستحق العبادة؛ لأنه ليس فيها من خصائص الألوهية شيء.

قوله: «وحده لا شريك له»، وحده: توكيد للإثبات، لا شريك له: توكيد للنفي في كل ما يختص به من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وأنّ محمدًا»، محمد: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، القرشي، الهاشمي، خاتم النبيين.

وقوله: «عبده»؛ أي: ليس شريكًا مع الله.

وقوله: «ورسوله»؛ أي: المبعوث بما أوحى إليه، فليس كاذبًا على الله.

فالرسول ﷺ عبدٌ مربوب، جميع خصائص البشرية تلحقه ما عدا شيئًا واحدًا،

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما قيل في أولاد المشركين (١٣١٩)، ومسلم: كتاب القدر/ باب معنى كل مولود يولد على الفطرة (٢٦٥٩).

. . . .

وهو ما يعود إلى أسافل الأخلاق؛ فهو منزه معصوم منه، قال تعالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قوله: «وأن عيسى عبد الله ورسوله»، الكلام فيها كالكلام في شهادة أن محمدًا رسول الله، إلا أننا نؤمن برسالة عيسى، ولا يلزمنا اتباعه إذا خالفت شريعته شريعتنا.

وفي قوله: «عبدالله»، رد على النصارى.

وفي قوله: «ورسوله»، رد على اليهود.

قوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم»، أطلق الله عليه كلمة؛ لأنه خلق بالكلمة -عليه السلام؛ فالحديث ليس على ظاهره؛ إذ عيسى -عليه السلام- ليس كلمة؛ لأنه يأكل، ويشرب، ويبول، ويتغوط، وتجري عليه جميع الأحوال البشرية، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

قوله: «ألقاها إلى مريم»، أي: وجَّهها إليها بقوله: ﴿كُن فَيَكُونُ﴾؛ كما قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩]. . .

قوله: «وروح منه»، أي: صار جسده عليه السلام بالكلمة، فنفخت فيه هذه الروح التي هي من الله؛ أي: خلق من مخلوقاته أضيفت إليه تعالى للتشريف والتكريم.

قوله: «منه»، هذه هي التي أضلّت النصارى، فظنوا أنه جزء من الله، فضلوا وأضلوا كثيرًا، ولكننا نقول: إن الله قد أعمى بصائركم؛ فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور؛ فمن المعلوم أن عيسى -عليه السلام- كان يأكل الطعام، وهذا شيء معروف، ومن المعلوم أيضًا أن اليهود يقولون: إنهم صلبوه، وهل يمكن لمن كان جزءًا من الرب أن ينفصل عن الرب ويأكل ويشرب ويدّعى أنه قتل وصلب؟

....

قوله: «أدخله الله الجنة» إدخال الجنة ينقسم إلى قسمين:

الأول: إدخال كامل لم يسبق بعذاب لمن أتمّ العمل.

الثاني: إدخال ناقص مسبوق بعذاب لمن نقص العمل.

فالمؤمن إذا غلبت سيئاته حسناته إن شاء الله عذّبه بقدر عمله، وإن شاء لم يعذّبه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾ [النساء: ١١٦].

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «من شهد أن لا إله إلّا الله»، يعني: نطق بالشهادة عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، موقنًا بها، لأنه لا يكفي التلفظ، بالشهادة من غير معرفة لمعناها، كذلك النطق بالشهادة مع معرفة بمعناها، لكن لا يعمل بمقتضاها، هذا أيضًا لا يكفي، بل لا بد من النطق والعلم والعمل بمقتضى هذه الكلمة العظيمة.

فالحاصل: أنها كلمة عظيمة، لكن لا بد أن يتوفّر.

أولاً: النطق بها.

وثانيًا: العلم بمعناها.

وثالثًا: العمل بمقتضاها.

ومعنى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ نفي العبادة عما سوى الله، وإثباتها لله سبحانه وتعالى، يعني: إبطال عبادة كل ما سوى الله، وإثبات العبادة لله، فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾: هذا إبطال لجميع المعبودات من دون الله عزَّ وجلَّ، وإنكار لها ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾: هذا إثبات للعبادة لله سبحانه وتعالى، فعلى هذا معنى لا إله إلّا الله: لا معبود بحق -أو لا معبود حقًّا- إلّا الله سبحانه وتعالى، أما لو قلت: معناها: لا معبود إلّا الله، نقول: هذا ضلال عظيم، لأنك أدخلت كل المعبودات وجعلتها هي الله، جعلت الأصنام والأضرحة والكواكب وكل ما عُبد من دون الله هو الله، وهذا غلط، وهو مذهب أهل وحدة الوجود.

فلا بد أن تأتي بكلمة حق، لأن المعبودات على قسمين: معبود بحق، ومعبود بالباطل، المعبود بحق هو الله، والمعبود بالباطل هو ما سوى الله من كل

....

المعبودات، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، هذا معنى: لا إله إلَّا الله.

وقوله: «وحده لا شريك له» كلمتان جيء بهما للتأكيد، وحده: تأكيد للإثبات، لا شريك له: تأكيد للنّفي، فهما كلمتان مؤكِّدتان للا إله إلَّا الله، لما فيها من النفي والإثبات.

وقوله: «وأن محمدًا عبده ورسوله» هذا يدل على أنه لا يكفيه شهادة أن لا إله إلَّا الله، بل لا بد معها من شهادة أن محمدًا رسول الله، فلو شهد أن لا إله إلَّا الله، وأبى أن يشهد أن محمّدًا رسول الله؛ لم يدخل في الإسلام، لأن هذه قرينة هذه، وكما في الأذان، وفي الإقامة، وفي الخطب، وإذا جاءت لا إله إلَّا الله وحدها، تدخل فيها شهادة أن محمدًا رسول الله ضِمنًا.

وقوله: «وأن محمدًا عبده ورسوله» هذا نفي للإفراط والتفريط، عبده هذا نفي للإفراط والغلو في حق الرسول ﷺ بجعل شيء له من الربوبية، كما يعتقد المخرّفون، فالرسول ﷺ عبدٌ ليس له من الرُّبوبية شيء، وقد سمّاه الله عبدًا في أشرف المقامات، في مقام الوحي: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ وفي مقام الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ وفي مقام الإنزال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

وقوله: «ورسوله» هذا رد على أهل التفريط، الذين لا يقدُرون الرسول حق قدره، إما يجحدون رسالته -عليه الصلاة والسلام-، وإما أنهم يقرُّون برسالته، لكنهم لا يتبعونه الاتباع المطلوب، فهؤلاء لم يشهدوا أنه رسول الله، وشهادتهم إما باطلة وإما ناقصة، باطلة إن كانوا لا يتبعونه أبدًا، وناقصة إن كانوا يتبعونه في بعض الأشياء ويخالفونه في بعض الأشياء رغبة لنفوسهم وشهواتهم.

فقوله: «ورسوله» هذا رد على أهل التفريط والتساهل في حق الرسول ﷺ، وهو أعظم الخلق -عليه الصلاة والسلام- وأشرف الخلق، وأفضل الرسل، فلا يُتساهل في حقه ﷺ لكن ليس معنى هذا أننا نغلوا فيه، ونجعل له شيئًا من

....

الربوبية، فلا إفراط ولا تفريط.

وقوله ﷺ: «وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه» عيسى -عليه الصلاة والسلام- هو عيسى بن مريم، خلقه الله من أم بلا والد، وذلك ليُظهر للعباد قدرته سبحانه على كل شيء.

فقوله ﷺ: «وأن عيسى عبد الله ورسوله» هذا فيه ردٌّ على اليهود وردٌّ على النصارى. أما اليهود فلأنهم جحدوا رسالة عيسى عليه السلام، ورموه بالبُهْت- والعياذ بالله- وقالوا: إنه ولد بغي، قبّحهم الله وأخزاهم، وحاولوا قتله، وسلّمه الله منهم ورفعه إليه، وألقى عليهم الخزي.

وفيه ردٌّ على النصارى الذين لم يقرُّوا بأن عيسى عبد الله، وإنما ادعوا أنه ابن الله، أو أنه ثالث ثلاثة، أو أنه هو الله، ثلاث مقالات لهم، ذكرها الله جل وعلا في القرآن: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ﴾ ولا يزالون يقولون هذا إلى الآن في إذاعتهم يرددون هذه الأقوال الكفرية الشنيعة، ولا يزالون يقولون: إن عيسى هو ابن الله، وأنه مخلِّص، ويرددون عقائد النصارى السابقة، المهم أنهم لا يزالون على هذه الفِرية: أن عيسى ابن الله، تعالى الله عما يقولون، وأنه الإله المخلِّص، وأنه مَكَّن من نفسه للقتل، وقتلوه وصلبوه من أجل أن يخلِّص العباد من الخطيئة التي ارتكبها آدم عليه السلام، كما يقولون -قبحهم الله- فيسمونه المخلِّص ويسمون هذا العمل الفداء، وأن عيسى فعل هذا من باب الفداء لبني آدم، ليخلِّصهم من إثم العقوبة.

وقوله: «وكلمته ألقاها إلى مريم»، الكلمة قوله تعالى لعيسى: ﴿كُن﴾، لأن عيسى وُجد من غير أب، بل وُجد بكلمة ﴿كُن﴾ وليس هو الكلمة، وإنما سُمِّيَ بالكلمة؛ لأنه خُلق بها، بخلاف بقية البشر فإنهم يُخلقون من أب وأم، وكما قال في آدم: ﴿خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فإذا كنتم تعجبون من كون عيسى وُلد من أم

....

بلا أب، ووجد على أثر الكلمة ﴿كُن﴾ فكيف لا تعجبون من خلق آدم من تراب بدون أم ولا أب، بل بكلمة ﴿كُن﴾، ليس في هذا غرابة على قدرة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «وروح منه» ليس المراد أن عيسى روح من الله، بمعنى أنه من ذات الله، وإنما من روحه المخلوق، لأن الله خلق الأرواح جميعًا، ومنها روح عيسى عليه الصلاة والسلام، فكلمة «منه» لابتداء الغاية، يعني كلمة مبتدأة من الله، وروح مبتدأة من الله، كما تقول مثلاً هذا الرزق من الله.

وقوله: «والجنة حق، والنار حق» يعني: ومن شهد أن الجنة -وهي دار المتقين-، والنار- دار الكافرين-؛ كل منهما حق، وأنهما داران موجودتان مخلوقتان، وباقيتان لا تفنيان أبدًا، الجنة للمتقين، والنار للكافرين.

والشاهد من هذا الحديث للباب: «باب فضل التّوحيد وما يكفر من الذنوب» أن الرسول قال في آخره: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل» هذا وعد من الله سبحانه وتعالى لأهل التّوحيد بأن الله يدخلهم الجنة، وأهل التّوحيد هم: الذين شهدوا أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق، والنار حق، هؤلاء هم أهل التّوحيد، وعدهم الله أن يدخلوا الجنة، فهذا فيه فضل التّوحيد، وأنه سبب لدخول الجنة.

لكن ما معنى: «على ما كان من العمل»؟، في ذلك قولان لأهل العلم:

القول الأول: أدخله الله على ما كان من العمل، يعني: ولو كان له سيئات دون الشرك فإن ذلك لا يحول بينه وبين دخول الجنة، إما من أول وَهْلَة، وإما في النهاية، ففيه: فضل التّوحيد، وأنه يكفر الذنوب بإذن الله أو يمنع من الخلود في النار.

والمعنى الثاني: أدخله الله الجنة على ما كان من العمل، أي: أنه يدخل الجنة، فتكون منزلته فيها بحسب عمله، لأن أهل الجنة يتفاوتون في منازلهم

٩) وَلَهُمَا فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فَإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ».

بحسب أعمالهم، فمنهم من هو في أعلى الجنة، ومنهم من هو دون ذلك، فأهل الجنة يتفاضلون في منازلهم، والجنة درجات، بعضها فوق بعض، كما أن النار دركات بعضها تحت بعض، والنار أسفل سافلين، أما الجنة فإنها أعلى عِلِّيِّين، والنبي ﷺ يقول: «إن في الجنة مائة درجة، بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، أعدها الله للمجاهدين في سبيله»، دلّ على أن الجنة درجات، وأن الناس ينزلون منها فيها بحسب أعمالهم، منهم من يُرى منزله كالكوكب الدُّرِّي الغابر في المشرق أو المغرب لبعد ما بينهم من التفاضل، ومنهم من يكون دون ذلك.

قوله: «أخرجاه» أي: «البخاري ومسلم في صحيحيهما».

٩) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولهما من حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله».

أي: من قالها عن صدق، ومات عليها، أدخله الله الجنة، فإن كانت له ذنوب، فهو تحت المشيئة، إن لم يتب من ذنوبه كما تقدم.

ومن قالها مخلصًا وصادقًا، فإنه لا يصر على السيئات، لأن إيمانه وإخلاصه الكامل يردعه عن الاستمرار والإصرار على المعاصي، فيدخل الجنة ابتداءً مع أول الداخلين، والدليل على أن من مات على المعاصي فهو تحت المشيئة قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، ودلـت الأحـاديـث أن أهل المعاصي معرضون للوعيد، وأنهم يدخلون النار، ثم يخرجون بشفاعة الأنبياء وغيرهم، لأنهم قد أضعفوا توحيدهم ولطخوه بالمعاصي.

وهذا هو منهج أهل السنة والجماعة، وهو المعنى الصحيح الذي خلا عنه أهل البدع من الخوارج والمعتزلة والمرجئة وغيرهم.

- من كفر بالله فإن الشهادة لا تنفعه وإن شهدها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «عتبان»، هو عتبان بن مالك

....

الأنصاري رضي الله عنه، كان يصلي بقومه، فضعف بصره، وشق عليه الذهاب إليهم، فطلب من النبي ﷺ أن يخرج إليه وأن يصلي في مكان من بيته ليتخذه مصلى، فخرج إليه النبي ﷺ ومعه طائفة من أصحابه، منهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، فلما دخل البيت، قال: «أين تريد أن أصلي؟». قال: صل هاهنا. وأشار إلى ناحية من البيت، فصلى بهم النبي ﷺ ركعتين، ثم جلس على طعام صنعوه له، فجعلوا يتذاكرون، فذكروا رجلاً يقال له: مالك بن الدُّخْشُم، فقال بعضهم: هو منافق. فقال رسول الله ﷺ: «لا تقل هكذا؛ أليس قال: لا إله إلا الله يريد بذلك وجه الله؟!». ثم قال: «فإن الله حرم على النار...» الحديث.

قوله: «فإن الله حرم على النار»، أي: منع من النار، أو منع النار أن تصيبه.

قوله: «من قال: لا إله إلا الله»، أي: بشرط الإخلاص، بدليل قوله: «يبتغي بذلك وجه الله»، أي: يطلب وجه الله، ومن طلب وجهًا؛ فلا بد أن يعمل كل ما في وسعه للوصول إليه.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** وقوله: «ولهما» أي: البخاري ومسلم.

«في حديث عتبان» هو عتبان بن مالك الأنصاري، صحابي مشهور رضي الله عنه.

«حرّم على النار» التحريم: المنع، أي: منعه من دخول النار، أو منع النار أن تمسه.

«من قال: لا إله إلّا الله» أي: نطق بها بلسانه وأعلنها.

«يبتغي بذلك» أي: بقوله لها ونطقه بها.

«وجه الله» أي: مخلصًا له بها، لم يقلها رياءً ولا سمعةً ولا نفاقًا، بل يعتقد ما دلّت عليه من إفراد الله بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، واعتقاد بطلانها، والبراءة منها ومن أهلها.

فدل هذا الحديث: على أنه لا يكفي مجرّد النطق بلا إله إلّا الله من غير معرفة

١٠) وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «قَالَ مُوسَى: يَا رَبِّ! عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ وَأَدْعُوكَ بِهِ. قَالَ: يَا مُوسَى: قُلْ لا إِلهَ إِلا اللهُ. قَالَ: يَا رَبِّ! كُلُّ عِبادِكَ يَقُولُونَ هذا. قالَ: يا مُوسَى، لَوْ أَنَّ السَّماواتِ السَّبْعِ وعَامِرَهُنَّ غَيْرِي، والأَرَضِينَ السَّبْعَ فِي كِفَّةٍ، ولا إِلهَ إِلَّا اللهُ فِي كِفَّةٍ، مَالَتْ بِهِنَّ لا إِلهَ إِلَّا اللهُ» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ وَالحَاكِمُ وصَحَّحَهُ.

لمعناها، وعمل بمقتضاها، واعتقاد لمدلولها.

١٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث أبي سعيد، عن رسول الله ﷺ قال: «قال موسى: يا رب! علمني شيئًا...» يدل الحديث على فضل هذه الكلمة، وأنها ذكر ودعاء لقوله: علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به -فهي ذكر الله، لأن فيها شهادة له بالوحدانية، ودعاء، لأن قائلها يرجو ثوابها، وهكذا كل الأذكار من تسبيح وتحميد وحوقلة.

وفي هذا دلالة على شأن هذه الكلمة، فهي ذكر ودعاء، وأن فضلها قد يخفى على بعض الأنبياء.

وعظم هذه الكلمة في أنها تحقق العبادة لله وحده، وتثبتها لله، وتنفيها عن غيره، ومعناها: أن لا معبود بحق إلا الله، ففيها إبطال لجميع الآلهة.

قوله: «وعامرهن غيري»:

استثنى سبحانه نفسه، لأنه العظيم، وهو سبحانه فوق العرش، وبه قامت السماوات والأرض، وهو الذي أمسكهن، وأقامها وأقام العرش، والكرسي، وبه قامت هذه المخلوقات، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ﴾، وقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُمْسِكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ أَن تَزُولَا﴾.

«في كفة»: أي: كفة الميزان، ولا إله إلا الله في الكفة الأخرى.

«مالت بهن لا إله إلا الله»: مالت بهن، أي: بمعناها، وليس بأجرامها.

فبالنظر إلى المعاني والحقائق، فإن كلمة التوحيد أعظم وأصدق وأهم معنى

....

فترجح على غيرها.

وكما رجحت الكلمة بالمخلوقات فإنه ترجح بمن قالها على جميع سيئاته وذنوبه.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «أذكرك وأدعوك به»، صفة لشيء، وليست جواب الطلب؛ فموسى عليه السلام طلب شيئًا يحصل به أمران:

ذكر الله.

دعاؤه.

فأجابه الله بقوله: «قل: لا إله إلا الله»، وهذه الجملة ذكر متضمن للدعاء؛ لأن الذاكر يريد رضا الله عنه، والوصول إلى دار كرامته إذًا؛ فهو متضمن للدعاء، قال الشاعر:

أأذكر حاجتي أم قد كفاني   حياؤك إن شيمتك الحياء

قوله: «كل عبادك يقولون هذا»، ليس المعنى أنها كلمة هينة كلٌّ يقولها؛ لأنّ موسى عليه الصلاة والسلام يعلم عظَم هذه الكلمة، ولكنه أراد شيئًا يختص به؛ لأن تخصيص الإنسان بالأمر يدل على منقبة له ورفعة.

قوله: «والأرضين السبع»، في بعض النسخ بالرفع، وهذا لا يصلح؛ لأنه إذا عطف على اسم أنّ قبل استكمال الخبر وجب النصب.

قوله: «مالت»، أي: رجحت حتى يملن.

قوله: «عامرهن»، أي: ساكنهن، فالعامر للشيء هو الذي عمر به الشيء.

قوله: «غيري»، استثنى نفسه تبارك وتعالى؛ لأن قول: لا إله إلا الله ثناء عليه، والمثنى عليه أعظم من الثناء، وهنا يجب أن تعرف أن كون الله تعالى في السماء ليس ككون الملائكة في السماء؛ فكون الملائكة في السماء كون حاجي، فهم ساكنون في السماء؛ لأنهم محتاجون إلى السماء.

لكن الرب تبارك وتعالى ليس محتاجًا إليها، بل إن السماء وغير السماء محتاج إلى الله تعالى؛ فلا يظن ظانٌّ أن السماء تقل الله أو تظله أو تحيط به، وعليه؛

....

فالسماوات باعتبار الملائكة أمكنه سمه للملائكة، وما فوقهم منها مظل لهم، أما بالنسبة لله؛ فهي جهة لأن الله تعالى مستوٍ على عرشه، لا يقله شيء من خلقه.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه» هو سَعْدُ بن مالك بن سنان الأنصاري الخزرجي، صحابي جليل، وأبوه صحابي.

• «عن رسول الله ﷺ قال: قال موسى: يا رب، علمني شيئًا أذكرك وأدعوك به» طلب من ربه أن يعلمه كلامًا يعظّمه به، ويطلب منه به حاجاته، ويتوسل به إليه.

«قل يا موسى: لا إله إلّا الله» أي: لا معبود بحق إلّا الله.

«قال» أي: موسى، «يا رب، كل عبادك يقولون هذا» أي: وإنما أريد شيئًا تخصني به من بين عموم عبادك.

«قال» أي: الرب سبحانه وتعالى مبينًا لموسى وغيره فضل هذه الكلمة على غيرها من ألفاظ الذكر: «لو أن السماوات السبع» أي: الطباق، «وعامرهن» أي: من فيهن من العمّار «غيري» أي: غير الله سبحانه، لأنه سبحانه في السماء. ففيه دليل على إثبات العلو «والأرضين السبع» أي: ومن فيهن من السكان، وفيه أن الأرض سبع طباق كالسماء، «في كِفَّة» أي: إحدى كفتي الميزان، «ولا إله إلّا الله في كفة» أي: في الكفة الأخرى، «مالت بهن لا إله إلّا الله» أي: رجحت بالسماوات السبع ومن فيهن غير الله، وبالأرضين السبع ومن فيهن.

وذلك لما اشتملت عليه هذه الكلمة من نفي عبادة غير الله، وإثبات العبادة لله، وتقرير التّوحيد، وإبطال الشرك.

۞ ۞ ۞

١١) وَلِلتِّرْمِذِيِّ وَحَسَّنَهُ عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه : سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ ! لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لا تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً»

---

١١) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** حديث أنس مرفوعًا: **«قال الله تعالى: يا ابن آدم! لو أتيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني...»** يدل على أن الخطايا كلها مرجوحة في مقابل حقيقة كلمة التوحيد، كما ترجح بالمخلوقات العظيمة.

«قرابها بالظلم»: أي: ما يقارب الأرض ويملأها.

ووجه العلماء هذا الحديث بوجهين:

«الأول»: إن هذا في حق من قالها صادقًا مخلصًا، لم يصر على سيئة أصلاً فأحكم هذه الكلمة، حتى صار مؤديًا لجميع الواجبات تاركًا لجميع المنهيات مستقيمًا على شرع الله في كل شيء.

«الثاني»: إن هذا في حق من قالها وأتى إلى الله تائبًا من خطاياه مقلعًا عن ذنوبه وسيئاته، فكل الخطايا ساقطة بهذه الكلمة.

وهذا المعنى لابد منه، لأن الآيات والأحاديث دلت على أن أهل المعاصي على خطر، وأنهم متوعدون بالنار، والنصوص لا تعارض بعضها بعضًا، ولا تتناقض بينها، فوجب حمل النصوص على هذا المعنى حتى لا يكون هناك اختلاف وتناقض.

وقد تعلق بعض الجهلة بمثل إطلاقات هذه النصوص، وظن أن هذه الكلمة تكفي بمجرد القول، وإن ترك الواجبات وفعل المعاصي، وهذا مخالف لما أجمع عليه سلف الأمة من أنه لابد من أداء الواجبات، وترك المحرمات، والوقوف عند حدودِ الله.

ومن ترك الواجبات، أو فعل المنهيات فإنه معرض لعقوبة الله تعالى، وإن كان يقول هذه الكلمة ويوقن بها.

....

وإن أتى بنقض إسلامه صار مرتدًا كافرًا، لم تنفعه هذه الشهادة.

فلابد من تحقيق هذه الكلمة ومستلزماتها، وإلا فهو على خطر إن لم يتب.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «قال الله تعالى: يا ابن آدم...» إلخ.

هذا من الأحاديث القدسية، والحديث القدسي: ما رواه النبي ﷺ عن ربه، وقد أدخله المحدثون في الأحاديث النبوية؛ لأنه منسوب إلى النبي ﷺ تبليغًا، وليس من القرآن بالإجماع، وإن كان كل واحد منهما قد بلغه النبي ﷺ أمته عن الله- عز وجل.

ومن المعلوم أن بين القرآن والحديث القدسي فروق كثيرة:

منها: أن الحديث القدسي لا يتعبد بتلاوته، بمعنى أن الإنسان لا يتعبد لله تعالى بمجرد قراءته؛ فلا يثاب على كل حرف منه عشر حسنات، والقرآن يتعبد بتلاوته بكل حرف منه عشر حسنات.

ومنها: أن الله تعالى تحدى أن يأتي الناس بمثل القرآن أو آية منه، ولم يرد مثل ذلك في الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن محفوظ من عند الله تعالى؛ كما قال سبحانه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، والأحاديث القدسية بخلاف ذلك؛ ففيها الصحيح والحسن، بل أضيف إليها ما كان ضعيفًا أو موضوعًا، وهذا وإن لم يكن منها لكن نسب إليها وفيها التقديم والتأخير والزيادة والنقص.

ومنها: أن القرآن لا تجوز قراءته بالمعنى بإجماع المسلمين، وأما الأحاديث القدسية، فعلى الخلاف في جواز نقل الحديث النبوي بالمعنى والأكثرون على جوازه.

ومنها: أن القرآن تشرع قراءته في الصلاة ومنه ما لا تصح الصلاة بدون قراءته، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن لا يمسه إلا طاهر على الأصح، بخلاف الأحاديث القدسية.

فِيهِ مَسَائِلُ:

الأُولى»: سِعَةُ فَضْلِ اللهِ.

«الثَّانِيَةُ»: كَثْرَةُ ثَوابِ التَّوْحِيدِ عِنْدَ اللهِ.

«الثَّالِثَةُ»: تَكْفِيرُهُ مَعَ ذَلِكَ لَلذُّنُوبِ.

ومنها: أن القرآن لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل على القول الراجح، بخلاف الأحاديث القدسية.

ومنها: أن القرآن ثبت بالتواتر القطعي المفيد للعلم اليقيني، فلو أنكر منه حرفًا أجمع القراء عليه؛ لكان كافرًا، بخلاف الأحاديث القدسية؛ فإنه لو أنكر شيئًا منها مدعيًا أنه لم يثبت؛ لم يكفر، أما لو أنكره مع علمه أن النبي ﷺ قاله؛ لكان كافرًا لتكذيبه النبي ﷺ.

قوله: «بقراب الأرض»، أي: ما يقاربها؛ إما ملئًا، أو ثقلًا، أو حجمًا.

قوله: «خطايا»، جمع خطيئة، وهي الذنب، والخطايا الذنوب، ولو كانت صغيرة؛ لقوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ﴾ [البقرة: ٨١].

قوله: «لا تشرك بي شيئًا» جملة «لا تشرك» في موضع نصب على الحال في التاء، أي: لقيتني في حال لا تشرك بي شيئًا.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق النفي تفيد العموم؛ أي: لا شركًا أصغر ولا أكبر.

قوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»، أي: أن حسنة التوحيد عظيمة تكفر الخطايا الكبيرة إذا لقي الله وهو لا يشرك به شيئًا، والمغفرة ستر الذنب والتجاوز عنه.

قوله: **«فيه مسائل»**:

الأولى: «سعة فضل الله»، لقوله: «أدخله الله الجنة على ما كان من العمل».

الثانية: كثرة ثواب التوحيد عند الله، لقوله: «مالت بهن لا إله إلا الله».

الثالثة: تكفيره مع ذلك للذنوب، لقوله: «لأتيتك بقرابها مغفرة»؛ فالإنسان قد تغلبه نفسه أحيانًا؛ فيقع في الخطايا، لكنه مخلص لله في عبادته وطاعته؛ فحسنة التوحيد تكفر عنه الخطايا إذا لقي الله بها.

«الرَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ (٨٢) الَّتِي فِي سُورَةِ الأَنْعَامِ.

«الخَامِسَةُ»: تَأَمُّلُ الخَمْسِ اللَّواتِي فِي حَدِيثِ عُبَادَةَ.

«السَّادِسَةُ»: أَنَّكَ إِذَا جَمَعْتَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ حَدِيثِ عِتْبَانَ وَمَا بَعْدَهُ تَبَيَّنَ لَكَ مَعْنَى قَوْلِ: «لا إِلهَ إِلَّا اللهُ» وتَبَيَّنَ لَكَ خَطَأُ المَغْرُورِينَ.

«السَّابِعَةُ»: التَّنْبِيهُ لِلشَّرْطِ الَّذِي فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ.

«الثَّامِنَةُ»: كَوْنُ الأَنْبِيَاءِ يَحْتَاجُونَ لِلتَّنْبِيهِ عَلَى فَضْلِ «لا إِلهَ إِلَّا اللهُ».

«التَّاسِعَةُ»: التَّنْبِيهُ لِرُجْحَانِهَا بِجَمِيعِ المَخْلُوقَاتِ، مَعَ أَنَّ كَثِيرًا مِمَّنْ يَقُولُهَا يَخِفُّ مِيزَانُهُ.

الرابعة: تفسير الآية التي في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾؛ فالظلم هنا الشّرك، لقوله ﷺ: «ألم تسمعوا قول الرجل الصالح: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾».

الخامسة: تأمل الخمس اللواتي في حديث عبادة:

١- ٢- الشهادتان.

٣- أن عيسى عبد الله، ورسوله، وكلمته ألقاها إلى مريم، وروح منه.

٤- أن الجنة حق.

٥- أن النار حق.

السادسة: أنك إذا جمعت بينه وبين حديث عتبان، وحديث أبي سعيد، وحديث أنس؛ تبين لك معنى قوله: لا إله إلا الله، وتبين لك خطأ المغرورين، لأنّه لا بد أن يبتغي بها وجه الله، وإذا كان كذلك؛ فلا بد أن تحمل المرء على العمل الصالح.

السابعة: التنبيه للشرط الذي في حديث عتبان، وهو أن يبتغي بقولها وجه الله، ولا يكفي مجرد القول؛ لأن المنافقين كانوا يقولونها ولم تنفعهم.

الثامنة: كون الأنبياء يحتاجون للتنبيه على فضل لا إله إلا الله، فغيرهم من باب أولى.

التاسعة: التنبيه لرجحانها بجميع المخلوقات، مع أن كثيرًا ممن يقولها يخف ميزانه، فالبلاء من القائل لا من القول؛ لأنه قد يكون اختل شرطٌ من الشروط؛ أو

«العَاشِرَةُ» : النَّصُّ عَلَى أَنَّ الأَرَضِينَ سَبْعٌ كالسَّماواتِ.

«الحَادِيَةَ عَشْرةَ» : أَنَّ لَهُنَّ عُمَّارًا.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : إِثْباتُ الصِّفاتِ، خِلَافًا للأَشْعَرِيَّةِ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّكَ إِذَا عَرَفْتَ حَدِيثَ أَنَسٍ، عَرَفْتَ أَنَّ قَوْلَهُ فِي حَدِيثِ عِتْبَانَ: «فإِنَّ اللهَ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ يَبْتَغِي

وجد مانع من الموانع؛ فإنها تخف بحسب ما عنده، أما القول نفسه؛ فيرجح بجميع المخلوقات.

العاشرة: النص على أن الأرضين سبع كالسماوات، لم يرد في القرآن تصريح بذلك، بل ورد صريحًا أن السماوات سبع بقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ﴾ [المؤمنون: ٨٦]، لكن بالنسبة للأرضين لم يرد إلا قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فالمثلية بالكيفية غير مرادة لظهور الفرق بين السماء والأرض في الهيئة، والكيفية، والارتفاع، والحسن؛ فبقيت المثلية في العدد.

أما السنة؛ فهي صريحة جدًّا بأنها سبع؛ مثل قوله ﷺ: «**من اقتطع شبرًا من الأرض؛ طوقه يوم القيامة من سبع أرضين**»[١].

الحادية عشرة: أن لهن عمارًا، أي: السماوات، وعمارهن الملائكة.

الثانية عشرة: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية، وفي بعض النسخ خلافًا للمعطلة، وهذه أحسن؛ لأنها أعم، حيث تشمل الأشعرية والمعتزلة والجهمية وغيرهم؛ ففيه إثبات الوجه لله سبحانه بقوله: «يبتغي وجه الله»، وإثبات الكلام بقوله: «وكلمته ألقاها»، وإثبات القول في قوله: «قل: لا إله إلا الله».

الثالثة عشرة: أنك إذا عرفت حديث أنس؛ عرفت أن قوله في حديث عتبان: «فإن الله حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك وجه الله» أن ترك الشرك.

---

(١) البخاري بلفظ «من ظلم قيد شبر....»: كتاب المظالم/ باب إثم من ظلم شيئًا من الأرض (٢٣٢١)، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب تحريم الظلم وغصب الأرض (١٦١٢).

بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ» ، أَنَّ تَرْكَ الشِّرْكِ، لَيْسَ قَوْلَها بِاللِّسانِ.

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : تَأَمُّلُ الجَمْعِ بَيْنَ كَوْنِ عِيسى وَمُحَمَّدٍ عَبْدَيِ اللهِ وَرَسُولَيْهِ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : مَعْرِفَةُ اخْتِصَاصِ عِيسَى بِكَوْنِهِ كَلِمَةَ اللهِ.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : مَعْرِفَةُ كَوْنِهِ رُوحًا مِنْهُ.

«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : مَعْرِفَةُ فَضْلِ الإِيْمَانِ بالجنَّةِ وَالنَّارِ.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : مَعْرِفَةُ قَوْلِهِ: «عَلَى مَا كَانَ مِنَ العَمَلِ» .

وفي بعض النسخ: إذا ترك الشرك. أي: أن قوله: «حرم على النار من قال: لا إله إلا الله يبتغي بذلك يعني: ترك الشرك»، وليس مجرد قولها باللسان؛ لأن من ابتغى وجه الله في هذا القول لا يمكن أن يشرك أبدًا.

الرابعة عشرة: تأمل الجمع بين كون كل من عيسى ومحمد عبدي الله ورسوليه.

وتأمل الجميع من وجهين:

الأول: أنه جمع لكل منهما بين العبودية والرسالة.

الثاني: أنه جمع بين الرجلين؛ فتبين أن عيسى مثل محمد، وأنه عبد ورسول، وليس ربًا ولا ابنًا للرب سبحانه.

الخامسة عشرة: معرفة اختصاص عيسى بكونه كلمة الله، أي: أن عيسى انفرد عن محمد في أصل الخلقة؛ فقد كان بكلمة، أما محمد ﷺ؛ فقد خلق من ماء أبيه.

السادسة عشرة: معرفة كونه روحًا منه، أي: أن عيسى روح من الله، «من» هنا بيانية أو للابتداء، وليست للتبعيض؛ أي: روح جاءت من قبل الله وليست بعضًا من الله، بل هي من جملة الأرواح المخلوقة.

السابعة عشرة: معرفة فضل الإيمان بالجنة والنار، لقوله في حديث عبادة: «وأن الجنة حق، والنار حق»، والفضل أنه من أسباب دخول الجنة.

الثامنة عشرة: معرفة قوله: «على ما كان من العمل»، أي: على ما كان من العمل الصالح ولو قل، أو على ما كان من العمل السيئ ولو كثر، بشرط أن لا

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ أَنَّ المِيزَانَ لَهُ كِفَّتَانِ.

«العِشْرُونَ»: مَعْرِفَةُ ذِكْرِ الوَجْهِ.

يأتي بما ينافي التوحيد ويوجب الخلود في النار، لكن لا بد من العمل.

التاسعة عشرة: معرفة أن الميزان له كفتان، أخذها المؤلف من قوله: «لو أن السماوات. . . . إلخ، وضعت في كفّة ولا إله إلا الله في كفة».

العشرون: معرفة ذكر الوجه، يعني: وجه الله تعالى، وهو صفة من صفاته الخبرية الذاتية التي مسماها بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء؛ لأن من صفات الله تعالى ما هو معنى محض، ومنه ما مسماه بالنسبة لنا أبعاض وأجزاء، ولا نقول بالنسبة لله تعالى أبعاض؛ لأننا نتحاشى كلمة التبعيض في جانب الله تعالى الله.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله «وللترمذي وحسّنه» أي: رواه في سننه، وقال: إنه حديث حسن.

عن أنس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله تعالى: يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا» قراب الأرض -بضم القاف-: ملؤها أو ما يقاربه، «لأتيتك بقرابها مغفرة».

فيه: أن مغفرة الذنوب مشروطة بتجنب الشرك، وفيه فضل التَّوحيد، وفيه الرد على الخوارج الذين يكفِّرون بالكبائر، وفيه سعة فضل الله ورحمته.

وبالله التوفيق.

۞ ۞ ۞

١٢) ٣- بَابٌ

مَنْ حَقَّقَ التَّوْحِيدَ دَخَلَ الجنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠] وَقَالَ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[المؤمنون: ٥٩]

---

١٢) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** «تحقيق التوحيد»: تخليصه من شوائب الشرك والبدع والمعاصي.

فمن حقق توحيده، وسلم من الشرك والبدع والمعاصي؛ دخل الجنة بغير حساب، ولا عذاب؛ لأن الشرك الأكبر ينافي التوحيد، والأصغر ينافي كمال الواجب، والبدع والمعاصي تقدح فيه، وتنقص ثوابه.

قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

وصف الله خليله إبراهيم بصفات عظيمة، تدل على كمال توحيده وإيمانه، ومن ذلك:

«الأولى «أمة»: أي: داع إلى الخير وحده صابرًا عليه كما فسره العلماء، فيدعو إلى الحق، ويستقيم عليه وحده عند فساد الناس، وهذان الأمران مجتمعان في إبراهيم، فإنه على الحق، ليس عليه غيره، ومع ذلك يدعو إليه وحده.

«الثانية «قانت لله»: أي: مطيعًا لله مستمرًا على الخير، فمن معاني القنوت: دوام الطاعة، وقنوته كان لله وحده، فلم يكن يعبد الله غيره.

«الثالثة «حنيفًا»: المقبل على الله المائل إليه، من الحنف، وهو الميل، فهو مائل عن عبادة غير الله إلى الله عز وجل، ثم أكد الكلام بقوله: ولم يك من المشركين، بل فارقهم في عقيدته وأعماله وأقواله ومنزله، وهذا الذي ينبغي للمسلم أن يستقيم، ويحقق توحيده، ولا يخالط المشركين، ويكثر سوادهم.

فلهذه الصفات حقق إبراهيم ﷺ كمال التوحيد.

قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

....

هذا من صفات أهل التوحيد والإيمان أنهم كانوا موحدين لله مخلصين له، خالصين من الشرك مع عبادتهم وخوفهم لله، وهذا كمال التوحيد.

وإذا كان إبراهيم -عليه السلام- قد حقق التوحيد فنبينا ﷺ أولى أن يكون قد حققه؛ لأنه أتقى الناس لله وأخلصهم له.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «من»، شرطية، وفعل الشرط: «حقق»، وجوابه: «دخل»، قوله: «بلا حساب»؛ أي: لا يحاسب لا على المعاصي ولا على غيرها.

وتحقيق التوحيد: تخليصة من الشرك، ولا يكون إلا بأمور ثلاثة:

الأول: العلم.

الثاني: الاعتقاد.

الثالث: الانقياد.

فإذا حصل هذا وحقق التوحيد؛ فإن الجنة مضمونة له بغير حساب.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ الآية.

قوله: ﴿أُمَّةً﴾، أي: إمامًا، وقد سبق أن أمة تأتي في القرآن على أربعة أوجه، إمام، ودهر، وجماعة، ودين.

وقوله: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾، هذا ثناء من الله -سبحانه وتعالى- على إبراهيم بأنه إمام متبوع.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾.

هذه الآية سبقها آية، وهي قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧].

لكن المؤلف ذكر الشاهد. وقوله تعالى: ﴿مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم﴾؛ أي: من خوفهم منه على علم، و ﴿مُّشْفِقُونَ﴾؛ أي: خائفون من عذابه إن خالفوه.

وقوله: ﴿لَا يُشْرِكُونَ﴾، يراد به الشرك بالمعنى الأعم؛ إذ تحقيق التوحيد لا يكون إلا باجتناب الشرك بالمعنى الأعم، ولكن ليس معنى هذا ألا تقع منهم

....

المعاصي؛ لأن كل ابن آدم خطاء، وليس بمعصوم، ولكن إذا عصوا؛ فإنهم يتوبون ولا يستمرون عليها؛ كما قال الله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: «من حقق التوحيد» يعني: أنه لم يشرك بالله شيئًا، ولم يكن عنده شيء من المعاصي، هذا تحقيق التّوحيد، ومن بلغ هذه المرتبة دخل الجنة بلا حساب، أما من كان في المرتبة التي قبلها، وهو الموحّد الذي عنده ذنوب فهذا قد يُغفر له، وقد يعذب بالنار، ثم يُخرج منها، لأن الموحّدين على ثلاث طبقات:

كما قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ الآية.

الطبقة الأولى: الذين سلموا من الشرك، وقد لا يسلمون من الذنوب التي هي دون الشرك وهم الظالمون لأنفسهم وهم معرضون للوعيد.

الطبقة الثانية: المقتصدون الذين فعلوا الواجبات وتركوا المحرمات.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ إبراهيم عليه السلام هو إمام المحققين للتوحيد، بعثه الله عزّ وجلّ لما غطّى الشرك على وجه الأرض في وقته، وهو وقت النّمرود الكافر الملحد الذي ادعى الربوبية، وكان قومه يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل ويُسَمَّوْن بالصابئة، وهم في أرض بابل من العراق.

وقد وصفه الله تعالى في هذه الآية بأربع صفات، كلها من تحقيق التّوحيد:

الصفة الأولى: ﴿كَانَ أُمَّةً﴾، والأمة معناها: القدوة في الخير، فهو إمامٌ للناس، كما قال تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ يعني: قدوة لأهل الخير إلى أن تقوم الساعة.

....

الصفة الثانية لإبراهيم أنه. ﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾ والقنوت في اللغة معناه: الثبوت والدّوام، أي: مداومًا وثابتًا على طاعة الله، لا يتزحزح عنها، ويُطلق القنوت على طول القيام في الصلاة، قال تعالى: ﴿حَٰفِظُواْ عَلَى ٱلصَّلَوَٰتِ وَٱلصَّلَوٰةِ ٱلْوُسْطَىٰ وَقُومُواْ لِلَّهِ قَٰنِتِينَ﴾، وقال الله تعالى: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْآخِرَةَ وَيَرْجُواْ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فمعنى وصف إبراهيم بأنه كان قانتًا، أي: أنه كان مداومًا على طاعة الله، ثابتًا عليها، بخلاف الذي يجتهد في يوم أو شهر أو سنة ثم بعد ذلك يتراجع انتكاسًا بعدما بدأ بالخير لكنه لم يُكمل، فالمطلوب من الإنسان أن يثبت على الخير، بمعنى أنه يلازم عمل الخير، ولا يتخلى عنه، ولو كان قليلاً ف «أحب العمل إلى الله أدومه وإن قلّ».

الصفة الثالثة: ﴿حَنِيفًا﴾ والحنيف من الحَنَف وهو في اللغة: الميل، والمراد به هنا: الإقبال على الله، وأنه مُعرض عن الناس مُقبل على الله سبحانه وتعالى، يطلب الخير من الله وحده.

الصفة الرابعة: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا محل الشاهد من الباب، ومعناه: أنه تبرّأ من المشركين، براءة تامة، أي: قطع ما بينه وبين المشركين من المودّة من أجل الله سبحانه وتعالى، لأنهم أعداء الله، والمؤمن لا يحب أعداء الله.

فهذه أربع صفات وصف الله بها إبراهيم: وهي:

الصفة الأولى: أنه كان أمة، يعني: قدوة في الخير.

الصفة الثانية: أنه كان قانتًا لله ثابتًا على الطاعة مخلصًا عمله لله.

الصفة الثالثة: أنه كان حنيفًا، مقبلاً على الله معرضًا عما سواه.

الصفة الرابعة: أنه لم يك من المشركين. أي بريء منهم ومن دينهم.

وهذا هو تحقيق التّوحيد يكون بهذه الأمور، وأعظمها البراءة من المشركين، فمن تبرأ من المشركين فهو ممن حقق التّوحيد، ولو كانوا أقرب الناس إليه، فإبراهيم تبرأ من أبيه:

....

﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِبۡرَٰهِيمَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقٗا نَّبِيًّا ۝٤١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعۡبُدُ مَا لَا يَسۡمَعُ وَلَا يُبۡصِرُ وَلَا يُغۡنِي عَنكَ شَيۡـٔٗا﴾ إلى أن انتهت المحاورة بقوله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ۝٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾ «من ترك شيئًا لله عوضه الله خيرًا منه» لما تبرأ من المشركين عوضه الله ذرية أنبياء.

ثم قال الشيخ رحمه الله: «وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾» هذه صفة من الصفات التي ذكرها الله في سورة المؤمنون، في السابقين بالخيرات، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ هذه الصفة الأولى.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾.

الصفة الثالثة -وهي العظيمة-: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمۡ لَا يُشۡرِكُونَ﴾.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤۡتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمۡ وَجِلَةٌ أَنَّهُمۡ إِلَىٰ رَبِّهِمۡ رَٰجِعُونَ﴾.

هذه الصفات العظيمة هي تحقيق التوحيد من جميع الشوائب، هذا مجملها وإليك تفصيلها:

الصفة الأولى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنۡ خَشۡيَةِ رَبِّهِم مُّشۡفِقُونَ﴾ الخشية من أعمال القلب، وهي الوَجَل من الله عزَّ وجلَّ، والخوف من عقابه، خشيةً منه سبحانه وتعالى أن يعاقب العاصي والمذنب على معصيته، ومن أعظم أنواع العبادة: الخوف والخشية والرغبة والرهبة والرجاء، وكل هذه من أعمال القلب، إلَّا أن الخوف لا يجوز أن يصل إلى حد القنوط، بل يكون خوفًا مقرونًا بالرجاء، لا ييأسون من روح الله ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾، والرجاء لا يكون بدون خوف من مكر الله. ولا يأمنون من مكر الله، ويعتمدون على الرجاء فقط، ويتركون الخوف: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

الصفة الثانية: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ يُؤۡمِنُونَ﴾، يؤمنون بآيات الله أي يصدقون بها، ويعملون بها، وآيات الله: القرآن، ويؤمنون به بمعنى: أنهم يصدقون أنه كلام الله سبحانه وتعالى، تكلم الله به وَحْيًا، ونزل به جبريل إلى النبي ﷺ، وحفظه النبي

١٣) وَعَنْ حُصَيْنِ بنِ عَبْدِ الرَّحمنِ قَالَ: كُنْتُ عِنْدَ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ فَقَالَ: أَيُّكُمْ رَأَى الكَوْكَبَ الَّذِي انْقَضَّ البَارِحَةَ؟ فَقُلْتُ: أَنَا، ثُمَّ قُلْتُ: أَمَا إِنِّي لَمْ أَكُنْ فِي صَلَاةٍ، وَلكِنِّي لُدِغْتُ، قَالَ: فَمَا صَنَعْتَ؟ قُلْتُ: ارْتَقَيْتُ. قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى ذَلِكَ؟ قُلْتُ: حَدِيثٌ حَدَّثَنَاهُ الشَّعْبِيُّ، قَالَ

ﷺ من جبريل، وبلَّغه للناس، ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝١٩٢ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾ يعني: جبريل- عليه الصلاة والسلام- ﴿عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾.

الصفة الثالثة: ﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾ هذا هو تحقيق التّوحيد، لا يشركون أبدًا، شركًا أصغر ولا شركًا أكبر، يعني: لا يقع منهم شرك أبدًا، هؤلاء الذين حقّقوا التّوحيد، وسلموا من الشرك الأكبر والأصغر والخفي والجلي، وكل أنواع الشرك والبدع والمخالفات.

الصفة الرابعة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟﴾ من الطاعات، ﴿وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾ يعني: خائفة ﴿أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ﴾ نفى عنهم الإعجاب بأعمالهم، فهم يعملون الأعمال الجليلة، ويخافون من الله أن يردّها عليهم. فهم يخافون أن تردّ عليهم أعمالهم بخلل وقع فيها، لأن الإنسان ليس معصومًا، فهم جمعوا بين الطاعة والخوف، أما أهل التفريط فجمعوا بين الكسل والأمن من مكر الله عزّ وجلّ.

١٣) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** «حديث» حصين: كنت عند سعيد بن جبير، فقال: أيكم رأى الكوكب. . .

(**قوله: «غير أني لم أكن في صلاة»**): فيه صفة من صفات السلف، وهي أنهم كانوا يتحرزون من إظهار أعمالهم خوفًا من الرياء؛ وتزكية النفوس.

«لدغت»: اللدغ إذا أصابته لسعة من عقرب أو حية ونحوهما.

«ارتقيت»: طلبت من يرقيني، لأن الرقية ينفع الله بها من اللدغ.

(**قوله: «فما حملك على ذلك»**): فيه السؤال عن الدليل فيما فعله، وفيه حال السلف، وما هم عليه من المذاكرة، وطلب الدليل.

: وَمَا حَدَّثَكُمْ؟ قُلْتُ: حَدَّثَنَا عَنْ بُرَيْدَةَ بنِ الحُصَيْبِ أَنَّهُ قَالَ: لَا رُقْيَةَ إِلَّا مِنْ عَيْنٍ أَوْ حُمَّةٍ. قَالَ: قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلى مَا سَمِعَ. وَلكِنْ حَدَّثَنَا ابنُ عَبَّاسٍ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: ....

«قال: عن بريدة بن الحصيب»: فهذا الحديث جاء عن بريدة، وجاء مرفوعًا إلى النبي ﷺ [(١)].

(وقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع»)، لأنه عمل بعلم، ولم يعمل بجهل أو بخلاف ما تعلمه.

(قوله: لا رقية إلا من عين أو حمة»): فيه أن من أصيب بأذى الحيات والعقارب، أو بأمراض أخرى فلا بأس بأن يرقي نفسه أو يسترقي، وليس المراد في الحديث الحصر، بل حمله العلماء على الأولوية، أي: لا رقية أولى من رقية العين، والحمة، لأن الأحاديث دلت على جواز الرقى من غير العين والحمة كحديث: «لا بأس بالرقي ما لم تكن شركًا» [(٢)]، وثبت أنه ﷺ رقى، ورُقي [(٣)].

فدل على جواز ذلك، ولا بأس من نفع المريض وقراءة الآيات عليه.

«والعين»: من عين العائن ونظرته ونفسه.

«والحمة»: لدغ الحيات والعقارب.

وهذه الرقية نافعة بالنص والتجارب، فيستحب لمن أصيب بها أن يرقي نفسه، أو يرقيه أخوه، لحديث«من استطاع أن ينفع أخاه بشيء فليفعل» [(٤)]، والاسترقاء، وطلب الرقية تكون أولى، لكن إن احتيج إليه فلا بأس، ولهذا استرقى النبي ﷺ لأولاد جعفر، كما سيأتي، وقال لأمهم أسماء: «واسترقي لهم» [(٥)]، لما أصابتهم

---

(١) ابن ماجه (٣٥١٣) وابن أبي حاتم في «العلل» والترمذي معلقًا على إثر حديث (٢٠٥٧).

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك.

(٣) صح أن جبريل رقى النبي ﷺ رواه مسلم (٢١٨٦) وأما رقي النبي ﷺ أصحابه رواه البخاري (٥٧٤٥، ٥٧٤٦).

(٤) رواه مسلم (١١٩١) من حديث جابر.

(٥) رواه مسلم (٢١٩٨).

«عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَرَأَيْتُ النَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّهْطُ، والنَّبِيَّ وَمَعَهُ الرَّجُلُ وَالرَّجُلَانِ، وَالنَّبِيَّ وَلَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، إِذْ رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ أُمَّتِي، فَقِيلَ لِي: هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، فَنَظَرْتُ فَإِذَا سَوَادٌ عَظِيمٌ، فَقِيلَ لِي: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَمَعَهُمْ سَبْعُونَ أَلْفًا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَلَا عَذَابٍ» ثُمَّ نَهَضَ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ. فَخَاضَ النَّاسُ فِي أُولئِكَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمْ

العين.

ثم ذكر سعيد ما هو أفضل منه -أي: من الاسترقاء- فقال: حدثنا ابن عباس.

(وقوله: «عرضت علي الأمم»): كان هذا ليلة الإسراء على الصحيح.

(وقوله: «والنبي وليس معه أحد»): ومنهم من قتله قومه، وهذا يدل على أن المتبعين للحق قليل، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَكۡثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوۡ حَرَصۡتَ بِمُؤۡمِنِينَ﴾.

(وقوله: «هذا موسى وقومه»): يدل على فضل موسى، وأنه استجاب له كثير من بني إسرائيل.

(قوله: «فنظرت فإذا سواد عظيم»): وفي رواية أنهم سدوا الأفق، وفي رواية أنهم سدوا الأفق الآخر، وهذا يدل على عظم هذه الأمة، وأنهم أكثر أتباعًا، لأنهم آخر الأمم ونبيها خاتمها، وهم نصف الجنة أو ثلثها كما جاء في الحديث[1].

(قوله: «ومعهم سبعون ألفًا»): جاء في أحاديث أخرى أن مع كل واحد سبعين ألفًا يدخلون الجنة بغير حساب[2]، لكمال تقواهم وإيمانهم واستقامتهم، وكلما كان العبد أكثر استقامة، كان أسهل لدخول الجنة.

(قوله: فخاض الناس فيهم»): أي: في صفاتهم، ومن هم، ففيه شرعية البحث والمذاكرة والنظر في النصوص للعلم.

---

(١) رواية الشطر رواه البخاري (٦٥٢٨) ومسلم (طرف حديث ٢٢١) ورواية الثلثان بلفظ: «أهل الجنة عشرون ومائة صف هذه الأمة منها ثمانون صفًا» رواه الترمذي (٢٥٤٦) وأحمد (٥/٣٤٧، ٣٥٥) وابن أبي شيبة.

(٢) رواه أحمد (١/٦) من طريق المسعودي حدثني بكر بن الأخنس عن رجل عن أبي بكر الصديق فذكره مرفوعًا والمسعودي مختلط والراوي عن أبي بكر مبهم.

الَّذِينَ صَحِبُوا رَسُولَ اللهِ ﷺ. وَقَالَ بَعْضُهُمْ: فَلَعَلَّهُمُ الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلَامِ فَلَمْ يُشْرِكُوا باللهِ شَيْئًا، وَذَكَرُوا أَشْيَاءَ، فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَخْبَرُوهُ، فَقَالَ: «هُمُ الَّذِينَ لَا يَسْتَرْقُونَ وَلَا يَكْتَوونَ وَلَا يَتَطَيَّرُونَ

(قوله: «هم الذين لا يسترقون»): لا يطلبون من يرقيهم.

وفيه فضل ترك سؤال الناس والاستغناء عنهم حتى في طلب الرقية، لكن لم ينه عن هذا، وإنما ذكر فضل تركه فقط فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس من العلاج وتركه أفضل عند عدم الحاجة.

(قوله: «ولا يكتوون»): وتركه أفضل عند عدم الحاجة، لأنه نوع تعذيب فإذا تيسر دواء غيره فهو أولى، فإن دعت الحاجة إليه فلا كراهة لحديث: «الشفاء في ثلاث: كية نار، أو شربة عسل، أو شرطة محجم»، وفي لفظ: «وأنهى أمتي عن الكي»[(١)]، فالنهي للتنزيه لا للتحريم، ولهذا كوى بعض أصحابه[(٢)]، وكوى الصحابة من أمراض أصابتهم[(٣)]، فهو جائز عند الحاجة إليه، والاستغناء عنه بدواء آخر أفضل، فهو من صفات السبعين- فإذا دعت الحاجة إليه فلا بأس.

(قوله: «ولا يتطيرون»): الطيرة هي الشرك، وهي التشاؤم بالمرئيات أو المسموعات حتى يرده ويوقفه عن حاجته، وهذا منكر منهي عنه، وقال: «الطيرة شرك»[(٤)]، وقال: «ولا ترد مسلمًا»، وقال: «إذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك»[(٥)].

والحسنات: هي: النعم، والسيئات: هي المصائب والنقم، وأخبر أن كفارة

---

(١) رواه البخاري (٥٦٨٠، ٥٦٨١) ومسلم (طرف حديث ٢٢٠٥).

(٢) صح عن النبي ﷺ أنه كوى أسعد بن زرارة من الشوكة رواه الترمذي (٢٠٥٠)، وابن حبان (٦٠٧١) وأبو يعلى (٣٥٨٢)، والطحاوي (٤/ ٣٢١)، والبيهقي (٩/ ٣٤٢).

(٣) صح عن أنس أنه كوي في ذات الجنب والرسول ﷺ حي، رواه البخاري (٥٧١٩).

(٤) رواه أبو داود (٣٩١٠) والترمذي (١٦١٤) وابن ماجه (٣٥٣٨) وأحمد (١/ ٣٨٩، ٤٣٨، ٤٤٠) والحاكم (١/ ١٧- ١٨).

(٥) رواه أبو داود (٣٩١٩) وابن السني في «عمل اليوم والليلة» (٢٩٣).

وجاء عند ابن السني «عقبه بن عامر» والصواب عروة بن عامر.

وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ» فَقَامَ عُكَّاشَةُ بنُ مِحْصَنٍ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي مِنْهُمْ. قَالَ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» ثُمَّ قَامَ رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: ادْعُ اللهَ أَنْ يَجْعَلَنِي

الطيرة أن يقول: «اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[1].

(قوله: «وعلى ربهم يتوكلون»): أي: يعتمدون على الله، ويفوضون أمورهم إليه فهذا شأنهم، فهم معتمدون على الله واثقون به، ويعلمون أنه لن يصيبهم إلا ما كتب لهم، ومع ذلك يبتعدون عن الشركيات، وعن المكروهات كالكي، والاسترقاء، ثقة به، واعتمادًا عليه، وحرصًا على كمال دينهم وسلامته.

فهذه صفات السبعين، وهم الذين أدوا الواجبات، وتركوا المحرمات والشركيات، واعتمدوا وتوكلوا على الله، وفوضوا أمورهم إليه مع أخذهم بالأسباب المباحة لطلب الرزق والتجارة، وأنواع الطب المباح، لكن تركوا ما يحوجهم إلى الناس كالاسترقاء، أو ما فيه نوع تعذيب، إذا لم يضطروا إليه، وابتعدوا عن بعض المباحات التي فيها نقص؛ فجازاهم الله بأن أدخلهم الجنة لا حساب ولا عذاب.

فائدة:

الرقية سؤال من الأسباب المباحة، أما مع السؤال فتركه أولى عند عدم الحاجة؛ لحديث: «لا بأس بالرقى ما لم تكن شركًا»[2].

والرقية جائزة بشروط ثلاثة:

«**الأول**»: أن يكون بلسان معروف المعنى.

«**الثاني**»: وأن لا يكون فيه محذور من جهة الشرع.

«**الثالث**»: أن يفعل ذلك طلبًا للشفاء من الله، ولا يعتمد على الأسباب نفسها، فلا بأس بالرقية على هذا الوجه.

وهكذا يجوز الكي عند الحاجة، وتركه أولى لما فيه من التعذيب.

أما الأسباب الأخرى، فلابد منها، فلابد أن يأكل ويشرب، ويطلب الرزق،

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٢٢٠).

(٢) رواه مسلم (٢٢٠٠) من حديث عوف بن مالك.

مِنْهُمْ. فَقَالَ: «سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ»

ويعمل الواجبات طلبًا للجنة، ويحذر من الوقوع في المحرمات. أما الأسباب التي فيها نقص كالكي والاسترقاء فتركه أولى.

(قوله: «سبقك بها عكاشة»): قال: سدًا للباب لئلا يقوم من ليس أهلاً.

وأخذ العلماء منه جواز استعمال المعاذير، وهي الكلمات التي تسد بابًا لا يحمد عقباه؛ فيستعملها من دون أن يتعرض لإهانة أحد أو فضيحته.

ولا بأس للإنسان أن يرقي نفسه، لكن طلب الرقية من الغير تركه أولى.

ولا بأس بأن يسأل الإنسان من أخيه أن يدعو له كما جاء في الحديث: «لا تنسانا من دعائك»[1].

وقال الشيخ -رحمه الله-: اتقاء الأسباب الضارة مشروع، كعدم الورود على المريض مرضًا معديًا.

فيتقي مخالطته كما في الحديث: «لا يورد ممرض على مصح»[2] وإذا خالطهم ثقة بالله واعتمادًا عليه لإيضاح الإيمان فلا بأس، وثبت أنه ﷺ أكل مع مجذوم، وقال: «باسم الله ثقة بالله».

ولا بأس بالقراءة على الماء، والنفث فيه، وثبت أن النبي ﷺ نفث في ماء لثابت بن قيس[3]، والقراءة تكون مما تيسر من القرآن. اهـ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «عن حصين بن عبد الرحمن؛ قال: كنت عند سعيد بن جبير».

وهما رجلان من التابعين ثقتان.

قوله: «انقض البارحة»، أي: سقط البارحة، والبارحة: أقرب ليلة مضت، وقال بعض أهل اللغة: تقول: فعلنا الليلة كذا إن قلته قبل الزوال، وفعلنا البارحة

---

(١) رواه أبو داود (١٤٩٨)، والترمذي (٣٥٦٢)، وابن ماجه (٢٨٩٤)، وأحمد (١/ ٢٩).

(٢) رواه البخاري (٥٧٧١)، ومسلم (طرف حديث ٢٢٢١) من حديث أبي هريرة.

(٣) رواه أبو داود (٣٨٨٥)، والنسائي في «الكبرى» (٦/ ١٠٨٧٩)، والبخاري في «التاريخ» معلقًا (٨/ ٣٧٧)، والطبراني في «الكبير» (١٣٢٣).

....

كذا إن قلته بعد الزوال.

وفي عرفنا؛ فمن طلوع الشمس إلى الغروب نقول: البارحة لليلة الماضية، ومن غروب الشمس إلى طلوعها نقول: الليلة لليلة التي نحن فيها.

قوله: «فقلت أنا»، أي: حصين.

قوله: «أما إني لم أكن في صلاة»، أما: أداة استفتاح، وقيل: إنها بمعنى حقًّا، وعلى هذا؛ فتفتح همزة «إن»، فيقال: أما أني لم أكن في صلاة، أي: حقًّا لم أكن في صلاة.

قوله: «لدغت»، أي: لدغته عقرب أو غيرها، والظاهر أنها شديدة؛ لأنه لم ينم منها.

قوله: «ارتقيت»، أي: استرقيت؛ لأن افتعل مثل استفعل، وفي رواية مسلم: «استرقيت»؛ أي: طلبت الرقية.

قوله: «فما حملك على ذلك»، أي: قال سعيد: ما السبب أنك استرقيت.

قوله: «حديث حدثناه الشعبي»، وهذا يدل على أن السلف رضي الله عنهم يتحاورون حتى يصلوا إلى الحقيقة، فسعيد بن جبير لم يقصد الانتقاد على هذا الرجل، بل قصد أن يستفهم منه ويعرف مستنده.

قوله: «لا رقية»، أي: لا قراءة أو لا استرقاء على مريض أو مصاب.

قوله: «إلا من عين»، وهي نظرة من حاسد، نفسه خبيثة، تتكيف بكيفية خاصة فينبعث منها ما يؤثر على المصاب...

قوله: «حُمَة»، بضم الحاء، وفتح الميم، مع تخفيفها: وهي كل ذات سم، والمعنى لدغته إحدى ذوات السموم، والعقرب من ذوات السموم.

فقال سعيد بن جبير: قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن حدثنا ابن عباس.. إلخ.

إذن، فحصين استند على حديث: «لا رقية إلا من عين أو حمة»، وهذا يدل على أن الرقية من العين أو الحمة مفيدة.

....

وأما العائن؛ فينبغي إذا رأى ما يعجبه أن يبرّك عليه؛ لقول النبي ﷺ لعامر بن ربيعة لما عان سهل بن حنيف: «هلا برّكت عليه»[1]؛ أي: قلت: بارك الله عليك.

قوله: «ولكن حدثنا»، القائل: سعيد بن جبير.

قوله: «عرضت علي الأمم»، العارض لها الله سبحانه وتعالى، وهذا في المنام فيما يظهر، والأمم: جمع أمة وهي أمم الرسل.

قوله: «الرهط»، من الثلاثة إلى التسعة.

قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان»، الظاهر أن الواو بمعنى أو...

قوله: «والنبي وليس معه أحد»، أي: يبعث ولا يكون معه أحد، لكن يبعثه الله لإقامة الحجة، فإذا قامت الحجة حينئذ، يعذر الله من الخلق، ويقيم عليهم الحجة.

قوله: «إذ رفع لي»، هذا على تقدير محذوف؛ أي: بينما أنا كذلك؛ إذ رفع لي.

قوله: «سواد عظيم»، المراد بالسواد هنا الظاهر أنه الأشخاص، ولهذا يقال: ما رأيت سواده، أي: شخصه، أي أشخاصًا عظيمة كانوا من كثرتهم سوادًا.

قوله: «فظننت أنهم أمتي»، لأن الأنبياء عرضوا عليه بأممهم؛ فظن هذا السواد أمته - عليه الصلاة والسلام .

قوله: «فقيل لي: هذا موسى وقومه»، وهذا يدل على كثرة أتباع موسى عليه السلام وقومه الذين أرسل إليهم.

قوله: «فإذا سواد عظيم، فقيل لي: هذه أمتك»، وهذا أعظم من السواد الأول؛ لأن أمة النبي ﷺ أكثر بكثير من أمة موسى عليه السلام.

قوله: «بغير حساب ولا عذاب»، أي: لا يعذبون ولا يحاسبون كرامةً لهم، وظاهره أنه لا في قبورهم ولا بعد قيام الساعة.

قوله: «فخاض الناس في أولئك»، هذا الخوض للوصول إلى الحقيقة نظريًا وعمليًا حتى يكونوا منهم.

---

(١) رواه أحمد (٣/٤٨٦)، والإمام مالك في الموطأ: (٢١١/٩٣٨).

....

قوله: «الذين صحبوا رسول الله»، يحتمل أن المراد الصحبة المطلقة، ويؤيده ظاهر اللفظ.

ويحتمل أن المراد الذين صحبوه في هجرته...

قوله: «الذين ولدوا في الإسلام»، أي: من ولد بعد البعثة وأسلم، وهؤلاء كثيرون، ولو قلنا: ولدوا في الإسلام من الصحابة ما بلغوا سبعين ألفًا.

قوله: «فخرج عليهم رسول الله، فأخبروه»، أي: أخبروه بما قالوا وما جرى بينهم.

قوله: «لا يسترقون»، في بعض روايات مسلم[(١)]: «لا يرقون».

ولكن هذه الرواية خطأ؛ كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية؛ لأن الرسول ﷺ كان يرقي[(٢)]، ورقاه جبريل[(٣)]، وعائشة[(٤)]، وكذلك الصحابة كانوا يرقون[(٥)].

واستفعل بمعنى طلب الفعل، مثل: استغفر؛ أي: طلب المغفرة، واستجار: طلب الجوار، وهنا استرقى؛ أي: طلب الرقية، أي لا يطلبون من أحد أن يقرأ عليهم.

وقوله: «ولا يكتوون»، أي: لا يطلبون من أحد أن يكويهم.

ومعنى اكتوى: طلب من يكويه، وهذا مثل قوله: «ولا يسترقون».

قوله: «ولا يتطيرون»، مأخوذ من الطير، والمصدر منه تطيّر، والطيرة اسم المصدر، وأصله: التشاؤم بالطير، ولكنه أعم من ذلك؛ فهو التشاؤم بمرئي، أو مسموع، أو زمان، أو مكان.

قوله: «فقال: أنت منهم»، وقول الرسول ﷺ هذا هل هو بوحي من الله إقراري، أو وحي إلهامي، أو وحي رسول؟

مثل هذه الأمور يحتمل أنها وحي إلهامي، أو بواسطة الرسول، أو وحي إقراري

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان/ باب الدليل على دخول طوائف من المسلمين الجنة بغير حساب (٣٧٤).

(٢) البخاري: (٥٤١٣)، ومسلم: (٢١٩٤).

(٣) مسلم: كتاب السلام/ باب الطب والمرض والرقى (٢١٨٥).

(٤) البخاري: (٤٧٥٩)، ومسلم: (٢١٩٢).

(٥) كما في قصة صاحب السرية.

«فِيهِ مَسائِلُ:

الأُولى»: مَعْرِفَةُ مَرَاتِبِ النَّاسِ فِي التَّوْحِيدِ.

«الثَّانِيَةُ»: مَا مَعْنَى تَحْقِيقِهِ.

«الثَّالِثَةُ»: ثَنَاؤُهُ سُبْحَانَهُ عَلَى إِبْرَاهِيمَ بِكَوْنِهِ لَمْ يَكُ مِنَ المُشْرِكِينَ.

«الرَّابِعَةُ»: ثَنَاؤُهُ عَلَى سَادَاتِ الأَوْلِياءِ بِسَلَامَتِهِمْ مِنَ الشِّرْكِ.

بمعنى أن الرسول يقولها، فإذا أقره الله عليه؛ صارت وحيًا إقراريًا.

لكن رواية البخاري: «اللَّهُمَّ اجعله منهم» تدل على أن الجملة: «أنت منهم» خبر بمعنى الدعاء.

قوله: «ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم. قال: سبقك بها عكاشة»، لم يرد النبي ﷺ أن يقول له: لا، ولكن قال: سبقك بها، أي: بهذه المنقبة والفضيلة، أو بهذه المسألة عكاشة بن محصن.

قوله: «فيه مسائل»، أي: في هذا الباب مسائل:

المسألة الأولى: معرفة مراتب الناس في التوحيد، وهذه مأخوذة من قوله: «يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب». ثم قال: «هم الذين لا يسترقون، ولا يكتوون، ولا يتطيرون».

الثانية: ما معنى تحقيقه؟ أي: تحقيق التوحيد، وسبق لنا في أول الباب أن تحقيقه: تخليصه من الشرك.

الثالثة: ثناؤه - سبحانه - على إبراهيم بكونه لم يك من المشركين، وهو ظاهر في الآية الكريمة: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٠]؛ فإن هذه الآية لا شك أنها سيقت للثناء على إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وإذا كان مناط الثناء انتفاء الشرك عنه؛ دل ذلك على أن كل من انتفى عنه الشرك فهو محل ثناء من الله سبحانه وتعالى.

الرابعة: ثناؤه على سادات الأولياء بسلامتهم من الشرك، لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾، وهذه الآية في سياق آيات كثيرة ابتدأها الله بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٨﴾ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا

«الخَامِسَةُ» : كَوْنُ تَرْكِ الرُّقْيَةِ وَالكَيِّ مِنْ تَحْقِيقِ التَّوْحِيدِ.
«السَّادِسَةُ» : كَوْنُ الجَامِعِ لِتِلْكَ الخِصَالِ هُوَ التَّوَكُّلُ.
«السَّابِعَةُ» : عُمْقُ عِلْمِ الصَّحَابَةِ لِمَعْرِفَتِهِمْ أَنَّهُمْ لَمْ يَنَالُوا ذَلِكَ إِلَّا بِعَمَلٍ.
«الثَّامِنَةُ» : حِرْصُهُمْ عَلَى الخَيْرِ.
«التَّاسِعَةُ» : فَضِيلَةُ هَذِهِ الأُمَّةِ بِالْكَمِّيَّةِ وِالْكَيْفِيَّةِ.
«العَاشِرَةُ» : فَضِيلَةُ أَصْحَابِ مُوسَى.

يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٧-٦١]؛ فهؤلاء هم سادات الأولياء، وكلام المؤلف من باب إضافة الصفة إلى موصوفها، أي: الأولياء السادات، وليس يريد رحمه الله السادات من الأولياء، بل يريد الأولياء الذي هم سادات الخلق.

الخامسة: كون ترك الرقية والكي من تحقيق التوحيد، لقوله: «الذين لا يسترقون ولا يكتوون»؛ فالمراد بقول المؤلف: «الرقية والكي»: الاسترقاء والاكتواء.

السادسة: كون الجامع لتلك الخصال هو التوكل، والخصال هي: ترك الاسترقاء، وترك الاكتواء، وترك التطير، يعني أن العامل لهذه الأشياء هو قوة التوكل على الله- عز وجل.

السابعة: عمق عمل الصحابة لمعرفة أنهم لم ينالوا ذلك إلا بعمل، أي: لم ينل هؤلاء السبعون ألفًا هذا الثواب إلا بعمل، ووجهه أن الصحابة خاضوا فيمن يكون له هذا الثواب العظيم وذكروا أشياء.

الثامنة: حرصهم على الخير، وجهه خوضهم في هذا الشيء؛ لأنهم يريدون أن يصلوا إلى نتيجة حتى يقوموا بها.

التاسعة: فضيلة هذه الأمة بالكميّة والكيفيّة، أما الكميّة، فلأن النبي ﷺ رأى سوادًا عظيمًا أعظم من السواد الذي كان مع موسى، وأما الكيفيّة؛ فلأن معهم هؤلاء الذين لا يسترقون ولا يكتوون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون.

العاشرة: فضيلة أصحاب موسى، وهو مأخوذ من قوله: «إذ رفع لي سوادٌ

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : عَرْضُ الأُمَمِ عَلَيْهِ - عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلَامُ.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ كُلَّ أُمَّةٍ تُحْشَرُ وَحْدَهَا مَعَ نَبِيِّهَا.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : قِلَّةُ مَنِ اسْتَجَابَ لِلأَنْبِيَاءِ.

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ مَنْ لَمْ يُجِبْهُ أَحَدٌ يَأْتِي وَحْدَهُ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : ثَمَرَةُ هَذَا العِلْمِ، وَهُوَ عَدَمُ الاغْتِرَارِ بِالْكَثْرَةِ، وَعَدَمُ الزُّهْدِ فِي القِلَّةِ.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : الرُّخْصَةُ فِي الرُّقْيَةِ مِنَ العَيْنِ والحُمَّةِ.

عظيمٌ»، ولكن قد يقال: إن التعبير بقول: كثرة أتباع موسى أنسب لدلالة الحديث؛ لأن الحديث يقول: «سواد عظيم فظننت أنهم أمتي»، وهذا يدل على الكثرة.

الحادية عشرة: عرض الأمم عليه - عليه الصلاة والسلام -، وهذا له فائدتان:

الفائدة الأولى: تسلية الرسول عليه الصلاة والسلام.

الفائدة الثانية: بيان فضيلته عليه الصلاة والسلام وشرفه.

الثانية عشرة: أن كل أمة تحشر وحدها مع نبيها، لقوله: «رأيت النبي ومعه الرجل والرجلان. . .، ويدل لذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا﴾ [الجاثية: ٢٨]؛ فإنه يدل على أن كل أمة تكون وحدها.

الثالثة عشرة: قلة من استجاب للأنبياء، وهو واضح من قوله: «والنبي ومعه الرجل والرجلان، والنبي وليس معه أحد».

الرابعة عشرة: أن من لم يجبه أحد يأتي وحده، لقوله: «والنبي وليس معه أحد».

الخامسة عشرة: ثمرة هذا العلم، وهو عدم الاغترار بالكثرة. . إلخ، فإن الكثرة قد تكون ضلالاً، قال الله تعالى: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الأنعام: ١١٦]

الرخصة في الرقية من العين والحمة، مأخوذ من قوله: «لا رقية إلا من عين أو حمة».

«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : عُمْقُ عِلْمِ السَّلَفِ لِقَوْلِهِ. «قَدْ أَحْسَنَ مَنِ انْتَهَى إِلَى مَا سَمِعَ، وَلكِنْ كَذَا وَكَذَا» . فَعُلِمَ أَنَّ الحَدِيثَ الأَوَّلَ لا يُخَالِفُ الثَّانِيَ.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : بُعْدُ السَّلَفِ عَنْ مَدْحِ الإِنْسَانِ بِمَا لَيْسَ فِيهِ.

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ» : قَوْلُهُ: «أَنْتَ مِنْهُمْ» عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ.

«العِشْرُونَ» : فَضِيلَةُ عُكَّاشَةَ.

السابعة عشرة: عمق علم السلف، لقوله: «قد أحسن من انتهى إلى ما سمع، ولكن كذا وكذا»؛ فعلم أن الحديث الأول لا يخالف الثاني، لأن قوله: «لا رقية إلا من عينٍ أو حمة» لا يخالف الثاني؛ لأن الثاني إنما هو في الاسترقاء، والأول في الرقية؛ فالإنسان إذا أتاه من يرقيه ولم يمنعه؛ فإنه لا ينافي قوله: «ولا يسترقون»، لأن هناك ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: أن يطلب من يرقيه، وهذا قد فاته الكمال.

المرتبة الثانية: أن لا يمنع من يرقيه، وهذا لم يفته الكمال؛ لأنه لم يسترق ولم يطلب.

المرتبة الثالث: أن يمنع من يرقيه، وهذا خلاف السنة؛ فإن النبي ﷺ لم يمنع عائشة أن ترقيه، وكذلك الصحابة لم يمنعوا أحدًا أن يرقيهم؛ لأن هذا لا يؤثر في التوكل.

الثامنة عشرة: بعد السلف عن مدح الإنسان بما ليس فيه، يؤخذ من قوله: «أما إني لم أكن في صلاة ولكني لدغت»؛ لأنه إذا كان رأى الكوكب الذي انقض استلزم أن يكون يقظان، واليقظان: إما أن يصلي، وإما أن يكون له شغل آخر، وإما أن يكون لديه مانع من النوم.

التاسعة عشرة: قوله: «أنت منهم» علم من أعلام النبوة. يعني: دليلًا على نبوة الرسول ﷺ، وكيف ذلك؟ لأن عكاشة بن محصن رضي الله عنه بقي محروسًا من الكفر حتى مات على الإسلام.

العشرون: فضيلة عكاشة، بكونه ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وهل نشهد له بذلك؟ نعم، لأن الرسول ﷺ شهد له بها.

«الحَادِيَةُ وَالعِشْرونَ» : اسْتِعْمَالُ المَعَارِيضَ.

«الثَّانِيَةُ وَالعِشْرونَ» : حُسْنُ خُلُقِهِ ﷺ .

الحادية والعشرون: استعمال المعاريض. وفي المعاريض مندوحة عن الكذب، وذلك لقول الرسول ﷺ: «سبقك بها عكاشة»؛ فإن هذا في الحقيقة ليس هو المانع الحقيقي، بل المانع ما أشرنا إليه في الشـرح: إما أن يكون هذا الرجل منافقًا فلم يرد النبي ﷺ أن يجعله مع الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، وإما خوفًا من انفتاح الباب؛ فيسأل هذه المرتبة من ليس من أهلها.

الثانية والعشرون: حسن خلقه ﷺ. وذلك لأنه رد هذا الرجل وسدَّ الباب على وجه ليس فيه غضاضة على أحد ولا كراهة.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «عن حُصين بن عبدالرحمن» السُّلمي، أحد التابعين الثقات.

«قال: كنت عند سعيد بن جُبير» سعيد بن جُبير من أكابر التابعين علمًا وورعًا وفقهًا، وهو من تلاميذ ابن عباس -رضي الله تعالى عنهما- قتله الحجّاج بن يوسف الثَّقفي قبل أن يبلغ الخمسين من عمره، وبقتله أُصيبت الأمة بفقد عالم من أجلّ علمائها.

«فقال: أيُّكم رأى الكوكب الذي أنقض البارحة؟»، يسأل الجالسين عنده، والكوكب معناه: الشُّهاب الذي يُرمى به الشياطين الذين يَسْتَرِقُون السمع، وليس معناه أن الكوكب نفسه يسقط، ولكن ينفصل منه شَظِيَّة. «الذي انقض البارحة»، أي: الذي سقط.

قال: حُصين بن عبد الرحمن: «أنا»، والبارحة كلمة تُطلق على الليلة الماضية، ما قبل الزوال يقال له: الليلة، وما بعد الزوال يقال له: البارحة، مِن «بَرَح الشيء» إذا فات وذهب، هذا عند العرب.

وقوله: «قلت: أنا» يعني: أنا رأيت الكوكب، فدلّ هذا على أن هذا الرجل لم يَنَم.

ثم إنه خشي على نفسه من الرياء، فاستدرك وقال: «أما إني لم أكن في صلاة»

....

يعني: لا تظنوا أني سهرت أتهجّد، خشِي على نفسه الرياء، أن يمدح بشيء ليس فيه، وهذا من ورع السّلف وابتعادهم عن الرياء وتزكية النفس، لأن هذا ينافي الإخلاص.

وقوله: «ولكني لُدِغت» يعني: السبب في كوني كنت مستيقظًا وقت نزول الشهاب أنني لُدِغت، واللَّدْغ معناه: إصابة ذات السموم من العقارب ونحوها.

وقوله: «قال: فما صنعت؟» لأن من عادة المَلْدُوغ أنه يتعاطى شيئًا من العلاج.

قوله: «قال: فما حملك على هذا؟» هذا فيه أن السلف يطلبون الدليل على ما يفعلون وما يقولون، وفيه طلب الدليل على المذهب والاجتهاد. فمن قال بمسألة من المسائل، أو فعل فعلاً، فإنه يطلب منه الدليل على جوازه، أو على مشروعيّته من الكتاب والسنّة. هذا أدب السلف- رحمهم الله...

وقوله: «قلت: حديث حدثنيه الشَّعْبي» يعني: هذا دليلي على ما فعلت، والشعبي هو: عامر بن شَرَاحيل، الإمام الجليل من أئمة التابعين.

«قال: وما حدثكم؟ قلت: حدثنا عن بُريدة بن الحُصيب» بُريدة بن الحُصيب الأسلمي، من صحابة رسول الله ﷺ، فهذا التابعي- الذي هو الشَّعْبي- يروي عن هذا الصحابي.

قوله: أن النبي ﷺ قال: «لا رُقية إلّا من عين أو حُمة» لا رُقية يعني: أنفع وأشفى إلّا من عين، أي: إصابة العين بسبب الحسد الذي يكون في بعض الناس، إذا نظر إلى الأشياء أصيبت على أثر نظرته، لأن نظره مسموم، وهذا من عجائب خلق الله سبحانه وتعالى وقدرته، أنه يجعل بعض الأنظار مسمومة، إذا نظر صاحبها إلى شخص، أو إلى حيوان، أو إلى شيء، أصيب بإذن الله عزّ وجلّ، والعين حق كما في الحديث، قال ﷺ: «العين حق، ولو أن شيئًا سبق القدر لسبقته العين»، هذا في الصحيح.

وقوله: «أو حُمَة» الحُمَة هي: اللَّدْغة من ذوات السّموم، وهذا محل الشاهد من الحديث لما فعله حصين رحمه الله.

....

ثم قوله: «لا رُقية إلّا من عين أو حُمَة» قال العلماء: هذا من باب التأكيد، لا من باب الحَصْر، فالرُّقية تنفع من غير العين والحُمَة أيضًا ومن سائر الأمراض، ولكن أنفع ما يُشفى بالرُّقية هذان المرضان: العين والحُمَة، وإلّا فإن الرّقية تنفع -أيضًا- من جميع الأمراض- بإذن الله-، فهذا من باب الحصر النِّسبي والتأكيد، كما قال ﷺ: «لا ربا إلّا في النّسيئة»، مع أن هناك ربا الفضل، فمعنى الحديث: «لا ربا إلّا في النسيئة» يعني: لا ربا أعظم وأشد من ربا النسيئة، فهو أشد من ربا الفضل، لأنه ربا الجاهلية، فليس هذا من باب الحَصْر، وإنما هو حَصْر إضافي...

قوله: «ولكن حدثنا ابن عباس» معناه أن: سعيد بن جُبير عنده دليل آخر، العمل به أحسن من العمل بحديث حُصين بن عبد الرحمن، وإن كان العمل بحديث حُصين بن عبد الرحمن حسنًا، ولكن هناك حسن وهناك ما هو أحسن، فأراد أن يرقيه من الحسن إلى الأحسن.

قال: «حدثنا ابن عباس عن النبي ﷺ أنه قال: «عُرضت عليّ الأمم» فيه معجزة من معجزات النبي ﷺ حيث عُرضت عليه الأمم، أي: أُرِيَ الأمم السابقة. قيل: كان هذا ليلة الإسراء والمعراج.

«فرأيت النبي ومعه الرَّهْط» الرَّهْط: هم الجماعة دون العشرة، يعني: لم يتبعه من أمته إلّا دون العشرة، وبقية الأمة كفروا به.

«والنبي ومعه الرجل والرجلان» هذا أقل، تبعه من قومه رجل أو رجلان، والبقيّة أَبَوْا أن يؤمنوا بالله ورسوله.

«والنبي وليس معه أحد» فيه من الأنبياء من كذبه قومه كلهم، ولم يتبعه أحد، فهذا فيه دليل على أنه لا يُحتج بالكثرة، وإنما يُحتج بمن كان على الحق، ومعه الدليل، ولو كانوا قليلين، ولو كان شخصًا واحدًا.

قوله: «إذ رُفع لي سواد عظيم» السواد هو: الأشباح البعيدة.

«فظننت أنهم أمتي» ظن النبي ﷺ أن هذا السواد العظيم هم أمته، لأنه أكثر الأنبياء أتباعًا، عليه الصلاة والسلام.

....

«فقيل لي: هذا موسى وقومه» هذا فيه فضل موسى عليه السلام، كليم الله، وأنه اتبعه من قومه خَلْق كثير، آمنوا به واتبعوه، فهو من أكثر الرسل أتباعًا بعد نبينا محمد ﷺ، وفيه فضيلة لموسى عليه الصلاة والسلام.

فهذا يدل على أن موسى عليه السلام آمن به خَلْقٌ كثير من بني إسرائيل، وإنما حدث التحريف والكفر بعد موسى عليه السلام.

قوله: «فنظرت فإذا سوادٌ عظيم»، وفي رواية: «ولكن انظر إلى الأفق»، والرواية في «صحيح مسلم».

«فنظرت فإذا سوادٌ عظيم، فقيل لي: هذه أمتك، ومعهم سبعون ألفًا يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب»، وفي رواية: «ومنهم سبعون ألفًا»، السبعون ألفًا هؤلاء من أمّة محمد ﷺ يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب.

قوله: «ثم نهض ﷺ» أي: قام.

«ودخل منزله» دون أن يبيّن من هم هؤلاء السبعون ألفًا.

والصحابة رضي الله عنهم اهتموا بهذا الأمر، لأن هذا أمر عظيم، فصاروا يخوضون في هؤلاء السبعين من هم؟

فقوله: «خاض الناس في أولئك» يعني: بحثوا من هم، وهذا من حرص الصحابة رضي الله عنهم على الخير، واهتمامهم بأمور الآخرة، لأنهم لا يهتمُّون بأمور الدنيا، وإنما يهتمُّون بأمور الآخرة، بخلاف أهل الدنيا، إذا سمعوا بتجارة صاروا يتحدثون عنها ولا يهمهم أمر الآخرة.

قوله: «فقال بعضهم: فلعلهم الذين صَحِبوا رسول الله ﷺ» لأن أفضل الأمة هم الصحابة رضي الله عنهم، لا أحد يساوي الصحابة في الفضيلة، قال ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»، فالصحابة هم أفضل الأمة، ولا أحد يساويهم في الفضل- رضي الله تعالى عنهم- بسَبْقِهم إلى الإسلام، وصحبتهم لرسول الله ﷺ.

وقوله: «قال: هم الذين لا يَسْتَرْقُون» يعني: لا يطلبون من غيرهم أن يَرقيهم،

....

لماذا؟ لأن طلب الرُّقية من الناس سؤال للمخلوق، والسؤال للمخلوق فيه ذِلّة، فهم يستغنون عن الناس، ويعتمدون على الله سبحانه وتعالى، وهذا من تمام التّوحيد: أن الإنسان لا يسأل الناس.

وقوله: «ولا يَكْتَوُون» كذلك لا يطلبون من غيرهم أن يكويهم بالنار من أجل العلاج.

والكَيْ بالنار نوع من أنواع الطب، وقد قال النبي ﷺ: «الشفاء في ثلاث: شَرْبة عسل، أو شَرْطة مِحْجَم، أو كيّة بنار»، وفي رواية أخرى: «وأنا أكره الكَيّ»، فالكَيُّ عند الحاجة علاج مباح، ولكنه إذا طلبته من غيرك، يكون مكروهًا لأنه من مسألة الناس، وكذلك يكره الكيّ ذاته، لما فيه من التعذيب بالنار.

قوله: «ولا يَتَطَيَّرون» التطيّر هو: التشاؤم بالطيور وغيرها، ثم يرجع المتطير عما عزم عليه، هذا هو التّطيُّر، أما التفاؤل فهو مشروع، وكان النبي يعجبه الفَأْل، لأن الفَأْل حسن ظن بالله سبحانه وتعالى، أما الطِّيَرة فهي سوء الظن بالله.

فهؤلاء السبعون ألفًا استحقوا هذه المنزلة، لأنهم تركوا أمورًا محرمة وهي الطيرة، أو مكروهة وهي طلب الرقية والكي من الناس، فهم تركوها استغناء عن الناس، وتوكلاً على الله سبحانه وتعالى.

قوله: «فقام عُكّاشة بن مُحصَن» عُكّاشة بن مُحصَن الأسدي، من السابقين إلى الإسلام، شهد غزوة بدر، وغيرها من المشاهد مع رسول الله ﷺ، وعاش بعد النبي ﷺ وقاتل في حروب الرّدة حتى قُتل، رضي الله عنه.

«فقال: يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم» هذا فيه مشروعيّة طلب الدعاء من أهل الخير الأحياء، لأن هذا الصحابي طلب الدعاء من رسول الله ﷺ وأقرّه على ذلك، فدلّ على جواز، طلب الدعاء من الصالحين الأحياء.

«قال: أنت منهم» أخبر ﷺ أن عُكّاشة من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بلا حساب ولا عذاب، وقد وقع ما أخبر به ﷺ فإنه قُتل شهيدًا في سبيل الله عزّ وجلّ وفي هذا دليل من أدلة النبوّة.

١٤) ٤- بَابٌ

الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ وَقَوْلُ اللهِ عزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨و١١٦] . وقَالَ الخَلِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ثم قام رجل آخر، فقال: ادع الله أن يجعلني منهم، قال: «سبقك بها عُكّاشة»، كأن الرسول ﷺ علم أن هذا الرجل لا يصل إلى هذه المرتبة، ولكن ما جابهه بكلام يكرهه، ولم يقل له: أنت لا تستحق، أو أنت لست من أهل هذه المنزلة، وهذا من حُسن أدب الرسول ﷺ بل جاء بكلمة لم تؤثر على الرجل، وهي وافية بالمقصود، فقال: «سبقك بها عُكّاشة».

١٤) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أي: باب وجوب الخوف من الشرك، فيجب على المؤمن أن يخاف من الشرك، والمعاصي يبتعد عنها وخاصة الشرك، ولا يأمن ذلك على نفسه.

«والشرك»: هو تشريك غير الله في العبادة أيا كانت، ولذلك سمي شركًا والعبادة حق لله وحده.

وأعظم من ذلك صرف العبادة كلها لغير الله عز وجل.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾.

فيه بيان عظم الشرك وخطورته؛ لأن الإنسان إذا مات عليه لم يغفر له، بل هو خالد مخلد في النار بخلاف سائر المعاصي فهي تحت المشيئة إن شاء عذبه بقدرها ودخل الجنة وإن شاء غفر له، أما الشرك فقد قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾.

وقول الخليل عليه السلام: ﴿وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ الْأَصْنَامَ﴾.

هذا فيه خطورة الشرك؛ لأن سيد الأنبياء بعد نبينا كان يخاف من الشرك فوجب التأسي بهم، وأن نكون أولى بالخوف منهم.

....

«الأصنام»: هو ما نحت على صورة كصورة إنسان أو حيوان.

«والمشركون كانوا أقسامًا»: منهم من يعبد الأصنام ومنهم من يعبد غير الأصنام كالشجر والبحر والشمس والقمر كلهم يجمعهم صرف العبادة لغير الله عز وجل، ويطلق على الصنم وثن.

* ثانيًا: **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله**: الأولى قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾.

﴿لَا﴾: نافية، ﴿أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾: فعل مضارع مقرون بأن المصدرية، فيحول إلى مصدر تقديره: أن الله لا يغفر الإشراك به، أو لا يغفر إشراكًا به، فالشرك لا يغفره الله أبدًا، لأنه جناية على حق الله الخاص، وهو التوحيد.

أما المعاصي، كالزنى والسرقة، فقد يكون للإنسان فيها حظ نفس بما نال من شهوة.

قوله: ﴿وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ﴾ المراد بالدون هنا: ما هو أقل من الشرك، وليس ما سوى الشرك.

الآية الثانية: قوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

قيل: المراد ببنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق، وقيل: المراد ذريته وما توالد من صلبه، وهو الأرجح...

وأيضًا يمنع من الأول أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

ومعنى: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾، أي: اجعلني في جانب والأصنام في جانب...

قوله: ﴿أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾. أن والفعل بعدها في تأويل مصدر: مفعول ثان لقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي﴾.

والأصنام: جمع صنم، وهو ما جعل على صورة إنسان أو غيره يعبد من دون الله.

أما الوثن، فهو ما عبد من دون الله على أي وجه كان، وفي الحديث: «لا

....

تجعل قبري وثنًا يعبد»[1]، فالوثن أعم من الصنم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ: «باب الخوف من الشرك» أي: أن الموحّد يجب أن يخاف من الشرك، ولا يقول أنا موحّد وأنا عرفت التّوحيد، ولا خطر علي من الشرك، هذا إغراء من الشيطان، لا أحد يزكي نفسه، ولا أحد لا يخاف من الفتنة ما دام على قيد الحياة، فالإنسان معرّض للفتنة، ضلّ علماء أحبار، وزلّت أقدامهم، وخُتم لهم بالسّوء، وهم علماء، فالخطر شديد، ولا يأمن الإنسان على نفسه أن تَنْزَلِق قدمه في الضلال، وأن يقع في الشرك، إلّا إذا تعلم هذه الأمور من أجل أن يجتنبها، واستعان بالله، وطلب منه العصمة والهداية: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا﴾ خافوا من الزّيغ بعد الهداية، والمهتدي يكون أشد خوفًا أن يزيغ، وأن تزلّ قدمه، وأن تسوء خاتمته، وأن يكون من أهل النار، نسأل الله العافية.

قال: «وقول الله عزّ وجلّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾» هذا خبر من الله عن نفسه سبحانه وتعالى مؤكّد بـ «إنّ».

أنه: «﴿لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾» فهذا فيه خطورة الشرك، فالله لا يغفر للمشرك مع أن رحمته وسعت كل شيء، ولكن المشرك لا يدخل فيها، لعِظم جريمته والعياذ بالله، فمن مات على الشرك فإنه لا يغفر له، وهذا يدلّ على خطورة الشرك، فإذا كان الشرك بهذه الخطورة، فإنه يجب الحذر منه غاية الحذر، فكل الذنوب مَظِنّة المغفرة ورجاء المغفرة إلّا الشرك. والشرك لا يمكن تجنبه إلّا إذا عرف وعرف خطره.

وفي الآية الأخرى أخبر سبحانه أنه حرم الجنة على المشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

والحرام: الممنوع، فلا يمكن أنّ المشرك يذوق طعم الجنة، أو يشم رائحة الجنة.

---

(١) موطأ الإمام مالك (١/ ١٧٢).

....

وفي الآية الثالثة: يقول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾، منعهم الله من دخول المسجد الحرام؛ لأنهم نجس، ونجاسة الشرك نجاسة معنويّة، والمسجد الحرام لا يدخله إلّا أهل التّوحيد ﴿وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ كذلك المشرك حلال الدم والمال، قال ﷺ: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلّا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ».

قوله: «﴿وَٱجْنُبْنِى﴾» أي: أبعدني واجعلني في جانب بعيد «﴿أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾» خاف من عبادتها.

مع هذه المنزلة العظيمة التي نالها إبراهيم عليه السلام من ربه، ومع أنه قاوم الشرك وكسر الأصنام بيده، وتعرض لأشد الأذى في سبيل ذلك حتى ألقي في النار، مع ذلك خاف على نفسه من الوقوع في الشرك، لأن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن، والحي لا تؤمن عليه الفتنة، ولهذا قال بعض السلف: «ومن يأمن البلاء بعد إبراهيم؟»، فإبراهيم خاف على نفسه الوقوع في الشرك لما رأى كثرة وقوعه في الناس، وقال عن الأصنام: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾.

وفي هذا أبلغ الرد على هؤلاء الذين يقولون: لا خوف على المسلمين من الوقوع في الشرك بعدما تعلموا وتثقفوا، لأن الشرك بعبادة الأصنام شرك ساذج يترفع عنه المثقف والفاهم، وإنما الخوف على الناس من الشرك في الحاكمية، ويركزون على هذا النوع خاصة، وأما الشرك في الألوهية والعبادة فلا يهتمون بإنكاره، وعلى هذا يكون الخليل عليه السلام وغيره من الرسل إنما ينكرون شركًا ساذجًا!!، ويتركون الشرك الخطير وهو شرك الحاكمية كما يقول هؤلاء.

❁ ❁ ❁

١٥) وَفِي الحَدِيثِ: «أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الأَصْغَرُ»، فَسُئِلَ عَنْهُ؟ فَقَالَ: «الرِّيَاءُ» .

١٥) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وفي الحديث: «**أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر**» فسئل عنه؛ فقال: «**الرياء**».

هذا الحديث رواه أحمد بإسناد جيد عن محمود بن لبيد عن النبي ﷺ وله شواهد قوية كلها تدل على وجوب الحذر من الرياء؛ وأنه خطير ويبتلى به الصلحاء؛ لأنه قد يرائي بصلاته وزكاته وأمره بالمعروف ونهيه وفي الحديث: «**من سمع سمع الله به ومن راءى راءى الله به**»[١] وتمام الحديث: «**أن الله يقول للمرائين يوم القيامة اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم من جزاء**» والرياء مصدر راءى يرائي.

وفي الحديث: «**يقول الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه**»[٢] رواه مسلم، فيجب على الإنسان أن يخلص لله وحده.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «أخوف ما أخاف عليكم». الخطاب للمسلمين، إذ المسلم هو الذي يخاف عليه الشرك الأصغر، وليس لجميع الناس.

قوله: «الرياء»، مشتق من الرؤية مصدر راءى يرائي، والمصدر رياء، كقاتل يقاتل قتالاً.

والرياء: أن يعبد الله ليراه الناس فيمدحوه على كونه عابدًا.

أما إن أراد بعبادته أن يقتدي الناس به فيها، فليس هذا رياء، بل هذا من الدعوة إلى الله عز وجل ، والرسول ﷺ يقول: «فعلت هذا لتأتموا بي وتعلموا صلاتي»[٣].

والرياء ينقسم باعتبار إبطاله للعبادة إلى قسمين:

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩) ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب.

(٢) صحيح: رواه مسلم (٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة.

(٣) البخاري: كتاب الجمعة/باب الخطبة على المنبر، ومسلم: كتاب المساجد/باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة.

....

الأول: أن يكون في أصل العبادة؛ أي: ما قام يتعبد إلا للرياء، فهذا عمله باطل مردود عليه لحديث أبي هريرة في «الصحيح» مرفوعًا، قال الله تعال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه».

الثاني: أن يكون الرياء طارئًا على العبادة؛ أي: أن أصل العبادة لله، لكن طرأ عليها الرياء، فهذا ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يدافعه، فهذا لا يضره.

مثاله: رجل صلى ركعة، ثم جاء أناس في الركعة الثانية، فحصل في قلبه شيء بأن أطال الركوع أو السجود أو تباكى وما أشبه ذلك، فإن دافعه، فإنه لا يضره لأنه قام بالجهاد.

القسم الثاني: أن استرسل معه، فكل عمل ينشأ عن الرياء فهو باطل، كما لو أطال القيام، أو الركوع، أو السجود، أو تباكى، فهذا كل عمله حابط، ولكن هل هذا البطلان يمتد إلى جميع العبادة أم لا؟

نقول: لا يخلو هذا من حالين:

الحال الأولى: أن يكون آخر العبادة مبنيًا على أولها، بحيث لا يصح أولها مع فساد آخرها، فهذه كلها فاسدة.

الحال الثانية: أن يكون أول العبادة منفصلاً عن آخرها، بحيث يصح أولها دون آخرها، فما سبق الرياء، فهو صحيح، وما كان بعده، فهو باطل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وفي الحديث» أي الحديث الذي رواه أحمد والطبراني والبيهقي أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، الرسول ﷺ يقول لأبي بكر وعمر ولسادات المهاجرين والأنصار، الذين بلغوا القمّة في التّوحيد والإيمان والجهاد في سبيل الله، ومع هذا فالرسول يخاف عليهم، فمن يأمن بعد هؤلاء؟: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء» .

هذا دليل على اهتمام الصحابة في الأمر، والرياء معناه: أن الإنسان يتصنّع أمام

....

الناس بالتقوى، والعمل الصالح، وإتقان الصلاة، وغير ذلك، من أجل أن يمدحوه، فالرياء من الرؤية أن يحب الإنسان أن يراه الناس وهو يعمل العمل الصالح من أجل أن يمدحوه، والسُّمعة أن يحب الإنسان أن الناس يسمعون كلامه ويسمعون عمله ويمدحونه، فالرياء لما يُرى من الأعمال، والسُّمعة لما يسمع منها.

والرياء شرك خفي، لأن الشرك على نوعين: شرك ظاهر وشرك خفي، الشرك الظاهر: الذي يتمثل في الأعمال والأقوال، بأن يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله، أو يستغيث بغير الله، هذا ظاهر يراه الناس ويسمعونه، لكن هناك شرك خفي لا يدري عنه الناس، لأنه في القلب، لا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى، وهو الشرك في النيّة والإرادة، فالإنسان إذا سَلِم من الشرك الأكبر فإنه قد لا يسلم من الشرك الأصغر الذي يكون في القلوب، وهذا مما يُعطي المؤمن الحذر الشديد.

فهذا الحديث يدل أولاً: على الخوف من الشرك.

ثانيًا: أن الرياء شرك، ومعناه- كما ذكرنا-: أن يحب الإنسان أن يراه الناس على الطاعة فيُثنوا عليه بها.

وثالثًا: أن الرياء شرك خفي، لا يعلمه الناس، وإنما الله جل وعلا هو الذي يعلمه، لأنه في القلوب.



١٦) وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قالَ: «مَنْ مَاتَ وَهُوَ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللهِ نِدًّا، دَخَلَ النَّارَ» .رَوَاهُ البُخَارِيُّ.

وَلِمُسْلِمٍ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ».

---

١٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: «من مات، وهو يدعو من دون الله ندًا دخل النار». رواه البخاري.

«ندًا»: أي: شبيهًا ونظيرًا يدعوه مع الله ويستغيث به فهو مخلد في النار، وفي رواية قال ابن مسعود: وقلت: «ومن مات وهو لا يدعو من دون الله ندا دخل الجنة»[1] أي: من مات على التوحيد دخل الجنة، فاتخاذ الأنداد من أسباب دخول النار، ومعنى اتخاذ الأنداد شريكًا غير الله معه في العبادة من الصالحين والأنبياء أو شجر أو حجر.

ولمسلم عن جابر مرفوعًا: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا، دخل النار».

وفيه خطورة الشرك، ووجوب الخوف منه وحذره.

الحديث فيه موجبتان:

«الأولى»: أن من لقي الله لا يشرك به دخل الجنة.

«والثانية»: أنه من لقيه وهو مشرك دخل النار.

ولذا في لفظ آخر قال رسول الله ﷺ: «ألا أخبركم بالموجبتين» قالوا: بلى، قال: «من لقي الله....»[2].

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من». هذه شرطية تفيد

---

(١) قال ابن مسعود هذا القول بعد روايته للحديث وسبق برقم (٣٢).

(٢) عند مسلم (٩٣) عن جابر قال: أتى رسول الله ﷺ رجل فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: «من مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة، ومن مات يشرك بالله شيئًا، دخل النار».

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: الخَوْفُ مِنَ الشِّرْكِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ الرِّيَاءَ مِنَ الشِّرْكِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّهُ مِنَ الشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

العموم للذكر والأنثى.

قوله: «يدعو من دون الله ندًّا»؛ أي: يتخذ لله ندًّا سواء دعاء عبادة أم دعاء مسألة.

قوله: «دخل النار» أي: خالدًا، مع أن اللفظ لا يدل عليه، لأن دخل فعل، والفعل يدل على الإطلاق.

قوله: «من». شرطية تفيد العموم، وفعل الشرط: «لقي»، وجوابه قوله: «دخل الجنة»، وهذا الدخول لا ينافي أن يعذب بقدر ذنوب إن كانت عليه ذنوب، لدلالة نصوص الوعيد على ذلك، وهذا إذا لم يغفر الله له، لأنه داخل تحت المشيئة.

قوله: «لا يشرك». في محل نصب على الحال من فعل «لقي».

قوله: «شيئًا». نكرة في سياق الشرط، فيعم أي شرك، حتى ولو أشرك مع الله أشرف الخلق، وهو الرسول ﷺ، دخل النار.

فيه مسائل:

الأولى: الخوف من الشرك. لقوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ﴾، ولقوله: ﴿وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾.

الثانية: أن الرياء من الشرك. لحديث: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، فسئل عنه فقال: «الرياء»، وقد سبق بيان أحكامه بالنسبة إلى إبطال العبادة.

الثالثة: أنه من الشرك الأصغر، لأن النبي ﷺ لما سئل عنه فقال: «الرياء»، فسماه شركًا أصغر، وهل يمكن أن يصل إلى الأكبر؟

ظاهر الحديث لا يمكن، لأنه قال: «الشرك الأصغر»، فسئل عنه، فقال: «الرياء».

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّهُ أَخْوَفُ مَا يُخَافُ مِنْهُ عَلَى الصَّالِحِينَ.

«الخَامِسَةُ» : قُرْبُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ.

«السَّادِسَةُ» : الجَمْعُ بَيْنَ قُرْبِهِمَا فِي حَدِيثٍ وَاحِدٍ.

«السَّابِعَةُ» : أَنَّهُ مَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ وَلَوْ كَانَ مِنْ أَعْبَدِ النَّاسِ.

«الثَّامِنَةُ» : المَسْأَلَةُ العَظِيمَةُ: سُؤَالُ الخَلِيلِ لَهُ وَلِبَنِيهِ وِقَايَةَ عِبادَةِ الأَصْنَامِ.

«التَّاسِعَةُ» : اعْتِبَارُهُ بِحَالِ الأَكْثَرِ؛ لِقَوْلِهِ: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم: ٣٦] .

الرابعة: أنه أخوف ما يخاف منه على الصالحين. وتؤخذ من قوله: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر»، ولأنه قد يدخل في قلب الإنسان من غير شعور لخفائه وتطلع النفس إليه، فإن كثيرًا من النفوس تحب أن تمدح بالتعبد لله.

الخامسة: قرب الجنة والنار. لقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا، دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا، دخل النار».

السادسة: الجمع بين قربهما في حديث واحد. «من لقي الله لا يشرك به شيئًا. . . .» الحديث.

السابعة: أن من لقيه يشرك به شيئًا دخل النار، ولو كان من أعبد الناس. تؤخذ من العموم في قوله: «من لقي الله»، لأن «من» للعموم، لكن إن كان شركه أكبر، لم يدخل الجنة وإن كان أعبد الناس، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ [المائدة: ٧٢]، وإن كان أصغر، عذب بقدر ذنوبه ثم دخل الجنة.

الثامنة: المسألة العظيمة سؤال الخليل له ولبنيه وقاية عبادة الأصنام، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ﴾.

التاسعة: اعتباره بحال الأكثر، لقوله: ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾. وفيه

«العَاشِرَةُ»: فِيهِ تَفْسِيرُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» كَمَا ذَكَرَهُ البُخَارِيُّ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: فَضِيلَةُ مَنْ سَلِمَ مِنَ الشِّرْكِ.

إشكال، إذ المؤلف يقول: بحال الأكثر، والآية: ﴿كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ﴾، وفرق بين كثير وأكثر، ولهذا قال تعالى في بني آدم: ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠]، فلم يقل على أكثر الخلق، ولا على الخلق، فالآدميون فضلوا على كثير ممن خلق الله، وليسوا أكرم الخلق على الله، ولكنه كرمهم.

العاشرة: فيه تفسير لا إله إلا الله كما ذكره البخاري. الظاهر أنها تؤخذ من جميع الباب، لأن لا إله إلا الله فيها نفي وإثبات.

الحادية عشرة: فضيلة من سلم من الشرك. لقوله: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ﴾، وقوله: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا، دخل الجنة».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «من مات وهو يشرك بالله شيئًا دخل النار» هذا خبر من الرسول ﷺ أنّ من مات على الشرك فهو من أهل النار، ولا يُغفر له. ولاحظوا كلمة «شيئًا» تعم الشرك كله، ما أشرك مع الله من نبي أو ولي أو ملك، لأن الشرك لا يقبله الله أبدًا: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾.

ومن يدري متى يموت؟ ومن يدري ماذا يموت عليه؟، فالإنسان يخاف على نفسه من سوء الخاتمة، وأن يموت وهو يشرك بالله، فيكون من أهل النار، فالإنسان يجب عليه أن يحذر من الشرك طول حياته لأنه لا يدري في أي لحظة يموت، فيكون من أهل النار.

فهذا فيه الخوف من الشرك، وأن الإنسان قد يُختم له بالشرك فيكون من أهل النار، ولو كان من أهل التّوحيد قبل ذلك، وعارف به، ومستقيم، لكن يخاف على نفسه من أنه يتنكس بعد ذلك، ويشرك بالله، ويموت على ذلك فيكون من أهل النار، فنسأل الله الثبات، فيكون عنده حذر دائمًا وأبدًا من الشرك.

قال: «ولمسلم عن جابر أن رسول الله ﷺ قال: «من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة» هذا فيه فضل التّوحيد، وأن من مات عليه دخل الجنة، وهذا وعد من

١٧) ٥- بَابٌ

الدُّعَاءُ إِلى شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِىۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسُف: ١٠٨].

الله سبحانه وتعالى، والله لا يخلف وعده، حتى ولو كان عنده ذنوب ومعاص دون الشرك، فقد يغفرها الله له ويدخله الجنة من غير عذاب، وقد يعذبه الله بها ثم يدخله الجنة، فمآل الموحّد إلى الجنة، إما ابتداءً وإما في النهاية.

فقوله: «من لقي الله» يعني: مات.

«ومن لقيه يُشرك به شيئًا دخل النار» هذا مثل حديث ابن مسعود، من مات على الشرك، فإنه من أهل النار، نسأل الله العافية.

فهذا فيه الحذر من سوء الخاتمة.

وفيه- كما ذكر الشيخ رحمه الله قرب الجنة والنار من الإنسان، فما بينه وبين الجنة والنار إلَّا أن يموت، ولا يدري، ربما يموت في الحال، ربما يموت بعد دقائق، أو بعد شهر، أو بعد سنة، ما بينه وبين النار والجنة إلَّا الموت، فإذا مات دخل النار أو دخل الجنة، ففيه قُرب الجنة والنار من الإنسان، والنبي ﷺ يقول: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك»[1].

١٧) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: باب وجوب فضيلة الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله؛ لأنها أختها.

فمراد المؤلف الدعوة إلى التوحيد وإلى اتباع الرسول، وهذا واجب على العلماء وفرض عليهم.

وهذا أخذه المؤلف من الكتاب والسنة كقوله: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾ ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ

---

(١) البخاري / باب الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك (٦١٢٣).

....

سَبِيلِيٓ﴾ ، ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ﴾

فالواجب أن يدعو العلماء إلى توحيد الله، والإخلاص له، وترك الإشراك معه وإلى الإيمان بالرسول ﷺ وتصديقه واتباع ما جاء به وترك مخالفته.

﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ الآية.

الخطاب للنبي ﷺ ولأمته: أي: قل هذه طريقتي ومحجتي التي أنا عليها من توحيد الله والإخلاص له وإيتاء الزكاة وغيرها، وهذا هو سبيل الله وصراطه المستقيم، وهو الإسلام والهدى والإيمان.

﴿أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ﴾ : لا إلى ملك أو حظ أو مال، أو شأن من شئون الدنيا، بل إلى توحيد الله واتباع شرعه.

﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ : على علم وهدى، ومن اتبعني: أي: أتباعي كذلك يدعون على بصيرة، فأتباعه هم أهل البصائر والعلماء الذين يدعون ودعوتهم على بصيرة، ومن لم يدع إلى سبيل الله من العلماء، فليس من أتباعه على الحقيقة، فأتباعه لا يسكتون، ولا يدعون على جهالة كما قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾ أي: بالعلم، وهذه هي وظيفة الأنبياء كلهم والعلماء والصالحين، وهذا هو الواجب على من عنده علم ويدعو في كل مكان في المسجد وغيره ويصبر.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ﴾ ، المشار إليه ما جاء به النبي ﷺ من الشرع عبادة ودعوة إلى الله.

سبيلي: طريقي.

قوله: ﴿أَدۡعُوٓاْ﴾ ، حال من الياء في قوله: ﴿سَبِيلِي﴾ ، ويحتمل أن تكون استئنافًا لبيان تلك السبيل.

وقوله: ﴿إِلَى ٱللَّهِ﴾ ، لأن الدعاة إلى الله ينقسمون إلى قسمين:

داع إلى الله.

داع إلى غيره.

فالداعي إلى الله تعالى هو المخلص الذي يريد أن يوصل الناس إلى الله تعالى.

. . . .

قوله: ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ ، أي: علم، . . . وليس المقصود بالعلم في قوله ﴿عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ العلم بالشرع فقط، بل يشمل، العلم بالشرع، والعلم بحال المدعو، والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة.

فيكون بصيرًا بحكم الشرع، وبصيرًا بحال المدعو، وبصيرًا بالطريق الموصلة لتحقيق الدعوة، ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ: «إنك تأتي قومًا أهل كتاب»[1].

قوله: ﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِي﴾ ، ذكروا فيها رأيين:

الأول: «أنا» مبتدأ، وخبرها «على بصيرة»، «ومن اتبعني» معطوفة على «أنا» أي: أنا ومن اتبعني على بصيرة، أي: في عبادتي ودعوتي.

الثاني: «أنا» توكيد للضمير المستتر في قوله: «أدع»، أي: أدعو أنا إلى الله ومن اتبعني يدعو أيضًا، أي: قل هذه سبيلي أدعو إلى الله ويدعو من اتبعني، وكلانا على بصيرة.

قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ ، أي: أن أكون أدعو على غير بصيرة!

وإعراب «سبحان»: مفعول مطلق عامله محذوف تقديره أسبح.

قوله: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، محلها مما قبلها في المعنى توكيد، لأن التوحيد معناه نفي الشرك.

*** ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** فقوله: «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلّا الله» أي: الدعوة، وأن المسلم الذي منّ الله عليه بمعرفة التّوحيد، ومعرفة الشرك لا يسعه أن يسكت وهو يرى الناس يجهلون التّوحيد، ويقعون في الشرك الأكبر والأصغر، ويسكت على ذلك، كما هو واقع كثير من طلبة العلم والعلماء، الذين يرون الناس على العقائد الفاسدة والعقائد الباطلة وعبادة الأضرحة، ويسكتون على ذلك، ويقولون: نحن لا نهتم إلّا بأنفسنا. بهذا ضيّعوا واجبًا عظيمًا، ولو أن العلماء وطلبة العلم قاموا بما أوجب الله عليهم من هذا الأمر في جميع

---

(١) البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن(٤٠٩٠)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب الدعاء إلى الشهادتين (١٩).

....

الأمصار؛ لرأيت للمسلمين حالة غير هذه الحالة، فالآن بلاد الإسلام تعج بالشرك الأكبر، تُبنى فيها المشاهد، والمزارات الشركية، ويُنفق عليها الأموال، ودول الكفر تساعد على ذلك، والمسلمون ساكتون على هذا الوضع، وهذا خطر عظيم أصاب الأمة، وما أصيبت به من حروب ومجاعات وأمور تعرفونها إنما هو نتيجة لهذا الإهمال- والعياذ بالله- فهذا واجب عظيم.

قال رحمه الله تعالى: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه الآية في آخر سورة «يوسف»، يأمر الله سبحانه وتعالى نبيه محمدًا ﷺ أن يُعلن للناس عن بيان منهجه ومنهج أتباعه، وهو الدعوة إلى الله على بصيرة، فدل على أن من لم يدع على بصيرة فإنه لم يحقق اتباع النبي ﷺ وإن كان عالمًا وفقيهًا.

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ أي: قل يا محمد للناس.

﴿هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ﴾ السبيل معناها: الطريق التي أسير عليها.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ إلى توحيد الله عزّ وجلّ وإفراده بالعبادة، وترك عبادة ما سواه، وكذلك الدعوة إلى بقيّة شرائع الدين، فتكون الدعوة للكفار للدخول في الإسلام، وتكون الدعوة للعصاة من المسلمين للتوبة إلى الله عزّ وجلّ وأداء الواجبات والتحذير من الوقوع في الشرك، واجتناب المحرمات.

﴿أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ قال الشيخ رحمه الله: «فيه التنبيه على الإخلاص، فإن بعض الناس إنما يدعو إلى نفسه» فقد يكون الإنسان يدعو، ويحاضر ويخطب، لكن قصده من ذلك أنه يتبيّن شأنه عند الناس، ويصير له مكانة، ويمدح من الناس، ويتجمهرون عليه، ويكثرون حوله، فإذا كان هذا قصده، فهو لم يدع إلى الله، وإنما يدعو إلى نفسه .

والإنسان الذي يترك الدعوة فإنه ترك واجبًا عظيمًا، والإنسان الذي لم يُخلص في الدعوة يقع في محظور عظيم، بل لا بد من الدعوة وأن تكون خالصة لوجه الله عزّ وجلّ، ويكون القصد منها إقامة شرع الله، والقصد منها هداية الناس ونفع

....

الناس، مدحوك أو ذمُّوك.

﴿ٱدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ البصيرة معناها: العلم، بل هي أعلى درجات العلم.

وفي هذا دليل على أنه يُشترط في الداعية أن يكون على بصيرة؛ أي: على علم بما يدعو إليه، أما الجاهل فلا يصلح للدعوة، بل لا بد أن يتزوّد بالعلم قبل أن يَشْرَع في الدعوة، لأنه في دعوته يتعرض إلى شبهات ومناظرات، فمن أين يجيب إذا وقف في وجه معاند أو معارض أو مشبِّه، كيف يستطيع الخلاص. إنه يفشل، ويصير نَكْسَة على الدعوة، أو يجيب بجهل ويكون الأمر أخطر، إما أن يسكت عن الجواب وينتصر عليه الخصم، وإما أن يجيب بجهل فيكون الأمر أخطر. هذا من ناحية.

والناحية الثانية: أن الداعية يحتاج إلى معرفة الحلال والحرام، فقد يقول بجهله: هذا الشيء حرام وهو حلال، وقد يقول بجهله: هذا الشيء حلال وهو حرام، فالداعية يجب أن يكون على علم بما يدعو إليه، بحيث أنه يعرف الحلال والحرام، ويعرف الواجب والمستحب والمحرّم والمكروه والمباح، ويعرف كيف يجيب على الاعتراضات والشبه والمجادلات، كما قال تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾، كيف يستطيع أن يجادل بالتي هي أحسن وهو ليس عنده علم؟! فيُشترط في الداعية: أن يتأهل بالعلم، فإن بعض الدعاة اليوم ليس عندهم علم، وإنما يجيد الكلام والشَّقْشَقَة والخطابة، لكن ليس عنده علم، بحيث لو عرضت له أدنى شُبهة، أو سئل عن أدنى مسألة في الحرام والحلال تخبّط فيها.

﴿أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ أي: وأتباعي يدعون إلى الله على بصيرة، فدلّ على أن من لم يدع إلى الله لم يحقق اتباع الرسول ﷺ وأن من دعا إلى الله على جهل لم يحقق اتباع الرسول ﷺ، بل إنه أدخل نفسه فيما ليس من شأنه، وصار خطرًا على الدعوة، وعلى الدعاة.

١٨) وَعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ لَمَّا بَعَثَ مُعَاذًا إِلَى اليَمَنِ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ تَأْتِي قَوْمًا مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ ، فَلْيَكُنْ أَوَّلُ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ شَهَادَةَ أَنْ لَا إِلهَ إِلَّا اللهُ» . وفِي رِوَايَةٍ: «إِلَى أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ . فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ، فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي كُلِّ

ثم قال: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ سبحان: اسم مصدر من سبّح بمعنى: نزّه الله عما لا يليق به من الشرك والقول عليه سبحانه وتعالى بلا علم، فإن الله يُنزَّه عن الشرك ويُنزَّه عن القول عليه بلا علم، فهذا فيه وجوب تنزيه الله سبحانه وتعالى عن النقائص. . .

﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ هذه براءة من الرسول ﷺ من المشركين، كما تبرّأ منهم خليل الله إبراهيم - عليه الصلاة والسلام-: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، ففيه البراءة من المشركين، يعني: قطع المحبة والمودّة والمناصرة بينك وبين المشركين، لأنهم أعداء الله وأعداء رسوله.

١٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث ابن عباس أن رسول الله لما بعث معاذًا إلى اليمن قال.

«قال له» : أي: أوصاه.

«إنك تأتي قومًا أهل كتاب» : أي: فليسوا جهالاً بل عندهم علوم وشبه، فنبهه ليستعد لهم، وليبلغ لهم أمر الله.

قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله» : أي: لا تلتفت إلى شبههم وعلومهم، بل بلغهم التوحيد، وإلى أن يوحدوه، وأن يخصوه بالعبادة دون غيره كالعزير وعيسى وأحبارهم ورهبانهم، وفي رواية (عبادة الله) وهي تفسير لشهادة أن لا إله إلا الله.

قوله: «فإن أطاعوك لذلك» : أي: أخلصوا العبادة، وتركوا غيره.

قوله: «فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات. . .» : هذا يدل على أن

يَوْم وَلَيْلَةٍ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ: فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللهَ افْتَرَضَ عَلَيْهِمْ صَدَقَةً تُؤْخَذُ مِنْ أَغْنِيَائِهِمْ فَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِنْ هُمْ أَطَاعُوكَ لِذَلِكَ فَإِيَّاكَ وَكَرَائِمَ أَمْوَالِهِمْ، وَاتَّقِ دَعْوَةَ المَظْلُومِ، فَإِنَّهُ لَيسَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ اللهِ حِجَابٌ» أَخْرَجَاهُ.

المشرك يدعى أولاً إلى التوحيد، فإن أجاب دعي إلى الصلاة، فإن أجاب وأقامها دعي إلى الزكاة التي تؤخذ من الأغنياء، وترد على الفقراء، وذكر الفقراء هنا يدل على أنهم أهم الأصناف، لذلك بدأ بهم في الآية: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَـٰتُ لِلْفُقَرَآءِ﴾.

قوله: «فإن أجابوك فإياك وكرائم أموالهم»: أي: لا تأخذ الأموال الثمينة عندهم بالقوة، بل الوسط -لأن الأموال: كريمة ومتوسطة ولئيمة- إلا إن طابت نفسه بالكريمة فهو أفضل لهم.

«واتق دعوة المظلوم»: أي: احذر أن تظلمهم فيدعون عليك فتصيبك دعوتهم. ودعوة المظلوم مستجابة.

وإنما اقتصر على هذه الأمور الثلاثة؛ لأنها أهم الأمور، ومن أجاب إليها أجاب إلى ما سواها من الحج والصوم وغيرها؛ لأنهم إذا استجابوا للأمور الثلاثة المتقدمة فإن إجابتهم عن إيمان وقناعة وهذا الإيمان يدفعهم إلى بقية الشرائع.

ولذلك اقتصر عليها القرآن: ﴿فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾.

وفي الحديث: «أمرت أن أقاتل الناس حتى...»[١] فالأصول الثلاثة هذه هي الأم.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وقوله (أي: قول ابن عباس): «بعث معاذًا» أي: أرسله، وبعثه على صفة المعلم والحاكم والداعي، وبعثه في ربيع الأول سنة عشر من الهجرة، وهذا هو المشهور، وبعثه هو وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهما، بعث معاذًا إلى صنعاء وما حولها، وأبا موسى إلى عدن وما حولها، وأمرهما: «أن اجتمعا وتطاوعا ولا تفترقا، ويسرا ولا تعسرا، وبشرا وذكرا ولا تنفرا»[٢].

---

(١) رواه البخاري (١٣٩٩) ومسلم (٢٠).

(٢) البخاري: كتاب المغازي/ باب بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٤٠٨٦).

....

قوله: «لما»، إعرابها شرطية، وهي حرف وجود لوجود، «لو»: حرف امتناع لامتناع، «لولا» حرف امتناع لوجود.

قوله: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب»، قال ذلك مرشدًا له، وهذا دليل على معرفته ﷺ بأحوال الناس، وما يعلمه من أحوالهم، فله طريقان:

١- الوحي. ٢- العلم والتجربة.

قوله: «من» بيانية، والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، فيكون المراد بأهل الكتاب اليهود والنصارى، وهم أكثر أهل اليمن في ذلك الوقت، وإن كان في اليمن مشركون، لكن الأكثر اليهود والنصارى، ولهذا اعتمد الأكثر...

قوله: «فليكن»، الفاء للاستئناف أو عاطفة، واللام للأمر، «أول»: اسم يكن، وخبرها «شهادة»، وقيل العكس، يعني «أول» خبر مقدم «شهادة» اسم يكن مؤخرًا.

قوله: «شهادة»، الشهادة هنا من العلم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، فالشهادة هنا العلم والنطق باللسان.

قوله: «لا إله»، أي: لا معبود، فإله بمعنى مألوه، فهو فعال بمعنى مفعول.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «بعث معاذًا» البعث معناه: الإرسال.

«إلى اليمن» القُطر المعروف، جنوب الجزيرة، سُمِّيَ باليمن لأنه يقع أيمن الكعبة، والشام سُمِّيَ بالشام لأنه يقع شاميَّ الكعبة.

وكان بعث معاذ في السنة العاشرة، وقيل: في آخر السنة التاسعة قبل وفاته ﷺ. أرسل قاضيًا ومعلّمًا وداعيًا إلى الله عزّ وجلّ، ينوب عن الرسول ﷺ في هذه المهمات.

فهذا أولاً: فيه مشروعية إرسال الدعاة إلى الله عزّ وجلّ، وأنه سنة نبوية.

وثانيًا: فيه فضيلة لمعاذ رضي الله عنه، حيث إن النبي ﷺ اختاره لهذه المهمة العظيمة، مما يدل على فضله وعلمه، لأن الرسول لا يرسل إلّا من توفّرت فيه الشروط المطلوبة، وقد توفّرت في معاذ رضي الله عنه، وكان أعلم الناس بالحلال والحرام.

....

وفيه -أيضًا- العمل بخبر الواحد، لأن الرسول ﷺ أرسل معاذًا وحده.

«قال له: «إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب» هذا فيه وصية الإمام لمندوبه حينما يرسله، أنه يخط له المنهج، ويرسم له الطريق الذي يسير عليه، وهذه سنة الرسول ﷺ في بعوثه، أنه إذا أرسل جيشًا أو سَرِيَّة يوصيهم.

«أهل الكتاب» أهل الكتاب المراد بهم: اليهود والنصارى، سُمُّوا أهل الكتاب لأن الله أنزل عليهم التوراة والإنجيل، التوراة على موسى عليه السلام والإنجيل على عيسى عليهما الصلاة والسلام.

قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلَّا الله» هذا فيه التدرّج في الدعوة، وأنه يبدأ بالأهم فالأهم، وهذه طريقة الرسل، أنهم أول ما يبدءون بالدعوة إلى شهادة أن لا إله إلَّا الله، لأنها الأصل والأساس، الذي يُبنى عليه الدين، فإذا تحققت شهادة أن لا إله إلَّا الله، فإنه يمكن البناء عليها بالأمور الأخرى، أما إذا لم تحقق شهادة أن لا إله إلَّا الله، فلا فائدة من بقية الأمور.

«وفي رواية: «إلى أن يوحدوا الله» لماذا جاء الشيخ بهذه الرواية؟، لأنها تفسِّر شهادة أن لا إله إلَّا الله، بأن معناها: توحيد الله سبحانه وتعالى وإفراده بالعبادة، ليس المقصود منها اللفظ فقط، بأن يقول: أشهد أن لا إله إلَّا الله، بل لابد أن يوحّد الله في العبادة، أما إذا نطق بها بلسانه ولم يوحّد الله في العبادة، فلا تنفعه شهادة أن لا إله إلَّا الله.

وفي هذا دليل على عموم رسالة محمد ﷺ، فإنه مبعوث إلى العالم كله، بما فيهم أهل الكتاب.

وقوله: «فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم» هذه هي الزكاة، وهي قرينة الصلاة في كتاب الله وفي سنة رسول الله ﷺ وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.

«تُؤخذ من أغنيائهم» في هذا دليل على أن الزكاة لا تجب على الفقير، وإنما تجب على الغني وهو من يملك النِّصاب فأكثر.

....

«فتردُّ في فقرائهم» هذا فيه مصرف من مصارف الزكاة، فالفقراء صنف واحد من الأصناف الثمانية المذكورة في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ إلى آخر الآية.

واستدل العلماء -رحمهم الله- بهذا على أن الزكاة لا تحل لغني، وأن مصرف الزكاة يجوز الاقتصار فيه على صنف واحد من الأصناف الثمانية، لأن الرسول ﷺ هنا اقتصر على الفقراء، ويدخل فيهم المساكين.

واستدلوا به- أيضًا- على أن مصرف الزكاة في البلد الذي فيه المال، لا ينبغي نقلها إلى بلد آخر، إلَّا إذا كان البلد الذي فيه المال ليس فيه فقراء، فإنها تنقل إلى أقرب بلد فيه فقراء من بلدان المسلمين.

«فإن هم أطاعوك لذلك، فإياك وكرائم أموالهم» الكرائم جمع كريمة وهي: النفيسة من المال، يعني: لا تأخذ في الزكاة أحسن الأموال، لأن هذا فيه إجحاف بهم، كما أنك لا تأخذ أردأ المال، لأن هذا فيه ظلم للفقراء، ولكن خذ المتوسط، بين النفيس وبين الرديء، هذا هو العدل.

«وإياك وكرائم» تحذير من الرسول ﷺ وفيه وجوب العدل على الولاة، وعدم الظلم.

«واتق دعوة المظلوم» هذه وصيّة هامة، يجب على الراعي والأمير وكل مسلم أن يحذر من دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب، أي دعوة المظلوم مستجابة، حتى ولو كان كافرًا: ﴿وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ فالمظلوم ترفع دعوته إلى الله عزّ وجلّ، والله جل وعلا يجيب دعوة المظلوم.

❁ ❁ ❁

١٩) وَلَهُمَا عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ : «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ ورَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللهُ وَرَسُولُهُ ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ» قَالَ: فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا فَلَمَّا أَصْبَحُوا غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كُلُّهُمْ يَرْجُو أَنْ يُعْطَاهَا ، فَقَالَ: «أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ؟» فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ . فَأَرْسَلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ ،وَدَعَا لَهُ ،فَبَرَأَ كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ ، فَقَالَ : «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلَام، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ، فَوَاللَّهِ لأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ

---

١٩) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولهما عن سهل بن سعد أن رسول الله ﷺ قال: «لأعطين الراية غدًا رجلًا. . .» وخوض الصحابة فيمن يعطاها وتمنيهم لها؛ لأن الرسول -عليه الصلاة والسلام- ذكر تعيين أن هذا الرجل بعينه يحب الله ويحبه الله ففيها زيادة فضل ومزية، ولذا قال عمر: ما أحببت الإمارة إلا يومئذ.

قوله: «فبرأ» : فيها من علامات صدق النبي عليه الصلاة والسلام.

وهي آية من آيات الله الدالة على قدرته العظيمة.

قوله: «على رسلك» : أي: على مهلك.

قوله: «بساحتهم» : أي: بقربهم؛ ليكون أشجع للمؤمنين وأرهب للأعداء.

أما البعيد فيضعف الجند ويشجع الأعداء.

قوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» : ولو كانوا قد دعوا من قبل من باب إقامة الحجة وكمال المعذرة، وهذا يدل على أنه ينبغي الاهتمام بالدعوة والحرص عليها قبل القتال ولو كانوا قد دعوا لعلهم يهتدون، ويستحب التكرار إذا دعت الحاجة خاصة من اليهود الذين يعرفون الحق، ولكنهم يحبون الدنيا، ويحسدون المؤمنين.

قوله: «ففتح عينه» : منقبة أخرى لعلي رضي الله عنه.

قوله: «فوالله لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك. . . .» : فيه عظم الدعوة

بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ حُمْرُ النَّعَمِ »

إلى الله، وأنها أهم من القتال، بل هي المقصودة من القتال، ولذلك بعثت الرسل.

قوله: «حمر النعم»: بضم الحاء وسكون الميم جمع أحمر، لا بضم الحاء والميم جمع حمار، فليس مرادًا هنا، والمعنى أي: خير لك من الإبل الثمينة وفيه بيان أهمية الدعوة وتعليم الناس، فإن أبوا قوتلوا ليكف شرهم، ولا يكونوا عقبة في طريق غيرهم إلى الإسلام، ويستعان بهم وبأموالهم في سبيل الله.

قوله: «لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك»: لا مانع من أن يعم الحديث حتى المسلم العاصي.

ويجوز أن يباغتهم بالحرب إن بلغتهم الدعوة كما أغار النبي ﷺ على بني المصطلق[1] وإن تكررت الدعوة قبل القتال للمصلحة فلا بأس، وفيه جواز القسم، وإن لم يحلف لتأكيد أمر، وقد يشرع، ويستحب عند الحاجة لتأكيد أمر حتى يعلم المخاطب أنه حق.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «لأعطين»، هذه جملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لأعطين.

قوله: «الراية»، العلم، وسمي راية، لأنه يُرى، وهو ما يتخذه أمير الجيش للعلامة على مكانه.

واللواء، قيل: إنه الراية، وقيل: ما لوي أعلاه، أو لوي كله، فيكون الفرق بينهما، أن الراية مفلولة لا تطوى، واللواء يطوى إما أعلاه أو كله، والمقصود منهما الدلالة، ولهذا يسمى علمًا.

قوله: «غدًا»، يراد به ما بعد اليوم، والأمس يراد به ما قبله.

قوله: «يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله». أثبت المحبة لله من الجانبين، أي: أن الله تعالى يحب ويحب.

قوله: «على يديه»، أي: يفتح خيبر على يديه، وفي ذلك بشارة بالنصر.

---

(١) رواه البخاري (٢٥٤١) ومسلم (١١٧٣٠).

يَدُوكُونَ: أَيْ: يَخُوضُونَ.

قوله: «يدوكون»، أي: يخوضون، وجملة يدوكون خبر بات.

قوله: «غدوا على رسول الله»، أي: ذهبوا إليه في الغدوة مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها؛ لينال محبة الله ورسوله.

قوله: «فقال: أين علي؟»، القائل: الرسول ﷺ.

قوله: «يشتكي عينيه»، أي: يتألم منهما، ولكنه يشتكي إلى الله، لأن عينيه مريضة.

وقوله: «فأرسلوا إليه»: بأمر الرسول ﷺ.

قوله: «فأتي به»، كأنه رضي الله عنه قد عمم على عينيه، لأن قوله: «أتي به»، أي: يقاد.

وقوله: «كأن لم يكن به وجع»، أي: ليس بهما أثر حمرة ولا غيرها.

قوله: «فبرأ»، هذا من آيات الله الدالة على قدرته وصدق رسوله ﷺ، وهذا من مناقب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «انفذ على رسلك»، أي: مهلك، مأخوذ من رسل الناقة، أي: حليبها يحلب شيئًا فشيئًا، والمعنى: امش هوينًا هوينًا، لأن المقام خطير، لأنه يخشى من كمين، واليهود خبثاء أهل غدر.

قوله: «حتى تنزل بساحتهم»، أي: ما يقرب منهم وما حولهم، والنبي ﷺ يقول: «إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين»[١].

قوله: «ثم ادعهم»، أي: أهل خيبر، «إلى الإسلام»، أي: الاستسلام لله.

قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم»، أي: فلا تكفي الدعوة إلى الإسلام فقط، بل يخبرهم بما يجب عليهم فيه حتى يقتنعوا به ويلتزموا، لكن على الترتيب الذي في حديث بعث معاذ.

قوله: «لأن يهدي الله»، اللام واقعة في جواب القسم، وأن بفتح الهمزة

---

(١) البخاري: كتاب الصلاة باب ما يذكر في الفخذ (٣٦٤)، ومسلم: كتاب الجهاد والسير باب غزوة خيبر (١٣٦٥).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: أَنَّ الدَّعْوَةَ إِلَى اللهِ طَرِيقُ مَنِ اتَّبَعَهُ ﷺ.

«الثَّانِيَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى الإِخْلاصِ، لأَنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَوْ دَعَا إِلَى الحَقِّ فَهُوَ يَدْعُو إِلَى نَفْسِهِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ البَصِيرَةَ مِنَ الفَرَائِضِ.

مصدرية، ويهدي مؤول بالمصدر مبتدأ، «وخير»: خبر، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُواْ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قوله: «حمر النعم» بتسكين الميم: جمع أحمر، وبالضم: جمع حمار، والمراد الأول.

وحمر النعم: هي الإبل الحمراء، وذكرها لأنها مرغوبة عند العرب، وهي أحسن وأنفس ما يكون من الإبل عندهم.

وقوله: «لأن يهدي الله بك»، ولم يقل: لأن تهدي، لأن الذي يهدي هو الله.

والمراد بالهداية هنا هداية التوفيق والدلالة.

فيه مسائل:

الأولى: أن الدعوة إلى الله طريق من اتبع رسول الله ﷺ وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾.

والأشمل من ذلك والأبلغ في مطابقة الآية أن يقال: إن الدعوة إلى الله طريق الرسل وأتباعهم.

الثانية: التنبيه على الإخلاص، وتؤخذ من قوله: «أدعو إلى الله»، ولهذا قال: «لأن كثيرًا من الناس لو دعا إلى الحق، فهو يدعو إلى نفسه»، فالذي يدعو إلى الله هو الذي لا يريد إلا أن يقوم دين الله، والذي يدعو إلى نفسه هو الذي يريد أن يكون قوله هو المقبول، حقًا كان أم باطلاً.

الثالثة: أن البصيرة من الفرائض، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾، ووجه كون البصيرة من الفرائض، لأنه لا بد للداعية من العلم بما يدعو إليه، والدعوة فريضة. فيكون العلم بذلك فريضة.

«الرَّابِعَةُ» : مِنْ دَلَائِلِ حُسْنِ التَّوْحِيدِ: كَوْنُهُ تَنْزِيهًا للهِ تَعَالَى عَنِ المَسَبَّةِ.

«الخَامِسَةُ» : أَنَّ مِنْ قُبْحِ الشِّرْكِ كَوْنَهُ مَسَبَّةً للهِ.

«السَّادِسَةُ» : وَهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا - إِبْعَادُ المُسْلِمِ عَنِ المُشْرِكِينَ لِئَلَّا يَصِيرَ مِنْهُمْ وَلَوْ لَمْ يُشْرِكْ.

«السَّابِعَةُ» : كَوْنُ التَّوْحِيدِ أَوَّلَ وَاجِبٍ.

«الثَّامِنَةُ» : أَنَّهُ يُبْدَأُ بِهِ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى الصَّلَاةِ.

«التَّاسِعَةُ» : أَنَّ مَعْنَى: «أَنْ يُوَحِّدُوا اللهَ» ، مَعْنَى شَهَادَةِ: أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

الرابعة: من دلائل حسن التوحيد كونه تنزيهًا لله عن المسبة، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، فسبحان الله دليل على أنه واحد لكماله.

الخامسة: أن من قبح الشرك كونه مسبة لله، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بعد قوله: ﴿وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ﴾ .

السادسة - وهي من أهمها -: إبعاد المسلم عن المشركين، لئلا يصير منهم، ولو لم يشرك. لقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ ، ولم يقل: «وما أنا مشرك»، لأنه إذا كان بينهم، ولو لم يكن مشركًا، فهو في ظاهره منهم، ولهذا لما قال الله للملائكة: ﴿ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ [البقرة: ٣٤]، توجه الخطاب له ولهم.

السابعة: كون التوحيد أول واجب، تؤخذ من قوله ﷺ: «فليكن أول ما تدعوهم إليه: شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية: «أن يوحدوا الله».

وقال بعض العلماء، أول واجب النظر، لكن الصواب أن أول واجب هو التوحيد، لأن معرفة الخالق دلت عليها الفطرة.

الثامنة: أن يبدأ به قبل كل شيء، تؤخذ من قوله ﷺ: «ادعهم إلى الإسلام، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه».

التاسعة: أن معنى أن يوحدوا الله معنى شهادة أن لا إله إلا الله، تؤخذ من تعبير الصحابي حيث عبر في رواية بقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله»، وفي رواية عبر

«العَاشِرَةُ» : أَنَّ الإِنسَانَ قَدْ يَكُونُ مِنْ أَهْلِ الكِتَابِ وَهُوَ لَا يَعْرِفُهَا، أَوْ يَعْرِفُهَا وَلَا يَعْمَلُ بِهَا.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : التَّنبِيهُ عَلَى التَّعْلِيمِ بِالتَّدْرِيجِ.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : البَدَاءَةُ بِالأَهَمِّ فَالأَهَمِّ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : مَصْرِفُ الزَّكَاةِ.

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : كَشْفُ العَالِمِ الشُّبْهَةَ عَنِ المُتَعَلِّمِ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : النَّهْيُ عَنْ كَرَائِمِ الأَمْوَالِ.

بقوله: «أن يوحدوا الله».

العاشرة: أن الإنسان قد يكون من أهل الكتاب، وهو لا يعرفها أو يعرفها ولا يعمل بها، ومراده بقوله: «لا يعرفها، أو يعرفها» شهادة أن لا إله إلا الله، وتؤخذ من قوله: «فليكن أول ما تدعوهم إليه شهادة أن لا إله إلا الله»، إذ لو كانوا يعرفون لا إله إلا الله ويعملون بها ما احتاجوا إلى الدعوة إليها.

الحادية عشرة: التنبيه على التعليم بالتدريج. تؤخذ من قوله ﷺ لمعاذ: «ادعهم إلى أن يوحدوا الله، فإن هم أطاعوك لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم...» إلخ الحديث.

الثانية عشرة: البداءة بالأهم فالأهم. تؤخذ من أمره ﷺ معاذًا بالتوحيد ليدعو إليه أولاً، ثم الصلاة، ثم الزكاة.

الثالثة عشرة: مصرف الزكاة. تؤخذ من قوله: «فترد على فقرائهم».

الرابعة عشرة: كشف العالم الشبهة عن المتعلم. المراد بالشبهة هنا: شبهة العلم، أي: يكون عنده جهل.

تؤخذ من قوله: «إن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»، فبين أن هذه الصدقة تؤخذ من الأغنياء، وأن مصرفها الفقراء.

الخامسة عشرة: النهي عن كرائم الأموال. تؤخذ من قوله: «فإياك وكرائم أموالهم»، إذ إياك تفيد التحذير، والتحذير يستلزم النهي.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : اتِّقَاءُ دَعْوَةِ المَظْلُوم.
«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : الإِخْبَارُ بِأَنَّهَا لَا تُحْجَبُ.
«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : مِنْ أَدِلَّةِ التَّوْحِيدِ مَا جَرَى عَلَى سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَسَادَاتِ الأَوْلِيَاءِ مِنَ المَشَقَّةِ وَالجُوعِ وَالوَبَاءِ.
«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ» : قَوْلُهُ: «لأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ» إِلخ. عَلَمٌ مِنْ أَعْلامِ النُّبُوَّةِ.
«العِشْرونَ» : تَفْلُهُ فِي عَيْنَيْهِ عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِهَا أَيْضًا.
«الحَادِيَةُ وَالعِشْرونَ» : فَضِيلَةُ عَلِيٍّ رضي الله عنه .
«الثَّانِيَةُ وَالعِشْرونَ» : فَضْلُ الصَّحَابَةِ فِي دَوْكِهِمْ تِلْكَ اللَّيْلَةَ وَشُغْلِهِمْ عَنْ بِشَارَةِ الفَتْحِ.

السادسة عشرة: اتقاء دعوة المظلوم. تؤخذ من قوله: «واتق دعوة المظلوم».

السابعة عشرة: الإخبار بأنها لا تحجب. تؤخذ من قوله: «فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»، فقرن الترغيب أو الترهيب بالأحكام، مما يحث النفس إن كان ترغيبًا، ويبعدها ويزجرها إن كان ترهيبًا.

الثامنة عشرة: من أدلة التوحيد ما جرى على سيد المرسلين وسادات الأولياء من المشقة والجوع والوباء. والظاهر أن المؤلف رحمه الله يريد الإشارة إلى قصة خيبر.

التاسعة عشرة: قوله: «لأعطين الراية» علم من أعلام النبوة؛ لأن هذا حصل، فعلي بن أبي طالب يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

العشرون: تفله في عينيه علم من أعلامها أيضًا؛ لأن بصق في عينيه، فبرأ كأن لم يكن به وجع.

الحادية والعشرون: فضيلة علي بن أبي طالب رضي الله عنه. وهذا ظاهر، لأنه يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله.

الثانية والعشرون: فضل الصحابة في دوكهم تلك الليلة وشغلهم عن بشارة الفتح. لأنهم انشغلوا عن بشارة الفتح بالتماسهم معرفة من يحب الله ورسوله،

«الثَّالِثَةُ وَالعِشْرونَ»: الإِيمَانُ بِالقَدَرِ، لِحُصُولِهَا لِمَنْ لَمْ يَسْعَ لَهَا وَمَنْعِهَا عَمَّنْ سَعَى.

«الرَّابِعَةُ وَالعِشْرونَ»: الأَدَبُ فِي قَوْلِهِ: «عَلَى رِسْلِكَ».

«الخَامِسَةُ وَالعِشْرونَ»: الدَّعْوَةُ إِلَى الإِسْلَامِ قَبْلَ القِتَالِ.

«السَّادِسَةُ وَالعِشْرونَ» : أَنَّهُ مَشْرُوعٌ لِمَنْ دُعُوا قَبْلَ ذَلِكَ وَقُوتِلُوا.

«السَّابِعَةُ وَالعِشْرونَ: » الدَّعْوَةُ بِالحِكْمَةِ، لِقَوْلِهِ: «أَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ».

«الثَّامِنَةُ وَالعِشْرونَ»: المَعْرِفَةُ بِحَقِّ اللهِ تَعَالَى فِي الإِسْلَامِ.

«التَّاسِعَةُ وَالعِشْرونَ»: ثَوَابُ مَنِ اهْتَدَى عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ وَاحِدٌ.

ويحبه الله ورسوله.

الثالثة والعشرون: الإيمان بالقدر لحصولها لمن لم يسع لها ومنعها عمن سعى؛ لأن الصحابة غدوا على رسول الله مبكرين، كلهم يرجو أن يعطاها ولم يعطوها، وعلى بن أبي طالب مريض ولم يسع لها، ومع ذلك أعطي الراية.

الرابعة والعشرون: الأدب في قوله: «على رسلك». ووجهه: أنه أمره بالتمهل وعدم التسرع.

الخامسة والعشرون: الدعوة إلى الإسلام قبل القتال. لقوله: «انزل بساحتهم ثم ادعهم إلى الإسلام».

السادسة والعشرون: أنه مشروع لمن دعوا قبل ذلك وقوتلوا.

السابعة والعشرون: الدعوة بالحكمة، لقوله: «أخبرهم بما يجب عليهم». لأن من الحكمة أن تتم الدعوة، وذلك بأن تأمره بالإسلام أولاً، ثم تخبره بما يجب عليه من حق الله.

الثامنة والعشرون: المعرفة بحق الله في الإسلام. تؤخذ من قوله: «وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه».

التاسعة والعشرون: ثواب من اهتدى على يديه رجل واحد. لقوله: «لأن يهدي

«الثَّلاثُونَ» : الحَلِفُ عَلَى الفُتْيَا.

الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم».

الثلاثون: الحلف على الفتيا؛ لقوله: «فوالله لأن يهدي الله. . . .» إلخ، فأقسم النبي ﷺ هو لم يستقسم، والفائدة هي حثه على أن يهدي الله به، والتوكيد عليه.

ولكن لا ينبغي الحلف على الفتيا إلا لمصلحة وفائدة.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال «لأعطين الراية»، الراية هي: العَلَم الذي يحمله الجُند، من أجل أن يهتدوا به، ويَلْتَفُّوا حوله في القتال، وحمل العَلَم في الغزو من سنة النبي ﷺ وكان له رايات، وكان مكتوبًا في رايته ﷺ: لا إله إلّا الله محمد رسول الله.

«رجلًا يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله»، هذه مِيزة عظيمة لهذا الرجل الذي يُعطيه رسول الله ﷺ الراية، ففيه فضل علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وأن الرسول ﷺ شهد له بهذه الشهادة العظيمة أنه يحب الله ورسوله، وأنه يحبه الله ورسوله، وله فضائل كثيرة، وإن كان الله جل وعلا يحب المؤمنين كلهم، والمؤمنون يحبون الله، كما قال الله: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾.

فالحاصل: أن مِيزة محبة الله ورسوله للمؤمنين موجودة في كل مؤمن ومؤمنة عمومًا، ولكن شهادة الرسول ﷺ لعلي بن أبي طالب بخصوصه فيها مزية له. ففي هذا ردٌّ على الخوارج، الذين خرجوا على أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وكفّروه،كما أن فيها ردًّا على النواصب الذين يُبغضون عليًّا، ويسبُّونه، وفيها إثبات فضيلة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيه: علامة من علامات النبوّة، حيث إن الرسول ﷺ أخبر عما يحصل في المستقبل، وقد حصل كما أخبر به ﷺ.

وقوله: «فلما أصبحوا غدوا على رسول الله» يعني: ذهبوا إليه مبكِّرين، من الغَدْوة، يقال: غدا؛ إذا ذهب في الغُدُو وهو الصباح، ويقال: راح؛ إذا ذهب في المساء، وقت الرّواح، فالغُدُوُّ: الذهاب في أول النهار. والرواح: الذهاب في آخر النهار.

....

«كلهم يرجو أن يُعطاها» أي: كلٌّ يرجو أن يكون هو ذلك الرجل، لرغبتهم في الجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الله، والحصول على هذه البشارة العظيمة.

قال رسول الله ﷺ: «أين علي بن أبي طالب؟» قال الشيخ رحمه الله: في هذا دليل على: «الإيمان بالقدر، لحصولها لمن لم يسع لها، ومنعها عمن سعى»، وأن الإنسان وإن فعل السبب فإنه قد لا يحصل على المطلوب، لكنا مأمورون بفعل الأسباب، أما النتائج فأمرها إلى الله سبحانه وتعالى، لكن يُؤجرون على مسعاهم، وعلى نيتهم الطيّبة، وعلى رغبتهم في الخير، وعلى خطواتهم ومشيهم إلى الرسول ﷺ.

وقال الشيخ أيضًا: «فيه تَفَقُّد الإمام أو القائد لجنده» يعني: من حضر ومن تخلف.

«قال: أين علي؟» هذا تَفَقُّد للجند، ما سكت وترك الذي لم يحضر، بل تَفَقَّده، فالإمام والقائد يَتفَقَّد جنوده، يَتَفَقَّد رعيّته، ولا يسمح لأحد أن يتخلف من غير عذر.

«قيل: هو يشتكي عينيه» أي: أصابه رمد، وهو مرض من أمراض العيون.

«فأرسلوا إليه» أرسل إليه من يأتي به.

«فأتي به، فبصق في عينيه» يعني: تفل من ريقه الطيب الطاهر في عيني علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

«ودعا له» بالشفاء.

«فبرأ كأن لم يكن به وجع» وهذا أيضًا من معجزاته ﷺ حتى قال علي: «لم يصبني رمد بعد ذلك» يعني: استمر هذا الشفاء طول حياته رضي الله عنه؛ ببركة ريق رسول الله ﷺ.

ولا شك أن التبرك بريق النبي ﷺ وبعَرَقِه وبوضوئه أمر مشروع، وهذا خاص بالنبي ﷺ، أما غيره فلا يُتبرك بشيء منه، لا يتبرك بشيء من الصالحين والأولياء، لأن هذا خاص بالرسول ﷺ، وأفضل الأمة بعد نبيِّها هو أبو بكر رضي الله عنه،

....

ومع ذلك لم يُتبرك بريقه ولا بعرقه رضي الله عنه، ما فعله الصحابة معه لعلمهم أن هذا لا يجوز إلّا في حق النبي ﷺ، وفيما انفصل من جسده ﷺ، أما أن يُتبرّك بحجرته أو بقبره، فهذا لا يجوز، لأن هذا ليس منفصلاً عن جسد النبي ﷺ، وسوف يأتينا باب خاص بمن تبرّك بشجرة أو حجر أو نحوها.

وقوله: «فأعطاه الراية» دفعها إليه.

ثم إنه ﷺ أرشده وأوصاه على عادته ﷺ مع قُوّاده وأمرائه أنه كان يوصي القُوّاد والأمراء حينما يبعثهم.

وقال: «انفذ على رِسْلِك» «انفذ» يعني: امض «على رِسْلِك» يعني: على هيّنتك، لا تُسرع في المشي، ولا يكون هناك أصوات أو صخب، بل يكون هناك هدوء تام، وسير بالرفق...

«حتى تنزل بساحتهم» الساحة يُراد بها: ما قَرُب من المكان، أي: حتى تنزل قريبًا من الحصن، وهذا فيه أن المجاهدين ينزلون قريبًا من البلاد المحاصرة، ويقربون منها.

وقوله: «ثم ادعهم إلى الإسلام» هذا محل الشاهد من الحديث للباب، «باب الدعاء إلى شهادة أن لا إله إلّا الله». حيث قال: «ادعهم إلى الإسلام» فهذا فيه دليل على وجوب الدعوة إلى الإسلام، وأن العدو يُدعى قبل أن يُقاتل، ولا يُبدأ بالقتال قبل الدعوة.

والإسلام هو: الاستسلام لله بالتّوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك وأهله، هذا هو الإسلام، انقياد مع خضوع وتعبد لله تعالى، من لم يستسلم لله كان مستكبرًا، ومن استسلم لله ولغيره كان مشركًا، ومن استسلم لله وحده كان موحّدًا مسلمًا.

«وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه» يعني. اشرح لهم معنى الإسلام، وبيّنه لهم، وما يجب عليهم من حق الله تعالى فيه من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وغير ذلك من أركان الإسلام.

٢٠) ٦-بَابٌ

تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ وَشَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَقَوْلُ الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ

ثم بيّن ﷺ فضيلة الدعوة إلى الله، فقال: «فوالله» أقسم ﷺ وهو الصادق المصدوق، والقَسَم أحيانًا يُؤتى به من أجل الاهتمام بالشيء وتوكيده، ولهذا يقول الشيخ في مسائله فيه: «الحَلِف على الفتيا»، الإنسان إذا أفتى بفتوى وهو يتأكد أنها هي حكم الله عزّ وجلّ يقسم عليها، ويحلف عليها.

«لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خيرٌ لك من حُمْر النَّعم» هذا ترغيب في الدعوة إلى الله عزّ وجلّ.

«حُمْر النعم» الإبل الحُمْر، جمع حمراء، وهي الناقة النفيسة؛ لأن الإبل الحُمْر أنفس أموال العرب.

فكيف إذا اهتدى على يديك جماعة؟ أو اهتدى على يدك أمة، أو اهتدى على يدك أجيال تأتي من بعدك؟

فهذا فيه: فضل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، والدعوة إلى الله أن تدعو الناس إلى كتاب الله وسنة رسوله، وإخلاص العبادة لله عزّ وجلّ، والحكم بما أنزل الله، هذه هي الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، ليست مجرد انتساب، أو مجرّد شكليّات، أو مجرّد شعارات، ولهذا فكل دعوة ترتكز على المنهج الصحيح تنجح بإذن الله ولو بعد حين.

٢٠) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** بين المؤلف هنا تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله بما يوافق لفظها، وبما يضادها؛ لأن الشيء يعرف بضده وقد قيل:

والضد يظهر حسنه الضد وبضدها تتميز الأشياء

وذكر هذا الباب لتعرف حقيقة التوحيد، وحقيقته: هو إفراد الله بالعبادة وتخصيصه بها وبجميع أنواع العبادة، فتؤمن بذلك بالقلب وتعمل بالجوارح.

وقوله: **«وشهادة أن لا إله إلا الله»**: هذا من باب عطف الدال -الشهادة- على المدلول، وهو التوحيد، فالتوحيد هو شهادة بالله وحده.

ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾. الآية [الإسراء: ٥٧] وقـــولُه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ الآية [الزخرف: ٢٦-٢٧].

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾.

وقبله قوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمۡ وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ فدعاء من لا يملك كشف الضر أو جلب النفع من دون الله هذا هو الشرك وضده هو التوحيد.

فقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾ أي: قل يا محمد لهؤلاء: ادعو الذين زعمتم -توبيخ لهم وتقريع- أي: ادعوا آلهتكم الذين تدعون من دون الله ﴿فَلَا يَمۡلِكُونَ كَشۡفَ ٱلضُّرِّ﴾ أي: الضر كله ﴿وَلَا تَحۡوِيلًا﴾ ولا تحويله من مكان إلى آخر من الرأس إلى الرجل مثلاً، بل هذا الله وحده هو الكاشفُ للضر والجالب للنفع.

وقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾: أراد بهم من يدعو الملائكة والأنبياء والصالحين، لذلك قال: ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ﴾ أي: هؤلاء المدعون صالحون في أنفسهم ومع ذلك لا يملكون كشف الضر ولا تحويله، فغيرهم من الأصنام من باب أولى.

والوسيلة: التقرب إلى الله بالطاعة ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ أي: يجتهدون إلى الله بتوسلهم وعبادتهم له بأنواع الطاعات: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾؛ لأنهم عبيده ويرجونه ويخافونه فكيف يستغاث بهم؟

وقوله: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي﴾ هذا تفسير التوحيد بمعناه فقوله: ﴿إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ﴾ كقولنا: لا إله، وقوله إلا الذي فطرني كقولنا إلا الله، والفطر: الخلق.

فبين أن معنى التوحيد: هو التبرؤ من عبادة غير الله وإنكارها واعتقاد بطلانها والرد عليها والتوحيد لله وحده بجميع أنواع العبادات.

تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله وَشَرَحَ هذه الترجمةَ ما بعدها من الأبواب.

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]. وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

وقوله: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

بين أن هذا شرك بالله، وأن التوحيد هو ألَّا يعبد إلا الله لا راهب ولا حبر ولا نبي ولا صالح، خلافًا لما فعله اليهود من اتخاذ الأحبار، والنصارى من اتخاذ الرهبان أربابًا بحيث يحلون ما أحلوا ويحرمون ما حرموا بدون دليل وإن خالف شرع الله وما جاءت به الرسل فصاروا بهذا عابدين لهم، لأنهم أطاعوهم فيما خالف الشرع وقدموه عليه كما في حديث عدي بن حاتم «**فتلك عبادتهم**»[1] ويصير بذلك كما قال بعد ذلك ﴿سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

فائدة:

بالنسبة لأصحاب القبور فقد اتخذهم القبوريُّون آلهة من دون الله، والواجب أن يبين لهم الحق؛ لأن عملهم كفر من أعظم الكفر، ولكن لا يقتلون، بل يبين لهم الحق لإقامة الحجة عليهم؛ فإن أصروا قتلوا إن يسر الله من يقيم ذلك عليهم.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية.

هذا أيضًا من تفسير التوحيد بضده وهو عن الذي يتخذ أندادًا يحبهم ويزعمهم ويدعوهم ويستغيث بهم أو يحبهم حبًّا خاصًّا يقتضي عبادتهم من دون الله هذا هو الشرك الأكبر، والله ذم هؤلاء وتوعدهم بالنار كما في آخر الآيات: ﴿كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَـٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: التفسير معناه: الكشف والإيضاح.

وقوله: «شهادة أن لا إله إلا الله»، معطوف على التوحيد، أي: وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله.

---

(١) رواه الترمذي (٣٠٩٥) والبيهقي (١٠/ ١١٦) والطبري في «التفسير» (١٦٦٤٧، ١٦٦٤٨) وابن أبي حاتم في «التفسير» (١٠٠٥٧) والطبراني في «الكبير» (٢١٨، ٢١٩).

....

والعطف هنا من باب عطف المترادفين، لأن التوحيد حقيقة هو شهادة أن لا إله إلا الله.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾. «أولاء»: مبتدأ.

﴿ٱلَّذِينَ﴾: اسم موصول بدل منه.

﴿يَدْعُونَ﴾: صلة الموصول.

وجملة ﴿يَبْتَغُونَ﴾: خبر المبتدأ، أي: هؤلاء الذين يدعوهم هؤلاء هم أنفسهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب، فكيف تدعونهم وهم محتاجون مفتقرون؟!

قوله: ﴿يَدْعُونَ﴾، أي: دعاء مسألة.

قوله: ﴿يَبْتَغُونَ﴾: يطلبون.

قوله: ﴿ٱلْوَسِيلَةَ﴾، أي: الشيء الذي يوصلهم إلى الله.

الآية الثانية والثالثة: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ﴾ الآيتين.

قوله: ﴿بَرَآءٌ﴾: على وزن فعال، وهي صفة مشبهة من التبرؤ، وهو التخلي، أي: إنني متخل غاية التخلي عما تعبدون إلا الذي فطرني، وإبراهيم عليه الصلاة والسلام قوي في ذات الله، فقال ذلك معلنًا به لأبيه وقومه، وأبوه هو آزر.

قوله: ﴿تَعْبُدُونَ﴾: العبادة هنا التذلل والخضوع، لأن في قومه من يعبد الأصنام، ومنهم من يعبد الشمس والقمر والكواكب.

قوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾: جمع بين النفي والإثبات، فالنفي: ﴿بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، والإثبات: ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، فدل على أن التوحيد لا يتم إلا بالكفر بما سوى الله والإيمان بالله وحده.

الآية الرابعة: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية.

قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ﴾: والمعطوف عليها المفعول الأول لـ(اتخذوا)، والثاني: «أربابًا»؛ أي: هؤلاء اليهود والنصارى صيروا أحبارهم ورهبانهم أربابًا.

والأحبار: جمع حبر.

قوله تعالى: ﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾، أي: عبادهم.

....

وقوله: ﴿أَرْبَابًا﴾: جمع رب، أي: يجعلونهم أربابًا من دون الله.
قوله: ﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، أي: من غير الله.
قوله: ﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾: معطوف على أحبارهم، أي: اتخذوا المسيح ابن مريم أيضًا ربًا حيث قالوا: إنه ثالث ثلاثة.
قوله: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟﴾، أي: يتذللوا بالطاعة لله وحده، الذي خلق المسيح والأحبار والرهبان والسماوات والأرض.
قوله: ﴿لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق إلا هو.
قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾: تنزيه لله عما يشركون.
الآية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية.
قوله: ﴿مِنَ ٱلنَّاسِ﴾: من للتبعيض، وعلامتها أن يصح أن يحل محلها بعض، والجار والمجرور متعلق بمحذوف خبر مقدم، و﴿مَن يَتَّخِذُ﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: من يجعل لله أندادًا، ومفعولها الأول «أندادًا» مؤخرًا، ومفعولها الثاني «من دون الله» مقدمًا.
وقوله: ﴿يَتَّخِذُ﴾: جاءت بالإفراد مراعاة للفظ «من».
وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ﴾: بالجمع مراعاة للمعنى.
وقوله: ﴿أَندَادًا﴾: جمع ند، وهو الشبيه والنظير، ولهذا قال النبي ﷺ لمن قال له ما شاء الله وشئت: «أجعلتني لله ندًّا؟! بل ما شاء الله وحده».
وقوله: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾: هذا وجه المشابهة، أي: الندية في المحبة يحبونهم كحب الله.
* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** وقول الشيخ: «تفسير التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلّا الله» هذا من عطف الدال على المدلول، المدلول هو التّوحيد، وشهادة أن لا إله إلّا الله هو الدال؛ لأن شهادة أن لا إله إلّا الله تدل على التّوحيد، فهو من عطف الدال على المدلول، والشيخ رحمه الله جمع بينهما في الترجمة ليبين

....

أن معناهما واحد، فمعنى التّوحيد هو لا إله إلّا الله، ومعنى لا إله إلّا الله هو التّوحيد، من أجل ألّا يخفى هذا على أحد، فيظن أن التّوحيد غير لا إله إلّا الله، بل هما شيء واحد، فهذا معنى جمع الشيخ رحمه الله، بين اللفظتين في الترجمة.

وقد ذكر الشيخ في هذا الباب أربع آيات، وذكر حديثًا واحدًا.

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾»، تتمة الآية: ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾.

قال جمهور المفسرين: إن هذه الآية نزلت في قوم كانوا يعبدون المسيح وأُمّه وعُزَيْرًا، فبيّن الله سبحانه أن هؤلاء الذين تدعونهم هم عبادي يدعونني، وهم فقراء إليّ يدعونني، ويتقربون إليّ بالطاعة، فهم عباد من عبادي، والعبد لا يصلح أن يكون معبودًا، وليس هناك في السماوات والأرض إلّا من هو عبد لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾، ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ﴾.

ثم بيّن سبحانه وتعالى أن هؤلاء الذين تدعونهم من دون الله أنهم عباد لله، هم بأنفسهم يدعون الله عزّ وجلّ؛ يرجون رحمته، ويخافون عذابه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾، فالملائكة وعيسى عليه السلام وأُمّه، وعُزَيْر، وكل الصالحين، والأولياء بهذه المثابة، كلهم يبتغون إلى ربهم الوسيلة.

والوسيلة معناها في الأصل السبب الذي يُوَصِّل إلى المقصود، فالسبب الذي يُوَصِّل إلى المقصود يسمى: وسيلة.

وأما معناها هنا: فالوسيلة: الطاعة والقُرب، فالملائكة- عليهم الصلاة والسلام- وعيسى- عليه الصلاة والسلام، وعُزَيْر عليه السلام، والأولياء والصالحون كلهم يتقرّبون إلى الله بالطاعة، يعبدون الله، يعبدون الله لأجل أي شيء؟ ﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ كل واحد يرجو أن يكون أقرب إلى الله سبحانه وتعالى، يتقرّبون إليه بطاعته، ﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ﴾، فدلّ على أنهم عباد فقراء إلى الله

....

سبحانه وتعالى، يرجون رحمة الله لأنهم بحاجة إليها، ويخافون عذاب الله أن ينزل بهم، إذًا هم لا يستطيعون أن يجلبوا لأنفسهم النفع، ولا يستطيعون أن يدفعوا عنها الضرر، فكيف يملكون ذلك لكم يا من تعبدونهم؟

فهذه الآية فيها أن من معنى لا إله إلّا الله: ألّا يُدعى إلّا الله، وأنها لا تتخذ الوسائط بين العباد وبين الله من الخلق؛ فمن اتخذ بينه وبين الله واسطة، فقد أخلّ بمعنى: لا إله إلّا الله.

هذه الآية الأولى في الباب: تدل على أن من معنى لا إله إلّا الله أن يُصرف الدعاء والتقرّب والعبادة لله سبحانه وتعالى، لا تُصرف لأحد من خلقه بحجة أنه واسطة بين العبد وبين ربه عزّ وجلّ، لأن الله ليس بينه وبين عباده واسطة من هذا النوع.

أما الواسطة في تبليغ الوحي فإن بين الله وبين عباده واسطة لتبليغ الوحي والرسالات.

أما الواسطة بين العباد وبين الله في رفع حوائجهم؛ فهذه غير موجودة.

الآية الثانية: قوله سبحانه وتعالى: «﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾».

«﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ﴾» أول ما بدأ بأبيه. «﴿وَقَوْمِهِۦٓ﴾» الذين بعثهم الله إليهم، وهم الأمة التي كانت تعبد الكواكب، وهم الصابئة المشركون الذين كانوا يعبدون الكواكب، وكان ملكهم النُّمْرُود.

وقوله: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾» براء وبريء بمعنىً واحد، معناه: قطع الصِّلة والبعد عن المُتَبَرَّأ منه، بخلاف الموالاة، فإن معناها: القُرب والاتصال بالمُوَالى، أما البراءة فمعناها: البعد والانقطاع، يقال: برأ القلم إذا قطعه.

«﴿مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾» يعني مما تعبدون من الأصنام والكواكب وغيرها، وهذا تحدٍّ لهم، تحدّى آلهتهم وتبرّأ منها، ولو كانت قادرة لانتقمت منه، لأنه يتبرّأ منها على

....

رءوس الأشهاد، ويكفر بها، ومع ذلك لا تمسُّه بسوء؟، هذا دليل على بُطلانها.

«﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ يعني: الله سبحانه وتعالى، «﴿فَطَرَنِى﴾»، يعني: خلقني، فالفَطْر معناه: ابتداء الخلق من غير مثال سابق، فلم يتبرّأ منه لأنه ربه وحده لا شريك له.

«﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾» وهذا معنى: لا إله إلّا الله، لأن قوله: «﴿إِنَّنِى بَرَآءٌ﴾» معناه: النفي؛ لا إله، «﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾» معناه، الإثبات؛ إلّا الله. فهذه الآية فيها معنى لا إله إلّا الله، إذًا فهي تفسر لا إله إلّا الله بأن معناها ترك عبادة الأصنام، والبراءة منها، وإخلاص العبادة لله.

«﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً﴾» جعل لا إله إلّا الله كلمة باقية في عقبه، في ذرية إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- فلا يزال فيها من يقول هذه الكلمة ويعمل بها إلى أن بعث محمد ﷺ بها، ودعا إليها. بقيت في عَقِبه، وإن خالفها الأكثر، إلّا أنه يوجد في ذرية إبراهيم عليه السلام من التزم بها ولو كانوا قليلين، إلى أن بُعث محمد ﷺ فلم تَخلُ الأرض من التّوحيد ولله الحمد، ولا تخلو إلّا عند قيام الساعة، وإذا خلت الأرض من التّوحيد قامت القيامة، كما في الحديث: «لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله الله».

﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ أي: يرجعون إليها، ويحققونها، وهذا حاصل والحمد لله، فإنه وإن حصل الشرك وكثر، فإن من ذرية إبراهيم عليه السلام من يرجع إلى التّوحيد الصحيح ويدعو إليه ويجدّده للناس، فهذا من رحمة الله سبحانه وتعالى.

الآية الثالثة: قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ تتمة الآية: ﴿وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ ﴿أَحۡبَارَهُمۡ﴾ الأحبار: جمع حَبْر، أو حِبْر، وهو العالم. والرهبان: جمع راهب، وهو العابد.

والأحبار والرهبان موجودون في اليهود والنصارى، فاليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، بأيّ شيءٍ اتخذوهم أربابًا من دون الله، فسرّ

....

ذلك النبي ﷺ لِعَدِي بن حاتم الطائي؛ لما جاء إلى النبي ﷺ وقرأ عليه الرسول ﷺ: «﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾»، واستشكلها عدي، لأنه كان نصرانيًا، فقال: يا رسول الله لسنا نعبدهم، فقال النبي ﷺ: «أليسوا يحرّمون ما أحل الله، فتحرمونه؟»، قال: بلى، قال: «أليسوا يحلُّون ما حرّم الله، فتحلُّونه؟»، قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم».

فمعنى: «﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾» أنهم أطاعوهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال؛ فدلّ هذا على أن من أطاع مخلوقًا في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله، فقد اتخذه ربًا يعبده من دون الله، وهذا ما يسميه العلماء بشرك الطاعة.

الآية الرابعة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ تتمة الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾.

«﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾» بعض الناس يعني: المشركين.

«﴿مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ﴾» يعني: غير الله.

«﴿أَندَادًا﴾» جمع نِدٍّ، والنّد معناه: الشبيه والنظير والمثيل، يقال: فلان نِدُّ فلان، بمعنى: أنه يشبهه، وأنه نظيره، وأنه يساويه.

فاتخاذ الأنداد من دون الله معناه اتخاذ الشركاء، سُمُّوا أندادًا لأن المشركين سوّوهم بالله عزّ وجلّ، وشبّهوهم بالله عزّ وجلّ، وأحبوهم محبة عبادة وتذلل.

«﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾» الحب عمل قلبي ضد البُغض.

فالمشركون اتخذوا من الأحجار والأشجار والأصنام شركاء لله سوّوهم بالله في المحبة، يحبونهم كما يحبون الله عزّ وجلّ، فالمراد هنا محبة العبادة، فالمشركون يحبون أصنامهم كما يحبون الله عزّ وجلّ محبة عبادة وتذلل.

«﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾» من المشركين لله، فالمشركون يحبون الله، والمؤمنون يحبون الله، ولكن المشركين يحبون الله ويحبون معه غيره، أما المؤمنون فيحبون الله وحده، ولا يشركون معه غيره في المحبة، فلذلك صار المؤمنون أشد

(٢١) وفِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ».

وَشَرْحَ هَذِهِ التَّرْجَمَةِ مَا بَعْدَهَا مِنَ الأَبْوَابِ.

فِيهِ أَكْبَرُ المَسَائِلِ وَأَهَمُّهَا: وَهِيَ تَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ، وتَفْسِيرُ الشَّهَادَةِ، وبَيَّنَهَا بِأُمُورٍ وَاضِحَةٍ.

«مِنْهَا»: «آيَةُ الإِسْرَاءِ»، بَيَّنَ فِيهَا الرَّدَّ عَلَى المُشْرِكِينَ الَّذِينَ يَدْعُونَ الصَّالِحِينَ، فَفِيهَا بَيَانُ أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

«وَمِنْهَا»: آيَةُ «بَرَاءَةٌ»، بَيَّنَ فِيهَا أَنَّ أَهْلَ الكِتَابِ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ، وَبَيَّنَ أَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمَرُوا إِلَّا بِأَنْ يَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا، مَعَ أَنَّ تَفْسِيرَهَا الَّذِي لا إِشْكَالَ فِيهِ طَاعَةُ العُلَمَاءِ وَالعُبَّادِ فِي المَعْصِيَةِ، لَا دُعَاؤُهُمْ إِيَّاهُمْ.

حبًا لله، لأن محبتهم خالصة، ومحبة المشركين مشتركة، فدلّت الآية على أن المشركين يحبون الله، ولكنهم لمّا أحبوا معه غيره صاروا مشركين، وأن التوحيد لا يصح إلّا بإخلاص المحبة لله عزّ وجلّ.

(٢١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الصحيح مرفوعًا: «من قال: لا إله إلا الله. وكفر بما يعبد من دون الله؛ حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل» . رواه مسلم عن سعد بن طارق الأشجعي.

وقوله: «من قال: لا إله إلا الله» وفي رواية: من وحد الله، وهذا يبين معنى لا إله إلا الله وأنه هو التوحيد.

قوله: «كفر بما يعبد من دون الله» : أنكر كل ما يعبد من دون الله واعتقد ذلك بقلبه، «حرم ماله ودمه» : أي: صار مسلمًا، ويلزمه القيام بشرائع الله.

«وحسابه على الله» : فإن كان صادقًا، فله الجنة؛ وإن قالها بلسانه لا بقلبه، فهو

«وَمِنْهَا»: قَوْلُ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِلْكُفَّارِ: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾ [الزُّخْرُف: ٢٦-٢٧]

من المنافقين، حكمه حكمهم في الدنيا وفي الآخرة في النار. اهـ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله» أي: لا معبود حق إلا الله، فلفظ الجلالة بدل من الضمير المستتر في الخبر، ومن يرى أن «لا» تعمل في المعرفة يقولون: هو الخبر.

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله»، أي: بعبادة من يعبد من دون الله.

قوله: «فيه أكبر المسائل وأهمها، وهي تفسير التوحيد».

فتفسير التوحيد أنه لا بد فيه من أمرين:

الأول: نفي الألوهية عما سوى الله عز وجل.

الثاني: إثبات الألوهية لله وحده، فلا بد من النفي والإثبات لتحقيق التوحيد.

قوله: «تفسير الشهادة». الشهادة: هي التعبير عما تيقنه الإنسان بقلبه فقول: أشهد أن لا إله إلا الله. أي: أنطق بلساني معبرًا عما يكنه قلبي من اليقين، وهو أنه لا إله إلا الله.

قوله: «منها آية الإسراء. وهو قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]، فبين فيها الرد على المشركين الذين يدعون الصالحين، وبين أن هذا هو الشرك الأكبر، لأن الدعاء من العبادة، قال تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، فدل على أن الدعاء عبادة، لأن آخر الكلام تعليل لأوله، فكل من دعا أحدًا غير الله حيًا أو ميتًا، فهو مشرك شركًا أكبر.

قوله: «ومنها آية براءة بين فيها أن أهل الكتاب اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله». وهذا شرك الطاعة، وهو بتوحيد الربوبية ألصق من توحيد الألوهية، لأن الحكم شرعيًا كان أو كونيًا إلى الله تعالى، فهو من تمام ربوبيته، قال تعالى: ﴿وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَىْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]، وقال تعالى: ﴿لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠].

قوله: «ومنها: قول الخليل عليه السلام للكفار: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ

فَاسْتَثْنَى مِنَ المَعْبُودِينَ رَبَّهُ، وَذَكَرَ سُبْحَانَهُ أَنَّ هَذِهِ البَرَاءَةَ وَهَذِهِ المُوَالَاةَ هِيَ تَفْسِيرُ شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ. فَقَالَ: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةَۢ بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ » [الزخرف: ٢٨].

«وَمِنْهَا» : آيَةُ البَقَرَةِ فِي الكُفَّارِ الَّذِينَ قَالَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ [البقرة: ١٦٧] ذَكَرَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ أَنْدَادَهُمْ كَحُبِّ اللهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللهَ حُبًّا عَظِيمًا، وَلَمْ يُدْخِلْهُمْ فِي الإِسْلَامِ، فَكَيْفَ بِمَنْ أَحَبَّ النِّدَّ أَكْبَرَ مِنْ حُبِّ اللهِ ؟! فَكَيْفَ لِمَنْ لَمْ يُحِبَّ إِلَّا النِّدَّ وَحْدَهُ، وَلَمْ يُحِبَّ اللهَ ؟!.

«وَمِنْهَا» قَوْلُهُ ﷺ : «مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ. وَكَفَرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ حَرُمَ مَالُهُ وَدَمُهُ، وَحِسَابُهُ عَلَى اللهِ» وَهذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا يُبَيِّنُ مَعْنَى (لَا إِلَهَ إِلَا اللهُ) فَإِنَّهُ لَمْ يَجْعَلِ التَّلَفُّظَ بِهَا عَاصِمًا لِلدَّمِ وَالمَالِ، بَلْ وَلَا مَعْرِفَةَ

إِنَّنِي بَرَآءٌ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، فاستثنى من المعبودين ربه». فدل هذا على أن التوحيد لا بد فيه من نفي وإثبات: البراءة مما سوى الله، وإخلاص العبادة لله وحدة.

قوله: «ومنها: آية البقرة في الكفار الذين قال الله فيهم:﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾ .

فجعل الله المحبة شركًا إذا أحب شيئًا سوى الله كمحبته لله، فيكون مشركًا مع الله في المحبة، ولهذا يجب أن تكون محبة الله خالصة لا يشاركه فيها أحد حتى محبة الرسول ﷺ فلولا أنه رسول ما وجب طاعته ولا محبته إلا كما نحب أي مؤمن، ولا يمنع الإنسان من محبة غير الله، بل له أن يحب كل شيء تباح محبته، كالولد، والزوجة، ولكن لا يجعل ذلك محبة الله.

قوله: «ومنها: قول النبي ﷺ: «من قال: لا إله إلا الله....» إلخ.

إذًا، فلا بد من الكفر بالطاغوت والإيمان بالله، قال تعالى:﴿فَمَن يَكۡفُرۡ

مَعْنَاهَا مَعَ لَفْظِهَا، بَلْ وَلَا الإِقْرَارَ بِذَلِكَ، بَلْ وَلَا كَوْنَهُ لَا يَدْعُو إِلَّا اللهَ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، بَلْ لَا يَحْرُمُ مَالُهُ وَدَمُهُ حَتَّى يُضِيفَ إِلَى ذَلِكَ الكُفْرَ بِمَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، فَإِنْ شَكَّ أَوْ تَوَقَّفَ لَمْ يَحْرُمْ مَالُهُ وَدَمُهُ. فَيَالَهَا مِنْ مَسْأَلَةٍ مَا أَعْظَمَهَا وَأَجَلَّهَا! وَيَالَهُ مِنْ بَيَانٍ مَا أَوْضَحَهُ، وَحُجَّةٍ مَا أَقْطَعَهَا لِلْمُنَازِعِ!

بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

قوله: «وكفر بما يعبد من دون الله». أي: كفر بالأصنام، وأنكر أن تكون عبادتها حقًّا، فلا يكفي أن يقول: لا إله إلا الله، ولا أعبد صنمًا، بل لا بد أن يقول: الأصنام التي تعبد من دون الله أكفر بها وبعبادتها.

فمن رضي دين النصارى دينًا يدينون لله به، فهو كافر لأنه إذا ساوى غير دين الإسلام مع الإسلام، فقد كذب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥].

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «وفي الصحيح» يعني: صحيح الإمام مسلم.

«عن النبي ﷺ قال: «من قال لا إله إلّا الله. وكفر بما يُعبد من دون الله؛ حَرُم ماله ودمه، وحسابه على الله» علّق حُرمة المال والدم على شيئين:

الشيء الأول: أن ينطق بكلمة لا إله إلّا الله.

الشيء الثاني: أن يكفر بما يُعبد من دون الله، فإذا تحقق هذان الشيئان حرُم ماله ودمه، لأنه صار مسلمًا، والمسلم يحرُم دمه وماله.

«وحسابه على الله» فإن كان صادقًا في قول هذه الكلمة، فإنه يكون مسلمًا حقًّا، باطنًا وظاهرًا ويدخل الجنة، وإن كان قالها ظاهرًا فقط فهذا هو النفاق، وذلك يحقن دمه ويحرم ماله، ولكنه في الآخرة يكون في النار ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

فهذا الحديث على اختصاره منهج عظيم، يبيّن معنى شهادة أن لا إله إلّا الله،

٢٢) ٧- بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ لُبْسُ الحَلقَةِ وَالخَيْطِ وَنَحْوِهِمَا لِرَفْعِ البَلَاءِ أَوْ دَفْعِهِ وَقَوْلُ

وأنها ليست مجرد لفظ يقال باللسان ويردّد في الأذكار والأوراد، وإنما هي حقيقة تقتضي منك أن تكفر بما يُعبد من دون الله، وأن تتبرّأ من المشركين، ولو كان أقرب الناس إليك، كما تبرأ الخليل -عليه الصلاة والسلام- من أبيه وأقرب الناس إليه.

ثم قال رحمه الله: «وشرح هذه الترجمة ما بعدها من الأبواب» أي: أن الأبواب الآتية إلى آخر كتاب التّوحيد، كلها تفسير لهذه الكلمة، مثل باب: النهي عن لبس الحَلْقَة والخيط، والتبرك بالأشجار والأحجار وباب السِّحر، وباب التَّنْجيم، وباب ما جاء في الطِّيَرة، وباب الرُّقى والتمائم، إلى آخر ما في هذا الكتاب من الأبواب، كله يفسِّر التّوحيد، ويفسِّر معنى: لا إله إلَّا الله.

٢٢) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لم يقرأ هذا الباب على الشيخ رحمه الله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من الشرك»، من هنا للتبعيض، أي: أن هذا بعض الشرك، وليس كل الشرك، والشرك: اسم جنس يشمل الأصغر والأكبر، ولبس هذه الأشياء قد يكون أصغر وقد يكون أكبر بحسب اعتقاد لابسها، وكان لبس هذه الأشياء من الشرك، لأن كل من أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا شرعيًا ولا قدريًا، فقد جعل نفسه شريكًا مع الله.

قوله: «لبس الحلقة والخيط»، الحلقة: من حديد أو ذهب أو فضة أو ما أشبه ذلك، والخيط معروف.

قوله: «ونحوهما»، كالمرصعات، وكمن يصنع شكلًا معينًا من نحاس أو غيره لدفع البلاء، أو يعلق على نفسه شيئًا من أجزاء الحيوانات، والناس كانوا يعلقون القرب البالية على السيارات ونحوها لدفع العين، حتى إذا رآها الشخص نفرت نفسه

الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَـٰشِفَـٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾ الآية [الزمر: ٣٨].

فلا يعين.

قوله: «لرفع البلاء، أو دفعه»، الفرق بينهما: أن الرفع بعد نزول البلاء، والدفع قبل نزول البلاء.

وقول الله تعالى: «أفرأيتم»، أي: أخبروني، وهذا تفسير باللازم، لأن من رأى أخبر، وإلا، فهي استفهام عن رؤية، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ﴾ [الماعون: ١]، أي: أخبرني ما حال من كذب بالدين؟ وهي تنصب مفعولين، الأول مفرد، والثاني جملة استفهامية.

وقوله: «ما»، المفعول الأول لرأيتم، والمفعول الثاني جملة: «إن أرادني الله بضر».

وقوله: ﴿تَدْعُونَ﴾ ، المراد بالدعاء دعاء العبادة ودعاء المسألة، فهم يدعون هذه الأصنام دعاء عبادة، فيتعبدون لها بالنذر والذبح والركوع والسجود، ويدعونها دعاء مسألة لدفع الضرر أو جلب النفع.

وقوله: ﴿كَـٰشِفَـٰتُ﴾ ، يشمل الدفع والرفع، فهي لا تكشف الضر بدفعه وإبعاده، ولا تكشفه برفعه وإزالته.

وقوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ ، أي: كافيني، والحسب: الكفاية، ومنه قوله تعالى: ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾ [النبأ: ٣٦]، من الحسب، وهو الكفاية، وحسبي، مبتدأ ولفظ الجلالة خبر، وهذا أبلغ.

قوله: ﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾ . قدم الجار والمجرور لإفادة الحصر، لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقوله رحمه الله تعالى: «بابٌ من الشرك» أي: من أنواع الشرك، «لبس الحلْقة والخيط ونحوهما» مما يعلّق على البدن أو على الدابة، أو على السيارة أو على الأبواب من الأشياء التي يعتقدون فيها أنها تدفع عين الحاسد، وأنّها تحرس البدن، أو تحرس الدابة، أو تحرس السيارة أو

....

تحرس البيت أو المتجر من الشرور والمحاذير.

وهذه عادة جاهلية لا تزال في بعض الناس إلى اليوم، بل تتزايد بسبب الجهل، فإنهم يعلّقون هذه الأشياء على أجسامهم، وعلى أجسام الأطفال، وعلى السيارات، والدكاكين، والبيوت، قصدهم من ذلك أن هذه الأشياء تدفع عنهم الشرور والمحاذير، وهذا من الشرك؛ لأنه تعلق على غير الله سبحانه وتعالى، لأن الله جل وعلا وهو الذي يدفع الشر، وهو الذي إذا أراد بعبده شيئًا فلا بد أن يقع إما في نفسه أو في ماله أو في أهله، فلا أحد يدفعه، وإذا منع شيئًا فلا أحد ينزله ﴿مَّا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ﴾»، تتمة الآية: ﴿أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

هذه الآية من سورة «الزمر»، السورة العظيمة التي قرّر الله فيها التّوحيد، وأبطل فيها أنواع الشرك، فالسورة من أولها إلى آخرها تعالج قضية العقيدة، وتعالج قضية أنواع الشرك التي كان المشركون يزاولونها، فأبطلتها هذه السورة ونقضتها، ومن ذلك هذه الآية الكريمة.

«﴿قُلْ﴾» يا محمد، الخطاب للنبي ﷺ أي: قل لهؤلاء المشركين: «﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾» من الأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأضرحة والأولياء والصالحين، وكل ما يُعبد من دون الله. فالسؤال موجّه إلى كل مشرك على وجه الأرض إلى أن تقوم الساعة، هل يستطيع الإجابة عنه؟ لا.

«﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم﴾» أي: أخبروني «﴿مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ﴾» «﴿مَا﴾» عامة لكل ما يُدعى من دون الله، لا يُستثنى منها شيء، سواء كان من البشر أو من الجماد أو غير ذلك.

«﴿إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ﴾» يعني: بضرر، أو بفقر، أو بموت، أو أرادني بضياع مال، أو إصابة في قريب، أو غير ذلك مما يضرّني في بدني أو في مالي أو في أهلي.

. . . .

«﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾» هل هذه المعبودات التي تعبدونها تستطيع أن تكشف الضر عمّن دعاها ؟ وهذا مثل ما سبق في قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، «﴿هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ﴾»؟ سؤال استنكار ونفي، أي. لا تكشف الضر عمن دعاها.

«﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾» أي: هو كافيني، لأن الحَسْب معناه: الكافي، فهذا فيه تفويض الأمور إلى الله سبحانه وتعالى، وتعليق القلوب بالله سبحانه وتعالى دونما سواه، لما أبطل الشرك في أول الآية قرّر التوحيد بقوله: ﴿قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: هو كافيني ولن يستطيع أحد أن يضرني من دون الله أو ينفعني من دون الله، ولهذا يقول هود -عليه الصلاة والسلام- لقومه: ﴿قَالَ إِنِّىٓ أُشْهِدُ ٱللَّهَ وَٱشْهَدُوٓا۟ أَنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٥٤﴾ مِن دُونِهِۦ ۖ فَكِيدُونِى جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنظِرُونِ﴾ ثم قال: ﴿إِنِّى تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّى وَرَبِّكُم ۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ ۚ إِنَّ رَبِّى عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ .

«﴿عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾» ولا يتوكلون على الحلْقة والخيط والصنم والقبر والولي أو غير ذلك، بل الذي يُتوكّل عليه هو الله سبحانه وتعالى، لأنه بيده مقادير الأشياء.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال لعبد الله بن عباس: «واعلم أن الخلق لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفّت الصحف».

❁ ❁ ❁

٢٣) عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ حَلْقَةٌ مِنْ صُفْرٍ ،فَقَالَ : «مَا هَذا» قَالَ : مِنَ الْوَاهِنَةِ . قَالَ: «انْزِعْهَا فَإِنَّهَا لا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا، فَإِنَّكَ لَوْ مِتَّ وَهِيَ عَلَيْكَ، مَا أَفْلَحْتَ أَبَدًا» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ لَا بَأْسَ بِهِ.

وَلَهُ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً ،فَلَا أَتَمَّ اللهُ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ» . وَفِي رِوَايَةٍ: «مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، فَقَدْ أَشْرَكَ» . وَلابْنِ أَبِي حَاتِمٍ عَنْ حُذَيْفَةَ أَنَّهُ رَأَى رَجُلاً فِي يَدِهِ خَيْطٌ مِنَ الحُمَّى فَقَطَعَهُ، وَتَلا قَوْلَهُ: «وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ» [يوسف: ١٠٦].

---

٢٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لم يقرأ على الشيخ رحمه الله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في حديث عمران: «رأى رجلًا». لم يبين اسمه، لأن المهم بيان القضية وحكمها، لكن ورد ما يدل على أنه عمران نفسه، لكنه أبهم نفسه.

قوله: «حلقة من صفر، فقال: ما هذه؟ قال: من الواهنة»، والحلقة والصفر معروفان، وأما الواهنة، فوجع في الذراع أو العضد.

«ما أفلحت»: الفلاح هو النجاة من المرهوب وحصول المطلوب.

قوله: «من تعلق تميمة»: أي علق بها قلبه واعتمد عليها في جلب النفع ودفع الضرر، والتميمة: شيء يعلق على الأولاد من خرز أو غيره يتقون به العين.

وقوله: «فلا أتم الله له». الجملة خبرية بمعنى الدعاء، ويحتمل أن تكون خبرية محضة، وكلا الاحتمالين دال على أن التميمة محرمة.

ومثل ذلك قوله ﷺ: «ومن يتعلق ودعة، فلا ودع الله له».

والودعة: واحدة الودع، وهي أحجار تؤخذ من البحر يعلقونها لدفع العين.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: التَّغْلِيظُ فِي لُبْسِ الحَلْقَةِ والخَيْطِ ونَحْوِهِمَا لِمِثْلِ ذَلِكَ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ الصَّحَابِيَّ لَوْ مَاتَ وَهِيَ عَلَيْهِ مَا أَفْلَحَ. فِيهِ شَاهِدٌ لِكَلامِ

قوله: «لا ودع الله له»، أي: لا تركه الله في دعة وسكون، وضد الدعة والسكون القلق والألم.

وقوله: «فقد أشرك»، هذا الشرك يكون أكبر إن اعتقد أنها ترفع أو تدفع بذاتها دون أمر الله، وإلا، فهو أصغر.

قوله: «من الحمى»، «من» هنا للسببية، أي: في يده خيط لبسه من أجل الحمى لتبرد عليه، أو يشفى منها.

قوله: «فقطعه» أي: قطع الخيط.

وقوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، أي وتلا حذيفة هذه الآية. والمراد بها المشركون الذين يؤمنون بتوحيد الربوبية ويكفرون بتوحيد الألوهية.

وقوله: ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في محل نصب على الحال، أي: وهم متلبسون بالشرك.

قوله: «فيه مسائل»، أي: في هذا الباب مسائل:

الأولى: التغليظ في لبس الحلقة والخيط ونحوهما لمثل ذلك؛ لقوله ﷺ: «انزعها لا تزيدك إلا وهنًا؛ لو مت وهي عليك، ما أفلحت أبدًا»، وهذا تغليظ عظيم في لبس هذه الأشياء والتعلق بها.

الثانية: أن الصحابي لو مات وهي عليه ما أفلح، هذا وهو صحابي، فكيف بمن دون الصحابي؟! فهو أبعد عن الفلاح.

قوله: «لكلام الصحابة»، أي: لقولهم، وهو كذلك، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا»[1].

---

(١) مصنف عبد الرزاق (٨/٤٦٩)، والهيثمي في «مجمع الزوائد» (٤/١٧٧)، وقال: أخرجه الطبراني في الكبير ورجاله رجال الصحيح».

الصَّحَابَةِ: أَنَّ الشِّرْكَ الأَصْغَرَ أَكْبَرُ مِنَ الكَبَائِرِ .

«الثَّالِثَةُ» : أَنَّهُ لَمْ يُعْذَرْ بِالجَهَالَةِ.

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّهَا لَا تَنْفَعُ فِي العَاجِلَةِ ،بَلْ تَضُرُّ، لِقَوْلِهِ: «لَا تَزِيدُكَ إِلَّا وَهْنًا» .

«الخَامِسَةُ» : الإِنْكَارُ بِالتَّغْلِيظِ عَلَى مَنْ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ.

«السَّادِسَةُ» : التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ.

«السَّابِعَةُ» : التَّصْرِيحُ بِأَنَّ مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً فَقَدْ أَشْرَكَ.

الثالثة: أنه لم يعذر بالجهالة. هذا فيه نظر، لأن قوله ﷺ: «لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا» ليس بصريح أنه لو مات قبل العلم، بل ظاهره: «لو مت وهي عليك ما أفلحت أبدًا»، أي: بعد أن علمت وأمرت بنزعها.

الرابعة: أنها لا تنفع في العاجلة، بل تضر، لقوله: «لا تزيدك إلا وهنًا». والمؤلف استنبط المسألة وأتى بوجه استنباطها.

الخامسة: الإنكار بالتغليظ على من فعل مثل ذلك، أي: ينبغي أن ينكر إنكارًا مغلظًا على من فعل مثل هذا، ووجه ذلك سياق الحديث الذي أشار إليه المؤلف، وأيضًا قوله: «من تعلق تميمة، فلا أتم الله له».

السادسة: التصريح بأن من تعلق شيئًا وكل إليه. تؤخذ من قوله: «من تعلق تميمة، فلا أتم الله له» إذا جعلنا الجملة خبرية، وأن من تعلق تميمة، فإن الله لا يتم له، فيكون موكولاً إلى هذه التميمة، ومن وكل إلى مخلوق، فقد خذل، ولكنها في الباب الذي بعده صريحة، «من تعلق شيئًا وكل إليه»[1].

السابعة: التصريح بأن من تعلق تميمة، فقد أشرك. وهو إحدى الروايتين في حديث عقبة بن عامر.

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ٣١٠)، والترمذي أبواب الطب، باب ما جاء في كراهة التعليق (٢٠٧٣).

«الثَّامِنَةُ»: أَنَّ تَعْلِيقَ الخَيْطِ مِنَ الحُمَّى مِنْ ذَلِكَ.

«التَّاسِعَةُ»: تِلاوَةُ حُذَيْفَةَ الآيَةَ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الصَّحَابَةَ يَسْتَدِلُّونَ بِالآيَاتِ الَّتِي فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ عَلَى الأَصْغَرِ، كَمَا ذَكَرَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي آيَةِ البَقَرَةِ.

«العَاشِرَةُ»: أَنَّ تَعْلِيقَ الوَدَعِ مِنَ العَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: الدُّعَاءُ عَلَى مَنْ تَعَلَّقَ تَمِيمَةً، أَنَّ اللهَ لا يُتِمُّ لَهُ، وَمَنْ تَعَلَّقَ وَدَعَةً، فَلَا وَدَعَ اللهُ لَهُ؛ أَيْ: لا تَرَكَ اللهُ لَهُ.

الثامنة: أن تعليق الخيط من الحمى من ذلك. يؤخذ من فعل حذيفة أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحمى فقطعه، وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾.

التاسعة: تلاوة حذيفة الآية دليل على أن الصحابة يستدلون بالآيات التي في الشرك الأكبر على الأصغر كما ذكر ابن عباس في آية البقرة.

أي أن قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ في الشرك الأكبر، لكنهم يستدلون بالآيات الواردة في الشرك الأكبر على الأصغر، لأن الأصغر شرك في الحقيقة وإن كان لا يخرج من الملة.

العاشرة: أن تعليق الودع من العين من ذلك، وقوله: «من ذلك»، أي: من تعليق التمائم الشركية، لأنه لا أثر لها ثابت شرعًا ولا قدرًا.

الحادية عشرة: الدعاء على من تعلق تميمة أن الله لا يتم له، ومن تعلق ودعة، فلا ودع الله له، أي: ترك الله له. تؤخذ من دعاء النبي ﷺ على هؤلاء الذين اتخذوا تمائم وودعًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «عمران بن حُصين» بن عُبيد الخزاعي، هو وأبوه صحابيّان رضي الله عنهما، ومن أفاضل الصحابة.

«أن النبي ﷺ رأى رجلًا» الرجل مُبْهَم، ولكن جاءت الرّوايات أنه هو نفس عمران بن حُصين، دخل على النبي ﷺ.

«وفي يده حلقة» الحلْقة هي: الشيء المستدير الذي يُدار على العضد، أو على

....

الذِّراع، أو على الأصبع. فالشيء المستدير يسمى حلْقة، ومنه تحلّق القوم إذا استداروا في الجلوس.

«من صُفر» الصفر نوع من المعدن معروف.

«فقال النبي ﷺ: «ما هذا؟» الظاهر أنه سؤال إنكار، وقيل: إنه سؤال استفهام، فالنبي ﷺ سأله عن قصده في هذه الحلقة.

ففيه دليل على وجوب إنكار المنكر، وفيه دليل على أن الإنسان لا ينكر شيئًا حتى يعرف مقصود صاحبه إذا كان الشيء محتمِلًا، فإن كان مقصود صاحبه شرًّا فإنه ينكره.

«قال: من الواهنة» يعني: لبستها من أجل دفع الواهنة، لتقيني منها، والواهنة مرض يصيب اليد، يُسَمَّى عند العرب بالواهنة، وكان من عادتهم لبس الحلْقة من أجل توقِّي هذا الوجع، يزعمون أن هذه الحلْقة تدفع هذا الوجع.

«فقال النبي ﷺ: «انزعها» النزع معناه: الرفع بشدّة، أي: ارفعها مسرعًا بنزعها ونشيطًا في رفعها لا تتوانى، في تركها على جسمك، لأنها مظهر شرك والعياذ بالله.

ففيه المبادرة بإزالة مظاهر الشرك، وأن الإنسان لا يتوانى في تركه.

«فإنك لو متّ وهي عليك ما أفلحت أبدًا» ؛ أي: لو مات ولم يتب منها ما أفلح أبدًا.

فهذا فيه دليل على أن الشرك لا يُغفر حتى ولو كان شركًا أصغر، يُعذّب به، وإن كان لا يعذّب تعذيب المشرك الشرك الأكبر؛ فلا يخلّد في النار، لكن يعذّب بها بقدره.

قال الشيخ رحمه الله في مسائله: «فيه شاهد لكلام الصحابة: أن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر»، فالشرك الأصغر أكبر من الكبائر، لأن المعاصي وإن كانت كبائر إذا لم تكن شركًا، فلا تخل بالعقيدة؛ وأما الشرك الأصغر، فإنه يخلّ بالعقيدة، وأيضًا لا يُغفر على الصحيح، والمعاصي الكبائر التي دونه مظِنّة المغفرة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾.

....

قال: «وله» أي: للإمام أحمد رحمه الله «من تعلق تميمة فلا أتم الله له» إلخ.

قوله: «من تَعَلَّق» أي: من علّق هذا الشيء على جسمه، أو علّق قلبه به، واعتقد فيه أنه ينفعه أو يضره من دون الله عزّ وجلّ.

«تميمة» التَّمِيمَة: خرزات تعلّق على الأولاد يتّقون بها العين، وكذلك ما شابهها من كل ما يُعلّق من الخرزات وغيرها من الحُرُوز والحُجُب، فهذا ليس بخاص بالخرز، وإنما هذا التفسير لبيان نوع من أنواع المعلّقات، ومنهم من يعلّق النعل على الباب، ويجعل وجه النعل مقابلاً للشخص الآتي، أو على السيارة، ويظنون أن هذه الأشياء تدفع عنهم شر الحسد، وكل هذا من أمور الجاهلية.

وقوله: «فلا أتم الله له» هذا دعاء من النبي ﷺ بأن الله لا يتمّ له أموره، ويعكس مقصوده عليه؛ والرسول ﷺ مجاب الدعوة، فهذه الدعوة تتناول كل من علّق على نفسه أو على غيره شيئًا من الحُجُب والحُرُوز والتمائم يريد بها كفّ الشر عنه إلى يوم القيامة، إلّا أن يتوب إلى الله عزّ وجلّ، فمن تاب تاب الله عليه، ومن لم يتب «فلا أتمّ الله له» يعني: لا أتم الله له أمره ومقصوده، بل أصابه بعكس ما يريد من الضرر والشر والخوف والقلق.

وقوله: «ومن تعلق وَدَعَة؛ فلا وَدَع الله له» الوَدَع: شيء يُستخرج من البحر، يشبه الصّدف، يعلقونه على صدورهم أو على أعناقهم أو على دوابهم يتقون به العين.

«فلا وَدَعَ الله له»؛ أي: لا تركه في دَعَة وسُكُون وراحة، بل سلّط عليه الهموم والأحزان والوساوس والأعداء حتى يُصبح في قلق وهمّ وغمّ دائم، وهذا دعاء من الرسول ﷺ بأن يسلب الله راحته واستقراره وأمنه، ويصبح في خوف وهمّ وقلق دائم.

قال: «وفي رواية» يعني: للإمام أحمد رحمه الله.

«من تعلّق تَمِيمَة؛ فقد أشرك» هذه فيها زيادة على دعاء الرسول ﷺ عليه بأنه قد أشرك، فهذا تصيبه مصيبتان: مصيبة دعوة الرسول ﷺ عليه، والمصيبة الثانية في

٢٤) ٨-بابٌ

ما جَاءَ فِي الرُّقَى والتَّمَائِمِ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي بَشِيرِ الأَنْصَارِيِّ رضي الله عنه أَنَّهُ كَانَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي بَعْضِ أَسْفَارِهِ، فَأَرْسَلَ رَسُولاً: «أَنْ لا يَبْقَيَنَّ فِي رَقَبَةِ بَعِيرٍ قِلَادَةٌ مِنْ وَتَرٍ أَوْ قِلَادَةٍ إِلَّا قُطِعَتْ»

عقيدته، وهي أنه قد أشرك بالله عزّ وجلّ.

قوله: «ولابن أبي حاتم عن حذيفة: أنه رأى رجلًا في يده خيط من الحُمّى» يعني: اتخذه أن يقيه من الحُمّى، والحُمّى: ارتفاع الحرارة في الجسم. فالرجل ربط الخيط من أجل أن يتقي الحُمّى، فحذيفة بن اليمان رضي الله عنه قطع هذا الخيط من هذا الرجل، فهذا فيه إزالة المنكر، كما أن النبي ﷺ لما رأى الحلْقة قال: «انزعها».

قوله: «وتلا قوله تعالى: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم﴾ أكثر الناس ﴿وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾» قيل: معناه أنهم لا يؤمنون بالربوبية إلّا وهم مشركون في الألوهية، لأن المشركين كلهم يقرُّون بالربوبية، ولكنهم يشركون في الألوهية، إما الشرك الأكبر وإما الشرك الأصغر، وربط الخيط حسب ما فصّلنا من أنه إذا كان يرى أن النفع والضرر بيد الله، وإنما الخيط سبب؛ فهذا شرك أصغر، لأن الله لم يجعل ربط الخيط سببًا من الأسباب الواقية. أما إذا كان يعتمد على هذا الخيط من دون الله في دفع الضرر؛ فهذا شرك أكبر.

٢٤) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أي: النصوص التي جاءت في تحريم التمائم والتفصيل في الرقى، لأن التمائم جنسها محرم وبعضهم فصل فيها والصحيح أنها محرمة.

«والتمائم»: شيء يعلق على الأولاد من العين، وقد دلت الأدلة على تحريمها كما سيأتي للمريض وللأطفال.

وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ والتِّوَلَةَ شِرْكٌ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَأَبو دَاوُدَ.

وَعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عُكَيْمٍ مَرْفُوعًا: «مَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وَالتِّرْمِذِيُّ.

«التَّمَائِمُ»: شَيْءٌ يُعَلَّقُ عَلَى الأَوْلَادِ مِنَ العَيْنِ، لَكِنْ إِذَا كَانَ المُعَلَّقُ مِنَ القُرْآنِ، فَرَخَّصَ فِيهِ بَعْضُ السَّلَفِ، وَبَعْضُهُمْ لَمْ يُرَخِّصْ فِيهِ، وَيَجْعَلُهُ مِنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ، مِنْهُمُ ابنُ مَسْعُودٍ رضي الله عنه .

«وَالرُّقَى»: هِيَ الَّتِي تُسَمَّى العَزَائِمَ ، وَخَصَّ مِنْها الدَّلِيلُ مَا خَلَا مِنَ الشِّرْكِ، فَقَدْ رَخَّصَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنَ العَيْنِ وَالحُمةِ.

«وَالتِّوَلَةُ»: شَيْءٌ يَصْنَعُونَهُ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ يُحَبِّبُ المَرْأَةَ إِلَى زَوْجِهَا، والرَّجُلَ إِلَى امْرَأَتِهِ.

أما الرقى ففيها تفصيل: فتجوز بثلاثة شروط:

١- أن يكون بلسان مفهوم المعنى بالآيات والدعوات المعروفة.

٢- ألا يخالف ذلك المعنى الشرع.

٣- ألا يعتقد أنها تنفع بسببها وفي الحديث: «لا بأس بالرقية ما لم تكن شركًا» وتقدم.

«التولة»: عرفها المؤلف، ويصنعونه بالجن والشياطين ويسمونها سحرًا وعطفًا وصرفًا، والسحر كله كفر للآية: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾.

ج- قوله في حديث عبد الله بن حكيم مرفوعًا: **«من تعلق شيئًا وكل إليه»**. رواه أحمد.

فينبغي للإنسان أن يعتمد ويتوكل على الله وحده، فهذا هو الذي ينفعه مع الأخذ بالأسباب كما في الحديث: **«احرص على ما ينفعك واستعن بالله»**[1].

---

(١) رواه مسلم (٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة.

وَرَوَى أَحْمَدُ عَنْ رُوَيْفِعٍ قَالَ: قَالَ لِي رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَا رُوَيْفِعُ! لَعَلَّ الحَيَاةَ سَتَطُولُ بِكَ، فَأَخْبِرِ النَّاسَ أَنَّ مَنْ عَقَدَ لِحْيَتَهُ، أَوْ تَقَلَّدَ وَتَرًا، أَوِ اسْتَنْجَى بِرَجِيعِ دَابَّةٍ أَوْ عَظْمٍ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا بَرِيءٌ مِنْهُ»

فالأخذ بالأسباب أمر لازم من الأدوية، والاستقامة على شرعه، وتعاطي أسباب العافية وطلب الرزق، فالأسباب ما بين الواجب والجائز، فعليه أن يتعاطى الأسباب الجائزة والواجبة، والأخذ بذلك لا يقدح التوحيد، بل تركها يقدح في العقل والتوحيد جميعًا.

وإن كانت التمائم من القرآن فرخص فيه بعضهم كعبد الله بن عمرو[1] ومنعه آخرون كعبد الله بن مسعود، وهو الصواب، وعليه تدل الأدلة، والواجب حسم هذا الباب والقضاء عليه بالكلية لذرائع الشرك وعملاً بالأدلة.

ولا ينبغي تعليق التمائم على الأولاد، بل يعوذهم كما عوذ النبي ﷺ الحسن والحسين بأدعية التعوذ[2].

والكتابة في الورق والصحن فعله بعض السلف، وروي عن ابن عباس، ولكن لم يثبت ولا بأس به، ذكره ابن القيم في الزاد ولكن الرقية أفضل.

والتداوي لا بأس به وفي الحديث: «عباد الله تداووا ولا تتداووا بحرام»[3] وأصح ما فيه الاستحباب، وقال مالك: هو مستوي الطرفين، أي: مباح.

وروى أحمد عن رويفع قال: «يا رويفع لعل الحياة تطول بك فأخبر الناس...» وفيه أربع مسائل:

قوله: «لعلها تطول بك»: هذا على سبيل الظن والرجاء، وقد طالت به الحياة ومتع.

١- قوله: «عقد لحيته»: قال أهل العلم: معناها: جعدها ونفشها للتكبر

---

(١) رواه أبو داود (٣٨٩٣) والترمذي (٣٥٢٨) وأحمد (٢/ ١٨١) وابن أبي شيبة (٨/ ٣٩) رقم (٣٥٩٨) والبيهقي في «الأسماء والصفات» (٤٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٧١).

(٣) رواه أبو داود (٣٨٧٤) والبيهقي في «السنن» (١٠/ ٢٥) وابن عبد البر في «التمهيد» (٥/ ٢٨٢).

....

والتعاظم . وقيل: أي: صففها تصفيفًا يناسب ميوعة النساء وأهل التخنث.

أما العناية بها تسريحًا وتكريمًا فهذا ليس منه، والحديث فيه لين وله شواهد.

٢- قوله: «تقلد وترًا» : وهو ما يتخذ من الأمعاء وغيره وكانت الجاهلية تقلدها الإبل والصبيان حذر العين.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة أو عظم» : جاءت الأحاديث بالنهي عن الاستنجاء بهما[١] لأنهما لا يطهران وفيه تشبه بالجاهلية.

قوله: «فإن محمدًا بريء منه» : وعيد شديد وليس معناه أنه مشرك مثل قوله: «ليس منا من ضرب. . .» [٢] والشاهد هو النهي عن تعليق الأوتار وغيره مما يظنه ينفع كالخيط، والواجب أن يتعلق بالله وحده.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قال المؤلف: باب ما جاء في الرقى والتمائم.

لم يذكر المؤلف أن هذا الباب من الشرك، لأن الحكم فيه يختلف عن حكم لبس الحلقة والخيط.

قوله: «الرقى»، جمع رقية، وهي القراءة، فيقال: رقى عليه - بالألف - من القراءة، ورقي عليه - بالياء - من الصعود.

قوله: «التمائم»، جمع تميمة، وسميت تميمة؛ لأنهم يرون أنه يتم بها دفع العين.

قوله: «أسفاره»، السفر: مفارقة محل الإقامة.

قوله: «قلادة من وتر، أو قلادة»، شك من الراوي، والأولى أرجح، لأن القلائد كانت تتخذ من الأوتار، ويعتقدون أن ذلك يدفع العين عن البعير، وهذا اعتقاد فاسد.

---

(١) رواه مسلم (٤٥٠) والدارقطني في «السنن» (١/ ٥٦) وابن عدي في «الكامل» (٣/ ٣٣٢).

(٢) روى البخاري (١٢٩٨) ومسلم (١٠٣) من حديث عبد الله بن مسعود وعن النبي ﷺ: «وليس منا من ضرب الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية»

....

قوله: «في رقبة بعير»، ذكر البعير، لأن هذا هو الذي كان منتشرًا حينذاك، فهذا القيد بناء على الواقع عندهم، فيكون كالتمثيل، وليس بمخصص.

قوله: «إن الرقى»، جمع رقية، وهذه ليست على عمومها، بل هي عام أريد به خاص، وهو الرقي بغير ما ورد به الشرع، أما ما ورد به الشرع، فليست من الشرك، قال ﷺ في الفاتحة: «وما يدريك أنها رقية»....

قوله: «التمائم»، فسرها المؤلف بقوله: «شيء يعلق على الأولاد يتقون به العين»، وهي من الشرك، لأن الشارع لم يجعلها سببًا تتقى به العين.

قوله: «التولة»، شيء يعلقونه على الزوج، يزعمون أنه يحبب الزوجة إلى زوجها والزوج إلى امرأته، وهذا شرك، لأنه ليس بسبب شرعي ولا قدري للمحبة.

وقوله: «شرك»، هل هي شرك أصغر أو أكبر؟

نقول: بحسب ما يريد الإنسان منها إن اتخذها معتقدًا أن المسبب للمحبة هو الله، فهي شرك أصغر، وإن اعتقد أنها تفعل بنفسها، فهي شرك أكبر.

قوله: «من تعلق»، أي: اعتمد عليه وجعله همه ومبلغ علمه، وصار يعلق رجاءه به وزوال خوفه به.

قوله: «شيئًا» نكرة في سياق الشرط، فتعم جميع الأشياء، فمن تعلق بالله - سبحانه وتعالى - وجعل رغبته ورجاءه فيه وخوفه منه، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣]، أي: كافيه، ولهذا كان من دعاء الرسل وأتباعهم عند المصائب والشدائد: «حسبنا الله ونعم الوكيل»، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، وقالها محمد وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾[1] [آل عمران: ١٧٣].

قوله: «وكل إليه»، أي: أسند إليه، وفوض.

قوله: «التي تسمى العزائم». أي: في عرف الناس، وعزم عليه، أي: قرأ

---

(١) البخاري: كتاب التفسير/ باب ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ.....﴾ (٤٢٨٧).

....

عليه، وهذه عزيمة، أي: قراءة.

قوله: «وخص منها الدليل ما خلا من الشرك»، أي: الأشياء الخالية من الشرك، فهي جائزة، سواء كان مما ورد بلفظه مثل: «اللَّهُمَّ رب الناس! أذهب الباس، اشف أنت الشافي...»[١]. أو لم يرد بلفظه مثل: «اللَّهُمَّ عافه، اللَّهُمَّ اشفه»، وإن كان فيها شرك، فإنها غير جائزة، مثل: «يا جنيّ! أنقذه، ويا فلان الميت! اشفه»، ونحو ذلك.

قوله: «من عقد لحيته»، اللحية عند العرب كانت لا تقص ولا تحلق، كما أن ذلك هو السنة، لكنهم كانوا يعقدون لحاهم لأسباب:

منها: الافتخار والعظمة... الثاني: الخوف من العين..

قوله: «أو تقلد وترًا»، الوتر: سلك من العصب يؤخذ من الشاة، وتتخذ للقوس وترًا، ويستعملونها في أعناق إبلهم أو خيلهم، أو في أعناقهم، يزعمون أنه يمنع العين، وهذا من الشرك.

قوله: «أو استنجى برجيع دابة». الاستنجاء: مأخوذ من النجو، وهو إزالة أثر الخارج من السبيلين.

ورجيع الدابة: هو روثها.

قوله: «أو عظم». العظم معروف وإنما تبرأ النبي ﷺ ممن استنجى بهما، لأن الروث علف بهائم الجن والعظم طعامهم، يجدونه أوفر ما يكون لحمًا.

وكل ذنب قرن بالبراءة من فاعله، فهو من كبائر الذنوب، كما هو معروف عند أهل العلم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء في الرّقى والتمائم»؛ أي: ما جاء عن الرسول ﷺ وعن الصحابة والتابعين من الأحاديث والآثار في النهي عن الرُّقى والتّمائم.

---

(١) البخاري: كتاب المرضى/ باب دعاء العائد للمريض (٥٣٥١)، ومسلم: كتاب السلام/ باب استحباب رقية المريض (٢١٩١).

....

قوله: «عن أبي بشير الأنصاري رضي الله عنه» هكذا كان مشهورًا بكُنيته، ولم يُعرف له اسم -كما قال ابن عبد البر.

«أنه كان مع النبي ﷺ في بعض أسفاره» لم يعين هذا السفر، قال الحافظ: لم أقف على تعيينه».

«فأرسل رسولاً»؛ أي: مندوبًا.

«أن لا يبقينّ في رقبة بعير قلادة» «يبقينّ» مؤكّد بنون التأكيد الثقيلة، وقلادة فاعل. كانوا في الجاهلية يعلّقون القلائد على رقاب الإبل، يعتقدون أن ذلك يدفع عنها العين والضرر، والنبي ﷺ أراد أن يزيل هذه العادة الجاهلية، ويقرر التّوحيد. والقلادة ما أحاط بالعنق.

و الـ «وَتَر» -بفتح الواو- المراد به: وَتَر القوس، والقوس آلة كانوا يرمون بها السهام. وكانوا في الجاهلية إذا اخْلَقَّ الوَتَر أخذوه وعلّقوه على رقاب الدواب، وأبدلوه بوَتَر جديد، يعتقدون أن هذا الوَتَر القديم الذي استعمل ورُمي به أنه يدفع العين عن الإبل.

وقوله: «أو قلادة» هذا شك من الراوي، هل الرسول ﷺ قال: قلادة من وَتَر، أو قال: قلادة مطلقة، سواء كانت من وَتَر أو من غيره؟. وهذا من دقتهم رضي الله عنهم في الرواية.

«إلّا قُطِعت» هذا فيه إزالة المنكر، ولا سيّما إذا كان هذا المنكر في العقيدة، فإن إزالته متأكّدة.

وفيه: أن الحاكم أو الإمام يرسل نوّابًا عنه في إزالة المنكر، وليس من شرط ذلك أن يباشره بنفسه.

قال: «وعن ابن مسعود» هو: عبد الله بن مسعود بن غافل الهُذلي الصحابي الجليل، من أئمة العلم المعروفين في الصحابة، ومن أشهر القرّاء لكتاب الله عزّ وجلّ، وهو الذي أُعجب النبي ﷺ بقراءته، وقال: «من أراد أن يسمع القرآن غضًا طريًا كما أنزل؛ فليسمع إلى قراءة ابن أم عبد»، وقد أمره النبي ﷺ أن يقرأ عليه،

....

فقال: يا رسول الله، كيف أقرأ عليك وعليك أُنزل؟ قال ﷺ: «إني أحب أن أسمعه من غيري»، قال عبد الله: فقرأت عليه من أول سورة النساء حتى بلغت قوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ قال النبي ﷺ: «حسبك»، قال: فالتفت إليه ﷺ فإذا عيناه تذرفان.

والشاهد من هذا: فضيلة عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

سبب ذكر عبد الله بن مسعود لهذا الحديث: أنه رأى على امرأته زينب رضي الله عنها خيطًا في عنقها، وقال: لأنتم يا آل عبد الله أغنياء عن الشرك، قالت: إن عيني كانت تَطْرف، فأذهب إلى فلان اليهودي فيرقاها فتكف، قال رضي الله عنه: إنما ذلك شيطان يَنْخَسُها بكفه، فإذا رُقي كفّ، ثم قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرُّقى والتّمائم والتوَلَة شرك».

قال: «وعن عبد الله بن عُكيم مرفوعًا» عبد الله بن عُكيم أدرك النبي ﷺ لكنه لم يثبت له سماع من النبي ﷺ فيكون تحديثه عن الرسول من باب المرسل، لأنه لم يسمع من النبي ﷺ ولهذا قال الشيخ: «مرفوعًا».

«من تعلّق شيئًا وُكِل إليه» «من تعلّق شيئًا» سواء قلادة، أو تَمِيمَة، أو حِرْزًا من الحُرُوز، أو خيطًا، أو حلقة، يعني: علّق قلبه بشيء أيّ شيء، يظن أنه ينفع ويضر، «وُكِل إليه» وَكَلَه الله إلى ما تعلق به. وهذه عقوبة من الله سبحانه وتعالى، وإهانة له من الله سبحانه وتعالى، لأن الله إذا تخلّى عنه وَوَكَلَه إلى غيره هلك. أما من توكّل على الله عزّ وجلّ وحده فإن الله سبحانه وتعالى يتولى أمره. أما من اعتقد بغيره فإنه يَكِلُه إليه ويتخلّى عنه، يَكِلُه إلى حلْقة من صُفْر، أو خيط، أو إلى تَمِيمَة، أو إلى وليّ من الأولياء، أو قبر من القبور، أو ضريح من الأضرحة، يَكِلُه إلى من اعتقد فيه.

ثم إن الشيخ محمد رحمه الله شرح هذه الألفاظ، فقال: «التّمائم شيء يعلّقونه على الأولاد يتّقون به العين» ثم قال مفصّلًا الحكم في هذا: «لكن إذا كان هذا المعلّق من القرآن؛ فقد رخّص فيه بعض السلف» يعني: إذا كانت التَّمِيمَة مكتوبة

....

من القرآن؛ فقد رخّص فيها بعض السّلف، مثل: عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه، وعائشة، لأنها من القرآن، والتشافي بالقرآن ليس فيه محذور شركي، فهو كلام الله سبحانه وتعالى.

«وبعضهم» أي: بعض الصحابة، «لم يرخِّص فيه «حتى لو كان من القرآن، منهم: عبد الله بن مسعود- راوي الحديث- وسيأتي الأثر عن إبراهيم أنه قال: «كانوا يكرهون التّمائم من القرآن ومن غير القرآن»، وإبراهيم النخعي تلميذ لابن مسعود.

هذا اختلاف السلف في تعليق التّمائم من القرآن، فقد اختلفوا في هذا على قولين: منهم من أجاز، نظرًا لأن هذا من القرآن، وهو كلام الله سبحانه وتعالى، والتداوي بكتاب الله والاستشفاء بكتاب الله مشروع، ومنهم من منع هذا ولم يرخِّص فيه لعموم النهي عن التمائم.

قال الشيخ: «والرُّقى: هي التي تُسمى العزائم» الرُّقى: جمع رقية، والرُّقْيَة: القراءة على المريض. ويسميها العوام العزيمة.

قال الشيخ: «وخصّ منها الدليل ما خلا من الشرك» أي: استثناه من التحريم فهناك أدلة تفصِّل بأنه إن كانت الرُّقْية من القرآن أو من الأدعية المباحة، فإنها ليست بشرك، بدليل أن النبي ﷺ رخّص في الرُّقْية من العين ومن الحُمَة كما جاء في حديث بُريدة بن الحُصين الذي سبق في «باب من حقق التّوحيد»، وكذلك النبي ﷺ رَقى المرضى، ورُقي ﷺ رَقاه جبريل، وكذلك لما جاءوا إلى النبي ﷺ يسألونه قالوا: كنا في الجاهلية لنا رُقًى نرقي بها وأدوية نتداوى بها، قال ﷺ: «اعرضوا علي رُقَاكُم، لا بأس بها ما لم تكن شركًا».

وقوله: «فقد رخص فيه رسول الله ﷺ من العين والحمة» الرُخصة عند الأصوليين: ما ثبت على خلاف دليل شرعي لمعارض راجح، لأن الأحكام على قسمين: رُخصة، وعزيمة.

فالشيء المستثنى من الممنوع بدليل يسمى: رُخصة، مثل: الأكل من الميتة،

....

وقصر الصلاة للمسافر، هذا يسمى رخصة، كذلك الإفطار في نهار رمضان، كل هذه رُخص، رخّص فيها الشارع من أشياء كانت في الأصل ممنوعة، وذلك من أجل الرّحمة بالخلق، وكذلك الرقية في القرآن استثنيت من الرقى الممنوعة بقوله ﷺ: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك»، فهي رخصة.

قوله: «والتِّوَلَة» بكسر التاء وفتح الواو، «شيء يصنعونه، يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته» «يزعمون» أي: يكذبون، والزعم: الكذب، قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟﴾، يعني: يكذبون في قولهم أنهم آمنوا.

«أنه يحبّب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته» هذا يسمونه: الصّرف والعطف، وهو سحر، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ﴾، فهو سحر يفرّق ويَجمع، لأنه عمل شيطاني، يعمل أشياء تنفِّر الإنسان من الإنسان، أو الرجل من زوجته، أو الزوجة من زوجها، وهو من عمل الشياطين.

قوله: «وروى أحمد عن رويفع».

«رُوَيْفِع» هو رُوَيْفِع بن ثابت الأنصاري- رضي الله تعالى عنه- تولّى إمارة بُرْقة في عهد الخلفاء في مصر، وتوفي هناك رضي الله عنه، وقد طال عمره.

قال: «لعل الحياة ستطول بك» هذا إخبار من النبي ﷺ أن رُوَيْفِعًا يعمّر، وقد عُمّر، ففيه: عَلَم من أعلام النبوة، وهو الإخبار عن شيء مستقبَل، ويقع كما أخبر به ﷺ وهذا مما أطلعه الله تعالى عليه.

«فأخبر الناس» هذا فيه دليل على تبليغ العلم، ونشر العقيدة، والدعوة إليها.

قوله: «أن من عقد لحيته» عقد اللحية اختلف العلماء في تفسيره، منهم من قال: عقد اللحية عادة عند الفُرس، أنهم كانوا عند الحروب يعقدون لحاهم تكبّرًا وتجبّرًا، ونحن قد نهينا عن التشبّه بالكفّار.

والقول الثاني: المراد به عقد اللحية في الصلاة، لأن هذا من العبث في

٢٥) وَعَنْ سَعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ ، قَالَ: «مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسَانٍ كَانَ كَعَدْلِ رَقَبَةٍ» رَواهُ وَكِيعٌ. وَلَهُ عَنْ إِبْراهِيمَ قَالَ: كَانُوا يَكْرَهُونَ التَّمائِمَ كُلَّهَا، مِنَ القُرْآنِ وغَيْرِ القُرْآنِ.

الصلاة، والحركة في الصلاة، وهذا مكروه في الصلاة، لأنه يدل على عدم الخشوع.

القول الثالث: أن المراد بعقد اللحية ما يفعله أهل الترف من تجعيد لحاهم وتحسينها وكدّها، حتى تتجعّد، يقصدون بها الجمال، فهذا يكون من الترف، نعم لا بأس أن اللحية تصلح وأنها تُنظّف، وأنها تُكرم لكن لا يصل هذا إلى حد الإسراف.

«أو تقلد وَتَرًا» يعني: جعل الوَتَر قلادة عليه، أو على دابته، أو على ولده من أجل أن يتّقي به العين والضرر، كما كانت الجاهلية تفعل.

وهذا محل الشاهد في الحديث، قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: «وإذا كان هذا فيمن تقلدوا وترًا، فكيف بمن تعلّق على الأموات يسألهم قضاء الحاجات وتفريج الكربات؟!».

«أو استنجى» الاستنجاء: إزالة أثر الخارج من السبيلين.

«برجيع دابة» الرجيع روث الدواب، «أو عظم، فإن محمدًا ﷺ بريء منه» وهذا وعيد شديد يدل على تحريم هذا الفعل، وهو الاستجمار بروث الدواب والعظام، لأن هاتين المادتين طعام الجن وطعام دوابهم فلا يلوثهما عليهم. . .

٢٥) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: - وعن سعيد قال: «من قطع تميمة من إنسان كان له كعدل رقبة» . رواه وكيع.

وكيع ابن الجراح توفي سنة (١٩٦).

وفي الحديث فضل قطع التمائم، وأنه كعدل رقبة؛ لأنه سيخلص هذه الرقبة من النار ومن الشرك فيكون أفضل من عتق الرقبة، وكلام سعيد قد يكون له سند، وفيه وسع؛ لأن سعيدًا قد لا يقول هذا برأيه، ويحتمل أنه من اجتهاده وفقه.

ولكنه عند التحقيق والنظر هو أعظم من عتق الرقبة التي يكون بها الإنسان حرًا،

فِيهِ مَسَائِلُ:

وتعليق التمائم من الشرك الأصغر، وخطره عظيم، وقد يجر إلى الشرك الأكبر.

وله عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن.

إبراهيم بن يزيد النخعي من التابعين من أصحاب أصحاب ابن مسعود يكرهون التمائم وكذلك شيخهم ابن مسعود يكره ذلك لسببين:

١- لعموم الأحاديث الناهية.

٢- سدًا للذرائع الموصلة إلى الشرك، فلا يعلق مصحف ولا آيات منه، ولا أحاديث، ولا طلاسم، ولا عظام فكله شرك.

مسألة:

لا يجوز وضع مصحف في السيارة بقصد حفظها من المصائب، وكذا وضع حيوانات في السيارة وغير ذلك. اهـ.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: وعن سعيد بن جبير، قال: «من قطع تميمة...» الحديث قوله: «كعدل رقبة» بفتح العين لأنه من غير الجنس، والمعادل من الجنس بكسر العين، ووجه المشابهة بين قطع التميمة وعتق الرقبة: أنه إذا قطع التميمة من إنسان، فكأنه أعتقه من الشرك، ففكه من النار، ولكن يقطعها بالتي هي أحسن، لأن العنف يؤدي إلى المشاحنة والشقاق، إلا إن كان ذا شأن، كالأمير، والقاضي، ونحوه ممن له سلطة، فله أن يقطعها مباشرة.

قوله: «كانوا يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»، وقد سبق أن هذا رأي ابن مسعود رضي الله عنه، فأصحابه يرون، ما يراه.

قوله: «وله عن إبراهيم»، وهو إبراهيم النخعي.

قوله: «كانوا»، الضمير يعود إلى أصحاب ابن مسعود، لأنهم هم قرناء إبراهيم النخعي.

قوله: «التمائم»، هي ما يعلق على المريض أو الصحيح، سواء من القرآن أو غيره للاستشفاء أو لاتقاء العين، أو ما يعلق على الحيوانات.

قوله: الأولى: تفسير الرقى والتمائم، وقد سبق ذلك.

«الأُولَى»: تَفْسيرُ الرُّقَى والتَّمَائِمِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسيرُ التِّوَلَةِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ هذِهِ الثَّلاثَةَ كُلَّها مِنَ الشِّرْكِ مِنْ غَيْرِ اسْتِثْنَاءٍ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ الرُّقْيَةَ بِالكَلامِ الحَقِّ مِنَ العَيْنِ والحُمَّةِ لَيْسَ مِنْ ذَلكَ.

«الخَامِسَةُ»: أَن التَّمِيمَةَ إِذا كَانتْ مِنَ القُرآنِ فَقَدِ اخْتَلَفَ العُلَماءُ، هَلْ هِيَ مِنْ ذَلِكَ أَمْ لَا؟

«السَّادِسَةُ»: أَنَّ تَعْليقَ الأَوْتَارِ عَلَى الدَّوابِّ عَنِ العَيْنِ مِنْ ذَلِكَ.

«السَّابِعَةُ»: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ عَلَى مَنْ تَعَلَّق وَتَرًا.

الثانية: تفسير التولة، وقد سبق ذلك، وعندي أن منها ما يسمى بالدبلة إن اعتقدوا أنها صلة بين المرء وزوجته.

الثالثة: أن هذه الثلاثة كلها من الشرك من غير استثناء، ظاهر كلامه حتى الرقى، وهذا فيه نظر، لأن الرقى ثبت عن النبي ﷺ أنه يرقي ويرقى، ولكنه لا يسترقي، أي: لا يطلب الرقية، فإطلاقها بالنسبة للرقى فيه نظر، وقد سبق للمؤلف رحمه الله أن الدليل خص منها ما خلا من الشرك، وبالنسبة للتمائم، فعلى رأي الجمهور فيه نظر أيضًا.

وأما على رأي ابن مسعود، فصحيح، وبالنسبة للتولة، فهي شرك بدون استثناء.

الرابعة: أن الرقية بالكلام الحق من العين أو الحمة ليس من ذلك.

قوله: (الكلام الحق)، ضده الباطل، وكذا المجهول الذي لا يعلم أنه حق أو باطل.

الخامسة: أن التميمة إذا كانت من القرآن، فقد اختلف العلماء: هل هي من ذلك أم لا؟ قوله: «ذلك» المشار إليه: التمائم المحرمة.

السادسة: أن تعليق الأوتار على الدواب عن العين من ذلك، أي: من الشرك.

السابعة: الوعيد الشديد على من تعلق وترًا. وذلك لبراءة الرسول ﷺ ممن تعلق وترًا، بل ظاهره أنه كفر مخرج من الملة.

«الثَّامِنَةُ» : فَضْلُ ثَوَابِ مَنْ قَطَعَ تَمِيمَةً مِنْ إِنْسانٍ.

«التَّاسِعَةُ» : أَنَّ كَلامَ إِبْرَاهِيمَ لَا يُخَالِفُ مَا تَقَدَّمَ مِنَ الاخْتِلَافِ، لأَنَّ مُرَادَهُ أَصْحَابُ عَبْدِ اللهِ بنِ مَسْعودٍ.

الثامنة: فضل ثواب من قطع تميمة من إنسان، لقول سعيد بن جبير: «كان كعدل رقبة».

التاسعة: أن كلام إبراهيم النخعي لا يخالف ما تقدم من الاختلاف، لأن مراده أصحاب عبدالله بن مسعود، وليس مراده الصحابة، ولا التابعين عمومًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «عن سعيد بن جبير قال: من قطع تميمة من إنسان كان كعدل رقبة»؛ أي: كان كمن أعتق رقبة من الرِّق، والمناسبة أن إعتاق العبد فيه إعتاق من الرِّق، وقطع التَّمِيمَة فيه إعتاق من الشرك، لأن الشرك رِقّ للشيطان بدل الرِّق للرحمن.

وسعيد بن جبير رحمه الله اعتبر الشرك رقًّا، من أزاله فكأنما أعتق هذا العبد من هذا الرِّق الذّليل المهين، وجعله حُرًّا من عبادة المخلوق، عبدًا لله سبحانه وتعالى لا يعبد غيره، فعبادة الله جل وعلا هي الحرية الصحيحة، ليست الحرية أن الإنسان يشرك ويكفر ويعتقد ما شاء، كما يقولون: الناس أحرار في اعتقادهم. لا بل الناس خلقوا لعبادة الله، وعبادة الله ليست من باب الذل والمهانة، وإنما هي من الإكرام، ومن الرِّفعة، وهذا شرف، والله جل وعلا أكرم نبيه بالعبودية له، فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ ، فعبودية الله شرف، أما عبودية غيره، فهي ذلّ ومهانة.

«رواه وكيع» ووكيع هو: وكيع بن الجراح، الإمام الجليل، روى عنه الإمام أحمد وغيره.

قال: «وعن إبراهيم» أي: عن إبراهيم النخعي، أحد الأئمة من التابعين.

وقوله: «يكرهون التمائم كلها من القرآن وغير القرآن»؛ أي: كان كبار التابعين من أصحاب ابن مسعود لا يفصّلون في التّمائم، بل كانوا يكرهونها عمومًا، كما سبق أن الراجح هو: تحريم تعليق التّمائم، ولو كانت من القرآن؛ من أجل الأمور

٢٦) ٩-بابٌ

مَنْ تبرَّكَ بِشَجَرَةٍ أَوْ حَجَرٍ ونَحْوِهِمَا. وقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ الآيات [النجم: ١٩-٢٢].

الثلاثة التي ذكرناها هناك. وقوله: «يكرهون»؛ أي: يحرمون، لأن الكراهة عند السلف يريدون بها التحريم.

٢٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: نحوها كالقبر والصنم وغيرها.

التبرك هو: طلب البركة منها كما يفعل عباد القبور والأحجار والأصنام، وترك الحكم ليأخذه الطالب مما ذكره من النصوص، والحكم هو أنه قد أشرك لما سيذكر المؤلف، وهذا التبرك من فعل الجاهلية، وجاء الإسلام فأبطل ذلك.

فمنهم من أجاب وهم قلة، ومن أعرض وهم كثرة: ﴿وَمَآ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ . أما في الجزيرة، فقد أجاب أكثرهم بعدما فتح الله مكة.

قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾ .

أفرأيتم: أي: هل نفعت هذه الأصنام، أم ضرَّت، والمعنى أنها لم تنفع ولم تضر، كانوا يسألونها ويتبركون بها ويستغيثون فأبطل الإسلام ذلك، وكان العزى لأهل مكة ومن سايرهم، ومناة لأهل المدينة، واللات لأهل الطائف ومن نهج منهجهم، وقد أزيلت هذه الأصنام يوم فتح مكة، لكن أخبر النبي عليه الصلاة والسلام في الحديث قال: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى»[(١)].

* ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «تبرك»، تفعل من البركة، والبركة: هي كثرة الخير وثبوته، وهي مأخوذة من البركة بالكسر، والبركة: مجمع

---

(١) رواه مسلم (٢٩٠٧).

....

الماء، ومجمع الماء يتميز عن مجرى الماء بأمرين:
الكثرة.
الثبوت.
والتبرك طلب البركة.

قوله: «شجر» اسم جنس، فيشمل أي شجرة تكون، ومن حسنات أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما رأى الناس ينتابون الشجرة التي وقعت تحتها بيعة الرضوان أمر بقطعها.

قوله: «وحجر»، اسم جنس يشمل أي حجر كان حتى الصخرة التي في بيت المقدس، فلا يتبرك بها، وكذا الحجر الأسود لا يتبرك به، وإنما يتعبد الله بمسحه وتقبيله، اتباعًا للرسول ﷺ وبذلك تحصل بركة الثواب.

قوله: «ونحوهما»، أي: من البيوت، والقباب، والحجر.

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ، لما ذكر الله - عز وجل - المعراج بقوله: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم: ١، ٢]، قال: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ [النجم ١٨]، أي: رأى النبي ﷺ من آيات الله الكبرى. وقد اختلف العلماء في قوله: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ : هل هي مفعول لـ﴿رَءَا﴾ ، أو صفة لـ ﴿ءَايَٰتِ﴾ ؟

وقوله: ﴿ٱلْكُبْرَىٰٓ﴾ قيل: إنها مفعول: لـ﴿رَءَا﴾ ، والتقدير: لقد رأى من آيات الله الكبرى.

قوله: ﴿ٱللَّٰتَ﴾ ، تقرأ بتشديد التاء وتخفيفها، والتشديد قراءة ابن عباس، فعلى قراءة التشديد تكون اسم فاعل من اللت، وكان هذا الصنم أصله رجل يلت السويق للحجاج، أي: يجعل فيه السمن، ويطعمه الحجاج، فلما مات عكفوا على قبره وجعلوه صنمًا.

وأما على قراءة التخفيف، فإن اللات مشتقة من الله، أو من الإله.

وقوله: ﴿وَٱلْعُزَّىٰ﴾ ، مؤنث أعز، وهو صنم يعبده قريش وبنو كنانة مشتق من

....

اسم الله العزيز كان بنخلة بين مكة والطائف.

قوله: ﴿وَمَنَوٰةَ﴾، قيل: مشتقة من المنان، وقيل: من منى، لكثرة ما يمنى عنده من الدماء بمعنى يراق، ومنه سميت منى، لكثرة ما يراق فيها من الدماء.

قوله: ﴿ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾، إشارة إلى أن التي تعظمونها، وتذبحون عندها، وتكثر إراقة الدماء حولها: أنها أخرى بمعنى متأخرة، أي: ذميمة حقيرة، مأخوذة من قولهم: فلان أخر، أي: ذميم، حقير، متأخر.

قوله: «الآيات»، أي: أكمل الآيات بعدها.

قوله: «ألكم الذكر وله الأنثى»، هذا أيضًا استفهام إنكاري على المشركين.

قوله: ﴿تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ﴾، ضيزى: جائرة.

قوله: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾، الضمير في ﴿هِىَ﴾ يعود إلى الأصنام، أي: هذه الأصنام (اللات والعزى ومناة) التي سميتموها آلهة واتخذتموها آلهة تعبدونها هي مجرد أسماء سميتموها، ولكن ما أنزل الله بها من سلطان، أي: من حجة ودليل.

قوله: ﴿وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ﴾، كذلك أيضًا يتبعون ما تهوى الأنفس، وهذا أضر شيء على الإنسان أن يتبع ما يهوى، فالإنسان الذي يعبد الله بالهوى، فإنه لا يعبد الله حقًا، إنما يعبد عقله وهواه، قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣]، لكن الذي يعبد الله بالهدى لا بالهوى هو الذي على الحق.

قوله: ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾، أي: على يد النبي ﷺ فكان الأجدر بهم أن يتبعوا الهدى دون الهوى.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقوله: «باب من تبرّك» أي: طلب البركة، وهي حصول الخير ونماؤه وثبوته وكثرته.

«بحَجَر أو شجر»؛ أي: طلب البركة من حَجَر أو من شجر، أو اعتقد أنها سبب للبركة وهي لم يجعلها الله أسبابًا لها فقد أشرك بالله سبحانه وتعالى، لأن الحجر والشجر لا يخلق البركة ولا يوجدها، ولا هو مسبب في حصولها إلَّا ما

....

جعله سببًا في حصولها وإنما الذي يوجدها هو الله سبحانه وتعالى، وهو مسبب الأسباب. نعم قد يجعل الله بعض الأشياء مباركة، مثل: ماء زمزم، ومثل: الأنبياء عليهم السلام، ومثل: الكعبة المشرفة: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾، فالله هو الذي جعل الكعبة مباركة، أما الكعبة فليست هي التي تُوجِد البركة، أو تخلق البركة، لكن الله جعلها مباركة، فالبركة من الله سبحانه وتعالى وبركتها بالحج والعمرة واستقبالها في الصلاة والطواف بها والتعبد عندها في المسجد الحرام.

قوله: «وقول الله تعالى: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾» وتتمة الآيات: «﴿وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ ﴿٢٢﴾ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ ﴿٢٣﴾ أَمْ لِلْإِنسَٰنِ مَا تَمَنَّىٰ ﴿٢٤﴾ فَلِلَّهِ ٱلْءَاخِرَةُ وَٱلْأُولَىٰ ﴿٢٥﴾ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾» هذه الآيات في تقرير التّوحيد وتثبيت العقيدة في قلوب المؤمنين، والرد على المشركين.

يقول الله تعالى للمشركين الذي يعبدون الأصنام، وفي مقدمتها الأصنام الثلاثة المشهورة عند العرب: اللات والعُزَّى ومَنَاة، هل تنفع هذه الأصنام أو تضر؟ فيقول: «﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾» هل نفعتكم؟ هل دفعت عنكم الضرر؟ هل جلبت لكم شيئًا من الرزق؟ فلا يستطيعون الجواب بأنها تضر أو تنفع، لم تنفعهم في بدر وغيرها من الغزوات، ولم تدفع عنهم ما أوقع الله بهم من الهزائم، ما أجابوا عن هذا السؤال العظيم؛ فدلّ على انقطاع حجتهم.

ففي هذا: بُطلان التبرك بالأحجار والأشجار، وفيه: أن من تبرّك بقبر أو بحجر أو شجر يعتقد فيه أنه ينفع ويضر من دون الله، أو أنه سبب لحصول البركة، أو تقرب إليه بشيء من العبادة؛ فهو مثل من عبد اللات والعُزَّى سواء، ولا فرق، بل من غلا في قبر من القبور فهو كمن عبد اللات، لأن اللات- على التفسير الثاني-

٢٧) عَنْ أَبِي وَاقِدٍ اللَّيْثِيِّ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِلَى حُنَيْنٍ، ونَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بُكُفْرٍ، ولِلْمُشْرِكِينَ سِدْرَةٌ يَعْكُفُونَ عِنْدَهَا وَيَنُوطُونَ بِهَا أَسْلِحَتَهُمْ، يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْواطٍ، فَمَرَرْنَا بِسِدْرَةٍ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ! اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، قُلْتُمْ - والَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ - كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» «لَتَرْكَبُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ». رَواهُ التِّرْمِذِيُّ وصَحَّحَهُ.

هو رجل صالح، غَلَوا في قبره بعد موته، فالذين يعبدون القبور اليوم مثل الذين يعبدون اللات سواء بسواء، والقرآن واضح في هذا، لكن يحتاج إلى التدبّر، ونبذ للتقاليد والعادات والبيئات الفاسدة، والتحرر من الخرافات والأباطيل، ورجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله، ففيهما الشفاء للقلوب.

٢٧) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث أبي واقد قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حنين ونحن.

قوله: «نحن حدثاء عهد بكفر»: قريبو عهد بكفر، وهذا كالعذر؛ أي: ولهذا جهلنا الأمر.

«سدرة»: شجرة النبق.

«يعكفون»: يقيمون عندها.

«ينوطون»: أي: يعلقون بها أسلحتهم للتبرك والبركة التي تحصل لها على زعمهم أنها تكون أمضى للسيف وأقوى وأشد.

«اجعل ذات أنواط»؛ أي: لنتبرك بها نعلق سيوفنا عليها للبركة.

«الله أكبر»: وهذا من عادته ﷺ إذا رأى شيئًا ينكر قال: الله أكبر أو سبحان الله، وهذا من السنة أن يقول الإنسان ذلك عند الإنكار، وكذلك عند الإعجاب

....

بشيء كما في الحديث: «وأنتم ربع أهل الجنة»[(١)] قالوا: فكبرنا.

«إنها السنن»؛ أي: عبادة الأشجار والأحجار والتبرك بها هي السنة المعروفة عند الناس السابقين؛ أي: هي طريقة الناس قديمًا ودائمًا.

«بنو إسرائيل»: وإسرائيل هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم وبنوه هم اليهود ومن انتسب إلى إسرائيل.

«اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة»: هذا قاله اليهود لموسى، فرد عليهم موسى وذكرهم بالتوحيد، وهكذا هؤلاء تأسوا بأولئك جهلًا، ولم يكونوا يعرفون حكمه؛ لأنهم حدثاء عهد بكفر.

وهذا يدل على أن الاعتبار بالحقائق لا بالألفاظ؛ لأنهم طلبوا شيئًا يعظمونه ويتبركون به كما فعل بنو إسرائيل، وإن اختلفت ألفاظ الفريقين فالباطل باطل وإن اختلفت الألفاظ.

«لتركبن سنن من كان قبلكم»: بضم السين وبفتحها.. وهي الطرق.

أي: أن هذه الأمة ستبتلى بما ابتليت به الجاهلية من عبادة القبور والأحجار والتبرك بها وهذا حصل، وقاله عليه الصلاة والسلام إخبارًا بأنه سيقع، فحذر منه وأن الواجب هو الثبات على عبادة الله وحده كما فعل الأنبياء. أما التبرك بالقبور وغير الله، فهذا فعل اليهود والنصارى وأهل الكفر.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «خرجنا مع النبي ﷺ أي: بعد غزوة الفتح؛ لأن النبي ﷺ لما فتح مكة تجمعت له ثقيف وهوازن بجمع عظيم كثير جدًا.

قوله: «حدثاء»، جمع حديث، أي: أننا قريبو عهد بكفر، وإنما ذكر ذلك رضي الله عنه للاعتذار لطلبهم وسؤالهم، ولو وقر الإيمان في قلوبهم لم يسألوا هذا السؤال.

قوله: «يعكفون عندها»، أي: يقيمون عليها، والعكوف: ملازمة الشيء، ومنه قوله تعالى: ﴿وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ﴾ [البقرة: ١٨٧].

---

(١) رواه البخاري (٦٥٢٨) ومسلم (طرف حديث ٢٢١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيةِ النَّجْم.

«الثَّانِيَةُ»: مَعْرِفَةُ صُورَةِ الأَمْرِ الَّذِي طَلَبُوا.

قوله: «ينوطون»، أي: يعلقون بها أسلحتهم تبركًا.

قوله: «يقال: لها ذات أنواط»، أي: أنها تلقب بهذا اللقب؛ لأنه تناط فيها الأسلحة، وتعلق عليها رجاء بركتها، فالصحابة رضي الله عنهم قالوا للنبي ﷺ «اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط»، أي: سدرة نعلق أسلحتنا عليها تبركًا بها، فقال النبي ﷺ: «الله أكبر» كبر تعظيمًا لهذا الطلب، أي: استعظامًا له، وتعجبًا لا فرحًا به، كيف يقولون هذا القول وهم آمنوا بأنه لا إله إلا الله؟!

لكن: «إنها السنن»، أي: الطرق التي يسلكها العباد.

قوله: «قلتم -والذي نفسي بيده- كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾»، أي: إن الرسول ﷺ قاس ما قاله الصحابة رضي الله عنهم على ما قاله بنو إسرائيل لموسى حين قالوا: اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة. فأنتم طلبتم ذات أنواط كما أن لهؤلاء المشركين ذات أنواط.

وقوله عليه الصلاة والسلام: «والذي نفسي بيده» المراد أن نفسه بيد الله، لا من جهة إماتتها وإحيائها فحسب، بل من جهة تدبيرها وتصريفها أيضًا، ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها - سبحانه وتعالى.

قوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»، أي: لتفعلن مثل فعلهم، ولتقولن مثل قولهم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النجم، أي: قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ (١٩) وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ (٢٠) أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ (٢١) تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰٓ (٢٢) إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾ الآية.

الثانية: معرفة صورة الأمر الذي طلبوا، وهو أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم ذات أنواط كما أن للمشركين ذات أنواط.

«الثَّالِثَةُ» : كَوْنُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا.

«الرَّابِعَةُ» : كَوْنُهُمْ قَصَدُوا التَّقَرُّبَ إِلَى اللهِ بِذَلِكَ، لِظَنِّهِمْ أَنَّهُ يُحِبُّهُ.

«الخَامِسَةُ» : أَنَّهُمْ إِذَا جَهِلُوا هذَا، فَغَيْرُهُمْ أَوْلَى بِالجَهْلِ.

«السَّادِسَةُ» : أَنَّ لَهُمْ مِنَ الحَسَنَاتِ والوَعْدِ بِالمَغْفِرَةِ مَا لَيْسَ لِغَيْرِهِمْ.

«السَّابِعَةُ» : أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَعْذرْهُمْ، بَلْ رَدَّ عَلَيْهِمْ بِقَوْلِهِ: «اللهُ أَكْبَرُ! إِنَّهَا السُّنَنُ، لَتَتَّبِعُنَّ سُنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» فَغَلَّظَ الأَمْرَ بِهذِهِ الثَّلاثِ.

«الثَّامِنَةُ» : الأَمْرُ الكَبِيرُ - وَهُوَ المَقْصُودُ: أَنَّهُ أَخْبَرَ أَنَّ طَلَبَهُمْ كَطَلَبِ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَمَّا قَالُوا لِمُوسَى: اجْعَلْ لَنَا إِلهًا.

الثالثة: كونهم لم يفعلوا، أي: لم يعلقوا أنواطًا على الشجرة.

الرابعة: كونهم قصدوا التقرب إلى الله بذلك لظنهم أنه يحبه، «بذلك»، أي: بتعليق الأسلحة ونحوها على الشجرة التي يعينها الرسول ﷺ.

الخامسة: أنهم إذا جهلوا هذا، فغيرهم أولى بالجهل، لأن الصحابة لا شك أعلم الناس بدين الله.

السادسة: أن لهم من الحسنات والوعد بالمغفرة ما ليس لغيرهم، وهذا معلوم من الآيات، مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الحديد: ١٠].

السابعة: أن النبي ﷺ لم يعذرهم، بل رد عليهم بقوله: «الله أكبر إنها السنن، لتتبعن سنن من كان قبلكم»، فغلَّظ الأمر بهذه الثلاث، وهي قوله: «الله أكبر»، وقوله: «إنها السنن»، وقوله: «لتركبن سنن من كان قبلكم»، فغلَّظ الأمر بهذا لأن التكبير استعظامًا للأمر الذي طلبوه، «إنها السنن»: تحذير، «لتركبن سنن من كان قبلكم» كذلك أيضًا تحذير.

الثامنة: الأمر الكبير وهو المقصود أنه أخبر أن طلبهم كطلب بني إسرائيل لما قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ . فهؤلاء طلبوا سدرة يتبركون بها

«التَّاسِعَةُ» : أَنَّ نَفْيَ هَذَا مِنْ مَعْنَى (لا إِلهَ إِلَّا اللهُ) مَعَ دِقَّتِهِ وَخَفَائِهِ عَلَى أُولئِكَ .

«العَاشِرَةُ» : أَنَّهُ حَلَفَ عَلَى الفُتْيا، وَهُوَ لا يَحْلِفُ إِلَّا لِمَصْلَحَةٍ.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ الشِّرْكَ فِيهِ أَكْبَرُ وَأَصْغَرُ، لأَنَّهُمْ لَمْ يَرْتَدُّوا بِهَذَا.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : قَوْلُهُمْ: (وَنَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ) فِيهِ أَنَّ غَيْرَهُمْ لا يَجْهَلُ ذَلِكَ .

كما يتبرك المشركون بها، وأولئك طلبوا إلهًا كما لهم آلهة، فيكون في كلا الطلبين منافاة للتوحيد.

التاسعة: أن نفي هذا من معنى: لا إله إلا الله، مع دقته وخفائه على أولئك، أي: أن نفي التبرك بالأشجار ونحوها من معنى لا إله إلا الله.

العاشرة: أنه حلف على الفتيا، وهو لا يحلف إلا لمصلحة؛ أي: أن النبي ﷺ حلف على الفتيا في قوله: «قلتم، والذي نفسي بيده»، والنبي ﷺ لا يحلف إلا لمصلحة، أو دفع مضرة ومفسدة.

الحادية عشرة: أن الشرك فيه أصغر وأكبر، لأنهم لم يرتدوا بهذا، حيث لم يطلبوا جعل ذات الأنواط لعبادتها، بل للتبرك بها، والشرك فيه أصغر وأكبر، وفيه خفي وجلي.

فالشرك الأكبر: ما يخرج الإنسان من دين الله.

والشرك الأصغر: ما دون ذلك.

الجلي والخفي، فبعضهم قال: إن الجلي والخفي هو الأكبر والأصغر، وبعضهم قال: الجلي ما ظهر للناس من أصغر أو أكبر، كالحلف بغير الله، والسجود للصنم.

والخفي: ما لا يعلمه الناس من أصغر أو أكبر، كالرياء، واعتقاد أن مع الله إلهًا آخر.

وقد يقال: إن الجلي ما انجلى أمره وظهر كونه شركًا، ولو كان أصغر، والخفي: ما سوى ذلك.

الثانية عشرة: قولهم: «ونحن حدثاء عهد بكفر. . »، معناه: أنه يعتذر عما

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : التَّكْبِيرُ عِنْدَ التَّعَجُّبِ، خِلافًا لِمَنْ كَرِهَهُ.
«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : سَدُّ الذَّرَائِعِ.
«الخَّامِسَةَ عَشْرَةَ» : النَّهْيُ عَنِ التَّشَبُّهِ بِأَهْلِ الجَاهِلِيَّةِ.
«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : الغَضَبُ عِنْدَ التَّعْلِيمِ.
«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : القَاعِدَةُ الكُلِّيَّةُ، لِقَوْلِهِ: (إِنَّهَا السُّنَنُ).
«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ هَذَا عَلَمٌ مِنْ أَعْلَامِ النُّبُوَّةِ، لِكَوْنِهِ وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ.

طلبوا، حيث طلبوا أن يجعل لهم ذات أنواط، فهم يعتذرون لجهلهم بكونهم حدثاء عهد بكفر، وأما غيرهم ممن سبق إسلامه، فلا يجهل ذلك. . . .

الثالثة عشرة: التكبير عند التعجب. . إلخ، تؤخذ من قوله: «الله أكبر»، أي: الله أكبر وأعظم من أن يشرك به، وفي رواية الترمذي أنه قال: «سبحان الله»، أي: تنزيهًا لله عما لا يليق به.

الرابعة عشرة: سد الذرائع، الذرائع: الطرق الموصلة إلى الشيء، وذرائع الشيء: وسائله وطرقه.

الخامسة عشرة: النهي عن التشبه بأهل الجاهلية، تؤخذ من قوله: «قلتم كما قالت بنو إسرائيل»، فأنكر عليهم، وبهذا نعرف أن الجاهلية لا تختص بمن كان قبل زمن النبي ﷺ بل كان من جهل الحق وعمل عمل الجاهلين، فهو من أهل الجاهلية.

السادسة عشرة: الغضب عند التعليم، والحديث ليس بصريح في ذلك، وربما يؤخذ من قرائن قوله: «الله أكبر إنها السنن. . . .»، لأن قوة هذا الكلام تفيد الغضب.

السابعة عشرة: القاعدة الكلية لقوله: «إنها السنن»، أي: الطرق، وأن هذه الأمة ستتبع طرق من كان قبلها، وهذا لا يعني الحل والإباحة، ولكنه للتحذير، كما قال الرسول ﷺ: «ستفترق هذه الأمة إلى ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار، إلا واحدة».

الثامنة عشرة: أن هذا عَلَم من أعلام النبوة لكونه وقع كما أخبر، يعني اتباع

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ كُلَّ مَا ذَمَّ اللهُ بِهِ اليَهُودَ والنَّصَارَى فِي القُرْآنِ أَنَّهُ لَنَا.

«العِشْرُونَ: » أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّ العِبَادَاتِ مَبْنَاهَا عَلَى الأَمْرِ، فَصَارَ فِيهِ التَّنْبِيهُ عَلَى مَسَائِلِ القَبْرِ: أَمَّا (مَنْ رَبُّكَ؟)، فَوَاضِحٌ، وَأَمَّا (مَنْ نَبِيُّكَ)؟ فَمِنْ إِخْبَارِهِ بِأَنْبَاءِ الغَيْبِ، وَأَمَّا (مَا دِينُكَ؟) فَمِنْ قَوْلِهِمْ: ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا﴾ إلخ.

«الحَادِيَةُ والعِشْرونَ»: أَنَّ سُنَّةَ أَهْلِ الكِتَابِ مَذْمُومَةٌ كَسُنَّةِ المُشْرِكِينَ.

«الثَّانِيَةُ وَالعِشْرونَ»: أَنَّ المُنْتَقِلَ مِنَ البَاطِلِ الَّذِي اعْتَادَهُ قَلْبُهُ لا يُؤْمَنُ

سنن من كان قبلنا.

التاسعة عشرة: أن ما ذم الله به اليهود والنصارى في القرآن أنه لنا، هذا ليس على إطلاقه وظاهره، بل يحمل قوله: «لنا»، أي: لبعضنا، ويكون المراد به المجموع لا الجميع، كما قال العلماء في قوله تعالى: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ﴾ [الأنعام: ١٣٠]، والرسل كانوا من الإنس فقط.

العشرون: أنه متقرر عندهم أن العبادات مبناها على الأمر... إلخ»، وهذا واضح، فالعبادات مبناها على الأمر، فما لم يثبت فيه أمر الشارع، فهو بدعة، قال ﷺ: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا، فهو رد»[1]، وقال: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة ، وإن كل بدعة ضلالة»[2].

وقوله: «مسائل القبر التي يسأل فيها الإنسان في قبره: من ربك؟ من نبيك؟ ما دينك؟».

ففي هذه القصة دليل على مسائل القبر الثلاث، وليس مراده أن فيها دليلاً على أن الإنسان يسأل في قبره، بل فيها دليل على إثبات الربوبية والنبوة والعبادة.

الثانية والعشرون: أن المنتقل من الباطل الذي اعتاده قلبه لا يؤمن أن يكون في

---

(١) مسلم: كتاب الأقضية/ باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٨).

(٢) مسند الإمام أحمد (٤/١٢٦)، وسنن أبي داود: كتاب السنة/ باب لزوم السنة، ٥/١٣، والترمذي: العلم/ باب الأخذ بالسنة، رقم ٢٦٧٨ - وقال: «حسن صحيح».

أَنْ يَكُونَ فِي قَلْبِهِ بَقِيَّةٌ مِنْ تِلْكَ العَادَةِ لِقَوْلِهِ: (ونَحْنُ حُدَثَاءُ عَهْدٍ بِكُفْرٍ).

قلبه بقية من تلك العبادة، وهذا صحيح، فالإنسان المنتقل من شيء، سواء كان باطلاً أو لا، لا يؤمن أن يكون في قلبه بقية منه.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال «وعن أبي واقد الليثي» هذه كنيته، أما اسمه فهو الحارث بن عوف، «الليثي» من بني الليث.

«قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْنٍ»؛ أي: غزوة حنين، وحنين اسم وادٍ بين مكة والطائف، وغزوة حُنَيْن كانت في شوال من السنة الثامنة من الهجرة، وذلك أن الرسول ﷺ لما فتح مكة، ونصره الله على قريش؛ خافت هوازِن على نفسها أن يصلها الرسول ﷺ فأرادوا أن يغزوا الرسول ﷺ قبل أن يغزوهم، وجَمعوا أمرهم ليغزوا رسول الله ﷺ يريدون الدفاع عن أنفسهم، فلم يمهلهم الرسول ﷺ، بل غزاهم هو بنفسه ﷺ وهذا هو الحزم والسياسة.

وأبو واقد كان من الذين أسلموا في هذا العام، ولهذا قال: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى حُنَيْن ونحن حُدَثاء عهد بكفر» يعني: أن إسلامهم كان جديدًا متأخرًا، وهو يريد بذلك بيان العذر مما وقع منهم، أنهم كانوا جُهّالاً، لم يتفقّهوا كما كان الصحابة الذين مع الرسول ﷺ فقهاء، عرفوا العقيدة ودرسوها، لكن هؤلاء أسلموا قريبًا، ولم يتمكّنوا من التفقّه في العقيدة، وكانوا آلفين لأشياء من دين الجاهلية، لم يتخلّصوا منها بعد. قال العلماء: فهذا فيه دليل على أن الإنسان إذا عاش في بيئة فاسدة ثم انتقل منها؛ أنه قد يبقى في نفسه منها شيء. فهذا كان في بيئة شركية، وأسلم قريبًا.

وقوله: «وللمشركين سِدْرَة يَعْكُفُون عندها» العُكُوف هو: البقاء في المكان، يقال: اعتكف في المكان إذا أطال الجلوس فيه، واعتكف في المسجد يعني: جلس في المسجد للعبادة.

«فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أَنْوَاط كما لهم ذات أَنْوَاط» أعجبهم عمل المشركين، فظنوا أن هذا عمل سائغ، وهم يحرصون على تحصيل البركة، فطلبوا من النبي ﷺ أن يجعل لهم شجرة يَعْكُفُون عندها، ويَنُوطُون بها أسلحتهم طلبًا

....

للبركة، ولكن انظروا إلى أدب الصحابة مع الرسول ﷺ حيث لم يقدموا إلى هذا الأمر من عند أنفسهم، بل رجعوا إلى الرسول ﷺ فالمسلم إذا أعجبه شيء ويظن أنه خير فلا يستعجل حتى يعرض هذا على الكتاب والسنة ويسأل عنه أهل العلم الثقات.

فقوله: «فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أَنْواط» يعني: شجرة نعلّق بها أسلحتنا للبركة، ونجلس عندها للبركة. «فقال ﷺ: «الله كبر، إنها السُّنَن» النبي ﷺ غضب لما قالوا له هذا الكلام وتعجّب، وكبّر الله سبحانه وتعالى تنزيهًا لله عزّ وجلّ عن هذا العمل. وهذه عادة النبي ﷺ أنه كان إذا أعجبه شيء أو استنكر شيئًا أنه يسبح أو يكبر.

«إنها السُّنن» أي: الطرق المسلوكة، أي: السبب أن الذي أوقعكم في هذا هو التَّشَبُّه بما عليه الناس، فالتَّشَبُّه بالكفار في عباداتهم وتقاليدهم الخاصة بهم، آفة خطيرة: «من تشبه بقوم فهو منهم»، ومَا أصاب بعض المسلمين من الأمور الشنيعة، أغلبه من جهة التَّشَبُّه بالكفار...

ثم بيّن ﷺ خطر هذه المقالة، فقال: «قلتم والذي نفسي بيده» أقسم ﷺ ففي هذا مشروعية القسم على الفتوى إذا تحقق من إصابة الحق.

«كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» النبي ﷺ بيّن أن هذه عادة قديمة في العالم، وأنها حصلت على عهد موسى عليه السلام...

﴿قَالُوا۟ يَـٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَـٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ ۚ﴾ طلبوا من موسى أن يجعل لهم صنمًا يعبدونه كهؤلاء الذين يعبدون الصنم، قال موسى عليه السلام: «﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾» السبب الذي أوقعكم في هذا هو الجهل بالتّوحيد، وهذا- كما ذكرنا- يُوجب على المسلمين أن يتعلموا العقيدة، ولا يكتفوا بقولهم: نحن مسلمون، نحن في بلاد إسلام، نحن في بيئة إسلامية، كما يقوله الجهال أو الذين يُثَبِّطون عن تعلّم العقيدة.

٢٨) ١٠-بابٌ

مَا جَاءَ فِي الذَّبْحِ لِغَيْرِ الله وَقَوْلُ اللهِ تَعَالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]، وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢].

فالحاصل؛ أن التبرّك بالأشجار والأحجار هو من سنة المشركين، ومن سنة الجاهلية، ومن فعله فهو متشبه بالكفار، وهو كافر مثلهم، لا فرق بين من يعبد القبر، ومن يعبد اللات والعُزَّى، أو الذي يطلب البركة من الشجرة، والذي يطلبها من الصنم، لا فرق بينهما.

٢٨) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: ما جاء فيها من الوعيد وأنها من الشرك الأكبر كما دلت الأدلة.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾.

قل: يا محمد. نسكي: ذبحي، وقيل: تعبدي ويشمل الذبح.

ومحياي ومماتي: أي ما أحيا عليه وأموت من العبادات والأعمال هي لله وحده، وتبين الآية أن الذبح عبادة، وأنها لله، ولا تنبغي أن تكون لغيره.

ومن ذبح لغيره من الجن والأصنام والقبور، فهو كمن صلى وعبد غير الله؛ لأن كلًا من الصلاة والذبح عبادة حيث قرن الله بينهما. وبذلك (أمرت) أمره لله.

قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

أي: صل لله وانحر له شكرًا على نعمة نهر الكوثر.

وهذا يدل على أن النحر والصلاة عبادة؛ لأنه أمر بهما؛ فمن نحر لغير الله، فقد أشرك، كما لو صلى لغير الله؛ فمن ذبح للصنم والجن وغيرهم فقد أشرك.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «في الذبح»، أي: ذبح البهائم.

قوله: «لغير الله»، اللام للتعليل، والقصد: أي: قاصدًا بذبحه غير الله، والذبح

....

لغير الله ينقسم إلى قسمين:

أن يذبح لغير الله تقربًا وتعظيمًا، فهذا شرك أكبر مخرج عن الملة.

أن يذبح لغير الله فرحًا وإكرامًا، فهذا لا يخرج من الملة، بل هو من الأمور العادية التي قد تكون مطلوبة أحيانًا وغير مطلوبة أحيانًا، فالأصل أنها مباحة.

ومراد المؤلف هنا القسم الأول.

الآية الأولى: قوله: ﴿قُلْ﴾: الخطاب للنبي ﷺ أي: قل لهؤلاء المشركين معلنًا لهم قيامك بالتوحيد الخالص، لأن هذه السورة مكية.

قوله: ﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾، الصلاة في اللغة: الدعاء، وفي الشرع: عبادة الله ذات أقوال وأفعال معلومة، مفتتحة بالتكبير، مختتمة بالتسليم.

قوله: ﴿وَنُسُكِي﴾، النسك لغة: العبادة، وفي الشرع: ذبح القربان.

قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾، أي: حياتي وموتي، أي: التصرف في تدبير أمري حيًا وميتًا لله.

وفي قوله: ﴿صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ إثبات توحيد العبادة.

وفي قوله: ﴿وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي﴾ إثبات توحيد الربوبية.

قوله: ﴿لِلَّهِ﴾، خبر إن، والله: علم على الذات الإلهية، وأصله: الإله، فحذفت الهمزة، لكثرة الاستعمال تخفيفًا.

وهو بمعنى مألوه، فهو فِعال بمعنى مفعول، مثل غِراس بمعنى مغروس، وفِراش بمعنى مفروش، والمألوه: المحبوب المعظم.

قوله: ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، المراد بـ ﴿الْعَالَمِينَ﴾: ما سوى الله، وسمي بذلك، لأنه علم على خالقه.

الآية الثانية: قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾، الجملة حالية من قوله: ﴿اللَّهِ﴾، أي: حال كونه لا شريك له، والله - سبحانه - لا شريك له في عبادته ولا في ربوبيته ولا أسمائه وصفاته، ولهذا قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

....

قوله: ﴿بِذَٰلِكَ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿أُمِرْتُ﴾، فيكون دالًّا على الحصر والتخصيص، وإنما خص بذلك؛ لأنه أعظم المأمورات، وهو الإخلاص لله تعالى ونفي الشرك.

قوله: ﴿أُمِرْتُ﴾، إبهام الفاعل هنا من باب التعظيم والتفخيم، وإلا، فمن المعلوم أن الآمر هو الله تعالى.

قوله: ﴿وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾، يحتمل أن المراد الأولية الزمنية... ويحتمل أن المراد الأولية المعنوية.

قوله: ﴿الْمُسْلِمِينَ﴾، الإسلام عند الإطلاق يشمل الإيمان، لأن المراد به الاستسلام لله ظاهرًا وباطنًا، ويدل لذلك قوله تعالى: ﴿بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١١٢]، وهذا إسلام الباطن.

وقوله: ﴿وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾، هذا إسلام الظاهر، وكذا قوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٨٥] يشمل الإسلام الباطن والظاهر، وإذا ذكر الإيمان دخل فيه الإسلام، قال تعالى: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾ [التوبة: ٧٢].

الآية الثالثة: قوله: ﴿فَصَلِّ﴾، الفاء للسببية عاطفة على قوله: ﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾ [الكوثر: ١]، أي: بسبب إعطائنا لك ذلك صلِّ لربك وانحر شكرًا لله تعالى على هذه النعمة.

وقوله: ﴿وَانْحَرْ﴾، المراد بالنحر: الذبح، أي: اجعل نحرك لله كما أن صلاتك له، فأفادت هذه الآية الكريمة أن النحر من العبادة، ولهذا أمر الله به وقرنه بالصلاة.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب كالأبواب التي قبله في بيان أنواع من الشرك التي يمارسها بعض الناس في مختلف الأزمان، من عهد الجاهلية، ولا تزال مستمرّة، وذلك من أجل أن يتميّز الخبيث من الطيّب، ولله الحكمة سبحانه وتعالى في بقاء هذا الشرك والكفر؛ من أجل أن يتميّز الخبيث من الطيّب، والموحِّد من المشرك، والمهتدي من الضال: ﴿لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ

....

جَمِيعًاۚ﴾، ولكن لو هداهم جميعًا لم تكن هناك مِيزَة لأحد على أحد، ولكن اقْتَضَتْ حكمته سبحانه أن يُجري الامتحان من أجل أن يتميّز الخبيث من الطيّب.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ تتمة الآيات: «﴿وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾» ختم الله هذه السورة العظيمة بهذه الآيات، لأن السورة تدور كلها على التّوحيد وبيان الشرك، وبيان ما يفعله المشركون مع الأصنام، وما حرّموه من المزارع والأنعام لأصنامهم.

وختمها سبحانه وتعالى بالبراءة من كل ما يفعله المشركون، وهذا الغالب على السور المكية، فالسور المكية غالبها، بل تكاد تكون كلها في التّوحيد والنّهي عن الشرك، لأن النبي ﷺ مكث في مكة ثلاث عشرة سنة يدعو إلى التّوحيد، وينهى عن الشرك، وينزل عليه القرآن في ذلك، ومن جُملة ما نزل عليه في مكة هذه السورة العظيمة: سورة الأنعام.

فقوله تعالى: «﴿قُلْ﴾» هذا أمر من الله جل وعلا لنبيه محمد ﷺ أن يُعلن للناس، ليس لناس وقته فقط، بل للناس جميعًا إلى أن تقوم الساعة، وليس لناس بلده، بل لناس العالم «﴿إِنَّ صَلَاتِي﴾» الصلاة في الشرع يُراد بها: العبادة المبتدئة بالتكبير المختتمة بالتسليم، التي تشتمل على عبادات قلبيّة وقوليّة وعملية.

«﴿وَنُسُكِي﴾» النُسُك المُراد به: ما يذبح من بهيمة الأنعام على وجه التقرّب والعبادة، كهَدْي التمتُّع والقِران، وهَدْي التطوُّع، وهَدْي الجُبران، والأضاحي، والعقيقة، هذه كلها تُسمى نُسُكًا، فما ذُبح من بهيمة الأنعام على وجه التقرّب إلى الله تعالى بذبحه، فهو النُّسُك.

«﴿وَمَحْيَايَ﴾»: ما أحيا عليه في عمري من العبادة كله لله عزّ وجلّ.

«﴿وَمَمَاتِي﴾»: ما أموت عليه- أيضًا- لله عزّ وجلّ، فيموت على التّوحيد، فمعنى الآية: أنه يحيا على التّوحيد، ويموت على التّوحيد، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ في ذلك وفي سائر أنواع العبادة.

٢٩) عن عَلِيٍّ رضي الله عنه قالَ : «حَدَّثَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ: لَعَنَ اللَّهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللَّهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَلَعَنَ اللَّهُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ». رواهُ مسلمٌ.

قال: «وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾ هذا أمر من الله لنبيه أن يُخلص الصلاة لله عزّ وجلّ، وأن يخلص النحر- وهو: الذبح- لله عزّ وجلّ.

قالوا: وهذا شكر لله سبحانه وتعالى لما أعطاه الكوثر، فإن الله سبحانه وتعالى أمره أن يشكره على هذه النعمة العظيمة، بأن يصلّي ويذبح لله عزّ وجلّ، ولهذا ربط بما قبله بفاء السببيّة.

والكوثر نهر في الجنة، وقيل: هو الخير الكثير، فهذا من باب الشكر لله سبحانه وتعالى على هذه النعمة، على إعطائه الكوثر، ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، كان الكفار يذمّون الرسول ﷺ ويقولون: إنه أبتر، ليس له ذرية، وليس له مال، وإنه إذا مات سينتهي ذكره. ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾، والله جل وعلا يقول: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ﴾، أما أنت فلست بأبتر، سيستمر ذكرك، ويستمر عملك، وتستمر دعوتك إلى يوم القيامة.

الشاهد من الآية: ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، ومن الآية: "﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَٱنْحَرْ﴾":
أن الله جل وعلا قَرَن النحر بالصلاة في الآيتين، فدلّ على أنه عبادة لا يجوز صرفها لغير الله.

٢٩) الشرح:

*** أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** عن علي - رضي الله عنه- قال: حدثني رسول الله ﷺ بأربع كلمات: «لعن الله من ذبح لغير الله. . . .».

«من ذبح لغير الله»: وبدأ بها؛ لأن الشرك أعظم الذنوب، واللعن: الطرد، وهذا يدل على أنه من الكبائر الشركية كما في الحديث: «أكبر الكبائر الشرك بالله»(١).

---

(١) رواه البخاري (٢٦٥٤) ومسلم (٨٧).

....

لعن الله من لعن والديه: وهذا من الكبائر أيضًا، ومن هذا أن يلعن غيره؛ فيلعن الآخر والديه فيكون سببًا في لعن والديه كما في حديث عبد الله بن عمرو في الصحيحين: «من الكبائر شتم الرجل والديه» فقيل: يا رسول الله، وهل يسب الرجل والديه ؟ قال: «نعم يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه فيسب أمه»[١].

وسب الناس من الكبائر إن كان بغير حق، وفي الحديث «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر»[٢] وروى البخاري من حديث ثابت بن الضحاك قول الرسول عليه الصلاة والسلام: «لعن المؤمن كقتله»[٣] وأخرج مسلم «إن اللعانين لا يكونون شهداء، ولا شفعاء يوم القيامة»[٤].

«آوى محدثًا» ؛ أي: من أوى أهل البدع والمعاصي، ونصرهم فإنه ملعون.

وكذلك من يمنع من إقامة الحد عليهم، ومن يقيم البدع وينصرها.

«غيَّر منار الأرض» : المنار: المراسيم سميت منارًا؛ لأنها تميز وتبين وتعرف حدود الأراضي، وتدل عليها فالذي يغيرها ملعون، لأنه قد يؤدي إلى المشاكل والمصائب والمقاتلة.

ويلحق به ما يرشد الناس إلى الطرق والبلدان والمياه، فمن غيَّرها فهو داخل في اللعن.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «كلمات»: جمع كلمة، والكلمة في اصطلاح النحويين: القول المفرد.

أما في اللغة، فهي كل قول مفيد، قال الرسول ﷺ: «أصدق كلمة قالها شاعر: ألا كُلُّ شَيءٍ ما خلا الله باطلٌ»[٥]، وقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا﴾ ،

---

(١) رواه البخاري (٢٣١٠) ومسلم (٩٠).

(٢) رواه البخاري (٤٨) ومسلم (٦٤).

(٣) رواه البخاري (٦٠٤٧).

(٤) رواه مسلم (٢٥٩٨).

(٥) البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يجوز من الشعر والرجز(٥٧٩٥)، ومسلم: كتاب الشعر (٢٢٥٦).

....

وهي قوله: ﴿رَبِّ ٱرْجِعُونِ ۝٩٩ لَعَلِّيٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

قوله: «لعن الله»، اللعن من الله: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: «من ذبح لغير الله»، عام يشمل من ذبح بعيرًا، أو بقرة، أو دجاجة، أو غيرها.

قوله: «لغير الله»، يشمل كل من سوى الله حتى لو ذبح لنبي، أو ملك، أو جني، أو غيرهم.

قوله: «من لعن والديه»، أي: سبهما وشتمهما، فاللعن من الإنسان السب والشتم، فإذا سببت إنسانًا أو شتمته، فهذا لعنه لأن النبي ﷺ قيل له: كيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[1].

قوله: «من آوى محدثًا»، أي: ضمه إليه وحماه، والإحداث: يشمل الإحداث في الدين، كالبدع التي أحدثها الجهمية والمعتزلة، وغيرهم.

قوله: «منار الأرض»، أي: علاماتها ومراسيمها التي تحدد بين الجيران، فمن غيرها ظلمًا، فهو ملعون.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** وقوله: «لعن الله» اللعن معناه: الطرد والإبعاد عن رحمة الله سبحانه وتعالى.

«من ذبح لغير الله» أي: تقرَّب بالذبح لغير الله من الأصنام، ومن الأضرحة، ومن الأشجار والأحجار، والجن، وغير ذلك. فكل من تقرَّب بالذبح إلى غير الله فإنه قد لعنه الله سبحانه وتعالى، وهذا يدلّ على شدّة هذه الجريمة...

قوله: «لعن الله من لعن والديه» إن الله سبحانه وتعالى قَرَن حق الوالدين بحقه سبحانه: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾، فحق الوالدين يأتي دائمًا بعد حق الله سبحانه وتعالى، كذلك النهي عن الإساءة إلى الوالدين تأتي بعد الإساءة في حق الله سبحانه وتعالى كما في حديث السبع الموبقات.

---

(١) البخاري: (٥٦٢٨)، ومسلم: (٩٠).

....

فالذبح لغير الله، إساءة في حق الله سبحانه وتعالى، ثم ذكر تنقّص الوالدين والإساءة إليهم بلعنهم، فلا يجوز للولد أن يشتم والديه، وهذا من الكبائر، لأن الرسول ﷺ لعن من فعله، واللعن على الشيء يدل على أنه كبيرة، سواء لعنهما بالمباشرة أو بالتسبّب، فبعض الناس لا يلعن والديه مباشرة، لكن يتسبّب في ذلك، بأن يلعن والدي رجل آخر، ثم يرد عليه بالمثل، فيكون متسببًا في لعن والديه، وقد قال النبي ﷺ: «إن من الكبائر أن يشتم الرجل والديه»، قالوا: وكيف يشتم الرجل والديه يا رسول الله؟ قال: «يسبّ أبا الرجل فيسبّ أباه، ويسبّ أم الرجل فيسبّ أمه»، والمسلم لا يجوز أن يكون لعّانًا، ولا سبّابًا، ولا بذيئًا.

وقوله: «لعن الله من آوى محدثًا» آوى معناها: حَمَى، فالإيواء معناه: الحمَى والدفع. والمُحْدِث: هو الذي فعل جُرمًا يستحق عليه إقامة الحد، فيأتي واحد من الناس ويَحُول دون هذا المجرم ودون إقامة الحد عليه، بجاهه، أو بقوته وسلطانه، أو بجنوده، أو بغير ذلك، فيمنع هذا المجرم من أن يقام عليه الحد. وهذا لعنه رسول الله...

ثم قال ﷺ: «لعن الله من غيّر منار الأرض» المنار: جمع منارة، وهي: العلامة. والمراد بمنار الأرض للعلماء فيه ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن المراد بمنار الأرض: المراسيم، ومعنى غيّرها يعني: قدّمها أو أخّرها عن مكانها، وفي الحديث: «من اقتطع شبرًا من الأرض بغير حق طُوِّقه يوم القيامة من سبع أرضين».

والقول الثاني: أن المراد بمنار الأرض: أعلام الحَرَم الذي يحرم قتل صيده وَتَنْفِيره، ويحرم قطع شجره وحشيشه، وأخذ لُقَطَتِه، فقد جعل الله حول الكعبة حرمًا من كل جانب، وهذه المنطقة، لا يدخلها مشرك، ولا يُنَفَّر صيدها، ولا يُخْتلى خلاها، ولا تُلْتَقَط لقطتها إلّا لمنشد، ولا يجوز القتال فيها إلّا دفاعًا، فالمراد بمنار الأرض على هذا القول: أنصاب الحَرَم، أي: الأعلام المجعولة على الحَرَم من كل جانب، من جهة التَّنْعيم، ومن جهة الحُدَيْبِيَة، ومن جهة عرفات

٣٠) وَعَنْ طَارِقِ بنِ شِهَابٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «دَخَلَ الجَنَّةَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ، ودَخَلَ النَّارَ رَجُلٌ فِي ذُبَابٍ» قَالُوا: وكَيْفَ ذَلِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟! قَالَ: «مَرَّ رَجُلانِ عَلَى قَوْمٍ لَهُمْ صَنَمٌ لا يَجُوزُهُ أَحَدٌ حَتَّى يُقَرِّبَ لَهُ شَيْئًا، فَقَالُوا لأَحَدِهِمَا: قَرِّبْ. قَالَ: لَيْسَ عِنْدِي شَيْءٌ أُقَرِّبُهُ. قَالُوا لَهُ: قَرِّبْ وَلَوْ ذُبَابًا، فَقَرَّبَ ذُبَابًا، فَخَلَّوْا سَبِيلَهُ، فَدَخَلَ النَّارَ، وَقَالُوا لِلآخَرِ: قَرِّبْ، فَقَالَ: مَا كُنْتُ لأُقَرِّبَ لأَحَدٍ شَيْئًا دُونَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ، فَضَرَبُوا عُنُقَهُ فَدَخَلَ الجَنَّةَ». رواهُ أَحْمَدُ.

ونَمِرة، ومن جهة الجِعْرانة، أنصاب مبنيّة وأعلام مقامة على حدود الحَرَم.

القول الثالث: أن المراد بمنار الأرض: العلامات التي على الطرق، وكانت معروفة، وفي وقتنا الحاضر اللوحات التي تجعلها المواصلات على الطريق، هذه من منار الأرض، فلا يجوز لأحد أن يغير هذه الأعلام، لأنه يضلل الناس والراجح من هذه الأقوال هو القول الأول.

٣٠) الشـرح:

* **أولاً**: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث طارق بن شهاب أن رسول الله ﷺ قال: «دخل الجنة رجل في ذباب...».

وطارق من صغار الصحابة، وغالب روايته من طريق أبي موسى الأشعري، فهي مرسلة صحيحة فمرسل الصحابي صحيح.

قوله: «في ذباب»: أي: بسبب ذباب ف (في» للسببيَّة.

«الصنم»: ما نحت على صورة، وما ليس له صورة يقال له: وثن، ويطلق على الأصنام أوثانًا أيضًا.

«لا يجوزه»: لا يتعداه.

«ليس عندي شيء أُقرِّبُهُ»: فاعتذر بأنه ليس معه شيء يقرب، ولم ينكر ذلك، فطمعوا فيه فأمروه أن يقرب، ولو ذبابًا؛ فدخل النار، وهذا يدل على أن التقريب للأصنام وغيره، ولو كان شيئًا حقيرًا فهو من الشرك؛ لأن الذبح والتقرب لا يجوز إلا لله.

....

«وقال الآخر» : ما كنت أقرب شيئًا إلا لله؛ فهذا أعرض وبين أنه لا يجوز وامتنع؛ فدخل الجنة، وهذا يحتمل أمرين:

«الأول» : إما أن شريعتهم ليس فيها عذر بالإكراه، ولهذا لم يأخذ بالرخصة ويتخلص من شرهم.

«الثاني» : يحتمل أنه ترك الرخصة، وأخذ بالعزيمة؛ لقوة إيمانه ويقينه فقتلوه.

وفي شريعتنا: أن من أكره على الشرك ففعل ما أكره عليه بقصد التخلص من شرهم، ولم يطمئن قلبه بذلك فلا حرج؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ فيأخذ بالرخصة حتى لو قال الكفر بلسانه.

وحديث طارق رواه أحمد في الزهد، وذكره ابن القيم بسند جيد. اهـ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «عن طارق بن شهاب».

في الحديث علتان:

الأولى: أن طارق بن شهاب اتفقوا على أنه لم يسمع من النبي ﷺ واختلفوا في صحبته، والأكثرون على أنه صحابي.

لكن إذا قلنا: إنه صحابي، فلا يضر عدم سماعه من النبي ﷺ لأن مرسل الصحابي حجة، وإن كان غير صحابي، فإنه مرسل غير صحابي، وهو من أقسام الضعيف.

الثانية: أن الحديث معنعن من قبل الأعمش، وهو من المدلسين، وهذا آفة في الحديث، فالحديث في النفس منه شيء من أجل هاتين العلتين.

ثم للحديث علة ثالثة، وهي أن الإمام أحمد رواه عن طارق عن سلمان موقوفًا من قوله، وكذا أبو نعيم وابن أبي شيبة، فيحتمل أن سلمان أخذه عن بني إسرائيل.

قوله: «في ذباب»، في: للسببية، وليست للظرفية، أي: بسبب ذباب، ونظيره قول النبي ﷺ: «دخلت النار امرأة في هرة حبستها...» الحديث، أي: بسبب هرة.

قوله: «فدخل النار»، مع أنه ذبح شيئًا حقيرًا لا يؤكل، لكن لما نوى التقرب به

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ ﴿إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾.

«الثَّالِثَةُ»: البَدَاءَةُ بِلَعْنَةِ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ.

«الرَّابِعَةُ»: لَعْنُ مَنْ لَعَنَ وَالِدَيْهِ، وَمِنْهُ أَنْ تَلْعَنَ وَالِدَي الرَّجُلِ فَيَلْعَنَ وَالِدَيْكَ.

«الخَامِسَةُ»: لَعْنُ مَنْ آوَى مُحْدِثًا، وَهُوَ الرَّجُلَ يُحْدِثُ شَيْئًا يَجِبُ فِيهِ حَقٌّ للهِ فَيَلْتَجِئُ إِلَى مَنْ يُجِيرُهُ مِنْ ذَلِكَ.

إلى هذا الصنم، صار مشركًا، فدخل النار.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: تفسير: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثالثة: البداءة بلعنة من ذبح لغير الله، بدأ به، لأنه من الشرك، والله إذا ذكر الحقوق يبدأ أولاً بالتوحيد، لأن حق الله أعظم الحقوق، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، وينبغي أن يبدأ في المناهي والعقوبات بالشرك وعقوبته.

الرابعة: لعن من لعن والديه.

ولعن الرجل للرجل له معنيان:

الأول: الدعاء عليه باللعن.

الثاني: سبه وشتمه، لأن الرسول ﷺ فسره بقوله: «يسب أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه».

الخامسة: لعن من آوى محدثًا، وقد سبق أنه يشمل الإحداث في الدين والجرائم، فمن آوى محدثًا ببدعة، فهو داخل في ذلك، ومن آوى محدثًا بجريمة،

«السَّادِسَةُ»: لَعْنُ مَنْ غَيَّرَ مَنَارَ الأَرْضِ، وَهِيَ المَرَاسِيمُ الَّتِي تُفَرِّقُ بَيْنَ حَقِّكَ فِي الأَرْضِ وَحَقِّ جَارِكَ، فَتُغَيِّرُهَا بِتَقْدِيمٍ أَوْ تَأْخِيرٍ.

«السَّابِعَةُ»: الفَرْقُ بَيْنَ لَعْنِ المُعَيَّنِ، وَلَعْنِ أَهْلِ المَعَاصِي عَلَى سَبِيلِ العُمُومِ.

«الثَّامِنَةُ»: هَذِهِ القِصَّةُ العَظِيمَةُ، وَهِيَ قِصَّةُ الذُّبَابِ.

«التَّاسِعَةُ»: كَوْنُهُ دَخَلَ النَّارَ بِسَبَبِ ذَلِكَ الذُّبَابِ الَّذِي لَمْ يَقْصِدْهُ، بَلْ فَعَلَهُ تَخَلُّصًا مِنْ شَرِّهِمْ.

«العَاشِرَةُ»: مَعْرِفَةُ قَدْرِ الشِّرْكِ فِي قُلُوبِ المُؤْمِنِينَ، كَيْفَ صَبَرَ ذَلِكَ عَلَى القَتْلِ، وَلَمْ يُوَافِقْهُمْ عَلَى طَلَبِهِمْ، مَعَ كَوْنِهِمْ لَمْ يَطْلُبُوا مِنْهُ إِلَّا العَمَلَ الظَّاهِرَ.

فهو داخل في ذلك.

السادسة: لعن من غيَّر منار الأرض، وسواء كانت بينك وبين جارك أو بينك وبين السوق مثلاً، لأن الحديث عام.

السابعة: الفرق بين لعن المعين ولعن أهل المعاصي على سبيل العموم، فالأول ممنوع، والثاني جائز.

الثامنة: هذه القصة العظيمة وهي قصة الذباب، كأن المؤلف رحمه الله يصحح الحديث، ولهذا بنى عليه حكمًا، والحكم المأخوذ من دليل فرع عن صحته، والقصة معروفة.

التاسعة: كونه دخل النار بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم، هذه المسألة ليست مسلمة، فإن قوله: قرب ولو ذبابًا يقتضي أنه فعله قاصدًا التقرب، أما لو فعله تخلصًا من شرهم، فإنه لا يكفر لعدم قصد التقرب.

العاشرة: معرفة قدر الشرك في قلوب المؤمنين.. إلخ، وقد بينها المؤلف رحمه الله تعالى.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ الَّذِي دَخَلَ النَّارَ مُسْلِمٌ، لأَنَّهُ لَوْ كَانَ كَافِرًا لَمْ يَقُلْ: «دَخَلَ النَّارَ فِي ذُبَابٍ».

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: فِيهِ شَاهِدٌ لِلْحَدِيثِ الصَّحِيحِ «الجَنَّةُ أَقْرَبُ إِلَى أَحَدِكُمْ مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ، والنَّارُ مِثْلُ ذَلِكَ».

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ أَنَّ عَمَلَ القَلْبِ هُوَ المَقْصُودُ الأَعْظَمُ حَتَّى عِنْدَ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ.

---

* **مسألة:**

هل الأولى للإنسان إذا أكره على الكفر أن يصبر ولو قتل، أو يوافق ظاهرًا ويتأول؟

هذه المسألة فيها تفصيل:

أولاً: أن يوافق ظاهرًا وباطنًا، وهذا لا يجوز لأنه ردة.

ثانيًا: أن يوافق ظاهرًا لا باطنًا، ولكن يقصد التخلص من الإكراه، فهذا جائز.

ثالثًا: أن لا يوافق لا ظاهرًا ولا باطنًا ويقتل، وهذا جائز، وهو من الصبر.

الحادية عشرة: أن الذي دخل النار مسلم، لأنه لو كان كافرًا لم يقل: دخل النار في ذباب، وهذا صحيح؛ أي: أنه كان مسلمًا ثم كفر بتقريبه للصنم، فكان تقريبه هو السبب في دخوله النار.

الثانية عشرة: فيه شاهد للحديث الصحيح: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»، والغرض من هذا: الترغيب والترهيب.

الثالثة عشرة: معرفة أن عمل القلب هو المقصود الأعظم حتى عند عبدة الأوثان، والحقيقة أن هذه المسألة مع التاسعة فيها شبه تناقض، لأنه في هذه المسألة أحال الحكم على عمل القلب، وفي التاسعة أحاله على الظاهر، فقال: بسبب ذلك الذباب الذي لم يقصده، بل فعله تخلصًا من شرهم، ومقتضى ذلك أن باطنه سليم، وهنا يقول: إن العمل بعمل القلب، ولا شك أن ما قاله المؤلف رحمه الله حق بالنسبة إلى أن المدار على القلب.

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وعن طارق بن شهاب» طارق بن شهاب البَجَلي الأَحْمَسي، صحابي جليل، أدرك النبي ﷺ ولكنه لم يسمع من الرسول ﷺ فيكون حديثه عن الرسول مرسل صحابي، ومراسيل الصحابة مقبولة من غير شك، لأن الصحابي لا يرسل إلّا عن صحابي مثله، فمراسيل الصحابة ليست كمراسيل غيرهم لأنهم كلهم عدول.

«دخل الجنة رجل في ذباب» هذا حديث عجيب، ولذلك تعجّب منه الصحابة، والرسول ﷺ ساقه ولم يبيّنه من أجل أن ينتبهوا ويتشوقوا لمعرفة معناه.

«قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: «مرّ رجلان على قوم «يعني: من الأمم السابقة...

«لهم صنم» الصنم هو: ما كان على صورة حيوان، أما ما عُبد وهو على غير صورة حيوان، كالشجر والحجر والقبر فهذا يسمى وثنًا، فالوثن أعم من الصنم، لأن الصنم لا يُطلق إلّا على التِّمثال، وأما الوثن فيُطلق على التِّمثال وغيره، حتى القبر وثن إذا عُبد، قال ﷺ: «اللّٰهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»، فالوثن كل ما عُبد من دون الله على أي شكل كان.

«لا يجوزه أحد» أي: يتجاوزه ولا يمرّ عليه أحد، «حتى يقرِّب له شيئًا» يعني: يذبح له تعظيمًا له.

«فقال لأحدهما: قرّب، قال: ليس عندي شيء أقرِّبه» اعتذر بالعدم، ولم يقل: إن الذبح لغير الله لا يجوز، أو هذا منكر -والعياذ بالله- وهذا يدلّ على أنه لو كان عنده شيء لقربه.

«قالوا له: قرِّب ولو ذبابًا» فقرب ذبابًا، يعني: اذبحه للصنم، «فقرَّب ذبابًا فخلوا سبيله» سمحوا له بالمرور، «فدخل النار» بسبب الشرك، وأنه ذبح لغير الله، والعبرة بالنيّة والقصد لا بالمذبوح.

والقصد أنه ما استنكر هذا الشيء، ولا تمنع منه، وإنما اعتذر بعدم وجود شيء فلذلك دخل النار- والعياذ بالله.

....

«وقالوا للآخر: قرّب. فقال: ما كنت لأقرّب لأحد شيئًا دون الله عزّ وجلّ» امتنع وأنكر الشرك، «فضربوا عنقه» يعني: قتلوه، «فدخل الجنة» بسبب التّوحيد.

فهذا الحديث حديث عظيم، فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: هذا الحديث فيه جواز الإخبار عن الأمم السابقة، والتحدّث عنها بما ثبت لأجل العظة والعبرة.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم الذبح لغير الله، ومن ذبح لغير الله فقد أشرك.

المسألة الثالثة: كما قال الشيخ رحمه الله في مسائله: إن المدار على أعمال القلوب، وإن كان الشيء الظاهر تافهًا، لكن المدار على عمل القلب.

المسألة الرابعة: فيه دليل- كما قال الشيخ رحمه الله- على قُرب الجنة والنار من الإنسان، كما قال ﷺ: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شِراك نعله، والنار مثل ذلك»، هذا ضربوا عنقه فدخل الجنة، وذاك خلو سبيله فدخل النار.

المسألة الخامسة: أن هذا الرجل الذي ذبح الذباب كان مؤمنًا، فدخل النار بذبحه الذباب، لأنه لو كان كافرًا لدخل النار بكفره، لا بذبح الذباب، فدلّ على أنه كان مؤمنًا، وهذه مسألة خطيرة جدًا، فأين الذين يذبحون للقبور وللجن، وللشياطين، وللعفاريت، وللسحرة؟ فدلّ على أن الشرك الأكبر يخرج من الملة ولو كان شيئًا يسيرًا، فأمور التّوحيد وأمور العقيدة لا يُتسامح فيها.

❁ ❁ ❁

(٣١) ١١-بابٌ

لا يُذْبَحُ للهِ بِمَكَانٍ يُذْبَحُ فِيهِ لِغَيْرِ اللهِ وقول الله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ الآية [التوبة: ١٠٨].

---

(٣١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد به لا يجوز للمؤمنين التشبه بأهل المعاصي، ولا مشاركتهم في أماكن المعصية وفي أماكن تعبدهم، ولو بغير الذبح حتى لا ينسب إليهم ويشاركهم، فإذا ذبح في مكان يذبح فيه لغير الله، فإنه قد ينسب إلى أهل السوء، أو يظن به السوء والمؤمن يبتعد عن ذلك كله.

﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾.

هذا نزل في مسجد الضرار، وهو مكان بناه المنافقون لإيواء بعض الكفرة؛ ليكون حصنًا لهم يجتمعون ويتعاونون فيه على قتال النبي ﷺ ولكنهم أخفوا ذلك وأظهروا أنهم بنوا المسجد لإيواء الضعفاء والمساكين في الليالي الشاتية، وطلبوا من النبي عليه الصلاة والسلام أن يصلي فيه قبل ذهابه إلى تبوك، ولكنه أجله إلى عودته، ولما رجع وقبل المدينة أنزل الله ما يفضحهم، ويبين مقاصدهم الخبيثة، فبعث النبي عليه الصلاة والسلام من يهدمه.

فمعنى ذلك أن محلات الكفر والضلال يجب التخلص منها، وعدم إيفائها حتى لا يستعان بها على الفساد، واستدل به المؤلف على أن المكان المعد للذبح لغير الله أو الصلاة لغير الله أو معد للفسق والمعاصي يجب ألا يبقى حتى لا يفسد المسلمين، ولا ينسب إليهم، وهذا قياس ثابت كما في حديث: «فلعل ابنك هذا نزعه عرق»[(١)].

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وفي هذا الباب ذكر الذبح لله، ولكنه في مكان يذبح فيه لغيره، كمن يريد أن يضحي لله في مكان يذبح فيه للأصنام، فلا يجوز أن تذبح فيه.

---

(١) رواه البخاري (٥٣٠٥) ومسلم (١٥٠٠).

....

قوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ ، ضمير الغيبة يعود إلى مسجد الضرار، حيث بني على نية فاسدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [التوبة: ١٠٧]، والمتخذون هم المنافقون.

قال الله تعالى: ﴿وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ﴾ [التوبة: ١٠٧]، فهذه سنة المنافقين: الأيمان الكاذبة.

﴿إِنْ﴾ نافية، بدليل وقوع الاستثناء بعدها، أي: ما أردنا إلا الحسنى، والجواب على هذا اليمين الكاذب: ﴿وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ١٠٧].

وقوله: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ﴾ ، لا: ناهية وتقم: مجزوم بلا الناهية وعلامة جزمه السكون، وحذفت الواو، لأنه سكن آخره، والواو ساكنة، فحذفت تخلصًا من التقاء الساكنين.

قوله: ﴿أَبَدًا﴾ إشارة إلى أن هذا المسجد سيبقى مسجد نفاق.

قوله: ﴿لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ﴾ ، اللام: للابتداء، ومسجد: مبتدأ، وخبره: قول الله ﴿أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ﴾ ، وفي هذا التنكير تعظيم للمسجد...

قوله: ﴿فِيهِ﴾ ، أي: في هذا المسجد المؤسس على التقوى.

قوله: ﴿يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا﴾ ، بخلاف من كان في مسجد الضرار، فإنهم رجس، كما قال الله تعالى في المنافقين: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ﴾ [التوبة: ٩٥].

قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ ، هذه محبة حقيقية ثابتة لله - عز وجل - تليق بجلاله وعظمته.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقوله: «باب لا يذبحُ» بضم (الحاء) على أنّ (لا) نافية، ويصلُح: «لا يُذبحْ» بإسكانها على أنّ (لا) ناهية، وحتى لو أخذناها على أنها نافية فالنفي هنا معناه: النهي، فالنفي يأتي بمعنى النهي، بل إذا جاء النهي بصيغة النفي كان أبلغ، مثل قوله ﷺ: «لا تشد الرحال إلّا إلى ثلاثة مساجد» هذا نفيٌ معناه: النهي، ومثله قوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ

....

وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾ هذا نفي معناه النهي عن هذه الأمور.

وقوله: «لا يذبحُ لله في مكان يذبح فيه لغير الله» لأن الذبح في هذا المكان وإن كان لله عزّ وجلّ، فإنه وسيلة إلى الشرك، وكذلك في الذبح في هذا المكان تعظيم له ومشابهة للمشركين، وقد نهى النبي ﷺ عن الوسائل المُفْضية إلى الشرك.

قوله: «وقول الله تعالى: «﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾» أي: في مسجد الضرار، نهيٌ للنبي ﷺ عن الصلاة في هذا المسجد.

وقصته: أنّ أبا عامر الفاسق كان قد قرأ الكتب السابقة في الجاهلية، وتعبّد حتى صار يُقال له: «أبو عامر الراهب»، ويعظِّمه الناس لِمَا يظهر عليه من الدين؛ فلما هاجر النبي ﷺ إلى المدينة حسده وكفر به، وأبغض الرسول ﷺ وسمّاه النبي بـ «أبي عامر الفاسق»، لأنه خرج عن طاعة الله وكفر برسول الله ﷺ.

ثم ذهب هذا الكافر إلى الشام يؤلِّب النصارى على رسول الله ﷺ وكتب وهو في الشام إلى جماعة من المنافقين في المدينة: أنِ ابْنوا لنا مكانًا من أجل أن نجتمع فيه ونتشاور. يريدون أن يكون هذَا المكان محل اجتماع لأعداء الرسول ﷺ يتشاورون فيه للكيْد للإسلام، وكانوا لم يجرءوا على أن يبنوه على أنه مَجْمَع، فأظهروه بصورة المسجد، وقالوا: بنيناه من أجل الضعيف والمريض والليلة المطيرة أو الليلة الشاتيَة، وطلبوا من الرسول ﷺ أن يصلّي فيه، يريدون من هذا التغطية والخديعة.

فوعدهم ﷺ وقال: «إنا على سفر إلى غزوة تبوك، إنْ شاء الله إذا رجعنا نصلي فيه»، فلما رجع النبي ﷺ من تبوك ولم يبق على وصوله إلى المدينة إلّا ليلة - أو ليلتان- أتاه الوحي من السماء، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾، وبيّن سبحانه مقاصدهم الخبيثة في هذا البناء.

ففي هذه الآيات: أن النّيات تؤثّر في الأمْكنة والمباني، النيّات الخبيثة تؤثر في الأمكنة والبِقاع خبثًا، والنيّات الصالحة تؤثّر فيها بركة وخيرًا. ففيها: الحث على إصلاح المقاصد، وفيها: دليلٌ على أن الاعتبار بالمقاصد لا بالمظاهر.

٣٢) عَنْ ثَابِتِ بْنِ الضَّحَّاكِ رضي الله عنه قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الْجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لا. قَالَ: «فَهَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لا. قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لا وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ اللَّهِ، وَلا فِيمَا لا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ». رواهُ أَبُو داودَ، وإِسْنَادُهُ عَلَى شَرْطِهِمَا.

---

٣٢) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** عن ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل أن ينحر إبلًا ببوانة فسأل الرسول...

«بوانة»: موضع بأسفل مكة، ويقال: إنها بالقرب من ينبع.

هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ وهل كان فيها عيد من أعيادهم؟ خاف الرسول أن يكون خص المكان؛ لأنه كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، أو عيد من أعيادهم وهذا سيتأسى بهم؛ فدل على أن المؤمن ينبغي أن يبتعد عن أماكن الجاهلية، ولا يخصها بعبادة حتى لا يتشبه بهم، وينسب إليهم، فلما أخبره أنه ليس فيها ذلك أمره أن يوفي بنذره؛ فيدل على وجوب الوفاء بالنذر إذا لم يكن قصده مشابهة المشركين والكافرين وأشباههم.

فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله: كما إذا نذر أن يشرب الخمر فلا يوفي بنذره، واختلف العلماء في الكفارة على قولين:

«الأول»: أنه نذر باطل ولا كفارة عليه، واحتجوا بمعمومات، ولكن جاء عدة أخبار تدل على وجوب الكفارة، وهو الراجح، وهو القول الثاني.

ولا فيما لا يملك ابن آدم: كأن يقول لله عليّ أن أعتق عبد فلان. فنذره باطل.

«فالشاهد»: أن المؤمن لا ينبغي أن يفعل الطاعة في مكان من أماكن الجاهلية والشرك والمعاصي إلا إذا غير هذا المكان وصار مسجدًا مثلًا أو بيتًا، وزالت عنه

....

آثار الجاهلية، ونسيت فلا بأس كما أمر النبي بهدم اللات وبناء مسجد مكانه[1] فهذا يجوز التعبد فيه.

مسألة:

أمر عمر بن الخطاب بالصلاة في الكنيسة؛ لأنهم اتخذوها معبدًا لله لكن عبادتهم ليست مستقيمة، وفيها شرك وباطلة، فلعل الشبهة أنهم اتخذوها معبدًا لله أو أن المؤمنين مضطرون للصلاة فيها عند مرورهم منها عند أسفارهم؛ فقد يكون للضرورة، أو لأن جنس عبادة الله متفق عليها بينهم فيما يتعلق بالصلاة.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «نذر»، النذر في اللغة: الإلزام والعهد.

واصطلاحًا: إلزام المكلف نفسه لله شيئًا غير واجب.

والنذر في الأصل مكروه، بل إن بعض أهل العلم يميل إلى تحريمه، لأن النبي نهى عنه، وقال: «لا يأتي بخير، وإنما يستخرج به من البخيل»[2]، ولأنه إلزام لنفس الإنسان لما جعله الله في حل منه، وفي ذلك زيادة تكليف على نفسه.

قوله: «إبلًا» اسم جمع لا واحد له من لفظه، لكن له واحد من معناه، وهو البعير.

قوله: «ببوانة»، الباء بمعنى في، وهي للظرفية، والمعنى: بمكان يسمى بوانة.

قوله: «هل كان فيها وثن»، الوثن: كل ما عبد من دون الله، من شجر، أو

---

(١) روى أبو داود (٤٥٠) وابن ماجه (٧٤٣) من طريق أبي همام الدلال، قال: حدثنا سعيد بن السائب عن محمد بن عبد الله بن عياض عن عثمان بن أبي العاص: «أن رسول الله ﷺ أمره أن يجعل مسجد الطائف حيث كان طغيانهم».

قال ابن كثير في «تفسير سورة النجم» (١٩) قال ابن إسحاق: وكانت اللات لثقيف بالطائف، وكان سدنتها وحجابها بني معتب قلت (ابن كثير) وقد بعث إليها رسول الله ﷺ المغيرة بن شعبة وأبا سفيان صخر بن حرب فهدماها وجعلا مكانها مسجدًا بالطائف. وانظر سيرة ابن هشام (٤/ ١٥١).

(٢) البخاري: كتاب القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر، ومسلم: كتاب النذر/ باب النهي عن النذر.

فِيهِ مَسَائِلُ:
«الأُولَى» : تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا» .

حجر، سواء نحت أو لم ينحت.

والصنم يختص بما صنعه الآدمي.

قوله: «الجاهلية»، نسبة إلى ما كان قبل الرسالة، وسميت بذلك، لأنهم كانوا على جهل عظيم.

قوله: «يعبد»، صفة لقوله: «وثن»، وهو بيان للواقع، لأن الأوثان هي التي تعبد من دون الله.

قوله: «قالوا: لا»، السائل واحد، لكنه لما كان عنده ناس أجابوا النبي ﷺ ولا مانع أن يكون المجيب غير المسئول.

قوله: «عيد»، العيد: اسم لما يعود أو يتكرر، والعود بمعنى الرجوع. . . .

قوله: «أوف بنذرك»، فعل أمر مبني على حذف حرف العلة الياء، والكسرة دليل عليها. . .

وقوله: «أوف بنذرك» علل ﷺ ذلك بانتفاء المانع، فقال: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

قوله: «لا وفاء»، لا: نافية للجنس، وفاء: اسمها، لنذر: خبرها.

قوله: «في معصية الله»، صفة لنذر، أي: لا يمكن أن توفي بنذر في معصية الله، لأنه لا يتقرب إلى الله بمعصيته، وليست المعصية مباحة حتى يقال افعلها. . .

وقوله: «ولا فيما لا يملك ابن آدم» الذي لا يملكه ابن آدم يحتمل معنيين:

الأول: ما لا يملك فعله شرعًا، كما لو قال: لله علي أن أعتق عبد فلان، فلا يصح؛ لأنه لا يملك إعتاقه.

الثاني: ما لا يملك فعله قدرًا كما لو قال: لله عليّ نذر أن أطير بيدي فهذا لا يصح لأنه لا يملكه والفقهاء رحمهم الله يمثلون بمثل هذا للمستحيل. . .

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا﴾ ، وقد سبق ذلك في أول الباب.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ المَعْصِيَةَ قَدْ تُؤَثِّرُ فِي الأَرْضِ، وَكَذَلِكَ الطَّاعَةُ.

«الثَّالِثَةُ»: رَدُّ المَسْأَلَةِ المُشْكِلَةِ إِلَى المَسْأَلَةِ البَيِّنَةِ لِيَزُولَ الإِشْكَالِ.

«الرَّابِعَةُ»: اسْتِفْصَالُ المُفْتِي إِذَا احْتَاجَ إِلَى ذَلِكَ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ تَخْصِيصَ البُقْعَةِ بِالنَّذْرِ لا بَأْسَ بِهِ إِذَا خَلَا مِنَ المَوَانِعِ.

«السَّادِسَةُ»: المَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

«السَّابِعَةُ»: المَنْعُ مِنْهُ إِذَا كَانَ فِيهِ عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِم وَلَوْ بَعْدَ زَوَالِهِ.

الثانية: أن المعصية قد تؤثر في الأرض، وكذلك الطاعة، أي: لما كانت هذه الأرض مكان شرك، حرم أن يعمل الإنسان ما يشبه الشرك فيها لمشابهة المشركين.

الثالثة: رد المسألة المشكلة إلى المسألة البينة؛ ليزول الإشكال، فالمنع من الذبح في هذا المكان أمر مشكل، لكن الرسول ﷺ بين ذلك بالاستفصال.

الرابعة: استفصال المفتي إذا احتاج إلى ذلك، لأن النبي ﷺ استفصل، لكن هل يجب الاستفصال على كل حال، أو إذا وجد الاحتمال؟

الجواب: لا يجب إلا إذا وجد الاحتمال، لأننا لو استفصلنا في كل مسألة، لطال الأمر.

الخامسة: أن تخصيص البقعة بالنذر لا بأس به إذا خلا من الموانع، لقوله: «أوف بنذرك»، وسواء كانت هذه الموانع واقعة أو متوقعة.

فالواقعة: أن يكون فيها وثن أو عيد من أعياد الجاهلية.

والمتوقعة: أن يخشى من الذبح في هذا المكان تعظيمه...

السادسة: المنع منه إذا كان فيه وثن من أوثان الجاهلية، ولو بعد زواله، لقوله: «هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية؟»، لأن «كان» فعل ماض، والمحظور بعد زوال الوثن باقٍ، لأنه ربما يعاد.

السابعة: المنع منه إذا كان فيها عيد من أعيادهم، ولو بعد زواله، لقوله: «فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟».

«الثَّامِنَةُ»: أَنَّهُ لا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِمَا نَذَرَ فِي تِلْكَ البُقْعَةِ، لأَنَّهُ نَذْرُ مَعْصِيَةٍ.

«التَّاسِعَةُ»: الحَذَرُ مِنْ مُشَابَهَةِ المُشْرِكِينَ فِي أَعْيَادِهِمْ وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ.

«العَاشِرَةُ»: لا نَذْرَ فِي مَعْصِيَةٍ.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: لا نَذْرَ لابْنِ آدَمَ فِيمَا لا يَمْلِكُ.

الثامنة: أنه لا يجوز الوفاء بما نذر في تلك البقعة، لأنه نذر معصية، لقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله».

التاسعة: الحذر من مشابهة المشركين في أعيادهم ولو لم يقصده، وقد نص شيخ الإسلام ابن تيمية على أن حصول التشبه لا يشترط فيه القصد.

العاشرة: لا نذر في معصية الله، هكذا قال المؤلف، ولفظ الحديث المذكور: «لا وفاء لنذر»، وبينهما فرق.

فإذا قيل: لا نذر في معصية، فالمعنى أن النذر لا ينعقد. وإذا قيل: لا وفاء، فالمعنى أن النذر ينعقد، لكن لا يوفى، وقد وردت السنة بهذا وبهذا.

لكن: «لا نذر» يحمل على أن المراد لا وفاء لنذر، لقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه».

الحادية عشرة: لا نذر لابن آدم فيما لا يملك، يقال فيه ما قيل في: لا نذر في معصية.

والمعنى: لا وفاء لنذر فيما لا يملك ابن آدم، ويشتمل ما لا يملكه شرعًا، وما لا يملكه قدرًا.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وعن ثابت بن الضحّاك» الأشهلي رضي الله عنه، صحابيٌّ جليل.

«أن رجلًا نذر» النذر في اللغة هو: الالتزام-؛ يقال: نذر كذا إذا التزمه، ونذر دم فلان بمعنى أنه التزم أن يقتله. وأما في الشرع: فالنذر معناه: «إلزام المكلّف نفسه طاعة لله لم تجب عليه بأصل الشرع» من صلاة وصيام وحجٍّ وعمرة وصدقة وغير ذلك.

....

والنذر -في الأصل- غير مشروع، ولا يُستحب للإنسان أنه ينذر لنهيه ﷺ عن النذر وقال: «إن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»، وفي رواية: «لا تنذروا» - بالنهي- «فإن النذر لا يأتي بخير»، فما دام الإنسان على السَّعَة، فإنه لا ينبغي له أن ينذر ليكون في سَعة، إنْ أراد أن يتعبّد ويأتي بالطاعة أتى بها، وإلّا فليست لازمة له، ولكنه إذا نذر ورّط نفسه، ووجب عليه الوفاء بالنذر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، وقال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾.

«أن ينحر إبلًا» النحر معناه: ذبح الإبل في النحر -وهو اللَّبَّة-، يقال: نحر البعير، وذبح الشاة والبقرة. فالنحر خاصٌ بالإبل، وأما الذبح فيكون لغير الإبل.

«ببُوانة» (بُوانة) اسم موضع بين مكة والمدينة. قيل: إنه قريبٌ من مكة عند (السعديّة) التي هي (يَلَمْلَم) ميقات أهل اليمن. وقيل: إنه قريبٌ من المدينة عند (ينبع). فالحاصل أنه اسم موضع بين مكة والمدينة.

«فسَأل النبي ﷺ» فيه دليل: على الرجوع إلى أهل العلم، وأن الإنسان لا يقدِم على شيء من العبادات حتى يعرف هل هو مشروع أو غير مشروع؟.

«فقال النبي ﷺ: «هل كان فيها وَثنٌ من أوثان الجاهلية يعبد؟» يعني: هل كان في هذا المكان - ببُوانة- وثن من أوثان الجاهلية يُعبد، يعني: وأُزيل الآن.

والوثن: كل ما عُبد من دون الله من حجر ومن شجر أو صورة أو قبر، أما الصنم فهو خاصٌ بما كان على صورة.

والشاهد من هذا الحديث للباب في قوله ﷺ: «هل كان فيها وثنٌ من أوثان الجاهلية يُعبد... فهل كان فيها عيد من أعيادهم» فدلّ على أنه لا يُذبح لله في مكان كان في السابق يُذبح فيه لغير الله، لأن هذا وسيلةٌ إلى الذبح لغير الله عزّ وجلّ، كالصلاة عند القبر، وكالدعاء عند القبر، كل الوسائل التي تُفضي إلى الشرك ممنوعة.

وقوله: «أوف بنذرك» فيه دليل على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة.

وقوله: «فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله» فيه تحريم الوفاء بنذر المعصية ومنه نذر

٣٣) ١٢-بابٌ

مِنَ الشِّرْكِ النَّذْرُ لِغَيْرِ اللهِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: «﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾» [الإنسان: ٧] وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾» [البقرة: ٢٧٠].

الذبح في مكان يذبح فيه لغير الله.

٣٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: من الشرك الأكبر، وهو شرك الجاهلية وشرك عباد القبور الذين ينذرون لهم ويستغيثون بهم، ويطلبون الحوائج منهم، وهو الذي بعث الأنبياء لإنكاره، وهذا كان عند الجاهلية، أما الشرك الأصغر فهو كالرياء والحلف بالنبي وقول ما شاء الله وشئت.

وقوله: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾.

هذا مدح للمؤمنين الذين يوفون بالنذور الطيبة الشرعية، وهذا يدل على أن النذر عبادة يجب صرفها لله، واختصاصه بها سبحانه وحده.

وقوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

أي: أن الله يعلم نفقات العباد ونذورهم؛ فيجازيهم عليها إن كانت لوجه الله.

فدل على أن النذر عبادة حيث قرنه بالنفقات، والنفقة عبادة إذا كانت لوجه الله كالصدقات على الفقراء والمساكين.

فإذا نذر وتصدق بشيء للقبر أو لبنائه، أو لآلهة معينة صار هذا شركًا أكبر بالله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: النذر لغير الله مثل أن يقول: لفلان علي نذر، أو لهذا القبر علي نذر، أو لجبريل علي نذر، يريد بذلك التقرب إليهم، وما أشبه ذلك.

والفرق بينه وبين نذر المعصية: أن النذر لغير الله ليس لله أصلاً، ونذر المعصية، ولكنه على معصية من معاصيه، مثل أن يقول: لله علي نذر أن أفعل كذا

....

وكذا من معاصي الله، فيكون النذر والمنذور معصية.

وهذا النذر لغير الله لا ينعقد إطلاقًا، ولا تجب فيه كفارة، بل هو شرك تجب التوبة منه، كالحلف بغير الله فلا ينعقد وليس فيه كفارة.

وأما نذر المعصية، فينعقد، لكن لا يجوز الوفاء به، وعليه كفارة يمين، كالحلف بالله على المحرم ينعقد، وفيه كفارة...

الأولى: قوله: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، هذه الآية سيقت لمدح الأبرار، ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ [الإنسان: ٥].

ومدحهم بهذا يقتضي أن يكون عبادة؛ لأن الإنسان لا يمدح ولا يستحق دخول الجنة إلا بفعل شيء يكون عبادة.

الآية الثانية قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

﴿مَآ﴾: شرطية، و﴿أَنفَقْتُم﴾: فعل الشرط، وجوابه: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾.

قوله: ﴿مِّن نَّفَقَةٍ﴾، بيان لـ ﴿مَآ﴾ في قوله: ﴿مَآ أَنفَقْتُم﴾، والنفقة: بذل المال، وقد يكون في الخير، وقد يكون في غيره.

قوله: ﴿أَوْ نَذَرْتُم﴾، معطوف على قوله: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم﴾.

قوله ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾، تعليق الشيء بعلم الله دليل على أنه محل جزاء.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «بابٌ من الشرك النذر لغير الله» النذر في اللغة: التزام فعل الشيء. وفي الشرع: التزام مكلّف فعل طاعة لم تجب عليه بأصل الشرع. وهذا منهيٌّ عنه؛ لما فيه من إحراج الإنسان لنفسه، وتحميلها شيئًا قد يشق عليها، وكان قبل أن ينذر في سعة من أمره؛ إن شاء فعل هذه الطاعة المستحبة، وإن شاء لم يفعلها، فلمّا نذر فِعْلها لزمَتْه.

والدليل على أن الوفاء بنذر الطاعة عبادة أن الله سبحانه ذكر أن من صفات الأبرار: أنهم ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ﴾، وأمر بالوفاء به بقوله: ﴿وَلْيُوفُواْ نُذُورَهُمْ﴾، وقال النبي ﷺ: «من نذر أن يطيع الله فليطعه».

والنذر على قسمين. نذر طاعة، ونذر معصية.

....

فنذر الطاعة مثل: الاعتكاف في المسجد الحرام، أو الصلاة في المسجد الحرام، أو المسجد الأقصى، أو المسجد النبوي أو غيرها من المساجد ينذر أن يصلي في أحد المساجد الثلاثة، ويسافر إليه من أجل ذلك، هذا نذر طاعة، وهو في الأصل غير واجب، لكن لما نذره وجب عليه بنذره، والدخول في النذر ابتداءً غير مرغّب فيه، والنبي ﷺ نهى عن النذر، قال: «لا تنذروا، فإن النذر لا يأتي بخير، وإنما يُستخرج به من البخيل»، وذلك لأن الإنسان في سَعَة في أمور الطاعة غير الواجبة، إن شاء فعلها وله أجر، وإن شاء تركها ولا حرج عليه، والله لا يحب لنا أن نكلف أنفسنا شيئًا لم يوجبه علينا: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، وإدخال الإنسان نفسه في نذر غير واجب عليه في الأصل، قد يعجز، وقد يشق عليه، وعلى هذا تُنزَّل الأدلة التي تمدح الذين يوفون بالنذر، قال تعالى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾هذا مدح لهم، بعد أن ينذروا، ليس مدحًا للدخول في النذر، وإنما هو مدح للوفاء به بعد لزومه، فالإنسان إذا التزم شيئًا لله من الطاعة وجب عليه الوفاء، قال ﷺ: «اقضوا الله، فالله أحق بالقضاء».

ونذر الطاعة دَين في ذمة المسلم؛ يجب عليه الوفاء به، ومن هنا مدحهم الله.

فوجه الاستدلال من الآية الكريمة على أن النذر لغير الله شرك: لأنها دلّت على أن النذر عبادة، لأن الله مدح الموفين به، وإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

وفي الآية الثانية من سورة البقرة قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾ ولازم ذلك: أن يجازيكم عليه، وهذا من باب الحث على الوفاء بالنذر.

ووجه الاستدلال من الآية الكريمة من وجهين:

الوجه الأول: أن الله قرن النذر بالنفقة، والنفقة في سبيل الله طاعة، فدلّ على أن النذر طاعة.

الوجه الثاني: قوله: «﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُهُۥ﴾» وهذا من باب الحث على النفقة، وعلى الوفاء بالنذر؛ فدلّ على أنه طاعة، وإذا كان النذر طاعة، فإن صرفه لغير الله

٣٤) وفي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَ اللهَ فَلَا يَعْصِهِ».

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: وُجُوبُ الوَفَاءِ بِالنَّذْرِ.

«الثَّانِيَةُ»: إِذَا ثَبَتَ كَوْنُهُ عِبَادَةً للهِ فَصَرْفُهُ إِلَى غَيْرِهِ شِرْكٌ.

شرك. هذا وجه استدلال المصنف رحمه الله.

٣٤) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الصحيح: «من نذر أن يطيع الله فليطعه؛ ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه».

وهذا يدل على أن الطاعات يجب الوفاء بنذورها كأن يقول: لله عليَّ كذا أما المعاصي، فلا يجوز الوفاء بنذورها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من نذر»، جملة شرطية تفيد العموم.

قوله: «أن يطيع الله»، الطاعة: هي موافقة الأمر.

قوله: «فليطعه»، الفاء واقعة في جواب الشرط، لأن الجملة إنشائية طلبية، واللام لام الأمر.

قوله: «ومن نذر أن يعصي الله، فلا يعصه»، لا: ناهية، والنهي بحسب المعصية، فإن كانت المعصية حرامًا، فالوفاء بالنذر حرام، وإن كانت المعصية مكروهة، فالوفاء بالنذر مكروه، لأن المعصية الوقوع فيما نهي عنه، والمنهي عنه ينقسم عند أهل العلم إلى قسمين: منهي عنه نهي تحريم، ومنهي عنه نهي تنزيه.

فيه مسائل:

الأولى: وجوب الوفاء بالنذر، يعني: نذر الطاعة فقط، لقوله: «من نذر أن يطيع الله، فليطعه»، ولقول المؤلف في المسألة الثالثة: إن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به.

الثانية: إذا ثبت كونه عبادة، فصرفه إلى غير الله شرك، وهذه قاعدة في توحيد العبادة، فأي فعل كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك.

«الثَّالِثَةُ» : أَنَّ نَذْرَ المَعْصِيَةِ لا يَجُوزُ الوَفَاءُ بِهِ.

الثالثة: أن نذر المعصية لا يجوز الوفاء به، لقوله ﷺ: «من نذر أن يعصي الله، فلا يعصه».

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها» عائشة هي أم المؤمنين، بنت أبي بكر الصديق- رضي الله تعالى عنها- عقد عليها رسول الله ﷺ وهي في سن السابعة، ودخل بها وهي في سن التاسعة.

وهذا فيه دليل على جواز تزويج الصغيرة وإن لم يكن لها إذن، لأنها في سن السابعة ليسن لها إذن، ولكن وليّها يقوم مقامها إذا رأى المصلحة أن يزوّجها وهي صغيرة، بأن يزوجها من رجل صالح، أو من عالم تقي، لأن لها مصلحة في ذلك، كما زوّج الصدِّيق رسول الله هذه الطفلة الصغيرة التي هي في سن السابعة، وهي في هذا السن ليس لها إذن، لكن وليّها يقوم مقامها إذا رأى المصلحة.

كما أن فيه دليلاً على تزوج الكبير بالشابة.

وكانت عائشة فقيهة من فقهاء الصحابة، وكانت راوية للأحاديث عن الرسول ﷺ، وكان كبار الصحابة يرجعون إليها في الرّواية والفتوى- رضي الله تعالى عنها وأرضاها- فهي عالمة فقيهة، وهي أم المؤمنين، وهي بنت الصديق الذي هو أفضل الصحابة، فلها فضائل- رضي الله تعالى عنها- ولها مزايا.

وقد روت «أن رسول الله ﷺ قال: «من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» الحديث صريح في أن النذر يكون طاعة، وإذا كان طاعة فهو عبادة، وإذا كان عبادة، فصرفه لغير الله شرك أكبر.

هذا وجه استدلال المصنف رحمه الله بهذا الحديث للباب.

فقوله: «من نذر أن يطيع الله» بصلاة، بصيام، بحج، بعمرة، بصدقة، باعتكاف، أو بغير ذلك من أنواع الطاعات.

«فليطعه» بفعل هذا النذر.

فدلّ هذا على أن النذر عبادة، وعلى أنه يجب الوفاء به، لأنه دَين لله عزّ وجلّ

٣٥) ١٣-بابٌ

مِنَ الشِّرْكِ الاسْتِعَاذَةُ بِغَيْرِ اللهِ وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦].

في ذمة الناذر.

«ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه» كأن نذر أن يقطع رحمه، وأن لا يصل أباه أو أمه أو أخاه. فهذا نذر معصية لا يجوز له الوفاء به، أو نذر أن يقتل فلانًا؛ فهذا لا يجوز الوفاء به لأنه معصية، لأن القتل بغير حق معصية كبيرة.

فالحديث إذًا دليل على أن النذر عبادة، وأنه إذا نذر عبادة وجب عليه الوفاء بها، ولو صرفها لغير الله صار مشركًا، وعلى أنه لو نذر فعل الشرك، فإنه لا يجوز له الوفاء به، وكذلك إذا نذر المعصية التي هي دون الشرك، لا يجوز له الوفاء بنذر المعصية، وهذا محل إجماع: أنه لا يجوز له الوفاء بنذر المعصية، ولكن اختلفوا: هل تجب عليه كفّارة يمين أو لا تجب؟، من العلماء من رأى أنه تجب عليه كفّارة يمين بدل النذر، ومنهم من يرى أنه لا يجب عليه كفّارة يمين، نظرًا لأن نذر المعصية غير مُنعَقِد أصلاً، فليس فيه كفّارة يمين. ولأن النبي ﷺ في هذا الحديث نهى عن فعله ولم يأمر بالكفارة.

وعلى كل حال؛ تبيّن لنا من خلال هذه الآيات الكريمة وهذا الحديث أن النذر عبادة، وإذا كان عبادة فصرفه لغير الله شرك.

٣٥) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: من الشرك الأكبر كبقية العبادات التي صرفها لغير الله شرك أكبر؛ لأن الاستعاذة عبادة كما قال تعالى: ﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ أما الاستعاذة بالمخلوق الحي الحاضر القادر، فلا بأس بها كما تقول لرجل: أعوذ بك من غلامك أو ابنك، وقال تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ .أما الاستعاذة بالميت أو بالغائب أو الحجر والصنم، فهو شرك أكبر.

....

قال تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾.

نزلت هذه في أناس كانوا يعوذون بسادات الجن، وكانت العرب في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قالوا: نعوذ بعزيز هذا الوادي من سفهاء قومه، فهو كان من عمل الجاهلية، والواجب صرف كل هذا لله.

«زادوهم»: الواو للجن، والهاء للإنس؛ أي: زاد الجن الإنس رهقًا وهو الخوف والذعر.. فلما خاف الإنس من الجن تكبرت الجن.

وقال بعض السلف: الواو للإنس والهاء للجن، أي: زاد الإنس الجن رهقًا، ويكون معنى الرهق: الطغيان والاستكبار.

وكلا المعنيين حق؛ فإذا تعوذ الإنسان من الجن، فهو تعظيم للجن، ويزداد الجن طغيانًا وتكبرًا، ويقابله خوف الإنس من الجن.

وقد ذكرهم الله في معرض الذم فيجب ترك فعلهم.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «من الشرك»، من: للتبعيض، وهذه الترجمة ليست على إطلاقها، لأنه إذا استعاذ بشخص مما يقدر عليه، فإنه جائز، كالاستعانة.

قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، الواو: حرف عطف، و ﴿أَنَّ﴾: فتحت همزتها بسبب عطفها على قوله: ﴿أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾.

قوله: ﴿مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾، صفة لـ«رجال»، لأن رجال نكرة، وما بعد النكرة صفة لها.

قوله: ﴿يَعُوذُونَ﴾، الجملة خبر كان، ويقال: عاذ به ولاذ به، فالعياذ مما يخاف، واللياذ فيما يؤمل.

قوله: ﴿رَهَقًا﴾، أي: ذعرًا وخوفًا، بل الرهق أشد من مجرد الذعر والخوف، فكأنهم مع ذعرهم وخوفهم أرهقهم وأضعفهم شيء، فالذعر والخوف في القلوب والرهق في الأبدان.

قوله: ﴿بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾، يستفاد منه أن للجن رجالاً، ولهم إناثًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** والاستعاذة معناها: الاعتصام

....

والالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى في دفع المكروه والشرور.

وهو نوع من أنواع العبادة، لأن دفع الضرر، ودفع الشرور لا يقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، فكل ما لا يقدر عليه إلَّا الله، فإنه لا يُطلب إلَّا من الله، فإن طُلب من غيره كان ذلك شركًا، هذا وجه كون الاستعاذة بغير الله من الشرك؛ لأن الاستعاذة عبادة، وصرف العبادة لغير الله شرك، لماذا كانت عبادة؟، لأنها طلب دفع الضرر الذي لا يقدر على دفعه إلَّا الله، وطلب ما لا يقدر عليه إلَّا الله من غير الله شرك، ولأن الله تعالى أمر بالاستعاذة به دون غيره، قال تعالى في آيات من القرآن: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾، وقال تعالى لنبيه ﷺ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، كما أنه سبحانه بيّن أن الاستعاذة بغيره من الشرك وذلك في سورة الجن: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾، وفي سورة الأنعام: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ قَدِ ٱسْتَكْثَرْتُم مِّنَ ٱلْإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ ٱلْإِنسِ رَبَّنَا ٱسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَآ أَجَلَنَا ٱلَّذِىٓ أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ ففي هذه الآيات ما يبيّن أن الله أمر بالاستعاذة به وحده، ومنع من الاستعاذة بغيره، فدلّ على أن الاستعاذة عبادة، لا يجوز أن تُصرف لغير الله سبحانه وتعالى.

قال الشيخ رحمه الله: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾» هذه من جُملة الانتقادات التي انتقدها الجن الذين استمعوا للقرآن وآمنوا به، انتقدوها على قومهم من الجن، كما في قوله تعالى في أول السورة: ﴿قُلْ أُوحِىَ إِلَىَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَآ أَحَدًا ﴿٢﴾ وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾، وبعد ما نزّهوا الله عن الشرك، وتبرءوا منه، جعلوا ينتقدون أقوامهم وما يفعلونه مما يخالف التّوحيد، ولهذا قالوا: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى ٱللَّهِ شَطَطًا ﴿٤﴾ وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن تَقُولَ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿٥﴾ وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴿٦﴾ وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا۟ كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ ٱللَّهُ أَحَدًا﴾ إلى آخر السورة، وذلك أن

....

النبي ﷺ لما خرج إلى أهل الطائف يدعوهم إلى الله سبحانه وتعالى، فردُّوه ردًّا قبيحًا، وأَغْرَوْ عبيدهم وسفهاءهم يرجمونه بالحجارة عليه الصلاة والسلام رجع إلى مكة، وقد خرج من مكة على حالة شديدة: مات عمه الذي كان يدافع عنه، وماتت زوجته خديجة التي كانت تُؤَنِّسه، وكانت له نِعْم المعين على دعوته، ثم لما خرج إلى الطائف أُصيب بهذا الرد القبيح، اشتدت به الحال ﷺ جدًّا، وبينما هو كذلك يسّر الله له من الجن من استمع إلى القرآن وآمن به، وذلك أنه لما رجع من الطائف، وبلغ وادي نَخْلَة - بين مكة والطائف-، قام يصلي الفجر ويقرأ القرآن، واستمع له الجن، فأُعجبوا بالقرآن- كما في هذه السورة، وفي سورة الأحقاف-: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُوٓاْ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْاْ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ يعني: بعد التوراة، ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُواْ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُواْ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾، وفي سورة الجن: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾.

فهذا فيه فرج من الله سبحانه وتعالى لنبيه، وتسلية لنبيه، وأن الله يقيِّض له من يتبعه ويؤمن به، لأنه مبعوث إلى الإنس والجن.

«﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ﴾» الإنس: بنو آدم.

«﴿يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾» الجن المُراد بهم: عالم من عالم الغيب، يعيشون معنا في هذه الأرض، وهم مكلَّفون، مأمورون بطاعة الله، ومَنْهِيُّون عن معصية الله.

«﴿فَزَادُوهُمْ﴾» زاد الجن الإنس، «﴿رَهَقًا﴾» أي: خوفًا، فالجن تسلّطوا على الإنس لمّا رأوهم يعوذون بهم، وزادوهم خوفًا وقلقًا، وأُعجبوا بأنفسهم، وقالوا: إننا أَخَفْنا الإنس، وصاروا يستعيذون بنا.

وسبب نزول هذه الآية: أن العرب كانوا في الجاهلية إذا نزلوا منزلاً قال أحدهم: أعوذ بسيّد هذا الوادي من شر سفهاء قومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾

٣٦) وَعَنْ خَوْلَةَ بِنْتِ حَكِيم رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قَالَتْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً فَقَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْحَلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ» . رَواهُ مُسْلِمٌ.

---

٣٦) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وعن خولة بنت حكيم قالت: سمعت الرسول ﷺ يقول: «**من نزل منزلاً فقال. . . .**» يستحب قول هذا الدعاء عند نزول منزل، ويدل على فضل هذه الاستعاذة وأنها من أسباب العافية من شر الجن والإنس. . وهكذا إذا ركب الطائرة أو السيارة أو القطار ونحوه أن يقول ذلك، وجاء في حديث أنه يستحب تكرارها ثلاثًا، وكان النبي ﷺ إذا دعا دعا ثلاثًا.

«**كلمات**» :

معناها أي: كلمات الله النافذة والكونية التي لا راد لها.

وقال بعض السلف: المراد بالكلمات: الشرعية وكلمات القرآن؛ لأنها كلمات عظيمة شريفة، وهي كلام الله، وكل هذا حق وكلها وصف له سبحانه.

فكلامه الكوني نافذ وكلامه الشرعي أفضل الكلام.

وفيه توسل بصفات الله، وبهذا استدل السلف على أن كلام الله غير مخلوق؛ لأنه لا يجوز الاستعاذة بغير الله، فدل الحديث على أن الكلام صفة من صفات الله، ويجوز التعوذ به وأنه غير مخلوق.

«**لم يضره شيء**» : فنكرة في سياق النفي فتعم كل شيء.

وهذه يدل على فضلها فينبغي العمل بها.

والتعوذ بغير الله وبغير صفاته لا يجوز بالإجماع وإنه شرك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «كلمات»، من جموع القلة، لأنه جمع مؤنث سالم، وجموع القلة من ثلاثة إلى عشرة، والكثرة ما فوق ذلك. . .

والمراد بالكلمات هنا: الكلمات الكونية والشرعية.

وقوله: «من نزل منزلاً» يشمل من نزله على سبيل الإقامة الدائمة، أو الطارئة، بدليل أنه نكرة في سياق الشرط، والنكرة في سياق الشرط تفيد العموم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ الجِنِّ.

«الثَّانِيَةُ»: كَوْنُهُ مِنَ الشِّرْكِ.

«الثَّالِثَةُ»: الاسْتِدْلالُ عَلَى ذَلِكَ بِالحَدِيثِ، لأَنَّ العُلَمَاءَ اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللهِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قَالُوا: لأَنَّ الاسْتِعَاذَةَ بِالمَخْلُوقِ شِرْكٌ.

«الرَّابِعَةُ»: فَضِيلَةُ هَذَا الدُّعَاءِ مَعَ اخْتِصَارِهِ.

وقوله: «أعوذ» بمعنى: ألتجئ وأعتصم.

قوله: «التامات»، تمام الكلام بأمرين:

الصدق في الأخبار. العدل في الأحكام.

قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله: «من شر ما خلق»، أي: من شر الذي خلق، لأن الله خلق كل شيء: الخير والشر، ولكن الشر لا ينسب إليه، لأنه خلق الشر لحكمة، فعاد بهذه الحكمة خيرًا، فكان خيرًا.

قوله: «لم يضره شيء»، نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم من شر كل ذي شر من الجن والإنس وغيرهم والظاهر الخفي حتى يرتحل من منزله، لأن هذا خبر لا يمكن أن يتخلف مخبره، لأنه كلام الصادق المصدوق، لكن إن تخلف، فهو لوجود مانع لا لقصور السبب أو تخلف الخبر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الجن، وقد سبق ذلك في أول الباب.

الثانية: كونه من الشرك، أي: الاستعاذة بغير الله، وقد سبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: الاستدلال على ذلك بالحديث، لأن العلماء يستدلون به على أن كلمات الله غير مخلوقة، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك، وجه الاستشهاد: أن الاستعاذة بكلمات الله لا تخرج عن كونها استعاذة بالله، لأنها صفة من صفاته.

الرابعة: فضيلة هذا الدعاء مع اختصاره، أي: فائدته، وهي أنه لا يضرك شيء

«الخَامِسَةُ» : أَنَّ كَوْنَ الشَّيْءِ يَحْصُلُ بِهِ مَصْلَحَةٌ دُنْيَوِيَّةٌ مِنْ كَفِّ شَرٍّ أَوْ جَلْبِ نَفْعٍ - لا يَدُلُّ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ.

ما دمت في هذا المنزل.

الخامسة: أن كون الشيء يحصل به منفعة دنيوية من كف شر أو جلب نفع، لا يدل على أنه ليس من الشرك، ومعنى كلامه: أنه قد يكون الشيء من الشرك، ولو حصل لك فيه منفعة، فلا يلزم من حصول النفع أن ينتفي الشرك، فالإنسان قد ينتفع بما هو شرك.

مثال ذلك: الجن، فقد يعيذونك، وهذا شرك مع أن فيه منفعة.

مثال آخر: قد يسجد إنسان لملك، فيهبه أموالاً وقصورًا.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «عن خَوْلَة بنت حكيم»- رضي الله تعالى عنها- أن رسول الله ﷺ قال: «من نزل منزلاً فقال: أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق، لم يضره شيء حتى يرتحل من منزله ذلك». رواه مسلم.

هذه هي الاستعاذة الشرعية البديلة من الاستعاذة الشركية.

فقوله: «أعوذ بكلمات الله التامّات من شر ما خلق» كلمات الله: المُراد بها: كلامه سبحانه وتعالى المنزّل على رسوله ﷺ. والاستعاذة بالقرآن مشروعة؛ لأن القرآن كلام الله، فالاستعاذة بالقرآن استعاذة بصفة من صفات الله، وهي الكلام، وليست استعاذة بمخلوق.

واستدلّ أهل السنّة والجماعة بهذا الحديث على أن القرآن غير مخلوق؛ لأنه لا تجوز الاستعاذة بالمخلوق، فلو كان القرآن مخلوقًا- كما تقوله الجهمية والمعتزلة- لصار هذا من الاستعاذة بالمخلوق، وهي شرك، كما دلّ هذا الحديث على مشروعية الاستعاذة بالله عزّ وجلّ، وترك الاستعاذة بغيره سبحانه وتعالى.

وقوله: «التّامّات» أي: الصادقات العادلات، التي لا يتطرّق إليها نقص، لأن كلام الله سبحانه وتعالى كامل، لأن الله جل وعلا كامل وصفاته كاملة، وكلامه كامل لا يتطرّق إليه النقص: ﴿لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾

٣٧) ١٤-بابٌ

مِنَ الشِّرْكِ أَنْ يَسْتَغِيثَ بِغَيْرِ اللهِ أَوْ يَدْعُوَ غَيْرَهُ وقَوْلُهُ تَعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠٦﴾ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الآية [يونس: ١٠٦-

---

فالحاصل أن الكتاب والسنّة قد دلّا على أن الاستعاذة عبادة، وما دام أنها عبادة، فالاستعاذة بغير الله تكون شركًا أكبر يَخرج به صاحبه من الملّة، فالذي يستعيذ بالجن أو بالشياطين يكون كافرًا الكفر الأكبر، مشركًا بالله عزّ وجلّ، كالذين يكتبون الحُجُب والطلاسم، ويستعيذون بالشياطين وبِمَرَدَة الجن، ويكتبون أسماء الشياطين في كتاباتهم، وفي طلاسمهم، وكذلك الذين ينادون الجن عند الشدّة وعند الخوف هذا أيضًا كله من الشرك الأكبر لأنه استعاذة بغير الله سبحانه وتعالى، ومن هذا أيضًا من يستعين بالجن عندما يتخاصم مع أحد فيقول: يا جن خذوه، افعلوا به كذا وكذا. وهذا شرك بالله عزّ وجلّ إذا كان يقصد الاستعانة بهم، وكذلك الذي يعالج الناس بالاستعانة بالجن وسؤالهم عن المرض أو عن الذي سحر المريض.

فالواجب أن الإنس يتوبون إلى الله سبحانه وتعالى من ممارسة هذه الأعمال مع الجن.

والواجب على الجن: أن يتوبوا إلى الله من إضلال الإنس وإغوائهم، لأن الكُل عباد من عباد الله، يجب عليهم مخافة الله وخشيته والرغبة إليه، وطاعته.

٣٧) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا من عطف العام على الخاص؛ لأن الاستغاثة من الدعاء فكل مستغيث داع، وليس كل داع مستغيثًا، فالمستغيث هو الذي يدعو عند شدة الكربة كما في الآية: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ﴾ فالذي يستغيث عند المرض أو خوف الغرق بالرسول أو البدوي، فهذا من الشرك الأكبر، وكان المشركون في الجاهلية يخلصون الدعاء لله في الشدائد؛ لأنهم يعلمون أنه لا ينجي إلا الله، أما مشركو زماننا، فشركهم في

١٠٧]. وقوله: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾ الآية [العنكبوت: ١٧]. وقوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآيتان [الأحقاف: ٥-٦].

الرخاء والشدة، فالاستغاثة عند الشدائد شرك أكبر، ويسمى مستغيثًا، وإذا دعاهم في الرخاء يسمى داعيًا، وكلاهما شرك والأدلة هي:

﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ ۖ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾.

أي: من المشركين ﴿وَٱلْكَـٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾ فبين الله أن من دعا من دون الله ما لا ينفع ولا يضر، وهذا وصف عام لجميع المخلوقات التي لا تنفع، ولا تضر استغلالاً، ونفعها وضرها بالله وحده، وأن من دعا غير الله فهو مشرك، ويستثنى من ذلك دعاء الحي القادر الحاضر، فهذا ليس بشرك بإجماع المسلمين كأن يدعوه ليحمل معه أو يسلفه أو...

﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ﴾.

هذا على أن الخلق غير قادرين على جلب النفع، أو دفع الضر، ولهذا فكيف يعين غيره وهو عاجز.

﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ﴾.

أمر بالطلب من الله وحده والاستغاثة به وحده وعبادته وحده، وألا يطلب من غيره شيئًا ويستثنى ما تقدم.

﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾.

هذه الآية تبين أنه لا أحد أضل ممن يدعو من دون الله؛ لأنه لم يفلح في الدنيا، وفي الآخرة خاسر إلى النار، ووصف المدعوين من دون الله بأربعة أوصاف:

الأولى: عدم استجابتهم لهم إلى يوم القيامة.

الثانية: أنهم غافلون عن دعائهم، إما لأنهم أموات، أو جماد لا إحساس له، أو حي مشغول، أو ملك لا علم له بمن دعاه.

الثالثة: أنهم يكونون أعداء لمن عبدوهم يوم القيامة.

الرابعة: أنهم يبرءون من عبادتهم وينكرونها.

وقَوْلُهُ: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ [النمل: ٦٢].

﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾.
أي: لا أحد يستطيع فعل ذلك فلا ينبغي طلبه إلا من الله.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «من الشرك»، من: للتبعيض، فيدل على أن الشرك ليس مختصًا بهذا الأمر.

والاستغاثة: طلب الغوث، وهو إزالة الشدة.

وكلام المؤلف رحمه الله ليس على إطلاقه، بل يقيد بما لا يقدر عليه المستغاث به، إما لكونه ميتًا، أو غائبًا، أو يكون الشيء مما لا يقدر على إزالته إلا الله تعالى، فلو استغاث بميت ليدافع عنه أو بغائب أو بحي حاضر لينزل المطر فهذا كله من الشرك؛ ولو استغاث بحي حاضر فيما يقدر عليه كان جائزًا، قال الله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾ [القصص: ١٥].

قوله: «أو يدعو غيره»، معطوف على قوله: «أن يستغيث»، فيكون المعنى: من الشرك أن يدعو غير الله، وذلك لأن الدعاء من العبادة، قال الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، ﴿عِبَادَتِى﴾، أي: دعائي، فسمى الله الدعاء عبادة.

وقال ﷺ: «إن الدعاء هو العبادة»[1].

قوله: «أن يستغيث»، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر مبتدأ مؤخر، وخبرها مقدم، وهو قوله: من الشرك، والتقدير: من الشرك الاستغاثة بغير الله...

وقوله: «أو يدعو» هذا من باب عطف العام على الخاص، لأن الاستغاثة دعاء بإزالة الشدة فقط، والدعاء عام لكونه لجلب منفعة، أو لدفع مضرة.

الآية الأولى قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

ظاهر سياق الآية أن الخطاب للرسول ﷺ وسواء كان خاصًا به أو عامًا له ولغيره، فإن بعض العلماء قال: لا يصح أن يكون للرسول ﷺ لأن الرسول ﷺ

---

(١) مسند الإمام أحمد (٤/ ٢٦٧)، والترمذي: الدعوات/ باب الدعاء مخ العبادة، وقال: «حديث حسن صحيح»، والحاكم (١/ ٤٩٠) - وصححه.

....

يستحيل أن يقع منه ذلك، والآية على تقدير قل، وهذا ضعيف جدًا، وإخراج للآيات عن سياقها.

والصواب: أنه إما خاص بالرسول ﷺ والحكم له ولغيره، وإما عام لكل من يصح خطابه ويدخل فيه الرسول ﷺ.

قوله: ﴿مَا لَا يَنفَعُكَ﴾، أي: ما لا يجلب لك النفع لو عبدته.

﴿وَلَا يَضُرُّكَ﴾: قيل: لا يدفع عنك الضر، وقيل: لو تركت عبادته لا يضرك، لأنه لا يستطيع الانتقام، وهو الظاهر من اللفظ.

و﴿إِن﴾: شرطية، وجواب الشرط جملة: ﴿فَإِنَّكَ إِذًا﴾.

و﴿إِذًا﴾: أي: حال فعلك من الظالمين، وهو قيد، لأن ﴿إِذًا﴾ للظرف الحاضر، أي: فإنك حال فعله من الظالمين، لكن قد تتوب منه فيزول عنك وصف الظلم، فالإنسان قبل الفعل ليس بظالم، وبعد التوبة ليس بظالم، لكن حين فعل المعصية يكون ظالمًا كما قال ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن»، فنفى الإيمان عنه حال الفعل.

الآية الثانية قوله: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ﴾، أي: يصيبك بضر، كالمرض، والفقر، ونحوه.

قوله: ﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾. ﴿لَا﴾: نافية للجنس، واسمها: ﴿كَاشِفَ﴾، وخبرها: ﴿لَهُۥٓ﴾، ﴿إِلَّا هُوَ﴾ بدل، وإن قلنا بجواز كون خبرها معرفة صار ﴿هُوَ﴾ الخبر.

أي: ما أحد يكشفه أبدًا إذا مسك الله بضر إلا الله، وهذا كقول النبي ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك»[1].

قوله: ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ﴾، هنا قال: ﴿يُرِدْكَ﴾، وفي الضر قال: ﴿يَمْسَسْكَ﴾

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٢٩٣) - وصححه أحمد شاكر (٢٦٦٩).، والترمذي: أبواب صفة القيامة/ باب «ولكن يا حنظلة ساعة وساعة، ٧/ ٢٠٣ - وقال: «حديث حسن صحيح».

....

فهل هذا من باب تنويع العبارة، أو هناك فرق معنوي؟.

الجواب: هناك فرق معنوي، وهو أن الأشياء المكروهة لا تنسب إلى إرادة الله، بل تنسب إلى فعله، أي: مفعوله.

فالمس من فعل الله، والضر من مفعولاته، فالله لا يريد الضر لذاته، بل يريد لغيره، لما يترتب عليه من الخير، ولما وراء ذلك من الحكم البالغة، وفي الحديث القدسي: «إن من عبادي من لو أغنيته أفسده الغنى»[١].

أما الخير، فهو مراد لله لذاته، ومفعول له، ويقرب من هذا ما في سورة الجن: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠].

قوله: ﴿فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾، أي: لا يستطيع أن يرد فضل الله أبدًا، ولو اجتمعت الأمة على ذلك، وفي الحديث: «اللَّهُمَّ لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت»[٢].

قوله: ﴿يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، الضمير إما أن يعود إلى الفضل، لأنه أقرب، أو إلى الخير، لأنه هو الذي يتحدث عنه، ولا يختلف المعنى بذلك.

قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾، أي: ذو المغفرة، والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر، وهو ما يتقى به السهام، والمغفر فيه ستر ووقاية.

والرحيم، أي: ذو الرحمة، وهي صفة تليق بالله - عز وجل - تقتضي الإحسان والإنعام.

الآية الثالثة قوله: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾: عند الله: حال من الرزق، وقدم الحال مع أن موضعها التأخير عن صاحبها لإفادة الحصر، إن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر، أي:

---

(١) ضعيف جدًا: السلسلة الضعيفة للألباني (١٧٧٥).

(٢) البخاري: كتاب صفة الصلاة/ باب الدعاء بعد الصلاة (٥٩٧١)، ومسلم: كتاب المساجد/ باب استحباب الذكر بعد الصلاة (٥٩٣).

....

فابتغوا الرزق حال كونه عند الله لا عند غيره.

قوله: ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾، أي: تذللوا بالطاعة، لأن العبادة مأخوذة من التعبيد.

قوله: ﴿وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ الشكر فسروه بأنه: القيام بطاعة المنعم.

قوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، الجار والمجرور متعلق بـ﴿تُرْجَعُونَ﴾، وتقديمه دل على الحصر، أي أن رجوعنا إلى الله - سبحانه - وهو الذي سيحاسبنا على ما حملنا إياه من الأمر بالعبادة، والأمر بالشكر، وطلب الرزق منه.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام مبتدأ، و﴿أَضَلُّ﴾: خبره، والاستفهام يراد به هنا النفي، أي لا أحد أضل.

و﴿أَضَلُّ﴾: اسم تفضيل، أي: لا أحد أضل من هذا.

قوله: ﴿مِن دُونِ اللَّهِ﴾، أي: سواه.

قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، ﴿مَن﴾: مفعول يدعو، أي: لو بقي كل عمر الدنيا يدعو ما استجاب له، قال الله تعالى: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ [فاطر: ١٤]، والخبر هنا عن الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، يعني: نفسه سبحانه وتعالى.

قوله: ﴿وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ﴾، الضمير في قوله: ﴿هُمْ﴾ يعود على ﴿مَن﴾ باعتبار المعنى، لأنهم جماعة، وضمير يستجيب يعود على ﴿مَن﴾ باعتبار اللفظ، لأنه مفرد، فأفرد الضمير باعتبار لفظ ﴿مَن﴾، وجمعه باعتبار المعنى، لأن ﴿مَن﴾ تعود على الأصنام، وهي جماعة، و﴿مَن﴾ قد يراعى لفظها ومعناها في كلام واحد.

قوله: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ﴾، أي: يوم القيامة، ﴿كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً﴾، هل المعنى: كان العابدون للمعبودين أعداء، أو كان المعبودون للعابدين أعداء؟

الجواب: يشمل المعنيين، وهذا من بلاغة القرآن.

الشاهد: قوله: ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، فإذا كان من سوى الله لا يستجيب إلى يوم القيامة، فكيف يليق بك أن تستغيث به دون الله؟! فبطل تعلق

....

هؤلاء العابدين بمعبوداتهم.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ﴾، أم: منقطعة، والفرق بين المنقطعة والمتصلة ما يلي:

المنقطعة بمعنى بل، والمتصلة بمعنى أو.

المتصلة لا بد فيها من ذكر المعادل، والمتصلة لا يشترط فيها ذكر المعادل.

مثال ذلك: أزيدٌ عندك أم عمرو؟ فهذه متصلة، وقوله تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ متصلة وقوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ منقطعة، لأنه لم يذكر لها معادل، فهي بمعنى بل والهمزة.

قوله: ﴿الْمُضْطَرَّ﴾، أصلها: المضتر، أي: الذي أصابه الضرر، قال تعالى: ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ﴾ [الأنبياء: ٨٤]، فلا يجيب المضطر إلا الله، لكن قيده بقوله: ﴿إِذَا دَعَاهُ﴾، أما إذا لم يدعه، فقد يكشف الله ضره، وقد لا يكشفه.

قوله: ﴿وَيَكْشِفُ السُّوءَ﴾، أي: يزيل السوء، والسوء: ما يسوء المرء، وهو دون الضرورة، لأن الإنسان قد يساء بما لا يضره، لكن كل ضرورة سوء.

قوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ﴾، الذين يجعلهم الله خلفاء الأرض هم عباد الله الصالحون، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٥].

قوله: ﴿أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ﴾، الاستفهام للإنكار، أو بمعنى النفي، وهما متقاربان.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب جاء في سياق الأبواب التي تبيّن أنواعًا من الشرك يقع فيها بعض الناس في مختلف العصور والأزمان.

فقوله: «من الشرك»، أي: من أنواع الشرك الأكبر: «أن يستغيث بغير الله» فيما لا يقدر عليه إلّا الله.

والاستغاثة: طلب الغوث، ولا تكون إلّا في وقت الشدّة.

....

وأما الدعاء فهو عام في وقت الشدّة وفي غيرها، فعطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص.

والاستغاثة بالمخلوق على قسمين:

القسم الأول: الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه وتعالى، فهذه هي الشرك الأكبر، لأنها صرف للعبادة لغير الله سبحانه وتعالى.

أما الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه المخلوق كاستغاثة بغيره في الحرب ليساعده ويناصره على عدّوه؛ فهذا جائز، كما قال الله تعالى عن موسى عليه السلام: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، فالاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه- كالاستغاثة بالأموات والغائبين- شرك أكبر، لأنه يستغيث بمن لا يقدرون على شيء أبدًا، فالذين يستغيثون بالأضرحة، وبالأولياء وبالصالحين، والأموات، أو يستغيثون بالغائبين من الجن، أو بالشياطين، كل هذا من النوع الممنوع.

أما الدعاء، فهو أعم من الاستغاثة- كما سبق- وهو نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة.

ودعاء العبادة هو: الثناء على الله سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته.

ودعاء المسألة هو: طلب الحاجات من الله سبحانه وتعالى.

ويجتمع النوعان في سورة الفاتحة، فقوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، هذا دعاء عبادة، لأنه ثناء على الله، وقوله: ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، والآية التي تليها: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ الآيتان من آخر سورة يونس.

يقول الله جل وعلا لنبيه ﷺ: «﴿وَلَا تَدْعُ﴾» هذا نهي من الله لنبيه عن دعاء غير الله، والخطاب الموجه للنبي ﷺ موجه إلى أمته، إلّا إذا دلّ دليل على اختصاصه

....

به، فهذا النداء عام للنبي ﷺ ولأمته، ولأنه إذا نُهي النبي ﷺ عن ذلك، فغيره من باب أولى.

«﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» أي: غير الله.

«﴿مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾» «﴿مَا﴾» موصولة، أي: الذي لا ينفعك ولا يضرك، وذلك لأن المدعو إما أن يُطلب منه جلب خير، وإما أن يطلب منه دفع ضرر، وهذا إنما يختص بالله سبحانه وتعالى، فإنه هو الذي يقدر على دفع الضرر وجلب الخير، ودعاء الأموات وأصحاب القبور والأصنام والأوثان والأشجار والأحجار، لا يجلب خيرًا ولا يدفع ضررًا. وكل ما يُدعى من دون الله فهو بهذه المثابة، لا ينفع ولا يضر...

ثم قال تعالى: «﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾» يعني: من المشركين، لأن الشرك أعظم أنواع الظلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، والظلم في الأصل: وضع الشيء في غير موضعه، والشرك وضع للعبادة في غير مستحقها، فلذلك صار أعظم أنواع الظلم.

وقوله: «﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ﴾» هذا تقرير لإبطال دعاء غير الله، «﴿فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ﴾» هذا- أيضًا- فيه إبطال دعاء غير الله، لأن هذه المدعوات لا تقدر على كشف الضر، ولا تقدر على جلب الخير، وهذا كما في قوله: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا﴾، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وفي قوله تعالى: ﴿مَّا يَفْتَحِ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

فالنفع والضرر إنما هو من الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يستحق أن يُدعى لطلب الخير، ويُدعى- أيضًا- لرفع الشر، وكشف الضر.

«﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾» أي: اطلبوا الرزق من الله سبحانه وتعالى، فإن الله

....

قريب مجيب لمن دعاه، ولا تطلبوا الرزق من الأوثان التي لا تملك شيئًا.

﴿وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ هذا فيه توجيه من الله سبحانه وتعالى لعباده أن لا يطلبوا الرزق من غيره، وأن يعبدوه ولا يعبدوا غيره، فإنهم إذا عبدوه رزقهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ٥٦ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ٥٧ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ﴾، فالرزق إنما يُستجلَب بعبادة الله سبحانه وتعالى، وأما المعاصي، فإنها تسبِّب منع الرزق، فما يحصل في الأرض من المجاعات ومن شُحّ الأرزاق إنما سببه الكفر والمعاصي، وما يحصل في الأرض من خيرات وأرزاق فسببه الطاعة والعبادة إلَّا أن يكون استدراجًا.

فهذه الآية كالتي قبلها فيها وجوب التَّوجُّه إلى الله سبحانه بالدعاء، وطلب الحاجات، وتفريج الكُربات، وطلب الرزق، وأن أحدًا غيره لا يملك رزقًا: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ لَكُمۡ رِزۡقٗا﴾، فكيف يطلب الرزق ممن لا يملكه. وفاقد الشيء لا يعطيه.

وقوله: ﴿وَإِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ في الدار الآخرة بعد الموت، فيجازيكم بأعمالكم...

قال: «وقول الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَنۡ أَضَلُّ مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾، وتتمة الآية: ﴿وَهُمۡ عَن دُعَآئِهِمۡ غَٰفِلُونَ ٥ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمۡ أَعۡدَآءٗ وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمۡ كَٰفِرِينَ﴾، الآيات من سورة الأحقاف.

«﴿وَمَنۡ أَضَلُّ﴾» لا أحد أشد ضلالاً، «﴿مِمَّن يَدۡعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾» «أي: غير الله.

«﴿مَن لَّا يَسۡتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾» هل الصنم استجاب لأحد في يوم من الأيام؟، هل القبر استجاب لأحد في يوم من الأيام؟، هل الشجرة التي- تُعبد من دون الله استجابت لأحد؟، أبدًا، ولو قُدِّر أنه يحصل للمشرك مقصوده، فهذا ليس من المعبود من دون الله، وإنما هو من الله سبحانه وتعالى، أجراه امتحانًا له، واستدراجًا له، حتى يظن أن هذا من القبر، فيستمر في الشرك- والعياذ بالله.

«وقوله: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾» هذا استفهام من الله تعالى للمشركين،

....

يقول: أنتم تشركون بالله عزّ وجلّ في حالة الرخاء، ولكن إذا وقعتم في الشدة والاضطرار دعوتم الله مخلصين له الدين فأنقذكم، فلماذا تُشركون به في حالة الرخاء؟ كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾، فالله سبحانه وتعالى يقول: إذا كان لا ينقذكم من الشدائد إلّا الله باعترافكم-، فكيف تُشركون به في حالة الرخاء، هل هذا إلّا التناقض؟

وقوله: « ﴿وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾ أي: لا أحد يكشف السوء سواه، والمشركون يعترفون أنه لا أحد يكشف السوء إلّا الله سبحانه وتعالى، فلماذا يعبدون غيره؟

وتمام الآية: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ من هو الذي يداول الدنيا بين الناس، يداول الغنى والفقر، ويداول العز والذل، ويداول الملك بين الناس، فقوله: ﴿وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ﴾ تخلفون الجيل الذي قبلكم في الملك، وفي الأموال، وفي العقارات، وفي كل شيء، جيل يخلف جيلاً، من هو هذا الذي يدبر هذا التدبير؟، هل هي الأصنام؟، كلا، بل هو الله، وهم يعترفون بهذا.

ثم قال: ﴿أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ﴾ هل يستحق أحد العبادة مع الله سبحانه وتعالى؟ هذا إلزام لهم ببطلان ما هم عليه من عبادة غير الله.

ولهذا قال: ﴿تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزه عن الشرك.

۞ ۞ ۞

٣٨) وَرَوَى الطَّبَرَانِيُّ بِإِسْنَادِهِ: أَنَّهُ كَانَ فِي زَمَنِ النَّبِيِّ ﷺ مُنَافِقٌ يُؤْذِي الْمُؤْمِنِينَ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قُومُوا بِنَا نَسْتَغِيثُ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ مِنْ هَذَا الْمُنَافِقِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللهِ عَزَّ وَجَلَّ».

---

٣٨) الشرح:

* أولًا: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وروى الطبراني بإسناده أنه كان منافق يؤذي المؤمنين؛ فقال بعضهم.. جاء في رواية أخرى أنه عبادة بن الصامت، وأن المنافق هو عبد الله بن أبي ابن سلول، وفي إسناده بعض الضعف.

والصحابة لم يطلبوا الغوث بالرسول ﷺ إلا لأنه يقدر أن يخلصهم منه إما بقتله أو بحبسه، وهم يعلمون أن الاستغاثة بالحي القادر جائزة ولهذا ذهبوا إليه.

قوله: لا يستغاث بي: يحتمل أمرين:

«الأول»: أن النبي ﷺ لا يستطيع قتله؛ لأنه كان ممنوعًا من قتله؛ لأجل ألا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه، فامتنع من قتله[1].

«الثاني»: يحتمل إن صح الخبر أنه قال سدًّا للذريعة، وإن كان قادرًا على التخلص منه، حتى لا تقع منهم هذه الطامة في أمور لا يقدر عليها.

«والشاهد»: أنه لا يستغاث بغير الله إلا فيما يقدر عليه الحي.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «بإسناده»، يشير إلى أن هذا الإسناد ليس على شرط الصحيح، أو المتفق عليه بين الناس، بل هو إسناده الخاص، وعليه، فيجب أن يراجع هذا الإسناد فليس.. إسناد محدث قد تمت فيه شروط القبول.

وذكر الهيثمي في «مجمع الزوائد»: «أن رجاله رجال الصحيح، غير ابن لهيعة، وهو حسن الحديث، وابن لهيعة خلط في آخر عمره لاحتراق كتبه»، ولم يذكر المؤلف الصحابي، وفي الشرح هو عبادة بن الصامت رضي الله عنه.

---

(١) رواه البخاري (٣٥١٨) ومسلم (طرف حديث ٦٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: أَنَّ عَطْفَ الدُّعَاءِ عَلَى الاسْتِغَاثَةِ مِنْ عَطْفِ العَامِّ عَلَى الخَاصِّ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ هَذَا هُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنْ أَصْلَحَ النَّاسِ لَوْ يَفْعَلُهُ إِرْضَاءً لِغَيْرِهِ صَارَ مِنَ الظَّالِمِينَ.

قوله: «في زمن النبي»، أي: عهده.

قوله: «فقال بعضهم»، أي: الصحابة.

قوله: «نستغيث»، أي: نطلب الغوث وهو إزالة الشدة.

قوله: «من هذا المنافق»، إما بزجره، أو تعزيره، أو بما يناسب المقام.

قوله: «إنه لا يستغاث بي»، ظاهر هذه الجملة النفي مطلقًا، ويحتمل أن المراد: لا يستغاث به في هذه القضية المعينة.

فيه مسائل:

الأولى: أن عطف الدعاء على الاستغاثة من عطف العام على الخاص، يعني: حيث قال في الترجمة باب من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعو غيره، ووجه ذلك في الاستغاثة طلب إزالة الشدة والدعاء طلب ذلك وغيره، إذًا الاستغاثة نوع من الدعاء، والدعاء أعم، فهو من باب عطف العام على الخاص.

الثانية: تفسير قوله: ﴿وَلَا تَدْعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ﴾، الخطاب في هذه الآية للنبي ﷺ خاصة، بدليل الآيات التي قبلها، قال تعالى: ﴿وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٥].

الثالثة: أن هذا هو الشرك الأكبر، يؤخذ من قوله تعالى: ﴿فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، مضافًا إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣].

الرابعة: أن أصلح الناس لو فعله إرضاء لغيره، صار من الظالمين، تؤخذ من كون الخطاب للرسول ﷺ، وهو أصلح الناس، فلو فعل ذلك إرضاء لغيره، صار

«الخَامِسَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ التِي بَعْدَهَا.

«السَّادِسَةُ»: كَوْنُ ذَلِكَ لا يَنْفَعُ فِي الدُّنْيا مَعَ كَوْنِهِ كُفْرًا.

«السَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ الثَّالِثَةِ.

«الثَّامِنَةُ»: أَنَّ طَلَبَ الرِّزْقِ لا يَنْبَغِي إلا مِنَ اللهِ، كَمَا أَنَّ الجَنَّةَ لا تُطْلَبُ إلا مِنْهُ.

«التَّاسِعَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ الرَّابِعَةِ.

«العَاشِرَةُ»: أَنَّهُ لا أَضَلُّ مِمَّنْ دَعَا غَيْرَ اللهِ.

من الظالمين.

الخامسة: تفسير الآية التي بعدها، وهي قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾ الآية [الأنعام: ١٧]، فإن كان لا يكشف الضر إلا الله، وجب أن تكون العبادة له وحده، والاستغاثة به وحده.

السادسة: كون ذلك لا ينفع في الدنيا مع كونه كفرًا، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ﴾، فلا ينتفع من دعائه هذا، فخسر الدنيا بذلك، والآخرة بكفره».

السابعة: تفسير الآية الثالثة، هي قوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ﴾.

وقوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ حال من الرزق، وعليه يكون ابتغاء الرزق عند الله وحده.

الثامنة: أن طلب الرزق لا ينبغي إلا من الله، كما أن الجنة لا تطلب إلا منه، ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، لأن العبادة سبب لدخول الجنة، وقد أشار الله إلى ذلك بقوله: ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

التاسعة: تفسير الآية الرابعة، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥].

العاشرة: أنه لا أضل ممن دعا غير الله، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ [الأحقاف: ٥]، لأن الاستفهام هنا بمعنى النفي.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّهُ غَافِلٌ عَنْ دُعَاءِ الدَّاعِي لَا يَدْرِي عَنْهُ.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ تِلْكَ الدَّعْوَةَ سَبَبٌ لِبُغْضِ المَدْعُوِّ لِلدَّاعِي وعَدَاوَتِهِ لَهُ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : تَسْمِيَةُ تِلْكَ الدَّعْوَةِ عِبَادَةً لِلْمَدْعُوِّ.

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : كُفْرُ المَدْعُوِّ بِتِلْكَ العِبَادَةِ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : هِيَ سَبَبُ كَوْنِهِ أَضَلَّ النَّاسِ.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : تَفْسِيرُ الآيَةِ الخَامِسَةِ.

«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : الأَمْرُ العَجِيبُ، وَهُوَ إِقْرَارُ عَبَدَةِ الأَوْثَانِ أَنَّهُ لَا

الحادية عشرة: أنه غافل عن دعاء الداعي لا يدري عنه، لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ﴾، ﴿وَهُمْ﴾، أي: المدعوون، ﴿عَن دُعَآئِهِمْ﴾، أي: دعاء الداعين، أو عن دعاء الداعين إياهم.

الثانية عشرة: أن تلك الدعوة سبب لبغض المدعو للداعي وعداوته له، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

الثالثة عشرة: تسمية تلك الدعوة عبادة للمدعو، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

الرابعة عشرة: كفر المدعو بتلك العبادة، معنى كفر المدعو: رده وإنكاره، فإذا كان يوم القيامة تبرأ منه وأنكره. تؤخذ من قوله: ﴿وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ﴾.

الخامسة عشرة: هي سبب كونه أضل الناس، وذلك لأمور، هي:

أنه يدعو من دون الله من لا يستجيب له.

أن المدعوين غافلون عن دعائهم.

أنه إذا حشر الناس كانوا له أعداء.

أنه كافر بعبادتهم.

السادسة عشرة: تفسير الآية الخامسة، وهي قوله تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ﴾، وقد سبق ذلك.

السابعة عشرة: الأمر العجيب، وهو إقرار عبدة الأوثان أنه لا يجيب المضطر

يُجِيبُ المُضْطَرَّ إِلَّا اللهُ، وَلأَجْلِ هَذَا يَدْعُونَهُ فِي الشَّدَائِدِ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ»: حِمَايَةُ المُصْطَفَى ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، والتَّأَدُّبُ مَعَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

إلا الله... إلخ، وهو كما قال رحمه الله: وهذا موجود الآن، فمن الناس من يسجد للأصنام التي صنعوها بأنفسهم تعظيمًا، فإذا وقعوا في الشدة دعو الله مخلص له الدين، وكان عليهم أن يلجئوا للأصنام لو كانت عبادتها حقًا...

الثامنة عشرة: حماية المصطفى حمى التوحيد، والتأدب مع الله. اختار المؤلف أن قوله: «لا يستغاث بي» من باب التأدب بالألفاظ، والبعد عن التعلق بغير الله، وأن يكون تعلق الإنسان دائمًا بالله وحده، فهو يعلم الأمة أن تلجأ إلى الله وحده إذا وقعت في الشدائد، ولا تستغيث إلا به وحده.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «كان رجل» لم يذكر اسمه هنا، وورد أنه عبد الله بن أبي، رأس المنافقين.

«منافق» النفاق هو: إظهار الخير وإبطان الشر، وهو نوعان: نفاق اعتقادي، ونفاق عملي.

والنفاق الاعتقادي كفر أكبر، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار، ومعناه: أن يُظهر الإيمان ويُبطن الكفر.

وسبب النفاق: أنه لما اعتزّ الإسلام بعد هجرة الرسول ﷺ صار هناك أُناس يريدون العيش مع المسلمين، ولكنهم لن يستطيعوا أن يعيشوا بين المسلمين إلّا إذا أظهروا الإسلام، وهم لا يريدون الإسلام ولا يحبُّون الإسلام، فلجأوا إلى حيلة النفاق، وهي: أن يُظهروا الإسلام من أجل أن يعيشوا مع المسلمين، ويبقوا في قرارة نفوسهم على الكفر. فسموا بالمنافقين، هذا هو النفاق الاعتقادي.

وأما النفاق العملي فمعناه: أن بعض المسلمين الذين عقيدتهم سليمة ومؤمنون بالله، لكنهم يتصفون ببعض صفات المنافقين، مثل: الكذب في الحديث، والغدر

....

في العهد، وإخلاف الوعد، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»، هذا نفاق عملي، صاحبه مؤمن، ولكن فيه خَصْلَة من خصال المنافقين، وهي خطيرة جدًا، ربما أنها تئول إلى النفاق الأكبر إذا لم يتب منها.

«يؤذي المؤمنين» بمعنى: أنه يضايق المسلمين بكلامه وبتصرّفاته.

«فقال بعضهم» لم يسمّ القائل، وقد ورد في بعض الروايات أنه أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

«قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ» يعني: نستجير به، ونحتمي به «من هذا المنافق» ليردعه عنا ويكفّه عنا.

والنبي ﷺ استنكر هذه اللفظة، فقال: «إنه لا يستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله عزّ وجلّ» مع أن الرسول ﷺ قادر على أن يَرْدَع هذا المنافق، وأن يُغيث المسلمين من شرّه، بلى، هذا من الاستغاثة الجائزة، لأنه استغاثة بالرسول ﷺ فيما يقدر عليه، لكن الرسول تأدُّبًا مع الله سبحانه وتعالى، وتعليمًا للمسلمين أن يتركوا الألفاظ التي فيها سوء أدب مع الله عزّ وجلّ، وإن كانت جائزة في الأصل، فقال: «إنه لا يُستغاث بي» وهذا من باب التعليم وسدّ الذرائع لئلا يُتَطَرَّق من الاستغاثة الجائزة إلى الاستغاثة الممنوعة، فالرسول ﷺ منع من شيء جائز خوفًا أن يُفضي إلى شيء غير جائز، مثل ما منع من الصلاة عند القبور، والدعاء عند القبور، وإن كان المصلي والداعي لا يدعو إلّا الله، ولا يصلّي إلّا لله، لكن هذا وسيلة من وسائل الشرك، كذلك هنا؛ فالرسول أنكر هذه اللفظة سدًّا للذرائع، وتعليمًا للمسلمين، أن يتجنّبوا الألفاظ غير اللائقة.

الحاصل أن الرسول ﷺ إذا كان أنكر على خواص أصحابه هذه الكلمة، وقال: «إنه لا يستغاث بي» وهذا في الدنيا، مع أنه قادر على أن يغيثهم من المنافق، فكيف يُستغاث به بعد وفاته ﷺ كيف يُستغاث بمن هو دونه من الأولياء والصالحين؟ هذا أمر باطل، والاستغاثة لا تجوز إلّا بالله، فيكون في هذا شاهد

٣٩) ١٥-بابٌ قَوْلُ اللهِ تَعَالَى:

﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٩١-١٩٢].

للترجمة: «بابٌ من الشرك أن يستغيث بغير الله أو يدعوَ غيره» والمناسبة ظاهرة ولله الحمد والمنة، وكل هذا من أجل حماية التّوحيد، وصفاء العقيدة، والمنع من كل ما يُفضي إلى الشرك ولو على المدى البعيد.

الشرك لا يُتساهل فيه أبدًا، والطُّرُق التي توصِّل إلى الشرك لا يُتساهل فيها أبدًا.

٣٩) **الشـرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:**

أ- ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾.

أراد المؤلف من هذه الترجمة بيان ما عليه أهل الشرك في عهد النبي ﷺ عندما دعاهم، وقاتلهم فيبين بطلان ما هم عليه من عبادة غير الله ممن هذا وصفه.

وبهذا الوصف فإنهم لا يستحقون العبادة، وهذا استفهام للتوبيخ فهم لا يخلقون حتى النملة، بل هم مخلوقون فكيف ينفعون غيرهم، فهم إما جماد لا يعقلون أو أحياء لا يسمعون أو أموات لا يجيبون من دعاهم وفي الآية صفات هؤلاء المعبودين من دون الله، وهي أربعة:

١- أنهم لا يخلقون شيئًا.

٢- أنهم مخلوقون مربوبون.

٣- أنهم لا يستطيعون لهم نصرًا.

٤- أنهم لا ينصرون أنفسهم.

ب- ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾

وصف الله آلهتهم بأربع صفات كذلك:

١- أنهم لا يملكون شيئًا حتى القطمير.

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ . الآية [فاطر: ١٣].

٢- أنهم لا يسمعون دعاء من دعاهم.

٣- أنهم لو سمعوا ما استجابوا.

٤- أنهم يكفرون يوم القيامة بشرك هؤلاء، فهذه حالة المشركين، وأنهم خسروا الدنيا والآخرة.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** الآية الأولى والثانية قوله: ﴿أَيُشْرِكُونَ﴾ ، الاستفهام للإنكار والتوبيخ، أي: يشركونه مع الله.

قوله: ﴿مَا لَا يَخْلُقُ﴾ ، هنا عبر بـ﴿مَا﴾ دون «من»، وفي قوله: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِن دُونِ اللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُ﴾ [الأحقاف: ٥] عبر بـ﴿مَنْ﴾ .

والمناسبة ظاهرة، لأن الداعين هناك نزلوهم منزلة العاقل؛ أما هنا، فالمدعو جماد؛ لأن الذي لا يخلق شيئًا ولا يصنعه جماد لا يفيد.

قوله: ﴿شَيْئًا﴾ ، نكرة في سياق النفي؛ فتفيد العموم.

قوله: ﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ ، وصف هذه الأصنام بالعجز والنقص.

قوله: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾ ؛ أي: لا يقدرون على نصرهم لو هاجمهم عدو، لأن هؤلاء المعبودين قاصرون.

والنصر: الدفع عن المخذول بحيث ينتصر على عدوه.

قوله: ﴿وَلَا أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾ ، بنصب أنفسهم على أنه مفعول مقدم، وليس من باب الاشتغال، لأن العامل لم يشتغل بضمير السابق.

الآية الثالثة قوله: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ .

يشمل دعاء المسألة، ودعاء العبادة، و﴿مِن دُونِهِ﴾ ؛ أي: سوى الله.

وقوله: ﴿مِن قِطْمِيرٍ﴾ ، القطمير: سلب نواة التمرة.

وفي النواة ثلاثة أشياء ذكرها الله في القرآن لبيان حقارة الشيء.

القطمير: وهو اللفافة الرقيقة التي على النواة.

الفتيل: وهو سلك يكون في الشق الذي في النواة.

....

النقير: وهي النقرة التي تكون على ظهر النواة.
قوله: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ﴾، جملة شرطية، تدعو: فعل الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، وأصلها: تدعونهم.
قوله: ﴿لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون، والواو فاعل.
قوله: ﴿وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾، أي: إن هذه الأصنام لو دعوتموها ما سمعت، ولو فرض أنها سمعت ما استجابت، لأنها لا تقدر على ذلك، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام لأبيه: ﴿يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾ [مريم: ٤٢]
قوله: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ هو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٦].
فهؤلاء المعبودون إن كانوا يبعثون ويحشرون، فكفرهم بشركهم ظاهر كمن يعبد عزيرًا والمسيح.
قوله: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤]، هذا مثال يضرب لمن أخبر بخبر ورأى شكًّا عند من خاطبه به، فيقول: ولا ينبئك مثل خبير، ومعناه: أنه لا يخبرك بالخبر مثل خبير به، وهو الله، لأنه لا يعلم أحد ما يكون في يوم القيامة إلا الله، وخبره خبر صدق، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: ١٢٢].
* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: ما في هذا الباب من الأدلة من الكتاب والسنّة أراد الشيخ رحمه الله من سياقها بيان أدلة بُطلان الشرك؛ لأن القرآن الكريم جاء بالدعوة إلى التّوحيد، وعبادة الله وحده لا شريك له، وجاء بالنهي عن الشرك، وهو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، والنهي عن ذلك.
فقوله تعالى: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾ هذا استفهام، معناه: الإنكار.
«﴿مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا﴾» أي: هذا الشرك باطل؛ بدليل أن هذه المعبودات من دون

....

الله لا تخلق شيئًا، فهي عاجزة لأن الذي يستحق العبادة هو الخالق، فالذي يقدر على الخلق هو الذي يستحق العبادة، أما الذي لا يقدر على الخلق، فهذا لا يستحق العبادة، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ لا تجعلوا لله شركاء وأنتم تعلمون أن هذه الشركاء لا تقدر على خلق شيء، ولا على رِزْق، ولا على إحياء، ولا إماتة، فهي عاجزة، وكما في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ ۗ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾، فالذي يستحق العبادة هو الخالق، أما الذي لا يقدر على الخلق فهذا عاجز لا يستحق العبادة.

وفي هذه الآية يقول: «﴿لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا﴾» وشيئًا نَكِرَة في سياق النفي تَعُم، يعني: لا يخلقون أي شيء ولو كان قليلاً، ولو يجتمع العالم كله بما فيهم المَهَرة والصنّاع والمهندسون والأطباء، ويُطلب منهم أن يخلقوا حبة شعير ما استطاعوا.

ثم قال: «﴿وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾» أي: هذه المعبودات التي تعبدونها مخلوقات لله سبحانه وتعالى: فهم لم يخلقوا أنفسهم، ولم يخلقوا غيرهم، فكيف تتخذونهم مع الخالق سبحانه وتعالى؟ هل هذا إلّا من باب المكابرة، ومن باب العِناد.

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا﴾؛ أي: هذه المعبودات وهذه الأصنام لا تملك نصرًا لمن دعاها، إذا وقع المشرك في كُربة، أو في ضيق، أو في مرض، لا يستطيع أحد من الخلق أن يُنقذه إلّا بإذن الله: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾، ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾، ﴿قُلْ أَفَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَنِىَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَٰشِفَٰتُ ضُرِّهِۦٓ أَوْ أَرَادَنِى بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَٰتُ رَحْمَتِهِۦ ۚ قُلْ حَسْبِىَ ٱللَّهُ ۖ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ ٱلْمُتَوَكِّلُونَ﴾، وهنا يقول: «﴿وَلَا يَسْتَطِيعُونَ﴾» لا يملك المعبودون «﴿لَهُمْ﴾» للعابدين ﴿نَصْرًا﴾ عندما يتسلط عليهم عدو، أو يتسلط عليهم سَبُع، أو يتسلط عليهم خوف، فإنها لا تستطيع هذه المعبودات أن تنصرهم على

....

عـــدوهـــم، ﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾، ﴿وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ فالنصر من الله سبحانه وتعالى؛ ولو كانت هذه المعبودات تُغني عن المشركين شيئًا، ما انهزموا في بدر، ولا انهزموا في الأحزاب، ولا انهزموا يوم فتح مكة، وفي يوم حنين، وأما المؤمنون، فالله نصرهم سبحانه وتعالى، وهم قِلّة.

«﴿وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾»؛ أي: هذا المعبود الضعيف إذا نزل به آفة لا يستطيع أن يُنقذ نفسه، فكيف ينقذكم؟

هذا الميت المقبور المدفون لا يستطيع أن يتخلص من الموت ومن القبر ومما هو فيه، مشغول عنكم بنفسه؛ إما في عذاب، وإما في نعيم، لا يسمع دعاءكم.

وهذه الأشجار والأحجار التي تعبدونها جمادات لا تستطيع نصركم ولا تنصر نفسها.

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ ؛ أي: غير الله سبحانه وتعالى، وهذا يشمل كل ما عُبد من دون الله، لأن الاسم الموصول من صيغ العموم، فيشمل كل ما عُبد من دون الله من آدميِّين، أو أحجار، أو أشجار، أو ملائكة، أو غير ذلك. والقطمير هو الغشاء الرقيق الذي يكون على النواة وهو شيء حقير: ﴿إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا۟ دُعَآءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا۟ مَا ٱسْتَجَابُوا۟ لَكُمْ﴾ .

ثم قال سبحانه وتعالى: ﴿وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ إذا جاء يوم القيامة يتبرَّءون منكم، وكل المعبودات من دون الله تتبرّأ ممن عبدها يوم القيامة، حتى الشيطان يتبرأ: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ﴾ ، يعني: ما أنا بمغيثكم. والصريخ: المغيث. يعني: لا أقدر على إغاثتكم ﴿وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ أنتم لا تقدرون على إغاثتي، كقوله سبحانه: ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ .

وكذلك الملائكة يتبرؤون ممن عبدهم يوم القيامة، قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَهَـٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا۟ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم

٤٠) وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَنَسٍ قَالَ: شُجَّ النَّبِيُّ ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَكُسِرَتْ رَبَاعِيَّتُهُ، فَقَالَ: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا نَبِيَّهُمْ؟» فَنَزَلَتْ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وَفِيهِ عَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ إِذَا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فِي الرَّكْعَةِ الأَخِيرَةِ مِنَ الفَجْرِ: «**اللهُمَّ، الْعَنْ فُلاَنًا وَفُلاَنًا**» بَعْدَمَا يَقُولُ: «**سَمِعَ اللهُ لِمَنْ**

بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾، يعني: يعبدون الشياطين التي دعتهم إلى هذا، أما نحن براء منهم، وحاشا وكلا أن ترضى ملائكة الرحمن بأن تُعبد من دون الله، فضلاً عن أن تدعوَ إلى ذلك، وإنما هذا من عمل الشياطين.

٤٠) **الشرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وفي الصحيح عن أنس قال: شج النبي ﷺ يوم أحد وكسرت رباعيته؛ فقال: فإذا كان هذا أفضل الخلق وأقرب الناس منزلة وأفضل الأنبياء لم يستطع أن يدفع عن نفسه، ولا عن أصحابه، وهم أفضل القرون، وإذا كان كذلك لم يستحق أن يعبد من دون الله، ويشرك به معه، وما حصل يوم أحد للنبي وأصحابه بذنوبهم إنما حصل لحكمة بالغة، وهو أن محمدًا وأصحابه لا يدفعون الضر عن أنفسهم، فكيف يدعون فغيرهم من باب أولى، والذنب هو مخالفة من كانوا على جبل الرماة أمر الرسول عليه الصلاة والسلام وتنازعهم.

حديث ابن عمر أنه سمع الرسول ﷺ يقول: «**اللَّهُمَّ العن فلانًا...**».

وقد دعا على الحارث بن هشام وصفوان بن أمية، وغيرهم من صناديد قريش، ثم أسلموا وهداهم الله، ولم تقبل دعوته فيهم ولا لعنة لهم، فإذا كان سيد ولد آدم لم تقبل دعوته فيهم ولم يضرهم، فكيف غيره؟ بل الله أعلم بأحوال عباده.

حديث أبي هريرة لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾.

لا أغني عنكم من الله شيئًا: فنفى أن تنفعهم قرابتهم له ﷺ إذا لم يؤمنوا، بل أرشدهم إلى شراء الإيمان، واتباع ما جاء به الرسول، وأن هذا هو طريق النجاة،

حَمِدَهُ، رَبَّنَا وَلَكَ الحَمْدُ» فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٢] وَفِي رِوَايَةٍ: يَدْعُو عَلَى صَفْوَانَ بنِ أُمَيَّةَ وَسُهَيْلِ بنِ عَمْرٍو وَالحَارِثِ بنِ هِشَامٍ، فَنَزَلَتْ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾، وَفِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حِينَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ قَالَ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ» - أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا - «اشْتَرُوا أَنْفُسَكُمْ، لا أُغْنِي عَنْكُمْ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا عَبَّاسُ بنَ عَبْدِ المُطَّلِبِ، لَا أُغْنِي عَنْكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا، يَا صَفِيَّةُ عَمَّةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا، وَيَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا».

وهو التوحيد، وهذا هو الذي ينفعهم أما ماله فيستطيع ان ينفعهم به، فعلم أن العبادة تكون لله وحده ولا يجوز طلبها من غيره، وإذا كان النبي لا يستطيع نفع أحد دون الله، فغيره أولى.

وهذا فيه رد على المشركين الذين يطلبون النفع من غيرهم ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فسمى الله فعلهم هذا عبادة، وأمر نبيه بمقاتلتهم؛ لأنهم مشركون.

أما دعاء الحي القادر، فلا بأس به، بل هي أسباب حسية معقولة ليس لها تعلق بالغيب، ولا هي متعلقة بالأموات.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «شج»، الشجة: الجرح في الرأس والوجه خاصة.

قوله: «وكسرت رباعيته»، السنان المتوسطان يسميان ثنايا، وما يليهما يسميان رباعيتين. قوله فقال كيف يفلح قوم شجوا نبيهم ﷺ قوله: (يُفلح) من الفلاح؛ وهو الفوز بالمطلوب، والنجاة من المرهوب.

قوله: «فنزلت: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»، أي: نزلت هذه الآية، والخطاب

....

فيها للرسول ﷺ.

و﴿شَيْءٌ﴾: نكرة في سياق النفي، فتعم.

قوله: ﴿ٱلْأَمْرِ﴾، أي: الشأن، والمراد: شأن الخلق، فشأن الخلق إلى خالقهم، حتى النبي ﷺ ليس له فيهم شيء.

قوله: «فنزلت»، الفاء للسببية، وعليه فيكون سبب نزول هذه الآية هذا الكلام: «كيف يفلح قوم شجوا وجه نبيهم؟».

قوله: «وفيه»، أي: الصحيح.

قوله: «إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر»، قيد مكان الدعاء من الصلوات بالفجر، ومكانه من الركعات بالأخيرة، ومكانه من الركعة بما بعد الرفع من الركوع.

قوله: «يقول: اللَّهُمَّ، العن فلانًا وفلانًا» اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله، أي: أبعدهم عن رحمتك، واطردهم منها.

«فلانًا وفلانًا»: بينه من الرواية الثانية أنهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام.

قوله: «بعدما يقول: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد»، أي: يقول ذلك إذا رفع رأسه وقال: سمع الله لمن حمده، ربنا ولك الحمد.

قوله: «فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾»، هنا قال: «فأنزل»، وفي الحديث السابق قال: «فنزلت»، وكلها بالفاء، وعلى هذا يكون سبب نزول الآية دعوة النبي ﷺ على هؤلاء، وقوله: «كيف يفلح قوم شجوا نبيهم؟»، ولا مانع أن يكون لنزول الآية سببان.

قوله: «قام»، أي: خطيبًا.

قوله: «أنزل عليه»، أي: أنزل عليه بواسطة جبريل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

قوله: ﴿أَنذِرْ﴾، أي: حذِّر وخوِّف، والإنذار: الإعلام المقرون بتخويف.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الآيَتَيْنِ.

«الثَّانِيَةُ»: قِصَّةُ أُحُدٍ.

قوله: ﴿عَشِيرَتَكَ﴾، العشيرة: قبيلة الرجل من الجد الرابع فما دون.

قوله: ﴿ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، أي: الأقرب فالأقرب، فأول من يدخل في عشيرة الرجل أولاده، ثم آباؤه، ثم إخوانه، ثم أعمامه، وهكذا.

وفي قوله: «اشتروا أنفسكم» من الحض على هذا الأمر ما هو ظاهر؛ لأن المشتري يكون راغبًا.

قوله: «لا أغني عنكم من الله شيئًا»، هذا هو الشاهد، أي: لا أدفع أو لا أنفع، أي: لا أنفعكم بدفع شيء عنكم دون الله، ولا أمنعكم من شيء أراده الله لكم، لأن الأمر بيد الله، ولهذا أمر الله نبيه بذلك، فقال: ﴿قُلْ إِنِّي لَآ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ ٱللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾ [الجن: ٢١، ٢٢].

قوله: «شيئًا»، نكرة في سياق النفي، فتعم أي شيء.

فهذا كلام النبي ﷺ لأقاربه الأقربين: عمه، وعمته، وابنته، فما بالك بمن هم أبعد؟! فعدم إغنائه عنهم شيئًا من باب أولى، فهؤلاء الذين يتعلقون بالرسول ﷺ ويلوذون به ويستجيرون به الموجودون في هذا الزمن وقبله قد غرهم الشيطان واجتالهم عن طريق الحق، لأنهم تعلقوا بما ليس بمتعلق، إذ الذي ينفع بالنسبة للرسول ﷺ هو الإيمان به واتباعه.

أما دعاؤه والتعلق به ورجاؤه فيما يؤمل، وخشيته فيما يخاف منه، فهذا شرك بالله، وهو مما يبعد عن الرسول ﷺ وعن النجاة من عذاب الله.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين، وهما آيتا الأعراف، وسبق ذلك في أول الباب، والاستفهام فيهما للتوبيخ والإنكار، وكذلك سبق تفسير الآية الثالثة آية فاطر.

الثانية: قصة أُحُد، يعني: حيث شج النبي ﷺ... الحديث.

«الثَّالِثَةُ» : قُنُوتُ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ وَخَلْفَهُ سَادَاتُ الأَوْلِيَاءِ يُؤَمِّنُونَ فِي الصَّلَاةِ.

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّ المَدْعُوَّ عَلَيْهِمْ كُفَّارٌ.

«الخَامِسَةُ» : أَنَّهُمْ فَعَلُوا أَشْيَاءَ مَا فَعَلَهَا غَالِبُ الكُفَّارِ. مِنْهَا: شَجُّهُمْ نَبِيَّهُمْ، وَحِرْصُهُمْ عَلَى قَتْلِهِ. وَمِنْهَا: التَّمْثِيلُ بِالقَتْلَى مَعَ أَنَّهُمْ بَنُو عَمِّهِمْ.

«السَّادِسَةُ» : أَنْزَلَ اللهُ عَلَيْهِ فِي ذَلِكَ ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

«السَّابِعَةُ» : قَوْلُهُ: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ » فَتَابَ عَلَيْهِمْ فَآمَنُوا.

«الثَّامِنَةُ» : القُنُوتُ فِي النَّوَازِلِ.

الثالثة: قنوت سيد المرسلين. . . إلخ، أراد المؤلف بهذه المسألة أن النبي ﷺ سيد المرسلين، وأصحابه سادات الأولياء، ومع هذا ما أنقذوا أنفسهم، فكيف ينقذون غيرهم؟.

الرابعة: أن المدعو عليهم كفار، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، فهذا دليل على أنهم الآن ليسوا على حال مرضية، ومن المعلوم أن صفوان بن أمية وسهيل بن عمرو والحارث بن هشام وقت الدعاء عليهم كانوا كفارًا.

الخامسة: أنهم فعلوا أشياء ما فعلها غالب الكفار، أي: أنهم مع كفرهم كانوا معتدين، ومع ذلك قيل له في حقهم: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ .

السادسة: أنزل الله عليه في ذلك: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، أي: مع ما تقدم من الأمور التي تقتضي أن يكون للنبي ﷺ حق بأن يدعو عليهم أنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ ، فالأمر لله وحده، فإذا كان الرسول ﷺ قد قطع عنه هذا الشيء، فغيره من باب أولى.

السابعة: قوله: ﴿أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ﴾ ، فتاب عليهم، فآمنوا، وهذا دليل على كمال سلطان الله وقدرته.

الثامنة: القنوت في النوازل، وهذه هي المسألة الفقهية، فإذا نزل بالمسلمين نازلة، فإنه ينبغي أن يدعى لهم حتى تنكشف.

«التَّاسِعَةُ» : تَسْمِيَةُ المَدْعُوِّ عَلَيْهِمْ فِي الصَّلَاةِ بِأَسْمَائِهِمْ وَأَسْمَاءِ آبَائِهِمْ.
«العَاشِرَةُ» : لَعْنُه المُعَيَّنِ فِي القُنُوتِ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : قِصَّتُهُ ﷺ لَمَّا أُنزِلَ عَلَيْهِ: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ

وهذا القنوت مشروع في كل الصلوات، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الذي رواه أحمد وغيره[١]، إلا أن الفقهاء رحمهم الله استثنوا الطاعون، وقالوا: لا يقنت له لعدم ورود ذلك، وقد وقع في عهد عمر[٢] رضي الله عنه ولم يقنت، ولأنه شهادة، فلا ينبغي الدعاء برفع سبب الشهادة.

التاسعة: تسمية المدعو عليهم في الصلاة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهم: صفوان بن أمية، وسهيل بن عمرو، والحارث بن هشام، فسماهم بأسمائهم وأسماء آبائهم.

فهذا قد يستدل به على جواز الدعاء على الكفار بالهلاك، لكن يحتاج أن ينظر في القصة، فقد يكون لها أسباب خاصة لا تتأتى في كل شيء.

ثم إن خبيبًا دعا بالهلاك لفئة محصورة من الكفار لا لجميع الكفار.

وفيه أيضًا إن صح الحديث: دعاؤه على عتبة بن أبي لهب: «اللَّهُمَّ، سلِّط عليه كلبًا من كلابك»[٣]. فيه دليل على الدعاء بالهلاك، لكن هذا على شخص معين لا على جميع الكفار.

العاشرة: لعن المعين في القنوت، هذا غريب، فإن أراد المؤلف رحمه الله أن هذا أمر وقع، ثم نهي عنه، فلا إشكال، وإن أراد أنه يستفاد من هذا جواز لعن المعين في القنوت أبدًا، فهذا فيه نظر لأن النبي ﷺ نهي عن ذلك.

الحادية عشرة: قصته ﷺ لما أنزل: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، وهي أنه لما

---

(١) مسند الإمام أحمد (١/ ٣٠١)، والحاكم (١/ ٢٥٥)، وصححه ووافقه الذهبي.

(٢) البخاري: كتاب الحيل/ باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٦٥٧٢)، ومسلم: كتاب السلام/ باب الطاعون والطيرة (٢٢١٩).

(٣) الحاكم في «المستدرك» (كتاب التفسير، تفسير سورة أبي لهب (٢/ ٥٣٩)، وقال: «صحيح الإسناد، ولم يخرجاه»، ووافقه الذهبي.

ٱلْأَقْرَبِينَ﴾.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: جَدُّهُ ﷺ فِي هَذَا الأَمْرِ، بِحَيْثُ فَعَلَ مَا نُسِبَ بِسَبَبِهِ إِلَى الجُنُونِ، وَكَذَلِكَ لَوْ يَفْعَلُهُ مُسْلِمٌ الآنَ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: قَوْلُهُ لِلأَبْعَدِ وَالأَقْرَبِ: «لَا أُغْنِي عَنكَ مِنَ اللهِ شَيْئًا» حَتَّى قَالَ: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، لَا أُغْنِي عَنكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا». فَإِذَا صَرَّحَ ﷺ وَهُوَ سَيِّدُ المُرْسَلِينَ بِأَنَّهُ لَا يُغْنِي شَيْئًا عَنْ سَيِّدَةِ نِسَاءِ العَالَمِينَ، وَآمَنَ الإِنْسَانُ أَنَّهُ ﷺ لَا يَقُولُ إِلَّا الحَقَّ، ثُمَّ نَظَرَ فِيمَا وَقَعَ فِي قُلُوبِ خَوَاصِّ النَّاسِ الآنَ. تَبَيَّنَ لَهُ التَّوْحِيدُ وَغُرْبَةُ الدِّينِ.

نزلت عليه الآية نادى قريشًا، فعم، ثم خصص، فامتثل أمر الله في هذه الآية.

الثانية عشرة: جده ﷺ في هذا الأمر، بحيث فعل ما نسب بسببه إلى الجنون، أي: اجتهاده ﷺ في هذا الأمر، بحيث قالوا: إن محمدًا جن، كيف يجمعنا وينادينا هذا النداء؟

الثالثة عشرة: قوله للأبعد والأقرب: «لا أغني عنك من الله شيئًا»، صدق رحمه الله فيما قال، فإنه إذا كان هذا القائل سيد المرسلين، وقاله لسيدة نساء العالمين، ثم نحن نؤمن أن الرسول ﷺ لا يقول إلا الحق، وأنه لا يغني عن ابنته شيئًا، تبين لنا الآن أن ما يفعله خواص الناس ترك للتوحيد، لأنه يوجد أناس خواص يرون أنفسهم علماء، ويراهم من حولهم علماء وأهلًا للتقليد، يدعون الرسول ﷺ لكشف الضر وجلب النفع دعوة صريحة.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: «عن أنس قال: شُجَّ النبي ﷺ» الشَّجَّة هي: الجرح في الرأس والوجه خاصة، أما الجرح إذا كان في البدن فهذا لا يُسمى شَجَّةً، وإنما يُسمى جراحة.

والنبي ﷺ شُجَّ في رأسه، وهشم المغفرُ على رأسه، وغاصت حلقتان في وجنته ﷺ وكُسِرت رباعِيّته- عليه الصلاة والسلام- ووقع في حفرة، وأشاع

....

المشركون أن محمدًا قد قُتل، فلما أشاع المشركون هذه الشائعة وصاح الشيطان بذلك، حصل على المسلمين مصيبة أكبر من مصيبة القتل، كل هذا بسبب المعصية.

ولما شُجَّ النبي ﷺ يوم أحد قال -عليه الصلاة والسلام-: «كيف يُفلح قوم شَجُّوا نبيهم؟» استبعد ﷺ فلاحهم، واستبعد استجابتهم للدعوة؛ لأنهم بلغوا من العناد، وبلغوا من المشاقة إلى هذا الحد، فهؤلاء بعيد أن يستجيبوا؛ وإذا لم يستجيبوا، فلن يفلحوا، ولكن الله جل وعلا يعلم المستقبل وما يكون، فعاتبه وقال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾ وهذا- أيضًا- دليل آخر على عدم استحقاقه لشيء من العبادة، الأمر في هذا الكون والتدبير لله سبحانه وتعالى.

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ » لا أمر النصر، ولا أمر الهزيمة، ولا أمر التوبة، ولا أمر الفلاح، ولا أمر الدخول في الإسلام والهداية، وإنما كل هذا بيد الله سبحانه وتعالى، أنت ليس عليك إلّا البلاغ: ﴿إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ﴾ ، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾ ، هذه وظيفة الرسول ﷺ أنه مبلِّغ عن الله فقط، أما إنه يملك النفع والضَّر والنصر والرِّزق والحياة والموت؛ فهذا لا يملكه أحد إلّا الله سبحانه وتعالى.

قال «وفيه»؛ أي: في الصحيح، يعني: صحيح مسلم.

«عن ابن عمر» هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب - رضي الله تعالى عنهما- من فقهاء الصحابة، ومن العُبّاد.

«أنه سمع رسول الله ﷺ يقول إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر: «اللَّهمَّ، العن فلانًا وفلانًا» يدعو الرسول ﷺ على فلان وفلان أن يطردهم الله من رحمته؛ بسبب أنهم ألَّبُوا المشركين، وجاءوا لحرب الرسول ﷺ، وأوْقعوا بالمسلمين هذه المصيبة.

فيه دليل على مشروعيّة القنوت في صلاة الفجر عند النوازل، أي: ما تنزل

....

بالمسلمين نازلة من مداهمة عدو، أو حصول بلاء فيه خطورة على المسلمين، فإنهم يُشرع لهم أن يقنتوا في صلاة الفجر، بمعنى أنهم يدعون في صلاة الفجر لرفع هذا البلاء الذي عليهم، أو على إخوانهم من المسلمين، فالقنوت عند النوازل من سنّة الرسول ﷺ كما في هذا الحديث.

قال: «وفي رواية: يدعو على صفوان بن أُميّة، وسُهيل بن عمرو، والحارث ابن هشام» هذا تفسير لقوله: «اللَّهُمَّ، العن فلانًا وفلانًا». وأن المراد بهم هؤلاء الأشخاص؛ لأنهم من قادة المشركين يوم أُحُد مع أبي سفيان، وكان النبي ﷺ يدعو عليهم لِما وقع منهم، ولكن الله يعلم من حال هؤلاء وما يئول إليه أمرهم ما لا يعلمه الرسول ﷺ فإن هؤلاء تاب الله عليهم وأسلموا، وحسُن إسلامهم رضي الله عنهم.

ولهذا من عقيدة أهل السنّة والجماعة: أنهم لا يشهدون لأحد بجنة ولا نار إلّا من شهد له رسول الله ﷺ، ولكنهم يرجون للمحسنين، ويخافون على المسيئين، ولا يجزمون لأحد لأن العواقب بيد الله سبحانه وتعالى، والإنسان مهما بلغ من الكفر والشرك والعناد، فإنه قد يهديه الله سبحانه وتعالى، ويُصبح من أولياء الله الصالحين.

قوله: «وفيه»؛ يعني: في صحيح البخاري.

«عن أبي هريرة» أبو هريرة اشتهر بكنيته، أما اسمه، فاختلف فيه العلماء على أقوال كثيرة، أصحها أنه: عبد الرحمن بن صخر، من قبيلة دوس المشهورة، قَدِم على النبي وأعلن إسلامه، ولازم النبي ﷺ ملازمة تامة، يروي عنه الأحاديث، واهتمّ بذلك اهتمامًا عظيمًا، حتى أصبح من أكثر الصحابة رواية للحديث، فإنه يوجد له في كتب السنّة ما يزيد على خمسة آلاف حديث، فهو أكثر الصحابة رواية للحديث، لأنه تفرغ لذلك تفرّغًا تامًّا، واهتم به، اهتمامًا تامًّا، فأعانه الله على ذلك، وحفظ لهذه الأمة قسمًا كبيرًا من سنة رسول الله ﷺ فهو راوية الإسلام رضي الله تعالى عنه.

....

وقد تعجّب بعض الجهّال في هذا العصر، الذين تأثروا بدعايات المستشرقين، أو بدعايات المبتدعة، فاستغربوا كثرة الأحاديث التي رواها هذا الصحابي الجليل، فصاروا يتكلمون كلامًا سيِّئًا في حق أبي هريرة رضي الله عنه، ولكن الله قيَّض من علماء الإسلام من دحض هذه الشبهات، وردها في نحورهم، وبيّن منزلة هذا الصحابي الجليل من بين الصحابة، واهتمامه بأحاديث رسول الله ﷺ فهناك كتابات كثيرة تدافع عن مرويّات هذا الصحابي الجليل وتدحض شبهات المستشرقين والمبتدعة من الشيعة وغيرهم.

«قال: قام فينا رسول الله ﷺ» جاء في الحديث الآخر: أنه قام على الصفا.

«حين أنزل عليه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ أمره الله سبحانه وتعالى أن يُنذر عشيرته الأقربين، كما أمره الله أن يُنذر الناس عامة، لأنه رسول إلى العالم كله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾، رسالته ﷺ عامة للثقلين الجن والإنس، وقد بلّغ البلاغ المبين، ولكنه اختص عشيرته؛ لأمر الله له بذلك.

والإنذار معناه: الإخبار والتحذير من وقوع أمر مكروه؛ وأما البشارة، فهي الإخبار عن أمر سار، فالله جل وعلا بعث هذا النبي بشيرًا ونذيرًا، بشيرًا للمؤمنين بالخير والجنة، ونذيرًا للكافرين بالنار والعذاب إلّا أن يتوبوا إلى الله سبحانه وتعالى.

والعشيرة: جماعة الرجل الذين ينتسب إليهم.

والأقربين يعني: أقرب الناس إلى الإنسان، لأن القرابة تتفاوت، منها القرابة القريبة كالآباء، والأمهات، والإخوان، والأخوات، والأعمام، والعمّات. ومنهم أقارب أباعد، مثل: أبناء الأعمام، وأبناء أبناء الأعمام إلى آخره، فهم أقارب، ولكنهم أقارب بعيدون.

وفى هذا دليل على أن الداعية والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر يبدأ بأهل بيته وخاصته أوّلاً، ثم بجيرانه وأهل بلده، ثم يتمدّد بالخير إلى من حوله من البلاد، أما العكس وهو أن يذهب إلى الأباعد أو إلى البلاد البعيدة ويترك أهله،

....

ويترك بلده، ويترك أقاربه، فهذا خلاف منهج الرسول ﷺ الذي أمره الله تعالى به في هذه الآية.

فقال: «يا معشر قريش» المعشر: الجماعة، أي: يا جماعة قريش. يقال: إنهم من العشرة فأكثر. وقريش: القبيلة المشهورة التي بُعث منها رسول الله ﷺ لأنه ﷺ من بني هاشم، وبنو هاشم من قريش، صميم العرب، وجيران بيت الله العتيق.

«اشتروا أنفسكم» أي: افتدوها من عذاب الله، أنقذوها من عذاب الله. بماذا يشترون أنفسهم؟ يشترون أنفسهم بالدخول في الإسلام، وتوحيد الله عزّ وجلّ، وترك عبادة ما سواه، هذا هو الذي يشترون به أنفسهم.

«لا أُغني عنكم من الله شيئًا» أي: لا ينفعكم أني منكم، وأنتم قبيلتي، هذا لا ينفعكم عند الله شيئًا.

وفي هذا دليل على بُطلان التعلق على الأشخاص، والتعلق على الأولياء والصالحين، واعتقاد أنهم يقرِّبون إلى الله زُلفى، كما يفعله المشركون قديمًا وحديثًا، الذين يتعلقون على الأولياء والصالحين.

ثم خص ﷺ الأقربين إليه، فقال: «يا عبّاس بن عبد المطلب، لا أُغني عنك من الله شيئًا».

العبّاس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ فإذا كان لا يُغني عن عمه شيئًا، فكيف يغني عن غيره؟ وإذا كان أبو لهب عم الرسول ﷺ أيضًا، ولكنه أبى أن يدخل في الإسلام، واستمر على الشرك وآذى رسول الله ﷺ أنزل الله فيه سورة تُقرأ إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾، التَّبُّ هو: الخسارة، ﴿مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾، هذا عمّ الرسول ﷺ، لكنه كان كافرًا، فلم ينفعه قرابته من الرسول ﷺ، وكذلك أبو طالب مع قُرْبِه من الرسول ﷺ، وحمايته للرسول، ودفاعه عنه، لما أبى أن يُسلم، وقال: «هو على ملّة عبد المطلب» وأراد النبي ﷺ أن يستغفر له، أنزل الله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا

....

تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ﴾ . وقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ .

ثم قال: «يا صفية عمّة رسول الله ﷺ لا أُغني عنك من الله شيئًا» مثل عمه العباس.

ثم خص أقرب من هؤلاء، وهي بنته، التي هي بَضْعَة منه، فقال: «يا فاطمة بنت محمد؛ سليني من مالي» يعني: اطلبي مني شيئًا أملكه وهو المال، أما النجاة من النار، فهذه لا أملكها: «لا أُغني عنك من الله شيئًا». أما الآخرة، والنجاة من النار، والدخول في الجنة، فهذا إنما يُطلب من الله سبحانه وتعالى، ويحصل عليه بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

فهذا الحديث اشتمل على مسائل عظيمة- كما ذكرت-:

المسألة الأولى: المبادرة إلى تنفيذ أمر الله، وأن الإنسان لا يتوانى في ذلك.

المسألة الثانية: أن الداعية يبدأ بأقرب الناس إليه، وبأهل بيته أوّلاً.

المسألة الثالثة: أنه لا يجوز الاعتماد على الأشخاص والأولياء والصالحين، واعتقاد أنهم يقرِّبون إلى الله، بل على الإنسان أن يعمل لنفسه، وأن يتقي الله في نفسه، وأن يتقرّب إلى الله مباشرة، بدون واسطة أحد، لأن الله قريب مجيب.

المسألة الرابعة -وهي مهمة جدًا-: أن الانتساب إلى أهل البيت، أو القرابة من الرسول ﷺ لا تنفع إلّا مع العمل الصالح، أما بدون ذلك؛ فإنها لا تنفع عند الله.

والواجب أن يتنبّه المسلمون لهذه الأمور.

۞ ۞ ۞

٤١) ١٦-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]. «وَفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَضَى اللَّهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، يَنْفُذُهُمْ ذَلِكَ» ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ فَيَسْمَعُهَا مُسْتَرِقُ السَّمْعِ، وَمُسْتَرِقُ السَّمْعِ هَكَذَا بَعْضُهُ فَوْقَ بَعْضٍ،

---

٤١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾

أراد المؤلف بهذا الباب الرد على عباد القبور والأصنام والملائكة وغيرها، فبين أن الملائكة إذا كانت تخاف الله وتخاف عذابه إن خالفت أمره، فكيف تستحق أن تعبد من دون الله؟ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ﴾.

فُزِّع: أي: زال عنها الفزع والمراد بهم الملائكة كما في الأحاديث، فإذا ردت إليهم عقولهم، قالوا: ماذا قال ربكم؟

قالوا: الحق. أي: قال بعضهم لبعض: هو الحق. أي: قال ربنا كذا وقال كذا.

فإذا سمعت الملائكة قول الرب عز وجل، تضرب بأجنحتها خضعانًا.

خضعانًا: بفتح الخاء وضمها؛ أي: خاضعين وجلين مشفقين بين يدي الله تعالى كأنه ضرب سلسلة الحديد على الصفوان، فيسمع مسترق السمع من الجن هذا الكلام من الملائكة، وهم بعضهم فوق بعض، فيلقيه بعضهم إلى بعض حتى يلقيها الآخر للكاهن أو الساحر، وتأتيهم الشهب فربما أدركتهم قبل أن يلقوها للساحر، وربما أدركتهم بعد أن يلقوها، وهذا امتحان من الله لعباده؛ وإلا لو شاء ما استرقوا شيئًا؛ فتجتمع هذه الكلمات عند الساحر، فيكذب معها مائة كذبة

وَصَفَهُ سُفْيَانُ بِكَفِّهِ، فَحَرَفَهَا وَبَدَّدَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، فَيَسْمَعُ الْكَلِمَةَ، فَيُلْقِيهَا إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، ثُمَّ يُلْقِيهَا الآخَرُ إِلَى مَنْ تَحْتَهُ، حَتَّى يُلْقِيَهَا عَلَى لِسَانِ السَّاحِرِ أَوِ الْكَاهِنِ، فَرُبَّمَا أَدْرَكَهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَرُبَّمَا أَلْقَاهَا قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ، فَيَكْذِبُ مَعَهَا مِائَةَ كَذْبَةٍ، فَيُقَالُ: أَلَيْسَ قَدْ قَالَ لَنَا يَوْمَ كَذَا وَكَذَا: كَذَا وَكَذَا؟ فَيُصَدَّقُ بِتِلْكَ الْكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ» .

ويصدقون في واحدة فيقول الناس فيما بينهم: أليس قد قال لنا يوم كذا كذا؛ فيصدقون الكلمات الكثيرة بسبب واحدة صحيحة، فلا ينبغي الاغترار بهؤلاء وتصديقهم، لأن صدقهم إما بمشاهدة شيء في الدنيا وتناقله عن طريق الشياطين بعضهم لبعض، أوعن طريق مسترق السمع، فالواجب عدم الإصغاء إليهم وإن صدقوا أحيانًا.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ ، قال ذلك ولم يقل: «فزعت قلوبهم»، إذ «عن» تفيد المجاوزة، والمعنى: جاوز الفزع قلوبهم، أي: أزيل الفزع عن قلوبهم.

والفزع: الخوف المفاجئ، لأن الخوف المستمر لا يسمى فزعًا.

وأصله: النهوض من الخوف.

وقوله تعالى: ﴿عَن قُلُوبِهِمۡ﴾ ، أي: قلوب الملائكة، لأن الضمير يعود عليهم بدليل ما سيأتي من حديث أبي هريرة، ولا أحد من الخلق أعلم بتفسير القرآن من رسول الله ﷺ.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ﴾ جواب الشرط، والمعنى: قال بعضهم لبعض: وإنما قلنا ذلك لأن في الكلام قائلًا ومقولاً له، فلو جعلنا الضمير في «قالوا» عائدًا على الجميع، فأين المقول له؟ والمعنى: أيَّ شيءٍ قال ربكم؟.

وقوله: ﴿قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾ ، أي: قال المسئولون.

والحق: صفة لمصدر محذوف مع عامله، والتقدير قال القول الحق.

والمعنى: أن الله - سبحانه - قال القول الحق لأنه سبحانه هو الحق، ولا يصدر عنه إلا الحق، ولا يقول ولا يفعل إلا الحق.

....

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ أي: العلي في ذاته وصفاته، والكبير: ذو الكبرياء وهي العظمة التي لا يدانيها شيء، أي: العظيم الذي لا أعظم منه.

قوله: «قضى الله الأمر في السماء»، المراد بالأمر الشأن، ويكون القضاء بالقول، لقوله تعالى: ﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

قوله: «خضعانًا»، أي: خضوعًا، لقوله: «كأنه»، أي: صوت القول في وقعه على قلوبهم.

قوله: «صفوان» هو الحجر الأملس الصُّلْب، والسلسلة عليه يكون لها صوت عظيم.

وليس المراد تشبيه صوت الله تعالى بهذا، لأن الله ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، بل المراد تشبيه ما يحصل لهم من الفزع عندما يسمعون كلامه بفزع من يسمع سلسلة على صفوان.

قوله: «ينفذهم ذلك»، النفوذ: هو الدخول في الشيء، ومنه، نفذ السهم في الرمية، أي: دخل فيها. والمعنى: أن هذا الصوت يبلغ منهم كل مبلغ.

قوله: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾، أي: أزيل عنها الفزع.

قوله: ﴿قَالُوا۟﴾، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ ۖ﴾، أي: قالوا: قال الحق، أي: قال القول الحق، فالحق صفة لمصدر محذوف مع عامله، تقديره: قال القول الحق...

قوله: «فيسمعها مسترق السمع»، أي: هذه الكلمة التي تكلمت بها الملائكة.

«مسترق»: مفرد مضاف، فيعم جميع المسترقين.

وتأمل كلمة «مسترق»، ففيها دليل على أنه يبادر، فكأنه يختلسها اختلاسًا بسرعة، ويؤيده قوله: ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ ٱلْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾ [الصافات: ١٠].

قوله: «ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض»، يحتمل أن يكون هذا من كلامه ﷺ أو من كلام أبي هريرة، أو من كلام سفيان.

قوله: «وصفه سفيان بكفه»، أي: أنها واحد فوق الثاني، أي الأصابع: فالجن

....

يتراكبون واحدًا فوق الآخر، إلى أن يصلوا إلى السماء، فيقعدون لكل واحد مقعد خاص، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩].

قوله: «فيسمع الكلمة، فيلقيها إلى من تحته»؛ أي: سمع أعلى المسترقين الكلمة، فيلقيها إلى من تحته، أي: يخبره بها. «مَنْ»: اسم موصول، وقوله: «تحته» شبه جملة صلة الموصول لأنه ظرف.

قوله: «ثم يلقيها الآخر إلى من تحته حتى يُلْقِيَهَا»؛ أي: يلقي الكلمة آخرهم الذي في الأرض على لسان الساحر أو الكاهن.

قوله: «فربما أدركه الشهاب. . . . إلخ»، الشهاب: جزء منفصل من النجوم، ثاقب، قوي، ينفذ فيما يصطدم به.

قال العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥]، أي: جعلنا شهابها الذي ينطلق منها، فهذا من باب عود الضمير إلى الجزء لا إلى الكل.

فالشهب: نيازك تنطلق من النجوم.

وهي كما قال أهل الفلك: تنزل إلى الأرض، وقد تحدث تصدعًا فيها أما النجم، فلو وصل إلى الأرض، لأحرقها.

قوله: «فيكذب معها مئة كذبة»، هل هذا على سبيل التحديد، أو المراد المبالغة، أي: أنه يكذب معها كذبات كثيرة؟

الثاني هو الأقرب، وقد تزيد عن ذلك وقد تنقص، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا؟

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** مُراد الشيخ رحمه الله بهذا الباب: أن يبيّن تفسير هذه الآية، كما جاءت بذلك السنّة عن النبي ﷺ فإن هذه الآية فسّرتها السنّة بالأحاديث التي ذكرها الشيخ في هذا الباب، والغرض من ذلك إتمام ما سبق في الأبواب السابقة من بيان أدلة بُطلان الشرك.

....

وفي هذا الباب يبيّن بُطلان عبادة الملائكة، لأن الملائكة عُبدوا من دون الله، فهذا الباب مكمِّلٌ للأبواب السابقة التي قبله في بيان بُطلان عبادة كل من عُبد من دون الله من الأنبياء، والأولياء، والصالحين، والملائكة، لأنه إذا بطلت عبادة هؤلاء، فبُطلان عبادة من دونهم من باب أولى، وإذا بطل ذلك في حق الملائكة وهم أقوى الخلق خِلقة، ومن أقربهم إلى الله سبحانه وتعالى منزلة- فلأن تبطل عبادة من سواهم من الآدميين والجن والإنس من باب أولى، هذا فقه هذه الترجمة.

قوله: «إذا قضى الله الأمر» معناه: إذا تكلّم الله بالوحي، كما في حديث النوّاس بن سَمْعان الذي في آخر الباب بهذا اللفظ: «إذا تكلم الله بالْوحي» وهذا معنى قوله: «قضى الله الأمر في السماء»، ففي ذلك إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى، وأنه كلام يُسمع، تسمعه الملائكة، وإذا سمعوه صَعِقوا وخَرُّوا -كما يأتي- خَرُّوا لله سُجّدًا، تعظيمًا لله عزّ وجلّ.

وفي قوله: «في السماء» هذا فيه إثبات علوّ الله سبحانه وتعالى، فهو كقوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾، والذي في السماء هو الله سبحانه وتعالى، أي: العلو، هو العلي الأعلى: ﴿وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿ٱسۡتَوَىٰ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾، والعرش هو أعلى المخلوقات، وسقف المخلوقات وأعظمها.

وقوله: «ضربت الملائكة بأجنحتها» الملائكة من أعظم المخلوقات، لا يعلم عِظَمَ خِلْقة الملائكة إلّا الله سبحانه وتعالى، وإذا كانوا على هذه الحالة من العِظَم، ومع هذا لا تصلح عبادتهم من دون الله، فهم مع قوّتهم وعِظَم خِلْقَتهم يخافون من الله سبحانه وتعالى، إذا سمعوا كلامه ضربوا بأجنحتهم. وهذا فيه إثبات الأجنحة للملائكة، وهي ثابتة بالقرآن كما في قوله تعالى: ﴿رُسُلًا أُوْلِيٓ أَجۡنِحَةٖ﴾.

«خضعانًا» هذا مفعول لأجله، يعني: لماذا ضربوا بأجنحتهم؟، لأجل الخضوع لله. وتعظيمًا له، وخوفًا منه عزّ وجلّ.

قوله: «كأنه» أي: كأن قوله تعالى وتكَلُّمه سبحانه بالوحي.

....

«سلسلة على صفوان» تشبيه لصوت الوحي الذي يأتي إلى المَلَك، أو صوت «ينفذهم ذلك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا۟ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْكَبِيرُ﴾. فيسمعها مُسْتَرِق السمع، ومُسْتَرِق السمع هكذا بعضه فوق بعض» وصفه سفيان بكفه، فحرّفها وبدّد بين أصابعه.

«﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾» يعني: أُزيل عنها الفزع، تساءلوا بينهم: ماذا قال ربكم؟

«﴿قَالُوا۟ ٱلْحَقَّ﴾»؛ أي: قال بعضهم لبعض: قال الله الحق؛ لأن كلامه حق سبحانه وتعالى.

قال ﷺ: «فيسمعها مسترق السمع» المسترق هو: الذي يأخذ الشيء بسرعة وخُفية، ومنه سمّي السارق الذي يأخذ المال على وجه الخُفية والسرعة حيث لا يراه أحد، ومسترق السمع، هو الشيطان الذي يخطف الكلمة من الوحي الذي تتكلم به الملائكة في السماء، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾.

«وصفه سفيان» يعني: راوي الحديث، وهو سفيان بن عيينة، أحد كبار المحدِّثين المشهورين الثقات الأثبات رحمه الله.

يعني: وصف تراكمهم ووصف ركوب بعضهم فوق بعض في الجو.

«بكفه، فحرّفها» يعني: أمالها، وفرّق أصابعها، والأصابع يكون بعضها فوق بعض، هذا معناه: أن سفيان أراد أن يوضّح لتلاميذه والرواة عنه بالمثال المحسوس.

وقوله: «فيسمع الكلمة»؛ أي: يسمع مسترق السّمع الكلمة مما تكلّمت به الملائكة، فيُلقيها إلى من تحته من الشياطين، والذي تحته يُلقيها إلى الآخر، واحدًا بعد واحد، حتى يُلْقِيَهَا الأخير على لسان الساحر أو الكاهن من بني آدم.

والسحر معروف، وهو: عملية يعلمها الساحر إما بالعُقَد والنَّفْث ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾، وإما بكلام الكفر والشرك، فهو عزائم ورُقًى شيطانية، وإما بموادَّ خبيثة تركّب بعضها مع بعض ثم يتكوّن منها السحر، فالسحر عمل شيطاني،

....

والسحر كفر، والساحر كافر، بدليل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾، فدلّ على أن الذي يتعلم السحر يكفر، لأن السحر كفر.

وأما الكهانة، فمعناها: الإخبار عن المغيبات بسبب ما يتلقاه الكاهن عن الشيطان، لأن الشيطان يخبر الكاهن بأمور غائبة عن بني آدم، لأن الشيطان عنده قدرة أكبر من قدرة بني آدم، فهو يطير في الهواء، ويصل إلى السحاب، ويسترق السمع، ويطير بسرعة من الأمكنة البعيدة، فعنده مقدرة ليست عند الإنسي.

وقوله: «حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن» دلّ على أنهما من فصيلة واحدة، وأنهم يتلقون عن الشياطين.

قال سبحانه مبيّنًا سند الكهان والسحرة والمشعوذين: ﴿فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِى رَبِّى حُكْمًا وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٢٢﴾ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

قوله: «فيكذب معها مائة كذبة» هذا المقصود من استراق السمع، من أجل أن يخدعوا الإنس، ومن أجل أن يخلطوا الحق بالباطل، ويلبسوا الحق بالباطل، لأنهم لو جاءوا بالباطل الخالص المحض ما صدقهم أحد، لكن إذا خلطوه بشيء من الحق، صدقهم الناس؛ فيكون هذا فيه فتنة لضعفاء الإيمان وضعفاء العقول، يأخذون الباطل الكثير بسبب حق يسير خالطه.

قوله: «فيقال: أليس قد قال يوم كذا وكذا: كذ وكذا؟. فيُصدّق بتلك الكلمة التي سُمعت من السماء» هذه الفتنة العظيمة: لبس الحق بالباطل، لأن الباطل لو كان مكشوفًا واضحًا خالصًا، ما قبله أحد، وإنما يُقبل الباطل إذا لُبّس معه شيء من الحق، وهذه فتنة عظيمة يجب أن نتنبه لها.

فالحاصل: أن هذا حديث عظيم، فيه فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه أن السنة النبوية تفسر القرآن، فهذا الحديث فسر هذه الآية:

....

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمۡ قَالُواْ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمۡۖ قَالُواْ ٱلۡحَقَّۖ﴾، ففيه رد على الطائفة الخبيثة التي تريد رفض السنّة والاقتصار على القرآن.

الفائدة الثانية: إثبات صفات الله سبحانه وتعالى، فقد أثبت في هذا الحديث علو الله على خلقه، وأنه في السماء سبحانه وتعالى، وأثبت أن الله يتكلم بكلام يُسمع، تسمعه الملائكة وترتعد عند سماعه.

الفائدة الثالثة: وهي التي عقد المصنف رحمه الله بهذا الباب من أجلها: بطلان التعلق على الملائكة، عكس ما كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الملائكة، واعتقاد أنهم بنات الله، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيرًا.

الفائدة الرابعة: في الحديث إثبات استراق السمع، وأن الشياطين قد يسترقون السمع، وهذا كان في الجاهلية كثيرًا، فلما بُعث النبي ﷺ حُرست السماء بالشُّهب، وقلّ استراق السمع، قال بعضهم لبعض: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقۡعُدُ مِنۡهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمۡعِۖ﴾ يعني: هذا في الجاهلية، ﴿فَمَن يَسۡتَمِعِ ٱلۡأٓنَ﴾ يعني: بعد بعثة النبي ﷺ ﴿يَجِدۡ لَهُۥ شِهَابٗا رَّصَدٗا ۝٩ وَأَنَّا لَا نَدۡرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ أَرَادَ بِهِمۡ رَبُّهُمۡ رَشَدٗا﴾.

الفائدة الخامسة: فيه بُطلان السحر والكِهانة، وأن مصدرهما واحد، التلقي عن الشياطين، فلا يُقبل السحر، ولا خبر الساحر، ولا تُقبل الكِهانة ولا خبر الكاهن لأن مصدرها باطل.

الفائدة السادسة: ذكرها الشَّيخ رحمه الله في قوله: «قبول النفوس للباطل، كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمائة؟» بحيث تُقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، فالنفوس تقبل الباطل، حيث إنها تقبل مائة كذبة بسبب كلمة واحدة من الحق، وهذا فيه: التحذير من لبس الحق بالباطل، وألّا نغتر بمن يلبس علينا.

❊ ❊ ❊

٤٢) وعَنِ النَّوَّاسِ بنِ سَمْعَانَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «إِذَا أَرَادَ اللهُ تَعَالَى أَنْ يُوحِيَ بِالأَمْرِ تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، أَخَذَتِ السَّمَاوَاتِ مِنْهُ رَجْفَةٌ - أَوْ قَالَ رِعْدَةٌ شَدِيدَةٌ - خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَإِذَا سَمِعَ ذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ صُعِقُوا وَخَرُّوا لِلهِ سُجَّدًا. فَيَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ، فَيُكَلِّمُهُ اللهُ مِنْ وَحْيِهِ بِمَا أَرَادَ، ثُمَّ يَمُرُّ جِبْرِيلُ عَلَى المَلَائِكَةِ، كُلَّمَا مَرَّ بِسَمَاءٍ سَأَلَهُ مَلَائِكَتُهَا: مَاذَا قَالَ رَبُّنَا يَا جِبْرِيلُ؟ فَيَقُولُ جِبْرِيلُ: قَالَ الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ . فَيَقُولُونَ كُلُّهُمْ مِثْلَمَا قَالَ جِبْرِيلُ. فَيَنْتَهِي جِبْرِيلُ بِالْوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ».

---

٤٢) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن النواس بن سمعان -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر تكلم بالوحي، أخذت السماء منه رجفة» أو قال.

سمعان: بفتح السين وكسرها.

فيكون أول من يرفع جبريل: ويقرأ جبرائيل أيضًا، وهو أول من يفيق؛ لأنه أشرف الملائكة، وهو الرسول بين الله ورسله، وكلما مر من سماء سأله ملائكتها، والمسترقون يسمعون هذا الكلام بين الملائكة، وربما حفظوا شيئًا وألقوه إلى السحرة والكهنة، وربما أحرقوا، ولم يبلغوا شيئًا حسب مشيئة الله.

فالواجب عبادة الله وحده لا حق فيه للملائكة، ولا للرسل، ولا غيرهم، وهذا فيه دلالة على خوف الملائكة وفزعهم منه.

ومن صدق بأن الكاهن يعلم الغيب فهو كافر، وفي الحديث ثبوت صفة الكلام لله والإرادة وفيه فضل الملائكة.

وفيه أن الشياطين تسترق السمع، وكان هذا قبل النبوة؛ فلما بعث النبي ﷺ شدد عليهم في الاستماع، فلما مات صارت تستمع، فتارة تصيبهم الشهب قبل أن يستمعوا وتارة بعد أن يستمعوا.

....

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «وعن النواس....»، هذا الحديث لم يخرجه المؤلف، لكن قد ذكره ابن كثير من رواية ابن أبي حاتم، وذكر فيه علة، وهي أن في سنده الوليد بن مسلم، وهو مدلس، وقد رواه عن شيخه بالعنعنة، فيكون في الحديث ضعف، إلا أنه قد روى مسلم[1] وأحمد من حديث ابن عباس حديثًا قد يكون شاهدًا له، حيث أخبر أن الله إذا تكلم بالوحي سمعه حملة العرش، فسبحوا، ثم سمعه أهل كل سماء، فيسبحون كما سبح أهل السماء السابعة، حتى يصل إلى السماء الدنيا، فتخطفه الجن أو الشياطين.

وهذا وإن لم يكن فيه ذكر رجفة السماء أو السجود، لكن يدل على أن له أصلاً.

قوله: «إذا أراد أن يوحي بالأمر»، أي: بالشأن.

قوله: «تكلم بالوحي»، جملة شرطية تقتضي تأخر المشروط عن الشرط، فالإرادة سابقة، والكلام لاحق، فيكون فيه رد على الأشاعرة الذين يقولون: إن الله لا يتكلم بإرادة، وإن كلامه أزلي.

قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا لله سجدًا».

فإن قيل: كيف يمكن أن يصعقوا ويخروا سجدًا؟

فالجواب: أن الصعق هنا - والله أعلم - يكون قبل السجود، فإذا أفاقوا سجدوا.

قوله: «فيكون أول من يرفع رأسه جبريل»، أول: بالنصب على أنها خبر مقدم، وجبريل بالرفع على أنها اسم يكون مؤخرًا.

قوله: «بما أراد»، أي: بما شاء، لأن الله تعالى يتكلم بمشيئة.

قوله: «ثم يمر جبريل على الملائكة»، لأنه يريد النزول من عند الله إلى حيث أمره الله أن ينتهي إليه بالوحي.

قوله: «فيقولون كلهم مثلما قال جبريل»، أي: قال الحق، وهو العلي الكبير.

---

(١) (كتاب السلام/ باب تحريم الكهانة) (٢٢٢٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الآيَةِ.

«الثَّانِيَةُ»: مَا فِيهَا مِنَ الحُجَّةِ عَلَى إِبْطَالِ الشِّرْكِ، خُصُوصًا مَنْ تَعَلَّقَ عَلَى الصَّالِحِينَ، وَهِيَ الآيَةُ الَّتِي قِيلَ: إِنَّهَا تَقْطَعُ عُرُوقَ شَجَرَةِ الشِّرْكِ مِنَ القَلْبِ.

«الثَّالِثَةُ»: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «﴿قَالُوا الحَقَّ وَهُوَ العَلِيُّ الكَبِيرُ﴾».

«الرَّابِعَةُ»: سَبَبُ سُؤَالِهِمْ عَنْ ذَلِكَ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يُجِيبُهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: قَالَ كَذَا وَكَذَا.

«السَّادِسَةُ»: ذِكْرُ أَنَّ أَوَّلَ مَنْ يَرْفَعُ رَأْسَهُ جِبْرِيلُ.

قوله: «فينتهي جبريل بالوحي إلى حيث أمره الله عز وجل»؛ أي: يصل بالوحي إلى حيث أمره الله من الأنبياء والرسل.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية، أي: قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ الآية، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: ما فيه من الحجة على إبطال الشرك، وذلك أن الملائكة وهم من هم في القوة والعظمة يصعقون ويفزعون من تعظيم الله، فكيف بالأصنام التي تعبد من دون الله وهي أقل منهم بكثير، فكيف يتعلق الإنسان بها؟!

الثالثة: تفسير قوله: ﴿قَالُواْ ٱلْحَقَّ وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾، وسبق تفسيرها.

الرابعة: سبب سؤالهم عن ذلك. فالسؤال: ماذا قال ربكم؟ وسببه شدة خوفهم منه وفزعهم خوفًا من أن يكون قد قال فيهم ما لا يطيقونه من التعذيب.

الخامسة: أن جبريل يجيبهم بعد ذلك بقوله: قال كذا وكذا، أي: يقول: قال الحق.

السادسة: ذكر أن أول من يرفع رأسه جبريل، لحديث النواس بن سمعان، وفيه فضيلة جبريل.

«السَّابِعَةُ» : أَنَّهُ يَقُولُ لأَهْلِ السَّمَاوَاتِ كُلِّهِمْ، لأَنَّهُمْ يَسْأَلُونَهُ.
«الثَّامِنَةُ» : أَنَّ الغَشْيَ يَعُمُّ أَهْلَ السَّمَاوَاتِ كُلَّهُمْ.
«التَّاسِعَةُ» : ارْتِجَافُ السَّمَاوَاتِ لِكَلَامِ اللهِ.
«العَاشِرَةُ» : أَنَّ جِبْرِيلَ هُوَ الَّذِي يَنْتَهِي بِالوَحْيِ إِلَى حَيْثُ أَمَرَهُ اللهُ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : ذِكْرُ اسْتِرَاقِ الشَّيَاطِينِ.
«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : صِفَةُ رُكُوبِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا.
«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ» : إِرْسَالُ الشُّهُبِ.
«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّهُ تَارَةً يُدْرِكُهُ الشِّهَابُ قَبْلَ أَنْ يُلْقِيَهَا، وَتَارَةً يُلْقِيهَا

السابعة: أنه يقول لأهل السماوات كلهم لأنهم يسألونه، وفي هذا دليل على عظمته بينهم.

الثامنة: أن الغشي يعم أهل السماوات كلهم، تؤخذ من قوله: «فإذا سمع ذلك أهل السماوات، صعقوا وخروا لله سجدًا».

التاسعة: ارتجاف السماوات لكلام الله، لقوله: «أخذت السماوات منه رجفة»، أي: لأجله تعظيمًا لله.

العاشرة: أن جبريل هو الذي ينتهي بالوحي إلى حيث أمره، أي: لا أحد يتولى إيصال الوحي غير جبريل حتى يوصله إلى حيث أمره به، لأنه الأمين على الوحي.

الحادية عشرة: ذكر استراق الشياطين، أي: الذين يسترقون ما يسمع في السماوات، فيلقونه على الكهان، فيزيد فيه الكهان وينقصون.

الثانية عشرة: صفة ركوب بعضهم بعضًا، وصفها سفيان رحمه الله بأن حرَّف يده وبدَّد بين أصابعه.

الثالثة عشرة: إرسال الشهب، يعني: التي تحرق مسترقي السمع، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ﴾ [الحجر، ١٨].

الرابعة عشرة: أنه تارة يدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وتارة يلقيها في أذن وليه من الإنس قبل أن يدركه.

فِي أُذُنِ وَلِيِّهِ مِنَ الإِنْسِ قَبْلَ أَنْ يُدْرِكَهُ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : كَوْنُ الكَاهِنِ يَصْدُقُ بَعْضَ الأَحْيَانِ.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : كَوْنُهُ يَكْذِبُ مَعَهَا مِئَةَ كِذْبَةٍ.

«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّهُ لَمْ يُصَدَّقْ كَذِبُهُ إِلَّا بِتِلْكَ الكَلِمَةِ الَّتِي سُمِعَتْ مِنَ السَّمَاءِ.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : قَبُولُ النُّفُوسِ لِلْبَاطِلِ، كَيْفَ يَتَعَلَّقُونَ بِوَاحِدَةٍ وَلَا يَعْتَبِرُونَ بِمِئَةٍ؟!.

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ» : كَوْنُهُمْ يَتَلَقَّى بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ تِلْكَ الكَلِمَةَ وَيَحْفَظُونَهَا وَيَسْتَدِلُّونَ بِهَا.

«العِشْرُونَ» : إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ خِلَافًا لِلأَشْعَرِيَّةِ المُعَطِّلَةِ.

الخامسة عشرة: كون الكاهن يصدق بعض الأحيان، لأنه يأتي بما سمع من السماء ويزيد عليه، وإذا وقع ما في السماء، صار صادقًا.

السادسة عشرة: كونه يكذب معها مئة كذبة، أي: يكذب مع الكلمة التي تلقاها من المسترق.

السابعة عشرة: أنه لم يصدق إلا بتلك الكلمة التي سمعت من السماء، وأما ما قاله من عنده، فهو تخرص، فالكلمة التي تسمعها تصدق، والذي يضيفه كله كذب يموه به على الناس.

الثامنة عشرة: قبول النفوس للباطل كيف يتعلقون بواحدة ولا يعتبرون بمئة؟! وهذا صحيح، وليس صفة عامة لعامة الناس، بل لأهل الجهل والسفه، فهم يتعلقون بالكاهن من أجل صدقه مرة واحدة، وأما مئة كذبة، فلا يعتبرون بها.

التاسعة عشرة: كونهم يتلقى بعضهم من بعض تلك الكلمة ويحفظونها. إلخ، الكلمة: هي الصدق، لأنها هي التي تروج بضاعتهم؛ ولو كانت بضاعتهم كلها كذبًا، ما راجت بين الناس.

العشرون: إثبات الصفات خلافًا للأشعرية المعطلة. الأشعرية: هم الذين

«الحَادِيَةُ والعِشْرُونَ» : التَّصْرِيحُ بِأَنَّ تِلْكَ الرَّجْفَةَ وَالغَشْيَ خَوْفًا مِنَ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ.

«الثَّانِيَةُ والعِشْرُونَ» : أَنَّهُمْ يَخِرُّونَ للهِ سُجَّدًا.

ينتسبون إلى أبي الحسن الأشعري، وسموا معطلة لأنهم يعطلون النصوص عن المعنى المراد بها ويعطلون ما وصف الله به نفسه. والمراد تعطيل أكثر ذلك، فإنهم يعطلون أكثر الصفات ولا يعطلون جميعها، بخلاف المعتزلة.

الحادية والعشرون: التصريح بأن تلك الرجفة والغشي خوفًا من الله -عز وجل- فيدل على عظمة الخالق جل وعلا، حيث بلغ خوف الملائكة منه هذا المبلغ.

الثانية والعشرون: أنهم يخرون لله سجدًا، أي: تعظيمًا لله واتقاء لما يخشونه، فتفيد تعظيم الله - عز وجل - كالتي قبلها.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله ﷺ: «إذا أراد الله أن يوحي بالأمر» فهذا فيه: إثبات الإرادة لله سبحانه وتعالى، وهي صفة من صفاته، دلّت عليها الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، فالله جل وعلا له إرادة، وإرادته على نوعين:

إرادة كونية، بها يخلق ويرزق، ويهدي ويضل، ويحيي ويميت.

وإرادة شرعية دينية بها يأمر عباده بما يصلحهم وينهاهم عما يضرهم، مثل قوله تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾ ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾، هذه إرادة دينية، كما فصّل ذلك أهل العلم.

«أن يوحي» الوحي هو: الإعلام بسرعة وخفاء، وهو على نوعين: وحي إلهام ووحي إرسال.

«بالأمر»؛ أي: بالشأن من شئون الكون والمخلوقات، أو بالأمر من الوحي المنزل على الرسل، فهو عام.

فالأمر على نوعين: كوني، وشرعي.

«تكلم بالوحي» تكلمًا يليق بجلاله، وهذا فيه: إثبات الكلام لله سبحانه وتعالى.

....

«أخذت السماوات منه رجفة (أو قال: رعدة شديدة») هذا شك من الراوي، أي: إذا سمعت كلام الله يصيبها خوف وهيبة لكلام الله، وهذا فيه: أن الجمادات تدرك عظمة ربها، وتسبّحه، وتعظمه كما قال سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾، ﴿تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِن فَوْقِهِنَّۚ﴾، وكما في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾، في هذا: أن السماوات والأرض تتكلم، وأنها تسبح كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِۗ﴾.

«فإذا سمع ذلك أهل السماوات» يعني: سمع الملائكة كلام الله أيضًا.

«صعِقُوا» بمعنى: أنهم يغشى عليهم من الخوف من الله عزّ وجلّ والهيبة والجلال.

«وخروا لله» يعني: ينحطّون لله «سُجّدًا» على وجوههم تعظيمًا لله وتعبدًا لله.

«فيكون أول من يرفع رأسه» يعني: من السجود.

«جبريل» وهو: أعظم الملائكة، وهو موكّل بالوحي كما أن ميكائيل موكّل بالقطر والنّبات، وإسرافيل موكّل بالنفخ في الصُّور، وكل نوع من الملائكة له عمل، منهم ملائكة الموت، ورئيسهم مَلَك الموت: ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾، ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ﴾.

وهناك ملائكة موكّلون بالأجِنّة في الأرحام، كما جاء في الحديث: «إن أحدكم يُجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثمّ يكون عَلَقَة مثل ذلك، ثمّ يكون مُضغَة مثل ذلك، ثمّ يُرسل إليه المَلَكُ في الطَّوْر الرابع «ويؤمر بكتب رزقه، وأجله، وعمله، وشقيّ أو سعيد» فهؤلاء موكّلون بالأجِنّة في الأرحام.

وهناك ملائكة موكّلون بحفظ أعمال بني آدم، بكتابة الحسنات والسيّئات يلازمون بني آدم، إلّا في الأحوال الخاصة، دائمًا معهم في الليل والنهار يكتبون ما يصدر عنهم من أقوال وأفعال طيّبة أو رديئة، وهؤلاء يسمون بالحَفَظَة.

٤٣) ١٧-بابُ الشَّفَاعَةُ

وَقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ [الأنعام: ٥١] وَقَوْلُهُ: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ

«ثم يمر جبريل على الملائكة» هذا فيه: فضل جبريل عليه السلام، وأن الله اختصه بائتمانه على الوحي، وأن أهل السماوات يسألونه، وهذا دليل على فضله كما قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، يعني: ذا مكانة عند الله سبحانه وتعالى، ﴿مُّطَاعٍ ثَمَّ﴾ أي: في الملأ الأعلى، تطيعه الملائكة ﴿أَمِينٍ﴾ أمين على الوحي، لا يزيد فيه ولا ينقص عليه الصلاة والسلام.

«كلما مر بسماء» هذا كما سبق فيه دليل على تعدّد السماوات.

«سأله ملائكتها» هذا فيه دليل على أن لكل سماء ملائكة خاصّين بها.

«ماذا قال ربنا يا جبريل؟ فيقول: قال الحق وهو العلي الكبير. فيقولون كلهم مثلما قال جبريل» تعظيمًا لله سبحانه وتعالى.

وهذا فيه دليل على أن كلام الله حق لا ريب فيه، وأن الملائكة لا تعلم الغيب ولذلك تسأل جبريل.

«وهو العلى» هذا فيه إثبات العلو لله عزّ وجلّ، والعلو ثلاثة أقسام: علو الذات. وعلو القدر. وعلو القهر. وكلها ثابتة لله سبحانه وتعالى.

٤٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قد تكلم الناس في الشفاعة، واضطربت أقوالهم فيها، وشذ المبتدعة بعقيدة باطلة؛ لذلك احتاج العلماء إلى الكلام فيها، ويخصونها بالكلام حتى يعرف المؤمن الحق، ويعتقد الاعتقاد الصحيح فيها، فباب الشفاعة؛ أي: بيان الشفاعة المثبتة والمنفية والحق والباطل فيها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ ۙ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾.

أي: أنذر يا محمد بالقرآن الذين يخافون أن يحشروا ويجمعوا إلى ربهم وهم

﴿جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٤٤] وَقَوْلُهُ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقَوْلُهُ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا

المسلمون؛ لأن الكفار لم يسمعوا، ولم يستجيبوا. والإنذار: الإعلام مع التخويف ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾ : هذه الشفاعة الباطلة، فإن العباد ليس لهم ولي ولا شفيع بالكلية إلا من رضي الله قوله وعمله فقط؛ لأن الكفار يظنون أن لهم أولياء وشفعاء ينقذونهم من النار، ولا يدخلون النار بسببهم حتى عبدوهم من دون الله: (وقالوا هؤلاء شفعاؤنا عند الله) وقالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ فبين سبحانه أنه ليس للعباد ولي ولا شفيع دونه، وأن شفاعة الكفار هذه باطلة، وأن الشفاعة الحق هي التي يأذن الله فيها لأنبيائه وأوليائه وأهل طاعته في أهل التوحيد والإيمان لا في أهل الكفر والنفاق.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ ؛ أي: لأجل أن يتقوا الله، ويستقيموا على دينه إذا عرفوا أنه لا شفاعة ولا ولاية من دونه فيوحدونه ويحذرون من غضبه.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ .

أي: قل للناس: إن الشفاعة لله وحده، وقبل هذه الآية أنكر على من ادعى الشفعاء من دون الله من المشركين الذين يدعون الشفاعة لأصنامهم وأحجارهم وغيرها من المعبودات، فنفى الله ذلك كما قال تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ فالشفاعة له وحده سبحانه، وإنما يشفع الأنبياء والصالحون بإذنه، وهو يعطيها من يشاء؛ فيجب أن تطلب منه، ويقول: اللهمّ شفع فيَّ نبيك وشفع فيَّ عبادك الصالحين.. ولا مانع أن تطلب الشفاعة من الحي في حياته كأن يقول: يا رسول الله اشفع لي أن يرزقني الله أو تقول للرجل الصالح: اشفع لي أن يغفر الله لي، وادع أن يهديني، أما الأصنام والأموات والغائب كالملائكة فلا يطلب منهم ذلك؛ لأنه لا يشعر ولا يدري عنك، ولا يطلع على الغيب كما يعتقده الجهال والكفار.

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾

مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦] وقوله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ الآيتين [سبأ: ٢٢-٢٣].

فبين سبحانه أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، وأنهم لا يشفعون إلا لمن ارتضى، وأن الملائكة لا تملك إذنًا في الشفاعة، بل يملكها الله وحده، فإذا كان هذا حال الملائكة والأنبياء والرسل لا يشفعون إلا بعد الإذن والرضا عن المشفوع، فغيرهم من الصالحين والأطفال والأفراد من باب أولى.

ثم إن المتعلقين بهؤلاء الذين يدعونهم من دون الله يتعلقون بهم لأربعة أشياء بينها الله: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِۖ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥ﴾.. [سبأ: ٢٢- ٢٣] والأربعة هي:

١- الملك: فيظنون أنهم يملكون شيئًا، والله هو المالك وحده.

٢- الشركة: فيظنون أنهم شركاء الله.

٣- المظاهرة؛ أي: المساعدة والمعاونة مع الله تعالى، وهو باطل.

٤- الشفاعة: فيظنون أن آلهتهم تشفع لهم.

فبين أنه لا شفاعة إلا بإذنه، ولا شفاعة مستقلة كشفاعة الدنيا، ففي الدنيا قد يشفع له من أجل خوفه منه، أو من أجل حاجته إليه، والله عز وجل منزه عن ذلك.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ...الشفاعة لغة: اسم من شفع يشفع، إذا جعل الشيء اثنين، والشفع ضد الوتر، قال تعالى: ﴿وَٱلشَّفۡعِ وَٱلۡوَتۡرِ﴾ [الفجر: ٣].

واصطلاحًا: التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

مثال جلب المنفعة: شفاعة النبي ﷺ لأهل الجنة بدخولها.

مثال دفعة المضرة: شفاعة النبي ﷺ لمن استحق النار ألَّا يدخلها.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ بِهِ﴾، الإنذار: هو الإعلام المتضمن

....

للتخويف، أما مجرد الخبر، فليس بإنذار، والخطاب للنبي ﷺ.

والضمير في ﴿بِهِ﴾ يعود للقرآن، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ [الشورى: ٧]، وقال تعالى: ﴿لِتُنذِرَ بِهِ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٢].

وقوله: ﴿يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوا﴾، أي: يخافون مما يقع لهم من سوء العذاب في ذلك الحشر.

والحشر: الجمع، وقد ضمن هنا معنى الضم والانتهاء، فمعنى يحشرون، أي: يجمعون حتى ينتهوا إلى الله.

قوله: ﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، ﴿وَلِيٌّ﴾، أي: ناصر ينصرهم.

﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾، أي: شافع يتوسط لهم، وهذا محل الشاهد.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ﴾، مبتدأ وخبر، وقدم الخبر للحصر، والمعنى: لله وحده الشفاعة كلها، لا يوجد شيء منها خارج عن إذن الله وإرادته، فأفادت الآية في قوله: ﴿جَمِيعًا﴾ أن هناك أنواعًا للشفاعة.

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿مَّن ذَا الَّذِي﴾، ﴿مَنْ﴾: اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا يشفع أحد عند الله إلا بإذنه.

﴿ذَا﴾: هل تجعل «ذا» اسمًا موصولاً كما قال ابن مالك في «الألفية»، أو لا تصح أن تكون اسمًا موصولاً هنا لوجود الاسم الموصول ﴿الَّذِي﴾؟

الثاني هو الأقرب، وإن كان بعض المعربين قال: يجوز أن تكون ﴿الَّذِي﴾ توكيدًا لها.

والصحيح أن ﴿ذَا﴾ هنا إما مركبة مع ﴿مَنْ﴾، أو زائدة للتوكيد، وأيًا كان الإعراب، فالمعنى: أنه لا أحد يشفع عند الله إلا بإذن الله.

قوله: ﴿عِندَهُ﴾، ظرف مكان، وهو سبحانه في العلو، فلا يشفع أحد عنده ولو كان مقربًا، كالملائكة المقربين، إلا بإذنه الكوني، والإذن لا يكون إلا بعد الرضا.

....

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ﴾.

﴿كَمْ﴾ خبرية للتكثير، والمعنى: ما أكثر الملائكة الذين في السماء، ومع ذلك لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا بعد إذن الله ورضاه.

قوله: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾، فللشفاعة شرطان، هما:

الإذن من الله، لقوله: ﴿أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾.

رضاه عن الشافع والمشفوع له، لقوله: ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾.

الآية الخامسة قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ﴾.

الأمر في قوله: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ للتحدي والتعجيز، وقوله: ﴿ٱدۡعُواْ﴾ يحتمل معنيين، هما:

أحضروهم.

أدعوهم دعاء مسألة.

قوله: ﴿لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ﴾، واحدة الذر: وهي صغار النمل، ويضرب بها المثل في القلة.

﴿فِيهِمَآ﴾، أي: في السماوات والأرض.

﴿مِن شِرۡكٖ﴾، أي: مشاركة، أي: لا يملكونه انفرادًا ولا مشاركة. وقوله: ﴿مِن شِرۡكٖ﴾: مبتدأ مؤخر دخلت عليه ﴿مِنْ﴾ الزائدة لفظًا، لكنها للتوكيد معنى.

وقوله: ﴿إِلَيۡنَا تُرۡجَعُونَ﴾، أي: وحسبتم أنكم إلينا لا ترجعون، فنجازيكم إذا كان هذا هو حسبانكم، فهو حسبان باطل.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال الشيخ الإمام رحمه الله: «باب الشفاعة» الشفاعة معناها: التوسط في قضاء حاجة المحتاج لدى من هي عنده. سميت بذلك لأن طالب الحاجة كان منفردًا في الأول، ثمّ لما انضم إليه الشافع صار شفعًا، لأن الشفع ضد الوتر. فلما كان طالب الحاجة منفردًا، ثمّ انضم إليه الواسطة شفعه في الطلب، ولذلك سمّي شافعًا، وسمّي هذا العمل شفاعة، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً حَسَنَةٗ يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٞ مِّنۡهَاۖ وَمَن يَشۡفَعۡ شَفَٰعَةً

....

سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾.

والحاصل أن هذا تعريف الشفاعة، وانقسامها إلى شفاعة حسنة وشفاعة سيئة، هذا فيما بين النّاس، والمراد هنا: الشفاعة عند الله تعالى.

ومراد المصنف رحمه الله من هذا الباب أنه لما كان المشركون قديمًا وحديثًا يعبدون من دون الله الأصنام والأشجار والأحجار والقبور والأضرحة والأولياء والصالحين والملائكة والأنبياء، فإذا أنكر عليهم ذلك، قالوا: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأن الأمر بيد الله، ولكن هؤلاء لهم مكانة عند الله، ونريد منهم أن يشفعوا لنا عند الله. فيذبحون للأولياء والصالحين والأشجار والأحجار، ويستغيثون بهم، ويصرفون لهم أنواع العبادة، فإذا أنكر عليهم قالوا: غرضنا من ذلك هو الشفاعة فقط. فبين الله أن ذلك هو الشرك، وأن تلك هي عبادة غير الله، فقال تعالى: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾، يقولون: نحن نعلم أنهم مخلوقون، وأنهم ليس لهم من الأمر شيء، ولكننا فعلنا ذلك من أجل أن يشفعوا لنا عند الله لأن لهم مكانة عند الله، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: يعبدونهم، ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ﴾، اعترفوا أنهم يعبدونهم ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ سمّى فعلهم هذا كذبًا، وسمّاه كفرًا، ولم تنفعهم اعتذاراتهم.

والشفاعة في كتاب الله جاءت على قسمين:

قسم منفي. وقسم مثبت.

فالقسم المنفي: هو الشفاعة التي تطلب من غير الله.

هذه الشفاعة منفية، لأن الشفاعة ملك لله، لا تطلب إلّا منه، وكذلك الشفاعة التي تطلب فيمن لا تقبل فيه، وهو الكافر، فالكافر والمشرك لا تقبل فيه.

الشفاعة: ﴿مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾، وقال الله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ﴾.

....

والشفاعة المثبتة: هي التي توفر فيها الشرطان:

الشرط الأول: أن تُطلب من الله.

الشرط الثاني: أن تكون فيمن تقبل فيه الشفاعة، وهو المؤمن الموحِّد الذي عنده شيء من المعاصي دون الشرك، فهذا تُقبل فيه الشفاعة بإذن الله.

قال تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾، هذا الشرط الأول.

الشرط الثاني: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وهم أهل الإيمان.

وقال تعالى: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشرط الأول.

﴿وَيَرْضَىٰٓ﴾، هذا هو الشرط الثاني.

ثم ساق رحمه الله بعض الآيات والأحاديث في موضوع الشفاعة.

والآية الأولى: قوله تعالى: «﴿وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ﴾، هذا أمر من الله للنبي ﷺ.

يقول: «﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾». الإنذار هو: الإعلام بشيء مَخُوف. أما البشارة، فهي الإعلام بشيء محبوب، والنبي ﷺ بشير ونذير، بشير لأهل الإيمان بالأجر والثواب والجنة، ونذير لأهل الشرك والمعاصي بالعذاب والنار.

﴿ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ﴾ الحشر معناه: الجمع، لأن الله يجمع الخلائق يوم القيامة أولهم وآخرهم في صعيد واحد، لا يخفى منهم أحد؛ لأجل فصل القضاء بينهم، وجزائهم بأعمالهم. وهذا الموقف لا بد منه، فأنت أيها الرسول أنذر المؤمنين بهذا الموقف، ولماذا خص المؤمنين؟ لأنهم هم الذين يمتثلون، وإلّا فإنه مأمور بأن يبلغ النّاس كلهم، ولكنه -أحيانًا- يؤمر بتخصيص المؤمنين، لأنهم هم الذين يمتثلون، وفي إنذارهم نفع لهم، أما المشركون والكفار فهم يبلغون من أجل إقامة الحجة عليهم، وأما المؤمنون فإنهم يبلغون من أجل نفعهم بذلك.

«﴿لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ﴾»؛ أي: غير الله.

....

"﴿وَلَا شَفِيعٌ﴾"؛ أي: واسطة، يتوسط له عند الله، ما أحد يشفع له يوم القيامة إلّا بإذن الله سبحانه وتعالى، وبشرط أن يكون هذا الشخص ممن يرضى الله عنه، هذه شفاعة منفيّة فبطل أمر هؤلاء الذين يتخذون الشفعاء، ويظنون أنهم يخلصونهم يوم القيامة من عذاب الله.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ هذا تعليل لقوله: "﴿وَأَنذِرْ بِهِ﴾"، من أجل ماذا؟ أي: من أجل أن يتقوا ربهم سبحانه وتعالى، والتقوى معناها: أن يتخذوا ما يقيهم من عذاب الله يوم القيامة، وذلك بالأعمال الصالحة، بفعل الطاعات وترك المحرمات، ولا يقي من عذاب الله يوم القيامة إلّا التقوى.

فهذا فيه الرد على المشركين الذين يتخذون الشفعاء، بيّن الله أنه سيأتي يوم القيامة ولا أحد يشفع لهم كما يزعمون.

قوله: "﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾" هذه الآية جزء من آية من سورة الزمر، وفي قوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَعْقِلُونَ ﴿٤٣﴾ قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا لَّهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾.

فقوله تعالى: ﴿أَمِ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ شُفَعَآءَ﴾ ﴿أَمِ﴾ هنا بمعنى: بل، أي: بل اتخذوا، وهذا من باب الإنكار عليهم.

﴿ٱتَّخَذُواْ﴾ أي: المشركون.

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ أي: غير الله.

﴿شُفَعَآءَ﴾ أي: وسائط، يتوسّطون بينهم وبين الله في إجابة دعواتهم، وقضاء حاجاتهم.

﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُواْ لَا يَمْلِكُونَ شَيْـًٔا﴾ فالشفاعة ليست ملكًا لهم، فأنتم تطلبون منهم ما لا يملكون.

﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ إذًا تُطلب الشفاعة من الله سبحانه وتعالى، ولم تطلب من غيره.

قال: وقوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ هذا جزء من آية الكرسي:

....

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ لَا تَأۡخُذُهُۥ سِنَةٞ وَلَا نَوۡمٞۚ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ يَعۡلَمُ مَا بَيۡنَ أَيۡدِيهِمۡ وَمَا خَلۡفَهُمۡۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾، وهي أعظم آية في كتاب الله عزّ وجلّ، لماذا صارت أعظم آية في كتاب الله؟ لأنها اشتملت على النفي والإثبات: نفي النقائص عن الله تعالى، وإثبات الكمال لله عزّ وجلّ، والشاهد منها قوله: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِي يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ ﴿مَن﴾ نفي، أي: لا أحد، «﴿يَشۡفَعُ عِندَهُۥٓ﴾»؛ أي: عند الله تعالى، ﴿إِلَّا بِإِذۡنِهِۦۚ﴾ فهو الذي يأذن للشفعاء أن يشفعوا، وبدون إذنه لا يمكن لأحد أن يشفع أبدًا، لا الأنبياء، ولا الملائكة، ولا الأولياء، ولا الصالحين، وهذا محل الشاهد؛ أن الشفاعة لا تكون إلّا بإذن الله، ففي هذا رد على المشركين الذين اتخذوا الشفعاء بدون إذنه سبحانه وتعالى في ذلك.

﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ لأن موطن الملائكة: السماوات، ومع كثرتهم ﴿لَا تُغۡنِي شَفَٰعَتُهُمۡ شَيۡـًٔا﴾ هذا نفي، لأن ﴿شَيۡـًٔا﴾: نكِرة في سياق النفي، أي: لا تغني شيئًا أبدًا إلّا بشرطين: ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ﴾ هذا الشرط الأول. ﴿وَيَرۡضَىٰٓ﴾ هذا الشرط الثاني.

ويأذن للشافع أن يشفع، ويرضى عن المشفوع فيه أن يُشفع فيه، وهو المؤمن الموحّد الذي عنده ذنوب يستحق بها العذاب، فإذا أذن الله جل وعلا في الشفاعة فيه، فإنه تنفعه الشفاعة، ويسلم من العذاب بإذن الله عزّ وجلّ.

ثم ذكر الشيخ قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدۡعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَمۡلِكُونَ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، وتمامًا الآيتين: ﴿وَمَا لَهُمۡ فِيهِمَا مِن شِرۡكٖ وَمَا لَهُۥ مِنۡهُم مِّن ظَهِيرٖ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنۡ أَذِنَ لَهُۥۚ﴾

❁ ❁ ❁

٤٤) قَالَ أَبُو العَبَّاسِ: نَفَى اللهُ عَمَّا سِوَاهُ كُلَّ مَايَتَعَلَّقُ بِهِ المُشْرِكُونَ، فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لِغَيْرِهِ مُلْكٌ أَوْ قِسْطٌ مِنْهُ، أَوْ يَكُونَ عَوْنًا للهِ، وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الشَّفَاعَةُ، فَبَيَّنَ أَنَّهَا لا تَنْفَعُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّبُ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾ [الأنبياء: ٢٨] فَهَذِهِ الشَّفَاعَةُ الَّتِي يَظُنُّهَا المُشْرِكُونَ، هِيَ مُنْتَفِيَةٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، كَمَا نَفَاهَا القُرْآنُ، وَأَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهُ يَأْتِي فَيَسْجُدُ لِرَبِّهِ ويَحْمَدُهُ، لا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، ثُمَّ يُقَالُ لَهُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ، وَسَلْ تُعْطَ، واشْفَعْ تُشَفَّعْ.

---

٤٤) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قال أبو العباس، وهو شيخ الإسلام: نفى الله عما سواه كل ما يتعلق به المشركون.

قوله: (فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منفية يوم القيامة كما نفاها القرآن: فمن يظن أن أصنامهم ومن يدعونهم يشفعون لهم شفاعة ملزمة، وأنهم لا يحتاجون إلى إذن، وأنهم تقبل شفاعتهم فيهم، وأنهم يدخلون الجنة بسببها، ولا يدخلون النار، ولكن هذا في حق من يؤمن بالآخرة، أما من لم يؤمن بالآخرة منهم، فهم يعبدونهم؛ ليشفعوا لهم في أمور الدنيا ومصالحها من حصول الرزق، وما أشبهه فمقاصدهم بالشفاعة مقاصد عاجلة، وأكثر العرب لا يؤمن بالآخرة.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «قال أبو عباس»، هو شيخ الإسلام تقي الدين أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية رحمه الله يكنى بذلك، ولم يتزوج، لأنه كان مشغولاً بالعلم والجهاد، وليس زاهدًا في السنة، مات سنة ٧٢٨هـ، وله ٦٧ سنة و ١٠ أشهر.

قوله: «لغيره ملك»، أي: لغير الله في قوله: ﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ﴾.

قوله: «أو قسط منه» في قوله: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ﴾

قوله: «أو يكون عونًا لله» في قوله تعالى: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ بدون استثناء.

. . . .

قوله: «ولم يبق إلا الشفاعة»، فبين أنها لا تنفع إلا من أذن له الرب، كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ﴾، وقال: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، ومعلوم أنه لا يرضى هذه الأصنام لأنها باطلة، وحينئذ فتكون شفاعتها منتفية.

فهذه الشفاعة التي يظنها المشركون هي منتفية يوم القيامة، كما نفاها القرآن، فالله - سبحانه وتعالى - نفى أن تنفعهم أصنامهم، بل قال: ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴿٩٨﴾ لَوْ كَانَ هَٰٓؤُلَآءِ ءَالِهَةً مَّا وَرَدُوهَا ۖ وَكُلٌّ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨/٩٩]، حتى الأصنام لا تنفع نفسها ولا يشفع لها، فكيف تكون شافعة؟! بل هي في النار وعابدوها.

قوله: «وأخبر النبي ﷺ أنه يأتي فيسجد لربه»، أي: وكما أخبر، فالواو عاطفة، ويجوز أن تكون استئنافية.

قوله: «ارفع رأسك»، أي: من السجود.

قوله: «وقل يسمع»، السامع هو الله. «يسمع»: جواب الأمر مجزوم.

قوله: «وسل تعط»، أي: سل ما بدا لك تعط إياه، وتعط: مجزوم بحذف حرف العلة جوابًا لـ«سل».

قوله: «واشفع تشفع»، وحينئذ يشفع النبي ﷺ في الخلائق أن يقضى بينهم.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: ثمّ ساق رحمه الله كلام شيخ الإسلام ابن تيميّة في توضيح هذه الآية وتفسيرها، وختم به هذا الباب العظيم، الذي هو: «باب الشفاعة».

وقد مضى الكلام في أول الباب وما فيه من آيات وأحاديث وما فيه من تفصيل في أمر الشفاعة، لأن أمر الشفاعة أمر مشكل من قديم الزمان وحديثه، لأن كثيرًا أو جميع من يقع منهم الشرك في العبادة بدعاء الأولياء والصالحين والموتى إذا سُئلوا وقيل لهم: هذا شرك، قالوا: لا، هذا ليس بشرك، لأننا لم نقصد أن نعبد من دون الله أحدًا، لأننا نعلم أن العبادة حق لله، ولكن هؤلاء أناس صالحون لهم مكانة عند

....

الله، ومن العادة أن الإنسان إذا كان له حاجة عند السلطان أو عند الملك أنه لا يتقدم إليه بحاجته مباشرة، لأنه يخشى ألّا يُقبل منه أو لا يُعرف، فحتى لا يُرد طلبه يجعل بينه وبين المطلوب منه واسطة، فهذه الواسطة تشفع له عند من عنده طلب المحتاج. هذا حاصل ما يجيبون به.

وهو جواب باطل، لأن قياس الخالق على المخلوق قياس باطل، لأنّ الله سبحانه وتعالى ينزّه أن يقاس بأحد من خلقه، قال سبحانه: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾، إلى غير ذلك مما بيّن الله سبحانه أنه لا يجوز أن يُقاس بخلقه.

وفي هذه الآية يقول: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ هذه الآية والتي بعدها يقول العلماء عنها: إنها قطعت عروق الشرك من أصله.

أما قوله تعالى: ﴿قُلِ﴾ هذا أمر لرسوله محمّد ﷺ بأن يقول لهؤلاء الذين يدعون الملائكة وغيرهم من دون الله ويزعمون أنهم يشفعون لهم عند الله بغير إذنه سبحانه وتعالى، قل لهم يا أيها الرسول، بلّغهم، أخبرهم، بيّن لهم.

﴿ادْعُوا﴾ هذا أمر توبيخ وتعجيز، لأن الأمر يأتي- أحيانًا- للتّوبيخ والتعجيز، لا لطلب الشيء أو تشريع الشيء، كما في قوله: ﴿فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾، ليس هذا أمرًا بالكفر، وإنما هذا أمر توبيخ وتهديد، وإلّا فالله سبحانه وتعالى لا يأمر بالكفر، وإنما ﴿فَلْيَكْفُرْ﴾ معناه أمر تهديد وتوبيخ وقد يكون الأمر للتعجيز ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانفُذُوا﴾ هذا أمر تعجيز.

﴿الَّذِينَ زَعَمْتُم﴾ هذا فيه رد عليهم وذلك لأنهم لم يبنوا فعلهم هذا حتى على دليل من الشرع النازل من عند الله، فالله لم يشرع دعاء غيره أبدًا، وإنما أمر بدعائه

....

وحده لا شريك له، فمن دعا غيره فهذا زعم منه، والزعم باطل.

ومعنى: ﴿زَعَمْتُم﴾؛ أي: زعمتم أنهم ينفعون أو يضرون.

﴿مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: غير الله سبحانه وتعالى.

﴿لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾، وذلك أن المدعو لابد أن يتوفر فيه أحد هذه الأحوال:

الحالة الأولى: إما أن يكون مالكًا للمطلوب منه، فأنت إذا طلبت من أحد شيئًا فلا بد أن يكون مالكًا له، وهؤلاء المدعوون لا يملكون شيئًا مما يطلب منهم.

الحالة الثانية: إذا لم يكن مالكًا، فلا أقل من أن يكون شريكًا للمالك، وهذا منتفٍ في حق الخلق، لأنهم لا يشاركون الله في ملكه: ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱئْتُونِي بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، فلا أحد يشارك الله في ملك السماوات والأرض أبدًا، لا الملائكة، ولا الأنبياء، ولا الأولياء، الملك لله.

الحالة الثالثة: إذا لم يكن مالكًا للشيء ولا شريكًا فيه، فربما يكون معينًا للمالك، وإذا كان معينًا للمالك، جاز أن يستشفع به إليه، والله نفى هذا وقال: ﴿وَمَا لَهُۥ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ لا أحد يعين الله من خلقه، لم يتخذ من خلقه من يعينه على تدبير خلقه سبحانه وتعالى.

الحالة الرابعة: قد يكون شفيعًا عند المالك مثلما يشفع الناس عند الملوك، وهم ليسوا ملوكًا، وليسوا شركاء للملوك، وليسوا وزراء للملوك وأعوانًا، لكنهم شفعاء، يأتي ذو جاه ومكانة فيدخل على السلطان ويشفع عنده، وهو ليس معينًا له ولا شريكًا له، هذا جائز في حق المخلوقين، لكن في حق الخالق لا يجوز، لأن الشفاعة لا تكون إلّا بإذنه ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ﴾ أي: عند الله ﴿إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾

٤٥) وقَالَ لَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ: «مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ» فَتِلْكَ الشَّفَاعَةُ لأَهْلِ الإِخْلاصِ بِإِذْنِ اللهِ، وَلَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

وَحَقِيقَتُهُ: أَنَّ اللهَ سُبْحَانَهُ هُوَ الَّذِي يَتَفَضَّلُ عَلَى أَهْلِ الإِخْلاصِ فَيَغْفِرُ لَهُمْ بِوَاسِطَةِ دُعَاءِ مَنْ أُذِنَ لَهُ أَنْ يَشْفَعَ، لِيُكْرِمَهُ وَيَنَالَ المَقَامَ المَحْمُودَ. فَالشَّفَاعَةُ الَّتِي نَفَاهَا القُرْآنُ مَا كَانَ فِيهَا شِرْكٌ، وَلِهَذَا أَثْبَتَ الشَّفَاعَةَ بِإِذْنِهِ فِي مَوَاضِعَ. وَقَدْ بَيَّنَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّهَا لا تَكُونُ إِلَّا لأَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالإِخْلاصِ. انْتَهَى كَلامُهُ.

إذًا بطلت شفاعتهم من كل الوجوه الأربعة، فهي شفاعة باطلة، وإنما الشفاعة الصحيحة هي الشفاعة التي يتوفر فيها شرطان: الشرط الأول: أن تكون بإذن الله. الشرط الثاني: أن تكون في أهل التوحيد والإخلاص.

٤٥) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قال أبو هريرة: من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله؛ فقال: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه».

فأسعد الناس بشفاعته هم الموحدون، وفي الحديث: «إن لكل نبي دعوة.. وإني ادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة وهي نائلة إن شاء الله من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا»[1] فبين أنها لا تنفع أمته إلا من وحد الله، وأما من مات على غير الإسلام، فلا شفاعة لهم. وحقيقته: أنه سبحانه هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص فيغفر لهم.

قوله: المقام المحمود: هو ثابت للنبي ﷺ وهو الذي يحمده عليه الأولون والآخرون قال تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا﴾ فهي الشفاعة العظمى على الصحيح.

---

(١) رواه مسلم (١٩٩).

....

وقيل: إن المقام المحمود هو أن الله يجلسه معه على العرش يوم القيامة[١] لكن في صحته -الحديث- نظر، والمشهور الأول.

والشفاعة تفضل على المشفوع؛ لأنها تفضل من الله بنفع هذا المشفوع فيه حتى دخل الجنة فهذه هي حقيقة الشفاعة.

وهذا رد على أهل القبور، بل هم محرومون من الشفاعة لاتباعهم بما يحرمهم من الشفاعة.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»، وعليه، فالمشركون ليس لهم حظ من الشفاعة لأنهم لا يقولون: لا إله إلا الله، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٥، ٣٦]، وقال تعالى حكاية عنهم: ﴿أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥].

الحقيقة أن صنيعهم هو العجاب، قال تعالى: ﴿بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ﴾ [الصافات: ١٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥].

قوله: «خالصًا»، أي: سالمًا من كل شوب، فلا يشوبها رياء ولا سمعة، بل هي شهادة يقين.

قوله: «من قلبه»، لأن المدار على القلب، وهو ليس معنى من المعاني، بل هو مضغة في صدور الناس، قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾، وقال ﷺ: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح

---

(١) روي في ذلك أثر مجاهد عند ابن جرير الطبري في «تفسيره» (٢٢٦٣٣) عند قوله تعالى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.
وعزاه السيوطي في «تفسيره» عند هذه الآية (٤/ ٣٥٧- ٣٥٩) إلى ابن مردويه والديلمي بإسناده عن ابن عمر مرفوعًا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الآيَاتِ.

الجسد كله»[١].

قوله: «فتلك الشفاعة لأهل الإخلاص»، لأن من أشرك بالله قال الله فيه: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾.

قوله: «وحقيقته أن الله - سبحانه - هو الذي يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة دعاء من أذن له أن يشفع».

وحقيقته، أي: حقيقة أمر الشفاعة، أي الفائدة منها: أن الله - عز وجل - أراد أن يغفر للمشفوع له، ولكن بواسطة هذه الشفاعة.

قوله «فالشفاعة التي نفاها القرآن ما كان فيها شرك»، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

«ما»، اسم موصول، أي: التي كان فيها شرك.

قوله: «وقد أثبت الشفاعة بإذنه في مواضع»، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وقوله: ﴿وَلَا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ عِندَهُۥٓ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُۥ﴾ [سبأ: ٢٣]، وقوله: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

قوله: «وقد بين النبي ﷺ أنها لا تكون إلا لأهل الإخلاص والتوحيد».

أما أهل الشرك، فإن الشفاعة لا تكون لهم، لأن شفعاءهم هي الأصنام، وهي باطلة.

وجه إدخال باب الشفاعة في كتاب التوحيد، أن الشفاعة الشركية تنافي التوحيد، والبراءة منها هو حقيقة التوحيد.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيات، وهي خمس، وسبق تفسيرها في محالها.

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان/ باب فضل من استبرأ لدينه (٥٢)، ومسلم: كتاب المساقاة/ باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

«الثَّانِيَةُ»: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المَنْفِيَةِ.

«الثَّالِثَةُ»: صِفَةُ الشَّفَاعَةِ المُثْبَتَةِ.

«الرَّابِعَةُ»: ذِكْرُ الشَّفَاعَةِ الكُبْرَى، وَهِيَ المَقَامُ المَحْمُودُ.

«الخَامِسَةُ»: صِفَةُ مَا يَفْعَلُهُ ﷺ وَأَنَّهُ لَا يَبْدَأُ بِالشَّفَاعَةِ أَوَّلاً، بَلْ يَسْجُدُ، فَإِذَا أَذِنَ اللهُ لَهُ شَفَعَ.

«السَّادِسَةُ»: مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِهَا؟

«السَّابِعَةُ»: أَنَّهَا لَا تَكُونُ لِمَنْ أَشْرَكَ بِاللهِ.

«الثَّامِنَةُ»: بَيَانُ حَقِيقَتِهَا.

الثانية: صفة الشفاعة المنفية، وهي ما كان فيها شرك، فكل شفاعة فيها شرك، فإنها منفية.

الثالثة: صفة الشفاعة، المثبتة وهي شفاعة أهل التوحيد بشرط إذن الله تعالى ورضاه عن الشافع والمشفوع له.

الرابعة: ذكر الشفاعة الكبرى، وهي المقام المحمود، وهي الشفاعة في أهل الموقف أن يقضى بينهم، وقول الشيخ: «وهي المقام المحمود»، أي: منه.

الخامسة: صفة ما يفعله ﷺ وأنه لا يبدأ بالشفاعة، بل يسجد، فإذا أذن له، شفع.

السادسة: من أسعد الناس بها؟ هم أهم التوحيد والإخلاص من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه.

السابعة: أنها لا تكون لمن أشرك بالله، لقوله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر: ٤٨]، وغير ذلك مما نفى الله فيه الشفاعة للمشركين، ولقوله ﷺ: «خالصًا من قلبه».

الثامنة: بيان حقيقتها، وحقيقتها: أن الله تعالى يتفضل على أهل الإخلاص، فيغفر لهم بواسطة من أذن له أن يشفع ليكرمه وينال المقام المحمود.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وفي حديث أبي هريرة لما سأل النبي ﷺ قال: من أسعد النّاس بشفاعتك يا رسول الله؟ قال: «لقد ظننت ألَّا

....

يسألني عن هذا الحديث غيرك يا أبا هريرة لما أرى من حرصك على الحديث، أسعد النّاس بشفاعتي: من قال: لا إله إلّا الله؛ خالصًا من قلبه».

فدلّ هذا الحديث على أن شفاعة الرسول ﷺ بعد إذن الله تعالى بها لا تكون إلّا لأهل الإخلاص، لا تكون لأهل الشرك. وأهل الإخلاص هم: «من قال: لا إله إلّا الله»؛ أي: تلفّظ بها، «خالصًا من قلبه» لم يقلها بلسانه فقط، وإنما قالها عارفًا لمعناها، عاملاً بمقتضاها، معتقدًا لها بقلبه.

والسبب في جعل الله سبحانه وتعالى هذه الشفاعة أنها إكرام للشافع، يأذن الله لمن شاء من عباده أن يشفع إكرامًا له، مثلما يحصل لمحمد ﷺ في المقام المحمود، إكرامًا له ﷺ ورحمة للمشفوع فيه إذا كان من أهل الشفاعة والرحمة، هذا هو الحكمة في جعل الله هذه الشفاعة، فالأمر لله سبحانه وتعالى.

فالحاصل أن هذه الآية الكريمة قد أبطلت ما يعتقده المشركون في معبوداتهم، وردّت عليهم ردًّا مفحمًا: هل يستطيع المشركون أن يقولوا: إن معبوداتنا هذه تملك في السماوات أو في الأرض شيئًا؟ لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها شريكة لله؟، لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إنها تعين الله في تدبير الملك؟، لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا إنها تشفع عند الله بغير إذنه؟، لا يستطيعون.

هل يستطيعون أن يقولوا: إن الشفاعة تنفع المشركين وتنفع الكفار؟ لا يستطيعون. كل هذا لا يستطيعونه أبدًا.

ولو سألت أي خرافي أو أي مشرك من عباد الأضرحة قلت له: أجب عن هذه الآيات. ما استطاع الجواب. وإذا لم يستطع الجواب، تبيّن أنه مكابر، وأن عمله باطل.

كان الواجب على من يدّعي الإسلام، ويشهد أن لا إله إلّا الله وأن محمدًا رسول الله- أن يرجع إلى القرآن، وأن يتدبّر القرآن، وأن يعمل به، وأن يراجع سنة الرسول ﷺ ويعمل بها، ولا يذهب مع التقاليد الفاسدة، أو يتبع ما كان عليه

٤٦) ١٨-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ الآية. [القَصَص: ٥٦].

وَفِي الصَّحِيحِ عنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ عَنْ أَبِيهِ قَالَ: لَمَّا حضَرَتْ أَبَا طَالِبٍ الْوَفَاةُ جَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وعِنْدَهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ وَأَبو جَهْلٍ. فَقَالَ لَهُ: «يَا عَمِّ، قُلْ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ». فَقَالا

الناس، أو الدعاوى الباطلة أن هذه القبور تنفع، أو أن هؤلاء الأموات ينفعون من دعاهم، أو من تقرّب إليهم، هذا كله إذا عُرِضَ على الكتاب والسنّة تبيّن بطلانه.

يقول شيخ الإسلام: «قد يرون عند القبور أو يسمعون عند القبور من يكلمهم، أو يخرج عليهم من القبر ويقول: أنا فلان الذي تطلب، وأنا أقضي حاجتك. يتمثل لهم الشيطان، ليس هو الميت، وإنما هو الشيطان، يتمثل لهم بصورة الميت، ويخاطبهم، وقد يجلب لهم شيئًا مما يطلبون من بعيد، وهو شيطان يريد أن يضلهم، ويريد أن يهلكهم، وأن يغرر بهم».

٤٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا الباب ذكره المؤلف ليبين أن الرسل وأفضلهم محمد ﷺ لا يملكون شيئًا من أمر الله إلا ما أعطاهم الله، وأنهم لا يستطيعون هداية البشر إلا من هداه الله، فهم مربوبون مقهورون ليس لهم من التصرف إلا ما جعل الله لهم، لذلك لا يصلح أن يعبدوا من دون الله، فهم كسائر البشر لكن الله فضلهم بالرسالة والنبوة، فلهم مزيد شرف، ولكن هذا لا يجعلهم شركاء لله في تصريف الكون، أو علم الغيب وهداية من شاءوا، فإذا كان الرسول لم يستطع هداية عمه أبي طالب وأبي لهب، فهذا يدل على أن الهداية بيد الله، ويجب طلبها منه سبحانه.

فهذا باب بيان أن الهداية التي مضمونها قبول الحق والرضى به لا يملكها أحد غير الله.

لَهُ: أَتَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟ فَأَعَادَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَأَعَادَا، فَكَانَ آخِرُ ما قَالَ: هُوَ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾.

أما الهداية التي بمعنى الدلالة والإرشاد، والبيان فهي بيد الرسل وأتباعهم من العلماء والدعاة كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾؛ أي: ترشد وتدل وتدعو إلى صراط مستقيم، ولكن لا يستطيعوا أن يؤثروا في القلوب حتى تقبل الحق، بل هي لله.

وفي الصحيح عن ابن المسيب قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة جاءه رسول الله ﷺ.

«لما حضرت»؛ أي: علامات قرب الأجل، والمسيب بالكسر وبالفتح، وهو أشهر عند المحدثين.

«جاءه رسول الله»: ليدعوه دعوة خاصة عند قرب الأجل، وقد دعاه قبل ذلك كثيرًا، ولكنه لم يستجب مع أنه يعلم أنه حق، ولكنه لا يريد أن يجلب المسبة لقومه على زعمه ولذا قال في شعره:

ولقد علمت بأن دين محمد ... من خير أديان البرية دينا
لولا الملامة أو حذاري مسبة ... لوجدتني سمحًا بذاك مبينا

كلمة أحاج لك بها عند الله: أي: أشهد لك بها، وأحرص بها على نجاتك.

أترغب عن ملة عبد المطلب: من عبادة الأوثان والأصنام.

فكان آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب؛ لأنه قد سبقت له الشقاوة، ولم يرد الله له الهداية لحكمة بالغة، فهو مات على دين قومه، وهو الحق وجاءت به الأحاديث الصحيحة أنه رآه -أي: النبي عليه الصلاة والسلام- في غمرات من النار

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأولى»: تفسيرُ قَوْلِهِ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ . [القصص: ٥٦]

«الثانيةُ»: تفسيرُ قَوْلِهِ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾ الآية.

فشفع فيه حتى صار في ضحضاح من النار يغلي منها دماغه[١]، أما من قال: إنه أسلم فلا أصل له، ففيه أن النبي لا يستطيع هداية أحد من الخلق.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ فيه تسلية للنبي، وتسلية لمن أسلم بعض قومه، ولم يسلم بعضهم.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ [القصص: ٥٦]، الخطاب للنبي ﷺ، وكان يحب هداية عمه أبي طالب أو من هو أعم...

وقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾ ظاهره أن النبي ﷺ يحب أبا طالب، فكيف يؤول ذلك؟

والجواب: إما أن يقال: إنه على تقدير أن المفعول محذوف، والتقدير: من أحببت هدايته لا من أحببته هو.

أو يقال: إنه أحب عمه محبة طبيعية كمحبة الابن أباه ولو كان كافرًا.

أو يقال: إن ذلك قبل النهي عن محبة المشركين.

والأول أقرب، أي: من أحببت هدايته لا عينه، وهذا عام لأبي طالب وغيره.

ويجوز أن يحبه محبة قرابة، لا ينافي هذه المحبة الشرعية، وقد أحب أن يهتدي هذا الإنسان، وإن كنت أبغضه شخصيًا لكفره، ولكن لأني أحب أن الناس يسلكون دين الله.

قوله: «أبا»، بالألف: مفعول به منصوب بالألف، لأنه من الأسماء الخمسة،

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

....

«الوفاة» يعني: الموت، فاعل حضرت.

قوله: «فقال: يا عم، قل: لا إله إلا الله»، أتى ﷺ بهذه الكنية الدالة على العطف، لأن العم صنو الأب، أي: كالغصن معه.

والصنو: الغصن الذي أصله واحد، فكأنه معه كالغصن.

قوله: «يا عم» فيها وجهان:

يا عمِ، بكسر الميم: على تقدير أنها مضافة إلى الياء.

ويا عمُ، بضم الميم: على تقدير قطعها عن الإضافة.

قوله: «كلمة»، منصوبة، لأنها بدل لا إله إلا الله، ويجوز إذا لم تكن الرواية بالنصب أن تكون بالرفع، أي: هي كلمة، ولكن النصب أوضح.

قوله: «أحاج»، بضم الجيم وفتحها، فعلى ضم الجيم فهي صفة لكلمة، وإذا كانت بالفتح فهي مجزومة جوابًا للأمر: «قل»، أي: قل أحاج.

قوله: «ملة عبد المطلب»، أي: دين عبد المطلب.

قوله: «فأعاد عليه النبي ﷺ»، أي: قوله قل لا إله إلا الله، كلمة أحاج لك بها عند الله.

قوله: «فأعادا عليه»، أي: قولهما: أترغب عن ملة عبد المطلب.

قوله: «ما لم أنه عنك»، فعل مضارع مبني للمجهول، والناهي عنه هو الله.

قوله: «ما كان»، ما: نافية، وكان: فعل ماض ناقص.

قوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ ، أن وما دخلت عليه في تأويل مصدر اسم كان مؤخر.

قوله: ﴿لِلنَّبِيِّ﴾ ، خبر مقدم، أي: ما كان استغفاره.

وقوله: ﴿أَن يَسْتَغْفِرُوا﴾ ، أي: يطلبوا المغفرة للمشركين.

قوله: ﴿وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ﴾ ، أي: حتى ولو كانوا أقارب لهم، ولهذا لما اعتمر النبي ﷺ، ومر بقبر أمه استأذن الله أن يستغفر لها فما أذن الله له، فاستأذنه أن يزور قبرها فأذن له، فزاره للاعتبار وبكى وأبكى من حوله من الصحابة[١].

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي ﷺ ربه عز وجل زيارة أمه (٩٧٦).

«الثَّالِثَةُ»: وَهِيَ المَسْأَلَةُ الكُبْرَى - تَفْسِيرُ قَوْلِهِ ﷺ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ» بِخِلَافِ مَا عَلَيْهِ مَنْ يَدَّعِي العِلْمَ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ أَبَا جَهْلٍ وَمَنْ مَعَهُ يَعْرِفُونَ مُرَادَ النَّبِيِّ ﷺ إِذَا قَالَ لِلرَّجُلِ: «قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ». فَقَبَّحَ اللهُ مَنْ أَبُو جَهْلٍ أَعْلَمُ مِنْهُ بِأَصْلِ الإِسْلَامِ.

«الخَامِسَةُ»: جِدُّهُ ﷺ وَمُبَالَغَتُهُ فِي إِسْلامِ عَمِّهِ.

قوله: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾، الخطاب للرسول ﷺ أي: لا توفق من أحببت للهداية.

قوله: ﴿وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾، أي: يهدي هداية التوفيق من يشاء.

الثالثة: وهي المسألة الكبيرة، أي: الكبير من هذا الباب، وقوله (أي: قول النبي ﷺ) لعمه: «قل: لا إله إلا الله»، وعمه عرف المعنى أنه التبرؤ من كل إله سوى الله، ولهذا أبى أن يقولها؛ لأنه يعرف معناها ومقتضاها وملزوماتها.

وقوله: «بخلاف ما عليه من يدعي العلم» كأنه يشير إلى تفسير المتكلمين لمعنى لا إله إلا الله، حيث يقولون: إن الإله هو القادر على الاختراع، وأنه لا قادر على الاختراع والإيجاد والإبداع إلا الله، وهذا تفسير باطل.

الرابعة: أن أبا جهل ومن معه يعرفون مراد النبي ﷺ، بقول: لا إله إلا الله، ولذا ثاروا وقالوا له: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟»، وهو أيضًا أبى أن يقولها؛ لأنه يعرف مراد النبي ﷺ بهذه الكلمة، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٣٥﴾ وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوٓا۟ ءَالِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍۭ﴾ [الصافات: ٣٦].

الخامسة: جده ومبالغته في إسلام عمه، حرصه ﷺ وكونه يتحمل أن يحاج بالكلمة عند الله واضح من نص الحديث، لسببين هما:

القرابة.

لما أسدى للرسول والإسلام من المعروف، فهو على هذا مشكور، وإن كان على كفره مأزورًا وفي النار.

«السَّادِسَةُ»: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ إِسْلَامَ عَبْدِ المُطَّلِبِ وَأَسْلَافِهِ.

«السَّابِعَةُ»: كَوْنُهُ ﷺ اسْتَغْفَرَ لَهُ فَلَمْ يُغْفَرْ لَهُ، بَلْ نُهِيَ عَنْ ذَلِكَ.

«الثَّامِنَةُ»: مَضَرَّةُ أَصْحَابِ السُّوءِ عَلَى الإِنْسَانِ.

«التَّاسِعَةُ»: مَضَرَّةُ تَعْظِيمِ الأَسْلَافِ وَالأَكَابِرِ.

السادسة: الرد على من زعم إسلام عبد المطلب، بدليل قولهما: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟» حين أمره النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله، فدل على أن ملة عبد المطلب الكفر والشرك.

السابعة: كونه ﷺ استغفر له فلم يغفر له، الرسول ﷺ أقرب الناس أن يجيب الله دعاءه، ومع ذلك اقتضت حكمة الله أن لا يجيب دعاءه لعمه أبي طالب؛ لأن الأمر بيد الله لا بيد الرسول ولا غيره.

الثامنة: مضرة أصحاب السوء على الإنسان، المعنى أنه لولا هذان الرجلان، لربما وفق أبو طالب لقبول ما عرضه النبي ﷺ لكن هؤلاء -والعياذ بالله- ذكراه نعرة الجاهلية، ومضرة رفقاء السوء، ليس خاصًا بالشرك، ولكن في جميع سلوك الإنسان، وقد شبه النبي ﷺ جليس السوء بنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، أو تجد منه رائحة كريهة[1]، وقال ﷺ: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه»، وذلك لما بينهما من الصحبة والاختلاط، وكذلك روي عن النبي ﷺ بسند لا بأس به: «المرء على دين خليله، فلينظر أحدكم من يخالل»[2].

التاسعة: مضرة تعظيم الأسلاف والأكابر؛ لأن أبا طالب اختار أن يكون على ملة عبد المطلب حين ذكروه بأسلافه مع مخالفته لشريعة النبي ﷺ.

وهذا ليس على إطلاقه، فتعظيمهم إن كانوا أهلًا لذلك فلا يضر، بل هو خير،

---

(١) البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك، ومسلم: كتاب البر/ باب استحباب مجالسة الصالحين.

(٢) مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٠٣)، والترمذي: كتاب الزهد/ باب الرجل على دين خليله) - وقال: «حسن غريب»، والحاكم (٤/ ١٨٨) - وقال: «صحيح ووافقه الذهبي».

«العَاشِرَةُ»: الشُّبْهَةُ لِلْمُبْطِلِينَ فِي ذَلِكَ، لاسْتِدْلالِ أَبِي جَهْلٍ بِذَلِكَ.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: الشَّاهِدُ لِكَوْنِ الأَعْمَالِ بِالخَوَاتِيمِ، لأَنَّهُ لَوْ قَالَهَا لَنَفَعَتْهُ.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: التَّأَمُّلُ فِي كِبَرِ هَذِهِ الشُّبْهَةِ فِي قُلُوبِ الضَّالِّينَ، لأَنَّ فِي القِصَّةِ أَنَّهُمْ لَمْ يُجَادِلُوهُ إِلَّا بِهَا، مَعَ مُبَالَغَتِهِ ﷺ وَتَكْرِيرِهِ، فَلأَجْلِ عَظَمَتِهَا وَوُضُوحِهَا عِنْدَهُمْ، اقْتَصَرُوا عَلَيْهَا.

فأسلافنا من صدر هذه الأمة لا شك أن تعظيمهم وإنزالهم منازلهم خير لا ضرر فيه.

العاشرة: الشبهة للمبطلين في ذلك لاستدلال أبي جهل بذلك، شبه المبطلين في تعظيم الأسلاف هي استدلال أبي جهل بذلك في قوله: «أترغب عن ملة عبد المطلب؟»، وهذه الشبهة ذكرها الله في القرآن في قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

الحادية عشرة: الشاهد لكون الأعمال بالخواتيم، وهذا مبني على القول بأن معنى حضرته الوفاة، أي: ظهرت عليه علاماتها ولم ينزل به كما سبق.

الثانية عشرة: التأمل في كبر هذه الشبهة في قلوب الضالين... إلخ، وهذه الشبهة هي تعظيم الأسلاف والأكابر.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** غرض المصنف رحمه الله من عقد هذا الباب- الردّ على الذين غلوا في النبي ﷺ وعلى المشركين الذين يتعلّقون بالأولياء والصالحين، يدعونهم من دون الله، ويستغيثون بهم، لأنه إذا كان رسول الله ﷺ لم يملك لعمه أبي طالب شيئًا، وأنه نُهي عن الاستغفار له، ففي حق غير النبي ﷺ من باب أولى.

قال: «في الصحيح» يعني: في الصحيحين صحيح البخاريّ وصحيح مسلم.

«عن ابن المسيّب» هو: سعيد بن المسيّب بن حَزَن بن أبي وهب المخزومي،

....

أحد أكابر التابعين، وكان له منزلة في العلم عظيمة، فهو من أكبر علماء التابعين، وهو أحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى في الدّنيا في زمانهم.

وأبوه المسيّب بن حَزَن، صحابي، وجده الحَزَن أيضًا صحابي، فهو من كبار التابعين، وأبوه وجده صحابيّان.

«عن أبيه» المسيّب.

«قال: لما حضرت أبا طالب الوفاة» معناه: قارب الوفاة، وليس المراد أنه نزل به الموت، لأنه إذا نزل الموت بالمحتضر، وبلغت الروح الغرغرة لا تُقبل منه توبة، كما جاء في الحديث: «إن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر».

«فقال له» أي: قال النبي ﷺ لأبي طالب.

«يا عم» هذا فيه استعطاف.

«قل: لا إله إلّا الله» يعني: انطق بهذه الكلمة، معتقدًا لها بقلبك.

«كلمة أحاج لك بها عند الله» «كلمة» منصوب على أنه بدل من: لا إله إلّا الله، لأن لا إله إلّا الله في محل نصب، مقول القول، وكلمة بدل منها، وبدل المنصوب منصوب، لأنه أحد التوابع الأربع.

«أحاج لك بها عند الله» يعني: أشهد لك بها عند الله يوم القيامة، من أجل نجاتك من النار، «أحاج» مجزوم على أنه جواب الأمر، وحرّك بالفتح من أجل التقاء الساكنين، وإلّا أصله: أحاجج، فأدغمت الجيم في الجيم فصارت أحاج، التقى ساكنان، فحرّك بالفتح للتخلّص من التقاء الساكنين.

بيّن له ﷺ فائدة ذلك، ترغيبًا له.

ففيه أن الداعية إلى الله يبيّن للناس الترغيب، يرغّبهم في الخير، ويبيّن لهم العواقب الحسنة إن استجابوا، ويحذرهم من العواقب الوخيمة إن لم يستجيبوا، فالداعية يبشر وينذر.

ولكن جلساء السوء -والعياذ بالله- تسببوا في شقاوة هذا الرجل: «فقالا له» قال: أبو جهل وعبد الله بن أمية لأبي طالب معارضين لرسول الله ﷺ: «أترغب عن

....

ملة عبد المطّلب؟» أي: أتترك ملّة أبيك؟

«فأعاد عليه رسول الله ﷺ» هذا فيه أن الداعية لا ييأس، أي: طلب منه أن يقول: لا إله إلّا الله.

«فأعادا عليه» أعاد عليه الرّجلان، قولتهم القبيحة: «أترغب عن ملّة عبد المطّلب؟».

فعند ذلك أخذته الحميّة الجاهلية، فقال: «هو على ملة عبد المطلب».

«هو» هذا ضمير الغائب، يَحتمل أن الرّاوي صرفه، ولم يقل: أنا، من باب كراهة هذا اللّفظ.

وجاء في بعض الروايات: «أنا على ملّة عبد المطلب».

«وأبى أن يقول: لا إله إلّا الله» ومات- والعياذ بالله- على الشرك.

فعند ذلك النبي ﷺ من شفقته على عمه، ولما رأى أنه مات على الشرك، وكان منه في حياته من النُّصرة والتأييد قال: «لأستغفرن لك ما لم أُنه عنك» هذا كله من كمال شفقته ﷺ، ومن مجازاته على المعروف، ووفائه ﷺ.

«فأنزل الله سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾» نهاه الله عن ذلك، ونهى المؤمنين، لأن المسلمين لما رأوا رسول الله ﷺ يستغفر لعمّه قالوا: إذًا نستغفر لموتانا، فأنزل الله هذه الآية.

﴿مَا كَانَ﴾ أي: لا يليق ولا ينبغي، وهذا خبر معناه: النهي والتحذير.

«﴿لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾» المشرك لا يجوز الاستغفار له ولا التّرحّم عليه إذا مات على الشرك، وكذلك في حالة الحياة فالمشرك لا يستغفر له وهو حي، ولا يُترحّم عليه، وإنما يطلب له الهداية، يُقال: اللّهُمّ اهده، أما الاستغفار والترحّم، فإنه لا يجوز للمشركين، لا أحياءً ولا أمواتًا، لأنه لا تجوز محبتهم وموالاتهم ما داموا على الشرك.

«وأنزل الله في أبي طالب: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ﴾» ﴿إِنَّكَ﴾ أيها الرسول.

﴿لَا تَهْدِى﴾ لا تملك هداية «﴿مَنْ أَحْبَبْتَ﴾» من أقاربك وعمك. والمراد

....

بالمحبة هنا: المحبة الطبيعية، ليست المحبة الدينيّة، فالمحبة الدينيّة لا تجوز للمشرك.

﴿وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ فلا يضع هداية القلب إلّا فيمن يستحقّها، أما الذي لا يستحقّها فإن الله يحرمه منها، والله عليم حكيم جلّ وعلا، ما يُعطي هداية القلب لكل أحد، وإنما يُعطيها سبحانه من يعلم أنه يستحقّها، وأنه أهل لها، أما الذي يعلم منه أنه ليس أهلًا لها، ولا يستحقّها، فإن الله يحرمه منها.

وهذا الحديث مع الآية يدلان على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه مشروعية الدعوة إلى الله عزّ وجلّ، فإن الرسول ﷺ أتى عمه وهو في سياق الموت، من أجل ماذا؟ من أجل الدعوة إلى الله عزّ وجلّ.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على مشروعية عيادة المريض المشرك من أجل دعوته إلى الله عزّ وجلّ، فإن الرسول عاد عمه وهو مشرك من أجل دعوته إلى الله.

المسألة الثالثة: - وهي مهمة جدًّا-: أن من قال: لا إله إلّا الله فإنه يُقبل منه، ويُحكم بإسلامه، ما لم يظهر منه ما يُناقض هذه الكلمة من قول أو فعل، فإن ظهر منه ما يناقض هذه الكلمة حُكم بردّته، أما ما لم يظهر منه ما يناقض هذه الكلمة، فإنه يُحكم بإسلامه، فإن كان صادقًا فيما بينه وبين الله، فهو مسلم حقًّا، وإن كان كاذبًا فيما بينه وبين الله فهو منافق، أمره إلى الله عزّ وجلّ.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أن الأعمال بالخواتيم، فأبو طالب عاش على الكفر والشرك، لكنه لو قال: لا إله إلّا الله عند الوفاة، واستجاب للرسول ﷺ لختم له بالإسلام، فدلّ على أن الأعمال بالخواتيم.

المسألة الخامسة: فيه التحذير من جلساء السوء، ماذا جرّ على أبي طالب هؤلاء الجلساء، ومات على الكفر بسبب مشورتهما والعياذ بالله.

المسألة السادسة: في الحديث ردٌّ على من زعم إسلام أبي طالب من الشيعة والخرافيين لأن آخر ما قال: هو على ملة عبد المطلب، وأبى أن يقول: لا إله إلّا الله.

....

المسألة السابعة: وهي عظيمة جدًّا: تفسير لا إله إلّا الله كما يقول الشيخ رحمه الله، وأن معناها: ترك عبادة غير الله، لأن أبا جهل وزميله فهما أنه إذا قال: لا إله إلّا الله، فقد ترك ملّة عبد المطّلب، وأن لا إله إلّا الله ليست مجرّد كلمة تُقال، وإنما هي كفر بالطّاغوت وإيمان بالله عزّ وجلّ، بخلاف ما يعتقده كثير من الخرافيين في هذا الزمان، يقولون: لا إله إلّا الله، ويقولون: يا حسين، ويا فلان، ويذبحون للموتى، ويستغيثون بهم، وهم يقولون: لا إله إلّا الله!! بل لهم أوراد صباحية ومسائية يقولونها بالمئات، ثم يذبحون للضريح ويطوفون به، ويستغيثون به.

فدلّ على أن أبا جهل أفهم منهم بمعنى لا إله إلّا الله، لأن أبا جهل فهم أن معنى لا إله إلّا الله: ترك عبادة الأوثان، وهؤلاء ما فهموا هذا، ما فهموا أن لا إله إلّا الله معناها ترك عبادة القبور، وهذا من الفقه العظيم، وهذه هي العقيدة الصحيحة، والداعي إلى الله يجب أن يفهم هذا الفقه، لأن هذا هو فقه الدعوة.

المسألة الثامنة: فيه الردّ على المرجئة، الذين يقولون: إن الإيمان هو مجرّد المعرفة أو الاعتقاد، فإذا عرف الإنسان بقلبه أو اعتقد أنه لا إله إلّا الله وأن محمّدًا رسول الله، ولو لم يعمل؛ فإنه يكون مسلمًا، لأن الأعمال ليست شرطًا في الإيمان، بل مجرّد المعرفة أو الاعتقاد بالقلب يكفي عندهم، وهذا باطل، لأنها لم تعتبر معرفة أبي طالب لرسالة النبي ﷺ، لم تعتبر إسلامًا.

المسألة التاسعة: فيه تحريم الاستغفار للمشركين، والترحّم عليهم، وموالاتهم، ومحبتهم، لأن الله جل وعلا يقول: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوٓا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا أُولِي قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ الْجَحِيمِ﴾.

المسألة العاشرة: فيه التحذير من التعصّب لدين الآباء والأجداد إذا كان يخالف ما جاءت به الرسل، فإن الذي حمل أبا طالب على ما وقع فيه هو التعصّب لدين عبد المطّلب، وأنه سبب لسوء الخاتمة.

المسألة الحادية عشرة: وهي المقصودة بالذات من عقد هذا الباب، وهي: الردّ

٤٧) ١٩-بابٌ

مَا جَاءَ أَنَّ سَبَبَ كُفْرِ بَنِي آدَمَ وَتَرْكِهِمْ دِينَهُمْ هُوَ الغُلُوُّ فِي الصَّالِحِينَ. وقَوْلُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾ [النساء: ١٧١].

على المشركين الذين يتعلّقون بالأولياء والصالحين، ويدعونهم من دون الله، لأنه إذا كان الرسول ﷺ لم يملك لعمه أبي طالب الهداية فغيره من باب أولى، وهذه هي المناسبة للتّرجمة.

والله تعالى أعلم.

٤٧) **الشـرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** بين المؤلف سبب كفرهم وأغلبه هو الغلو في الصالحين، وهناك أسباب أخرى كالحسد والبغي، والغالب أنهم أحبوا الأنبياء والصالحين حتى غلوا فيهم وكفروا.

﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾.

هذا للنصارى وكذلك اليهود لكن النصارى أكثر غلوًا.

والمقصود من الباب التحذير من الغلو في حب الصالحين والأنبياء وحبهم دين حيث قال: ﴿فِي دِينِكُمۡ﴾ والحب والبغض في الله من الدين كما قال عليه الصلاة والسلام: «**لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما**»[1] لكن هذا الحب لا يكون بالغلو، بل باتباعهم وعدم عصيانهم وطاعتهم لا بعبادتهم من دون الله عز وجل، وهكذا العلماء والصالحون يكون حبهم بالترضي عنهم والسير على منهجهم، فيجب أن تكون محبة شرعية.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «سبب كفر بني آدم»، السبب في اللغة: ما يتوصل به إلى غيره، ومنه قوله تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى

---

(١) رواه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

....

ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لۡيَقۡطَعۡ﴾ [الحج: ١٥]، أي: بشيء يوصله إلى السماء.

ومنه أيضًا سمي الحبل سببًا، لأنه يتوصل به إلى استسقاء الماء من البئر.

وأما في الاصطلاح عند أهل الأصول، فهو الذي يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم.

والغلو: هو مجاوزة الحد في الثناء مدحًا أو قدحًا.

والقدح: يسمى ثناء، ومنه الجنازة التي مرت فأثنوا عليها شرًّا(١).

والغلو هنا: مجاوزة الحد في الثناء مدحًا.

قوله: ﴿لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾، أي: لا تتجاوزوا الحد مدحًا أو قدحًا، والأمر واقع كذلك بالنسبة لأهل الكتاب عمومًا، فإنهم غلوا في عيسى بن مريم عليه السلام مدحًا وقدحًا، حيث قال النصارى: إنه ابن الله، وجعلوه ثالث ثلاثة.

واليهود غلوا فيه قدحًا، وقالوا: إنه أمه زانية، وإنه ولد زنا، قاتلهم الله؟ فكل من الطرفين غلا في دينه وتجاوز الحد بين إفراط وتفريط.

قوله: ﴿وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ﴾، وهو ما قاله سبحانه وتعالى عن نفسه بأنه: إله واحد، أحد، صمد، لم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ﴾، هذه صيغة حصر، وطريقه ﴿إِنَّمَا﴾، فيكون المعنى: ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول الله، وأضافه إلى أمه ليقطع قول النصارى الذي يضيفونه إلى الله.

قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾، أي: إنه عز وجل جعل عيسى عليه الصلاة والسلام كغيره من بني آدم من جسد وروح، وأضاف روحه إليه تشريفًا وتكريمًا، كما في قوله تعالى في آدم: ﴿وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾ [ص: ٧٢]، فهذا للتشريف والتكريم.

قوله: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ﴾، ﴿خَيۡرٗا﴾: خبر ليكن المحذوفة، أي: انتهوا يكن خيرًا لكم.

---

(١) البخاري: كتاب الجنائز/ باب ثناء الناس على الميت (١٣٠١)، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب فيمن يثنى عليه خير أو شر (٩٤٩).

....

قوله: ﴿إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ﴾، أي: تنزيهًا له أن يكون له ولد، لأنه مالك لما في السماوات وما في الأرض، ومن جملتهم عيسى بن مريم عليه الصلاة والسلام، فهو من جملة المملوكين المربوبين، فكيف يكون إلهًا مع الله أو ولدًا لله؟

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء» يعني: ما ورد من الأدلة من أن «سبب كفر بني آدم» السبب في اللغة: ما يُتوصّل به إلى الشيء، ولذلك سمّي الحبل سببًا، قال تعالى: ﴿فَلۡيَمۡدُدۡ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: فليمدد بحبل إلى السماء. أما السبب عند الأصوليين، فهو: ما يلزم من عدمه العدم، ولا يلزم من وجوده وجود ولا عدم لذاته.

«كفر بني آدم» يعني: كفرهم بالله عزّ وجلّ.

«وتركهم» بالجر عطفًا على كفر المضاف إليه، لأن المعطوف على المجرور مجرور.

«دينهم» دينهم منصوب على المفعوليّة، لأن المصدر إذا أضيف أو دخلت عليه «ال»، فإنه يعمل عمل فعله.

«هو الغلو في الصالحين» الغلو في اللغة: هو الزيادة عن الحد، يقال: . غلى القدر؛ إذا زاد. ومنه يقال: غلى السعر؛ إذا زاد في الأسواق. فالغلو في اللغة: هو الزيادة عن الحد.

أما في الشرع فهو الزيادة عن الحد المشروع، يسمّى غلوًا، ويسمّى طُغيانًا.

والغلو في الصالحين، هو الزيادة في مدحهم، ورفعهم فوق مكانتهم؛ بأن يُجعل لهم شيءٌ من العبادة.

قال: «وقول الله عزّ وجلّ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾» المراد بأهل الكتاب: اليهود والنصارى، سُمّوا بأهل الكتاب؛ لأن الله سبحانه أنزل على أنبيائهم الكتب. اليهود أنزل الله على نبيهم موسى عليه السلام التوراة. والنصارى أنزل الله على نبيهم عيسى- عليه الصلاة والسلام- الإنجيل، فلذلك سُمّوا أهل

....

الكتاب فَرْقًا بينهم وبين الأُميّين والوثنيّين الذين لا كتاب لهم، وهذا فيه تنبيه على أن المطلوب منهم أن يتقيّدوا بالكتاب الذي أنزل عليهم، وعدم مجاوزته، وهو تنبيه لكل عالم بأن يلتزم الاعتدال.

«﴿لَا تَغْلُوا۟﴾» هذا نهي من الله تعالى لهم عن الغلو، لأن الغلو أن يكون في شخص، أو يكون في دين.

والغلو في الشخص هو: المبالغة في مدحه، ورفعه فوق منزلته التي أنزله الله فيها.

وأما الغلو في الدين، فهو الزيادة عن الحد المشروع في العبادات، في مقاديرها، أو في كيفيّتها.

واليهود والنصارى غلوا في أنبيائهم، وغلوا في دينهم أيضًا، غلو في أنبيائهم، حيث قالت النصارى للمسيح: ابن الله، فرفعوه فوق منزلة البشرية إلى منزلة الربوبية، ويسمُّونه الرب. وأما اليهود، فقد غلوا في عزير، قالوا: هو ابن الله وكذلك النصارى غلوا في دينهم فابتدعوا الرهبانية، وهي: التبتّل والتعبّد، ولزوم الصّوامع، وعدم الخروج منها، رهبانية ابتدعوها، كما قال الله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾، هذا من الغلو في الدين، قال تعالى: ﴿لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، وفي الآية الأخرى في سورة النساء يقول: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا﴾.

فكذلك الذين غلوا في الصالحين من هذه الأمة حتى عبدوهم مع الله سبحانه وتعالى، وجعلوا لهم شيئًا من الرّبوبيّة والألوهيّة سواءً بسواء.

۞ ۞ ۞

٤٨) وفِي الصَّحِيحِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما فِي قَوْلِ اللهِ تَعالَى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ قَالَ: «هَذِهِ أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ؛ فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِم الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ فِيهَا أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ؛ فَفَعَلُوا؛ وَلَمْ تُعْبَدْ؛ حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَنُسِيَ العِلْمُ؛ عبدت.

وقَالَ ابنُ القَيِّم: قَالَ غيرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ: لَمَّا مَاتُوا عَكَفُوا عَلَى قُبُورِهِم ثُمَّ صَوَّرُوا تَمَاثِيلَهُمْ، ثُمَّ طَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَعَبَدُوهُمْ.

---

٤٨) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الصحيح عن ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ....﴾ وهذا في قوم نوح، وقد وسوس لهم الشيطان أن يصوروها لتكون ذكرى لهم على العبادة فلما هلك أولئك أتى الشيطان من بعدهم، وقال: إن آباءكم كانوا يعبدونها ويستغيثون بها، فعبدوها.

فهذا سبب الغلو، أضل الناس وأهلكهم في الدنيا والآخرة.

قوله: «نسي العلم»: أي: ذهب وهي رواية، وفي رواية نسخ، فذهب العلم وجاء من لا يعلم؛ فوقع في الشرك ففيه أهمية العلم ومحاربته للجهل، فإذا ذهب وقع الناس في الباطل والجهل، ففيه فضيلة العلم الشرعي.

«قال ابن القيم»: ويحتمل كلامه إن الذين صوروها هم الذين عبدوها لما طال الأمر، وتغيرت الأحوال ويحتمل أنهم بعد موتهم جاءت ذريتهم فعبدوها.

فالبدع شرها عظيم على من فعلها، وعلى من جاء بعده.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿وَقَالُوا﴾، أي: قال بعضهم لبعض.

قوله: ﴿لَا تَذَرُنَّ﴾، أي: لا تدعن وتتركن، وهذا نهي مؤكد بالنون.

....

قوله تعالى: ﴿وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، هذه الخمسة كأن لها مزية على غيرها، لأن قوله: ﴿ءَالِهَتَكُمْ﴾ عام يشمل كل ما يعبدون، وكأنها كبار آلهتهم، فخصوها بالذكر.

فالمهم أن تفسير الآية أن يقال: هذه أصنام في قوم نوح كانوا رجالاً صالحين، فطال على قومهم الأمد، فعبدوهم.

قوله: «أوحى الشيطان»، أي: وحي وسوسة، وليس وحي إلهام.

قوله: «أن انصبوا إلى مجالسهم»، الأنصاب: جمع نصب، وهو كل ما ينصب من عصا أو حجر أو غيره.

قوله: «سموها بأسمائهم»، أي: ضعوا أنصابًا في مجالسهم، وقولوا: هذا ود، وهذا سواع، وهذا يغوث، وهذا يعوق، وهذا نسر، لأجل إذا رأيتموهم تتذكروا عبادتهم فتنشطوا عليها، هكذا زين لهم الشيطان.

قوله: «ففعلوا ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم، عبدت من دون الله»، ذكر ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان بين آدم ونوح عشرة قرون، والقرن مئة سنة، حتى إذا طال عليهم الآمد حصل النزاع والتفرق، فبعث الله النبيين، كما قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ الآية [البقرة: ٢١٣].

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «في الصحيح» يعني: صحيح البخاريّ.

«عن ابن عباس رضي الله عنه في قول الله تعالى» يعني: في تفسير قوله تعالى: « ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾، قال: هذه أسماء رجال صالحين من قوم نوح.... إلخ».

قوم نوح لما نهاهم نبي الله نوح- عليه الصلاة والسلام- عن الشرك وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له؛ تواصوا فيما بينهم بهذه الوصية الكافرة:

«وقالوا لا تذرن آلهتكم» يعني: لا تطيعوا نوحًا عليه السلام، لا تتركوا آلهتكم

....

التي تعبدونها من دون الله. «﴿وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾» هذه أسماء رجال صالحين، وكان هذا في الأوّل، لأن النّاس كانوا بعد آدم عليه السلام على دين التّوحيد- كما قال ابن عباس-، كانوا على دين التّوحيد دين أبيهم آدم- عليه الصلاة والسلام- عشرة قرون، وكان هؤلاء الصالحون في هذا العهد- عهد التّوحيد-، فلما ماتوا - ويُروى: أنهم ماتوا في سنة واحدة- حزنوا عليهم حزنًا شديدًا، وبكوا عليهم، فاستغل الشيطان- لعنه الله- هذه العاطفة فيهم، وأشار عليهم بمشورة ظاهرها النصح، وباطنها الخديعة والمكر، أشار عليهم بأن يصوّروا تماثيلهم، يعني: يجعلوا لهم صورًا على شكل تماثيل، كل واحد له صورة، وأن ينصبوا هذه التماثيل على مجالسهم؛ من أجل أن ينشطوا على العبادة، إذا رأوهم تذكّروا حالتهم فنشطوا على العبادة، فهو جاءهم من باب النصح، وأشار عليهم بمشورة ظاهرها الخبر، وأن هذه وسيلة للنشاط على العبادة، والتقوى، والصلاح، والاقتداء بهؤلاء، إذا رأوا صورهم تذكّروا صلاحهم وحالتهم فاقتدوا بهم، هذا ظاهر نصيحته، ولكنه في الباطن يمكر بهم، لأنه يرمي إلى مرمى بعيد- لعنه الله-، ينظر إلى العواقب، إلى الأجيال القادمة، يؤسس هذا الأساس للأجيال القادمة، وإلّا فإنه يعرف أن هؤلاء- ما دام العلم موجودًا، وما دام أنهم على التّوحيد- لن يتركوا عبادة الله عزّ وجلّ، فقبلوا هذه المشورة لأن ظاهرها أنها خير، وابتدعوا هذه البدعة...

«حتى إذا هلك أولئك، ونُسي العلم» يعني: بموت العلماء الذي يحذّرون من الشرك، «عُبدت» هذه الصور لأن الشيطان قال لهم: إن آباءكم ما نصبوا هذه الصور إلّا من أجل أن يتقرّبوا إليها، ويسقون بها المطر، فصدّقوه في هذا.

ومقالته لهذا الجيل المتأخِّر تخالف مقالته للجيل السابق، هذا من باب المكر، فصدّقوه في هذا فعبدوهم، ومن حينها حدث الشرك في الأرض، وغُيّر دين آدم - عليه الصلاة والسلام- فبعث الله نبيّه نوحًا عليه السلام أول الرّسل...

«قال ابن القيم» ابن القيّم هو: محمّد بن أبي بكر بن أيوب الزرعي الدمشقي، الإمام الجليل، الحافظ، صاحب المصنّفات المشهورة في التّوحيد والأصول والفقه

....

ومختلف العلوم، وهو أكبر تلاميذ شيخ الإسلام ابن تيميّة- رحمهما الله- علمًا وقدرًا.

قال: «لما ماتوا» يعني: لما مات هؤلاء الصالحون. وهذا تفسير وتوضيح لما قاله ابن عباس رضي الله عنه.

«عَكَفوا على قبورهم» العُكوف هو: طول البقاء في المكان، ومنه: الاعتكاف في المساجد، كما عرّفه الفقهاء بأنه: لزوم مسجد لطاعة الله.

«ثم صوّروا تماثيلهم» هذه خطوة ثانية.

«ثم طال عليهم الأمد فعبدوهم» هذه خطوة ثالثة.

فهذه الآثار مع الآية الكريمة تدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريم الغلو في الصالحين...

المسألة الثانية: في هذه الآثار دليل على أن الغلو في الصالحين من سنة اليهود والنصارى، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ﴾...

المسألة الثالثة: فيه التحذير من التصوير، ونشر الصور، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك، فأول شرك حدث في الأرض هو بسبب الصور المنصوبة...

المسألة الرابعة: في الآية والآثار دليل على تحريم البدع في الدين، وأنها تئول إلى الشرك، ولذلك قال العلماء: البدعة توصل إلى الشرك ولو على المدى البعيد. وهذه بدعة قوم نوح وصلت إلى الشرك، وهذا شيء واضح.

المسألة الخامسة: فيه دليل على أن حسن النيّة لا يسوغ العمل غير المشروع، لأن قوم نوح نيّتهم حسنة، عندما صوّروا الصور يريدون النشاط على العبادة، وتذكر أحوال هؤلاء الصالحين، ولا قصدوا الشرك أبدًا، وإنما قصدوا مقصدًا حسنًا، لكن لما كان هذا الأمر بدعة صار محرّمًا لأنه يُفضي إلى الشرك ولو على المدى البعيد، فالنية الحسنة لا تسوغ العمل غير المشروع.

المسألة السادسة: وهي عظيمة جدًّا: فيه بيان فضيلة وجود العلم والعلماء في النّاس، ومضرّة فقدهم، لأن الشيطان ما تجرأ على الدعوة إلى الشرك مع وجود

٤٩) وعَنْ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابنَ مَرْيَمَ، إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ ورَسُولُهُ» أَخْرَجَاه.

وقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِيَّاكُمْ والغُلُوَّ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ الغُلُوُّ».

العلم ووجود العلماء، إنما تجرّأ لما فُقد العلم ومات العلماء...

المسألة السابعة: فيه التحذير من مكر الشيطان، وأنه يُظهر الأشياء القبيحة بمظهر الأشياء الطيّبة حتى يغرِّر بالناس، هذا من ناحية.

ومن ناحية أخرى أنه يتدرّج بالناس شيئًا فشيئًا، لأنه تدرّج بقوم نوح من تذكّر العبادة والنشاط والمقصد الحسن، تدرّج بهم إلى المقصد السيئ والشرك بالله عزّ وجلّ.

المسألة الثامنة: فيه دليل على تحريم الغلو في قبور الصالحين، فقول ابن القيم: «لما ماتوا عكفوا على قبورهم» فيه: التحذير من الغلو في قبور الصالحين، وذلك بالعكوف عندها، أو البناء عليها، أو غير ذلك من أي مظاهر الغلو.

المسألة التاسعة: فيه أن درأ المفاسد مقدم على جلب المصالح، وهذه قاعدة مشهورة، لأن عمل قوم نوح فيه مصلحة جزئية وهي: تذكر حالة الصالحين، لكن المفسدة أكبر من هذا، وهو أن ذلك يئول إلى الشرك- والعياذ بالله.

٤٩) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن عمر مرفوعًا: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم إنما أنا عبد..» يحذر النبي ﷺ من الإطراء، وهو مجاوزة الحد في المدح، والوصف بما لا ينبغي ولا يجوز، ولا يحق له كأن يقال: يعلم الغيب أو يتصرف في الكون.. بل يمدح بما ينبغي وبالحق كأن يقال: خير الرسل وخير الخلق وخاتم النبيين مبلغ الرسالة... ومن الغلو ما قاله البوصيري في شعره: أنه يمدح بكل شيء، لكن لا يقال ابن الله فقط، وهذا جهل وضلال، فلا يمدح بما يخص الله وحده لا هو عليه الصلاة والسلام ولا أحد من الخلق، وعندما ضاع عقد عائشة وجدوه تحت الجمل، ولم يعلمه الرسول ﷺ، ولا أحد من أصحابه فلا يعلم

....

الغيب إلا ما أطلعهم الله عليه.

وقال ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو».

قالها النبي ﷺ في حجة الوداع حين أمر ابن عباس بأن يأخذ سبع حصيات، والحديث رواه أحمد وبعض أهل السنن بإسناد جيد فهو حديث صحيح.

«والغلو»: الزيادة، يقال: على القدر، وهي الزيادة في الدين بما لم يأذن به الله بل الواجب الوقوف على النص بدون زيادة، ولا نقصان فإذا زادوا وقعوا في الشرك أو البدع.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «لا تطروني»، الإطراء: المبالغة في المدح.

وهذا النهي يحتمل أنه منصب على هذا التشبيه، وهو قوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم»، حيث جعلوه إلهًا أو ابنًا لله.

قوله: «إنما أنا عبد»، أي: ليس لي حق في الربوبية، ولا مما يختص به الله - عز وجل - أبدًا.

قوله: «فقولوا عبدالله ورسوله»، هذان الوصفان أصدق وصف وأشرفه في الرسول ﷺ، فأشرف وصف للإنسان أن يكون من عباد الله، قال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

والغلو: فاعل أهلك.

قوله: «من كان قبلكم» مفعول مقدم.

قوله: «فإنما» أداة حصر، والحصر: إثبات الحكم للمذكور ونفيه عما عداه.

قوله: «أهلك» يحتمل معنيين:

الأول: أن المراد هلاك الدين، وعليه يكون الهلاك واقعًا مباشرة من الغلو، لأن مجرد الغلو هلاك.

الثاني: أنه هلاك الأجسام، وعليه يكون الغلو سببًا للهلاك، أي: إذا غلوا خرجوا عن طاعة الله فأهلكهم الله.

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن عمر» المراد به: عمر بن الخطاب بن عمرو بن نُفَيْل العدوي القرشي، ثاني الخلفاء الراشدين، وأفضل هذه الأمة بعد أبي بكر الصدّيق، رضي الله تعالى عن الجميع.

«أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُطْروني» هذا نهي منه ﷺ عن الإطراء في حقّه، والإطراء هو: زيادة المدح والمبالغة فيه، كما هي عادة بعض المدّاحين من الشعراء وغيرهم، وهذه صفة ذميمة، فإن كثرة المدح والزيادة في ذلك منهي عنها في حق الرسول ﷺ وفي حق غيره، ولكن في حق الرسول أعظم، لأن ذلك يؤدي إلى الشرك والكفر، فإن الغلو في مدح الأنبياء يؤدي إلى الشرك، كما حصل للنصارى واليهود حينما غلو في الأنبياء.

فمعنى قوله: «لا تُطروني» يعني: لا تزيدوا في مدحي.

«كما أطرت النصارى ابن مريم» النصارى المراد بهم: أتباع عيسى عليه السلام، قيل: سُمُّوا نصارى نسبة إلى البلد: الناصرة في فلسطين، أو من قوله تعالى: ﴿قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ﴾ وهم أهل ملّة من الملل الكتابيّة، ويسمّون بالنصارى، أما أن يسمّوا بالمسيحيين- كما عليه النّاس الآن- فهذا غلط، لأنه لا يقال: المسيحيون إلّا لمن اتبع المسيح عليه السلام، أما الذي لم يتبعه فإنه ليس مسيحيًا، وإنما هو نصراني، فاسمهم في الكتاب والسنّة: النصارى.

كما أن اليهود نفروا من الاسم الخاص بهم في الكتاب والسنّة وهو اليهود فسموا أنفسهم إسرائيل، وإسرائيل هو نبي الله يعقوب - عليه الصلاة والسلام- فليسوا هم إسرائيل، وإنما هم اليهود. هذا هو اللفظ الموضوع لهم، الذي رُبطت به اللعنة والغضب من الله سبحانه وتعالى بسبب كفرهم بالله وعنادهم وتعنتهم، فهم اليهود.

«كما أطرت النصارى» أي: كما غلت النصارى في مدح المسيح عليه السلام.

«ابن مريم» يُنسب إلى أمه عليها السلام لأنه ليس له أب، لأن الله خلقه من أم بلا أب بقوله: ﴿كُن﴾، فهو تكوّن بالكلمة من قوله: ﴿كُن﴾، ولذلك يُقال: (كلمة

....

الله)، لأنه تكوّن بها من غير أب، فتكوّن بأمر الله سبحانه وتعالى حين قال له: «كُن» فكان بأمر الله، هذا سبب تسميته كلمة الله، والله قادر على كل شيء، فالله خلق آدم من غير أب ولا أم، خلقه من تراب بشرًا سويًا، وخلق حوّاء من غير أم، خلقها من آدم: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخلق عيسى من أم بلا أب، وخلق سائر البشر من أم وأب، ولهذا يقول الله جل وعلا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ﴾، فإذا كنتم تعجبون من خلق عيسى من أم بلا أب، فآدم عليه السلام أولى بالعجب، لأن الله خلقه من تراب ﴿ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾، فلا غرابة في قدرة الله سبحانه وتعالى.

وكيف أطرت النصارى ابن مريم؟ قالوا: إنه ابن الله، أو هو الله، أو ثالث ثلاثة. ولا يزالون على هذه المقالة إلى الآن، في إذاعاتهم، وفي كتاباتهم.

فسبب وقوعهم في هذا الكفر هو: الغلو- والعياذ بالله-، لأنهم لم يرتضوا أن يصفوا عيسى بأنه عبد الله ورسوله، وإنما زادوا وقالوا: إنه ابن الله جاء ليخلّص النّاس من الخطيئة، وقُتل وصُلب من أجل أن يخلّص النّاس من الخطيئة، ثمّ بعد قتله وصلبه قام وصعد إلى السماء.

وهذا كذب مَحْضٌ، كذبه الله وردّه بقوله: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾، فالذي قُتل وصُلب هو شخص غير المسيح، ألقى الله شبه المسيح عليه، فقُتل وصُلب، لأنه خان ودلَّ الكفرة على مكان المسيح، أما المسيح فإنه رفعه الله إليه، ولهذا لم يجزموا أن الذي قتلوه هو المسيح، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ﴾.

ثمّ قال ﷺ: «إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» «إنما»: كلمة حَصْر، أي: أن شأني ومكانتي أنني عبد الله سبحانه وتعالى، ليس لي من الربوبية شيء، والعبد لا يُغلى فيه ويُطرأ، ويُرفع فوق منزلته.

«فقولوا: عبد الله ورسوله» أرشدنا ﷺ إلى أن نقول فيه الكلام الواقع واللّائق به ﷺ، وهو أنه عبد الله ورسوله.

....

ففي قوله: «عبد الله» ردٌّ على الغلاة الذين يغلون في حقه ﷺ.

وفي قوله: «رسوله» ردٌّ على المكذبين الذين يكذّبون برسالته ﷺ، والمؤمنون يقولون: هو عبد الله ورسوله.

ثم قال المصنّف رحمه الله: «وقال: قال رسول الله ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»، هكذا ذكره المصنف رحمه الله من غير أن يذكر راويه، ومن غير أن يعزوه إلى مخرِّج من أصحاب الكتب، بل جعل مكان ذلك بياضًا.

والحديث رواه ابن عباس، وخرّجه أحمد في مسنده، وأبو داود في سننه، وابن ماجه في سننه.

وهذا حصل في مُنصَرَفه ﷺ في حجة الوداع من مزدلفة إلى منى من أجل رمي جمرة العقبة، ولما كان في الطريق بين مزدلفة ومنى قال لابن عباس: «التقط لي الحصى»، فلقط له سبع حصيات مثل حصى الخَذْف، وهي الصغار التي تُخْذَف على رءوس الأصابع، وهي أكبر من الحِمِّص بقليل، فأخذها ﷺ بيده الكريمة، ثم نفضها والناس ينظرون إليه، ثمّ قال ﷺ: «أمثال هؤلاء فارموا، وإياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»، وهذا يدل على أن الواجب علينا أن نتقيد بالعبادة كما جاءت.

ف «إياكم» هذه كلمة تحذير.

«والغلو» تقدم معناه، وهو: الزيادة على الحد المشروع، وهذا لا يجوز، وهو مردود وهلاك، بل نتقيّد بضوابط العبادة كما جاءت في سنة رسول الله ﷺ.

❁ ❁ ❁

٥٠) ولِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «هَلَكَ المُتَنَطِّعُونَ» قَالَهَا ثَلَاثًا.

«فِيه مَسَائِلُ:

«الأُولَى» : أَنَّ مَنْ فَهِمَ هَذَا البَابَ وبَابَيْنِ بَعْدَهُ، تَبَيَّنَ لَهُ غُرْبَةُ الإِسْلَامِ، ورَأَى مِنْ قُدْرَةِ اللهِ وتَقْلِيبِهِ لِلقُلُوبِ العَجَبَ.

---

٥٠) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولمسلم عن ابن مسعود مرفوعًا: «هلك المتنطعون» .

«والمتنطع» : هو الغالي المتشدد المتكلف الذي يزيد في الأمور، ولا يكتفي بالحد المحدود، وأصله: في الكلام بأقصى حلقه، والتكلف في الكلام، وهكذا كل غال في أي شيء يقال له: متنطع فيجب الاقتصاد في الكلام، وفي كل شيء وليس لأحد أن يزيد في الدين أو ينقص لا ملك ولا رئيس ولا عالم ولا غيره.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «المتنطعون»، المتنطع: هو المتعمق المتقعر المتشدق، سواء كان في الكلام أو في الأفعال، فهو هالك، حتى ولو كان ذلك في الأقوال المعتادة، فبعض الناس يكون بهذه الحال، حتى إنه ربما يقترن بتعمقه وتنطعه الإعجاب بالنفس في الغالب، وربما يقترن به الكبر، فتجده إذا تكلم يتكلم بأنفه، فتسلم عليه فتسمع الرد من الأنف إلى غير ذلك من الأقوال.

والتنطع بالأفعال كذلك أيضًا قد يؤدي إلى الإعجاب أو إلى الكبر، ولهذا قال: «هلك المتنطعون».

فيه مسائل:

الأولى: أن من فهم هذا الباب - أي: بما مر من تفسير الآية الكريمة: ﴿وَقَالُوا۟ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمْ﴾ - وبابين بعده، تبين له غربة الإسلام.

وهذا حق، فإن الإسلام المبني على التوحيد الخالص غريب، فكثير من البلدان الإسلامية تجد فيها الغلو في الصالحين في قبورهم، فلا تجد بلدًا مسلمًا إلا وفيه غلو

«الثَّانِيَةُ»: مَعْرِفَةُ أَوَّلِ شِرْكٍ حَدَثَ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ أَنَّهُ بِشُبْهَةِ الصَّالِحِينَ.

«الثَّالِثَةُ»: أَوَّلُ شَيْءٍ غُيِّرَ بِهِ دِينُ الأَنْبِياءِ، ومَا سَبَبُ ذَلِكَ مَعَ مَعْرِفَةِ أَنَّ اللهَ أَرْسَلَهُمْ.

«الرَّابِعَةُ»: قَبُولُ البِدَعِ مَعَ كَوْنِ الشَّرَائِعِ والفِطَرِ تَرُدُّهَا.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ سَبَبَ ذَلِكَ كُلِّهِ مَزْجُ الحَقِّ بِالبَاطِلِ، فَالأَوَّلُ: مَحَبَّةُ الصَّالِحِينَ، والثَّانِي فِعْلُ أُنَاسٍ مِنْ أَهْلِ العِلْمِ والدِّينِ شَيْئًا أَرَادُوا بِهِ خَيْرًا، فَظَنَّ مَنْ بَعْدَهُمْ أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهِ غَيْرَهُ.

في قبور الصالحين.

الثانية: معرفة أول شرك حدث في الأرض، وجه ذلك: أن هذه الأصنام التي عبدها قوم نوح كانوا أقوامًا صالحين، فحدث الغلو فيهم، ثم عبدوا من دون الله، ففيه الحذر من الغلو في الصالحين.

الثالثة: معرفة أول شيء غير به دين الأنبياء، وما سبب ذلك، مع معرفة أن الله أرسلهم، أول شيء غير به دين الأنبياء هو الشرك، وسببه هو الغلو في الصالحين، وقوله: «مع معرفة أن الله أرسلهم»، قال الله تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

الرابعة: قبول البدع مع كون الشرائع والفطر تردها.

قوله: «قبول البدع»، أي: أن النفوس تقبلها لا لأنها مشروعة، بل إن الشرائع تردها، وكذلك الفطر السليمة تردها، لأن الفطر السليمة جبلت على عبادة الله وحده لا شريك له، كما قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًاۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَاۚ﴾ [الروم: ٣٠].

الخامسة: أن سبب ذلك كله مزج الحق بالباطل، أراد المؤلف رحمه الله أن يبين أن مزج الحق بالباطل حصل بأمرين:

الأول: محبة الصالحين، ولهذا صوروا تماثيلهم محبة لهم، ورغبة في مشاهدة أشباحهم.

«السَّادِسَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ الَّتِي فِي سُورَةِ نُوحٍ.

«السَّابِعَةُ»: جِبلَّةُ الآدَمِيِّ فِي كَوْنِ الحَقِّ يَنْقُصُ فِي قَلْبِهِ، والبَاطِلُ يَزِيدُ.

«الثَّامِنَةُ»: فِيهِ شَاهِدٌ لِمَا نُقِلَ عَنِ السَّلَفِ أَنَّ البِدْعَةَ سَبَبُ الكُفْرِ.

الثاني: أن أهل العلم والدين أرادوا بذلك خيرًا، وهو أن ينشطوا على العبادة، ولكن من بعدهم أرادوا غير الخير الذي أراده أولئك، ويؤخذ منه: أن من أراد تقوية دينه ببدعة، فإن ضررها أكثر من نفعها. . . .

ولهذا تجد هؤلاء الذين يغالون في هذه البدع فاترين في الأمور المشروعة الواضحة ليسوا كنشاط غيرهم، وهذا مما يدل على تأثير البدع في القلوب وأنها مهما زينها أصحابها، فلا تزيد الإنسان إلا ضلالاً، لأن النبي ﷺ يقول: «كل بدعة ضلالة»[1].

قوله: «جبلة» على وزن فعلة، وهو ما يجبل المرء عليه، أي: يخلق عليه ويطبع ويبدع، بمعنى الطبيعة التي عليها الإنسان من حيث هو إنسان بقطع النظر عن كونه زكى نفسه أو دساها.

فالإنسان من حيث هو إنسان وصفه الله بوصفين، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤]، وقال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢].

أما من حيث ما يمن الله به عليه من الإيمان والعمل الصالح، فإنه يرتقي عن هذا، قال تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ ۝٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ﴾ [التين: ٤-٦]، فالإنسان الذي يمن الله عليه بالهدى، فإن الباطل الذي في قلبه يتناقص وربما يزول بالكلية، كعمر بن الخطاب، وخالد بن الوليد، وعكرمة بن أبي جهل، وغيرهم.

الثامنة: فيه شاهد لما نقل عن السلف أن البدع سبب الكفر، قال أهل العلم: إن الكفر له أسباب متعددة، ولا مانع أن يكون للشيء الواحد أسباب متعددة، ومن

---

(١) مسلم: كتاب الجمعة/ باب تخفيف الصلاة والخطبة (٨٦٧).

«التَّاسِعَةُ»: مَعْرِفَةُ الشَّيْطَانِ بِمَا تَئولُ إِلَيْهِ البِدْعَةُ ولَوْ حَسُنَ قَصْدُ الفَاعِلِ.
«العَاشِرَةُ»: مَعْرِفَةُ القَاعِدَةِ الكُلِّيَّةِ، وهِيَ النَّهْيُ عَنِ الغُلُوِّ، ومَعْرِفَةُ مَا يَئولُ إِلَيْهِ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: مَضَرَّةُ العُكُوفِ عَلَى القَبْرِ لأَجْلِ عَمَلٍ صَالِحٍ.
«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ النَّهْيِ عَنِ التَّمَاثِيلِ، والحِكْمَةُ فِي إِزَالَتِهَا.
«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: مَعْرِفَةُ عِظَمِ شَأْنِ هَذِهِ القِصَّةِ، وشِدَّةِ الحَاجَةِ إِلَيْهَا مَعَ الغَفْلَةِ عَنْهَا.

ذلك الكفر، ذكروا من أسبابه البدعة، وقالوا: إن البدعة لا تزال في القلب، يظلم منها شيئًا فشيئًا، حتى يصل إلى الكفر، واستدلوا بقوله ﷺ: «كل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار».

التاسعة: معرفة الشيطان بما تئول إليه البدعة ولو حسن قصد الفاعل، لأن الشيطان هو الذي سول لهؤلاء المشركين أن يصوروا هذه التماثيل والتصاوير، لأنه يعرف أن هذه البدعة تئول إلى الشرك.

وقوله: «ولو حسن قصد الفاعل»، أي: إن البدعة شر ولو حسن قصد فاعلها، ويأثم إن كان عالمًا أنها بدعة ولو حسن قصده، لأنه أقدم على المعصية كمن يجيز الكذب والغش ويدعي أنه مصلحة، أما لو كان جاهلًا فإنه لا يأثم.

العاشرة: معرفة القاعدة الكلية، وهي النهي عن الغلو ومعرفة ما يئول إليه، هذا ما حذر منه النبي ﷺ، لأن الغلو مجاوزة الحد، وهو كما يكون في العبادات يكون في غيرها، قال تعالى: ﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟﴾ [الأعراف: ٣١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَنفَقُوا۟ لَمْ يُسْرِفُوا۟ وَلَمْ يَقْتُرُوا۟﴾ [الفرقان: ٦٧]، وقد سبق بيان ذلك.

الحادية عشرة: مضرة العكوف على القبر لأجل عمل صالح، المضرة الحاصلة: هي أنها توصل إلى عبادتهم.

الثانية عشرة: معرفة النهي عن التماثيل والحكمة في إزالتها، التماثيل: هي الصور على مثال رجل، أو حيوان، أو حجر، والغالب أنها تطلق على ما صنع ليعبد من دون الله، والحكمة في إزالتها سد ذرائع الشرك.

الثالثة عشرة: معرفة عظم شأن هذه القصة، أي: قصة هؤلاء الذين غلوا في

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : وهِيَ أَعْجَبُ العَجَبِ: قِراءتُهُمْ إِيَّاهَا فِي كُتُبِ التَّفْسِيرِ والحَدِيثِ، ومَعْرِفَتُهُمْ بِمَعْنَى الكَلَامِ، وكَوْنُ اللهِ حَالَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ قُلوبِهِمْ حَتَّى اعْتَقَدُوا أَنَّ فِعْلَ قَوْم نُوحٍ هُوَ أَفْضَلُ العِبَادَاتِ، واعْتَقَدُوا أَنَّ مَا نَهَى اللهُ ورَسُولُهُ عَنْهُ، فَهُوَ الكُفْرُ المُبِيحُ لِلدَّمِ والمَالِ.

«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ» : التَّصْرِيحُ أَنَّهُمْ لَمْ يُرِيدُوا إِلَّا الشَّفَاعَةَ.

«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ» : ظَنُّهُمْ أَنَّ العُلَمَاءَ الَّذِينَ صَوَّرُوا الصُّوَرَ أَرَادُوا ذَلِكَ.

«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ» : البَيَانُ العَظِيمُ فِي قَوْلِهِ ﷺ : «لا تَطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ

الصالحين وغير الصالحين، لكن اعتقدوا فيهم الصلاح، حتى تدرج بهم الأمر إلى عبادتهم من دون الله، فتجب معرفة هذه القصة، وأن أمر الغلو عظيم، ونتائجه وخيمة، فالحاجة شديدة إلى ذلك، والغفلة عنها كثيرة، والناس لو تدبرت أحوالهم وسبرت قلوبهم وجدت أنهم في غفلة عن هذا الأمر، وهذا موجود في البلاد الإسلامية.

الرابعة عشرة - وهي أعجب العجب : قراءتهم إياها في كتب التفسير والحديث.

قوله: «وأعجب»، أي: أكثر عجبًا.

قوله: «واعتقدوا أن ما نهى الله ورسوله عنه فهو الكفر المبيح للدم والمال»، أي: من اعتقد أن الشرك والكفر من أفضل العبادات، وأنه مقرب إلى الله، فهذا كفر مبيح لدمه وماله، هذا ما أراد المؤلف، وإن كان لا يسعفه ظاهر كلامه ثم بدا لي ما لعله المراد أن هؤلاء الغالين اعتقدوا أن المنهي عنه هو الكفر المبيح للدم والمال، وأما ما دونه من الغلو، فلا نهي فيه، والله أعلم.

الخامسة عشرة: التصريح بأنهم لم يريدوا إلا الشفاعة، أي: ما أرادوا إلا الشفاعة، ومع ذلك وقعوا في الشرك.

السادسة عشرة: ظنهم أن العلماء الذين صوروا الصور أرادوا ذلك، أي: أرادوا أن تشفع لهم، بل ظنوا أنها تنشطهم على العبادة، وهذا ظن فاسد كما سبق.

السابعة عشرة: البيان العظيم في قوله ﷺ: «لا تطروني. . .» الحديث، معنى

النَّصَارى ابنَ مَرْيَمَ» فَصَلَواتُ اللهِ وسَلامُهُ عَلَى مَنْ بَلَّغَ البَلاغَ المُبِينَ.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ»: نَصِيحَتُهُ إِيَّانَا بِهَلاكِ المُتَنَطِّعِينَ.

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ»: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا لَمْ تُعْبَدْ حَتَّى نُسِيَ العِلْمُ، فَفِيهَا بَيَانُ مَعْرِفَةِ قَدْرِ وُجُودِهِ وَمَضَرَّةِ فَقْدِهِ.

«العِشْرُونَ»: أَنَّ سَبَبَ فَقْدِ العِلْمِ مَوْتُ العُلَمَاءِ.

الإطراء: الغلو في المدح، والمبالغة فيه.

الثامنة عشرة: نصيحته إيانا بهلاك المتنطعين، وذلك بقوله ﷺ: «هلك المتنطعون»، فلم يرد مجرد الخبر، ولكن التحذير من التنطع.

التاسعة عشرة: التصريح بأنها لم تعبد حتى نسي العلم، أي: لم تعبد هذه التماثيل إلا بعد أن نسي العلم واضمحل، ففيه دليل على معرفة قدر وجوده أي العلم.

العشرون: أن سبب فقد العلم موت العلماء، فهذا من أكبر الأسباب لفقد العلم، فإذا مات العلماء، لم يبق إلَّا جهال الخلق يفتون بغير علم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال «ولمسلم» يعني روى الإمام مسلم رحمه الله في صحيحه.

«عن ابن مسعود» عبد الله بن مسعود بن غافل الهذلي، الصحابي الجليل، والعالم الكبير، الذي يُعد من أكابر علماء الصحابة، وإليه المرجع في الفتوى، ورواية الحديث، وغير ذلك، فهو من أكابر الصحابة، ومن السابقين الأولين إلى الإسلام، رضي الله تعالى عنه، وكان- أيضًا- من أشد الناس تحذيرًا من البدع.

«والغلو» ومواقفه من المبتدعة مشهورة، وكلماته رضي الله تعالى عنه في ذلك مأثورة.

«أن رسول الله ﷺ قال: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا» المتنطعون: جمع متنطع، وأصل التنطع هو التقعّر في الكلام إظهارًا للفصاحة، هذا هو أصل التنطع في اللغة. والمراد هنا: التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة.

....

والتنطع في الكلام معناه: أن يتكلم الإنسان بالكلمات الغريبة من اللغة التي لا يفهمها الناس، فيأتي بأسلوب وألفاظ من وحشي اللغة لا يعرفها الناس.

وكذلك من التنطع في الكلام: أن يخاطب الحاضرين بأشياء لا يفهمونها، فالنّاس بحاجة إلى أن يبيّن لهم عقيدتهم وعبادتهم وطهارتهم ومعاملاتهم، ثمّ يذهب يتكلم في أشياء بعيدة عنهم، بل بعيدة من مجتمعهم.

فعلينا أن نتنبّه لذلك، لئلا نكون من المتنطعين في الكلام.

وأمير المؤمنين علي بن أبي طالب يقول: «حدثوا النّاس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟».

أما التنطع في الاستدلال فهو: طريقة أهل الكلام وأهل المنطق الذين عدلوا عن الاستدلال بالكتاب والسنّة إلى الاستدلال بقواعد المنطق، ومصطلحات المتكلمين.

والمنطق هذا من أين جاء؟ وقواعد المنطق من أين جاءت؟ جاءت من اليونان، استجلبوها واستعملوها في الإسلام، وتركوا الاستدلال بالكتاب والسنّة، وقالوا: إن الأدلة السمعية لا تفيد اليقين، وإنما الذي يفيد اليقين هو الأدلة العقلية - بزعمهم- ، فبذلك هلكوا.

الواجب أن يكون الاستدلال بالأدلة الشرعية من الكتاب والسنّة وإجماع المسلمين والقياس الصحيح كما عليه علماء أهل السنّة والجماعة.

أما التنطع في العبادة فهو كما سلف، هو: أن يزيد الإنسان في العبادة على الحد المشروع، وهذه رهبانية النصارى، أما الحد المشروع فهو كما قال ﷺ: «أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، وآكل اللحم، ومن رغب عن سنتي فليس مني» هذا هو الاعتدال، وأما التبتّل وعدم التزوج، والصيام دائمًا ولا يُفطر، والصلاة كل الليل ولا ينام، هذا كله من الغلو ومن التنطع الذي يَهْلك صاحبه كما هلكت النصارى في رهبانيتهم، والنبي ﷺ حذّر من الغلو، وحذّر من رهبانية النصارى، وأمر بالاعتدال والتوسط، وقال: «هذا الدين متين، ولن يشاد الدين أحد إلّا غلبه، ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَاسْمَعُوا وَأَطِيعُوا﴾ ، وقال ﷺ: «إن المنبتّ لا أرضًا

....

قطع، ولا ظهرًا أبقى» والمنبت هو: الذي يكلّف نفسه بالسير ولا يستريح ولا يريح راحلته، هذا ينبت، يعني: ينقطع وتموت راحلته، ويقف في وسط الطريق: «فلا ظهرًا أبقى» لأن راحلته ماتت، ولا أرضًا قطع لأن المسافة باقية. أما لو أخذ الطريق على مراحل، وشيئًا فشيئًا، وأراح نفسه، وأراح راحلته لقطع الطريق، وبلغ المقصود ولهذا قال ﷺ: «أوغلوا فيه برفق».

ونبيّن هنا ما يُستفاد من هذه الأحاديث باختصار:

المسألة الأولى: التحذير من الغلو في مدحه ﷺ، لأن ذلك يؤدي إلى الشرك، كما أدى بالنصارى إلى الشرك.

المسألة الثانية: فيه الرد على أصحاب المدائح النبوية التي غلوا فيها في حقه ﷺ، كصاحب البردة، وغيره.

المسألة الثالثة: فيه النهي عن التشبه بالنصارى، لقوله: «كما أطرت النصارى ابن مريم»...

المسألة الرابعة: فيه مشروعية مدحه ﷺ بصفاته الكريمة: عبد الله، ورسوله، الداعي إلى الله، بلّغ البلاغ المبين، جاهد في الله حق جهاده، كل هذا من صفاته ﷺ؛ فذكره طيّب.

المسألة الخامسة: يُستفاد من ذلك: كمال شفقته ﷺ على أمته، وأنه حذّرها من الإطراء في حقه ﷺ، وحذّرها من الغلو، وحذّرها من التنطع...

المسألة السادسة: فيه أن من نهى عن شيء فإنه يذكر البديل الصالح عنه إن كان له بديل، فإنه ﷺ لما نهاهم عن الإطراء قال: «إنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله» هذا البديل الصالح.

المسألة السابعة: في الحديث: النهي عن الغلو في العبادات، ومنها حصى الجمار، قال فيها ﷺ: «إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو»...

المسألة الثامنة: فيه التحذير من التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال، والتنطع في العبادة، وعرفنا بماذا يكون التنطع في الكلام، والتنطع في الاستدلال،

٥١) ٢٠-بابٌ

ما جَاءَ فِي التَغْلِيظِ فِيمَنْ عَبَدَ اللهَ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، فَكَيْفَ إِذَا عَبَدَهُ؟! فِي الصَّحِيحِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أَنَّ أُمَّ سَلَمَةَ ذَكَرَتْ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ كَنِيسَةً رَأَتْهَا فِي أَرْضِ الحَبَشَةِ ومَا فِيهَا مِنَ الصُّوَرِ. فَقَالَ: «أُولَئِكَ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ الرَّجُلُ الصَّالِحُ أَوِ العَبْدُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَرَ، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللهِ». فَهَؤُلاءِ جَمَعُوا بَيْنَ الفِتْنَتَيْنِ، فِتْنَةِ القُبُورِ، وفِتْنَةِ التَّمَاثِيلِ.

والتنطع في العبادة.

المسألة التاسعة: فيه تكرار النصيحة حتى ترسخ وتثبت؛ لأن النبي ﷺ كرّر قوله: «هلك المتنطعون» قالها ثلاثًا، من أجل أن ترسخ هذه النصيحة، وتثبت في قلوب السامعين.

والله تعالى أعلم.

٥١) الشـرح:

* **أولاً**: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا باب عظيم كالذي قبله ما جاء من الأدلة في التغليظ، فإن كانت الأدلة جاءت بإنكار عبادة الله عند قبور الصالحين فكيف إذا عبده واتخذه إلهًا من دون الله؟! فالتغليظ يكون أشد؛ لأن الأول وسيلة والثاني شرك أكبر.

وفي الصحيح عن عائشة أن أم سلمة ذكرت كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور لرسول الله ﷺ فقال: «فأولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح...».

«رأت كنيسة»: لما هاجروا إلى الحبشة رأوا كنيسة معظمة، ولها شأن يقال لها مارية فيها صور وتحسينات.

أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح هذا بيان حال النصارى وغلوهم في أمواتهم.

ولَهُمَا عَنهَا قَالَتْ: (لَمَّا نُزِلَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا، فَقَالَ - وَهُوَ كَذَلِكَ - : «لَعْنَةُ اللهِ عَلَى اليَهُودِ والنَّصارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا، وَلَوْلَا ذَلِكَ أُبرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا. أَخْرَجَاه.

«صوروا فيها الصور»: أي: صور الرجل الصالح أو له ولأتباعه كما جرى لقوم نوح.

«أولئك شرار الخلق»: أي: الذين فعلوا هذا الفعل؛ لأنهم فعلوا أسباب الشرك والغالب أنهم يفعلون ذلك لأنهم يعتقدون الشرك؛ فتعظيمهم القبور والبناية عليها لتعبد ويستغاث بها فصاروا بهذا شرار الخلق.

فمن فعل هذا الفعل فقد تشبه بالنصارى وعمل عملهم ومن تشبه بقوم فهو منهم والمقصود من الكلام التحذير من فعلهم، وقد وقع في الأمة ذلك، وأعظم من فعله، هم الرافضة الذين غلوا في آل البيت، وهم أول من بنى على القبور، وبنوا عليها المساجد وعبدوها من دون الله، ثم قلدهم أناس من أهل السنة من كثير من بلاد المسلمين وقد وقع اتباعها للكفار حذو مسافة القذة بالقذة.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين»: فعظموا القبور، وصوروا الصور، وكذا من شابههم من هذه الأمة شابهوا النصارى وشابهوا قوم نوح.

ولهما عنها قالت: لما نزل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه..

«طفق»: جعل.

«خميصة»: كساء.

وهذا من سكرات الموت لسيد الخلق؛ ليرفع به الدرجات؛ وليكون أسوة لأمته.

لعن الله اليهود والنصارى: قالها في مثل هذه الحالة العصيبة ليحذر أمته من فعل ذلك.

«ولولا ذلك لأبرز قبره»: أي: في البقيع مع أصحابه.

....

«غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا»: لئلا يأتي أناس بعد الصحابة، ويبنون عليها مسجدًا، أما الصحابة فلا يفعلونه.. وهذا الآن يقع من بعض الجهلة الذين يزورون المسجد يدعون النبي ﷺ لكن من وراء الجدار، وهو شرك أكبر.

وهذا يدل على غيرة الصحابة وحرصهم على الأمة فلذلك نقلوا هذه الأحاديث للأمة.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «التغليظ»، التشديد.

قوله: «من عبد الله عند قبر رجل صالح»، أي: عمل عملًا تعبد الله به من قراءة أو صلاة أو صدقة أو غير ذلك.

قوله: «فكيف إذا عبده؟»، أي: يكون أشد وأعظم.

قوله: «أم سلمة»، كانت ممن هاجر مع زوجها إلى أرض الحبشة، ولما توفي زوجها أبو سلمة تزوجها النبي ﷺ، وأخبرته وهو في مرض موته بما رأت، كما في «الصحيح».

قولها: «من الصور» الظاهر أن هذه الصور مجسمة وتماثيل منصوبة.

قوله: «أولئك»، المشار إليهم نصارى الحبشة، ويحتمل أن يراد من فعلوا هذه الأفعال أيًا كانوا.

قوله: «الرجل الصالح أو العبد الصالح»، أو: شك من الراوي.

قوله: «بنوا على قبره»، أي: قبر ذلك الرجل الصالح.

قوله: «صوروا فيه تلك الصور»، أي: التي رأت، والأقرب أنها صورة ذلك الرجل الصالح.

قوله: «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل»، هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله.

قوله: «فتنة القبور»، لأنهم بنوا المساجد عليها.

قوله: «فتنة التماثيل»، لأنهم صوروا فجمعوا بين فتنتين.

وقوله: «عنها»، أي: عن عائشة.

....

قالت: «لما نزل برسول الله»، أي: نزل به ملك الموت لقبض روحه.

قوله: «طفق»، من أفعال الشروع، واسمها مستتر، وجملة «يطرح» خبرها.

قوله: «خميصة»، هي كساء مربع له أعلام كان يطرحه النبي ﷺ على وجهه.

قوله: «فإذا اغتم بها»، أي أصابه الغم بسببها، وقد احتضر ﷺ.

قوله: «وهو كذلك»، أي: وهو في هذه الحال عند الاحتضار.

قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، يقول هذا في سياق الموت، «لعنة الله»، أي: طرده وإبعاده...

قوله: «يحذر ما صنعوا»، أي: إنه ﷺ قال ذلك في سياق الموت تحذيرًا لأمته مما صنع هؤلاء، لأنه علم أنه سيموت وأنه ربما يحصل هذا ولو في المستقبل البعيد.

قوله: «ولولا ذلك أبرز قبره»، أبرز، أي: أخرج من بيته، لأن البروز معناه الظهور، أي لولا التحذير وخوف أن يتخذ قبره مسجدًا، لأخرج ودفن في البقيع مثلًا، لكنه في بيته أصون له، وأبعد عن اتخاذه مسجدًا، فلهذا لم يبرز قبره، وهذا أحد الأسباب التي أوجبت ألَّا يبرز مكان قبره ﷺ.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال المؤلف رحمه الله: «باب ما جاء في التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح، فكيف إذا عبده» لما ذكر المؤلف رحمه الله في الباب الذي قبل هذا: التحذير من الغلو في الصالحين، وأنه سبب لكفر بني آدم، وتركهم دينهم، ذكر في هذا الباب الغلو في قبورهم، لأنه نوع من الغلو فيهم.

والتغليظ معناه: بيان شدّة الأمر، خلاف التسهيل أو التخفيف.

«فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح» عبد الله بدعاء الله عند القبر رجاء الإجابة، يظن أن الدعاء في هذا المكان سبب للإجابة، أو بالصلاة، يظن أن الصلاة عند القبر سبب للإجابة، أو الذبح عند القبر، وإن كان الفاعل يعبد الله بهذه العبادات ولكنه فعلها عند القبر رجاء أن تُقبل، وأن العبادة عند القبر لها مزية عن العبادة في

....

مكان آخر، فهذا مبني على ظن فاسد، لأن القبور ليست مكانًا للعبادة، وأن العبادة عندها وإن كانت خالصة لله فإنها سبب للشرك، ولهذا حذّر النبي ﷺ من العبادة عند القبور سدًّا للذريعة.

أما إذا كان يدعو القبر، ويستغيث بالميت؛ فهذا شرك أكبر.

وأما إذا كان يعبد الله مخلصًا له العبادة لكن عند القبر، فهذا وسيلة إلى الشرك، وطريق إلى الشرك، فهو محرّم، فكيف إذا عبده؟...

قال: «في الصحيح» يعني: في الصحيحين: صحيح البخاري وصحيح مسلم.

«عن عائشة» أم المؤمنين، بنت أبي بكر الصديق.

«أن أم سلمة» اسمها: هند بنت أبي أمية المخزومية، القرشية، زوج أبي سلمة، هاجرت هي وزوجها أبو سلمة الهجرتين: الهجرة إلى الحبشة، والهجرة إلى المدينة، وتوفي أبو سلمة رضي الله عنه في المدينة، فتزوجها رسول الله ﷺ فصارت من أمهات المؤمنين- رضي الله تعالى عنها.

«أنها ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها في أرض الحبشة» الكنيسة هي معبد النصارى الذي يجتمعون فيه يوم الأحد لعبادتهم. أما الصومعة فهي معبد خاص لفرد من النصارى يخلو فيه، وينقطع عن الدنيا. فالصومعة للأفراد من النصارى، وأما الكنيسة فهي للجميع.

«وما فيها من الصور» يعني: من صور الصالحين.

«أولئكِ» بالكسر خطاب لأم سلمة، ويجوز الفتح: «أولئكَ» خطاب للمذكر، ولكن الكسر أشهر، لأنه يخاطب امرأة.

« أولئكِ إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح» هذا شك من الراوي: هل قال الرسول ﷺ رجل أو عبد، وهذا من تحرّيهم رضي الله عنهم في الرواية، وأنه لم يجزم باللّفظ الذي قاله النبي ﷺ.

«بنوا على قبره مسجدًا» أي: مصلى، فالمراد بالمسجد هنا: المصلى والمتعبَّد، يعني: اتخذوا عليه كنيسة يتعبّدون فيها، فسمي مسجدًا.

....

«وصوّروا فيه تلك الصور» أي: صور الصالحين، ينصبونها في هذا المكان، من باب الغلو في الصالحين وتخليد شخصياتهم، واتخاذ التماثيل تخليدًا للشخصيات من هذا الباب، هو من باب تعظيم الصالحين، أو تعظيم العظماء، ولو كانوا من غير الصالحين كالرؤساء والسلاطين والملوك، وهذا لا يجوز في الإسلام...

ثم قال ﷺ «أولئك شرار الخلق عند الله» فدلّ على أن من بنى المسجد على القبر، أو صوّر الصور ونصبها؛ أنه من شرار الخلق. وشرار: جمع شر، وهو أفعل تفضيل، والمراد به: أشد الناس شرًا، فدلّ على أن الذي يبني المساجد على القبور أنه أشد الناس شرًا- والعياذ بالله- وفي الحديث الآخر الذي سيأتي: «إن من شرار الخلق من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يبنون المساجد على القبور» لأنهم فتحوا للنّاس باب الشرك بهذا الفعل، وتسبّبوا في انحراف الأمة، وما حدث الشرك في هذه الأمة إلّا بسبب البناء على القبور.

ثم ذكر الشيخ عبارة لشيخ الإسلام ابن تيمية بعد الحديث وهي قوله: «فهؤلاء» يعني: اليهود والنصارى.

«جمعوا بين فتنتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل» فتنة القبور هي الغلو في القبور، وتعظيم القبور حتى تتخذ متعبدات، هذه فتنة عظيمة في الأمم السابقة وفي هذه الأمة.

والفتنة الثانية: فتنة التماثيل، وهي فتنة قديمة كما في قصة قوم نوح، فقوم نوح إنما وقع الشرك فيهم بسبب نصب التماثيل، ووقع الشرك في اليهود بسبب تمثال العِجل الذي عمله السامري، ووقع الشرك في النصارى بسبب نصب الصليب على صورة المسيح بزعمهم، ويُخشى أن يقع الشرك في هذه الأمة بسبب نصب التماثيل للعلماء والعباد الصالحين، فهذه فتنة عظيمة، حذّر منها النبي ﷺ.

قال: «ولهما» أي: البخاريّ ومسلم.

«عنها قالت: لما نُزل برسول الله «يعني: نزل به الموت -عليه الصلاة والسلام.

....

«طَفِقَ» طَفِقَ: من أفعال الشروع عند أهل اللغة، أي: جعل يفعل كذا.

«يطرح خميصة» أي: يضعها، والخميصة: كساء له أعلام، أي فيه خطوط.

«على وجهه» يغطّي وجهه ﷺ بها وهو في هذه الحالة.

«فإذا اغتم بها» أي: ضيّقت نفسه- عليه الصلاة والسلام.

«كشفها» من أجل أن يتنفّس.

«فقال- وهو كذلك-» يعني: في هذه الحالة الحرجة، لم يشتغل عن الدعوة إلى التّوحيد، وإنكار الشرك، ونصيحة الأمة، صلوات الله وسلامه عليه.

قوله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى» اللعنة هي: الطرد والإبعاد من رحمة الله.

واليهود: الأمة المغضوب عليها، والنصارى: الأمة الضالة.

﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ المغضوب عليهم: اليهود، ومن اقتدى بهم من هذه الأمة، ممن علم ولم يعمل بعلمه، والضالون هم: النصارى الذين يعبدون الله على غير علم، بل بالبدع والمحدثات والخرافات من النصارى وكل من اقتدى بهم.

«اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يعني: أمكنة للعبادة يصلون عندها، يدعون الله عندها، ظنًّا منهم أن العبادة عند القبور أفضل من العبادة في الأمكنة الأخرى، مع أن العبادة عند القبور لا تجوز، لأنها وسيلة إلى الشرك.

قالت عائشة رضي الله عنها: «يحذّر ما صنعوا» أي: أن الذي حمل النبي ﷺ على أن يقول هذه الكلمة في هذه الحالة الحرِجة: أنه يحذّر أمته مما صنع اليهود والنصارى.

«ولولا ذلك» أي: ولولا الخوف من أن يحصل عند قبره ﷺ مثلما حصل عند قبور أنبياء بني إسرائيل.

«أبرز قبره» أي: لدفن في مكان بارز يراه الناس.

«ولكنه خَشي» بالفتح، أو «خُشي» بالضم.

....

«أن يتخذ قبره مسجدًا» يعني: مكان صلاة ودعاء، كما فعل اليهود والنصارى عند قبور أنبيائهم.

فقطعًا لهذه الذريعة وسدًّا لهذا الباب دُفِنَ - عليه الصلاة والسلام- في بيته في حجرة عائشة، داخل الجدران وتحت السقف، لا يراه أحد...

ويُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: تحريم البناء على القبور، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بالله عزّ وجلّ.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على تحريم العبادة عند القبر، حتى ولو لم يُبْنَ عليه بنيّة، لا بدعاء، ولا بصلاة، ولا بذبح، ولا بنذر، ولا بغير ذلك، وإنما هدي الإسلام أن القبور تُزار من أجل السلام على الأموات، والدعاء لهم بالمغفرة والرحمة، واتعاظ الزائر بأحوال الموتى.

المسألة الثالثة: فيه دليل على تحريم نصب الصور من التماثيل وغيرها، لأن ذلك وسيلة إلى الشرك بهذه الصور ولو على المدى البعيد، كما حصل لقوم نوح.

المسألة الرابعة: فيه دليل على أن النيّة الصالحة لا تسوغ العمل السيئ.

المسألة الخامسة: فيه دليل على جواز لعن الكفار وأصحاب الكبائر على وجه العموم، لأن النبي ﷺ لعن اليهود والنصارى، وهذا لعن على العموم، فلعن الكفار وأصحاب الكبائر على العموم لا بأس به لأجل التنفير في فعلهم، وأما لعن المعيّن ففيه خلاف.

المسألة السادسة: في الحديثين دليل على التحذير من التشبه بالنصارى، لأن البناء على القبور والصلاة عندها من هدي النصارى، ونحن منهيون عن هدي النصارى، ففي قول عائشة رضي الله عنها: «يحذّر ما صنعوا» دليل على النهي عن التشبه بالنصارى، ولاسيما في أمور العقيدة.

المسألة السابعة: أن الذين يبنون على القبور والذين يذهبون إليها للتعبد عندها هم شرار الخلق، لا أحد شرٌّ منهم، لأن معصيتهم فوق كل معصية.

٥٢) ولِمُسْلِمٍ عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِخَمْسٍ وهُوَ يَقُولُ: «إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ قَدِ اتَّخَذَنِي خَلِيلًا، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلًا، لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، أَلَا وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيائِهِمْ مَسَاجِدَ، أَلَا فَلَا تَتَّخِذُوا القُبُورَ مَسَاجِدَ، فَإِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ».

المسألة الثامنة: فيه دليل على أن المصورين هم شرار الخلق، لأن فعلهم هذا وسيلة إلى الشرك، ولأنه مضاهاة لخلق الله.

المسألة التاسعة: في الحديث دليل على وجوب الاهتمام بأمر العقيدة، والدعوة إليها قبل كل شيء من أنواع الفساد، نبدأ بإصلاح العقيدة قبل إصلاح الأمور الأخرى، لأن هذا منهج الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام.

المسألة العاشرة: في الحديث دليل على كمال حرصه ﷺ على أمته، ونصيحته لأمته، وأنه بلّغ البلاغ المبين حتى في آخر لحظة من حياته ﷺ، بل في حالة حرِجة، وهي حالة الاحتضار.

المسألة الحادية عشر: فيه دليل على بيان الحكمة من دفنه ﷺ في بيته.

وعدم دفنه في المقبرة العامة، وأن ذلك لأجل الحفاظ على عقيدة المسلمين من الغلو في حقه ﷺ، وأن يُفعل عند قبره كما فُعل عند قبور الأنبياء والصالحين في بني إسرائيل، هذا هو بيان الحكمة.

٥٢) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولمسلم عن جندب مرفوعًا: «لو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا».

«الخلة»: أعلى من المحبة، وفيه فضل الصديق -رضي الله عنه- وأنه أفضل الصحابة بالإجماع.

«ولو كنت متخذًا خليلًا لاتخذت أبا بكر خليلًا»: فلم يتخذه لئلا تزاحم محبته

فَقَدْ نَهَى عَنْهُ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، ثُمَّ إِنَّهُ لَعَنَ - وَهُوَ فِي السِّيَاقِ - مَنْ فَعَلَهُ، والصَّلَاةُ عِنْدَهَا مِنْ ذَلِكَ، وإِنْ لَمْ يُبْنَ مَسْجِدٌ، وهُوَ مَعْنَى قَوْلِهَا: خَشِيَ أَنْ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا، فَإِنَّ الصَّحَابَةَ لَمْ يَكُونُوا لِيَبْنُوا حَوْلَ قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وكُلُّ مَوْضِعٍ قُصِدَتْ الصَّلاةُ فِيهِ فَقَدْ اتُّخِذَ مَسْجِدًا، بَلْ كُلُّ مَوْضِعٍ يُصَلَّى فِيهِ يُسَمَّى مَسْجِدًا، كَمَا قَالَ ﷺ : «جُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا». ولأَحْمَدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ شِرَارِ النَّاسِ مَنْ تُدْرِكُهُمُ السَّاعَةُ وَهُمْ أَحْيَاءٌ وَالَّذِينَ يَتَّخِذُونَ القُبُورَ مَسَاجِدَ» رَوَاهُ أَبو حَاتِمٍ فِي صَحِيحِهِ.

محبة الله عز وجل.

«كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد»: وفي مسلم (أنبيائهم وصالحيهم مساجد) وسقطت اللفظة؛ لأنه نقلها من كتاب (اقتضاء الصراط المستقيم) وقد سقطت من هناك.

ومنع من هذا بثلاث طرق:

١- ذم ما فعلوه.

٢- قوله: لا تتخذوا.

٣- قوله: فإني أنهاكم عن ذلك.

وهذا مبالغة منه في النهي عن ذلك، لأنه وسيلة إلى الشرك كما حصل الآن.

«خشي أن يتخذ مسجدًا»: لأن الصلاة عند القبور اتخاذ لها مساجد، فكل موضع يصلى فيه فهو مسجد كما في الحديث: «وجعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا» فإذا صلى عند القبر اتخذ مسجدًا، وإن لم يبن فكيف إذا بني، وهذا من وسائل الشرك.

وقد ورد عن ابن مسعود مرفوعًا: «إن من شرار الناس من تدركهم الساعة، وهم أحياء والذين يتخذون القبور مساجد».

....

لأن الساعة لا تقوم إلا على شرار الخلق أما المؤمنون فتقبض أرواحهم قبل ذلك بالريح الطيبة.

والذين يتخذون القبور مساجد: أيضًا من شرار الناس؛ لأنهم يتسببون في وقوع الناس في الشرك والبدع والباطل؛ لأن الناس إذا رأوا هذا قالوا: ما دام أنه قد بني على هذا القبر فهذا القبر يدعى به، ويستغاث به.

لا يضر قرب المسجد من المقبرة، وإن فصل بينهم بطريق فهو أولى.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «بخمس»، أي: خمس ليال، لكن العرب تطلقها على الأيام والليالي.

قوله: «أبرأ»، البراءة: هي التخلي، أي: أتخلى أن يكون لي منكم خليل.

قوله: «خليل»، هو الذي يبلغ في الحب غايته، لأن حبه يكون قد تخلل الجسم.

قوله: «فإن الله قد اتخذني خليلًا كما اتخذ إبراهيم خليلًا»، هذا تعليل لقوله: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل»، فالنبي ﷺ ليس في قلبه خلة لأحد إلا الله - عز وجل.

قوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلًا، لاتخذت أبا بكر خليلًا».

وهذا نص صريح على أن أبا بكر أفضل من علي، رضي الله عنهما، وفي هذا رد على الرافضة الذين يزعمون أن عليًّا أفضل من أبي بكر.

قوله: «ألا فلا تتخذوا»، هذا تنبيه آخر للنهي عن اتخاذ القبور مساجد، وهذا عام يشمل قبره وقبر غيره.

قوله: «فإني أنهاكم عن ذلك» هذا نهي باللفظ دون الأداة تأكيدًا لهذا النهي لأهمية المقام.

قوله: «فقد نهي عنه في آخر حياته...» هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية.

وقوله: «فقد نهى عنه في آخر حياته» الضمير يعود إلى النبي ﷺ، والمنهي عنه هو اتخاذ القبور مساجد.

....

قوله: «ثم إنه لعن وهو في السياق من فعله»، فالنبي ﷺ وهو عند فراق الدنيا لعن من اتخذ القبور مساجد.

قوله: «والصلاة عندها من ذلك، وإن لم يبن مسجد».

«عندها»، أي: عند القبور، وقوله: «من ذلك»، أي: من اتخاذها مساجد.

قوله: «وهو معنى قولها: خشي أن يتخذ مسجدًا» الضمير في «قولها» يرجع إلى عائشة رضي الله عنها.

قوله: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا» هذا من كلام شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى.

قد يقال: «خشي أن يتخذ مسجدًا»، أي: مكانًا يصلى فيه، وإن لم يبن المسجد.

قوله: «وكل موضع قصدت الصلاة فيه، فقد اتخذ مسجدًا».

وهذا يشهد له العرف، فإن الناس الذين لهم مساجد في مكان أعمالهم، كالوزارات والإدارات لو سألت واحدًا منهم أين المسجد؟ لأشار إلى المكان الذي اتخذوه مصلى يصلون فيه، مع أنه لم يبن، لكن لما كانت الصلاة تقصد فيه، صار يسمى مسجدًا.

قوله: «بل كل موضع يصلى. . .»، فقوله: «مسجدًا»، أي: مكانًا للسجود، وهذا معنى ثالث زائد على المعنيين الأولين، وهو أن يقال: كل شيء تصلي فيه، فإنه مسجد ما دمت تصلي فيه، كما قال للسجادة التي تصلي عليها مسجد أو مصلى وإن كان الغالب عليها اسم مصلى.

قوله: «إن من شرار الناس»، من: للتبعيض، وشرار: جمع شر، مثل صحاب جمع صحب، والمعنى: أصحاب الشر، وفي هذا دليل على أن الناس يتفاوتون في الشر، وأن بعضهم أشد من بعض.

قوله: «من تدركهم الساعة»، من: اسم موصول اسم إن، والساعة، أي: يوم القيامة، وسميت بذلك لأنها داهية، وكل شيء داهية عظيمة يسمى ساعة، كما

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: مَا ذَكَرَ الرَّسُولُ ﷺ فِيمَنْ بَنَى مَسْجِدًا يُعْبَدُ اللهُ فِيهِ عِنْدَ قَبْرِ رَجُلٍ صَالِحٍ، ولَوْ صَحَّتْ نِيَّةُ الفَاعِلِ.

«الثَّانِيَةُ»: النَّهْيُ عَنِ التَّمَاثِيلِ، وغِلَظُ الأَمْرِ فِي ذَلِكَ.

«الثَّالِثَةُ»: العِبْرَةُ فِي مُبَالَغَتِهِ ﷺ فِي ذَلِكَ. كَيْفَ بَيَّنَ لَهُمْ هَذَا أَوَّلاً، ثُمَّ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ قَالَ مَا قَالَ، ثُمَّ لَمَّا كَانَ فِي السِّيَاقِ لَمْ يَكْتَفِ بِمَا تَقَدَّمَ.

يقال: هذه ساعتك في الأمور الداهية التي تصيب الإنسان.

قوله: «وهم أحياء»، الجملة حال من الهاء في «تدركهم».

قوله: «الذين يتخذون القبور مساجد»، فهم من شرار الخلق، وإن لم يشركوا، لأنهم فعلوا وسيلة من وسائل الشرك، والوسائل لها أحكام المقاصد، وإن كانت دون مرتبتها، لكنها تعطى حكمها بالمعنى العام، فإن كانت وسيلة لواجب صارت واجبة، وإن كانت وسيلة لمحرم، فهي محرمة.

فيه مسائل:

الأولى: ما ذكر الرسول ﷺ فيمن بنى مسجدًا يعبد الله فيه عند قبر رجل صالح، ولو صحت نية الفاعل، تؤخذ من لعن النبي ﷺ الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد.

قوله: «ولو صحت نية»، لأن الحكم علق على مجرد صورته، فهذا العمل لا يحتاج إلى نية لأنه معلق مجرد الفعل. . . .

الثانية: النهي عن التماثيل وغلظ الأمر في ذلك، تؤخذ من قوله: «وصوروا فيه تلك الصور»، ولا سيما إذا كانت هذه الصور معظمة عادة، كالرؤساء، والزعماء، والأب، والأخ، والعم.

أو شرعًا، مثل: الأولياء، والصالحين، والأنبياء، وما أشبه ذلك.

الثالثة: العبرة في مبالغته ﷺ في ذلك، كيف بين لهم هذا أولاً، ثم قبل موته بخمس قال ما قال؟! ثم لما كان في السياق لم يكتف بما تقدم. . . .

«الرَّابِعَةُ»: نَهْيُهُ عَنْ فِعْلِهِ عِنْدَ قَبْرِهِ قَبْلَ أَنْ يُوجَدَ القَبْرُ.
«الخَامِسَةُ»: أَنَّهُ مِنْ سُنَنِ اليَهُودِ والنَّصَارَى فِي قُبُورِ أَنْبِيَائِهِم.
«السَّادِسَةُ»: لَعْنُهُ إِيَّاهُمْ عَلَى ذَلِكَ.
«السَّابِعَةُ»: أَنَّ مُرَادَهُ ﷺ تَحْذِيرُهُ إِيَّانَا عَنْ قَبْرِهِ.
«الثَّامِنَةُ»: العِلَّةُ فِي عَدَمِ إِبْرَازِ قَبْرِهِ.
«التَّاسِعَةُ»: فِي مَعْنَى اتِّخَاذِهَا مَسْجِدًا.
«العَاشِرَةُ»: أَنَّهُ قَرَنَ بَيْنَ مَنِ اتَّخَذَهَا مَسْجِدًا وَبَيْنَ مَنْ تَقُومُ عَلَيْهِمُ

الرابعة: نهيه عن فعله عند قبره قبل أن يوجد القبر، تؤخذ من قوله: «ألا فلا تتخذوا القبور مساجد»، فإن قبره داخل في ذلك بلا شك، بل أول ما يدخل فيه.

الخامسة: أنه من سنن اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، تؤخذ من قوله ﷺ: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، وبئس رجل جعل إمامه اليهود والنصارى وتشبه بهم في قبيح أعمالهم.

السادسة: لعنه إياهم على ذلك، تؤخذ من قوله: «لعنة الله على اليهود والنصارى».

السابعة: أن مراده تحذيره إيانا عن قبره، تؤخذ من قول عائشة: «يحذر ما صنعوا» أي: ما صنعه اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم.

الثامنة: العلة في عدم إبراز قبره، تؤخذ من قول عائشة: «ولولا ذلك أبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا».

هناك علة أخرى، وهي: إخباره بأنه ما من نبي يموت إلا دفن حيث يموت.

التاسعة: في معنى اتخاذها مسجدًا، سبق أن ذكرنا أن لها معنيين:

- بناء المساجد عليها.
- اتخاذها مكانًا للصلاة تقصد فيصلى عندها، بل إن من صلى عندها ولم يتخذها للصلاة، فقد اتخذها مسجدًا بالمعنى العام.

العاشرة: أنه قرن بين من اتخذها مسجدًا وبين من تقوم عليه الساعة، فذكر

السَّاعَةُ، فَذَكَرَ الذَّرِيعَةَ إِلَى الشِّرْكِ قَبْلَ وُقُوعِهِ مَعَ خَاتِمَتِهِ.

«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: ذِكْرُهُ فِي خُطْبَتِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ بِخَمْسٍ: الرَّدُّ عَلَى الطَّائِفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ هُمَا شَرُّ أَهْلِ البِدَعِ، بَلْ أَخْرَجَهُمْ بَعْضُ السَّلَفِ مِنَ الثِّنْتَيْنِ والسَّبْعِينَ فِرْقَةً، وهُم الرَّافِضَةُ والجَهْمِيَّةُ. وبِسَبَبِ الرَّافِضَةِ حَدَثَ الشِّرْكُ وعِبَادَةُ القُبُورِ، وهُمْ أَوَّلُ مَنْ بَنَى عَلَيْهَا المَسَاجِدَ.

«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: مَا بُلِيَ بِهِ ﷺ مِنْ شِدَّةِ النَّزْعِ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: مَا أُكْرِمَ بِهِ مِنَ الخُلَّةِ.

الذريعة إلى الشرك قبل وقوعه مع خاتمته.

الحادية عشرة: ذكره في خطبته قبل موته بخمس الرد على الطائفتين اللتين هما أشر أهل البدع.

قوله: «قبل أن يموت بخمس»، أي: خمس ليال، والعرب يعبرون عن الأيام بالليالي وبالعكس.

قوله: «أشر أهل البدع»، يقال: أشر، ويقال: شر، بحذف الهمزة، وهو الأكثر استعمالاً.

وقول المؤلف: «وبسبب الرافضة حدث الشك، وعبادة القبور، وهم أول من بنى عليها المساجد»، ولهذا يجب الحذر من بدعتهم وبدعة الجهمية وغيرها، ولا شك أن البدع دركات بعضها أسفل من بعض، فعلى المرء الحذر من البدع، وأن يكون متبعًا لمنهج السلف الصالح في هذا الباب وفي غيره.

الثانية عشرة: ما بلي به ﷺ من شده النزع، تؤخذ من قولها: «طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها»، وفي هذا دليل على شدة نزعه، وهكذا كان الرسول ﷺ يمرض ويوعك كما يوعك الرجلان[1] من الناس، وهذا من حكمة الله عز وجل ، فهو ﷺ شدد عليه البلاء في مقابلة دعوته وأوذي إيذاء عظيمًا.

---

(١) البخاري: كتاب المرضى/ باب أشد الناس بلاء الأنبياء (٥٣٢٣)، ومسلم: كتاب البر والصلة/ باب ثواب المؤمن فيما يصيبه من مرض أو حزن (٢٥٧١).

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهَا أَعْلَى مِنَ المَحَبَّةِ.
«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ»: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الصِّدِّيقَ أَفْضَلُ الصَّحَابَةِ.
«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ»: الإِشَارَةُ إِلَى خِلافَتِهِ.

الثالثة عشرة: ما أكرم به من الخلة، ويدل عليها قوله ﷺ: «إن الله اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً»، ولا شك أن هذه الكرامة عظيمة، لأننا لا نعلم أحدًا نال هذه المرتبة إلا رسول الله ﷺ وإبراهيم ﷺ.

الرابعة عشرة: التصريح بأنها أعلى من المحبة، ودليل ذلك أنه ﷺ كان يحب أبا بكر، وكان أحب الناس إليه، فأثبت له المحبة، ونفى عنه الخلة، فدل هذا على أنها أعلى من المحبة، والتصريح ليس من هذا الحديث فقط، بل بضمه إلى غيره، فقد ورد من حديث آخر أنه صرح: «بأن أبا بكر أحب الرجال إليه»[1]، ثم قال هنا «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً» فدل على أن الخلة أعلى من المحبة.

الخامسة عشرة: التصريح بأن الصديق أفضل الصحابة، تؤخذ من قوله ﷺ: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً»، فلو كان غيره أفضل منه عند النبي ﷺ، لكان أحق بذلك.

السادسة عشرة: الإشارة إلى خلافته، لم يقل التصريح، وإنما قال: الإشارة، لأن النبي ﷺ لم يقل: إن أبا بكر هو الخليفة من بعده، لكن لما قال: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً، لاتخذت أبا بكر خليلاً» علم أنه رضي الله عنه أولى الناس برسول الله ﷺ، فيكون أحق الناس بخلافته.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «ولمسلم عن جُندب بن عبد الله» هو: جُندب بن عبدالله البَجَلي، رضي الله تعالى عنه.

«قال: سمعت النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس» يحتمل أن المراد: خمس سنين، ويحتمل أن المراد: خمس ليال.

---

(١) البخاري: الفضائل (٣٤٦٢)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب فضائل أبي بكر (٢٣٨٤).

....

«وهو يقول: إني أبرأ إلى الله» البراءة معناها: نفي الشيء والابتعاد عنه، كما يقال: برأ القلم إذا قطعه وأبعد جزءًا منه، فالبرء هو: البعد والانقطاع، فـ «أبرأ إلى الله» أي: أبتعد عن ذلك وأكرهه.

«أن يكون لي منكم خليل» من الصحابة، فليس له من الصحابة خليل، والسبب في ذلك أن الله اتخذه خليلاً، والخُلّة لا تقبل الاشتراك، فلا يمكن أن يكون خليل الله وخليل أحد من الخلق، لأن الخُلّة لابد أن تكون لواحد، لا تقبل الاشتراك، والخُلّة هي أعلى درجات المحبة.

ثمّ قال ﷺ: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً» يعني: على فرض لو صحّ لي وجاز لي أن أتخذ من أمتي خليلاً «لاتخذت أبا بكر خليلاً» فهذا فيه فضيلة أبي بكر الصديق- رضي الله تعالى عنه- وأنه أحب الناس إلى رسول الله ﷺ.

وفي قوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» هذا فيه إشارة إلى استخلاف أبي بكر من بعده لأن الرسول ﷺ قال هذا في آخر حياته، كما أنه ﷺ في مرض موته أمر أبا بكر أن يصلي بالناس، ولما قيل له عن عمر؛ أبى وغضب، وأمر أن يُؤمر أبو بكر أن يصلّي بالناس، فهذا فيه إشارة إلى خلافته.

ثمّ قال ﷺ: «ألا وإن من كان قبلكم» «ألا»: حرف تنبيه، «وإن من كان قبلكم يتخذون القبور مساجد» يعني أن اليهود والنصارى يغلون في قبور الأنبياء ويبنون عليها المساجد ويصلون عندها.

«ألا فلا تتخذوا القبور مساجد» كرّر كلمة «ألا» مرة ثانية لأجل التنبيه والتأكيد. ومعنى اتخاذها مساجد أي: مصليات.

ثمّ لم يقتصر على هذا، بل قال: «فإني أنهاكم عن ذلك» تأكيد بعد تأكيد، لأهمية هذا الأمر.

ثم نقل الشَّيخ رحمه الله كلام شيخ الإسلام ابن تيمية فقال: «فقد نهى عنه في آخر حياته» يعني: قبل أن يموت بخمس- كما في حديث جُندب.

«ثم إنه لعن- وهو في السياق-» في سياق الموت، كما في حديث عائشة الذي

....

سبق: أنه ﷺ لما نزل به جعل يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك- يعني: في هذه الحالة الحرِجة-: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

قالت عائشة رضي الله عنها: يحذّر ما صنعوا، ولولا ذلك لأُبرز قبره، غير أنه خُشي أن يتخذ مسجدًا.

قال الشيخ: «فإن الصحابة لم يكونوا ليبنوا حول قبره مسجدًا» لأنهم معصومون عن ذلك رضي الله عنهم، ولا يمكن ذلك أبدًا في حقهم، بل لم تبن المساجد في القرون الأربعة كلها، لأن القرون الأربعة أثنى عليها رسول الله ﷺ بقوله: «خيركم قرني، ثمّ الذين يلونهم، ثمّ الذين يلونهم».

فالحاصل؛ أن معنى اتخاذ القبور مساجد يشمل معنيين:

المعنى الأول: الصلاة عندها وإن لم يُبن مسجد، وهذا هو المعنى المراد من الأحاديث.

والمعنى الثاني: بناء المساجد فيها والقِباب، وهذا- أيضًا- منهي عنه، فإن النبي ﷺ قال لعلي بن أبي طالب: «لا تدع قبرًا مشرفًا إلّا سوّيته» يعني: إلّا هدمته، وسوّيته بالأرض، لأن هذا يفتن الناس، ويصبح وسيلة من وسائل الشرك...

ثمّ قال: «ولأحمد» أي: لأحمد بن حنبل رحمه الله.

«بسند جيد، عن ابن مسعود مرفوعًا» إلى النبي ﷺ، يعني: وليس من كلام ابن مسعود، وإنما هو من كلام الرسول ﷺ.

«إن من شرار النّاس» شرار جمع: شر، وشر أفعل تفضيل، بمعنى أشر، أي: أشدّ الناس شرًّا.

«الذين تدركهم الساعة» أي: قيام الساعة، وذلك عند نفخة الصعق التي يموت بها الخلق- إلّا من شاء الله-، وهي المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا مَن شَآءَ ٱللَّهُ﴾ صعقوا أي: ماتوا مرة واحدة من أثر الصعقة.

....

فالذين يحضرون هذا الحدث الهائل- وهو: نفخة الصعق- هم شرار الناس، لأن المؤمنين يموتون قبل ذلك، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله، الله» لأنه إذا كان فيها من يقول: الله، الله، ويذكر الله فالحياة تبقى في هذه الدنيا، لأن ذكر الله والتّوحيد والعبادة عِمارة لهذه الأرض، فإذا فُقد ذلك استحق أهلها العقوبة، فيحصل بذلك الموت العام.

يُستفاد من هذين الحديثين مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: يُستفاد من الحديثين إثبات المحبة لله سبحانه وتعالى، وأنها صفة من صفاته، وأنه يحب أولياءه ورسله، ويحب عباده المؤمنين.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على أن الخُلّة أعلى درجات المحبة، ولذلك لم تحصل إلّا للخليلين: محمد وإبراهيم- عليهما الصلاة والسلام- أما بقية الأنبياء والصالحين فإن الله يحبهم، لكن لم تصل محبتهم إلى مرتبة الخُلّة.

المسألة الثالثة: فيه دليل على فضل الخليلين: محمّد وإبراهيم - عليهما الصلاة والسلام- حيث نالا هذه المرتبة التي لم ينلها أحد غيرهم.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على فضل أبي بكر الصدّيق، لأن الرسول ﷺ قال: «لو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فهذا فيه فضيلة أبي بكر، وفيه إشارة إلى استخلافه من بعده.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على تحريم الصلاة عند القبور، وبناء المساجد عليها، لأن قوله ﷺ: «فلا تتخذوا القبور مساجد» يشمل المعنيين.

المسألة السادسة: في الحديث دليل على بطلان الصلاة عند القبور، أو في المساجد المبنيّة على القبور، لأن الرسول ﷺ نهى عن ذلك.

المسألة السابعة: في الحديث دليل على أن الذين يتخذون القبور مساجد شرار الخلق، فالذين يفعلون هذا الفعل سواء كانوا من اليهود أو من النصارى أو من المنتسبين إلى الإسلام هم شر الخلق، لا أحد شر منهم، والعياذ بالله.

المسألة الثامنة: أن الحديث يدل على أن الساعة لا تقوم على أهل الإيمان،

٥٣) ٢١-بابٌ

ما جاءَ أَنَّ الغُلُوَّ فِي قُبُورِ الصَّالِحِينَ يُصَيِّرُهَا أَوْثَانًا تُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ.

رَوَى مَالِكٌ فِي المُوَطَّإِ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اللَّهُمَّ لَا تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَنًا يُعْبَدُ، اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ» ولابنِ جَرِيرٍ بِسَنَدِهِ عَنْ سُفْيَانَ عَنْ مَنْصُورٍ عَنْ مُجَاهِدٍ: «أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ والعُزَّى» قَالَ: كَانَ يَلُتُّ لَهُمُ السَّوِيقَ فَمَاتَ فَعَكَفُوا عَلَى قَبْرِهِ، وكَذَلِكَ قَالَ أَبُو الجَوْزَاءِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: كَانَ يَلُتُّ السَّوِيقَ لِلحَاجِّ.

وإنما تقوم على الكفار.

٥٣) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وهذا صحيح كما سبق، فالغلو يجعل المغلو فيه معبودًا من دون الله، ولهذا لما غلا أناس في بعض الصالحين جعلوها تعبد من دون الله كقبر الصالحين من الحسن والحسين وفاطمة وغير ذلك، وهكذا هذه الأمة غلوا في الرسول فعبدوه، واستغاثوا به ودعوه من دون الله، وفي سابق الزمان لما غلا قوم نوح في الصالحين أدى إلى عبادتهم، وتقدم ذلك.

روى مالك في «الموطأ» أن رسول الله ﷺ قال: **«اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».**

روي مرسلاً عن عطاء بن يسار وزيد بن أسلم وروي متصلاً عن أبي سعيد الخدري عن النبي.

«اشتد غضب الله»؛ لأنهم جعلوها أوثانًا تعبد من دون الله حيث بنوا عليها المساجد فعظموها فطافوا بها واستغاثوا بها ونذروا لها، فاللات لما غلا فيه أهل الطائف صار معبودًا من دون الله فهذه سنة الأولين والآخرين، فالبناء على القبور وتعظيمها يصيرها أوثانًا تعبد وإن لم يعبدوها الآن فالوسائل تجر إلى الغايات.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** هذا الباب له صلة بما قبله، وهو

....

أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا تعبد من دون الله.

وفي «صحيح مسلم» قال علي بن أبي طالب لأبي الهياج الأسدي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟ ألّا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»[١]، وفي رواية: «ولا صورة إلا طمستها».

قوله: «الصالحين»، يشمل الأنبياء والأولياء، بل ومن دونهم.

قوله: «أوثانًا»، جمع وثن، وهو كل ما نصب للعبادة، وقد يقال له: صنم، والصنم: تمثال ممثل، فيكون الوثن أعم.

قوله: «تعبد من دون الله»، أي: من غيره، وهو شامل لما إذا عبدت وحدها أو عبدت مع الله، لأن الواجب في عبادة الله إفراده فيها، فإن قرن بها غيره صارت عبادة لغير الله، وقد ثبت في الحديث القدسي أن الله تعالى يقول: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه».

قوله: «اللَّهُمَّ»، أصلها: يا الله! فحذفت يا النداء لأجل البداءة باسم الله، وعوض عنها الميم الدالة على الجمع، فكأن الداعي جَمَعَ قلبه على الله، وكانت الميم في الآخر لأجل البداءة باسم الله.

قوله: «لا تجعل قبري وثنًا يُعبد»، لا: للدعاء، لأنها طلب من الله، وتجعل: تصير، والمفعول الأول لها: «قبري»، والثاني: «وثنًا».

وقوله: «يعبد»، صفة لوثن، وهي صفة كاشفة، لأنه الوثن هو الذي يعبد من دون الله.

قوله: «اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»، أي: جعلوها مساجد، إما بالبناء عليها، أو بالصلاة عندها، فالصلاة عند القبور من اتخاذها مساجد، والبناء عليها من اتخاذها مساجد.

قوله: «عن سفيان»، إما سفيان الثوري، أو ابن عيينة، وهذا مبهم، والمبهم يمكن معرفته بمعرفة شيوخه وتلاميذه، وفي الشـرح - أعني «تيسير العزيز الحميد»

(١) مسلم: كتاب الجنائز/ باب الأمر بتسوية القبر (٩٦٩).

....

يقول: الظاهر أنه الثوري.

قوله: «عن مجاهد»، هو مجاهد بن جبر المكي، إمام المفسرين من التابعين، ذكر عنه أنه قال: «عرضت المصحف على عبد الله بن عباس رضي الله عنهما من فاتحته إلى خاتمته، فما تجاوزت آية إلا وقفت عندها أسأله عن تفسيرها».

قوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ﴾، الهمزة: للاستفهام، والمراد به التحقير، والخطاب لعابدي هذه الأصنام اللات والعزى... إلخ....

قوله: ﴿اللَّاتَ﴾، «كان يلت لهم...» إلخ، على قراءة التشديد: من لت يلت، فهو لات.

أما على قراءة التخفيف، فوجهها أنها خففت لتسهيل الكلام، أي: حذف منها التضعيف تخفيفًا.

وقد سبق أنهم قالوا: إن اللات من الإله.

قوله: «السويق»، هو عبارة عن الشعير يحمص، ثم يطحن، ثم يخلط بتمر أو شبهه، ثم يؤكل.

وقوله: «كان يلت لهم السويق، فمات، فعكفوا على قبره»، يعني: ثم عبدوه وجعلوه إلهًا مع الله.

قوله: «وكذا قال أبو الجوزاء عن ابن عباس: كان يلت السويق للحاج»، والغريب أن الناس في جاهليتهم يكرمون حجاج بيت الله، ويلتون لهم السويق، وكان العباس أيضًا يسقي لهم من زمزم، وربما يجعل في زمزم نبيذًا يحليه زبيبًا أو نحوه، وفي الوقت الحاضر صار الناس بالعكس يستغلون الحجاج غاية الاستغلال.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله رحمه الله: «باب ما جاء» أي: من الوعيد.

«إن الغلو في قبور الصالحين» الغلو تقدم لنا معناه، وهو: الزيادة عن الحد المشروع.

والغلو في قبور الصالحين هو: الزيادة في تعظيمها، لأن ذلك يؤدي إلى

....

الشرك، لأن المشروع في قبور الصالحين- وقبور المسلمين عمومًا- احترامها، وعدم إهانتها، وصيانتها عن الأذى، وزيارتها للسلام على الأموات، والدعاء لهم، والاعتبار بأحوالهم، هذا هو المشروع، أما الغلو فهو قصدها للتبرّك، أو الدعاء عندها، أو الصلاة عندها رجاء الإجابة، هذا هو الغلو، لأن هذا لم يشرعه الله ولا رسوله، ولأنه وسيلة إلى الشرك.

«يصيّرها» أي: يجعلها في المستقبل، وعلى امتداد الزمان.

«أوثانًا تعبد» الأوثان: جمع وثن، والوثن ما عُبد من دون الله من قبر، أو شجر، أو حجر، أو بقاع، أو غير ذلك، أما الصنم فهو: ما عُبد من دون الله وهو على صورة إنسان أو حيوان...

قال «روى مالك» هو: مالك بن أنس إمام دار الهجرة وأحد الأئمة الأربعة المجتهدين: الذين هم أبو حنيفة، ومالك، والشافعي وأحمد أصحاب المذاهب الأربعة الباقية.

وهناك مذاهب لأهل السنة، لكن انقرضت، مثل: مذهب سفيان الثوري، ومذهب ابن جرير الطبري.

فمالك هو أحد الأئمة الأربعة المقلَّدين، وهو إمام جليل، يسمى بإمام دار الهجرة -يعني: المدينة-، ويسمى عالم المدينة، واشتهر في وقته، حتى قيل: لا يُفتى ومالك في المدينة، وذلك لعظيم منزلته وثقة النّاس به، رحمه الله رحمة واسعة.

«إن رسول الله ﷺ قال: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد» هذا دعاء من الرسول ﷺ، دعا به ربه أن يصون قبره من الغلو به، كما حصل لقبور الأنبياء السابقين من اليهود والنصارى حيث غلوا في قبور أنبيائهم، فقال: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يُعبد» فدلّ على أن الغلو في القبر يصيّره وثنًا، وهذا الشاهد من الحديث للباب، ولكن الله حماه ولله الحمد، حماه بأن دفن في بيته، ومُنع النّاس من الوصول إليه وسيبقى مصونًا- بإذن الله- استجابة لدعوة رسوله ﷺ.

....

وهذا فيه أن من جعل القبر مسجدًا فقد اتخذه وثنًا يُعبد.

ودلّ على أن هذه الأضرحة المبنية على القبور التي يُطاف بها الآن، وينذر لها، ويُذبح لها، ويُستغاث بها أوثان، لا فرق بينها وبين اللّات والعزّى ومناة الثالثة الأخرى، وإن سموها مساجد، أو سموها مقامات للصالحين، فالتسمية لا تغير المعنى، فهي أوثان كما سماها الرسول ﷺ.

ثم قال: «ولابن جرير» ابن جرير هو: الإمام الجليل، إمام المفسرين، محمَّد ابن جرير الطبري، صاحب كتاب «التفسير» الذي أصبح مرجعًا للمفسرين الذين جاءوا من بعده، فأعظم التفاسير هو تفسير ابن جرير، أما تفاسير أهل الكلام وأهل المنطق فليس مرجعها كتب أهل السنّة، بل مرجعها قواعد المنطق وعلم الكلام...

قال: «عن سفيان» سفيان هذا يحتمل أنه: سفيان بن عيينة، الإمام المشهور، ويحتمل أنه: سفيان الثوري، وهذا هو الذي رجّحه الشارح.

وسفيان الثوريّ إمام جليل في علم الحديث وفي علم الفقه، وله مذهب مستقلّ، لكنه انقرض.

«عن منصور» منصور هو: منصور بن المعتمر، إمام جليل وثقة.

«عن مجاهد» مجاهد بن جَبْر، التابعي الجليل، من أكبر تلاميذ عبد الله بن عباس- رضي الله تعالى عنهما...

«في قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ﴾ هذه أسماء أصنام العرب.

اللّات في الطائف، والعزى في مكّة عند عرفات، ومناة على طريق المدينة بالمشلّل عند قُدَيْد، كان يُحرِم منها المشركون إذا جاءوا للحج. والشاهد من ذلك: اللّات.

«قال: كان يَلُتُّ لهم السّويق » ولَتُّ السويق هو: خلطه بالسمن.

كان هذا الرجل يعمل هذا العمل من أجل إطعام النّاس، يعني: يُحسن إلى النّاس، فأحبوه، وتعلقت قلوبهم به، لأنه يبذل الطعام، فلما مات عكفوا على قبره حتى صار وثنًا.

٥٤) وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: «لَعَنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ زَائِرَاتِ القُبُورِ، والمُتَّخِذِينَ عَلَيْهَا المَسَاجِدَ والسُّرُجَ». رَوَاهُ أَهْلُ السُّنَنِ.

«فمات، فعكفوا على قبره» دل على أن الغلو في قبور الصالحين يصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله، لان اللّات رجل صالح ما صار قبره وثنًا إلَّا بسبب الغلو فيه، والعكوف عند قبره.

«وكذا قال أبو الجوزاء» وأبو الجوزاء هو: سفيان بن عبد الله الرَّبَعي.

«عن ابن عباس قال: كان يَلُتُّ السّويق للحاج» هذا مثل رواية ابن جرير، في أن اللات اسم رجل غلو في قبره حتى صار وثنًا يعبد.

٥٤) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث بن عباس: «لعن رسول الله ﷺ زائرات القبور والمتخذين عليها السرج والمساجد».

فيه حرمة زيارة القبور على النساء على الصحيح للأدلة، وكما في حديث حسان ابن ثابت وأبي هريرة بمعناه، فزيارة القبور مختصة بالرجال.

المسألة الثانية:

اتخاذ المساجد على القبور لما سبق من التشبه بأهل الكتابين؛ ولأنه وسيلة إلى الشرك.

مسألة:

لا يجوز زيارة النساء حتى إلى قبر النبي ﷺ على الصحيح؛ لأن الحديث عام.

وورد لفظ «زوارات» (١) لكن ورد أيضًا زائرات.

الحلف بالقرآن جائز؛ لأنه كلام الله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «لعن»، اللعن: هو الطرد والإبعاد عن رحمة الله، ومعنى «لعن رسول الله ﷺ»، أي: دعا عليهم باللعنة.

---

(١) رواه الترمذي (١٠٤٦)، وابن ماجه (١٥٧٦)، وأحمد (٢/ ٣٣٧، ٣٦٥)، والبيهقي (٤/ ٧٨).

....

قوله: «زائرت القبور»، زائرت: جمع زائرة، والزيارة هنا معناها: الخروج إلى المقابر، وهي أنواع:

منها ما هو سنة، وهي زيارة الرجال للاتعاظ والدعاء للموتى.

ومنها ما هو بدعة، وهي زيارتهم للدعاء عندهم وقراءة القرآن ونحو ذلك.

ومنها ما هو شرك، وهي زيارتهم لدعاء الأموات والاستنجاد بهم والاستغاثة ونحو ذلك.

وزائر: اسم فاعل يصدق بالمرة الواحدة، وفي حديث أبي هريرة: «لعن رسول الله ﷺ زوارات القبور»[١]، بتشديد الواو، وهي صيغة مبالغة تدل على الكثرة أي كثرة الزيارة.

وفي الحديث ما يدل على تحريم زيارة النساء للقبور، وأنها من كبائر الذنوب، والعلماء اختلفوا في ذلك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: تحريم زيارة النساء للقبور، بل إنها من كبائر الذنوب، لهذا الحديث.

القول الثاني: كراهة زيارة النساء للقبور كراهة لا تصل إلى التحريم، وهذا هو المشهور من مذهب أحمد عن أصحابه، لحديث أم عطية: «نهينا عن اتباع الجنائز، ولم يعزم علينا»[٢].

القول الثالث: أنها تجوز زيارة النساء للقبور، لحديث المرأة: التي مر النبي ﷺ بها وهي تبكي عند قبر، فقال لها: «اتقي الله واصبري». فقالت: إليك عني، فإنك لم تصب بمثل مصيبتي. فانصرف الرسول ﷺ عنها، فقيل لها: هذا رسول الله ﷺ. فجاءت إليه تعتذر، فلم يقبل عذرها، وقال: «إنما الصبر عند الصدمة الأولى»[٣]، فالنبي ﷺ شاهدها

---

(١) مسند الإمام أحمد (٢/ ٣٣٧)، والترمذي: الجنائز/ باب ما جاء في كراهة زيارة القبور للنساء، ٤/ ١٢ - وقال: «حسن صحيح».

(٢) البخاري: (١٢١٩)، ومسلم: (٩٣٨).

(٣) البخاري: كتاب الجنائز/ باب زيارة القبور (١٢٢٣)، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب في الصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى (٩٦٢).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الأَوْثَانِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ العِبَادَةِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَسْتَعِذْ إِلَّا مِمَا يُخَافُ وُقُوعُهُ.

«الرَّابِعَةُ»: قَرْنُهُ بِهَذَا اتِّخَاذَ قُبُورِ الأَنْبِيَاءِ مَسَاجِدَ.

«الخَامِسَةُ»: ذِكْرُ شِدَّةِ الغَضَبِ مِنَ اللهِ.

عند القبر ولم ينهها عن الزيارة، وإنما أمرها أن تتقي الله وتصبر.

ولما ثبت في «صحيح مسلم»[1] من حديث عائشة الطويل، وفيه: أن النبي ﷺ خرج إلى أهل البقيع في الليل، واستغفر لها ودعا لهم، وأن جبريل أتاه في الليل وأمره، فخرج ﷺ مختفيًا عن عائشة، وزار ودعا ورجع، ثم أخبرها الخبر، فقالت: ما أقول لهم يا رسول الله؟ قال: «قولي: السلام عليكم يا أهل الديار من المؤمنين والمسلمين...» إلخ.

قالوا: فعلمها النبي ﷺ دعاء زيارة القبور، وتعليمه هذا دليل على الجواز.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الأوثان، وهي: كل ما عبد من دون الله، سواء كان صنمًا أو قبرًا أو غيره.

الثانية: تفسير العبادة، وهي: التذلل والخضوع للمعبود خوفًا ورجاء ومحبة وتعظيمًا، لقوله: «لا تجعل قبري وثنًا يعبد».

الثالثة: أنه ﷺ لم يستعذ إلا مما يخاف من وقوعه، وذلك في قوله: «اللَّهُمَّ لا تجعل قبري وثنًا يعبد».

الرابعة: قرنه بهذا اتخاذ قبور الأنبياء مساجد، وذلك في قوله: «اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

الخامسة: ذكر شدة الغضب من الله، تؤخذ من قوله: «اشتد غضب الله».

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز/ باب ما يقال عند دخول القبر (٩٧٤).

«السَّادِسَةُ» : وهِيَ مِنْ أَهَمِّهَا - مَعْرِفَةُ صِفَةِ عِبَادَةِ اللَّاتِ الَّتِي هِيَ مِنْ أَكْبَرِ الأَوْثَانِ.

«السَّابِعَةُ» : مَعْرِفَةُ أَنَّهُ قَبْرُ رَجُلٍ صَالِحٍ.

«الثَّامِنَةُ» : أَنَّهُ اسْمُ صَاحِبِ القَبْرِ، وذِكْرُ مَعْنَى التَّسْمِيَةِ.

«التَّاسِعَةُ» : لَعْنُهُ زَوَّارَاتِ القُبُورِ.

«العَاشِرَةُ» : لَعْنُهُ مَنْ أَسْرَجَهَا.

وفيه: إثبات الغضب من الله حقيقة، لكنه كغيره من صفات الأفعال التي نعرف معناها ولا نعرف كيفيتها.

وفيه أنه يتفاوت كما ثبت في الحديث الصحيح حديث الشفاعة: «إن ربي غضب اليوم غضبًا لم يغضب مثله قبله ولا بعده».

السادسة- وهي من أهمها -: معرفة صفة عبادة اللات التي هي من أكبر الأوثان: وذلك في قوله: «فمات، فعكفوا على قبره».

السابعة: معرفة أنه قبر رجل صالح، تؤخذ من قوله: «كان يلت لهم السويق»، أي: للحجاج، لأنه معظم عندهم، والغالب لا يكون معظمًا إلا صاحب دين.

الثامنة: أنه اسم صاحب القبر، وذكر معنى التسمية، وهو أنه كان يلت السويق.

التاسعة: لعنه زوارات القبور، أي: النبي ﷺ، وذكر رحمه الله لفظ: «زوارات القبور» مراعاة للفظ الآخر.

العاشرة: لعنه من أسرجها، وذلك في قوله: «والمتخذين عليها المساجد والسرج».

وهنا مسألة مهمة لم تذكر، وهي: أن الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا كما في قبر اللات.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لعن رسول الله ﷺ» اللعن هو: الطرد والإبعاد عن رحمة الله عزّ وجلّ.

....

ومعنى «لعن رسول الله»: دعا عليهم باللعنة.

فهذا فيه دليل على لعن أصحاب الكبائر.

«زائرات القبور» أي: النساء اللاتي تزور القبور.

فدلّ هذا على تحريم زيارة النساء للقبور، وهذا مذهب جمهور أهل العلم، أنه لا يجوز للنساء أن تزور القبور لهذا الحديث.

قال العلماء: لأن المرأة ضعيفة، فإذا رأت قبر قريبها من ابنها، أو أبيها، أو أخيها، أو زوجها، فإنها لا تملك نفسها من النياحة ومن الجزع.

وأيضًا: المرأة عورة، فإذا ذهبت إلى المقابر واختلطت بالرجال حصل من ذلك فواحش وزنى وشر، لأنها فتنة، كما هو الواقع الآن عند الأضرحة من اختلاط النساء بالرجال، وما يحصل من المفاسد.

وذهب بعض العلماء إلى جواز زيارة النساء للقبور أخذًا من عموم قوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، فزوروها فإنها تذكر بالآخرة» قالوا: هذا لفظ عام يدخل فيه الرجال والنساء.

والجواب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: أن قوله: «فزوروها» هذا الخطاب للرجال، وخطاب الرجال لا تدخل فيه النساء.

الوجه الثاني: أنه على فرض أن هذا الخطاب عام للرجال والنساء، فإنه مخصوص بهذا الحديث.

واحتجّوا أيضًا بأن عائشة رضي الله عنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن. قالوا: فهذا دليل على جواز زيارة النساء للقبور.

والجواب عن ذلك: أن فعل عائشة هذا محمول على أنها لم يبلغها النهي، ولو بلغها النهي لم تكن لتخالف رسول الله ﷺ.

والجواب الثاني: وعلى فرض أنها بلغها هذا الحديث، فهذا اجتهاد منها، ولا شك أن الحجة في حديث رسول الله ﷺ لا في اجتهاد المجتهدين.

....

قوله: «زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسُّرج» أما لعنه المتخذين عليها المساجد فهذا سبق في قوله ﷺ: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وأما لعنة المتخذين عليها السّرج، فالمراد بذلك: إضاءة المقبرة بالأنوار. لأن هذا وسيلة إلى الغلو في القبور، ويُفضي إلى الشرك، فإن هذا يجلب إليها أنظار النّاس والجُهّال، ثمّ يزورونها، ويتردّدون عليها، ثمّ يئول هذا إلى الشرك، فلا يجوز أن تُضاء المقابر، بل تُجعل المقابر خالية من الإضاءة، وإذا احتاج النّاس إلى دفن ميّت في الليل فإنهم يأخذون معهم سراجًا، كما فعل النبي ﷺ والصحابة عند الدفن بالليل.

وفي هذه النصوص فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن الغلو في قبور الأنبياء يصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله.

الفائدة الثانية: أن الله سبحانه صان قبر رسوله ﷺ، وأجاب دعاءه، فحفظ من الغلو فيه، وأحيط بالجُدارن التي تمنع الوصول إليه.

الفائدة الثالثة: فيه أن العكوف على قبور الصالحين يصيّرها أوثانًا تُعبد من دون الله، كما حصل لقبر اللّات، فإنه صار وثنًا بسبب العكوف عنده بعد موته.

الفائدة الرابعة: فيه الردّ على من زعم أن البناء على قبور الصالحين من محبة الصالحين، ويقولون: أنتم لا تبنون على قبور الصالحين لأنكم تبغضون الصالحين.

ففي هذا الحديث وهذه الآية ردٌّ عليهم وأن البناء على قبورهم والغلو فيها ليس من محبتهم، وإنما هو من اتخاذهم أوثانًا تُعبد من دون الله.

الفائدة الخامسة: في الحديث دليل على تحريم زيارة النساء للقبور، وهو مخصِّص لقوله ﷺ: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها».

۞ ۞ ۞

٥٥) ٢٢-بابٌ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ المُصْطَفَى ﷺ جَنَابَ التَّوحِيدِ

وسَدِّهِ كُلَّ طَرِيقٍ يُوصِلُ إِلَى الشِّرْكِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ الآية [التوبة: ١٢٨].

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، ولَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ» رَوَاهُ أَبُو دَاودَ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ، وَرُوَاتُهُ ثِقَاتٌ.

---

٥٥) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: بين المؤلف بهذه الترجمة ما جاء به النبي ﷺ وحمايته التوحيد من الأقوال والأفعال الشركية.

«وجناب الشيء» : الجزء منه، وحمى التوحيد: زائد على الجانب؛ فالثانية أبلغ من الأولى؛ لأن الأولى في الجانب، والثانية في الحمى، وهنا ذكر الوسائل الفعلية لحماية التوحيد من الشرك، وفي باب حماية التوحيد وسد طرق الشرك -وسيأتي ذكره- فيه الحماية القولية أي: حمى التوحيد بالتحذير من الشرك، وما يوصل إليه من أقوال وأفعال.

قـولـه: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ وهذا وصف له والخطاب لقريش وللامة كلها، ولهم خاصة؛ لأنهم يعرفونه ويعرفون نسبه، وأنه منهم وفي قراءة شاذة﴿مِنْ أَنفَسِكُم﴾ [(١)] من أشرفكم.

﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ : أي: شاق عليه الشيء الذي يضركم يتعبكم؛ لرحمته بكم وحبه لكم، وحريص على هدايتكم وتحذيركم من النار بأعماله وأقواله، وهو

---

(١) الحاكم (٢/ ٢٤٠)، وقال ملا على القارئ في «شرح الشفاء» (١/ ٨١) وهي قراءة شاذة مروية عن فاطمة وعائشة.

....

رءوف بالمؤمنين عطوف عليهم ولكنه شديد على أعداء الله؛ لكفرهم وضلالهم فهذه أوصافه فإن كانت هذه حاله فالواجب اتباعه ومحبته، ولكن حصل العكس فعادوه حتى أرادوا قتله، ثم من كانت هذه صفاته؛ فإنه لا يترك أمته بدون نصح، لذلك أمر بالتوحيد وحث الناس على الاستقامة وحذر من الشرك وأسبابه بأقواله الكثيرة كحديث: **«لا تطروني كما أطرت النصارى. . . إياكم والغلو. . . هلك المنتطعون»**.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا ولا تجعلوا. . .»**.

«عيدًا»: بتكرار المجيء إليه والدعاء عنده أو الصلاة عنده أو الاستغاثة به ونحو ذلك، والعيد هو ما يتكرر ويعود كل مرة، ولا يدخل في هذا زيارته عليه الصلاة والسلام بدون شد الرحل وبدون غلو فيها وعبادة عندها.

«لا تجعلوا بيوتكم قبورًا»: أي: مثل القبور لا يصلى فيها، ولا يقرأ عندها بل صلوا فيها واقرءوا، وفي الحديث: **«اجعلوا من صلاتكم في بيوتكم ولا تتخذوها قبورًا»**(١) فدل على أن القبور لا يصلى فيها ولا يقرأ عندها، والذي يصلى في البيوت: النوافل.

«صلوا علي»: حث على الصلاة عليه ﷺ.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «حماية»، من حمى الشيء، إذا جعل له مانعًا يمنع من يقرب حوله، ومنه حماية الأرض عن الرعي فيها، ونحو ذلك.

قوله: «جناب»، بمعنى جانب، والتوحيد، تفعيل من الوحدة، وهو إفراد الله تعالى بما يجب له من الربوبية والألوهية والأسماء والصفات.

قوله: «وسده كل طريق»، أي: مع الحماية لم يدع الأبواب مفتوحة يلج إليها من شاء، ولكنه سد كل طريق يوصل إلى الشرك، لأن الشرك أعظم الذنوب، قال

---

(١) رواه البخاري (٤٣٢، ١١٨٧)، ومسلم (٧٧٧).

....

تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨].

قوله: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، الجملة مؤكدة بثلاثة مؤكدات: القسم، واللام، وقد، وهي مؤكدة لجميع مدخولها بأنه رسول، وأنه من أنفسهم، وأنه عزيز عليه ما يشق علينا، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، فالقسم منصب على كل هذه الأوصاف الأربعة.

والخطاب في قوله: ﴿جَآءَكُمْ﴾ قيل: للعرب، لقوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، فالرسول ﷺ من العرب، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ﴾ [الجمعة: ٢]. . . .

قوله: ﴿عَزِيزٌ﴾، أي: صعب، لأن هذه المادة العين والزاي في اللغة العربية تدل على الصلابة، ومنه: «أرض عزاز»، أي: صلبة قوية، والمعنى: أنه يصعب عليه ما يشق عليكم، ولهذا بعث بالحنيفية السمحة، وما خير بين شيئين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، وهذا من التيسير الذي بعث به الرسول ﷺ.

قوله: ﴿مَا عَنِتُّمْ﴾، ﴿مَآ﴾: مصدرية، وليست موصولة، أي: عنتكم، أي: مشقتكم، لأن العنت بمعنى المشقة، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥]. . . .

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، الحرص: بذل الجهد لإدراك أمر مقصود، والمعنى: باذل غاية جهده في مصلحتكم، فهو جامع بين أمرين: دفع المكروه الذي أفاده قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾، وحصول المحبوب الذي أفاده قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾، فكان النبي ﷺ جامعًا بين هذين الوصفين، وهذا من نعمة الله علينا وعلى الرسول ﷺ أن يكون على هذا الخلق العظيم الممثل بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

قوله: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ﴾: جار ومجرور خبر مقدم، و﴿رَءُوفٌ﴾: مبتدأ مؤخر، و﴿رَّحِيمٌ﴾: مبتدأ ثان، وتقديم الخبر يفيد الحصر.

والرأفة: أشد الرحمة وأرقها.

....

قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، أي: لا معبود حق حقيق بالعبادة سوى الله عز وجل.

قوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾، عليه: جار ومجرور متعلق بتوكلت، وقدم للحصر.

والتوكل: هو الاعتماد على الله في جلب المنافع ودفع المضار مع الثقة به، وفعل الأسباب النافعة.

وقوله: ﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ مع قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ فيها جمع بين توحيدي الربوبية والعبودية، والله تعالى يجمع بين هذه الأمرين كثيرًا، ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣].

قوله: ﴿وَهُوَ رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، الضمير يعود على الله سبحانه.

و﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ﴾، أي: خالقه، وإضافة الربوبية إلى العرش - وإن كانت ربوبية الله - عامة تشريفًا للعرش وتعظيمًا له.

ومناسبة التوكل لقوله: ﴿رَبُّ ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡعَظِيمِ﴾، لأن من كان فوق كل شيء ولا شيء فوقه، فإنه لا أحد يغلبه، فهو جدير بأن يتوكل عليه وحده.

وقوله: ﴿فَقُلۡ حَسۡبِيَ ٱللَّهُ﴾، أي: كافيني، وهكذا يجب أن يعلن المؤمن اعتماده على ربه، ولاسيما في مثل هذا المقام الذي يتخلى الناس عنه، لأنه قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾.

وهذه الكلمة -كلمة الحسب- تقال في الشدائد، قالها إبراهيم حين ألقي في النار، والنبي ﷺ وأصحابه حين قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣].

قوله: «لا تجعلوا»، الجملة هنا نهي، فلا ناهية، والفعل مجزوم وعلامة جزمه حذف النون، والواو فاعل.

قوله: «بيوتكم»، جمع بيت، وهو مقر الإنسان وسكنه، سواء كان من طين أو حجارة أو خيمة أو غير ذلك، وغالب ما يراد به الطين والحجارة.

قوله: «قبورًا»، مفعول ثان لتجعلوا، وهذه الجملة اختلف في معناها، فمنهم

....

من قال: لا تجعلوها قبورًا، أي: لا تدفنوا فيها، وهذا لا شك أنه ظاهر اللفظ، ولكن أورد على ذلك دفن النبي ﷺ في بيته.

وأجيب عنه بأن من خصائصه ﷺ، فالنبي ﷺ دفن في بيته لسببين:

ما روي عن أبي بكر أنه سمع النبي ﷺ يقول: «ما من نبي يموت إلا دفن حيث قبض»، وهذا ضعفه بعض العلماء.

ما روته عائشة رضي الله عنها: «أنه خشي أن يتخذ مسجدًا». . . .

قوله: «وصلوا علي»، هذا أمر، أي: قولوا: اللَّهُمَّ صل على محمد، وقد أمر الله بذلك في قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ تَسۡلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦].

وفضل الصلاة على النبي ﷺ معروف، ومنه: أن من صلى عليه مرة واحدة صلى الله عليه بها عشرًا.

قوله: «فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم»، حيث: ظرف مبني على الضم في محل نصب، ويقال فيها: حيث، وحوث، وحاث، لكنها قليلة.

كيف تبلغه الصلاة عليه؟

الجواب: نقول: إذا جاء مثل هذا النص وهو من أمور الغيب، فالواجب أن يقال: الكيف مجهول لا نعلم بأي وسيلة تبلغه، لكن ورد عن النبي ﷺ «أن لله ملائكة سياحين يسيحون في الأرض يبلغون النبي ﷺ سلام أمته عليه»(١)، فإن صح، فهذه هي الكيفية.

قوله: «رواه أبو داود بإسناد حسن، ورواته ثقات»، هذا التعبير من الناحية الاصطلاحية، ظاهره أن بينهما اختلافًا، ولكننا نعرف أن الحسن: هو أن يكون الراوي خفيف الضبط، فمعناه أن فيه نوعًا من الثقة، فيجمع بين كلام المؤلف رحمه الله وبين ما ذكره عن رواية أبي داود بإسناد حسن: أن المراد بالثقة ليس غاية

---

(١) النسائي: كتاب السهو/ باب السلام على النبي ﷺ، وقال ابن القيم في «جلاء الإفهام» (ص: ٢٣): «وهذا إسناد صحيح».

....

الثقة لأنه لو بلغ إلى حد الثقة الغاية لكان صحيحًا؛ لأن ثقة الراوي تعود إلى تحقيق الوصفين فيه، وهما: العدالة والضبط، فإذا خف الضبط خفت الثقة، كما إذا خفت العدالة أيضًا تخف الثقة فيه.

فيجمع بينهما على أن المراد: مطلق الثقة، ولكنه لا شك فيما أرى أنه إذا أعقب قوله: «حسن» بقوله: «رواته ثقات» أنه أعلى مما لو اقتصر على لفظ: «حسن».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «باب ما جاء في حماية المصطفى» المصطفى معناه: المختار، من الصفوة، أصله: مصتفى بالتاء، ثم أُبدلت التاء طاء، فصار مصطفى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِۚ﴾ يعني: يختار، ﴿وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ﴾، أي: المختارين، ومنهم: نبينا محمَّد ﷺ، بل هو خيرهم وأفضلهم، فهو المصطفى ﷺ، اختاره الله للرسالة، والقيام بدعوته على فترة من الرسل، وهو خاتم النبيين ﷺ.

وقوله: «جناب التّوحيد» الجناب هو: الجانب، فالجناب والجانب بمعنى واحد، أي: حمايته ﷺ حدود التّوحيد من أن يدخل عليه الشرك بسبب وسائل الشرك والتساهل فيها، فالرسول ﷺ حمى حدود التّوحيد حماية بليغة، بحيث أنه نهى عن كل سبب أو وسيلة توصِّل إلى الشرك، ولو كانت هذه الوسيلة في أصلها مشروعة كالصلاة، فإذا فُعلت عند القبور، فهو وسيلة إلى الشرك، ولو حسُنت نية فاعلها، فالنية لا تبرّر ولا تزكي العمل إذا كان يؤدي إلى محذور، والدعاء مشروع، ولكن إذا دعى عند القبر، فهذا ممنوع، لأنه وسيلة إلى الشرك بهذا القبر، هذا سدّ الوسائل.

فالرسول نهى عن الصلاة عند القبور، ونهى عن الدعاء عند القبور، ونهى عن البناء على القبور، ونهى عن العكوف عند القبور، واتخاذ القبور عيدًا، إلى غير ذلك، كل هذا من الوسائل التي تُفضي إلى الشرك، وهي ليست شركًا في نفسها، بل قد تكون مشروعة في الأصل، ولكنها تؤدي إلى الشرك بالله عزّ وجلّ، ولذلك

....

منعها ﷺ.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ وتمام الآية: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، هذه الآية في ختام سورة التوبة.

قوله تعالى: «﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾» اللّام لام القسم، تدلّ على قسم مقدّر، تقديره: والله لقد جاءكم، وقد حرف تحقيق...

«﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ﴾» أيها المسلمون عمومًا والعرب خصوصًا.

«﴿رَسُولٌ﴾» الرسول هو: من أوحي إليه بشرع وأُمر بتبليغه.

وأما النبي فهو: من أوحي إليه بشرع ولم يؤمر بتبليغه...

«﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾» أي: من جنسكم من العرب، تعرفون لسانه، ويخاطبكم بما تعرفون، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، فهذا من نعمة الله أن جعل هذا الرسول عربيًا يتكلم بلغتنا، ولم يجعله أعجميًا لا نفهم ما يقول، ولهذا قال: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُوا۟ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ﴾.

فمن رحمة الله أن جعل هذا الرسول يتكلم بلغتنا، ونعرف نسبه، ونعرف لغته، ولم يكن أجنبيًا لا نعرفه، أو يكن أعجميًا لا نفهم لغته، هذا من تمام النعمة على هذه الأمة، ولم يكن من الملائكة، وهم جنس آخر من غير بني آدم، بل هو من جنسنا، ويتكلم بلغتنا.

«﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ﴾» أي: شاقٌّ.

«﴿مَا عَنِتُّمْ﴾» العنت معناه: العنب والمشقّة، ومعناه: أن الرسول ﷺ يشق عليه ما يشق على أمته، وكان يحب لهم التسهيل دائمًا.

هذا من صفة هذا الرسول ﷺ أنه يحب التيسير لأمته، ويكره المشقة عليها.

«﴿بِالْمُؤْمِنِينَ﴾» وخاصة.

«﴿رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾» الرأفة هي: شدّة الشفقة، ﴿رَّحِيمٌ﴾ يعني: عظيم الرحمة

....

بأمته ﷺ، أما بالكفّار فإنه كان شديدًا على الكفّار، كما وصفه الله تعالى بذلك: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾...

فهذه الآية الكريمة مناسبة إيراد الشَّيخ رحمه الله قي هذا الباب: أنه إذا كان الرسول ﷺ متصفًا بهذه الصفات التي هي أنه: عربي، يتكلم بلساننا ونفهم لغته، وأنه يشق عليه ما يشق علينا، وأنه بالمؤمنين رءوف رحيم، فهل يليق بمن هذه صفاته أن يترك الأمة تقع في الشرك الذي يُبعدها عن الله، ويُسبب لها دخول النار؟ هل يليق بمن هذه صفاته أن يتساهل بأمر الشرك؟، أو أن يتركه ولا يهتم بالتحذير منه، لأن هذا هو أعظم الخطر على الأمة؟ وهذا هو الذي يشق على الأمة، لأنه يفسد عليها حياتها، ولا يجعل لها مستقبلاً عند الله عزّ وجلّ، لأن المشرك مستقبله النار، ليس له مستقبل إلّا العذاب، فهل يليق بهذا الرسول الذي هذه صفاته أن يتساهل في أمر الشرك؟ لا، بل اللّائق به أن يبالغ أشد المبالغة في حماية الأمة من الشرك، وقد فعل ﷺ، فقد سد كل الطرق الموصلة إلى الشرك بالأحاديث التي مرت في الأبواب السابقة.

قوله: (عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا» الحديث).

ثلاث كلمات قالها ﷺ في هذا الحديث:

الكلمة الأولى: قوله ﷺ: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا» يعني: لا تعطلوا البيوت من ذكر الله، ومن صلاة النافلة، وتلاوة القرآن...

الكلمة الثانية، قوله ﷺ: «ولا تجعلوا قبري عيدًا» العيد: اسم لما يعود ويتكرّر في اليوم أو في الأسبوع، أو في الشهر، أو في السنّة، سمي عيدًا من العود، وهو التكرّر.

والعيد ينقسم إلى قسمين: عيد زماني، وعيد مكاني.

فالعيد الزماني المشروع: عيد الفطر، وعيد الأضحى، هذه أعياد الإسلام المشروعة. والعيد الزماني الممنوع: أعياد الموالد، فهي الأعياد الزمانية المحرمة،

....

وأعياد الجاهلية التي كانوا يعملونها في الجاهلية، أعياد الفُرس: النيروز والمهرجان، وعيد الميلاد المسيحي، بل الميلاد النصراني ولا نقول المسيحي لأن الله برّأ المسيح من هذا، وإنما هو العيد النصراني، ومثله كل عيد فعله بعض المسلمين أو المنتسبين للإسلام مما لم يشرعه الله كعيد المولد للرسول، أو المولد للشيخ، أو الموالد للعظماء، أو لغير ذلك، كل هذه أعياد جاهلية، وهي أعياد زمانية جاهلية، لا يجوز عملها.

لأن الله شرع لنا عيدين: عيد الأضحى، وعيد الفطر، وكل عيد من هذين العيدين بعد أداء ركن من أركان الإسلام، فعيد الفطر بعد أداء ركن الصيام، وعيد الأضحى بعد أداء ركن الحج وهو الوقوف بعرفة...

أما الأعياد المكانية: فهي- أيضًا- تنقسم إلى قسمين:

أعياد شرعية، وأعياد محرّمة.

الأعياد الشرعية مثل الاجتماع في المساجد في اليوم والليلة خمس مرات، فهذا عيد مكاني مشروع.

كذلك الاجتماع في الأسبوع لصلاة الجمعة؛ هذا عيد الأسبوع عيد مكاني.

وكذلك من الأعياد المكانية المشاعر: المسجد الحرام، ومنى، وعرفة، ومزدلفة، التي يجتمع فيها المسلمون أيام الحج لأداء المناسك، هذه أعياد إسلامية مكانية.

أما الأعياد المكانية المحرمة، فهي: الاجتماع عند القبور، سواء قبر الرسول ﷺ أو قبر غيره، والسفر إلى القبور، والتردد على القبور من أجل الدعاء عندها، والصلاة عندها، ولهذا قال ﷺ: «لا تجعلوا قبري عيدًا» أي: مكانًا للعبادة، تصلون عنده، وتدعون عنده، وتترددون عليه...

الكلمة الثالثة الواردة في هذا الحديث قوله ﷺ: «وصلوا عليّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم» هذا أمر بالصلاة عليه ﷺ، وقد أمر الله بذلك في محكم كتابه فقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيۡهِ وَسَلِّمُواْ

....

تَسۡلِيمًا﴾، أمرنا الله بالصلاة والسلام على رسوله ﷺ، وذكر سبحانه أنه هو وملائكته يصلّون عليه.

والصلاة من الله: ثناؤه على عبده في الملأ الأعلى. والصلاة من الملائكة: الاستغفار ومن الآدميين الدعاء كما ذكر الإمام البخاري عن أبي العالية.

وقوله: «صلّوا عليّ» هذا أمر يفيد الوجوب، فالصلاة على النبي ﷺ مشروعة ومتأكدة، وتجب في بعض المواضع.

فتجب في الخطبتين للجمعة والعيد وخطبة الاستسقاء، وتجب الصلاة على رسول الله ﷺ في التشهد الأخير في الصلاة، وكذلك تجب الصلاة على رسول الله عند ذكره ﷺ، وتستحب في بقية الأحوال، وكلما أكثر الإنسان من الصلاة على الرسول ﷺ كثر أجره، كما قال ﷺ: «من صلّى عليّ واحدة صلى الله عليه بها عشرًا».

قوله: «فإن صلاتكم تبلغني» فالله جل وعلا وكّل بصلاة المصلين على النبي ﷺ من يبلغ الرسول إياها وهو في قبره ﷺ، ففي أي مكان صليت عليه فإن صلاتك تبلغه ولو كنت في المشرق أو في المغرب...

وفي هذا الحديث دليل على أنه ليس للصلاة عليه عند قبره خاصية، بل إذا قصد الإنسان القبر لأجل الصلاة عليه فهذا منهي عنه، لكن إذا قصد قبره للسلام عليه ويصلي عليه فهذا مشروع، فتسلم وتصلي على الرسول عند قبره إذا قدمت من سفر، أما أن تقصده من أجل أن تجلس أو تقف وتصلي عليه دائمًا فهذا غير مشروع، لأنه مطلوب منك الصلاة والسلام عليه في أي مكان.

❁ ❁ ❁

٥٦) وعَنْ عَلِيِّ بنِ الحُسَيْنِ رضي الله عنه : أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا يَجِيءُ إِلَى فُرْجَةٍ كَانَتْ عِنْدَ قَبْرِ النَّبِيِّ ﷺ ، فَيَدْخُلُ فِيهَا فَيَدْعُو، فَنَهَاهُ، وقَالَ: أَلَا أُحَدِّثُكُمْ حَدِيثًا سَمِعْتُهُ مِنْ أَبِي عَنْ جَدِّي عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، ولَا بُيُوتَكُمْ قُبورًا، وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ تَسْلِيمَكُمْ لَيَبْلُغُنِي أَيْنَ كُنتُم». رَوَاهُ فِي المُخْتَارَةِ.

---

٥٦) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وعن علي بن الحسين أنه رأى رجلًا يجيء إلى فرجة، كانت عند قبر النبي ﷺ فيدخل فيها.

علي بن الحسين: هو زين العابدين.

فيصلي على النبي ﷺ في أي مكان في البيت والسوق والطريق، ولا يخصوا السلام والصلاة عليه عند القبر، ولهذا أنكر علي بن الحسين على الرجل وبين له أن هذا ليس بمشروع وأنك تسلم عليه وتمضي لا تجلس عند القبر تدعو.

هذه سنة جاءت عن أهل البيت وكلهم بينوا أن اتخاذ القبر عيدًا وسيلة إلى الشرك إذا عكفوا عليه عنده وصلوا عنده ودعوا عنده جرهم هذا إلى الشرك والغلو فحسم النبي المادة، ومن اتخاذ القبور مساجد والبناء عليها وتجصيصها وفرشها يؤدي إلى اعتقاد العامة أنها معظمة، وأنها تنفع، وكل هذا قد وقع مع أن النبي ﷺ قد حمى جناب التوحيد، وحذر من الشرك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «وعن علي بن الحسين»، هو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، يسمى بزين العابدين، من أفضل أهل البيت علمًا وزهدًا وفقهًا.

والحسين معروف: ابن فاطمة رضي الله عنها، وأبوه: علي رضي الله عنه.

قوله: «يجيء إلى فرجة»، هذا الرجل لا شك أنه لم يتكرر مجيئه إلى هذه الفرجة إلا لاعتقاده أن فيها فضلًا ومزية، وكونه يظن أن الدعاء عند القبر، له مزية فتح باب ووسيلة إلى الشرك، بل جميع العبادات إذا كانت عند القبر، فلا يجوز أن

فِيهِ مَسَائِلُ: «الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ ﴿بَرَآءَةٌ﴾.

«الثَّانِيَةُ»: إِبْعَادُهُ أُمَّتَهُ عَنْ هَذَا الحِمَى غَايَةَ البُعْدِ.

«الثَّالِثَةُ»: ذِكْرُ حِرْصِهِ عَلَيْنَا ورَأْفَتِهِ ورَحْمَتِهِ.

«الرَّابِعَةُ»: نَهْيُهُ عَنْ زِيَارَةِ قَبْرِهِ عَلَى وَجْهٍ مَخْصُوصٍ، مَعَ أَنَّ زِيَارَتَهُ مِنْ أَفْضَلِ الأَعْمَالِ.

يعتقد أن لها مزية، سواء كانت صلاة أو دعاء أو قراءة، ولهذا نقول: تكره القراءة عند القبر إذا كان الإنسان يعتقد أن القراءة عند القبر أفضل.

قوله: «فنهاه»، أي: طلب منه الكف....

قوله: «رواه في المختارة»، الفاعل مؤلف المختارة، والمختارة: اسم الكتاب، أي: الأحاديث المختارة.

والمؤلف هو عبد الغني المقدسي، من الحنابلة.

وما أقل الحديث في الحنابلة، يعني المحدثين، وهذا من أغرب ما يكون، يعني أصحاب الإمام أحمد أقل الناس تحديثًا بالنسبة للشافعية.

فالحنابلة غلب عليهم رحمهم الله الفقه مع الحديث، فصاروا محدثين وفقهاء، ولكنهم رحمهم الله بشر، فإذا أخذ من هذا العلم صار ذلك زحامًا للعلم الآخر، أما الأحناف، فإنهم أخذوا بالفقه، لكن قلت بضاعتهم في الحديث، ولهذا يسمون أصحاب الرأي (يعني: العقل والقياس)، لقلة الحديث عندهم، والشافعية أكثر الناس عناية بالحديث والتفسير، والمالكية كذلك، ثم الحنابلة وسط، وأقلهم في ذلك الأحناف مع أن لهم كتبًا في الحديث.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية براءة، وسبق ذلك في أول الباب.

الثاني: إبعاده ﷺ أمته عن هذا الحمى غاية البعد، تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا».

الثالثة: ذكر حرصه علينا ورأفته ورحمته، وهذا مذكور في آية براءة.

الرابعة: نهيه عن زيارة قبره على وجه مخصوص، تؤخذ من قوله: «ولا تجعلوا

«الخَامِسَةُ»: نَهْيُهُ عَنِ الإِكْثَارِ مِنَ الزِيَارَةِ.

«السَّادِسَةُ»: حَثُّهُ عَلَى النَّافِلَةِ فِي البَيْتِ.

«السَّابِعَةُ»: أَنَّهُ مُتَقَرِّرٌ عِنْدَهُمْ أَنَّهُ لا يُصَلَّى فِي المَقْبَرَةِ.

«الثَّامِنَةُ»: تَعْلِيلُهُ ذَلِكَ بِأَنَّ صَلَاةَ الرَّجُلِ وسَلَامَهُ عَلَيْهِ يَبْلُغُهُ وإِنْ بَعُدَ، فَلَا حَاجَةَ إِلَى مَا يَتَوَهَّمُهُ مَنْ أَرَادَ القُرْبَ.

«التَّاسِعَةُ»: كَوْنُهُ ﷺ فِي البَرْزَخِ تُعْرَضُ أَعْمَالُ أُمَّتِهِ فِي الصَّلَاةِ والسَّلَامِ عَلَيْهِ.

قبري عيدًا»، فقوله: «عيدًا» هذا هو الوجه المخصوص...

الخامسة: نهيه عن الإكثار من الزيارة، تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا قبري عيدًا»، لكنه لا يلزم منه الإكثار، لأنه قد لا يأتي إلا بعد سنة، ويكون قد اتخذه عيدًا، فإن فيه نوعًا من الإكثار.

السادسة: حثه على النافلة في البيت، تؤخذ من قوله: «ولا تجعلوا بيوتكم قبورًا»، وسبق أن فيها معنيين:

المعنى الأول: ألَّا يقبر في البيت، وهذا ظاهر الجملة.

والثاني: الذي هو من لازم المعنى ألَّا تترك الصلاة فيها.

السابعة: أنه متقرر عندهم أنه لا يصلى في المقبرة، تؤخذ من قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبرًا»، لأن المعنى: لا تجعلوها قبورًا، أي: لا تتركوا الصلاة فيها، على أحد الوجهين، فكأنه من المتقرر عندهم أن المقابر لا يصلى فيها.

الثامنة: تعليل ذلك بأن صلاة الرجل وسلامه عليه يبلغه وإن بعد، فلا حاجة إلى ما يتوهمه من أراد القرب، أي: كونه نهى ﷺ أن يجعل قبره عيدًا، العلة في ذلك: أن الصلاة تبلغه حيث كان الإنسان...

التاسعة: كونه ﷺ في البرزخ تعرض أعمال أمته في الصلاة والسلام عليه، أي: فقط فكل من صلى عليه أو سلم عرضت عليه صلاته وتسليمه، ويؤخذ من قوله: «فإن تسليمكم يبلغني حيث كنتم».

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «عن علي بن الحسين» أحد أعلام التابعين، وهو علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب، وجدّته فاطمة بنت الرسول ﷺ، وأبو جدّته هو رسول الله ﷺ، فهو من بيت النبوّة، وهو يلقب بزين العابدين، وهو من كبار أئمة التابعين، رضي الله تعالى عنه.

«أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرْجَة كانت عند قبر النبي ﷺ» قبر الرسول ﷺ في بيته، في حجرة عائشة، وفي أحد الجدران فُرْجَة، أي: نَقْبٌ في الجدار، رآه هذا الرجل، فصار يتردد، ويأتي ويدخل من هذه الفُرْجَة، ويدعو عند قبر النبي ﷺ، فلما رآه علي بن الحسين رحمه الله نهاه عن ذلك، قال له: لا تفعل هذا، لا تتردد على قبر الرسول، ولا تدع عنده. وهذا من إنكار المنكر، ولاسيما ما يؤدي إلى الشرك. . .

ثم قال: «رواه في المختارة» المختارة: كتاب اسمه: الأحاديث الجياد المختارة» ومؤلفه هو: عبد الله بن محمَّد بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي، ألّف هذا الكتاب، وجمع فيه الأحاديث الجياد الزائدة على ما في الصحيحين، فهو كالمستدرك، لكنها أحسن من «مستدرك الحاكم».

ما يُستفاد من الآية الكريمة ومن الحديثين:

أولاً: يستفاد من الآية: امتنان الله على هذه الأمة ببعثة هذا الرسول ﷺ، وهي نعمة عظيمة. . .

المسألة الثانية: في الآية دليل على صفات عظيمة من صفاته ﷺ:

الصفة الأولى: ﴿رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ .

الثانية: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ .

الثالثة: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ .

الرابعة: ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ﴾ .

الخامسة: ﴿رَّحِيمٌ﴾ .

خمس صفات من صفاته ﷺ.

....

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على أنه ﷺ قد سدّ الطريق المُفضية إلى الشرك...

المسألة الرابعة: حديث أبي هريرة يدلّ على وجوب العناية بالبيوت- بيوت المسلمين- وعمارتها بالعبادة، وإبعاد وسائل الشر عنها، وهذه مسألة عظيمة يجب التنبه لها في هذا الزمان أكثر من غيره.

المسألة الخامسة: فيه أن القبور لا تصلح للصلاة عندها من مفهوم حديث أبي هريرة، فدلّ على أن القبور لا تصلح للصلاة عندها، وللدعاء، ولا للعبادة، وإنما هذا إما أن يكون في بيوت المسلمين إذا كان نافلة وإما أن يكون في بيوت الله المساجد إذا كان فريضة.

المسألة السادسة: في حديث أبي هريرة النهي عن التردد على قبره ﷺ، والقيام أو الجلوس عنده، والدعاء والصلاة ﷺ...

المسألة السابعة: في حديث أبي هريرة أن الرسول سدّ الطريق المُفضية إلى الشرك، بنهيه عن اتخاذ قبره عيدًا، لأن هذا من وسائل الشرك، ومن الطرق الموصلة إلى الشرك.

المسألة الثامنة: في حديث أبي هريرة مشروعية الصلاة عليه ﷺ في أي مكان.

المسألة التاسعة: في الحديث النهي عن التردّد على قبر الرسول ﷺ من أجل الصلاة عليه والسلام عليه، لأن هذا وسيلة إلى الشرك...

المسألة العاشرة: في حديث علي بن الحسين رحمه الله وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتعليم الجاهل...

المسألة الحادية عشرة: في الحديث دليل على أن من أنكر شيئًا أو أمر بشيء فإنه يُطالب بالدليل...

المسألة الثانية عشرة: في عموم الآية والحديثين أن النبي ﷺ سدّ الطرق المُفضية إلى الشرك، وهو الشاهد للباب من الآية والحديثين.

المسألة الثالثة عشرة: في الحديثين دليل على أن الرسول ﷺ تبلغه صلوات أمته

٥٧) ٢٣-بابٌ

ما جَاءَ أَنَّ بَعْضَ هَذِهِ الأُمَّةِ يَعْبُدُ الأَوْثَانَ، وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ﴾. [المائدة: ٦٠]

عليه في أي مكان كانوا من الأرض، وهذا مما يحث المسلمين على الإكثار من الصلاة والسلام عليه.

٥٧) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: باب ما جاء من أحاديث وآيات تدل على ذلك، وأنها غير معصومة من الوقوع في الشرك، وكما دخل الناس في دين الله أفواجًا صاروا يخرجون منه، وقد وقع في عهد الصديق من الردة ما وقع.

وقول الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾.

أخبر الله أن أناسًا من أهل الكتاب يؤمنون بالجبت، وهو السحر والطاغوت والشيطان: ﴿وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَـٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا﴾ وهذه مقالة اليهود ككعب بن الأشرف وحيي بن أخطب قالوا: إن قريشًا أهدي من محمد وأصحابه، وهم يعلمون أنه على الحق؛ فقالوا عنادًا وحسدًا وبغضًا وخلافًا لما معهم، فهم أوتوا نصيبًا -أي: حظًا- من الكتاب، لكن لم يعملوا به بل خالفوه وآمنوا بالجبت والطاغوت وقالوا: هؤلاء أهدى سبيلاً، فإن كان هذا قد وقع من اليهود فسيقع من هذه الأمة؛ لحديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» فدل على أن هذا سيكون في أمة محمد ﷺ من يكفر ويقول إن الكفرة أهدى من أتباع النبي ﷺ وهو وقع قديمًا، ويقع الآن ممن يفضلون اليهود والنصارى على هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ ۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ ٱلْقِرَدَةَ وَٱلْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّـٰغُوتَ ۚ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ [الكهف: ٢١].

فإذا كان من قبلنا عبد الطاغوت، وهو الشيطان، وكل ما يعبد من دون الله فهكذا يوجد في هذه الأمة من يعبد الطاغوت والأوثان لحديث: «لتتبعن سنن من كان قبلكم».

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

فإذا كان في الأمم الماضية من اتخذوا المساجد على القبور وعظموها فكذلك في هذه الأمة، وقد وقع هذا آخر القرن الأول من الرافضة الذين بنوا المساجد، وعظموا القبور، ثم تبعهم من يدعي الإسلام كما هو حال المسلمين كما في الحديث الآتي.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «أن بعض هذه الأمة»، أي: لا كلها، لأن في هذه الأمة طائفة لا تزال منصورة على الحق إلى قيام الساعة، لكنه سيأتي في آخر الزمان ريح تقبض روح كل مسلم، فلا يبقى إلا شرار الناس.

وقوله: «تعبد»، بفتح التاء، وفي بعض النسخ: «يعبد»، بفتح الياء المثناة من تحت.

فعلى قراءة «يعبد» لا إشكال فيها، لأن «بعض» مذكر.

وعلى قراءة «تعبد»، فإنه داخل في قول ابن مالك:

وربما أكسب ثان أولا ... تأنيثًا إن كان لحذف موهلا

ومثلوا لذلك قولهم: قطعت بعض أصابعه، فالتأنيث هنا من أجل أصابعه لا من أجل بعض.

فإذا صحت النسخة «تعبد»، فهذا التأنيث اكتسبه المضاف من المضاف إليه.

قوله: «الأوثان»، جمع وثن، وهو: كل ما عبد من دون الله.

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾، الاستفهام هنا للتقرير والتعجيب، والرؤية بصرية بدليل أنها عديت بإلى، وإذا عديت بإلى صارت بمعنى النظر.

والخطاب إما للنبي ﷺ، أو لكل من يصح توجيه الخطاب إليه، أي: ألم تر أيها المخاطب؟

....

قوله: ﴿إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ﴾ ، أي: أعطوا، ولم يعطوا كل الكتاب، لأنهم حرموا بسبب معصيتهم، فليس عندهم العلم الكامل بما في الكتاب.

قوله: ﴿نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ﴾ المنزل.

والمراد بالكتاب: التوراة والإنجيل....

قوله: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ ، أي: يصدقون بهما، ويقرونهما لا ينكرونهما، فإذا أقر الإنسان هذه الأوثان، فقد آمن بها.

وقوله: ﴿أُنَبِّئُكُم﴾ ، أي: أخبركم، والاستفهام هنا للتقرير والتشويق، أي: سأقرر عليكم هذا الخبر.

قوله: ﴿بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ﴾ ، شر: هنا اسم تفضيل، وأصلها أشر لكن حذفت الهمزة تخفيفًا لكثرة الاستعمال، ومثلها كلمة خير مخففة من أخير، والناس مخففة من الإناس، وكذا كلمة الله مخففة من الإله.

قوله: ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، مثوبة: تمييز لشر، لأن شر اسم تفضيل، وما جاء بعد أفعل التفضيل مبينًا له يكون منصوبًا على التمييز...

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، أي: في عمله وجزائه عقوبة أو ثوابًا.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ، من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله، لأن الاستفهام انتهى عند قوله ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، وجواب الاستفهام: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ولعنه، أي: طرده وأبعده عن رحمته.

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ ، أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام.

قوله: ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، أي: في عمله وجزائه عقوبة أو ثوابًا.

قوله: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ، من: اسم موصول خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هو من لعنه الله، لأن الاستفهام انتهى عند قوله ﴿مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِ﴾ ، وجواب الاستفهام: ﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾ ولعنه، أي: طرده وأبعده عن رحمته.

....

قوله: ﴿وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾، أي: أحل عليه غضبه، والغضب: صفة من صفات الله الحقيقية تقتضي الانتقام من المغضوب عليه، ولا يصح تحريفه إلى معنى الانتقام.

قوله: ﴿وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ﴾... والإشارة هنا إلى اليهود، فإنهم لعنوا كما قال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ الآية [المائدة: ٧٨].

وجعلوا قردة بقوله تعالى: ﴿كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة: ٦٥]، وغضب الله عليهم بقوله: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾ [البقرة: ٩٠].

الآية الثالثة قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، هذه الآية في سياق قصة أصحاب الكهف، وقصتهم عجيبة، كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ [الكهف: ٩]، وهم فتية آمنوا بالله وكانوا في بلاد شرك، فخرجوا منها إلى الله عز وجل، فيسر الله لهم غارًا، فدخلوا فيه، وناموا نومة طويلة بلغت ﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] وهم نائمون لا يحتاجون إلى أكل وشرب، ومن حكمة الله أن الله يقلبهم ذات اليمين وذات الشمال حتى لا يترسب الدم في أحد الجانبين، ولما خرجوا بعثوا بأحدهم إلى المدينة ليشتري لهم طعامًا، وآخر الأمر أن أهل المدينة اطلعوا على أمرهم، وقالوا: لابد أن نبني على قبورهم مسجدًا....

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله رحمه الله: «باب ما جاء» أي: من الأدلة في الكتاب والسنة.

«أن بعض هذه الأمة» يعني: وليس كلها، فالأمة لا تجتمع على ضلالة- ولله الحمد- بل يبقى فيها من يثبت على الحق، كما قال ﷺ: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله»، فهذه الأمة لا تضل كلها، وإنما يضل الكثير، ولكن يبقى من هذه الأمة من يثبت على الحق إلى أن تقوم الساعة. فهذا من فضل الله ورحمته.

....

ولهذا قال المصنف رحمه الله: «أن بعض هذه الأمة»، وهذا من دقة فقهه رحمه الله، وعدم تسرعه في الأحكام، بخلاف الذين يكفرون عوام الأمة كما عليه بعض الكتاب المعاصرين.

«يعبد الأوثان» أي: يشرك بالله عزّ وجلّ.

قال: «وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾»، هذا استفهام تقرير، أي: قد رأيت وعلمت يا محمَّد.

«﴿إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ﴾» أي: حظًّا من الكتاب فالنصيب: الحظ؛ والمراد بهم اليهود، لأن الله أعطاهم التوراة التي أنزلها على موسى- عليه الصلاة والسلام- من عند الله، فهو كتاب عظيم من عند الله.

وهذا من باب الإنكار عليهم، لأن المفروض أن الذي أوتي نصيبًا من الكتاب وعلم الحق يجب عليه أن يعمل به: فكونهم يخالفون الحق - وعندهم الكتاب- هذا دليل على غِلظ كفرهم وعنادهم.

«﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ﴾» أي: يصدقون بالجبت، وهو الشرك، أو السحر، أو الساحر، أو الكاهن، أو الشيطان، كل ذلك يسمى جبتًا.

«﴿وَالطَّاغُوتِ﴾» في اللغة: مأخوذ من الطغيان، وهو: مجاوزة الحد؛ والمراد به هنا: ما تجاوز به العبد حدّه من معبود، أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله، كله طاغوت.

«﴿وَيَقُولُونَ﴾» أي: يقول هؤلاء اليهود.

«﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾» وهم مشركوا قريش ﴿هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا﴾ أي: هؤلاء الكفار أهدى من الذين آمنوا سبيلاً، أي: منهج الكفار أهدى من منهج المسلمين المتبعين لمحمد ﷺ. هذا وهم عندهم الكتاب، ويعرفون الحق من الباطل.

والشاهد من الآية للباب: أنه إذا كان في اليهود من يؤمن بالجبت والطاغوت فسيكون في هذه الأمة من يفعل ذلك تشبّهًا بهم، لأن الرسول ﷺ أخبر أنه يكون

....

في هذه الأمة من يتشبه باليهود والنصارى، ومن ذلك: التشبه بهم في الإيمان بالجبت والطاغوت.

وكذلك يوجد في هذه الأمة من يمجّد الكفار، وينتقّص المسلمين، كما كان اليهود يقولون: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَهۡدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ سَبِيلًا﴾، فمن النّاس من يثني اليوم على دول الكفر والإلحاد، ويصفهم بصفات الكمال والعظمة، ويتنقص المسلمين، ويصفهم بالتأخر والرجعية، إلى آخره، فهذا شيء موجود.

فدلّ على أن هذه الأمة يقع فيها ما وقع في اليهود من الإيمان بالجبت والطاغوت، ومن الشرك بالله عزّ وجلّ...

قال: «وقوله تعالى: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ تمام الآية: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ شَرّٞ مَّكَانٗا وَأَضَلُّ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾، هذه الآية في الرد على الذين يسخرون من المسلمين ومن دينهم من اليهود والنصارى والوثنيين.

يقول تعالى: ﴿هَلۡ أُنَبِّئُكُم﴾ أي: أخبركم والاستفهام هنا المراد به: التقرير والتوبيخ.

«﴿بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ﴾»: الذي زعمتم فينا.

«﴿مَثُوبَةً﴾» منصوب على التمييز، يعني جزاء عند الله سبحانه وتعالى.

«﴿مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ﴾» أي: طرده وأبعده من رحمته بسبب كفره، وهو أنتم أيها اليهود والنصارى.

«﴿وَغَضِبَ عَلَيۡهِ﴾» والغضب ضد الرضا، فالله جلّ وعلا يرضى عن عباده المؤمنين ويغضب على الكافرين، وغضبه لا يقوم له شيء، والمغضوب عليهم هم الذين عندهم علم ولم يعملوا به، لأنهم عصوا الله على بصيرة.

«﴿وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ﴾» مسخهم قردة وخنازير، بسبب كفرهم.

والشاهد في قوله: ﴿وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَۚ﴾ دلّ على أن في أهل الكتاب من يعبد كل الطاغوت، فلا بد أن يكون في هذه الأمة من يتشبّه بهم ويعبد الطاغوت...

٥٨) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَذْوَ القُذَّةِ بِالقُذَّةِ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اليَهُودَ والنَّصَارَى؟ قَالَ: «فَمَنْ»؟ أَخْرَجَاهُ.

قال: «وقوله تعالى: ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ هذا في قصة أصحاب الكهف، وذلك أن جماعة من الفِتيان في الزمان القديم آمنوا بالله، وأنكروا ما عليه أهل بلدهم من الشرك بالله، فلما ماتوا بنى قومهم عليهم مسجدًا لأجل التبرك بهم.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾ فقالوا: هؤلاء رجال صالحون، فيهم بركة، فيهم خير، نبني عليهم مسجدًا من أجل التبرُّك بهم، والصلاة عندهم، والدعاء عندهم، لأنهم من أولياء الله، ونفّذوا ذلك بقوة السلطة لا بقوة الحجة، لأنهم غلبوا على أمرهم، أي: تمكنوا من تنفيذ ما أرادوا بقوتهم.

فالشاهد من الآية: أنه كان في أول الخليقة من يبني المساجد على القبور، فلا بدّ أن يكون في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، تشبُّهًا بهم، وقد وقع هذا، ووُجِد في هذه الأمة من يبني المساجد على القبور، فدلّ على وقوع الشرك في هذه الأمة كما وقع في الأمم السابقة عن طريق التشبُّه والمحاكاة.

٥٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: عن أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة..».

«والقذة»: هي ريشة السهم، وتكون متساوية حتى يستعين بها الرامي على إصابة الهدف، فكما أن هذه تشبه هذه، فكذلك من وقع من كفار هذه الأمة أشبه بمن قبلهم في الشرك بالله وعبادة الأوثان والأصنام، وكما أنه وقع في الأولين من سب أتباع الأنبياء، فكذلك وقع في هذه الأمة من الرافضة والخوارج الذين سبوا الصحابة، وهكذا كل معصية وكفر وقع في السابقين سيقع في هذه الأمة، ومن ذلك الحديث الذي رواه البخاري مرفوعًا: «لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء

....

دوس حول ذي الخلصة»[١] ودوس: قبيلة في الجنوب في بلاد غامد وزهران فقد وقع في عهد قريب قبل هذه الدولة من عبد هذا الصنم، وطاف حوله، وسيقع مرة أخرى، وقال عليه الصلاة والسلام: «لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»[٢] وقد وقع.

وعن عائشة مرفوعًا: «لا تذهب الليالي والأيام حتى تعبد اللات والعزى»[٣] وسيقع هذا كله.

«مسألة»: حديث: «يئس الشيطان أن يعبد في جزيرة العرب»[٤] هذا يحتج به الجهال ولكن هل يئس معصوم؟ فهو ليس معصوم قد يئس من الشيء ويحصل فلما ظهر الدين يئس، ولكن الشرك وقع كما هو مشاهد وقد يرجو مسافة الشيء، ولا يحصل. وقيل: إنه يئس أن يعودوا كحالهم الأولى تمامًا؛ لأنه سيبقى طائفة من الأمة على الحق، وقيل: إن المراد: الصحابة لرواية (المصلين) و«أل»: للعهد، أي: المصلين الصحابة؛ لأن الله وفقهم ورزقهم العلم، وكل الإجابات الثلاثة صحيحة.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله في الحديث: «لتتبعن»، اللام موطئة للقسم، والنون للتوكيد، فالكلام مؤكد بثلاثة مؤكدات: القسم المقدر، واللام، والنون، والتقدير: والله لتتبعن.

قوله: «سنن من كان قبلكم»، فيها روايتان: «سُنَن» و «سَنَن».

أما «سنن» بضم السين: جمع سنة، وهي الطريقة.

وأما «سنن»، بالفتح: فهي مفرد بمعنى الطريق.

وفَعَل تأتي مفردة مثل: فنن جمعها أفنان، وسبب جمعها أسباب.

---

(١) رواه البخاري (٧١١٦) ومسلم (٢٩٠٦).

(٢) رواه أبو داود(٤٢٥٢).

(٣) رواه مسلم (٢٩٠٧).

(٤) رواه مسلم (٢٨١٢).

....

وقوله: «من كان قبلكم»، أي: من الأمم.

وقوله: «لتتبعن سنن من كان قبلكم» ليس على ظاهره، بل هو عام مخصوص، لأننا لو أخذنا بظاهره كانت جميع هذه الأمة تتبع سنن من كان قبلها، لكننا نقول: إنه عام مخصوص، لأن في هذه الأمة من لا يتبع كما أخبر النبي ﷺ أنه لا تزال طائفة من هذه الأمة على الحق...

قوله: «حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» هذه الجملة تأكيد منه ﷺ للمتابعة.

وجحر الضب من أصغر الجحور، ولو دخلوا جحر أسد من باب أولى أن ندخله، فالنبي ﷺ قال ذلك على سبيل المبالغة، كقوله ﷺ: «من اقتطع شبرًا من الأرض ظلمًا طوقه الله به يوم القيامة من سبع أرضين»، ومن اقتطع ذراعًا، فمن باب أولى.

قوله: «قالوا اليهود والنصارى» يجوز فيها وجهان:

الأول: نصب اليهود والنصارى على أنه مفعول لفعل محذوف تقديره: أتعني اليهود والنصارى؟

الثاني: الرفع على أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: أهم اليهود والنصارى؟

وعلى كل تقدير، فالجملة إنشائية لأنهم يسألون النبي ﷺ، فهي استفهامية، والاستفهام من باب الإنشاء.

قوله: «قال فمن»، من هنا: اسم استفهام، والمراد به التقرير، أي: فمن أعني غير هؤلاء، أو فمن هم غير هؤلاء؟ فالصحابة رضي الله عنهم لما حدثهم ﷺ بهذا الحديث كأنه حصل في نفوسهم بعض الغرابة، فلما سألوا قرر النبي ﷺ أنهم اليهود والنصارى.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «عن أبي سعيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لتتبعن» سبق أن اللّام هذه لام قسم، فهي على تقدير: والله لتتبعن، وأكّده بالنون الثقيلة.

٥٩) ولِمُسْلِمٍ عَنْ ثَوْبَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ : «إِنَّ اللَّهَ زَوَى لِيَ الأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ .وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي

«سنن» أي: طريق.

فالسَّنن- بالفتح-: الطريق، أما السُّنن- بالضم- فهي جمع: سنَّة، وهي الطرق.
فمن قرأه سَنَن فالمراد به: الطريق، وهذا هو المشهور.

ومن قرأه سُنَن فالمراد به: جمع سُنة وهي الطرق. والمعنى واحد.

«حَذْوَ القُذَّة بالقُذَّة» حَذْوَ: منصوب على الحال، والقُذَّة: ريشة السهم الذي يُرمى به، والمعنى: تُشبهونهم كما أشبهت ريشة السهم ريشة السهم الأخرى.

«حتى لو دخلوا جُحْر ضب لدخلتموه» الجُحر- بالضم- هو: السَّرَب الذي يكون في الأرض، ومنه جُحر الضب، لأنه يحفر جحرًا من أعسر الجحور، ومع هذا لو دخله اليهود والنصارى لكان في هذه الأمة من يفعل ذلك تقليدًا لهم.

وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فالتقليد والتشبه بالكفار قائم على قدم وساق بأتفه الأشياء وأحقر الأشياء، لا لشيء إلَّا لأنهم يفعلونه، والمقلد يرى أنهم أهل العقول، وأنهم أهل التقدم والحضارة، فيقلدهم من أجل ذلك.

- وهذا الحديث خبر بمعنى النهي، أي: لا تتشبّهوا بهم، ولا تقلّدوهم، وقد جاء النهي عن التشبّه بهم بقوله: «لا تشبّهوا باليهود والنصارى»، وقوله: «ومن تشبه بقوم فهو منهم».

٥٩) الشــرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولمسلم عن ثوبان أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زوى لي الأرض» .

«زوى» : أي: جمعها: فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وهذا معلم من معالم النبوة فقد وصل ملك هذه الأمة إلى أقصى المشرق، وإلى الصين، وإلى أقصى الغرب: المغرب وطنجة، وليس كذلك شمالاً وجنوبًا.

لأُمَّتِي أَلَّا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ ، وَأَلَّا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ : يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لا يُرَدُّ وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَلَّا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَلَّا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»

«إني أعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» : هي كنوز كسرى وقيصر، وكانا أعظم دولتين، دولة النصارى والوثنيين، وهذا ما حصل لهذه الأمة، وقد أنفقت كنوزهما في سبيل الله كما أخبر بذلك النبي عليه الصلاة والسلام في عهد عمر وعثمان، وهذا علم من أعلام النبوة.

«وإني سألت ربي لأمتي . . يستبيح بيضتهم» : البيضة: المجتمع والحوزة والخلاصة.

«بسنة عامة» : أي: هلاكًا عامًا كما جرى لقوم نوح وصالح وغيرهم؛ لأن هذه الأمة آخر الأمم ولما جعل الله في نبيها من الخير والبركة، وستبقى هذه الأمة إلى قيام الساعة.

«وألا يسلط عليهم عدوًا من سوء أنفسهم» : فاستجاب له، لكن قال الله: «حتى يهلك بعضهم بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا» أي: إذا تسلطوا فيما بينهم، وتقاتلوا سلط عليهم، وهذا ما حصل لما تفرقوا، واختلفوا طمع فيهم اعداؤهم، وأخذوا ما في أيديهم من أزمان طويلة.

«قضيت قضاء لا يرد» : أي: أن الله إذا أمر بشيء وقضاه وقدره لا يرده أحد، وقد سبق في علم الله أن هذه الأمة سيقع فيها الخلاف والنزاع وأن دعوته ﷺ لهم في أنهم لا يتقاتلون، ولا يتنازعون فيما بينهم لم تستجب، بل منع هذه الدعوة، ولهذا وقع النزاع في العهد الأول وما بعده كما حصل من التتار، وما حصل بعد ذلك من تسلط العدو عليهم بسبب عدم تمسكهم بالحق على الوجه الصحيح، وإن

....

الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، وبه يعلم أن الأمة لو اجتمعت على الحق، واستقامت وتعاونت، فإنها تغلب عدوها ويجمع الله لها الخير ومتى تفرقوا وتنازعوا طمع فيهم الأعداء وسهل عليهم أخذها والنيل منها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «زوى لي»، بمعنى جمع وضم، أي: جمع له الأرض وضمها.

قوله: «فرأيت»، أي: بعيني، فهي رؤية عينية، ويحتمل أن تكون رؤية منامية.

قوله: «مشارقها ومغاربها»، وهذا ليس على الله بعزيز، لأنه على كل شيء قدير، فمن قدرته أن يجمع الأرض حتى يشاهد النبي ﷺ ما سيبلغ ملك أمته منها.

وهل المراد هنا بالزوي أن الأرض جمعت، أو أن الرسول ﷺ قوي نظره حتى رأى البعيد؟

الأقرب إلى ظاهر اللفظ: أن الأرض جمعت، لا أن بصره قوي حتى رأى البعيد؟....

وقوله: «فرأيت مشارقها ومغاربها»، أي أماكن الشرق والغرب منها.

قوله: «وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها»، والمراد: أمة الإجابة التي آمنت بالرسول ﷺ سيبلغ ملكها ما زوي للرسول ﷺ منها، وهذا هو الواقع، فإن ملك هذه الأمة اتسع من المشرق ومن المغرب اتساعًا بالغًا، لكنه من الشمال والجنوب أقل بكثير، والأمة الإسلامية وصلت من المشرق إلى السند والهند وما وراء ذلك، ومن المغرب إلى ما وراء المحيط، وهذا يحقق ما رآه النبي ﷺ.

قوله: «وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض»، الذي أعطاه هو الله.

والكنزان: هما الذهب والفضة كنوز كسرى وقيصر، فالذهب عند قيصر، والفضة عند كسرى، وكل منهما عنده ذهب وفضة، لكن الأغلب على كنوز قيصر الذهب، وعلى كنوز كسرى الفضة.

قوله: «وإني سألت ربي لأمتي ألّا يهلكها بسنة بعامة»، هكذا في الأصل: «بعامة»، والمعنى بمهلكة عامة، وفي رواية في بعض النسخ: «بسنة عامة».

....

السنة: الجدب والقحط، وهو يهلك ويدمر، قال ﷺ: «اللَّهُمَّ اجعلها عليهم سنين كسني يوسف»، وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٠]، ويحتمل أن يكون المعنى بعام واحد، فتكون الباء للظرفية.

وعامة، أي: عمومًا تعمهم، هذه دعوة.

قوله: «وألَّا يسلط عليهم عدوًّا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم» أي لا يسلط عليهم عدوًّا. والعدو: ضد الولي، وهو: المعادي المبغض الحاقد، وأعداء المسلمين هنا: هم الكفار، ولهذا قال: «من سوى أنفسهم».

ومعنى: "يستبيح": يستحل، والبيضة: ما يجعل على الرأس وقاية من السهام....

والمقصود من قوله: «إذا قضيت قضاء، فإنه لا يرد» بيان أن من الأشياء التي سألها النبي ﷺ ما لم يعطها، لأنه الله قضى بعلمه وحكمته ذلك، ولا يمكن أن يرد ما قضاه الله عز وجل .

وفي الحديث دليل على تحريم القتال بين المسلمين، وإهلاك بعضهم بعضًا، وسبي بعضهم بعضًا، وأنه يجب أن يكونوا أمة واحدة حتى تبقى هيبتهم بين الناس وتخشاهم الأمم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** فقوله: «عن ثوبان»، ثوبان هو: مولى رسول الله ﷺ، والمولى معناه: العتيق، لازم الرسول ﷺ، وله فضائل كثيرة رضي الله عنه.

«أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله زَوَى لِيَ الأرض» يعني: جمعها، وحواها وطواها له ﷺ حتى صارت حجمًا صغيرًا، يرى النبي ﷺ أطرافه ما بعُد منها وما قرُب، والله قادر على كل شيء.

أو أن المراد- والله أعلم- أنه قوّى بصر رسوله ﷺ فصار يرى كل الأرض مشارقها ومغاربها، كما حصل له ﷺ لما سأله المشركون عن بيت المقدس، حيث قوّى بصر رسوله فصار ينظر إلى بيت المقدس وهو في مكّة يخطب في المشركين،

....

ويصف لهم المسجد عن معاينة ومشاهدة، حتى ذكر لهم علاماته والأشياء التي يعرفونها فيه، وحتى إنه أخبرهم عن عيرهم التي في الطريق التي كانوا ينتظرونها، أخبرهم أين هي؟

«فرأيت مشارقها ومغاربها» رأى المشرق والمغرب، وجمعها لكثرة الطالع والغارب من الكواكب.

«وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زَوَى لي منها» بالبناء على الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، أو «ما زُوِي لي منها» بالبناء للمفعول، والفاعل هو الله سبحانه وتعالى. . .

ففيه دليل من أدلّة نبوّته ﷺ.

الدّليل الأول: زَوي الأرض له. هذا دليل على نبوّته.

الدليل الثاني: أنه أخبر عن ملك أمته، وأنه سيتّسع ويبلغ المشرق والمغرب في يوم أن كان ملك المسلمين في المدينة وما حولها فقط.

فهذا من علامات نبوّته ﷺ. . .

«وأُعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض» المراد بالكنزين: الأموال النّفيسة، «الأحمر»: الذهب، «والأبيض»: الفضة، وهذا عبارة عن أموال الفرس والروم. فأموال الفرس من الذهب، وأموال الروم من الفضة، أو العكس، قولان في المسألة. . .

وقوله: «وإني سألت ربي لأمتي» هذا من شفقته ﷺ بأمته.

«ألّا يهلكها بسنة بعامة» المراد بالسنة: الجدْب، أي: لا يعمّ الجدب والقحط كل بلاد المسلمين، فتَهلك أموالهم وزروعهم وما يأكلون منه، فالسنة المراد بها: الجَدْب كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ﴾ يعني: بالجَدْب.

دعا النبي ﷺ ربه ألّا يُنزل الجَدْب والقَحْط على أمة محمّد كلهم، لأنه إذا نزل بهم كلهم هلكوا.

وقوله: «وألّا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم» يعني: من الكفار، أي: لا يسلط الكفار على المسلمين.

....

«فيستبيح بيضتهم» البيضة: الحوزة، يعني: لا يستبيح الكفار حوزة المسلمين وبلادهم، أو المراد بالبيضة اجتماع الكلمة. والمعنى عام ومعناه: لا يستبيح بلادهم وجماعتهم.

«وإن ربي قال: يا محمَّد» هذه إجابة الله لدعوة رسوله ﷺ.

«إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يردّ» إذا قدّر الله قدرًا فلا بد من نفاذه، فأقدار الله نافذة في المسلمين والكفّار وعموم الناس، لا أحد يستطيع رد القضاء والقدر، فهذا فيه إثبات القدر، وأن قدر الله نافذ، لا يستطيع أحد رده.

«وإني أعطيتك لأمتك: ألّا أهلكهم بسنة بعامة» استجاب الله الدعوة الأولى مطلقًا، وأنه سبحانه لا ينزل قحطًا عامًّا للبلاد كلها، وإنما ينزل القحط في بعض البلاد دون بعض بخلاف الأمم السابقة، فإن الله ينزل القحط العام عليهم فيضرهم، كما حصل لقوم فرعون، أما هذه الأمة لكرامتها على الله فإن الله لا ينزل عليها القحط العام.

«وألّا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يُهلك بعضًا، ويسبي بعضهم بعضًا» استجاب الله له الدعوة الثانية استجابة معلّقة، يعني: ما دامت أمتك مجتمعة على الحق كلمتها واحدة، فإن الله لا يسلّط عليهم عدوًا من الكفار، أما إذا حصل في الأمة افتراق كلمة، وحصل بينهم قتال فيما بينهم، وسبى بعضهم بعضًا، فحينئذ يعاقبهم الله عزّ وجلّ ويسلط عليهم الكفّار.

قوله: «ولو اجتمع عليهم من بأقطارها» أي: إذا اجتمعت كلمة المسلمين، ولم يكن بينهم اختلاف ولا تقاتل فيما بينهم، فلو اجتمع أهل الأرض كلهم على قتال المسلمين أو أراد سلب شيء من ملكهم فلن يستطيعوا، وأما إذا اختلفوا فيما بينهم، وتقاتلوا فيما بينهم، وأخذ بعضهم أموال بعض، فإن الله يعاقبهم، ويسلّط عليهم الكفّار.



٦٠) وَرَوَاهُ البَرْقَانِيُّ فِي صَحِيحِهِ، وَزَادَ: «وَإِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الأَئِمَّةَ المُضِلِّينَ، وإِذَا وَقَعَ عَلَيْهِمُ السَّيْفُ لَمْ يُرْفَعْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى يَلْحَقَ حَيٌّ مِنْ أُمَّتِي بِالمُشْرِكِينَ، وَحَتَّى تَعْبُدَ فِئَامٌ مِنْ أُمَّتِي الأَوْثَانَ، وإِنَّهُ سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي كَذَّابُونَ ثَلَاثُونَ، كُلُّهُمْ يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ، وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، لَا نَبِيَّ بَعْدِي. ولَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي عَلَى الحَقِّ مَنْصُورَةً لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ تَبَارَكَ وتَعَالَى».

---

٦٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: - وما رواه البرقاني وزاد: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين».

البرقاني: بتثليث الباء وقال بعضهم؛ وبدون ضم.

وهذا يفيد خطورة الأئمة المضلين، وهم ولاة السوء فإنهم يتبعون، ويتأثر بهم، ويستعان بهم على الباطل فلذلك خاف على أمته منهم، وهذا يشمل الأمراء والقضاة الضالين.

«وإذا وقع السيف لم يرفع إلى يوم القيامة»: وهذا قد وقع، وهذا من علامات النبوة، فإن باب الفتنة فتح بقتل عمر ثم ازداد بقتل عثمان وزاد الشر.

«لا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان»: يدل على أن الشرك سيقع في هذه الأمة وقد حصل، وهذه هي الوثنية حصلت في الجزيرة وغيرها.

«سيكون في أمتي كذابون ثلاثون...»: وهو من علامات النبوة، وقد وقع كما تنبأ مسيلمة فقتله الصحابة، والأسود العنسي وقد قتل في حياة النبي ﷺ، وسجاح التميمية وتابت وطليحة الأسدي وقد تاب، وغيرهم وآخرهم الدجال الذي يدعي النبوة ثم يدعي أنه رب العالمين قاتله الله، وهؤلاء المدعون هم الذين يكون لهم شوكة وصولة وشبهة، وإلا فالمدعون كثير، بعضهم يقولها بجنون وهذيان وغيره.

....

«ولا تزال طائفة من أمتي على الحق»[١]: هذا من علامات النبوة أيضًا ومن البشرى وهذه الطائفة لا تزال إلى الآن.

«حتى يأتي أمر الله»: وهي الريح الطيبة التي تقبض أرواح المؤمنين؛ فتقوم الساعة على شرار الناس.

وقد جاء في روايات: أنها تكون بالشام، لكن إن صح هذا فالمراد أحيانًا، وليس دائمًا، ولكن غالبها روايات ضعيفة، وليس لها مكان معين قد تجتمع وقد تفترق، وليس في حديث صحيح ما يدل على أنها تكون في مكان معين.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين»، بين الرسول ﷺ أنه لا يخاف على الأمة إلا الأئمة المضلين.

والأئمة: جمع إمام، والإمام قد يكون إمامًا في الخير أو الشر، قال تعالى في أئمة الخير: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة، ٢٤].

وقال تعالى عن آل فرعون أئمة: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ﴾ [القصص: ٤١].

والذي في حديث الباب: «الأئمة المضلين»، أئمة الشر، وصدق النبي ﷺ، إن أعظم ما يخاف على الأمة منه الأئمة المضلون، كرؤساء الجهمية والمعتزلة وغيرهم الذين تفرقت الأمة بسببهم.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين»، الحي: بمعنى القبيلة.

وهل المراد باللحوق هنا اللحوق البدني، بمعنى أنه يذهب هذا الحي إلى المشركين ويدخلون فيهم، أو اللحوق الحكمي، بمعنى أن يعملوا بعمل المشركين، أو الأمران معًا؟

الظاهر أن المراد جميع ذلك.

---

(١) رواه البخاري (٣٦٤١) ومسلم (١٩٢٠).

....

قوله: «وإنه سيكون من أمتي كذابون ثلاثون»، حصرهم النبي ﷺ بعدد، وكلهم يزعم أنه نبي أوحي إليه، وهم كذابون، لأن النبي ﷺ خاتم النبيين ولا نبي بعده، فمن زعم أنه نبي بعد الرسول ﷺ، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال، ومن صدقه في ذلك، فهو كافر حلال الدم والمال.

وليس من المسلمين ولا من أمة محمد ﷺ، ومن زعم أنه أفضل من محمد، وأنه يتلقى من الله مباشرة ومحمد ﷺ يتلقى منه بواسطة الملك، فهو كاذب كافر حلال الدم والمال.

قوله: «كلهم يزعم»، أي: يدعي.

قوله: «وأنا خاتم النبيين»، أي: آخرهم، وأكد ذلك بقوله: «لا نبي بعدي». . .

قوله: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة»، المعنى: أنهم يبقون إلى آخر وجودهم منصورين. . . .

فلما بين ذلك لم يجعل الناس ييأسون، فقال: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة».

والطائفة: الجماعة.

قوله: «لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم»، خذلهم، أي: لم ينصرهم ويوافقهم على ما ذهبوا إليه، وفي هذا دليل على أنه سيوجد من يخذلهم، لكنه لا يضرهم، لأن الأمور بيد الله، وقد قال ﷺ: «واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك»، وكذلك لا يضرهم من خالفهم، لأنهم منصورون بنصر الله، فالله - عز وجل - إذا نصر أحدًا فلن يستطيع أحد أن يذله.

قوله: «حتى يأتي أمر الله»، أي: الكوني، وذلك عند قيام الساعة عندما يأتي أمره سبحانه وتعالى بأن تقبض نفس كل مؤمن، حتى لا يبقى إلا شرار الخلق، فعليهم تقوم الساعة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ. «الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ المَائِدَةِ. «الثَّالِثَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

«الرَّابِعَةُ»: وَهِيَ أَهَمُّهَا: مَا مَعْنَى الإِيمَانِ بِالْجِبْتِ والطَّاغُوتِ فِي هَذَا المَوْضِعِ؟ هَلْ هُوَ اعْتِقَادُ قَلْبٍ، أَوْ هُوَ مُوَافَقَةُ أَصْحَابِهَا مَعَ بُغْضِها وَمَعْرِفَةِ بُطْلَانِها؟. «الخَامِسَةُ»: قَوْلُهُم إِنَّ الكُفَّارَ الَّذِينَ يَعْرِفُونَ كُفْرَهُمْ أَهْدَى سَبِيلًا مِنَ المُؤْمِنِينَ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾، وقد سبق ذلك.

الثانية: تفسير آية المائدة، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمُ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾، وقد سبق تفسيرها، والشاهد منها هنا قوله: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾.

الثالثة: تفسير آية الكهف، يعني: قوله تعالى: ﴿قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾، وقد سبق بيان معناها.

الرابعة: - وهي أهمها -: ما معنى الإيمان بالجبت والطاغوت؟ هل هو اعتقاد القلب أو موافقة أصحابها مع بغضها ومعرفة بطلانها؟

أما إيمان القلب واعتقاده، فهذا لا شك في دخوله في الآية.

وأما موافقة أصحابها في العمل مع بغضها ومعرفة بطلانها، فهذا يحتاج إلى تفصيل، فإن كان وافق أصحابها بناء على أنها صحيحة فهذا كفر وإن كان وافق أصحابها ولا يعتقد أنها صحيحة، فإنه لا يكفر، لكنه لا شك على خطر عظيم يخشى أن يؤدي به الحال إلى الكفر والعياذ بالله.

الخامسة: قولهم إن الكفار الذين يعرفون كفرهم أهدى سبيلاً من المؤمنين، يعني: إن هذا القول كفر وردة، لأن من زعم أن الكفار الذين يعرف كفرهم أهدى

«السَّادِسَةُ» : وَهِيَ المَقْصُودُ بِالتَّرْجَمَةِ - أَنَّ هَذَا لَا بُدَّ أَنْ يُوجَدَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، كَمَا تَقَرَّرَ فِي حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ. «السَّابِعَةُ» : التَّصْرِيحُ بِوُقُوعِها، أَعْنِي عِبَادَةَ الأَوْثَانِ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ فِي جُمُوعٍ كَثِيرَةٍ.

«الثَّامِنَةُ» : العَجَبُ العُجَابُ: خُرُوجُ مَنْ يَدَّعِي النُّبُوَّةَ، مِثْلِ المُخْتَارِ، مَعَ تَكَلُّمِهِ بِالشَّهَادَتَيْنِ وتَصْرِيحِهِ بِأَنَّهُ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ، وأَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ، وأَنَّ القُرْآنَ حَقٌّ وفِيهِ أَنَّ مُحَمَّدًا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، ومَعَ هَذَا يُصَدَّقُ فِي هَذَا كُلِّهِ مَعَ التَّضَادِّ الوَاضِحِ. وقَدْ خَرَجَ المُخْتَارُ فِي آخِرِ عَصْرِ الصَّحَابَةِ، وتَبِعَهُ فِئَامٌ كَثِيرَةٌ.

سبيلًا من المؤمنين، فإنه كافر لتقديمه الكفر على الإيمان.

السادسة - وهي المقصودة بالترجمة -: أن هذا لابد أن يوجد في هذه الأمة كما تقرر في حديث أبي سعيد.

السابعة: تصريحه بوقوعها، أعني: عبادة الأوثان، والترجمة التي أشار إليها رحمه الله هي قوله: «باب ما جاء أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان»، وحديث أبي سعيد هو قوله ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه» قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: «فمن؟». أخرجاه.

الثامنة: العجب العجاب: خروج من يدعي النبوة، مثل المختار، مع تكلمه بالشهادتين، وتصريحه بأنه من هذه الأمة، وأن الرسول حق، وأن القرآن حق، وفيه أن محمدًا خاتم النبيين، ومع هذا يصدق في هذا كله، مع التضاد الواضح، وقد خرج المختار في آخر عهد الصحابة، وتبعه فئام كثيرة.

والمختار هو ابن أبي عبيد الثقفي، خرج وغلب على الكوفة في أول خلافة ابن الزبير رضي الله عنه، وأظهر محبة آل البيت، ودعا الناس إلى الثأر من قتلة الحسين، فتتبعهم، وقتل كثيرًا ممن باشر ذلك أو أعان عليه، فانخدع به العامة، ثم ادعى النبوة وزعم أن جبريل يأتيه.

«التَّاسِعَةُ» : البِشَارَةُ بِأَنَّ الحَقَّ لَا يَزُولُ بِالْكُلِّيَّةِ كَمَا زَالَ فِيمَا مَضَى، بَلْ لَا تَزَالُ عَلَيْهِ طَائِفَةٌ. «العَاشِرَةُ» : الآيَةُ العُظْمَى : أَنَّهُمْ مَعَ قِلَّتِهِمْ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ ولَا مَنْ خَالَفَهُم. «الحَادِيَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ ذَلِكَ الشَّرْطَ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ. «الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ» : مَا فِيهِ مِنَ الآيَاتِ العَظِيمَةِ .

مِنْهَا : إِخْبَارُهُ بِأَنَّ اللهَ زَوَى لَهُ المَشَارِقَ والمَغَارِبَ، وأَخْبَرَ بِمَعْنَى ذَلِكَ، فَوَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، بِخِلافِ الجَنُوبِ والشَّمَالِ، وإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ أُعْطِيَ الكَنْزَيْنِ، وإِخْبَارُهُ بِإِجَابَةِ دَعْوَتِهِ لأُمَّتِهِ فِي الاثْنَتَيْنِ، وإِخْبَارُهُ بِأَنَّهُ مُنِعَ الثَّالِثَةَ،

التاسعة: البشارة بأن الحق لا يزول بالكلية كما زال فيما مضى، بل لا تزال عليه طائفة، يعني: من هذه الأمة منصورة إلى يوم القيامة.

يؤخذ هذا من آخر الحديث: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى».

العاشرة: الآية العظمى: أنهم مع قلتهم لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم، وهذه آية عظمى: أن الكثرة الكاثرة من بني آدم على خلاف ذلك، ومع ذلك لا يضرونهم، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

الحادية عشرة: أن ذلك الشرط إلى قيام الساعة، وقد سبق.

الثانية عشرة: ما فيه من الآيات العظيمة، أي: ما في هذا الحديث من الآيات العظيمة، والآيات: جمع آية، وهي العلامة، والآيات التي يؤيد الله بها رسله عليهم الصلاة والسلام هي العلامات الدالة على صدقهم.

فمما في هذا الحديث: إخباره بأن الله - سبحانه وتعالى - زوى له المشارق والمغارب، وأخبر بمعنى ذلك، فوقع كما أخبر بخلاف الجنوب والشمال، فإن رسالة النبي ﷺ امتدت نحو الشرق والغرب أكثر من امتدادها نحو الجنوب والشمال، وهذا من علم الغيب الذي أطلع الله رسوله ﷺ عليه.

ومنها: إخباره أنه ﷺ أعطي الكنزين، وهما كنزا كسرى وقيصر.

وإِخْبَارُهُ بِوُقُوعِ السَّيْفِ، وأَنَّهُ لا يُرْفَعُ إِذَا وَقَعَ، وإِخْبَارُهُ بِإِهْلاكِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا وَسَبْيِ بَعْضِهِمْ بَعْضًا، وخَوْفُهُ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ، وإِخْبَارُهُ بِظُهورِ المُتَنَبِّئِينَ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ، وإِخْبَارُهُ بِبَقَاءِ الطَّائِفَةِ المَنْصُورةِ. وكُلُّ هَذَا وَقَعَ كَمَا أَخْبَرَ، مَعَ أَنَّ كُلَّ واحِدَةٍ مِنْهَا أَبْعَدُ مَا يَكُونُ مِنَ العُقُولِ.

«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: حَصْرُ الخَوْفِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنَ الأَئِمَّةِ المُضِلِّينَ.

«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى عِبَادَةِ الأَوْثَانِ.

ومنها: إخباره بإجابة دعوته لأمته في الاثنتين، وهما ألا يهلكها بسنة بعامة، وألا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا... إلخ، ومنع الثالثة، وهي ألا يجعل بأس هذه الأمة بينها...

ومن هذه الآيات التي تضمنها هذا الحديث: إخباره بوقوع السيف في أمته، وأنه إذا وقع، فإنه لا يرفع حتى تقوم الساعة، وقد كان الأمر كذلك، فإنه منذ سلت السيوف على المسلمين من بعضهم على بعض بقي هذا إلى يومنا هذا.

ومنها: إخباره بإهلاك بعضهم بعضًا وسبي بعضهم بعضًا، هذا أيضًا واقع.

ومنها: خوفه على أمته من الأئمة المضلين، والأئمة: جمع إمام، والإمام: هو من يقتدى به، إما لعلمه، وإما لسلطته، وإما لعبادته.

ومنها: إخباره بظهور المتنبئين في هذه الأمة، وأنهم ثلاثون، قال ابن حجر: «هذا الحصر بالثلاثين لا يعني انحصار المتنبئين بذلك، لأنهم أكثر من ذلك».

الثالثة عشرة: حصر الخوف على أمته من الأئمة المضلين، ووجه هذا الحصر أن الأئمة ثلاثة أقسام: أمراء وعلماء وعباد، فهم الذين يخشى من إضلالهم لأنه متبوعون.

الرابعة عشرة: التنبيه على معنى عبادة الأوثان، يعني أن عبادة الأوثان لا تختص بالركوع والسجود لها، بل تشمل اتباع المضلين الذين يحلون ما حرم الله فيحله الناس، ويحرمون ما أحله الله فيحرمه الناس.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «رواه البَرْقاني في

....

صحيحه» البَرْقاني هو: أبو بكر محمّد الخوارزمي الشافعي، وكتابه يسمّى بالمسند الصحيح، جمع فيه الأحاديث الصحيحة، ويقول: أنه جمع فيه أحاديث الصحيحين وزاد عليهما ما صح عنده من الأحاديث.

«وزاد» -يعني: على رواية مسلم- أن الرسول ﷺ قال: «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين» هذا سبب آخر، السبب الأول: الاختلاف بينهم. السبب الثاني: وجود دعاة الفتنة، ودعاة الضّلال. فهؤلاء سبب آخر لهلاك المسلمين، وسبب لتفرق كلمتهم، وتسلط العدوّ عليهم، بأن يكون هناك دعاة ضلال، ودعاة فتنة، ودعاة فُرقة، وتحريش بين المسلمين، كما حصل من الداعية الخبيث الأول عبد الله بن سبأ.

ففي قوله: «أخاف على أمتي الأئمة المضلين» مفهومه؛ أن الأئمة المصلحين خير للأمة، يجمعون كلمتها، ويصلحون عقيدتها، ويردونها إلى منهج السلف الصالح، ويحصل بهم الخير.

أما دعاة الضلال فإنهم يصدونها عن الحق، ويدعونها إلى خلاف منهج السلف.

والآن فيما بيننا ظهر من يزهّد في منهج السلف ويعتبره من الأمور الرجعية، ومن الأمور القاصرة، ويريد من المسلمين أن ينهجوا مناهج حديثة، ابتكرها جهّال أو ضُلّال، يريدون أن الدعاة يسيرون على هذا المنهج المبتكر المحدث، ويتركون منهج السلف الصالح الذي فيه الخير، وفيه الصلاح والفلاح، هذا ظهر وقد أخبر ﷺ أنه يكون في هذه الأمة دعاة على أبواب جهنم من أطاعهم قذفوه فيها، قالوا: صفهم لنا يا رسول الله، قال: «هم قوم من جِلْدَتنا، ويتكلمون بألسنتنا» فلنحذر من هؤلاء غاية الحذر...

قوله: «وإذا وضع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة» كذلك خاف عليهم النبي ﷺ أنه إذا بدأ القتال بين المسلمين فإنه لا يُرفع إلى يوم القيامة، وهذه بليّة أخرى.

البليّة الأولى: تسلُّط الكفار على المسلمين.

....

والبليّة الثانية: إذا وقع القتال بين المسلمين فإنه لا يُرفع إلى يوم القيامة عقوبة لهم.

وذلك حصل كما أخبر به ﷺ فإنه لما قُتل الخليفة الراشد أمير المؤمنين عثمان فإنه لا يزال القتال مستمرًا بين المسلمين، وسيستمر إلى يوم القيامة. ولا حول ولا قوة إلّا بالله كما أخبر النبي ﷺ.

قوله: «ولا تقوم الساعة حتى يلحق حيٌّ من أمتي بالمشركين» الحي: المراد به: القبيلة، ومعنى يلحق: يتبع؛ إما بأن يذهبوا إلى بلادهم ويسكنوا معهم ويكونوا من دولتهم، وإما بأن يبقوا في بلاد المسلمين ولكن يكونون على منهج الكفار ويرتدّون عن الإسلام.

ووقع هذا كما أخبر به ﷺ، ففيهم من ذهب إلى بلاد الكفار، ثم يرجع وقد صار يوافق الكفار في أمورهم الدينية، ويجري عليهم حكمهم وهو مختار للإقامة بينهم. وفيهم من بقي في بلاد المسلمين ويعتنق مذاهب الكفر من شيوعية وبعثية وقومية وغير ذلك، وهؤلاء لحقوا بالمشركين في قلوبهم وعقائدهم كما أخبر ﷺ وإن لم يلحقوا بهم في أبدانهم.

قوله: «وحتى تعبد فِئام من أمتي الأوثان» الفِئام: الجماعات، والأوثان: كل ما عبد من دون الله.

وقد وقع ما أخبر به ﷺ، فعَبَدت جماعات من هذه الأمة القبور والأضرحة، واعتبروا هذا هو الدين الصحيح، وسموا دين التّوحيد الصحيح دين الخوارج...

وقوله ﷺ: «وإنه سيكون في أمتي كذّابون ثلاثون كلّهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيّين، لا نبي بعدي»، هذا فيه إخبار منه ﷺ بظهور المتنبِّئين الكَذَبَة الذين يدعون النبوة.

وقد حصل ما أخبر به ﷺ...

وقوله ﷺ: «وأنا خاتم النبيّين، لا نبيّ بعدي» هذا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾، والخاتم- بفتح

....

التاء-: الذي يختم على الشيء فلا يزاد فيه، يقال: ختم الكتاب، يعني: وضع الختم عليه بحيث لا يُزاد فيه، وختم الكيس، بمعنى أنه أغلقه بحيث لا يُزاد فيه ولا يُنقص، فالرسول ﷺ ختم الأنبياء، بمعنى أنه هو آخرهم، ولا يأتي بعده نبي...

ثم قال مبشرًا لأمته بعد هذه الأخبار المروِّعة: «ولا تزال طائفة من أمتي على الحق» يعني: مع هذه الحوادث العظيمة، وهذا الابتلاء العظيم، ووقوع الشرك، ووقوع اللّحاق بالمشركين من بعض القبائل وتسلّط الكفّار، وقلّة أهل الحق، وكثرة أهل الباطل، مع هذا يبقي في هذه الأمة بقية صالحة إلى أن يأتي أمر الله تبارك وتعالى.

والطائفة في الأصل الجماعة. والمراد هنا من كان على الحق ولو كان واحدًا. بدليل قوله تعالى: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ وهو واحد.

«على الحق ظاهرين» يعني: غالبين.

«لا يضرّهم من خذلهم» مع هذه الشرور كلها، وهذه الفتن كلها، هذه الطائفة لا تتضرّر، بل تبقى على الحق الذي بُعث به محمّد ﷺ...

وقوله: «حتى يأتي أمر الله» المراد بأمر الله ما يكون في آخر الزمان من قبض أرواح أهل الإيمان، حين يبعث الله ريحًا طيّبة في آخر الزمان قبل قيام الساعة فتقبض روح كل مؤمن ومؤمنة، ويبقى شرار الناس، وحينئذ تقوم الساعة.



٢٤-بابٌ (٦١)

ما جَاءَ فِي السِّحْر

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وَقَوْلُهُ: ﴿يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾ [النساء: ٥١].

---

(٦١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «السحر»: بكسر السين هو ما يتعاطاه السحرة من عقد وأدوية ونفث في العقد وغيرها، وأشياء يتلقونها من الجن والشياطين، والسحر: هو ما يسحر الناس، وسمي سحرًا؛ لأنهم يتعاطونها بطرق خفية.

وهو منكر وشرك؛ لأنه لا يتوصل له إلا بالشياطين والتقرب إليهم، وعبادتهم من دون الله كما في الآية: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فدل على أن تعلمه يوجب الكفر ثم قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾.

«اشتراه»: أي: اعتاضه وفعله فما له عند الله من حظ ولا نصيب، وهذا يدل على تحريمه وإنكاره، ثم قال: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ فدل على أنها ضد الإيمان والتقوى، ولهذا قال أهل العلم: إن السحر من الكفر والضلال؛ لأنه لا يتوصل إليه إلا بعبادة الجن والشياطين، وقيل يستفصل فما كان مما يتعلق بعبادة الجن والشياطين فهذا من الكفر بالله وشرك أكبر، وما كان من أدوية ليس فيها تعلق بالشياطين وعبادة لهم فهو من المحرمات والكبائر والمنكرات التي فيها ظلم العباد والتعدي عليهم؛ لأنهم يفسدون بها العقول ويغيرونها به.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ﴾.

قَالَ عُمَرُ: ﴿الجِبْتُ﴾: السِّحْرُ، ﴿والطَّاغُوتُ﴾: الشَّيْطَانُ.
وقَالَ جَابِرٌ: الطَّوَاغِيتُ: كُهَّانٌ كَانَ يَنْزِلُ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فِي كُلِّ حَيٍّ وَاحِدٌ.

هذه نزلت في اليهود، أخبر الله أنهم يؤمنون بالجبت، وهو السحر، والطاغوت، وهو الشيطان، وقال أهل اللغة: الجبت هو الشيء الذي لا خير فيه كالسحر والصنم وغيره، والطاغوت من الطغيان وهو تجاوز الحد، ويطلق على الشياطين من الجن والإنس طواغيت أي: تجاوزوا الحد بكفرهم وضلالهم.

قال جابر: الطواغيت: كهان كان ينزل عليهم الشياطين في كل حي واحد أي: أن الكهان من الطواغيت.

قال ابن القيم: الطاغوت: ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع، متبوع في الباطل ومطاع في غير الشرع ورءوسهم خمسة: إبليس، ومن دعا إلى عبادة نفسه كفرعون، ومن عُبِد وهو راض، ومن ادعى علم الغيب، ومن حكم بغير ما أنزل الله متعمدًا، والسحرة والكهان طواغيت؛ لأنهم خرجوا عن الطريق وآذوا الناس بما يتعاطونه.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: السحر لغة: ما خفي ولطف سببه، ومنه سمي السَّحَر لآخر الليل، لأن الأفعال التي تقع فيه تكون خفية، وكذلك سمي السحور، لما يؤكل في آخر الليل، لأنه يكون خفيًا، فكل شيء خفي سببه يسمى سحرًا.

وأما في الشرع، فإنه ينقسم إلى قسمين:

الأول: عقد ورقى، أي: قراءات وطلاسم يتوصل بها الساحر إلى استخدام الشياطين فيما يريد به ضرر المسحور، لكن قد قال الله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٠٢].

الثاني: أدوية وعقاقير تؤثر على بدن المسحور وعقله وإرادته وميله، فتجده ينصرف ويميل، وهو ما يسمى عندهم بالصرف والعطف.

فيجعلون الإنسان ينعطف على زوجته أو امرأة أخرى، حتى يكون كالبهيمة

. . . .

تقوده كما تشاء، والصرف بالعكس من ذلك.

فيؤثر في بدن المسحور بإضعافه شيئًا فشيئًا حتى يهلك.

وفي تصوره بأن يتخيل الأشياء على خلاف ما هي عليه.

وفي عقله، فربما يصل إلى الجنون والعياذ بالله.

فالسحر قسمان:

شرك، وهو الأول الذي يكون بواسطة الشياطين، يعبدهم ويتقرب إليهم ليسلطهم على المسحور.

عدوان، وفسق وهو الثاني الذي يكون بواسطة الأدوية والعقاقير ونحوها.

وقد ذكر المؤلف في الباب آيتين:

الآية الأولى قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ .

ضمير الفاعل يعود على متعلمي السحر، والجملة مؤكدة بالقسم واللام وقد.

ومعنى ﴿اشْتَرَاهُ﴾ ، أي: تعلمه.

قوله: ﴿مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ ، أي: ما له من نصيب.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ ، أي: اليهود. ﴿بِالْجِبْتِ﴾ ، أي السحر كما فسرها عمر بن الخطاب.

الشاهد: قوله: ﴿بِالْجِبْتِ﴾ ، حيث فسرها أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بأنها السحر.

وأما تفسيره الطاغوت بالشيطان، فإنه من باب التفسير بالمثال.

والسلف رحمهم الله يفسرون الآية أحيانًا بمثال يحتذى عليه. . .

فتفسير عمر رضي الله عنه للطاغوت بالشيطان تفسير بالمثال، لأن الطاغوت أعم من الشيطان، فالأصنام تعتبر من الطواغيت، كما قال تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ﴾ [المائدة: ٦٠]، والعلماء والأمراء الذين يضلون الناس يعتبرون طواغيت، لأنهم طغوا وزادوا ما ليس لهم به حق.

قوله: «الطواغيت كهان كان ينزل عليهم الشيطان، في كل حي واحد».

....

هذا أيضًا من باب التفسير بالمثال، حيث إنه جعل من جملة الطواغيت الكهان.

والكاهن، قيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

وقيل: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** والسحر في اللغة هو: كل ما لَطُفَ وخَفِيَ سببه، ومنه سُمّي السَّحَر سَحَرًا في آخر الليل، لأنه خفيٌّ وكل ما لَطُف يعني: دقّ وخَفِيَ سببه عن النّاس يُسمّى سحرًا في اللغة، ومنه قوله ﷺ: «إن من البيان لسحرًا» البيان معناه: الكلام البليغ، لأنه يستميل النفوس ويؤثّر فيها كما يؤثر السحر، إلّا أنه ليس حرامًا وكذلك النميمة، سُمّيت سحرًا؛ لأنها تعمل عمل السحر في الإفساد بين الناس، وإحداث البغضاء في القلوب، وإن لم تكن سحرًا في الحقيقة، لكنها سحر لغوي، هذا تعريف السحر في اللغة.

أما تعريفه في الشرع: فالسحر عبارة عن عزائم ورُقى وعُقد يؤثر في بدن المسحور بالقتل أو بالمرض، أو بالإخلال بعقله، أو يفرّق بين الزوجين، أو يأخذ الزوج عن زوجته فلا يستطيع الوصول إليها، قال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّـٰثَـٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ يعني: السواحر.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا﴾ » أي: اليهود، لأن الآية في سياق الآيات التي تتحدّث عن اليهود، أي: تحققوا.

﴿لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ﴾ » أي: استبدل السحر بالتوراة.

﴿مَا لَهُۥ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ مِنْ خَلَـٰقٍ﴾ » أي: الساحر ليس له نصيب من الجنة.

وهذا دليل على أنه كافر، فالسحر كفر بالله عزّ وجلّ.

قال المصنّف- رحمه الله تعالى-: «وقوله ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ » ثم ذكر تفسير الجبت والطاغوت بقوله: «قال عمر: الجبت: السحر» فاليهود يؤمنون بالسحر، وهو كفر بالله عزّ وجلّ.

«والطاغوت: الشيطان»؛ أي: هو رأس الطواغيت، والطاغوت مشتق من الطغيان، وهو مجاوزة الحد، كما سبق.

٦٢) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ المُوبِقَاتِ» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ: ومَا هُنَّ؟ قَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، والسِّحْرُ، وقَتْلُ النَّفْسِ الَّتِي حَرَمَ اللهُ إِلَّا بِالحَقِّ، وأَكْلُ الرِّبَا، وأَكْلُ مَالِ اليَتِيمِ، والتَّوَلِي يَوْمَ الزَّحْفِ، وقَذْفُ المُحْصَنَاتِ الغَافِلَاتِ المُؤْمِنَاتِ».

وعَنْ جُنْدُبٍ مَرْفُوعًا: «حَدُّ السَّاحِرِ ضَرْبَةٌ بِالسَّيْفِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ، وقَالَ: الصَّحِيحُ أَنَّهُ مَوْقُوفٌ.

في قوله: «وقال جابر: الطواغيت: كُهَّان تنزل عليهم الشياطين، في كل حيٍّ منهم واحد» الكاهن هو الذي يدّعي علم الغيب، وكانوا في الجاهلية يتخذون حُكّامًا من الكهّان، يحكمون بين الناس، وكان هؤلاء الكُهَّان تنزل عليهم الشياطين التي تسترق السمع، كما قال الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ﴾ وكما جاء في الحديث أن مسترق السمع قد يسمع الكلمة من السماء فيُلقيها على الكاهن، فيكذب الكاهن معها مائة كذبة، فيصدِّقه النّاس بسبب هذه الكلمة التي سُمعت من السماء.

٦٢) الشرح:

* **أولاً**: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «اجتنبوا السبع الموبقات...».

سميت موبقات؛ لأنها مهلكات وأعظمها الشرك به، ثم السحر؛ لأن الغالب أنه منه؛ لأنه عبادة الجن واستعانة بهم وتقرب إليهم، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، والتولي يوم الزحف يوم اجتماع الصفين للقتال، فيخذل قومه ويتولى، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات: قذفهن بالفاحشة.

«**غافلات**»، لأنهن في الغالب لا يشعرن بمن رماهن، ويدخل فيه قذف المحصنين من الرجال، وأنه من الكبائر، ويستحق القاذف إقامة حد القذف، ولكنه في النساء أغلب فمن قذفهن حد.

«**مسألة**»: لا يجوز الذهاب للسحرة للعلاج، وهو الصحيح عند أهل العلم،

....

ولو كان من باب التداوي، ولو لم يكن يرضى بذلك؛ لأن الذهاب إليهم دعوة لهم إلى الشرك، وأن يفعلوا ما حرم الله، بل يتعاطى الأدوية الشرعية.

وعن جندب مرفوعًا: «حد الساحر ضربه بالسيف» رواه الترمذي وقال: الصحيح أنه موقوف، والصواب ما قاله الترمذي من أنه موقوف.

وقال هذا حينما كان ساحر في مجلس الوليد بن يزيد الفاسق وكان هذا الساحر يقطع رأسه ويعيده بزعمه، فأتاه الوليد من حيث لا يشعر وضربه بالسيف، وقال: إن كان صادقًا فليعد رأسه، فقال جندب ذلك فهو من كلامه، وقد استنبطه من الأدلة الشرعية.

«ومراده»: أن الساحر يقتل، ولا يستتاب؛ لأن توبته لا تمنع ضربه فربما يكذب ويظهر التوبة ويبقى ضرره على الناس فمتى ثبت سحره وجب قتله، لئلا يضر الناس.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «اجتنبوا السبع الموبقات».

النبي ﷺ أنصح الخلق للخلق، فكل شيء يضر الناس في دينهم ودنياهم يحذرهم منه، ولهذا قال: «اجتنبوا»، وهي أبلغ من قوله: اتركوا، لأن الاجتناب معناه أن تكون في جانب وهي في جانب آخر، وهذا يستلزم البعد عنها. . . .

وقوله: «السبع الموبقات». هذا لا يقتضي الحصر، فإن هناك موبقات أخرى، ولكن النبي ﷺ يحصر أحيانًا بعض الأنواع والأجناس، ولا يعني بذلك عدم وجود غيرها.

ومن ذلك الحديث: «السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله»[1].

قوله: «قالوا: يا رسول الله! وما هن؟».

كان الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم، والنبي ﷺ إذا ألقى إليهم الشيء مبهمًا طلبوا تفسيره وتبيينه، فلما حذرهم النبي ﷺ من السبع الموبقات

---

(١) أخرجه البخاري: كتاب الجماعة والإمامة/ باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة (٦٢٩)، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب فضل إخفاء الصدقة (١٠٣١).

....

قالوا ذلك لأجل أن يجتنبوهن، فأخبرهم، وعلى هذه القاعدة [أن الصحابة رضي الله عنهم أحرص الناس على العلم]، لكن ما كانت الحكمة في إخفائه، فإن النبي ﷺ لا يخبرهم، كقوله ﷺ: «إن لله تسعة وتسعين اسمًا، من أحصاها دخل الجنة»[١]، ولم يرد تبيينها عن النبي ﷺ في حديث صحيح.

وقد حاول بعض الناس أن يصحح حديث سرد الأسماء التسعة والتسعين[٢]، ولم يصب، بل نقل شيخ الإسلام اتفاق أهل المعرفة في الحديث على أن عدها وسردها لا يصح عن النبي ﷺ[٣]، وصدق -رحمه الله- بدليل الاختلاف الكبير فيها.

وقوله: «الموبقات»، أي: المهلكات، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا﴾ [الكهف: ٥٢]، أي: مكان هلاك.

قوله: «قالوا: يا رسول الله! وما هن؟». سألوا عن تبيينها، وبه تتبين الفائدة من الإجمال، وهي أن يتطلع المخاطب لبيان هذا المجمل، لأنه إذا جاء مبينًا من أول وهلة، لم يكن له التلقي والقبول كما إذا أجمل ثم بين.

قوله: «قال: الشرك بالله». قدمه لأنه أعظم الموبقات، فإن أعظم الذنوب أن تجعل لله ندًا وهو خلقك.

والشرك بالله يتناول الشرك بربوبيته أو ألوهيته أو أسمائه أو صفاته.

وبين ﷺ أن الشرك أعظم ما يكون من جناية والجرم بقوله حين سئل: أي الذنب أعظم «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك»[٤].

قوله: «والسحر»، أي: من الموبقات، وظاهر كلام النبي ﷺ أنه لا فرق بين

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٨٥).

(٢) أخرجه الترمذي (٣٥٠٧)، وابن حبان (٢٣٨٤)، والحاكم (١/ ٢٢).

(٣) قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «الفتاوى» (٦/ ٣٨٢): «تعيينها ليس من كلام النبي ﷺ باتفاق أهل المعرفة بحديثه».

(٤) أخرجه البخاري (كتاب الديات، باب قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا﴾) (٤٢٠٧)، ومسلم في كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب) (٨٦).

....

أن يكون ذلك بواسطة الشياطين أو بواسطة الأدوية والعقاقير.

لأنه إن كان بواسطة الشياطين، فالذي لا يأتي إلا بالإشراك بهم، فهو داخل في الشرك بالله.

وإن كان دون ذلك، فهو أيضًا جرم عظيم، لأن السحر من أعظم ما يكون في الجناية على بني آدم، فهو يفسد على المسحور أمر دينه ودنياه...

قوله: «وقتل النفس»، القتل: إزهاق الروح، والمراد بالنفس: البدن الذي فيه الروح، والمراد بالنفس هنا: نفس الآدمي وليس نفس البعير والحمار وما أشبهها.

وقوله «التي حرم الله».. مفعول «حرم» محذوف تقديره. حرم قتلها، فالعائد على الموصول محذوف.

وقوله: «إلا بالحق»، أي: بالعدل...

قوله: «وأكل الربا»، الربا في اللغة: الزيادة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ﴾ [الحج: ٥]، يعني: زادت....

والربا: ربا فضل، أي: زيادة، وربا نسيئة، أي: تأخير، وهو يجري في ستة أموال بينها الرسول ﷺ في قوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبر بالبر، والتمر بالتمر، والشعير بالشعير، والملح بالملح»(١)...

وإذا اختلفت الأجناس واتفقت العلة، أي: اتفق المقصود في العوضين، فإنه يجري ربا النسيئة دون ربا الفضل، فذهب بفضة متفاضلاً مع القبض جائز، وذهب بفضة متساويًا مع التأخير ربا لتأخر القبض.

قال ﷺ: «فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم إذا كان يدًا بيد»(٢).

وقوله: «وأكل الربا». ذكر النبي ﷺ الأكل، لأنه أعم وجوه الانتفاع، هكذا قال أهل العلم، ولهذا قال تعالى في بني إسرائيل: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾ [النساء: ١٦١]، ولم يقل أكلهم، والأخذ أعم من الأكل، فأكل الربا معناه أخذه،

---

(١) أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف) (١٥٨٧).

(٢) أخرجه مسلم (كتاب المساقاة، باب الصرف) (١٥٨٧).

. . . .

سواء استعمله في الأكل أو الفرش أو البناء أو المسكن أو غير ذلك.

قوله: «وأكل مال اليتيم»، اليتيم: هو الذي مات أبوه قبل بلوغه، سواء كان ذكرًا أم أنثى، أما من ماتت أمه قبل بلوغه، فليس يتيمًا لا شرعًا ولا لغة.

لأن اليتيم مأخوذ من اليتم، وهو الانفراد، أي: انفرد عن الكاسب له، لأن أباه هو الذي يكسب له.

قوله: «والتولي يوم الزحف». التولي: بمعنى الإدبار والإعراض، ويوم الزحف، أي: يوم تلاحم الصفين في القتال مع الكفار، وسمي يوم الزحف، لأن الجموع إذا تقابلت تجد أن بعضها يزحف إلى بعض، كالذي يمشي زحفًا كل واحد منهم يهاب الآخر، فيمشي رويدًا رويدًا.

قوله: «مرفوعًا»، أي: إلى النبي ﷺ، فيكون من قول النبي عليه الصلاة والسلام، لكن نقل المؤلف عن الترمذي قوله: والصحيح أنه موقوف، أي: من قول جندب.

قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف». حده يعني: عقوبته المحددة شرعًا.

وظاهره أنه لا يكفر، لأن الحدود تطهر المحدود من الإثم.

والكافر إذا قتل على ردته، فالقتل لا يطهره.

وهذا القتل هل هو حد أم قتله لكفره؟

يحتمل هذا وهذا. . .

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اجتنبوا» أي: ابتعدوا، ولفظة: «اجتنبوا» أبلغ من: لا تفعلوا، لأن الاجتناب يعني: ترك الشيء وترك الأسباب الموصلة إليه.

«السبع» أي: المعاصي السبع.

«الموبقات» يعني: المهلكات.

«قالوا: يا رسول الله، وما هن؟» سألوه ﷺ: ما هي هذه السبع حتى نتجنبها؟ لأن الإنسان لا يمكن أن يتجنّب الشيء إلّا بعد أن يعرفه.

....

ففي هذا دليل على أنه يجب على المسلم أن يسأل عن الأمور المحرّمة، ويعرف الأمور الشركيّة، حتى يتجنبها.

«قال: الشرك بالله» هذا أكبر الكبائر، وأعظم الموبقات، وأعظم ذنب عُصي الله به.

وما هو الشرك؟ الشرك هو عبادة غير الله سبحانه وتعالى، بأن يصرف له شيئًا من العبادة. . .

كذلك الذبح لغير الله، كأن يذبح للقمر أو الضريح من أجل أن يُعطى ولدًا، أو يُدفع عنه البلاء، أو يُشفى من المرض، ينذر للقبور، هذا هو الشرك بالله عزّ وجلّ.

فليس الشرك مقصورًا على عبادة الأصنام، بل الشرك في كل ما صُرف لغير الله من العبادة أيًا كان المصروف له، سواء كان صنمًا أو قبرًا أو شجرًا أو حجرًا أو غير ذلك.

والشرك لا يغفره الله عزّ وجلّ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾.

والمشرك لا يدخل الجنة أبدًا، ومأواه النار، قال تعالى: ﴿فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾، ﴿حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ﴾ يعني: منعه من دخولها منعًا باتًا، ﴿وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ﴾ مقرّه ومصيره الأبدي ﴿وَمَا لِلظَّـٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾.

ثم قال ﷺ: «والسحر» وهذا محل الشاهد من الحديث، لأن السحر كفر وشرك بالله عزّ وجلّ، وعطفه على الشرك من باب عطف الخاص على العام، وإلّا فالسحر نوع من أنواع الشرك، لكن الرسول ﷺ خصّه بالذكر، وعطفه على الشرك من باب عطف الخاص على العام من أجل الاهتمام بتجنبه.

«وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق» النفس التي حرم الله هي نفس المؤمن ونفس المعاهد، فالمؤمن عصم الله دمه وماله وعرضه، فلا يجوز الاعتداء عليه، قال ﷺ: «أُمرت أن أُقاتل النّاس حتى يقولوا: لا إله إلّا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلّا بحقها، وحسابهم على الله عزّ وجلّ»، وقال ﷺ: «إن

. . . .

دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا في بلدكم هذا في شهركم هذا، ألا هل بلغت؟».

وقوله ﷺ: «إلّا بالحق» أي: إلّا بسبب يبيح قتل المؤمن أو المعاهد، وقد بيّنه رسول الله ﷺ بقوله: «لا يحل دم امرئ مسلم إلّا بإحدى ثلاث: الثّيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة».

«الثيب الزاني» المراد به: المُحْصَن الذي تزوج ووطئ زوجته بنكاح صحيح، ثمّ زنى فإنه يُقتل، وكيفيّة قتله: أنه يُرجم بالحجارة حتى يموت، كما تواترت بذلك سنّة الرسول ﷺ، وذلك حماية للأعراض.

«والنفس بالنفس» والمراد به: القصاص، إذا قتل مُكافِئًا له عمدًا عدوانًا، فإنه يُقتل قصاصًا، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، وذلك حماية للأنفس.

«والتارك لدينه المفارق للجماعة» وهو المرتد، وهو الذي ارتكب ناقضًا من نواقض الإسلام، فهذا يُستتاب، فإن تاب ورجع إلى الإسلام وإلّا قُتل مرتدًا، حماية للدين من العبث.

ثم قال ﷺ: «وأكل الربا»، والربا لغة: الزيادة، والمراد به هنا: زيادة مخصوصة في مال مخصوص، وهي الأصناف التي حرم الرسول ﷺ الزيادة فيها بقوله: «الذهب بالذهب، والفضة بالفضة، والبُرّ بالبُرّ، والشعير بالشعير، والتمر بالتمر، والملح بالملح، سواءً بسواء، يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف فبيعوا كيفما شئتم إذا كان يدًا بيد» وألحق جمهور العلماء بهذه الستة ما شابهها في العلة.

والربا من أكبر الكبائر بعد الشرك، قد توعّد الله عليه بأشد الوعيد، كما في آخر سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ

....

فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَوٰا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ ۗ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾، وقد لعن النبي ﷺ آكل الربا، وموكله، وشاهديه، وكاتبه، فالربا من أعظم الكبائر بعد الشرك.

قوله: «وأكل الربا» ليس المراد خصوص الأكل، وإنما كل الاستعمالات: من أكله ولبسه وإهدائه، إلى غيره، كل استعمالات الربا حرام، وكذلك من ادّخره عنده أو جعله رصيدًا له في البنك.

وإنما ذكر الأكل لأنه غالب وجوه الانتفاع، وإلّا فكل وجوه استعمالات الربا محرّمة.

قال ﷺ: «وأكل مال اليتيم» المراد باليتيم: من مات أبوه وهو دون البلوغ، والواجب الإحسان إلى اليتيم، لأنه فقد أباه وعطفَه، فيجب على المسلمين أن يسدّوا محلّ والده بالإحسان إليه ورعايته، وإن كان له مال فيجب أن يحافظ عليه حتى يبلغ رشيدًا، ويسلم له ماله بالتمام، كما قال تعالى: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾.

قال ﷺ: «والتولّي يوم الزحف» التولي يوم الزحف، هو: الفرار من القتال بين المسلمين والكفار إذا حضر المعركة...

قال ﷺ: «وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات» المراد بالقذف: الرمي بالفاحشة، من زنا أو لواط. والمراد بالمحصنات: العفيفات عن الزنا من الحرائر، ومثلهن الرجال العفيفون.

والواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، ولا يرمي أحدًا بالزنى، أو باللواط، وإذا قذفه ولم يُقم البيّنة فإنه يُجلد ثمانين جلدة، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا﴾

٦٣) وفِي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» عَنْ بَجَالَةَ بنِ عَبَدَةَ قَالَ: كَتَبَ عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ: أَنِ اقْتُلُوا كُلَّ سَاحِرٍ وسَاحِرَةٍ، قَالَ: فَقَتَلْنَا ثَلاثَ سَوَاحِرَ.

وصَحَّ عَنْ حَفْصَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّهَا أَمَرَتْ بِقَتْلِ جَارِيَةٍ لَهَا سَحَرَتْهَا، فَقُتِلَتْ . وكَذَلِكَ صَحَّ عَنْ جُنْدبٍ. قَالَ أَحْمَدُ: عَنْ ثَلاثَةٍ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ .

والشاهد من هذا الحديث: أن الرسول ﷺ عدّ السحر من السبع الموبقات.

٦٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي صحيح البخاري عن بجالة قال: كتب عمر إلى أمراء الأجناد في الشام: (أن يقتلوا كل ساحر وساحرة).

لما سبق من ضررهم الذي لا يزال إلا بقتلهم، ولربما يظهرون التوبة، وهو كاذب كالمنافقين، والساحر يقتل كفرًا لا يستتاب على الصحيح.

وصح عن حفصة أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها؛ فقتلت، لأنها علمت أنها تتعاطى السحر فقتلتها.

قال أحمد: صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ أي: صح قتل الساحر، والثلاثة هم جندب وعمر وحفصة، وهذا هو الصواب.

«فائدة»: قال بعض أهل العلم ومنهم الشافعي: إن كان سحر الساحر بأشياء معروفة تؤذي ولا تغير العقول، بل تؤذي وتمرض ولا يكون فيه ادعاء لعلم الغيب، ولم يكن ممن يستخدم الشياطين ويستعين بهم، ولم يكن يتعاطى ما حرمه الله من الشرك وغيره فهذا لا يقتل؛ لأن هذا ليس من السحر، بل هو من الأذى والظلم فيضرب ويؤدب، لأن المراد من قتل السحرة عند الصحابة هم الذين يستخدمون الجن ويعبدونهم ويدعون الغيب وهذا هو الغالب في السحرة فهذا يقتل وهو الصواب.

فائدة:

ثبت أن النبي ﷺ قد سحر، لكنه لم يؤثر عليه شيئًا في أمور الرسالة، وإنما

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ.

كان فيما يتعلق بينه وبين أهله كما هو في الصحيحين[١].

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «وفي صحيح البخاري». ذكر في الشرح - أعني: «تفسير العزيز الحميد» - أن هذا اللفظ ليس في «البخاري»، والذي في «البخاري» أنه: «أمر بأن يفرق بين كل ذي محرم من المجوس»[٢]، لأنهم يجوزون نكاح المحارم. والعياذ بالله، فأمر عمر أن يفرق بين ذوي الرحم ورحمه، لكن ذكر الشارح صاحب «تيسير العزيز الحميد»: أن القطيعي رواه في الجزء الثاني من «فوائد»، وفيه: «ثم اقتلوا كل كاهن وساحر»، وقال (أي: الشارح): إسناده حسن. قال: وعلى هذا فعزو المصنف إلى البخاري يحتمل أنه أراد أصله لا لفظه. اهـ.

قوله: «قال أحمد عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ».

وهم: عمر، وحفصة، وجندب الخير، أي: صح قتل الساحر عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ.

والقول بقتلهم موافق للقواعد الشرعية، لأنهم يسعون في الأرض فسادًا، وفسادهم من أعظم المفاسد، فقتلهم واجب على الإمام، ولا يجوز للإمام أن يتخلف عن قتلهم، لأن مثل هؤلاء إذا تركوا وشأنهم انتشر فسادهم في أرضهم وفي أرض غيرهم، وإذا قتلوا سلم الناس من شرهم، وارتدع الناس عن تعاطي السحر.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة: ١٠٢]، أي: نصيب، ومن لا خلاق له في الآخرة، فإنه كافر، إذ كل من له نصيب في الآخرة فإن مآله إلى الجنة.

---

(١) رواه البخاري (٥٧٦٥) ومسلم (٢١٨٩).

(٢) البخاري: كتاب الجزية/ باب الجزية والموادعة.

«الثَّانِيَةُ» : تَفْسِيرُ آيَةِ النِّسَاءِ.

«الثَّالِثَةُ» : تَفْسِيرُ الجِبْتِ والطَّاغُوتِ، والفَرْقُ بَيْنَهُمَا.

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّ الطَّاغُوتَ قَدْ يَكُونُ مِنَ الجِنِّ، وقَدْ يَكُونُ مِنَ الإِنْسِ.

«الخَامِسَةُ» : مَعْرِفَةُ السَّبْعِ المُوبِقاتِ المَخْصُوصَاتِ بِالنَّهْيِ.

«السَّادِسَةُ» : أَنَّ السَّاحِرَ يَكْفُرُ.

«السَّابِعَةُ» : أَنَّهُ يُقْتَلُ ولَا يُسْتَتَابُ.

«الثَّامِنَةُ» : وُجُودُ هَذَا فِي المُسْلِمِينَ عَلَى عَهْدِ عُمَرَ، فَكَيْفَ بَعْدَهُ؟

الثانية: تفسير آية النساء، وهي قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، وفسر عمر الجبت بالسحر والطاغوت بالشيطان، وفسر بأن الجبت: كل ما لا خير فيه من السحر وغيره.

الثالثة: تفسير الجبت والطاغوت والفرق بينهما، وهذا بناء على تفسير عمر رضي الله عنه.

الرابعة: أن الطاغوت قد يكون من الجن، وقد يكون من الإنس. تؤخذ من قول جابر: الطواغيت كهان، وكذلك قول عمر: الطاغوت الشيطان، فإن الطاغوت إذا أطلق، فالمراد به شيطان الجن، والكهان شياطين الإنس.

الخامسة: معرفة السبع الموبقات المخصوصات بالنهي. وقد سبق بيانها.

السادسة: أن الساحر يكفر، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢].

السابعة: أنه يقتل ولا يستتاب. يؤخذ من قوله: «حد الساحر ضربة بالسيف»، والحد إذا بلغ الإمام لا يستتاب صاحبه، بل يقتل بكل حال، أما الكفر، فإنه يستتاب صاحبه، وهذا هو الفرق بين الحد وبين عقوبة الكفر...

الثامنة: وجود هذا في المسلمين في عهد عمر، فكيف فيما بعده؟ تؤخذ من قوله: «كتب عمر: أن اقتلوا كل ساحر وساحرة»، فهذا إذا كان في زمن الخليفة

....

الثاني في القرون المفضلة، بل أفضلها، فكيف بعده من العصور التي بعدت عن وقت النبي ﷺ وخلفائه وأصحابه؟.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وفي صحيح البخاريّ: عن بَجَالة بن عَبَدة، قال: كتب عمر بن الخطاب» أمير المؤمنين، ثاني الخلفاء الراشدين، رضي الله عنهم أجمعين.

«أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» فهذا يؤيِّد حديث جُنْدب: «حدّ الساحر: ضربه بالسيف».

إذا كان عمر بن الخطاب- أمير المؤمنين وثاني الخلفاء الراشدين- كتب إلى الأمصار وإلى ولاته: «أن اقتلوا كل ساحر وساحرة» واشتهر ذلك، والنبي ﷺ يقول: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي»؛ إذًا فقتل الساحر دلّ عليه الحديث، وفعل عمر بن الخطاب.

قال: «وصحّ عن حفصة» هي: حفصة بنت عمر بن الخطاب، أم المؤمنين رضي الله عنها «أنها أمرت بقتل جارية لها» أي: مملوكة لها.

«سحرتها» سحرت حفصة رضي الله عنها فأمرت بقتلها.

وهذا أيضًا فعل صحابيّة، وهي أم المؤمنين، أمرت بقتل مملوكتها لما سحرت.

ولذلك «قال أحمد» هو أحمد بن حنبل، إمام أهل السنّة، والصابر على المحنة، أحد الأئمة الأربعة المشهورين في الإسلام الذين بقِيت مذاهبهم حيّة، وله من الفضائل رحمه الله الشيء الكثير، وكُتب في مناقبه وترجمته مؤلّفات، كان إمامًا في السنّة، ومناصرًا للحق، وصابرًا على المحنة، حتى ثبّته الله، وثبّت به عقيدة المسلمين من الزيغ حينما امتُحن النّاس بالقول بخلق القرآن، فثبت، وصبر على الجلد، وعلى السجن، وعلى الإهانة حتى أظهره الله، ونشر به الحق.

قال: «صح عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ» يعني: صح قتل الساحر عن عمر ابن الخطاب، وحفصة أم المؤمنين، وجُندب، وهو جُندب بن كعب الأزدي

....

الغامدي، وله قصة، وهي:

أن الوليد كان يلعب عنده ساحر، ومن جملة سحره أنه يُظهر للناس بأنه يقتل الرجل ثمّ يحييه، حيث يستعمل القُمْرة، أي: السحر التخييلي، فيخيّل إلى النّاس أنه يقطع رأس الرجل ثمّ يعيد الرأس مكانه، فيما يظهر للنّاس، فجاء جُنْدب بن كعب رضي الله عنه مُخْفيًا السيف، فلما وصله قطع رأسه، وقال: إن كان صادقًا فليحيي نفسه.

قتله غَيْرة على دين الله عزّ وجلّ، وتحدّيًا لهذا الساحر الذي يُحيي الموتى بزعمه، فبذلك بطلت هذه الحيلة الشيطانية، وانقشعت هذه القُمْرة، وتبيّن أنه كاذب.

ويُستفاد من هذه الآثار فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: كُفر الساحر، لأن الصحابة قتلوه، وما قتلوه إلّا لكفره...

الفائدة الثانية: في الحديث دليل على وجوب قتل الساحر قتل ردّة، لأنه صحّ عن ثلاثة من أصحاب النبي ﷺ: عمر وحفصة وجُندب، ولم يظهر لهم مخالف من الصحابة، فدلّ على وجوب قتله، لأنه مرتدّ، والمرتدّ يجب قتله...

الفائدة الثالثة: في هذه الآثار دليل على أنه يُقتل ولا يُستتاب، لأنه لم يذكر في هذه الآثار أن الصحابة استتابوه، وإنما فيها أنهم قتلوه، ولم يذكر أنهم استتابوه.



٦٤) ٢٥-بابٌ

بَيَانُ شَيْءٍ مِنْ أَنْوَاعِ السِّحْرِ ، قَالَ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا عَوْفٌ عَنْ حَيَّانَ بنِ العَلاءِ، حَدَّثَنَا قَطَنُ بنُ قَبِيصَةَ عَنْ أَبِيهِ أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ العِيَافَةَ والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ»

قَالَ عَوْفٌ: العِيَافَةُ: زَجْرُ الطَّيْرِ، والطَّرْقُ: الخَطُّ يُخَطُّ بِالأَرْضِ، والجِبْتُ: قَالَ الحَسَنُ: رَنَّةُ الشَّيْطَانِ. إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ. ولأَبِي دَاوُدَ والنَّسَائِيِّ وابنِ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ، لَهُمُ المُسْنَدُ مِنْهُ.

---

٦٤) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف أن يبين شيئًا مما يسمى سحرًا؛ لينتبه المؤمن ويجتنبها، ويبتعد عنها، وقد تسمى سحرًا من جهة أنها تضر وتؤذي، وإن لم تكن سحرًا من جهة المعنى والحقيقة الذي هو استخدام الشياطين وعبادتهم، فهذا سحر محض أما الثانية فهو يعمل عمل السحر ويؤذي، وإن لم يكن سحرًا في الحقيقة.

قال أحمد: حدثنا محمد بن جعفر... أنه سمع الرسول ﷺ قال: «إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت».

«الجبت»: السحر كما قال عمر -رضي الله عنه.

والمعنى أن هذه يطلق عليها أنها من السحر من جهة ما فيها من الشر والفساد ومن جهة ما قد يدعيه أصحابها من علم الغيب.

«والعيافة»: زجر الطير كما قال عوف فيزجرون الطير، ويزعمون أنها تدلهم على شيء؛ فيتشاءمون بها تارة، ويتيمنون بها تارة أخرى، وهذا من عمل الجاهلية والطيور ليس عندها خير ولا شر، ولكن هذا من جهلهم وضلالهم كما يتشاءمون بالغراب والبومة، أو حيوان سيئ الخلقة، ويتيمنون بالحيوان الحسن الخلقة، ويقولون: هذا مخرج طيب والعكس كذلك.

....

«والطرق»: الخط يخط في الأرض، ويقولون: هذا يدل على كذا، وأنه يحصل كذا، وهذا قد يكون من العبث أحيانًا، وقد يكون تخيلًا، وهو في الحقيقة خدمة للشياطين، وأخذ بأقوالهم وطاعتهم ودعوى علم الغيب وكله كذب، وهي لا تفيد شيئًا.

«والجبت»: قال الحسن: رنة الشيطان.

«الطيرة»: هي التشاؤم بالمرئي أو المسموع وهي محرمة ومن الشرك الأصغر، وقد تكون أكبر إذا اعتقد بأن الطائر يتصرف في الكون أو يدبر شيئًا، ولكن الغالب أنهم يتشاءمون بها فقط.

فكل هذا من عمل الجاهلية، ومن الجبت وهو السحر وقيل: الصنم، أو الشيء الذي لا خير فيه، والمقصود الزجر عنها والنهي؛ لأن فيها تشبه بالجاهلية والجاهلين.

قوله لأبي داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسند منه أي: قوله: (إن العيافة والطرق والطيرة من الجبت)، أما ما بعده فهو عند أحمد فقط.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «باب بيان شيء من أنواع السحر».

أي: بيان حقائق هذه الأشياء مع حكمها....

قوله: «العيافة» مصدر عاف يعيف عيافة، وهي: زجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فعند العرب قواعد في هذا الأمر، لأن زجر الطير له أقسام:

فتارة يزجرها للصيد، كما قال أهل العلم في باب الصيد: إن تعليم الطير بأن ينزجر إذا زجر، فهذا ليس من هذا الباب.

وتارة يزجر الطير للتشاؤم أو التفاؤل، فإذا زجر الطائر وذهب شمالاً تشاءم، وإذا ذهب يمينًا تفاءل، وإن ذهب أمامًا، فلا أدري أيتوقفون أم يعيدون الزجر؟ فهذا من الجبت.

قوله: «الطرق». فسره عوف: بأنه الخط يخط في الأرض، وكأنه من الطريق،

....

من طرق الأرض يطرقها إذا سار عليها، وتخطيطها مثل المشي عليها يكون له أثر في الأرض كأثر السير عليها. . . .

قوله: «من الجبت». سبق أن الجبت السحر، وعلى هذا، فتكون «من» للتبعيض على الصحيح، وليس للبيان، فالمعنى أن هذه الثلاثة: العيافة، والطرق، والطيرة من الجبت.

وقوله: «الطيرة» أي: من الجبت، على وزن فعلة، وهو اسم مصدر تطير، والمصدر منه تطير، وهي التشاؤم بمرئي أو مسموع، وقيل: التشاؤم بمعلوم مرئيًّا كان أو مسموعًا، زمانًا كان أو مكانًا، وهذا أشمل، فيشمل ما لا يرى ولا يسمع، كالتطير بالزمان.

وأصل التطير: التشاؤم، لكن أضيفت إلى الطير، لأن غالب التشاؤم عند العرب بالطير، فعلقت به، وإلا، فإن تعريفها العام: التشاؤم بمرئي أو مسموع أو معلوم.

وكان العرب يتشاءمون بالطير وبالزمان وبالمكان وبالأشخاص، وهذا من الشرك كما قال النبي ﷺ.

ووجه كون العيافة من السحر أن العيافة يستند فيها الإنسان إلى أمر لا حقيقة له، فماذا يعني كون الطائر يذهب يمينًا أو شمالاً أو أمامًا أو خلفًا؟ فهذا لا أصل له، وليس بسبب شرعي ولا حسي، فإذا اعتمد الإنسان على ذلك، فقد اعتمد على أمر خفي لا حقيقة له، وهذا سحر كما سبق تعريف السحر في اللغة.

وكذلك الطرق من السحر، لأنهم يستعملونه في السحر، ويتوصلون به إليه.

والطيرة كذلك، لأنها مثل العيافة تمامًا تستند إلى أمر خفي لا يصح الاعتماد عليه.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** مناسبة هذا الباب بعد الباب الذي قبله ظاهرة، لأنه في الباب الذي قبله بيّن ما جاء من الأدلة في كتاب الله وسنّة رسوله في حكم السحر وحكم الساحر، فتطلّعت الأنظار إلى أن يعرف النّاس ما هو السحر، وما هي أنواعه حتى يتجنّبوه.

....

ومن ثَمّ يتعيّن على العلماء وطلبة العلم أن يبيّنوا للناس الحق والباطل، أن يبينوا للناس الحق وأدلّته، وأن يبيّنوا للناس الباطل وأدلّته وأنواعه؛ من أجل أن يأخذوا بالحق على بصيرة، وأن يتركوا الباطل على بصيرة، وإلّا فإنه إذا لم يبيّن الحق والباطل التبس على الناس، وظنوا الحق باطلاً والباطل حقًّا...

قوله: «قال أحمد: حدَّثنا محمَّد بن جعفر» المراد به: غُنْدُر.

«حدثنا عوف» هو: عوف بن أبي جميلة، المسمى بعوف الأعرابي، إمام ثقة مشهور.

«حدثنا حيان بن العلاء» حيان- بالياء المثنّاة- بن العلاء، بصريٌّ مقبول.

«حدثنا قَطَن بن قَبِيصة» قَطَن بن قَبِيصة تابعي، بصري ثقة.

«عن أبيه»: قَبِيصة بن المُخَارق الهلالي، صحابي معروف.

«أنه» يعني: قبيصة رضي الله عنه.

«سمع النبي ﷺ قال: «إن العِيافة والطَّرْق والطِّيَرة من الجبت»».

وتفسير هذه الألفاظ مروي عن: «عوف»، وهو: عوف بن أبي جميلة، المسمى بعوف الأعرابي؛ أحد رواة هذا الحديث.

قال: «العيافة: زَجْر الطير» ومعناه: التشاؤم بأصواتها وأسمائها ومسارها.

«والطَّرْق: الخطُّ يخطّ في الأرض» من أجل استطلاع الأمور الغائبة، وهي طريقة جاهلية، وهم لا يعلمون بها الغيب بذاتها، وإنما الشياطين هي التي تأتي لهم بما يريدون إذا تقرّبوا إليهم بالعبادة، وكفروا بالله عزّ وجلّ، لأن الشياطين تريد إضلال بني آدم مهما استطاعت. قوله:

«قال الحسن» هو الحسن البصري إمام التابعين.

«الجبت: رنّة الشيطان» أي: صوت الشيطان، وصوت الشيطان يشمل أشياء كثيرة، منها: الأغاني والمزامير، قال تعالى: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾.

وصوت الشيطان: كل كلام باطل، وكل كلام كفر أو شرك.

فهذا فيه بيان الشيء من أنواع السحر:

٦٥) وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ «مَنِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ النُّجُومِ، فَقَدِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ». رواهُ أَبُو دَاودَ، وإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ.

فالعِيافة نوع من أنواع السحر، والطَّرْق نوع من أنواع السحر، والطِّيَرة نوع من أنواع السحر.

كلها من أنواع السحر؛ لأنها من الجبت، والجبت السحر كما سبق، فالسحر إذًا كلمة عامة تجمع شرورًا كثيرة، إما قولية، وإما عمليّة.

ثم قال المصنِّف رحمه الله: «إسناده جيّد» أي: إسناد الإمام أحمد جيد، لأن رواته ليس فيهم أحد مجروح.

قال: «وروى أبو داود والنسائي وابن حبان في صحيحه المسنَدَ منه» أي: رووا أصل الحديث، دون التفسير المذكور الذي ذكره عوف.

«وأبو داود»، هو الإمام المشهور، سليمان بن الأشعث، صاحب السنن المشهورة بسنن أبي داود وهي إحدى السنن الأربع.

«والنسائي» هو: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، الإمام الجليل، صاحب «السنن الكبرى» إحدى السنن الأربع.

«وابن حبّان في صحيحه» ابن حبّان هو: أبو حاتم، محمَّد بن حبان البُسْتي، صاحب الصحيح المسمّى بـ «صحيح ابن حبان».

٦٥) الشرح:

*** أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** - حديث ابن عباس مرفوعًا: «من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد» رواه أبو داودا وإسناده صحيح.

يدل على أن تعلم أمر النجوم في التأثير في الكون هو من أقوال المنجمين والمشعوذين، وهو باطل، ومنه التعلق بالنجوم في موت أحد وحياته، أو زوال ملك فلان وغيره.

«زاد ما زاد»: أي: كلما زاد اقتباسه من النجوم زاد اقتباسه من السحر والشر،

ولِلنسائِيِّ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: «مَنْ عَقَدَ عُقْدَةً ثُمَّ نَفَثَ فِيهَا فَقَدْ سَحَرَ، ومَنْ سَحَرَ فَقَدْ أَشْرَكَ، ومَنْ تَعَلَّقَ شَيْئًا وُكِلَ إِلَيْهِ»

والمراد: علم أن للنجوم تأثيرًا فهذا هو المنكر وهو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، أما الاستفادة من النجوم وسيرها في معرفة القبلة والحر والبرد فلا بأس به؛ لأنه من علم التسيير، لا من علم التأثير وهو من نعمة الله، ومن التشاؤم بالزمان ألا يذبح ولا يشتري ولا يعقد عقدًا في صفر فهو عمل جاهلي.

وللنسائي من حديث أبي هريرة: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر ومن سحر فقد أشرك**».

أراد المؤلف بيان ما تقدم من أنواع السحر، وإن من هذه الأنواع العقد والنفث فالسحرة يعقدون عقدًا، ثم ينفثون فيها بأنفسهم الخبيثة وأرواحهم مع تعاونهم مع الشياطين وخدمتهم لهم وبهذا يقع بعض ما أرادوا بإذن الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بإذنه الكوني، وقد ذكر الله السحر في قوله: ﴿وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ فِى ٱلْعُقَدِ﴾ وهم السواحر.

والسحر قسمان:

١- قسم يكون بالعقد والنفث والأدوية الضارة، وهذا موجود.

٢- وقسم يكون بالتخييل والتلبيس والتزوير، كما قال تعالى عن سحرة فرعون: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾، وقال: ﴿وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ فسماه عظيمًا لما فيه من التلبيس والتخييل على الناس.

ومن سحر فقد أشرك: من تعاطيه السحر؛ لأنه يكون بعبادة الشياطين ودعائهم.. ولهذا قال الله: ﴿وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ﴾ وقال: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ فدل على أن تعلمه يوجب الكفر.

وإسناد هذا الحديث فيه ضعف؛ لأنه من رواية الحسن عن أبي هريرة، وقد ذكر جمع من العلماء أن الحسن لم يسمع من أبي هريرة فيكون منقطعًا، وهو من رواية عباد بن ميسرة، وفيه ضعف لكن له شواهد من حيث المعنى.

....

«من تعلق بشيء وكل إليه»: فمن تعلق بالله وكل إلى الله، وكفاه الله ما أهمه. ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ ومن تعلق بالسحر والتمائم والشياطين وكله الله إليهم، ومن توكل على غير الله فقد خسر وهلك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «من». شرطية، وفعل الشرط: «اقتبس»، وجوابه: «فقد اقتبس».

قوله: «اقتبس». أي تعلم، لأن التعلم وهو أخذ الطالب من العالم شيئًا من علمه بمنزلة الرجل يقتبس من صاحب النار شعلة.

قوله: «شعبة». أي: طائفة، ومنه قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾ [الحجرات: ١٣]، أي: طوائف وقبائل.

قوله: «من النجوم». المراد: علم النجوم، وليس المراد النجوم أنفسها، لأن النجوم لا يمكن أن تقتبس وتتعلم، والمراد به هنا علم النجوم الذي يستدل به على الحوادث الأرضية، فيستدل مثلاً باقتران النجم الفلاني بالنجم الفلاني على أنه سيحدث كذا وكذا.

ويستدل بولادة إنسان في هذا النجم على أنه سيكون سعيدًا، وفي النجم الآخر على أنه سيكون شقيًا، فيستدلون باختلاف أحوال النجوم على اختلاف الحوادث الأرضية، والحوادث الأرضية من عند الله، قد تكون أسبابها معلومة لنا، وقد تكون مجهولة، لكن ليس للنجوم بها علاقة، ولهذا جاء في حديث زيد بن خالد الجهني في غزوة الحديبية، قال: صلى بنا رسول الله ذات ليلة على إثر سماء من الليل، فقال: «قال الله تعالى: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فمن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا - بنوء يعني: بنجم، والباء للسببية، يعني: هذا المطر من النجم - فإنه كافر بي مؤمن بالكوكب، ومن قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الأذان/ باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم (٨١٠)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب بيان كفر من قال مطرنا بال[illegible] ٧٠).

....

قوله: «فقد اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد». المراد بالسحر هنا: ما هو أعم من السحر المعروف، لأن هذا من الاستدلال بالأمور الخفية التي لا حقيقة لها، كما أن السحر لا حقيقة له، فالسحر لا يقلب الأشياء، لكنه يموه، وهكذا اختلاف النجوم لا تتغير بها الأحوال.

قوله: «زاد ما زاد». أي: كلما زاد شعبة من تعلم النجوم ازداد شعبة من السحر.

قوله: «من عقد عقدة». «من» شرطية، والعقد معروف.

قوله: «ثم نفث فيها». النفث: النفخ بريق خفيف، والمراد هنا النفث من أجل السحر.

قوله: «ومن سحر فقد أشرك». «من» هذه شرطية، وفعل الشرط: «سحر»، وجوابه: «فقد أشرك».

وقوله: «فقد أشرك». هذا لا يتناول جميع السحر، إنما المراد من سحر بالطرق الشيطانية.

قوله: «ومن تعلق شيئًا وكل إليه». «تعلق شيئًا»، أي: استمسك به، واعتمد عليه.

«وكل إليه»، أي: جعل هذا الشيء الذي تعلق به عمادًا له، ووكله الله إليه، وتخلى عنه.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «فقد اقتبس شُعبة من السحر» وهذا هو الشاهد من الحديث للباب، حيث دلّ على أن التنجيم نوع من أنواع السحر، لأن كلًّا من المنجِّم والساحر يدّعي علم الغيب الذي اختص الله تعالى بعلمه.

وقوله: «زاد ما زاد» يعني: كلما زاد من الاقتباس زاد من السحر، فمُقِلٌّ ومُسْتَكْثِر. فهذا تحذير من الرسول ﷺ.

فالإنسان لا يجوز له أن يتعلم التنجيم الذي عليه المشركون، لأنه سحر وشرك

....

بالله سبحانه وتعالى، وادِّعاءً لعلم الغيب الذي لا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى. . .

وقوله: «فقد سحر» يدل على أن هذا العمل سحر.

وقوله: «ومن سحر فقد أشرك» هذا هو الشاهد من الحديث؛ أن من أنواع الشرك: عقد العُقد والنفث فيها بقصد السحر، لأن الساحر لا يتوصّل إلى سحره إلَّا بالاستعانة بالشياطين، وإذا استعان بالشياطين فقد أشرك بالله عزّ وجلّ.

قوله: «ومن تعلّق شيئًا وُكِل إليه» أي: من اعتقد في شيء من دون الله أنه ينفع أو يضر وَكَله الله إلى ذلك الشيء.

فمن اعتقد في السحرة والكُهّان والمشعوذين والمنجِّمين والأموات والأولياء أنهم ينفعون أو يضرُّون من دون الله وُكِل إليهم؛ عقوبةً له، وتخلّى الله سبحانه وتعالى عنه، وَوَكَله إلى هؤلاء الذين لا يملكون ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا، وتنقطع صلته بالله الذي بيده المُلْك، والذي بيده الخير، والذي يرحم عباده ويرزقهم، ويكلُه الله إلى هذه المخلوقات الضعيفة، لأنه اعتمد عليها، وتوكّل عليها، وخاف منها، ورجاها، فيوكل إليها. . .

فمن توكّل على الله كفاه، ومن توكل على غير الله وَكَله الله إلى ضعيف، عاجز لا يُغني عنه من الله شيئًا، لا في الدّنيا ولا في الآخرة.

ونجد الموحِّدين الصادقين في قوة وفي أمن، وفي سرور بال وراحة نفس وطُمأنينة، لأنهم توكّلوا على الله.

ومن عبد الله وحده تولى الله أمره في الدُّنيا والآخرة، ونجاه من العذاب، وأدخله الجنة.

ومن عبد الشياطين والمخلوقين والقبوريين وغير ذلك وَكَله الله إليهم يوم القيامة، يقول لهم: اذهبوا إلى من كنتم تعبدونهم في الدنيا، وإذا ذهبوا إليهم تبرأوا منهم: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟﴾، ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ﴾، هذا في الدّنيا.

وفي الآخرة: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ﴾، وقت الحاجة

٦٦) عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَلَا هَلْ أُنَبِّئُكُمْ مَا العَضْهُ؟ هِيَ النَّمِيمَةُ، القَالَةُ بَيْنَ النَّاسِ» رَواهُ مُسْلِمٌ.

ولَهُمَا عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُما، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ مِنَ البَيَانِ لَسِحْرًا».

ووقت الخطر كفروا بعبادتهم وتبرأوا منهم، فيذهبون إلى النار، لأنهم لم يعقدوا مع الله صلة تصلهم بالله عزّ وجلّ، ولم يعبدوا الله ويوحِّدوه، بل عبدوا غيره.

٦٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: - مسلم عن ابن مسعود مرفوعًا: «ألا أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة والقالة بين الناس».

«العضه»: بفتح العين وتسكين الضاد قال في القاموس: هي بمعنى السحر والكذب والنميمة، وذكره هنا؛ لأن السحر يحصل به بهتان وكذب وتلبيس وغش على الناس وخيانة.

«النميمة والقالة بين الناس»: سميت عضه؛ لأنها تضر الناس ويترتب عليها من الكذب والفرية وشحذ القلوب والإفساد بين الناس.

ولهذا قال يحيى بن أبي كثير كما روى عنه ابن عبد البر: «قد يفسد النمام والكذاب في الساعة أكثر مما يفسده الساحر في السنة» فشرهم كبير، ولهذا قال النبي عليه الصلاة والسلام: «لا يدخل الجنة نمام»(١).

ولهما: عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان لسحرًا».

«البيان»: الفصاحة والبلاغة؛ لأن صاحب البيان قد يسحر الناس بأسلوبه وفصاحته؛ فربما لبس عليهم الأمر وربما خدعهم، وخفيت عليهم الحقائق.

وأصل الحديث قال الجمهور: إن فيه مدح البيان إذا كان في الحق.

وقيل: إنه يراد به الذم حكاه ابن عبد البر عن جماعة من العلماء.

ولكن يقال: إن البيان إذا كان في الحق والدعوة إلى الكتاب والسنة فهذا

---

(١) رواه البخاري (٦٠٥٦)، ومسلم (١٠٥) واللفظ لمسلم.

....

ممدوح، أما إذا أريد به الخداع واللبس فهذا ذم وعيب والحديث يحتمل الاثنين.

والكتاب والسنة قد جاءا بأوضح البيان، وأفصحه في بيان الحق ودعوة الناس.

وخطب رجل عند عمر بن عبد العزيز فأحسن فقال: هذا والله السحر الحلال.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «ألا». أداة استفتاح، والغرض تنبيه المخاطب والاعتناء بما يلقى إليه لأهميته.

قوله: «هل أنبئكم ما العضة». الاستفهام للتشويق، كقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠].

قوله: «العضه» على وزن الحبل والصمت والوعد، بمعنى القطع، وأما رواية العضة على وزن عدة، فإنه بمعنى التفريق، وأيًا كان، فإنها تتضمن قطعًا وتفريقًا.

قوله: «هي النميمة» فعيلة بمعنى مفعولة، وهي من نم الحديث إلى غيره، أي: نقله، والنميمة فسرها بقوله: «القالة بين الناس»، أي: نقل القول بين الناس، فينقل من هذا إلى هذا، فيأتي لفلان ويقول: فلان يسبك، فهو نم إليه الحديث ونقله، وسواء كان صادقًا أو كاذبًا، فإن كان كاذبًا فهو بهت ونميمة، وإن كان صادقًا، فهو نميمة.

والنميمة كما أخبر الرسول ﷺ تقطع الصلة، وتفرق بين الناس[(١)].

والنميمة من كبائر الذنوب، وهي سبب لعذاب القبر، ومن أسباب حرمان دخول الجنة، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[(٢)]، أي: نمام، وفي حديث ابن عباس المتفق عليه: أنه ﷺ «مر بقبرين يعذبان، أحدهما كان يمشي بالنميمة»[(٣)].

ونحن لو تأملنا النصوص الشرعية، لوجدناها تحرم كل ما يكون سببًا للتفرق

---

(١) الإمام أحمد (٦/ ٤٥٩).

(٢) البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يكره من النميمة (٥٧٠٩)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب غلظ تحريم النميمة، ولفظه: «لا يدخل الجنة نمام» (١٠٥).

(٣) البخاري: كتاب الجنائز/ باب عذاب القبر من الغيبة (١٣١٢)، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب الدليل على نجاسة البول (٢٩٢).

....

والقطيعة، قال ﷺ: «ولا يبيع بعضكم على بيع أخيه»[1]، وقال: «لا يخطب الرجل على خطبة أخيه»[2]، وكل هذا لدفع ما يوجب العداوة والبغضاء بين الناس.

قوله: «إن من البيان». «إن»: حرف توكيد، ينصب الاسم ويرفع الخبر، «من»: يحتمل أن تكون للتبعيض، ويحتمل أن تكون لبيان الجنس، فعلى الأول يكون المعنى: إن بعض البيان سحر وبعضه ليس بسحر، وعلى الثاني يكون المعنى: إن جنس البيان كله سحر.

قوله: «لسحرًا». اللام للتوكيد، «سحرًا»: اسم إن.

والبيان: هو الفصاحة والبلاغة، وهو من نعمة الله على الإنسان، قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٣، ٤].

والبيان نوعان:

الأول: بيان لابد منه، وهذا يشترك فيه جميع الناس، فكل إنسان إذا جاع قال: إني جعت، وإذا عطش قال: إني عطشت، وهكذا.

الثاني: بيان بمعنى الفصاحة التامة التي تسبي العقول وتغير الأفكار، وهي التي قال فيها الرسول ﷺ: «إن من البيان لسحرًا».

وقوله: «إن من البيان لسحرًا»، وهل هذا على سبيل الذم، أو على سبيل المدح، أو لبيان الواقع ثم ينظر إلى أثره؟

الجواب: الأخير هو المراد، فالبيان من حيث هو بيان لا يمدح عليه ولا يذم، ولكن ينظر إلى أثره، والمقصود منه، فإن كان المقصود منه رد الحق وإثبات الباطل، فهو مذموم، لأنه استعمال لنعمة الله في معصيته، وإن كان المقصود منه إثبات الحق وإبطال الباطل، فهو ممدوح، وإذا كان البيان يستعمل في طاعة الله وفي

---

(١) البخاري: كتاب البيوع/ باب لا يبيع الرجل على بيع أخيه، ومسلم: كتاب البيوع/ باب تحريم بيع الرجل على بيع أخيه.

(٢) البخاري: كتاب النكاح/ باب لا يخطب على خطبة أخيه، ومسلم: كتاب النكاح/ باب تحريم الخطبة على خطبة أخيه.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: أَنَّ العِيافَةَ والطَّرْقَ والطِّيَرَةَ مِنَ الجِبْتِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ العِيَافَةِ والطَّرْقِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ عِلْمَ النُّجُومِ نَوْعٌ مِنَ السِّحْرِ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ العَقْدَ مَعَ النَّفْثِ مِنْ ذَلِكَ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ النَّمِيمَةَ مِنْ ذَلِكَ.

«السَّادِسَةُ»: أَنَّ مِنْ ذَلِكَ بَعْضَ الفَصَاحَةِ.

الدعوة إلى الله، فهو خير من العي، لكن إذا ابتلي الإنسان ببيان ليصد الناس عن دين الله، فهذا لا خير فيه، والعي خير منه، والبيان من حيث هو لا شك أنه نعمة، ولهذا امتن الله به على الإنسان، فقال تعالى: ﴿عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾ [الرحمن: ٤].

قال: «فيه مسائل»، أي: في هذا الباب وما تضمنه من الأحاديث والآثار مسائل:

المسألة الأولى: أن العيافة والطرق والطيرة من الجبت. وقد سبق تفسير هذه الثلاثة وتفسير الجبت.

الثانية: تفسير العيافة والطرق. وقد بينت في الباب أيضًا وشرحت.

الثالثة: أن علم النجوم نوع من السحر. لقوله: «من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر»، وسبق الكلام عليها أيضًا.

الرابعة: العقد مع النفث من ذلك. لحديث أبي هريرة: «من عقد عقدة ثم نفث فيها، فقد سحر»، وقد تقدم الكلام على ذلك.

الخامسة: أن النميمة من ذلك. لحديث ابن مسعود: «ألا هل أنبئكم ما العضه؟ هي النميمة»، وهي من السحر، لأنها تفعل ما يفعل الساحر من التفريق بين الناس والتحريش بينهم، وقد سبق بيان ذلك.

السادسة: أن من ذلك بعض الفصاحة. أي: من السحر بعض الفصاحة، لقول النبي ﷺ: «إن من البيان لسحرًا»، والمؤلف رحمه الله قال: بعض الفصاحة

....

استدلالاً بقوله ﷺ: «إن من البيان»، لأن «من» هنا عند المؤلف للتبعيض، ووجه كون ذلك من السحر أن لسان البليغ ذي البيان قد يصرف الهمم وقد يلهب ما عنده من الفصاحة.

* ثالثًا: **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن ابن مسعود» رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «ألا هل أنبئكم ما العَضْهُ؟» العضه: السحر، أي: ما هو السحر؟

وهذا فيه التعليم وطريقة السؤال والجواب، لأن ذلك أوقع في النفس، إذا صار الشيء مهمًّا وخطيرًا فإنه يُلقى على النّاس بطريق السؤال، من أجل أن يتنبّهوا.

ثمّ قال ﷺ في الجواب: «هي النميمة» وهذا لبيان خطر النميمة، كأن النبي ﷺ حصر السحر فيها تحذيرًا منها.

ولماذا صارت النميمة بهذه الخطورة؟ لأن النميمة تعمل عمل السحر، فتفرّق بيّن النّاس كما يفرّق بينهم السحر، بل هي أشد، كما قال بعضهم: «يُفسد النمّام في ساعة ما يُفسده الساحر في سنة»، فالنميمة أشدّ تأثيرًا من السحر، لأنها تفرّق بين المسلمين والسحر إنما يؤثر فيمن وقع عليه.

والنميمة معناها: نقل الحديث بين النّاس على وجة الوشاية والإفساد...

والنميمة من الكبائر، وقد بين النبي ﷺ أن النميمة من أسباب عذاب القبر، كما جاء في الحديث أن النبي ﷺ مرّ بقبرين فقال: «إنهما ليعذّبان، ما يعذّبان في كبير، أما إنه كبير، أما أحدهما فكان يمشي بالنميمة، وأما الآخر فكان لا يستبرئ من بوله».

وفي الحديث الصحيح: «لا يدخل الجنة نمّام» وفي رواية: «لا يدخل الجنة قتّات».

والنمام ليس له حكم الساحر، فلا يكفر كما يكفر الساحر.

قال: «ولهما» أي للشيخين: البخاري ومسلم.

«من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إن من البيان

....

لسحرًا» البيان هو: البلاغة والفصاحة، لأن النّاس يُصغون إلى المتكلِّم إذا كان فصيحًا في كلامه، وبليغًا في منطقه، بخلاف ما إذا كان ثَرْثَارًا، فإنهم لا يُصغون إلى كلامه، ويستثقلونه، ويملُّون من سماعه، فإن استعمل هذه القوّة البيانيّة في الخير والدفاع عن الحق، والردّ على الباطل، فهو مأجور، أما إن استعملها بضدّ ذلك، فاستعملها في نُصرة الباطل، وهدم الحق فهو آثم، وهذا هو المذموم...

فالواجب على المسلم إذا أعطاه الله مقدرة في الكلام والمحاورة أن يستعمل هذا في طاعة الله سبحانه وتعالى، وفي الدعوة إلى الخير، وترغيب النّاس في الخير، وتنفيرهم من الشرّ.

أما أن يستعمله بضدّ ذلك بأن يستعمله بالكلام في أعراض العلماء الربانيين وتبديعهم، وتجهيلهم؛ فهذا من السحر.

أو يستعمله في تزيين الشرك، وعبادة القبور، وتزيين البدع والخرافات والمحدثات؛ فهذا من السحر، لأن السحر يقلب الحق باطلًا والباطل حقًّا، كذلك البليغ الذي يستعمل فصاحته في الدعوة إلى الشر.

وما ضلّ كثير من النّاس إلّا بسبب الدعاة البُلغاء المنحرفين إما في الإذاعات، وإما في الصحف، وإما فوق المنابر، وإما في مدرّجات الجامعات، إذا تكلموا استمالوا الحاضرين، وملئوا أدمغتهم بكلام مزوّر، حتى يخرجوا وهم يُبغضون الحق ويحبون الباطل- والعياذ بالله- فهذا خطر عظيم.



٦٧) ٢٦-بابُ ما جَاءَ فِي الكُهَّانِ ونَحوِهِمْ

رَوَى مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ، عَنْ بَعْضِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ عنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا فَسَأَلَهُ عَنْ شَيْءٍ فَصَدَّقَهُ، لَمْ تُقْبَلْ لَهُ صَلَاةٌ أَرْبَعِينَ يَوْمًا»

---

٦٧) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «ونحوهم»: من العرافين والرمالين والسحرة ومن يدعي علم الغيب.

«والكاهن»: هو الذي له راء من الجن أي صاحب، وحكمهم أنه يجب القضاء عليهم وتعزيرهم وتكذيبهم وعدم سؤالهم.

روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ أنه قال: «من أتى عرافًا فسأله عن شيء؛ فصدقه بما يقول لم تقبل له صلاة أربعين يومًا»[١].

«بعض أزواجه»: هي حفصة كما قال المخرجون.

«فصدقه»: ليست هذه اللفظة في مسلم ، فلعل المؤلف وهم أو نقله من نسخة فيها هذه الكلمة في مجموعة التوحيد: «فصدقه» هي عند أحمد، فرواية مسلم تدل على أن السؤال المجرد لا يجوز؛ لأن فيه رفعًا من شأنهم وسؤالهم وسيلة إلى تصديقهم وتعظيمًا لقدرهم ولما يقومون به من الشعوذة فينبغي تركهم وتناسيهم، وعند مسلم عن معاوية بن الحكم قال: (ليسوا بشيء، ولا يأتوهم)[٢] احتقارًا لهم وإعراضًا عنهم وإماتة لهم ولشأنهم.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الكهان: جمع كاهن، والكهنة أيضًا جمع كاهن، وهم قوم يكونون في أحياء العرب يتحاكم الناس إليهم، وتتصل بهم الشياطين، وتخبرهم عما كان في السماء، تسترق السمع من السماء، وتخبر الكاهن

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣٠)، وأحمد (٤/ ٦٨، ٥/ ٣٨٠).
(٢) مسلم (٥٣٧).

....

به، ثم الكاهن يضيف إلى هذا الخبر ما يضيف من الأخبار الكاذبة، ويخبر الناس، فإذا وقع مما أخبر به شيء، اعتقده الناس عالمًا بالغيب، فصاروا يتحاكمون إليهم، فهم مرجع للناس في الحكم، ولهذا يسمون الكهنة، إذ هم يخبرون عن الأمور في المستقبل.

قوله: «من»: شرطية، فهي للعموم.

والعراف: صيغة مبالغة من العارف، أو نسبة، أي: من ينتسب إلى العرافة.

قوله: «فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين يومًا». ظاهر الحديث أن مجرد سؤاله يوجب عدم قبول صلاته أربعين يومًا، ولكنه ليس على إطلاقه، فسؤال العراف ونحوه ينقسم إلى أقسام:

القسم الأول: أن يسأله سؤالاً مجردًا، فهذا حرام لقول النبي ﷺ: «من أتى عرافًا...»، فإثبات العقوبة على سؤاله يدل على تحريمه، إذ لا عقوبة إلا على فعل محرم.

القسم الثاني: أن يسأله فيصدقه، ويعتبر قوله: فهذا كفر لأن تصديقه في علم الغيب تكذيب للقرآن، حيث قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

القسم الثالث: أن يسأله ليختبره: هل هو صادق أو كاذب، لا لأجل أن يأخذ بقوله، فهذا لا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

وقد سأل النبي ﷺ ابن صياد، فقال: «ماذا خبأت لك؟ قال: الدخ فقال: اخسأ، فلن تعدو قدرك»[1]، فالنبي ﷺ سأله عن شيء أضمره، لأجل أن يختبره، فأخبره به.

القسم الرابع: أن يسأله ليظهر عجزه وكذبه، فيمتحنه في أمور يتبين بها كذبه وعجزه، وهذا مطلوب، وقد يكون واجبًا.

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد/ باب كيف يعرض الإسلام على الصبي (٢٨٩٠)، ومسلم: كتاب الفتن/ باب ذكر ابن صياد (٢٩٢٤).

....

قوله: «فصدقه». ليس في «صحيح مسلم»، بل الذي في «مسلم»: «فسأله، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة»، وزيادتها في نقل المؤلف، إما لأن النسخة التي نقل منها بهذا اللفظ «فصدقه»، أو أن المؤلف عزاه إلى «مسلم» باعتبار أصله، فأخذ من «مسلم»: «فسأله»، وأخذ من أحمد: «فصدقه».

قوله: «لم تقبل له صلاة أربعين ليلة». نفي القبول هنا هل يلزم منه نفي الصحة أو لا؟

نقول: نفي القبول إما أن يكون لفوات شرط، أو لوجود مانع، ففي هاتين الحالين يكون نفي القبول نفيًا للصحة، كما لو قلت: من صلى بغير وضوء لم يقبل الله صلاته، ومن صلى في مكان مغصوب لم يقبل الله صلاته عند من يرى ذلك.

وإن كان نفي القبول لا يتعلق بفوات شرط ولا وجود مانع، فلا يلزم من نفي القبول نفي الصحة، وإنما يكون المراد بالقبول المنفي: إما نفي القبول التام، أي: لم تقبل على وجه التمام الذي يحصل به تمام الرضا وتمام المثوبة.

وإما أن يراد به أن هذه السيئة التي فعلها تقابل تلك الحسنة في الميزان، فتسقطها، ويكون وزرها موازيًا لأجر تلك الحسنة، وإذا لم يكن له أجر صارت كأنها غير مقبولة، وإن كانت مجزئة ومبرئة للذمة، لكن الثواب الذي حصل بها قوبل بالسيئة فأسقطته.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** مناسبة هذا الباب لما قبله: أن ما قبله في بيان السحر وحكم الساحر، وبيان بعض أنواع السحر. وهذا في حكم الكُهّان، وذلك للتشابه بين الكُهّان والسحرة، لأن كلًا من السحر والكهانة عمل شيطاني يُنافي العقيدة ويضادّها.

والشيخ رحمه الله في هذا الكتاب يبيّن العقيدة الصحيحة، ويبيّن ما يضادّها من الشركيّات والكفريّات أو ينقصها من البدع والمحدثات.

وهذه هي الطريقة الصحيحة المتمشية مع الكتاب والسنّة؛ أنه يبيّن الخير ويوضّحه، ثمّ يبيّن ضدّه من الشر؛ من أجل أن يكون المسلم على حذر، لأنه لا

....

يكفي أن الإنسان يعرف الخير فقط، بل لابد مع معرفته للخير أن يعرف الشر؛ من أجل أن يتجنّبه، وإلّا إذا لم يعرف الشر فإنه حريٌّ أن يقع فيه وهو لا يدري بل قد يظنه خيرًا.

فقوله: «باب ما جاء في الكُهّان ونحوهم «يعني: ومن كان مثلهم من العرّافين والرّمّالين وغير ذلك، لأن هذا باب يشمل كل ما هو من نوع الكِهانة.

والكِهانة معناها: ادّعاء علم الغيب، بطرق شيطانية.

فالكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيبات من الأشياء المستقبَلَة، والأشياء المفقودة والضالّة، بسبب أنه يخضع للشياطين، لأن الشياطين عندهم مقدرة ليست عند الإنس، فهم يرتفعون في الجوّ ويحاولون استراق السمع من السماء، ثمّ يُخبرون بما يسمعون من يخضع لهم من الإنس، ثمّ هذا الإنسي يأخذ الكلمة التي سُمعت من السماء، ويكذب معها مائة كذبة، من أجل أن يلبّس على النّاس.

وكلما فشا الجهل في الأمة ظهر الكُهّان، وكلما كثر العلم والتمسك بالدين والعقيدة الصحيحة قلّ الكُهّان، أو انقرضوا.

فالجهات التي فيها توحيد، وفيها إسلام صحيح، لا يوجد فيها كُهّان، وإن وُجدوا فإنهم لا يظهرون، ولا يُعرفون إلّا نادرًا.

أما المجتمعات الهمجيّة، والمجتمعات التي فشا فيها الجهل والخرافات، فإن الكُهّان يكثرون فيها، وتكون لهم سوق رائجة فيها، كما كانت لهم في الجاهلية.

فمن أجل ذلك عقد الشّيخ رحمه الله هذا الباب في موضوع الكُهّان، وبيان حكمهم، وحكم من يأتي إليهم وحكم من يسألهم ويصدّقهم؛ من أجل أن يكون المسلمون على حذر منهم، وألا يغتروا بهم، ولو ظهروا للناس باسم أطبّاء أو معالجين أو أصحاب خِبرة، فإن هذه الأسماء أسماء خدّاعة، لا تغيّر الحقيقة، فالكاهن كاهن مهما تسمّى بالأسماء التي يستتر بها.

قال: «روى مسلم في صحيحه عن بعض أزواج النبي ﷺ» ورد في رواية أخرى بأنها حفصة بنت عمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

....

«عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرَّافًا» العرّاف قيل: هو الذي يُخبر عن الأمور الغائبة عن طريق الحَدْس والتّخمين والظّن. وقيل: هو الكاهن. فلا فرق بينهما - كما سيأتي في كلام شيخ الإسلام ابن تيمية-؛ أن العرَّاف اسم عام يدخل فيه كلّ من أخبر عن المغيّبات، سواء عن طريق الشياطين، أو عن طريق الحَدْس والتّخمين، أو عن طريق الخطّ في الرّمل، أو قراءة الكف والفِنْجَان، أو غير ذلك.

«فصدَّقه بما يقول لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا» هذه اللَّفظة (فصدَّقه) ليست في صحيح مسلم، وإنما وردت في رواية الإمام أحمد في المسند، والذي في صحيح مسلم: «من أتى عرّافًا لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا»، فالحكم مرتّب على مجيء العرّاف فقط، لأن إتيان العرّاف والذهاب إليه جريمة ومحرم حتى ولو لم يصدِّقه.

ولهذا لما سأل معاوية بن الحكم رسول الله ﷺ عن العرّافين قال: «لا تأتهم» فالنبي ﷺ نهاه عن مجرّد إتيانهم.

فهذا الحديث يدلّ على تحريم الذهاب إلى العرّافين، حتى ولو لم يصدِّقهم، ولو قال: أنا أذهب من باب الاطلاع، فهذا لا يجوز.

«لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا» في رواية: «أربعين يومًا وليلة».

فدلّ هذا على شدّة عقوبة من يأتي العرّاف، وأن صلاته لا تُقبل عند الله، ولا ثواب له عند الله فيها، وإن كان لا يؤمر بالإعادة، لأنه صلّى في الظاهر، لكن فيما بينه وبين الله صلاته لا ثواب له فيها لأنها غير مقبولة.

❁ ❁ ❁

٦٨) وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» . رَوَاهُ أَبو دَاودَ.

ولِلأَرْبَعَةِ والحَاكِمِ، وقَالَ: «صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِهِمَا»، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ولأَبِي يَعْلَى بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مِثْلُهُ مَوْقُوفًا.

---

٦٨) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن أبي هريرة مرفوعًا: «من أتى كاهنًا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد» .

وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما، عن أبي هريرة: من أتى عرافًا أو كاهنًا فصدقه يدل على أن إتيانهم لا يجوز، وتصديقهم في ادعاء علم الغيب كفر، لأن علم الغيب إلى الله وحده، وهم ليسوا رسلاً، وكذلك الكاهن كافر إذا ادعى علم الغيب ومن صدقه كفر؛ لأنه لم يؤمن بقوله تعالى: ﴿قُل لَّا يَعۡلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلۡغَيۡبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ﴾ فيجب الحذر منهم.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفًا مثله.

وهذا له حكم الرفع؛ لأنه لا يقوله من رأيه بل لا يكون إلا عن النبي ﷺ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من أتى كاهنًا». تقدم معنى الكهان، وأنهم كانوا رجالاً في أحياء العرب تنزل عليهم الشياطين، وتخبرهم بما سمعت من أخبار السماء.

قوله: «فصدقه». أي: نسبه إلى الصدق، وقال: إنه صادق، وتصديق الخبر يعني: تثبيته وتحقيقه، فقال: هذا حق وصحيح وثابت.

قوله: «بما يقول». «ما» عامة في كل ما يقول: حتى ما يحتمل أنه صدق، فإنه لا يجوز أن يصدقه، لأن الأصل فيهم الكذب.

قوله «فقد كفر بما أنزل على محمد»، أي: بالذي أنزل، والذي أنزل على محمد ﷺ القرآن أنزل إليه بواسطة جبريل، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٩٢﴾

....

نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ﴾[الشعراء: ١٩٢، ١٩٣]، وقال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُۥ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾[النحل: ١٠٢]، وبهذا نعرف أن القول الراجح في الحديث القدسي أنه من كلام الله تعالى معنى، وأما لفظه، فمن الرسول ﷺ، لكنه حكاه عن الله، لأننا لو لم نقل بذلك لكان الحديث القدسي أرفع سندًا من القرآن، حيث إن الرسول ﷺ يرويه عن ربه مباشرة والقرآن بواسطة جبريل.

قوله: «بما أنزل على محمد». ذكر أهل السنة أن كل كلمة وصف فيها القرآن بأنه منزل أو أنزل من الله، فهي دالة على علو الله - سبحانه وتعالى - بذاته، وعلى أن القرآن كلام الله، لأن النزول يكون من أعلى، والكلام لا يكون إلا من متكلم به.

قوله: «وللأربعة والحاكم». الأربعة هم: أبو داود، والنسائي، والترمذي، وابن ماجه، والحاكم ليس من أهل «السنن»، لكن له كتاب سمي «صحيح الحاكم».

قوله: «صحيح على شرطهما»، أي: شرط البخاري ومسلم، لكن قول «على شرطهما» هذا على ما يعتقد، وإلا، فقد يكون الأمر على خلاف ذلك.

ومعنى قوله: «على شرطهما»، أي: أن رجاله رجال «الصحيحين»، وأن ما اشترطه البخاري ومسلم موجود فيه.

قوله: «من أتى عرافًا أو كاهنًا». «أو» يحتمل أن تكون للشك، ويحتمل أن تكون للتنويع، فالحديث الأول بلفظ عراف، والثاني بلفظ كاهن، والثالث جمع بينهما، فتكون «أو» للتنويع.

وجاء المؤلف بهذا الحديث مع أن الأول والثاني مغنيان عنه، لأن كثرة الأدلة مما يقوي المدلول، أرأيت لو أن رجلًا أخبرك بخبر فوثقت به، ثم جاء آخر وأخبرك به ازددت توثقًا وقوة، ولهذا فرق الشارع بين أن يأتي الإنسان بشاهد واحد أو شاهدين.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنًا... إلخ» هذا الحديث فيه شيئان:

الشيء الأول: المجيء إلى الكاهن.

....

والشيء الثاني: تصديقه بما يخبر به من أمر الكِهانة.

وحكمه: أنه يكون كافرًا بما أنزل على محمَّد ﷺ، لأنه لا يجتمع التصديق بما أنزل على محمَّد والتصديق بما عند الكُهّان من عمل الشياطين. ضدّان لا يجتمعان، لا يمكن أن يصدِّق بالقرآن ويصدِّق بالكِهانة.

وظاهر هذا أنه يخرج من الملّة.

وعن أحمد روايتان في نوع هذا الكفر: رواية أنه كفر أكبر يُخرج من الملّة.

ورواية أنه دون ذلك. وفيه قول ثالث: وهو التوقّف، وأن يُقرأ الحديث كما جاء من غير أن يفسَّر بالكفر الأكبر أو الكفر الأصغر، فنقول ما قاله الرسول ﷺ ويكفي.

ولكن الظاهر- والله أعلم- هو القول الأول؛ أنه كفر يُخرج من الملّة، لأنه لا يجتمع التصديق بالقرآن والتصديق بالكهانة، لأن الله أبطل الكِهانة، وأخبر أنها من عمل الشياطين، فمن صدّقها وصوّبها كان كافرًا بالله كفرًا أكبر. هذا هو الظاهر من الحديث.

قال: «وللأربعة والحاكم وقال: صحيح على شرطهما- عن أبي هريرة: من أتى عرّافًا أو كاهنًا... إلخ» في هذا الحديث جمع بين الاثنين: العرّاف والكاهن، فإذا جُمع بينهما فالكاهن هو: الذي يُخبر عن المغيّبات بسبب ما تُلقيه عليه الشياطين. وأما العرّاف فهو الذي يُخبر عن المغيّبات بسبب الحَدْس والتّخمين والخطّ في الأرض، وما أشبه ذلك.

فإذا ذُكر الاثنان جميعًا صار لكل واحد معنى.

أما إذا ذُكر الكاهن وحده دخل فيه العرّاف، وإذا ذُكر العراف وحده دخل فيه الكاهن.

قال: «ولأبي يعلى» أبو يعلى هو: أبو يعلى الموصلي، الإمام الحافظ.

«بسند جيّد عن ابن مسعود مثله» أي: مثل حديث أبي هريرة:

«من أتى عرّافًا أو كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمَّد ﷺ» إلّا

٦٩) وعَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَنْ تَطَيَّرَ أَوْ تُطيِّرَ لَهُ، أَوْ تَكَهَّنَ أَوْ تُكِهِّنَ لَهُ أَوْ سَحَرَ أَوْ سُحِرَ لَهُ، ومَنْ أَتَى

أنه موقوف على ابن مسعود، ولم يُرفع إلى النبي ﷺ، والموقوف: ما كان من كلام الصحابي.

فهذا يؤيّد ما سبق.

فقد دلت هذه الأحاديث على مسائل:

المسألة الأولى: بُطلان الكِهانة ومشتقّاتها من العِرافة وغير ذلك من دعاوى علم الغيب، وأن هذا كله باطل، لأن الغيب لا يعلمه إلَّا الله سبحانه وتعالى...

المسألة الثانية: في الحديث دليل على وجوب تكذيب الكُهّان ونحوهم، وألَّا يقع في نفس الإنسان أدنى شك في كذبهم، فمن صدّقهم، أو شك في كذبهم، أو توقّف؛ فقد كفر بما أُنزل على محمَّد ﷺ، لأنه يجب الجزم بكذبهم.

المسألة الثالثة: فيه دليل على تحريم الذهاب إلى الكهّان ولو لم يصدِّقهم، وأنه إذا فعل ذلك لم تُقبل له صلاة أربعين يومًا.

المسألة الرابعة: فيه دليل على أن تصديق خبر الكُهّان كفر بما أنزل الله على رسوله محمَّد ﷺ.

المسألة الخامسة: تدلّ هذه الأحاديث على وجوب معاقبة الكهان ومن يذهب إليهم من قِبَل ولاة الأمور.

٦٩) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن، أو تكهن له..».

وهذا وعيد وترهيب لمن فعل هذه الأمور.

«ليس منا»: أي: ليس من المتبعين لسنة رسول الله ﷺ.

أما التكفير فيؤخذ من أدلة أخرى فيها التفصيل، وإن كان ظاهره التكفير.

فالتطير سواء لنفسه، أو تطير غيره برضاه، أو تكهن بنفسه أو تكهن له غيره برضاه... أما التكفير ففيه تفصيل كما تقدم، وتصديقهم كفر أكبر، ومن ادعى علم

كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ». رَوَاهُ البَزَّارُ بِإِسْنَادٍ جَيِّدٍ، ورَوَاهُ الطَّبَرَانِيُّ فِي الأَوْسَطِ بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ دُونَ قَوْلِهِ: «وَمَنْ أَتَى..» إِلى آخِرِهِ.

الغيب يستتاب، وإلا قتل وإذا لم يدع علم الغيب، فإنه يعزر حتى لا يعود إليه.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «ليس منا». تقدم الكلام على هذه الكلمة، وأنها لا تدل على خروج الفاعل من الإسلام، بل على حسب الحال.

قوله: «مرفوعًا»، أي: إلى النبي ﷺ.

قوله «تطير». التطير: هو التشاؤم بالمرئي أو المسموع أو المعلوم أو غير ذلك، وأصله من الطير، لأن العرب كانوا يتشاءمون أو يتفاءلون بها، وقد سبق ذلك.

ومنه ما يحصل لبعض الناس إذا شرع في عمل، ثم حصل له في أوله تعثر تركه وتشاءم، فهذا غير جائز، بل يعتمد على الله ويتوكل عليه....

قوله: «أو تطير له». بالبناء للمفعول، أي: أمر من يتطير له، مثل أن يأتي شخص، ويقول: سأسافر إلى المكان الفلاني، وأنت صاحب طير، وأريد أن تزجر طيرك لأنظر: هل هذه الوجهة مباركة أم لا، فمن فعل ذلك، فقد تبرأ منه الرسول ﷺ.

وقوله: «من تطير» يشمل من تطير لنفسه، أو تطير لغيره.

قوله: «أو تكهن له»، أي: طلب من الكاهن أن يتكهن له، كأن يقول للكاهن: ماذا يصيبني غدًا، أو في الشهر الفلاني، أو في السنة الفلانية، وهذا تبرأ منه الرسول ﷺ.

قوله: «أو سحر أو سحر له». تقدم تعريف السحر، وتقدم بيان أقسامه.

قوله: «أو سحر له»، أي: طلب من الساحر أن يسحر له.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن عمران بن حصين مرفوعًا: «ليس منا من تطيّر أو تطيّر له» الطيرة: سيأتي لها باب خاص. وهذا الحديث كالذي سبقه، يدل على تحريم الكِهانة، والذهاب إلى الكهان، لأنهم

....

يفسدون عقيدة من يذهب إليهم...

وبعضهم يقول: أنا انتفعت من ذهابي إلى هؤلاء، أنا كنت مريضًا وانتفعت، وحصول الحاجة أو حصول الغرض ليس دليلاً على الجواز، فقد يُعطى الإنسان حاجته من باب الفتنة ومن باب الاستدراج والاختبار، والعبرة في كونه دلّ الدليل الشرعي على جواز هذا الشيء أو على تحريمه هذا هو الشأن.

والنبي ﷺ يقول: «ليس منّا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو سحر أو سُحر له»، ويقول: «ومن أتى كاهنًا فصدّقه بما يقول فقد كفر بما أُنزل على محمّد ﷺ».

ومعنى: «تكهّن» فعل الكهانة. ومعنى: «تُكُهِّن له» فعلت الكهانة من أجله بطلبه.

فمن ذهب إلى الكهّان فله حالتان:

الحالة الأولى: ألا يصدِّقهم، ولكن يقول: أريد أن أرى ماذا عندهم؟.

فهذا لا تُقبل له صلاةٌ أربعين يومًا، لأن ذهابه إليهم محرّم، فعوقب بأنه لا تُقبل له صلاةٌ أربعين يومًا، إلّا إذا ذهب إليهم من أجل التثبت في شأنهم مي أجل منعهم والقضاء على فسادهم.

أما إذا صدّقهم فقد كفر بما أُنزل على محمّد ﷺ، فهو لا يرجع سالمًا أبدًا، ممّا يدل على تحريم الذهاب إلى الكُهّان والمشعوذين والمدجِّلين.

وقوله «رواه البزّار بإسناد جيِّد» البزّار هو: أبو بكر أحمد البزّار، : صاحب «المسند» المعروف بـ «مسند البزّار»، وهو إمامٌ جليل، توفي على رأس القرن الثالث رحمه الله، ومسنده يعرف عند العلماء بـ «مسند البزّار».

وقوله: «ورواه الطبراني في الأوسط بإسناد حسن من حديث ابن عبّاس» أي: روى الطبراني هذا الحديث الذي رواه عمران بن حُصين من حديث ابن عباس.

«دون قوله: ومن أتى» إلى آخره. يعني: روى منه أوله: «ليس منا من تكهّن أو تُكُهِّن له، أو تطيّر أو تُطيِّر له، أو سحر أو سُحر له»، وبإسناد حسن، فهو يؤيِّد رواية البزّار عن عمران بن حُصين.

٧٠) قَالَ البَغَوِيُّ: «العَرَّافُ: الذِي يَدَّعِي مَعْرِفَةَ الأُمُورِ بِمُقَدِّمَاتٍ يَسْتَدِلُّ بِهَا عَلَى المَسْرُوقِ ومَكَانِ الضَّالةِ ونَحْوِ ذَلِكَ» وقِيلَ: هُوَ الكَاهِنُ. والكَاهِنُ: هُوَ الذِي يُخْبِرُ عَنِ المُغَيَّبَاتِ فِي المُسْتَقْبَلِ. وقِيلَ: الذِي يُخْبِرُ عَمَّا فِي الضَّمِيرِ.

وقَالَ أَبُو العَبَّاسِ ابنُ تَيمِيَّةَ: العَرَّافُ: اسْمٌ لِلْكَاهِنِ والمُنَجِّمِ والرَّمَّالِ ونَحْوِهِمْ مِمَّنْ يَتَكَلَّمُ فِي مَعْرِفَةِ الأُمُورِ بِهَذِهِ الطُّرُقِ.

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ - فِي قَوْمٍ يَكْتُبُونَ (أَبَا جَادٍ) ويَنْظُرُونَ فِي النُّجُومِ:

---

٧٠) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** قال البغوي: العراف الذي يعطي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك، وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل، وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير.

«مقدمات»: أي: بأشياء ينظمها يستدل بها على مكان المسروق، وقد يعرفها بالآثار كآثار الدابة ورعيها، وهذه قد تقع لكن لا يكون من العرافين المذمومين إلا إذا ادعى علم الغيب أما الأمور الحسية فليست من هذا الباب.

عما في الضمير: فيقول أراد فلان كذا وقصد كذا بما يسأله صاحبه من الشياطين والجن.

«فائدة»: لا يجوز تعلم السحر أبدًا حتى إذا قصد به فك السحر؛ لأنه لابد وأن يترتب عليه عبادة لغير الله أو فعل محرم أو ترك واجب.

قال أبو العباس: العراف اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذا العراف.

وهذه تدل كلها - أي: النصوص والآثار- على أن هؤلاء الكهنة والسحرة والرمالين هم المذمومون، وهم الذين يدعون علم الغيب.

قال ابن عباس: في قوم يكتبون أبا جاد، وينظرون في النجوم.

«ما أَرَى مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ لَهُ عِنْدَ اللهِ مِنْ خَلَاقٍ».

أي: حروف (أبجد) وهي حروف الهجاء؛ فيكتبون الحروف ويضمونها إلى بعض، ويقولون: يقع كذا ويقع كذا.

«ما له من خلاق» : أي: من حظ ونصيب؛ لأن فيه ادعاء لعلم الغيب، وهو كفر.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «**قال البغوي: العراف الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات...**». العراف: صيغة مبالغة فإما أن يراد بها الصيغة، وإما أن يراد بها النسبة.

وهو الذي يدعي معرفة تتعلق بعلم الغيب، فيدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على مكان المسروق والضالة ونحوها.

قوله: «وقيل: هو الذي يخبر عما في الضمير»، أي: أن تضمر شيئًا فتقول: ما أضمرت؟ فيقول: أضمرت كذا وكذا.

أو المغيبات في المستقبل، تقول: ماذا سيحدث في الشهر الفلاني في اليوم الفلاني؟ ماذا ستلد امرأتي؟ متى يقدم ولدي؟ وهو لا يدري...

قوله: «وقال أبو العباس ابن تيمية». هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية، يكنى بأبي العباس، ولم يتزوج، ولم يتركه من باب الرهبانية، ولكنه - والله أعلم- كان مشغولاً بالجهاد العلمي مع قلة الشهوة، وإلا لو كان قوي الشهوة لتزوج، وليس كما يدعي المزورون أن له ولدًا مدفونًا إلى جانبه في دمشق، فإنه غير صحيح قطعًا.

الحال الأولى: أن يستخدمهم في طاعة الله، كأن يكون له نائبًا في تبليغ الشرع، فمثلًا: إذا كان له صاحب من الجن مؤمن يأخذ عنه العلم، ويتلقى منه، وهذا شيء ثبت أن الجن قد يتعلمون من الإنس، فيستخدمه في تبليغ الشرع لنظرائه من الجن، أو في المعونة على أمور مطلوبة شرعًا، فهذا لا بأس به.

الحال الثانية: أن يستخدمهم في أمور مباحة، مثل أن يطلب منهم العون على أمر من الأمور المباحة، قال: فهذا جائز بشرط أن تكون الوسيلة مباحة، فإن كانت

. . . .

محرمة، صار حرامًا، كما لو كان الجني لا يساعده في أموره إلا إذا ذبح له أو سجد له أو ما أشبه ذلك.

الحال الثالثة: أن يستخدمهم في أمور محرمة، كنهب أموال الناس وترويعهم، وما أشبه ذلك، فهذا محرم، ثم إن كانت الوسيلة شركًا صار شركًا، وإن كانت وسيلته غير شرك صار معصية، كما لو كان هذا الجني الفاسق يألف هذا الإنسي الفاسق ويتعاون معه على الإثم والعدوان، فهذا يكون إثمًا وعدوانًا، ولا يصل إلى حد الشرك.

ثم قال: إن من يسأل الجن، أو يسأل من الجن، ويصدقهم في كل ما يقولون، فهذا معصية وكفر، والطريق للحفظ من الجن هو قراءة آية الكرسي، فمن قرأها في ليلة لم يزل عليه من الله حافظ، ولا يقربه شيطان حتى يصبح، كما ثبت ذلك عنه ﷺ[1]، وهي: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُۚ﴾ الآية.

وقوله: «أباجاد». هي: أبجد هوز حطي كلمن سعفص قرشت ثخذ ضظغ. . .
وتعلم أباجاد ينقسم إلى قسمين:

الأول: تعلم مباح بأن نتعلمها لحساب الجمل، وما أشبه ذلك، فهذا لا بأس به.

الثاني: محرم، وهو كتابة «أبا جاد» كتابة مربوطة بسير النجوم وحركتها وطلوعها وغروبها، وينظرون في النجوم ليستدلوا بالموافقة أو المخالفة على ما سيحدث في الأرض.

قوله: «خلاق»، أي: نصيب.

ظاهر كلام ابن عباس أنه يرى كفرهم، لأن الذي ليس له نصيب عند الله هو الكافر، إذ لا ينفي النصيب مطلقًا عن أحد من المؤمنين، وإن كان له ذنوب عذب بقدر ذنوبه، أو تجاوز الله عنها، ثم صار آخر أمره إلى نصيبه الذي يجده عند الله.

---

(١) البخاري: كتاب الخلق/ باب صفة إبليس وجنوده (٣١٠١) .

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: لا يَجْتَمِعُ تَصْدِيقُ الكَاهِنِ مَعَ الإِيمَانِ بِالقُرْآنِ.

«الثَّانِيَةُ»: التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُ كُفْرٌ.

«الثَّالِثَةُ»: ذِكْرُ مَنْ تُكُهِّنَ لَهُ.

«الرَّابِعَةُ»: ذِكْرُ مَنْ تُطُيِّرَ لَهُ.

«الخَامِسَةُ»: ذِكْرُ مَنْ سُحِرَ لَهُ.

«السَّادِسَةُ»: ذِكْرُ مَنْ تَعَلَّمَ أَبَا جَادٍ.

«السَّابِعَةُ»: ذِكْرُ الفَرْقِ بَيْنَ الكَاهِنِ والعَرَّافِ.

فيه مسائل:

الأولى: لا يجتمع تصديق الكاهن مع الإيمان بالقرآن. يؤخذ من قوله: «من أتى كاهنًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد»، ووجهه: أنه كذب بالقرآن وهذا من أعظم الكفر.

الثانية: التصريح بأنه كفر. تؤخذ من قوله: «فقد كفر بما أنزل على محمد».

الثالثة: ذكر من تكهن له. تؤخذ من حديث عمران بن حصين، حيث قال: «ليس منا»، أي: إنه كالكاهن في براءة النبي ﷺ منه.

الرابعة: ذكر من تطير له. تؤخذ من قوله: «أو تطير له».

الخامسة: ذكر من سحر له. تؤخذ من قوله: «أو سحر له».

السادسة: ذكر من تعلم أباجاد، وتعلم ذلك فيه تفصيل لا يحمد ولا يذم، إلا على حسب الحال التي تنزل عليها، وقد سبق ذلك.

السابعة: ذكر الفرق بين الكاهن والعراف. وفي هذه المسألة خلاف بين أهل العلم:

القول الأول: أن العراف هو الكاهن، فهما مترادفان، فلا فرق بينهما.

القول الثاني: أن العراف هو الذي يستدل على معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها، فهو أعم من الكاهن، لأنه يشمل الكاهن وغيره، فهما من باب العام

....

والخاص.

القول الثالث: أن العراف يخبر عن أمور بمقدمات يستدل عليها، والكاهن هو الذي يخبر عما في الضمير، أو عن المغيبات في المستقبل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** ثم ذكر الشَّيخ رحمه الله تفسير هذه الألفاظ التي وردتْ في الباب نقلاً عن «البغوي» وهو: الإمام الحافظ الجليل، محيي السنّة، الحسين بن مسعود البغوي، نسبة إلى «بَغْ» من بلاد المشرق، لأنها من حرفين، فإذا نُسب إلى اسم من حرفين تُزاد فيه (واو) فيقال: (بغوي) مثلاً.

وهو إمام جليل، سلفي العقيدة، وله مؤلَّفات جليلة، منها: «تفسير البغوي» المطبوع المعروف المتداوَل، وهو يشبه «تفسير ابن كثير» في التحقيق والأصالة وسلامة العقيدة، إلَّا أنه أخصر من «تفسير ابن كثير»، ومنها: «شرح السنّة» الذي يتكوّن من حوالي أربعة عشر مجلّدًا، وقد طُبع والحمد لله، ومنها: «مصابيح السنّة» التي رتّبها وزاد عليها التّبْريزي في كتاب «مِشْكاة المصابيح».

«العرّاف: الذي يدّعي معرفة الأمور بمقدّمات يستدلُّ بها على المسروق ومكان الضالة، ونحو ذلك» وهذا من الشيطان، فالشياطين تأتيه بذلك، لكن يتظاهر بعمل أشياء يظن النّاس أنّ هذه الأشياء من الأمور المباحة، لكن هذه رموز فقط، وإلَّا في الحقيقة هو يتعامل مع الشيطان، وإلَّا ما الذي يدريه عن مكان المسروق، وما الذي يدريه عن مكان الضالّة لولا أنه يتعامل مع الجن ومع الشياطين.

قال: «وقيل: هو: الكاهن» أي: العرَّاف والكاهن سواء، لأنّ كلًّا منهما يخبر عن الأمور الغائبة بواسطة الشياطين، فكلهم عملاء للشياطين، وإنِ اختلفوا في الاسم، هذا عرّاف، وهذا كاهن، فالمعنى واحد، والمهنة واحدة، وهي ادّعاء علم الغيب، وإن اختلف اللفظ.

«وقيل: هو الذي يُخبر عمّا في الضمير» يعني: عمّا في النفس، ولا يعلم ما في القلوب إلَّا الله سبحانه وتعالى، لكن الشيطان قد يعرف شيئًا من هواجس الإنسان، لأنه هو الذي يوسوس للإنسان، ولأنه يجري من ابن آدم مجرى الدم،

....

فيعرف الشيطان من الإنسان ما لا يعرفه الإنسان عن الإنسان.

هذا تفسير البغوي رحمه الله.

قال: «وقال أبو العبّاس ابن تيمية» أبو العبّاس هذه كنيته، وليس له ابن اسمه العباس، لأنه لم يتزوّج رحمه الله، ولكن يجوز أنْ يُكَنَّى الإنسان بأبي فلان، ولو لم يكن له ابن.

وهو: أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية، شيخ الإسلام، الإمام المجدِّد المشهور، الذي نفع الله بعلومه، ولا يزال نفعه مستمرًا ولله الحمد، وكتبه لا تزال موضع تنافُس طلاب العلم للحصول عليها والاطلاع عليها، وهذا ممّا كتبه الله من الكرامة لهذا العالم الجليل؛ لصدْق نيّته، وإخلاصه وجهاده في سبيل الله عزّ وجلّ، وصبره واحتسابه.

قال: «العرّاف: اسم للكاهن والمنجِّم والرمّال ونحوهم» لأن كلمة العرّاف عامّة، يدخل تحتها كل من يدّعي معرفة المستقبل، سواءً بِكِهانة أو بتنجيم، أو بخط في الرمل، فكلهم يتعاملون مع الشياطين ويتقربون إليهم. ولهذا يقول الله تعالى: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَـٰذِبُونَ﴾ وهذا يدخل فيه الكاهن والمنجِّم والرمّال والعرّاف، كلهم يدخلون تحت كلمة ﴿أَفَّاكٍ أَثِيمٍ﴾، وتتنزّل عليهم الشياطين، بخلاف الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- فإنهم تتنزّل عليهم الملائكة، ولهذا قال: ﴿وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ ٱلشَّيَـٰطِينُ ﴿٢١٠﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٢١١﴾ إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾، فالأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- تتنزّل عليهم الملائكة من الرحمن، وأما الكهّان فتتنزّل عليهم الشياطين.

فهذا يشمل كل من يتكلّم في معرفة الأمور بهذه الطرق ممّن يُخبر عن هذه الأشياء بتلك الأمور التي يسمونها خطًا في الرمل، إلى آخره.

فهذا تفسير جامع.

وأما اختلاف الوسائل؛ هذا يستعمل كذا، وذا يستعمل كذا فلا عبرة بها، لأن النتيجة وهي ادّعاء علم الغيب؛ نتيجة واحدة.

....

قال الشّيخ رحمه الله: «وقال ابن عبّاس في قوم يكتبون (أبا جاد) وينظرون في النجوم» (أبا جاد) المراد بها: حروف الجُمَّل، التي هي: (أَبْجَدْ، هَوَّزْ، حُطِّيْ، كَلِمُنْ) إلى آخره، وهي حروف مقطّعة يكتبونها لتمييز الجمل، والمشعوذ إذا كتب هذه الحروف قال: يحدث كذا ويكون كذا. وهذه في الحقيقة طلاسِم.

وهؤلاء هم الذين قال فيهم عبد الله بن عباس رضي الله عنه: «ما أرى مَنْ فعَل ذلك» أي: كتب هذه الحروف، ونظر في النجوم، وأخبر أنه سيحدث كذا وكذا.

«له عند الله من خَلاق» أي: ليس له نصِيبٌ من الجنّة عند الله عزّ وجلّ، ومعناه: أنه كافر، لأن الذي ليس له عند الله مِنْ خلاق هو الكافر، كما قال تعالى في السَّحَرة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْآخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ﴾.

أما الذي يكتب (حروف الجُمل) لتمييز الجُمَل فقط وهو تمييز الفقرات؛ فهذا لا بأس به، مثلاً يقول: الفقرة (أ)، الفقرة (ب)، الفقرة (ج)، الفقرة (د) لا يدّعي به علم الغيب، وإنما يريد ترتيب الجمل فقط. والحاصل؛ أن هذا بابٌ عظيم؛ لأنه يعالج أمراضًا واقعة في العالم اليوم، لا أقول في العالم الكافر، لأنه ليس بعد الكفر ذنب، لكن في العالم الإسلامي، وربما يسمونه أعمالاً رياضية وفنونًا تشكيلية، ووُجود هذا الوباء؛ وباء السحرة والمشعوذين والدّجالين والكَهَنة والمنجِّمين، ويسمون هذا من باب الفنون، أو يسمونهم بأسماء تدلُّ على تبجيلهم، وعلى أنهم أصحاب علم، وأصحاب خبرة، أو أشد من ذلك يدّعون أنهم أولياء الله، وأنّ هذه كرامات تدلُّ على أنهم من أولياء الله، وهذه ليستْ كرامات، وإنما هي خوارق شيطانية، لأن الكرامات هي التي تجري على أيدي الصالحين، وليس لهم فيها تصرُّف منهم، وإنما هي من الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل؛ أنّ هذا بابٌ عظيم، ويشتمل على علاج لمرض خطير يتفشّى الآن في العالم الإسلامي، وهو مرض الكهنة والسحرة والمنجّمين والعرّافين؛ الذين صار لهم صوْلة وجولة في العالم، وأشدّ من ذلك إذا ادُّعِي أن هؤلاء من أولياء الله، وأنّ هؤلاء لهم كرامات، مع أنهم كفرة لا يصلون ولا يصومون ولا يتطهّرون من

(٧١) ٢٧-بابٌ ما جَاءَ فِي النُّشْرَةِ

عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ النُّشْرَةِ فَقَالَ: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ» رَوَاهُ أَحْمَدُ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ، وأَبُو دَاوُدَ، وقَالَ: سُئِلَ أَحْمَدُ عَنْهَا فَقَالَ: «ابنُ مَسْعُودٍ يَكْرَهُ هَذَا كُلَّهُ».

الجنابة!، وربما يقولون: هذا دليل على كرامتهم، وكونه لا يصلي لأنه وُضِعَتْ عنه التكاليف، ووصل إلى الله، والتكاليف هذه على النّاس العوام!!.

(٧١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: «النشرة»: حل السحر عن المسحور يقال: نشر عنه إذا حل ما أصابه.

عن جابر رضي الله عنه أن النبي ﷺ سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان».

يدل الحديث على النهي عن النشرة المعروفة في الجاهلية؛ لأن «أل» للعهد الذهني.

وهي حل السحر عن المسحور بسحر مثله.

«من عمل الشيطان»؛ لأن الساحر يتقرب إلى الشياطين بما يحبونه من عبادتهم والنذر لهم فيسعفونهم بإعطائهم الإجابات عما يسألونه مما يخفى عليهم من عمل الساحر، وما فعله في المسحور؛ فهذا من عمل الشيطان.

سئل أحمد عنها فقال: ابن مسعود يكره هذا كله.

أي: النشرة التي من عمل الشيطان، والتي يتقرب فيها إلى الشياطين.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: تعريف النشرة:

في اللغة، بضم النون: فعلة من النشر، وهو التفريق.

وفي الاصطلاح: حل السحر عن المسحور.

قوله في «عن النشرة». أل للعهد الذهني، أي: المعروفة في الجاهلية التي كانوا يستعملونها في الجاهلية، وذلك طريق من طرق حل السحر، وهي على نوعين:

....

الأول: أن تكون باستخدام الشياطين، فإن كان لا يصل إلى حاجته منهم إلا بالشرك، كانت شركًا، وإن كان يتوصل لذلك بمعصية دون الشرك، كان لها حكم تلك المعصية.

الثاني: أن تكون بالسحر، كالأدوية والرقى والعقد والنفث وما أشبه ذلك، فهذا له حكم السحر على ما سبق.

قوله: «من عمل الشيطان»، أي: من العمل الذي يأمر به الشيطان ويوحي به، لأن الشيطان يأمر بالفحشاء ويوحي إلى أوليائه بالمنكر.

قوله: «رواه أحمد بسند جيد وأبو داود» سند أبي داود إلى أحمد متصل، لأنه قد حدثه وأدركه.

قوله: «فقال: ابن مسعود يكره هذا كله». أجاب رحمه الله بقول الصحابي، وكأنه ليس عنده أثر صحيح عن النبي ﷺ في ذلك، وإلا لاستدل به.

وقوله: «يكره». الكراهة عند المتقدمين يراد بها التحريم غالبًا، ولا تخرج عنه إلا بقرينة، وعند المتأخرين خلاف الأولى، فلا تظن أن لفظ المكروه في عرف المتقدمين أو كلامهم مثله في كلام المتأخرين، بل هو يختلف، انظر إلى قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾ [الإسراء: ٢٣]، إلى أن قال بعد أن ذكر أشياء محرمة: ﴿كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ [الإسراء: ٣٨]، ولا شك أن المراد بالكراهة هنا التحريم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** «باب ما جاء في النُّشرة» يعني: من الأحاديث والآثار التي تدلّ على حكمها في الشرع.

وهذا في غاية المناسبة؛ لأن النّاس في حاجة إلى معرفة ذلك، لأن السحر موجود، ومن النّاس من يُبتلى به ويقع عليه السحر ويتضرّر به، والله تعالى ما أنزل داء إلّا أنزل له شفاء، علِمه مَنْ علِمه وجهله مَن جهِله، فلابد أن نعرف ما هو الدواء الصحيح للسحر، الدواء الذي لا يمس العقيدة، ونعرف- أيضًا ما يخالف العقيدة فنتجنّبه، وأيضًا هناك من السحرة من يقول للناس: أنا أُعالج السحر،

....

وأنا.. وأنا؛ فهذا أمرٌ واقع لابد من معرفته وبيان حكمه للناس.

والنُّشرة- بضم النون وسكون الشين- مأخوذة من (النَّشر) وهو التفريق؛ وهي - كما فسّرها الإمام ابن القيم-: حلّ السحر عن المسحور. وهي ضرب من العلاج، سمي نشرة: لأنه يُنشر به، أي: يزال ما أصاب المريض وما خامره من الداء.

وقوله في حديث جابر: «أنّ رسول الله ﷺ سُئل عن النُّشرة» أي: النُّشرة المعهودة في الجاهلية، وهي التي كانت من عمل الشيطان.

«فقال: «هي من عمل الشيطان»، لأنها سحر، والسحر من عمل الشيطان- كما مرّ في الأبواب السابقة-...

«رواه» الإمام «أحمد» في مسنده بسند جيِّد، «وأبو داود» في سننه.

«وقال» أي: أبو داود، لأن أبا داود من تلاميذ الإمام أحمد، وروى عنه كثيرًا من المسائل في المذهب، ويوجد الآن مجلّد مطبوع اسمه «مسائل أبي داود» وهي المسائل التي رواها أبو داود من أجوبة الإمام أحمد على الأسئلة التي تَرِدُ عليه.

«قال: سُئل أحمد عنها» يعني: عن النُّشرة؛ ما حكمها؟ فقال: «ابن مسعود يكره هذا كله» أي: يحرم النُّشرة، لأن السلف يريدون بالكراهة التحريم، والمراد النُّشرة التي هي من عمل الجاهلية.

۞ ۞ ۞

٧٢) وفِي البُخَارِيِّ عَنْ قَتَادَةَ: «قُلْتُ لابنِ المُسَيِّبِ: رَجُلٌ بِهِ طِبٌّ أَوْ يُؤْخَذُ عَنِ امْرَأَتِهِ، أَيُحَلُّ عَنْهُ أَوْ يُنْشَرُ؟ قَالَ: لا بَأْسَ بِهِ، إِنَّمَا يُرِيدُونَ بِهِ الإِصْلَاحَ، فَأَمَّا ما يَنْفَعُ فَلَمْ يُنْهَ عَنْهُ». اهـ.

---

٧٢) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وفي البخاري عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب... لا بأس به.

وهذا الكلام محمول على الحل الذي لا بأس به، وهو الحل بالرقية والمعوذات والأشياء المباحة؛ لأن هذا من الإصلاح والإصلاح مأمور به والمنكر منهي عنه.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «رجل به طب». أي: سحر، ومن المعلوم أن الطب هو علاج المرض، لكن سمي السحر طبًّا من باب التفاؤل، كما سمي اللديغ سليمًا والكسير جبيرًا.

قوله: «أو يؤخذ عن امرأته». أي: يحبس عن زوجته، فلا يتمكن من جماعها، وهو ليس به بأس، وهذا نوع من السحر.

«أو» في قوله: «أو يؤخذ» يحتمل أنها للشك من الراوي: هل قال قتادة «به طب» أو قال: «يؤخذ عن امرأته»؟

أي: أو قلت: يؤخذ، ويحتمل أن تكون للتنويع، أي أنه سأله عن أمرين: عن المسحور، وعن الذي يؤخذ عن امرأته.

قوله: «أيحل عنه أو ينشر». لا شك أن «أو» هنا للشك، لأن الحل هو النشرة.

قوله: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح». كأن ابن المسيب رحمه الله قسم السحر إلى قسمين: ضار، ونافع.

وقد سئل الرسول ﷺ عن النشرة؟ فقال: «هي من عمل الشيطان».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وفي البخاري» أي: في «صحيح البخاري».

....

عن قَتادة هو: قتادة بن دِعامة السدوسي، نسبةً إلى جده سَدوس، وكان من أكبر علماء التابعين، ويُقال: إنه وُلد أكْمه. يعني: ليس له عينان. وكان نادرًا في الحفظ والذّكاء والفقه رحمه الله، حتى كان من كبار التّابعين.

«قلت لابن المسيّب» المراد به: سعيد بن المسيّب، أحد أعلام التّابعين وأحد الفقهاء السبعة الذين انتهت إليهم الفتوى في زمانهم، وهو عالِم المدينة وفقيهها.

«رجلٌ به طِبّ» يعني: أنّ قتادة بن دِعامة سأل شيخه سعيد بن المسيّب عن رجل به طبّ.

والطِّبّ معناه: السحر، يقال: مطبوب يعني: مسحور، قالوا: وهذا من باب التّفاؤل، لأنّ الطب معناه العلاج، كما يقولون للديغ: سليم، من باب التفاؤل بالشّفاء.

«أو يؤخذ عن امرأته» يؤخذ: معناه: يُمنع عن جماع امرأته، فلا يستطيع جماعها بسبب السّحر.

«أَيُحَلُّ عنه أو يُنشر» يُحَل وينشّر بمعنًى واحد، يعني: هل يجوز أن يحلّ عن هذا المطبوب أو هذا المؤخذ ما أصابه؟

فأجابه ابن المسيّب رحمه الله بقوله: «لا بأس» لا بأس أن يحلّ عنه أو ينشّر.

وقوله: «إنّما يريدون به الإصلاح» أي: حلّ السحر يراد به الإصلاح، بخلاف السحر نفسه فإنّما يُراد به الضّرر، أما حلّه فيُراد به الإصلاح، وإزالة المرض عن الإنسان.

«فأمّا ما ينفع فلم يُنْهَ عنه»؛ أي: أنّ الشارع جاء بإباحة ما ينفع وتحريم ما يضرّ، والنُّشرة من القسم الثاني، أي: من الشيء النّافع.

❁ ❁ ❁

٧٣) ورُوِيَ عَنِ الحَسَنِ أَنَّهُ قَالَ: لا يَحُلُّ السِّحْرَ إِلَّا سَاحِرٌ.

قَالَ ابنُ القَيِّمِ: النُّشْرَةُ: حَلُّ السِّحْرِ عَنِ المَسْحُورِ، وَهِيَ نَوْعَانِ:

إِحْدَاهُمَا: حَلٌّ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ، وهُوَ الذي مِنْ عَمَلِ الشَّيطَانِ، وعَلَيْهِ يُحْمَلُ قَوْلُ الحَسَنِ، فَيَتَقَرَّبُ النَّاشِرُ والمُنْتَشِرُ إِلَى الشَّيطَانِ بِمَا يُحِبُّ، ويُبْطِلُ عَمَلَهُ عَنِ المَسْحُورِ.

والثَّانِي: النُّشْرَةُ بِالرُّقْيَةِ والتَّعَوُّذَاتِ والأَدْوِيَةِ والدَّعَوَاتِ المُبَاحَةِ، فَهَذَا جَائِزٌ.

---

٧٣) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وروي عن الحسن قال: لا يحل السحر إلا ساحر.

أي: لا يحله بالطرق الشيطانية إلا السحرة، أما حله بالطرق الشرعية فهذا يحله أهل العلم والبصائر وأهل الخبرة والتجارب. ومن القراءة أن يقرأ عليه الفاتحة، ويكرر عليه آية الكرسي أو كلاهما، ويقرأ عليه آيات السحر في «الأعراف» و«طه» و«يونس» و«الكافرون» والمعوذتين، وينفث مع القراءة يقرأ عليه وعلى زوجته، وهذه رقية استعملها العلماء، ونفع الله بها.

ومن ذلك ما ذكره بعض المتقدمين أنه تؤخذ ورقات من شجر السدر الأخضر فتدق، ويجعل في ماء ثم يقرأ عليه هذه الآيات فيشرب المسحور منه أو المحبوس ثلاث مرات ما تيسر، ثم يغتسل بالباقي فيزول عنه ما أصابه، فهذه نشرة شرعية ومن المباح الأدوية المجربة التي لا محظور فيها، ولا تكون نجسة ولا استعانة فيها بالشياطين، ولا فيها ما حرم الله، وهذا الحق والصواب.

قال ابن القيم: النشرة نوعان.... وتقدمت.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «وروي عن الحسن: لا يحل السحر إلا ساحر». هذا الأثر إن صح، فمراد الحسن الحل المعروف غالبًا، وأنه لا يقع إلا من السحرة.

«فِيهِ مَسْأَلَتَانِ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنِ النُّشْرَةِ.

«الثَّانِيَةُ»: الفَرْقُ بَيْنَ المَنْهِيِّ عَنْهُ والمُرَخَّصِ فِيهِ مِمَا يُزِيلُ الإِشْكَالِ.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن النشرة. تؤخذ من قوله ﷺ: «هي من عمل الشيطان»، وهنا ليس فيه صيغة نهي، لكن فيه ما يدل على النهي، لأن طرق إثبات النهي ليست الصيغة فقط، بل ذم فاعله ونحوه، وتقبيح الشيء وما أشبه ذلك يدل على النهي.

الثانية: الفرق بين المنهي عنه والمرخص فيه. تؤخذ من كلام ابن القيم رحمه الله وتفصيله.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «ورويَ عن الحسن» الحسن هو: ابن أبي الحسن البصري، أحد أعلام التّابعين بالفقه والعلم والوَرع والعبادة- رحمه الله.

وقوله: «لا يحلّ السحر إلّا ساحر» هذا يتّفق مع الحديث ومع قول ابن مسعود، ويختلف مع قول ابن المسيب.

قوله: «قال ابن القيم: «النُّشرة حلّ السحر عن المسحور، وهي نوعان».

جمع ابن القيم- رحمه الله- بين هذا الحديث وهذه الآثار في كتابه: «زاد المعاد» فقال: «وهي نوعان: أحدهما: حلٌ بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يُحمل قول الحسن» يعني: في قوله السابق: «لا يحلّ السحر إلّا ساحر» وقصده: حلّ السحر بسحر مثله، وهذه هي النُّشرة التي سُئل عنها رسول الله ﷺ.

قوله: «فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب» النّاشر هو: الذي يعمل النُّشرة. والمنتشر هو: الذي تُعمل له النُّشرة، كلٌ منهما- المريض والساحر- يتقرّب إلى الشيطان بما يحبّه، فيخضعان له، فيطيعانه فيما يريده منهما من الشرك والكفر بالله عزّ وجلّ، وفعل المحرّمات، فيبطل الشيطان عمله عن المسحور، لأنّ السحر من عمل الشيطان، وذلك في مقابل إفساد دينهم وعقيدتهم. فهذا هو الممنوع.

....

قال الإمام ابن القيم: «والثاني: النُّشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة؛ فهذا جائز»؛ أي: النوع الثاني من النُّشرة: حلّ السحر بغير السّحر ممّا أباحه الله عزّ وجلّ، فالله ما أنزل داء إلّا أنزل له دواء، علمه من علمه وجهله من جهله، والسحر داء ولا بد أن الله أنزل له شفاء والرقية المباحة أنواع:

النوع الأول: حلُّ السحر «بالرقية» بأن يُقرأ على المسحور من كتاب الله عزّ وجلّ، فتُقرأ عليه الفاتحة التي هي أعظم الرقى، ويقرأ عليه الآيات التي تتعلّق بذكر السحر وإبطاله، مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۖ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿١١٧﴾ فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١١٨﴾ فَغُلِبُوا۟ هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا۟ صَٰغِرِينَ ﴿١١٩﴾ وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿١٢٠﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٢١﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ وفي سورة يونس: ﴿قَالَ مُوسَىٰ مَا جِئْتُم بِهِ ٱلسِّحْرُ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ سَيُبْطِلُهُۥٓ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨١﴾ وَيُحِقُّ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾ وفي سورة طــه: ﴿وَأَلْقِ مَا فِى يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓا۟ ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا۟ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾ فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ هَٰرُونَ وَمُوسَىٰ﴾

هذه الآيات من سورة الأعراف ومن سورة يونس ومن سورة طه، يقرأها الرّاقي على المسحور بقلب حاضر وتوكّل على الله سبحانه وتعالى، وحسن ظنّ بالله، واعتقاد أنّ الله يشفي هذا المريض.

ثم على المقروء عليه أن يعتقد هذه العقيدة؛ فيرجو الشفاء من الله، ويثق بالله عزّ وجلّ، ويتوكّل عليه، ويعتقد أنّ كلام الله جل وعلا فيه الشّفاء.

فإذا حصل هذا التوجه إلى الله والتوكّل عليه من الرّاقي والمرقي، حصلت النتيجة بلا شكّ ولا ريْب.

وإنّما تتخلّف النتيجة إذا تخلّف اعتقاد الإنسان، أو غفل عن ذلك.

النوع الثاني: حلّ السّحر «بالتعوذات»، وهي الأدعية التي وردت عن النبي ﷺ، فإننا نذكر بعضًا منها: «أعيذك بكلمات الله التامّات من شرّ ما خلَق»، أُعيذك بكلمات الله التامّة من كلّ شيطان وهامّة ومن كلّ عين لامّة». «أُعيذك بكلمات الله

....

التّامّات التي لا يجاوزهنّ بَرّ ولا فاجر، من شرّ ما خلق وذَرَأ وبرأ، ومن شرّ طوارق اللّيل والنهار، إلّا طارقًا يطرق بخير يا رحمن». «باسم الله أرقيك، من كلّ داء يؤذيك، من شر كلّ نفس وعين حاسد، الله يشفيك»، «باسم الله، أذهب البأس ربّ النّاس، واشفه أنت الشّافي لا شفاء إلّا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا». «ربّنا الله الذي في السّماء، تقدّس اسمك، أمرُكَ في السماء والأرض كما رحمتك في السماء، اجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت ربّ الطيّبين، أنزل رحمةً من رحمتك وشفاءً من شفائك على هذا المرض. فيبرأ بإذن الله». هذه هي التعوّذات.

النوع الثالث: الرقية بـ «الأدوية المباحة» فهناك أدوية مباحة يُذهب الله بها السّحر، يعرفها الحُذّاق وأهل التجربة وأهل العقيدة السليمة تنفع بإذن الله في إزالة السحر، مع ذكر الله، ومع التعوّذ، ومع الرّقية، ومع قراءة القرآن، فإذا اجتمعت هذه الأمور المباحة نفع الله بها، لكن بشرط حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، واعتقاد أن الشّفاء من الله سبحانه وتعالى.

فالحاصل أنّ النشرة كما ذكر ابن القيّم: منها شيء محرّم، وهي النّشرة التي كانت تُعمل في الجاهليّة، وهي ما يعمله السحرة.

ومنها شيء مباح وهي النشرة الشرعية، لكن يشترط لها أن يتولاها من يوثق بعلمه ودينه، لا أن يتولاها أصحاب المطامع الدنيوية، أو المشعوذون الذين يفسدون عقائد الناس، ويرهبونهم بالكذب والتدجيل.

۞ ۞ ۞

٧٤) ٢٨-بابٌ

ما جَاءَ فِي التَّطَيُّرِ ، وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى : ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقَوْلُهُ: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ۚ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾

---

٧٤) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لم يقرأ هذا الباب على الشيخ.

* ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: واعلم أن التطير ينافي التوحيد، ووجه منافاته له من وجهين:

الأول: أن المتطير قطع توكله على الله واعتمد على غير الله.

الثاني: أنه تعلق بأمر لا حقيقة له، بل هو وهم وتخييل، فأي رابطة بين هذا الأمر، وبين ما يحصل له، وهذا لا شك أنه يخل بالتوحيد، لأن التوحيد عبادة واستعانة، قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٤]، وقال تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣].

* الآية الأولى قوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

هذه الآية نزلت في قوم موسى كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٣١]، قال الله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، ومعنى: ﴿يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ﴾: أنه إذا جاءهم البلاء والجدب والقحط قالوا: هذا من موسى وأصحابه، فأبطل الله هذه العقيدة بقوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

قوله: ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾. فهم في جهل، فلا يعلمون أن هناك إلهًا مدبرًا، وأن ما أصابهم من الله وليس من موسى وقومه.

* الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

أي: قال الذين أرسلوا إلى القرية في قوله تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ﴾ الآيات [يس: ١٣].

....

فقالوا ذلك ردًا على قول أهل القرية: ﴿إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ [يس: ١٨]، أي: تشاءمنا بكم، وإننا لا نرى أنكم تدلوننا على الخير، بل على الشر وما فيه هلاكنا، فأجابهم الرسل بقولهم: ﴿طَائِرُكُم مَّعَكُمْ﴾، أي: مصاحب لكم، فما يحصل لكم، فإنه منكم ومن أعمالكم، فأنتم السبب في ذلك.

وقوله: ﴿أَئِن ذُكِّرْتُم بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾. ينبغي أن تقف على قوله: ﴿ذُكِّرْتُم﴾، لأنها جملة شرطية، وجواب الشرط محذوف تقديره: أإن ذكرتم تطيرتم، وعلى هذا، فلا تصلها بما بعدها.

وقوله: ﴿بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ هنا للإضراب الإبْطالي، أي: ما أصابكم ليس منهم، بل هو من إسرافكم.

* ثالثًا: **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قول الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء في التطيُّر» أي: ما ورد في التطيُّر من الوعيد، وبيان أنه شرك.

والتطيُّر مصدر: تطيّر تطيُّرًا وطِيَرة، وهو التشاؤم بالأشياء، واعتقاد أنه يصيب الإنسان منها شيء من الشر.

وأصله مأخوذٌ من الطير، لأنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بالطيور وفي طَيَرانها؛ إذا رأوها تطير على جهةٍ مخصوصة عندهم تشاءموا بها، ورجعوا عمّا عزموا عليه من الأسفار أو الزيجات أو غيرها، ثمّ عَمَّ هذا وصاروا يتطيّرون بكل شيء، فيتطيّرون بالبِقاع، ويتطيّرون بالآدميين، ويتطيّرون بالبهائم، ويتطيّرون بكل شيء.

لكن أصل التطيُّر مأخوذٌ من الطير؛ لأنهم كانوا في الجاهلية يتطيّرون من الطير في حركاتها وطيَرانها وتحريكها لأجنحتها واتّجاهاتها في الطَيران، إلى غير ذلك.

فهو عقيدة جاهلية، بل إنه موجود في الأمم القديمة؛ فهؤلاء قوم فرعون تطيّروا بموسى ومن معه، يعني: تشاءموا بموسى عليه السلام وبمن معه من المسلمين، قال تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ الحسنة المراد بها هنا: الخصب والأرزاق ونزول الأمطار، ﴿قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ﴾ استحققناها على الله بأفعالنا، فنحن

....

نستحقُّ هذا، ولا يعترفون أنه فضلٌ من الله تعالى، بل ينسبون هذا إلى استحقاقهم، وأنهم حصلوا على هذا الشيء بسبب أنهم ناسٌ أهل خير، فما يصيبهم من الحسنات في السنين يقولون: هذا بسبب أفعالنا، وبسبب صفاتنا، وبسبب كسبنا وكدِّنا، جحدوا نعمة الله عليهم.

﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾ المراد بالسيئة هنا: الجدْب، وانحباس الأمطار، وشُحُّ الآبار، وتلف الثمار. فإنهم ينسبون هذا إلى موسى عليه السلام، ومنْ معه من المؤمنين، فيقولون هذا الذي أصابنا بسببهم، فيتطيّرون بخير النّاس والعياذ بالله.

والحق أنّ موسى ومن معه من المؤمنين هم سبب الخيرات، وهم سبب البركات، لأن الرسل- عليهم الصلاة والسلام- يُصلحون في الأرض بالطاعات فتنزل الخيرات، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ﴾.

فالمؤمنون هم سبب الخير لا سبب الشر كما يظنه أهل الجاهلية، إنما سبب الشر هم العُصاة والمشركون والكَفَرة، فما يصيب أهل الأرض من الكوارث والمصائب إنما هو بسبب العُصاة، وما يصيبها من الخيرات فهو بفضل الله، وسببه أهل الطاعات وأهل الصلاح والتقوى؛ ولهذا إذا خَلَت الأرض من الصالحين في آخر الزمان تقوم القيامة وتخرب الدنيا، «ولا تقوم الساعة وفي الأرض من يقول: الله، الله»، «لا تقوم الساعة إلّا على شرار الخلق». فإذا خلت الأرض من الصالحين قامت القيامة، أما ما دام الصالحون موجودين فإن الله سبحانه وتعالى ينزل على أهل الأرض الخيرات والبركات بسبب وجودهم، عكس ما يعتقده آل فرعون من التطيُّر بالرسل عليهم الصلاة والسلام.

وكذلك ثمود، تطيّروا بصالح عليه السلام لَمّا دعاهم إلى الله سبحانه وتعالى ﴿قَالُوا۟ ٱطَّيَّرْنَا بِكَ وَبِمَن مَّعَكَ﴾.

وكذلك أهل القرية الذين ذكرهم الله في سورة «يس» لَمّا جاءتهم الرسل قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا أَصْحَٰبَ ٱلْقَرْيَةِ إِذْ جَآءَهَا ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٣﴾ إِذْ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱثْنَيْنِ

....

﴿فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓا۟ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ ﴿١٤﴾ قَالُوا۟ مَآ أَنتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَآ أَنزَلَ ٱلرَّحْمَٰنُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَكْذِبُونَ ﴿١٥﴾ قَالُوا۟ رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّآ إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ ﴿١٦﴾ وَمَا عَلَيْنَآ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٧﴾ قَالُوٓا۟ إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ﴾ يعني: تشاءمنا بكم، وما جئتمونا بخير، ﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا۟ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هدّدوا الرسل وقالوا: ما رأينا منكم إلّا الشرّ

فرد عليهم الرسل: ﴿قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ أي: ما أصابكم فأنتم سببه، لأن شببه الذنوب والمعاصي التي تصدُر منكم والكفر، فأنتم السبب، ونحن سبب الخير، نحن رسلٌ من عند الله جئناكم، لو أطعتمونا لحصلتم على الخير؛ فهذا ردٌ عليهم، فهذا فيه: بيان أن الشر والشؤم سببه المعاصي والكفر والشرك بالله.

وكذلك المشركون تطيّروا بمحمد ﷺ خاتم الرسل وأفضل الرسل، تطيّروا به، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ يخاطبون النبي ﷺ، ﴿تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ﴾ يعني: خير وخصب ونبات وزروع وخيرات، يقولون: هذه من عند الله، نعم، صحيح أنها من عند الله، الله هو الذي أنزلها، ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ﴾: قحطٌ جذب شُحٌّ في الأرزاق ﴿يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ﴾ بسببك يا محمد، وبسبب أتباعك، ﴿قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ﴾ كلٌّ بقضاء الله وقدره، الخصب والخيرات والجدب والقحط كله من عند الله وبقضائه وقدره، ولكن الخصب والخيرات سببها الطاعات، وأما الجذب والقَحْط وانحباس الأمطار، فسببه المعاصي والسيّئات، فالسبب من قِبل بني آدم؛ وأما المقدِّر فهو الله تعالى، هو الخالق وهو الموجِد سبحانه وتعالى، ويعطي كلًا على حسب عمله؛ المحسِن يحسن إليه، والمسيء يعاقبه إذا شاء سبحانه وتعالى، فالأمر كله بيد الله.

❊ ❊ ❊

٧٥) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ ﷺ قَالَ: «لاعَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ولا هَامَةَ، ولا صَفَرَ» . أَخْرَجَاهُ. زَادَ مُسْلِمٌ: «ولا نَوْءَ ولا غَوْلَ» .

---

٧٥) الشرح:

* **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** والعدوى: انتقال المرض من المريض إلى الصحيح، وكما يكون في الأمراض الحسية يكون أيضًا في الأمراض المعنوية الخلقية، ولهذا أخبر ﷺ أن جليس السوء كنافخ الكير، إما أن يحرق ثيابك، وإما أن تجد منه رائحة كريهة[1].

فقوله: «لا عدوى» يشمل الحسية والمعنوية، وإن كانت في الحسية أظهر.

قوله: «ولا طيرة». اسم مصدر تطير، لأن المصدر منه تطير، مثل الخيرة.

قوله: «ولا هامة». الهامة، بتخفيف الميم فسرت بتفسيرين:

الأول: أنها طير معروف يشبه البومة، أو هي البومة، تزعم العرب أنه إذا قتل القتيل، صارت عظامه هامة تطير وتصرخ حتى يؤخذ بثأره، وربما اعتقد بعضهم أنها روحه.

التفسير الثاني: أن بعض العرب يقولون: الهامة هي الطير المعروف.

قوله: «ولا صفر». قيل: إنه شهر صفر، كانت العرب يتشاءمون به، ولا سيما في النكاح.

وقيل: إنه داء في البطن يصيب الإبل، وينتقل من بعير إلى آخر، وعلى هذا، فيكون عطفه على العدوى من باب عطف الخاص على العام.

وقيل: إنه نهي عن النسيئة، وكانوا في الجاهلية ينسئون، فإذا أرادوا القتال في شهر المحرم استحلوه، وأخروا الحرمة إلى شهر صفر.

وهذا النفي في هذه الأمور الأربعة ليسس نفيًا للوجود، لأنها موجودة، ولكنه نفي للتأثير، فالمؤثر هو الله، فما كان منها سببًا معلومًا، فهو سبب صحيح، وما

---

(١) البخاري: كتاب البيوع/ باب في العطار وبيع المسك (١٥٩٥)، ومسلم: كتاب البر والصلة/ باب استحباب مجالسة الصالحين (٢٦٢٨).

....

كان منها سببًا موهومًا، فهو سبب باطل، ويكون نفيًا لتأثيره بنفسه إن كان صحيحًا، ولكونه سببًا إن كان باطلاً.

فقوله: «لا عدوى»: العدوى موجودة، ويدل لوجودها قوله ﷺ: «لا يورد ممرض على مصح»[١]، أي: لا يورد صاحب الإبل المريضة على صاحب الإبل الصحيحة، لئلا تنتقل العدوى.

وقوله ﷺ: «فر من المجذوم فرارك من الأسد»[٢].

والجذام مرض خبيث مُعْدٍ بسرعة ويتلف صاحبه، حتى قيل: إنه الطاعون، فالأمر بالفرار من المجذوم لكي لا تقع العدوى منه إليك، وفيه إثبات لتأثير العدوى، لكن تأثيرها ليس أمرًا حتميًا، بحيث تكون علة فاعلة، وأمر النبي ﷺ بالفرار، وألا يورد ممرض على مصح من باب تجنب الأسباب لا من باب تأثير الأسباب بنفسها، فالأسباب لا تؤثر بنفسها، لكن ينبغي لنا أن نتجنب الأسباب التي تكون سببًا للبلاء، لقوله تعالى: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة: ١٩٥]، ولا يمكن أن يقال: إن الرسول ﷺ ينكر تأثير العدوى، لأن هذا أمر يبطله الواقع والأحاديث الأخرى.

قوله: «لا نوء». واحد الأنواء، والأنواء: هي منازل القمر، وهي ثمان وعشرون منزلة، كل منزلة لها نجم تدور بمدار السنة.

وهذه النجوم بعضها يسمى النجوم الشمالية، وهي لأيام الصيف، وبعضها يسمى النجوم الجنوبية، وهي لأيام الشتاء، وأجرى الله العادة أن المطر في وسط الجزيرة العربية يكون أيام الشتاء، أما أيام الصيف، فلا مطر.

فالعرب كانوا يتشاءمون بالأنواء، ويتفاءلون بها، فبعض النجوم يقولون: هذا نجم نحس لا خير فيه، وبعضها بالعكس يتفاءلون به فيقولون: هذا نجم سعود وخير، ولهذا إذا أمطروا قالوا: مطرنا بنوء كذا، ولا يقولون: مطرنا بفضل الله

---

(١) مسلم: كتاب السلام/ باب لا عدوى ولا طيرة (٢٢٢١).

(٢) البخاري في «الصحيح» تعليقًا في (كتاب الطب، باب الجذام) (٥٣٨٠).

....

ورحمته، ولا شك أن هذا غاية الجهل.

قوله: «ولا غول». جمع غَولة أو غُولة، ونحن نسميها باللغة العامية: (الهولة)، لأنها تهول الإنسان.

والعرب كانوا إذا سافروا أو ذهبوا يمينًا وشمالًا، تلونت لهم الشياطين بألوان مفزعة مخيفة، فتدخل في قلوبهم الرعب والخوف، فتجدهم يكتئبون ويستحسرون عن الذهاب إلى هذا الوجه الذي أرادوا، وهذا لا شك أنه يضعف التوكل على الله، والشيطان حريص على إدخال القلق والحزن على الإنسان بقدر ما يستطيع، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [المجادلة: ١٠].

* **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله ﷺ: «لا عدوى» المراد بالعدوى: انتقال المرض من شخص إلى شخص، أو من بهيمة إلى بهيمة، أو من مكان إلى مكان.

والمرض يتعدّى من محل إلى محل، ويتعدّى من المريض إلى السليم، ويتعدّى من الجربى إلى الصحيحة، هذا شيءٌ موجود.

والرسول ﷺ لا ينفي هذا، وإنما ينفي العدوى التي كان يعتقدها أهل الجاهلية من أنّ المرض يتعدّى بنفسه بدون تقدير الله سبحانه وتعالى، فالعدوى وهي: انتقال المرض من محل إلى محل بسبب قرب الصحيح من المريض، والمقدر لها هو الله تعالى، فقد يقرُب الصحيح من المريض ولا يصيبه شيء، وقد يقرُب ويُصاب، والسبب: أن هذا راجعٌ إلى الله، إن شاء سبحانه وتعالى انتقل هذا المرض، وإنْ شاء لم ينتقل، فمجرّد مقاربة المريض أو القدوم على المحل الموبوء هذا سبب، أما التأثُّر فهو بيد الله سبحانه وتعالى، فقد يدخل الإنسان في الأرض الموبوءة ولا يصاب، وقد يورِد الممرض على المُصح ولا يُصاب، وقد ينام المريض بجانب الصحيح ولا يصاب، وقد يصاب، فما وجه التفريق بين الحالتين؟ وجه التفريق: أن هذا راجعٌ إلى مشيئة الله تعالى.

....

أما أهل الجاهلية، فلا يفرّقون بل عندهم: أن كل من قارب المرض- أو كل من قارب المريض- أنه يُصاب، ولا ينسبون هذا إلى قضاء الله وقدره، ولا يتوكّلون على الله سبحانه وتعالى، ويفرِطون في التشاؤم والتطيُّر وانتقال العدوى، ويعملون أعمالاً تُضحك.

فقوله ﷺ: «لا عدوى» يعني: على ما كان يعتقده أهل الجاهلية، أما أنّ العدوى تحصُل بإذن الله، فهذا أمرٌ واقع، ولهذا نهى ﷺ عن مخالطة المجذوم، ونهى ﷺ عن القدوم على الأرض الموبوءة، ونهى من كان في أرض فيها وباء أن يخرج منها ومن كان خارجها لا يدخل فيها، لأن هذه أسبابٌ لانتشار المرض، والامتناع عنها أخذٌ بالأسباب الواقية، والإقدام عليها إلقاءٌ إلى التَّهْلُكة، والله نهى عن ذلك، إلّا من قَوِيَ إيمانه وتوكُّله على الله تعالى؛ فهذا قد يُقدم على الوباء ويخالط المرضى ولا يصاب، لأنه متوكِّلٌ على الله سبحانه وتعالى، لكن هذا لا يكون إلّا لأهل الإيمان القوي، أما أهل الإيمان الضعيف، فهؤلاء يبتعدون عن هذه المواطن لئلا يصابوا، ثمّ تسوء عقيدتهم.

وقوله: «ولا طيرة» هذا نفيٌ معناه: النهي، يعني: لا تتطيّروا، وإنْ كان الإنسان يجد في نفسه شيئًا فلا يمنعه ما يجد في نفسه من المُضي والعزم، لأن إيمانه يسوقه، بخلاف ضعيف الإيمان فإن التشاؤم يتغلّب عليه فيتراجع، ويكون هذا من الخلل في العقيدة، وضعف التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.

وإذا وجدت في نفسك تشاؤمًا أو كراهية فتوكّل على الله وأقدِم.

والطيرة ليس لها أصل، بخلاف العدوى، وإنما هي من الشيطان، فهي تخيُّلٌ من الإنسان بسبب وسوسة الشيطان.

وقوله ﷺ: «ولا هامَة» الهامة: طائر يسمّى البومة، وكان العرب يتشاءمون به إذا وقع على بيت أحدهم قال: نعى إليَّ نفسي أو أحدًا من أهلي. كانوا يتشاءمون بها، ويقولون: البوم لا يقع إلّا على الخراب. فهذا من عقيدة الجاهلية.

وبعض أهل الجاهلية يزعمون أنه إذا قُتل القتيل ولم يؤخذ له بالثأر، فإنه يخرج

....

منه طائر يسمّى الهامة، ويصوِّت: اسقوني، اسقوني يعني: خذوا بالثأر، ولهذا يقول الشاعر:

يا عمرو إن لم تدع ذمي ومثلبتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني(١)

قوله ﷺ: «ولا صَفَر» هذا فيه قولان لأهل العلم:

القول الأول: أن المراد بالصفر: شهر صفر، لأنهم كانوا في الجاهلية يتشاءمون بهذا الشهر، فلا يتزوّجون فيه، ولا يسافرون، ولا يتاجرون، ويعتقدون أنه شهرٌ مشئوم.

فردّ عليهم النبي ﷺ بأنه ليس هناك صفر مشئوم، وإنما صفرٌ شهر من أشهر الله، ليس فيه شؤم ولا شرٌّ.

فهذا فيه: إبطال لتشاؤمهم بشهر صفر.

والقول الثاني: أن المراد بصفر: مرض يكون في المعدة، يزعمون أنه يُعْدي غير المصاب به.

ولكن سواءٌ قيل هذا أو هذا، كله منفي سواء تشاءموا من الشهر أو تشاءموا من المرض، كله لا أصل له، فليس في الشهر شؤم ولا في المرض، وإنما الأمراض بيد الله سبحانه وتعالى، هو الذي ينزلها، وهو الذي يرفعها، هو الذي يُمرض، وهو الذي يشفي سبحانه وتعالى، لا دخل للشهور، ولا دخل لغيرها في هذا الأمر.

قوله: «أخرجاه» أي: أخرجه البخاري ومسلم.

ومناسبة الحديث للباب ظاهرة حيث إنه قال: «ولا طيرة»، ففيه: النهي عن الطيرة.

قوله: «زاد مسلم» أي: في روايته، يعني: زاد على الأربعة المذكورة فصارت «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر، ولا نوء، ولا غول» فصارت ستة أشياء.

والنوء المراد به: أحد الأنواء، وهو: النجم، لأنهم كانوا يعتقدون أنّ نزول الأمطار وهُبوب الرياح بسبب طلوع النجوم، ويُسندون هذا إلى النجوم والكواكب، وهذا من اعتقاد الجاهلية.

---

(١) البيت لذي الأصبع، وهو في لسان العرب مادة «هوم».

٧٦) ولَهُمَا عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا عَدْوَى، ولا طِيَرَةَ، ويُعْجِبُنِي الفَأْلُ» قَالُوا: ومَا الفَأْلُ؟ قَالَ: «الكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ».

ولأَبِي دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ عُقْبَةَ بنِ عَامِرٍ رضي الله عنه قَالَ:

فالحاصل أن هذا حديثٌ عظيم، جمع فيه النبي ﷺ كثيرًا من عقائد الجاهلية وأبطلها ونفاها، وقرّر ﷺ عقيدة التّوحيد.

وقوله ﷺ: «ولا غول» -بضم الغين-: أحد الغيلان، والغيلان من أعمال شياطين تتشكّل أمام النّاس في الفلوات، خصوصًا إذا استوحش الإنسان تتشكّل أمامه أشياء تضله عن الطريق، إما بأنْ يرى أمامه نارًا تتنقل، أو أصواتًا يسمعها، أو غير ذلك، ولهذا يقول ﷺ: «إذا تغوّلت الغيلان فبادروا بالأذان» بمعنى: أنه إذا تغوّل الغول أمامك فبادر إلى ذكر الله، فإن ذكر الله يطرد الشيطان، فإذا ذكرت الله أو تلوت القرآن ذهب عنك هذا العمل الشيطاني.

فالنبي ﷺ نفى هذا أيضًا.

وكانوا في الجاهلية يعتقدون في هذه الغيلان أنها تُحدِث لهم شرًّا، والنبي ﷺ نفى هذا، وقال: لا أصل لها، وهي أعمال شيطانية لا تضر أحدًا إلّا بإذن الله، وذكر لها علاجًا شافيًا؛ وهو ذكر الله.

٧٦) الشـرح:

* قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «ويعجبني الفأل». أي: يسرني، والفأل بيّنه بقوله: «الكلمة الطيبة». فـ «الكلمة الطيبة» تعجبه ﷺ، لما فيها من إدخال السرور على النفس والانبساط، والمضي قُدُمًا لما يسعى إليه الإنسان، وليس هذا من الطيرة، بل هذا مما يشجع الإنسان، لأنها لا تؤثر عليه، بل تزيده طمأنينة وإقدامًا وإقبالاً.

قوله: «عن عقبة بن عامر». صوابه عن عروة بن عامر، كما ذكره في «التيسير»، وقد اختلف في نسبه وصحبته.

ذُكِرَتْ الطِّيَرَةُ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «أَحْسَنُهَا الفَأْلُ، ولا تَرُدُّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ فَلْيَقُلْ: اللهُمَّ لا يَأْتِي بِالحَسَنَاتِ إِلَّا أَنْتَ، ولا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، ولا حَوْلَ ولا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»

قوله: «ذكرت الطيرة عند رسول الله». وهذا الذكر إما ذكر شأنها، أو ذكر أن الناس يفعلونها، والمراد: تحدث الناس بها عند رسول الله ﷺ.

قوله: «ولا ترد مسلمًا». يفهم منه أن من ردته الطيرة عن حاجته فليس بمسلم.

قوله: «فإذا رأى أحدكم ما يكره». فحينئذ قد ترد على قلبه الطيرة، ويبتعد عما يريد، ولا يقدم عليه، وقد ذكر النبي ﷺ دواء لذلك وقال: «فليقل: اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات. . . .» إلخ.

قوله: «اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت». وهذا هو حقيقة التوكل، وقوله: «اللَّهُمَّ». يعني: يا الله، ولهذا بنيت على الضم، لأن المنادى علم، بل هو أعلم الأعلام وأعرف المعارف على الإطلاق، والميم عوض عن يا المحذوفة، وصارت في آخر الكلمة تبركًا بالابتداء باسم الله - سبحانه وتعالى - وصارت ميمًا، لأنها تدل على الجمع، فكأن الداعي جمع قلبه على الله.

قوله: «لا يأتي بالحسنات إلا أنت». أي: لا يقدرها ولا يخلقها ولا يوجدها للعبد إلا الله وحده لا شريك له، وهذا لا ينافي أن تكون الحسنات بأسباب، لأن خالق هذه الأسباب هو الله، فإذا وجدت هذه الحسنات بأسباب خلقها الله، صار الموجد هو الله.

قوله: «ولا حول ولا قوة إلا بك». في معناها وجهان:

الأول: أنه لا يوجد حول ولا قوة إلا بالله، فالباء بمعنى في، يعني: إلا في الله وحده، ومن سواه ليس لهم حول ولا قوة، ويكون الحول والقوة المنفيان عن غير الله هما الحول المطلق والقوة المطلقة، لأن غير الله فيه حول وقوة، لكنها نسبية ليست بكاملة، فالحول الكامل والقوة الكاملة في الله وحده.

الثاني: أنه لا يوجد لنا حول ولا قوة إلا بالله، فالباء للاستعانة أو للسببية، وهذا المعنى أصح، وهو مقتضى ورودها في مواضعها، إذ إننا لا نتحول من حول

. . . .

إلى حول ولا نقوى على ذلك إلا بالله، فيكون في هذه الجملة كمال التفويض إلى الله، وأن الإنسان يبرأ من حوله وقوته إلا بما أعطاه الله من الحول والقوة.

فإن صح الحديث، فالرسول ﷺ أرشدنا إذا رأينا ما نكره مما يتشاءم به المتشائم أن نقول: «اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك».

*** قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** فقوله ﷺ في حديث أنس رضي الله عنه: «لا عدوى» العدوى سبق الكلام فيها، وأن معناها: انتقال المرض من شخص إلى شخص بحكم مقاربته له، أو ملامسته له، ونحو ذلك.

فقوله: «لا عدوى» يعني: على ما كان تعتقده الجاهلية، وإنما العدوى بأمر الله سبحانه وتعالى ومشيئته، فإذا توكلت على الله، وآمنت بالله، وقوِيَ يقينك بالله، واتخذت الأسباب التي أمر الله بها؛ فحينئذ تكون قد فعلت المشروع، والتوكل ليس معناه أنك تترك الأسباب، بل تأخذ بالأسباب الواقية.

وقوله ﷺ: «ويعجبني الفأل» الفأل: تأميل الخير. والطيرة: تأميل الشر.

وتأميل الخير مطلوب، والطيرة ممنوعة لأن الطيرة سوء ظنٍّ بالله، والفأل حسن ظنٍّ بالله جل وعلا.

فإذا سمع الشخص كلمة طيِّبة انشرح صدره، أو رأى شخصًا طيِّبًا جاء إليه انشرح صدره وأمّل خيرًا، وأحسن الظن بالله سبحانه وتعالى، فهذا أمرٌ طيِّب، ولهذا كان الفأل يعجب الرسول ﷺ، فإذا سمع ﷺ اسمًا حسنًا، أو كلمة طيبة، أو مرّ بمكان طيّب، انشرح صدره ﷺ من حسن الظن بالله جل وعلا.

ولمّا أقبل سُهيل بن عمرو في قصة الحديبية ليتفاوض مع الرسول ﷺ ورآه مقبلاً قال ﷺ: «سُهِّل لكم من أمركم»، وكان كما أمّل الرسول ﷺ فكان مجيئه سبب خير.

قوله. «فإذا رأى أحدكم ما يكره، فليقل. . .» إلخ فيه ما تعالج به الطيرة، وهو هذا الدعاء الذي ذكره.

٧٧) وعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، الطِّيَرَةُ شِرْكٌ، ومَا مِنَا إِلَّا، ولَكِنَّ اللهُ يُذْهِبُهُ بِالتَّوَكُّلِ» رَواهُ أَبو دَاوُدَ والتِّرْمِذِيُّ وصَحَّحَهُ، وجَعَلَ آخِرَهُ مِنْ قَوْلِ ابنِ مَسْعُودٍ.

ولأَحْمَدَ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَمْرٍو: «مَنْ رَدَّتْهُ الطِّيَرَةُ عَنْ حَاجَتِهِ، فَقَدْ أَشْرَكَ». قَالُوا: فَمَا كَفَّارَةُ ذَلِكَ؟ قَالَ: «أَنْ تَقُولَ: اللهُمَّ لا خَيْرَ إِلَّا خَيْرُكَ، ولا طَيْرَ إِلَّا طَيْرُكَ، ولا إِلَهَ غَيْرُكَ».

ولَهُ مِنْ حَدِيثِ الفَضْلِ بنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ أَوْ رَدَّكَ.

---

٧٧) الشرح:

* قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وقوله: «شرك». أي: إنها من أنواع الشرك، وليس الشرك كله، وإلا لقال: الطيرة الشرك.

وهل المراد بالشرك هنا الشرك الأكبر المخرج من الملة، أو أنها نوع من أنواع الشرك؟

نقول: هي نوع من أنواع الشرك، كقوله ﷺ: «اثنتان في الناس هما بهم كفر»[1]. أي: ليس الكفر المخرج عن الملة، وإلا، لقال: «هما بهم الكفر»، بل هما نوع من الكفر.

لكن في ترك الصلاة قال: «بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة»[2]، فقال: «الكفر»، فيجب أن نعرف الفرق بين «أل» المعرفة أو الدالة على الاستغراق، وبين خلو اللفظ منها، فإذا قيل: هذا كفر، فالمراد أنه نوع من الكفر لا يخرج من الملة، وإذا قيل: هذا الكفر، فهو المخرج من الملة.

قوله: «وجعل آخره من قول ابن مسعود». وهو قوله: «وما منا إلا...» إلخ.

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان/ باب إطلاق اسم الكفر على الطعن في النسب (٦٧).
(٢) أخرجه مسلم (كتاب الإيمان، باب إطلاق اسم الكفر على من ترك الصلاة) (٨٢).

....

وعلى هذا يكون موقوفًا، وهو مدرج في الحديث، والمدرج: أن يدخل أحد الرواة كلامًا في الحديث من عنده بدون بيان، ويكون في الإسناد والمتن، ولكن أكثره في المتن، وقد يكون في أول الحديث، وقد يكون في وسطه، وقد يكون في آخره، وهو الأكثر.

مثال ما كان في أول الحديث: قول أبي هريرة رضي الله عنه: «أسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار»[١]. فقوله: «أسبغوا الوضوء» من كلام أبي هريرة، وقوله: «ويل للأعقاب من النار» من كلام الرسول ﷺ.

ومثال ما كان في وسطه قول الزهري في حديث بدء الوحي: «كان رسول الله ﷺ يتحنث في غار حراء، والتحنث: التعبد»[٢]. ومثال ما كان في آخره: هذا الحديث الذي ذكره المؤلف، وكذا حديث أبي هريرة، وفيه: «فمن استطاع منكم أن يطيل غرته، فليفعل»[٣]، فهذا من كلام أبي هريرة.

قوله: «فقد أشرك». أي: شركًا أكبر إن اعتقد أن هذا المتشاءم به يفعل ويحدث الشر بنفسه، وإن اعتقده سببًا فقط فهو أصغر، لأنه سبق أن ذكرنا قاعدة مفيدة في هذا الباب، وهي: «إن كل من اعتقد في شيء أنه سبب ولم يثبت أنه سبب لا كونًا ولا شرعًا، فشركه شرك أصغر، لأنه ليس لنا أن نثبت أن هذا سبب إلا إذا كان الله قد جعله سببًا كونيًا أو شرعيًا، فالشرعي: كالقراءة والدعاء، والكوني: كالأدوية التي جرب نفعها».

وقوله: «فما كفارة ذلك». أي: ما كفارة هذا الشرك، أو ما هو الدواء الذي يزيل هذا الشرك؟ لأن الكفارة قد تطلق على كفارة الشيء بعد فعله، وقد تطلق على الكفارة قبل الفعل، وذلك لأن الاشتقاق مأخوذ من الكفر، وهو الستر، والستر واق، فكفارة ذلك إن وقع وكفارة ذلك إن لم يقع.

---

(١) البخاري(١٦٣)، ومسلم: (٢٤٢).

(٢) البخاري: (٣)، ومسلم: (١٦٠).

(٣) البخاري: (١٣٦)، ومسلم: (٢٤٦).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: التَّنْبِيهُ عَلَى قَوْلِهِ: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] مَعَ قَوْلِهِ: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾ [يس: ١٩].

وقوله: «اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك». يعني: فأنت الذي بيدك الخير المباشر، كالمطر والنبات، وغير المباشر، كالذي يكون سببه من عند الله على يد مخلوق، مثل: أن يعطيك إنسان دراهم صدقة أو هدية، وما أشبه ذلك، فهذا الخير من الله، لكن بواسطة جعلها الله سببًا، وإلا، فكل الخير من الله عز وجل.

قوله: «ولا إله غيرك». «لا» نافية للجنس، «إله» بمعنى: مألوه، كغِراس بمعنى مغروس، وفِراش بمعنى مفروش. والمألوه: هو المعبود محبة وتعظيمًا، يتأله إليه الإنسان محبة له وتعظيمًا له.

فإن قيل: إن هناك آلهة دون الله، كما قال تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ﴾ [هود: ١٠١].

أجيب: أنها وإن عبدت من دون الله وسميت آلهة، فليست آلهة حقًا لأنها لا تستحق أن تعبد، فلهذا نقول: لا إله إلا الله، أي: لا إله حق إلا الله.

قوله: «ما أمضاك أو ردك». أما «ما ردك»، فلا شك أنه من الطيرة، لأن التطير يوجب الترك والتراجع.

وأما «ما أمضاك»، فلا يخلو من أمرين:

الأول: أن تكون من جنس التطير، وذلك بأن يستدل لنجاحه أو عدم نجاحه بالتطير.

الثاني: أن يكون سبب المضي كلامًا سمعه أو شيئًا شاهده يدل على تيسير هذا الأمر له، فإن هذا فأل، وهو الذي يعجب النبي ﷺ.

فيه مسائل:

الأولى: التنبيه على قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾، مع قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ﴾.

أي: لكي ينتبه الإنسان، فإن ظاهر الآيتين التعارض، وليس كذلك، فالقرآن والسنة لا تعارض بينهما، ولا تعارض في ذاتهما، إنما يقع التعارض حسب فهم المخاطب، وقد سبق بيان الجمع أن قوله: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أن الله هو

«الثَّانِيَةُ»: نَفْيُ العَدْوَى.
«الثَّالِثَةُ»: نَفْيُ الطِّيَرَةِ.
«الرَّابِعَةُ»: نَفْيُ الهَامَةِ.
«الخَامِسَةُ»: نَفْيُ الصَّفَرِ.
«السَّادِسَةُ»: أَنَّ الفَأْلَ لَيْسَ مِنْ ذَلِكَ بَلْ مُسْتَحَبٌّ.
«السَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ الفَأْلِ.
«الثَّامِنَةُ»: أَنَّ الوَاقِعَ فِي القُلُوبِ مِنْ ذَلِكَ مَعَ كَرَاهَتِهِ لا يَضُرُّ بَلْ يُذْهِبُهُ اللهُ بِالتَّوَكُّلِ.

المقدر ذلك، وليس موسى ولا غيره من الرسل، وأن قوله: ﴿طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ﴾ من باب السبب، أي: أنتم سببه.

الثانية: نفي العدوى. وقد سبق أن المراد بنفيها نفي تأثيرها بنفسها لا أنها سبب للتأثير، لأن الله قد جعل بعض الأمراض سببًا للعدوى وانتقالها.

الثالثة: نفي الطيرة. أي: نفي التأثير لا نفي الوجود.

الرابعة: نفي الهامة. والخامسة: نفي الصفر. وقد سبق تفسيرهما.

السادسة: أن الفأل ليس من ذلك، بل مستحب. تؤخذ من قول النبي ﷺ: «يعجبني الفأل»، وكل ما أعجب النبي ﷺ، فهو حسن، قالت عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ يعجبه التيمن في تنعله وترجله وطهوره وفي شأنه كله»[(١)].

السابعة: تفسير الفأل. فسره النبي ﷺ بأنه: الكلمة الطيبة، وسبق أن هذا التفسير على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، لأن الفأل كل ما ينشط الإنسان على شيء محمود، من قول، أو فعل مرئي أو مسموع.

الثامنة: أن الواقع في القلوب من ذلك مع كراهته لا يضر، بل يذهبه الله بالتوكل. أي: إذا وقع في قلبك وأنت كاره له، فإنه لا يضرك ويذهبه الله بالتوكل،

---

(١) البخاري: كتاب الوضوء/ باب التيمن في الوضوء والغسل (١٦٦)، ومسلم: كتاب الطهارة/ باب التيمن في الطهور (٢٦٨).

«التَّاسِعَةُ»: ذِكْرُ مَا يَقُولُهُ مَنْ وَجَدَهُ.
«العَاشِرَةُ»: التَّصْرِيحُ بِأَنَّ الطِّيَرَةَ شِرْكٌ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: تَفْسِيرُ الطِّيَرَةِ المَذْمُومَةِ.

لقول ابن مسعود: «وما منا إلا... ولكن الله يذهبه بالتوكل».

التاسعة: ذكر ما يقول من وجده. وسبق أنه شيئان:

أن يقول: «اللَّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك». أو يقول: «اللَّهُمَّ لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك».

العاشرة: التصريح بأن الطيرة شرك. وسبق أن الطيرة شرك، لكن بتفصيل، فإن اعتقد تأثيرها بنفسها، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنها سبب، فهو شرك أصغر.

الحادية عشرة: تفسير الطيرة المذمومة. أي: ما أمضاك أو ردك.

* **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** وفي حديث ابن مسعود قال: «الطيرة شرك، الطيرة شرك» كرَّر هذا مرّتين أو ثلاثًا تأكيدًا، وقد قدّمنا بيان معنى كونها شركًا.

قوله: «وما منّا إلّا... ولكن الله يُذهبه بالتوكُّل» هذا من كلام ابن مسعود، يقول: يقع في قلوبنا شيء من الطِّيرة، فإذا رأى الإنسان شيئًا يكرهه يقع في نفسه شيء، لأنه لا يقدر على ردِّ هذا، وهذا لا يؤاخذ عليه الإنسان، كما قال ﷺ: «إن الله تجاوز عن أمتي الخطأ والنسيان وما حدَّثتْ به أنفسها ما لم تتكلّم أو تعمل».

«ولكن الله يُذهبه بالتوكُّل» هذا هو العلاج، فالمؤمن يتوكل على الله ولا يضره ما وقع في نفسه، ويذهب بإذن الله إذا توكّل على الله.

فهذا إشارةٌ إلى ما تُعالج به الطيَرة أيضًا، وهو: التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، ثم المُضي وعدم التردُّد.

وقوله: «من ردته الطيرة عن حاجته فقد أشرك» فيه أن التطير الذي يرد ويمنع الإنسان عن حاجته شرك.

وقوله ﷺ: «الطيرة: ما أمضاك أو ردّك» «ما أمضاك» يعني، ما نفّرك من

....

المكان، أو من الشخص، أو من المرئي الذي رأيته، وفرزت منه تأثرًا بالطيرة فهو شرك.

«أو ردّك» أي: عن حاجتك، كأن تريد أن تسافر ولَمّا رأيت الثعلب أو الغراب أو فلانًا الذي تكره قلت: هذا سفر ليس بحسن أو طيّب. ورجعت عنه وهذا هو التطيُّر، وهو شرك. والواجب عليك حينما حصل لك هذا الشيء وكرهته في نفسك أن ترفضه متوكِّلًا على الله تعالى وأنْ تمضيَ في حاجتك.

ثم بيّن ﷺ ما تُعالجَ به الطيَرة، وهو ثلاثة أمور:

الأمر الأول: - وهو الأصل-: التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وأنه لا يأتي بالخير ولا يدفع الشر إلّا هو سبحانه وتعالى.

الأمر الثاني: أنْ يمضيَ في حاجته التي أرادها، ولا يرجع عنها بسبب الطيَرة.

الأمر الثالث: الدعاء، بأن يدعوَ الله بالدعاء الذي أرشد إليه النبي ﷺ، وهو أن يقول: «اللّهُمَّ لا يأتي بالحسنات إلّا أنت، ولا يدفع السيّئات إلّا أنت، ولا حول ولا قوة إلّا بك» وهذا دعاءٌ عظيم، فيه توكُّل على الله، وفيه اعتراف بأن الذي يأتي بالحسنات ويدفع السيّئات هو الله تعالى وليست الطيَرة، وأنه لا حول ولا قوة إلّا بالله، لا أحد يحوّل من حال إلى حال إلّا الله سبحانه وتعالى، ولا أحد يقوى على شيء إلّا بقوة الله سبحانه وتعالى.

والدعاء الثاني: «اللّهُمَّ لا خير إلّا خيرك، ولا طير إلّا طيرك، ولا إله غيرك» «لا خير إلّا خيرك» أي: لا أحد يجلب الخير إلّا الله سبحانه وتعالى.

«ولا طير إلّا طيرك» لا يصيبك شيء إلّا بإذن الله وقدره ومشيئته، وبسبب ذنوبك.

«ولا إله غيرك» لا معبود بحقّ سواك، وهذا اعتراف بالتّوحيد ونفي للشرك.

❁ ❁ ❁

٧٨) ٢٩-بابٌ ما جَاءَ فِي التَّنْجِيمِ

قَالَ البُخَارِيُّ فِي صَحِيحِهِ: قَالَ قَتَادَةُ: «خَلَقَ اللهُ هَذِهِ النُّجُومَ لِثَلَاثٍ: زِينَةً لِلسَّمَاءِ ورُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ، وعَلَامَاتٍ يُهْتَدَى بِهَا. فَمَنْ تَأَوَّلَ فِيهَا غَيْرَ ذَلِكَ أَخْطَأَ وأَضَاعَ نَصِيبَهُ، وتَكَلَّفَ مَا لا عِلْمَ لَهُ بِهِ». اهـ.

وكَرِهَ قَتَادَةُ تَعَلُّمَ مَنَازِلِ القَمَرِ، ولَمْ يُرَخِّصْ ابنُ عُيَيْنَةَ فِيهِ. ذَكَرَهُ حَرْبٌ عَنْهُمَا، ورَخَّصَ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ أَحْمَدُ وإِسْحَاقُ.

---

٧٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لما كان التنجيم شائعًا معمولاً به ذكره المؤلف.

«التنجيم»: مصدر نجم ينجم تنجيمًا، أي: حزر وحدس بما يعتقده في النجوم والتنجيم هو الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية فينظرون في النجوم، واجتماعها وافتراقها وطلوعها وتقاربها وتباعدها، ويستدلون بها على أنه يقع كذا وكذا، وهذا باطل من دعوى علم الغيب التي أبطلها الله بقوله: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾.

أما النظر في النجوم من باب التسيير؛ لمعرفة منازل المقر لتحديد أوقات الصلاة والمطر، فلا بأس به كما هو رأي أحمد وإسحاق بن راهويه.

قال البخاري في صحيحه عن قتاده قال: خلق الله هذه النجوم لثلاث.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾.

وقوله: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

قوله: من تأوّل فيها غير ذلك أخطأ... بأن زعم أنها تدل على كذا وكذا من علوم الغيب فقد أخطأ، وأضاع نصيبه. أي: من الآخرة، وتكلف ما لا يعلم.

قوله «علامات يهتدى بها»: هذا علم المنازل والتسيير.

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه.

وهذا قول مرجوح لهما، ورخص فيه أحمد وإسحاق، وهو الصواب.

....

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: التنجيم: مصدر نجم بتشديد الجيم، أي: تعلم علم النجوم، أو اعتقد تأثير النجوم.

قوله في أثر قتادة: «خلق الله هذه النجوم لثلاث». اللام للتعليل، أي: لبيان العلة والحكمة.

قوله: «لثلاث». ويجوز لثلاثة، لكن الثلاث أحسن، أي: لثلاث حكم، لهذا حذف تاء التأنيث من العدد.

والثلاث هي:

الأولى: زينة للسماء، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ [الملك: ٥].

الثانية: رجومًا للشياطين، أي: لشياطين الجن، وليسوا شياطين الإنس.

الثالثة: علامات يهتدى بها، تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦].

قوله: «وكره قتادة تعلم منازل القمر». أي: كراهة تحريم بناءً على أن الكراهة في كلام السلف يراد بها التحريم غالبًا.

قوله: «ولم يرخص فيه ابن عيينة». هو سفيان بن عيينة المعروف، وهذا يوافق قول قتادة بالكراهة.

قوله: «وذكره حرب». من أصحاب أحمد، روى عنه مسائل كثيرة.

قوله: «إسحاق». هو إسحاق بن راهويه.

والصحيح أنه لا بأس بتعلم منازل القمر، لأنه لا شرك فيها، إلا أن تعلمها ليضيف إليها نزول المطر وحصول البرد، وأنها هي الجالبة لذلك، فهذا نوع من الشرك، أما مجرد معرفة الوقت بها: هل هو الربيع، أو الخريف، أو الشتاء، فهذا لا بأس به.

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال الشيخ رحمه الله: «الباب ما جاء في التنجيم»؛ أي: ما ورد من الأدلة على تحريم ذلك، والنهي عنه.

والتنجيم المراد به: اعتقاد أن للنجوم تأثيرًا في الحوادث وما يجري في هذا الكون، وقد يُراد بالتنجيم معاني أُخَر يأتي تفصيلها.

وهذا اعتقادٌ قديم كان في قوم نُمرود الذين بُعث إليهم الخليل إبراهيم -عليه الصلاة والسلام- وهم الصابئة الذين يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل وبيوت العبادة، يعتقدون أنها تدبِّر أمر العالم، ولا يزال هذا الشر موجودًا في العالم.

قوله: «قال البخاري في صحيحه» هذا الحديث يُعتبر من البخاري رحمه الله من التعليق، والتعليق هو: أن يذكُر الأثر بدون إسناد، فإذا قال: (قال فلان) بدون إسناد؛ فهذا يسمُّونه بالتعليق، وهو على نوعين عند البخاري:

النوع الأول: تعليقٌ بصيغة الجزم، مثل هذا الأثر: «قال قتادة»، (قال فلان).

النوع الثاني: تعليقٌ بغير صيغة الجزم، كأنْ يقول: (يُروى عن فلان)، فهذا يسمّى تعليقًا بغير صيغة الجزم، وهو أقل درجة من الأول.

قوله: «قال قتادة» قتادة هو ابن دِعامة السدوسي، الإمام الجليل في التفسير والحديث وغيره.

«خلق الله هذه النجوم لثلاث» يعني: لثلاث حِكَم:

الفائدة الأولى: «زينة للسماء» كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾.

الفائدة الثانية: «رجومًا للشياطين «وذلك لأن الشياطين يحاولون استراق السمع من الملائكة في السماء، ويأتون بما يسترقونه إلى الكُهّان من بني آدم، ولكن الله جل وعلا حفِظ السماء بهذه الشهب التي تنطلق من هذه الكواكب فتُحرِق هذا المارد فتُهلكه.

الفائدة الثالثة: «علامات يُهتَدى بها» قال تعالى: ﴿وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَٰرًا وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥﴾ وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾، فالله

....

جعل للمسافرين علامات يستدلُّون بها في الأرض وعلامات في السماء.

«فمن تأول غير ذلك أخطأ»، لأن الله لم يخلقها لهذا، لأنه أراد أن يحمِّلها شيئًا لم تُخلق من أجله.

فقوله: تأوّل فيها- يعني: اعتقد فيها غير ذلك من هذه الأمور الثلاثة التي دلّ عليها كتاب الله؛ فقد اخطأ.

«وأضاع نصيبه» يعني: من الدِّين، وهذا يقتضي أنه يكفُر.

«وتكلّف ما لا علم له به»؛ لأن هذه خَرْصٌ وتخمين وحَدْسٌ وظن لا يُغني من الحق شيئًا أبدًا.

وقوله: «انتهى» يعني: كلام قتادة.

وقوله: «وكره قتادة تعلُّم منازل القمر، ولم يرخِّص ابن عيينة فيه» يعني: سفيان ابن عيينة، الإمام الجليل، المحدِّث المشهور.

ومنازل القمر المراد بها: المنازل التي ينزلها في الشهر، وهي ثمانية وعشرون منزلة؛ أربع عشرة منزلة يمانية، وأربع عشرة منزلة شامية، ينزل في كل ليلة منزلة، وعلامة هذه المنزلة نجمٌ من النجوم المعروفة يقطعها القمر في شهر، بينما تقطعها الشمس في سنة.

وكل منزلة ثلاثة عشر يومًا، وواحدة منها أربعة عشر يومًا، وهي القلب.

وهل يجوز تعلم هذه المنازل لمعرفتها من أجل الحساب.

على قولين:

القول الأول: المنع، وهو قول قتادة وسفيان بن عيينة، لأن هذا- وإنْ كان لا شيء فيه في نفسه- إلَّا أنه وسيلة لأن يُعتقد فيها ما لا يجوز، فهذا من سدِّ الذرائع، فلا يتعلّم منازل القمر عندها، لأنه ربما يتدرّج إلى اعتقاد أنها تؤثِّر في الكون وأنها. . ، وأنها. . ، ولأنه زائد على الفوائد الثلاث السابقة.

والقول الثاني: أنه لا بأس بتعلّم منازل القمر، وهذا ما يسمّى بعلم التسيير.

وهو مذهب الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وقول كثير من أهل العلم.

٧٩) وعَنْ أَبِي مُوسَى قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «ثَلاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ: مُدْمِنُ الخَمْرِ، وقَاطِعُ الرَّحِمِ، ومُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ وابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

وهذا هو الصحيح- إن شاء الله- لأجل ما فيه من الفوائد وعدم المحذور.

٧٩) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** عن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: **«ثلاثة لا يدخلون الجنة. . .»**.

«مدمن خمر»: هذا من باب الوعيد؛ لأنه من كبائر الذنوب وصاحبه تحت المشيئة إن لم يتب إذا لم يستحلها فإن استحلها كفر.

«قاطع الرحم»: كذلك من الكبائر.

«مصدق بالسحر»: أي: إذا صدق أنه حق يغير الأشياء، وأن صاحبه على حق وأنه مصيب، أو أن صاحبه يعلم الغيب فهذا يكون كفرًا، وصاحبه كافر.

أما إذا صدق بأنه موجود وأنه تأثير، ولكن يعلم أنه حرام ومنكر فهذا لا حرج فيه؛ لأن الله أخبر أنه موجود كما قال تعالى: ﴿وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله في حديث أبي موسى: «الجنة». هي الدار التي أعدها الله لأوليائه المتقين، وسميت بذلك، لكثرة أشجارها لأنها تجن من فيها؛ أي: تستره.

قوله: «مدمن خمر». هو الذي يشرب الخمر كثيرًا، والخمر حده الرسول ﷺ بقوله: «كل مسكر خمر»[١]، ومعنى «أسكر»، أي: غطى العقل، وليس كل ما غطى العقل فهو خمر، فالبنج مثلاً ليس بخمر، وإذا شرب دهنًا فأغمي عليه، فليس ذلك بخمر، وإنما الخمر الذي يغطي العقل على وجه اللذة والطرب.

قوله: «قاطع رحم». الرحم: هم القرابة، قال تعالى: ﴿وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

---

(١) مسلم (كتاب الأشربة)، باب بيان أن كل مسكر خمر (٢٠٠٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: الحِكْمَةُ فِي خَلْقِ النُّجُومِ.

«الثَّانِيَةُ»: الرَّدُّ عَلَى مَنْ زَعَمَ غَيْرَ ذَلِكَ.

بِبَعْضٍ﴾ [الأنفال: ٧٥]، وليس كما يظنه العامة أنهم أقارب الزوجين، لأن هذه تسمية غير شرعية، والشرعية في أقارب الزوجين: أن يسموا أصهارًا.

والصلة ليس معناها أن تصل من وصلك، لأن هذا مكافأة، وليست صلة، لأن الإنسان يصل أبعد الناس عنه إذا وصله، إنما الواصل، كما قال الرسول ﷺ: «من إذا قطعت رحمه وصلها»[(١)]، هذا هو الذي يريد وجه الله والدار الآخرة.

قوله: «ومصدق بالسحر». هذا هو شاهد الباب، ووجهه أن علم التنجيم نوع من السحر، فمن صدق به فقد صدق بنوع من السحر، فقد سبق: «أن من اقتبس شعبة من النجوم، فقد اقتبس شعبة من السحر»، والمصدق به هو المصدق بما يخبر به المنجمون، فإذا قال المنجم: سيحدث كذا وكذا، وصدق به، فإنه لا يدخل الجنة، لأنه صدق بعلم الغيب لغير الله، قال تعالى: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

فيه مسائل:

الأولى: الحكمة في خلق النجوم. وهي ثلاث:

أنها زينة للسماء.

ورجوم للشياطين.

وعلامات يهتدى بها.

وربما يكون هناك حكم أخرى لا نعلمها.

الثانية: الرد على من زعم غير ذلك. لقول قتادة: «من تأول فيها غير ذلك، أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به».

ومراد قتادة في قوله: «غير ذلك» ما زعمه المنجمون من الاستدلال بالأحوال

---

(١) البخاري: كتاب الآداب/ باب ليس الواصل بالمكافئ (٥٦٤٥).

«الثَّالِثَةُ»: ذِكْرُ الخِلَافِ فِي تَعَلُّمِ المَنَازِلِ.
«الرَّابِعَةُ»: الوَعِيدُ فِيمَنْ صَدَّقَ بِشَيْءٍ مِنَ السِّحْرِ ولَوْ عَرَفَ أَنَّهُ بَاطِلٌ.

الفلكية على الحوادث الأرضية، وأما ما يمكن أن يكون فيها من أمور حسية سوى الثلاث السابقة، فلا ضلال لمن تأوله.

الثالثة: ذكر الخلاف في تعلم المنازل. سبق ذلك.

الرابعة: الوعيد فيمن صدق بشيء من السحر ولو عرف أنه باطل.

من صدق بشيء من التنجيم أو غيره من السحر بلسانه ولو اعتقد بطلانه بقلبه، فإن عليه هذا الوعيد، كيف يصدق وهو يعرف أنه باطل، لأنه يؤدي إلى إغراء الناس به وبتعلمه وبممارسته؟!

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن أبي موسى» هو الصحابي الجليل عبد الله بن قيس الأشعري، نسبة إلى جماعة في اليمن يقال لهم «الأشعريين».

وأبو موسى هذا من أفاضل الصحابة وأجلَّائهم وفُضلائهم، قد تولّى أعمالاً جليلة في أيام الرسول ﷺ وفي أيام الخلفاء الراشدين، فله مكانةٌ عظيمة.

قوله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة» هذا وعيد يُجرى على ظاهره ولا يُؤَوّل ولا يُفَسّر، لأن تفسيره وتأويله يقلِّل من أهميَّته، فيُترك على ظاهره للزجر والوعيد، وإن كان أصحاب هذه الجرائم لا يخرجون من الإسلام، ولكن هذا من باب الوعيد الشديد لهم.

وهم: «مدمن الخمر» والمراد بالمدمن: الذي يداوِم على شرب الخمر، ولا يتوب إلى الله منها.

والثاني: «قاطع الرحم» والرحم هي: القرابة من جهة الأب، أو من جهة الأم.

وصلة الأرحام واجبةٌ في الإسلام بعد برِّ الوالدين، وهم: الأولاد وأولادهم، والإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمّات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، والآباء والأجداد.

فأول من تَجِبُ صلته: الوالدان بالبر بهما، ثمّ الأولاد، ثمّ الإخوة وأولادهم،

٨٠) ٣٠-بابٌ

ما جَاءَ فِي الاسْتِسْقَاءِ بِالأَنْوَاءِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾.

ثمّ الأعمام والعمّات وأولادهم ثمّ الأخوال والخالات وأولادهم، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى﴾، ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾.

والله جل وعلا يقول للرحم في الحديث القدسي: «من وصلكِ وصلته، ومن قطعكِ قطعته»، وفي هذا الحديث: أنه لا يدخل الجنة. وهذا وعيدٌ شديد.

والثالث: «مصدِّقٌ بالسحر» وهذا محل الشاهد من الحديث.

فإنْ قلتَ: الحديث في مصدِّق السحر، والباب في باب التنجيم، فما المناسبة؟

قلنا: المناسبة أن التنجيم نوعٌ من السحر؛ لما يأتي في الحديث: «من اقتبس شُعبة من النجوم، فقد اقتبس شُعبة من السحر زاد ما زاد»، فالتنجيم نوعٌ من السحر، فلذلك أورده المصنِّف في هذا الباب.

٨٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: طلب السقيا، وهو المطر.. وقد شرع الله الاستسقاء به سبحانه والاستسقاء: الضرعة إلى الله عند وجود الجدب، بدلاً مما عليه أهل الشرك من الطلب من النجوم والتعلق والاستغاثة بها، وكانوا يستسقون بالنجوم، وهي الأنواء، وهي ثمان وعشرون نوءًا ينزلها الشمس والقمر في مدارها ينزلها القمر في الشهر والشمس في السنة، وكانوا في الجاهلية يتعلقون بها، ويستغيثون بها، وهذا من شركهم وضلالهم.

كما قال سبحانه: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ تكذبون إنزال الله للمطر وإغاثته لكم وتسألون النجوم، وتستغيثون بها، فكذبهم لذلك؛ لأن هذه النجوم لا تنفع ولا تضر، ولا تملك شيئًا من الأمر.

....

فوجب على المؤمنين الأخذ بما جاء عن النبي ﷺ والعمل به، والحذر مما عليه أهل الجاهلية.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الاستسقاء: طلب السقيا، كالاستغفار: طلب المغفرة.

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: شرك أكبر، وله صورتان:

الأولى: أن يدعو الأنواء بالسقيا، كأن يقول: يا نوء كذا! اسقنا أو أغثنا، وما أشبه ذلك، فهذا شرك أكبر، لأنه دعا غير الله، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر، قال تعالى: ﴿وَمَن يَدۡعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرۡهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓۚ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا﴾ [الجن: ١٨]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [يونس: ١٠٦].

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله، وأنه من الشرك الأكبر.

الثانية: أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها، فهذا شرك أكبر في الربوبية، والأول في العبادة، لأن الدعاء من العبادة، وهو متضمن للشرك في الربوبية، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة.

القسم الثاني:

شرك أصغر، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببًا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل، لأن كل من جعل سببًا لم يجعله الله سببًا لا بوحيه ولا بقدره، فهو مشرك شركًا أصغر.

ومعنى الآية: أن الله يوبخ هؤلاء الذين يجعلون شكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد؛ لأن شكر الرزق يكون بالتصديق والقبول والعمل بطاعة المنعم،

....

والفطرة كذلك لا تقبل أن تكفر بمن ينعم عليها، فالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حياة الأرض، أو قلنا: إن المراد به القرآن الذي به حياة القلوب، فإن هذا من أعظم الرزق، فكيف يليق بالإنسان أن يقابل هذه النعمة بالتكذيب ؟!

واعلم أن التكذيب نوعان:

أحدهما: التكذيب بلسان المقال، بأن يقول هذا كذب، أو المطر من النوء ونحو ذلك.

والثاني: التكذيب بلسان الحال، بأن يعظم الأنواء والنجوم معتقدًا أنها السبب.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** **قال الشيخ رحمه الله:** «باب الاستسقاء بالأنواء» أي: طلب السقيا بالنجوم. ما حكمه؟ وما دليله؟.

وهذا الباب يُعتبر نوعًا من أنواع الباب الذي قبله، وهو «باب ما جاء في التنجيم»، فالباب الأول عامٌّ في كلِّ ما يُعتقد في النجوم من الكفر والضلال والباطل من استسقاء وغيره، وهذا الباب خاصٌّ بمسألة واحدة، وهي الاستسقاء بالنجوم.

قوله: «باب ما جاء» أي: من الوعيد في الكتاب والسنّة، وبيان أنّ ذلك كفر بالله تعالى، لأنه اعتقادٌ في غير الله في أنه يخلق أو يرزق أو يدبِّر شيئًا من هذا الكون، وهذا كفرٌ بالله سبحانه وتعالى.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ ﴿رِزْقَكُمْ﴾ يعني: المطر، ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فتقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، فتنسبون المطر إلى الأنواء.

والأنواء جمع نوء، من: ناء ينوء؛ إذا نهض. والنوء عبارة عن أحد منازل القمر الثمانية والعشرين.

وذلك أن العرب تزعم في الجاهلية أن المطر إنما ينزل بسبب طلوع النجم، وبعضهم يقول: المطر يحصل بسبب غروب النجم الذي يغرب في الفجر. والخلاف بينهم يسير.

المهم أنهم يضيفون نزول المطر إلى طلوع النجم أو غروبه، يظنون أن غروب

....

النجم أو طلوع النجم في الفجر هو الذي يسبِّب نزول المطر، فيقولون: مُطرنا بنوء كذا وكذا، مطرنا بنوء الثريا، بنوء القلب، بنوء العوّاء، بنوء الغَفْر، بنوء الزُّبانة، إلى آخره، هكذا تقول العرب في جاهليتها.

وقد كذبهم الله فقال تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾ أي: المطر ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ فتنسبونه إلى الطالع أو الغارب من النجوم، وهذا كذب، لأن الذي ينزل المطر هو الله سبحانه وتعالى، وليس طلوع النجم أو غروبه، فيكذبون على الله سبحانه وتعالى، وينكرون نعمة الله ويجحدونها، وكان الواجب عليهم أن يشكروا نعمة الله، وأن يضيفوا النعمة إلى الله، لكنهم أضافوها إلى غيره، وقالوا: مُطرنا بالنوء الفلاني، فأنكر الله عليهم قولهم: مطرنا بنوء كذا وكذا. وسمّاه الله كذبًا، وهو كذبٌ في الاعتقاد، وأشد الكذب هو الكذب في الاعتقاد، قال تعالى﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَبَ عَلَى ٱللَّهِ وَكَذَّبَ بِٱلصِّدْقِ إِذْ جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِى جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَٰفِرِينَ﴾، فالذي يكذب على الله وينسب نعمه لغيره، وينسب المطر إلى مخلوق من خلقه فقد كذب على الله أعظم الكذب، بدل أن يشكر الله يكذب عليه، وينسب نعمه إلى غيره، وهذا جُحودٌ للنعمة، وكُفرانٌ بها.

وقد فصّل العلماء حكم ذلك فقالوا: إن اعتقد أنّ النجم هو الذي يوجد المطر؛ فهذا كفرٌ أكبر، وشركٌ أكبر مخرجٌ من الملّة.

أما إذا اعتقد أنّ المطر ينزل بأمر الله وبتقدير الله سبحانه، ولكنه نسبه إلى النجم، أو إلى الطالع أو الغارب من باب المجاز أو السببية -كما يقولون- فهذا كفرٌ أصغر، وشركٌ أصغر، لكنه وسيلةٌ إلى الشرك الأكبر، لأن الله لم يجعل النجوم سببًا في نزول الأمطار، وإنما الأمطار من الله سبحانه وتعالى، وهو الذي ينزِّلها ويقَدِّرها ويجعل فيها البركة والنماء.

۞ ۞ ۞

٨١) عَنْ أَبِي مَالِكٍ الأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعَةٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ لا يَتْرُكُونَهُنَّ: الفَخْرُ بِالأَحْسَابِ، والطَّعْنُ فِي الأَنْسَابِ، والاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، والنِّيَاحَةُ». وقَالَ: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ القِيَامَةِ وعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ ودِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

٨١) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** - عن أبي مالك الأشعري -رضي الله عنه- قال: أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونها.. أي: لا يزال في الناس من يتعطاها، ويتأسى بالكفرة... ومنها:

١- «**الفخر بالأحساب**»: فيقول: أنا ولد فلان ويتعظم بذلك، ويحتج على باطله، ويفتخر بها على الناس، والأحساب هو ما يكون للآباء من مآثر وشجاعة وجود وكرم، وهو من سنة الجاهلية؛ لأن رفعة الإنسان بعمله، أما عمل غيره، فليس له.

٢- «**الطعن في الأنساب**»: بأن ينتقص الناس فيقول: فلان نجار، وفلان حداد، وفيه كذا وكذا على سبيل التنقص والعيب لا على سبيل الخبر، فإن كان على سبيل الخبر فلا بأس فيه.

٣- «**الاستسقاء بالنجوم**»: فيقول: سقينا بنوء كذا وكذا، ويسألونها مباشرة.

٤- «**النياحة**»: إذا مات الميت صاحوا ومزقوا ثيابهم، ونتفوا شعورهم، ويحثون التراب عليهم، وهو موجود عند بعض المسلمين؛ فيجب الحذر منها ومحاربتها.

وفي الحديث: «**ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية**»[١]. وقال: «**أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة**»[٢]. الصالقة التي

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٤)، ومسلم (١٠٣).

(٢) رواه البخاري (١٢٩٦) تعليقًا، ووصله مسلم (١٠٤)، وأبو عوانة (١/ ٥٦، ٥٧) وغيرهما من طريق أبي موسى رضي الله عنه.

....

ترفع صوتها عند المصيبة.

قوله: «**والنائحة إذا لم تتب.... سربال من قطران ودرع جرب**»: الغالب في النائحة أن تكون في النساء ولذلك عبر بالأنثى، وقد يفعله الرجال، وهو محرم على الرجال والنساء، وذكر القطران؛ لأنه أشد في الاشتعال والأذى وكذلك الدرع من الجرب مؤذ.. وهذا لسوء عاقبتها ومنقلبها إلا إذا تابت.

«**مسألة**»: لا بأس ألّا يتزوج الإنسان من أناس ليسوا ذوي حسب، وإن كانت المرأة ذات دين خوفًا من أذى قومه ومضايقتهم له، وهذه عادات ولا بأس فيها بشرط ألّا يكون تركه لهم تنقصهم واحتقارهم عنده.

فائدة:

بعض القرى يذبحون الذبائح في رءوس الجبال؛ لينزل المطر وهذا من الشرك الأكبر؛ لأنه من الذبح للجن والأحجار والأصنام، وقد ينزل المطر فيكون ابتلاء لهم.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** وقوله: «من أمر الجاهلية».
إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير، لأن كل إنسان يقال: فعلك فعل الجاهلية لا شك أنه يغضب، إذ إنه لا أحد يرضى أن يوصف بالجهل، ولا بأن فعله من أفعال الجاهلية، فالغرض من الإضافة هنا أمران:
التنفير.

بيان أن هذه الأمور كلها جهل وحمق بالإنسان، إذ ليست أهلاً بأن يراعيها الإنسان أو يعتني بها، فالذي يعتني بها جاهل.

والمراد بالجاهلية هنا: ما قبل البعثة، لأنهم كانوا على جهل وضلال عظيم حتى إن العرب كانوا أجهل خلق الله، ولهذا يسمون بالأميين، والأمي هو الذي لا يقرأ ولا يكتب، نسبة إلى الأم، كأن أمه ولدته الآن.

قوله: «لا يتركونهن». المراد: لا يتركون كل واحد منها باعتبار المجموع بالمجموع، بأن يكون كل واحد منها عند جماعة، والثاني عند آخرين، والثالث عند

....

أخرين، والرابع عند آخرين، وقد تجتمع هذه الأقسام فى قبيلة، وقد تخلو بعض القبائل منها جميعًا، إنما الأمة كمجموع لابد أن يوجد فيها شيء من ذلك، لأن هذا خبر من الصادق المصدوق .

قوله: «الفخر بالأحساب». الفخر: التعالي والتعاظم، والباء للسببية، أي: يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه.

قوله: «الطعن فى الأنساب». الطعن العيب، لأنه وخز معنوي كوخز الطاعون فى الجسد، ولهذا سمي العيب طعنًا.

قوله: «والاستسقاء بالنجوم». أي: نسبة المطر إلى النجوم مع اعتقاد أن الفاعل هو الله - عز وجل- أما إن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر، فهذا شرك أكبر مخرج من الملة.

قوله: «والنياحة على الميت». هذا هو الرابع، والنياحة: هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدًا، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح، كنوح الحمام.

والندب: تعداد محاسن الميت.

والنياحة من أمر الجاهلية، ولا بد أن تكون في هذة الأمة، وإنما كانت من أمر الجاهلية:

إما من الجهل الذي هو ضد العلم.

أو من الجهالة التي هى السفة، وهي ضد الحكمة.

قوله: «وعليها سربال من قطران». السربال: الثوب السابغ كالدرع، والقطران معروف، ويسمى «الزفت» وقيل: إنه النحاس المذاب.

قوله: «ودرع من جرب». الجرب: مرض معروف يكون فى الجلد، يؤرق الإنسان، وربما يقتل الحيوان، والمعنى أن كل جلدها يكون جربًا بمنزلة الدرع، وإذا اجتمع قطران وجرب زاد البلاء، لأن الجرب أي شيء يمسه يتأثر به، فكيف ومعه قطران؟!

والحكمة أنها لما لم تغط المصيبة بالصبر غطيت بهذا الغطاء سربال من قطران

....

ودرع من جرب، فكانت العقوبة من جنس العمل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله ﷺ: «أربع» أي: أربع خِصال.

«في أمتي» يعني: أمة الإجابة، لأن أمة الدعوة تشمل كل الثقلين الجن والإنس، لأن الرسول بُعث إليهم، وأما أمة الإجابة فهم الذين آمنوا به ﷺ وصدّقوه واتّبعوه.

«من أمر الجاهلية» المراد بالجاهلية: ما قبل الإسلام، سُمي جاهلية من الجهل، وهو عدم العلم، لخلو هذا الوقت -وقت الفتْرة- من آثار الرسالات السماوية، لأن بين بِعثة محمد ﷺ وبين عيسى- آخر أنبياء بني إسرائيل- أربعمائة سنة وزيادة، كانتْ قد اندثرتْ فيها آثار الرسالات، ونظر الله إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلّا بقايا من أهل الكتاب انقرضوا قبل البِعثة.

فهذا الوقت الذي قبل الإسلام سمّي بالجاهلية؛ لعدم وجود العلم فيه.

أما ما بعد الإسلام فلا يقال له: جاهلية، لأن الجاهلية زالت والحمد لله بالإسلام، والعلم موجود، ورّثه رسول الله، فبعد بعثة هذا الرسول زالت الجاهلية العامّة، أما بقايا من الجاهلية أو خصال من أمور الجاهلية فقد تبْقى في أفراد من الناس أو طوائف من الناس المسلمين.

وقوله: «من أمر الجاهلية لا يتركونهن» دلّ هذا على مسألتين:

الأولى: يُنسب إلى الجاهلية، وعلى أنه محرّم.

المسألة الثانية: فيه أيضًا: أنه قد يبقى شيءً من الجاهلية في بعض المسلمين، فيجب عليه الحذَر منه، والتحذير منه، والتوبة إلى الله ممّن وقع في شيء من ذلك من أمور الجاهلية.

وهذه الأربع التي ذكرها النبي ﷺ هي: الأولى: «الفخر بالأحساب» والمراد بالحسَب: شرف الإنسان ومكانته في المجتمع، فلا يفخر بحسبه، لأن الله سبحانه يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ

....

﴿عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾

الثانية من أمور الجاهلية: «الطعن في الأنساب» بأن يتنقّص أنساب النّاس.

الثالثة: «والاستسقاء بالأنواء» وهذا محل الشاهد من الحديث.

والاستسقاء (استفعال)، أصله: طلب السقيا، قال الله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ﴾ ﴿ٱسْتَسْقَىٰ﴾ يعني: طلب السقيا.

والاستسقاء بالنجوم هنا ليس معناه: أنهم يطلبون من النجوم أن تسقيهم، لكن معناه: أنهم ينسبون المطر إلى النجوم، فيقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا.

الرابعة: قوله ﷺ: «والنياحة على الميت» والنياحة: رفع الصوت على الميِّت من باب الجزَع والتسخُّط، وإذا صحبه شقّ للثوب، أو لطم للخد، أو تعداد لمحاسن الميّت، أو نياحة وندْب وجزَع؛ فهذا كبيرة من كبائر الذنوب.

والواجب عند نزول المصيبة: الصبر والاحتساب لا الجزَع والتسخُّط.

قوله: «وقال: النائحة إذا لم تتب» يعني: ترجع عن النياحة، وتندم على ما حصل منها، وتعزم على ألا تعود إلى النياحة في مستقبلها.

وهذه شروط التوبة:

فالتوبة لغة: الرجوع، وشرعًا هي: الرجوع من معصية الله إلى طاعة الله.

وشروطها ثلاثة: الإقلاع عن الذنب، والندم على ما حصل، والعزم ألا يعود إليه. فإذا توفّرت هذه الشروط فالتوبة صحيحة، وإذا اختلّ شرطٌ منها فهي توبة غير صحيحة.

وفي قوله ﷺ: «قبل موتها» دليل على أنه عند الموت لا تُقبل التوبة، فإذا بلغت الروح الحُلْقوم فحينئذ لا تُقبل التوبة.

قوله: «تُقام يوم القيامة» يعني: من قبرها.

«وعليها سِرْبال» السِّربال هو: الثوب.

«من قطران» هو النحاس المذاب.

«ودِرْعٌ من جَرَب» الدرع كذلك هو: الثوب، والجَرَب: مرض جلدي، يكون

٨٢) ولَهُمَا عَنْ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ رضي الله عنه قَالَ: صَلَّى لَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ صَلاَةَ الصُّبْحِ بِالحُدَيْبِيَةِ عَلَى إِثْرِ سَمَاءٍ كَانَتْ مِنَ اللَّيْلِ، فَلَمَّا انْصَرَفَ أَقْبَلَ عَلَى النَّاسِ فَقَالَ: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ؟» قَالُوا: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ

في الإبل ويكون في الإنسان.

فدلّ هذان الحديثان على مسائل:

أولاً: فيه تحريم أمور الجاهلية وذمها عمومًا.

ثانيًا: فيه أن أمور الجاهلية لا ترتفع بالكلية، بل يبقى منها شيءٌ في بعض المسلمين.

ثالثًا: وهي مسألة مهمة جدًا-: أن من كان فيه شيء من أمور الجاهلية لا يقتضي ذلك كفره، لكن يكون هذا ذنبًا مذمومًا يجب عليه التخلّي عنه والتوبة منه.

رابعًا: فيه دليل على تحريم المسائل الأربع المذكورة: «الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة»، وأن هذه الأمور من كبائر الذنوب.

والخامسة: فيه دليلٌ على أن التوبة تمحو ما قبلها.

سادسًا: فيه أن قبول التوبة محدّد بما قبل الموت.

والله تعالى أعلم.

٨٢) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** ولهما عن زيد بن خالد قال: صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية.

«إثر سماء»: أي: إثر مطر، سمي سماء؛ لأنه ينزل من جهة العلو.

«فلما انصرف عن صلاته أقبل على الناس بوجهه»: من عادته ﷺ أنه إذا سلم استغفر ثلاثًا، وقال: «اللَّهُمَّ أنت السلام... ثم يعطي الناس وجهه، ويذكر بقية الأذكار.

«الله ورسوله أعلم»: هذا من أدب الصحابة -رضي الله عنه- وبعد موته ﷺ

قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ ورَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي، كَافِرٌ بِالكَوْكَبِ، وأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِنَوْءِ كَذَا وكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي مُؤْمِنٌ بِالكَوَاكِبِ».

ولَهُمَا مِنْ حَدِيثِ ابنِ عَبَّاسٍ بِمَعْنَاهُ وفِيهِ «قَالَ بَعْضُهُمْ: لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وكَذَا»، فَأَنْزَلَ اللهُ هَذِهِ الآيَاتِ: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾

يقال: الله أعلم؛ لأن الوحي انقطع فلا يعلم ما بعده كما في الحوض إلا ما يعرضه الله عليه كالصلاة عليه.

قوله: فذلك مؤمن بي كافر بالكواكب؛ لأنه علم أن الله منزل الأمطار، وهذا المطر من رحمة الله وفضله.

أما من قال: مطرنا بنوء كذا؛ لأنه من أنواع الكفر، ولا يقول صدق نوء كذا، أو سقينا بنوء كذا، بل يقول: مطرنا بفضل الله ورحمته.

مطرنا بنوء كذا: إن قصد له أنه هو الذي خلق المطر، وهو المتصرف في الكون، فهذا كفر أكبر، وإن قصد أنه سبب لهذا المطر، فهذا من أنواع الكفر، ولكنه كفر أصغر؛ لأنه ليس هو المتسبب، بل كله من الله تعالى، والنجم ظرف من الظروف، تقع فيه الحوادث، كما تقع في الأيام والليالي، أما إذا قال: مطرنا في الصيف، أو نحوه فلا بأس؛ لأنه إخبار عن الوقت، فالواجب الحذر من أخلاق الجاهلية، والاعتراف بنعمة الله سبحانه. اهـ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «صلاة الصبح بالحديبية».

أي: صلاة الفجر، والحديبية فيها لغتان: التخفيف، وهو أكثر، والتشديد، وهى اسم بئر سمي بها المكان: وقيل: إن أصلها شجرة حدبا تسمى حديبية، والأكثر على أنها بئر، وهذا المكان قريب من مكة بعضه في الحل وبعضه فى الحرم، نزل به الرسول ﷺ في السنة السادسة من الهجرة لما قدم معتمرًا، فصدَّه المشركون عن البيت، وما كانوا أولياءه، إن أولياؤه إلا المتقون، ويسمى الآن الشميسي.

قوله: «سماء». المراد به المطر.

....

قوله: «هل تدرون ماذا قال ربكم ؟» الاستفهام يراد به التنبيه والتشويق لما سيلقى عليهم، وإلا، فالرسول ﷺ يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله؛ لأن الوحي لا ينزل عليهم.

ومعنى قوله: «هل تدرون». أي: هل تعلمون.

والمراد بقولهم: «الله ورسوله أعلم» تفويض العلم إلى الله ورسوله، وأنهم لا يعلمون.

قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر». «مؤمن» صفة لموصوف محذوف، أي: عبد مؤمن، وعبد كافر.

قوله: «فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته». أي: قال بلسانه وقلبه، والباء للسببيَّة، والأفضل: العطاء والزيادة.

والرحمة: صفة من صفات الله، يكون بها الإنعام والإحسان إلى الخلق.

وقوله: «فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب». لأنه نسب المطر إلى الله، ولم ينسبه إلى الكوكب، ولم ير له تأثيرًا في نزوله، بل نزل بفضل الله.

ومعنى الحديث: أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال: لقد صدق نوء كذا وكذا، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه.

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت: «وقل أن يخلف نوؤه »، أو: «هذا نوؤه صادق»، وهذا لا يجوز، وهو الذي أنكره الله - عز وجل - على عباده، وهذا شرك أصغر، ولو قال بإذن الله، فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله، والنوء لم يجعله الله سببًا.

قوله: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ . اختلف في «لا»، فقيل: نافية، والمنفى محذوف، وتقديره: لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم.

فأقسم لا علاقة لها بـ «لا» إطلاقًا، وهذا له بعض الوجه. وقيل: إن المنفي القسم، فهي داخلة على أقسم، أي: لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن كريم، لأن

....

الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم، وهذا ضعيف جدًا.

وقيل: إن (لا) للتنبيه، والجملة بعدها مثبتة، لأن (لا) بمعنى انتبه، أقسم بمواقع النجوم ، وهذا هو الصحيح.

قوله: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ . (قسم) خبر إن، وهذا القسم أكد الله عظمته بإن واللام تنويهًا بالمُقْسَم عليه وتعظيمه.

وقوله: ﴿لَّوْ تَعْلَمُونَ﴾ مؤكِّد ثالث كأنه قال: ينبغي أن تعلموا هذا الأمر ولا تجهلوه، فهو أعظم من أن يكون مجهولاً، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه، فلو تعلمون حق العلم لعرفتم عظمته، فانتبهوا.

قوله:﴿لَقُرْءَانٌ﴾ مصدر مثل الغفران والشكران بمعنى اسم الفاعل، وبمعنى اسم المفعول، فعلى الأول يكون المراد أنه جامع للمعاني التي تضمنتها الكتب السابقة من المصالح والمنافع، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨]، وعلى الثاني يكون بمعنى المجموع، لأنه مجموع مكتوب.

قوله: ﴿كَرِيمٌ﴾ يطلق على كثير العطاء، وهذا كمال فى العطاء متعد للغير، ويطلق على الشيء البهيّ الحَسَن، ومنه قول النبي ﷺ : «إياك وكرائم أموالهم » ، أي: البهي منها والحسن، وهذا كمال في الذات وهذان المعنيان موجودان في القرآن، فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥].

قوله: ﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ كتاب فعال بمعنى مفعول، مثل: فِراش بمعنى مفروش، وغِراس بمعنى مغروس، وكتاب بمعنى مكتوب.

والمكنون: المحفوظ، قال تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَّكْنُونٌ﴾ [الصافات: ٤٩].

قوله: ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ . الضمير يعود إلى الكتاب المكنون، لأنه أقرب شيء، وهو بالرفع ﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ﴾ باتفاق القراء، وإنما نبهنا على ذلك، لدفع قول من يقول: إنه خبر بمعنى النهي، والضمير يعود على القرآن، أي: نهى أن

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ الوَاقِعَةِ.

«الثَّانِيَةُ»: ذِكْرُ الأَرْبَعِ الَّتِي مِنْ أَمْرِ الجَاهِلِيَّةِ.

«الثَّالِثَةُ»: ذِكْرُ الكُفْرِ فِي بَعْضِهَا.

يمس القرآن إلا طاهر، والآية ليس فيها ما يدل على ذلك، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفوظ، لأنه أقرب مذكور، ولأنه خبر، والأصل في الخبر أن يبقى على ظاهره خبرًا لا أمرًا ولا نهيًا حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك، ولم يرد ما يدل على خلاف ذلك، بل الدليل على أنه لا يراد به إلا ذلك، وأنه يعود إلى الكتاب المكنون، ولهذا قال الله ﴿إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ باسم المفعول، ولم يقل: إلا المطَّهِّرون، ولو كان المراد المطَّهِّرون لقال ذلك، أو قال: إلا المتطهرون، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ﴾.

قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. أكثر المفسرين على أنه على حذف مضاف، أي: أتجعلون شكر رزقكم، أي: ما أعطاكم الله من شيء من المطر ومن إنزال القرآن، أي: تجعلون شكر هذه النعمة العظيمة أن تكذبوا بها، والنبي ﷺ وإن كان ذكرها في المطر، فإنها تشمل المطر وغيره.

قوله: ﴿أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾. ﴿أَنَّ﴾ وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني، أي: تُصيِّرون شكركم تكذيبًا، إن كانت وحيًا كذَّب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبه إلى غير الله، قال: هذا من النوء أو هذا من عملي، كما قال قارون: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨].

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الواقعة. وهي قوله تعالى: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ وقد مر تفسيرها.

الثانية: ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية. وهي الطعن في الأنساب، والفخر بالأحساب، والاستسقاء بالأنواء، والنياحة على الميت.

الثالثة: ذكر الكفر في بعضها. وهي الاستسقاء بالأنواء، وكذلك الطعن في

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ مِنَ الكُفرِ مَا لا يُخرِجُ عَنِ المِلَّةِ.

«الخَامِسَةُ»: قَوْلُهُ: «أَصْبَحَ مِنْ عَبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ» بِسَبَبِ نُزُولِ النِّعْمَةِ.

«السَّادِسَةُ»: التَّفَطُّنُ للإِيمَانِ فِي هَذَا المَوْضِعِ.

«السَّابِعَةُ»: التَّفَطُّنُ لِلْكُفرِ فِي هَذَا المَوْضِعِ.

«الثَّامِنَةُ»: التَّفَطُّنُ لِقَوْلِهِ: «لَقَدْ صَدَقَ نَوْءُ كَذَا وكَذَا».

«التَّاسِعَةُ»: إِخْرَاجُ العَالِمِ لِلْمُتَعَلِّمِ المَسْأَلَةَ بِالاسْتِفْهَامِ عَنْهَا، لِقَوْلِهِ: «أَتَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

النسب، والنياحة على الميت، كما في حديث: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت».

الرابعة: أن من الكفر ما لا يخرج من الملة. وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج عن الملله وبعضه كفر دون ذلك، وقد سبق بيان ذلك.

الخامسة: قوله: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر» بسبب نزول النعمة.

أي: إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به، وقد سبق بيان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء، والواجب على الإنسان إذا جاءته النعمة أن لا يضيفها إلى أسبابها مجردة عن الله.

السادسة: التفطن للإيمان في هذا الموضع، وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته.

السابعة: التفطن للكفر في هذا الموضع، وهو نسبة المطر إلى النوء.

الثامنة التفطن لقوله: «لقد صدق نوء كذا وكذا». وهذا قريب من قوله: «مطرنا بنوء كذا»، لأن الثناء بالصدق على النوء مقتضاه أن هذا المطر بوعده، ثم بتنفيذ وعده.

التاسعة: إخراج العالم للمتعلم المسألة بالاستفهام عنها لقوله: «أتدرون ماذا

«العَاشِرَةُ» : وَعِيدُ النَّائِحَةِ.

قال ربكم». وذلك أن يلقي العالم على المتعلم السؤال لأجل أن ينتبه له، وإلا، فالرسول ﷺ يعلم أن الصحابة لا يعلمون ماذا قال الله، لكن أراد أن ينبههم لهذا الأمر، فقال: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» وهذا يوجب استحضار قلوبهم.

العاشرة: وعيد النائحة. وذلك بقوله: «إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة، وعليها سربال من قطران ودرع من جرب»، وهذا وعيد عظيم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله رحمه الله: (ولهما) أي: البخاري ومسلم في صحيحيهما: «عن زيد بن خالد» الجهني، صحابي جليل مشهور، والجهني نسبة إلى جُهينة القبيلة المعروفة، وهي قبيلة كبيرة من قبائل العرب.

«قال: صلى لنا» المراد: صلى بنا، فاللام هنا بمعنى الباء.

«رسول الله ﷺ صلاة الصبح» يعني: صلاة الفجر، سُمِّيت صلاة الصبح؛ لأنها تجب عند طلوع الفجر، كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾ يعني: صلاة الصبح.

«بالحديبية» اسم مكان على حدود الحرم من جهة الغرب، قريب من التنعيم، يقال له الآن (الشميسي)، وهو عند مدخل الحرم للقادم من جدّة.

يقال الحديبية - بالتخفيف- ويقال بالحديبيّة، بالتشديد والمشهور الأول.

«فلما انصرف أقبل على النّاس» لأن هذا من السنّة؛ أن الإمام إذا فرغ من الصلاة فإنه لا يبقى مستقبل القبلة، بل ينصرف إلى النّاس ويُقبِل عليهم بوجهه كما كان النبي ﷺ يفعل ذلك.

«فقال ﷺ: «أتدرون ماذا قال ربكم؟» هذا فيه: مشروعية الموعظة بعد الصلاة إذا صار لها مناسبة، كتنبيهٍ على خطأ وقع، أو بيان لواجب، أو موعظةٍ عامة، وحثّ على تقوى الله، فإنه ﷺ كان يعظ النّاس أحيانًا، ولم يكن يداوم على ذلك، وإنما يفعل ذلك أحيانًا خشية المَلَل، فكان يتخوّلهم بالموعظة ﷺ خصوصًا إذا حصل شيء يحتاج إلى تنبيه، مثل هذه القضية.

«قالوا: الله ورسوله أعلم» هذا فيه أن المسئول إذا لم يكن عنده علم ولا

....

جواب أنه لا يتخرّص، وإنما يكِل العلم إلى عالمه، فيقول: الله ورسوله أعلم، وهذا في حياته ﷺ أما بعد موته، فيقول: الله أعلم فقط. ففيه: مشروعية تفويض العلم إلى الله سبحانه وتعالى.

فأجاب ﷺ: «قال» أي: الرسول ﷺ «قال» أي: الله.

وفي قوله: «قال» إثبات أن الله يتكلّم، فصفة الكلام ثابتةٌ لله، يتكلّم متى شاء إذا شاء سبحانه وتعالى؛ كلامًا يليق بجلاله، ليس مثل كلام المخلوقين، فكيفيّته وكُنْهُه لا يعلمهما إلّا الله سبحانه وتعالى، لكنه ثابتٌ لله من صفات الأفعال التي يفعلها الله إذا شاء سبحانه وتعالى.

ففيه: ردٌّ على الجهمية والمعتزلة والأشاعرة الذين ينفون الكلام عن الله سبحانه وتعالى.

«أصبح من عبادي» يعني: بسبب نزول المطر.

«مؤمنٌ بي وكافر» «مؤمن بي» بسبب هذه النعمة، «وكافر» بسببها.

دلّ على أنّ حصول النعم ابتلاء من الله سبحانه، يبتلي به عباده، فمنهم من يشكر الله فيكون مؤمنًا، ومنهم من ينكر نعمة الله فيكون كافرًا بنعمه.

ثمّ بيّن ﷺ سبب ذلك، فقال فيما يرويه عن ربه تبارك وتعالى: «فأما من قال: مُطرنا بفضل الله ورحمته» يعني: نسب النعمة إلى الله سبحانه وتعالى.

والتفضُّل والرحمة صفتان من صفات الله، فالله هو الذي يتفضل وهو الذي يرحم، ونزول المطر أثرٌ من آثار رحمة الله، كما قال تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْيِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ يعني بإنزال المطر وإنبات النبات.

«فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب»؛ لأنه لم ينسب نزول المطر إلى طلوع الكواكب أو غروبها، وهو ما يسمى بالنوء.

«وأما من قال: مُطرنا بنوء كذا وكذا» والنوء سبق لنا أنه هو النجم إذا طلع من المشرق وقت الفجر، أو غاب في المغرب وقت الفجر.

كان أهل الجاهلية ينسبون المطر إلى طلوع النجم أو غروبه.

....

وهذا الحديث فيه فوائد عظيمة:

فيه: مشروعية الموعظة بعد الصلاة خصوصًا إذا حصل مناسبةٌ لها.

وفيه: مشروعية صلاة الجماعة في السفر كما هي مشروعة في الحضَر.

وفيه: مشروعية التعليم عن طريق السؤال والجواب، لأن ذلك أبلغ في التفهيم وأيسر للتعليم، وقد فعل النبي ﷺ هذا مرارًا وتكْرارًا.

وفيه- وهو الشاهد من الحديث للباب-: أن نسبة المطر إلى الأنواء كفرٌ بالله ﷻ وشرك، وأن نسبة النِّعم والأمطار إلى الله إيمان بالله وتوحيد.

وفيه: أن حصول النعم ابتلاء وامتحان من الله تعالى؛ ليتبيّن بذلك المؤمن من الكافر.

وفيه: مشروعية قول هذا الكلام عند نزول المطر: «مُطرنا بفضل الله وبرحمته» كما كان النبي ﷺ يقول ذلك، ويقول: «اللَّهم صيّبًا نافعًا».

وقوله: «ولهما» أي: للبخاري ومسلم.

«من حديث ابن عبّاس بمعناه... إلخ» هذا مثل الحديث الذي قبله؛ لما نزل عليهم المطر قالوا: «صَدَق نوء كذا وكذا» زعموا أن طلوع النجم هو الذي حصل به المطر، فهم نسبوا نزول المطر إلى النوء، فصدّقوه، فأنزل الله تعالى منكرًا عليهم قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾.

قوله تعالى: ﴿فَلَآ﴾ لا هذه نافية، أي: ليس الأمر كما زعمتم أنّ نزول المطر بسبب صدق النوء الفلاني، وإنما المطر بفضل الله.

ثمّ أقسم جل وعلا على هذا النفي. والمشهور- كما اختاره ابن جرير-: أن المراد بالنجوم هنا: الكواكب، لأن في طلوعها وغروبها آية عظيمة من آيات الله سبحانه وتعالى لمن يتدبّر ويتفكّر.

والله جل وعلا يقسم بما شاء من خلقه، وهو لا يقسم إلّا بشيء فيه سرٌّ عظيم يحتاج إلى تأمُّل، ويحتاج إلى نظر.

أما المخلوق فلا يُقسم إلّا بالله، كما جاء في الحديث: «من حلف بغير الله،

....

فقد كفر أو أشرك»، فلا يجوز الحلف إلّا بالله.

قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ هذا تنبيه على عظَم هذا القسم، ولا يتنبّه لهذا إلّا أهل العلم الذين يتدبّرون في آيات الله الكونية.

ثمّ ذكر سبحانه المقسَم عليه وهو القرآن فقال: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ﴾ من الكرم وهو الشرف والرِّفعة، فهو كريم في منزلته، عظيمٌ في معناه، جليلٌ في قدْره، لأنه كلام الله سبحانه وتعالى، فهو أعظم الكلام. وفضل كلام الله على غيره كفضل الله على خلقه.

﴿فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ﴾ يعني: محفوظ، والمشهور: أنّ المراد بالكتاب المكنون هنا: اللوح المحفوظ، لأن الله كتبه في اللوح المحفوظ، فهو مكتوبٌ في اللوح المحفوظ، ومكتوب في صحائف الملائكة، ومكتوبٌ في المصاحف التي في أيدي البشر، ومحفوظٌ في الصدور، فهو كلام الله بكل اعتبار.

﴿لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ﴾ يعني: الملائكة، وهذا فيه ردٌّ على المشركين الذين يزعمون أن القرآن ممّا تنزّلت به الشياطين، وأنه من كلام الشياطين، والله بيّن أن الشياطين لا تقرب القرآن، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ السمع يعني: الوحي.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ نزل به جبريل- عليه الصلاة والسلام- إلى نبينا محمد ﷺ، وبلّغه محمد ﷺ لأمته، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِىٍّ مُّبِينٍ﴾، وكما في الآية الأخرى: ﴿إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني: جبريل عليه السلام، ﴿ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ يعني: محمدًا ﷺ، وهذا توثيق لسند القرآن، لأن رواته عن الله هم: أمة محمد ﷺ عن نبيهم محمد ﷺ عن جبريل عن ربه عزّ وجلّ، وليس كما يقوله المشركون: إنه من كلام الشياطين، أو من كلام البشر، أو من صحائف الأولين. فهو كلام الله حقيقة وجبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام مبلغان عن الله تعالى.

٨٣) ٣١-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ الآية [البقرة: ١٦٥].

ثمّ قال: ﴿أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾ يعني: تكذبون به، وتقولون: هذا من كلام محمد، أو من كلام فلان، أو مما تنزّلت به الشياطين التي تتنزّل على الكُهّان، أو ما أشبه ذلك من أقاويل باطلة.

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ معناه: أنكم تنسبون الأمطار إلى الأنواء، سمّى الله ذلك كذبًا وباطلًا؛ لأن الأمطار ليستْ من الأنواء، وإنما الأمطار من الله سبحانه وتعالى، هو الذي ينزّلها ويقدّرها ويجعل فيها البركة والنماء، فهو الذي ينزّلها سبحانه.

وفي هذا الأثر الذي رواه ابن عبّاس- مثل ما سبق-:

الرد على الذين ينسبون الأمطار إلى الأنواء، وأن هذا كذبٌ محْض، حيث أقسم الله سبحانه- وهو الصادق- أن هذا كذب، فدلّ على بُطلان الاستسقاء بالأنواء، وأنه يجب نسبة المطر إلى الله سبحانه وتعالى، لا إلى الأنواء، ومن نسبها إلى الأنواء فقد كفر بالله.

٨٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

هذا الباب في إثبات محبة الله، وأنها من أهم العبادات، وأفضل القربات، وأساس الدين؛ لأن حبه يقتضي الإخلاص له والامتثال لأمره، وترك نهيه، والانقياد له، والآية تبين أن من الناس من يتخذ أندادًا من الجن والإنس والأحجار، يحبونهم كحب الله محبة عبادة؛ فصار حبهم لهذه الأنداد كحبهم لله، أو كحب المؤمنين لله، وهؤلاء ضلوا فأحبوا مع الله ونذروا وخضعوا ودعوا لمن أحبوهم، ومحبة غير الله يجب أن تكون تابعة لمحبة الله كمحبة الرسل، نحبهم لأنهم رسل الله، فلا

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

نحبهم محبة عبادة وكذلك المؤمنين نحبهم؛ لأنهم أطاعوا الله فنواليهم، أما محبة الذل والعبادة، فهذه لله وحده لا يشاركه فيها أحد، والمشركون يصرفون هذه المحبة للأنداد، وبعضهم يجرأ على الحلف بالله كاذبًا، ولا يجرأ على الحلف بالأنداد والشيوخ كاذبًا، ويقول: هذه الأنداد أشد وأسرع انتقامًا من الله.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾: من محبة هؤلاء المشركين لأندادهم؛ لأنهم أخلصوا العبادة لله، وعرفوا حقه تعالى.

﴿وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا﴾؛ أي: لو رأو ذلك، واستحضروه لأحبوا الله أكثر وعظموه وأخلصوا له، ولكن جهلهم وقلة بصيرتهم أوقعهم في الشرك.

﴿إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: إذا رأى المعبودون من أولياء الله والرسل وتبرءوا من عبادتهم ويقولون: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا۟ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾.

أما المحبة الطبيعية كمحبة الطعام والنساء والأولاد، فهذه لا تقدح في محبة الله إذا لم تؤثر على محبة الله، فإن زادت حتى صارت قادحة في محبة الله -كأن يطيع زوجته في معصية الله- فإن هذه المحبة تكون منقصة للإيمان بقدر ما يؤثر على محبة الله، فلا بد أن تكون مقيدة بشرع الله.

* ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: باب قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا﴾ جعل المؤلف رحمه الله تعالى الآية هي الترجمة، ويمكن أن يُعنى بهذه الترجمة باب المحبة.

والمحبة تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة عبادة، وهي التي توجب التذلل والتعظيم، وأن يقوم بقلب

....

الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه، وهذه خاصة بالله، فمن أحب مع الله غيره محبة عبادة، فهو مشرك شركًا أكبر، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثاني: محبة ليست بعبادة في ذاتها، وهذه أنواع:

النوع الأول: المحبة لله وفي الله، وذلك بأن يكون الجالب لها محبة الله.

النوع الثاني: محبة إشفاق ورحمة، وذلك كمحبة الولد، والصغار، والضعفاء، والمرضى.

النوع الثالث: محبة إجلال وتعظيم لا عبادة، كمحبة الإنسان لوالده، ولمعلمه، ولكبير من أهل الخير.

النوع الرابع: محبة طبيعية، كمحبة الطعام، والشراب، والملبس، والمركب، والمسكن.

وأشرف هذه الأنواع النوع الأول، والبقية من قسم المباح، إلا إذا اقترن بها ما يقتضى التعبد صارت عبادة.

وكذلك المحبة الطبيعية، كالأكل والشرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة، ولهذا «حبب للنبي ﷺ النساء والطيب» من هذة الدنيا.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾.

﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾. اسم كان، وباقي الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، والخطاب في قوله: ﴿قُلْ﴾ للرسول ﷺ والمخاطب في قوله: ﴿ءَابَآؤُكُمْ﴾ الأمة.

والأمر في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ يراد به التهديد، أي: انتظروا عقاب الله، ولهذا قال: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله.

فدلت الآية على أن محبة هؤلاء -وإن كانت من غير محبة العبادة- إذا فضلت

....

على محبة الله، صارت سببًا للعقوبة.

فإن قيل: المحبة في القلب ولا يستطيع الإنسان أن يملكها، ولهذا يروى عن النبي ﷺ، أنه قال: «اللَّهُمَّ إن هذا قسمي فيما أملك، فلا تلمني فيما لا أملك».
وكيف للإنسان أن يحب شيئًا وهو يبغضه، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنًا؟

أجيب: أن هذا إيراد ليس بوارد، فالإنسان قد تنقلب محبته لشيء كراهة وبالعكس، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة، فمثلًا: لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك، فتكرهه لهذا السبب، أو لإرادة صادقة، كرجل يحب شرب الدخان، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة، فكره الدخان، فأقلع عنه.

وقال عمر رضي الله عنه للنبي ﷺ: «إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. قال النبي ﷺ: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك. قال: الآن والله لأنت أحب إلي من نفسي. فقال النبي ﷺ الآن يا عمر».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** أراد الشيخ رحمه الله بهذا الباب أن يبين أن المحبة نوعٌ من أنواع العبادة، وأن من أحب مع الله غيره فقد أشرك بالله الشرك الأكبر المخرج من المِلة، كما كان عليه المشركون الذين قال الله فيهم: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

ولَمّا كانت المحبة من أنواع العبادة، بل هي أعظم أنواع العبادة، وكان من أحب مع الله غيره مشركًا الشرك الأكبر؛ ناسب أن يذكر الشيخ رحمه الله، هذا الباب في «كتاب التّوحيد»؛ لينبه على هذه المسألة المهمّة.

والمحبة- كما ذكر العلماء- تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: محبة العبودية، وهذه يجب أن تكون خالصةً لله عزّ وجلّ، ومحبة العبودية هي التي يكون معها ذل للمحبوب. وهذه لا يجوز صرفها لغير الله.

النوع الثاني: محبة ليستْ محبة عبودية وهي أربعة أقسام:

القسم الأول: محبة طبيعية كمحبة الإنسان للطعام والشراب والمشتهيات

....

المباحة، كالزوجة والملذات.

القسم الثاني: محبة إجلال، كمحبة الولد لوالده غير المشرك والكافر، فالولد يحب والده محبة إجلال وتكريم واحترام؛ لأنه والده المحسن إليه والمربِّي له. وهذه محمودة ومأمور بها.

القسم الثالث: محبة إشفاق، كمحبة الوالد لولده، فالوالد يحب ولده محبة إشفاق.

القسم الرابع: محبة مصاحبة، كأن تحب شخصًا من أجل مصاحبتك له، إما لكونه زميلًا لك في العمل، أو شريكًا في تجارة، أو صاحبًا لك في سفر، فأحببته من أجل المشاركة في شيء من الأشياء.

هذه الأقسام ليستْ من أنواع العبادة، لأنها ليس معها ذلّ، وليس معها خضوع.

وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾ يعني: المشركين، ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ﴾ أي: غير الله، ﴿أَندَادًا﴾ الند هو: الشبيه والنظير والعديل، سُمُّوا أندادًا لأنهم ساووهم بالله، فصاروا أندادًا لله بمعنى: شركاء مساوين له في اعتقاد المشركين.

﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ أشركوهم مع الله في محبة العبودية، فعبدوا الأصنام والأوثان لأنهم يحبونها محبة ذل وانقياد وخضوع وطاعة فأشركوا في أعظم أنواع العبادة، وهو المحبة.

فالمشركون يحبون الله؛ لأنهم يعترفون بربوبيته وخلقه لهم، فهم يحبونه، لكنهم لم يخلصوا محبتهم، بل أشركوا معه آلهةً أخرى يحبونها مع الله محبة عبودية وخضوع وذلٍّ وتقرُّب إليها بالعبادة.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ الذين أخلصوا المحبة لله وهم المؤمنون، هؤلاء أشدُّ حبًّا لله من محبة المشركين لله، لأن محبة المؤمنين خالصة ومحبة المشركين مشتركة، والمحبة الخالصة أشدُّ وأقوى من المحبة المشتركة، وهذه المحبة هي التي تنفع، أما محبة المشركين لله، فإنها لا تنفعهم ما داموا يحبون

. . . .

مع الله غيره، فلم يُخلصوا في محبتهم.

فدلت هذه الآية الكريمة على أن المحبة نوعٌ من أنواع العبادة، بل هي أعظم أنواع العبادة، وأن من أحب مع الله غيره فيها فقد أشرك بالله الشرك الأكبر واتّخذ هذا المحبوب نِدًّا، أي: شريكًا مع الله ومعادِلًا لله ومساوِيًا لله، كما يقول أهل النار يوم القيامة لمن أشركوهم مع الله: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ الآية.

هذه الآية فيها: أن من قدّم محبة هذه الأشياء على محبة الله فإنه متوعّد بهذا الوعيد ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ أي: انتظروا، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ﴾ حتى يأتيكم الله بالعقوبة ﴿وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ سمّاهم فاسقين، والفسق هو: الخروج عن طاعة الله جل وعلا، ومعنى ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ يعني: لا يوفقهم للإيمان، مثل قوله: ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، ﴿لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

فالهداية المنفية هنا: هداية التوفيق، أما هداية البيان والإرشاد، فهذه موجودة، فالله هدى كل النّاس، بمعنى: أنه بيّن لهم طريق الخير من طريق الشر، هدى الكفار وهدى المؤمنين بمعنى: بيّن لهم طريق الخير وطريق الشر.

أما هداية التوفيق والإيمان فهي خاصة بالمؤمنين.

أما الكافرون- إذا أصرُّوا على كفرهم وأصروا على طغيانهم- فإن الله يحرمهم هداية القلوب: ﴿حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾، عقوبة من الله سبحانه وتعالى أنّ من عاند وأصرّ بعد البيان وبعد الإرشاد، وأصرّ على الباطل، فإن الله يعاقبه بحرمانه من هداية قلبه، بل يزيغ ويبقى على زيغه وضلاله عقوبة له: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ﴾ يعني: وأصروا على الكفر، ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ﴾؛ لأنهم لم يقبلوا الهداية من أول الأمر، فلما لم يقبلوا الهداية من أول الأمر، عاقبهم الله بالحرمان، ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾

٨٤) عَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ والنَّاسِ أَجْمَعِينَ» . أَخْرَجَاهُ.

ولَهُمَا عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «ثَلاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَا سِوَاهُمَا، وأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لا يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنْقَذَهُ اللهُ مِنْهُ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ» . وفِي رِوَايَةٍ: «لا يَجِدُ أَحَدٌ حَلاوَةَ الإِيمَانِ حَتَّى . . . .» إِلَى آخِرِهِ.

وهذه الآية: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ يقول المفسِّرون: إنها نزلت في قوم من المسلمين كانوا في مكة، ولَمَّا هاجر الرسول ﷺ وأصحابه إلى المدينة لم يهاجروا؛ لأنهم آثروا أن يبقوا في مكة محافظة على أموالهم وعلى مساكنهم وعلى أقاربهم، فهم قدّموا محبة هذه الأشياء على محبة الله ورسوله، فالله توعّدهم.

ويُروى: أنهم لَمّا أرادوا الهجرة تعلّق بهم أقاربهم وقالوا: كيف تدعوننا؟ ولمن تدعوننا؟ ولما تعلّقوا بهم، رقُّوا لهم ورحموهم، فأقاموا في مكة وتركوا الهجرة إيثارًا لهذه الأشياء، فالله وبَّخهم وتوعّدهم، لأن الواجب عليهم أن يهاجروا، وأن يقدّموا الهجرة إلى الله ورسوله على هذه الأشياء.

٨٤) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وعن أنس مرفوعًا: **«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس. . .»** .

وهذا يدل على وجوب محبة رسول الله ﷺ محبة تليق به، وتقتضي اتباعه، وامتثال أمره، وترك نواهيه، ولا تكون محبة عبادة، بل تابعة لمحبة الله.

وعنه مرفوعًا: **«ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»** .

تدل على وجوب محبة الله ورسوله على غيرهما من الآباء والأبناء والأموال، فيطيع الله، ويعمل بأمره، ولو خالف هوى ولده أو زوجه أو غيرهما، وهكذا الآية ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ﴾ تدل على وجوب تقديم الجهاد في سبيله إذا وجب النفير

....

على هوى النفس والأقارب، وإلا كان متوعدًا كما قال: (فتربصوا)، وهذا من أسباب كمال الإيمان، ويجب عليه أن يبغض الكفر وأهله ويعتقد بطلانه.

وفي الحديث: «سبعة يظلهم الله... - وذكر - وشابان تحابًا في الله اجتمعا عليه»

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «من ولده». يشمل الذكر والأنثى، وبدأ بمحبة الولد؛ لأن تعلق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالبًا.

قوله: «ووالده» يشمل أباه، وجده وإن علا، وأمه وجدته وإن علت.

قوله: «والناس أجمعين». يشمل إخوته وأعمامه وأبناءهم وأصحابه ونفسه؛ لأنه من الناس، فلا يتم الإيمان حتى يكون الرسول أحب إليه من جميع المخلوقين؛ وإذا كان هذا في محبة رسول الله ﷺ، فكيف بمحبة الله تعالى ؟!

وقوله: «من كن فيه». «مَنْ»: شرطية، و «كُنَّ»: أصلها «كان»، فتكون فعلًا ماضيًا ناسخًا، والنون اسمها، و «فيه»: خبرها.

قوله: «وجد بهن». وجد: فعل ماض في محل جزم جواب الشرط، والجملة من فعل الشرط وجوابه في محل رفع خبر المبتدأ.

وقوله: «وجد بهن حلاوة الإيمان». الباء للسببية، وحلاوة مفعول وجد. وحلاوة الإيمان: ما يجده الإنسان في نفسه وقلبه من الطمأنينة والراحة والانشراح، وليست مدركة باللعاب والفم، فالمقصود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية.

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث:

قوله: «أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما». الرسول محمد ﷺ وكذا جميع الرسل تجب محبتهم.

قوله: «أحب إليه مما سواهما». أي: أحب إليه من الدنيا كلها ونفسه وولده ووالده وزوجه وكل شيء سواهما.

الخصلة الثانية:

قوله: «وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله».

....

قوله: «وأن يحب المرء» يشمل الرجل والمرأة.

قوله: «لا يحبه إلا لله»: اللام للتعليل؛ أي: من أجل الله؛ لأنه قائم بطاعة الله عز وجل.

الخصلة الثالثة:

قوله: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار».

هذه الصورة في كافر أسلم، فهو يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه، كما يكره أن يقذف في النار، وإنما ذكر هذه الصورة، لأن الكافر يألف ما كان عليه أولاً، فربما يرجع إليه بخلاف من لا يعرف الكفر أصلاً.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين». وذلك أنه بعد محبة الله تأتي محبة الرسول ﷺ، فالأولى: محبة الله عزّ وجلّ، وهي محبة عبادة، وهي الأصل القاعدة.

أما محبة الرسول ﷺ فهي تابعةٌ لمحبة الله عزّ وجلّ، تأتي بعد محبة الله، وكذا محبة كل ما يحبه الله من الأشخاص والأعمال، وهذه محبة في الله ولله فالمحبة المشروعة محبة الله والمحبة في الله، والمحبة الممنوعة هي المحبة مع الله. وتقديم ما تحبه النفس على ما يحبه الله.

وقوله: «لا يؤمن أحدكم» ليس نفيًا لأصل الإيمان، وإنما هو نفيٌ لكمال الإيمان، أي: لا يكمُل إيمان أحدكم هذا إذا كان يحب الرسول ﷺ ولكن لا يقدم محبته على محبة غيره من الخلق.

أما إذا كان الإنسان لا يحب الرسول ﷺ أصلاً، بل يبغض الرسول، فهذا كافر، أما الذي يحب الرسول ﷺ، ولكنه يقدِّم محبة ولده ووالده على محبة الرسول ﷺ، فهذا ناقصُ الإيمان، بل لا يكمُل إيمان العبد ولا يتم حتى يكون الرسول ﷺ أحبَّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، وأحب إليه من ولده الذي هو

....

بِضْعَةٌ منه وجزءٌ منه، وأحب إليه من والده الذي هو أصله والمحسِن إليه، وأحب إليه من النّاس أجمعين أيًا كانوا.

فالحاصل أنه ليس الدليل على محبة الرسول ﷺ دعوى تُقال، أو احتفالًا يُقام؛ لأن الدليل على محبة الرسول ﷺ متابعته، وطاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلّا بما شرع عليه الصلاة والسلام. هذا هو الدليل على محبة الرسول ﷺ، ونحن لا نقبل الدعوى، وإنما نقبل الدليل على الدعوى.

«لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والنّاس أجمعين». بل ومن نفسه.

فإذا أراد أحدٌ منّا أن يختبر إيمانه، فلينظر إلى موقع هذا الحديث منه ويطبِّقه على نفسه، هل هو يحب الرسول، أحب إليه من نفسه، هل يحب الرسول أحب إليه من والده وولده والنّاس أجمعين؟ فإن كان كذلك فهو يحبُّ الرسول ﷺ.

فدل هذا الحديث: على وجوب محبة الرسول بعد محبة الله عزّ وجلّ، وأن محبة الله ومحبة رسوله تقتضيان المتابعة للرسول ﷺ وعدم المخالفة، وأنه لو أمرك أيُّ أحدٍ من الناس بأمر يخالف أمر الرسول ﷺ وجب عليك معصيته ورفض ما يأمرك به، والأخذ بأمر الرسول ﷺ، فكما تجب محبة الله عزّ وجلّ تجب محبة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾.

قوله: «أخرجاه»؛ يعني: أخرجه البخاري ومسلم.

«ولهما»؛ أي: البخاري ومسلم.

«عنه»؛ أي: عن أنس رضي الله عنه.

«قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث» أي: ثلاث خصال.

«مَنْ كُنّ فيه» اجتمعن فيه، ووُجدن فيه.

«وجد بهنَّ حلاوة الإيمان» هذا من ثمرات محبة الله ورسوله.

....

«حلاوة الإيمان»؛ أي: لذّته؛ لأن الإيمان الصادق له لذّة في النفوس، وله طُمأنينة في القلوب، هذا هو الإيمان الصادق: تجد المؤمن يتلذّذ بالإيمان، ويَطْعَم الإيمان أكثر ممّا يَطْعَم أيَّ أنواع الملذّات.

الخصلة الأولى: «أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما» أي: أحب إليه من نفسه، وأحبّ إليه من كل شيء، ومن الوالدين والأولاد والأقارب والأصدقاء وسائر النّاس. وهذا يقتضي تقديم قولهما على قول كل أحد.

الخصلة الثانية: «وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله» أي: يحب الإنسانَ من بني آدم «لا يحبه إلّا لله»، لا يحبه من أجل طمع دنيا أو عَرض عاجل، إنما يحبه لله؛ لأنه مطيعٌ لله، لأنه مؤمن، لأنه تقي. أما الذي يحب الشخص من أجل الدنيا أو من أجل الأطماع أو الشهوات أو الأغراض، فهذه محبة لا تنفعه عند الله شيئًا.

الخصلة الثالثة: التي يجد بهن العبد حلاوة الإيمان: «وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه؛ كما يكره أن يُقذف في النار» كل النّاس ينفرون من النار - والعياذ بالله- لأنها مؤلمة، ولا أحد يصبر على حرها، فكلٌّ يفرُّ من النار ويبتعد عنها، والكفر نار، والمسلم الذي منّ الله عليه بالإسلام يكره أن يعود إلى الكفر، ويكره الرِّدّة عن دين الإسلام، كما يكره أن يُلقى في النار، هذا هو المؤمن حقًّا، الذي تمكّن الإيمان من قلبه فلا يساوم عليه، ولا يتنازل عن شيء منه أبدًا مهما كلّفه الأمر، بل يتمسّك بدينه؛ لأنه وجد حلاوة الإيمان ولذته.

فهذا الحديث ميزان يزن العبد به إيمانه:

«أن يكون الله ورسوله أحبّ إليه مما سواهما» فإذا عرض شيءٌ من العوارض فإنه يقدِّم محبة الله ورسوله على محبة ذلك العارض.

«وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله» لا يحبه من أجل طمع الدنيا ومرغّباتها.

«وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه» قال العلماء: هذا فيه تكميل المحبة وتفريعها ودفع ضدها.

فتكميل المحبة: أن يكون الله ورسوله أحب إليه ممّا سواهما.

٨٥) وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا قَالَ: مَنْ أَحَبَّ فِي اللهِ، وأَبْغَضَ فِي اللهِ، ووَالَى فِي اللهِ، وعَادَى فِي اللهِ، فَإِنَّمَا تُنَالُ وِلَايَةُ اللهِ بِذَلِكَ، ولَنْ يَجِدَ عَبْدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ وإِنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ وصَوْمُهُ حَتَّى يَكُونَ كَذَلِكَ. وقَدْ صَارَتْ عَامَّةُ مُؤَاخَاةِ النَّاسِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا، وذَلِكَ لا يُجْدِي عَلَى أَهْلِهِ شَيْئًا. رَوَاهُ بنُ جَرِيرٍ .

وتفريعها: أن يحب المرء لا يحبه إلّا لله.

ودفع ما يضادها: يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه كما يكره أن يُقذف في النار.

فهذا حديثٌ عظيم.

قوله: وفي رواية: «لا يجد أحدٌ طعم الإيمان» هذه الرواية في «صحيح البخاري» وفائدتها: أنها نَفَتْ بمنظومها وجود طعم الإيمان عمن لم يتّصف بهذه الصفات الثلاث: «أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلّا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذْ أنقذه الله منه»، أما الرواية الأولى فهي دلّت بالمفهوم -مفهوم المخالفة- على أنّ من لم تكن فيه هذه الخصال فإنه لا يجد طعم الإيمان، وإنْ كان فيه إيمان، لكنه لا يتلذّذ به ويجد طعمه فالرواية الثانية دلّت بالمنطوق، والأولى بالمفهوم، ولهذا ساقها الشيخ رحمه الله، بعد الحديث.

٨٥) **الشـرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وقال ابن عباس: «**من أحب في الله وأبغض في الله ووالى في الله... طعم الإيمان**» - أي: حلاوته.

فإنما تنال ولاية الله بذلك؛ أي: تنال ولاية الله بالموالاة والمعاداة في الله.

حتى يكون كذلك؛ أي: يوالي ويعادي.

وقد صارت عامة مؤاخذة الناس على أمر الدنيا: هذا في زمانه -رضي الله عنه- أي: غلب على الناس الحب والبغض في الدنيا، وهذا أمر خطير.

وذلك لا يجدي على أهله شيئًا: بل قد يضرهم إذا صدهم عن الحق وخالف

وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قَالَ: المَوَدَّةُ.

شرع الله، أما إذا اشتغلوا بالدنيا في البيع والشراء وطلب الرزق، وكان لا يضر إيمانهم، ولا يوقعهم في المعاصي ويستعينون بذلك على طاعة الله، فهذا لا حرج فيه.

وقوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال ابن عباس: المودة.

أي: التي كانت بينهم على غير دين الله، انقطعت يوم القيامة وخانتهم وصارت عداوة.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** وقوله: «في الله» أي: من أجله، إذا قلنا: إن في للسببية، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية، فالمعنى: من أحب في ذات الله، أي: في دينه وشرعه لا لعرض الدنيا.

قوله: «وأبغض في الله». البغض الكره، أي: أبغض في ذات الله إذا رأى من يعصي الله كرهه.

وفرق بين «في» التي للسببية و «في» التي للظرفية، فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهية هو في ذات الله – عز وجل –، فيبغض من أبغضه الله، ويحب من أحبه.

قوله: «ووالى في الله». الموالاة هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك.

قوله: «وعادى في الله». المعاداة ضد الموالاة، أي: يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله.

فمعنى الحديث: أن الإنسان لا يجد طعم الإيمان وحلاوته ولذته حتى يكون كذلك، ولو كثرت صلاته وصومه، وكيف يستطيع عاقل فضلاً عن مؤمن أن يوالي أعداء الله، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب، ثم يواليهم ويحبهم ؟ ! فهذا لو صلى وقام الليل كله وصام الدهر كله، فإنه لا يمكن أن ينال طعم الإيمان، فلابد أن يكون قلبك مملوءًا بمحبة الله وموالاته، ويكون مملوءًا ببغض أعداء الله ومعاداتهم.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ «البَقَرَةِ».

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ ﴿بَرَاءَةٌ﴾.

قوله: «وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئًا».

قوله: «عامة». أي: أغلبية.

«مؤاخاة الناس»: أي مودتهم ومصاحبتهم، أي: أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا، وهذا قاله ابن عباس، وهو بعيد العهد منا قريب العهد من النبوة، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه، فما بالك بالناس اليوم؟ فقد صارت مؤاخاة الناس - إلا النادر - على أمر الدنيا، بل صار أعظم من ذلك، يبيعون دينهم بدنياهم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٢٧]، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقوله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢٨].

الأسباب: جمع سبب، وهو كل ما يتوصل به إلى شيء.

وفي اصطلاح الأصوليين: ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم، فكل ما يوصل إلى شيء، فهو سبب، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ومنه سمي الحبل سببًا، لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر.

وقوله: «قال: المودة». هذا الأثر ضعفه بعضهم، لكن معناه صحيح، فإن جميع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تنقطع بهم.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة. وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾. وسبق ذلك.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ﴾

«الثَّالِثَةُ»: وُجُوبُ مَحَبَّتِهِ ﷺ عَلَى النَّفْسِ والأَهْلِ والمَالِ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ نَفْيَ الإِيمَانِ لا يَدُلُّ عَلَى الخُرُوجِ مِنَ الإِسْلامِ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ للإِيمَانِ حَلاوَةً قَدْ يَجِدُهَا الإِنْسَانُ وقَدْ لا يَجِدُهَا.

«السَّادِسَةُ»: أَعْمَالُ القَلْبِ الأَرْبَعَةُ الَّتِي لا تُنَالُ وِلايَةُ اللهِ إلا بِهَا، ولا يَجِدُ أَحَدٌ طَعْمَ الإِيمَانِ إلا بِهَا.

«السَّابِعَةُ»: فَهْمُ الصَّحَابِيِّ لِلْوَاقِعِ: أَنَّ عَامَّةَ المُؤَاخَاةِ عَلَى أَمْرِ الدُّنْيَا.

الآية: وسبق تفسيرها.

الثالثة: وجوب محبته ﷺ على النفس والأهل والمال. وفي نسخة: «وتقديمها على النفس والأهل والمال».

الرابعة: أن نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام. سبق أن المحبة كسبية، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضي الله عنه لما قال للرسول ﷺ: «والله إنك لأحب إلي من كل شيء إلا من نفسي. فقال له: ومن نفسك. فقال: الآن، أنت أحب إلي من نفسي. قوله: «الآن» يدل على حدوث هذه المحبة، وهذا أمر ظاهر، وفيه أيضًا أن نفي الإيمان المذكور في قوله: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده» لا يدل على الخروج من الإسلام، لقوله في الحديث الآخر: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان»؛ لأن حلاوة الإيمان أمر زائد على أصله، أي أن الدليل مركب من الدليلين.

الخامسة: أن للإيمان حلاوة قد يجدها الإنسان وقد لا يجدها. تؤخذ من قوله: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان، وهذا دليل انتفاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء.

السادسة: أعمال القلب الأربعة التي لا تنال ولاية الله إلا بها، ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها. وهي: الحب في الله، والبغض في الله، والولاء في الله، والعداء في الله.

السابعة: فهم الصحابى للواقع أن عامة المؤاخاة على أمر الدينا.

«الثَّامِنَةُ»: تَفْسِيرُ: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾.

«التَّاسِعَةُ»: أَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ مَنْ يُحِبُّ اللهَ حُبًّا شَدِيدًا.

«الْعَاشِرَةُ»: الوَعِيدُ عَلَى مَنْ كَانَتْ الثَّمَانِيَةُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ دِينِهِ.

«الْحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ مَنِ اتَّخَذَ نِدًّا تُسَاوِي مَحَبَّتُهُ مَحَبَّةَ اللهِ فَهُوَ الشِّرْكُ الأَكْبَرُ.

الصحابي يعني به ابن عباس رضي الله عنهما، وقوله: «إن عامة المؤاخاة على أمر الدينا»، هذا في زمنه فكيف بزمننا ؟!

الثامنة: تفسير قوله: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ فسرها بالمودة، وتفسير الصحابي إذا كانت الآية من صيغ العموم تفسر بالمثال، لأن العبرة في نصوص الكتاب والسنة بعموماتها، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم، فإنما يقصد به التمثيل، أي مثل المودة، لكن حتى الأسباب الأخرى التي يتقربون بها إلى الله وليست بصحيحة، فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيرًا.

التاسعة: أن من المشركين من يحب الله حبًّا شديدًا. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وهم يحبون الأصنام حبًّا شديدًا، وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾، فأشد: اسم تفضيل يدل على الاشتراك بالمعنى مع الزيادة، فقد اشتركوا في شدة الحب، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبًّا لله من هؤلاء لأصنامهم.

العاشرة: الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه. الثمانية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ﴾.

والوعيد في قوله: ﴿فَتَرَبَّصُوا۟﴾ فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى أن الأمر هنا للوعيد.

الحادية عشرة: أن من اتخذ ندًّا تساوي محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر. لقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال رحمه الله: وعن ابن عباس قال: «من أحب في الله» يعني: من أجل الله، فأحب المؤمنين لأنهم أولياء الله، لا يحبهم من أجل طمع دنيا أو رغبة عاجلة، وإنما يحبهم في الله.

....

«وأبغض في الله» أبغض الكفّار والمنافقين والعصاة من أجل الله لا من أجل أنهم ضربوه أو أنهم حرموه من شيء، أو أنهم تعدّوا عليه، أو ظلموه، لا يبغضهم من أجل هذه الأمور، لأن هذا بغض طبيعي ليس بغضًا يتعلّق بأمور العبادة.

«ووالى في الله» أي: أحب وناصر. فالموالاة: المحبة والمناصرة والمعاونة.

«وعادى في الله» أي: أبغض الكفار والمنافقين والفاسقين من أجل الله، لأن الله يبغضهم.

فقوله: «فإنما تُنال ولاية الله بذلك» أي لا يحصل الإنسان على محبة الله ونُصرته إلا بهذه الأمور: المحبة في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله. أما الذي يتّخذ الدنيا هي المقياس عليها يعادي وعليها يوالي، من أحسن إليه أحبه ولو كان عدوًّا لله عزّ وجلّ. ومن أساء إليه أبغضه ولو كان وليًّا لله فهذا لا ينال ولاية الله، ولهذا قال ابن عباس في آخر الحديث: «وقد صارتْ عامّة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا».

فابن عباس يستنكر في وقته أن الناس صاروا يوالون ويعادون من أجل الدنيا فكيف بوقتنا هذا؟! لا شك أن الأمر قد زاد، فكثير من الناس فقدوا هذه الصفات: المعاداة في الله، والموالاة في الله، والمحبة في الله، والبُغض في الله، إلا من شاء الله سبحانه وتعالى، ولكن قلّ هذا في الناس اليوم، لا نقول إنه مفقود، بل هو موجود -ولله الحمد، ولكنه قلّ، وما دام أنه قليلٌ فليفتّش كل واحد منا عن نفسه بأن لا يكون مع الكثرة التي ضيّعتْ هذا الأصل العظيم كالذين لا يوالون، إلا على الحزبية والمنهجية فمن وافقهم على حزبيتهم ومنهجيتهم أحبوه ولو كان عدو الله ورسوله ومن خالفهم أبغضوه ولو كان وليًّا لله ورسوله.

قال رحمه الله: «وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ قال: «المودة» هذه نهاية من عبد غير الله يوم القيامة، فعبدة غير الله في الدنيا يحبون ما عبدوه، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾، وكذلك التابعون في الدنيا يحبون المتبوعين على الضلالة، فتوجد المحبة

....

بين الكفار بعضهم مع بعض، وبين المشركين ومعبوداتهم في الدنيا، لكن يوم القيامة تنعكس الأمور، وتصير هذه المحبة عداوة كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ يعني: يوم القيامة، ﴿إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ فلا يبقى إلَّا المحبة التي كانت في الله وهي التي تبقى يوم القيامة: ﴿إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾، ويقول إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- للمشركين يحذِّرهم: ﴿إِنَّمَا ٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ أَوْثَٰنًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ﴾ فهم يوم القيامة يتلاعنون ويتباغضون، لأنهم يقولون لمن أضلوهم أنتم السبب في إضلالنا وإغوائنا وصرفنا عن دين الله.

أما محبة المؤمنين بعضهم لبعض من أجل الإيمان والموالاة في الله والمعاداة في الله فإنها تبقى، بل تزيد يوم القيامة، وتستمرُّ إلى أبد الآباد ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِى صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ﴾.

فدلّت هذه الآية على أن المحبة التي لغير الله أنها تزول يوم القيامة، وتنقلب عداوة، وأن محبة التابعين على الضلال لأتباعهم وقادتهم ورؤسائهم تنقلب عداوة يوم القيامة فيما بينهم ويتلاعنون ويتلاومون فيما بينهم، من باب التحسُّر- والعياذ بالله- والتألُّم.

فهذا الباب بابٌ عظيم، يجب على المسلم أن يَزِن نفسه به، ولهذا يسمى بباب الامتحان، فكلٌّ يَدّعي الإيمان، وكلٌّ يَدّعي الإسلام، وكلٌّ يدّعي الزهد والورع ولكن الميزان ما ذكر في هذا الباب.

❁ ❁ ❁

٨٦) **٣٢-بابٌ**

قول الله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

---

٨٦) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾

أراد المؤلف أن يبين وجوب خوف الله تعالى خوفًا على الإخلاص له، وأداء ما فرض عليه، والوقوف عند حدوده، والخوف ثلاثة أقسام:

١- الخوف من الله:

وهو أعظمها، وأوجبها، ويجب فيه الإخلاص وصرفه لغيره شرك، شرك أن يخاف منها أن تصيبه بمكروه.

٢- خوف يحمل على فعل معصية الله وترك الواجب:

وهو الخوف من المخلوق، وهو معصية، وفيه نزل قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ ويحمل على ترك الجهاد، والواجب ألا يخاف الإنسان من المخلوق إلا خوفًا يحمله على ما شرعه الله وأباحه، ولا يحمله على المعاصي، فالخوف من المخلوق في الأشياء الحسية والطبيعية جائز لا بأس به فهو فطري، ويشرع الحذر من مقتضاه كالخوف من اللص؛ فيغلق بابه، أو يخاف من سبع فيحمل السلاح أو

....

المرض ونحوها، والترجمة في النوع الثاني، وهو الذي حدث في أحد من بث الشيطان الخوف في قلوب المؤمنين من الكافرين، والتثبيط عن الجهاد فنهاهم الله، وأمرهم بالثبات؛ فنفر إليهم النبي بعد أحد ولم يحصل قتال؛ لأنهم فروا.

٣- الخوف الطبيعي:

من اللص والسبع والمرض ونحوه.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا الخوف الذي أوجبه الله، ويستثنى منه الخوف الطبيعي العادي.

قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾.

هذا ذم لهم، وهو أن بعض الناس إذا أوذي لم يصبر، بل يحمله الخوف على فعل ما حرم الله، وترك طاعة الله، وما أمر به، وهذا مذموم؛ لأن الواجب أن يتقي الله، وإذا أوذي في الله أخذ بالأسباب الشرعية من طلب المحاكمة والشكوى إلى ولاة الأمور وغير ذلك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ﴾: صيغة حصر والمشار إليه التخويف من المشركين.

﴿ذَٰلِكُمُ﴾: ذا: مبتدأ، ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾: يحتمل أن يكون خبر المبتدأ، وجمله ﴿يُخَوِّفُ﴾ حال من الشيطان.

ويحتمل أن يكون ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ صفة لـ ﴿ذَٰلِكُمُ﴾، أو عطف بيان، و﴿يُخَوِّفُ﴾: خبر المبتدأ، والمعنى: ما هذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياءه.

و ﴿يُخَوِّفُ﴾ تنصب مفعولين، الأول محذوف تقديره: يخوفكم، والمفعول الثاني: ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾.

ومعنى يخوفكم، أي: يوقع الخوف في قلوبكم منهم، ﴿أَوْلِيَآءَهُۥ﴾؛ أي:

....

أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكر؛ لأن الشيطان يأمر بذلك؛ فكل من نصر الفحشاء والمنكر؛ فهو من أولياء الشيطان؛ ثم قد يكون النصر في الشرك وما ينافي التوحيد، فيكون عظيمًا وقد يكون دون ذلك.

وقوله: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ من ذلك ما وقع في الآية التي قبلها، حيث قالوا: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك ليصدهم عن واجب من واجبات الدين، وهو الجهاد، فيخوفونهم بذلك، وكذلك ما يحصل في نفس من أراد أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر، فيخوفه الشيطان ليصده عن هذا العمل، وكذلك ما يقع في قلب الداعية.

قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾. لا ناهية، والهاء ضمير يعود على أولياء الشيطان، وهذا النهي للتحريم بلا شك؛ أي: بل امضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد، ولا تخافوا هؤلاء.

قوله: ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ﴾. ﴿مَنْ﴾: فاعل يعمر، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور، وهي:

الإيمان بوجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته.

واليوم الآخر: هو يوم القيامة، وسمي بذلك، لأنه لا يوم بعده.

قال شيخ الإسلام: ويدخل في الإيمان بالله واليوم الآخر كل ما أخبر به ﷺ مما يكون بعد الموت مثل فتنة القبر وعذابه ونعيمه.

لأن حقيقة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامته وارتحل إلى دار الجزاء.

قوله: ﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾. أي: أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه، والإقامة نوعان:

إقامة واجبة، وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.

وإقامة مستحبة: وهي التي يزيد فيها على فعل ما يجب فيأتي بالواجب والمستحب.

....

قوله: ﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾ . ﴿وَءَاتَى﴾ تنصب مفعولين: الأول هنا الزكاة، والثاني: محذوف: تقديره مستحقيها.

والزكاة: هي المال الذي أوجبه الشارع في الأموال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمة الله عز وجل .

قوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ . في هذه الآية حصر بطريقة الإثبات والنفي. ﴿وَلَمْ يَخْشَ﴾ نفي: ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ إثبات، والمعنى: أن خشيته انحصرت في الله عز وجل ؛ فلا يخشى غيره.

وقوله: ﴿مَن يَقُولُ﴾ . ﴿مَنْ﴾ : مبتدأ مؤخر، والمراد بهؤلاء: من لا يصل الإيمان إلى قرارة قلبه؛ فيقول: آمنا بالله، لكنه إيمان متطرف؛ كقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ﴾ [الحج: ١١]، ﴿عَلَىٰ حَرْفٍ﴾ ؛ أي: على طرف.

فإذا امتحنه الله بما يُقدِّر عليه من إيذاء الأعداء في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، قوله: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ . ﴿فِى﴾ : للسببية، أي: بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه.

ويجوز أن تكون ﴿فِى﴾ للظرفية على تقدير: «فإذا أوذي في شرع الله» ؛ أي: إيذاء في هذا الشرع الذي تمسك به.

قوله: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ . ﴿جَعَلَ﴾ : صير، والمراد بالفتنة هنا الإيذاء.

قوله: ﴿ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ . ومعلوم أن الإنسان يفر من عذاب الله، فيوافق أمره؛ فهذا يجعل فتنة الناس كعذاب الله؛ فيفر من إيذائهم بموافقة أهوائهم وأمرهم جعلاً لهذه الفتنة كالعذاب؛ فحينئذ يكون قد خاف من هؤلاء كخوفه من الله؛ لأنه جعل إيذاءهم كعذاب الله، ففر منه بموافقة أمرهم، فالآية موافقة للترجمة.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب عقده الشيخ رحمه الله في موضوع الخوف.

....

والخوف من الله هو أحد ركائز العبادة، كما سبق أن المحبة والخوف والرجاء أعظم أنواع العبادة، وهي أعمال قلبية، فلما ذكر المحبة في الباب السابق ذكر في هذا الباب الخوف؛ ليدلّ على أن المحبة لا تكفي وحدها...

والخوف ثلاثة أنواع:

النوع الأول: خوف السر وهو الخوف الذي يكون معه عبادة لغير الله أو ترك لما أوجب الله. ومعناه: أن يخاف الإنسان من غير الله من الأصنام والأوثان وما عُبد من دون الله، من القبور والأضرحة، أو يخاف الشياطين والجن...

فهذا النوع من الخوف يسمّى: خوف السر، وهو خوف العبادة، بأن يخاف من المعبودات التي تُعبد من دون الله عزّ وجلّ، فالمؤمن لا يخاف هذه المعبودات أبدًا، لا يخاف من الأصنام، لا يخاف من القبور والأضرحة التي تُعبد من دون الله، لا يخاف من الشياطين والجن أن تصيبه إلّا بإذن الله سبحانه وتعالى، وكذلك الخوف من كل مخلوق أن يصيبه بما لا يقدر عليه إلّا الله سبحانه وتعالى من الإصابة بالمرض، أو قطع الرزق، أو غير ذلك، وهذا أحد أنواع الشرك الأكبر...

النوع الثاني من أنواع الخوف المذموم: أن يترك الإنسان ما أوجب الله عليه من الدعوة إلى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفًا من النّاس أن يؤذوه أو يضايقوه أو يعذِّبوه فيترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الله وبيان الحق خوفًا من النّاس، فهذا شركٌ أصغر، وهو محرّمٌ، وقد جاء في الحديث: «أن الله يحاسب العبد يوم القيامة: لِمَ لَمْ تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؟. فيقول: يا رب خشيتُ النّاس، فيقول: إيّايَ أحقُّ أن تخشى». ونعني بذلك: القادر على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والقادر على الدعوة إلى الله، أما الذي لا يقدر -أو ليس عنده استطاعة- فهذا معذور.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي، الذي ليس معه عبادة للمخوف ولا ترك لواجب. كأن يخاف الإنسان من العدو، أو من السَّبُع، أو من الحيَّة، ويخاف الإنسان من أعدائه، أو يخاف من السّباع، أو يخاف من الهوام، فهذا الخوف خوفٌ

....

طبيعي لا يُلام عليه الإنسان؛ لأنه ليس عبادة وليس تركًا لواجب، ولا يُؤاخذ عليه الإنسان.

ثمّ أورد الشيخ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وهذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ وذلك أن الرسول ﷺ وأصحابه لَمّا حصلَتْ وقعة أحد، وحصل على المسلمين ما حصل من الابتلاء والامتحان، واستشهد من المسلمين من استُشْهد وانصرف المشركون إلى مكة أرادوا أن يُرعبوا المسلمين، فأرسلوا إليهم يهدِّدونهم ويقولون: إننا سنرجع إليكم، فنقضي على بقيّتكم، فلما بلغ الخبر رسول الله ﷺ والمسلمين قالوا: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

لم يؤثّر عليهم هذا التهديد، وأمر ﷺ أصحابه أن يخرجوا وفيهم الجراح، وفيهم التعب بعد المعركة، فنهضوا مسرعين وخرجوا مع الرسول ﷺ، ونزلوا في مكان يُقال له: (حمراء الأسد) ينتظرون المشركين، فلما علِم المشركون بخروج رسول الله ﷺ وخروج المسلمين أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلّا وفيهم قوة، فهربوا إلى مكة وألقى الله الرعب في قلوبهم لَمّا صدَق المسلمون وصبروا وتوكّلوا على الله، ولم يؤثّر فيهم تهديد هؤلاء: ﴿فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ﴾ رجعوا إلى المدينة سالمين غانمين الأجر والثواب من الله سبحانه وتعالى، ﴿لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ﴾ أي: ما أصابهم ما يكرهون، بل حصلوا على الأجر والثواب ﴿وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾.

ثمّ قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾ أي: الذي حصل من المشركين من التهديد إنما هو من الشيطان.

والمراد بالشيطان: إبليس اللعين الذي هو رأس الكفر.

....

﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ أي: يخوِّفكم بأوليائه من الكفار، فالشيطان هو الذي خطَّ هذه الخطة من أجل أن يخوِّفكم بأوليائه، يعني: المشركين، لأن المشركين أولياء الشيطان، كما أن المؤمنين أولياء الرحمن، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾.

والشاهد من الآية: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ﴾ نهى عن خوف الكفّار وأولياء الشيطان خوفًا يمنع من الدعوة والجهاد في سبيل الله، والقيام بواجبات الدين، وأمر بخوفه سبحانه وتعالى.

فدلّ على أن الخوف عبادةٌ عظيمة، يجب أن تُخلص لله عزّ وجلّ.

ثمّ قال الشيخ رحمه الله: «وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ هذه الآية بعد قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ﴾ أي: لا يسوغ ولا يجوز للمسلمين أن يمكنوا المشركين من دخول المساجد لأجل أن يتعبّدوا فيها العبادة الشركية، ويدعوا غير الله فيها، فلا يجوز للمسلمين أن يمكِّنوا المشركين من إظهار الشرك في المساجد، ولا أن يكونوا من عُمّارها والمتردِّدين عليها وهم يُعلنون الشرك بالله تعالى، لأن المساجد إنما بنيت لعبادة الله وإخلاص الدين له كما قال الله سبحانه وتعالى في المشركين: ﴿وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَمَا كَانُوٓا۟ أَوْلِيَآءَهُۥٓ ۚ إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾، فالمشرك ليس له حقٌّ في مساجد الله سبحانه وتعالى لأن مساجد الله بيوت الله بُنِيَتْ لعبادة الله وحده لا شريك له ولم تُبْنَ لعبادة غيره، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾.

وقوله: ﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية للباب، أي: لم يخش من غير الله، لا من المعبودات، ولا من سائر المخلوقات، وإنما الخشية حقٌّ لله

....

سبحانه وتعالى لا يجوز أن يُشرك معه فيها غيره، وهي عملٌ قلبي- من العبادات القلبية-. وهذا حصر للخشية لله سبحانه وتعالى، فلا يخشى الإنسان غير الله عزّ وجلّ، ومن خشيَ غير الله خشية العبادة فقد أشرك بالله. وهذا مثل قوله: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، فمن شرط الإيمان: إخلاص الخوف من الله، كذلك من شرط الإيمان: إخلاص الخشية من الله سبحانه وتعالى.

﴿فَعَسَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الذين اتّصفوا بهذه الصفات: الإيمان بالله واليوم الآخر، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، والخشية من الله وحده، ﴿فَعَسَىٰٓ﴾ عسى حرف ترجٍّ، ولكنها من الله واجبة، لأنها وعدٌ من الله سبحانه وتعالى، والله لا يخلف وعده، ولهذا يقول العلماء: كلُّ «عسى» من الله فهي واجبة.

﴿أَن يَكُونُواْ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ المهتدين إلى الحق، أما من لم يتّصف بهذه الصفات فليس من المهتدين، بل هو من الضالِّين.

ثمّ قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ هذه الآية في المنافقين الذين يظهرون الإيمان ويُبطِنون الكفر.

فقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾ يقول مجرّد قول ويدّعي، ما ليس له حقيقة.

﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ إذا جاء الامتحان، لأن المؤمنين يُمتحنون، ولا يتركون على قول: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ﴾، فيظهر الصادق في إيمانه من الكاذب، قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ يعني: يُختبرون ويُمتحنون، ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، فإذا قال: (آمنت بالله) فإنه يُمتحن، بأن يصاب بالأذى من الكفار والمنافقين والفُسّاق، فإن صبر وثبت على إيمانه وتحمّل الأذى في سبيل الله عزّ وجلّ، فهذا دليلٌ على صِدْق إيمانه. أما إنِ انحرف وذهب مع الفتنة فإنّ هذا دليلٌ على نفاقه.

وقوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ﴾ أي: ناله أذى بسبب إيمانه بالله.

﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ﴾ أي: أذاهم.

﴿كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: مساوية لعذاب الله، مع الفرق العظيم، لأن فتنة النّاس

٨٧) عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رضي الله عنه مَرْفُوعًا: «إِنَّ مِنْ ضَعْفِ اليَقِينِ أَنْ تُرْضِيَ النَّاسَ بِسَخَطِ اللهِ؛ وأَنْ تَحْمَدَهُمْ عَلَى رِزْقِ اللهِ؛ وأَنْ تَذُمَّهُمْ عَلَى مَا لَمْ يُؤْتِكَ اللهُ؛ إِنَّ رِزْقَ اللهِ لا يَجُرُّهُ حِرْصُ حَرِيصٍ؛ ولا يَرُدُّهُ كَرَاهِيَةُ كَارِهٍ».

زائلة ومنتهية وخفيفة، بخلاف عذاب الله- والعياذ بالله- فإن عذاب الله شديد وباق ومستمر، فهو سوّى بين الأمرين، وهذا من جهله وعدم إيمانه.

ومعنى هذا: أنه يُطاوع الكفار، فينسلخ من دينه، لأنه ليس له دين أصلاً وإنما تظاهر به، فإذا جاءت المحن انكشف وتبيّن أنه ليس في قلبه إيمان، أو كان في قلبه إيمان ضعيف، ثمّ زال، ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ أي: إذا حصل للمسلمين فرج وحصل لهم خير قال: أنا معكم، أنا مسلم. أما إنْ حصل على المسلمين أذى وامتحان فإنه ينعزل ويصير مع الكفار ويطاوع الكفار. هذه مواقف المنافقين وضِعاف الإيمان عند الشدائد والمحن.

والشاهد من الآية: ﴿جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ أي: أنه يخشى النّاس ولا يخشى الله سبحانه وتعالى، فهذا هو موضع اللوم.

٨٧) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن أبي سعيد مرفوعًا: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله».

أي: من ضعف الإيمان أن تسخط الله؛ لترضي الناس، وأن تشكر الناس على النعمة التي ساقها الله إليك بواسطتهم والواجب أن تشكر الله، وإذا فعلوا معروفًا لك، فإنهم يشكرون ويجازون، لكن الحمد كله لله وحده هو الذي هداهم وجعلهم يحسنون إليك، فيجب حمد الله أولًا، وتخصيصه بذلك وتشكر المخلوقين على قدر إحسانهم ومعروفهم «ومن لا يشكر الناس لا يشكر الله» [(١)] ولكن يكون حمد الله

---

(١) رواه أبو داود (٤٨١١)، والترمذي (١٩٥٤)، وأحمد (٢/ ٥٨، ٣٠٣، ٣٨٨، ٤٦١، ٤٩٢)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١٨).

....

أعظم؛ لأنه هو المتسبب في ذلك فحرك قلوبهم إلى الإحسان إليك.

وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله: أي: تذم لأنهم لم يصنعوا لك الخير الذي لم يكتبه الله لك، والواجب أن تسأل الله من فضله وإذا كان حقك عندهم فإن الله لا يضيعه وسوف تأخذه يوم القيامة، وهذا لا يمنع أن يطالب الإنسان بحقه كحقه في الزكاة إن كان من أهلها، ولكن لا يذمهم من أجل عدم إعطائهم، بل يذم من ذمه الله ويحمد من حمده الله فذمهم؛ لأنهم منعوا حق الله وفعلوا ما لا ينبغي لا من أجل أنهم لم يعطوك فلا تنتقم لنفسك.

قوله: أن رزق الله لا يجره حرص حريص ولا يرده كراهية كاره: أي الذي لم يقدر لك لا يأتي بالحرص عليه، بل عليك بأخذ الأسباب، ولكن إذا لم يحصل المطلوب، فإنه لا يعجز وما قدره الله من الرزق لا يرده أحد، ولو كره الناس.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في حديث أبي سعيد: «إن من ضعف اليقين». «من». للتبعيض، والضعف ضد القوة، ويقال: ضعف بفتح الضاد، أو ضعف بضم الضاد، وكلاهما بمعنى واحد، أي: من علامة ضعف اليقين.

قوله: «أن ترضي الناس». «أن ترضي» : اسم إن مؤخرًا، و«من ضعف اليقين» خبرها مقدمًا، والتقدير: إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين.

قوله: «بسخط الله». الباء للعوض، يعني: أي تجعل عوض إرضاء الناس سخط الله، فتستبدل هذا بهذا؛ من ضعف اليقين.

قوله: «وأن تحمدهم على رزق الله». الحمد: وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم.

قوله: «وأن تذمهم على مالم يؤتك الله». هذه عكس الأولى، فمثلًا: لو أن إنسانًا جاء إلى شخص يوزع دراهم، فلم يعطه، فسبه وشتمه، فهذا من الخطأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

لكن من قَصَّر بواجب عليه، فَيُذَم لأجل أنه قصر بالواجب لا أجل أنه لم يعط،

....

فلا يذم من حيث القدر، لأن الله لو قَدَّر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء.

وقوله: «ما لم يؤتك». علامة جزمه حذف الياء، والمفعول الثاني محذوف؛ لأنه فضلة، والتقدير: مالم يؤتكه.

وقوله: «ولا يرده كراهية كاره». أي رزق الله إذا قدر للعبد، فلن يمنعه عنه كراهية كاره.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «عن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعًا» يعني: إلى النبي ﷺ، فالحديث المرفوع: ما نُسب إلى الرسول ﷺ، والحديث الموقوف: ما كان من كلام الصحابي، والحديث المرسل: ما نسبه التابعي إلى رسول الله ﷺ.

«إنّ من ضعف» بفتح الضاد ويجوز الضم: والضَّعف ضدّ القوة.

«اليقين» واليقين هو أعلى درجات العلم.

«أن ترضي النّاس بسخط الله» هذا من ضعف اليقين، وهذا مثل ما ذكر في الآية: ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، فمن أرضى النّاس بما يُسخط الله إذا طلبوا منه ذلك إرضاءً للناس بما يُسخط الله من المخالفات والمعاصي، فهذا من ضعف اليقين، لأنه لو كان يقينه قويًا لكان العكس، فكان يُرضي الله سبحانه وتعالى بسخط النّاس. أما إذا جاء العكس فأرضى النّاس بسخط الله، فهذا من ضعْف اليقين.

«وأن تَحْمَدَهم على رزق الله» أي: ومن ضعف اليقين: أن تَحْمَدَ النّاس على رزق الله، إذا جاءك رزق وجاءك خير تنسب هذا إلى النّاس وتحمدهم عليه، مع أن الرزق من الله سبحانه وتعالى، فالواجب: أن تحمد الله لا أن تحمد النّاس، إنما تحمد الله عزّ وجلّ لأنه هو الرزّاق، وإذا كان لأحدٍ من النّاس تسبُّب في هذا الرزق، فإنّ هذا المتسبِّب يُشكر على قدْر ما فعل، لا أن يُنسب الرزق إليه، وإنما يُشكر على قدر سعيه وعلى ما بذل من السبب فقط، مع الاعتراف أن الرزق من الله، وتعتقد أن هذا الشخص إنما هو سبب فقط، وفي الحديث: «من لا يشكر النّاس لا يشكر

....

الله»، وفي الآخر: «من صنع إليكم معروفًا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له حتى ترَوْا أن قد كافأتموه»، فالنّاس إنما تجري على أيديهم أسباب يُشكرون عليها ويُدعى لهم، أما أن يُنسب الرزق إليهم، ويقال: هذا من فلان، فهذا كفرٌ بنعمة الله سبحانه وتعالى ومن ضعف اليقين، لأن قويَّ اليقين يعتقد أن الأرزاق بيد الله، فيكون الحمد المطلق لله عزّ وجلّ.

«وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله» يعني: إذا سعيت تطلب شيئًا محبوبًا من أمور الدنيا ولم يحصل لك فلا تذمّ النّاس، لأن هذا بيد الله، لو شاء الله لحصل لك، والنّاس ليس بيدهم شيء، وإنما هذا بيد الله، لو أراد هذا لحصل لك.

ثمّ قال: «إن رزق الله لا يجُرُّه حرص حريص، ولا يَرُدُّه كراهية كاره»، مهما حرص الإنسان وحرصت الواسطة التي عمدها، فالحرص لا يجلب لك المطلوب إذا لم يقدِّره الله سبحانه وتعالى.

«ولا يردُّه كراهية كاره» لو أراد الله لك شيئًا فلو اجتمع أهل الأرض أن يمنعوه لم يستطيعوا كما قال ﷺ: «واعلم أن النّاس لو اجتمعوا على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلّا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضرُّوك لم يضروك إلّا بشيء قد كتبه الله عليك».

إذًا، علِّق قلبك بالله سبحانه وتعالى، وأحسِن المعاملة مع الله: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

وهذا هو حقيقة التّوحيد؛ أن يكون العبد معتمدًا على الله ومتوكّلًا على الله، ويعتقد أن النّاس مجرّد أسباب، والأسباب إن شاء الله نفعتْ وإنْ شاء لم تنفع، فلا يجعل الحمد والذم للناس، وإنما يجعل الحمد لله سبحانه وتعالى، وإذا لم يحصل له مطلوبه فليصبر وليعلم أن ما قُدِّر له لا بد أن يكون فليحمد الله أيضًا.

وحديث أبي سعيد رواه أبو نعيم في «الحلية»، ورواه البيهقي، وهو حديث ضعيف، ولكنّ الشيخ - رحمه الله - من قاعدته ألا يذكر الحديث الضعيف إلّا إذا كان له ما يؤيِّده، وهذا الحديث تؤيِّده الآية التي قبله، وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَآ أُوذِىَ

٨٨) وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، ومَنِ الْتَمَسَ رِضَى النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ» رَوَاهُ ابنُ حِبَّانَ فِي صَحِيحِهِ.

﴿فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله».

فالشيخ رحمه الله قد يذكر بعض الأحاديث الضعيفة إذا كان لها ما يؤيِّدها من القرآن أو من السنّة.

وهذه قاعدة معروفة عند أهل العلم.

٨٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث عائشة أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس رضى الله بسخط...».

هذا يدل على أنه يجب على المسلم أن يلتمس رضى الله، ويأخذ بالأسباب؛ لأنه إذا رضي الله حصل له كل خير، وإذا سخط حصل له كل شر.

ولكن إرضاء الله لا يمنع من الأخذ بالأسباب التي تدفع سخط الناس وإيذاءهم، ولكن بدون سخط الله ما إذا كان يسخط الله، فإنه لا يفعله، ولا يخافهم ويتوكل على الله.

وفي رواية عن عائشة: «من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله، ومن التمس رضا الناس بسخط الله لم يغنوا عنه من الله شيئًا، وعاد حامده له ذامًّا».

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «التمس»: طلب، ومنه قوله ﷺ في ليلة القدر: «التمسوها في العشر».

وقوله: «رضا الله». أي: أسباب رضاه، وقوله: «بسخط الناس»: الباء للعوَض؛ أي طلب ما يرضي الله ولو سخط الناس به بدلًا من هذا الرضا وجواب الشرط: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس».

وقوله: «رضي الله عنه وأرضى عنه الناس». هذا ظاهر، فإذا التمس العبد رضا

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيةِ «آل عمران».

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيةِ «براءة».

«الثَّالِثَةُ»: تَفْسِيرُ آيةِ «العنكبوت».

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ اليَقِينَ يَضْعُفُ ويَقْوَى.

«الخَامِسَةُ»: عَلَامَةُ ضَعْفِهِ، وَمِنْ ذَلِكَ هَذِهِ الثَّلَاثُ.

«السَّادِسَةُ»: أَنَّ إِخْلَاصَ الخَوْفِ للهِ مِنَ الفَرَائِضِ.

ربه بنية صادقة رضي الله عنه؛ لأنه أكرم من عبده.

قوله: «ومن التمس رضا الناس بسخط الله». «التمس»: طلب، أي: طلب ما يرضي الناس، ولو كان يسخط الله، فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده، لهذا قال: «سخط الله عليه وأسخط عليه الناس»، فألقى في قلوبهم سخطه وكراهيته.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾، وسبق.

الثالثة: تفسير آية العنكبوت. وهي قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾، وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق

الرابعة: أن اليقين يضعف ويقوى: تؤخذ من الحديث: «إن من ضعف اليقين» الحديث.

الخامسة: علامة ضعفه، ومن ذلك هذه الثَّلاث. وهي: أن ترضي الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على مالم يؤتك الله.

السادسة: أن إخلاص الخوف لله من الفرائض. وتؤخذ من قوله في الحديث:

«السَّابِعَةُ» : ذِكْرُ ثَوَابِ مَنْ فَعَلَهُ.

«الثَّامِنَةُ» : ذِكْرُ عِقَابِ مَنْ تَرَكَهُ.

«من التمس» الحديث، ووجهه ترتيب العقوبة على من قدم رضا الناس على رضا الله تعالى.

السابعة: ذكر ثواب من فعله. وهو رضا الله عنه، وأنه يرضي عنه الناس، وهو العاقبة الحميدة.

الثامنة: ذكر عقاب من تركه. وهو أن يسخط الله عليه ويسخط عليه الناس، ولا ينال مقصوده.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: «من التمس» إلخ» لحديث عائشة رضي الله عنها هذا قصة، وهي: أن معاوية رضي الله عنه لَمّا وَلِيَ المُلْك كتب إلى أم المؤمنين يطلُب منها النصيحة، لأنها زوج رسول الله ﷺ، وعندها من العلم الشيء الغزير الذي حملته عن رسول الله ﷺ فهي فقيهة النساء فكتبت إليه: «السلام عليكم، أما بعد: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من التمس رضا الله بسخط النّاس رضي الله عنه وأرضى عنه النّاس، ومن التمس رضا النّاس بسخط الله سخِط الله عليه وأسخط عليه الناس»».

هذا الحديث إذا سار عليه الحكّام وغير الحكّام حصل الخير الكثير، فهو منهج عظيم، وهذه الكلمات اليسيرة منهج تسير عليه الأمة، حُكّامها ومحكوموها، الراعي والرعية، ولذلك نصحت به عائشة معاوية رضي الله عنهما، وهذا من فقهها رضي الله عنها حيث اختارت هذا الحديث لمعاوية لأنه وال وإمام، فهو بحاجة إلى هذا الحديث ليجعله منهجًا له في سياسة المُلْك.

وهذا الحديث فيه: أن الإنسان يقدِّم خشية الله على خشية النّاس، ويقدِّم رضى الله على رضى النّاس، كالحديث الذي قبله.

فإذا جمعتَ هذه الآيات وهذه الأحاديث دلّتْ على أن الخوف عبادة يجب إفراد الله تعالى بها، ونعني بالخوف النوع الأول الذي هو خوف العبادة، الخوف الذي

٨٩) ٣٣-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.
وقَوْلُهُ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢].
وقَوْلُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]
وقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ الآية [الطلاق: ٣].

يترتب عليه العمل بطاعة الله وترك معصية الله، أما الخوف المعكوس الذي تترتب عليه معصية الله لإرضاء النّاس، فهذا مذموم.

ودلّ حديث أبي سعيد -كما يقول الشيخ في مسائله- على أن اليقين يقوى ويضعُف، بدليل قوله: «إن من ضعف اليقين».

٨٩) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾:

أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب التوكل على الله والاعتماد عليه في جميع أمور الدين والدنيا، والتوكل هو التفويض إلى الله، والثقة به، والإيمان بأنه مسبب الأسباب، وكل شيء بيده وما شاءه كان وما لم يشأه لم يكن، ويعلم أن القدر قد سبقه بكل شيء، وليس للعبد قدرة على أي شيء لم يشأه سبحانه وتعالى مع الأخذ بالأسباب.

وقـولـه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ﴾ وقـولـه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾.

أي: كافيك الله، وكافي أتباعك، ومن كفاه الله ما أهمه لم يحتج إلى أحد، فالواجب على المؤمن أن يتوكل على الله مع أخذه بالأسباب التي تنفعه في دينه ودنياه، وترك الأسباب التي تضره في دينه ودنياه، فيعمل الطاعات ويترك المعاصي؛ لينال الجنة، ويأكل ويشرب ويتجنب ما يضره؛ لأن هذا سبب حياته فهذا لا ينافي التوكل، بل التوكل مجموع الأمرين:

١- الثقة بالله وأنه مسبب الأسباب ومصرف الأمور وكل شيء بيده.

....

٢- الأخذ بالأسباب.

وليس التوكل ترك الأسباب كما تقول الصوفية، بل لابد من الأمرين ويستعين بالله في ذلك.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وقد ذكر المؤلف في هذا الباب أربع آيات، أولها ما جعله ترجمة للباب، وهي:

قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾. ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ متعلقة: ﴿تَوَكَّلُوٓاْ﴾، وتقديم المفعول يدل على الحصر، أي: على الله لا على غيره، ﴿فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾، أي: اعتمدوا.

والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفة، لأن في الجملة حرف عطف وهو الواو، ولا يمكن أن نعطف الجملة بعاطفين، فتكون لتحسين اللفظ، كقوله تعالى: ﴿بَلِ ٱللَّهَ فَٱعۡبُدۡ﴾، والتقدير: «بل الله أعبد».

قوله: ﴿إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾. ﴿إِنْ﴾: شرطية، وفعل الشرط ﴿كُنتُمْ﴾، وجوابه قيل: إنه محذوف دل عليه ما قبله، وتقدير الكلام: إن كنتم مؤمنين فتوكلوا، وقيل: إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفاء بما سبق، فيكون ما سبق كأنه فعل معلق بهذا الشيء، وهذا أرجح، لأن الأصل عدم الحذف.

وذكر الله في هذه الآية وما بعدها خمسة أوصاف:

أحدها: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾، أي: خافت لما فيها من تعظيم الله تعالى.

الوصف الثاني: قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنًا﴾، أي تصديقًا وامتثالًا.

الوصف الثالث: قوله ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ﴾، أي: يعتمدون على الله لا على غيره، وهم مع ذلك يعملون الأسباب، وهذا هو الشاهد.

الوصف الرابع: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾، أي: يأتون بها مستقيمة كاملة، والصلاة: اسم جنس تشمل الفرائض والنوافل.

....

الوصف الخامس: قوله: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾. (من) للتبعيض، فيكون الله يمدح من أنفق بعض ماله لا كله، أو تكون لبيان الجنس، فيشمل الثناء من أنفق البعض ومن أنفق الكل، والصواب: أنها لبيان الجنس.

قوله: ﴿حَسْبُكَ اللَّهُ﴾؛ أي: كافيك، والحسب: الكافي، ومنه قوله أُعطي درهمًا فحسب، وحسب خبر مقدم، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما الله إلا حسبك، ويجوز العكس، أي: أن تكون حسب مبتدأ ولفظ الجلالة خبره، ويكون المعنى: ما حسبك إلا الله، وهذا أرجح.

قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾. ﴿مَنْ﴾ اسم موصول مبني على السكون، وفي عطفها رأيان لأهل العلم: قيل: حسبك الله، وحسبك من اتبعك من المؤمنين، فـ﴿مَنْ﴾ معطوفة على لفظ الجلالة الله لأنه أقرب، ولو كان العطف على الكاف في حسبك لوجب إعادة الجار، وهذا كقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فالله أيد رسوله بالمؤمنين، فيكونون حسبًا له هنا كما كان الله حسبًا له.

وهذا ضعيف، والجواب عنه من وجوه:

أولًا: قولهم عطف عليه لكونه أقرب ليس صحيح، فقد يكون العطف على شيء سابق، حتى إن النحويين قالوا: إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول.

ثانيًا: قولهم لو عطف على الكاف لوجب إعادة الجار، والصحيح أنه ليس بلازم، كما قال ابن مالك:

وليس عندي لازمًا إذ قد أتى ... في النثر والنظم الصحيح مثبتا

ثالثا: استدلالهم بقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾.

فالتأييد لهم غير كونهم حسبه، لأن معنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه، وبينهما فرق.

رابعًا: أن الله - سبحانه - حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى:

....

﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبه: ٥٩]، ففرق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]، فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز، فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسبًا، فلو كان، لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون.

خامسًا: أن في قوله: ﴿وَمَنِ اتَّبَعَكَ﴾ ما يمنع أن يكون الصحابة حسبًا للرسول ﷺ، وذلك لأنهم تابعون، فكيف يكون التابع حسبًا للمتبوع ؟! هذا لا يستقيم أبدًا، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾ ، أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين، فتوكلوا عليه جميعًا أنت ومن اتبعك.

والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خذل، لأن غير الله لا يكون حسبًا كما تقدم، فمن توكل على غير الله تخلى الله عنه، وصار موكولاً إلى هذا الشيء ولم يحصل له مقصوده، وابتعد عن الله بمقدار توكله على غير الله.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** التوكل هو: التفويض، فالتوكل على الله: تفويض الأمور إليه سبحانه، وهو من أعظم أنواع العبادة.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنه لَمّا كان التوكل على الله عبادةً لله عزّ وجلّ وجب إخلاصه لله وترك التوكُّل على مَن سواه، لأن العبادة حقٌّ لله، فإذا صُرفت لغيره صار ذلك شركًا؛ فالتوكُّل على غير الله شرك - كما يأتي بيانه وتفصيله.

وهذا الكتاب المبارك ألّفه الشيخ رحمه الله لبيان التّوحيد وبيان الشرك؛ فالتوكُّل على الله وحده توحيد، والتوكُّل على غيره شرك.

فهذا مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد.

قوله رحمه الله: «بابُ قول الله» أي: تفسير هذه الآيات؛ فهذا الباب يبيِّن فيه تفسير هذه الآيات الكريمات.

فقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ هذه الآية في سورة المائدة

....

في قصة موسى عليه السلام مع قومه لَمّا قال لقومه: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡأَرۡضَ ٱلۡمُقَدَّسَةَ﴾ يعني: أرض فلسطين، ليخلِّصوها من الوثنيين لأنها كانت بيد الوثنيِّين، وموسى عليه السلام أُمر بالجهاد لنشر التّوحيد ومحاربة الشرك والكفر بالله وتخليص الأماكن المقدَّسة من قبضة الوثنيِّين، وهذا من أغراض الجهاد في سبيل الله.

﴿ٱلَّتِي كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ لأن الله كتب أن المساجد والأراضي المقدَّسة للمؤمنين من الخلق من بني إسرائيل وغيرهم، ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمۡ﴾ شرع أن تكون الولاية عليها للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ﴾.

فمساجد الله- خصوصًا المساجد الثلاثة- يجب أن تكون الولاية عليها للمسلمين، ولا يكون للمشركين عليها سلطة، ويجب على المسلمين أن يجاهدوا حتى يخلِّصوا هذه المساجد من أيدي المشركين.

فموسى عليه السلام خرج ببني إسرائيل يريد تخليص بيت المقدس، ولكن بني إسرائيل كانوا قومًا جبناء: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوۡمٗا جَبَّارِينَ﴾ يقال كان فيها حينذاك قبيلة يقال لها: العماليق، كانوا شِدادًا في خلقهم أقوياء، ﴿وَإِنَّا لَن نَّدۡخُلَهَا حَتَّىٰ يَخۡرُجُواْ مِنۡهَا﴾ وهذا منتهى المهانة ومنتهى السُّخرية، لأن الكفار ليسوا بخارجين إلَّا بالجهاد والجلاد والاستشهاد في سبيل الله.

﴿قَالَ رَجُلَانِ﴾ يعني: من بني إسرائيل من أهل الرأي والإيمان والعزيمة.

﴿مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ﴾ يخافون الله سبحانه وتعالى.

﴿أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا﴾ أنعم الله عليهما بالإيمان والعزيمة الصادقة.

﴿ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ يعني: اعزموا واهجموا عليهم حتى يروا منكم القوة، فإذا رأوا منكم القوة فإنهم يخرجون.

﴿فَإِذَا دَخَلۡتُمُوهُ فَإِنَّكُمۡ غَٰلِبُونَۚ﴾ لا شك أنه إذا حصل هجوم صحيح ودخل المجاهدون عليهم الباب أنه سيقع الرعب في قلوبهم ويخرجون منها، لكن هذا لا يكون إلَّا من أهل الإيمان وأهل الصدق والعزيمة والبأس كما في رجال محمد ﷺ

....

الذين كانوا يجاهدون ويهجمون على الكفار ويقتحمون الأبواب ويخاطِرون بأنفسهم.

وأيضًا فإنه لا يكفي دخول الباب، بل ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾.

قال: «وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية» أي: إذا خُوِّفوا بالله خافوا، وإذا ذكّروا بالله تذكّروا، وإذا قيل لهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ خافوا من الله عزّ وجلّ وأشفقوا من عذابه، إذا وُعظوا وذُكِّروا فإنهم يخشون الله سبحانه وتعالى، بخلاف الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِّرُواْ لَا يَذْكُرُونَ﴾، وقوله تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَن يَخْشَىٰ ﴿١٠﴾ وَيَتَجَنَّبُهَا ٱلْأَشْقَى ﴿١١﴾ ٱلَّذِى يَصْلَى ٱلنَّارَ ٱلْكُبْرَىٰ﴾، وقال تعالى: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، فإن المؤمن ينتفع بالموعظة والتذكير، ويخاف من الله سبحانه وتعالى إذا ذُكّر به وخُوِّف به، وهذه علامة الإيمان؛ أما المنافق فهو وإن ادّعى الإيمان فإنه إذا ذُكِّر بالله ازداد عُتُوًّا ونفورًا وازداد طُغيانًا فتأخذه العزة بالإثم.

﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ القرآنية ﴿زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ وهذه علامة الإيمان؛ أن المؤمن إذا تُليت عليه آيات الله وسمع القرآن يزيد إيمانه ويقينه، وينتفع بالقرآن الكريم، خلاف المنافق؛ فإنه إذا تُليَ عليه القرآن لا يستفيد منه شيئًا، كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ هذا محل الشاهد من الآية للباب، فهي مثل الآية التي قبلها: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ﴾.

قال: «وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ الآية» هذا خطاب من الله سبحانه وتعالى لنبيّه محمد ﷺ.

فقوله: «يا أيها النبي» ناداه بصفته الكريمة: ﴿ٱلنَّبِىُّ﴾، والله تعالى لم يناد محمدًا باسمه أبدًا في القرآن بل يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، فيناديه باسم

....

النبوة وباسم الرسالة تكريمًا وتشريفًا له ﷺ.

أما الإخبار عنه فإن الله يذكره باسمه، كقوله: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾، فهذا من باب الإخبار، فإذا جاء باب الإخبار يأتي باسمه ﷺ، وإذا جاء بالنداء فيناديه بصفاته الكريمة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾.

ولذلك: عاب الله على الأعراب الذين وقفوا على الحُجُرات وقالوا: يا محمد؛ اخرج إلينا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَرْفَعُوٓا۟ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ وَلَا تَجْهَرُوا۟ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾، ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ فيجب التأدب مع الرسول ﷺ حيًا وميتًا.

قوله: ﴿حَسْبُكَ ٱللَّهُ﴾ ﴿حَسْبُكَ﴾ يعني: كافيك، فالحسب هو: الكافي.

﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: وحسب من اتبعك من المؤمنين؛ فالـ (واو) عاطفة، ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوف على ضمير المخاطَب المضاف إليه في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾: حسبك وحسب من اتبعك، فحذف المضاف في الكلمة الثانية اعتمادًا على ما جاء في الأولى من باب الاختصار والإيجاز؛ فقوله: ﴿وَمَنِ﴾ (الواو) عاطفة و﴿مَنِ﴾ في محل جر، عطف على ضمير المخاطَب المضاف إليه في قوله: ﴿حَسْبُكَ﴾، هذا هو الصواب الذي رجّحه الإمام ابن القيّم وأبطل ما سواه، فليس ﴿وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ﴾ معطوف على الله، فيكون مرفوعًا.

قوله: «﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾» أي: لا على غيره.

«﴿فَهُوَ﴾» أي: الله سبحانه وتعالى.

«﴿حَسْبُهُۥٓ﴾» أي: كافيه.

فهذا فيه: ثمرة التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وأن الله يكفي من توكّل عليه،

٩٠) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالَها إبْرَاهِيمُ ﷺ حِينَ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وقَالَها مُحَمَّدٌ ﷺ حِينَ قَالُوا لَهُ: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ . رَواهُ البُخَارِيُّ والنَّسَائِيُّ.

ومن كان الله كافيه فإنه هو الرابح والمفلح في الدنيا والآخرة، ولا يخاف من غيره أبدًا، إنما يخاف من الله سبحانه وتعالى.

٩٠) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث ابن عباس قال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم.

قالها إبراهيم، فأنجاه الله من النار حين ألقاه النمرود، وقال: ﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ فكفاه شرها وشرهم ونجاه منهم، وصارت آية معجزة تدل على صدق رسالته، وقال محمد ﷺ بعد أحد حين قالوا له: إن المشركين قد جمعوا لكم ليكروا عليكم ثانية؛ فقال: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾؛ فكفاه الله.

وهكذا ينبغي للمسلم أن يقولها عند الشدائد، لكن هذا لا يمنع من الأخذ بالأسباب؛ لأن النبي قالها وقد لبس الدرع وحمل السلاح ووضع الخوذة على رأسه وكذلك فعل أصحابه، ويوم الأحزاب حفر الخندق قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في أثر ابن عباس رضي الله عنهما: «قالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾».

وهذا في نص القرآن لما انصرف أبو سفيان من أحد أراد أن يرجع إلى النبي ﷺ وأصحابه ليقضي عليهم بزعمه، فلقي ركبًا، فقال لهم: إلى أين تذهبون؟ قالوا: نذهب إلى المدينة. فقال: بلغوا محمدًا وأصحابه أنا راجعون إليهم فقاضون عليهم. فجاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم، فقال رسول الله ﷺ ومن معه: حسبنا الله ونعم الوكيل. وخرجوا في نحو سبعين راكبًا، حتى بلغوا حمراء الأسد، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين،

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: أَنَّ التَّوَكُّلَ مِنَ الفَرَائِضِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّهُ مِنْ شُرُوطِ الإِيمَانِ.

«الثَّالِثَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الأَنْفَالِ.

«الرَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ الآيَةِ فِي آخِرِهَا.

حيث اعتمدوا عليه تعالى.

قوله: «قال لهم الناس». أي الركب.

قوله: «إن الناس» أي: أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس هنا يُمثِّل بها الأصوليون للعام الذي أريد به الخصوص.

قوله: «حسبنا» أي: كافينا وهي مبتدأ، ولفظ الجلالة خبره.

قوله: ﴿وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾. ﴿نِعْمَ﴾: فعل ماض، ﴿ٱلْوَكِيلُ﴾: فاعل، والمخصوص محذوف تقديره: هو، أي: الله، والوكيل: المعتمد عليه سبحانه...

فيه مسائل:

الأولى: أن التوكل من الفرائض. ووجهه أن الله علق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: أنه من شروط الإيمان. تؤخذ من قوله تعالى: ﴿إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾. وسبق تفسيرها.

الثالثة: تفسير آية الأنفال. وهي قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية، والمراد بالإيمان هنا الإيمان الكامل، وإلا، فالإنسان يكون مؤمنًا وإن لم يتصف بهذه الصفات، لكن معه مطلق الإيمان، وقد سبق تفسير ذلك.

الرابعة: تفسير الآية في آخرها، أي: آخر الأنفال. وهي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، أي: حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين، وهذا الراجح على ما سبق.

«الخَامِسَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الطَّلَاقِ.

«السَّادِسَةُ»: عِظَمُ شَأْنِ هَذِهِ الكَلِمَةِ، وأَنَّهَا قَوْلُ إِبْرَاهِيمَ ومُحَمَّدٍ ﷺ فِي الشَّدَائِدِ.

الخامسة: تفسير آية الطلاق. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾، وقد سبق تفسيرها.

السادسة: عظم شأن هذه الكلمة، وأنها قول إبراهيم عليه السلام ومحمد ﷺ في الشدائد. يعني قول: ﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وعن ابن عباس» هو: عبد الله بن عباس، حَبْرُ الأمة، وترْجُمان القرآن.

«قال: «﴿حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾» قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلْقِيَ في النار، وقالها محمدٌ ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا﴾ الآية» هذه كلمة عظيمة قالها الخليلان: إبراهيم ومحمد- صلى الله عليهما وسلم- في أضيق الأحوال وأحرج المواقف، وهكذا الأنبياء عند تأزُّم الأمور؛ لا يعتمدون إلَّا على الله سبحانه وتعالى، ولا يلجئون إلَّا إليه، وتزيد رغبتهم في الله عند الشدائد، ويُحسنون الظن بالله سبحانه وتعالى دائمًا وأبدًا.

فالأنبياء وأتباعهم لا يعتمدون إلَّا على الله، خصوصًا عند المضائق وتأزُّم الأمور؛ يتوكّلون على الله ولا يضعُفون أو يخضعون لغير الله سبحانه وتعالى، أو يتنازلون عن شيء من عقيدتهم ودينهم أبدًا.

قوله: «قالها إبراهيم عليه السلام حين أُلقيَ في النار». إبراهيم عليه الصلاة والسلام بعثه الله في قوم وثنيِّين في أرض (بابل)، يعبدون الكواكب، ويبنون لها الهياكل، وينحتون الأصنام التي على صورها، وكان أبوه يصنع الأصنام، ويبيعها على النّاس ويأكل من ثمنها.

فبعث الله إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- في هذه الأمة الوثنية يدعوها إلى التّوحيد وإخلاص العبادة لله سبحانه وتعالى، ويُنكر عليهم عبادة الأصنام، وبدأ بأبيه وقال: ﴿يَـٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾ يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى

....

مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ ﴾، انظر التلطُّف، يكرِّر: يا أبت، يا أبت. وهكذا الداعية يتلطَّف بالمدعو، كما قال تعالى: ﴿فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى﴾، لا يأتيه بعنف وقسوة وشدة، ويقول: هذا غَيْرة لله.

«حين ألقي في النار» أي: قال هذه الكلمة حينما ألقاه قومه في النار انتصارًا لآلهتهم، فقال الله للنار: ﴿كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾.

والشاهد في قوله: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾، فهذا فيه: التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وبيان ثمراته، وأن ثمرة التوكُّل على الله حوّلت النار إلى بردٍ وسلام على إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

قوله: «وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ الآية» لَمّا حصلت غزوة بدر في السنة الثانية من الهجرة، وانتصر المسلمون فيها، وقتلوا صناديد الكفار ورؤساءهم، وغَنِموا أموالهم؛ عند ذلك تشاور المشركون في مكة بقيادة أبي سفيان بن حرب، وأرادوا غزو رسول الله ﷺ انتقامًا لرؤسائهم الذين قُتلوا في بدر، ولآبائهم ولأموالهم التي أُخذت، فاجتمعوا بقيادة أبي سفيان بن حرب، وجاءوا بجيوش عظيمة ونزلوا عند أحد، وهو الجبل الذي يقع شمالي شرق المدينة، فخرج إليهم رسول الله ﷺ بأصحابه بعد التشاوُر معهم: هل يخرج إليهم، أو يبقى في المدينة؟

فكان الرسول ﷺ يميل إلى البقاء في المدينة، وهو رأي عبد الله بن أُبي، ولكنّ الصحابة الذين لم يحضروا بدْرًا ندِموا ندامة شديدة وعزّموا على الرسول ﷺ أن يخرج إليهم ليخرجوا كما خرج إخوانهم في بدر، ليستدركوا ما حصل وما فات عليهم في بدر.

فالرسول ﷺ نزل على رغبة هؤلاء الصحابة وخرج، وخرج المسلمون معه، ورجع عبد الله بن أبي المنافق مع جماعة من المنافقين، وانخذل من العسكر.

فخرج الرسول ﷺ بأصحابه وعسكر عند أحد، ونظّم أصحابه، وجعل جماعةً

....

من الرُّماة على الجبل ليحموا ظهور المسلمين أن يأتيهم الكفّار من الخلف.

ثمّ دارت المعركة وصار النصر للمسلمين، فصاروا يجمعون المغانم، فلما رأى الذين على الجبل أن أصحابهم يجمعون المغانم ظنوا أن المعركة قد انتهتْ؛ أرادوا النزول من الجبل ليشاركوا في جمع الغنائم، فمنعهم قائدهم عبد الله بن جُبَيْر، لأن الرسول ﷺ قال لهم: «لا تتركوا الجبل سواء انتصرنا أو هُزمنا»، ولكنهم رضي الله عنهم اجتهدوا ونزلوا من الجبل، وأما رئيسهم فبقي طاعةً لرسول الله ﷺ.

فلما رأى خالد بن الوليد- وكان يومَ ذاك على الشرك- الجبل قد فرغ، وكان قائدًا محنَّكًا يعرف السياسة الحربية؛ دار بمن معه من كتيبة الخيل، وانقضّوا على المسلمين من خلف ظهورهم، والمسلمون لم يشعروا، فدارت المعركة من جديد، وعاقب الله المسلمين بسبب هذه المخالفة التي حصلتْ من بعضهم والعقوبة شملت المخالفين وغير المخالفين، لأن العقوبة إذا نزلت تَعُمّ، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾.

فدارت المعركة من جديد، وأصاب المسلمين ما أصابهم من القرْح، واستُشهد منهم سبعون من خيار الصحابة من المهاجرين والأنصار، وعلى رأسهم حمزة بن عبد المطّلب عم الرسول ﷺ، بل إن الرسول ﷺ أصابه ما أصابه؛ فكُسِرتْ رَباعيّته، وشُجَّ في رأسه، وسقط في حفرة، وأُشيع أنه قد مات. فأصاب المسلمين مصيبة عظيمة، ولكن أهل الإيمان لا يتغيّر موقفهم ولا يتزحزح أبدًا مهما بلغ الأمر، لا تضعُف عزيمتهم، اجتمعوا حول الرسول ﷺ يَذُبُّون عنه، ويحمونه من سهام المشركين، والمعركة لا تزال مستمرة، والرسول مشجوج، والمِغْفَر قد هشم على رأسه ﷺ.

ثمّ انتهت المعركة، وأُعلن أنّ محمدًا ﷺ لم يُقتل، فحينئذ فرح المسلمون فرحًا شديدًا، واغتاظ المشركون غيظًا شديدًا.

فانصرف المشركون إلى مكّة، والنبي ﷺ أمر أصحابه أن يدفنوا الشهداء، وأن يدفنوا الاثنين والثلاثة في قبرٍ واحد، لكثرة الأموات، ولضعف المسلمين في هذه

....

الحالة، فدفنوهم في مكان الشهداء المعروف عند أحد، وحملوا الجرْحى إلى المدينة.

ولَمَّا وصلوا إلى المدينة جاءهم مندوب من أبي سفيان بأنه سيعيد الكرّة عليهم، ويرجع عليهم ويستأصل بقيّتهم، فما زادهم ذلك إلَّا إيمانًا، وأمر الرسول ﷺ الذين خرجوا معه إلى أُحُد أن يخرجوا ولا يخرج معهم غيرهم، فخرجوا مع الرسول ﷺ بجراحهم ونزلوا في مكان يقال له: (حمراء الأسد)- قريب من المدينة - ينتظرون الكفّار.

لما بلغ أبا سفيان ومن معه أن الرسول ﷺ خرج في أَثَرهم وفي طلبهم أصابهم الرعب، وقالوا: ما خرجوا إلَّا وفيهم قوة. فمضوا إلى مكة خائفين من الرسول ﷺ، ورجع المسلمون إلى المدينة سالمين.

وأنزل الله سبحانه وتعالى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعۡدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلۡقَرۡحُۚ لِلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ مِنۡهُمۡ وَٱتَّقَوۡاْ أَجۡرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ﴾.

هذا قول أبي سفيان أننا نأتي ونقضي على بقيّتهم ﴿فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُواْ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ لَّمۡ يَمۡسَسۡهُمۡ سُوٓءٞ وَٱتَّبَعُواْ رِضۡوَٰنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضۡلٍ عَظِيمٍ﴾.

هذه ثمرات التوكُّل على الله سبحانه وتعالى، وهذه ثمرات الاعتماد على الله، كما صارت النار برْدًا وسلامًا على إبراهيم؛ صارت هذه المعركة وهذه التخويفات بردًا وسلامًا على صحابة رسول الله ﷺ.

المسألة الأولى: يؤخَذ من هذه الآيات وأثر ابن عباس رضي الله عنهما أن التوكُّل على الله عبادة يجب إخلاصها لله سبحانه وتعالى، وأن التوكُّل من أعظم أنواع العبادة.

المسألة الثانية: التوكُّل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلَّا الله شركٌ أكبر.

المسألة الثالثة: يؤخَذ من هذه النصوص: أنّ التوكُّل على الله شرط في صحّة

٩١) ٣٤-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٨].

وَقَوْلُهُ: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

الإيمان لقوله تعالى: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾، وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾؛ فدلّ على أن التوكل على الله شرطٌ لصحّة الإيمان.

المسألة الرابعة: يُؤخذ من هذه النصوص: أن الإيمان يزيد وينقص كما هو مذهب أهل السنّة والجماعة خلافًا للمرجئة الذين يقولون: الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وجوب الأخذ بالأسباب مع التوكُّل على الله سبحانه؛ لأنه لَمّا ذكر التوكُّل على الله ذكرت الأعمال، فقال: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾، فالتوكُّل على الله لا يكفي، لا بد من الأعمال الصالحة، لا بد من الصلاة والصيام والحج والجهاد في سبيل الله، وفعل الأسباب التي تنفع مع التوكُّل على الله سبحانه وتعالى.

٩١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾.

﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾.

هذا الباب لبيان تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، وبيان بعض هذه الكبائر.

فالأمن من مكر الله من الكبائر، وهو يفضي إلى التساهل في محارم الله؛ لأن من أمن مكر الله ساءت أعماله وأخلاقه وتصرفاته، ولم يخف الله، والقنوط هو اليأس من رحمة الله، كذلك، فإنه يسوء ظنه بالله، وتنكسر نفسه وتحترق، والواجب

....

أن يكون المسلم بين الأمرين؛ فيرجو الله ويخاف ذنوبه ومعاصيه فلا يغرق في المعاصي، ويأمن مكر الله، وكذلك لا ييأس من رحمة الله، بل يكون كالطير بين الجناحين، وفضل بعض العلماء جانب الخوف في حال الصحة؛ لأنه أقدر على المعاصي وجانب الرجاء في حال المرض؛ لأنه يضعف من الأعمال والطاعات والأصل أن يكون بينهما.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٧، ٩٨، ٩٩].

فقوله: ﴿وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم، وأن الخائف لا ينام، وقوله: ﴿ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾ يدل أيضًا على كمال الأمن والرخاء وعدم الضيق، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى - في رابعة النهار - يلعبون.

قوله: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾. الاستثناء للحصر، وذلك لأن ما قبله مفرغ له، فالقوم فاعل، والخاسرون صفتهم.

وفي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ دليل على أن لله مكرًا، والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث: «الحرب خدعة»(١).

وأما الخداع، فهو كالمكر يوصف به حيث يكون مدحًا، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء: ١٤٢]، والمكر من الصفات الفعلية، لأنها تتعلق بمشيئة الله - سبحانه.

﴿وَمَن﴾: اسم استفهام، لأن الفعل بعدها مرفوع، ثم إنها لم تكن لها جواب،

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد / باب الحرب خدعة (٢٨٠٥)، ومسلم: كتاب الجهاد / باب جواز الخداع في الحرب (٧٧٣٩).

....

والقنوط: أشد اليأس، لأن الإنسان يقنط ويبعد الرجاء والأمل، بحيث يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه.

قوله: ﴿مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦ﴾. هذه رحمة مضافة إلى الفاعل ومفعولها محذوف، والتقدير (رحمة ربه إياه).

قوله: ﴿إِلَّا ٱلظَّـٰلِمُونَ﴾. إلا أداة حصر، لأن الاستفهام في قوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ﴾ مراد به النفي، و﴿ٱلضَّآلُّونَ﴾ فاعل يقنط.

والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون، والضال: فاقد الهداية، التائه الذي لا يدري ما يجب لله سبحانه، مع أنه سبحانه قريب الغيَر، ولهذا جاء في الحديث: «عجب ربنا من قنوط عباده، وقرب غيره، ينظر إليكم أزلين قنطين، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب»[١].

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب وضعه المصنف رحمه الله في «كتاب التوحيد» لأن الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته ينقِّصان التّوحيد، ويُنافيان كماله، وهذا الكتاب كله في موضوع التّوحيد ومكمّلاته وبيان مناقضاته ومنقّصاته.

ومكر الله سبحانه وتعالى هو: إيصال العقوبة إلى من يستحقُّها من حيث لا يشعر. وهو عدلٌ منه سبحانه وتعالى، والله تعالى يقول: ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ فالمكر في حق الله سبحانه وتعالى عدل وجزاء يحمد عليه.

أما المكر من المخلوقين فهو مذموم لأنه بغير حق.

والمكر من الله نظير الاستهزاء: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾، ونظير السخرية: ﴿فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ﴾، ونظير الكيد: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾، ونظير النسيان في مثل قوله: ﴿نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾.

---

(١) الإمام أحمد في «مسنده» (٤/١١، ١٢)، وابن ماجه (المقدمة ١/٦٤)، وابن أبي عاصم في «السنة» (٥٥٤).

....

فهذه أمور تُنسب إلى الله جل وعلا لأنها من باب المقابلة والجزاء، فهي عدلٌ منه سبحانه وتعالى، حيث إنه ينزّلها فيمن يستحقُّها، فهي عدلٌ منه سبحانه؛ بخلاف هذه الصفات من المخلوقين فإنها مذمومة؛ لأنها في غير محلها؛ ولأنها ظلمٌ للمخلوقين.

قوله تعالى: «﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ﴾» هذه الآية في سِياق ما ذكره الله عن الأمم الكافرة التي أحلّ الله بها عقوباته من قوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وقوم لوط، وقوم شعيب، الذين ذكرهم الله في سورة الأعراف، ثمّ قال: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ﴾، ﴿بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ﴾ الشدائد من الجوع والخوف والقحط وغلاء الأسعار، يفعل الله ذلك بهم لعلهم يدعونه، ولعلهم يرجعون إلى الله ويتوبون، ويعلمون أن ما أصابهم بسبب ذنوبهم؛ لكنهم لم يرجعوا.

﴿حَتَّىٰ عَفَواْ﴾ يعني: حتى كثروا، وزادت قوتهم، ونموا وصار لهم قوة، واغتروا بهذه النعمة؛ فهم لم يتوبوا عند النقمة، ولم يشكروا عند النعمة.

﴿وَّقَالُواْ قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا ٱلضَّرَّآءُ وَٱلسَّرَّآءُ﴾ قالوا: هذه الأمور تجري عادة، مرّة رخاء ومرّة شدة، لم يُرْجِعوا الأمر إلى الله سبحانه وتعالى ويعلموا أن ما أصابهم من العقوبات بسبب ذنوبهم وأن ما أصابهم من النعمة فهو فضلٌ من الله؛ بل نسبوا هذا إلى العادة.

﴿فَأَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ هذا هو المكر، وهو: أن الله أخذهم في مأمنهم حيث لم يتوقعوا العقوبة.

وفي هذا تحذير لنا من الله سبحانه وتعالى أننا لا نغتر بهذه النعم، وهذه الثروات، وهذه السَّعَة؛ فنغفلُ عن شكر الله عزّ وجلّ، ولا نعمل بطاعة الله، ولا نخاف من العقوبة ومن زوال هذه النعم.

ثمّ قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ﴾؛ فالنعم إذا كانت مع المعاصي

....

فهي استدراج، وإذا كانت مع الطاعات فإنها نعمةٌ من الله تعالى وعون على طاعته.

ثمّ قال تعالى: «﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾» هذا استنكار من الله سبحانه وتعالى على من يغترّ بالنعم وينسى العقوبة أن يأخذهم على غِرّة وهم آمنون منعّمون، ثمّ ينقلهم من النعمة إلى النِّقْمة، ومن الصحة إلى الألم والمرض، ومن الوجود إلى العدم.

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ أي: لا يأمن عقوبة الله التي تنزل على خُفْية ومن غير تأهُّب ومن غير توقع لها.

﴿إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ الذين حقّتْ عليهم الخسارة التي لا رِبْح معها أبدًا ولا نجاة منها أبدًا.

والشاهد في قوله: ﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِ﴾ فهو استفهام إنكار على من يقع منه مثل ذلك.

قال: «وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ﴾»هذا استفهام إنكار من الله سبحانه وتعالى، وهو بمعنى النفي، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه.

«﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾» التائهون عن الحق.

وهذه الجملة قالها إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- لَمّا جاءته الملائكة في صورة أضياف يريدون إهلاك قوم لوط، وكان إبراهيم- عليه الصلاة والسلام- كريمًا مِضْيافًا، فلما جاءه هؤلاء الرجال بادر إلى ضيافتهم وجاء بعجل حنيذ وفي آية أخرى بعجل سمين، وقرّبه إليهم، لكنهم لم يأكلوا لأنهم ملائكة، والملائكة لا يأكلون؛ فإبراهيم خاف أنهم أعداء، لكنهم طمأنوه، وأخبروه بمهمتهم، وأنهم جاءوا لإهلاك هذه القرية.

وزادوه أيضًا بالبشرى بالولد، وكان لا يُولد له فاستبعد ذلك وقالوا له: ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْقَٰنِطِينَ﴾.

«﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾» هذا محلّ الشاهد، أي: لا أحد يقنط من رحمة ربه «﴿إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾» عن الحق؛ لأن المؤمنين -وخاصّة الأنبياء-

٩٢) عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ سُئِلَ عَنِ الكَبَائِرِ، فَقَالَ: «الشِّرْكُ بِاللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ».

وعَنْ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: «أَكْبَرُ الكَبَائِرِ: الإِشْرَاكُ بِاللهِ، والأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، والقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، واليَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ» رَوَاهُ عَبْدُ الرَّزَّاقِ.

يعلمون من قدرة الله سبحانه وتعالى وفضله وإحسانه ما لا يعلمه غيرهم، ويعلمون من قُرب رحمته وفرجه ما لا يعلمه غيرهم.

ففي هذه الآية: أن الذي يقنط من رحمة ربه يكون من الضالين، والضلال ضدُّ الهدى.

وفي هاتين الآيتين: مشروعية الجمع بين الخوف والرجاء.

قال أهل العلم: «فيجب على المؤمن أن يكون معتدلاً بين الخوف والرجاء، لا يرجو فقط حتى يأمن من مكر الله، ولا يخاف فقط حتى ييأس من رحمة الله، بل يكون معتدلاً».

٩٢) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** حديث ابن عباس مرفوعًا سئل الرسول عن الكبائر؛ فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله».

هذا يروى مرفوعًا وموقوفًا والموقوف له حكم الرفع؛ لأنه لا يقال بالاجتهاد، وربما قالها ابن عباس عن نفسه اجتهادًا واستدلالاً بالنصوص، والكلام صحيح على كل حال.

قال ابن مسعود: أكبر الكبائر الإشراك بالله والأمن من مكر الله والشرك أعظم الذنوب، وبه تحبط جميع الأعمال، وكذلك القنوط، وهو شدة اليأس، وهو من الكبائر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَقۡنَطُ مِن رَّحۡمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾.

هذا استفهام بمعنى النفي أي: أن هذا من صفاتهم فقط، والكبائر الأخرى غير الشرك لا تحبط به الأعمال.

....

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ووجه ما قاله: أن المعاصي قسمان:

قسم نهي عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد، فعقوبة هذا تأتي بالمعنى العام للعقوبات، وهذه المعصية مكفرة بفعل الطاعات، كقوله ﷺ: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر»(١). وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة(٢)، والوضوء من تكفير الخطايا(٣)، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة، كاللعن، أو الغضب، أو التبرؤ من فاعله، أو الحد في الدنيا، أو نفي الإيمان، وما أشبه ذلك، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها.

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها، خلافًا لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط، ولذلك نقصت بركة علمهم.

قوله: «الشرك بالله». ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الأصغر والأكبر، وهو الظاهر، لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر، قال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا »، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقًا.

قوله: «اليأس من روح الله». اليأس: فَقْدُ الرجاء، والروح بفتح الراء قريب من معنى الرحمة، وهو الفرج والتنفيس، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة.

قوله: «الأمن من مكر الله». بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾

---

(١) مسلم: كتاب الطهارة / باب الصلوات الخمس (٣٤٤).

(٢) البخاري: كتاب العمرة / باب وجوب العمرة وفضلها (١٦٨٣)، ومسلم: كتاب الحج / باب فضل الحج والعمرة (١٣٤٩).

(٣) مسلم: كتاب الطهارة / باب فضل الوضوء والصلاة عقبه (٣٣٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ الأَعْرَافِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الحِجْرِ.

«الثَّالِثَةُ»: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ أَمِنَ مَكْرَ اللهِ.

«الرَّابِعَةُ»: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِي القُنُوطِ.

[الأعراف: ١٨٢- ١٨٣].

قوله: «القنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله». المراد بالقنوط: أن يستبعد رحمة الله ويستبعد حصول المطلوب، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك، لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود.

والخلاصة: أن السائر إلى الله يعتريه شيئان يعوقانه عن ربه، وهما الأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يجب، تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه، وأما الأمن من مكر الله، فتجد الإنسان مقيمًا على المعاصي مع توافر النعم عليه، ويرى أنه على حق فيستمر في باطله، فلا شك أن هذا استدراج.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الأعراف. وهي قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية الحجر. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾، وقد سبق تفسيرها.

الثالثة: شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله. وذلك بأنه من أكبر الكبائر، كما في الآية والحديث، وتؤخذ من الآية الأولى، والحديثين.

الرابعة: شدة الوعيد في القنوط، تؤخذ من الآية الثانية والحديثين.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن ابن عبّاس أن

....

رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟» أي: عن الذنوب الكبائر؛ جمع كبيرة وهي: العظيمة.

فقال: «الإشراك بالله» هذا أكبر الكبائر. فأكبر الكبائر: الإشراك بالله عزّ وجلّ، وهو: عبادة غير الله بأيٍّ نوع من أنواع العبادة وأيًا كان هذا المعبود صنمًا أو شجرًا أو حجرًا أو حيًّا أو ميّتًا أو قبرًا أو غير ذلك.

وهذا هو الذي لا يُغفر إلّا بالتوبة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾، وهذا هو الذي يحبط الأعمال جميعها، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾.

قوله ﷺ: «واليأس من رَوْح الله» هذا مثل قوله تعالى: «﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾»؛ فالقنوط من رحمة الله من أكبر الكبائر، لأن فيه إساءة ظنٍّ بالله سبحانه وتعالى، ولأنه يحمل صاحبه على عدم التوبة لأنه يقول: لا يغفر الله لي وإن تبت، والله سبحانه وتعالى يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾ وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾: توبوا إلى الله عزّ وجلّ؛ والتوبة تَجُبُّ ما قبلها مهما كان الذنب الشرك والكفر وقتل النفس والزنا وشرب الخمر وأكل الربا؛ فالتوبة لا يبقى معها ذنب إذا كانت توبة صحيحة، والتائب من الذنوب كمن لا ذنب له: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾، فالكفّار إذا كانوا يُغفر لهم ما قد سلف فكيف بُعصاة المؤمنين إذا تابوا؟! هم أولى بالمغفرة؛ فعَفْوُ الله أعظم من ذنوبهم.

قوله ﷺ: «والأمن من مكر الله» أي: ومن أكبر الكبائر: الأمن من مكر الله. وهذا الحديث رواه البزّار وغيره.

وبعضهم يرى أنه من كلام ابن عبّاس، وأنه موقوف، وبعضهم يضعّفه.

وقد ذكرت لكم أن الشيخ رحمه الله إذا ذكر مثل هذا الحديث الذي في سنده مقال لا يذكره إلّا وقبله أو بعده ما يؤيّده من الآيات أو الأحاديث التي يسوقها في الباب.

....

وهذا الحديث تؤيِّده الآيتان السابقتان: «﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، «﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾»، وكذلك الآيات التي في التحذير من الشرك وأنه أكبر الكبائر.

قال: «وعن ابن مسعود قال: «أكبر الكبائر» هذا فيه دليل على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، والكبائر تختلف، بعضها أكبر من بعض كما في الحديث: أن النبي سُئل أيُّ الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك»، قلت: ثمّ أيٌّ؟ قال: «أن تقتُل ولدك خشية أن يَطْعَم معك»، قلت: ثمّ أيٌّ؟، قال: «أن تُزانيَ بحليلة جارك».

فهذه أعظم الكبائر: الشرك بالله، وقتل النفس التي حرّم الله إلّا بالحق، ولاسيّما قتل القريب، مثل: قتل الابن. كذلك: الزنا بحليلة الجار، فالزنا محرّم عمومًا، وهو كبيرة، ولكن الزنا بحليلة الجار أشد من الزنا بغيرها لحرمة الجيرة، ومِصداق ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَن تَابَ﴾.

«واليأس من روح الله» قال الله سبحانه وتعالى على لسانه نبيه يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، أما المؤمنون فلا ييأسون من روح الله مهما بلغ بهم الكرب والشدة؛ لعلمهم بالله عزّ وجلّ وأسمائه وصفاته، وقُرب فَرَجِه، وقُرب رحمته من عباده؛ فهم لا ييأسون من رَوْح الله مهما اشتدت بهم الخُطوب، وضاق بهم الحال. بل كلما اشتد الخطب عظم رجاؤهم بالله.

ومواقفهم معروفة، كموقف إبراهيم عليه السلام، وموقف يعقوب لَمّا فقد أولاده الثلاثة، وموقف أيّوب عليه السلام الذي بلغ منه الضُّرُّ مبلَغًا شديدًا، لم ييأسوا من رحمة الله.

ومحمد ﷺ لَمّا أُخرِجَ هو وصاحبه أبو بكر يوم الهجرة واختفيا في الغار، وجاء المشركون في طلبهما، ووقفوا على الغار والرسول ﷺ وأبو بكر تحت أقدامهم،

....

يقول أبو بكر: يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موضع قدمه لأبصرنا، قال: «يا أبا بكر، ما ظنُّك باثنين الله ثالثهما؟»، فأعمى الله أبصارهم ولم يروا رسول الله وصاحبه، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾.

ولَمّا خرج إلى الطائف يدعوهم إلى الله، وردّوا عليه ردًّا قبيحًا، وأغروا عبيدهم وسفهاءهم برميه بالحجارة، هو ومولاه زيد بن حارثة؛ ورجع وأهل مكة كلهم أعداء له؛ فجاء من الطائف وقد قابلوه أسوأ مقابلة، وأهل مكة -أيضًا- خرج منهم لشدّة أذاهم، فقال له مولاه زيد بن حارثة: يا رسول الله، كيف ترجع إليهم وهم قد أخرجوك، قال: «يا زيد، إن الله جاعلٌ لِمَا ترى فرجًا ومخرَجًا».

هكذا مواقف أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام-، لا ييأسون مهما بلغ الأمر ومهما بلغت الشدة لعلمهم برحمة الله عزّ وجلّ وقدرة الله عزّ وجلّ، وعلم الله عزّ وجلّ بحالهم وأنه لا تخفى عليه خافية ولا تخفى عليه أحوالُ عباده أبدًا، ولكنه يبتليهم ويمتحنهم ليكفِّر عنهم سيِّئاتهم وليختبر إيمانهم وليعظُم رجاؤهم بالله عزّ وجلّ وليتوبوا إلى الله عزّ وجلّ. وله الحكمة في ذلك سبحانه وتعالى.

قوله: «رواه عبد الرزاق» عبد الرزاق بن هَمَّام الصنعاني، الإمام الجليل، شيخ العلماء والمحدِّثين، روى عنه: الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهوَيْه، وغيرهما من كبار الأئمة- رحمهم الله.

وقوّى إسناد هذا الحديث: ابن جرير الطبري.

فهذه النصوص في هذا الباب يُستفاد منها الأحكام التالية:

أولاً: تحريم الأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله، وأنهما ينقِّصان كمال التّوحيد وقد ينافيان التّوحيد.

ثانيًا: أنه يجب على المسلم أن يجمع بين الخوف والرجاء، فلا يخاف فقط

٩٣) ٣٥-بابٌ

مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ الصَّبْرُ عَلَى أَقْدَارِ اللهِ.

وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قالَ عَلْقَمَةُ: هُوَ الرَّجُلُ تُصِيبُهُ المُصِيبَةُ فَيَعْلَمُ أَنَّهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ، فَيَرْضَى وَيُسَلِّمُ.

ولا يرجو فقط، وإنما يكون خائفًا راجيًا دائمًا وأبدًا، هذا هو التّوحيد، وهو صفة أولياء الله.

ثالثًا: في هذه النصوص أن المعلّم والداعية يبدأ بالأهم فالأهم.

رابعًا: في الحديثين: أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر، وقد عرّف العلماء الكبيرة بأنها: «ما رُتِّبَ عليها حدٌّ في الدنيا، أو وعيدٌ في الآخرة، أو خُتم بغضب، أو لعنة، أو نار، أو تبرّأ النبي ﷺ من صاحبها، بأن قال: «ليس منا من فعل كذا»، أو نفى عنه الإيمان كقوله ﷺ: «لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن». هذه ضوابط الكبيرة.

أما الصغائر فهي ما ليس كذلك مما حرّمه الله ونهى عنه، ولم يصل إلى حدّ الكبيرة.

٩٣) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف أن يبين أن الصبر على ما يقدره الله من الإيمان، وأن المؤمن لا ينبغي له أن يجزع عند المصيبة في نفسه أو ولده أو ماله أو أهله، بل يتحمل قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَـٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓا۟ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ هذا بعد قوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ﴾ وقال: ﴿وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّـٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ وفي الحديث: «ومن يتصبر يصبره الله، وما أعطي أحد عطاء خيرًا وأوسع من الصبر»[1].

---

(١) رواه البخاري (١٤٦٩)، ومسلم (١٠٥٣).

....

وقوله: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة.
أي: يؤمن بأن الله قضى وقدر المصيبة فيحتسب، ولا يجزع وبهذا يهدي الله قلبه للخير، ويطمئنه ويسدده بسبب عمله الطيب، قال علقمة: هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى، ويسلم، وقبلها: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصبر ثلاثة أنواع، أعلاها الصبر على طاعة الله، ثم الصبر عن معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله.

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به، وإلا، فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة، إذا فتن الإنسان مثلًا بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة، فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس، قد يصلي الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا.

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة، فقد يموت له مثلًا قريب أو صديق أو عزيز عليه جدًّا، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة.

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول: إن هذا الترتيب فيه نظر، إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطاعات، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق، فنقول: نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر.

قوله: «على أقدار الله». جمع قدر وتطلق على المقدور وعلى فعل المقدر، وهو الله تعالى، أما بالنسبة لفعل المُقدِر، فيجب على الإنسان الرضا به والصبر، وبالنسبة للمقدور، فيجب عليه الصبر ويستحب له الرضا.

قوله: ﴿يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ يرزقه الطمأنينة، وهذا يدل على أن الإيمان يتعلق بالقلب، فإذا اهتدى القلب اهتدت الجوارح، لقوله ﷺ: «إن في الجسد مضغة، إذا صلحت

....

صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»[1].

قوله: «قال علقمة». هو من أكابر التابعين.

قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة.. » إلخ. وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان، لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله، فيرضى ويسلم، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أن الصبر على أقدار الله من مكمِّلات التّوحيد، وأنّ عدم الصبر على أقدار الله يكون من منقِّصات التّوحيد؛ وهذا الكتاب المبارك صنفه الشيخ في بيان التّوحيد ومكمِّلاته وفي بيان منافياته ومنقِّصاته.

فقوله: «بابٌ» مرفوع على أنه مبتدأ محذوف تقديره: هذا بابٌ.

«من الإيمان بالله» أي: من خصال الإيمان بالله، ومن شعب الإيمان بالله عزّ وجلّ: الصبر على أقداره سبحانه وتعالى، أي: أن ذلك يدخل في الإيمان بالله، الذي هو أول أركان الإيمان الستة.

والإيمان- كما عرّفه أهل السنّة والجماعة-: «قول باللسان، وعمل بالأركان» يعني: الجوارح «واعتقاد بالجَنان» يعني: بالقلب «يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية». هذا هو الإيمان.

«الصبر على أقدار الله» الصبر لغة: الحبْس، قال الله تعالى لنبيه: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم﴾ أي: احبسها مع هؤلاء.

وأما في الشرع فالصبر هو: حبس النفس على طاعة الله سبحانه وتعالى وترك معصيته.

فالصبر له مقامٌ عظيمٌ في الدين، ولابد للمؤمن من الصبر لِمَا يواجه في هذه

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه (١٩٤٦)، ومسلم: كتاب المساقاة / باب أخذ الحلال وترك الشبهات (١٥٩٩).

....

الحياة من المشاكل ومن المشاق والصعوبات لكنه يصبر عليها طاعة لله سبحانه وتعالى.

وقوله: «على أقدار الله» أقدار جمع قدر، والقدر: ما قضاه الله سبحانه وتعالى في خلقه، فإن كلَّ شيء يجري في هذا الكون فإنه مقدَّر، ليس هناك شيء يجري بدون تقدير الله سبحانه وتعالى؛ فالله علِمه وقدّره وكتبه ووقّته بوقت يحدُث فيه، فإنه سبحانه وتعالى أول ما خلق القلم قال له: «اكتب»، قال: ما أكتب؟ قال: «اكتب ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة»، فكتب في اللوح المحفوظ كلَّ شيء؛ فما من شيء يجري إلَّا وهو مقدَّرٌ من الله سبحانه وتعالى ومؤقَّتٌ بوقت لا يتقدّم عليه ولا يتأخر عليه ومكتوب في اللوح المحفوظ.

والإيمان بالقضاء والقدر أحد أركان الإيمان الستّة. كما قال جبريل للنبي ﷺ: أخبرني عن الإيمان؛ قال: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»؛ فجعل الإيمان بالقدر ركنًا من أركان الإيمان؛ والله تعالى يقول: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَهُ بِقَدَرٍ﴾ ، وكما في «الصحيح»: «قدر الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وعرشه على الماء». فما من شيء يجري في هذا الكون من صغير أو كبير إلَّا وقد قدّره الله سبحانه وتعالى.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ » هذا بعض آية من سورة التغابُن، وأولها قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ .

فقوله: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ﴾ يعني: أن جميع المصائب التي تنزل بالنّاس من أول الخليقة إلى آخرها، فإن الله قدّرها، ليس هناك مصيبة تحدُث في العالم إلَّا وقد قدَّرها الله سبحانه وتعالى.

﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ أي: بقضائه وقدره؛ لأن إذن الله على نوعين:

إذنٌ قدري كوني، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ

....

ٱللَّهِ﴾ أي: بتقديره ومشيئته.

والنوع الثاني: الإذن الشرعي، مثل: قوله تعالى: ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ أي: بشرعه.

قوله: «قال: علقمة» هو: علقمة النخعي التابعي من كبار التابعين، وأحد النَّخَعيِّين الثلاثة الذين هم:

علقمة، والأسود، وإبراهيم من تلاميذ ابن مسعود.

ومعنى قوله: «هو الرجل تصيبه المصيبة» يعني: تنزل به المصيبة، إما في نفسه وإما في ماله وإما في ولده وإما في أهله وإما في أقاربه، فلا يجزع، ولكن يعلم أنها من عند الله، يعلم أن الله قد قدّرها وقضاها، وما قضاه الله وقدّره فلابد أن يقع...

وقد سمّى الله هذا التسليم وهذا الرضى إيمانًا، فقال: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يعني: يرضى بقضاء الله ويسلِّم له، وهذا هو الشاهد: إن الله سمى الصبر على المصيبة والرضى بقضاء الله وقدره إيمانًا...

فدلّت الآية على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: أن المصائب كلها بقضاء الله وقدره.

المسألة الثانية: أن الرضى بها والصبر عليها من خصال الإيمان، لأن الله سمّاه إيمانًا.

المسألة الثالثة: أنّ ذلك يُثمر هداية القلب إلى الخير وقوة الإيمان واليقين.

قال: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة: أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في النّاس» إلخ.

❁ ❁ ❁

٩٤) وفِي صَحيحِ مُسْلِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيرةَ رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، والنِّيَاحَةُ عَلَى المَيِّتِ».

ولَهُمَا عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ مَرْفُوعًا: «لَيسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ، وشَقَّ الجُيُوبَ، ودَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ».

---

٩٤) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر..» الطعن في الأنساب: أي التنقص في الأنساب تكبرًا وتعاظمًا على الناس واحتقارًا لهم، فهذا من الكفر المنكر أي: شعبة من شعب الكفر وهو كفر دون كفر، وهو من الكفر الأصغر لا الأكبر، وهو من خصال الجاهلية، وفي الحديث السابق: «أربعة في أمتي من أمر الجاهلية»[1] أما إذا قصد بالنسب التعريف بالناس فلا بأس به، ولا يدخل في الحديث.

«النياحة على الميت»: هذا يدل على الجزع، وهو رفع الصوت بالصياح والنياحة فلا يجوز، أما دمع العين وهو البكاء، فلا بأس كما في الحديث: «والعين تدمع والقلب يحزن، ولا نقول إلا ما يرضي ربنا، وإنا على فراقك يا إبراهيم لمحزونون»[2].

حديث ابن مسعود مرفوعًا: «ليس منا من ضرب الخدود أو شق الجيوب أو دعا بدعوى الجاهلية».

وهذا يدل على الجزع أيضًا، وهو من عمل الجاهلية، ويجب الصبر والثبات والعلم بأن الله قدر هذه الأقدار وقسمها، ولابد من الموت، ومع هذا يتعاطى الأسباب الشرعية.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤).

(٢) رواه البخاري (١٣٠٣) بلفظ: «إن العين تدمع...».

. . . .

وفي الحديث: «أنا بريء من الصالقة والحالقة والشاقة»[(١)].

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «كفر». أي: هاتان الخصلتان كفر، ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرًا، كما لا يلزم من وجود خصلتين في الكافر من خصال الإيمان، كالحياء، والشجاعة، والكرم أن يكون مؤمنًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (بخلاف قول رسول الله ﷺ: «بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة » فإنه هنا أتى بال الدالة على الحقيقة، فالمراد بالكفر هنا الكفر المخرج عن الملة، بخلاف مجيء «كفر» نكرة، فلا يدل على الخروج عن الإسلام.

قوله: «الطعن في النسب». أي: العيب فيه، أو نفيه، فهذا عمل من أعمال الكفر.

قوله: «النياحة على الميت». أي: أن يبكي الإنسان على الميت بكاء على صفة نوح الحمام، لأن هذا يدل على التضجر وعدم الصبر، فهو مناف للصبر الواجب.

قوله: «من ضرب الخدود». العموم يراد به الخصوص، أي: من أجل المصيبة.

قوله: «ومن شق الجيوب». هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تسخطًا، وعدم تحمل لما وقع عليه.

قوله: «ودعا بدعوى الجاهلية». دعوى مضاف والجاهلية مضاف إليه، وتنازع هنا أمران:

الأول: صيغة العموم (دعوى الجاهلية)؛ لأنه مفرد مضاف فيعم.

الثاني: القرينة؛ لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم: وا ويلاه ! وانقطاع ظهراه !

---

(١) رواه البخاري (١٢٩٦) تعليقًا، ووصله مسلم (١٠٤).

....

والأولى أن ترجح صيغة العموم، والقرينة لا تخصصه، فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل.

وذكر هذه الأصناف الثلاثة، لأنها غالبًا ما تكون عند المصائب، وإلا، فمثله هدم البيوت، وكسر الأواني، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة.

وهذه الثلاثة من الكبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ من فاعلها.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله ﷺ: «اثنتان» يعني: خَصْلتان.

«في النّاس» في بني آدم حتى ولو كانوا مسلمين فإنه يوجد في بعض المسلمين بعض خصال الجاهلية وبعض خصال الكفر التي لا تخرج من الملة.

«هما بهم كفر» هو كفر أصغر، لأن الكفر إذا نُكِّر فإنه يُراد به: الكفر الأصغر، أما إذا عُرِّف بـ (الألف واللام) فإنه يُراد به: الكفر الأكبر، كما في قوله: «بين العبد وبين الكفر والشرك: تركُ الصلاة»، وليس كلُّ من قام به خصلة من خصال الكفر يكون كافرًا خالصًا، وإنما يكون فيه خصلة من خصال الكفر، كما أنه ليس كلُّ من فيه خصلة من خصال النفاق يكون منافقًا خالصًا، وإنما تكون فيه خصلة من خصال النفاق.

فالخصلة الأولى: «الطعن في النسب» تقدم الكلام عليه في باب سابق.

والخصلة الثانية: «النِّياحة على الميِّت» والنياحة معناها: إظهار الجَزَع على الميت، كما كان أهل الجاهلية يفعلونه.

والمطلوب والواجب: الصبر على موت الأقارب أو موت الأحباب.

ولا يمنع هذا أن الإنسان يتألّم ويبكي، فالبكاء لا مانع فيه، والنبي ﷺ بكى على ابنه إبراهيم، وقال: «إن العين تَدْمَع، والقلب يحزن، ولا نقول إلَّا ما يُرضي ربنا، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون». وهذا من الرحمة، وأيضًا هذا لا يستطيع الإنسان حبسه.

....

قوله: «ولهما» أي: البخاري ومسلم.

«عن ابن مسعود مرفوعًا» أي: إلى النبي ﷺ.

«ليس منا» هذه الكلمة كثيرًا ما تأتي عن الرسول ﷺ على معاص تصدُر من النّاس من باب التحذير منها، مثل قوله: «من غشّنا فليس منا»، وقوله ﷺ: «ليس منا من تشبّه بغيرنا»، ومنه هذا الحديث.

وهذه الكلمة «ليس منا» معناها: البراءة ممّن فعل ذلك، ولكن ليس معناها أنه يخرُج من الإسلام، وإنما معناها: التنفير من هذا العمل. وأحسن ما يُقال فيها: أنها من ألفاظ الوعيد، ولا تُفسّر، لكن مع اعتقاد أنّ هذا لا يدل على الخروج من الدين لأدلّة أخرى دلّت على أن أصحاب الكبائر التي دون الشرك لا يخرجُون من الدين.

والنياحة من الكبائر، لكنها دون الشرك؛ فلا تُخرِج من الدين.

وقوله ﷺ: «من ضرب الخدود» ضرب الخدود جزعًا من المصيبة كفعل الجاهلية. لأن المشروع الصبر، وهذا عكسه، وهذا من باب الغالب.

«وشَقّ الجيوب» أي: جيوب الثياب؛ جزعًا من المصيبة.

«ودعا بدعوى الجاهلية» يعني: نادى عند المصيبة بالألفاظ التي تقولها الجاهلية، والمراد بالجاهلية: ما كان قبل بِعْثة الرسول ﷺ في وقت الفترة. فلا يجوز أن نقول بعد بعثة النبي ﷺ: النّاس في الجاهلية، أو النّاس في جاهلية جهلاء. هذا لا يجوز أبدًا، لأن الله رفع الجاهلية ببعثة الرسول ﷺ، ولكن: قد تبقى خصالٌ من خصال الجاهلية، فيقال- مثلاً-: هذا من الجاهلية، وهذا من خصال الجاهلية. وليس مَنْ قام به خصلة من خصال الجاهلية يكون من أهل الجاهلية. فلا يجوز إطلاق الجاهلية بعد بِعثة النبي ﷺ.

ومن دعوى الجاهلية: أن يتلفّظ بألفاظ الجاهلية، كأن ينادي ويقول: وا عضداه، وا نصيراه، وا كذا وكذا. وكذا إثارة العصبيات والقوميات والحزبيات، وما إلى ذلك.

❁ ❁ ❁

٩٥) وعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وإِذَا أَرَادَ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ» وقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإِنَّ اللهَ تعالَى إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَى، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ» حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ.

---

٩٥) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: عن أنس مرفوعًا: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا وإذا أراد..».

إذا أراد بعبده تكفير السيئات عجل له العقوبة إما بالفقر، وإما بالمرض أو تلف ماله... فيكفر الله بها خطاياه وسيئاته، وإذا أراد الشر أمسك عنه بذنبه؛ فيكون معافى في كل شيء حتى يوافي ذنوبه كلها في الآخرة؛ فيكون أشد من الدنيا.

فكثرة المصائب قد يمحى بها جميع المعاصي والسيئات فعليه بالصبر.

وقال النبي ﷺ: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء..».

أي: كلما عظم البلاء عظم الجزاء، فإذا اشتد المرض كثر فيكون التكفير أكثر، وإذا اشتدت المصيبة في المال وغيره صار الجزاء أعظم والثواب أكثر.

قوله: «وإذا أحب الله قومًا ابتلاهم»: أي: ابتلاهم ليمحص ذنوبهم، ويزيل خطاياهم حتى يلقوه سالمون من الذنوب؛ فيدخلون الجنة من أول وهلة، ومثل هذا حديث «أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل، يبتلى المرء على قدر دينه»(١).

وفي رواية «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل يبتلى المرء على قدر دينه»(٢) فإذا كان دينه قويًا شدد عليه البلاء.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في حديث أنس: «إذا أراد الله

---

(١) رواه أحمد (١/ ١٧٢)، والترمذي (٢٣٩٨)، وعبد بن حميد (١٤٦)، والبيهقي في «السنن» (٣/ ٣٧٢- ٣٧٣).

(٢) رواه ابن ماجه (٤٠٢٤)، والحاكم (٤/ ٣٠٧)، والبخاري في «الأدب المفرد» (٥١٠) وغيرهم.

....

بعبده الخير». الله يريد بعبده الخير والشر، ولكن الشر المراد لله تعالى ليس مرادًا لذاته بدليل قول النبي ﷺ:

«والشر ليس إليك»[(١)]، ومن أراد الشر لذاته كان إليه، ولكن الله يريد الشر لحكمة، وحينئذ يكون خيرًا باعتبار ما يتضمنه من الحكمة.

قوله: «عجل له بالعقوبة في الدنيا». العقوبة: مؤاخذة المجرم بذنبه، وسميت بذلك، لأنها تعقب الذنب، ولكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر.

قوله: «وإذا أراد بعبده الشر، أمسك عنه بذنبه». «أمسك عنه»، أي: ترك عقوبته.

قوله: «حتى يوافي به يوم القيامة». أي: يوافيه الله به: أي: يجازيه به يوم القيامة، وهو الذي يقوم به الناس من قبورهم لله رب العالمين.

قوله: «إن عظم الجزء مع عظم البلاء». أي: يتقابل عظم الجزاء مع البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصبر الإنسان صار الجزاء أعظم، لأن الله عدل لا يجزي المحسن بأقل من إحسانه، فليس الجزاء على الشوكة يشاكها كالجزاء على الكسر إذا كُسر، وهذا دليل على كمال عدل الله، وأنه لا يظلم أحدًا، وفيه تسلية المصاب.

قوله: «وإن الله إذا أحب قومًا ابتلاهم». أي: اختبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية؛ كالأمراض، وفقدان الأهل، أو بما يكلفهم به من الأمور الشرعية، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ﴾ [الإنسان: ٢٣، ٢٤] فذكره الله بالنعمة وأمره بالصبر.

قوله: «فمن رضي، فله الرضا، ومن سخط؛ فله السخط». «من» شرطية، والجواب: «فله الرضا»، أي: فله الرضا؛ من الله وإذا رضي الله عن شخص رضي الناس عنه جميعًا، والمراد بالرضا الرضا بقضاء الله من حيث إنه قضاء الله، وهذا واجب بدليل قوله: «ومن سخط» فقابل الرضا بالسخط، وهو عدم الصبر على ما

---

(١) مسلم: كتاب الصلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل (١٢٩٠).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ التَّغَابُنِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ هَذَا مِنَ الإِيمَانِ بِاللهِ.

«الثَّالِثَةُ»: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ.

«الرَّابِعَةُ»: شِدَّةُ الوَعِيدِ فِيمَنْ ضَرَبَ الخُدُودَ وشَقَّ الجُيُوبَ ودَعَا بِدَعْوَى الجَاهِلِيَّةِ.

«الخَامِسَةُ»: عَلامَةُ إِرَادَةِ اللهِ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ.

«السَّادِسَةُ»: إِرَادَةُ اللهِ بِهِ الشَّرَّ.

«السَّابِعَةُ»: عَلامَةُ حُبِّ اللهِ لِلْعَبْدِ.

«الثَّامِنَةُ»: تَحْرِيمُ السُّخْطِ.

يكون من المصائب القدرية الكونية.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية التغابن. وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾، وقد فسرها علقمة كما سبق تفسيرًا مناسبًا للباب.

الثانية: أن هذا من الإيمان بالله. المشار إليه بقوله: (هذا) هو الصبر على أقدار الله.

الثالثة: الطعن في النسب. وهو عيبه أو نفيه، وهو من الكفر، لكنه لا يُخرج من الملة.

الرابعة: شدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، أو شق الجيوب، أو دعا بدعوى الجاهلية. لأن النبي ﷺ تبرا منه.

الخامسة: علامة إرادة الله بعبده الخير. وهو أن يعجل له الله العقوبة في الدنيا.

السادسة: إرادة الله به الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة.

السابعة: علامة حب الله للعبد. وهي الابتلاء.

الثامنة: تحريم السخط. يعني: مما به العبد، لقوله ﷺ: «ومن سخط، فله

«التَّاسِعَةُ» : ثَوَابُ الرِّضَى بِالبَلَاءِ.

السخط»، وهذا وعيد.

التاسعة: ثواب الرضا بالبلاء. وهو رضا الله عن العبد، لقوله ﷺ: «من رضي، فله الرضا».

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وعن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «إذا أراد الله» إلخ».

قوله ﷺ: «إذا أراد الله بعبده الخير» أي: من علامة إرادة الله بعبده الخير: أن يعجّل له العقوبة على ذنوبه؛ لأن الذنوب تصدُر من الإنسان بكثرة، ليس هناك أحدٌ معصوم إلّا الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فيما عصمهم الله منه، «كلكم خطّاء وخير الخطّائين التوّابون»؛ والإنسان تصدُر منه ذنوب كثيرة ومخالفات؛ فإذا أراد الله بعبده خيرًا عجّل له العقوبة على هذه المعاصي في الدنيا حتى يطهِّره، وحتى ينتقل إلى الدار الآخرة ليس عليه ذنوب فيدخل الجنة.

وقوله ﷺ: «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه» فلا تنزل به عقوبة، مع أنه يعصي ويزني ويخالف أوامر الله سبحانه وتعالى، ومع هذا يُنَعَّم ويُصَحّ في جسمه، ولا يمرض. وهذه علامة شر، من أجل أن تبقى عليه ذنوبه.

«حتى يوافي به يوم القيامة» يعني: يرجع إلى الله في الدار الآخرة وذنوبه عليه لم يُحَطُّ عنه منها شيء، فيعذَّب بها يوم القيامة، فدلّ هذا على أن صحّة الإنسان الدائمة ليستْ علامة خير.

ودلّ هذا على أن الخير والشر كلُّه مقدَّرٌ من الله سبحانه وتعالى وبقضاء الله وقدره، وهو قدّر الشر لحكمة وقدّر الخير لحكمة، لا يقدِّر شيئًا إلّا لحكمة عظيمة، ابتلاءً وامتحانًا.

«إن عِظَم الجزاء» أي: عند الله سبحانه وتعالى.

«مع عِظَم البلاء» وذلك أن المبتَلى إذا صبر ورضيَ بقضاء الله وقدره فإن الله يجزيه على ذلك الخير العاجل والآجل، فيجزيه الجزاء العظيم آجِلًا وعاجلًا كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ ، وهذا مع الصبر

. . . .

والاحتساب.

والمراد بالبلاء هنا: الابتلاء والامتحان، فيصاب الإنسان بالشدّة، ويصاب بالمرض ويصاب بضياع المال ويصاب بموت القريب. ومن النّاس من تتكاثر عليه المصائب وتتابع، وهذه علامة خير إذا كان مؤمنًا وصبر.

وقوله: هذه أيضًا حِكمة أخرى، وهِي: أن وجود الابتلاء والامتحان الذي يصيب المسلمين «وإن الله تعالى إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم» دليلٌ على محبة الله لهم، ولَمّا أحبهم ابتلاهم من أجل أن يخفِّف عنهم، ومن أجل أن ينتقلوا إليه وهم مخلَّصون من الذنوب.

ومفهوم الحديث: أن الله إذا لم يحب قومًا يُمسك عنهم الابتلاء، من أجل أن ينتقلوا إلى الآخرة بذنوبهم فيعاقَبون عليها.

«فمن رضي» بقضاء الله وقدره «فله الرضا» من الله سبحانه وتعالى. وهذا دليل على أنّ الجزاء من جنس العمل.

«ومن سخِط» على قضاء الله وقدره «فله السخط» من الله سبحانه وتعالى جزاءً وفاقًا.

فهذا فيه دليل على أن الجزاء من جنس العمل، وأن من رضي بالقضاء والقدر، وصبر على المصائب؛ فإن الله يرضى عنه ويحبُّه، وأن من لم يرضَ بالقضاء والقدر فإن الله يبغضه.

فيُستفاد من هذه النصوص التي ساقها المصنِّف فوائد كثيرة:

الفائدة الأولى: أن جميع المصائب بقضاء الله وقدره: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

الثانية: أن الرضى بقضاء الله وقدره من الإيمان: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ﴾ يعني: يرضى ويصبر، سمى ذلك إيمانًا.

الثالثة: أن الإيمان له خصال، منها: الرضى بقضاء الله وقدره، وكما قال ﷺ: «الإيمان بِضعٌ وسبعون شُعبة أعلاها: قولُ: لا إله إلّا الله، وأدناها: إماطة الأذى

....

عن الطريق، والحياء شُعبةٌ من الإيمان».

الرابعة: أن الرضى بقضاء الله وقدره يسبّب هداية القلوب: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾.

الخامسة: يُستفاد من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الطعن في الأنساب والنياحة على الميّت من خصال الجاهلية.

السادسة: أنه ليس كلُّ من اتّصف بشيء من أمور الجاهلية يكون كافرًا الكفر الأكبر.

السابعة: أن الكفر أنواع؛ كفرٌ أكبر يُخرج من الملة، وكفرٌ أصغر لا يُخرِج من الملّة.

الثامنة: يُستفاد من حديث ابن مسعود: أن شق الجيوب ولطم الخدود ودعوى الجاهلية أنها كبائر، لأن النبي ﷺ تبرأ ممّن فعلها.

التاسعة: فيه أنه يجب على المسلم الابتعاد عن خصال الجاهلية، وأنّ كل ما كان من أمور الجاهلية فهو مذموم.

العاشرة: في حديث أنس رضي الله عنه: وصفُ الله سبحانه وتعالى بالرضى والسخط؛ وهما صفتان من صفاته سبحانه وتعالى تليقان بجلاله، ليس كرضى المخلوق ولا كسخط المخلوق.

الحادية عشرة: في حديث أنس الأول: أنّ من علامة إرادة الخير بالمؤمن: أن يُصاب في بدنه أو في ماله أو في قريبه، وأن من علامة إرادة الشر به: أن يُمسك عنه فلا يقع به مصيبة حتى يوافي بذنوبه؛ ومن هنا يؤخذ الرد على هؤلاء الذين يقولون: المسلمون لا يزالون متخلّفين وفيهم تأخُّر، وفيهم..، وفيهم..، وفيهم المصائب. وأما الكفّار فإنهم عندهم تقدُّم وحضارة ورُقي وأسلحة، وإلى آخره. فهذا الحديث يبيّن أنّه ليست السلامة من المصائب والسلامة من النَّكَبات دليلٌ على رضى الله سبحانه وتعالى، وإنما هذا من باب الاستدراج لهم: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾، وأما المسلمون فإنهم يصابون بهذه الأمور ليكفِّر

٩٦) ٣٦-بَابٌ

مَا جَاءَ فِي الرِّيَاءِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

الله بها عنهم، ومن أجل أن يحاسبوا أنفسهم ويرجعوا عن أخطائهم.

٩٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا الباب عقده المؤلف للتحذير من الرياء، والرياء مصدر راءى يرائي: أي: أظهر عمله؛ ليراه الناس ويثنوا عليه أو ليحصل به غرضًا دنيويًا، أو يسمع بقراءته وتسبيحه، أو أمره بالمعروف، ونهيه عن المنكر؛ ولهذا جاء في الحديث: «من يرائي يرائي الله به، ومن يسمع يسمع الله به»(١).

وفي رواية: «من راءى راءى الله به ومن سمع.....»(٢) أي: يفضحه، والجزاء من جنس العمل، والواجب على المسلم أن يخلص العمل، ويرجو الثواب من الله.

* قوله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

العمل الصالح لابد فيه من أمرين:

١- الإخلاص لله وحده في جميع أنواع العبادات.

٢- أن يكون موافقًا للشريعة وليس بدعة.

فمن كان يرجو لقاء الله صادقًا في رجائه؛ فليعمل عملاً صالحًا موافقًا للشريعة، ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: تعريف الرياء:

مصدر راءى يرائي، أي: عمل ليراه الناس، ويقال مراءاة كما يقال: جاهد

---

(١) رواه البخاري (٦٤٩٩)، ومسلم (٢٩٨٧) من حديث جندب.

(٢) رواه مسلم (٢٩٨٦) من حديث ابن عباس.

....

جهادًا ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل ليسمعه الناس ويقال له مسمع، وفي الحديث عن النبي ﷺ، أنه قال: «من راءى راءى الله به، ومن سمع سمع الله به»(١).

والرياء خلق ذميم، وهو من صفات المنافقين، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ يأمر الله نبيه أن يقول للناس: إنما أنا بشر مثلكم، وهو قصر النبي ﷺ على البشرية، وأنه ليس ربًا ولا ملكًا، وأكد هذه البشرية بقوله: (مثلكم)، فذكر المثل من باب تحقيق البشرية.

قوله: ﴿يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ الوحي في اللغة: الإعلام بسرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى: ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُواْ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ١١].

وفي الشرع: إعلام الله بالشرع.

والوحي: هو الفرق بيننا وبينه ﷺ، فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل.

قوله: ﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل (يوحى)، وفيها حصر طريقه (إنما)، فيكون معناها: ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله فإذا ثبت ذلك، فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه، ولذلك قال تعالى بعد هذا: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠].

فقوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ المراد بالرجاء: الطلب والأمل، أي: من كان يؤمل أن يلقى ربه، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة، لأن اللقيا على نوعين:

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق / باب الرياء والسمع (٦٧٣٣)، ومسلم: كتاب الزهد / باب تحريم الرياء (٢٩٨٦).

....

الأول: عامة لكل إنسان، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ﴾ [الانشقاق: ٦]، ولذلك قال مفرعًا على ذلك: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ ۝٧ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ [الانشقاق: ٧، ٨] ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ وَرَآءَ ظَهْرِهِۦ﴾ الآية [الانشقاق: ١٠].

الثاني: الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر بعض أهل العلم.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قول الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء في الرياء» أي: ما جاء فيه من الوعيد، وبيان أنه شرك يحبط العمل الذي خالطه.

ومناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد: أنّ فيه بيان نوع من أنواع الشرك الأصغر، وذلك أن هذا الكتاب صنّفه الشيخ رحمه الله في بيان التوحيد وبيان ما يضادُه من الشرك الأكبر أو ينقِّصه من الشرك الأصغر.

ولَمّا كان الشرك على نوعين: شركٌ ظاهر، وشرك خفي.

فالشرك الظاهر هو: ما يكون في الأعمال الظاهرة كالذي يذبح لغير الله أو ينذر لغير الله أو يستغيث بغير الله إلى غير ذلك من أنواع الشرك الأكبر الذي يراه النّاس ويسمعونه.

أما النوع الثاني وهو: الشرك الخفي، فهذا لا يراه النّاس ولا يعلمونه؛ لأنه في القلوب.

فالشرك الأول يكون في الأعمال الظاهرة، وهذا في النيّات والمقاصد القلبية التي لا يعلمها إلّا الله سبحانه وتعالى. فلهذا عقد له الشيخ رحمه الله هذا الباب.

والرياء مأخوذٌ من: الرؤية، وذلك بأن يزيِّن العمل ويُحَسِّنه من أجل أن يراه النّاس ويمدحوه ويُثنوا عليه، أو لغير ذلك من المقاصد، فهذا يسمّى رياءً، لأنه يقصد رؤية النّاس له.

والفرق بين الرياء والسمعة: أن الرياء فيما يُرى من الأعمال التي ظاهرها لله

....

وباطنها لغيره كالصلاة والصدقة. أما السمعة فهي لِمَا يُسْمَع من الأقوال التي ظاهرها لله والقصد منها لغير الله.

والرياء على قسمين:

القسم الأول: شركٌ أكبر وهو: إذا كان قصد الإنسان بجميع أعماله مراءاة النّاس، ولا يقصد وجه الله أبدًا، وإنما يقصد العيش مع المسلمين، وحقن دمه، وحفظ ماله، فهذا رياء المنافقين، وهو شركٌ أكبر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾، وهذا لا يصدر من مؤمن.

القسم الثاني: قد يصدر من مؤمن، ويكون في بعض الأعمال، وهو: أن يكون العمل فيه قصدٌ لله وفيه قصدٌ لغير الله.

وهذا هو الشرك الأصغر.

وهذا النوع من الرياء له ثلاث حالات:

الحالة الأولى: إن كان مقصودًا في العمل من أوله واستمرّ معه إلى آخره فإنّ هذا عملٌ مردود، لا يقبله الله سبحانه وتعالى. فمن صلّى لله وهو يحب أن يُمدح وأن يُثنى عليه، واستمرّ معه الرياء إلى آخر صلاته؛ فهذا لا تُقبل منه صلاته، بدليل الحديث الآتي.

الحالة الثانية: أن يكون أصل العمل لله ثمّ يطرأ عليه الرياء. فهذا إن تاب منه صاحبه في الحال ودفعه، وأخلص العمل لله؛ فإنه لا يضر صاحبه قولاً واحدًا، لأن أصل العمل لله وطرأ الرياء، ثمّ دفعه وأخلص العمل لله وعاد إلى الإخلاص، فهذا لا يضرُّه.

الحالة الثالثة: أن يطرأ في أثناء العمل ويستمر معه. فهذا موضع خلاف بين أهل العلم؛ منهم من قال: إنه يحبط العمل كالنوع الأول، ومنهم من قال: إنه يثاب على قدر نيّته لله في هذا العمل. ذكر هذا التفصيل الحافظ ابن رجب في شرح الأربعين.

. . . .

قال: «وقول الله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾» وتمام الآية: «﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾» هذه الآية ختام سورة الكهف.

﴿قُلْ﴾ أمر الله نبيه ﷺ أن يقول للناس: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾، فالرسول ﷺ بشر، وكلُّ الرسل من البشر.

فالرسل قسمان: رسلٌ من الملائكة ورسلٌ من البشر، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ﴾.

فالرسل من الملائكة يكونون واسطة بين الله وبين الرسل من البشر، لأن البشر لا يطيقون مقابَلة الملك ورؤيته على صورته الملَكية، وإنما يطيقون رؤية البشر الذي هو مثلهم، ولذلك يبعث الله الرسل من البشر إلى البشر، لأن هذا مقتضى رحمته بعباده، من أجل أن يفقهوا عنهم، ويتعلّموا منهم ويألفوهم، ولو كانوا من الملائكة ما استطاعوا أن يروهم، لأن صورة الملَك مخالِفة لصورة البشر.

وقوله: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ يعني: ليس لي من الربوبية شيء ولا من العبادة شيء.

﴿أَنَا۠ بَشَرٌ﴾ عبدٌ من عباد الله.

فهذا فيه: ردٌّ على الذين يغلون في حق الرسول ﷺ، ويدعونه من دون الله، ويستغيثون به من دون الله، أو يقولون: إنه مخلوقٌ من نور، أو من كذا وكذا، ولم يُخلق ممّا خُلق منه بنو آدم وأنه مخلوق قبل آدم.

وهذا -والعياذ بالله- من أعظم أنواع الغلو والكفر بالله عزّ وجلّ.

ثمّ قال: ﴿مِّثْلُكُمْ﴾ يعني: مثلكم في أمور البشريّة، فهو بشر يجوع، ويمرض، ويتعب في السفر مثل البشر وتجري عليه العوارض البشرية كما تجري على البشر، فيُصيبه ﷺ الهم، ويصيبه الحَزَن، ويصيبه ما يصيب البشر: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ﴾، ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾، فهو يهتَمُّ ويحزن لما يرى من مخالفة النّاس لعبادة الله سبحانه وتعالى، لأنه يريد للناس الخير، ويريد لهم النجاة، فيُحزنه إذا رآهم على سبيل الهلاك لكمال شفقته ﷺ.

....

﴿أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ﴾ يعني: معبودكم بحق. فالإله معناه: المعبود.

والمعبود بحق هو الله وحده. وما سواه فهو معبود بالباطل كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾.

فهذا فيه: أن زبْدة رسالة الرسول وأصل دين الرسول والذي جاء به وبدأ به هو: التّوحيد والإنذار عن الشرك، وكلُّ الرسل كذلك أول ما يبدءون بالدعوة إلى التّوحيد وإنكار الشرك.

وهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون في هذا الزمان: إن الرسل جاءوا لتحقيق الحاكمية في الأرض.

وهذا كلام محدَث باطل، فالرسل جاءوا لتحقيق العبودية بجميع أنواعها لله عزّ وجلّ.

كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ وقال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ﴾ وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِىٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ﴾، هذا هو الذي جاءت به الرسل، ويدخل فيه بقية أوامر الدين ومنها الحاكمية، أما أن تُجعل هي الأصل فهذا باطل، وهذا معناه: إهمال التّوحيد وعدم الاهتمام بأمر الشرك وعدم الالتفات إليه، وأن الرسل جاءوا لطلب الحكمة والرئاسة.

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟﴾ معناه: يخشى ويخاف، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ أي: يؤمِّل رؤية الله يوم القيامة، لأن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ويتنعّمون برؤيته ﷻ أعظم مما يتنعّمون بنعيم الجنة.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لأنه لا يمكن أن تحصُل هذه الرؤية إلّا لمن عمل عملاً صالحًا.

والعمل لا يكون صالحًا إلّا إذا توفّر فيه شرطان:

الشرط الأول: الإخلاص لله عزّ وجلّ من الرياء والسمعة، ومن جميع أنواع الشرك الأكبر والأصغر.

٩٧) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعًا: قَالَ اللهُ تَعَالَى: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلاً أَشْرَكَ مَعِيَ فِيهِ غَيْرِي تَرَكْتُهُ وشِرْكَهُ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

والشرط الثاني: أن يكون موافقًا لسنة رسول الله ﷺ، خاليًا من البدع والمحدَثات والخُرافات.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ ومن ذلك: أن يرائي بعمله، أو يسمِّع بعمله، فإنه إذا راءى بعمله، أو سمّع به، أبطله الله وردّه عليه.

وقوله: ﴿أَحَدًۢا﴾ نكرة في سياق النهي، تعمُّ كلَّ أحد، فالله لا يقبل أن يُشرك معه أحد لا من الملائكة، ولا من الرسل، ولا من الأولياء والصالحين، ولا من الأحجار والأشجار، ولا من الجن، ولا من الإنس.

فهذا فيه ردٌّ على الذين يقولون: إنما الشرك عبادة الأصنام فقط، أما أن نتقرَّب إلى الله ونتوسّل إلى الله بأولياء وعبادٍ صالحين، فهذا ليس مثل عبادة الأصنام.

وهذا باطل، لأن الله يقول: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾، وهو عام يشمل كلَّ من عبد مع الله، سواءً كان من الجن، أو من الإنس، أو من الملائكة، أو من الأنبياء والرسل، أو من الصالحين والأولياء، أو أيًا كان، فالله لا يقبل أن يُشرك معه في عبادته أحد كائنًا من كان، ولا تفريق في ذلك بين الأصنام وبين الأولياء والصالحين والأضرحة، كله داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

٩٧) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن أبي هريرة مرفوعًا: قال الله تعالى: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك من عمل...».

هذا بيان براءة الله من الأعمال التي فيها شرك، وأن الله لا يقبل عملاً فيه شرك لغيره، وفي لفظ «أنا بريء منها، بل هي لمن أشركه» فهذا يدل على وجوب الإخلاص.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك».

قوله: «أغنى» اسم تفضيل، وليست فعلاً ماضيًا، ولهذا أضيفت إلى الشركاء.

....

يعني: إذا كان بعض الشركاء يستغني عن شركته مع غيره، فالله أغنى الشركاء عن المشاركة.

قوله: «عملاً». نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل من صلاة، أو صيام، أو حج، أو جهاد، أو غيره.

قوله: «تركته وشركه». أي: لم أثبه على عمله الذي أشرك فيه.

وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفر، فيترك الله جميع أعماله، لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه.

والمراد بشركه: عمله الذي أشرك فيه، وليس المراد شريكه، لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه، كمن أشرك نبيًا أو وليًا، فإن الله لا يترك ذلك النبي والولي.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «عن أبي هريرة مرفوعًا. قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم.

قوله: «قال الله تعالى» هذا حديث قدسي، والحديث القدسي: ما يرويه النبي ﷺ عن ربّه عزّ وجلّ، والقدسي: نسبة إلى القدْس، وهو التطهير والتنزيه، لأن الله مقدّس ومنزّه عن صفات النقص.

والحديث القدسي: ما كان من كلام الله عزّ وجلّ لفظه ومعناه ورواه عنه رسوله ﷺ. فالفرق بينه وبين الحديث النبوي:

أن الحديث القدسي: ما كان لفظه ومعناه مرويًا عن الله سبحانه وتعالى.

وأما الحديث النبوي فهو: ما كان معناه من الله ولكن لفظه من الرسول ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾.

فقوله: «قال الله تعالى» هذا فيه إثبات أن الله يتكلّم كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

«أنا أغنى الشركاء عن الشرك» الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عبادة خلقه، وإنما أمرهم بعبادته لمصلحتهم هم، لأنهم محتاجون إلى الله عزّ وجلّ ولا يقربهم من الله

....

إلّا العبادة، فعبادتهم لله من أجل مصلحتهم، من أجل أن يغفر الله لهم، وأن يرزقهم، وأن يُدخلهم الجنة، فالمصلحة من عبادتهم عائدةٌ إليهم، أما الله سبحانه وتعالى فإنه لا تنفعه طاعة الطائعين ولا تضرُّه معصية العاصين، وإنما هو النافع الضار، ولهذا يقول سبحانه وتعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾، ويقول سبحانه وتعالى.

حكاية عن موسى- عليه الصلاة والسلام-: ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِن تَكْفُرُوا أَنتُمْ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾.

وفي الحديث القدسي الذي رواه أبو ذر رضي الله عنه: أن الله سبحانه وتعالى يقول: «يا عبادي، لو أنّ أوّلكم وآخِركم وإنْسكم وجنّكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، ولو أن أولكم وآخركم وجنكم وإنسكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا».

إذًا، فعبادة النّاس لله يرجع ثوابها ويرجع خيرها إليهم، أما الله جل وعلا فهو غنيٌّ عنها، ومن باب أولى: من عمل عملاً أشرك مع الله فيه فإنه سبحانه وتعالى غنيٌّ لا يقبل ما فيه شرك، وإنما يتقبّل الخالص لمصلحة العباد.

وهذا يدخل فيه الرياء، فمن عمل عملاً ودخله الرياء والقصد لغير الله سبحانه وتعالى فإن الله يردُّه عليه ولا يقبله منه.

وهذا وجه الشاهد من الحديث للباب.

وفي قوله: «تركته وشركه» دليل على أن الشرك يُحْبِط العمل سواءً كان أكبر أو أصغر.

والشاهد منه للباب: أن الرياء نوعٌ من الشرك يرد العمل الذي خالطه على صاحبه، ولا يقبله الله.

❁ ❁ ❁

٩٨) وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ مَرْفُوعًا: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَا هُوَ أَخْوَفُ عَلَيْكُمْ عِنْدِي مِنَ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ؟» قَالُوا: بَلَى يَارَسُولَ اللهِ! قَالَ: «الشِّرْكُ الْخَفِيُّ، يَقُومُ الرَّجُلُ فَيُصَلِّي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ، لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ رَجُلٍ إِلَيْهِ». رَوَاهُ أَحْمَدُ.

---

٩٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الحديث الصحيح عن أبي سعيد مرفوعًا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من الدجال..».

ويقول الله يوم القيامة للمرائين: «اذهبوا إلى من كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء» وهذا يدل على خطورة الرياء خاصة على العباد؛ فخاف على الصحابة، وهم أفضل الناس، لأن الرياء يقع في الصالحين ويبتلون به كغيرهم ويتساهلون به.

والدجال ممكن أن يعرف بعلامات لكن الشرك الخفي أشد منه؛ لأنه يكون في القلوب، ولا يطلع عليه الناس لكن قد يعرف بعلامات تظهر على صاحبه، ويقول النبي فيما صح عنه: «أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر» فسئل عنه قال: «الرياء يقول الله يوم القيامة للمرائين....».

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «أخوف عليكم عندي». أي عند الرسول ﷺ لأنه ﷺ من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، وأعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال، لكن خوف النبي ﷺ من فتنة هذا الشرك الخفى أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك، لأن التخلص منه صعب جدًا، ولذلك قال بعض السلف: «ما جاهدت نفسي على شيء مجاهدتها على الإخلاص»، وقال النبي ﷺ: «أسعد الناس بشفاعتي من قال: لا إله إلا الله خالصًا من قلبه»[1]، ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لابد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله - عز وجل.

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار (٦٢٠١).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى» تَفْسِيرُ آيَةِ الكَهْفِ.

«الثَّانِيَةُ» الأَمْرُ العَظِيمُ فِي رَدِّ العَمَلِ الصَّالِحِ إِذَا دَخَلَهُ شَيْءٌ لِغَيْرِ اللهِ.

قوله: «المسيح الدجال». المسيح، أي: ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي ﷺ عيبين في الدجال: أحدهما حسي، وهو أن الدجال أعور العين اليمني، كما قال النبي ﷺ: «إن الله لا يخفى عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى»[1].

والثاني معنوي: وهو الدجال، فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصفه الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله سبحانه وتعالى بحكمته يخرجه ليفتن الناس به.

قوله: «الشرك الخفي». الشرك قسمان خفي وجلي.

فالجلي: ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله ، أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل: الانحناء لغير الله تعظيمًا.

والخفي: ما كان في القلب، مثل: الرياء، لأنه لا يبين، إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضًا «شرك السرائر». وهذا هو الذي بينه الله بقوله: ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩].

قوله: «يقوم الرجل، فيصلي، فيزين صلاته». يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللقب، أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف، لا لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

وقوله: «فيزين صلاته». أي: يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير ونحو ذلك.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية الكهف. وسبق الكلام عليها.

الثانية: الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شيء لغير الله.

---

(١) البخاري: المغازي/ باب حجة الوداع (٤١٤١)، ومسلم: الفتن / باب ذكر الدجال (٢٩٣٣).

«الثَّالِثَةُ» : ذِكْرُ السَّبَبِ المُوجِبِ لِذَلِكَ، وهُوَ كَمَالُ الغِنَى.

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّ مِنَ الأَسْبَابِ، أَنَّهُ تَعَالَى خَيْرُ الشُّرَكَاءِ.

«الخَامِسَةُ» : خَوْفُ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى أَصْحَابِهِ مِنَ الرِّيَاءِ.

«السَّادِسَةُ» : أَنَّهُ فَسَّرَ ذَلِكَ بِأَنْ يُصَلِّيَ المَرْءُ للهِ، لَكِنْ يُزَيِّنُهَا لِمَا يَرَى مِنْ نَظَرِ الرَّجُلِ إِلَيْهِ.

وذلك لقوله: «تركته وشركه»، وصار عظيمًا لأنه ضاع على العامل خسارًا، وفحوص الحديث تدل على غضب الله عز وجل من ذلك.

الثالثة: ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغني. يعني الموجب للرد هو كمال غنى الله - عز وجل - عن كل عمل فيه شرك، وهو غني عن كل عمل، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه.

الرابعة: أن من الأسباب أنه تعالى خير الشركاء. أي: من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحدًا، أن الله خير الشركاء، فلا ينازع من جعل شريكًا له فيه.

الخامسة: خوف النبي ﷺ على أصحابه من الرياء. وذلك لقوله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال». وإذا كان يخاف ذلك على أصحابه، فالخوف على من بعدهم من باب أولى.

السادسة: أنه فسر ذلك بأن يصلي المرء لله، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه. وهذا التفسير ينطبق تمامًا على الرياء، فيكون أخوف علينا عند رسوله ﷺ من المسيح الدجال.

ولم يذكر المؤلف مسألة خوف النبي ﷺ على أمته من المسيح الدجال، لأن المقام في الرياء لا فيما يخافه النبي ﷺ على أمته.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن أبي سعيد» أبو سعيد هو أبو سعيد الخدري، مالك بن سِنان الخُدْري الصحابي الجليل المشهور، رضي الله تعالى عنه.

....

....

«مرفوعًا» المرفوع: ما كان من كلام النبي ﷺ.

قوله ﷺ: «ألا أخبركم بما هو أخوفُ عليكم عندي من المسيح الدّجال؟» هذا الحديث له سبب وهو: أنّ النبي ﷺ خرج إلى أصحابه وهم يتحدّثون عن الدجال وعن فتنته، وكانوا خائفين منه، فقال: «ألا أنبئكم بما هو أخوف عليكمَ عندي من المسيح الدجال؟» الحديث.

فأجابوا «قالوا: بلى» وهذا فيه: مشروعية التعليم عن طريق السؤال والجواب، لأنه يكون أوقع في الذهن، فإذا أراد أن يعلّم أصحابه شيئًا مهمًا ألقاه على طريقة السؤال حتى يتطلّعوا إلى الجواب ثمّ يُلقي عليهم الجواب.

«قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّن صلاته لِمَا يرى من نظر رجل إليه» هذا فيه: أن الرياء شركٌ خفي، ووجهُ كونه خفيًّا: أنه في النيّات والمقاصد وأعمال القلوب، وهذه لا يعلمها إلّا الله سبحانه وتعالى، لا أحد يعلم النيّات ويعلم المقاصد إلّا الله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث دليلٌ على خطورته، لأن النبي ﷺ خافه على أفضل هذه الأمة وهم الصحابة، فكيف بغيرهم، وأنه ﷺ يخافه عليهم أشد مما يخاف عليهم من فتنة المسيح الدّجال، لأنه قَلّ من يسلم منه.

والمسيح الدجّال هو: مسيح الضّلالة الذي يخرُج في آخر الزمان، وخروجه من علامات الساعة، وسُمي بالمسيح لأنه ممسوح العين، أعور، وقيل: سمّي بالمسيح لسُرعة سيره في الأرض، يعني: يمسح الأرض بسرعة، وهو: مسيح الضلالة، الأعور الدجّال، وما من نبي إلّا حذّر أمته من الدجّال، وكان تحذير نبيّنا ﷺ أكثر وأشد من تحذير من سبقه، لأنه أقرب إلى عهده ممن سبقه.

والنبي ﷺ شرع لنا أن نستعيذ منه في كل تشهُّد أخير في الصلاة، فقال: «استعيذوا بالله من أربع: من عذاب جهنم ومن عذاب القبر ومن فتنة المحيا والممات، ومن فتنة المسيح الدجال».

فهذه النصوص- الآية والحديثان- تدل على مسائل عظيمة:

....

المسألة الأولى: الآية تدلّ على أن الرسول ﷺ بشر، ليس له من الربوبية والألوهية شيء.

المسألة الثانية: يُستفاد من الآية مسألة عظيمة وهي: أن الرسول ﷺ بُعث بالدعوة إلى التّوحيد والنهي عن الشرك بالله عزّ وجلّ، كمُهِمّة غيره من الأنبياء والمرسلين. وهذه هي المهمّة العظمى، وهي قضية القضايا.

المسألة الثالثة: تدُلُّ الآية الكريمة على وجُوب الإخلاص في العمل لله، وهذا محل الشاهد منها للباب.

المسألة الرابعة: في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن الله سبحانه وتعالى غنيٌّ عن عبادة الخلق، ولو أشرك النّاس كلهم، أو كفروا كلهم، لم ينقُص ذلك من ملكه شيئًا.

المسألة الخامسة: في حديث أبي هريرة: التحذير من الشرك في العمل، وأنه سببٌ لِرَدِّه وعدم قَبوله سواء كان شركًا أكبر أو شركًا أصغر، ومنه الرياء.

المسألة السادسة: فيه إثبات أن الله جل وعلا يتكلّم كما يشاء سبحانه وتعالى، والكلام ثابتٌ له سبحانه، صفةٌ فعليّة كسائر صفاته الفعلية تليق بجلاله، ليس مثل كلام المخلوقين، بل هو كلامٌ يليق بجلاله سبحانه وتعالى.

المسألة السابعة: في حديث أبي سعيد رضي الله عنه: التحذير من الرياء، وبيان تفسيره، فإن النبي ﷺ فسّره في قوله: «يقوم الرجل فيصلي فيُزَيِّن صلاته لِمَا يرى من نظر رجل إليه».

المسألة الثامنة: في حديث أبي سعيد: أن الشرك ينقسم إلى شرك ظاهر وشرك خفي، حيث قال ﷺ: «الشرك الخفي» فهذا دليل على أنّ هناك شركًا ظاهرًا، وهو الشرك في الأعمال الظاهرة كالركوع والسجود والدعاء والذبح والنذر. فإذا صرفت هذه العبادات لغير الله صار شركًا ظاهرًا.

أما الرياء فإنه شركٌ خفي يكون في القلوب والمقاصِد، ولهذا جاء في الحديث: «الشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النملة السوداء على صَفاةٍ سوداء

٩٩) ٣٧-بَابٌ

مِنَ الشِّرْكِ إِرَادَةُ الإِنْسَانِ بِعَمَلِهِ الدُّنْيَا.

وقَولُ اللهِ تَعالَى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [هود: ١٥].

في ظُلمة الليل»، وكفّارته أن يقول: «اللَّهُمَّ إني أعوذ بك أن أشرك بك شيئًا وأنا أعلم، وأستغفرك من الذنب الذي لا أعلم».

٩٩) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: الشرك نوعان: أكبر، وأصغر، وهذا قد يكون من الأكبر وتارة يكون من الأصغر، فإذا أراد بإسلامه ودخوله الدين الدنيا فهذا شرك أكبر كالمنافقين، فهم في الدرك الأسفل من النار، وتارة يكون أصغر كمن يرائي بقراءته، وأمره ونهيه أو يجاهد لأجل الغنيمة ليس لله، وهو مؤمن مسلم لكن تعرض له هذه الأمور.

قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ أي: لا ينقصون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهذا وعيد، والآية في الكفار الذين عبدوا الله لأجل الدنيا كالمنافقين، وعمومه يوجب الحذر من إرادة الإنسان بعمله الدنيا ولو كان ذلك في بعض الأمور.

وهكذا قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ وكذلك قوله: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ﴾ وفي الآية قيد أطلقته الآية السابقة، وهو أن ليس كل من أراد الدنيا تحصل له فقد يحصل له بعض ما أراد.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فالإرادة لا تكفي وحدها بدون السعي والإيمان، فلا بد من عمل وإيمان بالله وتوحيد له وإخلاص فهذا هو الذي يكون سعيه مشكورًا من الله ومن المؤمنين.

....

فيدل على وجوب الإخلاص، وأن العمل يبطل مع الشرك بالله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «الدنيا». مفعول بإرادة، لأن إرادة مصدر مضاف إلى فاعله، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كان مضافًا إلى فاعله أو مفعوله، فحوله إلى فعل مضارع مقرون بأن، فإذا قلنا: باب من الشرك أن يريد الإنسان بعمله الدنيا، فالإنسان فاعل، وعلى هذا فإرادة مصدر مضاف إلى فاعله، والدنيا مفعول به.

وعنوان الباب له ثلاث احتمالات:

الأول: أن يكون مكررًا مع ما قبله، وهذا بعيد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد.

الثاني: أن يكون الباب الذي قبله أخص من هذا الباب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم، وهذا محتمل.

الثالث: أن يكون هذا الباب نوعًا مستقلًا عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في الباب السابق يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقال، هو عابد، ولا يريد النفع المادي.

وفي هذا الباب لا يريد أن يمدح بعبادته ولا يريد المراءاة، بل يعبد الله مخلصًا له، ولكنه يريد شيئًا من الدنيا، كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعًا في الدنيا، غافلًا عن ثواب الآخرة.

قوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾. أي: البقاء في الدنيا.

قوله: (وزينتها). أي المال، والبنين، والنساء، والحرث، والأنعام، والخيل المسومة، كما قال الله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤].

قوله: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ﴾ فعل مضارع معتل الآخر مجزوم بحذف حرف العلة الياء، لأنه جواب الشرط.

....

والمعنى: أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا، ومن ذلك الكفار لا يسعون إلا للدنيا وزينتها، فعجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي ﷺ قد أثر في جنبه الفراش، فقال: «ما يبكيك ؟». قال يا رسول الله ! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذا الحال. فقال رسول الله ﷺ: «أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم»(١)، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم، لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا.

قوله: ﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾. البخس: النقص، أي: لا ينقصون مما يجازون فيه، لأن الله عدل لا يظلم، فيعطون ما أرادوه.

قوله: ﴿أُولَئِكَ﴾ المشار إليه يريدون الحياة الدنيا وزينتها.

قوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾ فيه حصر وطريقة النفي والإثبات، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا الجنة، لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله.

قوله: ﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا﴾ الحبوط: الزوال، أي: زال عنهم ما صنعوا في الدنيا.

قوله: ﴿وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَبَاطِلٌ﴾: خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات والمبتدأ «ما» في قوله: ﴿مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط، وأن أعمالهم باطلة.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ مخصوصة بقوله تعالى: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٨].

---

(١) البخاري: كتاب اللباس / باب ما كان النبي ﷺ يتجوز من اللباس (٥٥٠٥)، ومسلم: كتاب الطلاق/ باب في الإيلاء واعتزال النساء (٢٧٠٧).

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله رحمه الله: «بابٌ» هذا - كما سبق وتكرّر- أنه خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هذا بابٌ.

«من الشرك» أي: من أنواع الشرك، والمراد: الشرك الأصغر.

«إرادة الإنسان بعمله الدنيا» ومعناه: أن يعمل العمل الذي شرع للآخرة وهو لا يريد به إلّا طمع الدنيا، كأن يجاهد من أجل المغنم، أو يتعلم من أجل الرئاسة والوظيفة، أو يحج أو يعتمر من أجل أخذ المال، وهكذا.

قوله: «وقول الله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا﴾» أي: من كان يقصد بعمل الآخرة عرض الدنيا.

«﴿وَزِينَتَهَا﴾» زينة الدنيا وهي المال والولد، كما قال تعالى: ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾.

﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا﴾ هذا جواب الشرط، أي: نعطه من الدّنيا ما أراد وما قصد إذا شئنا ذلك، استدراجًا له، ومعاملةً له بما قصد، كما في قوله تعالى: ﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

﴿وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا يُنقصون.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ﴾ بيان لعاقبتهم، حيث ذكر أنهم يُعطون في الدنيا ما أرادوا وما طلبوا، وأما في الآخرة فإنهم يُحرَمون من الثواب، لأنهم لم يريدوا الآخرة، والآخرة إنما تحصُل لمن أرادها: ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْءَاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا﴾ أي: في الآخرة ما صنعوه في الدنيا.

﴿وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ البُطلان يكون في الدنيا، والحُبوط يكون في الآخرة، في الدنيا أعمالهم باطلة لأنها بدون قصدٍ خالصٍ لوجه الله، فإذا جاءت الآخرة حبطتْ أعمالهم. والحَبَط في اللغة: انتفاخ الشيء، ومنه: انتفاخ البعير، إذا أكل من أول الربيع فإنه ينتفخ ويموت.

❁ ❁ ❁

١٠٠) وفِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «تَعِسَ عَبْدُ الدِّينَارِ، تَعِسَ عَبْدُ الدِّرْهَمِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيصَةِ، تَعِسَ عَبْدُ الخَمِيلَةِ، إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ، تَعِسَ وانْتَكَسَ وإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ، طُوبَى لِعَبْدٍ آخِذٍ بِعَنَانِ فَرَسِهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، أَشْعَثَ رَأْسُهُ، مُغْبَرَّةٍ قَدَمَاهُ، إِنْ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ كَانَ فِي الحِرَاسَةِ، وإِنْ كَانَ فِي السَّاقَةِ كَانَ فِي السَّاقَةِ، إِنِ اسْتَأْذَنَ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ، وإِنْ شَفَعَ لَمْ يُشَفَّعْ».

---

١٠٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الصحيح عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدرهم، تعس عبد الدينار».

في الصحيح: صحيح البخاري.

الخميلة: كساء سادة ليس فيه نقوش.

الدينار: من الذهب.

الخميصة: كساء له أعلام منقش.

أي: تعس من هذا قصده بعمله، ودخوله في الإسلام، أو عمل ما أظهر من أعمال الإسلام؛ فتعس من كان عمله لأجل النقود، وهذا المتاع كالمنافقين وغيرهم؛ لأنه يذهب ثوابه ويحصل له الإثم والوزر، فدعى عليه بالتعاسة والانتكاسة.

«إذ شيك فلا انتقش»: أي: فلا يوجد من يخرجها، وهذا دعاء عليه بتعسير الأمور وسوء العاقبة.

طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أي: من شدة عنايته وانشغاله بالجهاد غير متفرغ للعناية بترجيل شعره ودهنه ونحوه وغير متفرغ لتنظيف بدنه.

إذا كان في الحراسة كان في الحراسة.. أي: مغمور في الناس غير معروف، وهذا من كمال إخلاصه وصدقه؛ فلا يتحرى مناصب الأمور ومعاليها، ولا التقدم عند الملوك والأمراء والوجهاء فلهذا لا يعرفونه. فهذا له الجنة والكرامة بخلاف

....

المنافق ومن كان عمله للدنيا في أمره ونهيه وجهاده، أو غير هذا من شئون الدين فقد حبط عمله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «تَعِس». بفتح العين أو كسرها، أي: خاب وهلك.

قوله: «عبد الدينار» الدينار: هو النقد من الذهب، والدينار الإسلامي زنته مثقال، وسماه عبد الدينار، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه، ويقال في عبد الدرهم ما قيل في عبد الدينار.

قوله: «تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة». وهذا من يعنى بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر.

قوله: «إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط». يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدريًا، أي: إن قدر الله له الرزق والعطاء رضي وانشرح صدره، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله، كأن يقول: لماذا كنت فقيرًا وهذا غنيًا؟ وما أشبه ذلك، فيكون ساخطًا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه.

قوله: «تعس وانتكس». تعس، أي: خاب وهلك، وانتكس، أي: انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له، فكلما أراد شيئًا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد، ولهذا قال: «وإذا شيك فلا انتقش». أي: إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه.

قوله: «طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله». هذا عكس الأول، فهو لا يهتم للدنيا، وإنما يهتم للآخرة، فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله.

وقوله: «آخذ بعنان فرسه» أي: ممسك بمقود فرسه الذي يقاتل عليه.

قوله: «في سبيل الله» ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحمية أو الوطنية أو ما أشبه ذلك، لكن إن قاتل وطنية وقصد حماية وطنه لكونه بلدًا إسلاميًا يجب الذود عنه، فهو في سبيل الله، وكذلك من قاتل دفاعًا عن نفسه أو ماله أو أهله؛ فإن النبي ﷺ قال: «من قتل دون ذلك، فهو شهيد»، فأما من قاتل للوطنية

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: إِرَادَةُ الإِنْسَانِ الدُّنْيَا بِعَمَلِ الآخِرَةِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ هُودٍ.

«الثَّالِثَةُ»: تَسْمِيَةُ الإِنْسَانِ المُسْلِمِ: عَبْدَ الدِّينَارِ والدِّرْهَمِ والخَمِيصَةِ.

المحضة، فليس في سبيل الله لأن هذا قتال عصبية يستوي فيه المؤمن والكافر، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه.

قوله: «أشعث رأسه، مغبرة قدماه» أي: رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله.

قوله: «إن كان في الحراسة، فهو في الحراسة، وإن كان في الساقة، فهو في الساقة». الحراسة والساقة ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحرس الإنسان الجيش، والساقة أن يكون في مؤخرته.

قوله: «إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع». أي: هو عند الناس ليس له جاه ولا شرف، حتى إنه إن استأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهل السلطة ليس له مرتبة، فإن شفع لم يُشَفَّع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية، لأنه يقاتل في سبيله.

والشفاعة: هي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة.

والاستئذان: طلب الإذن بالشيء.

فيه مسائل:

الأولى: إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة. وهذا من الشرك، لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى على قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة.

الثانية: تفسير آية هود. وقد سبق ذلك.

الثالثة: تسمية الإنسان المسلم عبد الدينار والدرهم والخميصة. وهذه العبودية لا تدخل في الشرك مالم يصل بها إلى حد الشرك، ولكنها نوع آخر يخل بالإخلاص، لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة الله عز وجل ومحبة أعمال الآخرة.

«الرَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ ذَلِكَ بِأَنَّهُ إِنْ أُعْطِيَ رَضِيَ، وإِنْ لَمْ يُعْطَ سَخِطَ.

«الخَامِسَةُ»: قَوْلُهُ «تَعِسَ وانْتَكَسَ».

«السَّادِسَةُ»: قَوْلُهُ: «وإِذَا شِيكَ فَلا انْتَقَشَ».

«السَّابِعَةُ»: الثَّنَاءُ عَلَى المُجَاهِدِ المَوْصُوفِ بِتِلْكَ الصِّفَاتِ.

الرابعة: تفسير ذلك بأنه إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط. هذا تفسير لقوله ﷺ: «عبد الدينار، عبد الدرهم، عبد الخميصة، عبد الخميلة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط»، وهذه علامة عبوديته لهذه الأشياء أن يكون رضاه وسخطه تابعًا لهذه الأشياء.

الخامسة: قوله: «تعس وانتكس».

السادسة: قوله: «وإذا شيك، فلا انتقش» يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرًا أو دعاء، وسبق شرح ذلك.

السابعة: الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات.

فقوله في الحديث: «طوبى لعبد . .» يدل على الثناء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصحاب الدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وفي الصحيح» أي: في «صحيح البخاري» في باب الجهاد.

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «تَعِس» يعني: هلك، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾ يعني: هلاكًا، فالتعس: الهلاك.

«عبد الدينار، تعس عبد الدرهم» الدينار هو: النَّقْد المضروب من الذهب، والدرهم هو: النقد المضروب من الفضة.

«عبد الخميصة» الخميصة: كساءٌ يُلبس، لونه أسود وفيه خطوط حُمْر.

«عبد الخميلة» الخميلة: القطيفة، سُمِّيت خميلة لأنها ذات خُمُل يعني: ذات أهداب، سمّاهم عبيدًا لهذه الأشياء لأنهم يعملون لها، فصاروا عبيدًا لها، أما الذي يعمل من أجل وجه الله فهو عبدٌ لله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر علامتهم، فقال: «إنْ أُعطيَ رضي، وإن لم يُعط سخط» هذه علامة

....

الذي يعمل من أجل الدنيا، أنه إنْ أُعطيَ منها رضي وإن لم يعط منها لم يرض، كما قال الله سبحانه وتعالى في المنافقين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾.

أما المؤمن فإنه إنْ أُعطي شكر، وإن لم يعطَ فإنه يصبر ولا يسخط.

فالمؤمن سِيّان عنده؛ يعطى من الدنيا أو لا يعطى، ولا ينقص ذلك من عمله لله شيئًا، لأنه يحب الله ورسوله، ولهذا كان النبي ﷺ يعطي بعض النّاس وهو يبغضهم من أجل تأليفهم، والخوف عليهم من النفاق والرِّدة، ويمنع ناسًا هم أحب النّاس إليه ويَكِلُهم إلى إيمانهم، لأنه واثقٌ من إيمانهم وعقيدتهم، وأنهم لا يتأثّرون إذا لم يُعطوا، وهذه علامة المؤمن: أنه باقٍ على إيمانه ويقينه أعطيَ من الدنيا أو لم يعط، أما صاحب الدنيا فهذا إنْ أُعطي منها رضي وإن لم يعط منها سخط، فهو يرضى لها ويغضب لها.

وهذا هو الشاهد من الحديث: أنه سمّاه عبدًا لهذه الأشياء مع أنه مسلم مؤمن، ولكن لَمّا كان يعمل ويريد هذه الأشياء صار عبدًا لها، وهذه عبودية شرك، لكنه شركٌ أصغر لا يُخرِجه من الإيمان، ولكنه ينقِّص توحيده وينقِّص إيمانه.

ثم أعاد الدعاء عليه مرّة ثانية فقال: «تعس وانتَكَس» يعني: كلما تماثل للشفاء عاد إليه المرض وعاد عليه الهلاك.

«وإذا شيك فلا انتَقش» أي: أنه يصاب بالعجز حتى إذا ضربته الشوكة في رجله أو في يده لا يستطيع أخذها من العجز الذي أصابه، عقوبةً له في أنه إنما يعمل من أجل الدنيا.

ثم بيّن الفرق بين الذي يعمل للآخرة والذي يعمل للدنيا فقال ﷺ: «طوبى» قيل: إنها شجرة في الجنة ظلها مسيرة مائة عام منها ثياب أهل الجنة، وقيل: إنها الجنة نفسها، فالجنة يقال لها طوبى، فطوبى من أسماء الجنة أو شجرة فيها.

وهذا دعاء من الرسول ﷺ لهذا الشخص بأن يكون من أهل الجنة.

«لعبد آخذٍ بعِنان فرسه» العِنان: اللِّجام.

....

«في سبيل الله» يعني: للجهاد في سبيل الله، دائمًا مُعِدٌّ نفسه ومُعِدٌّ فرسه للجهاد في سبيل الله.

«أشعث رأسه، مغبرة قدماه» هذه الصفة الأولى لهذا العبد المجاهد لم يتفرغ للرفاهية ويعتني بنفسه عليه آثار الجهاد في سبيل الله من الشعث والغبار.

«إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة» هذه صفة ثانية، أي: أنه لا يبالي بنوع العمل الذي يشتغل فيه، بل يطيع وليّ الأمر وقائد الجيش، سواءً أمره أن يكون في الحراسة أو أمره أن يكون في الساقة.

«والحراسة»: حماية الجيش من أن يهجم عليهم العدو، سواء بالليل أو في النهار يتطلّع إلى العدو، ويكون حارسًا للجيش أن يهجم عليه من الجهة المَخُوفة.

«والساقة» آخر الجيش من أجل أن يتفقّد العاجز ويتفقّد من يحتاج إلى إعانة من المجاهدين.

وقوله: «إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع» أي: هو- أيضًا- غير معروف عند النّاس، لأنه لا يحب الظهور أمام النّاس، ولا يحب البُروز، لا يحب المدح، بل يحرص على الاختفاء، لأنه يعمل لله، ولكونه غير معروف إنِ استأذن للدخول على وُلاة الأمور، أو على السلاطين، أو على أصحاب الجاه، لم يُؤذن له، لأنه غير معروف، والنّاس إنما يأذنون للإنسان المعروف الذي له جاه وله مكانة. وهذا لا يضره عند الله سبحانه لأنه معروف عند الله عزّ وجلّ لأن الله يعلمه ويعلم مكانه.

«وإن شفع لم يشفع» إن توسط في قضاء حاجة أحد لم تقبل وساطته، وفي الحديث: «رب أشعث أغبر مدفوع بالأبواب لو أقسم على الله لأبرّه».

فيُستفاد من هاتين الآيتين ومن هذا الحديث الشريف فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: التحذير من إرادة الإنسان بعمله الدنيا، وأنّ ذلك من الشرك في النيّات، وهو: الشرك الخفي، وهذا هو الذي عقد الشيخ رحمه الله هذا الباب من أجله.

....

الفائدة الثانية: يؤخذ من الآيتين: أن إعطاء الله الدنيا لبعض الناس ليس دليلًا على رضى الله عنهم، ولهذا قال: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ ثم قال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ﴾، فهذا دليل على أن هذا العطاء عن غير رضى، وأنّ منع الدنيا عن العبد المؤمن ليس دليلًا على عدم رضى الله عنه، فالدنيا ليست مقياسًا لرضى الله وغضبه وجودًا وعدمًا.

الفائدة الثالثة: يؤخذ من الآيتين الكريمتين: أن العبرة ليستْ في صورة العمل، وإنما العبرة في نية العامل.

الفائدة الرابعة: في الحديث دليل على الفرق بين العبد الذي يعمل لوجه الله والعبد الذي يعمل لأجل الدنيا.

الفائدة السادسة: في الحديث: بيان علامات الذي يعمل من أجل الآخرة، وهي كما يلي:

أولاً: أنه مُعِدٌّ نفسه للجهاد دائمًا وأبدًا، ينتظر الجهاد، ويرغب فيه.

الصفة الثالثة: أنه لا يبالي بنوع العمل الذي يؤدِّيه في الجهاد سواء كان شاقًّا أو سهلًا، سواءٌ كان فيه ظهور أمام الناس أو ليس فيه ظهور أمام الناس، «إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة».

الصفة الرابعة: أنه غير معروف عند الناس، لأنه يخفي نفسه، ولا يريد الظهور.

۞ ۞ ۞

(١٠١) ٣٨-بابٌ

مَنْ أَطَاعَ العُلَمَاءَ والأُمَرَاءَ فِي تَحْرِيمِ مَا أَحَلَّ اللهُ أَوْ تَحْلِيلِ مَا حَرَّمَ اللهُ فَقَدِ اتَّخَذَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ.

---

(١٠١) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف بهذه الترجمة تحقيق التوحيد واتباع الشريعة وتعظيم أمر الله ونهيه، والحذر من تقليد الشيوخ والأمراء فيما يخالف شرع الله، وهو التقليد الأعمى.

فالواجب على أهل العلم والإيمان أن يعظموا أمر الله ونهيه وأن يحلوا ما أحل الله، وأن يحرموا ما حرم الله ورسوله، وألا يطيعوا أمر أحد في خلاف ذلك، فالطاعة إنما تكون في المعروف، فطاعتهم في خلاف شرع الله حرام، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، فلا يطيع والده أو ولده أو زوجه في خلاف الشرع من الحل والحرمة.

وطاعتهم فيما يخالف الشرع هو اتخاذهم آلهة من دون الله كما سيأتي إن شاء الله.

* ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «من أطاع العلماء». «من» يحتمل أن تكون شرطية، بدليل قوله: «فقد اتخذهم»، لأنها جواب الشرط، ويحتمل أن تكون موصولة، أي: «باب الذي أطاع العلماء».

وقوله: «فقد اتخذهم» خبر المبتدأ، وقرنت بالفاء، لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم، وعلى الأول تقرأ «بابٌ» بالتنوين، وعلى الثاني بدون تنوين، والأول أحسن.

والمراد بالعلماء: العلماء بشرع الله، وبالأمراء: أولو الأمر المنفذون له، وهذان الصنفان هم المذكوران في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ﴾ [النساء: ٥٩]؛ فجعل الله طاعته مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل (أطيعوا)، فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق.

....

قوله: «في تحريم ما أحل الله». أي في جَعْله حرامًا؛ أي: عقيدة أو عملاً.

«أو تحليل ما حرم الله». أي: في جعله حلالاً عقيدة أو عملاً، فتحريم ما أحل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله.

قوله: «أربابًا». جمع رب، وهو المتصرف المالك.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال الشيخ رحمه الله: بابٌ «من أطاع العلماء والأمراء» هذا شرط وجوابه، وذلك لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه أحد، فمن حلّل أو حرّم من غير دليلٍ من كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ فقد جعل نفسه شريكًا لله، ومن أطاعه فقد أشركه مع الله في التشريع. وليس في الآية التي سيوردها المصنف ذكر للأمراء. وإنما هو إشارة إلى قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠﴾.

وهذا ما يسمى بشرك الطاعة، لأن العبادة معناها: طاعة الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك: مسألة التحليل والتحريم، فهي داخلة في العبادة، بدليل قوله تعالى لَمّا ذكر ما يفعله المشركون من استباحة ما حرّمه الله من الميتة التي حرّمها وهم يستحلُّونها ويقولون: هي أولى بالأكل من المُذَكّاة، لأن المذكّاة أنتم ذبحتموها، وأمّا الميتة فإن الله هو الذي ذبحها، وكانوا تلقّوا هذه المقالة من المجوس، فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا۟ مِمَّا ذُكِرَ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِـَٔايَٰتِهِۦ مُؤْمِنِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُۥ لَفِسْقٌ وَإِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِهِمْ لِيُجَٰدِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ أي: إنْ أطعتموهم في استباحة الميتة وخالفتم أمرَ الله سبحانه وتعالى بتركها، ﴿إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ مع الله في التحليل والتحريم.

فطاعة العلماء والأمراء في مثل هذا شرك، في تحليل ما حرّم الله أو تحريم ما أحل الله. فإن كان الذي أطاعهم يعلم أنهم خالفوا أمر الله في ذلك وتعمّد طاعتهم واستباح هذا، فهذا شركٌ أكبر يُخرِج من الملّة.

وإنْ كان الذي أطاعهم يعتقد أن هذا حرام، ويعترف أن هذا خطأ، ولكنه

١٠٢) وقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: «يُوشِكُ أَنْ تَنْزِلَ عَلَيْكُمْ حِجَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ، أَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وتَقُولُونَ: قَالَ أَبو بَكْرٍ وعُمَرُ؟!».

وقَالَ الإِمَامُ أَحْمَدُ: عَجِبْتُ لِقَوْمٍ عَرَفُوا الإِسْنَادَ وصِحَّتَهُ، يَذْهَبُونَ إِلى رَأْيِ سُفْيَانَ، واللهُ تعالَى يَقُولُ: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣] أَتَدْرِي ما الفِتْنَةُ؟ الفِتْنَةُ: الشِّرْكُ، لَعَلَّهُ إِذَا رَدَّ بَعْضَ قَوْلِهِ أَنْ يَقَعَ فِي قَلْبِهِ شَيْءٌ مِنَ الزَّيْغِ فَيَهْلِكَ.

أطاعهم لهوًى في نفسه أو رغبة في نفسه مع اعترافه بالمعصية، فهذا شرك أصغر.

وإن كان أطاعهم وهو لا يعلم أنهم خالفوا شرع الله، بل ظن أنهم على حق، فهذا معذور إن كان مثله يجهل ذلك.

وأما طاعة العلماء والأمراء في غير معصية الله فهذا أمرٌ واجب، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

١٠٢) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** قال ابن عباس: يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول لكم: قال رسول الله ﷺ وتقولون...

«يوشك»: يقرب.

«حجارة من السماء»: وعيد لهم بالعقوبة.

المعنى: أحتج عليكم في المسألة بأمر الله ورسوله؛ فتخالفون وتردون علي بخلاف أمر الله ورسوله بقول أبي بكر وعمر، فهذا يدل على أنه لا يجوز مخالفة أمر الله ورسوله، ولو قال أبو بكر وعمر، وهم خير الناس بعد الأنبياء فمن دونهم من باب أولى ألا يطاعوا فيما يخالف الشرع، وهذا حث من ابن عباس على اتباع الشرع والحذر من تعظيم الرجال فيما يخالف الشرع.

قال أحمد بن حنبل: عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى قول سفيان.

أي: عرفوا أنه صحيح إلى النبي ﷺ والصحابة، وهذا من إنكار الإمام أحمد

....

على من يفعل ذلك، وأنه لا يليق به، ثم قال: والله يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

«الفتنة»: الشرك لعله إن رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك.

فيخشى عليه من الفتنة أن يفتتن ويقع في الشرك والردة، وهذا فيه حذر أيضًا عن مخالفة النص، وإن كان المخالف عالمًا عظيمًا، وكان الصحابة ومن بعدهم يصرحون بأنه لا يجوز طاعتهم في مخالفة أمر الله ورسوله، فالوعيد فيمن استحل المحرم بفتوى زيد، وهو يعلم أنه خلاف الشرع.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر ؟!» أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النبي ﷺ: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا». رواه مسلم[١]، وروي عنه ﷺ، أنه قال: «اقتدوا باللذين من بعدي أبي بكر وعمر»[٢]، وقال ﷺ «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجد»[٣]، ولم يعرف عن أبي بكر أنه خالف نصًا في رأيه، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول ﷺ، فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله ﷺ بمن هو دون أبي بكر عمر؟! والفرق بين ذلك كما بين السماء والأرض، فيكون هذا أقرب للعقوبة.

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنيًا على أساس سليم.

قوله: «الإسناد». المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه؛ أي: عرفوا صحة الحديث بمعرفة رجاله.

---

(١) مسلم: كتاب المساجد / باب قضاء الصلاة الفائتة (١٠٩٩).

(٢) الإمام أحمد في « المسند » (٥/ ٣٨٢)، والترمذي: كتاب المناقب / باب في مناقب أبي بكر وعمر (٣٥٩٦) وابن ماجه في « المقدمة » (١/ ٣٧).

(٣) الإمام أحمد في « المسند « (١٢٦/٤)، وأبو داود: كتاب السنة /باب في لزوم السنة (٣٩٩١)، وابن ماجه في «المقدمة» (١/ ١٥).

....

قوله: «يذهبون إلى رأي سفيان». أي سفيان الثوري، لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم انقرضوا، فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث!

قوله: «والله يقول: فليحذر»). الفاء عاطفة، واللام للأمر، ولهذا سُكِّنَت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر، لالتقاء الساكن.

قوله: (عن أمره). الضمير يعود للرسول ﷺ، بدليل أول الآية، قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ﴾ [النور: ٦٣].

و (أمره) واحد الأوامر لأمره وليس واحد الأمور، لأن الأمر هو الذي يخالف فيه، وهو مفرد مضاف، فيعم جميع الأوامر.

(فتنة): الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك، وعلى هذا يكون الوعد بأحد أمرين: إما الشرك، وإما العذاب الأليم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وقال ابن عبّاس» هو: حَبْر الأمة، وترجُمان القرآن، عبد الله بن عبّاس بن عبد المطّلب، ابن عمّ النبي ﷺ.

«يوشِكُ» معناه: يقرُب.

«أن تنزل عليكم حجارة من السماء» عقوبةً لكم كما نزلت الحجارة على من كان قبلكم ممن خالفوا الرسل.

«أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر» هذا هو السبب الذي يوجِب نزول الحجارة وهو طاعة العلماء والأمراء فيما يخالف شرع الله.

قال ابن عبّاس رضي الله عنهما هذه المقالة لَمّا بلغه أن أبا بكر وعمر رضي الله عنهما الخليفتين الراشدين، كانا لا يريان فسخ الحج إلى العمرة، بينما رسول الله ﷺ أمر بفسخ الحج إلى العمرة لمن لم يَسُقِ الهدي.

فهذا عند عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما يدلُّ على وجوب فسْخ الحج إلى العمرة لمن لم يَسُقِ الهدي، عملًا بأمر الرسول ﷺ، لأنه أمر بذلك أصحابه وأكّد

....

عليهم، ولَمّا خالف ذلك الخليفتان الراشدان أبو بكر وعمر، ورأيا أنه لا يجب فسْخ الحج إلى العمرة، بل المُضي في الإفراد أفضل، من أجل ألا يُهْجَر البيت في بقية السنة، لأن الحاج إذا جمع بين الحج والعمرة في سفر واحد، فهذا مما يسبِّب ألا يأتي الناس مرّة أخرى للعمرة، بل يكتفون بسفرٍ واحد.

هذه وِجهة نظرهما رضي الله عنهما، وهي مسألة اجتهادية، ولكن الاجتهاد إذا خالف الدليل فإنه لا يجوز العمل به.

فإذا كان ابن عبّاس يُنكر على من أخذ برأي الخليفتين الراشدين أبي بكر وعمر، لأنه اجتهاد مخالف للنص، وأن ذلك يوجِب العقوبة، فكيف بطاعة العلماء والأمراء في التحليل والتحريم من غير دليل؟

وهذا مما يدل على وجوب احترام سنة الرسول ﷺ، وأنها هي المنتهى بعد كتاب الله عزّ وجلّ، وأنه إذا حصل اجتهاد من المجتهدين يجب عرضه على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، فما قام عليه الدليل أخذناه، وما خالف الدليل تركناه، وإنْ كان قائله من أفضل الناس، كأبي بكر وعمر، فضلاً عن غيرهما.

والاجتهاد سائغ، وهو «استنباط الأحكام الشرعية من أدلة الكتاب والسنّة»، ولكن عند التطبيق لا يجوز لنا أن نأخذ إلا ما قام عليه الدليل من أقوال أهل العلم، فلا يجوز لنا أن نأخذ ما خالف الدليل إمّا تعصُّبًا لصاحبه، وإما لأنه يوافق أهواءنا، ويوافِق رغباتنا، بل المدار على الكتاب والسنّة: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾.

وقوله: «يذهبون إلى رأي سفيان» يعني: يتركون ما صحّ به الإسناد عن رسول الله ﷺ ويذهبون إلى رأي سفيان، وهو الإمام الجليل الفقيه الزاهد المتقن، سفيان ابن سعيد الثوري، كان فقيهًا، محدِّثًا، وله اجتهاد، وله مذهب في الفقه، لكنه انقرض بسبب أنه لم يكن له أتباع يحفظونه ويتدارسونه كما كان للأئمة الأربعة، وقد نقل كثير من مذهبه في موسوعات الفقه، كـ «المغني»، وكـ «المحلّى» لابن حزم، وكتب التفسير، وشروح الحديث، لأنه إمامٌ مجتهد، وله باعٌ طويلٌ في الفقه

....

والحديث والتفسير، رحمه الله.

ولكن هو كغيره من الأئمة، لا يجوز أن يقدَّم قوله على قول الرسول ﷺ، وهو رحمه الله لا يرضى بذلك، كغيره من الأئمة لا يرضون بذلك.

ولهذا يقول الإمام مالك: «كلنا رادٌّ ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر» يعني: رسول الله ﷺ.

قال الإمام أحمد: «والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى وتهديد: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾.

والضمير في ﴿أَمْرِهِۦٓ﴾ يرجع إلى الرسول ﷺ، الذي مرّ ذكره في أول الآية.

﴿أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ﴾ فسّرها الإمام أحمد بالزيغ والشرك، قال: «أتدري ما الفتنة؟، الفتنة الشرك، لعله إذا ردّ بعض قوله» أي: بعض قول الرسول ﷺ، «أن يقع في قلبه شيءٌ من الزَّيغ فيَهلِك».

فمن ردّ قول الرسول ﷺ متعمّدًا تبَعًا لهواه، أو تعصُّبًا لشيخه الذي يقلّده، فإنه مهدّد بعقوبتين:

العقوبة الأولى: الزيغ في قلبه، لأنه إذا ترك الحق ابتُلي بالباطل، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم﴾، لَمّا انصرفوا عن تلقّي القرآن عند نزوله وتعلّمه صرف الله قلوبهم عن الحق عقوبةً لهم، وقال تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾، لَمّا رفضوه أول الأمر عند ذلك ابتلاهم الله بتقليب أفئدتهم وأبصارهم عقوبةً لهم، فلا تقبل الحق بعد ذلك.

وهذا خطرٌ شديد، بخلاف الذي يقبل الحق ويرغب فيه، فإن الله يهديه ويزيده علمًا وبصيرة، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾، فالمؤمن يَتْبع الدليل

١٠٣) عَنْ عَدِيِّ بنِ حَاتِم: أَنَّهُ سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقْرَأُ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية. فَقُلْتُ لَهُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ قَالَ: «أَلَيسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ، فَتُحِلُّونَهُ؟» فَقُلْتُ: بَلَى. قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ» رَواهُ أَحْمَدُ والتِّرْمِذيُّ وحَسَّنَهُ.

ويفرح به إذا حصل عليه، والحق ضالّة المؤمن أنى وجده أخذه، أما الذي في قلبه زيغ أو نفاق فهذا إنما يتّبع هواه ولا يتّبع الدليل، وهذا يُصاب بالزيغ والانحراف في العقيدة والانحراف في الدين والانحراف في الأخلاق وفي كلّ شيء، عقوبةً له من الله سبحانه وتعالى.

والعقوبة الثانية: ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في أبدانهم، بالقتل في الدنيا، بأن يسلّط الله عليهم من يستأصِل شأفتهم ويقتلهم، إما من المؤمنين، وإما من غير المؤمنين، عقوبة لهم ﴿أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، إن ماتوا ولم يُقتلوا بأن يعذبوا في النار. فهذا وعيدٌ شديد على مخالفة أمر الرسول ﷺ.

فترك أمر الرسول ﷺ، والأخذ بأقوال العلماء والأمراء المخالِفة لِمَا قاله الرسول ﷺ في التحليل والتحريم يسبب الفتنة، أو العذاب الأليم.

١٠٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: عن عدي بن حاتم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾.

فمن أطاع العلماء والأمراء في تحليل الحرام أو العكس واعتقاد أن هذا جائز مع العلم بأنه خلاف شرع الله؛ فهذا يكون عبادة لهم وكفر أما إذا اتبعهم جهلاً أو اجتهادًا فهذا لا يكون عبادة لهم، ولا يدخل في الوعيد، لأن الإنسان مطالب بسؤال العلماء والأخذ بفتواهم فيما لا يعلم مخالفته لشرع الله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ﴾ الأحبار: جمع حبر، وحبر بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم الواسع العلم، والرهبان: جمع راهب، وهو العابد الزاهد.

....

قوله: ﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ . أي: مشاركين لله عز وجل في التشريع، لأنهم يحلون ما حرم الله فيحله هؤلاء الأتباع، ويحرمون ما أحل الله فيحرمه الأتباع.

قوله: ﴿وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ﴾ أي: اتخذوه إلهًا مع الله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ ، والعبادة: التذلل والخضوع، واتباع الأوامر واجتناب النواهي.

قوله: ﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا﴾ هو الله عز وجل، وإله، أي: مألوه معبود مطاع.

قوله: ﴿سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ «سبحان»: اسم مصدر، وهي معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبًا تقديره يسبح سبحانًا، أي: تسبيحًا، لأن اسم المصدر بمعنى المصدر، فسبحان: مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبًا وهي ملازمة للإضافة: إما إلى مضمر، كما في الآية: ﴿سُبْحَانَهُ﴾ ، أو إلى مظهر، كما في (سبحان الله).

وقوله: ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ . أي: مما سواه من المسيح ابن مريم والأحبار والرهبان، فهو متنزه عن كل شرك وعن كل مشرك به.

قوله: «إنا لسنا نعبدهم». أي: لا نعبد الأحبار والرهبان، ولا نسجد لهم ولا نركع ولا نذبح ولا ننذر لهم، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!».

فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبدًا، لأنه رسول الله، فما أحله، فقد أحله الله، وما حرمه، فقد حرمه الله، وقد حاول بعض الناس أن يعل الحديث لهذا المعني مع ضعف سنده، والحديث حسنه الترمذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون.

قوله: «فتلك عبادتهم». ووجه كونها عبادة: أن من معنى العبادة الطاعة، وطاعة غير الله عبادة للمطاع، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعة الله، أما إذا كانت في طاعة الله، فهي عبادة لله؛ لأنك أطعت غير الله في طاعة الله.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ النُّورِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ بَرَاءة.

«الثَّالِثَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى مَعْنَى العِبَادَةِ الَّتِي أَنْكَرَهَا عَدِيٌّ.

«الرَّابِعَةُ»: تَمْثِيلُ ابنِ عَبَّاسٍ بِأَبِي بَكْرٍ وعُمَرَ، وتَمْثِيلُ أَحْمَدَ بِسُفْيَانَ.

«الخَامِسَةُ»: تَغَيُّرُ الأَحْوالِ إِلَى هَذِهِ الغَايَةِ، حَتَّى صَارَ عِنْدَ الأَكْثَرِ عِبَادَةُ الرُّهْبَانِ هِيَ أَفْضَلُ الأَعْمَالِ، وتُسَمَّى الوِلَايَةَ، وعِبَادَةُ الأَحْبَارِ هِيَ العِلْمُ والفِقْهُ، ثُمَّ تَغَيَّرَتِ الحَالُ إِلَى أَنْ عُبِدَ مِنْ دُونِ اللهِ مَنْ لَيْسَ مِنَ الصَّالِحِينَ، وعُبِدَ بِالمَعْنَى الثَّانِي مَنْ هُوَ مِنَ الجَاهِلِينَ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النور. وهي قوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾، وسبق تفسيرها.

الثانية: تفسير آية براءة. وهي قوله تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ الآية، وقد سبق ذلك.

الثالثة: التنبية على معنى العبادة التي أنكرها عدي؛ لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبهه، لكن بيَّن ﷺ المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال.

الرابعة: تمثيل ابن عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان: أي: إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يُعَارَض قول النبي ﷺ بقولهما، فما بالك بمن عارض قول النبي ﷺ بقول من دونهما؟! فهو أشد وأقبح، وكذلك مثل الإمام أحمد بسفيان الثوري وأنكر على مَن أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله ﷺ، واستدل بقوله تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ﴾ الآية.

الخامسة: تحول الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي

....

أفضل الأعمال.. إلخ.

يقول المؤلف رحمه الله تعالى: تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال.. وهذا لا شك أنه أشد من معارضة قول الرسول ﷺ بقول أبي بكر وعمر.

ثم قال: «ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين»، أي: يركع ويسجد له، ويعظم تعظيم الرب، ويوصف بما لا يستحق، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر.

ثم قال: «وعبد بالمعنى الثاني»: وهو الطاعة والاتباع مَن هو من الجاهلين، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، كما يوجد في بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية، فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئًا، فصاروا يعبدون بهذا المعنى، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله.

وهذا في زمان المؤلف، فكيف بزماننا؟! وقد قال النبي ﷺ فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، أنه قال: «لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه، حتى تلقوا ربكم »، وقال النبي ﷺ للصحابة: «ومن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا » وعصر الصحابة أقرب إلى الهدي من عصر من بعدهم.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ﴾ الأحبار جمع حَبر أو جمع حِبر وهو: العالِم.

«﴿وَرُهْبَٰنَهُمْ﴾» جمع راهب، وهو: العابد، والغالب أن الأحبار من اليهود، والرهبان من النصارى.

«﴿أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾» أي: يطيعونهم في التحليل والتحريم.

....

﴿وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ﴾ غلوا فيه واتخذوه ربًا يعبدونه.

﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فسمّاه شركًا، ونزّه نفسه عنه، فدلّ على أنّ طاعة الأحبار والرُّهبان في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرّم الله أنه يُعتبر شركًا بالله عزّ وجلّ، ويعتبر حديث عديّ هذا تفسيرًا للآية.

فَلمّا سمع عديّ رضي الله عنه رسول الله ﷺ يقرأ هذه الآية قال: «إنا لسنا نعبدهم»، فَهِمَ رضي الله عنه أن عبادتهم تعني الركوع لهم والسجود لهم، والذبح لهم فقط.

قال ﷺ: «أليس يحرّمون ما أحل الله فتحرّمونه، ويحلون ما حرّم الله فتحلُّونه؟»، قال: بلى، قال: «فتلك عبادتهم» فدلّ هذا على أن طاعة الأحبار والرُّهبان في تحريم الحلال وتحليل الحرام عبادة لهم، ويُعتبر هذا من شرك الطاعة، لأن التحليل والتحريم حقٌّ لله سبحانه وتعالى، فليست العبادة قاصرة على السجود والركوع والدعاء والذبح والنذر وغير ذلك مما يفعله الوثنيُّون، بل ويشمل طاعة المخلوقين في معصية الخالق سبحانه وتعالى ومخالفته في تشريعه، يدخل هذا في ضِمْن العبادة، فالعبادة عامة ليست مقصورة على نوع أو أنواع من العبادة، بل هي شاملة لكل ما هو من حق الله، ومن ذلك: التحليل والتحريم.

ما يُستفاد من هذه النصوص:

أولاً: تحريم طاعة العلماء والأمراء في تحريم الحلال وتحليل الحرام.

ثانيًا: أن طاعة العلماء والأمراء في غير معصية الله واجبة؛ لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

ثالثًا: في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما أن قولَ العالم إذا خالف قول رسول الله ﷺ فإنه يجب الأخذ بقول رسول الله ﷺ وترك قول العالم مهما بلغ من الفضل.

خامسًا: يؤخذ من قول الإمام أحمد: أن من لا يعرف الإسناد وصحته يجب

١٠٤) ٣٩-باب

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ الآيات [النساء: ٦٠].

وقـــــولُهُ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١]

عليه التقليد لمن يثق بعلمه وعمله، لئلا يضيع في دينه.

سادسًا: أن صحة الإسناد تدلُّ على صحة المتن خلافًا لمن قال من العقلانيِّين: إنه وإنْ صحّ الإسناد فهو لا يدل على صحة المتن.

سابعًا: يؤخذ من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه أن العبادة ليستْ قاصرةً على الركوع والسجود والدعاء والاستغاثة، بل تشمل طاعة الأوامر وترك النواهي.

ثامنًا: أنّ مَن أطاع العلماء والأمراء أو غيرهم في تحريم الحلال أو تحليل الحرام أنه قد اتّخذهم شركاء لله سبحانه وتعالى في عبادته، وهذا محلّ الشاهد من الآية الكريمة وحديث عدي للترجمة.

والله تعالى أعلم.

١٠٤) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾.

أراد المؤلف بيان التحذير من التحاكم إلى غير الله وأن الواجب التحاكم إلى شريعة الله في كل الأمور كما قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾... الآية.

وقـــال تـــعـــالـــى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ فهذه تدل على وجوب التحاكم إلى

وقَوْلُهُ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].
وقَوْلُهُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

شرع الله، وأنه لا يجوز التحاكم إلى غيره كائنًا من كان، وهذا أصل مجمع عليه.

وتبين الآية أن بعض الناس يدعي الإيمان والإسلام، وهو ليس كذلك، بل هو من المنافقين. فإذا جاءت الحوادث والخصومات طلبوا التحاكم إلى غير الله، وإلى الطاغوت، وهو كل ما عبد من دون الله، وكل من حكم بغير ما أنزل الله عن عمد وهوى، فالمنافقون يريدون من يوافق هواهم، ويأخذ الرشوة ليحكم لهم بغير شرع الله، وهذا دليل على نفاقهم وهؤلاء شأنهم الإعراض عن الحق كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ فالواجب الحذر منهم، ومن أخلاقهم الذميمة.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾.

فيزعمون أنهم مصلحون مع إفسادهم؛ لجهلهم وضلالهم ونفاقهم انقلبت عليهم الأمور حتى صار الفساد صلاحًا، ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

وصلاح الأرض باتباع الشرع وتحكيمه، وفسادها بمخالفة أمر الله والتحاكم إلى غيره.

﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

أي: يريد هؤلاء المتحاكمون إلى اليهود وغيرهم من الطواغيت التحاكم إلى حكم الجاهلية، وهل هناك حكم أحسن من حكم الله؟ فهو أعلم بمصالح عباده، والعالم بما تنتهي إليه أمورهم وعواقبهم فهو عالم بكل شيء.

* **ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾. هذا يُعيّن أن يكون الخطاب للنبي ﷺ هنا، ولم يقل الذين آمنوا، لأنهم لم يؤمنوا، بل يزعمون ذلك وهم كاذبون.

والذي أُنزل على النبي ﷺ الكتاب والحكمة، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]، قال المفسرون: الحكمة السنة، وهم يزعمون

....

أنهم آمنوا بذلك، لكن أفعالهم تكذب أقوالهم، حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله.

الطاغوت بالمعنى الأعم، فقد حَدَّه ابن القيم بأنه: «كل ما تجاوز العبد به حده من معبود أو متبوع أو مطاع»، وقد تقدَّم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد.

قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾. أي: أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرًا ليس فيه لبس ولا خفاء، فمن أراد التحاكم إليه، فهذه الإرادة على بصيرة، إذ الأمر قد بين لهم.

قوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ﴾. جنس يشمل شياطين الإنس والجن.

قوله: ﴿أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾. أي: يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة، ولكن بالتدريج.

فقوله: ﴿بَعِيدًا﴾ أي: ليس قريبًا، لكن بالتدريج شيئًا فشيئًا حتى يوقعهم في الضلال البعيد.

قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾. أي: قال لهم الناس: أقبلوا ﴿إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن ﴿وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ نفسه في حياته وسنته بعد وفاته، والمراد هنا الرسول ﷺ نفسه في حياته.

قوله: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر، بدليل قوله: (تعالوا)، فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده.

والمعنى: كأنما تشاهدهم.

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

الإفساد في الأرض نوعان:

الأول: إفساد حسي مادي: وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك.

الثاني: إفساد معنوي، وذلك بالمعاصي، فهي من أكبر الفساد في الأرض، قال تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟

....

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

قوله: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ . وهذه دعوى من أبطل الدعاوي، حيث قالوا: ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح.

ولهذا قال تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ﴾ . (ألا): أداة استفتاح، والجملة مؤكدة بأربع مؤكِّدات، وهي: (ألا)، و(إنَّ). وضمير الفصل (هم). والجملة الاسمية، فالله قابل حصرهم بأعظم منه، فهؤلاء الذين يُفسدون في الأرض ويدَّعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم.

وقوله: ﴿بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ من باب تأكيد اللوم والتوبيخ، إذا كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح، وإن كان المطلوب هو الإصلاح بعد الفساد.

الآية الرابعة قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ . الاستفهام للتوبيخ، و(حكم): مفعول مقدم لـ (يبغون)، وقُدِّم لإفادة الحصر، والمعني: أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية.

و(يبغون): يطلبون، والإضافة في قوله: (حكم الجاهلية) تحتمل معنيين:
أحدهما: أن يكون المعنى: أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون، فيريدون أن يعيدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة، ومنها البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد.

ثانيهما: أن يكون المعنى: أفحكم الجهل الذي لا يبنى على العلم يبغون، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أو لم تكن، وهذا أعم.

والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير.

وكل حكم يخالف حكم الله، فهو جهل وجهالة.

فإن كان مع العلم بالشرع، فهو جهالة، وإن كان مع خفاء الشرع، فهو جهل.

قوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾. (من): اسم استفهام بمعنى النفي، أي: لا

....

أحد أحسن من الله حكمًا، وهذا النفي مُشرَب معنى التحدي، فهو أبلغ من قوله: «أحسن من الله حكمًا»، لأنه متضمن للنفي وزيادة.

وقوله: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾. خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقًا، ولذلك هدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه، فجمعوا بين المتشابهات والمختلفات من النصوص، وقالوا: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧]، وعرفوا حسن أحكام الله تعالى، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد، فلم يرضوا عنها بديلًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب من جنس الباب الذي قبله كلاهما في تغيير شرع الله، لكن هذا الباب يخص التحاكم في الخصومات خاصة والباب الذي قبله في التحليل والتحريم عمومًا.

وقولُ المصنف- رحمه الله تعالى-: «باب قول الله تعالى» يعني: ما جاء في تفسير هذه الآيات ممّا ذكره أهلُ العلم في تفسيرها؛ ممّا يدلّ دَلالة واضحة على أنّ التحاكُم إلى ما أنزل الله من التّوحيد والعبادة، وأنّ التحاكُم إلى غيره شركٌ بالله عزّ وجلّ وكفرٌ به، لأنّ الحكم لله وحده: الحكم القدَري، والحكم الشرعي، والحُكم الجزائي كلّه لله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، ﴿لَهُ ٱلْخَلْقُ﴾، هو الذي خلق، (وله الأمر)، فهو الذي يأمر وينهى، ويحلّل ويحرّم، ليس لغيره شركٌ في ذلك. وقال تعالى: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

ومناسبة عقد هذا الباب في كتاب التوحيد: أن التّحاكُم إلى ما أنزل الله هو من التّوحيد والتحاكُم إلى غيره شركٌ بالله عزّ وجلّ، شركٌ في الحكم والتّشريع.

ثم ذكَر الآيات، وهي قولُ الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ﴾ هذا تعجُّب استنكار.

﴿إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ هل يتّفق هذا مع دعوى الإيمان؟ لا يتّفق، لأنهم يريدون أن

....

يجمعوا بين الإيمان والكُفر، ولا يمكن هذا، فالمؤمن بالله وبرسوله يحكِّم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، أما الذي يدّعي الإيمان ولكنّه في الحكم لا يرجع إلى الله ولا إلى رسول الله، فهذا ليس بمؤمن، ولهذا قال: ﴿يَزْعُمُونَ﴾ والزّعمُ هو: أكذبُ الحديث، وهذا يدلّ على أنهم كاذبون في دعواهم الإيمان، والدليل على كذبهم: أنّهم يريدون أن يتحاكموا إلى الطّاغوت، ولو كان إيمانهم صادقًا لم يتحاكموا إلّا إلى كتاب الله وسنّة رسول الله.

فدلّ هذا على أن إرادة التحاكُم إلى غير كتاب الله وسنة رسول الله- مجرّد الإرادة- يتنافى مع الإيمان، فكيف إذا فَعل؟ كيف إذا تحاكَم إلى غير كتاب الله وسنّة رسوله؟ إذا كان مَن نوى بقلبه واستباح هذا الشيء ولو لم يفعل أنّه غير مؤمن، فكيف بمن نفّذ هذا وتحاكَم إلى غير كتاب الله وسنة رسوله في أموره كلها، أو في بعضها؟

وقوله: ﴿ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ وهو القُرآن.

﴿وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ وهو: الكُتُب السابقة، لأنّ الإيمان بالكُتُب كلها هو أحد أركان الإيمان الستّة.

وقوله: ﴿يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ ادّعوا هذا، لكن لَمّا جاء التنفيذ اختلف الفعل عن القول، وتبيّنت حقيقتهم.

﴿يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الطّاغوت: مشتقٌّ من الطُّغيان، وهو: مجاوزة الحدّ، قال الشيخ الإمام ابن القيِّم: (الطّاغوت: ما تجاوز به العبدُ حدّه من معبود أو متبوعٍ أو مُطاعٍ في معصية الله، والطّواغيتُ كثيرون، ورؤوسهم خمسة: إبليسُ- لعنه الله، ومَن عُبد وهو راضٍ، ومَن دعا الناس إلى عبادة نفسه، ومَن حكم بغير ما أنزل الله، ومن ادّعى علم الغيب».

وقوله: ﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ بيّن سبحانه وتعالى أنّ عملهم هذا إنما هو إملاءٌ من الشيطان، فهو الذي سوّل لهم هذه الإرادة- إرادة التحاكُم إلى الطّاغوت- هو الذي سوّل لهم وأملى عليهم هذه الفكرة الخبيثة، يريد أن يُبعدهم

....

ويُغوِيَهم، وليس ضلالاً عاديًا، بل ﴿ضَلَٰلًا بَعِيدًا﴾ عن الحق، يُبعدهم غاية البُعد، فلا يكفيه أنّه يتركهم في مكان قريب، لأنّهم إذا كانوا في مكان قريب ربّما يرجعون، لكن يُبعدهم بُعدًا لا يرون معه الحق أبدًا. هذا الذي يريده الشيطان، فهو الذي يبعد الناس عن تحكيم كتاب الله وسنّة رسوله، لأنّ الشيطان يريد لهم الشرّ ولا يُريد لهم الخير، ولا يكفيه الانحراف اليسير، لا يرضى إلّا بالانحراف الكُلّي والبعيد عن منهج الله سبحانه وتعالى.

ثم أيضًا من علاماتهم: أنهم لا يقبلون النّصيحة، لأنّ الشيطان أضلّهم ضلالاً بعيدًا، ولهذا قال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ﴾ طُلب منهم ونُصحوا أن يرجعوا إلى الحق لا يقبلون، لأنهم تعمّدوا مخالفة الحق، فهم ما تركوا الحقّ عن جهل، ولكنّهم تركوه عن تعمُّد، فلذلك لا يقبلون النّصيحة، ولهذا قال: ﴿رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ يعرضون إعراضًا كليًّا.

والمنافقون: جمع منافق، وهو: الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر، لأنه لَمّا رأى قوة الإسلام لم يستطع معارضته، فلجأ إلى حيلة؛ وهي أن يُظهِر الإيمان من أجل أن يعيش مع المسلمين ويسلَم على دمه وماله، ويَبقَى على الكفر في باطن أمره، فهو أظهر الإسلام خداعًا ومكْرًا، فصار شرًا من الكافر الخالص، لأنّ الكافر الخالص أخفّ من المنافق، لأنّ الكافر الخالص معلوم ومعروف عداوته، معروف موقفه من الإسلام، لكن هذا موقفه من الإسلام متذبذب، لا هو مع الكفّار ولا هو مع المسلمين ﴿مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ﴾، إن صارت الغلبة للكفّار فرح وعاش معهم، وإن صارت العزّة والغَلَبة للمؤمنين عاش معهم، فيُريد أن يعيش مع القوي، وهذا أخسّ المذاهب، وأحطّ المذاهِب، لأنّ الإنسان يجب أن يكون صريحًا، لا يخادع، لكن هؤلاء يخادعون، ولذلك صاروا في الدَّرْك الأسفل من النار ﴿وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾.

قوله رحمه الله: «وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾» هذه الآية في سياق الآيات التي ذكرها الله في مطلَع سورة البَقرة في

....

المنافقين؛ أي: إذا قيل للمنافقين: لا تُفسدوا في الأرض بالمعاصي، ومن أشدّ المعاصي: التحاكُم إلى غير ما أنزل الله، وهذا وجه إيراد الآية في هذا الباب وهو أنّ تحكيم غير شريعة الله من الإفساد في الأرض، وأن تحكيم شريعة الله هو صَلاح الأرض، فكذلك بقيّة الطّاعات، فصلاح الأرض إنّما يكون بطاعة الله عزّ وجلّ وفساد الأرض إنّما يكون بمعصية الله عزّ وجلّ، فالمعاصي تُحدِثُ الفساد في الأرض من نُضوب المياه، وانحباس الأمطار، وغلاء الأسعار، وظُهور المعاصي والمنكَرات، كلّ هذا فسادٌ في الأرض، ولا صلاح للأرض إلا بطاعة الله عزّ وجلّ، ولا عِمارة للأرض إلّا بطاعة الله عزّ وجلّ.

فالمنافقون إذا قيل لهم: اترُكوا النّفاق لأنّ النفاق فساد، ﴿قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾، وهذا من فساد الفِطْرة، حيث يعتقدون أنّ ما هم عليه هو الإصلاح، وأنّ ما عليه المؤمنون هو الفساد. وهكذا كلّ صاحب مذهب فاسد، يدّعي أن مذهبه إصلاح في الأرض، وأنّه تقدّم، وأنه رُقيّ، وأنّه حضارة، وأنّه، وأنه، إلى آخره.

وكما ذكرنا: أنّ التحاكُم إلى كتاب الله من الإصلاح في الأرض، والتحاكُم إلى غير كتاب الله من الإفساد في الأرض، فيكون هذا وجه سِياق المصنِّف رحمه الله لهذه الآية في هذا الباب.

قال رحمه الله: «وقوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ المراد بالجاهلية: ما كان قبل الإسلام، كان أهل الجاهليّة على ضلالة، ومن ذلك: التّحاكم، كانوا يتحاكمون إلى الكُهّان، وإلى السحرة، وإلى الطّواغيت، وإلى العوارِف القَبَليّة.

فهؤلاء المنافقون الذين ادّعوا الإسلام يريدون حكم الجاهليّة، ولا يريدون حكم الله سبحانه وتعالى، ولا يريدون أن ينتقلوا من حكم الجاهلية إلى حكم الشريعة، بل يريدون البقاء على حكم الجاهلية، وهذا مذهب المنافقين دائمًا ومَن سار في رَكْبِهم.

وهذا استنكارٌ من الله سبحانه وتعالى لمن يريد أن يستبدل الشّريعة بالقوانين الوضعيّة، لأنّ القوانين الوضعيّة هي حكم الجاهليّة، لأنّ حكم الجاهلية أوضاع

١٠٥) وعَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يُؤْمِنُ أَحَدُكُم حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ». قَالَ النَّوَوِيُّ: حَدِيثٌ صَحِيحٌ، رَوَيْنَاهُ فِي كِتَابِ «الحُجَّةِ» بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ.

وضعوها ما أنزل الله بها من سلطان، والقوانين الوضعيّة أوضاع وضعها البشر، فهي وحكم الجاهليّة سواء لا فرق، فالذي يريد أن يحكم بين الناس بالقوانين الوضعيّة يريد حكم الجاهليّة الذي أراده المنافقون من قبل.

ثم قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ ﴿مَنْ﴾ بمعنى: لا، أي: لا أحد أحسنُ من الله حكمًا، لأنّ الله سبحانه وتعالى، عليم حكيم خبير، يعلم ما يصلُح به العباد، ويعلم حوائج النّاس، ويعلم ما يُنْهِي النزاعات بين النّاس، ويعلم العواقب وما تئول إليه، فهو تشريعٌ من عليم حكيم سبحانه وتعالى، لا يستوي هو والقوانين التي وضعها البشر، الذين عقولهم قاصرة وتدخُلهم الأهواء والرّغبات، وعلمهم محدود، إنْ كان عندهم علم، لا يشرِّع للبشر إلّا خالق البشر الذي يعلم مصالحهم، ويعلم ما تنتهي إليه أُمورهم، ولهذا قال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ﴾ أي: لا أحد أحسنُ حكمًا من الله.

١٠٥) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** - عن عبد الله بن عمر مرفوعًا: **«لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به»**.

أي: لا يؤمن الإيمان الكامل الواجب حتى يكون هواه: إرادته وقصده وطلبه تبعًا لما جئت به، وهكذا ينبغي أن تكون ميول المؤمن ونياته خاضعة لحكم الله.

وضعف بعض العلماء هذا الحديث، ولكن معناه صحيح.

* **ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله في حديث عبد الله بن عمر: «لا يؤمن أحدكم». أي: إيمانًا كاملاً إلا إذا كان لا يهوى ما جاء به النبي ﷺ بالكلية، فإنه ينتفي عنه الإيمان بالكلية، لأنه إذا كره ما أنزل الله، فقد حبط عمله لكفره، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

قوله: «حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». الهوى بالقصر هو: الميل، وبالمد

....

هو: الريح، والمراد الأول.

و« حتى» : للغاية، والذي جاء به النبي ﷺ هو القرآن والسنة.

وإذا كان هواه تبعًا لما جاء به النبي ﷺ، لزم من ذلك أن يوافقه تصديقًا بالأخبار، وامتثالاً للأوامر، واجتنابًا للنواهي.

قوله: «قال النووي: حديث صحيح». صححه النووي وغيره، وضعفه جماعة من أهل العلم، منهم ابن رجب في كتابه «جامع العلوم والحكم»، ولكن معناه صحيح.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وعن عبد الله بن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لِمَا جئت به».

قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم» هذا نفيٌ للإيمان الكامل، وليس نفيًا للإيمان كلِّه، لأنّه قد يأتي نفي الإيمان، ويُراد نفي الإيمان الكامل كما في قوله ﷺ: «لا يؤمن أحدُكم حتى يحبَّ لأخيه ما يحبّ لنفسه»، ومثل قوله ﷺ: «لا يزني الزّاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرِق السّارق حين يسرِق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن» فالمراد بهذَا: نفيُ الإيمان الكامل، لا نفي مطلَق الإيمان، فإنّ الفاسق يكون معه من الإيمان ما يصحّ به إسلامُه، أمّا الذي ليس معه إيمان أصلاً، فهذا كافرٌ خارجٌ من الملّة. وهذا مذهب أهل السنّة والجماعة: أن الفاسق لا يُسْلَب مطلَق الإيمان، ولا يعطى الإيمان المطلَق، فلا يُسلب لمطلق الإيمان بحيث يكون كافرًا كما تقوله الخوارج والمعتزلة، ولكنه لا يُعطى الإيمان المطلق كما تقوله المرجئة، وإنما يُقال: «مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته»، أو يُقال: «مؤمنٌ ناقص الإيمان»، لأنّ الذين يقولون: إن صاحب الكبيرة مؤمن كامل الإيمان، هم المرجئة، والذين يقولون: إن صاحب الكبيرة كافرٌ خارجٌ من الإيمان وليس معه من الإيمان شيء، هؤلاء هم الخوارج والمعتزلة.

وأهل السنّة- ولله الحمد- وسط بين هذين المذهبين، فلا يسلبون مرتكب الكبيرة الإيمان بالكُلِّيّة، ولا يُعطونه الإيمان الكامل، وإنما يسمّونه مؤمنًا فاسقًا أو مؤمنًا ناقص الإيمان.

١٠٦) وقَالَ الشَّعْبِيُّ: كَانَ بَيْنَ رَجُلٍ مِنَ المُنَافِقِينَ ورَجُلٍ مِنَ اليَهُودِ خُصُومَةٌ؛ فَقَالَ اليَهُودِيُّ: نَتَحَاكَمُ إِلَى مُحَمَّدٍ. لأَنَّهُ عَرَفَ أَنَّهُ لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ. وقَالَ المُنَافِقُ: نَتَحَاكَمُ إِلَى اليهُودِ. لِعِلْمِهِ أَنَّهُمْ يَأْخُذُونَ الرِّشْوَةَ - فَاتَّفَقَا أَنْ يَأْتِيا كَاهِنًا فِي جُهَيْنَةَ، فَيَتَحَاكَمَا إِلَيْهِ، فَنَزَلَتْ: «﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾» الآية [النساء: ٦٠].

وقوله ﷺ: «حتى يكون هواه» الهوى مقصور، معناه: تكون محبّته ورغبته تابِعةً لِمَا جئتُ به، فما جاء به الرّسول ﷺ أحبّه، وما خالف ما جاء به الرّسول ﷺ أبغضه.

«تبعًا لِمَا جئتُ به» من الشّريعة والكتاب والسنّة، فهذه علامةٌ واضحة بين أهل الإيمان وأهل الكفر.

قوله: «قال النّووي» الإمام أبو زكريّا يحيى بن شَرَف النّووي، صاحب التصانيف العظيمة في الإسلامِ كـ «شرح صحيح الإمام مسلم»، «وروضة الطالبين» في الفقه، وغير ذلك من المصنفات العظيمة، وقد تُوفّي رحمه الله وهو شابٌ في الأربعين من عُمُره.

وقوله: «رَوَيْنَاهُ في كتاب الحُجّة» وهو كتابٌ لأبي الفتح نصر بن إبراهيم المقدِسي الشّافعي، سماه: «الحُجّة على تارك المَحَجَّة»، وهو كتابٌ في التوحيد يردّ فيه على المبتدعة وأصحاب المقالات الباطلة في العقيدة، فيُعتبر من كتب العقيدة وهو مطبوع محقق.

«بسند صحيح» الإسناد تؤيّده الأدلّة من الكتاب والسنّة، فإنّ المؤمن يجب أن يكون محبًّا وراغبًا فيما جاء به النبي ﷺ، ومبغضًا لِمَا سواه.

١٠٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قال الشعبي: كان بين رجلين من المنافقين واليهود خصومة وقيل: فهذا يدل على أن المنافق أشر من اليهود؛ لأنهم يلبسون على الناس أمرهم، ويحصل بهم الضلال؛ فصاروا بذلك في الدرك الأسفل من النار.

فالواجب التحاكم إلى شرع الله وعدم الرضى بغيره، وتدل قصة عمر أن التحاكم إلى غير شرع الله كفر وردة، ومن كره حكم الله فهو كافر.

وقِيلَ: نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ اخْتَصَمَا، فَقَالَ أَحَدُهُمَا: نَتَرَافَعُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وقَالَ الآخَرُ: إِلَى كَعْبِ بنِ الأَشْرَفِ، ثُمَّ تَرَافَعَا إِلَى عُمَرَ، فَذَكَرَ لَهُ أَحَدُهُمَا القِصَّةَ. فَقَالَ لِلَّذِي لَمْ يَرْضَ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ : أَكَذَلِكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، فَضَرَبَهُ بِالسَّيْفِ فَقَتَلَهُ.

وفي القصتين نظر لكن المعنى صحيح.

الشعبي: عامر بن شراحبيل.

فائدة:

«**خلق آدم على صورته**»[1] أي: خلق الله آدم سميعًا بصيرًا متكلمًا ذا وجه ويد وقدم، ونحوه مما هو ثابت فالله يسمع وآدم يسمع، والله متكلم، وآدم متكلم. ولكن لا يشبهه في الذات، ولا في الصفات ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾.

أما من قال: إن الضمير يرجع إلى آدم فخطأ، وقصده الفرار من التشبيه.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله في أثر الشعبي: «وقال الشعبي». أي: في تفسير الآية.

قوله: «رجل من المنافقين». هو من يظهر الإسلام ويبطن الكفر، وسمي منافقًا من النافقاء، وهي جُحر اليربوع، واليربوع له جُحر له باب وله نافقاء - أي يحفر في الأرض خندقًا حتى يصل منتهى جحره ثم يحفر إلى أعلى، فإذا بقي شيء قليل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف، فإذا حُجر عليه من الباب خرج من النافقاء.

قوله: «عرف أنه لا يأخذ الرشوة «تعليل لطلب التحاكم إلى النبي ﷺ.

والرشوة: مُثلثةُ الراء، فيجوز الرِّشوة، والرَّشوة، والرُّشوة، وهي: المال المدفوع للتوصل إلى شيء.

قال أهل العلم: «لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسان أن يتوصل بها إلى باطل أو دفع حق، أما مَن بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بها باطلاً عن نفسه، فليست حرامًا على الباذل، أما على آخذها، فحرام».

---

(١) رواه البخاري (٦٢٢٧)، ومسلم (طرف حديث ٢٦١٢).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسيرُ آيَةِ النِّسَاءِ ومَا فِيهَا مِنَ الإِعَانَةِ عَلَى فَهْمِ الطَّاغُوتِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾.

قوله: «فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة». كأنه صار بينهما خلاف، وأبى المنافق أن يتحاكما إلى النبي ﷺ.

قوله: «وقيل». ذكر هذه القصة بصيغة التمريض، لكن ذكر في «تيسير العزيز الحميد»: أنها رُويت من طرق متعددة، وأنها مشهورة متداولة بين السلف والخلف تداولاً يُغني عن الإسناد، ولها طرق كثيرة ولا يضرها ضعف إسنادها. اهـ.

قوله: «رجلين». هما مبهمان، فيحتمل أن يكونا من المسلمين المؤمنين، ويحتمل أن يكونا من المنافقين، ويحتمل غير ذلك.

قوله: «إلى كعب بن الأشرف». وهو رجل من زعماء بني النضير.

قوله: «أكذلك». خبر لمبتدأ محذوف، التقدير: أكذلك الأمر.

قوله: «فضربه بالسيف». الضارب عمر.

وهذه القصة والتي قبلها تدل على أن من لم يرض بحكم رسول الله ﷺ كافر يجب قتله، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية النساء وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت. وهي قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾.

وقوله: «وما فيها من الإعانة على فهم الطاغوت». أي: أن الطاغوت مشتق من الطغيان، وإذا كان كذلك، فيشمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع، فالأصنام والأمراء والحكام الذين يُحلون الحرام ويحرمون الحلال طواغيت.

الثانية: تفسير آية البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾. ففيها دليل على أن النفاق فساد في الأرض، لأنها في سياق المنافقين، والفساد يشمل جميع المعاصي.

«الثَّالِثَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الأَعْرَافِ ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾.

«الرَّابِعَةُ»: تَفْسِيرُ: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾.

«الخَامِسَةُ»: مَا قَالَهُ الشَّعْبِيُّ فِي سَبَبِ نُزُولِ الآيَةِ «الأُولَى».

«السَّادِسَةُ»: تَفْسِيرُ الإِيمَانِ الصَّادِقِ والكَاذِبِ.

«السَّابِعَةُ»: قِصَّةُ عُمَرَ مَعَ المُنَافِقِ.

«الثَّامِنَةُ»: كَوْنُ الإِيمَانِ لا يَحْصُلُ لأَحَدٍ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ.

الثالثة: تفسير آية الأعراف: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾. وقد سبق.

الرابعة: تفسير ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾. وقد سبق ذلك، وقد بينا أن المراد بحكم الجاهلية كل ما خالف الشرع، وأُضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه وأنه مبني على الجهل والضلال.

الخامسة: ما قال الشعبي في سبب نزول الآية الأولى. وقد سبق.

السادسة: تفسير الإيمان الصادق والكاذب. فالإيمان الصادق يستلزم الإذعان التام والقبول والتسليم لحكم الله ورسوله، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك.

السابعة: قصة عمر مع المنافق. حيث جعل عدوله عن الترافع إلى النبي ﷺ مبيحًا لقتله لردته، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه.

الثامنة: كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ. وهذا واضح من الحديث.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «قال الشّعبي: كان بين رجلٍ من المنافقين ورجل من اليهود خُصومة، فقال اليهودي:

نتحاكم إلى محمد؛ لأنه يعرف أن محمدًا ﷺ لا يأخذ الرشوة».

«وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود. لعلمه أنهم يأخذون الرشوة» والرّشوة مثلّث الرّاء، يقال: رِشوة، ورَشوة، ورُشوة، هي: ما يدفعه أحدُ الخصمين للحاكم من

....

أجل أن يقضي له، وما يدفعه للموظَّف أحدُ المراجعين من أجل أن يقدِّم معاملته على معاملة غيره من المستحقِّين، أو من أجل أن يعطيه ويحرِم المستحقِّين، أو من أجل أن يعطيه حقَّه الذي ليس فيه ضرر على أحد، فهذه رشوة، سواء كانت للقاضي في المحكمة، أو كانت لموظَّف في أحد الدوائر الحُكوميّة، من أجل أن يتلاعب بحقوق المراجعين، ويقدِّم من لا يستحقّ التقديم، ويؤخّر من يستحقّ التقديم، أو يعطي من لا يستحقّ، ويحرِم المستحقّ في الوظائف أو في أيّ شيء من المراجَعات.

والرّشوة سُحتٌ: قال النبي ﷺ: «لعن الله الراشي والمرتشي» الراشي هو: الذي يدفع الرّشوة، والمرتشي هو: الذي يأخُذ الرشوة، وقد سمّاها الله سُحْتًا في قوله عن اليهود: ﴿أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾، والمراد بالسُّحت: الرّشوة، لأنّ الرشوة تُفسد المجتَمع، فتفسد الحُكّام، والقُضاة، والموظّفين، وتضرّ أهل الحق، وتقدِّم الفُسّاق، ويحصُل بها خللٌ عظيم في المجتمع.

فالرشوة وَباءٌ خطير، إذا فَشَتْ في المجتمع خَرب نظامُه، واستطال الأشرار على الأخيار، وأُهين الحقّ، فهي سُحتٌ وباطلٌ، وهي من أعظم الحرام- والعياذ بالله- قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ وَتُدۡلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلۡحُكَّامِ لِتَأۡكُلُواْ فَرِيقٗا مِّنۡ أَمۡوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلۡإِثۡمِ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ قيل: هذه الآية نزلت في الرّشوة التي تُدفع للحُكّام من أجل أكل أموال النّاس بالباطل، سُمِّيت رشوة؛ مأخوذة من الرِّشاء وهو الحبل الذي يُتَوَصّل به إلى استنباط الماء من البئر، فكأن مقدِّم الرشوة يريد سحب الحكم أو جذب الحكم لنفسه دون غيره، من ذلك سمّيت رشوة.

فهذا اليهودي طلب التحاكم إلى الرسول ﷺ لعلمه أن الرسول لا يأخذ الرشوة لأن الرشوة سُحتٌ وحرام وباطل، والرسول ﷺ جاء بالحقّ والعدل بين الناس.

وأما المنافق- مع أنه يزعُم الإيمان- طلب أن يتحاكم إلى اليهود لعلمه أنّ اليهود يأخذون الرشوة، فقد قال الله تعالى فيهم: ﴿سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ﴾

....

«ثم اتّفقا أن يأتيا كاهنًا» والكاهن هو الذي يتلقى عن الشّياطين في استراق السمع، فالكاهن يستخدم الشياطين، وتُخبره بأشياء من الأمور الغائبة، فيُخبِر بها الناس ويكذب معها.

«في جُهينة» وجهينة: قبيلة معروفة، ويقال: إنها حيٌّ من قُضاعَة، وهي قبيلة كبيرة.

«فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾».

فيكون هذا أحد القولين في سبب نزول الآية الكريمة.

والسبب الثاني لنزول الآية:

أنها: «نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخَر: إلى كعْب بن الأشْرف» وكعب بن الأشرف زعيمٌ من زعماء اليهود، وهو عربيّ من قبيلة طَيّء، ولكن كان أخوالُه من اليهود من بني النّضير، فتهوّد، وكان من ألَدّ خُصوم رسول الله ﷺ.

«ثم ترافعا إلى عمر» وكلّ هذا محاولة للابتعاد عن حكم الله ورسوله.

«فذكر له» أحدُهما «القصّة» يعني: سبب مجيئهما.

«فقال» عمر رضي الله عنه: «للّذي لم يرضَ برسول الله ﷺ: أكذلك؟ قال: نعم. فضربه بالسّيف فقتله» لأنّه مرتدّ عن دين الإسلام، أو لأنّه لم يُسْلِم من الأصل، ولكنّه أظهر الإسلام نفاقًا، والمنافق إذا ظهر منه ما يعارِض الكتاب والسنّة وَجَب قتلُه دفعًا لشرّه، ولكنّ النبيّ ﷺ لم يقتل المنافقين كعبد الله بن أُبيّ وغيره، درْءًا للمفسدة، لئلّا يتحدّث الناس أنّ محمدًا يقتُل أصحابه. فالرّسول ﷺ ارتكب أخفّ المفسدتين- وهي: ترك قتله- لدفع أعلاهما وهو قول الناس: محمد يقتل أصحابه.

فدلّت هذه النّصوص في هذا الباب العظيم على أحكام عظيمة:

أوّلاً: في الآيات والحديث: وُجوب التحاكُم إلى كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ، وأنّ هذا هو مقتضى الإيمان.

....

ثانيًا: وُجوب تحكيم الكتاب والسنّة في كلّ المنازَعات، لا في بعضها دون بعض.

المسألة الثالثة: في هذه النصوص تفسير الطّاغوت، وأنّ من معانيه: كل من يحكم بغير ما أنزل الله.

المسألة الرّابعة: في هذه النصوص دليل على أنّ مَن اختار حكم الطاغوت على حكم الله، أو سوّى بين حكم الله وحكم الطّاغوت وادّعى أنّه مخيّر بينهما أنّه كافر بالله خارجٌ من الملّة.

المسألة الخامسة: في حديث عبد الله بن عمرو وفي آخر الآيات: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ دليل على أنّ علامة الإيمان: أن يقتنع بحكم الله ورسوله.

المسألة السّادسة: في سبب نزول الآية: دليل على تحريم الرّشوة، لأنّها من أكل المال بالباطل، ولأنّها تسبّب تغيير الأحكام عن مجراها الصحيح، وأنّها من صفة اليهود، فمن أخذها من هذه الأمّة فقد تشبّه باليهود، وقد قال ﷺ: «من تشبّه بقوم فهو منهم»، مع ما فيها من أكل المال بالباطل مع ما فيها من إفساد الحكم، ونشر الفوضى في الحُقوق، وهي شرٌّ كلّها.

المسألة السّابعة: في الحديث دليل على وُجوب قتل المنافق إذا ظهر منه ما يعارض الكتاب والسنّة، لأنّه أصبح مفسدًا في الأرض، فيجب على ولي الأمر قتله إلّا إذا ترتب على قتله فساد أكبر.

المسألة الثامنة: في قوله: ﴿ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا﴾ أنّه لا يُقبل اعتذار من تحاكَم إلى غير الكتاب والسنّة.

والمسألة العاشرة: فيه أن طلب الدّعاء من الرّسول ﷺ إنما هو في حال حياته، بدليل أن الصّحابة رضي الله عنهم ما كانوا يأتون إلى قبره ﷺ يطلبون منه الاستغفار والدعاء، وهم القدوة، وخير القرون، وأعلم الناس بتفسير القرآن ولأنه سبحانه قال: ﴿إِذ ظَّلَمُوٓا۟﴾ وإذ ظرف لما مضى من الزمان. ولم يقل: «إذا ظلموا» لأن إذا ظرف لما يستقبل من الزمان.

١٠٧) ٤٠-بابٌ

مَنْ جَحَدَ شَيْئًا مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

---

١٠٧) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا الباب عقده المؤلف لبيان وجوب إثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به - سبحانه وتعالى - من غير تحريف، ولا تعطيل، ولا تكييف، ولا تمثيل، وألا يغتر بأقوال أهل الاعتزال وأهل الباطل، بل يجب الأخذ بما قاله أهل السنة والجماعة من الصحابة، ومن سلك سبيلهم، وهو الذي جاءت به الرسل جاءوا بإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه اللائق به، وهكذا فعل الصحابة وتابعوهم أمروا آيات الصفات وأحاديثها كما جاءت، وأثبتوا ما دلت عليه من الأسماء والصفات عملاً بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ أي: لا سمي له ولا كفء له سبحانه وتعالى.

وأنكرت الجهمية الأسماء والصفات، وتأولوا الأسماء حتى صاروا معطلة، ومقتضى قولهم نفي وجود الله بالكلية، ولهذا حكم عليهم أهل السنة بالكفر، والواجب قتلهم إن لم يتوبوا فيستتابوا لذلك؛ لإنكارهم ما جاء في الكتاب العزيز والسنة المطهرة والإجماع.

وأطلق المؤلف الترجمة، ولم يحكم على جاحد الأسماء والصفات وحكمه الكفر.

قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ .

بين الله تعالى أن الرحمن هو ربنا وإلهنا، وأن كفر الكافرين بالرحمن كفر بالله؛ فيجب على المؤمن أن يحذر من صفات هؤلاء الضالين، وعليه أن يسلك مسلك أهل العلم والإيمان، وسمي إنكارهم الصفة: كفر بالرحمن؛ فدل على كفر من أنكر الصفات.

....

* ثانيا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الجحد: الإنكار، والإنكار نوعان:
الأول: إنكار تكذيب، وهذا كفر بلا شك، فلو أن أحدًا أنكر اسمًا من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول: ليس لله يد، أو أن الله لم يستو على عرشه، أو ليس له عين، فهو كافر بإجماع المسلمين، لأن تكذيب خبر الله ورسوله كفر مخرج عن الملة بالإجماع.
الثاني: إنكار تأويل، وهو أن لا ينكرها ولكن يتأولها إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان:
أن يكون للتأويل مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا لا يُوجب الكفر.
أن يكون لا مُسَوِّغ في اللغة العربية، فهذا حكمه الكفر؛ لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيبًا، مثل أن يقول: المراد بقوله تعالى ﴿تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا﴾ [القمر: ١٤] تجري بأراضينا، فهذا كافر لأنه نفاها نفيًا مطلقًا، فهو مُكذِّب.
ولو قال في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] المراد بيديه: السماوات والأرض، فهو كفر أيضًا؛ لأنه لا مسوغ له في اللغة العربية، ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية، فهو مُنكر ومكذب، لكن إن قال: المراد باليد النعمة أو القوة، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنيهما، قال الشاعر:

وَكَم لِظلام الليل عندك من يَد   تُحدِّثُ أَنَّ المانَوِيَّةَ تَكذِبُ

فقوله: من يد، أي: من نعمة، لأن المانوية يقولون: إن الظلمة لا تخلق الخير، وإنما تخلق الشر.
قوله: «من الأسماء». جمع اسم، واختلف في اشتقاقه، فقيل: من السمو، وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر.
وقيل: من السّمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما.
والمراد بالأسماء هنا أسماء الله عز وجل، وبالصفات صفات الله عز وجل، والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها.

....

﴿وَهُمْ﴾ . أي: كفار قريش.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ . المراد أنهم يكفرون بهذا الاسم لا بالمسمى، فهم يُقرّون به، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، وفي حديث سهيل بن عمر: «لما أراد النبي ﷺ أن يكتب الصلح في غزوة الحديبية قال للكاتب: «اكتب بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: أما الرحمن، فوالله ما أدري ما هي ولكن اكتب باسمك اللَّهُمَّ»[١]، وهذا من الأمثلة التي يراد بها الاسم دون المسمى.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قول الشيخ رحمه الله: «بابُ مَنْ جَحَد شيئًا من الأسماء والصّفات» أي: ما حكمُه؟، وما دليل ذلك؟

ومناسبة الباب: أنه لَمّا كان التّوحيد ثلاثة أنواع: توحيد الرُّبوبية، وتوحيد الألُوهيّة، وتوحيد الأسماء والصّفات، وكان غالبُ هذا الكتاب في النّوع الثّاني وهو توحيد العبادة، لأن فيه الخُصومة بين الرُّسل والأُمم، وهو الذي كثر ذكره في القرآن الكريم وتقريرُه والدّعوة إليه، فهو الأساس، وهو معنى شهادة أن لا إله إلّا الله، وهو الذي خلق الله الخلْق من أجله كما قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ .

وأما النّوع الأوّل وهو توحيد الرّبوبيّة: فهذا أكثرُ الأُمم مقرّة به، خصوصًا الذين كانوا في وقت نُزول القرآن من كُفّار قريش وكُفّار العرب كانوا مقرّين بتوحيد الرّبوبيّة، فهم يعتقدون أنّ الله هو الخالق الرّازق، المحيي، المميت، المدبِّر يعترفون بذلك كما جاءت آياتٌ في القرآن الكريم تبيّن ذلك: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ ، ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ ، ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾ ، ﴿قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾

---

(١) البخاري: كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد (٢٥٨١).

....

﴿سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾، هذا شيءٌ متقرِّر، ولكنّه لا يُدخِلُ في الإسلام، فمن أقرّ به واقتصر عليه ولم يقرّ بالنوع الثّاني وهو توحيد العبادة، ويأت به فإنه لا يكون مسلِمًا ولو أقرّ بتوحيد الرّبوبيّة.

أمّا النوع الثّالث: وهو توحيد الأسماء والصّفات، فهو في الحقيقة داخل في توحيد الربوبية.

ومن أجل هذا؛ بعض العلماء يُجمِل ويجعل التوحيد نوعين:

توحيدٌ في المعرفة والإثبات، وهو توحيد الرّبوبية والأسماء والصّفات وهو التوحيد العلمي.

وتوحيد في الطّلب والقصد؛ وهو التوحيد الطَّلَبي العملي، وهو توحيد الألوهيّة.

«﴿يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾» أي: ينكرون هذا الاسم الكريم، ويجحدونه.

ويوضّح ذلك سبب نزول الآية، وهو: أنّ كُفّار قريش لَمّا سمعوا رسول الله ﷺ يذكُر الرحمن، قالوا: وما الرّحمن؟ لا نعرف الرّحمن إلّا رحمن اليمامة. يَعْنُون: مسيلِمة الكذّاب، وذلك عندما صالح النّبي ﷺ المشركين في الحديبيَة، وأراد أن يكتُبَ الصُّلح، ونادى عليّ بن أبي طالب ليكتُب الصُّلح، فقال له: «اكتب: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ﴾»، قالوا: لا نعرف الرّحمن إلّا رحمن اليمامة، ولكن اكتُب باسمك اللّهمّ. فأنزل الله تعالى: «﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾».

وكذلك لَمّا كان النّبي ﷺ في مكّة، وكان يصلّي ويدعو في سُجوده: «يا الله، يا رحمن»، فقال المشركون لَمّا سمعوه: انظروا إلى هذا يزعُم أنّه يعبُد ربًّا واحدًا وهو يدعو ربّين: الله والرّحمن، قال الله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾.

بيّن سبحانه أنّ أسماءه كثيرة، وتعدُّد الأسماء لا يدلّ على تعدُّد المسمّى، بل تعدُّد الأسماء يدلّ على عظمة المسمّى، والله جل وعلا له أسماء كثيرة، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا

١٠٨) وفَي «صَحِيحِ البُخَارِيِّ» قَال عَلِيٌّ: «حَدِّثُوا النَّاسَ بِمَا يَعْرِفُونَ، أَتُرِيدُونَ أَنْ يُكَذَّبَ اللهُ ورَسُولُهُ؟».

﴿يَعۡمَلُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، وقال تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ﴾ إلى قوله: ﴿لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾، فالله له أسماءٌ كثيرة، كلّها حسنى، يعني: تامّة عظيمة، تشتمِل على معان جليلة.

وفي الحديث الصحيح: أنّ النّبي ﷺ قال: «إنّ لله تسعة وتسعين اسمًا مَنْ أحصاها دخل الجنّة»، وفي دعاء النّبي ﷺ: «أسألُك بكل اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحدًا من خلقك»، فدلّ على أنّ أسماء الله كثيرة لا يعلمها إلّا الله سبحانه وتعالى.

وكثرة الأسماء الحسنى تدلّ على عظمة المسمّى.

وقوله: ﴿فَٱدۡعُوهُ بِهَاۖ﴾ يعني: توسّلوا إليه بها في دعائكم، كأن تقول: يا رحمن ارحمني، يا غفور اغفر لي، يا توّاب تُب عليّ، يا رزاق ارزقني.. وهكذا.

﴿وَذَرُواْ ٱلَّذِينَ يُلۡحِدُونَ فِيٓ أَسۡمَٰٓئِهِۦۚ﴾ يعني: يُنكرونها، أو ينكرون معانيها ويحرفونها، توّعدهم الله بقوله: ﴿سَيُجۡزَوۡنَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾.

١٠٨) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي صحيح البخاري قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون أتريدون أن يكذب الله ورسوله».

لفظ البخاري: «أتحب أن يكذب الله ورسوله» فالمؤلف رواه بالمعنى.

والمعنى: أنه يجب على الواعظ والمذكر أن يذكر الناس بالألفاظ التي يعرفونها، والأساليب التي يعقلونها حتى يستفيدوا وينتفعوا، لأن كل قوم لهم أساليب؛ لأنك إذا حدثت قومًا بما لا يفهمون قد يصدقونك على غير ما أردت، وقد يفهمون غير ما قصدت، سواء في أسماء الله وصفاته أو أحكامه سواء باللغة العربية أو الإنجليزية أو الأردية أو غيرها، والعرب أنفسهم يختلفون في فهمهم، فيحدث كل أناس بما يعرفون من العبارات التي اعتادوها حتى يفهموا ما قلت،

وروَى عَبْدُ الرَّزَّاقِ عَنْ مَعْمَرٍ عَنْ ابنِ طَاوُوسٍ عَنْ أَبِيهِ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ: أَنَّهُ رَأَى رَجُلًا انتَفَضَ. لَمَّا سَمِعَ حَدِيثًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصِّفَاتِ، اسْتِنْكَارًا لِذَلِكَ. فَقَالَ: «مَا فَرَقُ هَؤلاءِ؟ يَجِدُونَ رِقَّةً عِنْدَ مُحْكَمِهِ، ويَهْلِكُونَ عِنْدَ مُتَشَابِهِ ؟!» انتهى.

وحتى لا يكذب الله ورسوله.

وهؤلاء الذين كذبوا الله ورسوله في لغات الصفات وقعوا في خطر عظيم؛ لأنهم تأولوا الصفات على غير تأويله، وتكلموا فيها بغير ما ينبغي حتى عطلوا صفات الله.

وكثير منهم قد يكون فهم الأمر على غير ما هو عليه لعجمته، كما قال بعض السلف لعمرو بن عبيد قال: إن العصاة مخلدون في النار؛ لأن الله أوعدهم بذلك؛ فقالوا له: إن الله يخلف إيعاده، ولا يخلف موعده، لأن إخلاف الإيعاد كرم وجود، وأما إخلاف الموعد فلؤم ولهذا يتنزه الله عنه، وقالوا له: من عجمتك أوتيت أي: ظننت إخلاف الإيعاد أمرًا مستقبحًا، وليس كذلك كما قال الشاعر:

وأني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

فهذا مدح.

وروى عبد الرازق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس أنه رأى رجلًا... هذا سند عظيم.

«ما فرق هؤلاء»؛ أي: ما خوفهم وجزعهم، أي ما أوجب لهم هذا الخوف والجزع.

«ويجدون رقة»؛ أي: أنهم إذا سمعوا الآيات المحكمات من القرآن والسنة يجدون رقة وخشوعًا، وإذا سمعوا آيات الصفات اشتبهت عليهم، وهلكوا عندها بالجزع والإنكار، وهذا يدل على أن هذا الشيء قديم، وأنه وجد في زمن من الصحابة؛ فيهلكون عند الآيات والأحاديث التي تشتبه عليهم بإنكارها، والشك فيها والريب؛ فدل على أن إنكار ما بينه الله لعباده أو الشك فيه هلاك.

وَلَمَّا سَمِعَتْ قُرَيْشٌ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَذْكُرُ الرَّحْمَنَ أَنْكَرُوا ذَلِكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ فِيهِمْ: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾

والحق الإيمان بما أخبر الله به ورسوله، فإن فهمته، فالحمد لله، وإلا فَكِلْهُ إلى عالمه، وقل: الله أعلم بمراده، واسأل أهل العلم، وإياك والإنكار والجزع؛ فإنه طريق المنافقين والهالكين، أما أهل السنة والجماعة؛ فيؤمنون بكل ما جاء في الكتاب والسنة ويرقون له ويعملون به، وإذا اشتبهت عليهم الآيات ردوها إلى المحكمات والبينات، وفسروها بما اتضح من حكم الله، ولا يضربون كتاب الله وسنة رسوله بعضها ببعض، ولا يشكون، ويعلمون أن المتشابه لا يخالف المحكم، بل هو من جنس المحكم، ويكلون ما جهلوا إلى العالم بالكيفية، وهو الله سبحانه، وأما معانيها فمعلومة من طريق اللغة العربية التي خاطب الله بها الناس، ولذا قال مالك حين سئل كيف استوى؟ قال: الاستواء معلوم.. والسؤال عنه بدعة. أي: عن الكيفية.

فبين أن معنى الاستواء معلوم، والكيفية مجهولة.

فائدة:

من قال: إن الجنة والنار تفنيان فهو كافر، فقد قال الله: ﴿عَطَآءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ﴾.

أما القول بفناء النار، فقول باطل غلط، والصواب عدم الفناء، وهو ما عليه أهل السنة والجماعة.

فائدة:

أجمع المسلمون على أن الأرض ساكنة والشمس تجري... والذين يقولون بدوران الأرض حول الشمس يسعون إلى القول بأن الشمس ساكنة، وهذا كفر ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا﴾.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله في أثر علي رضي الله عنه: «حدثوا الناس». أي: كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ.

....

قوله: «بما يعرفون». أي بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لا يفتنوا، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه، قال: «أنك لن تحدث قومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[1]، ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه، بل تدعوهم رويدًا رويدًا حتى تستقر عقولهم، وليس معنى «بما يعرفون»، أي: بما يعرفونه من قبل، لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل.

قوله: «أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟!» الاستفهام للإنكار، أي: أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله، لأنك إذا قلت: قال الله وقال رسوله كذا وكذا. قالوا: هذا كذب. إذا كانت عقولهم لا تبلغه، وهم لا يكذبون الله ورسوله، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله، فيكونون مكذبين لله ورسوله، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل.

التي حُدث بها لم تبين، وبيان ذلك ليس مهمًا، وهذا الرجل انتفض استنكارًا لهذه الصفة لا تعظيمًا لله، وهذا أمر عظيم صعب، لأن الواجب على المرء إذا صح عنده شيء عن الله ورسوله أن يقر به ويصدق؛ ليكون طريقه طريق الراسخين في العلم حتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره.

قوله: «ما فرق». فيها: ثلاث روايات:

«فرَقُ»، بفتح الراء، وضم القاف.

«فرّق»، بفتح الراء مشددة وفتح القاف.

«فرَقَ»، بفتح الراء مخففة، وفتح القاف.

فعلى رواية «فرق» تكون «ما» استفهامية مبتدأ، و«فرق» : خبر المبتدأ أي: ما خوف هؤلاء من إثبات الصفة التي تليت عليهم وبلغتهم، لماذا لا يثبتونها لله عز وجل كما أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسوله؟ وهذا ينصب تمامًا على أهل التعطيل

---

(١) أخرجه مسلم ، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١٤).

....

والتحريف الذين ينكرون الصفات، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعالى قد أثبتها لنفسه؟

وعلي رواية «فرق» أو «فرق» تكون فعلاً ماضيًا بمعنى ما فرقهم، كقوله تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾ [الإسراء: ١٠٦]، أي: فرقناه. و«ما» يحتمل أن تكون نافية، والمعنى: ما فرق هؤلاء بين الحق والباطل، فجعلوا هذا من المتشابه وأنكروه، ولم يحملوه على المحكم، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعني: أي شيء فرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه؟

قوله: «يجدون رقة عند محكمه». الرقة: اللين والقبول، و «محكمه»، أي: محكم القرآن.

قوله: «ويهلكون عند متشابهه». أي: متشابه القرآن.

والمحكم الذي اتضح معناه وتبين، والمتشابه هو الذي يخفى معناه، فلا يعلمه الناس، وهذا إذا جمع بين المحكم والمتشابه، وأما إذا ذكر المحكم مفردًا دون المتشابه، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل: لا كذب في أخباره، ولا جور في أحكامه، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾[الأنعام: ١١٥]، وقد ذكر الله الإحكام في القرآن دون المتشابه، وذلك مثل قوله تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [يونس: ١]، وقال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ﴾ [هود: ١].

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صار المعنى أنه يشبه بعضه بعضًا في جودته وكماله، ويصدق بعضه بعضًا ولا يتناقض، قال تعالى ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣]، والتشابه نوعان: تشابه نسبي، وتشابه مطلق.

والفرق بينهما: أن المطلق يخفى على كل أحد، والنسبي يخفي على أحد دون أحد، وبناء على هذا التقسيم ينبني الوقف في قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ .

قوله: «ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن». أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي ﷺ في صلح الحديبية، وأمر النبي ﷺ أن يكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم»، فقال: «أما الرحمن، فلا والله ما أدري

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: عَدَمُ الإِيمَانِ بِجَحْدِ شَيْءٍ مِنَ الأَسْمَاءِ والصِّفَاتِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسيرُ آيَةِ الرَّعْدِ.

«الثَّالِثَةُ»: تَرْكُ التَّحْدِيثِ بِمَا لا يَفْهَمُ السَّامِعُ.

«الرَّابِعَةُ»: ذِكْرُ العِلَّةِ أَنَّهُ يُفْضِي إِلَى تَكْذِيبِ اللهِ ورَسُولِهِ، ولَوْ لَمْ يَتَعَمَّدِ المُنْكر.

ما هي: وقالوا: إننا لا نعرف رحمانًا إلا رحمن اليمامة. فأنكروا الاسم دون المسمى، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾، أي بهذا الاسم من أسماء الله.

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسمًا من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة، فهو كافر لقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾.

فيه مسائل:

الأولى: عدم الإيمان بجحد شيء من الأسماء والصفات. عدم بمعنى انتفاء أي: انتفاء الإيمان بسبب جحد شيء من الأسماء والصفات، وسبق التفصيل في ذلك.

الثانية: تفسير آية الرعد. وهي قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾. وسبق تفسيرها.

الثالثة: ترك التحديث بما لا يفهم السامع. وهذا ليس على إطلاقه، وقد سبق التفصيل فيه عند شرح الأثر.

الرابعة: ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر.

وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله، فيكذب ويقول: هذا غير ممكن، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي ﷺ مما يكون يوم القيامة، كما أخبر النبي ﷺ: «إن الأرض يوم القيامة تكون خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته»[١]، وما أشبه ذلك.

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق / باب يقبض الله الأرض يوم القيامة (٦١٥٥)، ومسلم: كتاب صفات المنافقين / باب منزل أهل الجنة (٢٧٩٢).

«الخَامِسَةُ» : كَلامُ ابنِ عَبَّاسٍ لِمَنِ اسْتَنْكَرَ شَيْئًا مِنْ ذَلِكَ، وأَنَّهُ أَهَلَكَهُ.

وقوله: «ولو لم يتعمد المنكر». أي: ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله، ولكن كذب نسبة هذا الشيء إلى الله ورسوله، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله.

الخامسة: كلام ابن عباس لمن استنكر شيئًا من ذلك وأنه أهلكه. وذلك قوله: «ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة -أي: لينًا- عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه فينكرونه؟».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «وفي صحيح البخاري: قال عليّ»: علي بن أبي طالب يخاطِب العلماء، ويقول لهم: «حدِّثوا النّاس بما يعرفون» أي: تكلّموا عندهم بما يعرفون، أي: بما لا تستنكِرُه عقولهم، بل حدِّثوهم بما تتحمّله عقولهم، وتُدركه أفهامُهم، ولا تُسمعوهم شيئًا لا يفهمون معناه، أو يجهلونه، فيبادِروا إلى تكذيبه فتوقعوهم في الحَرج.

وهذه حكمةٌ عظيمة من أمير المؤمنين رضي الله عنه: أنه أمر أن يراعى أحوال الحاضرين وأحوال السّامعين، فيحدّثون بما يتناسب مع مستواهم العلميّ.

فهذه قاعدة للمتحدِّثين في كل وقت: أنّ المتحدِّث يراعِي أحوالَ السّامعين: إنْ كان في وسطٍ علمي يتحدّث بما يناسِبه، وإن كان في وسط عامِّي يتحدّث بما يناسبه، وإنْ كان في وسط مختَلِط من العلماء ومن الجُهّال ومن العوام فإنه يلاحظ الواقع، فيتحدّث بحديث يستفيدُ منه الحاضرون ويفهمونه من أُمور دينهم، ويدرِّسون العقائد والعلوم شيئًا فشيئًا حتى تتسع لها عقولهم، وتتقبلها أفهامهم.

قال: «وروى عبد الرزّاق» عبد الرزّاق: هو عبد الرزّاق بن همّام الصنعانيّ: الإمام الجليل، صاحب «المصنّف» المسمّى بـ «مصنّف عبد الرزّاق».

«عن معمَر» هو معمَر بن راشد الأزدي: من تلاميذ محمد بن شهاب الزُّهريّ، الإمام الجليل.

«عن ابن طاوس عن أبيه» طاوس هو: طاوس بن كَيْسان، من أئمّة العلم في اليمن. وابنُه هو: عبد الله بن طاوس: كان إمامًا جليلاً، يروي عن أبيه طاوس.

....

«عن عبد الله بن عبّاس: أنه رأى رجلًا انتفض لَمّا سمعَ حديثًا عن النبي ﷺ في الصّفات؛ استنكارًا لذلك، فقال: ما فَرَقُ هؤلاء؟!، يجدون رقّة عند مُحكمه، ويهلكون عند متشابهه» الفَرَق: الخوف. والمحكَم من النّصوص هو: الذي يُفهم معناه من لفظه، ولا يحتاج إلى دليل آخر يفسّره. والمتشابه هو: الذي لا يُفهم معناه من لفظه، ويحتاج إلى دليل آخر يفسّره، كالنّاسخ والمنسوخ، والمطلَق والمقيّد، والعام والخاص، والمجمل والمبيّن.

فقاعدة أهل السنّة والجماعة: أنّهم يردّون المتشابه إلى المحكَم، فيفسّرون بعض النّصوص ببعض، لأنّها كلها كلامُ الله أو كلامُ رسوله ﷺ.

وأمّا أهل الزّيغ فإنّهم يأخذون المتشابهَ، ويترُكون المحكَم.

قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيردّون المتشابه إلى المحكم، ويفسّرون كلام الله بكلام الله أو بكلام رسوله ﷺ و﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ﴾ يعني: المحكَم والمتشابه، ﴿مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ فيفسّرون بعضه ببعض، فلا يأخذون المتشابه فقط ويترُكون المحكَم.

ومنهم: هذا الرجل الذي لما سمع حديثًا في الصّفات استنكره وانتفض خوفًا من ذكره ولا يحدث ذلك منه عند المتشابه.

فدلّ قولهُ رضي الله عنه: «يجدون رِقّة عند محكَمه» على أنّ آيات الصّفات من المحكَم وليست من المتشابه. وفي هذا ردٌّ على أهل الضّلال الذين يجعلون نصوص الصّفات من المتشابهِ، ويفوّضون معناها إلى الله. وهذا ضلالٌ وغلط، بل هي من المحكَم الذي يُعرف معناه ويفسَّرُ، ولذلك بيّن عبد الله بن عبّاس رضي الله عنهما أنها من المحكَم، وهذا هو الحقّ، وهو مذهب السّلف: يقول شيخ الإسلام رحمه الله: «ما وجدت أحدًا من أهل العلم من السلف جعل آيات الصّفات من المتشابه» على كثرة اطّلاعه وتتبُّعه.

....

ويُستفاد من نصوص الباب فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن إنكار الأسماء والصّفات كفر لقوله تعالى: «﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾»، ولكنّه كفرٌ فيه تفصيل قد يكون كفرًا أكبر مخرجًا من المِلّة، وقد يكون كفرًا أصغر لا يُخرج من الملّة لكنّه ضلال، وهذا بحسب حال النّافي للأسماء والصّفات: هل هو مقلِّد أو غير مقلِّد؟ هل هو متأوِّل أو غير متأوِّل؟

الفائدة الثانية: في قول عليّ رضي الله عنه: «حدِّثوا الناس بما يعرِفون» فيه: أنه يجب على المتحدِّث في خطبة أو في درس أو في موعظة أو في محاضرة أن يتحدّث بما يناسِب حال المستمعين وما ينفعهم، ولا يأتي لهم بالغرائب والأشياء التي لا يفهمونها.

الفائدة الثالثة: أيضًا في قول عليّ رضي الله عنه طلب التدرُّج في تعليم النّاس، فيبدأ بصغار المسائل، ثم يُنتقل إلى كِبارها، هذا هو الطّريق الصحيح للتّعليم، أما أن يؤتى بكبار المسائل للمبتدئين، فهذا خطأ في طريقة التعليم.

الفائدة الرابعة: في قول ابن عبّاس رضي الله عنهما دليلٌ على أنّ نصوص الصّفات من المحكَم، وأنّها تُذكَر عند الناس، لا يُتحاشى من ذكرها، لأنّها واضحة المعاني، لا إشكال فيها، ولذلك جاءت في القُرآن، والقرآن يتلوه العوام ويتلوه المتعلِّمون.

الفائدة الخامسة: فيه دليل على أنّ أهل الزيغ يتبعون المتشابه ويترُكون المحكَم.

الفائدة السّادسة: فيه أيضًا دليل على إنكار المنكر، لأنّ ابن عبّاس رضي الله عنهما ما استنكر على هذا الرّجل، وبيّن السبب الذي حمله على ما حصل منه من الرِّعدة، وأنّه من أهل الزّيغ الذين ينكرون المحكَم ويتّبعون المتشابه.

الفائدة السابعة: أنّ أوّل مَن جحد الأسماء والصّفات هم المشركون، فيكونون أئمّة للجهميّة والمعتزلة ومَن نحا نحوَهم، وبئس الأئمّة والقُدوة، نسأل الله العافية والسّلامة.

هذا، وبالله التّوفيق.

١٠٩) ٤١- باب

قَـوْلُ الـلـهِ تَـعـالَى: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣].

قَالَ مُجَاهِدٌ مَا مَعْنَاهُ: هُوَ قَوْلُ الرَّجُلِ: هَذَا مَالِي، وَرِثْتُهُ عَنْ آبَائِي.

وقَالَ عَوْنُ بنُ عَبْدِ اللهِ: يَقُولُونَ: لَوْلَا فُلانٌ لَمْ يَكُنْ كَذَا.

وقَالَ ابنُ قُتَيْبَةَ: يَقُولُونَ: هَذَا بِشَفَاعَةِ آلِهَتِنَا.

---

١٠٩) الشـرح:

* أولاً: قـال الـشـيـخ ابـن بـاز رحـمـه الله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

أراد المؤلف الحث على الاعتراف بنعم الله وشكره سبحانه على ذلك؛ لأن كثيرًا من الناس قد يشغل عن هذا، فيتمتع بنعم الله، ولكنه لا يشكره، بل ينسبه إلى أسبابه وقوته وأعماله ونحو ذلك، ويغفل عن المنعم سبحانه، ولو شاء الله لسلبه الأسباب وسلبه القوة فهو الذي أعطاه السمع والبصر والذكاء والحذق وغير ذلك.

وهذا من خلق الكافرين أن يقول مثلاً: هذا مالي ورثته من آبائي، وما أشبه ذلك.

ثم ينكرونها: أي: يتمتعون بها ويعرفونها، ثم ينسبونها إلى آلهتهم وأوثانهم من باب النكران بالنعم.

قال مجاهد: هو قول الرجل: ورثته عن آبائي.

أي: يقول ذلك تبجحًا وتعظمًا بهذا الشيء من غير أن يعترف بنعم الله، ويغفل عن ذلك، وليس المراد أن يقولها بقصد الإخبار؛ لأنه لا بأس أن يخبر بهذا على أنه سبب، بل أن يقول ذلك غافلاً ناسيًا المنعم الحقيقي.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: لولا فلان لم يكن كذا.

وهذا خطأ أيضًا؛ لأنه ينبغي أن يقول: لولا الله ثم كذا، فينسب النعم إلى الله؛ لأنه هو المسدي والمعطي سبحانه وتعالى.

قال ابن قتيبة: يقولون: هذه بشفاعة آلهتنا؛ فينسبونها إلى آلهتهم.

....

وهذا كذلك من قول الكافرين، والواجب على المسلم أن يخالفهم وينسب النعم إلى الله؛ لأنه هو المسبب تلك الأسباب، وعليه أن يقوم بالشكر والعمل بأوامره.

﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ﴾. أي: يدركون بحواسهم أن النعمة من عند الله.

قوله: ﴿نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾. واحدة والمراد بها الجمع، فهي ليست واحدة، بل هي لا تحصى، قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

قوله: ﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾. أي: ينكرون إضافتها إلى الله؛ لكونهم يضيفونها إلى السبب متناسين المسبب الذي هو الله - سبحانه - وليس المعنى أنهم ينكرون هذه النعمة، مثل أن يقولوا: ما جاءنا مطر أو ولد أو صحة، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غير الله، متناسين الذي خلق السبب فوجد به المسبب.

قوله ﴿وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾. أي أكثر العارفين بأن النعمة من الله الكافرون، أي الجاحدون كونها من الله، أو الكافرون بالله عز وجل.

قوله: «قال مجاهد». هو إمام المفسرين في التابعين، عرض المصحف على ابن عباس رضي الله عنهما يوقفه عن كل آية ويسأله عن تفسيرها، وقال سفيان الثوري: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به، أي: كافيك، ومع هذا، فليس معصومًا عن الخطأ.

قوله: «هذا مالي ورثته عن آبائي». ظاهر هذه الكلمة أنه لا شيء فيها، فلو قال لك واحد: من أين لك هذا البيت ؟ قلت: ورثته عن آبائي، فليس فيه شيء؛ لأنه خبر محض.

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث متناسيًا المسبب الذي هو الله، فبتقدير الله - عز وجل - أنعم على آبائك وملكوا هذا البيت، وبشرع الله - عز وجل - انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق

....

الإرث، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم ؟! فمن هنا صار هذا القول نوعًا من كفر النعمة.

وقال عون بن عبد الله: «يقولون: لولا فلان، لم يكن كذا».

قوله: «وقال عون بن عبد الله: يقولون لولا فلان لم يكن كذا».

وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقًا مطابقًا للواقع، فهذا لا بأس به، وإن أراد بها السبب، فلذلك ثلاث حالات:

الأولى: أن يكون سببًا خفيًا لا تأثير له إطلاقًا، كأن يقول: لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا. فهذا شرك أكبر؛ لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفًا في الكون مع أنه ميت، فهو تصرف سري خفي.

الثانية: أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعًا أو حسًا، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه، وأن لا يتناسى المنعم بذلك.

الثالثة: أن يضيفه إلى سبب ظاهر، لكن لم يثبت كونه سببًا لا شرعًا ولا حسًا، فهذا نوع من الشرك الأصغر، وذلك مثل: التِّوَلَة والقلائد التي يقال: إنها تمنع العين، وما أشبه ذلك، لأنه أثبت سببًا لم يجعله الله سببًا، فكان مشاركًا لله في إثبات الأسباب.

ويدل لهذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي ﷺ في عمه أبي طالب: «لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار»[1]، ولا شك أن النبي ﷺ أبعد الناس عن الشرك، وأخلص الناس توحيدًا لله تعالى.

قوله: «وقال ابن قتيبة: يقولون هذا بشفاعة آلهتنا». هؤلاء أخبث ممن سبقهم، لأنهم مشركون يعبدون غير الله، ثم يقولون: إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم، فالعزى مثلًا شفعت عند الله أن ينزل المطر، فهؤلاء أثبتوا سببًا من أبطل الأسباب لأن الله -عز وجل- لا يقبل شفاعة آلهتهم، لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له

(١) البخاري: كتاب فضائل الصحابة / باب قصة أبي طالب (٣٦٧٠)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب شفاعة النبي ﷺ لأبي طالب (٢٠٩).

....

الرحمن ورضي له قولاً، والله - عز وجل - لا يأذن لهذه الأصنام بالشفاعة، فهذا أبطل من الذي قبله لأن فيه محذورين:

الشرك بهذه الأصنام

إثبات سبب غير صحيح.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب ذكره الشيخ رحمه الله بعد باب «مَن جحد شيئًا من الأسماء والصّفات»، لأنّه مِن جنسه، فيه تنقُّص للرُّبوبيّة، فالذي يجحد الأسماء والصّفات قد تنقَّص الربوبيّة، وكذلك الذي يُضيفُ النّعم إلى غير الله سبحانه وتعالى قد تنقّص الرّبوبيّة.

فهذه الآية التي ذكرها في الترجمة، وهي قولُه سبحانه وتعالى: « ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾» هي من سورة النّحل، وسورة النّحل تسمّى سورة النِّعَم، لأنّ الله سبحانه وتعالى عدّد فيها كثيرًا من نعمه على عباده، وقال فيها: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾، وأوّل النِّعمَ التي ذكرها الله في هذه السّورة نعمة إرسال الرُّسل، وإنزال الوحي لهداية عباده.

ثم النعمة بخلق الإنسان، وما جعل فيه من الأعضاء الكبيرة والصغيرة الدّقيقة، وما جعل فيه من بديع الصّنعة.

ثم النّعم في خلق بهيمة الأنعام التي فيها الجمال، وفيها منافعهم من الرُّكوب والحمل والألبان واللحوم، وغير ذلك.

وكذلك: المراكِب البحريّة التي تقطَعُ بهم عُباب الماء.

وكذلك: ما أنبت في الأرض من صُنوف النباتات التي فيها أرزاق العباد وفيها أدويتُهم وفيها مراع لأنعامهم.

وكذلك: ما جعل فيها من العلامات التي يهتدي بها المسافرون في البرّ والبحر: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ ۚ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

ومن ذلك: نعمة المشارب من الماء واللَّبَن والعسل.

وكذلك: نعمة المساكن التي يسكُنون فيها فتُؤويهم من الحرّ والبرْد، فيتحصّنون

....

بها من عدوّهم: البيوت الثّابتة، والبُيوت المتنقّلة: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمۡ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلۡأَنۡعَٰمِ بُيُوتًا تَسۡتَخِفُّونَهَا يَوۡمَ ظَعۡنِكُمۡ وَيَوۡمَ إِقَامَتِكُمۡ﴾.

وكذلك: نعمة الملابس التي يلبسونها: ﴿وَجَعَلَ لَكُمۡ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلۡحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأۡسَكُمۡۚ﴾ ملابس الأبدان التي يستُرون بها عوراتهم، ويُجمّلون بها هيئاتهم، وملابس الدُّروع التي تقيهم من سلاح العدو.

كلُّ هذه النعم من الله سبحانه وتعالى.

ثم قال تعالى: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٨٢﴾ يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكۡثَرُهُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾.

والمفسّرون- رحمهم الله- ذكروا أقوالاً في تفسير هذه الآية، وكلّها صحيحة، ولا تناقُض بينها، لأنّها كلّها تدخُل في نعمة الله، وكلّ منهم يذكُر مثالاً من هذه النعم.

فمنهم مَن قال: المراد بقوله: «﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾»: بِعثة محمد ﷺ، ولا شكّ أنّ هذه النعمة هي أكبرُ النعم، ولذلك صدّر السّورة بذكر بعثة الرُّسل: ﴿يُنَزِّلُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنۡ أَمۡرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦٓ أَنۡ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾، وقال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾.

ومنهم مَن قال: المراد بالنعمة: كلّ ما ذكره الله في هذه السّورة من أصناف النِّعَم.

لأن قوله: «﴿نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾» مفرد مضاف، فيعم جميع النِّعم، فقولُه تعالى: «﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾» أي: يعرفون نِعَمَ الله المذكورة في هذه السورة، ولا يجحدونها في قَرارة أنفسهم، فيعرفون بقلوبهم أنّها من الله، ولكنّهم بألسِنَتهم ينسبونها إلى غير الله سبحانه وتعالى، أو بالعكس؛ يتلفّظون بأنّ هذه النِّعَم من الله ولكنّهم في قلوبهم يعتقدون أنها من غيره.

ولهذا يقولُ العلماء: أركانُ الشكر ثلاثة لا يصحّ الشّكر إلّا بها:

الركن الأوّل: التحدُّث بها ظاهرًا، كما قال تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثۡ﴾.

....

الركن الثاني: الاعتراف بها باطنًا، يعني: تعترِف في قَرارة نفسك أنَّها من الله سبحانه وتعالى، فيكون قلبُك موافِقًا للسانك من الاعتراف بأنَّها من الله.

الرُّكن الثالث: صرفُها في طاعة موليها ومُسْدِيها وهو الله سبحانه وتعالى، بمعنى: أن تستعين بها على طاعة الله، فإنِ استعنْتَ بها على معصية الله فإنك لا تكون شاكرًا لها.

«﴿ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾» المُراد بإنكارها: جُحودُها، إما باللّسان وإمّا بالقلب.

قوله: «قال مجاهد» وهو مجاهد بن جَبْر، الإمام التّابعي الجليل، يفسِّر الآية بقول الرجل: «هذا مالي ورثته عن آبائي»، فلا يَنْسب حصول المال إلى الله سبحانه وتعالى، وإنما ينسبُه إلى آبائه وأجداده.

وكذلك إذا نسبه إلى كَدِّه وكسبه وحِذْقِه ومعرفته، فإنّ هذا جُحود لنعمة الله، لأنّ المال فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، أما الحِذْق والكسب ومعرفة الصنعة، فهذه أسباب قد تُنْتِجُ مسبَّباتِها وقد لا تُنْتِج، فكم من حاذِق وكم من عالم وكم من صانع يُحْرَم من الرّزق ولا تُغنيه صنعته شيئًا، فهذا فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، وأما هذه فهي أسبابٌ إن شاء الله نفعتْ وإنْ شاء لم تنفع.

قوله: «وقال عونُ بن عبد الله، هو: عَوْن بن عبد الله بن عُتبة بن مسعود الهُذَلي: إمامٌ جليل.

«يقولون: لولا فلان لم يكن كذا» وهذا لا يجوز، لأن فيه نِسبة النعمة إلى غير الله، والذي يجوز ما أرشد إليه النبي ﷺ، أن تقول: «لولا الله، ثُمَّ فلان»، لأنّك نسبت النعمة إلى الله، وذكَرْتَ أنّ فلانًا إنّما هو سببٌ فقط، لأنّ (ثُمّ) للترتيب والتعقيب.

قوله: «وقال ابنُ قُتَيْبَة» ابن قُتيبة هو أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قُتيبة الدِّيْنَوَرِي، إمامٌ في النحو، واللّغة، والتّفسير، وله كتبٌ مشهورة، منها: «كتاب التفسير»، وكتاب «المعارِف».

«يقولون: هذا بشفاعة آلِهتِنا» يعني: يقول المشركون: هذا الذي حصل من

١١٠) وقَالَ أَبو العَبَّاس - بَعْدَ حَدِيثِ زَيْدِ بنِ خَالِدٍ الذِي فِيهِ: «(إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وكَافِرٌ...» الحَدِيثَ، وقَدْ تَقَدَّمَ: وهَذَا كَثِيرٌ فِي الكِتَابِ والسُّنَةِ، يَذُمُّ سَبْحَانَهُ مَنْ يُضِيفُ إِنْعَامَهُ إِلَى غَيْرِهِ، ويُشْرِكُ بِهِ.

الخير ومن النّفع إنما هو بشفاعة آلهتنا. يعني: أنّ آلهتهم شفعتْ عند الله في حصولها، لأنّ المشركين الذين يعبُدون غير الله لا يعتقدون أن معبوداتهم هي التي تخلُق وترزُق، وإنما يعبدونها لاعتقاد أنّها تشفَع لهم عند الله.

ومن ذلك قولهم: هذا بشفاعة آلِهَتنا. يقولون: إنّ هذه النعم إنما هي بسبب آلهتنا وبشفاعتها عند الله، كما يقول القبوريّ: هذا بسبب الوليّ فلان، بسبب عبد القادر، بسبب العَيْدَرُوس، بسبب البَدَويّ، وهذا يدخُل في قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ بمعنى: أنهم ينسبون نعمة الله إلى هذه المعبودات من دون الله عزّ وجلّ. فهذه طريقة المشركين قديمًا وحديثًا.

١١٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قال أبو العباس: هذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به أي: تبجحًا بذلك واعترافًا وافتخارًا بذلك على غيره.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «وقال أبو العباس». هو شيخ الإسلام أحمد بن تيمية.

قوله: «وهذا كثير في الكتاب والسنة يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره» وذلك مثل الاستسقاء بالأنواء، وإنما كان هذا مذمومًا؛ لأنه لو أتى إليك عبد فلان بهدية من سيده فشكرت العبد دون السيد، كان هذا سوء أدب مع السيد وكفرانًا لنعمته، وأقبح من هذا لو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق، لما يأتي:

أن الخالق لهذه الأسباب هو الله، فكان الواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه.

أن السبب قد لا يؤثر، كما ثبت في «صحيح مسلم» أنه ﷺ قال: «ليس السنة

....

أن لا تمطروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئًا»[١].

أن السبب قد يكون له مانع يمنع من تأثيره، وبهذا عرف بطلان إضافة الشيء إلى سببه دون الالتفات إلى المسبب جل وعلا.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «قال أبو العبّاس» أبو العبّاس كنية شيخ الإسلام أحمد بن تيميّة.

«بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: أنّ الله سبحانه وتعالى قال: «أصبَحَ مِنْ عبادي مؤمنٌ بي وكافر فأمّا مَنْ قال: مُطِرْنا بفضل الله وبرحمته، فذلك مؤمنٌ بي كافرٌ بالكوكب. وأما مَن قال: مُطِرْنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافرٌ بي مؤمنٌ بالكوكب».

ثم قال أبو العبّاس رحمه الله: «يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به» فكل من أضاف نعم الله إلى غيره فقد كفر نعمة الله، وأشرك به.

وهذا الشرك وكفر النعمة ليس من الكفر والشرك المخرِج من الملّة، إذا كان الإنسان يعتقد أنّ إضافة النعمة إلى الشيء من إضافة المسبّب إلى سببه، وإنّما المنعم هو الله، وأضافها إلى السبب مجرّد مجاز، فهذا كفرٌ أصغر.

أما إذا اعتقد أنّ النعم من إحداث المخلوق ومن صُنع المخلوق، فإنّ هذا كفرٌ أكبر يُخرِجُ من الملّة.

فالواجب أن تُضاف النعم إلى الله سبحانه وتعالى.

فكلّ مَن أضاف النعمة إلى غير الله، فإنّ هذا كفرٌ بالله، إما أنْ يكون كفرًا أكبر، وإما أن يكون كفرًا أصغر، بحسَب ما يقوم باعتقاد الشّخص وقَرارة نفسه، فليحاسِب الإنسان نفسه عند ذلك.

ومن ذلك: ما يجري على ألسنة بعض الصحفيين وكثير من الإعلاميّين الذين ينسبون الأشياء إلى أسبابها، فيقولون: «المطر ناتج عن انخفاض جويّ، أو عن المناخ» وما أَشبه ذلك. فالذي يُضيف المطر إلى وقته أو إلى الكوكب أو إلى النّوء،

(١) مسلم: كتاب الفتن / باب في سكنى المدينة (٥١٦٦).

(١١١) قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: هُوَ كَقَوْلِهِمْ: كَانَتِ الرِّيحُ طَيِّبَةً، والمَلَّاحُ حَاذِقًا، ونَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا هُوَ جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

فهو من هذا الباب، كما في حديث زيد بن خالد: «أصبَحَ مِن عبادي مؤمنٌ بي وكافر» نعم: المناخ أو الانخفاض الجويّ سبب، لكن الذي ينزِّل المطر ويكوِّن المطر هو الله سبحانه وتعالى، ليس لهذه الأسباب تدخُّلٌ في إيجاد المطر أو إحداث المطر.

وقد حصل- ويحصُل- أنّ هناك مناخات كانت تهطُل فيها الأمطار بكثرة، ولكن يأتي وقتٌ من الأوقات تُقفِر هذه المناخات وتُجدِب، فكثير من القارّات وإنْ كانت معروفة بكثرة المطر وتواصُل المطر عليها يحصُل فيها الجدْب، كما يقولون عنه: الجفاف، في أمريكا وفي أوروبا وفي أفريقيا حصل جفافٌ كثير، وهلكت خلائق كثيرة من الأموال ومن الأنفُس، وما نفعهم المناخ، هذا بيد الله سبحانه وتعالى، وفي تقدير الله سبحانه وتعالى.

(١١١) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** قال بعض السلف: هو كقولهم: كانت الريح طيبة والملاح حاذقًا.

أي: إذا سارت السفينة ووصلت سالمة قالوا هذا، ونسوا المنعم الذي يسير الريح، وعلم الملاح حتى صار حاذقًا، والواجب أن ينسبها إلى الله - تعالى - مع معرفة الأسباب كأن يقول: إن الله يسر لنا ريحًا طيبة فهذا لا بأس به.

وهذا القول من دقة السلف وعنايتهم، وحرصهم على شكر الله والاعتراف له سبحانه وتعالى.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «كانت الريح طيبة». هذا في السفن الشراعية التي تجري بالريح، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمۡ فِى ٱلۡفُلۡكِ وَجَرَيۡنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا﴾ [يونس: ٢٢] فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا: كانت الريح طيبة، وكان الملاح -اللَّهُمَّ هو قائد السفينة - حاذقًا، أي: مجيدًا للقيادة، فيضيفون الشيء إلى سببه وينسون الخالق جل وعلا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ مَعْرِفَةِ النِّعْمَةِ وإِنْكَارِهَا.

«الثَّانِيَةُ»: مَعْرِفَةُ أَنَّ هَذَا جَارٍ عَلَى أَلْسِنَةٍ كَثِيرَةٍ.

«الثَّالِثَةُ»: تَسْمِيَةُ هَذَا الكَلامِ إِنْكَارًا لِلنِّعْمَةِ.

«الرَّابِعَةُ»: اجْتِمَاعُ الضِّدَّيْنِ فِي القَلْبِ.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير معرفة النعمة وإنكارها، وسبق ذلك.

الثانية: معرفة أن هذا جارٍ على ألسنة كثيرة. وذلك مثل قول بعضهم: كانت الريح طيبة، والملاح حاذقًا، وما أشبه ذلك.

الثالثة: تسمية هذا الكلام إنكارًا للنعمة. يعني: إنكارًا لتفضل الله تعالى بها وليس إنكارًا لوجودها، لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها.

الرابعة: اجتماع الضدين في القلب. وهذا من قوله: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾، فجمع بين المعرفة والإنكار، وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر، وخصلة فسوق وخصلة عدالة.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله**: قال المصنف: «قال بعضُ السَّلف» المراد بالسَّلَف: القُرون المفضَّلة، وصَدْر هذه الأمة، وهم محلّ القُدوة، لقُرْب عهدهم من النّبي ﷺ ومن صحابته الكِرام.

قوله: «هو كقولهم: كانت الريح طيِّبة، والملّاحُ حاذقًا»؛ يعني: أن من إنكارهم لنعمة الله أنهم إذا ساروا في البحر في السُّفُن التي كانت تسير بالرِّيح إذا نجوا من البحر وخرجوا إلى البر يُثنون على الرِّيح وعلى الملّاح، ولا يقولون: هذا بفضل الله، بل يقولون: كانت الريح التي حملت السفينة طيِّبة.

«وكان الملّاح حاذِقًا» الملّاح هو: قائد السفينة، سمّي ملّاحًا لملازمته للماء المِلْح، لأنّ مياه البحار مالحة، فالذي يقود السفينة يقال له: ملّاح، لأنّه يسير على الماء المِلْح. والحاذق: الذي يجيد المهنة.

وكان الواجب عليهم أن يقولوا: إنّ الله هو الذي نجّانا، وهو الذي سخّر لنا

....

الرّيح الطيّبة، وهو الذي أقدر قائد السّفينة وألهمه أن يقودها إلى برّ السلامة. أما أن يقولوا: إنّ نجاتنا وخُروجنا إلى البر بسبب طيب الريح وحِذْق القائد، فهذا كفرٌ بنعمة الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «ونحو ذلك ممّا يجري على ألسنة كثير» يعني: نحو هذه الألفاظ ممّا يجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس من نِسْبة النّعَم إلى غير الله سبحانه وتعالى، إمّا من باب التساهُل في التعبير، وإمّا من باب سوء الاعتقاد، فإنْ كان من سوء الاعتقاد فهو كفرٌ يخرج من الملّة، وإنْ كان من باب الإساءة في التعبير مع الاعتقاد بأنّ الله هو الذي أوجد هذا الشيء، فهذا كفرٌ أصغر، يسمّى بكفر النّعمة.

فيُستفاد من هذه الآية بتفاسير السلف التي ذكرها الإمام رحمه الله مسائل:

المسألة الأولى: أنّ إضافة النعم إلى الله سبحانه وتعالى من الإيمان بالله.

المسألة الثانية: أنّ إضافة النعم إلى غير الله من الكفر بالله سبحانه وتعالى.

المسألة الثالثة: في الآية وأقوال السلف: دليلٌ على عدم جواز نِسبة الأشياء إلى أسبابها، وأنّ ذلك من كفر النعمة، لأنّه معلومٌ أنّ الريح الطيّبة سببٌ لجريَان السفينة، وأنّ حِذْق الملّاح سبب لجريَان السفينة، ولكن إذا أضاف النتيجة الطيّبة إلى هذين السّببين صار ذلك من الكفر بنعمة الله.

المسألة الرّابعة: كما قال الشيخ رحمه الله في مسائل الباب: «فيه: اجتماعُ الضّدين في القلب؛ الكفر والإيمان» أخذًا من قوله تعالى: «﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾»، ففيها: اجتماع الإقرار والإنكار، والكفر والإيمان في القلب، فأيّهما غلب على صاحبه صار من أصحابه.

المسألة الخامسة: أنّ كفر النعمة يكثُر وُقوعه في النّاس، ولهذا قال: «مما يجري على ألسنة كثيرة»، فهذا ممّا يوجِب الحذر منه، وأن الإنسان لا يجري على العوائد المخالفة للشرع.

۞ ۞ ۞

١١٢) ٤٢-بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ فِي الآيَةِ: الأَنْدَادُ: هُوَ الشِّرْكُ، أَخْفَى مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ عَلَى صَفَاةٍ سَوْدَاءَ فِي ظُلْمَةِ اللَّيْلِ؛ وَهُوَ أَنْ تَقُولَ: واللهِ، وحَيَاتِكَ يا فُلانُ وحَيَاتِي، وتَقُولُ: لَوْلَا كُلَيْبَةُ هَذَا لأَتَانَا اللُّصُوصُ، ولَوْلَا البَطُّ فِي الدَّارِ، لأَتَانَا اللُّصُوصُ. وقَوْلُ الرَّجُلِ لِصَاحِبِهِ: مَا شَاءَ اللهُ وشِئْتَ. وقَوْلُ الرَّجُلِ: لَوْلَا اللهُ وفُلانٌ. لا تَجْعَلْ فِيهَا فُلانًا، هَذَا كُلُّهُ بِهِ شِرْكٌ». رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

---

١١٢) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف بهذا الباب تحذير الناس من اتخاذ الأنداد، وهو جمع ند، وهو المثل والنظير، وسمى الله من اتخذ إلهًا: أندادًا؛ لأنهم عبدوه مع الله كالقبور والأشجار والكواكب وغيرها كلها تسمى: أندادًا إذا دعاه، أو استغاث به أو طلب منه شيئًا أو اعتقد نفعه أو ضره.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تعلمون أنه الخلاق الرزاق، وهو الإله الحق سبحانه وتعالى، وقال ذمًّا لبعض الناس: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ والمقصود من كل هذا الدعوة إلى الإخلاص لله وحده؛ لأنه المعبود الحق والإله الحق كما قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾.

قال ابن عباس في الآية: الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء.

فسر ابن عباس كل ما ذكر بأنه شرك، ومراده أنه داخل في الشرك الأصغر، لأن الشرك الأصغر يدخل في اتخاذ الأنداد، والأعظم من ذلك دعوة الأصنام والأحجار، فإنه شرك أكبر.

وهنا التنبيه على الشرك الخفي (الشرك الأصغر)؛ لأنه يوصل إلى الشرك

....

الأكبر؛ فذكره ليحذر الناس من هذا وهذا، ولما قيل للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت» قال: «أجعلتني لله ندًّا؟ قل ما شاء الله وحده»[1] فجعل قوله ما شاء الله وشئت، اتخاذًا للأنداد؛ فوجب الحذر من مثل هذه الكلمات وغيرها، لأن الواو تقتضي المشاركة والمساواة ويلحق بهذا: لولا البط في الدار، وكذلك الكلب معهما، ينبهان أهل البيت على الغريب، وهذا خطأ بل يقول: لولا الله ثم البط؛ لأن السبب الوحيد هو الله، وهذه أسباب فلا ينبغي أن توكل إليها الأمور بل لله وحده.

فلذلك لا تذكر وحدها، ولا بالتشريك مع الله، بل تؤخر بـ (ثم).

وكذلك قولهم: لولا فلان لغرق فلان؛ فهذا خطأ، بل يقول: ثم فلان.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: ﴿أَندَادًا﴾. جمع ند، وهو الشبيه والنظير، والمراد هنا: أندادًا في العبادة.

قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. الجملة في موضع نصب حال من فاعل ﴿تَجْعَلُوا﴾، أي: والحال أنكم تعلمون، والمعني: وأنتم تعلمون أنه لا أنداد له - يعني في الربوبية - لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أندادًا وهم يعلمون أنه لا أنداد له في الربوبية، أما في الألوهية، فيجعلون له أندادًا، قالوا للنبي ﷺ: ﴿أَجَعَلَ ٱلْآلِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، ويقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك تملكه وما ملك»، وهذا من سفههم.

وقوله: «دبيب». أي: أثر دبيب النمل - وليس فعل النمل.

وقوله: «على صفاة» هي الصخرة الملساء.

وقوله: «سوداء». وليس على بيضاء، إذ لو كان على بيضاء، لبان أثر السير أكثر.

وقوله: «في ظلمة الليل». وهذا أبلغ ما يكون في الخفاء.

---

(١) ابن ماجه (٢١١٧)، والنسائي في «الكبرى» (١٠٨٢٥)، وأحمد (١/ ٢١٤، ٢٢٤، ٢٤٧)، وابن أبي شيبة (١٠/ ٣٤٦).

....

فإذا كان الشرك في قلوب بني آدم أخفى من هذا، فنسأل الله أن يعين على التخلص منه؛ ولهذا قال بعض السلف: «ما عالجت نفسي معالجتها على الإخلاص». ويروى عن النبي ﷺ أنه لما قال مثل هذا، قيل له: كيف نتخلص منه؟ قال: «قولوا: اللَّهُمَّ، إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئًا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم»(١).

وقوله: «والله وحياتك». فيها نوعان من الشرك.

الأول: الحلف بغير الله.

الثاني: الإشراك مع الله بقوله: والله ! وحياتك ! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيها نوع من الشرك، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة، فهو شرك أكبر، وإلا، فهو شرك أصغر.

وقوله: «وحياتي». فيه حلف بغير الله، فهو شرك.

وقوله: «لولا كليبة، هذا لأتانا اللصوص». كليبة تصغير كلب، والكلب ينتفع به للصيد وحراسة الماشية والحرث.

وقوله: «لولا كليبة هذا» يكون فيه شرك إذا نظر إلى السبب دون المسبب، وهو الله عز وجل، أما الاعتماد على السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنه لا بأس به، وأن النبي ﷺ قال: «لولا أنا، لكان في الدرك الأسفل من النار» لكن قد يقع في قلب الإنسان إذا قال: لولا كذا، لحصل كذا. أو ما كان كذا، قد يقع في قلبه شيء من الشرك بالاعتماد على السبب بدون نظر إلى المسبب؛ وهو الله عز وجل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «باب قول الله تعالى»؛ أي: ما جاء في تفسير هذه الآية من أقوال الصّحابة.

والتّفسير إنّما يُعرف من كلام الله، فكلام الله يفسّر بعضه بعضًا، أو يُعرف من كلام الرّسول ﷺ أو من كلام أصحابه، أو من كلام التّابعين الذين هم تلاميذ

---

(١) الإمام أحمد في المسند (٤/ ٤٠٣).

....

الصّحابة، هذه مصادر التّفسير، لا يفسّر القرآن بالرأي أو بكلام المتأخرين الذين لم يأخذوا عن الرسول ﷺ ولم يأخذوا عن أصحابه الذين أخذوا عنه، لأنّ الله أنزل القرآن ووكّل بيانه إلى الرّسول ﷺ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ من ربهم.

فلهذا تجدون المصنف في هذا الباب وفي غيره يسوق في تفسير الآيات كلام الصّحابة أو كلام التّابعين، لأنها من مصادر التفسير.

قوله: «﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾» هذا آخرُ آيةٍ من سورة البقرة، وأولها قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

قال العلماء: هذا أوّلُ نداءٍ في المصحف الشريف: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ﴾ لأنّ الله سبحانه وتعالى ذكر في مطلَع هذه السّورة انقسامَ النّاس أمامَ القرآن الكريم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: الذين آمنوا بالقرآن ظاهرًا وباطنًا، وهم المتّقون المذكورون في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾ إلى قوله: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ﴾.

القسم الثاني: الذين كفروا بالقرآن ظاهرًا وباطنًا، وهم المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ ۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

الصّنف الثّالث: الذين آمنوا بالقرآن ظاهرًا وكفروا به باطنًا وهم المنافقون، وهم شرٌّ من الكُفّار الذين كفروا بالقرآن ظاهرًا وباطِنًا، ولهذا أنزل الله فيهم بضعَ عشرة آية، بينما ذكر في الكفّار آيتين، لأنّهم أخطر من الكُفّار، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ

....

وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، هذه الآيات كلّها في المنافقين، وهم الصّنف الثّالث.

ثم قال بعد ذلك: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ نادى النّاس جميعًا، المؤمن والكافر، والعربي والعجمي، ناداهم جميعًا وأمرهم بعبادته. وهذا دليل على عموم رسالة محمد ﷺ، وأنه بعث إلى النّاس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾، ووصف القرآن بأنه هدًى للنّاس وأنّه هدًى للعالَمين، فرسالتُه ﷺ عامّة لجميع الثّقَلين.

وقوله تعالى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بعبادته وحده لا شريك له، وترك عبادة ما سواه.

ومعنى: ﴿اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ وحِّدوا ربّكم، وأفردوه بالعبادة، لأنّ العرب في وقت نُزول القرآن كثيرٌ منهم يعبُدون الله، ولكنّهم يعبُدون معه غيرَه، فإذا كانت العبادة غير خالِصة لله فإنّها تكون عبادة باطلة، ولهذا أمرهم أن يُفردوه بالعبادة، ويُخلِصوا له العبادة.

ثم ذكر الدليل على وُجوب عبادة الله تعالى فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾ لأنّ العبادة لا تصلُح إلا للخالِق سبحانه وتعالى، فالذي لا يخلُق لا يصحّ أن يُعبَد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ إذا ذكرتم بأنّه هو الخالق لكم ولمن قبلكم، لعلّ تذكُّركم لذلك يبعثكم على تقوى الله سبحانه وتعالى، فتعبدونه وتتقون عذابه، لأنّه لا يقي من عذاب الله إلّا عبادة الله سبحانه وتعالى، فهو الذي خلقكم، وخلق لكم المصالح التي تستعينون بها على عبادته سبحانه وتعالى، خلقكم وخلق لكم هذه الأشياء، لستم أنتم خلقتم لأنفسكم شيئًا، لستم الذين أنبتم الزرع، ولستم الذين

....

أنزلتم المطر، ولستم الذين خلقتم الأرض وجعلتموها صالحة للنبات والإنبات، ولستم الذين خلقتم السماء وجعلتموها سقفًا للعالم، وفيها مصالحُ العباد.

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾ هذا نهيٌ من الله سبحانه وتعالى عن الشرك بعد الأمر بالتوحيد.

والأنداد: جمعُ نِدّ، والمراد به: المثيل، والشّبيه، والنّظير.

أي: فلا تجعلوا لله نُظراء وأمثالاً تشبِّهونهم به، وتُشركونهم معه في العبادة، وهم خلقٌ مثلُكم لا يملكون لأنفسهم نفعًا ولا ضرًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أنه لا نِدّ له سبحانه وتعالى، وتعلمون أنّ أحدًا لم يشارك الله في خلقه وفي تدبيره.

أقام سبحانه وتعالى الدليل في هاتين الآيتين بعدّة أُمور: خلقُه لهم، وجعله الأرض فراشًا، والسماء بناءً، وإنزال المطر، وإخراج الثمرات، كلّها أدلّة عقليّة واضحة هم يعترفون بها، فهذا من إلزامهم بالحُجّة، على التوحيد، وإبطال الشّرك الذي هم عليه، وبيان أنّه لا بُرهان له، ولا دليل عليه، وإنما الدليل والبُرهان على وُجوب عبادة الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾، ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، ﴿وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ﴾.

قال: «وقال ابن عبّاس في الآية: الأنداد هو الشرك» الشرك منه نوعٌ جليٌّ واضحٌ كالذبح لغير الله، والنّذر لغير الله، ودُعاء غير الله، والاستغاثة بغير الله، هذا شرك واضحٌ جلي، لأنّه يُرى ويُسمَع.

وهُناك شركٌ خفي، وهو نوعان:

النوع الأول: شركٌ في المقاصد والنيّات، وهذا خفيّ لأنّه في القُلوب، والقُلوب لا يعلم ما فيها إلّا سبحانه وتعالى، كالذي يصلّي، لكن يصلّي رياءً وسُمعة، وهذا لا يعلمُه إلّا الله.

....

والنوع الثاني: شركٌ خفيّ، لأنّه لا يعلمه كثيرٌ من النّاس، وهو الشرك في الألفاظ دون الاعتقاد، وهو المذكور هنا.

ثم ضرب له أمثلة بكلمات يقولها بعض النّاس بألسنتهم.

«وهو أن يقول: والله وحياتِك يا فلان، وحياتي» فالحلف بغير الله من الشرك الذي يجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس، ولا يعلمون أنه شرك، فكثيرًا ما يقول بعضهم: والنبي، والأمانة، وحياتك. وقد قال النبي ﷺ: «من حلف بغير الله، فقد كفر أو أشرك».

والحلف بغير الله شركٌ أصغر، إنْ كان لا يقصد تعظيم المحلوف به كما يعظِّم الله.

وإنْ كان يقصد تعظيم المحلوف به مثل ما يعظِّم الله، فإن الحلف يكون شركًا أكبر.

والذين يحلفون بالقُبور والأضرحة، ويعظِّمونها كما يعظِّمون الله، هو من هذا النوع.

ومن الشرك في الألفاظ قول الرّجل: ما شاء الله وشئت، لولا الله وفُلان. لأنه لا يجوز، الجمع بين الله وغيره بالواو، لأنّ الواو تقتضي التشريك.

والصواب: ما أرشد إليه النبي ﷺ أن تقول: ما شاء الله، ثُمَّ شاء فلان. لأنّ «ثُمَّ» ليست للتشريك، وإنّما هي للترتيب، وجعل مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، كما قال تعالى: «﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾»، فالعبد له مشيئة بلا شك، ولكنها تابعة لمشيئة الله سبحانه.

يُستفاد من هاتين الآيتين مع قول ابن عبّاس رضي الله عنهما مسائل كثيرة:

المسألة الأولى: أن التّوحيد هو أعظمُ مأمورٍ به، لأن الله بدأ به في أوّل نداء في المصحف الشريف.

المسألة الثانية: في الآية دليلٌ على أنّ الإقرار بتوحيد الرُّبوبية لا يكفي في التّوحيد، لأن الله أخبر أنّ المشركين يعلمون هذا فقال: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. أنه لا

....

خالق لهذه الأشياء المذكورة وغيرها إلا الله فلماذا تعبدون معه غيره ممن لا يخلق شيئًا.

المسألة الثالثة: في الآيتين الاستدلال بتوحيد الرّبوبيّة على توحيد الإلهيّة، وأنّ توحيد الرّبوبيّة وسيلة وتوحيد الألوهيّة غاية، لأنّه هو المقصود وهو المطلوب من الخلْق، لأنّه لَمّا أمر بعبادته ذكر توحيد الرّبوبية، ففيه الاستدلال بتوحيد الرّبوبية على توحيد الأُلوهية.

المسألة الرابعة: أنّه لا يكفي الأمر بالتوحيد، بل لا بد من النّهي عن الشّرك، لأنّ الله قال في الآية الأولى: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، وقال في ختام الآية الثانية: «﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾».

المسألة الخامسة: أنّ هذه الألفاظ التي ذكرها ابن عبّاس تجري على ألسنة كثيرٍ من النّاس، وهي من الشّرك، لكنه شرك أصغر، ويسمّى شرك الألفاظ، ولو لم يقصد بقلبه، وهو من اتّخاذ الأنداد.

المسألة السّادسة: فيه أنّ السلف يستدلّون بالآيات النازلة في الشرك الأكبر على الشرك الأصغر، لأنّ ابن عبّاس استدلّ بالآية على ذلك، لأنّ الشرك الأصغر يجُرُّ إلى الشرك الأكبر، ففيه: الابتعاد عن الشّرك من كلّ الوُجوه، باللّفظ، وبالنّيّة، وبالفعل.

❁ ❁ ❁

١١٣) وعَنْ عُمَرَ بنِ الخطَّابِ رضي الله عنه : أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ، كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» . رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وحَسَّنَهُ، وصَحَّحَهُ الحَاكِمُ.

وقَالَ ابنُ مَسْعُودٍ: لأَنْ أَحْلِفَ بِاللهِ كَاذِبًا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَحْلِفَ بِغَيْرِهِ صَادِقًا .

---

١١٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن عمر مرفوعًا: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» .

الصواب هنا عن ابن عمر. . . والشك يحتمل أنه من ابن عمر أو أحد الرواة.

والمعنى واحد؛ لأن الحلف بغير الله تعظيم له، وأنه صالح لهذا الحلف، وهذا لا يليق إلا بالله فهذا الذي يعظم؛ لأنه عالم السر وأخفى وعالم ما في القلوب.

وكانت العرب تحلف بآبائها والمعظمين، وكان هذا موجودًا في أول الإسلام، ثم نهى النبي ﷺ عنه وحذر منه وقال: «ولا تحلفوا بآبائكم ولا أمهاتكم ولا الأنداد» (١) . وقال: «من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت» (٢) . وروى الإمام أحمد بإسناد صحيح عن عمر نفسه أن النبي ﷺ: «من حلف بشيء دون الله، فقد أشرك» (٣). هذه رواية عمر.

وهذا من الشرك الأصغر، وقد يكون من الأكبر إذا قام بقلب الحالف أن هذا المحلوف به له شأن، ويتصرف في الكون ويستحق أن يعبد من دون الله، وإلا فهو من الأصغر، ولهذا ورد أنهم في أول الإسلام يحلفون بآبائهم، ثم نهوا عنه إجلالاً للتوحيد، وتعظيمًا لجناب الله، ودفعًا للذرائع الموصلة إلى الشرك.

قال ابن مسعود: لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا.

---

(١) رواه أبو داود (٣٢٤٨)، والنسائي في «الصغرى» (٧/٥)، وفي الكبرى (٣/ ٤٧١٠).

(٢) رواه البخاري (٦٦٤٦)، ومسلم (طرف حديث ١٦٤٦).

(٣) رواه أحمد (١/ ٤٧).

. . . .

لأن الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله كاذبًا معصية، والشرك أعظم من الكذب وجنس الشرك أخطر من جنس المعاصي، والكذب لا يجوز ومحرم.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «وعن عمر». صوابه عن ابن عمر، نبه عليه الشارح في «تيسير العزيز الحميد».

قوله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «من حلف بغير الله». «من»: شرطية، فتكون للعموم.

قوله: «أو أشرك». شك من الراوي، والظاهر أن صواب الحديث «أشرك».

وقوله: «من حلف بغير الله». يشمل كل محلوف به سوى الله.

قوله في أثر ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبًا». اللام: لام الابتداء، و «أن» مصدرية، فيكون قوله: «أن أحلف» مؤولًا بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله.

قوله: «أحب إلى». خبر المبتدأ، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٨٤].

قوله: «كاذبًا» حال من فاعل أحلف.

قوله: «أحب إلي». هذا من باب التفضيل الذي ليس فيه شيء من الجانبين، وهذا نادر في الكلام، لأن التفضيل في الأصل يكون فيه المعنى ثابتًا في المفضل وفي المفضل عليه، وأحيانًا في المفضل دون المفضل عليه، وأحيانًا لا يوجد في الجانبين، فابن مسعود رضي الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا، ولكن الحلف بالله كاذبًا أهون عليه من الحلف بغيره صادقًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله ﷺ: «من حلف بغير الله» أي: أقسم بغير الله، كأن يقول: والنّبي، أو يقول: والأمانة، أو يقول: وحياتِكَ ما فعلتُ كذا، أو ما أشبه ذلك، بأن يقسم بمخلوق. فالحلف والقسم: تأكيد شيء بذكر معظّم على وجه مخصوص.

وهو تعظيمٌ للمُقْسَم به، والتعظيم إنّما يكون لله سبحانه وتعالى، فالمخلوق لا يُقْسِمُ إلّا بالله أو بصفةٍ من صفات الله سبحانه وتعالى.

١١٤) وعَنْ حُذَيْفَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَقُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ فُلانٌ، ولَكِنْ قُولُوا: ما شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلانٌ» رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

«فقد كفر أو أشرك» وهذا إمّا شكٌّ من الراوي، يعني: هل قال الرّسول: كفر، أو قال: أشرك، أو أنّ (أو) بمعنى (الواو)، لأنّ (أو) تأتي أحيانًا بمعنى (الواو) في لغة العرب، يعني: فيكون المعنى: «فقد كفر وأشرك»، يعني: جمع بين الكفر والشّرك، لأنّ بين الشرك والكفر عمومًا وخُصوصًا، فكل مشرك كافر وليس كل كافر يكون مشركًا.

قوله: وقال ابن مسعود: «لأن أحلِف بالله كاذبًا أحبُّ أليّ من أنْ أحلِف بغيره صادقًا» الكذب حرام، وكبيرة من كبائر الذّنوب، ولكنّه أسهل من الحلف بغير الله، لأنّ الحلف بغير الله شرك، والحلف بالله كاذبًا محرّم ومعصية، ولكنه دون الشرك، لأن الشرك أكبر الكبائر. وسيّئة الكذب أخف من سيّئة الشرك.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «لأن الحلف بالله كاذبًا فيه توحيد، والحلف بغير الله صادقًا شرك، وحسنة التّوحيد أعظم من حسنة الصّدق» وسيّئة الشرك أشدّ من سيّئة الكذب.

١١٤) الشرح:

*** أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** عن حذيفة مرفوعًا: **«لا تقولوا: ما شاء الله، وشاء فلان، ولكن قولوا. . . .»**.

لأن الواو تقتضي المساواة والتشريك، فلا تجوز، بخلاف (ثم) فإنها للتراخي فهي جائزة، والكمال أن يقول: لولا الله وحده.

وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره أن يقال: (أعوذ بالله وبك. . .).

فلا يجوز: أعوذ بفلان، ولا بالله وبفلان، بل يقول: أعوذ بالله، ثم. . . وهذا من كمال التوحيد، والواجب على المسلم أن يحرص على كمال توحيده وإيمانه، وأن يبتعد عن الشرك دقيقه وجليله، وأن يبتعد عن المعاصي؛ فإنها تنقص التوحيد والإيمان واليقين.

وجَاءَ عَنْ إِبْرَاهِيمَ النَّخعِيِّ، أَنَّهُ يُكْرَهُ أَنْ يَقُولَ: أَعُوذُ بِاللهِ وبِكَ، ويَجُوزُ أَنْ يَقُولَ: بِاللهِ ثُمَّ بِكَ. قَالَ: ويَقُولُ: لَوْلا اللهُ ثُمَّ فُلانٌ، ولا تَقُولُوا: لَوْلا اللهُ وفُلانٌ.

فائدة:

حديث: «أفلح وأبيه»[1] هذا قبل النهي في أول الإسلام.

- لا يجوز أن يقول: لولا الله ثم النبي لما اهتدينا.
- حديث: «لا يخاف إلا الله والذئب»[2] ليس من هذا الباب، بل هو جائز.
- إذا قال: بذمتك أسألك، أو بالأمانة: إن قصد به الحلف لم يجز، وإلا فلا، وجاز.

يجوز أن يقول: أعوذ بالله منك؛ لأن النبي قال: «لقد عذت بعظيم»[3] ثم تركها.

- إذا قال رجل لمن أحسن إليه: أنت المنقذِ العظيم؛ فهذا بحسب نيته، والأفضل أن يقول: لولا الله، ثم أنت؛ لأن قوله: أنت المنقذ العظيم، قد توحي بشيء.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في حديث حذيفة رضي الله عنه: «لا تقولوا». «لا» ناهية، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون.

قوله: «ما شاء الله وشاء فلان». والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه، فيكون القائل: ما شاء الله وشئت مسويًا مشيئة الله بمشيئة المخلوق، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق، أو أنه مساوٍ له، فهو شرك أكبر، وإن اعتقد أنه أقل، فهو شرك أصغر.

قوله: «ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان». لما نهي عن اللفظ المحرم بين

---

(١) رواه مسلم (طرف حديث ١١).

(٢) رواه البخاري (٢/ ٣٦).

(٣) رواه البخاري (٥٢٥٤).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ البَقَرَةِ فِي الأَنْدَادِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ الصَّحَابَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ يُفَسِّرُونَ الآيَةَ النَّازِلَةَ فِي الشِّرْكِ الأَكْبَرِ بِأَنَّهَا تَعُمُّ الأَصْغَرَ.

اللفظ المباح، لأن «ثم» للترتيب والتراخي، فتفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه.

أما بالنسبة لقوله: «ما شاء الله فشاء فلان»، فالحكم فيها أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم)، فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب، فالظاهر أنها جائزة، ولكن التعبير بـ (ثم) أولى، لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي ﷺ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق.

قوله: «عن إبراهيم النخعي». من فقهاء التابعين، لكنه قليل البضاعة في الحديث، كما ذكر حماد بن زيد.

قوله: «يكره أعوذ بالله وبك». العياذ: الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه، واللياذ بالشخص: هو اللجوء إليه لطلب المحبوب.

وقوله: «أعوذ بالله وبك». هذا محرم، لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو.

ويجوز بالله ثم بك، لأن «ثم» تدل على الترتيب والتراخي.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية البقرة في الأنداد. وقد سبق.

الثانية: أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الأصغر. لأن قوله تعالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر، لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ الحَلفَ بِغَيْرِ اللهِ شِرْكٌ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّهُ إِذَا حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ صَادِقًا، فَهُوَ أَكْبَرُ مِنَ اليَمِينِ الغَمُوسِ.

«الخَامِسَةُ»: الفَرْقُ بَيْنَ الوَاوِ وثُمَّ فِي اللَّفْظِ.

الثالثة: أن الحلف بغير الله شرك. لحديث ابن عمر رضي الله عنهما.

الرابعة: أنه إذا حلف بغير الله صادقًا، فهو أكبر من اليمين الغموس.

واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذبًا، وقال بعض العلماء وهو الصحيح: أن يحلف بالله كاذبًا ليقتطع بها مال امرئ مسلم.

الخامسة: الفرق بين الواو وثم في اللفظ. لأن الواو تقتضي المساواة، فتكون شركًا، وثم تقتضي الترتيب والتراخي، فلا تكون شركًا.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله ﷺ: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله، ثُمَّ شاء فلان» هذا نهيٌ من الرّسول ﷺ عن الجمع بين الله وبين المخلوق في المشيئة بأن يقول: «ما شاء الله وشاء فلان»، لأنّ (الواو) لمطلق الجمع والتّشريك، فكأنّك جعلت المشيئة صادرة من الله ومن المخلوق، وهذا شركٌ في اللّفظ، وتصحيح العبارة أن يقال: «ما شاء الله، ثُمَّ شاء فُلان».

قوله: «وجاء عن إبراهيم النخعي: أنه يكره: أعوذ بالله وبك» الاستعاذة نوعٌ من أنواع العبادة، لا يجوز صرفُها إلّا لله سبحانه وتعالى، فلا يجوز أن تقول: «أعوذ بالله وبك»، لأنّك إذا قلتَ هذا شرّكت بين الخالق والمخلوق، والتجأت إليهما جميعًا، وهذا شرك، لكن تصحيح العبارة أن تقول: (أعوذ بالله، ثُمَّ بك) فتأتي بـ (ثُمَّ)، والفرق بين (ثُمَّ) وبين (الواو): أن (ثُمَّ) تجعل الالتجاء إلى المخلوق بعد الالتجاء إلى الخالق سبحانه وتعالى، فالمخلوق يلتجأ إليه فيما يقدر عليه، فتذهب إلى شخص وتطلُب منه أنه يمنع عدوّك عنك، إذا كان هذا الشخص حيًّا يقدر على منع عدوّك عنك. أمّا العياذ المطلَق، فإنّه لا يكون إلّا بالله سبحانه وتعالى، ولا يجوز العياذ بالميت مطلقًا.

١١٥) ٤٣- بابٌ

ما جَاءَ فِيمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِالحَلفِ بِاللهِ عَنِ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَحْلِفُوا بآبَائِكُمْ، مَنْ حَلَفَ بِاللهِ فَلْيَصْدُقْ، ومَنْ حُلِفَ لَهُ بِاللهِ فَلْيَرْضَ، ومَنْ لَمْ يَرْضَ فَلَيْسَ مِنَ اللهِ» . رَوَاهُ ابنُ مَاجَه بِسَنَدٍ حَسَنٍ.

وقوله: «ويقول: لولا الله ثُمَّ فلان، ولا تقولوا: لولا الله وفُلان» سبق شرحه.

وهذا مما يدل على أنه يجب تعليم النّاس أُمور العقيدة، وما يُخِلُّ بها وما ينقِّصُها، لأنّ أغلب النّاس الآن - إلّا ما شاء الله- أعرضوا عن تعليم العقيدة وتعلُّمها، ولا يعتنون بها، ولا يدعون إليها إلّا ما شاء الله، وإلّا فالأكثر يركِّزون على أمورٍ أخرى جانبيّة لا تُفيد شيئًا إذا اختلّت العقيدة، حتى ولو صحّت هذه الأغلاط الجانبية التي يريدون إصلاحها، لو صلحت وصحّت ما نفعت بدون إصلاح العقيدة، فالعقيدة هي الأساس، يجب أن نتعلّمها أوّلاً، وأن ندعوَ إليها أوّلاً، وأن نصحِّح الأخطاء فيها قبل تصحيح الأخطاء في المعامَلات، وتصحيح الأخطاء في الآداب والأخلاق. وما انتشرت هذه الأُمور في النّاس إلّا لَمّا قَلّ تدريس التوحيد وشرح العقيدة والدعوة إليها في المحاضرات والندوات والصُّحف والمجلات فانتشرت هذه الأمور، بسبب شياطين الإنس والجن الذين يريدون إفساد عقائد النّاس، فالاهتمام بأمر العقيدة وتصحيحها هو أمّ المهمّات: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ بدأ بالعلم بمعنى ﴿لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ قبل العمل والاستغفار، لأنّه هو الأساس الذي تنبني عليه أمور الدين كلّها.

١١٥) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان وجوب القنع باليمين، وإن كان في نفسه شيء من صدق الحالف أو علم كذبه أو تهمته بذلك ومع ذلك فعليه أن يقنع بالحكم الشرعي، ويرضى به؛ لأنه ليس للناس إلا ما ظهر، وكذلك ليس للقاضي إلا ما ظهر بشهادة العدول، أو يمين الخصم عند عدم البينة.

....

عن ابن عمر مرفوعًا: «لا تحلفوا بآبائكم من حلف بالله فليصدق ومن....».

«لا تحلفوا بآبائكم»: نهى عن الحلف بالآباء والأمهات وغيرهم، وكانوا يحلفون بهم في أول الإسلام، وفي أول الهجرة إلى المدينة، ثم نهى عنه.

«من حلف بالله فليصدق»؛ أي: يجب على من حلف بالله أن يصدق، ويتحرى الصدق، ويحذر الكذب، ولهذا قال النبي ﷺ: «من حلف على يمين وهو كاذب لقي الله تعالى وهو عليه غضبان»[1]. فيجب الحذر من الحلف بالله كاذبًا خاصة في الخصومات، واقتطاع حق المسلم باليمين الكاذبة، ولهذا ورد في الحديث الآخر: «من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه فقد أوجب الله عليه النار، وحرم عليه الجنة» قالوا: وإن كان شيئًا يسيرًا، قال: «وإن كان قدر النواة»[2]. رواه مسلم.

فالواجب الحذر من ذلك، وألا يأخذ حق أخيه المسلم إلا ببينة شرعية، ووجه شرعي، وإذا طلب اليمين فليحذر الكذب.

«من حلف بالله فليرض»: هذا هو الشاهد؛ أي: ليرض وليقنع، وليس له إلا هذا، لأنه هو الذي فرط ولم يشهد ولم يكتب، ولم يجعل بينة فعليه أن يلوم نفسه، وليس له إلا الحكم الشرعي باليمين لتفريطه وسوف يعطيه الله حقه يوم القيامة.

«ومن لم يرض فليس من الله»: وعيد شديد على من لم يرض بحكم الله، ولم يطمئن إليه.

فائدة:

كفارة من حلف كاذبًا أن يتوب ويرد الحق لأصحابه.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في الحديث: «لا تحلفوا». «لا» ناهية ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون. وآباؤكم: جمع أب، ويشمل الأب والجد، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم، لأنه شرك، وقد سبق بيانه.

---

(١) رواه البخاري (٢٣٥٦ وأطرافه)، ومسلم (١٣٨).

(٢) رواه مسلم (١٣٧) من حديث أبي أمامة.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنِ الحَلِفِ بِالآبَاءِ.

«الثَّانِيَةُ»: الأَمْرُ لِلْمَحْلُوفِ لَهُ بِاللهِ أَنْ يَرْضَى.

«الثَّالِثَةُ»: وَعِيدُ مَنْ لَمْ يَرْضَ.

قوله ﷺ: «من حلف بالله؛ فليصدق، ومن حُلِفَ له بالله، فليرض». هنا أمران:

الأمر الأول: للحالف؛ فقد أُمر أن يكون صادقًا، والصدق: هو الإخبار بما يطابق الواقع، وضده الكذب، وهو: الإخبار بما يخالف الواقع، فقوله «من حلف بالله، فليصدق»، أي: فليكن صادقًا في يمينه، وهل يشترط أن يكون مطابقًا للواقع أو يكفي الظن؟

الجواب: يكفي الظن؛ فله أن يحلف على ما يغلب على ظنه؛ كقول الرجل للنبي ﷺ: والله ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني. فأقره النبي ﷺ.

الثاني: للمحلوف له، فقد أمر أن يرضى بيمين الحالف له.

فإذا قرنت هذين الأمرين بعضهما ببعض، فإن الأمر الثاني يُنَزّل على ما إذا كان الحالف صادقًا؛ لأن الحديث جمع أمرين: أمرًا موجهًا للحالف، وأمرًا موجها للمحلوف له، فإذا كان الحالف صادقًا؛ وجب على المحلوف له الرضا.

فيه مسائل

الأولى: النهي عن الحلف بالآباء. لقوله «لا تحلفوا بآبائكم»، والنهي للتحريم.

الثانية: الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى. لقوله: «ومن حُلِفَ له بالله، فليرض»، وسبق التفصيل في ذلك.

الثالثة: وعيد من لم يرض. لقوله: «ومن لم يرض، فليس من الله».

الرابعة: ولم يذكرها المؤلف أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين، فكيف باليمين؟!

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «باب ما جاء فيمن لم يَقنع بالحلف بالله» يعني «ما جاء فيه من الوعيد، وأنّه ينقّص التّوحيد، لأنّ الذي لا

....

يقنع بالحلف بالله لا يعظِّم الله سبحانه وتعالى حق التّعظيم؛ لأنّه لو كان يعظِّم الله حقّ التعظيم لرضيَ بالحلف به، فكونه لا يرضى ولا يقنع بالحلف بالله دليلٌ على نُقصان تعظيمه لله، وهذا ينقِّص التوحيد، كما أنّ كمال تعظيم الله كمالٌ في التّوحيد.

هذا وجه المناسبة لعقد هذا الباب في كتاب التوحيد.

ثم ذكر الحديث عن ابن عمر أن النبي ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم» سبق في الباب الذي قبله النهي عن الحلف بغير الله، وأنه شرك أو كفر، كما قال ﷺ: «مَن حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك»، لأنّ الحلف تعظيمٌ للمحلوف به، ومَن عظّم غيرَ الله بالحلف به فإنّ هذا شركٌ بالله عزّ وجلّ.

قوله: «ومن حلف بالله فليصدُق» هذا أمرٌ من النبي ﷺ أنّ الحالف بالله يجب عليه أن يصدُق، فلا يحلف بالله كاذبًا؛ لأنّ من حلف بالله وهو كاذب فقد استهان بعظمة الله سبحانه وتعالى، وإذا انضاف إلى ذلك أن يأخذ مالاً بغير حق بموجب هذه اليمين، فهي يمين فاجِرة، يقتطع بها مال امرئ مسلم.

والحلف بالله كاذبًا هي اليمين الغَموس، سُمِّيت بذلك لأنّها تغمس صاحبها في الإثم ثم في النّار -والعياذ بالله- كالذي يحلف على السِّلع في البيع والشّراء أنها جيّدة، وهي ليست كذلك، أو أنها سليمة وهي ليست كذلك، أو أن قيمتَها كذا وكذا، ليرغَب النّاس فيها وهو كاذب، فإذا حلف على أمرِ ماضٍ كاذبًا متعمِّدًا فهذه هي اليمين الغَموس، وهي كبيرة من كبائر الذنوب، لأنّ الكذب في حد ذاته كبيرة: قال الله تعالى: ﴿فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِى ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾، فالكذب في حدّ ذاته كبيرة، فإذا انضاف إليه يمين كاذبة صار أشدّ وأعظم، وجاء في الحديث: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم، ولا يزكِّيهم، ولهم عذابٌ أليم: المُسْبِل، والمنّان، والمنفِّق سلعته باليمين الكاذبة».

وقوله: «ومن حُلف له بالله فليرضَ» هذا محل الشاهد من الحديث للباب،

١١٦) ٤٤- بابٌ

قَوْلُ: ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ عَنْ قُتَيلَةَ، أَنَّ يَهُودِيًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولونَ: ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ، وتَقُولونَ: والكَعْبَةِ، فَأَمَرَهُمْ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «ورَبِّ الكَعْبَةِ، وأَنْ يَقُولوا: ما شَاءَ ثُمَّ شِئْتَ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ وصَحَّحَهُ.

ومعناه: فليرضَ باليمين بالله تعظيمًا لله سبحانه، وهذا يدل على كمال التوحيد. ثم الحالف إنْ كان صادقًا فهو على ما حلف، وإنْ كان كاذبًا فإثمُه عليه.

قوله: «ومن لم يرض فليس من الله» هذه براءة من الله ممن لم يقنع بالحلف به، وهذا وعيد شديد.

فيجب تعظيم اليمين بالله والرّضا بها، سواء كانت في الخُصومات أو كانت في الاعتذارات، فالمسلم يحسن الظنّ بأخيه المسلم.

وهذا الحديث يدلّ على مسائل:

المسألة الأولى: تحريم الحلف بغير الله؛ لقوله ﷺ: «لا تحلفوا بآبائكم».

والمسألة الثّانية: وُجوب الصدق في الأيمان وعدم الكذب فيها، لأنّ الصدق في الأيمان تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وتعظيمٌ لعهده.

والمسألة الثالثة: وجوب القناعة بالحلف بالله، وتحريم عدم القناعة بالحلف بالله.

١١٦) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أراد المؤلف بيان حكم قول: «ما شاء الله وشاء فلان» وما أشبه ذلك، وأنه يجب أن يقول: ثم فلان، وهذا هو مقتضى التوحيد والإخلاص، وفيه كمال التوحيد، والبعد عن الشرك دقيقه وجليله، فحكم هذا أنه لا يجوز؛ فقول المؤلف: باب كذا... أي: حكم كذا.

فالأكمل ما شاء الله وحده، وما شاء الله، ثم شاء فلان، وهذا جائز، وما شاء الله وشاء فلان لا يجوز، وهو من الشرك الأصغر، ومنقص للتوحيد وهكذا أمثاله.

عن قتيلة: أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، وتقولون.

ولَهُ أَيْضًا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُمَا: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: ما شَاءَ اللهُ وشِئْتَ، فَقَالَ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟! بَلْ ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»

فيه أن الناس من أهل الباطل قد يفهمون أشياء ومسائل إذا كان عندهم هوى، وإن كانوا هم واقعون في ذنب وفسق وكفر أعظم من ذلك؛ ولهذا عاب اليهود على المسلمين -لما في قلوبهم من الغيظ والحقد على الرسول ﷺ- وقد أصابوا في قولهم، ولهذا أمرهم النبي ﷺ أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت، وأن يقولوا: ورب الكعبة.

وله أيضًا عن ابن عباس أن رجلًا قال للنبي ﷺ ما شاء الله، وشئت..

أجعلتني لله ندًا: وفي لفظ أجعلتني لله عدلاً.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «إنكم تشركون». أي: تقعون في الشرك أيها المسلمون.

قوله: «ما شاء الله وشئت». الشرك هنا أنه جعل المعطوف مساويًا للمعطوف عليه، وهو الله عز وجل حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية.

قوله: «والكعبة». الشرك هنا أنه حلف بغير الله، ولم ينكر النبي ﷺ ما قال اليهودي، بل أمر بتصحيح هذا الكلام، فأمرهم إذا حلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، فيكون القسم بالله.

وأمرهم أن يقولوا: ما شاء الله، ثم شئت، فيكون الترتيب بثم بين مشيئة الله ومشيئة المخلوق، وبذلك يكون الترتيب صحيحًا.

قوله: «أجعلتني لله ندًا؟!». الاستفهام للإنكار، وقد ضمن معنى التعجب، ومن جعل للخالق ندًّا، فقد أتى شيئًا عجابًا.

والنِّد: هو النظير والمساوي، أي: أجعلتني لله مساويًا في هذا الأمر؟!

قوله «بل ما شاء الله وحده». أرشده النبي ﷺ إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بَعُدَت.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال الشيخ رحمه الله: «باب

....

قول: ما شاء الله وشئت» يعني: ما ورد في ذلك من النهي، وأنه شركٌ وتنديد؛ لأنك إذا قلت ذلك شرَّكْتَ بين الخالق والمخلوق في المشيئة، حيث عطفتَ بالواو، والواو تقتضي التشريك، فهذا شرك في الرّبوبيّة، وهو لا يجوز، وإنْ كان القائل لا يعتقد هذا في قلبه، فهو شركٌ في اللّفظ منهيٌّ عنه، فكيف إذا اعتقد هذا في قلبه؟ فالأمر أشدّ.

قوله: «عن قُتَيْلة» هي قُتَيْلَة بنت صَيْفِي الأنصاريّة، وبعضُهم يقول: الجُهَنِيَّة.

قوله: «أن يهوديًا أتى للنبي ﷺ فقال: إنكم تُشركون؛ تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة» هذا اليهودي عرف أنّ هذا شرك، وأقرّه النبي ﷺ على ذلك، ووجّه أمّته أن يستبدلوا بهذه الألفاظ ألفاظًا صحيحة، فيقولوا: «ورب الكعبة، وأن يقولوا: ما شاء الله ثم شئت».

فقوله: (قولوا: وربّ الكعبة) وربُّ الكعبة هو الله سبحانه وتعالى، والكعبة: بَيْتُ الله، فلا يحلف بالكعبة، وإنّما يحلف بربّ الكعبة، هذا هو البديل الصحيح الخالي من الشرك.

وقوله: قولوا: «ما شاء الله ثم شئت»، هذا هو اللّفظ الصحيح: أن تأتي بـ(ثُمَّ) بدل (الواو)، لأنّ (الواو) للتشريك بين الخالق والمخلوق في المشيئة، أما (ثُمَّ) فإنّها للتّرتيب حيث جعلت مشيئة المخلوق بعد مشيئة الخالق، لأنّ المخلوق لا يشاء إلّا إذا شاء الله سبحانه وتعالى، فمشيئته تابعة لمشيئة الله وليست مستقلّة، فهذا هو فرقُ ما بين اللّفظتين لفظة: «ما شاء الله وشئت» وبين: «ما شاء الله، ثُمَّ شئت»، فلفظة «ما شاء الله وشئت» شركٌ، ولفظة: «ما شاء الله، ثُمَّ شئت» توحيد.

قوله ﷺ: «أجعلتني لله نِدًّا؟! ، قل: ما شاء الله وحده» الند هو: الشّبيه والمثيل والنّظير، يعني: أجعلتني شبيهًا لله ومثيلاً لله وشريكًا له في المشيئة، ثم أمره أن يستبدل هذه اللفظة بلفظة التّوحيد فيقول: ما شاء الله وحده.

وهذا إرشاد إلى الأكمل أن يقول: ما شاء الله وحده، وإذا قال: ما شاء الله، ثُمَّ شئت. فهذا بيانٌ للجائز، فلا تعارُض بين الحديثين.

....

وهذا من سدّ الطُّرُق الموصلة إلى الشرك، فإنّه ﷺ نهى عن الشرك ونهى عن الطرق التي توصل إليه، فإذا تلفظ بذلك- ولو كان لا يعتقد- فهذا وسيلةٌ إلى الاعتقاد فيما بعد، فيُمنَع اللفظ وإنْ كان لا يعتقد بمعناه لئلا يفضي هذا إلى الاعتقاد.

وهذان الحديثان فيهما فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: ما ذكره الشيخ رحمه الله في مسائله قال: «فيه فَهْمُ الإنسان إذا كان له هوى»، فهذا اليهودي مع كونه يهوديًا مغضوبًا عليه فهم أنّ هذا من الشّرك، لأنّه يريد أن يتنقّص هذه الأُمّة، ومع هذا تقبّل الرّسول ﷺ هذه الملاحظة، وأرشد إلى تصحيحها.

فهذا فيه فائدة ثانية وهي: قَبول الحقّ ممّن جاء به ولو كان عدوًّا.

وفيه فائدة ثالثة: نبّه عليها الشيخ رحمه الله وهي: أن اليهود على ضلالهم يفهمون الشّرك، وبعض علماء هذه الأُمّة لا يفهمون الشرك، ولذلك يرون جواز عبادة الأضرحة والقُبور، ولا يستنكرونها، ويقولون: هذا من التوسُّل بالصالحين، وليس شركًا، أو هذا يدلّ على محبة الصالحين. ويحبِّذون هذا الشيء، ويرون أنّه ليس بشرك، مع أنه شركٌ مخرجٌ من الملّة، والذي ذكره هذا اليهودي شركٌ أصغر لا يُخرِجُ من الملّة، وبعض المنتسبين إلى العلم من هذه الأمة لا يُنكرون الشرك المخرِج من الملّة الذي يَعُجُّ الآن في العالم الإسلامي بعبادة غير الله، ففيه أن بعض اليهود أفهم من بعض العلماء المنتسبين إلى الإسلام، نسأل الله العافية والسلامة.

الفائدة الرابعة: النّهي عن قول: (ما شاء الله وشئت)، والنّهي عن الحلف بالكعبة، وبغيرها من المخلوقات، لأنّ الحلف بغير الله شرك، لأنّه تعظيمٌ لغير الله سبحانه وتعالى، ولا يستحقّ التعظيم على الوجه الأكمل إلّا الله سبحانه وتعالى، ففيه: أن الحلف بغير الله شرك، لأنّ النبي ﷺ أقرّ هذا اليهودي على قوله: «إنكم تُشركون»، فدل على أنّ هذه الألفاظ شرك.

الفائدة الخامسة: التّوجيه أنّ العالِم إذا منع من شيء؛ فإنّه يوجِّهُ إلى البديل

١١٧) ولابنِ مَاجَه عَنِ الطُّفَيْلِ أَخِي عَائِشَةَ لأُمِّهَا قَالَ: رَأَيْتُ كَأَنِّي أَتَيْتُ عَلَى نَفَرٍ مِنَ اليَهُودِ، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: عُزَيْرٌ ابنُ اللهِ. قَالُوا: وإِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ مُحَمَّدٌ. ثُمَّ مَرَرْتُ بِنَفَرٍ مِنَ النَّصَارَى، فَقُلْتُ: إِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ،

الصّالح، لأنّ النبي ﷺ وجّه إلى أن يُقال: «وربّ الكعبة»، وأن يقال: «ما شاء الله، ثُمّ شئت»، فمن أفتى بتحريم شيء أو بمنع شيء وهُناك له بديلٌ صالح فإنّه يوجّه إليه، كما فعل النّبي ﷺ.

الفائدة السادسة: وفي حديث ابن عبّاس في الرّجل الذي قال للنّبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت، قال له: «أجعلتني لله نِدًّا» فيه: إنكار المنكر، فإنّ النبي ﷺ أنكر عليه، لا سيّما إذا كان هذا المنكر شركًا يُخِلُّ بالعقيدة، فإنّه لا يجوز السُّكوت عليه، بل يجب أن يبيِّن ويُنبِّه، وهذا يشهد لِمَا قاله ابن عبّاس رضي الله عنهما في تفسير الآية التي سبقت، وهي قولُه: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ قال ابن عبّاس هو قولُ الرّجل: «لولا الله وفلان، لولا كُلَيْبَة هذا، لأتانا اللّصوص، لولا البطّ لأتى اللُّصوص».

١١٧) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** لابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت.

إنكم لأنتم القوم لولا؛ أي: أنكم تستحقون المدح، لولا قولكم كذا.

قوله: «وكان يمنعني كذا وكذا» في رواية: وكان يمنعني الحياء أن أنهاكم عنها، أي: لأنه لم يأت فيها من الله نهي، فلما جاءت الرؤيا كانت سببًا للمنع ونزل الوحي بمنعها، وأن يقولوا: ما شاء الله وحده.

وقد ورد فيما أخرجه الشيخان في قصة الأعمى والأبرص والأقرع قوله: فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله، ثم بك[1]. وهذا هو الواجب.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦٤)، ومسلم (٢٩٦٤).

لَولا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: المَسِيحُ ابنُ اللهِ، قَالُوا: وإِنَّكُمْ لأَنْتُمُ القَوْمُ، لَوْلَا أَنَّكُمْ تَقُولُونَ: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ مُحَمَّدٌ. فَلَمَّا أَصْبَحْتُ أَخْبَرْتُ بِهَا مَنْ أَخْبَرْتُ، ثُمَّ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ. قَالَ: «هَلْ أَخْبَرْتَ بِهَا أَحَدًا؟» قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: فَحَمِدَ اللهَ وأَثْنَى عَلَيْهِ، ثُمَّ قَالَ: «أَمَّا بَعْدُ؛ فَإِنَّ طُفَيْلًا رَأَى رُؤْيَا، أَخْبَرَ بِهَا مَنْ أَخْبَرَ مِنْكُمْ، وإِنَّكُمْ قُلْتُمْ كَلِمَةً كَانَ يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا أَنْ أَنْهَاكُمْ عَنْهَا. فَلا تَقُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وشَاءَ مُحَمَّدٌ، ولَكِنْ قُولُوا: ما شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ» .

وهذا القول: ما شاء الله وفلان من الشرك الأصغر، وقد يكون من الأكبر إذا أراد أن له أشياء مستقلة يتصرف فيها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله في حديث الطفيل: «رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود». أي: رؤيا في المنام

وقوله: «كأن». اسمها الياء، وجملة «أتيت» خبرها.

وقوله: «على نفر». من الثلاثة إلى التسعة، واليهود أتباع موسى.

قوله: «لأنتم القوم». كلمة مدح، كقولك: هؤلاء هم الرجال.

وقوله: «عزير». هو رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن الله، وهذا من كذبهم، وهو كفر صريح، واليهود لهم مثالب كثيرة، لكن خصت هذه، لأنها من أعظمها وأشهرها عندهم.

قوله: «ما شاء الله وشاء محمد». هذا شرك أصغر، لأن الصحابة الذين قالوا هذا ولا شك أنهم لا يعتقدون أن مشيئة الرسول ﷺ مساوية لمشيئة الله، فانتقدوا عليهم تسوية الرسول ﷺ بمشيئة الله عز وجل باللفظ مع عظم ما قاله هؤلاء اليهود في حق الله جل وعلا.

قوله: «فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت». المقصود بهذه العبارة الإبهام، كقوله تعالى: ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ [طه: ٧٨]، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقد يكون للتحقير حسب السياق، وقد يراد به معنى آخر.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: مَعْرِفَةُ اليَهُودِ بِالشِّرْكِ الأَصْغَرِ.

«الثَّانِيَةُ»: فَهْمُ الإِنْسَانِ إِذَا كَانَ لَهُ هَوًى.

«الثَّالِثَةُ»: قَوْلُهُ ﷺ: «أَجَعَلْتَنِي للهِ نِدًّا؟» فَكَيْفَ بِمَنْ قَالَ:

يَا أَكْرَمَ الخَلْقِ مَا لِي مَنْ أَلُوذُ بِهِ سِــوَاكَ...............

قوله: «هل أخبرت بها أحدًا؟» سأل النبي ﷺ هذا السؤال، لأنه لو قال: لم أخبر أحدًا، فالمتوقع أن الرسول عليه الصلاة والسلام سيقول له: لا تخبر أحدًا. هذا هو الظاهر، ثم بين له الحكم عليه الصلاة والسلام، لكن لما قال: إنه أخبر بها، صار لا بد من بيانها للناس عمومًا، لأن الشيء إذا انتشر يجب أن يعلن عنه، بخلاف إذا كان خاصًا، فهذا يخبر به من وصله الخبر.

قوله: «يمنعني كذا وكذا» أي: يمنعه الحياء كما في رواية أخري، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطل، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره الله بذلك.

قوله: «قولوا ما شاء الله وحده». نهاهم عن الممنوع، وبين لهم الجائز.

فيه مسائل:

الأولى: معرفة اليهود بالشرك الأصغر. لقوله: «إنكم لتشركون».

الثانية: فهم الإنسان إذا كان له هوى. أي: إذا كان له هوى فهم شيئًا، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشد منه، فاليهود مثلاً أنكروا على المسلمين قولهم: «ما شاء الله وشئت» وهم يقولون أعظم من هذا، يقولون: عزير ابن الله، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب.

الثالثة: قوله ﷺ: «أجعلتني لله ندًا»، هو قوله: «ما شاء الله وشئت».

وقوله: «فكيف بمن قال: ما لي من ألوذ به سواك.. «يشير رحمه الله إلى أبيات للبوصيري في البردة القصيدة المشهورة يقول فيها:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم

إن لم تكن آخذًا يوم المعاد يدي عفـوًا وإلا فـقـل يـا زلـة الـقـدم

والبَيْتَيْنِ بَعْدَهُ.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّ هَذَا لَيْسَ مِنَ الشِّرْكِ الأَكْبَرِ؛ لِقَوْلِهِ: «يَمْنَعُنِي كَذَا وَكَذَا».

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةَ مِنْ أَقْسَامِ الوَحْيِ.

«السَّادِسَةُ»: أَنَّهَا قَدْ تَكُونُ سَبَبًا لِشَرْعِ بَعْضِ الأَحْكَامِ.

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم

وهذا غاية الكفر والغلو، فلم يجعل لله شيئًا، والنبي ﷺ شرفه بكونه عبد الله ورسوله، لا لمجرد كونه محمد بن عبد الله.

الرابعة: أن هذا ليس من الشرك الأكبر، لقوله: «يمنعني كذا وكذا»، لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شيء من إنكاره.

الخامسة: أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي. تؤخذ من حديث الطفيل، ولقوله ﷺ: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءًا من النبوة»(١).

السادسة: أنها قد تكون سببًا لشرع بعض الأحكام. من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصلاة والسلام أنه يذبح ابنه، وهذا الحديث، وكذلك أثبت النبي ﷺ رؤيا عبد الله ابن زيد في الأذان، وقال النبي ﷺ: «إنها رؤيا حق»(٢).

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «ولابن ماجه: عن الطُّفيل- أخي عائشة لأمّها-» الطُّفَيل هو: الطُّفَيْل بن عبد الله بن سَخْبَرَة الأَزْدي، نِسْبَةً إلى الأَزْد؛ قبيلةٌ عربيّة مشهورة، وأبوه: عبد الله بن سَخْبَرَة جاء إلى مكّة قبل البِعْثة وحالَف أبا بكر الصدِّيق، كما كان عليه الأمر في الجاهلية أنهم يتحالفون، ويصبح الحليف أخًا لحليفه يدافِع عنه ويناصره ويحميه، بل إذا مات يَرِثُه، ويصبح الحليف مختلطًا بحلفائه كأنّه واحدٌ منهم، ثم نسخ الإسلام الأحلاف وأبطل الميراث الذي يكون بالحِلْفِ، وقال الله تعالى: ﴿وَأُوْلُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ

---

(١) البخاري: كتاب التعبير / باب الرؤيا الصالحة (٦٥٨٦)، ومسلم: كتاب الرؤيا، (٢٢٦٥).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٤٣)، وأبو داود، كتاب الصلاة / باب كيف الأذان.

....

﴿بِبَعۡضٍ﴾، فجعل الميراث لأولي الأرحام، يعني: الأقارب دون الحلفاء، ثم مات عبد الله بن سَخْبَرَة، وكانت زوجته يقال لها: (أُمُّ رُومَان)، فتزوجها أبو بكر الصدِّيق بعد حليفه عبد الله بن سَخْبَرَة، وأنجبت منه عبد الرحمن بن أبي بكر، وعائشة بنت أبي بكر زوج النبي ﷺ، ولهذا كان الطّفيل بن عبد الله أخًا لعائشة من أمها.

«قال: رأيت» يعني: في النّوم. والرؤيا حقّ، وهي جزء من ستّة وأربعين جزءًا من النّبوّة.

قوله: «كأنّي أتيتُ على نَفَرٍ من اليهود» النفر: الجماعة، واليهود: هم أتباع موسى- عليه الصلاة والسلام- في الأصل. قيل: إنّهم سُمُّوا باليهود نسبة إلى (يهودا ابن يعقوب)، وقيل: سُمُّوا يهودًا أخذًا من قول موسى: ﴿إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ﴾ يعني: تُبْنا إليك، من (الهَوْد) وهو التّوبة والرُّجوع إلى الله سبحانه وتعالى. هذا في الأصل، ثم صار يُطلق لفظ اليهود على المنتسبين إلى اتّباع موسى، وإن كانوا قد خالفوه في أشياء كثيرة، وكذبوا عليه، وأَحدَثوا في دينِه الأشياء القبيحة من الشرك بالله والكلام في حق الله سبحانه وتعالى.

قوله: «قلت: إنكم لأنتم القوم» هذا مدحٌ لهم، لأنهم كانوا في الأصل على دين صحيح.

«لولا أنّكم تقولون: عُزير ابن الله» ينسبون الولد إلى الله سبحانه وتعالى، «عُزَيْر» اسم رجلٍ منهم، قيل: إنّه نبي. وقيل: إنّه رجلٌ صالح وعالِمٌ من علمائهم.

«لولا أنكم» يعني: لولا هذه المقولة الكافرة فيكم.

«قالوا» ردًّا على الطُّفيل.

«وأنتم لأنتم القوم» يمدحون المسلمين.

«لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد» فيه: أن الإنسان يرى عيب غيره، ولا يرى عيب نفسه، وإن كان عيبه أكبر من عيب غيره. وفيه: قبول الحق ممن جاء به.

قال: «ثم مررت على نفرٍ من النصارى» النصارى: أتباع عيسى عليه السلام في

....

الأصل. قيل: سُمُّوا نصارى نسبةً إلى البَلد (الناصرة) بفلسطين، وقيل: سُمُّوا نصارى من قولهم: ﴿نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ﴾. «فقلت: إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله» وهو عيسى ابن مريم، سُمِّي بالمسيح لأنّه يمسح بيده على ذي العاهة فيبرأ بإذن الله. فالنصارى غلوا في المسيح كما غَلَت اليهود في عُزير.

ثم رد عليه النصارى بمثل ما قاله اليهود، قال طُفيل: «فلما أصبحتُ أخبرتُ بها مَن أخبرت، ثم أتيتُ النبي ﷺ فأخبرتُه، قال: «هل أخبرتَ بها أحدًا؟». قلت: نعم، قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أمّا بعد» هذا فيه: دليل على مشروعية حمد الله والثّناء عليه في بداية الكلام، لقوله ﷺ: «كلّ أمر ذي بال لا يُبدأُ فيه بالحمد لله فهو أبتر». ولهذا افتتح الله كتابه العظيم القرآن بـ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، وفيه استحباب الإتيان بأما بعد، وهي كلمة يُؤتَى بها للانتقال من أسلوب إلى آخر.

«فإن طُفيلًا قد رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم، وإنّكم قلتم كلمة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها» قيل: كان يمنع النبي ﷺ الحياء، لأنّه لم ينزل عليه وحيٌ في المنع منها.

«فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده» لَمّا نبّههم على خطأ هذه الكلمة أرشدهم إلى البديل الصالح منها، وهو أن يقولوا: ما شاء الله وحده.

فهذه القصة فيها فوائد عظيمة ودُروس وعِبَر:

الفائدة الأولى: أن الرؤيا حقّ، ولذلك: لا يجوز الكذب في الرؤيا، وجاء في الحديث الوعيد على ذلك.

الفائدة الثّانية: فيه: فهم الإنسان إذا كان له هوى، فهؤلاء اليهود والنصارى لَمّا كان لهم هوى في حق المسلمين؛ لاحظوا هذه المسألة، لا حُبًا في الخير أو حِرْصًا على التّوحيد، ولكنّهم يريدون بذلك تنقُّص المسلمين، والتماس عيوبهم، وإن كان في اليهود والنصارى عيوب أكثر منها.

١١٨) ٤٥-بابٌ

مَنْ سَبَّ الدَّهْرَ فَقَدْ آذَى اللهَ، وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

الفائدة الثالثة: قَبول الحقّ ممّن جاء به ولو كان عدوًّا، لأنّ الحق ضالّة المؤمن، والرُّجوع إلى الحقّ فضيلة.

الفائدة الرّابعة: في الحديث دليل على أنّ من نهى عن شيء أو منع من شيء وكان له بديل صالح أن يأتيَ بالبديل، فالنّبي ﷺ لَمّا منع من هذه الكلمة «ما شاء الله وشاء محمد» أتى بالبديل الصالح الذي ليس فيه محذور وهو أن يقال: «ما شاء الله وحده».

الفائدة الخامسة- وهي التي ساق المصنّف الحديث من أجلها-: أنّ كلمة «ما شاء الله وشاء فلان» ولو كان نبيًّا من الأنبياء؛ شركٌ بالله عزّ وجلّ يجب تركُه، ولكنّه من الشّرك الأصغر، بدليل قوله: «يمنعني كذا وكذا»، فإذا كان الإنسان لم يقصد معناه؛ فإنّه شركٌ في الألفاظ، فيجب تركُه واجتنابُه والابتعاد عنه.

الفائدة السادسة: أنه لا يجوز الغلو بالنبي ﷺ وإشراكه مع الله في شيء، ودعاؤه، والاستغاثة به من دون الله عزّ وجلّ؛ لأنه نهى أن يقال: «ما شاء الله وشاء محمد» فما بالك بما هو أشد من ذلك من أنواع الغلو.

١١٨) الشـرح:

* **أولاً**: **قال الشيخ ابن باز رحمه الله**: أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان أن سب الدهر وغيره من المعاصي من جملة الأشياء التي تناقض التوحيد وتضعفه، وتنافي كماله، فالواجب الحذر من الأسباب التي تضعف الإيمان من المعاصي، وسب الدهر وسب الريح وسب مالا يستحق السب، وما يغضب الله.

لأن الدهر مخلوق مدبر ليس في يده تصرف، فهو مدبر من الله تعالى، وهو الليل والنهار، فسبه إيذاء لله، والله لا يضره شيء، ولكن المعاصي تؤذي الله؛ لأنها تغضبه كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾

....

وسب الدهر هو سب الزمان، وهو الليل والنهار، كأن يقول: قاتل الله هذه الساعة، ولعن الله هذه الساعة، وهذا اليوم، ولا بارك الله في هذا اليوم، وما أشبه ذلك فسب الدهر هو شتمه، أو لعنه، أو الدعاء عليه، أما وصفه بالشدة، فليس من السب كأن يقول: هذا يوم شديد وعسر ونحس أو بارد أو حار.

* ثانيًا: **قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** السب: الشتم والتقبيح والذم، وما أشبه ذلك.

الدهر: هو الزمان والوقت.

قوله: «فقد آذى الله». لا يلزم من الأذية الضرر، فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧]، وفي الحديث القدسي: «يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا۟ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٧٦]، وفي الحديث القدسي: «يا عبادي ! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني»[١]. رواه مسلم.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾. المراد بذلك المشركون الموافقون للدهرية بضم الدال على الصحيح عند النسبة، لأنه مما تغير فيه الحركة، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا، فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن، وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: ﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾. أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته، فالمهلك

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة / باب تحريم الظلم (٤٦٧٤).

....

لهم هو الدهر.

قوله: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾. ﴿إِنْ﴾: هنا نافية لوقوع ﴿إِلَّآ﴾ بعدها، أي: ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم، فليس ظنهم مبنيًا على دليل يجعل الشيء مظنونًا، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له، فلا حجة لهم إطلاقًا، وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضًا يستعمل بمعنى العلم واليقين، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ٤٦].

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «باب من سبّ الدهر» السبّ معناه: الذم والتنقُّص، والدهر المراد به: الزمان والوقت.

ومعنى: «آذى الله»: أن الله سبحانه وتعالى يبغض ذلك ويكرهه، لأنّه تنقُّصٌ لله سبحانه وتعالى، والله سبحانه وتعالى يتأذى ببعض أفعال عباده وأقوالهم التي فيها إساءةٌ في حقّه، ولكنّه لا يتضرّر بذلك؛ لأن الله لا يضرُّه شيء: قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْكُفْرَ بِٱلْإِيمَٰنِ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

وفي الحديث: «يا عبادي إنكم لن تبلُغوا ضرّي فتضرّوني» ففرقٌ بين الضرر والإيذاء.

ووجهُ كونه يتأذى بسبّ الدهر: لأن السبَّ يكون متوجهًا إليه، لأنّه هو المتصرِّف الذي يجري في قدَره وقضائه الخير والشّرّ والمكروه والمحبوب.

ثم ساق الشيخ رحمه الله الآية، وهي قولُه تعالى عن المشركين: «﴿وَقَالُواْ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ ۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ ۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾» ذكر الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ أنهم يُنكرون البعث ويستبعدونه، ويزعمون أنه لا يمكن حصول البعث لأنّ الأجسام تتفتّت وتضيع وتذهب، فمن أين الإعادة لشيء قد ضاع وتفتّت وذهب: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴿٤٩﴾ قُل

....

﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا ﴿٥٠﴾ أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِى صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾، ﴿أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا نَّخِرَةً ﴿١١﴾ قَالُوا۟ تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾، ﴿أَيِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾، ﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ ٱلْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظٌۢ﴾، فيا سبحان الله أين العُقول؟! فالذي خلقهم من لا شيء، وأوجدهم من العَدَم في أوّل مرّة؛ ألا يقدر على إعادتهم مرّة ثانية؟، بل من ناحية العُقول: أنّ الإعادة أسهل من البداءة: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾، مع أن الله لا يصعُب عليه شيء سبحانه وتعالى، لا الإعادة ولا البداءة، الكلّ سهلٌ عليه ويسيرٌ عليه لكن هذا من جهة التصور العقلي.

ثم أيضًا: لو لم يكن بعثٌ ونُشور، للزم أن يكون خلق الخلق عبثًا لا نتيجة له، وهذه الأعمال لا نتيجة لها: الإيمان والطاعة والاستقامة والعبادة لا نتيجة لها إذا لم يكن هُناك بعث، الكفر والمعاصي والإلحاد والفُسوق والظُّلم والعُدوان لا نتيجة له، لأنّنا نرى أنّ النّاس يموتون الطائع والعاصي المؤمن والكافر، الكافر يموت على كفره، والمطيع يموت على طاعته، وقد يكون المطيع في هذه الدنيا في فقر وحاجة ومرض وآلام، وقد يكون الكافر في نعيم وفي رفاهية وفي أُبّهة من العيش مع كفره، إذًا: أين النتيجة؟ لا بدّ أن هناك دارًا أُخرى تظهر فيها النتائج، تظهر فيها نتيجة الطّاعة، ونتيجة المعصية، وإلّا للزم أن يكون خَلْقُ الخلْق عبثًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾؟، هذا تأباه حكمة الله سبحانه وتعالى، فكون

....

المطيع الصالح العابد يعيش في هذه الدنيا في ضيق ومرض وفقر وفاقة؛ لأنّ الله ادّخر له جزاءً يوم القيامة، وكون العاصي والكافر يعيش في سُرور وفي رغَدٍ من العيش مع كفره؛ هذا لأنّ الله أعدّ له النّار يوم القيامة؛ ﴿قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ ، ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ ، تأبى حكمة الله سبحانه وتعالى أن يُضيع أعمال العباد سُدًى، وأن يسوِّي بين المؤمن والكافر والمطيع والعاصي، تأبى حكمة أحكم الحاكمين أن تتّصف بذلك، فلولا أنّ هناك بعثًا يحاسَب فيه العباد ويجزى كلُّ عامل بعمله، للزم العبث، وللزم الجور والظُّلم من الله، تعالى الله عن ذلك.

دلَّ هذا على أن هناك دارًا أُخرى غير هذه الدّار، أخبر الله عنها، وتواترت بها أخبارُ الرُّسل- عليهم الصلاة والسّلام- لكنّ المشركين الذين بُعث إليهم رسول الله ﷺ يستبعدون البعث لجهلهم بقدرة الله سبحانه وتعالى، ويقيسون قدرة الخالق على قدرتهم، ولهذا استصعبوا البعث، ورأوه مستحيلًا؛ أن يبعث الله هذه الأجسام بعد تفتُّتها وضياعها في الأرض، ولكنّ الله سبحانه وتعالى يعلم مستقرّها ومستودَعها ويعلم مصيرها، ولو فَنيتْ وصارت تُرابًا، فالله يعلم هذه الأجسام وما تحلّل منها، وقادرٌ على إعادتها: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ﴾ ، بل إنّ كل جسم الإنسان يفنى إلّا عَجْبَ الذَّنب، وهو: حبّة صغيرة، منها يركَّبُ خلقُ الإنسان يوم القيامة.

فهم ينكرون البعث والنشور ويقولون: ﴿مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا﴾ ما هناك حياةٌ أُخرى بعد هذه الحياة، ما هناك إلّا الحياة التي نحن فيها.

﴿نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾ يعني: يموت ناس ويولَد ناس، كما يقولون: أرحام تدفع، وأرض تبلع.

﴿وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾ أي: أنّ سبب الموت إنما هو طول العمر طول الحياة، الإنسان يعمّر ثم يَهْرَم ثم يموت، أو سبب الموت هو: حوادث الدهر، فينسبون الهلاك إلى الدهر.

١١٩) فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: يُؤْذِينِي ابنُ آدَمَ، يَسُبُّ الدَّهرَ، وأَنَا الدَّهرُ، أُقَلِّبُ اللَّيلَ والنَّهارَ» وفِي رِوَايةٍ: «لا تَسُبُّوا الدَّهرَ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهرُ».

---

١١٩) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:

وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: «قال الله تعالى يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر...».

فبين هنا معنى الدهر، وأنه الليل والنهار، وهو الذي يقلبه فسبه سب للذي خلقه وقلبه، فلا يجوز ذلك، وقد غلط من قال: إن الدهر من أسماء الله (كابن حزم)، والمقصود أنه خالق الدهر ومكون الكائنات في الدهر.

ومن ذلك قول الرسول ﷺ: «لا تسبوا الريح»[1] وهكذا سب الإبل والغنم والبقر، وسب كل من لا يستحق السب، فسب هذه نقص في إيمانه وتوحيده.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «يؤذيني ابن آدم». أي: يلحق بي الأذى، فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتها؛ لأن الله أثبتها لنفسه، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنها ليست كأذية المخلوق، بدليل قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وقدم النفي في هذه الآية على الإثبات لأجل أن يرد الإثبات على قلب خال من توهم المماثلة ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صفاته كما لا يماثل في ذاته، وكل ما وصف الله به نفسه، فليس فيه احتمال للتمثيل، إذ لو كان احتمال التمثيل جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله فيما وصف به نفسه، لكان احتمال الكفر جائزًا في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: «يسب الدهر». الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها، أي: بكونه يسب الدهر، أي: يشتمه ويقبحه ويلومه وربما يلعنه والعياذ بالله يؤذي الله، والدهر: هو

---

(١) رواه ابن ماجه (٣٧٢٧)، وأحمد (٢/ ٢٥٠)، والطبراني في «الدعاء» (٩٧٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الدَّهْرِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَسْمِيَتُهُ أَذًى للهِ.

«الثَّالِثَةُ»: التَّأَمُّلُ فِي قَوْلِهِ: «فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ».

الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: «وأنا الدهر». أي: مدبر الدهر ومصرفه، لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، ولقوله في الحديث: «أقلب الليل والنهار»، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك، فقد جعل الخالق مخلوقًا، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّبًا بفتح اللام.

قوله «أقلب الليل والنهار». أي: ذواتهما وما يحدث فيهما، فالليل والنهار يقلبان من طول إلى قصر إلى تساو، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ٢٦]، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر، لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا.

قوله: «وفي رواية: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر». وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: «فإن الله هو الدهر». وفي نسخة «فإن الدهر هو الله»، والصواب: «فإن الله هو الدهر».

وقوله «فإن الله هو الدهر»، أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر. لقوله: «لا تسبوا الدهر».

الثانية: تسميته أذى لله. تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم».

الثالثة: التأمل في قوله: «فإن الله هو الدهر». فإذا تأملنا فيه، وجدنا أن معناه

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّهُ قَدْ يَكُونُ سَابًّا وَلَوْ لَمْ يَقْصِدْهُ بِقَلْبِهِ.

أن الله مقلب الدهر ومصرفه، وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون سابًا ولو لم يقصده بقلبه. تؤخذ من قوله: «يؤذيني ابن آدم، ، يسب الدهر». ولم يذكر قصدًا ولو عبر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذيًا لله وإن لم يقصده، لكان أوضح وأصح، لأن الله صرح بقول: «يسب الدهر». والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: ثم ساق الشيخ الحديث، وهو من الأحاديث القدسيّة، والحديث القدسي: هو الذي يرويه النبي ﷺ عن ربّه، فهو كلام الله جل وعلا.

يقول جل وعلا: «يؤذيني ابن آدم» الله يتأذى ببعض أفعال عباده، لكنّه لا يتضرّر بها.

ثم فسّر ذلك الأذى بقوله: «يسبُّ الدّهر» والدهر ليس محلًا للسّب، فيكون محلّ السب هو الله سبحانه وتعالى، لأنّه هو الذي خلق أو أوجد هذا الأمر الذي يكرهه هذا الإنسان، فإذا سبّ الدهر فقد سبّ الفاعل وهو الله سبحانه وتعالى، والواجب على أهل الإيمان أنه إذا أصابهم ما يكرهون أن يعتبروا أن هذا قضاء من الله وقدر، وأنّه من الله جل وعلا، وأنه لم يخلُقه عبثًا، وأنّه بسبب الذّنوب والمعاصي، فيتوب المؤمن، ويصبر على المصيبة، ويحتسب الأجر عند الله سبحانه وتعالى، ولا يُطلق لسانه بذمّ الساعة واليوم والوقت الذي حصل فيه هذا المكروه، وإنما يحمد الله ويشكره ويرضى بقضائه وقدَره، ويعلم أنّه ما أُصيب إلّا بسبب ذُنوبه، فيحاسب نفسه ويتوب إلى الله تعالى.

ثم بيّن معنى قوله: «أنا الدهر» فقال: «أقلّب الليل والنهار»، وليس معناه: أن الله يُسمّى الدهر، فليس الدّهر من أسماء الله، والحديث يفسّر بعضه بعضًا، فمن زعم أن (الدهر) من أسماء الله فقد غلِط.

«وفي رواية: «لا تسبُّوا الدهر» هذا نهي، والنّهي يقتضي التحريم.

ثم علّل ذلك بقوله: «فإنّ الله هو الدهر» يعني: مَن سبّ الدهرَ، فقد سبّ الله،

١٢٠) ٤٦-بابٌ

التَّسَمِّي بِقَاضِي القُضَاةِ ونَحْوِه فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه، عنِ النَّبِيِّ ﷺ ، قَالَ: «إِنَّ أَخْنَعَ اسمٍ عِنْدَ اللهِ: رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ

لأنّ الله هو الخالق سبحانه وتعالى، وهو الذي أجرى هذا الحادث الذي يكرهه العبد ويتألّم منه، فإذا سبّ الدهر، فقد سبَّ الفاعل، وهو الله سبحانه وتعالى.

ونخلص من هذا كله إلى مسائل نستنبطها من هذه الآية، ومن الحديث:

المسألة الأولى: تحريم مسبّة الدهر، ومسبّة الدهر على نوعين:

النوع الأوّل: ما يكون كفرًا وشركًا أكبر، وذلك إذا اعتقد أنّ الدهر هو الفاعل، وهو الذي أحدث المصيبة، فذمّه من أجل ذلك، فهذا شركٌ أكبر، لأنّه أثبت شريكًا لله تعالى.

النّوع الثاني: أن يعتقد أنّ الفاعل هو الله، ولكنّه ينسب الأذى إلى الدهر، أو ينسب الذمّ إلى الدهر من باب التساهُل في اللّفظ: فهذا أيضًا محرّم، ويُعتبر من الشّرك الأصغر، حتى ولو لم يقصد المعنى وإنما جرى على لسانه، فيُعتبر من الشرك في الألفاظ.

المسألة الثانية: فيه: أنّ الله سبحانه وتعالى يتأذّى ببعض أفعال عباده السيّئة، ولكنّه جل وعلا لا يتضرّر بذلك.

المسألة الثالثة: في الحديث بيان معنى أنّ الله هو الدّهر، وأنّ معناه: أنّه هو الذي يخلُق، ويدبِّر ويُجري هذه الحوادث في هذا الزمان، وليس معناه أن الدهر من أسماء الله، والحديث يفسِّر بعضُه بعضًا.

١٢٠) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف بهذه الترجمة بيان النهي عن الأسماء التي يكون لها تعلق بمشابهة أسماء الله تعالى؛ لأنه سبحانه له أسماء يختص بها ليس لأحد أن يتسمى بها مثل: الرحمن، ومالك الملك، والخلاق، ورب العالمين، وحاكم الحكام، وسلطان السلاطين ونحوها؛ لأن من كمال التوحيد وتمام التوحيد عدم التسمي بهذه الأسماء، والتسمي بها ينقص التوحيد

الأَمْلاكِ، لا مَالِكَ إِلَّا اللهُ»
قَالَ سُفْيَانُ: مِثْلُ (شَاهَانْ شَاهْ).
وفِي رِوَايَةٍ: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ القِيَامَةِ وأَخْبَثُهُ». قَوْلُهُ: (أَخْنَعُ) يَعْنِي أَوْضَعُ.

والإيمان، ودخول فيما لا ينبغي.
وكذلك قاضي القضاه، وهذا يقع في بعض الدول، وإن كانوا يريدون به قاضي قضاة البلد؛ لكن إطلاقه غير مناسب، ولا ينبغي.
أما إذا قيد: قاضي قضاة مصر أو مكة وغير ذلك، فهذا أسهل، وتركه أولى كأن يسمى: رئيس القضاة، أو أمين القضاة مما يبتعد به عن هذه الصفات المطلقة.
* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «باب التسمي بقاضي القضاة». أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.
قوله: «قاضي القضاة». قاضي: بمعنى حاكم، والقضاة، أي: الحكام، و «أل» للعموم.
والمعنى: التسمي بحاكم الحكام ونحوه، مثل ملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشبه ذلك، مما يدل على النفوذ والسلطان، لأن القاضي جمع بين الإلزام والإفتاء، بخلاف المفتي، فهو لا يلزم، ولهذا قالوا: القاضي جمع بين الشهادة، والإلزام، والإفتاء، فهو يشهد أن هذا الحكم حكم الله، وأن الحق للمحكوم له على المحكوم عليه، ويفتي، أي: يخبر عن حكم الله وشرعه، ويلزم الخصمين بما حكم به.
قوله: «إن أخنع اسم». أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا.
قوله: «لا مالك إلا الله». أي: لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.
وأيضًا لا ملك إلا الله عز وجل، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين: ﴿مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ و ﴿مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، لكي يجمع بين الملك وتمام

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنِ التَّسَمِّي بِمَلِكِ الأَمْلاكِ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ مَا فِي مَعْنَاهُ مِثْلُهُ، كَمَا قَالَ سُفْيَانُ.

«الثَّالِثَةُ»: التَّفَطُّنُ لِلتَّغْلِيظِ فِي هَذَا ونَحْوِهِ، مَعَ القَطْعِ بِأَنَّ القَلْبَ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

«الرَّابِعَةُ»: التَّفَطُّنُ أَنَّ هَذَا لإِجْلَالِ اللهِ سُبْحَانَهُ.

السلطان، فهو سبحانه ملك مالك، ملك ذو سلطان وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

قوله: «قال سفيان (هو ابن عيينة): مثل شاهان شاه». وهذا باللغة الفارسية، فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير: أملاك ملك، أي: ملك الأملاك، لكنهم في اللغة الفارسية يقدمون المضاف إليه على المضاف.

قوله: وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه».

أغيظ: من الغيظ وهو الغضب، أي: أغضب شيء عند الله عز وجل وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سببًا لغضب الله وخبيثًا، فإن التسمي به من الكبائر.

وقوله: «أغيظ». فيه إثبات الغيظ لله عز وجل، فهي صفة تليق بالله عز وجل كغيرها من الصفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن التسمي بملك الأملاك. وتؤخذ من قول الرسول ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله عز وجل رجل تسمى ملك الأملاك».

الثانية: أن ما في معناه مثله كما قال سفيان. والذي: في معناه: قاضي القضاة، وحاكم الحكام، وشاهان شاه في الفارسية.

الثالثة: التفطن للتغليظ في هذا ونحوه، مع القطع بأن القلب لم يقصد معناه. أي: لم يقصد أنه ملك الأملاك أو قاضي القضاة، لعلمه أن هناك من هو أبلغ ملكًا وأحكم قضاء.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل الله سبحانه يؤخذ من قوله: «لا مالك إلا الله،

....

فالرسول ﷺ أشار إلى العلة، وهي: «لا مالك إلا الله»، فكيف تقول: ملك الأملاك، وهو لا مالك إلا الله عز وجل؟

الفرق بين ملك ومالك:

ليس كل ملك مالكًا، وليس كل مالك ملكًا، فقد يكون الإنسان ملكًا، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكًا ويتصرف فيما يملكه فقط، فالملك من ملك السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكًا مالكًا، وقد لا يملك فيكون ملكًا وليس بمالك، أما المالك، فهو الذي له التصرف بشيء معين، كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك، فهذا ليس بملك، يعني: ليس له سلطة عامة.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب مشابهٌ للباب الذي قبله «باب من سب الدهر فقد آذى الله»؛ لأن الباب الذي قبله فيه النّهي عن مسبّة الدهر، لأنّ ذلك يؤذي الله سبحانه وتعالى. وهذا الباب في النّهي عن التسمّي بالأسماء الضخمة التي فيها العَظَمة التي لا تليق إلّا بالله سبحانه وتعالى، لأنّ هذا يغيظُ الله سبحانه وتعالى، فسبّ الدهر يؤذي الله، وهذا يغيظ الله سبحانه وتعالى، وكلا الأمرين محرّم شديد التحريم.

ثم يأتي بعد هذا الباب: «باب احترام أسماء الله»، وهو كذلك يُشبِه هذين البابين.

فهذه الأبواب الثلاثة بعضُها يشبه بعضًا، لكنّها لَمّا كانت متنوّعة نوّعها المؤلّف رحمه الله، من أجل أن يُعرف كلُّ شيء على حِدَته مفصّلًا، لأنّ أمور التّوحيد لابدّ فيها من التّفصيل والبيان، ولا يكفي فيها الإجمال والاختصار.

قوله: «التّسمّي بقاضي القُضاة ونحوه» يعني: كلّ اسم فيه تعظيمٌ شديد للمخلوق من الألقاب والأسماء التي فيها التعظيم الذي لا يليق إلّا بالله سبحانه وتعالى، مثل: «ملِك الأملاك» و «سيِّد السادات»، وما أشبه ذلك من الألقاب الضّخمة التي يتلقّب أو يتسمّى بها بعض الجبابرة أو المستكبرين.

....

وكلُّ هذا محرَّم ومنهيٌّ عنه، لأنّ المطلوب من المخلوق التواضُع مع الله سبحانه وتعالى، وتجنُّب ما فيه تزكيةٌ للنفس أو تعظيمٌ للنفس، لأنّ هذا يحمل على الكِبْر والإعجاب، وخروج الإنسان عن طَوره ووضعه الصحيح.

وكلُّ هذا يُخلُّ بعقيدة التّوحيد، لأنّ عقيدة التّوحيد تدور على توحيد الله سبحانه وتعالى، وعلى تنزيه الله عن المشابَهة والمماثَلة، فمن تسمّى باسم لا يليق إلّا بالله على وجه التعاظُم فهذا فيه تشبيه بأسماء الله سبحانه وتعالى.

فمثلًا: (قاضي القُضاة) هذا لا يليق إلّا لله عزّ وجلّ، لأنّ الله سبحانه وتعالى الذي يقضي النّاس يوم القيامة القضاء النهائي، يقضي بين جميع الخلْق، ملوكهم وعامّتهم وعلمائهم وعوامّهم، يقضي بين جميع خلقه سبحانه وتعالى، فالقضاء المطلَق هو لله سبحانه وتعالى، فلا يليق أن يقال للمخلوق: «قاضي القُضاة»، لأنّ الله هو الذي يقضي بين جميع النّاس يوم القيامة، يقضي بينهم بحكمه: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُم بِحُكْمِهِۦ﴾، فهو الذي يقضي بين النّاس سبحانه وتعالى.

فالمناسب أن يُقال: «رئيس القُضاة»، بمعنى: أنه يُرجع إليه في أُمور القضاء وتنظيماته ومُجرياته.

وكذلك: «ملِك الأملاك»، لأن المُلك المطلق لله عزّ وجلّ، وهو المُلْك الدائم الشامل، أما ملك المخلوق، فهو مُلك جزئي ومؤقت.

فالشيخ رحمه الله ترجم بقاضي القُضاة لأن كلمة «قاضي القُضاة» تدخل في «ملِك الأملاك»، فإذا نُهي عن كلمة «ملِك الأملاك» فإنّ «قاضي القُضاة» تأخُذ حكمها، لأنّ كلًا من اللّفظتين فيهما التعظيم الزائد عن حقّ المخلوق.

«رجل تسمّى» وفي رواية: «يُسمّى» بالياء، والفرقُ بينهما «تَسَمّى» يعني: سمّى نفسه، و «يُسَمّى» يعني: سمّاهُ غيرهُ ورضيَ هو بذلك ولم يُنكره.

فهذا فيه سوءُ أدب مع الله سبحانه وتعالى، وتعاظُمٌ ورفعةٌ لا يستحقُّها المخلوق.

«قال سُفيان «هو: سفيان بن عُيينة: الإمام، المحدِّث، الجليل.

١٢١) ٤٧-بابٌ

احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وتَغْيِيرُ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ

عَنْ أَبِي شُرَيْحٍ: أَنَّهُ كَانَ يُكْنَى أَبَا الحَكَمِ؛ فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الحَكَمُ، وإِلَيْهِ الحُكْمُ» فَقَالَ: إِنَّ قَوْمِي إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ أَتَوْنِي، فَحَكَمْتُ بَيْنَهُمْ، فَرَضِيَ كِلا الفَرِيقَيْنِ. فَقَالَ: «مَا أَحْسَنَ هَذَا!

«مثل: شاهان شاه» يعني: عند العجم، فمعنى هذا اللقب عندهم: «ملك الملوك».

ومقصود سفيان رحمه الله بهذا أن يبيِّن أنّ هذا اللّقب ممنوعٌ في جميع اللّغات، سواء بالعربيّة أو بالأعجميّة، سواء سُمّي «ملك المُلوك» أو «شاهان شاه»، فالمعنى واحد، وكذلك «قاضي القُضاة» أو ما أشبه ذلك، فهذا منهيٌّ عنه في جميع اللُّغات.

«وفي رواية: أَغْيَظُ» هذا أفعل تفضيل، والغيظ: شدّة الغضب.

١٢١) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أراد المؤلف بيان وجوب احترام أسماء الله، والحذر من امتهانها أو احتقارها، أو تسمية غير الله بها من الأسماء التي اختص الله بها، ولهذا شرع تغير الاسم لأجل احترامها وتعظيمها.

والأسماء قسمان:

أسماء لا يسمى بها سوى الله سبحانه: كالرحمن، والخالق، ورب العالمين وغيره.

أسماء يسمى بها غيره سبحانه؛ فيكون لله ما يليق به، وللعبد ما يليق به، والمراد بها هنا الأول.

عن أبي شريح أنه كان يكنى أبا الحكم؛ فقال له النبي: إن الله هو الحكم.

قوله: «ما أحسن هذا»؛ أي: ما أحسن هذا العمل الذي هو الإصلاح بينهم والتوسط؛ ليرضوا وتزول الخصومات، وهذا شيء مطلوب وخير.

فَمَالَكَ مِنَ الوَلَدِ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، ومُسْلِمٌ، وعَبْدُ اللهِ. قَالَ: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ؟» قُلْتُ: شُرَيْحٌ، قَالَ: «فَأَنْتَ أَبو شُرَيْحٍ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ وغَيْرُهُ.

فوائد الحديث:

ينبغي احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك؛ ولهذا غير كنيته من أبي الحكم إلى أبي شريح، وفيه أن الأفضل أن يكنى الإنسان بأكبر أولاده.

وفيه شرعية الإصلاح بين الناس، وأنه شيء مطلوب، وينبغي لكبراء الناس أن يتوسطوا بين قومهم في حل الخصومات حتى لا تبقى الشحناء والعداوة.

والإصلاح بينهم أفضل من الحكم؛ لأن الحكم يحصل به حزازات، لكن إذا اصطلحوا عن طيب نفس كان أفضل؛ لزوال ما في النفوس، وتحل المحبة والمودة.

قوله: رواه أبو داود: ظاهر كلام المؤلف أنه يرى أن الحديث صالح للحجة، ولهذا اعتمده واكتفى به، واستدل به أنه لا يسمى بالحكم، وأبي الحكم، لأن هذا وصف لله تعالى، وهو الحاكم بين عباده، وله الحكم في الدنيا بشرعه، وفي الآخرة يحكم بنفسه.

ولكن يرد على هذا ما جاء في الأحاديث الصحيحة الكثيرة من أسماء كالحكم والحكيم، ولم يغيرها النبي ﷺ وهي أصح من هذه الرواية، وهذا مما يدل على أن الحديث في صحته نظر؛ لأن النبي ﷺ قد أقر بعض الأسماء كحكيم بن حزام، والحكم بن عمرو الغفاري، وأسماء أخرى، ولم يغيرها، ولو كانت منكرة لغيرها، ولأن الحكم يكون بالشرع بين الناس، ولا يضره أن يتسمى بذلك، وأن يسمى القاضي والحاكم، وما أشبه ذلك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** أسماء الله عز وجل هي: التي سمى بها نفسه أو سماه بها رسوله ﷺ.

قوله: «عن أبي شريح». هو هانئ بن زيد الكندي، جاء وافدًا إلى النبي ﷺ مع قومه.

وقوله: يكنى أبا الحكم. أي ينادى به. والكنية ما صدر بأب أو أم أو أخ أو

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: احْتِرَامُ أَسْمَاءِ اللهِ وصِفَاتِهِ ولَوْ لَمْ يَقْصِدْ مَعْنَاهُ.

عم أو خال وتكون للمدح كما في هذا الحديث، وتكون للذم كأبي جهل، وقد يكون لمصاحبة الشيء مثل: أبي هريرة، وقد تكون لمجرد العلمية كأبي بكر رضي الله عنه، وأبي العباس شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد.

قوله: «إن الله هو الحكم وإليه الحكم». «وهو الحكم»، أي: المستحق أن يكون حاكمًا على عباده، حاكمًا بالفعل، يدل له قوله: «وإليه الحكم».

وقوله: «وإليه الحكم». الخبر فيه جار ومجرور مقدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلى هذا يكون راجعًا إلى الله وحده.

قوله: «فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني». هذا بيان لسبب تسميه بأبي الحكم.

قوله: «ما أحسن هذا». الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه، لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي ﷺ غيَّره.

قوله: «شريح ومسلم وعبد الله». الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة، لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله: «فأنت أبو شريح». غيره النبي ﷺ لأمرين:

الأول: أن الحكم هو الله، فإذا قيل: يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني: أن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقًا لاسم الله، وليس لمجرد العلمية المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركًا لله - سبحانه وتعالى - في ذلك، ولهذا كناه النبي ﷺ بما ينبغي أن يكنى به.

فيه مسائل:

الأولى: احترام أسماء الله وصفاته ولو لم يقصد معناه.

قوله: «ولو لم يقصد معناه» هذا في النفس منه شيء؛ لأنه إذا لم يقصد معناه، فهو جائز، إلا إن سمي بما لا يصح إلا لله، مثل: الله، الرحمن، رب العالمين،

«الثَّانِيَةُ»: تَغْيِيرُ الاسْمِ لأَجْلِ ذَلِكَ.
«الثَّالِثَةُ»: اخْتِيارُ أَكْبَرِ الأَبْنَاءِ لِلْكُنْيَةِ.

وما أشبهه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان، وأما ما لا يختص بالله، فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط، لأنه لا يكون مطابقًا لاسم الله، ولذلك كان في الصحابة من اسمه «الحكم»[١] ولم يغيره النبي ﷺ، لأنه لم يقصد إلا العلمية، وفي الصحابة من اسمه «حكيم»[٢] وأقره النبي ﷺ فالذي يحترم من أسمائه تعالى ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة.

الثانية: تغيير الاسم لأجل ذلك. وقد سبق الكلام عليه.

الثالثة: اختيار أكبر الأبناء للكنية. تؤخذ من سؤال النبي ﷺ: «فمن أكبرهم؟» قال: شريح. قال: «فأنت أبو شريح».

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني؛ لأن النبي ﷺ أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة، ولم يأمره النبي ﷺ أن يكنى ابتداء.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قولُه رحمه الله: «بابُ احترام أسماء الله» أي: إكرامُها وإجلالُها، وعدم إهانتها، أو استعمالها في شيء يُمْتهن.

والأسماء: جمع اسم، والاسم: ما يوضَع علامةً على الشيء مميِّزًا له عن غيره، مأخوذ من السُّمُو وهو الارتفاع، أو من السِّمَة وهي العلامة.

والله سبحانه وتعالى له أسماء سمّى بها نفسَه في كتابه، وسمّاهُ بها رسوله ﷺ في سنّته، وله أسماء لا يعلمها إلّا هو سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾، وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، وقال تعالى في آخر سورة الحشر: ﴿لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ والنبي ﷺ في دعائه يقول: «اللّهمَّ إنّي أسألك بكلّ اسم هو لك سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك أو علّمته

---

(١) انظر «الإصابة» لابن حجر (١/ ٣٤٢).
(٢) انظر «الإصابة» لابن حجر (١ / ٣٤٩).

....

أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك»، فأسماء الله لا يعلمها إلّا هو سبحانه وتعالى، وكلّها حسنى.

وتعدُّد الأسماء يدلّ على عظم المسمّى، فهي أسماءٌ عظيمة، يجب على العباد: احترامُها، وإجلالُها، ودُعاء الله تعالى بها، والتوسّل إليه تعالى بأسمائه وصفاته، فيقول في الدّعاء: «يا رحمن يا رحيم، يا حيّ يا قيّوم، يا ذا الجلال والإكرام»، لأنّ ذلك من أسباب الإجابة، فدلّ على عظمها.

فلا يجوز أن تُمْتَهَن وأن تُبْتَذَل، أو توضَع في أشياء تُستعمَل وتُهان، كأن تُكتب على أشياء تُداس بالأقدام، أو تقع في الشّوارع والقاذورات، ومَن وجد شيئًا من ذلك وجب عليه رفعُه أو إتلافه، أو إزالة اسم الله تعالى منه، فهذا من احترام أسماء الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «وتغيير الاسم» أي: إذا سُمّي شيء من المخلوقات باسم من أسماء الله الخاصّة به، كـ (الله) أو (الرحمن) أو ما أشبه ذلك من أسمائه الخاصّة به التي لا يُسمّى بها غيرُه؛ فإنّه يجب تغيير الاسم احترامًا لأسماء الله.

«من أجل ذلك» أي: من أجل احترام أسماء الله تعالى.

أما الأسماء التي يُسمّى بها المخلوق ويسمّى بها الخالق مثل: الملِك، والعزيز، وأشباه ذلك؛ فهذه ليست من هذا الباب، فالله له أسماء تختصّ به، والمخلوق له أسماء تختصّ به، فالله سمّى نفسه: (الرءوف، الرحيم)، وقال عن نبيّه بأنّه: ﴿بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾، وسمّى نفسه بالعليم، ووصف وسمّى عبده ﴿بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ﴾ وسمّى نفسه بالحليم، وسمّى عبده: ﴿بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴾، فهذه أشياء مشتركة يجوز أن يسمّى بها المخلوق، ولكن يُعلم أنّها ليست كأسماء الله سبحانه وتعالى.

ثم ذكر رحمه الله الدليل فقال: «عن أبي شريح» اسمه- على الراجح-: هانئ ابن يزيد الكِنْدي، صحابي، له رواية عن الرّسول ﷺ.

«أنه كان يُكنى» الكنية: ما صُدِّر بأبٍ أو أُم، كأبي عبد الله، وأمّ هانئ، وما أشبه ذلك، والكنية تكون للتشريف والتكريم، أما اللّقب فإنه يكون للمدح وللذّم،

....

والغالب أنّه للذمّ، ولذلك يقول الله جل وعلا: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ﴾.

«أبا الحَكَم» الحكم هو: الذي يحكم بين النّاس ويفصِل النّزاع، ومنه سُمّي الحاكم حاكمًا لأنّه يفصل بين النّاس، فالحكم- بالألف واللّام- لا يُطلق إلّا على الله سبحانه وتعالى، أما أن يُقال: (حكم) بدون تعريف فلا بأس، فالله جل وعلا يقول: ﴿فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا﴾.

وقوله: «إن الله هو الحَكَم، وإليه الحُكْم» بمعنى: أنّه هو الذي يحكُم بين عباده، في الدُّنيا يحكُم بينهم بوحيه الذي أنزله على رسوله ﷺ من الكتاب والسنّة: قال تعالى: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾، قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ والرّدّ إلى الله هو: الرّدّ إلى كتابه، والردّ إلى الرّسول ﷺ هو: الرّد إليه في حياته وإلى سنّته بعد وفاته ﷺ، وكذلك هو الحَكَم في الآخرة الذي يحكُم بين النّاس فيما كانوا فيه يختلفون، ففي الآخِرة ليس هناك حاكم سواه سبحانه وتعالى، هو الذي يتولّى الفصل بين عباده.

والنّبي قال: «إنّ الله هو الحكَم، وإليه الحُكم» على سبيل الإنكار على أبي شريح.

ثم إنّ أبا شريح أراد أن يبيّن السبب للرّسول ﷺ، وأنّه لم يسمّ نفسَه بذلك، وإنّما النّاس هم الذين سمّوه به، والسبب في هذا: أنّه إذا اختلف قومُه في شيء رجعوا إليه فحكم بينهم فرضيَ كلَا الفريقين، بمعنى: أنّه يُصْلِح بينهم برضاهم، وليس في هذا ظلمٌ لأحد، وإنّما فيه إنهاء للنّزاع وقطع للخُصومة وإرضاء لكلا الطّرَفين، وهذا عملُ خير، ولهذا قال النّبي ﷺ: «ما أحسن هذا!»، والله جل وعلا يقول: ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالصُّلْحُ خَيْرٌ﴾، وقال النّبي ﷺ: «الصلح جائز بين المسلمين، إلّا صلحًا أحلّ حرامًا أو حرّم حلالاً».

فالإصلاح بين النّاس أمرٌ مرغّبٌ فيه، وعملٌ صالح، وصدقة من الإنسان على نفسه أن يعدِل بين النّاس ويسوّي الخلافات بين النّاس، بعكس الذي يُثير النّزاع

....

ويُحدث الفتنة بين النّاس، ويحرّش بعضهم على بعض، فهذا مفسد -والعياذ بالله- خلاف الذي إذا وجد النّاس مختلفين فإنّه يصلح بينهم ويقارِب بين وجهات نظرهم، ويُذهِب ما في نفوسهم من الكراهية بعضهم لبعض، فهذا مصلِح، وله أجرٌ عند الله سبحانه وتعالى، ولهذا قال النّبيُّ سبحانه وتعالى: «ما أحسن هذا!!»، تعجُّبًا وثناءً على عمل هذا الرّجل، وتشجيعًا له على ذلك، وإنما أنكر التكنّي بأبي الحكم، وأراد تغييره، حيث قال ﷺ: «فما لَك من الولد؟»، ليجعل له بديلاً صالحًا.

قال أبو شريح: «قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله».

قال النّبي ﷺ: «من أكبرُهم؟».

قال: شُريح.

فقال النّبي ﷺ: «أنت أبو شريح» بَدَّل «أبا الحَكَم»، وكنّاه بأكبر أولاده، فدلّ على أنّ الكنية تكون بأكبر الأولاد.

فهذا الحديث يدلّ على مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه: احترامُ أسماء الله سبحانه وتعالى، وإجلالُها، وتغيير الاسم من أجل إجلالها، لأنّ النّبي ﷺ غيّر اسم (أبي الحَكَم) إلى (أبي شُريح) احترامًا لأسماء الله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: في الحديث دليلٌ على تعليم الجاهل، فإنّ النّبي ﷺ علّم أبا شُريح، وبيّن له أنّ هذه الكُنْيَة خطأ.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على أنَّ مَن مَنع من شيء سيّء وله بديلٌ صالح فإنّه يأتي بالبديل، فإنّ النّبي ﷺ لَمّا مَنع من التكنّي بـ (أبي الحكَم) جعل بديلاً له وهو (أبو شريح).

وهذه قاعدة للمعلّمين والدُّعاة أنّهم إذا نهوا النّاس عن شيء محرّم وهناك ما يحلُّ محلّه من الطيّب الحلال؛ فإنّهم يأتون به ويبيّنونه للنّاس.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على مشروعيّة الصلح بين النّاس فيما

١٢٢) ٤٨-بابٌ

مَنْ هَزَلَ بشيءٍ فيهِ ذِكْرُ اللهِ أَوِ القرآنِ أَوِ الرَّسول، وقَولُ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾ الآية [التوبة: ٦٥]

يختلفون فيه، وأنّ الصلح مبنيٌّ على التراضي ليس إلزاميًا فإنّ أبا شُريح قال: (فرضيَ كلَا الفريقين، ، فالمصلح لا يُلزم وإنّما يَعرِض الحلّ النافع، فإن قُبل فالحمد لله، وإلّا فإنّ المَراد إلى كتاب الله وسُنّة رسوله ﷺ لحسم النّزاع.

أمّا الذي يُلزِم النّاس بغير حكم الله؛ فهذا طاغوت، كالذي يُلزم النّاس بحكم الأعراف القَبَليّة التي يتحاكم إليها بعض القبائل، فهذا من حكم الجاهلية.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنّ الكنية تكون بأكبر الأولاد.

١٢٢) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا الباب لبيان حكم المستهزئين بالله وبالقرآن وبالرسول ﷺ، وأن حكمهم أنهم مرتدون إذا كانوا مسلمين، وإن الاستهزاء ردة وكفر، فجواب الشرط:

فقد كفر، وهو معلوم؛ لقوله - تعالى-: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هذه الترجمة فيها شيء من الغموض، والظاهر أن المراد من هزل بشيء فيه ذكر الله مثل الأحكام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسول ﷺ، فيكون معطوفًا على قوله بشيء.

قوله: «من هزل». سخر واستهزأ ورآه لعبًا ليس جدًّا.

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية أو الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة.

ثم اعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته ؟ على قولين:

القول الأول: أنها لا تقبل، وهو المشهور عن الحنابلة، بل يقتل كافرًا، ولا

....

يصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال: إنه تاب أو إنه أخطأ، لأنهم يقولون: إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيها التوبة.

وقال بعض أهل العلم: إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة، كقوله تعالى ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر: ٥٣]، ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم.

وهذا هو الصحيح، إلا أن ساب الرسول ﷺ تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله، فإنها تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول ﷺ، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعًا، أما ساب الرسول ﷺ، فإنه يتعلق به أمران:

الأول: أمر شرعي لكونه رسول الله ﷺ، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.

الثاني: أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا الوجه يجب قتله لحقه ﷺ ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل، غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين.

قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾. الخطاب للنبي ﷺ، أي: سألت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة.

قوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾. أي: ما لنا قصد، ولكننا نخوض ونعلب، واللعب يقصد به الهزء، وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له.

هذا إذا وصف بذلك القول، وأما إذا لم يوصف به القول، فإنه يكون الخوض في الكلام، واللعب في الجوارح.

وقوله: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾: ﴿إِنَّمَا﴾: أداة حصر، أي: ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونعلب.

قوله: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾. الاستفهام للإنكار

....

والتعجب، فينكر عليهم أن يستهزئوا بهذه الأمور العظيمة، ويتعجب كيف يكون أحق الحق محلًا للسخرية؟

قوله: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا﴾. المراد بالنهي التيئيس، أي: انههم عن الاعتذار تيئيسًا لهم بقبول اعتذارهم قوله ﴿قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾؛ أي: بالاستهزاء وهم لم يكونوا منافقين خالصين بل مؤمنين، ولكن إيمانهم ضعيف، ولهذا لم يمنعهم من الاستهزاء بالله وآياته ورسوله.

قوله: ﴿إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾.

﴿نَّعْفُ﴾: ضمير الجمع للتعظيم، أي: الله عز وجل.

وقوله: ﴿عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ﴾ قال بعض أهل العلم: هؤلاء حضروا وصار عندهم كراهية لهذا الشيء لكنهم داهنوا فصاروا في حكمهم لجلوسهم إليه، لكنهم أخف لما في قلوبهم من الكراهة، ولهذا عفا الله عنهم وهداهم للإيمان وتابوا.

قوله: ﴿نُعَذِّبْ طَائِفَةً﴾. هذا جواب الشرط، أي: لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفة، فلا بد أن نعذب الآخرين.

قوله: ﴿بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ﴾. الباء للسببية، أي: بسبب كونهم مجرمين بالاستهزاء وعندهم جرم والعياذ بالله، فلا يمكن أن يوفقوا للتوبة حتى يعفى عنهم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب بابٌ عظيم، إذا تأمّله الإنسان وعرَف واقِع النّاس فإنّه ينفعه الله به.

فقوله: «بابُ من هزَل» الهزْل هو: اللعب والاستهزاء، ضدّ الجدّ.

«بشيءٍ فيه ذكرُ الله أو القرآن أو الرّسول ﷺ» يعني: من استهزأ بشيء من هذه الأشياء فما حكمُه؟، حكمُه: أنّه يرتدُّ عن دين الإسلام، لأن هذا من نواقِض الإسلام بإجماع المسلمين، سواءٌ كان جادًّا أو هازلاً أو مازحًا، حيث لم يستثنِ الله إلّا المُكْرَه، قال تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِن بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦) ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي

١٢٣) عنِ ابنِ عُمَرَ، ومُحمَّدِ بنِ كَعْبٍ، وزيدِ بنِ أَسْلَمَ، وَقَتَادَةَ - دَخَلَ حَدِيثُ بَعضِهِمْ في بعضٍ - : أَنَّهُ قَالَ رَجُلٌ في غَزْوَةِ تَبوكَ: مَا رَأَيْنا مِثْلَ قُرائِنَا هؤلاءِ، أَرْغَبَ بُطُونًا، ولا أَكْذَبَ أَلْسُنًا، ولا أَجْبَنَ عِنْدَ اللقاءِ - يَعْنِي رسولَ اللهِ ﷺ وأَصْحَابَهُ القُرَّاءَ - فَقَالَ لهُ عَوْفُ بنُ مَالِكٍ:

ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾، فالأمر شديد جدًا.

١٢٣) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: - عن ابن عمر ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة: دخل حديث بعضهم في بعض أنه قال رجل في غزوة تبوك: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء...».

أرغب بطونا: أي: أكثر أكلاً.

أجبن عند اللقاء: أي: ليسوا بشجعان.

قال عوف بن مالك: كذبت: هذا فيه إنكار المنكر ممن سمعه، وأن عليه منعه لاسيما في مثل هذا المنكر العظيم الذي فيه سب الله ورسوله ودينه.

فوجد القرآن سبقه: أي: نزلت فيهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ﴾ فهذا يبين أن المستهزئ بالقرآن، أو السنة، أو الرسول ﷺ فهو كافر، ولو زعم أنه يقضي بها الوقت، أو يتحدث حديث الركب، ويقطع الطريق، أو أنه غير متعمد لذلك فهو كافر، لأن التلاعب بهذا لا يجوز لا في الطريق، ولا في غيره، لأنه يدل على نفاق في قلبه، وخبث وحقد على أهله، والمسلم لا يستطيع أن يقول مثل هذا الذي قاله الرجل وخاصة قوله:

«أكذب ألسنا» : فهذا تكذيب للرسول ﷺ وأصحابه، وفيه رمي لهم بالجبن، وأنهم حريصون على الأكل وهذا يدل على الحرص على الدنيا.

فجاء الرجل يعتذر فلم يكن النبي ﷺ يبالي بما يقول، ولا يرد عليه إلا بقوله: ﴿أَبِاللهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: أنه لم يقبل عذره، وبين له أنه كافر بهذا العمل.

فهذا يبين أن المستهزئ بالشرع كافر بعد الإيمان إذا تنقص الرسول، أو قال:

كَذَبْتَ، ولكِنَّكَ مُنَافِقٌ، لأُخْبِرَنَّ رَسولَ اللهِ ﷺ . فَذَهَبَ عَوْفٌ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ لِيُخْبِرَهُ فَوَجَدَ القُرآنَ قَدْ سَبَقَهُ. فَجَاءَ ذَلكَ الرَّجُلُ إِلى رسولِ اللهِ ﷺ وَقَدِ ارْتَحَلَ وَرَكِبَ نَاقَتَهُ، فَقَالَ: يَا رسولَ اللهِ! إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَتَحَدَّثُ حَدِيثَ الرَّكْبِ، نَقْطَعُ بِهِ عَنَّا الطَّرِيقَ . فَقَالَ ابنُ عُمَرَ: كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَيْهِ مُتَعَلِّقًا بِنِسْعَةِ نَاقةِ رسولِ اللهِ ﷺ وَإِنَّ الحِجَارَةَ تَنْكُبُ رِجْلَيْهِ- وَهُوَ يَقُولُ: إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ ونَلْعَبُ- فَيَقُولُ لَهُ رَسولُ اللهِ ﷺ: ﴿قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ ما يلتفِتُ إِلَيْهِ ومَا يَزِيدُهُ عَلَيْهِ.

إنه جبان، أو كذاب، أو لم يبلغ الرسالة، وما أشبه ذلك مما يدل على التنقص، وهكذا من قال: إن القرآن متناقض، أو أنه لم يستوف ما يحتاجه الناس، أو الشريعة لم تستوف ما يحتاجه الناس، وما أشبه ذلك مما هو على سبيل الذم والنقص.

أما إذا قال: إن القرآن قد جاءت السنة ببيان أشياء ليست فيه فهذا حق، لكن إن قاله قاصدًا الذم، وأن الناس بحاجة إلى القوانين، وأن النصوص لا تكفي، فهذا كفر أكبر وردة، وكذا من قال: إن الجنة خيال ليست حقيقة.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «عن ابن عمر». هو عبدالله.

«ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم وقتادة». والثلاثة تابعيون، فالرواية عن ابن عمر مرفوعة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة.

قوله: «دخل حديث بعضهم في بعض». أي: أن هذا الحديث مجموع من كلامهم، وهذا يفعله بعض أئمة الرواة كالزهري وغيره، فيحدثه جماعة بشأن قصة من القصص كحديث الإفك مثلاً، فيجمعون هذا ويجعلونه في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولون مثلاً: دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول: حدثني بكذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك.

....

قوله: «ما رأينا». تحتمل أن تكون بصرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله: «مثل قرائنا». المفعول الأول، والمراد بهم الرسول ﷺ وأصحابه.

قوله: «أرغب بطونًا». المفعول الثاني، أي: أوسع، وإنما كانت الرغبة هنا بمعنى السعة، لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل.

قوله: «ولا أكذب ألسنًا». الكذب: هو الإخبار بخلاف الواقع، والألسن: جمع لسان، والمراد: ولا أكذب قولاً.

قوله: «ولا أجبن عند اللقاء». الجبن: هو خور في النفس يمنع المرء من الإقدام على ما يكره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كان النبي ﷺ يستعيذ منه[1] لما يحصل فيه من الإحجام عما ينبغي الإقدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة.

قوله: «كذبت». أي: أخبرت بخلاف الواقع، وفي ذلك دليل على تكذيب الكذب مهما كان الأمر، وأن السكوت عليه لا يجوز.

قوله: «ولكنك منافق». لأنه لا يطلق هذه الأوصاف على رسول الله ﷺ وأصحابه رجل تسمى بالإسلام إلا منافق، وبهذا يعرف أن من يسب أصحاب رسول الله ﷺ أنه كافر، لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته.

فيكون طعنًا في الله، لأنه طعن في حكمته، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه.

وطعنًا في الرسول ﷺ: لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسان يستدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين.

قوله: «فوجد القرآن قد سبقه». أي: بالوحي من الله تعالى، والله عليم بما يفعلون وبما يريدون وبما يبيتون، قال تعالى: ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ﴾ [النساء: ١٠٨].

قوله: «بنسعة». هي الحزام الذي يربط به الرحل.

قوله: «والحجارة تنكب رجليه». أي: يمشي والحجارة تضرب رجليه وكأنه -

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات / باب الاستعاذة من الجبن (٦٠٠٨).

«فيه مسائل:

«الأُولَى»: وهيَ العَظِيمَةُ: أَنَّ مَنْ هَزَلَ بِهَذَا فَهُوَ كَافِرٌ.

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ هَذَا هُوَ تَفْسِيرُ الآيَةِ فِيمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ كَائِنًا مَنْ كَانَ.

«الثَّالِثَةُ»: الفرْقُ بَيْنَ النَّمِيمَةِ والنَّصِيحَةِ للهِ ولِرَسولِهِ.

والله أعلم- يمشي بسرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال، لأنه يريد أن يعتذر.

قوله: «وما يزيده عليه». أي: لا يزيده على ما ذكر من توبيخ امتثالاً لأمر الله عز وجل، وكفى بالقول الذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخًا.

فيه مسائل:

الأولى وهي العظيمة: أن من هزل بهذا كافر. أي: من هزل بالله وآياته ورسوله.

الثانية: أن هذا هو تفسير الآية فيمن فعل ذلك كائنًا من كان. أي: سواء كان منافقًا أو غير منافق ثم استهزأ، فإنه يكفر كائنًا من كان.

الثالثة: الفرق بين النميمة والنصيحة لله ولرسوله. النميمة: من نم الحديث، أي: نقله ونسبه إلى غيره: وهي نقل كلام الغير للغير بقصد الإفساد، وهي من أكبر الذنوب، قال ﷺ: «لا يدخل الجنة نمام»[1] وأخبر عن رجل يعذب في قبره، لأنه كان يمشي بالنميمة[2]. وأما النصحية لله ورسوله، فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احترام شعائر الله عز وجل وإقامة حدوده وحفظ شريعته، وعوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة.

ومن ذلك لو أن رجلًا اعتمد على شخص ووثق به، وهذا الشخص يكشف سره ويستهزئ به في المجالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك، فليس هذا من

---

(١) البخاري: كتاب الأدب / باب ما يكره من النميمة (٥٧٠٩) ومسلم: كتاب الإيمان / باب غلظ تحريم النميمة (١٠٥).

(٢) البخاري: باب الجنائز / باب عذاب القبر من الغيبة (١٣١٢)، ومسلم: كتاب الطهارة / باب الدليل على نجاسة البول.

«الرَّابِعَةُ»: الفَرْقُ بَيْنَ العَفْوِ الذي يُحِبُّهُ اللهُ وبَيْنَ الغِلْظَةِ عَلَى أَعْدَاءِ اللهِ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ مِنَ الأَعْذَارِ مَا لا يَنْبَغِي أَنْ يُقْبَلَ.

النميمة، بل من النصيحة.

الرابعة: الفرق بين العفو الذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله. العفو الذي يحبه الله: هو الذي فيه إصلاح، لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ٤٠] أي: كان عفوه مشتملاً على الإصلاح، وقال بعضهم: أي أصلح الود بينه وبين من أساء إليه، وهذا تفسير قاصر والصواب أن المراد به أصلح في عفوه، أي: كان في عفوه إصلاح.

فمن كان عفوه إفسادًا لا إصلاحًا، فإنه آثم بهذا العفو، ووجه ذلك من الآية ظاهر، لأن الله قال: ﴿عَفَا وَأَصْلَحَ﴾، ولأن العفو إحسان والفساد إساءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم.

والنبي ﷺ غلظ على هذا الرجل لكونه ﷺ لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمره الله به مع أن الحجارة تنكب رجل الرجل، ولم يرحمه النبي ﷺ ولم يرق له، ولكل مقام مقال، فينبغي أن يكون الإنسان شديدًا في موضع الشدة، لينًا في موضع اللين، لكن أعداء الله عز وجل الأصل في معاملتهم الشدة، قال تعالى في وصف الرسول ﷺ وأصحابه: ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التحريم: ٩] و[التوبة: ٧٣]، ذكرها الله في سورتين من القرآن مما يدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانًا للدعوة والتأليف قد يكون مستحسنًا.

الخامسة: أن من الاعتذار ما لا ينبغي أن يقبل. الأصل في الاعتذار أن يقبل لا سيما إذا كان المعتذر محسنًا، لكن حصلت منه هفوة، فإن علم أنه اعتذار باطل، فإنه لا يقبل.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقد بيّن الشيخ أن هذا الحكم في كتاب الله مع سبب نزوله فقال: وقول الله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ

....

﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُۚ﴾.

ثم ذكر سبب نُزول الآية، فقال: «عن ابن عمر» هو: عبد الله بن عمر.

«ومحمد بن كعب» هو: محمد بن كعب القُرظيّ من بني قُرَيْظة.

«وزيد بن أَسْلم» هو: مولى عمر بن الخطاب.

«وقَتادة» هو: قتادة بن دَعامة بن قَتادة السّدُوسيّ.

«دخل حديثُ بعضهم في بعض» يعني: كلّ هؤلاء رووا هذا الحديث، ولكن لَمّا كانت ألفاظُهم متقارِبة والمعنى واحد دخل حديثُ بعضهم في بعض، فسِيق سياقًا واحدًا، من باب الاختصار.

«أن رجلًا» يعني: من المنافقين.

«كان في غزوة تبوك» تبوك: اسم موضع، شماليّ المدينة من أدنى الشّام.

وغزوة تبوك سببُها: أنّ الرسول ﷺ بَلغه أنّ الروم يُعِدُّون العُدّة لغزو المسلمين، وكان هذا في الصيف وفي شدّة الحرّ ووقت مَطِيب الثمار، فالوقت وقتٌ حَرِج جدًّا، والمسافة بعيدة، والعدوّ عدده كبير، والوقت حارّ، ووقت مَطِيب الثمار والنّاس بحاجة إليها، والمسلمون عندهم عُسرة، فليس عندهم استعداد للتجهُّز للغزو، ولذلك سُمّي هذا الجيش بـ «جيش العُسرة»، وسُمّيت هذه الساعة: «ساعة العُسْرة».

وقد جهّز عثمان رضي الله عنه من ماله ثلاثمائة بعير بجميع لوازمها، فهو الذي جهّز جيش العُسرة من ماله الخاصّ، وهذا من أعظم فضائله، رضي الله عنه وأرضاه.

وكذلك شارَك مَن شارك من الصّحابة بما عندهم من مال، فجهّزوا الجيش، وخرجوا، وكانت آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ.

والمنافقون صاروا يتكلّمون، واعتذروا عن الخُروج، لأنّهم ليس معهم إيمان، والغزوة هذه صعبة، لا يصبر عليها إلّا أهلُ الإيمان، وهذه حكمة من الله تعالى، واختبار في آخر عهد الرسول ﷺ، أراد الله أن يختبر المسلمين ليظهَر الصادِق من

....

المنافق، فالصادقون ما تردّدوا ولا تلكّأوا، وأمّا المنافقون فإنهم تلكّأوا وجعلوا يتكلّمون ويقولون: يحسبون أن غزو بني الأصفر مثل غزو العرب، كأنّنا بهم يقرّنون في الأصفاد، وما أشبه ذلك من الكلام القبيح، واعتذروا عن الخُروج، ولهذا يقول الله سبحانه وتعالى عنهم: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ﴾ لأنّ المسافة بعيدة، ﴿وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ﴾ .

وأنزل الله في هذه الغزوة سورةً كاملة هي سورة التوبة التي فضح الله فيها المنافقين وأثنى فيها على المؤمنين، وهكذا حكمةُ الله سبحانه وتعالى يبتلي عبادَه.

فكان للمنافقين كلمات، منها ما في هذا الحديث، حيث قال رجلٌ منهم: «ما رأينا مثل قُرّائنا هؤلاء» يعني بالقُرّاء: رسول الله ﷺ وأصحابه.

«أرْغَبَ بطونًا، ولا أكذبَ ألسنًا، ولا أجْبَنَ عند اللّقاء» وهذه الصّفات في الواقع هي صفات المنافقين، لكنّهم وصفوا بها رسولَ الله ﷺ وأصحابَه.

فقال عوف بن مالك: «كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسولَ الله ﷺ» وهذا مِن إنكار المنكر، ومن النصيحة لوُلاة الأمور، فالمسلم يبلِّغهم مقالات المفسدين والمنافقين من أجل

أنْ يأخُذوا على أيدي هؤلاء، لئلا يُخِلُّوا بالأمن ويفرِّقوا الكلِمة، فتبليغ وُلاة أمور المسلمين كلمات المنافقين ودعاة السوء الذين يريدون تفريق الكلمة، والتحريش بين المسلمين؛ هو من الإصلاح ومن النُّصيحة، لا من النّميمة.

«فذهب عوفٌ إلى رسول الله ﷺ ليُخبره فوجد القرآن قَدْ سَبَقه»؛ لأنّ الله سبحانه وتعالى سَمِعَ مقالتهم وأنزل على رسوله ﷺ الخبر قبل أن يصل إليه عوف.

فهذا فيه: سَعَةُ علم الله سبحانه وتعالى.

وفيه: علامةٌ من علامات النبوّة، وأنّ الرسول ﷺ كان يوحى إليه ويبلِّغه الخبر بسرعة.

....

ثم جاء ذلك الرجل الذي تكلّم بهذا الكلام- والعياذُ بالله- ووجد النّبي ﷺ: «قد ارتحل وركِب ناقته» من أجل أن يُفسد على المنافقين خُطّتهم، ومن أجل أن يُنهيَ هذه الخُطّة الخبيثة.

«فقال: يا رسول الله، إنما كنّا نخوض ونتحدّث حديثَ الرَّكْب، نقطع به عناء الطّريق. قال ابن عمر: كأنّي أنظرُ إليه متعلِّقًا بِنِسْعَة ناقة النّبي ﷺ» النِّسْعَة هي الحبل الذي يُشَدُّ به الرحل.

وهو يقول: يا رسول الله، إنّما كنا نخوض ونلعب» فالرسول ﷺ يرُدُّ عليه بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾.

فهذه القصّة فيها فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: أن من استهزأ بالله أو برسوله أو بالقرآن ارتدّ عن دين الإسلام رِدّةً تنافي التّوحيد، وهذا وجه المناسبة من عقد المصنِّف لهذا الباب.

الفائدة الثانية: أن نواقض الإسلام لا يُعفى فيها عن اللّعب والمزح، سواء كان جادًّا أو هازلاً.

الفائدة الثالثة: وُجوب إنكار المنكر؛ لأنّ عوف بن مالك رضي الله عنه أنكر ذلك وأقرّه الرسول ﷺ على ذلك.

الفائدة الرابعة: أنّ مَن لم يُنكر الكفر والشرك فإنه يكون كافرًا؛ لأنّ الذي تكلّم في هذا المجلس واحد، والله نسب هذا إلى المجموع فقال: ﴿قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾، لأنّ الراضيَ كالفاعل، وهذه خطورة عظيمة.

الفائدة الخامسة: أنّ إبلاغ وليّ الأمر عن مقالات المفسدين من المنافقين ودُعاة السوء الذين يريدون تفريق الكلمة والتحريش بين المسلمين من أجل الحَزْم يُعَدُّ من النصيحة الواجبة، وليس هو من النّميمة.

الفائدة السادسة: فيه احترام أهلِ العلم وعدم السخرية منهم، أو الاستهزاء بهم.

١٢٤) ٤٩- بابٌ

ما جاءَ في قَوْلِ اللهِ تَعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ الآية [٥٠: فصلت].

الفائدة السابعة: في الحديث دليلٌ على معجزة من معجزات الرّسول ﷺ حيث إنّه بلغه الوحي عن القصّة قبل أن يأتيَ إليه عَوفُ بن مالك.

الفائدة الثامنة: في الحديث دليل على أنّ نواقِض الإسلام لا يُعذَر فيها بالمزح واللّعب، لأنها ليست مجالاً لذلك، وإنّما يُعذر فيها المُكْره على القول خاصة كما في آية النحل: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُۥ مُطْمَئِنٌّۢ بِٱلْإِيمَٰنِ﴾.

الفائدة التاسعة: في الحديث دليلٌ على وُجوب الغِلْظة على أعداء الله ورسوله من المنافقين والكُفّار ودُعاة الضّلال، وأنّ الإنسان لا يَلِين لهم، لأنّه إنْ لان معهم خدعوه ونفّذوا شرّهم، فلا بُدّ من الحَزْم من وليّ الأمر ومن العالِم نحو المنافقين والكُفّار ودُعاة السوء.

١٢٤) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

هذا الباب عقده المؤلف؛ لبيان ما غلب على النفوس من إنكارها النعم وجحدها وكفرانها، وعدم الاعتراف بها لمعطيها سبحانه وتعالى.

وفي الآية: أن هذا القول طبيعة من طبيعة بني آدم إلا من عصمه الله، من إنكارهم النعم ونسبتها لنفسه، وعدم الاعتراف بها لخالقها - عز وجل - فمن شأنه الكفر بالنعم، وأن يقول هذا عملي، ومن أسبابي وغير ذلك.

والمقصود من هذا: الحث على شكر النعم، وإسنادها لله، وإن كان له أسباب لكن كله بفضل الله، هو الذي أنبت له النبات ويسر له التجارة والربح، ولا مانع أن يسنده إلى سبب من الأسباب، لكن يبين أولًا أنها من الله ويشكر، ثم لا مانع من ذكر الأسباب، لكن إن نسبها إلى أسبابه ونسي المنعم، فهذا منكر.

قَالَ مُجَاهِدٌ: هَذَا بِعَمَلِي وأَنَا مَحْقُوقٌ بِهِ. وَقَالَ ابنُ عَبَّاسٍ: يُرِيدُ مِنْ عِنْدِي.

وقولُهُ: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: من الآية٧٨] قالَ قَتَادَةُ: عَلَى عِلْمٍ مِنِّي بِوُجُوهِ المكَاسِبِ. وقَالَ آخرونَ: عَلَى عِلْمٍ مِنَ اللهِ أَنِّي لَهُ أَهْلٌ. وهَذَا مَعْنَى قَولِ مُجَاهِدٍ: أُوتِيتُهُ عَلَى شَرَفٍ.

---

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الآية الأولى ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾. الضمير يعود على الإنسان، والمراد به الجنس. وقيل: المراد به الكافر.

والظاهر أن المراد به الجنس، إلا أنه يمنع من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى: ﴿إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ ۚ وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَٰتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ ۚ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَآءِى قَالُوٓا۟ ءَاذَنَّٰكَ مَا مِنَّا مِن شَهِيدٍ ﴿٤٧﴾ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَدْعُونَ مِن قَبْلُ ۖ وَظَنُّوا۟ مَا لَهُم مِّن مَّحِيصٍ ﴿٤٨﴾ لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ [فصلت: ٤٧-٤٩]، هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة.

قوله: ﴿مَسَّتْهُ﴾. أي: أصابته وأثرت فيه.

قوله: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾. هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بالنفس، واللام في قوله ﴿لَيَقُولَنَّ﴾ واقعة في جواب القسم المقدر قبل اللام في قوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ﴾.

قوله: ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾. بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورًا يشكر الله على ذلك، أما هذا، فقد نسي الآخرة وكفر بها.

قوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾.

(إن): شرطية وتأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن وقوعه، كقوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥]، والمعنى: على فرض أن أرجع إلى الله لي عنده للحسنى.

....

قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. في معناه أقوال:

الأول: قال قتادة: على علم مني بوجوه المكاسب، فيكون العلم عائدًا على الإنسان، أي: عالم بوجوه المكاسب ولا فضل لأحد علي فيما أوتيته، وإنما الفضل لي، وعليه يكون هذا كفرًا بنعمة الله وإعجابًا بالنفس.

الثاني: قال آخرون: على علم من الله أني له أهل، فيكون بذلك مدلاً على الله، وأنه أهل ومستحق لأن ينعم الله عليه، والعلم هنا عائد على الله، أي: أوتيت هذا الشيء على علم من الله أني مستحق له وأهل له.

الثالث: قول مجاهد: «أوتيته على شرف»، وهو من معنى القول الثاني، فصار معنى الآية يدور على وجهين:

الوجه الأول: أن هذا إنكار أن يكون ما أصابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يده وعلمه ومهارته.

الوجه الثاني: أنه أنكر أن يكون لله الفضل عليه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله، لأن الله أعطاه ذلك لكونه أهلاً لهذه النعمة.

فيكون على كلا الأمرين غير شاكر لله - عز وجل، والحقيقة أن كل ما نؤتاه من النعم فهو من الله، فهو الذي يسرها حتى حصلنا عليها.

وشكر النعمة له ثلاثة أركان:

الاعتراف بها في القلب.

الثناء على الله باللسان.

العمل بالجوارح بما يرضي المنعم.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب بابٌ عظيم، تقدّم نظيره في باب قول الله تعالى: ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾.

وقوله: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ﴾ الضمير في ﴿أَذَقْنَاهُ﴾ ضمير الغائب راجعٌ إلى الإنسان المذكور في الآية التي قبلها في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾، والمراد بالإنسان هنا: جنس الإنسان، يعني: لا يملّ الإنسان من طلب الدنيا، ﴿وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ يعني: إذا أصابته مصيبة في ماله أو في

....

بدنه، ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ يستبْعِد الفَرَج من الله عزّ وجلّ ويقنط من رحمة الله، ﴿وَلَـٰئِنۡ أَذَقۡنَـٰهُ﴾ يعني: هذا الإنسان، أي: أعطيناه، ﴿رَحۡمَةً مِّنَّا﴾ عافية وصحّة في بدنه وغنًى من فقره، ﴿مِنۢ بَعۡدِ ضَرَّآءَ مَسَّتۡهُ﴾مسته في بدنه من المرض والمصائب، أو في ماله من الفقر والإعواز. ﴿لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ ينسى الضرّاء التي مسّته، وينسى من أين جاءت هذه النعم، ويظنّ أنّ ما في يده إنما هو بحوله وقوّته، فيقول: ﴿هَـٰذَا لِى﴾ ، فلا يشكُر الله عزّ وجلّ ويعترف بنعمته، بل ينسِب هذه النعمة إليه هو وإلى كدِّه وكسْبه، أو إلى آبائه وأجدادِه.

«قال مجاهد» هو مجاهد بن جَبْر، الإمام الجليل، من كبار التابعين.

«هذا بعملي، وأنا محقوقٌ به» يعني: هذه النعمة إنما حصلتُ عليها بعملي وكَدِّي وكسبي واحترافي، وأنا محقوق بها، أي: أستحقها، وأنا الذي حصّلتُها، وأنا الذي جمعتُها.

«وقال ابن عبّاس: يريد: هذا مِن عندي» يعني: بعملي وبسببي، أنا الذي حصّلتُه وتعبْتُ فيه.

«وقوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلۡمٍ عِندِىٓ﴾ قال قتادة: على علم منّي بوجوه المكاسب. وقال آخرون: على علم من الله أني له أهل» القول الأول معناه: أنّني رجلٌ عالم بالاقتصاد وطُرق الكسب، كما يقوله اليوم الاقتصاديُّون، حيث يتباهون بالحِذق بعلم الاقتصاد، ويظنون أنّ الأموال والثروات التي يحصُلون عليها بسبب حِذْقهم ومعرفتهم وخِبْرَتهم، ولا ينسبون هذا إلى الله سبحانه وتعالى.

والقولُ الثاني معناه: أن الله أعطاني هذا المال لأنّه يعلم أنّي أستحقُّه، ولا فضل لله عليّ فيه.

قال الشيخ: «وهذا معنى قول مجاهد: أوتيتُه على شرف» أي: أن الله علم أنني رجل شريف وذو مكانة ومنزلة، فالله أعطانيه لمنزلتي، ومعنى هذا: إنكار الفضل من الله سبحانه وتعالى.

قال العلماء: «هذه الأقوال لا تنافيَ بينَها»، لأنّ الآيتين تشملان كلّ هذه

١٢٥) عَنْ أَبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ ثَلاثَةً فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصَ وَأَقْرَعَ وَأَعْمَى، فَأَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَبْتَلِيَهُمْ، فَبعثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْنٌ حَسَنٌ وَجِلْدٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الإِبِلُ، أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ، (شَكَّ إِسْحَاقُ) إِلَّا أَنَّ الأَبْرَصَ أَوِ الأَقْرَعَ قَالَ أَحَدُهُمَا: الإِبِلُ وَقَالَ الآخَرُ: الْبَقَرُ، قَالَ: فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُشَرَاءَ، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا، قَالَ: فَأَتَى الأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعَرٌ حَسَنٌ وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَدْ قَذِرَنِي النَّاسُ بِهِ. قَالَ: فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعَرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا. قَالَ: فَأَتَى الأَعْمَى فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرَ

الأقوال، فاختلافهم إنّما هو اختلاف تنوُّع وليس اختلاف تضادّ.

١٢٥) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: عن أبي هريرة مرفوعًا: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى...» هذا الحديث فيه فوائد عظيمة قصها النبي ﷺ للعظة، ولئلا نقع فيما وقع فيه بنو إسرائيل من الأخطاء.

فهؤلاء الثلاثة ابتلاهم الله بالضراء أولاً، ثم بالسراء فكفر اثنان بنعمة الله، وشكر واحد، وهذا شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾ وفيه الحث على شكر النعم، والاعتراف بها لله.

والأدب في السؤال حيث قال: لا بلاغ إلا بالله، ثم بك.

وفيه بيان قدرة الله، وأنه يقول للشيء كن فيكون.

وعلى المؤمن أن يكون على حذر من عقوبة الله، ومداومة الشكر له سبحانه.

بِهِ النَّاسَ. قَالَ: فَمَسَحَهُ، فَرَدَّ الله إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا فَأُنْتِجَ هَذَانِ وَوَلَّدَ هَذَا. قَالَ: فَكَانَ لِهَذَا وَادٍ مِنَ الإِبِلِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَادٍ مِنَ الْغَنَمِ. قَالَ: ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدِ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إلا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ وَالْمَالَ بَعِيرًا أَتَبَلَّغُ عَلَيْهِ فِي سَفَرِي. فَقَالَ: الْحُقُوقُ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ لَهُ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذَرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللهُ؟ فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ.

---

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «وعن أبي هريرة رضي الله عنه، أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل».

جميع القصص الواردة في القرآن وصحيح السنة ليس المقصود منها مجرد الخبر، بل يقصد منها العبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسرور، قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[يوسف: ١١١].

قوله: «أبرص». أي: في جلده برص، والبرص داء معروف، وهو من الأمراض المستعصية التي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخيرًا إلى عدم انتشارها وتوسعها في الجلد، لكن رفعها لا يمكن، ولهذا جعلها الله آية لعيسى، قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾[المائدة: ١١٠].

قوله: «فأراد الله» وفي بعض النسخ: «أراد الله». فعلى إثبات الفاء يكون خبر (إن) محذوفًا دل عليه السياق تقديره: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم.

ولا يمكن أن يكون «أبرص وأقرع وأعمى» خبرًا، لأنها بدل، وعلى حذف الفاء يكون الخبر جملة: «أراد الله»، والإرادة هنا كونية.

قوله: «ويذهب» يجوز فيه الرفع والنصب، والرفع أولى.

فَقَالَ: إِنْ كُنتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتَ . قَالَ: وَأَتَى الأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ فَقَالَ لَهُ: مِثْلَ مَا قَالَ لِهَذَا وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَ مَا رَدَّ عَلَى هَذَا . فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيَّرَكَ اللهُ إِلَى مَا كُنتَ . قَالَ: وَأَتَى الأَعْمَى فِي صُورَتِهِ

قوله: «قذرني» أي: استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله.

وقوله: «به» الباء للسببية، أي: بسببه.

قوله: «فمسحه» ليتبين أن لكل شيء سببًا، وبرئ بإذن الله عز وجل، «فذهب عنه قذره» : بدأ بذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقال: التخلية قبل التحلية.

قوله: «قال: الإبل أو البقر - شك إسحاق -». والظاهر: أنه الإبل كما يفيده السياق، وإسحاق أحد رواة الحديث.

قوله: «عشراء» قيل: هي الحامل مطلقًا، وقال في «القاموس» : هي التي بلغ حملها عشرة أشهر أو ثمانية، سخرها الله عز وجل وذللها ولعلها كانت قريبة من الملك فأعطاه إياها.

قوله: «شاة والدًا». قيل: إن المعنى قريبة الولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملاً، ولما يأتي من قوله: «فأنتج هذان وولد هذا»، والشيء قد يسمى بالاسم القريب، فقد يعبر عن الشيء حاصلاً وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول.

قوله: «فأنتج هذان». بالضم. وفيه رواية بالفتح: «فأنتج»، وفي رواية: «فنتج هذان».

والأصل في اللغة في مادة (نتج): أنها مبنية للمفعول والإشارة إلى صاحب الإبل والبقر، و«أنتج» أي: حصل لهما نتاج الإبل والبقر.

قوله: «وولد هذا». أي: صار لشاته أولاد، قالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولد، ومن تولى توليد النساء يقال له: القابلة، ومن تولى توليد غير النساء يقال له: منتج أو نتاج أو مولد.

قوله: «فكان لهذا واد من الإبل». مقتضى السياق أن يقول: فكان لذلك، لأنه

وَهَيئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِيَ الْحِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلا بَلاغَ لِيَ الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصَرَكَ شَاةً أَتَبَلَّغُ بِهَا فِي سَفَرِي. فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَخُذْ مَا شِئْتَ، وَدَعْ مَا شِئْتَ. فَوَاللَّهِ لا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ شَيْئًا أَخَذْتَهُ لِلَّهِ. فَقَالَ: أَمْسِكْ مَالَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ، فَقَدْ رُضِيَ عَنْكَ وَسُخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ» أخرجاه.

أبعد المذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيد، وهذا جائز، وكذا العكس.

قوله: «انقطعت بي الحبال في سفري» الحبال الأسباب، فالحبل يطلق على السبب وبالعكس، قال تعالى: ﴿فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ﴾ [الحج: ١٥]، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرِّشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر.

قوله: «فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك». «لا» نافية للجنس، والبلاغ بمعنى الوصول، ومنه تبليغ الرسالة، أي: إيصالها إلى المرسل إليه، والمعنى: لا شيء يوصلني إلى أهلي إلا بالله ثم بك، فالمسألة فيها ضرورة.

وقوله: «بعيرًا» يدل على أن الأبرص أعطي الإبل، وتعبير إسحاق «الإبل أو البقر» من باب ورعه.

قوله: «أتبلغ به في سفري» أي: ليس أطيب الإبل، وإنما يوصلني إلى أهلي فقط.

قوله: «الحقوق كثيرة» أي: هذا المال الذي عندي متعلق به حقوق كثيرة، ليس حقك أنت فقط، وتناسى والعياذ بالله أن الله هو الذي مَنَّ عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال.

قوله: «كأني أعرفك» كأن هناك للتحقيق لا للتشبيه، لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشبيه، وإذا دخلت على مشتق، فهي للتحقيق أو للظن والحسبان، والمعنى:

....

أني أعرفك معرفة تامة.

قوله: «ألم تكن أبرص يقذرك الناس». ذكّره الملك بنعمة الله عليه وعرفه بما فيه من العيب السابق حتى يعرف قدر النعمة، والاستفهام للتقرير لدخوله على «لم»، كقوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح: ١].

قوله: «كابرًا عن كابر». أنكر أن المال من الله، لكنه لم يستطع أن ينكر البرص.

و«كابرًا» منصوبة على نزع الخافض، أي: من كابر، أي: ممن يكبرني وهو الأب، عن كابر له وهو الجد، وقيل: المراد الكبر المعنوي، أي أننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعًا.

قوله: «إن كنت كاذبًا فصيرك الله إلى ما كنت». «إن» : شرطية ولها مقابل، يعني: وإن كنت صادقًا فأبقى الله عليك النعمة.

قوله: «وأتى الأقرع في صورته» الفاعل الملك، وهنا قال: «في صورته» فقط وفي الأول قال: «في صورته وهيئته»، فالظاهر أنه تصرف من الرواة، وإلا، فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقة، والهيئة تكون تصنعًا في اللباس ونحوه، وقد جاء في رواية البخاري: «في صورته وهيئته».

قوله: «فقال له مثلما قال لهذا». المشار إليه الأبرص.

قوله: «فرد عليه». أي: الأقرع.

قوله: «مثلما رد عليه هذا». أي: الأبرص.

فكلا الرجلين - والعياذ بالله - غير شاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهذا المسكين الذي انقطع به السفر.

قوله: «فصيرك الله إلى ما كنت عليه». أي: ردك الله إلى ما كنت عليه من القرع الذي يقذرك الناس به والفقر.

قوله: «فوالله، لا أجهدك بشيء أخذته لله». الجهد: المشقة، والمعنى: لا أشق عليكم بمنع ولا منة، واعترافه بلسانه مطابق لما في قلبه، فيكون دالاً على

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الآيَةِ.

«الثَّانِيَةُ»: ما مَعْنَى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾.

«الثَّالِثَةُ»: مَا مَعْنَى قَوْلِهِ: ﴿أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾.

«الرَّابِعَةُ»: مَا فِي هَذِهِ القِصَّةِ العَجِيبَةِ مِنَ العِبَرِ العَظِيمَةِ.

الشكر بالقلب بالتضمن.

قوله: «خذ ما شئت ودع ما شئت». هذا من باب الشكر بالجوارح، فيكون هذا الأعمى قد أتم أركان الشكر.

قوله: «وسخط على صاحبيك». لأنهما كفرا نعمة الله سبحانه وأنكرا أن يكون الله مَنّ عليهما بالشفاء والمال.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآية: وهي قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾، وقد سبق أن الضمير في قوله: ﴿أَذَقْنَٰهُ﴾ يعود على الإنسان باعتبار الجنس.

الثانية: ما معنى: ﴿لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾. اللام للاستحقاق، والمعنى: إني حقيق به وجدير به.

الثالثة: ما معنى قوله: ﴿إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾. وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: ما في هذه القصة العجيبة من العبر العظيمة. وقد سبق ذكر عبر كثيرة منها، وهذا ليس استيعابًا، ومن ذلك الفرق بين الأبرص والأقرع والأعمى، فإن الأبرص والأقرع جحدا نعمة الله عز وجل والأعمى اعترف بنعمة الله، عندما طلب الملك من الأعمى المساعدة، قال: «خذ ما شئت»، فدل هذا على جوده وإخلاصه، لأنه قال: «فو الله، لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله عز وجل». وبخلاف الأبرص والأقرع حيث كانوا أشحاء بخلاء منكرين نعمة الله عز وجل.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال: «عن أبي هريرة رضي الله

....

عنه: إنّ ثلاثةً من بني إسرائيل» بنو إسرائيل هم ذرية يعقوب، وإسرائيل، ومعناه: عبد الله.

«أبرص» الأبرص: مَن أُصيب بالبَرَص، وهو داءٌ يُصيب الجلد فيتحوّل إلى أبْيَض كَريه المنظر.

«وأقرع» وهو الذي لا ينبُت لرأسه شعر، لأنّ هذا الشعر الذي ينْبُت على الرأس فيه فوائد عظيمة منها: الجمال، ومنها منافع صحيّة، وغير ذلك، فمن فقد شعر الرأس فإنّه يفقد منافع كثيرة أعظمُها الجمال، ويُصبح كريه المنظر.

وأما «الأعمى» فهو الذي ذهب بصرهُ كلُّه، أمّا الذي ذهب منه بصرُ عينٍ واحدة؛ فهذا يسمّى أعور.

وقوله: «فأراد الله» الله جل وعلا يوصَف بالإرادة، والمخلوق أيضًا يوصف بالإرادة، ولكنْ إرادةُ الله خاصّةٌ به، وإرادة المخلوق خاصّة به، وإرادة الله تنقسم إلى قسمين: إرادة كونيّة، وإرادة شرعيّة.

«أن يبتليهم» يعني: أن يختبرهم.

«فبعث إليهم مَلَكًا» المَلك: واحدُ الملائكة، وهم: خَلْقٌ من خَلْق الله ومن عالم الغيب، خلقهم الله جل وعلا لعبادته، وخلقهم أيضًا لتنفيذ أوامره تعالى في مُلْكه.

فأتى الأَبْرَص فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال: لونٌ حسن، وجِلْدٌ حسن، ويَذْهَبُ عني الذي قد قَذِرَني النّاس به. قال: «فمسحه الملَك» مسح على هذا الأبرص فبرئ، وعاد إليه لونٌ حسن وجلدٌ حسن، وهذا بقدرة الله تعالى لأنّ المَلك رسولُ الله.

«قال: فأيُّ المالِ أحبُّ إليك؟، قال: الإبل، أو البقر [شكَّ إسحاق]» المراد: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، راوي الحديث، شكّ هل قال الرّسول ﷺ الإبل، أو قال البقر؟، وهذا من التحفُّظ والدِّقة في الرواية.

«فأُعطيَ ناقة عُشراء» العُشَراء هي: الحامل التي تمّ لها ثمانية أشهر، لأنّها أنفس الأموال، قال تعالى: ﴿وَإِذَا ٱلْعِشَارُ عُطِّلَتْ﴾ عند قيام الساعة يذهلون فيتركون أنفس

....

الأموال، ويعطِّلونها من شدّة الهَوْل.

«وقال: بارك الله لك فيها» دعا له بالبركة، ودعوةُ المَلك مستجابة، وهذا بأمر الله سبحانه وتعالى من أجل الامتحان والابتلاء.

«ثم أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال: لونٌ حسن وشعر حسن، ويَذْهَبُ عني الذي قد قَذِرَنِي النّاس به، فمسحه فذهب عنه قذَره، وأُعطِي شعرًا حسنًا. فقال: أيُّ المالِ أحبُّ إليك؟، قال: البقر، أو الإبل. فأُعْطيَ بقرة حاملًا» البقرة الحامل هي التي في بطنها جَنين.

«وقال: بارك الله لك فيها» دعا له مثل الأوّل.

«فأتى الأعمى فقال: أيُّ شيءٍ أحبُّ إليك؟، قال: يردّ الله إليَّ بَصري فأُبصر به النّاس، فمسحه فردّ الله إليه بصره. قال: فأيُّ المال أحبُّ إليك؟، قال: الغنم، فأُعطي شاةً والدًا» يعني: قد ولدت حملَها.

«فأنتج هذان» أنتج أصحاب الإبل والبقر.

«وولّد هذا» أي: صاحب الشّاة.

«فكان لهذا وادٍ من الإبل، ولهذا وادٍ من البقر، ولهذا وادٍ من الغنم» بسبب بركة دعوة المَلك ولأجل الابتلاء والامتحان.

«ثم إنّه أتى الأبرص في صورته وهيئَته» أي: في صورة رجل أبرص، لأنّ الله أعطى الملائكة القُدرة على التشكُّل، فيظهَرون في صور مختلفة.

«فقال: رجلٌ مسكين» يَعْرِض حالَه عليه ليتصدّق عليه.

«وابنُ سبيل» ابنُ السّبيل هو: المسافر الذي انقطع ما معه من الزّاد، وقد جعل الله له حقًّا في الزكاة ما يوصِّلُه إلى بلده، ولو كان غنيًّا في بلده.

«قد انقطعت بيَ الحبال» يعني: الأسباب، جمعُ حبل وهو السّبب، وفي رواية: «انقطعت بيَ الحيال» -بالياء- يعني: الحِيَل.

ثم ذكّره بحالته الأولى فقال: «أسألُك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال؛ بعيرًا أتبلغ به في سفري. فقال: الحقوق كثيرة» يعني: أن الحقوق

....

التي عليّ كثيرة وينفد المال لو أعطيتك، وأعطيت هذا ممّن لهم عليّ حقوق، وهذا اعتذارٌ منه.

ثم ذكّره المَلَك مرّة ثانية وقال له: «كأنّي أعرِفُك!، ألم تكن أبرص يَقْذُرُك النّاس، فقيرًا فأعطاك الله عزّ وجلّ المال؟».

ثم إنه جحد نعمة الله عليه، وجحد هذه الحالة التي مرّت به، وقال: «إنما وَرِثْتُ هذا المال كابِرًا عن كابر» يعني: هذا ليس بمال جديد كما تقول، بل هو معي من قديم ومع آبائي من قبل، وهذا جُحود لنعمة الله عزّ وجلّ.

فدعا عليه المَلَك، وقال: «إن كنت كاذبًا فصيّرك الله إلى ما كُنت» يعني: صيّرك الله فقيرًا أبرص.

«قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثلما قال لهذا» أي: رجل مسكين وابن سبيل... إلى آخره.

«وردّ عليه مثل ما ردّ عليه هذا» قال له: الحقوق كثيرة.

وذكّره المَلَك بحالته من قبل، فأنكر ذلك، فدعا عليه الملك كما دعى على الأبرص بأن يصيره الله إلى ما كان عليه من قبل.

قال: «وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجلٌ مسكين وابن سبيل، قد انقطعتْ بِيَ الحبال في سفري، فلا بلاغ ليَ اليوم إلّا بالله ثم بك، أسألُك بالذي ردّ عليك بصرك؛ شاةً أتبلّغ بها في سفري»، فاعترف الأعمى بنعمة الله وقال: «كنتُ أعمى فردّ الله عليّ بصري، فخذ ما شئتَ» يعني: خذ الذي تريده.

«فوالله لا أجْهَدُك» أي: لا أمنعك، «بشيء أخذته لله»، وفي رواية: «لا أَحْمَدُك على شيء أخذته لله» لأنّه ليس مالي وإنما هو مالُ الله سبحانه وتعالى.

ثم ظهرت نتيجة الامتحان: «فقال له الملَك: أَمسِكْ عليك مالك، فإنّما ابتُلِيتُم» يعني: اختُبِرْتُم أنت وصاحباك.

«وقد رضي الله عنك» بسبب شكرك لنعمة الله عزّ وجلّ.

«وسخِط على صاحبيْك» بسبب كفرهم بنعمة الله عزّ وجلّ.

....

فهذا الأعمى فاز برضى الله تعالى وسلم عليه مالُه، أمّا أولئك فعاقبهم الله وسَخِط عليهم، وهذه نتيجة الابتلاء والامتحان.

وهذا عامٌّ في كلِّ من كفر نعمة الله ومَن شكر نعمة الله عزّ وجلّ.

فدلّت هاتان الآيتان وهذا الحديث العظيم على مسائل:

المسألة الأولى: فيه: أنّ نسبة النعم إلى الله عزّ وجلّ توحيد، وأنّ نسبتها إلى غيرِه شرك.

المسألة الثانية: فيه: أنّ النعم والنِّقَم ابتلاءٌ واختبارٌ من الله سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾.

المسألة الثالثة: فيه: أنّ الله سبحانه أعطى الملائكة القُدرة على التشكُّل بأشكال مختلفة، وهذا ثابتٌ من النُّصوص الكثيرة، فتشكُّلُهم لأجل مصالح العباد، لأنَّهم لا يُطيقون رؤية الملائكة.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على مشروعيّة ذكر قَصَص الأوّلين من بني إسرائيل وغيرِهم من أجل الاعتبار والاتّعاظ إذا كانت القصص صحيحة.

المسألة الخامسة: في الحديث دليل على أنّ من شكر نعمة المال: إخراج الحقوق الواجبة فيه من زكاة وإطعام جائع وكسوة عارٍ، وما أشبه ذلك من الحقوق الواجبة والحقوق المستحبّة، وأنّ البُخْل بحقوق المال من كفر النعمة.

المسألة السّادسة: في الحديث دليل على أنّ الجزاء من جنس العمل؛ فقد رضيَ الله عن هذا الأعمى بسبب إحسانه، وسخِط على صاحبيه بسبب بخلهما بحقوق الفقراء والمساكين.

المسألة السّابعة: فيه وصفُ الله جل وعلا بالرِّضا والسخط، صفتان من صفاته اللّائقة به سبحانه وتعالى، ليس كرضى المخلوق ولا كسخط المخلوق.

❁ ❁ ❁

١٢٦) ٥٠- بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠].

قَالَ ابنُ حَزْمٍ: اتَّفَقُوا عَلَى تَحْرِيمِ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ؛ كَعَبْدِ عُمَرَ، وعَبْدِ الكَعْبَةِ، ومَا أَشْبَهَ ذَلِكَ، حَاشَا عَبْدِ الْمُطَّلِبِ.

---

١٢٦) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآية.

أراد المؤلف بيان تحريم التعبيد لغير الله، وأنه لا يجوز أن يعبد أحد لغير الله، فلا يقال: عبد النبي، أو الكعبة، أو عبد الحسين، وما أشبه ذلك، بل يكون التعبيد لله وحده كعبد الرحمن وعبد الله... إلخ، لأن الله ذم من فعل ذلك بقوله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ وهذا ذم وعيب لمن فعله.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «فلما آتاهما». الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها.

قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾. هنا حصل المطلوب، لكن لم يحصل الشكر الذي وعد الله به، بل جعلا له شركاء فيما آتاهما.

وقوله: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾، هذا هو جواب «لما».

والجواب متعقب للشرط وهذا يدل على أن الشرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير، ومثل هذا لا يعرف أيصلح في دينه في المستقبل أم لا يصلح؟ ولهذا كان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني.

فمعاهدة الإنسان ربه أن يفعل العبادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغالب أنه لا يفي بها، ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ لَئِنْ ءَاتَىٰنَا مِن فَضْلِهِۦ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُم مِّن فَضْلِهِۦ بَخِلُوا۟ بِهِۦ وَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [التوبة: ٧٥-٧٦]، وفي هذه الآية قال تعالى: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ

....

﴿مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾، فكانا من المشركين لا من الشاكرين، وبهذا نعرف الحكمة من نهي النبي ﷺ عن النذر، لأن النذر معاهدة مع الله عز وجل ولهذا نهى النبي ﷺ عن النذر وقال: «إنه لا يرد شيئًا، وإنما يستخرج به من البخيل»(١) وقد ذهب كثير من أهل العلم إلى تحريم النذر، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية أنه يميل إلى تحريم النذر، لأن رسول الله ﷺ نهى عنه ونفى أنه يأتي بخير.

وفي قوله: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ نقد لاذع أن يجعلا في هذا الولد شريكًا مع الله، مع أن الله هو المتفضل به، ثم قال: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، أي: ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها.

ومن تأويل الآية وحدها دالة على أن قوله: ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: من جنس واحد، وليس فيها تعرض لآدم وحواء بوجه من الوجوه، ويكون السياق فيها جاريًا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن، كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، أي: من جنسهم، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة.

أما على القول الثاني بأن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: آدم، ﴿وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]: حواء، فيكون معنى الآية خلقكم من آدم وحواء.

فلما جامع آدم حواء حملت حملًا خفيفًا، فمرت به، فلما أثقلت دعوا أي آدم وحواء الله ربهما: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾، فأشرك آدم وحواء بالله، لكن قالوا إنه إشراك طاعة لا إشراك عبادة، ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنه، وسنبين إن شاء الله تعالى وجه ضعفه وبطلانه.

وهناك قول ثالث: أن المراد بقوله تعالى: ﴿مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ﴾، أي: آدم وحواء،

---

(١) البخاري: القدر/ باب إلقاء العبد النذر إلى القدر(٦٢٣٤)، ومسلم: النذر/ باب النهي عن النذر (١٩٣٦).

....

﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ انتقل من العين إلى النوع، أي: من آدم إلى النوع الذي هم بنوه، أي: فلما تغشى الإنسان الذي تسلل من آدم وحواء زوجته.. إلخ، ولهذا قال تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ الجمع ولم يقل عما يشركان، ونظير ذلك في القرآن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ [الملك: ٥]، أي: جعلنا الشهب الخارجة منها رجومًا للشياطين وليست المصابيح نفسها، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٖ مِّن طِينٖ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلۡنَٰهُ نُطۡفَةٗ﴾ [المؤمنون: ١٢-١٣]، أي: جعلناه بالنوع، وعلى هذا فأول الآية في آدم وحواء، ثم صار الكلام من العين إلى النوع.

وهذا التفسير له وجه، وفيه تنزيه آدم وحواء من الشرك، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر.

وأما قوله تعالى: ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾، فجمع؛ لأن المراد بالمثنى اثنان من هذا الجنس، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعًا، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾ [الحجرات: ٩] ولم يقل: اقتتلتا، لأن الطائفتين جماعة.

قوله: «اتفقوا». أي: أجمعوا، والإجماع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكام، والأدلة هي: الكتاب، والسنة والإجماع، والقياس.

قوله: «وما أشبه ذلك». مثل: عبد الحسين، وعبد الرسول، وعبد المسيح، وعبد علي.

وأما قوله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم...» الحديث، فهذا وصف وليس علمًا، فشبه المنهمك بمحبة هذه الأشياء المقدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها، كقولك: عابد الدينار، فهو وصف، فلا يعارض الإجماع.

قوله: «حاشا عبد المطلب». حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها (ما) وجب نصب ما بعدها، وإلا جاز فيه النصب والجر.

وبالنسبة لعبد المطلب مستثنى من الإجماع على تحريمه، فهو مختلف فيه، فقال

....

بعض أهل العلم: لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول ﷺ قال: «أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب»[١]، فالنبي ﷺ لا يفعل حرامًا، فيجوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ، وهذا تقرير ابن حزم رحمه الله، ولكن الصواب تحريم التعبيد للمطلب، فلا يجوز لأحد أن يسمي ابنه عبد المطلب، وأما قوله ﷺ: «أنا ابن عبدالمطلب»، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء، فالنبي ﷺ أخبر أن له جدًا اسمه عبد المطلب، ولم يرد عنه ﷺ أنه سمى عبدالمطلب، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك، ولا أنه أقر أحدًا على تسميته عبد المطلب، والكلام في الحكم لا في الإخبار، وفرق بين الإخبار وبين الإنشاء والإقرار، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد»[٢] وقال ﷺ: «يا بني عبد مناف»[٣] ولا يجوز التسمي بعبد مناف.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقولُه رحمه الله: «بابُ قول الله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾» يريد: بيان ما جاء في تفسير الآية.

والآية التي قبلها قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ يعني آدم وحواء عليهما السلام. ﴿فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾ يعني وطئها.

﴿حَمَلَتْ﴾ يعني: عَلِقَتْ رَحِمُها بالنُّطْفَة.

﴿حَمْلًا خَفِيفًا﴾ هذا شأن الحمل في أوّل أطواره: كونُه نُطفة، ثم عَلَقَة، ثم مُضْغَة، ويكون خفيفًا في هذه الأطوار.

﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾ يعني: ما أجلسها ولا عوّقها عن العمل، فهي تمرّ وتمشي وتقوم وتقعد.

---

(١) البخاري: (٤٠٦١)، ومسلم: (١٧٧٦).

(٢) البخاري: كتاب المناقب / باب مناقب قريش (٦٣١١).

(٣) البخاري: كتاب المناقب/ باب من انتسب إلى آبائه (٣٣٣٦)، ومسلم: كتاب الإيمان/ باب قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ﴾ (٢٠٤).

....

﴿فَلَمَّآ أَثۡقَلَت﴾ يعني: في طور نفخ الروح فيه.

﴿دَّعَوَا ٱللَّهَ رَبَّهُمَا﴾ دعا آدم وحواء، وطلبا من الله جل وعلا.

﴿لَئِنۡ ءَاتَيۡتَنَا صَٰلِحٗا﴾ رزقتنا مولودًا سَوِيًّا في خِلْقَتِهِ.

﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ لأنّ هذا هو الواجب في النعمة أن تُشكر.

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحٗا﴾ استجاب الله دعوتهما وآتاهما ولدًا إنسانًا سويًّا صالحًا.

﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ بأن سمّياهُ (عبد الحارث)، فعبّداهُ لغير الله.

وهذا من الشّرك في التسمية، حيث عبّداه لغير الله.

ثم ذكر عن ابن حزم، وهو الإمام الجليل، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حَزْم، الأندلسي، القُرطبيّ، الظاهريّ.

قال: «اتّفقوا» يعني: أجمعوا، وليس المراد الاتّفاق عند المتأخِّرين الذي هو قولُ جماعةٍ من أهل العلم.

«على تحريم كلّ اسم مُعَبِّدٍ لغير الله» كـ (عبد الحُسين)، و (عبد الرّسول) و(عبد الكعبة)، و(عبد الحارث) وغير ذلك، لأنّ التعبيد يجب أن يكون لله سبحانه وتعالى، لأنّ الخلْق كلهم عبادُ الله كما قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾، فكلُّ الخلق عباد الله المؤمن والكافر.

ولكن العبودية على قسمين:

عبوديّة عامّة: وهذه تشمل جميع الخلق المؤمن والكافر كلُّهم عبادُ لله تعالى، بمعنى: أنهم مملوكون لله، مخلوقون لله، يتصرّف فيهم، ويدبِّرُ أمورَهم، لا يخرُج عن هذا أحد من الخلق.

النوع الثاني: عبوديّة خاصّة: وهي عبوديّة التألُّه والمحبّة، وهذه خاصّة بالمؤمنين: ﴿قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ﴾، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾، فهذه عبوديّة خاصّة بالمؤمنين.

قال: «حاشا» حاشا: كلمة استثناء.

«عبد المطّلب» هو جدّ الرّسول ﷺ، لأنّ الرسول ﷺ هو: محمد بن عبدالله

١٢٧) وعَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنه فِي الآيَةِ قَالَ: لَمَّا تَغَشَّاهَا آدَمُ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا إِبْلِيسٌ فَقَالَ: إِنِّي صَاحِبُكُمَا الَّذِي أَخْرَجْتُكُمَا مِنَ الجَنَّةِ لَتُطِيعَانِي أَوْ لأَجْعَلَنَّ لَهُ قَرْنَيْ أَيِّلٍ، فَيَخْرُجُ مِنْ بَطْنِكِ فَيَشُقُّهُ، ولأَفْعَلَنَّ ولأَفْعَلَنَّ - يُخَوِّفُهُمَا - سَمِّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ، فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيِّتًا،

ابن عبد المطلِب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كِلاب، فـ (عبد المطَّلب) هذا استثناهُ ابن حزم من التحريم.

ولكن ليس الأمر كما قال رحمه الله، فلا يجوز أن يسمّي أحد الآن عبدالمطّلب، فلا وجه للاستثناء، وإنّما يقال عبد المطّلب لجد الرسول خاصة، حكاية للماضي، كما يقال؛ (عبد الكعبة) و (عبد شمس)، و (عبد مناف)، حكاية لِمَا مضى.

أما بعد الإسلام فلا يجوز أن يسمّى أحد بهذه الأسماء.

أما حكاية شيء مضى وانتهى فلا بأس بذلك، وقد قال النبي ﷺ: «أنا النّبي لا كذب، أنا ابن عبد المطّلب» هذا من ناحية.

النّاحية الثانية: يقولون: إنّ عبد المطّلب ليس اسم جد الرسول، وإنما اسمُه: (شَيْبَة الحمد)، ولكن قيل له: عبد المطّلب لأنّ عمّه المطّلب بن عبد مناف جاء به وهو صغير من أخواله بني النجار في المدينة، وكان تأثّر لونه بالسواد بسبب السفر، فظنوه عبدًا مملوكًا للمطلب، فقالوا: عبد المطّلب.

١٢٧) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وهذا السياق في ذكر آدم وحواء حيث أطاعا الشيطان في تسمية عبد الحارث، وقال آخرون: إن المراد بالآية: جنس من بني إسرائيل، وأن هذا وقع في بني إسرائيل، ولكن ظاهر السياق يأبى هذا، بل هو كما قال ابن عباس، وغيره من السلف، وأن المعصية قد وقعت منهما والمعصية قد تقع من الأنبياء إذا كانت صغيرة كما قال العلماء.

ويحتمل أنهما حين فعلا ذلك كانا يعتقدان ذلك جائزًا، فلهذا فعلا، ولم يعلما أنه منكر، وإنما كرهاه أولًا ثم خضعا لوسوسته وما أراد.

ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَقَالَ مِثْلَ قَوْلِهِ: فَأَبَيَا أَنْ يُطِيعَاهُ، فَخَرَجَ مَيْتًا، ثُمَّ حَمَلَتْ، فَأَتَاهُمَا، فَذَكَرَ لَهُمَا فَأَدْرَكَهُمَا حُبُّ الوَلَدِ، فَسَمَّيَاهُ عَبْدَ الحَارِثِ فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾ رَوَاهُ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ.

ولَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ قَتَادَةَ قَالَ: شُرَكَاءُ فِي طَاعَتِهِ، ولَمْ يَكُنْ فِي عِبَادَتِهِ. ولَهُ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْ مُجَاهِدٍ فِي قَوْلِهِ: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قَالَ: أَشْفَقَا أَلَّا يَكُونَ إِنْسَانًا، وذَكَرَ مَعْنَاهُ عَنِ الحَسَنِ وسَعِيدٍ وغَيْرِهِمَا.

وبين الله فيما أنزله على رسوله ﷺ أنه لا يجوز، وهذا الحكم يناط بشريعة محمد ﷺ فهي الشريعة العامة، وما كان قبلنا ففيه إباحة لبعض المسائل، ومنع لبعضها.

حاشا عبد المطلب: فمستثنى من النهي؛ لأن الرسول ﷺ أقر ذلك، ولم يغيره ومن الصحابة: عبد المطلب بن ربيعة؛ لأن الأصل فيه أنه تعبيد بالعتق والرق، وسموه عبد المطلب -واسمه شيبة بن هاشم- لأنهم ظنوه عبدًا للمطلب بسبب تغير وجهه من السفر، والمطلب عمه، فأقر هذا الاسم في الإسلام بخلاف غيره من الأسماء.

شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته؛ لأنهم أطاعوه في هذا الاسم عن غير علم، وكل هذا من باب كمال التوحيد، وكمال الخضوع لله، وسد وسائل الشرك.

مسألة:

قول الرسول ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب»[1] هذا إخبار عن اسم ماض، فلا يضر؛ لأنه مشتهر به مثل عبد مناف، وعبد عمرو إذا كانت من باب الإخبار.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «إبليس». على وزن إفعيل، فقيل: من أبلس إذا يئس، لأنه يئس من رحمة الله تعالى.

قوله: «لتطيعاني». جملة قسمية، أي: والله لتطيعاني.

---

(١) رواه البخاري (٢٨٦٤)، ومسلم (١٧٧٦).

....

قوله: «أيل». هو ذكر الأوعال.

قوله: «سمياه عبد الحارث». اختار هذا الاسم، لأنه اسمه، فأراد أن يعبداه لنفسه.

قوله: «فخرج ميتًا». لم يحصل التهديد الأول، ويجوز أن يكون من جملة: «ولأفعلن»، ولأنه قال: و«لأخرجنه ميتًا».

قوله: «شركاء في طاعته». أي: أطاعاه فيما أمرهما به، لا في العبادة لكن عبَّدا الولد لغير الله، وفرق بين الطاعة والعبادة، فلو أن أحدًا أطاع شخصًا في معصية لله لم يجعله شريكًا مع الله في العبادة، لكن أطاعه في معصية الله.

قوله: «أشفقا ألا يكون إنسانًا». أي خاف آدم وحواء أن يكون حيوانًا أو جنيًا أو غير ذلك.

قوله: «وذكر معناه عن الحسن». لكن الصحيح أن الحسن رحمه الله قال: إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بني آدم كما ذكر ذلك ابن كثير رحمه الله في «تفسيره» وقال: «أما نحن، فعلى مذهب الحسن البصري رحمه الله في هذا، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته» اهـ.

وهذه القصة باطلة من وجوه:

الوجه الأول: أنه ليس في ذلك خبر صحيح عن النبي ﷺ، وهذا من الأخبار التي لا تتلقى إلا بالوحي، وقد قال ابن حزم عن هذه القصة: إنها رواية خرافة مكذوبه موضوعة.

الوجه الثاني: أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحواء، لكان حالهما إما أن يتوبا من الشرك أو يموتا عليه، فإن قلنا: ماتا عليه، كان ذلك أعظم من قول بعض الزنادقة:

إذا ما ذكرنا آدما وفعاله ... وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا
علمنا بأن الخلق من نسل فاجر ... وأن جميع الناس من عنصر الزنا

....

فمن جوز موت أحد من الأنبياء على الشرك فقد أعظم الفرية، وإن كان تابا من الشرك، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يذكر خطأهما ولا يذكر توبتهما منه، فيمتنع غاية الامتناع أن يذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا، ولم يذكر توبتهما، والله تعالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر توبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشجرة وزوجه وتابا من ذلك.

الوجه الثالث: ثبت أن الأنبياء معصومون من الشرك باتفاق العلماء.

الوجه الرابع: أنه ثبت في حديث الشفاعة أن الناس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشفاعة، فيعتذر بأكله من الشجرة[1]، وهو معصية، ولو وقع منه الشرك، لكان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى.

الوجه الخامس: أن في هذه القصة أن الشيطان جاء إليهما وقال: «أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة»، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء، وإنما يأتي بشيء يقرب قبول قوله، فإذا قال: «أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة»، فسيعلمان علم اليقين أنه عدو لهما، فلا يقبلان منه صرفًا ولا عدلًا.

الوجه السادس: أن في قوله في هذه القصة: «لأجعلن له قرني أيل» : إما أن يصدقا أن ذلك ممكن في حقه، فهذا شرك في الربوبية؛ لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله، أو لا يصدقا، فلا يمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه.

الوجه السابع: قوله تعالى: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ بضمير الجمع، ولو كان آدم وحواء، لقال: عما يشركان.

فهذه الوجوه تدل على أن هذه القصة باطلة من أساسها، وأنه لا يجوز أن يعتقد في آدم وحواء أن يقع منهما شرك بأي حال من الأحوال، والأنبياء منزهون عن الشرك مبرءون منه باتفاق أهل العلم، وعلى هذا، فيكون تفسير الآية كما أسلفنا أنها

---

(١) البخاري: كتاب التفسير / باب قوله تعالى: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (٤٢٠٦)، ومسلم: كتاب الإيمان / باب أدنى أهل الجنة منزلة (١٩٣).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَحْرِيمُ كُلِّ اسْمٍ مُعَبَّدٍ لِغَيْرِ اللهِ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسيرُ الآيَةِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ هَذَا الشِّرْكَ فِي مُجَرَّدِ تَسْمِيَةٍ لَمْ تُقْصَدْ حَقِيقَتُهَا.

عائدة إلى بني آدم الذين أشركوا شركًا حقيقيًا، فإن منهم مشركًا ومنهم موحدًا...

فيه مسائل:

الأولى: تحريم كل اسم معبد لغير الله. تؤخذ من الإجماع على ذلك، والإجماع الأصل الثالث من الأصول التي يعتمد عليها في الدين، والصحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل، لقوله تعالى: ﴿فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٨] و﴿إِنْ﴾ هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع، بل إن فرض ووقع، فالمرد إلى الله ورسوله، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة.

لكن ادعاء الإجماع يحتاج إلى بينة، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: الإجماع الذي ينضبط ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة، ولما قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: أجمعوا على كذا، أنكر ذلك وقال: وما يدريه لعلهم اختلفوا، فمن ادعى الإجماع، فهو كاذب. ولعل الإمام أحمد قال ذلك، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كانوا يتذرعون إلى إثبات تعطيلهم وشبههم بالإجماع، فيقولون: هذا إجماع المحققين، وما أشبه ذلك.

وقد سبق أن الصحيح أنه لا يجوز التعبيد للمطلب، وأن قول الرسول ﷺ «أنا ابن عبد المطلب» أنه من قبيل الإخبار وليس إقرارًا ولا إنشاءً، والإنسان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كان معبدًا لغير الله، وقد قال النبي ﷺ:

«يا بني عبد مناف» وهذا تعبيد لغير الله لكنه من باب الإخبار.

الثانية: تفسير الآية. يعني قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا﴾ الآية، وسبق تفسيرها.

الثالثة: أن هذا الشرك في مجرد تسمية لم تقصد حقيقتها. وهذا بناء على ما ذُكر عن ابن عباس رضي الله عنهما في تفسير الآية، والصواب: أن هذا الشرك حق

«الرَّابِعَةُ» : أَنَّ هِبَةَ اللهِ لِلرَّجُلِ البِنْتَ السَّوِيَّةَ مِنَ النِّعَمِ.

«الخَامِسَةُ» : ذِكْرُ السَّلَفِ الفَرْقَ بَيْنَ الشِّرْكِ فِي الطَّاعَةِ، والشِّرْكِ فِي العِبَادَةِ.

حقيقة، وأنه شرك من إشراك بني آدم من آدم وحواء، ولهذا قال تعالى في الآية نفسها: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ﴾، فهذا الشرك الحقيقي الواقع من بني آدم.

الرابعة: أن هبة الله للرجل البنت السوية من النعم: هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: ﴿صَٰلِحًا﴾، أي: بشرًا سويًا، وأتى المؤلف بالبنت دون الولد، لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ۝٥٨ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ النحل: [٥٨-٥٩]، وإلا، فهبة الولد الذكر السوي من باب النعم أيضًا، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنثى، وإن كانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها.

الخامسة: ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة، وقبل ذلك نبين الفرق بين الطاعة وبين العبادة، فالطاعة إذا كانت منسوبة لله، فلا فرق بينهما وبين العبادة، فإن عبادة الله طاعته.

وأما الطاعة المنسوبة لغير الله، فإنها غير العبادة، فنحن نطيع الرسول ﷺ لكن لا نعبده، والإنسان قد يطيع ملكًا من ملوك الدنيا وهو يكرهه.

فالشرك بالطاعة: أنني أطعته لا حبًا وتعظيمًا وذلًا كما أحب الله وأتذلل له وأعظمه، ولكن طاعته اتباع لأمره فقط، هذا هو الفرق.

وبناء على القصة، فإن آدم وحواء أطاعا الشيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «فأتاهما» أي آدم وحواء «إبليس فقال: إني صاحبُكما الذي أخرجتكما من الجنّة» يشير إلى القصة التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابه من وَسْوَسَة الشيطان لآدم

....

عليه السلام لَمّا حرّم الله عليه أن يأكُل من شجرة معيَّنة في الجنة.

«لتُطِيعاني» أي: تمتثلان ما آمركما به.

«أو لأجعلنّ له قرني أيِّل» الأيِّل هو ذكر الأوعال. «فيخرج من بطنك فيشقه» يعني: بقرنيه.

«ولأفعلنَّ -يخوِّفهما-» من التخويفات والتهديدات، فلم يلتفتا إليه، ولم يطيعاه لأنه عدوهما.

«فخرج ميِّتًا» وهذا من باب الامتحان والابتلاء من الله سبحانه وتعالى.

«ثم حملت فأتاهُما فذكر لهما» ذلك، لأن الشيطان- لعنه الله- يحاوِل مع الإنسان ولا ييأس.

«فأدركهما حُبّ الولد، فسمّياه عبد الحارث» والحارث قيل: هو اسم إبليس، قبل أن تحصل عليه اللعنة، ولكن بعد أن حصلت عليه اللعنة وطُرد من الملأ الأعلى سمّي بإبليس.

«فذلك قولُ الله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَاۚ﴾» أي: هذا تفسير هذه الآية.

«رواه ابن أبي حاتم».

«وله» أي: ابن أبي حاتم.

«بسند صحيح عن قتادة: شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته» وشركُ الطاعة شركٌ أصغر لا يُخرِج من الملّة، لاسيّما وأنهما لم يفعلا هذا قصدًا للمعنى، وإنّما فعلاه من باب حُبّ الولد، ومن أجل سلامته فقط، ومع هذا سمّاه الله شركًا، فيكون شركًا ولو لم يقصده الإنسان. فدلّ هذا على أنّ مَن تكلّم بالشّرك أو فعل الشرك فإنّه يسمّى مشركًا، ولو لم يقصده ولم ينوِه.

«وله» أي: ابن أبي حاتم.

«بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ قال: أشفقا ألا يكون إنسانًا» أي: خافا من ذلك.

....

«وذكر معناه عن الحسن» هو: الحسن البصري.

«وسعيد» هو: سعيد بن المسيِّب، وهما من أئمّة التّابعين، أي: ورُوِيَ هذا التفسير عن هذين الإمامين، بل هذا قولُ أكثر المفسِّرين، كما ذكر ذلك الشوكاني في «فتح القدير»، ورجحه شيخُ المفسرين الإمام ابن جرير رحمه الله في «تفسيره» وقال: «هو أولى القولين في تفسير الآية الكريمة».

وهو الذي اختاره الشيخ المصنِّف: محمد بن عبد الوهاب، واختاره الشارح الشيخ: سليمان بن عبد الله، وأنّ هذا الشرك المذكور في الآية وقع من آدم وحوّاء، لكنه شركٌ في الطاعة وليس في العبادة.

وذهب بعض المفسِّرين- وهو القول الثّاني-: إلى أنّ الآية من أوّلها إلى آخرها لا تعني آدم ولا حوّاء، وإنّما تعني المشركين من بني آدم، واعتمدوا في هذا على شيئين:

الشيء الأوّل: أنه لا يجوز أن يقع من آدم وحوّاء مثل هذا، لأنّ آدم- عليه الصلاة والسلام- نبي من أنبياء الله، ولا يقع منه هذا الشيء.

الشيء الثاني: أنّ الله خَتَم الآية بقوله: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾، وهذا لفظُ جمع، فيُراد به المشركون من بني آدم.

واختار هذا القول ابن كثير في تفسيره، وَطَعَنَ فيما روي عن ابن عبّاس، وقال: «لعلّه من الإسرائيليّات».

ولكن الإمام ابن جرير يقول: «أولى القولين هو القول الأوّل» وهو الذي عليه أكثرُ المفسرين.

ويرجّح القولَ الأوّل: أنّ الله سبحانه وتعالى ذكر الضّمير بلفظ التثنية، وأوّل الآية لا شك في آدم وحوّاء، وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، ولا شك أن المراد: آدم وحوّاء، ثم أعاد الضمائر إليهما، وهذا أُسلوب العرب؛ أنهم يذكرون الاسم في الأوّل ثم يعيدون الضمائر إليه، إنْ كان مفرَدًا مفردًا، وإنْ كان مثنى مثنى، وإنْ كان جمعًا فجمعًا، هذا الأسلوب العربي.

....

والضمائر هي: ﴿دَّعَوَا﴾ ، ﴿ رَبَّهُمَا﴾ ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا﴾ ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ ، ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ﴾ ، كلُّ هذه الضمائر ترجع إلى آدم وحوّاء.

أمّا آخِر الآية فهو التفاتٌ إلى الذريّة، وهذا أسلوبٌ عربي معروف في لغة العرب، وذلك أنه لَمّا ذكر قصة آدم وحوّاء وفرغ منها انصرف إلى الذريّة فقال: ﴿فَتَعَـٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ .

فيترجّح القول الأوّل من عِدّة وجوه:

أوّلاً: أن الضمائر كلّها مثناة، والقول بأنّ المراد الذريّة تعسُّفٌ في الألفاظ لا يجوز.

ثانيًا: أنَّ ما فسّر به ابن عبّاس ورد من عدّة جهات، فهو تفسير صحيح من مجموع طُرُقِه.

ثالثًا: أنّ عليه الأكثر من أهل العلم، كما قال الشوكاني.

رابعًا: أنّه هو المعنى الذي رجّحه الإمام أبو جعفر ابن جرير، شيخ المفسِّرين، حيث قال: «أولى القولين: القولُ الأوّل»، وهذا الذي اختاره المصنِّف في هذا الباب.

أمّا قول المخالفين: أنّ آدم عليه السلام لا يليقُ به ذلك.

فنقول: هذا ليس بشرك أكبر، إنما هو شركٌ أصغر، وهو شركٌ في الطاعة والألفاظ، لا في المعاني والمقاصد والنيّات، وقد يقع من الأنبياء بعض الذنوب الصغار التي عاتبهم الله عليها، ثم يتوبون منها ويتوب عليهم، والعِصمة إنما هي من الذنوب الكبائر، ومن الاستمرار على الصغائر. كما ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية.

هذا، ويُستفاد من هذه القصة التي ذكرها الله في القرآن عدّة فوائد:

الفائدة الأولى: بيان الحكمة من خلق الزوجات لبني آدم، وأن المقصود من ذلك السَّكَن والاستيلاد، وغير ذلك من الفوائد، والقوامة من الرجل على المرأة.

الفائدة الثانية: أن حصول الأولاد الأسوياء في خِلْقَتِهم، الصالحين في دِينهم؛ من أكبر النعم: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنْ أَزْوَٰجِكُم بَنِينَ

١٢٨) ٥١- بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ الآية [الأعراف].

وَحَفَدَةً وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَـٰتِ﴾، ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَـٰلِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾.

الفائدة الثالثة: في الآية دليل على بيان الحكمة من الزواج، وأنّها السكَن والاستيلاد، ويَتْبَعُ ذلك بقية الأغراض من الصيانة، والقوامَة، والنّفقة، وغير ذلك.

الفائدة الرابعة: في الحديث دليلٌ على أن تعبيد الأسماء لغير الله شرك.

الفائدة الخامسة: التحذير من كَيْد إبليس، فإذا كان فعل مع الأبوين ما فعل فإنّه سيفعل مع الذريّة أشدّ: ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَـٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾، ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، فهو يهدّد ويتوعّد.

الفائدة السادسة: أن تعبيد الأسماء لغير الله يُعتبر من الشرك الأصغر، وهو شرك الطّاعة، إذا لم يقصد به معنى العُبودية، فإنْ قصد به معنى العبوديّة والتألُّه صار من الشرك الأكبر، كما عليه عُبّاد القُبور الذين يسمّون أولادهم: (عبد الحسين) أو (عبد الرّسول) أو غير ذلك، هؤلاء في الغالب يقصدون التألُّه، لا يقصدون مجرّد التّسمية وإنما يقصدون التألُّه بذلك والتعبُّد لهذه الأشياء لأنهم يعبدونها، فهذا يعتبر من الشرك الأكبر.

١٢٨) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ الآية.

بين الله تعالى أن له سبحانه الأسماء الحسنى التي لا يعتريها نقص، بل هي كمال كلها تدل على معان عظيمة يوصف بها على الوجه اللائق به، فيدعى بها؛ فيقال: يا رحمن.. يا عزيز، يا غفور، اغفر لنا.. وهكذا.

«والإلحاد في أسمائه»: الميل عن الحق والإشراك فيها مع الله كمن جعل بغير

ذَكَرَ ابنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا ﴿يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦٓ﴾: يُشْرِكُونَ. وَعَنْهُ: سَمُّوا اللَّاتَ مِنَ الإِلهِ، والعُزَّى مِنَ العَزِيزِ. وعَنِ الأَعْمَشِ: يُدْخِلُونَ فِيهَا مَا لَيْسَ مِنْهَا.

الله شيئًا من العبادة فقد أشرك فيها مع الله غيره، وجعلها إلهًا، وصار كافرًا بذلك.

وهكذ من ألحد فيها بأن أمالها عن الحق، وزعم أنه لا معنى لها كالجهمية والمعتزلة الذين نفوا الصفات أو الأسماء والصفات جميعًا فقد ألحدوا أي: مالوا عن الحق.

ومنه اللحد في القبر أي: جعله مائلًا من جانب.

والإلحاد قسمان:

«إلحاد أكبر»: وهو ما يقع من الكفرة.

«إلحاد ناقص»: وهو ما يقع من بعض المسلمين في عدم انقيادهم للحق على التمام والكمال؛ فيكون لهم نوع إلحاد وميل عن الحق، فيفوتهم من الإيمان والإسلام بقدر ذلك.

قال الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها: هذا نوع من الإلحاد أن يسمى الله بأسماء ما أنزل بها من سلطان، فهي نوع من الإلحاد أي: نوع من الباطل.

وكذلك قول بعضهم في اللات من الإله، والعزى من العزيز، فهذا نوع إلحاد.

وكذلك الوقوع في المعاصي نوع من الإلحاد، لكنه أصغر.

ومن جحد الله أو أشرك معه فهو إلحاد أكبر.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هذا الباب يتعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لأن هذا الكتاب جامع لأنواع التوحيد الثلاثة: توحيد العبادة، وتوحيد الربوبية، وتوحيد الأسماء والصفات.

وتوحيد الأسماء والصفات: هو إفراد الله عز وجل بما ثبت له من صفات الكمال على وجه الحقيقة، بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل.

وقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾. مؤنث أحسن، فهي اسم تفضيل، ومعنى الحسنى، أي:

....

البالغة في الحسن أكمله، لأن اسم التفضيل يدل على هذا، والتفضيل هنا مطلق، لأن اسم التفضيل قد يكون مطلقًا مثل زيد الأفضل، وقد يكون مقيدًا مثل: زيد أفضل من عمرو.

وهنا التفضيل مطلق، لأنه قال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾.

قوله: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾. الدعاء هو السؤال، والدعاء قد يكون بلسان المقال، مثل: اللَّهُمَّ ! اغفر لي يا غفور وهكذا، أو بلسان الحال وذلك بالتعبد له، ولهذا قال العلماء: إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبادة، لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه.

والأمر بدعاء الله بها يتضمن الأمر بمعرفتها؛ لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها.

واعلم أن دعاء الله بأسمائه له معنيان:

الأول: دعاء العبادة، وذلك بأن تتعبد لله بما تقتضيه تلك الأسماء، ويطلق على الدعاء عبادة، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى﴾ [غافر: ٦٠]، ولم يقل: عن دعائي، فدل على أن الدعاء عبادة.

فمثلاً الرحيم يدل على الرحمة، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها.

والغفور يدل على المغفرة، وحينئذ تتعرض لمغفرة الله عز وجل بكثرة التوبة والاستغفار كذلك وما أشبه ذلك.

والقريب: يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد.

والسميع: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى السمع، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك.

والبصير: يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك.

الثاني: دعاء المسألة، وهو أن تقدمها بين يدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى.

....

مثلًا: يا حي، يا قيوم اغفر لي وارحمني، وقال ﷺ: «فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١] والإنسان إذا دعا وعلل، فقد أثنى على ربه بهذا الاسم طالبًا أن يكون سببًا للإجابة، والتوسل بصفة المدعو المحبوبة له سبب للإجابة، فالثناء على الله بأسمائه من أسباب الإجابة.

قوله تعالى: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾.

﴿ذَرُوا۟﴾: اتركوا ﴿ٱلَّذِينَ﴾: مفعول به، وجملة يلحدون صلة الموصول.

ثم توعدهم بقوله: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾، وهو الإلحاد، أي: سيجزون جزاءه المطابق للعمل تمامًا، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله.

والمعنى ذروهم، أي: لا تسلكوا مسلكهم ولا طريقهم: فإنهم على ضلال وعدوان، وليس المعنى عدم مناصحتهم وبيان الحق لهم، إذ لا يترك الظالم على ظلمه، ويحتمل أن المراد بقوله: ﴿ذَرُوا﴾ تهديدًا للملحدين.

والإلحاد: مأخوذ من اللحد، وهو الميل، لحد وألحد بمعنى مال، ومنه سمي الحفر بالقبر لحدًا، لأنه مائل إلى جهة القبلة.

والإلحاد في أسماء الله: الميل بها عما يجب فيها، وهو أنواع:

الأول: أن ينكر شيئًا من الأسماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكام، ووجه كونه إلحادًا أنه مال بها عما يجب لها، إذ الواجب إثباتها وإثبات ما تتضمنه من الصفات والأحكام.

الثاني: أن يثبت لله أسماء لم يسم الله بها نفسه، كقول الفلاسفة في الله: إنه علة فاعلة في هذا الكون تفعل، وهذا الكون معلول لها، وليس هناك إله.

وبعضهم يسميه العقل الفعال، فالذي يدير هذا الكون هو العقل الفعال، وكذلك النصارى يسمون الله أبًا وهذا إلحاد.

---

(١) البخاري: كتاب الأذان / باب الدعاء قبل السلام (٧٩٩)، ومسلم: كتاب الذكر والدعاء / باب استحباب خفض الصوت بالذكر (٢٧٠٥).

....

الثالث: أن يجعلها دالة على التشبيه، فيقول: الله سميع بصير قدير، والإنسان سميع بصير قدير، اتفقت هذه الأسماء، فيلزم أن تتفق المسميات، ويكون الله سبحانه وتعالى مماثلاً للخلق، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات.

ووجه الإلحاد: أن أسماءه دالة على معان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عِليه من المعاني في المخلوق.

الرابع: أن يشتق من هذه الأسماء أسماء للأصنام، كتسمية اللات من الإله أو من الله، والعزى من العزيز، ومناة من المنان حتى يلقوا عليها شيئًا من الألوهية ليبرروا ما هم عليه.

قول ابن عباس: «يشركون». تفسير للإلحاد، ويتضمن الإشراك بها في جهتين:

أن يجعلوها دالة على المماثلة.

أو يشتقوا منها أسماء للأصنام، كما في الرواية الثانية عن ابن عباس التي ذكرها المؤلف، فمن جعلها دالة على المماثلة، فقد أشرك لأنه جعل لله مثيلاً، ومن أخذ منها أسماء لأصنامه، فقد أشرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله عز وجل.

وقوله: «وعنه». أي: ابن عباس.

قوله: «سموا اللات من الإله . . » وهذا أحد نوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام.

قوله: «عن الأعمش: يدخلون فيها ما ليس منها». هذا أحد أنواع الإلحاد، وهو أن يسمي الله بما لم يسم به نفسه، ومن زاد فيها فقد ألحد، لأن الواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع.

تتمة:

جاءت النصوص بالوعيد على الإلحاد في آيات الله تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ [فصلت: ٤٠]، فقوله: ﴿لَا يَخْفَوْنَ عَلَيْنَآ﴾ فيها تهديد؛ لأن المعنى سنعاقبهم، والجملة مؤكدة بأن.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: إِثْبَاتُ الأَسْمَاءِ.

«الثَّانِيَةُ»: كَوْنُهَا حُسْنَى.

«الثَّالِثَةُ»: الأَمْرُ بِدُعَائِهِ بِهَا.

«الرَّابِعَةُ»: تَرْكُ مَنْ عَارَضَ مِنَ الجَاهِلِينَ المُلْحِدِينَ.

«الخَامِسَةُ»: تَفْسِيرُ الإِلْحَادِ فِيهَا.

«السَّادِسَةُ»: وَعِيدُ مَنْ أَلْحَدَ.

فيه مسائل:

الأولى: إثبات الأسماء. يعني لله تعالى، وتؤخذ من قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ﴾، وهذا خبر متضمن لمدلوله من ثبوت الأسماء لله، وفي الجملة حصر لتقديم الخبر، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء.

وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبوت الأسماء لله تعالى.

الثانية: كونها حسنى. أي: بلغت في الحسن أكمله؛ لأن «حسنى» مؤنث أحسن، وهي اسم تفضيل.

الثالثة: الأمر بدعائه بها. والدعاء نوعان: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، وكلاهما مأمور فيه أن يدعي الله بهذه الأسماء الحسنى، وسبق تفصيل ذلك.

الرابعة: ترك من عارض من الجاهلين الملحدين. أي: ترك سبيلهم، وليس المعنى ألا ندعوهم ولا نبين لهم، والآية تتضمن أيضًا التهديد.

الخامسة: تفسير الإلحاد فيها. وقد سبق بيان أنواعه.

السادسة: وعيد من ألحد. وتؤخذ من قوله تعالى: ﴿سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وهذا بابٌ عظيم، لأنَّ هذه الشبهة ضلّ بها أكثرُ الخلق قديمًا وحديثًا، لأنّهم لم يفرقوا بين الوسيلة الممنوعة والوسيلة المشروعة.

فالتوسُّل على قسمين:

....

توسُّل ممنوع، وهو: التوسُّل بجاه المخلوق، أو بحق المخلوق ومنزلته، أو بذاته، وهو إمّا شركٌ، وإما بدعة ووسيلة إلى الشرك.

أما التوسُّل المشروع فهو الذي جاء في الكتاب والسنّة ذكرُه والأمرُ به، ومن ذلك هذه الآيةُ الكريمة التي صدّر بها الشيخ هذا الباب: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾.

والتوسُّل المشروع أنواع:

النوع الأول: التوسُّل بأسماء الله وصفاته، تقول: (يا رحمن، ارحمني)، (يا غفور، اغفر لي)، (يا توّاب، تُبْ عليّ)، (يا غنيّ، أغنني)، وهكذا، تذكُر في دعائك كلّ اسم يناسِب حاجتك.

ولا يناسِب أنك تأتي باسم غير مناسب لحاجتك: فلا تقل: اللّهُمّ اغفر لي، إنك شديد العقاب.

النوع الثاني: التوسُّل إلى الله جل وعلا بدعاء الصالحين، إذا كان هناك صالحٌ من الصالحين، حيٌّ موجود تأتي إليه وتقول: (ادعُ الله لي أن يغفر لي)، (أن يرزقني)، (أن يشفِيَني)، أو إذا قَحِطَ النّاس طلبوا من الصالحين أن يدعوا الله تعالى لهم بالغيث، فهذا مشروع.

وقد استسقى عمر بن الخطّاب -رضي الله تعالى عنه- بدعاء العبّاس عمّ الرسول ﷺ، وقال: «اللّهُمّ إنّا كُنّا نستسقي بنبينا فتسقينا، وإنا نستسقي بعمّ رسولك، قم يا عبّاس فادع»، فيدعو العبّاس والنّاس يؤمّنون.

وهذا توسُّل بدعاء الصالحين، وكما توسّل معاوية رضي الله عنه بيزيد الجُرَشي، وغيرُهم.

أما الميّت، فلا يجوز أن تطلُب منه شيئًا، فلا يجوز أن تذهب إلى قبر الرسول ﷺ أو قبر غيره من الصالحين وتقول: (ادعُ الله لنا)، لأنّ الصّحابة ما كانوا يذهبون إلى قبر الرّسول ﷺ، بل إنّهم لَمّا أجدبوا وما بينهم وبين قبر الرّسول إلّا أمتار ما ذهبوا إليه، إنّما طلبوا من العبّاس، لأنّ العبّاس حيٌّ حاضر يستطيع أن يدعو، أما

....

الرسول ﷺ فإنّه ميّت، ولا يجوز أن يُطلب من الميّت شيء لا دُعاء ولا غيره.

النوع الثالث: التوسُّل إلى الله بالأعمال الصالحة، مثل حديث أصحاب الغار الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصّخرة، وسدّت عليهم المَخْرَجَ، فكلٌ منهم توسّل إلى الله بالعمل الذي قدّمه لله عزّ وجلّ: هذا توسَّل بعِفّته عن الحرام، وهذا توسّل ببرّه بوالديه، وهذا توسَّل بأمانته وحِفظه لحقّ الأجير حتى جاء وأعطاه إيّاه، ففرّج الله عنهم، وكما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ﴾ توسّلوا إلى الله بإيمانهم بالرّسول ﷺ: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ توسّلوا إلى الله بإيمانهم واتّباعهم للرّسول ﷺ. والتوسُّل بالتّوحيد: (أسألك بأنّك أنت الله لا إله إلّا أنت)، وكما توسّل ذو النون - عليه الصلاة والسلام- وهو في بطن الحوت: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾

قال: وقولُه تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ إخبارٌ من الله جلا وعلا أنّ له الأسماء، وأنّها حُسنى.

والحسنى: أي: البالغة في الحُسن أعلاه، لا شيء أحسن منها، فالحسنى هي المتناهِية في الحُسن، فكلُّ أسماء الله حسنى.

فهذه الآية تدلُّ: على إثبات الأسماء لله تعالى رَدًّا على المشركين وعلى الجهميّة ومَن نفى أسماءَ الله سبحانه وتعالى.

وفي الآية: أنها كلّها حسنى.

وفيها: مشروعيّة التوسُّل إلى الله تعالى بها، ودعائه بها: ﴿فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ يعني: توسّلوا إلى الله بها، بأن تقول: يا رحمن، ارحمني، يا غفور، اغفر لي، يا كريم، أكرِمني، يا توّاب، تُبْ عليّ. إلى آخره، بأنْ تأتي بكل اسم يناسب حاجتك.

ثم قال: ﴿وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِيٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ ﴿وَذَرُوا﴾ يعني: اتركوا.

والإلحاد في اللغة: المَيْل عن الشيء، ومنه سُمي اللحد في القبر لحدًا؛ لأنه

....

مائل عن سَمْت القبر.

أما الإلحاد في أسماء الله، فذكروا له عدّة معانٍ:

النوع الأول: جُحودها ونفيُها كما نفتْها الجهميّة.

وهذا أعظم الإلحاد فيها، فالذي يقول: «إن الله ليس له أسماء؛ لأنَّ الأسماء موجودة في المخلوقين، فإذا أثبتناها، صار تشبيهًا»- فهذا جاحدٌ لأسماء الله، ملحِدٌ فيها -والعياذُ بالله- أعظم الإلحاد، وهذا كُفرٌ بالله عزّ وجلّ.

النوع الثاني: تأويلُها عما دلّت عليه، كما فعلت المعتزلة فإنهم يُثبتون الأسماء ولكنّهم ينفون معانيها وما تدل عليه من الصّفات، لأنّ هذه الأسماء كلُّ اسم منها يدلّ على صفة؛ ﴿ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ يدلّ على الرحمة، ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ يدلّ على المغفرة، ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ يدلّ على العزّة والقوة والمَنَعة والغَلَبة، وهكذا، كلُّ اسم يُشتَقُّ منه صفة من صفات الله تعالى: ﴿ٱلسَّمِيعُ﴾ يدلّ على السمع، ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ يدلّ على البصر، ﴿ٱلْعَلِيمُ﴾ يدلّ على العلم، ﴿ٱلْقَدِيرُ﴾ يدلّ على القدرة، وهكذا، كلُّ اسم منها يدلُّ على صفة. فالذي لا يُثبِتُ الصّفات مُلحدٌ في أسماء الله، لأنّه جحد معانيها، وجعلها ألفاظًا مجرَّدة لا تدلّ على شيء.

النوع الثالث: تسمية المخلوقين بأسماء الله، مثلما فعل المشركون من تسمية اللات من اسم الإله، والعُزّى من اسم العزيز، فجعلوا أسماء الله أسماءً لمعبودات المشركين، وهذا من الإلحاد في أسماء الله سبحانه وتعالى.

النوع الرابع: أن يدخل فيها ما ليس منها.

فدلّ على أنّ الذي يُنكر أسماء الله، أو يؤوِّلها بغير معانيها الصحيحة، أو يدخل فيها ما ليس منها أو يحرِّفها إلى مسمّيات الأصنام؛ أنّه ملحدٌ متوعَّدٌ بأشدّ الوعيد.

ثم ذكر عن ابن أبي حاتم رحمه الله، عن ابن عبّاس:

﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾: يُشركون؛ أي: يُشركون في أسماء الله.

«وعنه»؛ أي: ابن عبّاس.

«سَمُّوا اللاّت من الإله، والعُزّى من العزيز» أي: أنهم سمّوا الأصنام الكبار

....

المعروفة عند العرب (اللات) و (العُزّى) اشتقّوا لها من أسماء الله.

«وعن الأعمش» هو: سُليمان بن مَهْران، الإمام الجليل في الحديث والفقه والتفسير.

«يدخلون فيها ما ليس منها»؛ لأنّ القاعدة في أسماء الله: أن لا يُسمّى إلّا بما سمّى به نفسَه، أو سمّاه به رسولُه ﷺ، فما لم يسمِّ الله به نفسَه ولم يسمِّه به رسولُه ﷺ فلا يجوز أن يُطلَق على الله، لكن المشركون سمّوا الله بما لم يسمِّ به نفسَه، وهذا من الإلحاد في أسماء الله، كما سمّت النصارى الله عزّ وجلّ بالأب.

فهذه الآية الكريمة وما جاء في تفسيرها عن ابن عبّاس وعن الأعمش تدلّ على مسائل:

المسألة الأولى: بيان التوسُّل المشروع، وهو التوسُّل بأسماء الله وصفاته.

المسألة الثانية: بيان التوسُّل الممنوع؛ وهو التوسُّل إلى الله بجعل واسطة في الدعاء بين الداعي وبين الله عزّ وجلّ.

المسألة الثالثة: فيه إثبات أسماء الله سبحانه وتعالى.

المسألة الرابعة: أن أسماء الله كلها حسنى، قوله: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾، فليس فيها اسمٌ غير حسن.

المسألة الخامسة: فيه النّهي عن الإلحاد في أسماء الله عزّ وجلّ.

المسألة السادسة: أن أسماء الله توقيفيّة، لا يجوز أن يُذكر فيها ما ليس ثابتًا في كتاب الله ولا سنّة رسوله ﷺ لأنّ هذا من الإلحاد في أسماء الله، كما قال الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها».

۞ ۞ ۞

١٢٩) ٥٢- بابٌ

لا يُقَالُ: السَّلامُ عَلَى اللهِ؛ فِي الصَّحِيح عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: كُنَّا إِذَا كُنَّا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي الصَّلاةِ قُلْنَا: السَّلامُ عَلَى اللهِ مِنْ عِبَادِهِ، السَّلامُ عَلَى فُلانٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لا تَقُولُوا: السَّلامُ عَلَى اللهِ. فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلامُ».

---

١٢٩) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: قوله: «لا تقولوا: السلام على الله. فإن الله هو السلام».

السلام له معنيان:

١- أي: هو السالم من كل نقص وعيب، فله الكمال المطلق من جميع الوجوه في ذاته وأسمائه وصفاته وأفعاله.

٢- المسلم لعباده أي: الذي يعطي السلام، فلا يقال: السلام على الله؛ لأن هذا دعاء، والله غني عن كل أحد، وليس بحاجة إلى دعاء الناس، وإنما المشروع هو تعظيمه وتقديسه والإيمان بأنه موصوف بصفات الكمال، وأنه المحسن والضار.

ويقال للمخلوق: السلام عليه؛ لأنه محتاج إلى العافية والدعاء.

مسألة:

لو قال: (لولا الرسول ما اهتدينا)، وأراد دعوة الرسول لا بأس، والأفضل أن يقول: لولا الله، ثم دعوة الرسول.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «لا يقال السلام على الله».

أي: لا تقل: السلام عليكم يا رب، لما يلي:

أ) أن مثل هذا الدعاء يُوهم النقص في حقه، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك؛ إذ لا يدعى لشيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به، والله سبحانه منزه عن صفات النقص.

....

ب) إذا دعوت الله أن يسلم نفسه، فقد خالفت الحقيقة؛ لأن الله يدعى ولا يدعى له، فهو غني عنا، لكن يثني عليه بصفات الكمال مثل غفور، سميع، عليم.

ومناسبة الباب لتوحيد الصفات ظاهرة؛ لأن صفاته عليا كاملة كما أن أسماءه حسنى، والدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾[النحل: ٦٠]، وقوله تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ﴾[الروم: ٢٧].

والمثل الأعلى: الوصف الأكمل، فإذا قلنا: السلام على الله. أوهم ذلك أن الله سبحانه قد يلحقة النقص، وهذا ينافي كمال صفاته.

ومناسبة هذا الباب لما قبله ظاهرة، لأن موضوع الباب الذي قبله إثبات الأسماء الحسنى لله المتضمنة لصفاته، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص، وهذا يتضمن كمالها، إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمال ونفي ما يضادها، فإنك لو قلت: زيد فاضل. أثبت له الفضل، وجاز أن يلحقه نقص، وإذا قلت: زيد فاضل ولم يسلك شيئًا من طرق السفول. فالآن أثبت له الفضل المطلق في هذه الصفة.

والرب سبحانه وتعالى يتصف بصفات الكمال، ولكنه إذا ذكر ما يضاد تلك الصفة صار ذلك أكمل، ولهذا أعقب المؤلف رحمه الله الباب السابق بهذا الباب إشارة إلى أن الأسماء الحسنى والصفات العلى لا يلحقها نقص.

والسلام اسم ثبوتي سلبي.

فسلبي: أي أنه يراد به نفي كل نقص أو عيب يتصوره الذهن أو يتخيله العقل، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه.

وثبوتي: أي يراد به ثبوت هذا الاسم له، والصفة التي تضمنها وهي السلامة.

قوله: «في الصحيح». هذا أعم من أن يكون ثابتًا في «الصحيحين»، أو أحدهما، أو غيرها.

قوله: «كنا مع النبي ﷺ في الصلاة». الغالب أن المعية مع النبي ﷺ في

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ السَّلامِ.

الصلاة لا تكون إلا في الفرائض، لأنها هي التي يشرع لها صلاة الجماعة، ومشروعية صلاة الجماعة في غير الفرائض قليلة، كالاستسقاء.

قوله: «قلنا: السلام على الله من عباده». أي: يطلبون السلامة لله من الآفات، يسألون الله أن يسلم نفسه من الآفات، أو أن اسم السلام على الله من عباده، لأن قول الإنسان السلام عليكم خبر بمعنى الدعاء، وله معنيان:

اسم السلام عليك، أي: عليك بركاته باسمه.

السلامة من الله عليك، فهو سلام بمعنى تسليم، ككلام بمعنى تكليم.

قوله: «السلام على فلان وفلان». أي: جبريل وميكائيل، وكلمة فلان يكنى بها عن الشخص، وهي مصروفة، لأنها ليست علمًا ولا صفة، كصفوان في قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ﴾ [البقرة: ٢٦٤].

وقد جاء في لفظ آخر: «السلام على جبريل و ميكال»[1]. كانوا يقولون هكذا في السلام. فقال النبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإن الله هو السلام».

وهذا نهي تحريم، والسلام لا يحتاج إلى سلام، هو نفسه عز وجل سلام سالم من كل نقص ومن كل عيب.

وفيه دليل على جواز السلام على الملائكة؛ لأن النبي ﷺ لم ينه عنه، ولأنه عليه الصلاة والسلام لما أخبر عائشة أن جبريل يسلم عليها قالت: «عليه السلام».

فيه مسائل:

الأولى: تفسير السلام: فبالنسبة كونه اسمًا من أسماء معناه السالم من كل نقص وعيب، وبالنسبة لكونه تحية له معنيان:

الأول: تقدير مضاف، أي، اسم السلام عليك، أي: اسم الله الذي هو السلام عليك.

---

(١) البخاري: كتاب صفة الصلاة / باب التشهد في الآخرة (٧٩٧).

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّهُ تَحِيَّةٌ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّهَا لا تَصْلُحُ للهِ.

«الرَّابِعَةُ»: العِلَّةُ فِي ذَلِكَ.

«الخَامِسَةُ»: تَعْلِيمُهُمُ التَّحِيَّةَ الَّتِي تَصْلُحُ للهِ.

الثاني: أن السلام بمعنى التسليم اسم مصدر كالكلام بمعنى التكليم؛ أي: تخبر خبرًا يراد به الدعاء، أي: أسأل الله أن يسلمك تسليمًا.

الثانية: أنه تحية. وسبق ذلك.

الثالثة: أنها لا تصلح لله. وإذا كانت لا تصلح له، كانت حرامًا.

الرابعة: العلة في ذلك. وهي أن الله هو السلام، وقد سبق بيانها.

الخامسة: تعليمهم التحية التي تصلح لله. وتؤخذ من تكملة الحديث: «فإذا صلى أحدكم، فليقل: التحيات لله..»، وفيه حسن تعليم الرسول ﷺ من وجهين الأول: أنه حينما نهاهم علل النهي.

وفي ذلك فوائد:

طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة.

بيان سمو الشريعة الإسلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة، لأن العلة حكمة.

القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة.

الثاني: أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يباح لهم، فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه، فليذكر ما يقوم مقامه مما هو مباح، ولهذا شواهد كثيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّه لَمّا كان السلام من أسماء الله سبحانه وتعالى، فإنّه لا يقال: «السلامُ على الله»؛ لأنّه هو السلام سبحانه وتعالى.

وأيضًا: لَمّا كان معنى السلام الدعاء للمسلَّم عليه بالسّلامة من الآفات، والله جل وعلا منزّه عن أن ينالَه شيءٌ من النقص أو من الآفات أو من المكروهات،

. . . .

فليس بحاجة أن يدعى له سبحانه وتعالى لغِنَاهُ عن كلِّ شيء وحاجة كلِّ شيء إليه سبحانه وتعالى، بل هو المدعو، ولا يُدعى له سبحانه وتعالى، لأنّ الدعاء إنّما يكون للمخلوق المحتاج، أمّا الله جل وعلا فإنّه غنيٌّ لا يحتاج إلى شيء، فمن دعا لله فقد تنقّص الله عزّ وجلّ، وهذا يُخِلُّ بالتّوحيد.

قال: «في الصحيح» يعني: في «الصحيحين».

«عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: في بعض الروايات: «السلامُ على جبريل وميكائيل»، فقال النّبي ﷺ: «لا تقولوا: السلام على الله، فإنّ الله هو السلام، ولكن قولوا: التحيّاتُ لله، والصلوات، والطيِّبات» إلى آخر الحديث في التشهُّد.

فقولُه: «لا تقولوا: السلامُ على الله» هذا نهيٌ منه ﷺ عن هذه الكلمة، والنّهيُ يقتضي التحريم.

ثم بيّن ﷺ السبب في هذا النّهي فقال: «فإن الله هو السلام»؛ أي: أنّ «السلام» من أسماء الله تعالى، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ﴾.

«السلامُ» من أسمائه سبحانه وتعالى معناه: السالم من الآفات والعُيوب والنقائص، فالله جل وعلا سالمٌ من الآفات والعُيوب والنقائص لذاتِه سبحانه وتعالى لا أنّ أحدًا يسلِّمه، وإنّما هو سالم بذاته سبحانه وتعالى.

وأيضًا: «السلام» هو الذي يُطلَبُ منه السلام، كما كان النّبي ﷺ إذا سلّم من الصلاة قبل أن ينصرف إلى أصحابه يستغفرُ الله ثلاثًا وهو متوجِّهٌ إلى القبلة، ثم يقول: «اللّٰهُمّ أنت السلام، ومنك السلام، تباركتَ يا ذا الجلال والإكرام». «ومنك السلام»: أنت الذي تمنحُ السلام لعبادِك، وأنت الذي يُطلَب منك السلام، بمعنى: أنّ العباد يسألونك أن تسلِّمهم من الآفات والنقائص والمكاره.

«السلام» من أسماء الله له معنيان كما ذكر أهلُ العلم:

المعنى الأوّل: السالم من النقائص والعيوب.

والثاني: المسلِّم لغيره.

أي: السالم في نفسه، المسلِّم لغيره، سبحانه وتعالى.

١٣٠) ٥٣- بابٌ

قَوْلُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ -رضي الله عنه- أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي إِنْ شِئْتَ.

فهذا الحديث فيه مسائل:

المسألة الأولى: أنه لا يُقال: «السلام على الله» من عبادِه؛ لأنّ هذا معناه: الدعاء، والله جل وعلا لا يدعى له.

المسألة الثانية: في الحديث بيان الحكمة في النّهي عن أنْ يقال: «السلام على الله»؛ لأنّ الله جل وعلا هو السلام، يعني: وإذا كان هو السلام فليس بحاجة إلى أن يسلَّم عليه.

المسألة الثالثة: أنّ مَن نهى عن شيء فإنّه يبيِّن السبب في هذا النّهي، لأنّ النّبي ﷺ لَمّا نهى بقوله: «لا تقولوا: السلام على الله» بيّن المعنى الذي من أجلِه نهى عنه فقال: «إن الله هو السلام»، ففيه: بيان الحكم بعِلّته، لأنّ هذا أثبت في ذِهْنِ السامع وأدعى للامتثال.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على أنّ مَن نهى عن شيء وكان لهذا الشيء بديلٌ صالح فإنه يأتي بالبديل.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على أن الله جل وعلا يحيّى ولا يسلَّم عليه، لأن التحيّة تعظيم له، والسلام دعاء له، والله جلّ وعلا يعظَّم ولا يُدعى له.

المسألة السادسة: في الحديث دليل: على الفرق بين التحيّة والسلام: التحيّة تُقال في حقّ الله تعالى التحيات لله، وأمّا السلام، فلا يقال في حق الله.

١٣٠) **الشرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أراد المؤلف بهذا أن يبين أنه من كمال الإيمان وكمال التوحيد: العزم على المسألة، وعدم التردد، وأن المؤمن إذا دعا ربه فليعزم، ولا يتردد، فإن وجود الله عظيم، وهو الغني الحميد، فلا يليق بالمؤمن أن يستثني في سؤاله، وإنما يستثني في سؤال المخلوق؛ لأنه قد يعجز، أو يمتنع، أما الرب، فهو الغني القادر.

اللَّهُمَّ ارْحَمْنِي إِنْ شِئْتَ. لِيَعْزِمْ المَسْأَلَةَ، فَإِنَّ اللهَ لا مُكْرِهَ لَهُ»
ولِمُسْلِمٍ: «ولْيُعَظِّمْ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لايَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ».

في الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: «لا يقل أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت، اللَّهُمَّ ارحمني...».

فلا يليق بالعبد أن يسأله بالاستثناء؛ لأنه كأنه يكون غير مضطر، ولا محتاج إلى هذا السؤال، والواجب العزم، فإن الله لا مكره له، وليس بعاجز.

ولمسلم: «وليعظم الرغبة، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه».

بل هو الله تعالى العظيم الشأن الغني الحميد، وكل شيء يعطيه عباده فهي عنده قليلة يسيرة، وإن أعطاهم شيئًا عظيمًا سبحانه وتعالى.

فعلى المؤمن أن يكون شديد الرغبة فيما عند الله، شديد التعلق بالله، شديد اللجوء إليه والانكسار، وأن يسأله سؤال الراغب المضطر، ولا يستثني، وكذلك إذا دعا لإخوانه لا يقول: غفر الله لك إن شاء، أو رحمك إن شاء، بل يجزم، ولا يقول: إن شاء الله، ولو تبركًا، فلا يستثني أبدًا.

ولا يقول: اللَّهُمَّ اغفر لي ما شئت.

فائدة:

* الدبلة ليس لها أصل، وهي من أعمال النصارى.

* الأحاديث الواردة في سورة «الكهف» كلها ضعيفة، ولكن يشد بعضها بعضًا، وقد صح موقوفًا، وهذا مما يقوي المرفوع.

* لا يجوز أن يقول: يا رسول الله، لو رأيت حال الأمة؛ لأشفقت عليها، ولدعوت لها... إلخ.

لأنه ﷺ لا يسمع ولا يرى ما نقول له كما في الحديث: «إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك».

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «اغفر لي». المغفرة: ستر الذنب مع التجاوز عنه؛ لأنها مشتقة من المغفر، وهو ما يستر به الرأس للوقاية من السهام، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واقٍ، ويدل له قول الله عز وجل للعبد

....

المؤمن حينما يخلو به ويقرره بذنوبه يوم القيامة: «قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم»(١).

قوله: «إن شئت». أي: إن شئت أن تغفر لي فاغفر، وإن شئت فلا تغفر.

في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللَّهُمَّ اغفر لي أن شئت. اللَّهُمَّ، ارحمني إن شئت. ليعزم المسألة، فإن الله لا مكره له»(٢).

قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم». لا ناهية بدليل جزم الفعل بعدها.

قوله: «اللَّهُمَّ اغفر لي. اللَّهُمَّ ارحمني». ففي الجملة الأولى: «اغفر لي» النجاة من المكروه، وفي الثانية: «ارحمني». الوصول إلى المطلوب، فيكون هذا الدعاء شاملاً لكل ما فيه حصول المطلوب وزوال المكروه.

قوله: «ليعزم المسألة». اللام للأمر، ومعنى عزم المسألة: أن لا يكون في تردد، بل يعزم بدون تردد ولا تعليق. «المسألة»: السؤال، أي: ليعزم في سؤاله؛ فلا يكون مترددًا بقوله: إن شئت.

قوله: «فإن الله لا مكره له». تعليل للنهي عن قول: «اللَّهُمَّ اغفر لي إن شئت. اللَّهُمَّ ارحمني إن شئت»؛ أي: لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله، لأن الأمر كله لله وحده.

والمحظور في هذا التعليق من وجوه ثلاثة:

الأول: أنه يُشعر بأن الله له مكره على الشيء وأن وراءه من يستطيع أن يمنعه.

الثاني: أن قول القائل: «إن شئت» كأنه يرى أن هذا أمر عظيم على الله.

الثالث: أنه يشعر بأن الطالب مستغن عن الله، كأنه يقول: إن شئت فافعل، وإن شئت فلا تفعل لا يهمني، ولهذا قال: «وليعظم الرغبة»، أي: يسأل برغبة عظيمة.

---

(١) البخاري: كتاب المظالم / باب قوله تعالى: ﴿أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ (٢٣٠٩)، ومسلم: كتاب التوبة / باب توبة العاقل (٢٧٦٨).

(٢) البخاري: التوحيد/ باب في المشيئة (٧٠٣٩)، ومسلم: الذكر والدعاء/ باب العزم بالدعاء (٢٦٧٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنْ الاسْتِثْنَاءِ فِي الدُّعَاءِ.

فإن قلت: ما الجواب عما ورد في دعاء الاستخارة: «اللَّهُمَّ، إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب. اللَّهُمَّ، إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاقدره لي، ويسره لي، ثم بارك لي فيه، وإن كنت تعلم أن هذا الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري، فاصرفه عني واصرفني عنه، واقدر لي الخير حيث كان ثم أرضني به»(١). وكذا ما ورد في الحديث المشهور «اللَّهُمَّ، أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي»(٢).

فالجواب: أنني لم أعلق هذا بالمشيئة، ما قلت: فاقدره لي إن شئت، لكن لا أعلم أن هذا خير لي أو شر، والله يعلم، فأقول: إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي فاقدره لي، فالتعليق فيه لأمر مجهول عندي لا أعلم هل هو خير لي أو لا؟ وكذا بالنسبة للحديث الآخر، لأن الإنسان لا يعلم هل طول حياته خير أو شر؟ ولهذا كره أهل العلم أن تقول للشخص: أطال الله بقاءك. لأن طول البقاء لا يعلم، فقد يكون خيرًا، وقد يكون شرًا، ولكن يقال: أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حتى يكون الدعاء خيرًا بكل حال، وعلي هذا، فلا يكون في حديث الباب معارضة لحديث الاستخارة ولا حديث: «اللَّهُمَّ أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي»؛ لأن الدعاء مجزوم به وليس معلقًا بالمشيئة، والنهي إنما هو عما كان معلقًا بالمشيئة.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن الاستثناء في الدعاء، والمراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله ﷺ لضباعة بنت الزبير: «حجي واشترطي، فإن لك

---

(١) البخاري: كتاب الدعوات / باب الدعاء عند الاستخارة (٦٠١٩).

(٢) البخاري: الدعوات/ باب الدعاء بالموت والحياة (٥٩٩٠)، ومسلم الذكر والدعاء/ باب كراهة تمني الموت (٢٦٨٠).

«الثَّانِيَةُ» : بَيَانُ العِلَّةِ فِي ذَلِكَ.
«الثَّالِثَةُ» : قَوْلُهُ : «لِيَعْزِمْ المَسْأَلَةَ» .
«الرَّابِعَةُ» : إِعْظَامُ الرَّغْبَةِ.
«الخَامِسَةُ» : التَّعْلِيلُ لِهَذَا الأَمْرِ.

على ربك ما استثنيت»[١] ووجهه أنك إذا قلت: أكرم زيدًا إن أكرمك، فهو كقولك: أكرم زيدًا إلا ألا يكرمك، فهو بمعنى الاستثناء في الحقيقة.

الثانية: بيان العلة في ذلك. وقد سبق أنها ثلاث علل:

أنها تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك.

أنها تشعر بأن هذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك.

أنها تشعر باستغناء الإنسان عن الله، وهذا غير لآئق وليس من الأدب.

الثالثة: قوله: «ليعزم المسألة». تفيد أنك إذا سألت فاعزم ولا تردد.

الرابعة: إعظام الرغبة. لقوله ﷺ: «وليعظم الرغبة»، أي: ليسأل ما بدا، فلا شيء عزيز أو ممتنع على الله.

الخامسة: التعليل لهذا الأمر. يستفاد من قوله: «فإن الله لا يتعاظمه شيء أو لا مكره له» وقوله: «وليعظم الرغبة»، وفي هذا حسن تعليم الرسول ﷺ إذا ذكر شيئًا قرنه بعلته.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب من جنس الباب الذي قبله، لأنّ الذي يدعو الله تعالى يجب أن يعزم الدعاء، ولا يعلّقه بالمشيئة، لأنّه إذا علّقه بالمشيئة تضمّن ذلك أمرين:

الأمر الأوّل: أنّ هذا يدلّ على فُتوره في طلب الدعاء من الله سبحانه وتعالى، كأنّه غنيّ عن الله، يقول: إن حصل شيء وإلّا ما هو بلازم، فكأنّه فاترٌ في طلبه، وكأنّه غنيّ عن الله سبحانه وتعالى.

---

١) البخاري: النكاح/ باب الأكفاء في الدين (٤٨٠١)، ومسلم: الحج/ باب جواز اشتراط المحرم (١٢٠٧).

....

ولا شكّ أن العبد مفتقرٌ إلى الله جل وعلا في كلّ أحواله، لأنّه فقيرٌ إلى الله، ولا ينظُر إلى ما عنده من الأسباب ومن الإمكانيّات، فإنّ هذه الإمكانيّات يمكن أن تزول في لحظة، لا ينظُر إليها ولا يعتمد عليها، فهو فقيرٌ إلى الله مهما كان، ولو كان من أكثر النّاس مالاً وأولادًا ومُلكًا فهو فقيرٌ إلى الله في أن يُبقيَ عليه هذه النعمة وأن ينفعه بها، وإلّا فهي عُرضة للزوال في أسرع وقت. هذا معنى.

والأمر الثاني: كأنّه يرى بأن الله جل وعلا قد يُجيب الدعاء وهو كاره، فـ «إنْ شئتَ»؛ معناه: أنا لستُ ملزمًا لك، أخشى أن يشقّ عليك، لكن إنْ شئتَ اغفر لي وارحمني، وهذا لا يليق بالله سبحانه وتعالى؛ لأنه تنقص له. والله جل وعلا لا مُكره له، وهذا المعنى عليه قوله ﷺ: «فإن الله لا مكره له».

«في الصحيح»؛ أي: في «الصحيحين».

«عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكُم: اللّهُمّ اغفر لي إنْ شئتَ. اللّهُمّ ارحمني إنْ شئتَ. وليعزم المسألة، فإنّ الله لا مُكرِهَ له» علّل النّبي ﷺ هذا النّهي بأمرين:

الأمر الأوّل: أنّ هذا يدلّ على الفُتور من السائل، والمطلوب من السّائل العزم: «وليعزم المسألة».

الأمر الثّاني: أنّ هذا يُشعر بأنّ السائل يخاف أنّ الله يفعل هذا وهو كارهٌ من باب المجامَلة، والله جل وعلا لا مُكرِهَ له، يفعل ما يشاء ويختار سبحانه، لا أحد يُكرهه أو يؤثّر عليه، أو أنّه يجامِل أحدًا، أو يخافُ من أحد.

وفي رواية لمسلم: «وليعظّم الرغبة» مثل: «وليعزم المسألة» يعني: يلحّ على الله في الدعاء.

«فإنّ الله لا يتعاظمه شيء أعطاه» يعطي سبحانه وتعالى ما يشاء ما لا يعلمُه إلّا هو، بلا حصر ولا حساب، ولا تنفد خزائنُه سبحانه، بخلاف المخلوق، فإنّه قد يعطي العطاء ولكن هذه العطيّة تكون ثقيلةً عليه وتُجحف بماله، قد يكون معسِرًا ليس عنده شيء.

١٣١) ٥٤- بابٌ

لا يَقُولُ: عَبْدِي وأَمَتِي، فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ، وضِّئْ رَبَّكَ. ولْيَقُلْ: سَيِّدِي ومَوْلايَ. ولا يَقُلْ: عَبْدِي وأَمَتِي. ولْيَقُلْ: فَتَايَ وفَتَاتِي، وغُلامِي»

أمّا الله جل وعلا، فإنّه غنيّ لا يتعاظمه شيءٌ أعطاه، ولذلك: يعطي الجنّة التي هي غاية المطالب، ويعطي الدنيا والآخرة سبحانه وتعالى، يعطي بلا حساب، ولا تنفد خزائنه.

فدلّ هذا الحديث على مسائل:

المسألة الأولى: النّهي عن أن يقول: «اللّهُمَّ اغفر لي إن شئت. اللّهُمَّ ارحمني إنْ شئت»، والنّهي للتحريم.

المسألة الثانية: بيان علّة النّهي، وهي أنّ الله جل وعلا لا مكره له حتى يحتاج إلى أن تقول: «إنْ شئت»، ولا يتعاظمه شيء أعطاه ولو كان كثيرًا.

١٣١) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هذا الباب مما ينافي كمال التوحيد.

أي: عندما يخاطب الرجل غلامه أو جاريته، فلا يقول: عبدي وأمتي تأدبًا مع الله تعالى، بل يقول: فتاي، وفتاتي، وغلامي وخادمي، ونحو ذلك لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله، فهذا من باب الكمال والتأدب مع الله عز وجل، والاعتراف له سبحانه بأنه المالك لكل شيء والمتصرف في كل شيء.

أما إذا قيل: عبد فلان، أو إماء فلان، فهذا من باب الإخبار وهو أسهل، وليس من باب الإضافة إلى النفس.

«لا يقل أحدكم: أطعم ربك» : هذا من باب التأدب أيضًا؛ لأن رب الجميع هو الله، والله تعالى لا يطعم فهو الغني فلا يقال ذلك بإطلاق.

«بل يقول: سيدي ومولاي وعمي» : لأن هذه عبارات معروفة لا تشتبه بالربوبية والسيد هو المالك والرئيس هو مالك لهذا الغلام.

....

وهكذا المولى له معان كثيرة، فهو: المالك، والقريب، والناصر.

وفي رواية لا يقل: مولاي، فإن مولاكم الله[١]: ولكن المحفوظ عند العلماء رواية الإذن بهذا؛ لأن كلمة المولى مشتركة وقد قال تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾ أي: لا ناصر لهم، بل هم مخذولون بالنسبة للناصر لدين الله، فلا حرج أن يقول: مولاي وسيدي، واصطلح الناس الآن بكلمة عمي، أي: لمن ملك وغير ذلك مما اصطلحوا عليه بدلًا من (الرب).

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله ﷺ: «لا يقل». الجملة نهي.

«عبدي»، أي: للغلام.

و «أمتي»، أي: للجارية.

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يضيفه إلى غيره، مثل أن يقول: عبد فلان أو أمة فلان، فهذا جائز قال تعالى: ﴿وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ﴾ [النور: ٣٢]، وقال النبي ﷺ: «ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة»[٢].

الثاني: أن يضيفه إلى نفسه، وله صورتان:

الأولى: أن يكون بصيغة الخبر، مثل: أطعمت عبدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فإن قاله في غيبة العبد أو الأمة، فلا بأس به، وإن قاله في حضرة العبد أو الأمة، فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منع، وإلا فلا؛ لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك.

الثانية: أن يكون بصيغة النداء، فيقول السيد: يا عبدي، هات كذا، فهذا منهي عنه، وقد اختلف العلماء في النهي: هل هو للكراهة أو التحريم؟ والراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

---

(١) رواه مسلم (طرف حديث ٢٢٤٩).

(٢) البخاري: كتاب الزكاة / باب ليس على المسلم في عبده صدقة (١٣٩٥)، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب لا زكاة على المسلم في عبده وفرسه (٩٨٢).

....

قوله ﷺ: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك ... إلخ». أي: لا يقل أحدكم لعبد غيره، ويحتمل أن يشمل قول السيد لعبده حيث يضع الظاهر موضع المضمر تعاظمًا.

قوله: «وليقل: سيدي ومولاي». المتوقع أن يقول: وليقل: سيدك ومولاك؛ لأن مقتضى الحال أن يرشد ما يكون بدلاً عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطاب، والإرشاد بلفظ التكلم، وليقل: «سيدي ومولاي»، ففهم المؤلف رحمه الله كما سيأتي في المسائل أن فيه إشارة إلى أنه إذا كان الغير قد نُهي أن يقول للعبد: أطعم ربك، فالعبد من باب أولى أن ينهى عن قول: أطعمت ربي، وضأت ربي، بل يقول: سيدي ومولاي.

وأما إذا قلنا بأن «أطعم ربك» خاص بمن يخاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قال هو بنفسه: أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال، فإنه يقال: إن الرسول ﷺ لما وجه الخطاب لمن يخاطب العبد، وجه الخطاب إلى العبد نفسه، فقال: «وليقل: سيدي ومولاي»، أي عن قوله: أطعمت ربي، وضأت ربي.

وقوله «سيدي». السيادة في الأصل علو المنزلة؛ لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.

والسيد يطلق على معانٍ، منها: المالك، الزوج، والشريف المطاع.

وسيدي هنا مضافة إلى ياء المتكلم، وليست على وجه الإطلاق، فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله عز وجل قال ﷺ: «السيد الله»(١).

وأما السيد مضافة، فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾ [يوسف: ٢٥]، وقال ﷺ: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة»(٢). والفقهاء يقولون: إذا قال السيد لعبده، أي: سيد العبد لعبده.

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٤/ ٢٤، ٣٥) والبخاري في «الأدب المفرد» (٢١١)، وأبو داود: كتاب الأدب / باب في كراهة التمادح (٤٨٠٦).

(٢) مسلم: كتاب الفضائل / باب تفضيل النبي ﷺ على جميع الخلائق (٢٢٧٨).

....

تنبيه: اشتهر عند بعض الناس إطلاق السيدة على المرأة، فيقولون مثلاً: هذا خاص بالرجال، وهذا خاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق، لأن السادة هم الرجال، قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِۚ﴾، وقال: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ﴾ [الأنعام: ٦٢]، وقال ﷺ: «إن النساء عوان عندكم»[١]. أي: بمنزلة الأسير. وقال في الرجل: «راع في أهله ومسئول عن رعيته»[٢]. فالصواب أن يقال للواحدة: امرأة وللجماعة منهن نساء.

قوله: «ومولاي». أي: وليقل مولاي، والولاية تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: ولاية مطلقة، وهذه لله عز وجل لا تصلح لغيره، كالسيادة المطلقة.

القسم الثاني: ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير الله، ولها في اللغة معانٍ كثيرة، منها الناصر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق.

قال تعالى: ﴿وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيۡهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوۡلَىٰهُ وَجِبۡرِيلُ وَصَٰلِحُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ﴾ [التحريم: ٤] وقال ﷺ فيما يروى عنه: «من كنت مولاه، فعلي مولاه»[٣]، وقال ﷺ: «إنما الولاء لمن أعتق»[٤].

قوله ﷺ: «ولا يقل أحدكم: عبدي وأمتي». هذا خطاب للسيد أن لا يقول: عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته؛ لأننا جميعًا عباد الله، ونساؤنا إماء لله. قال النبي ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»[٥].

---

(١) الإمام أحمد (٥/ ٧٢)، والترمذي: كتاب الرضاع / باب في حق المرأة على زوجها (١١٦٣)، وابن ماجه: كتاب النكاح/ باب حق المرأة على زوجها (١/ ٥٩٤).

(٢) البخاري: كتاب الجمعة/ باب الجمعة في القرى (٨٥٣)، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٩).

(٣) الإمام أحمد في «المسند» (١/ ٨٤).

(٤) البخاري: كتاب العتق/ باب ما يجوز من شرط المكاتب (٢٤٢٢)، ومسلم: كتاب العتق/ باب إنما الولاء لمن أعتق (١٥٠٤).

(٥) البخاري: كتاب الجمعة/ باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل (٨٥٨)، ومسلم: كتاب الصلاة/ [illegible] وج النساء (٤٤٢).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأولَى»: النَّهْيُ عَنْ قَوْلِ: عَبْدِي وأَمَتِي.

«الثَّانِيَةُ»: لا يَقُولُ العَبْدُ: رَبِّي، ولا يُقَالُ لَهُ: أَطْعِمْ رَبَّكَ.

«الثَّالِثَةُ»: تَعْلِيمُ الأَوَّلِ قَوْلَ: فَتَايَ وفَتَاتِي وغُلامِي.

«الرَّابِعَةُ»: تَعْلِيمُ الثَّانِي قَوْلَ: سَيِّدِي ومَوْلايَ.

«الخَامِسَةُ»: التَّنْبِيهُ لِلْمُرَادِ، وهُوَ تَحْقِيقُ التَّوْحِيدِ حَتَّى فِي الأَلْفَاظِ.

فالسيد منهي أن يقول ذلك، لأنه إذا قال: عبدي وأمتي، فقد تشبه بالله عز وجل ولو من حيث ظاهر اللفظ؛ لأن الله عز وجل يخاطب عباده بقوله: عبدي، كما في الحديث: «عبدي، استطعمتك فلم تطعمني[1]...» وما أشبه ذلك.

وإن كان السيد يريد بقوله: «عبدي»، أي: مملوكي، فالنهي من باب التنزه عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك.

وقوله: «وأمتي». الأمة: الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية.

قوله: «وليقل: فتاي وفتاتي». مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن قول: عبدي وأمتي. تؤخذ من قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي». وقد سبق بيان ذلك.

الثانية: لا يقول العبد: ربي. ولا يقال له: أطعم ربك. تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك.

الثالثة: تعليم الأول (وهو السيد) قول: فتاي وفتاتي وغلامي.

الرابعة: تعليم الثاني (وهو العبد) قول: سيدي ومولاي.

الخامسة: التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ. وقد سبق ذلك.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب عقده المصنِّف رحمه الله كالباب الذي قبلَه، من أجل احترام أسماء الله وصفاتِه، ومن أجل سدّ الطّرق

---

(١) مسلم: كتاب البر والصلة / باب فضل عيادة المريض (٢٥٦٩).

....

التي تُفضي إلى الشرك وحماية جانب التّوحيد، وذلك: بتجنُّب الألفاظ الموهمة التي قد يُفهم منها شيءٌ من الشرك، ولو كان المتكلِّم بها لا يقصد المعنى، ولكنّه يتجنّب ذلك من أجل سدّ الباب من أصلِهِ، هذا هو المقصود.

وقد سبق له نظائر في هذا الكتاب من حماية النّبي ﷺ حمَى التّوحيد وسدّ الطُّرق التي تُفْضي إلى الشرك، وهذا منها.

ومن ذلك: لا يقُلْ السيِّد والمالك لرقيقه: عبدي وأَمَتي؛ لأنّ العباد عباد الله سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾، فليس هناك عبدٌ لأحد إلّا لله سبحانه وتعالى، فالعبوديّة والتعبيد خاصٌّ بالله سبحانه وتعالى، أما المخلوقون فليس بعضُهم عبيدًا للبعض، فالعباد كلّهم عبادُ الله، مؤمنُهم، وكافرُهم، هذه العبوديّة العامّة، أما العبودية الخاصّة فهي خاصّة بالمؤمنين: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ﴾، ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ﴾، ﴿يَٰعِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ وَلَآ أَنتُمْ تَحْزَنُونَ﴾، هذه عبوديّة خاصّة بالمؤمنين، وهي عبوديّة تقرُّب إلى الله تعالى وإنابةٍ إليه، وجزاؤها الجنة. فالعبودية إذًا خاصّة لله.

قوله: «أَمَتي»: الأَمَة معناها أيضًا العبدة، فلا يقال: هذه أَمَة فلان، وإنّما يُقال: هذه أَمَةُ الله، وهذا تأدُّبٌ مع التّوحيد ومع جناب الرّبوبيّة. هذا وجه عقد المصنِّف للترجمة.

قوله: «في الصحيح»: أي: الصحيحين: صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

أن النّبي ﷺ قال: «لا يقل أحدكم» هذا نهيٌ من الرّسول ﷺ.

«أطعم ربّك»؛ أي: ناوِلْه الطعام.

«وضِّئ ربّك»؛ أي: ائتِه بالوضوء، أو أعنه على الوُضوء.

ثم بيّن النّبي ﷺ اللفظ الذي يقوله المملوك لمالكه، وهو: «سيدي ومولاي»، كما بيّن اللفظ الذي يقوله المالك لمملوكه، وهو: «فتاي، وفتاتي وغلامي»؛ لأن هذه الألفاظ لا محذور فيها، فتكون بدائل للألفاظ المحذورة.

....

فدلّ هذا الحديث على مسائل:

المسألة الأولى: فيه ما ترجم المصنِّف من أجلِه، وهو عدم جواز قول «عبدي» «أَمتي»؛ لأنّ هذا ورد منصوصًا عليه في الحديث: «لا يقل: عبدي وأمتي».

المسألة الثانية: فيه: أنّ لفظ (الرّبّ) لا يُطلق إلّا على الله؛ لأنّه هو الرب سبحانه وتعالى الذي له الربوبيّة على عباده: ﴿ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾، وهكذا لم يَرِد إطلاق لفظ (الربّ) في القرآن إلّا على الله سبحانه وتعالى، فلا يجوز استعمالُه لغيره، وإنْ كان المتكلّم لا يقصد المعنى وإنّما يقصد مجرّد الملكيّة والرِّق، لكن من باب سدّ الذرائع -كما سبق- أما إذا قُيِّد لفظ الرب فإنه يجوز إطلاقه على المخلوق مثل رب الدار، وكقوله تعالى: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

المسألة الثالثة: فيه: القاعدة المعروفة وهو سدّ الذرائع التي تقضي إلى المحذور، كلّ ذريعة ووسيلة تُفضي إلى محذور فإنّها ممنوعة، وهي قاعدة عظيمة، تُسمّى عند الأُصوليّين: «قاعدة سدّ الذرائع»، قد تكلّم عليها بإسهاب الإمام ابن القيّم في كتابَيْه: «إعلام الموقِّعين» «إغاثة اللّهفان»، وذكر لها تسعة وتسعين مثالاً.

المسألة الرّابعة: في الحديث: دليلٌ على أنّ مَن نهى عن شيء وله بديل صالح فإنّه يأتي بالبديل، لأنّ النّبي ﷺ لَمّا نهى عن قول: «عبدي» «أَمَتِي» قال: «وليقل: فتاي وفتاتي وغلامي» هذا البديل الصّالح الذي لا محذور فيه.

المسألة الخامسة: في الحديث: دليلٌ على جواز لفظ «سيدي ومولاي» بالنسبة للمخلوق، لأنّهما يحتملان معاني لا محذور فيها، فإذا كان اللفظ له معنى غير محذور، فلا بأس به؛ لأنَّ السيِّد يُراد به الرّئيس.

والمالك يقال له (سيد)، والزوج يقال له (سيد).

والمولى يراد به المعتق، ويُراد به المناصِر، ويُراد به المحبوب، ويُراد به المالِك، كلّ هذا يقال له: (مولى).

۞ ۞ ۞

١٣٢) ٥٥- بابٌ

لا يُرَدُّ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ ، عَنْ ابنِ عُمَرَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، ومَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، ومَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، ومَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُونَهُ، فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رَوَاهُ أَبو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

---

١٣٢) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ذكر المؤلف هذا الباب نظرًا لما فيه من تعظيم الله وإجلاله في إعطاء من سأله، وحديث ابن عمر من جوامع الكلم التي أوتيها ﷺ.

عن ابن عمر مرفوعًا: «من استعاذ بالله، فأعيذوه، ومن سأل بالله، فأعطوه».

«من سأل بالله، فأعطوه»: تعظيمًا لله وإجلالاً له، وقد جاءت عدة أحاديث تدل على كراهة السؤال بالله، لما فيه من التشديد على الناس، ولكن من سأل حقًا كالزكاة، أو من بيت المال وجب أن يعطى، أما غير ذلك فالأفضل أن يعطى ولا ينبغي أن يسأل بالله عملاً بالأحاديث الدالة على كراهة ذلك.

«ومن استعاذ بالله، فأعيذوه»: فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ، ولهذا لما استعاذت عمرة بنت الجون من الرسول ﷺ قال لها: «لقد عذت بمعاذ»؛ أي: بعظيم «فالحقي بأهلك». فمن استعاذ بالله شرع أن يعاذ، إذا لم يكن حقًا عليه، فإن استعاذ بالله في إسقاط حق عليه فلا يعاذ؛ لأن الله أمر بأداء الحقوق كما إذا قال: أعوذ بالله من أن تلزموني بالصلاة او الزكاة أو الدين أو الكفارات، ونحو ذلك، فإن استعاذ من تولية القضاء مع وجود من يقوم مقامه، أو الإمارة ونحو ذلك مما فيها خطر، شرع إعاذته كما يروى عن ابن عمر لما أمره عثمان بالقضاء، استعاذ بالله أن يولى القضاء فأعاذه عثمان وهذا إن صح فهو محمول على أن هناك من يقوم مقامه، وكان الصالحون في عهد عثمان لذلك كثيرون.

....

«ومن دعاكم، فأجيبوه»: لما في إجابة الدعوة من المصالح والتواصل والتآلف والتقارب فلهذا شرعت الإجابة سواء كانت لعرس أو غيره وأهمها العرس. وفي الحديث: «من لم يجب الدعوة، فقد عصى الله ورسوله»[1]. مسلم.

فالواجب أن تجاب إلا:

١- أن يكون له ما يمنعه كأن يكون مريضًا أو بعيدًا أو يشق عليه الإتيان ونحوه.

٢- إن كان فيها مانع: بأن يكون فيها منكر كالملاهي والأغاني والخمر، فإن كانت الدعوة سليمة وجب أن يجيب أو تأكد على الأقل لهذا الحديث وغيره.

- ولا تجب إجابة الدعوة إلا إذا خصه بها.

ومن صنع معكم معروفًا، فكافئوه: هذا من مكارم الأخلاق وكمال الإيمان أن يكافأ على المعروف بما يستطيع إن كان مالاً فبالمال، وإن لم يكن فبالكلام الطيب والدعاء.

«حتى تروا»: يروى بفتح التاء؛ أي: حتى تعلموا ويروى بضم التاء أي حتى تظنوا أنكم كافأتموه، والمعروف يتنوع.

لا ينبغي دعاء صفات الله، فلا يقال: يا وجه الله، أو يا علم الله، افعل كذا. وإنما يدعى الله بأسمائه وصفاته؛ فيقال: يا رحمن... فالصفات يتوسل بها، ولا تدعى، وقد نقل شيخ الإسلام الإجماع على هذا.

ويتوسل بها فيقول: «أسألك بعفوك ورحمتك وأعوذ برضاك من سخطك..» إلخ.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «باب لا يرد». «لا» نافية بدليل رفع المضارع بعدها، والنفي يحتمل أن يكون للكراهية، وأن يكون للتحريم.

وقوله: «من سأل بالله». أي: من سأل غيره بالله، والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: السؤال بالله بالصيغة، مثل أن يقول: أسألك بالله كما تقدم في حديث

---

(١) رواه البخاري (٥١٧٧)، ومسلم (١٤٣٢).

....

الثلاثة حيث قال الملك: «أسالك بالذي أعطاك الجلد الحسن واللون الحسن بعيرًا».

الثاني: السؤال بشرع الله عز وجل؛ أي: يسأل سؤالاً يبيحه الشرع، كسؤال الفقير من الصدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك.

وحكم من رد من سأل بالله الكراهة أو التحريم حسب حال المسئول والسائل.

قوله ﷺ: «من سأل بالله». «من» : شرطية للعموم.

قوله: «فأعطوه». الأمر هنا للوجوب ما لم يتضمن السؤال إثمًا أو ضررًا على المسئول؛ لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيمًا لله عز وجل الذي سأل به.

ولا يشترط أن يكون سؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال «الملك الذي جاء إلى الأبرص والأقرع والأعمى: «أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا».

قوله: «من استعاذ بالله، فأعيذوه». أي: قال: أعوذ بالله منك، فإنه يجب عليك أن تعيذه، لأنه استعاذ بعظيم، ولهذا لما قالت ابنة الجون للرسول ﷺ: أعوذ بالله منك، قال لها: «لقد عذت بعظيم أو معاذ، الحقي بأهلك»[1].

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال: أعوذ بالله منك.

وكذلك لو ألزمته بالإقلاع عن أمر محرم، فاستعاذ بالله منك، فلا تعذه؛ لما فيه من التعاون على الإثم والعدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصيًا، بل العاصي يستحق العقوبة لا الانتصار له وإعادته.

وكذلك من استعاذ بملجأ صحيح يقتضي الشرع أن يعيذه وإن لم يقل أستعيذ بالله، فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم: لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقام عليه الحد ولا القصاص في الحرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبايع، ولا يشترى منه، ولا يؤجر حتى يخرج.

بخلاف من انتهك حرمة الحرم بأن فعل الجناية في نفس الحرم، فإن الحرم لا

---

(١) البخاري: كتاب الطلاق / باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق (٤٩٥٥).

....

يعيذه لأنه انتهك حرمة الحرم.

قوله: «ومن دعاكم، فأجيبوه». «من» شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا الدعوة للإكرام، وليس المقصود بالدعوة هنا النداء.

وظاهر الحديث وجوب إجابة الدعوة في كل دعوة، وهو مذهب الظاهرية.

وجمهور أهل العلم: أنها مستحبة إلا دعوة العرس، فإنها واجبة؛ لقوله ﷺ فيها: «شر الطعام الوليمة يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها؛ ومن لم يجب، فقد عصى الله ورسوله»[1].

قوله: «من صنع إليكم معروفًا، فكافئوه». المعروف: الإحسان؛ فمن أحسن إليك بهدية أو غيرها، فكافئه، فإذا أحسن إليك بإنجاز معاملة وكان عمله زائدًا عن الواجب عليه، فكافئه. وهكذا، ولكن إذا كان كبير الشأن ولم تجر العادة بمكافأته، فلا يمكن أن تكافئه، كالملك والرئيس.. مثلاً إذا أعطاك هدية، فمثل هذا يدعى له، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضًا من حقه؛ فتكون مسيئًا له، والنبي ﷺ أراد أن تكافئه لإحسانه.

وللمكافأة فائدتان:

تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف.

أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له بصنع المعروف إليه، لأن من صنع إليك معروفًا فلا بد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه، زال عنك ذلك، ولهذا قال النبي ﷺ: «اليد العليا خير من اليد السفلى»[2]. واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائدة عظيمة لمن صنع له معروف، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله عز وجل، لكن بعض الناس يكون كريمًا جدًا، فإذا كافأته بدل هديته أكثر مما أعطيته، فهذا لا يريد مكافأة، ولكن يدعى له؛ لقوله ﷺ: «فإن لم تجدوا ما تكافئونه، فادعوا له»، وكذلك الفقير إذا لم يجد مكافأة الغني، فإنه يدعو له.

---

(١) البخاري: (٤٨٨٢)، ومسلم: (١٤٣٢).

(٢) البخاري: (١٣٦١)، ومسلم: (١٠٣٤).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: إِعَاذَةُ مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ.

«الثَّانِيَةُ»: إِعْطَاءُ مَنْ سَأَلَ بِاللهِ.

«الثَّالِثَةُ»: إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ.

«الرَّابِعَةُ»: المُكَافَأَةُ عَلَى الصَّنِيعَةِ.

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ الدُّعَاءَ مُكَافَأَةٌ لِمَنْ لَمْ يَقْدِرْ إِلَّا عَلَيْهِ.

«السَّادِسَةُ»: قَوْلُهُ: «حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ».

ويكون الدعاء بعد الإهداء مباشرة، لأنه من باب المسارعة إلى أمر الرسول ﷺ ولأن به سرور صانع المعروف.

قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه». «تروا»، بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجوز بالضم بمعنى تظنوا، أي: حتى تعلموا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا.

فيه مسائل:

الأولى: إعاذة من استعاذ بالله. وسبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شيء واجب فعلاً أو تركًا، فإنه لا يعاذ.

الثانية: إعطاء من سأل بالله. وسبق التفصيل فيه.

الثالثة: إجابة الدعوة. وسبق كذلك التفصيل فيها.

الرابعة: المكافأة على الصنيعة. أي: على صنيعة من صنع إليك معروفًا. وسبق التفصيل في ذلك.

الخامسة: أن الدعاء مكافأة لمن لا يقدر إلا عليه. وسبق أنه مكافأة في ذلك، وفيما إذا كان الصانع لا يكافأ مثله عادة.

السادسة: قوله: «حتى تروا أنكم قد كافأتموه». أي: أنه لا يقصر في الدعاء، بل يدعو له حتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قول الشيخ رحمه الله: «باب لا يُرد مَن سأل بِالله» لأنّ هذا فيه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وهو من كمال

....

التّوحيد، أمّا إذا رُدّ السائل بالله ففيه إساءة في حقّ الله سبحانه وتعالى.

وفي ردّه نقصٌ في التّوحيد.

والسؤال بالله جائز، قال تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ ومعنى ﴿تَسَآءَلُونَ بِهِۦ﴾ يعني: يسأل بعضُكم بعضًا بالله، وفي هذا الحديث: «مَن سأل بالله فأعطوه» فدلّ على جواز السّؤال بالله.

لكن من سُئل بالله لا يجوز له أن يردّ السائل إجلالاً لله سبحانه وتعالى.

قوله ﷺ: «مَن سأل بالله» كأن يقول: أسألُك بالله، وهذا معناه: الإقسام بالله عزّ وجلّ، كأنّه قال: والله لتُعطينّي هذا الشيء؛ لأنّ الباء باء القسم، فإذا قال: أسألُك بالله أي: أُقسم عليك بالله لتعطينّي كذا وكذا.

«فأعطوه» هذا أمرٌ من النّبي ﷺ بإعطاء مَن سأل بالله، وظاهرُه الوُجوب.

ولكن هذا فيه تفصيل؛ فإذا سأل بالله شيئًا له فيه حقّ كالذي يسأل من بيت المال؛ فكلّ مسلم له حقٌّ في بيت المال، فإذا سأل بالله وجب إعطاؤه، وكذلك إذا سألك مضطرٌّ إلى شيء من طعام أو كسوة أو غير ذلك مضطرًا، وأنت عندك فضل زائد عن حاجتك؛ فإنّه يجب عليك أن تُعطيه دفعًا لضرورته، وإنْ لم تعطه فقد عصيتَ الله.

أما إذا سأل شيئًا ليس له فيه استحقاق، وهو ليس محتاجًا ولا مضطرًّا؛ فهذا يستحبّ للمسئول أن يُعطيَه، فإن لم يعطِه في هذه الحالة الأخيرة يكون فاعلًا لمكروه، وإذا أعطاه كان فاعلًا لمستحبّ.

«ومن استعاذ بالله، فأعيذوه» استعاذ: طلبَ العوذ، وهو: اللُّجوء.

فمن استعاذَ بالله عن شرك فإنّه يجب عليك أن تُعيذَه، ولا يجوز لك ألا تُعيذَه.

«ومن دعاكم» أي: طلب منكم حضور مناسبة عنده؛ كأن دعاكم إلى حُضور طعام وليمة، فإنه يجب عليكم الإجابة، إلّا إذا كان هُناك مانع؛ لأنَّ هذا من حقّ الأُخوة.

وظاهرُ الحديث عامٌّ في كلّ دعوة، ولكن العلماء يقولون: إجابة الدعوة إنّما

....

هي خاصّة بولِيمة العُرس، أما ما عداها من الولائم فيستحبّ حُضورُها، أمّا وليمة العُرس فيجب حُضورُها لقوله ﷺ: «شرُّ الطعام طعامُ الوليمة؛ يُدعى إليها الأغنياء ويُمنع منها الفقراء» وقال: «ومن لا يجب فقد عصى الله ورسولَه». الشّاهدُ في قوله: «عصى الله ورسولَه»، فدلّ على وجوب الحُضور لولائم الزّواج.

«ومن صنع إليكم معروفًا فكافئوه» يعني: مَن أحسن إليك بإحسان مالي أو عملي أو قولي.

والمعروف: ضدّ المنكر، والمراد به هنا: الخير، يعني: من أسدى إليك خيرًا من مال أو جاه أو كلام طيِّب أو غير ذلك، فكلّ هذا من المعروف، فإنّه يجب عليك أن تكافئه، بمعنى: أن تفعل له من المعروف مثل ما عمِل لك، وتقابل إحسانه بالإحسان، وهذا من باب المكافأة من ناحية، وأيضًا فيه قطعٌ للمنّة من ناحية أُخرى، لأنك لو لم تكافئه بقيَ له منّة عليك، ورِقٌّ منك له.

«فإن لم تجدوا ما تكافئونه فادعوا له» أي: ادعوا له بالخير والتيسير والتوفيق.

«حتى تُرَوْا» بضمّ التّاء، يعني: تظنُّوا، ويجوز الفتح، بمعنى: تعلَموا.

فدلّ هذا: على أنّ المحسِن يكافأُ على إحسانِه إمّا بالقول وإمّا بالفعل.

فهذا الحديث فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيه ما ترجم له المصنِّف وهو: لا يُرَدّ مَن سأل بالله.

المسألة الثانية: فيه وُجوب إعاذة من استعاذ بالله وعدم المساس به بمكروه، لأن هذا يكون تعدِّيًا على من استجارَ بالله سبحانه وتعالى، وذلك من نقص التّوحيد.

المسألة الثالثة: فيه وُجوب إجابة دعوة المسلم لأخيه المسلم، لِمَا في ذلك من جَبْر القُلوب، وتثبيت المحبّة وإزالة النُّفرة بين الإخوة، أمّا إذا لم يُجب، فهذا يسبِّب العكس، يسبِّب النُّفرة ويسبِّب التباغُض بين النّاس والقطيعة.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على وجوب مكافأة صانع المعروف بمثل معروفِه إذا أمكن، فإن لم يمكن فإنّه يكافئه بالدعاء له بالخير.

١٣٣) ٥٦- بابٌ

لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ عَنْ جَابِرٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الجَنَّةُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

المسألة الخامسة: في الحديث: النّهي عن عدم مكافأة صانع المعروف، لأنّ ذلك من صفات اللّئيم التي لا تليق بالمسلم.

١٣٣) الشــرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** هذا فيه: أنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة.

عن جابر مرفوعًا: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة». رواه أبو داود.

وذلك لأن الجنة هي أعلى المطالب، وفيها النظر إلى وجه الله سبحانه، وفيها النعيم المقيم، ووجه الله له شرفه العظيم، فلا يسأل به إلا الجنة.

وكذلك ما يقرب إليها كأن يسأل الإخلاص والتوفيق للخير والاستقامة على الطاعة، فما يقرب إلى الجنة هو من طلب الجنة.

وهذا من كمال التوحيد والإيمان ألا يسأل بوجه الله إلا الجنة أو ما يقرب إليها كالعمل الصالح، والاستقامة، والعافية من مضلات الفتن.

وإسناد الحديث فيه لين وضعف؛ لكنه ينجبر بما جاء في الروايات الأخرى من النهي عن السؤال بوجه الله، فيكون هذا خاصًا بالسؤال بوجه الله الكريم، أو ما يقرب إليها، وما يدعو إليها.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة. اختلف في المراد بذلك على قولين:

القول الأول: أن المراد: لا تسألوا أحدًا من المخلوقين بوجه الله، فإذا أردت أن تسأل أحدًا من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسأل بوجه الله إلا الجنة والخلق لا يقدرون على إعطاء الجنة فإذًا لا يسألون بوجه الله مطلقًا، ويظهر أن المؤلف يرى هذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد «باب لا يرد من سأل بالله».

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنْ أَنْ يُسْأَلَ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا غَايَةُ المَطَالِبِ.

«الثَّانِيَةُ»: إِثْبَاتُ صِفَةِ الوَجْهِ.

القول الثاني: أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخلولها، فلا حرج أن تسأل بوجه الله، وإن سألت من أمور الدنيا، فلا تسأله بوجه الله، لأن وجه الله أعظم من أن يسأل به لشيء من أمور الدنيا.

فأمور الآخرة تسأل بوجه الله، كقولك مثلاً: أسألك بوجهك أن تنجيني من النار، والنبي ﷺ استعاذ بوجه الله لما نزل قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾، قال: أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾، قال أعوذ بوجهك، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام: ٦٥]، قال: هذه أهون أو أيسر»[١].

ولو قيل: إنه يشمل المعنيين جميعًا، لكان له وجه.

وقوله: «بوجه الله». فيه إثبات الوجه لله عز وجل، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السلف، فالقرآن في قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، وقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ [الرعد: ٢٢]، والآيات كثيرة.

والسنة كما في الحديث السابق: «أعوذ بوجهك».

الوجه.

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن أن يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب.

تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته، فإنه من الأدب ألا تسأل بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة: الفوز بالجنة، أو النجاة من النار.

الثانية: إثبات صفة الوجه.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب عقده الشيخ رحمه

---

(١) البخاري: كتاب التفسير / باب ﴿قُلْ هُوَ القَادِرُ..﴾ (٤٣٥٢).

....

الله في «كتابِ التّوحيد»؛ لأنّ تعظيم صفات الله سبحانه وتعالى من تعظيم الله، وتعظيمُها من التّوحيد، لأنه تعظيمٌ لله سبحانه وتعالى، وأمّا عدمُ تعظيمِها، فإنّه تنقُّصٌ للتّوحيد، لأنّه تنقُّصٌ لله عزّ وجلّ.

«ووجهُ الله» صفةٌ من صفاتِه سبحانه وتعالى الذّاتيّة، تواتَرتْ بإثباتِه الأدلّة في كتاب الله وفي سنّة رسوله ﷺ وأجمع عليه علماء السنّة والجماعة: قال الله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ فأثبت له وجهًا ووصفه بالجلال ووصفه بالإكرام.

كذلك قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ۚ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾، فقوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾.

والسنّة: فيها أحاديث كثيرة في إثبات الوجه لله عزّ وجلّ، مثل الحديث الذي ساقَه المصنِّف: «لا يُسأل بوجه الله إلّا الجنة»، ومثل حديث: «أعوذُ بنور وجهك الذي أشرقت له الظُّلُمات، وصلح عليه أمرُ الدنيا والآخرة».

ومثل أحاديث في هذا الباب كثيرة، ذكرها علماء السنّة والمصنِّفون في العقائد، الذين يسوقون الآيات والأحاديث، مثل كتاب «التّوحيد» لابن خُزيمة، و«كتاب السنّة» للآجري، وكتاب «السنة» لابن أبي عاصم، وغيرها من الكتب المؤلّفة في التّوحيد، كلُّهم يذكُرون النُّصوص الدّالة على صفاتِ الله سبحانه وتعالى.

فقوله ﷺ: «لا يُسأل بوجه الله» يثبت أنّ لله وجهًا، لكن هذا الوجه عظيم يعظَّم، ولا يُسأل به الأشياء الحقيرة كمتاع الدنيا وأطماع الدنيا، وإنّما يُسأل به شيءٌ عظيم يليق بعظمتِه وهو الجنّة، لأنّ الجنة هي أعظم المطالِب، وهي غاية المطالب، فهي شيءٌ عظيم، أو ما يوصِّلُ إلى الجنة من الأعمال الصالحة، وفي الحديث: «أسألُك الجنة وما قرّب إليها من قول وعمل، وأعوذ بك من النار وما قرّب إليها من قول وعمل».

فلا يُسأل بوجه الله إلّا الجنّة تعظيمًا له أن يُسأل به شيءٌ من المحقَّرات.

وكلُّ ما دون الجنّة فإنّه حقير، إلّا إذا كان يوصِّل إلى الجنّة من الأعمال

١٣٤) ٥٧- بابٌ

ما جَاءَ فِي اللَّوِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] وقَوْلُهُ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨].

الصّالحة، فإنّه يُسأل بوجه الله.

ففي هذا الحديث مسألتان:

المسألة الأولى: فيه إثبات الوجه لله سبحانه وتعالى.

المسألة الثانية: فيه النّهي عن سؤال الأشياء الحقيرة بوجه الله عزّ وجلّ، وكلّ ما عدا الجنّة فإنّه حقير، فلا يُسأل بوجه الله عزّ وجلّ.

بقي أنّ هذا الحديث رواه أبو داود، وفي إسناده: سليمان بن معاذ، وهو ضعيف، فهو حديث ضعيف، فكيف أورده المصنّف هنا؟

فنقول: المصنّف رحمه الله في هذا الكتاب يستدل بالأحاديث الصحيحة أو الأحاديث الحسنة، أو الأحاديث الضعيفة التي لها شواهد تؤيدها، وهذا الحديث له شواهد في إثبات الوجه لله عزّ وجلّ من الكتاب والسنّة.

١٣٤) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أي: في حكم هذه الكلمة، وهل تجوز أو لا تجوز، والمقصود أنه لا ينبغي استعمالها لمعارضة القدر، بل يجب التسليم والصبر وعدم المعارضة للقدر بكلمة «لو»، عند موت قريب ومرض أو مصيبة.

وقوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَـٰهُنَا﴾.

هذا ذم لهم وعيب.

﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ﴾.

فدل هذا على أنه لا يجوز استعمالها عند معارضة القدر في مرض أو هزيمة، أو نحو ذلك، وإن هذا من شأن المنافقين، لأن قدر الله ماضٍ وشأنه نافذ، وإنما شرع الأسباب لحكمة بالغة، فعلى المسلم أن يتعاطى الأسباب؛ فإذا نزل القضاء،

....

فليس له أن يعترض بعد ذلك.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: في «اللو».**

دخلت «أل» على «لو» وهي لا تدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك:

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

لأن المقصود بها اللفظ، أي: باب ما جاء في هذا اللفظ.

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشيء؛ لأن «لو» تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول: أن تستعمل في الاعتراض على الشرع، وهذا محرم، قال الله تعالى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٦٨] في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلاً اعترض المنافقون على تشريع الرسول ﷺ، وقالوا: لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خيرٌ من شرع محمد، وهذا محرم وقد يصل إلى الكفر.

الثاني: أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضًا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا﴾ [آل عمران: ١٥٦]؛ أي: لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله.

الثالث: أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضًا؛ لأن كل شيء يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه، لأن الندم يكسب النفس حزنًا وانقباضًا، والله يريد منا أن نكون في انشراح وانبساط، قال ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإنَّ لو تفتح عمل الشيطان».

مثال ذلك: رجل حرص أن يشتري شيئًا يظن أن فيه ربحًا فخسر، فقال: لو أني ما اشتريته ما حصل لي خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرًا، وقد نهي عنه.

الرابع: أن تستعمل في الاحتجاج بالقدر علي المعصية، كقول المشركين: ﴿لَوْ

....

شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨]، وقولهم: ﴿لَوۡ شَآءَ ٱلرَّحۡمَٰنُ مَا عَبَدۡنَٰهُمۗ﴾ [الزخرف: ٢٠]، وهذا باطل.

الخامس: أن تستعمل في التمني، وحكمه حسب التمني: إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر، وفي الحديث عن النبي ﷺ في قصة النفر الأربعة قال أحدهم: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان، فهذا تمنى خيرًا، وقال الثاني: «لو أن لي مالاً لعملت بعمل فلان «فهذا تمنى شرًا فقال النبي ﷺ في الأول فهو بنيته فأجرهما سواء، وقال في الثاني: «فهو بنيته، فوزرهما سواء»[1].

السادس: أن تستعمل في الخبر المحض.

وهذا جائز، مثل: لو حضرت الدرس لاستفدت، ومنه قوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما سقت الهدي، لأحللت معكم»[2]. فأخبر النبي ﷺ أنه لو علم أن هذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدي ولأحل، وهذا هو الظاهر لي.

وبعضهم قال: إنه من باب التمني، كأنه قال: ليتني استقبلت من أمري ما استدبرت حتى لا أسوق الهدي.

لكن الظاهر: أنه خبر لما رأى من أصحابه، والنبي ﷺ لا يتمنى شيئًا قدر الله خلافه.

وقد ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

الآية الأولى: قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ﴾. الضمير للمنافقين.

قوله: ﴿مَّا قُتِلۡنَا﴾. أي: ما قتل بعضنا، لأنهم لم يقتلوا كلهم، ولأن المقتول لا يقول.

قوله: ﴿لَوۡ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾. ﴿لَوۡ﴾: شرطية، وفعل الشرط: ﴿كَانَ﴾، وجوابه: ﴿مَّا قُتِلۡنَا﴾، ولم يقترن الجواب باللام، لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيًا عدم الاقتران، فقولك: لو جاء زيد ما جاء عمرو، أفصح من قولك: لو جاء زيد

---

(١) الإمام أحمد (٤/ ٢٣٠، ٢٣١).

(٢) البخاري (٦٨٠٢)، ومسلم: (١٢١٦).

....

لما جاء عمرو، وقد ورد قليلاً اقترانها مع النفي، كقول الشاعر:

ولو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

قوله: ﴿هَٰهُنَا﴾. أي: في أحد.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. هذا رد عليهم، فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم. وقولهم: ﴿لَّوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾. هذا من الاعتراض على الشرع، لأنهم عتبوا على الرسول ﷺ حيث خرج بدون موافقتهم، ويمكن أن يكون اعتراضًا على القدر أيضًا: أي لو كان لنا من حسن التدبير والرأي شيء ما خرجنا فنقتل.

قوله: ﴿وَقَعَدُوا﴾. الواو إما أن تكون عاطفة والجملة معطوفة على ﴿قَالُوا﴾، ويكون وصف هؤلاء بأمرين:

بالاعتراض على القدر بقولهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾.

وبالجبن عن تنفيذ الشرع «الجهاد» بقولهم: ﴿وَقَعَدُوا﴾، أو تكون الواو للحال والجملة حالية على تقدير «قد»، أي: والحال أنهم قد قعدوا، ففيه توبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجوا مع الناس، لكن فيهم الاعتراض على المؤمنين وعلى قضاء الله وقدره.

قوله: ﴿لِإِخْوَانِهِمْ﴾. قيل: في النسب لا في الدين، وقيل: في الدين ظاهرًا، لأن المنافقين يتظاهرون بالإسلام، ولو قيل: إنه شامل للأمرين، لكان صحيحًا.

قوله: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾. هذا غير صحيح، ولهذا رد الله عليهم بقوله: ﴿قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾، وإن كنتم قاعدين، فلا تستطيعون أيضًا أن تدرءوا عن أنفسكم الموت.

فهذه الآية والتي مثلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله، كما أنه يجب أن يكون محكومًا بشرع الله.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وله: «باب ما جاء في اللّو» لو: حرفٌ يسمِّيه النُّحاة حرف امتناع لامتناع، تقول- مثلاً-: لو جاء زيدٌ لأكرمتُك، لو

....

أطعتني لأكرمتُك، فامتنع الإكرام لامتناع المجيء أو امتناع الطّاعة.

أما دُخول (أل) عليه فليس هو للتعريف، لأنّ الحرف لا يعرّف، وإنّما التعريف من خواصّ الأسماء، فـ(أل) هنا زائدة، فقولُه: «باب ما جاء في اللو» يعني: من النّهي عن ذلك، وذلك: لأنّ الإيمان بالقدَر هو أحد أركان الإيمان الستة، قال ﷺ: «الإيمان: أنّ تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه»، فقوله: «تؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه»، دليلٌ على أنّ الإيمان بالقدَر من أركان الإيمان الستّة.

قال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، كلُّ شيءٍ فإنّ الله خلقه بقدَر، مقدَّرٌ خلقُه ومقدَّرٌ إيجادُه، ومقدَّرٌ كلُّ تفاصيلِه، لا يوجد في هذا الكون شيء إلّا وهو مقدَّر من خير أو شر، من ضرر أو نفع، من صلاح أو فساد، من كفر أو إيمان، كلُّه مقدّر من الله سبحانه وتعالى.

وفي الحديث الصحيح: «إن الله كتب مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ﴾ يعني: في اللوح المحفوظ، ﴿مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾ أي: أنّها مكتوبة في اللوح المحفوظ قبل أن يخلقها الله عزّ وجلّ، وقبل أن تحدُث في وقتها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ إذنِ الله الكوني القدري، يعني: بقدره ومشيئته سبحانه وتعالى، فكل شيء مقدّر من الله سبحانه وتعالى.

وكلمة «لو» إذا جاء بها الإنسان في سياق الجزع والسخط على ما يحصل له، فإن هذا نقص في التّوحيد، وجزع من القدر، لأن الواجب على المسلم: أن يرضى بقضاء الله وقدره، ولا يجزع ولا يسخط، وأن يعلم أنه لابد أن يحصل له ذلك شاء أم أبى جزع أم لم يجزع، لا بد أن يحصل ما قدره الله سبحانه وتعالى.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾»

....

﴿يَقُولُونَ﴾ يعني: المنافقين.

وهذه الآية جاءت في سياق غزوة أحد في سورة آل عمران، وما حصل على المسلمين فيها من المصيبة التي حلت بهم من استشهاد كثير منهم وانتصار عدوهم عليهم بسبب أنهم خالفوا أمر الرسول ﷺ.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم﴾ يعني: تقتلونهم، ﴿بِإِذْنِهِۦ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾، يعني: الرُّماة، ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ﴾ من النّصر ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾ هذا تطمين للمسلمين، بعد العتاب طمأنهم بأنّهم قد عفي عنهم لِمَا لهم من السّوابق والفضل، لكن هذه عقوبة على المعصية، ﴿وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، إلى قوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ﴾ كان المسلمون في حالة الخوف الشديد، وقد أنزل الله عليهم النّوم، لأنّ النّوم أمان، فصار النوم فارقًا بين المؤمنين وبين المنافقين، المؤمنون أصابهم النوم وهذا أمانٌ من الله سبحانه وتعالى، والمنافقون ما ذاقوا غَمْضًا من الفزع ومن الخوف والجُبن.

﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ هذا هو السّبب، المؤمن يظنّ بالله ظنّ الحقّ وأنّه قادمٌ على ربّه، وما عند الله خيرٌ له وأبقى، فهو يظنّ بربّه ظنّ الحق يحسِن الظنّ بالله عزّ وجلّ، فلذلك لا يخاف من الموت، لأنّه يؤمن بالله عزّ وجلّ، ويحسن الظنّ بالله وأنّه قادمٌ على ربٍّ كريم ووعدٍ من الله سبحانه وتعالى، فهو مطمئنّ، وأما المنافقون فإنهم يظنون بالله ظن السوء.

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ هذا هو محلّ الشّاهد: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾، أرجعوا سبب القتل إلى أنهم ليس لهم تدبير، ولو كان لهم تدبير ما قُتلوا. فردّ الله عليهم بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ

....

لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾ فالبقاء في البيوت لا يمنع من الموت، فالذي مكتوبٌ عليه الموت في أيّ مكان سيخرجُ ويذهب إلى مكانه الذي مكتوبٌ أنه يقتل أو يموت فيه.

فهذا هو محل الشاهد: «ل»، لأنه قال هذه الكلمة من باب الجزع والتسخُّط لقضاء الله وقدره وعدم الرضى بقضاء الله وقدره.

وإذا قيلت «لو» في مثل هذا الحال فإنَّها لا تجوز.

قال: «وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾» هذه قالها عبدالله ابن أُبيّ -رأس المنافقين.

﴿قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ﴾ يعني: من المؤمنين الذين خرجوا وقُتلوا في أُحد، وكيف سمّاهم إخوانهم؟ هل يكون المؤمن أخًا للمنافق؟ هذا حسَب الظّاهر، لأنّ المنافق في الظّاهر مؤمن، فهي أُخوّة بحسَب الظّاهر، لأنّ المنافق يعامَل معاملة المؤمن في الظّاهر، وتوكَل سريرَته إلى الله سبحانه وتعالى، فهو سمّاهم إخوانهم بحسب ما أظهروا من الإيمان.

وقيل: إخوانهم في النّسب؛ لأنّ عبد الله بن أُبيّ من قبيلة الأنصار ومن أهل المدينة فهم إخوانهم في النّسب، والله أعلم.

وقد ردّ الله عليه بقوله: ﴿قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ إذا كنتم تزعمون أنكم تمنعون الموت من هؤلاء فامنعوه عن أنفسكم.

﴿قُلْ فَادْرَأُوا﴾ أي: امنعوا، ﴿عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ من أنهم لو كانوا عندكم ما ماتوا وما قتلوا.

الشّاهد في قوله: ﴿لَّوْ كَانُواْ عِندَنَا﴾، هذا فيه استعمال ﴿لَوْ﴾ في مقام الجزع والتسخُّط وعدم الإيمان بالقدر، فالموت الذي حصل عليهم -بزعمه- ليس هو بقضاء الله وقدره وإنّما هو بسبب الخُروج، وأنّ البقاء في المدينة سببٌ للسلامة، ولا يرجِع هذا إلى القضاء والقدر، والسلامة والقتل كلاهما راجع إلى القضاء والقدر سواء بقوا في المدينة أو خرجوا إلى أُحد، فمن كتب الله أنّه يموت فإنّه

١٣٥) فِي الصَّحِيحِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنفَعُكَ، واسْتَعِنْ بِاللهِ ولا تَعْجِزَنَّ، وإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلا تَقُلْ لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ لَكَانَ كَذَا وكَذَا؛ ولَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ ومَا شَاءَ فَعَلَ، فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيطَانِ».

سيموت في المدينة أو في أُحد، ومن كتب الله أنّه يبقى فسيبقى سواءً في المعركة أو في المدينة، فالأمر راجع إلى قضاء الله وقدره.

١٣٥) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وفي الصحيح عن أبي هريرة مرفوعًا: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير احرص على ما ينفعك، واستعن بالله».

فإذا أصابك شيء فقل: (قَدَرُ الله وما شاء فعل)، وبعضهم ضبطها (قَدَّرَ الله وما شاء فعل)، أي: قَدَّرَ هذا الشيء الواقع، والمعنى الأول أظهر، أي: إن هذا الواقع هو قدر الله أي: مقدور الله وما شاء الله فعل.

«لو تفتح عمل الشيطان»: أي: تفتح على العبد عمل الشيطان، أو وساوسه وتشكيكه، فينبغي للمؤمن أن يتجنبها حتى لا يقع في حبائل الشيطان وإملائه ما لا ينبغي؛ لأن هذه أمور لله هو الذي قدرها، ولهذا قال تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾.

وقال ﷺ: «ما من عبد يصاب بمصيبة فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللَّهُمَّ أجرني في مصيبتي، وأخلف لي خيرًا منها إلا آجره الله في مصيبته، وأخلفه خيرًا منها»[1] فمثلاً إذا عولج مريض عند طبيب، ثم مات لا يقولوا: لو ذهبت به إلى طبيب آخر أو الخارج.. إلخ، بل يقول: قدر الله وما شاء فعل، وإنا لله، وإنا إليه راجعون، ولا يعترض بـ (لو).

---

(١) رواه مسلم (٩١٨).

....

أما إذا كانت (لو) لبيان ما ينبغي كقوله ﷺ: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت..»[1] فهذا ليس اعتراضًا، بل هو لبيان الأفضل، كقولك: لو علمت أن هذا واقع؛ لفعلت كذا وكذا مما يبين للناس أنه الأفضل، وكقول: لو علمت فلانًا مريضًا لزرته.

وما أشبه ذلك مما يخبر به عن أسفه على ما فات، وليس على سبيل الاعتراض، فهذا ليس داخلاً في الباب، وإنما الممنوع الاعتراض على القدر.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «القوي». أي: في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه، يعني: ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه، يعني: العمل الصالح من الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحزم في العبادات وما أشبه ذلك.

وهل يدخل في ذلك قوة البدن ؟

الجواب: لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه، لأن «القوي» وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد: القوي في إيمانه أو ما يقتضيه، ولا شك أن قوة البدن نعمة، إن استعملت في الخير فخير، وإن استعملت في الشر فشر.

قوله: «خير وأحب إلى الله». خير في تأثيره وآثاره، فهو ينفع ويقتدى به، وأحب إلى الله باعتبار الثواب.

قوله: «من المؤمن الضعيف». وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن.

قوله: «وفي كل خير». أي: في كل من القوي والضعيف خير، وهذا النوع من التذييل يسمي عند البلاغيين بالاحتراس حتى لا يظن أنه لا خير في الضعيف.

قوله: «احرص على ما ينفعك». الحرص: بذلك الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا.

---

(١) رواه البخاري (١٧٨٥)، ومسلم (١٢١٨) من حديث جابر.

....

وأفعال العباد بحسب السَّبر والتقسيم لا تخلو من أربع حالات:

نافعة، وهذه مأمور بها.

ضارة، وهذه محذر منها.

فيها نفع وضرر.

لا نفع فيها ولا ضرر، وهذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغالب ألا تقع إلا وسيلة إلى ما فيه أمر أو نهي، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد.

والعاقل يشح بوقته أن يصرفه فيما لا نفع فيه ولا ضرر، قال النبي ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خيرًا أو ليصمت»(١).

قوله: «واستعن بالله». الواو تقتضي الجمع فتكون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل، فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله.

والاستعانة: طلب العون بلسان المقال، كقولك: اللَّهُمَّ أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله عند شروعك بالفعل.

قوله: «ولا تعجزن». فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و«لا»: ناهية، والمعنى: لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعني: لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشيء غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي ﷺ: «صل قائمًا، فإن لم تستطع، فقاعدًا، فإن لم تستطع، فعلى جنب»(٢).

قوله: «إن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا».

هذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هذا الحديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى: الحرص علي ما ينفع.

والمرتبة الثانية: الاستعانة بالله.

---

(١) البخاري: الأدب/ باب إكرام الضيف (٥٦٧٢)، ومسلم: الإيمان/ باب الحث على إكرام الجار (٤٧).

(٢) البخاري: كتاب تقصير الصلاة / باب إذا لم يطق قاعدًا صلى على جنب (١٠٦٦).

....

والمرتبة الثالثة: المضي في الأمر والاستمرار فيه وعدم التعاجز، وهذه المراتب إليك.

المرتبة الرابعة: إذا حصل خلاف المقصود، فهذه ليست إليك، وإنما هي بقدر الله، ولهذا قال: «وإن أصابك..»، ففوض الأمر إلى الله تعالى.

قوله: «وإن أصابك شيء». أي: مما تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع.

قوله: «كذا»، كناية عن مبهم، وهي مفعول لفعلت. قوله: «لكان كذا». فاعل كان، والجملة جواب لو.

قوله: «قدر الله». خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذا قدر الله.

وقدر بمعنى مقدور، لأن قدر الله يطلق على التقدير الذي هو فعل الله، ويطلق على المقدور الذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا، لأن القائل يتحدث عن شيء وقع عليه، فقدر الله؛ أي: مقدوره، ولا مقدر إلا بتقدير، لأن المفعول نتيجة الفعل.

قوله: «فإن لو تفتح عمل الشيطان». «لو» اسم إن قصد لفظها، أي: فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.

وعمله: ما يلقيه في قلب الإنسان من الحسرة والندم والحزن، فإن الشيطان يحب ذلك، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّجْوَىٰ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ لِيَحْزُنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيْسَ بِضَآرِّهِمْ شَيْـًٔا إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [المجادلة: ١٠]، حتى في المنام يريه أحلامًا مخيفة ليعكر عليه صفوه ويشوش فكره، وحينئذ لا يتفرغ للعبادة على ما ينبغي، ولهذا نهى النبي ﷺ عن الصلاة حال تشوش الفكر، فقال ﷺ: «لا صلاة بحضرة طعام، ولا وهو يدافعه الأخبثان»[١]، فإذا رضي الإنسان بالله ربًا، وقال: هذا قضاء الله وقدره، وأنه لابد أن يقع، اطمأنت نفسه وانشرح صدره.

وظاهر الحديث: أن الشيطان نفسه يجري من ابن آدم مجرى الدم، وهذا ليس ببعيد على قدرة الله عز وجل، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسم، إذا

---

(١) مسلم: كتاب المساجد / باب كراهة الصلاة بحضرة الطعام (٥٦٠).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ الآيَتَيْنِ فِي آلِ عِمْرَانَ.

«الثَّانِيَةُ»: النَّهْيُ الصَّرِيحُ عَنْ قَوْلِ: لَوْ، إِذَا أَصَابَكَ شَيْءٌ.

«الثَّالِثَةُ»: تَعْلِيلُ المَسْأَلَةِ بِأَنَّ ذَلِكَ يَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ.

قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء.

ومن نعمة الله أن للشيطان ما يضاده، وهي لَمَّةُ المَلَكِ، فإن للشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وُفِّق غلبت عنده لمة الملك لمة الشيطان، فهما دائمًا يتصارعان، نفس مطمئنة ونفس أمارة بالسوء، وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير الآيتين في آل عمران. وهما:

الأولى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾.

الثانية: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ﴾، أي: ما أخرجنا وما قتلنا، ولكن الله تعالى: أبطل ذلك بقوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ﴾، والآية الأخرى: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْۗ﴾، فأبطل الله دعواهم هذه بقوله: ﴿فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، أي: إن كنتم صادقين في البقاء وأن عدم الخروج مانع من القتل، فادرءوا عن أنفسكم الموت، فإنهم لن يسلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين.

الثانية: النهي الصريح عن قول «لو» إذا أصابك شيء. لقول الرسول ﷺ: «فإن أصابك شيء، فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا».

الثالثة: تعليل المسألة بأن ذلك يفتح عمل الشيطان. فالنهي عن قول «لو» علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بذلك ويندم ويحزن.

الرابعة: الإرشاد إلى الكلام الحسن. ويعني قوله: «ولكن قل: قدر الله وما

«الرَّابِعَةُ»: الإِرْشَادُ إِلَى الكَلامِ الحَسَنِ.
«الخَامِسَةُ»: الأَمْرُ بِالحِرْصِ عَلَى مَا يَنْفَعُ مَعَ الاسْتِعَانَةِ بِاللهِ.
«السَّادِسَةُ»: النَّهْيُ عَنْ ضِدِّ ذَلِكَ وهُوَ العَجْزُ.

شاء فعل».

الخامسة: الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله، لقوله ﷺ: «احرص على ما ينفعك واستعن بالله».

السادسة: النهي عن ضد ذلك، وهو العجز. لقوله: «ولا تعجزن»، فإن قال قائل: العجز ليس باختيار الإنسان، فالإنسان قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهى النبي ﷺ عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟!

أجيب: بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشيء، لأنه هو الذي في مقدور الإنسان.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قال: «وفي الصحيح» يعني: في «صحيح مسلم».

قوله: «المؤمن القويّ» المراد بالقويّ هنا: قوّة الإيمان أي: القويّ في إيمانه، وكذلك القويّ في بدنه ورأيِه وتدبيرِه، فالقوّة تشمل قوّة الإيمان، وهذا هو الأصل والأساس، وقوّة الرأي والتدبير، وقوّة البدن أيضًا، لأنّه ينفع بقوّته، ينفع نفسَه وينفع غيرَه، فنفعُهُ يكون متعدّيًا، فهو «خيرٌ» أفعل تفضيل، يعني: أكثرُ خيرًا.

«وأحبُّ إلى الله» هذا فيه: إثبات المحبّة لله عزّ وجلّ، وأنّه يحبّ المؤمن القويّ. والمحبّة من صفات الله سبحانه وتعالى.

«من المؤمن الضّعيف» الضعيف في إيمانه، وكذلك الضعيف في إرادتِه وتدبيرِه وبدنه، لأنّ نفعَه يكون قليلاً لنفسه ولغيره.

قال: «وفي كلٍّ خير» المؤمن كلُّه خير، المؤمن القويّ والمؤمن الضعيف، كلّهم فيه خير، لكن المؤمن القويّ خيرهُ متعدٍّ إلى غيره، والمؤمن الضعيف خيرهُ قاصرٌ على نفسه لا يتعدّاه.

وقوله: «احرص» بكسر الرّاء، ويجوز الفتح، والحرص معناه: المبالَغة في

....

طلب الشيء.

ومعنى قوله: «احرص على ما ينفعك» يعني: بالغ في طلبهِ، وابذل الوُسع في تحصيلِه، فإنّ النفع مطلوب.

وفي ضمن ذلك النّهي عن الحرص على الشيء الذي لا ينفع.

ثم قال: «واستعن بالله» يعني: لا تعتمد على الحرص فقط ولكن مع الحرص استعن بالله سبحانه وتعالى، لأنّه لا غنى لك عن الله، ومهما بذلْت من الأسباب فإنّها لا تنفع إلّا بإذن الله سبحانه وتعالى، فلذلك جمع بين الأمرين: فعل السبب مع الاستعانة بالله عزّ وجلّ.

ثم قال: «ولا تعجَزن» بفتح الزاي، ويجوز الكسر، والنون: نون التوكيد الثّقيلة. هذا نهي، نهيٌ عن العجز.

والعجز معناه: الكسل والإهمال، وليس العجز الجسمي، فالإنسان إذا عجز عجزًا جسميًا لا يؤاخَذ لأنّه ليس باختيارِه، لكن المراد: عجز الكسل وعجز الإهمال.

ثم قال ﷺ: «وإنْ أصابك شيءٌ» يعني: ممّا تكره، بعدما تحرص على ما ينفعك وتستعين بالله وتترُك العجز، بعدما تعمل هذه الأسباب إذا أصابك شيء عكس ما تُريد وعكس ما تطلُب فلا تجزع واعلم أنّ هذا بقضاء الله وقدره، وأنّ الله لو قدّر لك شيئًا لحصل ولكنّه لم يقدّر لك، ولا تدري ما الخيرة فيه، لعلّ الله حبسه عنك لخير أرادَه بك، ربّما أن الإنسان يحرص على شيء لو حصل له لأهلَكه، فالله يمنعه عنه رحمةً به: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ﴾.

«فلا تقل: لو أنّي فعلتُ كذا لكان كذا وكذا» لا ترجع هذا إلى تقصيرِك، ولكن أرجِعه إلى قضاء الله وقدرِه.

«ولكن قل: قدَّر الله وما شاء فعل» يعني: أرجِع هذا إلى قضاء الله وقدره، فالذي منعه عنك ليس هو فعلُك أو تركك، وإنّما الذي منعه عنك هو الله سبحانه

....

وتعالى، ولا تدري لعلّ الله أراد بك خيرًا وصرف عنك شرًا، فارْض بقضاء الله وقدره.

فقول: «قدر الله وما شاء فعل» يحلّ عن المسلم مشاكل كثيرة.

ثم قال ﷺ: «فإنّ لو» أي: قول: «لو».

«تفتح عمل الشيطان» إذا أرجعتَ هذا إلى غير القضاء والقدر دخل الشيطان، وصار يوسوس لك ويلقي عليك الأوهام ويُلقي عليك القلق النفسي، وتُصبح في همٍّ وغم وحزن، أما إذا أغلقتَ هذا الباب وقلتَ: «قضاءُ الله وقدرُه»، أو «قدَّر الله وما شاء فعل» فإنّك تُغلق باب الشيطان.

فـ «لو» مفتاح لباب الشيطان، «قدّر الله وما شاء فعل» إغلاق لباب الشيطان، تستريح من شرِّه ومن هُمومه وأحزانِه ووساوسه.

وفي الباب مسائل:

المسألة الأولى: وُجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّه الركن السّادس من أركان الإيمان، وهو من علامات التّوحيد. وعدم الإيمان بالقضاء والقدر يتنافى مع التّوحيد وهو من علامات النفاق.

المسألة الثانية: يُستفاد من الآيتين والحديث: وُجوب ترك «لو» عند نُزول المصائب والمكروهات، لا يقول: «لو أنّي فعلتُ كذا وكذا ما حصلت هذه المصائب»، بل يقول: هذه المصائب مقدَّرةٌ من الله سبحانه وتعالى، فيرضى بقضاء الله وقدره.

المسألة الثالثة: فيه الحثّ على فعل الأسباب، لقوله ﷺ: «احرص على ما ينفعُك».

المسألة الرابعة: فيه النّهي عن الاعتماد على الأسباب ووُجوب الاستعانة بالله تعالى: «واستعن بالله».

المسألة الخامسة: فيه النّهي عن الإهمال والكسل وتعطيل الأسباب.

المسألة السادسة: فيه علة النّهي عن قول «لو» وهو لأنّها تفتح عمل الشّيطان، وأمّا الاستعانة بالله والحرص على ما ينفع وترك التلوُّم بقول «لو» فإنّ هذا يُغلق باب

١٣٦) ٥٨- بابٌ

النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ، عَنْ أُبَيِّ بنِ كَعْبٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «لا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ، وخَيْرِ مَا فِيهَا، وخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ، وشَرِّ مَا فِيهَا، وشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ» صَحَّحَهُ التِّرْمِذِيُّ.

الشّيطان عن الإنسان.

المسألة السابعة: فيه فضل المؤمن عمومًا، وأن المؤمن القوي أفضل من المؤمن الضعيف.

المسألة الثامنة: فيه إثبات محبة الله للمؤمنين وأنها تتفاضل بحسب قوتهم وضعفهم في الإيمان وغيره.

١٣٦) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** لما كان سب الريح وغيرها من المخلوقات نقصًا في الإيمان وقدحًا في التوحيد نبه المؤلف على ذلك؛ ليعلم المؤمن أن سائر المعاصي تنقص التوحيد وتنقص الإيمان وتضعفه، والإيمان يزيد وينقص، والتوحيد يزيد وينقص، وسب الريح ينقص الإيمان، لأن الريح مخلوق مدبر يرسل بالخير والشر، فلا يسب الريح، بل يعمل المؤمن بما أمره به الرسول ﷺ في الحديث: عن أبي بن كعب مرفوعًا: **«لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون؛ فقولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها وشر ما فيها وشر ما أمرت به»**.

وجاء في الصحيحين عن عائشة أن النبي ﷺ كان إذا عصفت الريح قال: **«اللَّهُمَّ إني أسألك خيرها وخير ما فيها وخير ما أرسلت به وأعوذ بك...»**[(١)].

وجاء في هذا أيضًا الدعاء: **«اللَّهُمَّ لا تجعلها ريحًا، واجعلها رياحًا، واجعلها**

---

(١) رواه مسلم (طرف حديث ٨٩٩)، والبخاري مختصرًا (١٣٢، ٣٢٠٦، ٤٨٢٩).

....

رحمة، ولا تجعلها عذابًا»[١] فهذا هو المشروع للمؤمن عند هبوب الريح، وأن يجعلها رياحًا لا ريحًا؛ لأن الله أرسل الريح لهلاك قوم هود، أما الرياح فقد جعلها الله مبشرات ورحمة ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ﴾ وهذا هو كمال التوحيد والإيمان أن يمتثل أمر النبي ﷺ في ذلك، وألا يسب الريح، ولا يسب غيرها من المخلوقات التي لم يشرع الله سبها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «الريح». الهواء الذي يصرفه الله عز وجل، وجمعه رياح.

وأصولها أربعة: الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب.

وتصريفها من آيات الله عز وجل، فأحيانًا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانًا تكون هادئة، وأحيانًا تكون باردة، وأحيانًا حارة، وأحيانًا عالية، وأحيانًا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره.

قوله: «لا تسبوا الريح». «لا» ناهية، والفعل مجزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به.

والسب: الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلك، وإنما نهى عن سبها؛ لأن سب المخلوق سب لخالقه، فلو وجدت قصرًا مبنيًا وفيه عيب فسببته، فهذا السب ينصب على من بناه، وكذلك سب الريح، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله عز وجل.

ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي ﷺ إلى ما يقال حينئذ في قوله: «ولكن قولوا: اللَّهُمَّ إنا نسألك.. إلخ».

قوله: «من خير هذه الريح». الريح نفسها فيها خير وشر، فقد تكون عاصفة تقلع الأشجار وتهدم الديار وتفيض البحار والأنهار، وقد تكون هادئة تبرد الجو

---

(١) رواه الطبراني في «الكبير» (١١٥٣٣)، وأبو يعلى (٢٤٥٦).

فِيهِ مَسَائِلُ:
«الأُولَى»: النَّهْيُ عَنْ سَبِّ الرِّيحِ.
«الثَّانِيَةُ»: الإِرْشَادُ إِلَى الكَلامِ النَّافِعِ إِذَا رَأَى الإِنْسَانُ مَا يَكْرَهُ.
«الثَّالِثَةُ»: الإِرْشَادُ إِلَى أَنَّهَا مَأْمُورَةٌ.

وتكسب النشاط.

قوله: «وخير ما فيها». أي: ما تحمله، لأنها قد تحمل خيرًا، كتلقيح الثمار، وقد تحمل رائحة طيبة الشم، وقد تحمل شرًا، كإزالة لقاح الثمار، وأمراض تضر الإنسان والبهائم.

قوله: «وخير ما أمرت به». مثل إثارة السحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله: «ونعوذ بك». أي: نعتصم ونلجأ.

قوله: «من شر هذه الريح». أي: شرها بنفسها، كقلع الأشجار، ودفن الزروع، وهدم البيوت.

قوله: «وشر ما فيها». أي: ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان، والقاذورات، والأوبئة وغيرها.

قوله: «وشر ما أمرت به». كالإهلاك والتدمير، قال تعالى في ريح عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥].

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الريح. وهذا للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.

الثانية: الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره. أي: منها، وهو أن يقول: «اللَّهُمَّ إني أسألك من خيرها...» الحديث، مع فعل الأسباب الحسية أيضًا، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها.

الثالثة: الإرشاد إلى أنها مأمورة. لقوله: «ما أمرت به».

الرابعة: أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر. لقوله: «خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب من جنس الأبواب

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّهَا قَدْ تُؤْمَرُ بِخَيْرٍ وقَدْ تُؤْمَرُ بِشَرٍّ.

السابقة التي فيها النّهي عن سبّ الدهر، والنّهي عن قول: «لو» وغير ذلك، والنّهي عن التنجيم، كلّ ما فيه إضافة الأشياء إلى غيرِ الله عزّ وجلّ فإنّه منهيٌّ عنه، لأنّ الأُمور كلّها بيد الله سبحانه وتعالى، وهو خالقُها ومدبِّرها فتُضاف إليه سبحانه وتعالى ولا تُضاف إلى غيره لا إضافة سبّ ولا إضافة مدح، لأنّ في هذا تنقُّصًا لله عزّ وجلّ وإسناد الأمور إلى غيرِه.

وكما سبق: أنّه إذا اعتقد أنّ هذه الأشياء تصنع هذه الأشياء أو تُحدثها؛ فهذا شركٌ أكبر، لأنّه شركٌ في الرّبوبيّة.

وإنْ كان لا يعتقد ذلك، بل يعتقد أنّ الله هو الخالق المدبِّر، وإنّما نسب هذه الأشياء إلى هذه المخلوقات من باب أنّها أسبابٌ فقط: فهذا يكون محرَّمًا ويكونُ من الشرك الأصغر.

والواجب على المسلمين أن يتنبّهوا لذلك، لأنّه يكثُر على الألسنة الآن مدح الأشياء وأنّه بفضلها حصل كذا وكذا، بفضل الطبِّ بفضل كذا وكذا، بفضل تضافُر الجهود، بفضل المجهودات الفلانية حصل كذا وكذا، والله لا يُذكر أبدًا، ولا يُثنى عليه في هذه الأُمور، وهذا خطأ كبيرٌ في العقيدة، ويُخشى على مَنْ قالَه من الشّرك الأكبر، هو لا يسلم من الشرك: إمّا الشرك الأصغر وإمّا الشرك الأكبر.

قال: «عن أُبيّ بن كعب» هو: أبو المنذر أبيّ بن كعب الخزرجي الأنصاري، كان مشتهرًا بجودة القراءة للقرآن، فهو أقرأ الصّحابة لكتاب الله عزّ وجلّ.

«أن رسولُ الله ﷺ قال: «لا تسبّوا الريح» هذا نهي من الرّسول ﷺ، ومعنى: «تسبّوا» يعني: لا تشتموا الرّيح وتذمّوها وتلعنوها، كما كان عليه أهل الجاهليّة أنهم يسبّون الريح إذا جاءت على غير رغبتهم، والواجب أن الإنسان عندما يصيبُه ما يكره: أن يحاسب نفسَه، لأنّه ما أصابه هذا المكروه إلّا بسببه وبفعلِه، فيحاسب نفسَه ويتوب إلى الله عزّ وجلّ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾.

وقولهِ: «فإذا رأيتم ما تكرَهون» يعني: إذا رأيتم من الرّيح ما تكرهون: رأيتم شدّة الريح وقوّتها وخشيتُم من أنّها تضرّكم أو تضرّ بأموالكم أو تقتلع أشجارَكم أو

....

تهدِّم بيوتكم، أو ما تكرهون من برودتها، لأنها قد تكون باردة شديدة البُرودة، أو تكون حارّة شديدة الحرارة، تُهلك النبات وتُهلك الثّمار.

«فإذا رأيتم ما تكرهون» منها من قوّتها، أو من برودتها، أو من حرارتها فتوجهوا إلى الله سبحانه وتعالى، لا تتوجّهوا إلى الرّيح تذمّونها وتسبّونها، هذا ليس فيه جدوى من ناحية، وهو أيضًا شركٌ بالله عزّ وجلّ، ووضعٌ للشيء في غير موضعه.

«فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا» هذا هو العلاج.

«اللّهمّ إنّا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أُمرت به، ونعوذُ بك من شرّ هذه الريح، وشرّ ما فيها، وشرّ ما أُمرت به» هذا هو العلاج: إسنادُ الأُمور إلى الله ودعاءُ الله جل وعلا لدفع المكروه وجلْب الخير.

يُستفاد من هذا الحديث مسائل:

المسألة الأولى: فيه النّهي عن سبّ الريح، لأنّ ذلك يُخِلُّ بالتّوحيد من حيث إنّه ينسِب الأُمور إلى غير الله عزّ وجلّ.

المسألة الثانية: فيه أنّ الريح مدبّرة مخلوقة، تأتي بالخير وتأتي بالشرّ بأمر الله سبحانه وتعالى، وما دامت كذلك فإنّها لا يُتوجّه إليها لا بذمٍّ ولا بمدح، وإنّما يُتوجّه إلى الله تعالى بالتضرُّع والدعاء عند الشدائد والشُّكر والحمد عند الرخاء والنعمة.

المسألة الثالثة: في الحديث دليلٌ على أنّ المسلمين عند الشدائد يتوجّهون إلى الله سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرُّع والتّوحيد، ولا يترُكون الدعاء، ولا يتوجّهون إلى غيرِه.

❁ ❁ ❁

١٣٧) الشـرح:

١٣٧) ٥٩- بابٌ

قَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾ الآيـة. وقَـوْلُهُ: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآية [سورة الفتح: ٦].

قَالَ ابنُ القَيِّمِ فِي الآيَةِ «الأُولَى»: فُسِّرَ هَذَا الظَّنُّ بِأَنَّهُ سُبْحَانَهُ لا يَنْصُرُ رَسُولَهُ، وأَنَّ أَمْرَهُ سَيَضْمَحِلُ، وفُسِّرَ بِظَنِّهِمْ أَنَّ مَا أَصَابَهُمْ لَمْ يَكُنْ بِقَدَرِ اللهِ وحِكْمَتِهِ، فَفُسِّرَ بِإِنْكَارِ الحِكْمَةِ، وإِنْكَارِ القَدَرِ، وإِنْكَارِ أَنْ يُتِمَّ أَمْرَ

---

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾.

﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ﴾ الآية.

قال ابن القيم: في الآية الأولى:

المقصود من هذا الباب أن كثيرًا من الناس لا يسلم لحكمة الله ولا يسلم لله قدره السابق، ولا يسلم له سبحانه ما أراده من تنبيه العباد على أغلاطهم وأخطائهم حتى يستعدوا وينتبهوا، بل أساءوا الظن بالله من وجوه كثيرة:

١- فمنهم من يظن أن الأشياء التي تقع مما تخالف هواه لم تكن بحكمته، ولم يكن بقدر سابق.

٢- ومنهم من يظن أنه بمجرد المشيئة لا عن حكمة تقع.

٣- ومنهم من يظن أن الله جار على العباد وظلمهم حتى فعل كذا وكذا وظلم فلان وهزم فلان، فلماذا هذا كله؟

فهذه ظنون الناس، وهي كثيرة، ولهذا قال الله - عز وجل - في المنافقين: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾ وهـذا فـي قـصـة أحـد لـمـا وقعت، وجرى للمسلمين ما جرى من الهزيمة والجراح، وقتل سبعين، نجم النفاق، وتكلم المنافقون بما تكلموا به، وظنوا بالله غير الحق، وقالوا: ﴿هَل لَّنَا

رَسُولِهِ ﷺ ، وأَنْ يُظْهِرَهُ اللهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ. وهَذَا هُوَ ظَنُّ السَّوْءِ الَّذِي ظَنَّهُ المُنَافِقُونَ والمُشْرِكُونَ فِي سُورَةِ الفَتْحِ، وإِنَّمَا كَانَ هَذَا ظَنَّ السَّوْءِ؛ لأَنَّهُ ظَنُّ غَيْرِ مَا يَلِيقُ بِهِ سُبْحَانَهُ، ومَا يَلِيقُ بِحِكْمَتِهِ وحَمْدِهِ ووَعْدِهِ الصَّادِقِ.

فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يُدِيلُ البَاطِلَ عَلَى الحَقِّ إِدَالَةً مُسْتَقِرَّةً يَضْمَحِلُّ مَعَهَا الحَقُّ، أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَا جَرَى بِقَضَائِهِ وقَدَرِهِ أَوْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ قَدَرُهُ بِحِكْمَةٍ بَالِغَةٍ يَسْتَحِقُّ عَلَيْهَا الحَمْدَ، بَلْ زَعَمَ أَنَّ ذَلِكَ لِمَشِيئَةٍ مُجَرَّدَةٍ، فَذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا، فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾ أي: هل لنا تصرف في شيء، ويقولون: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ أي: أننا مجبورون، وليس لنا أمر، ولكن قادنا محمد إلى هذا الأمر حتى وقع ما وقع، وهذا كله من جهلهم وضلالاهم، ومن قلة بصيرتهم، وعمى قلوبهم، ولهذا ظنوا بالله ظن السوء، وظنوا أن ما وقع لم يكن لحكمة بالغة، وظنوا أن الله لا ينصر رسله، وأنه سيضمحل أمر هذا النبي، وأن ما وقع لم يكن إلا بمجرد المشيئة؛ فصار ظنهم هذا إجماعًا بين سوء الظن بالله من جهة أنه لا ينصر رسله، ولا أولياءه ومن جهة أنه لم تقع هذه عن حكمة، بل بمجرد المشيئة.

وهذا كله باطل، ولهذا بين سبحانه في كتابه العظيم حكمه وأسراره فيما يقضيه ويفعله ويشرعه، وأنه يبتلي عباده في السراء والضراء والشدة والرخاء؛ ليمحص ما في قلوب المؤمنين ويمحق الكافرين، ويتوب المؤمنون إليه، ويستغفروه ويعدوا للقاء الله - سبحانه - والقيام بحقه كما قال - تعالى-: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُواْ﴾.

فله سبحانه حكمة بالغة في ابتلاء هؤلاء وهؤلاء، فالمؤمنون يبتلون؛ ليتمحص إيمانهم، ولتغفر سيئاتهم، وليعدوا للقاء ربهم، والكفار يمحقون، والمنافقون

وأَكْثَرُ النَّاسِ يَظُنُّونَ باللهِ ظَنَّ السَّوْءِ فِيمَا يَخْتَصُّ بِهِمْ وفِيمَا يَفْعَلُهُ بِغَيْرِهِمْ، ولا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ اللهَ وأَسْمَاءَهُ وصِفَاتِهِ وَمُوجِبَ حِكْمَتِهِ وحَمْدِهِ.

فَلْيَعْتَنِ اللَّبِيبُ النَّاصِحُ لِنَفْسِهِ بِهَذَا، وَلْيَتُبْ إِلَى اللهِ ويَسْتَغْفِرْهُ مِنْ ظَنِّهِ بِرَبِّهِ ظَنَّ السَّوْءِ، ولَوْ فَتَّشْتَ مَنْ فَتَّشْتَ لَرَأَيْتَ عِنْدَهُ تَعَنُّتًا عَلَى القَدَرِ ومَلَامَةً لَهُ، وأَنَّهُ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كَذَا وكَذَا، فَمُسْتَقِلٌّ ومُسْتَكْثِرٌ، وفَتِّشْ نَفْسَكَ: هَلْ أَنْتَ سَالِمٌ؟

فَإِنْ تَنْجُ مِنْهَا تَنْجُ مِنْ ذِي عَظِيمَةٍ ... وإِلَّا فَإِنِّي لا إِخَالُكَ نَاجِيَا

يفضحون، ويظهر خزيهم وباطلهم.

ولكن المنافقين فسدت قلوبهم، وأساءوا الظن بالله، ولهذا نصر الله المؤمنين كما وعدهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ﴾ ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وهذا الوعد لا يقدح فيما يقع من هزيمة أحيانًا؛ ليتخذهم شهداء، ولحكمة بالغة أخرى تقدم بعضها. اهـ.

ولأن الناس لو نصروا دائمًا، ولم يصبهم شيء من الخلل لربما ابتلوا بالعجب والكبرياء، وعدم الخضوع لله، وعدم الاعتراف بتقصيرهم ونقصهم، وربما ظنوا أن هذا بحيلتهم وقوتهم وأعمالهم، فإذا ابتلاهم بشيء من هذه الأشياء انكسرت نفوسهم، ورجعوا إلى الله.

والواجب على المسلم أن يفتش نفسه، ويحاسبها لعله يسلم من هذا البلاء، ولهذا من فتش نفسه وجد عندها عيوبًا، ووجد عندها اعتراضًا على القدر، وعجبًا بنفسه، وبأعماله إلا من عصمه الله.

وعلى المؤمن أن يؤمن بقضاء الله وقدره، وأن له حكمة عظيمة فيما يصرفه، وأن له قدر سابق، وأن من حكمه وأسبابه العظيمة تهيئة عباده المؤمنين لما هو أفضل، ورفع درجاتهم، وليرجعوا إليه سبحانه وتعالى.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين:

....

الأولى قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ﴾. الضمير يعود على المنافقين، والأصل في الظن: أنه الاحتمال الراجح، وقد يطلق على اليقين، كما في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة: ٤٦]، أي: يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهمًا.

قوله: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ عطف بيان لقوله: ﴿غَيْرَ ٱلْحَقِّ﴾، و ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾، الحال الجاهلية، والمعنى: يظنون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظان فيها قدر الله وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل.

قوله: ﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ﴾. مرادهم بذلك أمران:

الأول: رفع اللوم عن أنفسهم.

الثاني: الاعتراض على القدر.

وقوله: ﴿لَّنَآ﴾ خبر مقدم.

وقوله: ﴿مِن شَيْءٍ﴾: مبتدأ مؤخر مرفوع بالضمة المقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد.

قوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ﴾. أي: فإذا كان كذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقدره فالله - عز وجل يفعل ما يشاء من النصر والخذلان.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلْأَمْرَ﴾ واحد الأمور لا واحد الأوامر، أي: الشأن كل الشأن الذي يتعلق بأفعال الله وأفعال المخلوقين كله لله سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله.

قوله: ﴿يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ﴾. أي: ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنافقين عدم الصراحة والصدق، فيخفي في نفسه ما لا يبديه لغيره، لأنه يرى من جبنه وخوفه أنه لو أخبر بالحق لكان فيه هلاكه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان.

قوله: ﴿مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾. أي: في أحد، والمراد بمن «قتل»: من استشهد من المسلمين في أحد، لأن عبد الله بن أبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد،

....

وقال: إن محمدًا يعصيني ويطيع الصغار والشبان.

قوله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ﴾. هذا رد لقولهم: لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا ها هنا.

قوله: ﴿وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ﴾. أي: يختبر ما في صدوركم من الإيمان بقضاء الله وقدره والإيمان بحكمته. فيختبر ما في قلب العبد بما يقدره عليه من الأمور المكروهة، حتى يتبين من استسلم لقضاء الله وقدره وحكمته ممن لم يكن كذلك.

قوله: ﴿وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾. أي إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصبر، صار في ذلك تمحيص لما في القلب، أي: تطهير له وإزالة لما يكون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي.

قوله: ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بذات الصدور، والمراد بها القلوب، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦]، فالله لا يخفى عليه شيء فيعلم ما في قلب العبد وما ليس في قلبه متى يكون وكيف يكون.

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية: [الفتح: ٦].

الآية الثانية قوله تعالى: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾. المراد بهم: المنافقون والمشركون، قال تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ﴾ [الفتح: ٦]، أي: ظن العيب، وهو كقوله فيما سبق: ﴿ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

قوله: ﴿عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾. أي: أن السوء محيط بهم جميعًا من كل جانب كما تحيط الدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنوا أنه تعالى تخلى عن رسوله وأن أمره سيضمحل، فإن الواقع خلاف ظنهم، ودائرة السوء راجعة عليهم.

قوله: ﴿وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾. الغضب من صفات الله الفعلية التي تتعلق بمشيئته

....

ويترتب عليها الانتقام، وأهل التعطيل قالوا: إن الله لا يغضب حقيقة:

فمنهم من قال المراد بغضبه الانتقام.

ومنهم من قال: المراد إرادة الانتقام: قالوا: لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام، ولهذا قال النبي ﷺ: «إنه جمرة يلقيها الشيطان في قلب ابن آدم»(١).

فيجاب عن ذلك: بأن هذا هو غضب الإنسان، ولا يلزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشوري: ١١]، ويدل على أن الغضب ليس هو الانتقام قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾ [الزخرف: ٥٥]. ف ﴿آسَفُونَا﴾: بمعنى أغضبونا ﴿انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ﴾، فجعل الانتقام مرتبًا على الغضب، فدل على أنه غيره.

وقوله: ﴿وَلَعَنَهُمْ﴾. اللعن: الطرد والإبعاد عن رحمة الله.

قوله: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ﴾. أي: هيأها لهم وجعلها سكنًا لهم ومستقرًا.

قوله: ﴿وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾. أي: مرجعًا يصار إليه.

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسير ظن السوء ثلاثة أمور:

الأول: أن يظن أن الله يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، فهذا هو ظن المشركين والمنافقين في سورة الفتح، قال تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢].

الثاني: أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقدره؛ لأنه يتضمن أن يكون في ملكه سبحانه ما لا يريد، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته.

الثالث: أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، لأن هذا يتضمن أن تكون تقديراته لعبًا وسفهًا، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقدر شيئًا أو يشرعه إلا لحكمة، قد تكون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكها، ولهذا يختلف الناس في علل الأحكام الشرعية اختلافًا كبيرًا بحسب ما عندهم من معرفة حكمة الله سبحانه وتعالى.

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٣/ ٦١).

....

قوله: «وأكثر الناس». أي: من بني آدم لا من المؤمنين يظنون بالله ظن السوء، أي: العيب فيما يختص بهم، كما إذا دعوا الله على الوجه المشروع يظنون أن الله لا يجيبهم، أو إذا تعبدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهذا ظن السوء فيما يختص بهم.

قوله: «فيما يفعله بغيرهم». كما إذا رأوا أن الكفار انتصروا على المسلمين بمعركة من المعارك ظنوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسلمين دائمًا، فالواجب على المسلم أن يحسن الظن بالله مع وجود الأسباب التي تقتضي ذلك.

قوله: «ولا يسلم من ذلك». أي: من الظن السوء.

قوله: «إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده». صدق رحمه الله، لا يسلم من ظن السوء إلا من عرف الله عز وجل وما له من الحكم والأسرار فيما يقدره ويشرعه، وكذلك عرف أسماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتأويل.

ولهذا حُجِب المحرفون والمؤولون عن معرفة أسماء الله وصفاته، فتجد قلوبهم مظلمة غالبًا، تحاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجدل، أما من أبقى أسماء الله وصفاته على ما دلت عليه وسلك في ذلك مذهب السلف، فإن قلبه لا يَرِدُ عليه مثل هذه الاعتراضات التي ترد على قلوب أولئك المحرفين، لأن المحرفين إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنوا أن الكتاب والسنة دلَّ ظاهرهما على التمثيل والتشبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه، ولهذا قال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن كل معطل ممثل، وكل ممثل معطل.

أما كون كل معطل ممثلاً، فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسنة تقتضي التمثيل، فلما ظن هذا الظن السيئ بنصوص الكتاب والسنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها، فمثل أولاً، وعطل ثانيًا، ثم أنه إذا عطل صفات الله تعالى خوفًا من تشبيهه بالموجود، فقد شبهه بالمعدوم، وأما كون كل ممثل معطلاً، فلأن الممثل عطل الله تعالى من كماله الواجب حيث مثله بالمخلوق الناقص، وعطل كل

....

نص يدل على نفي مماثلة الخالق للمخلوق.

وعلى هذا، فالذي عرف أسماء الله وصفاته معرفة على ما جرى عليه سلف هذه الأمة وأئمتها، وعرف موجب حكمة الله، أي: مقتضى حكمة الله، لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء.

وقوله: «موجب». موجب، بالفتح: هو المسبب الناتج عن السبب بمعنى المقتضى، وبالكسر: السبب الذي يقتضي الشيء بمعنى المقتضي، والمراد هنا الأول.

فالذي يعرف موجب حكمة الله وما تقتضيه الحكمة، فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء أبدًا، ولاحظ الحكمة التي حصلت للمسلمين في هزيمتهم في حنين وفي هزيمتهم في أحد، فإن في ذلك حكمًا عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمران والتوبة، فهذه الحكم إذا عرفها الإنسان لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء، وأنه أراد أن يخذل رسوله وحزبه، بل كل ما يجريه الله في الكون، كمنع الإنبات والفقر، فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمها، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده، لأنه عز وجل أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس.

قوله: «اللبيب». على وزن فعيل، ومعناه: ذو اللب، وهو العقل.

قوله: «بهذا». المشار إليه هو الظن بالله عز وجل، ليعتني بهذا حتى يظن بالله ظن الحق، لا ظن السوء وظن الجاهلية.

قوله: «وليتب إلى الله». أي يرجع إليه، لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة.

قوله: «وليستغفره». أي: يطلب منه المغفرة، واللام في قوله: «فليتب» وقوله: «وليستغفره» للأمر.

قوله: «تعنتًا على القدر وملامة له». أي: إذا قدر الله شيئًا لا يلائمه تجده يقول: ينبغي أن ننتصر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي ألا نصاب بالحوائج، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ آيَةِ آلِ عِمْرَانَ.

«الثَّانِيَةُ»: تَفْسِيرُ آيَةِ الفَتْحِ.

«الثَّالِثَةُ»: الإِخْبَارُ بِأَنَّ ذَلِكَ أَنْوَاعٌ لا تُحْصَرُ.

قوله: «فمستقل ومستكثر». «مستقل»: مبتدأ، خبره محذوف. و«مستكثر»: مبتدأ خبره محذوف، والتقدير: فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ﴾ [هود: ١٠٥]، ف﴿وَسَعِيدٌ﴾ مبتدأ خبره محذوف تقديره: ومنهم سعيد، ولا يقال بأن﴿وَسَعِيدٌ﴾ معطوف على شقي، لكونه يلزم أن يكون الوصفان لموصوف واحد.

قوله: «وفتش نفسك: هل أنت سالم». وهذا ينبغي أن يكون في جميع المسائل مما أوجبه الله، فتش عن نفسك: هل أنت سالم من التقصير فيه؟ ومما حرمه الله عليك: هل أنت سالم من الوقوع فيه؟

قوله: «فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة». «تنج» الأول فعل الشرط مجزوم بحذف الواو، «تنج» الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو.

وقوله: «من ذي عظيمة». أي: من ذي بلية عظيمة.

قوله: «وإلا، فإني لا إخالك ناجيًا». التقدير، أي: وإلا تنج من هذه البلية، فإني لا إخالك ناجيًا.

ومعنى إخالك: أظنك، وهي تنصب مفعولين: الأول هنا الكاف، والثاني ناجيًا.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير آية آل عمران. وهي قوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثانية: تفسير آية الفتح. وهي قوله تعالى: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين.

الثالثة: الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر. أي: ظن السوء والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به.

«الرَّابِعَةُ»: أَنَّهُ لا يَسْلَمُ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَرَفَ الأَسْمَاءَ والصِّفَاتِ وعَرَفَ نَفْسَهُ.

الرابعة: أنه لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه.
أي: لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب، فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه.

ولا تظنن بربك ظن سَوء فإن الله أولى بالجميل

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا بابٌ عظيم، فقولُه- رحمه الله تعالى-: «باب قول الله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾.

مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّ حسن الظنّ بالله سبحانه وتعالى من واجبات التّوحيد، وسوء الظنّ بالله عزّ وجلّ ينافي التّوحيد، هذا وجه المناسبة لهذا الباب في كتابه التّوحيد.

قولُه: «باب قول الله تعالى» يعني: ما جاء في تفسير هذه الآية الكريمة من آل عمران والآية الثانية من سورة الفتح، كلاهُما في موضوع واحد، وهو: سوء الظنّ بالله سبحانه وتعالى، وما توعّد الله عليه من العذاب والعُقوبة، لأنّه ينافي التّوحيد.

والقصّة حصلت في وقعة أُحد لَمّا حصل على المسلمين ما حصل من إدالة العدو عليهم بسبب المخالفة التي حصلت في الجيش.

لَمّا حصل ما حصل تكلّم المنافقون بكلام سيّئ، لأنّ المنافق دائمًا ينتهز الفرص التي يرى أنّ فيها غضاضةً على المسلمين ويشغّلها ويفسّرها ويكيّفُها على حسب هواه، دائمًا هذا في المنافقين إلى آخر الزمان، كلّما حصل على المسلمين شدّة أو كُربة أو ضائقة فرح المنافقون وجعلوا يفسّرونها ويحلّلونها بأن المسلمين ليسوا على شيء وأن دينهم ليس بشيء، ويظنون بالله غير الحق ظنّ الجاهلية، وظنّ السوء.

ففي سورة آل عمران سمّاه ظنّ الجاهليّة، وفي سورة الفتح سمّاه ظنّ السّوء.

قال في سورة آل عمران: ﴿ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ لأنّ الجاهلية عدم العلم، فالذي ظنّ هذا الظنّ الخاطئ سببه عدم العلم بالله سبحانه وتعالى وبأسمائه وصفاته وحمْدِه

....

وحكمته.

وقال في سورة الفتح: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾ يعني: إساءة الظنّ بالله عزّ وجلّ، وهو يخالف حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ، فحسن الظنّ بالله توحيد وسوء الظنّ بالله كفر.

ثم ذكر الشيخ رحمه الله كلام ابن القيّم في تفسير الآيتين، وساقه من «زاد المعاد في هدي خيرِ العباد» باختصار.

«قال ابن القيّم: فُسّر هذا الظن في الآية الأولى» يعني: آية آل عمران.

«بأنّه سبحانه لا ينصُر رسولَه» وهذا ظنّ الجاهليّة.

«وأنّ أمرَه سيضمحلّ» وهذا تكذيبٌ لقوله تعالى: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾، والتكذيب لوعد الله كفر.

«وفسّر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته. ففُسّر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يُتِمّ أمرَ رسولِه ﷺ، وأن يُظهره على الدين كلِّه «يعني في ذلك ثلاثة تفاسير: إنكار الحكمة في أفعاله سبحانه وتعالى، وإنكار الحكمة: كفرٌ وضلال، لأنّ الله وصف نفسَه بالحكمة، وسمّى نفسَه بالحكيم: ﴿حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾، ﴿حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾، في كثيرٍ من الآيات، والحكمة: وضعُ الشيء في موضعه.

فمن أنكر حكمة الله فإنّه يكفر بذلك، بخلاف من أثبتها وأوّلها فإنّه يُعتبر ضالًا في هذا التأويل، لأنّ الله جل وعلا حكيم لا يفعل شيئًا إلّا لحكمة عظيمة، قد تظهر لنا وقد لا تظهر.

قوله: «وأنّ أمرَه سيضمحلّ» يعني: أنّ هذا الدين الذي جاء به محمد ﷺ سيزول نهائيًا ولا يبقى منه شيء، مثل سائر الدعوات والمذاهب الباطلة، تعيش فترة من الزمن ثم تنقطع وتذهب بذهاب أصحابها وذهاب أحزابها وجماعاتها وهذا التفسير باطل؛ لأن الحق لابد أن يبقى مهما جرى عليه من الامتحان والضعف أحيانًا والمداولة لكنِ الحق يبقى ويستمرّ.

فمن ظنّ أنّ أمرَ الرّسول ﷺ سيضمحلّ بسبب ما جرى من النّكَبات التي جرت على المسلمين، من ظنّ هذا فقد ظنّ بربّه ظنّ السَّوء.

....

والله لم يُجرِ هذه النكبات لأجل أن يُزيل أهل الدين ويُزيل الدين، إنّما أجرى هذه النكبات على الدين وعلى أهل الدين ابتلاءً وامتحانًا من أجل الرّجوع إليه سبحانه وتعالى، أو لخطأ ارتكبوه ووقعوا فيه، فالله يريد أن ينبِّههم من أجل أن ينقُّوا صفوفهم من الدّخيل ومن الخطأ، فيرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى، فيُعيد لهم الله النصر والتمكين، هذه سنّة الله جل وعلا في خلقه.

وكذلك يريد أن يمحِّص الذين آمنوا، يخلِّصهم من الذّنوب والمعاصي ليقدموا على الله مطهّرين ليس عليهم سيّئات.

هذه حكمة الله سبحانه وتعالى، لا يريد بالنكبات التي تجري على عباده المؤمنين أن يُزيلَهم وأن يُزيل حقّهم الذي هم عليه، أبدًا، تأبى حكمة الله ذلك، وإنّما يُريد أن يثبِّت هذا الحق وأن يُزيل عنه الدّخيل وأن يُزيل عنه ما أصاب أصحابه من الأُمور المخالفة حتى يرجعوا إلى الله سبحانه وتعالى ويثوبوا إليه، فعند ذلك تعود إليهم عزّتهم ومكانتُهم.

قوله: «وهذا هو ظن السوء»؛ أي: من نفى القدر، وأن حدوث الأشياء بدون إرادته سبحانه وتعالى، وبدون قدره؛ فقد ظنّ بربّه ظنّ السّوء، ووصف ربّه بالعجز والجهل وعدم العلم، تعالى الله عمّا يقولون.

قوله: «وإنّما كان هذا ظنّ السَّوء؛ لأنّه ظنّ غير ما يليق به سبحانه» ظنّ ما لا يليق به سبحانه وتعالى وهو العَبث.

«وما لا يليق بحكمته وحمدِه ووعده الصّادق»؛ لأنّه سبحانه وتعالى محمودٌ على كلّ حال، على ما يكره العباد وعلى ما يحبّون؛ لأنَّه من قِبَل الله محمود، فإيقاعُ العقوبة فيمن يستحقّها عدلٌ منه سبحانه وتعالى يُحمد عليه، وإيقاع الهلاك بالأُمم الكافرة يُحمد عليه سبحانه وتعالى؛ لأنّه جزاء، ونزول النعم بأهل الإيمان والنصر والتوفيق وأهل الاتّباع فضلٌ من الله سبحانه وتعالى، فهو المحمود على كلّ حال على المحامد وعلى المكاره؛ لأنّه ليس من قِبَله شيء عبث أبدًا.

قال ابن القيِّم: «فمن ظنّ أنّه يُديل الباطل على الحقّ إدالة مستقرّة يضمحلّ معها

....

الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره» هذا إعادة من الإمام ابن القيِّم رحمه الله لتقرير هذه المسألة العظيمة.

«أو أنكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يستحقّ عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجرّدة؛ فذلك ظنُّ الذين كفروا» من ظنّ أن الله يُديل الباطل على الحق إدالةً مستقرّة، الله قد يُديل الباطل على الحقّ أحيانًا، لكن هذه الإدالة مؤقّتة وليست مستقرّة، وإدالتُه على الحقّ لحكمة، وهي أنّ أهل الحق يتنبّهون ويتداركون الخطأ والنقص الذي حصل فيهم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾، يعني: يطهِّرهم من رجس الذنوب والمعاصي بما نزل عليهم من العُقوبة، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾، ولَمّا شقّ على أبي بكر- رضي الله تعالى عنه- قال: أيُنا لم يعمل سوءًا يا رسول الله؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «ألستَ تحزَن؟، ألستَ تَنصَب؟ ألستَ تُصيبُك اللأوى؟» قال: بلى، قال: «فذلك ما تُجزون به».

فالله جل وعلا قد يُجازي عبدَه المؤمن وهو يحبُّه، ويعاقبه لأنّه يحبّه؛ من أجل أن يخلِّصه من هذا الذنب، حتى يوافيَ ربّه طاهرًا نقيًّا ويدخُل الجنّة.

أمّا الكافر عدوُّ الله ، فإنّ الله يصبُّ عليه النعم للاستدراج ويُمسكُ عنه العُقوبة حتى يوافي القيامة وهو محمّلٌ بالذّنوب فيكون من أهل النّار، هذه حكمة الله سبحانه وتعالى.

بعض النّاس يقول: لماذا الكُفّار ينعَمون بالحضارة والصناعات، والجوّ الطيِّب، والبيئة الطيِّبة، والفواكه، والأشجار، والمحاصيل، والمسلمون في هذه الحالة، ثم يذهب به ظنّ السُّوء إلى أن يظنّ أنّ الكفّار على الحقّ، وأنّ الله راضٍ عنهم، وأنّ المسلمين ليسوا على حق وأنّ الله ساخطٌ عليهم، ثم قد يرتدّ عن الدين.

فالله جل وعلا يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحبّ، وأما الدين فإنّه لا يُعطيه إلّا لمن يحبّ.

ثم قال ابن القيم رحمه الله: «فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا» فيتأمّله تأمُّلًا جيِّدًا، وهو أمر أفعالِ الله تعالى في عِباده، وليعلم أنّه لا يفعل شيئًا إلّا لحكمة

....

وقضاءٍ وقدر، ما يجري في هذا الكون شيء إلّا لحكمة وقضاء وقدر، ولم يعد الله سبحانه وتعالى بوعد إلّا ولا بدَّ أن يقع، ويتأمّل الإنسان نفسه حِيال هذه الحوادث: ماذا تقولُ نفسُه إذا وقع شيء ممّا يكره به أو بغيره، ولهذا يقول الإمام ابن القيِّم: «وأكثر النّاس يظنون بالله ظنّ السّوء فيما يختص بهم، وفيما يفعلُه بغيرهم».

وهذا موجودٌ في بعض بني آدم: «ولو فتَّشتَ من فتّشت؛ لرأيت عنده تعنُّتًا على القدر وملامَة له» كما كان من إبليس، وما نتج عن تكبُّر إبليس وتعنُّته على الله جل وعلا.

ثم قال: «وفتِّش نفسَك هل أنت سالم؟» يجب على الإنسان أن لا يزكِّي نفسه أبدًا، يقول الله جل وعلا: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ﴾، ﴿أَلَمۡ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنفُسَهُمۚ بَلِ ٱللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَآءُ وَلَا يُظۡلَمُونَ فَتِيلًا﴾، فالإنسان لا يزكِّي نفسه، بمعنى: يمدح نفسه ويُعجب بنفسه، ويظنّ أنه كامل، وأنّه من الأخيار، بل دائمًا الإنسان يتّهم نفسَه بالتقصير في حقّ الله تعالى.

أمّا التزكية التي أثنى الله تعالى على أصحابها في قوله: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ فالمراد بتزكية النفس هنا تطهيرُها بالأعمال الصالحة وترك الأعمال السيّئة، هذه تزكية النفس، شغلُها بالأعمال الصّالحة وتجنيبُها للأعمال السيّئة.

فهناك تزكيةٌ منهيٌّ عنها وهي: الإعجاب والمدح للنفس، وهناك تزكية مأمورٌ بها وهي الإصلاح والتوبة والعمل الصالح.

وقوله: «فتِّش نفسك هل أنتَ سالم؟» يعني: لا تشتغل بعيوب النّاس وتنسى نفسك، فتِّش نفسك هل أنت سالم من هذا التعنُّت والملامة على القدر والاعتراض على الله سبحانه وتعالى في الحوادث؟

قوله: «فإنْ تنجُ منها» يعني: من هذه المصيبة.

فإنْ تنجُ منها تَنجُ من ذي عظيمة   وإلّا فـإنّـي لا إخـالُك نـاجـيـا

يعني: لا أظنُّك تنجو من هذه الفتنة.

فيُستفاد من هاتين الآيتين وتفسيرهما:

....

أولاً: أنّ حسن الظنّ بالله عزّ وجلّ واجبٌ من واجبات التّوحيد.

ثانيًا: أن سوء الظنّ بالله سبحانه وتعالى ينافي التّوحيد أو ينافي كمالَه، ينافي أصلَه إذا زاد وكثُر واستمرّ، أو ينافي كمالَه إذا كان شيئًا عارضًا أو شيئًا خفيفًا أو خاطرًا في النّفس فقط ولا يتكلّم به بلسانِه، أمّا إنْ تكلّم به بلسانِه فإنّه يكونُ منافيًا للتّوحيد.

ثالثًا: فيه: إثبات القضاء والقدر، وأنّ ما يجري من المصائب والمحابّ والمكروهات والملاذ كلُّه بقضاء الله وقدره.

رابعًا: أن النّبي ﷺ ليس له من الأمر شيء، فلا يتعلق به ﷺ، وإنّما يُتعلّق بالله، لأنّ الأمر كلَّه لله جل وعلا، لا للرسول ولا لغيره، قد قال الله جل وعلا له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، لما دعا ﷺ على أقوام من أهل مكّة فعاتبه الله قال: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾، وقد تاب الله عليهم وأسلموا، وحسُن إسلامُهم، وصاروا من قُوّاد الجهاد في الإسلام.

فهذا فيه: أنّ الأمر لله سبحانه وتعالى، فلا يُتعلّق إلّا بالله جل وعلا، أمّا الرّسول- عليه الصلاة والسلام- فإنّه رسولُ الله، هو مبلِّغٌ عن الله تعالى رسالاته، وهذه وظيفة الرّسل عليهم الصلاة والسلام البلاغ والأمر بيد الله.

خامسًا: فيها: إثبات الحكمة في أفعال الله سبحانه وتعالى، وأنّ الله لا يفعل شيئًا عبثًا.

سادسًا: فيها: أنّ وعد الله جل وعلا لا بدّ أن يتحقّق، ولا يتخلّف وعدُ الله سبحانه وتعالى أبدًا.



١٣٨) الشرح:

١٣٨) ٦٠-بابٌ

مَا جَاءَ فِي مُنْكِرِي القَدَرِ وَقَالَ ابنُ عُمَرَ: والَّذِي نَفْسُ ابنِ عُمَرَ بِيَدِهِ، لَوْ كَانَ لأَحَدِهِمْ مِثْلُ أُحُدٍ ذَهَبًا، ثُمَّ أَنْفَقَهُ فِي سَبِيلِ اللهِ مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْهُ حَتَّى يُؤْمِنَ بِالقَدَرِ. ثُمَّ اسْتَدَلَّ بِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ: «الإِيمَان: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، ومَلائِكَتِهِ، وكُتُبِهِ، ورُسُلِهِ، واليَوْمِ الآخِرِ، وتُؤْمِنَ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ» رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

---

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: لما كان الإيمان بالقدر من أصول الإيمان، وضع المؤلف هذا الباب؛ لأن هذا مما يحصل به التوحيد، وينتفي به الكفر؛ أي باب ما جاء من الوعيد الشديد والتحذير الأكيد من إنكاره والتكذيب، وكان المسلمون في عهد النبي ﷺ قد آمنوا بالقدر، وسلموا به لله، ثم نبتت بعد ذلك نابتة في آخر عهد الصحابة وبعد ذلك، فأنكروا القدر، وقالوا: الأمر أنف، وزعموا: أن إثبات القدر يخالف العدل، وكيف تقدر الأمور، ثم يعاقب العاصي والكافر على ما فعل؟ جهلًا منهم وضلالاً والتباسًا للأمر عليهم.

أما أهل الحق من أصحاب النبي ﷺ ومن سار على منهجهم من أهل السنة والجماعة قد آمنوا بالقدر، وصدقوا به، وأن الله قدر المقادير وكتبها، فلا يقع في ملكه ما لا يريد، بل قدر كل شيء أو أحصى كل شيء، وهو العالم بكل شيء وكان الإمام الشافعي -رحمه الله- يقول: ناظروهم بالعلم، فإن أقروا به خصموا، وإن أنكروه كفروا. ومعنى هذا: أن يقول: هل الله يعلم الأشياء قبل وجودها؟

فإذا قالوا: نعم، فهذا هو القدر، إن الله علم الأشياء قبل وجودها وكتبها عنده: من يسلم ومن يكفر ومن يعصي، وإن أنكروا أن الله تعالى يعلم؛ كفروا؛ لأنهم نسبوا إلى الله الجهل والضلال، والله تعالى يقول: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾، وقال: ﴿لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ فمن نسب إلى الله الجهل، وأنه لا يعلم الأشياء فقد طعن في آيات الله وتنقصه فيكون كافرًا، ولذلك ذهب جماعة العلماء من أهل السنة والجماعة إلى كفر القدرية، وأنهم كفار؛ لأنهم

....

كذبوا بقدر الله، وأنكروا علمه وكذبوا هذه النصوص، ونسبوا إلى الله الجهل، وقد صح عنه ﷺ في حديث عمر: «الإيمان أن تؤمن بالله... وبالقدر خيره وشره».

ودل على هذا كتاب الله أيضًا حيث قال سبحانه: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾، ولهذا قال: قال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم...».

وهكذا قال زيد بن ثابت، وأبي كعب، وعبد الله بن مسعود وغيره، وهكذا قال أهل السنة والجماعة.

فالواجب على المسلم أن يؤمن بالقدر.

والإيمان بالقدر يشمل أربعة أمور:

١- علم الله بالأشياء.

٢- كتابتها.

٣- وأنه خالق كل شيء، ومقدر كل شيء.

٤- وأن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

فمن آمن بهذه المراتب فقد آمن بالقدر، ومن كذب بشيء منها فقد كذب بشيء من القدر.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «القدر». هو تقدير الله عز وجل للكائنات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه.

قال بعض أهل العلم: القدر سر الله عز وجل في خلقه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سواء كان خيرًا أو شرًا.

والقدر يطلق على معنيين.

الأول: التقدير، أي: إرادة الله عز وجل الشيء.

الثاني: المقدر، أي: ما قدره الله عز وجل.

والتقدير يكون مصاحبًا للفعل وسابقًا له، فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به

....

الفعل، والسابق هو الذي قدره الله عز وجل في الأزل، مثال ذلك:

خلق الجنين في بطن الأم فيه تقدير سابق علمي قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وفيه تقدير مقارن للخلق والتكوين، وهذا الذي يكون به الفعل، أي: تقدير الله لهذا الشيء عند خلقه.

والإيمان بالقدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصًا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصفات، لأنه من صفات الكمال لله عز وجل.

مراتب القدر:

المرتبة الأولى: العلم، وذلك بأن تؤمن بأن الله تعالى علم كل شيء جملة وتفصيلاً، فعلم ما كان وما يكون، فكل شيء معلوم لله، سواء كان دقيقًا أم جليلاً من أفعاله أو أفعال خلقه.

وأدلة ذلك في الكتاب كثير، منها: قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]، فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر، فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى.

ولاحظ سعة علم الله عز وجل وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية وظلمة البحر وظلمة السحاب وظلمة المطر وظلمة الأمواج وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم. ففي هذه الآيات إثبات العلم وإثبات الكتابة.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، ففي الآية أيضًا إثبات العلم وإثبات الكتابة.

المرتبة الثانية: الكتابة، وقد دلت عليها الآيتان السابقتان.

....

المرتبة الثالثة: المشيئة، وهي عامة، ما من شيء في السماوات والأرض إلا وهو كائن بإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه ما لا يريد أبدًا، سواء كان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله المخلوق، قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢]، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلَ ٱلَّذِينَ مِنۢ بَعْدِهِم﴾ الآية [البقرة: ٢٥٣].

المرتبة الرابعة: الخلق، فما من شيء في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومدبره وذو سلطانه، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ [الزمر: ٦٢]، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق لله، لأن فعل المخلوق من صفاته، وهو صفاته مخلوقان، ولأن فعله ناتج عن أمرين:

إرادة جازمة.

قدرة تامة.

والله هو الذي خلق في الإنسان الإرادة الجازمة والقدرة التامة، ولهذا قيل لأعرابي: بم عرفت ربك ؟ قال: بنقض العزائم، وصرف الهمم.

والعبد يتعلق بفعله شيئان:

خلق، وهذا يتعلق بالله.

مباشرة، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قال تعالى: ﴿جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ [الواقعة: ٢٤]، وقال تعالى: ﴿ٱدْخُلُواْ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٣٢] ولولا نسبة الفعل إلى العبد ما كان للثناء على المؤمن المطيع وإثابته فائدة، وكذلك عقوبة العاصي وتوبيخه.

وأهل السنة والجماعة يؤمنون بجميع هذه المراتب الأربع، وقد جمعت في بيت:

علم كتابه مولانا مشيئته   وخلقه وهو إيجاد وتكوين

وهناك تقديرات أخرى نسبية:

منها: تقدير عمري: حين يبلغ الجنين في بطن أمه أربعة أشهر يرسل إليه

....

الملك، فينفخ فيه الروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد.

ومنها: التقدير الحولي، وهو الذي يكون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال الله تعالى: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان: ٤].

ومنها التقدير اليومي: كما ذكره بعض أهل العلم واستدل له بقوله تعالى: ﴿يَسْئَلُهُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]، فهو كل يوم يغني فقيرًا، ويفقر غنيًّا: ويوجد معدومًا، ويعدم موجودًا، ويبسط الرزق ويقدره، وينشئ السحاب والمطر، وغير ذلك.

فإن قيل هل الإيمان بالقدر ينافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشيء باختياره؟

الجواب: لا ينافيه، لأن ما يفعله الإنسان باختياره من قدر الله، كما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما أقبل على الشام، وقالوا له: إن في الشام طاعونًا يفتك بالناس، فجمع الصحابة وشاورهم، فقال بعضهم: نرجع. فعزم على الرجوع، فجاء أمين هذه الأمة أبو عبيده عامر بن الجراح، فقال: يا أمير المؤمنين ! أفرارًا من قدر الله ؟ فأجاب عمر: نفر من قدر الله إلى قدر الله [(١)].

قوله: «أن تؤمن بالله». والإيمان بالله عز وجل يتضمن أربعة أمور:

الإيمان بوجوده.

وبربوبيته.

وبألوهيته.

وبأسمائه وصفاته.

فمن أنكر وجود الله، فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أنكر أن يكون مختصًا بها، فهو غير مؤمن بالله.

قوله: «وملائكته». والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

الإيمان بوجودهم.

---

(١) البخاري: (٥٣٩٦)، ومسلم: (٢٢١٩).

....

الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم.
الإيمان بأفعالهم.
الإيمان بصفاتهم.

فممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح، قد سد الأفق، كما أخبرنا بذلك رسول الله ﷺ، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدًا، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي أحيانًا بصورة بشر فأتى مرة بصورة دحية الكلبي وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي ﷺ جلسة المتعلم المتأدب.

قوله: «وكتبه». أي: الكتب التي أنزلها على رسله.

والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي:
الإيمان بأنها حق من عند الله.
تصديق أخبارها.

التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن نلتزم بأحكام الكتب السابقة، لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن.

وكذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القرآن، لأن القرآن فيه أشياء منسوخة.

٤- الإيمان بما علمناه معينًا منها، مثل: التوراة، والإنجيل، والقرآن، والزبور، وصحف إبراهيم وموسى.

٥- الإيمان بأن كل رسول أرسله الله معه كتاب، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد: ٢٥]، وقال عيسى: ﴿إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ﴾ [مريم: ٣٠]، وقال عن يحيى: ﴿يَا يَحْيَىٰ خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: ١٢].

تنبيه:

الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليوم قد دخلها التحريف والكتمان، فلا يوثق بها، والمراد بما سبق الإيمان بأصل الكتب.

....

قوله: «ورسله». هم الذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله.

قوله: «وتؤمن بالقدر خيره وشره». هنا أعاد الفعل ولم يكتف بواو العطف، لأن الإيمان بالقدر مهم، فكأنه مستقل برأسه.

والإيمان بالقدر: هو أن تؤمن بتقدير الله عز وجل للأشياء كلها، سواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله عز وجل قدرها وكتبها عنده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فالعلم سابق على الكتابة، ثم إنه ليس كل معلوم الله سبحانه وتعالى مكتوبًا، لأن الذي كتب إلى يوم القيامة، وهناك أشياء بعد يوم القيامة كثيرة أكثر مما في الدنيا هي معلومة عند الله عز وجل، ولكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنها مكتوبة.

وهذا القدر، قال بعض العلماء: إنه سر من أسرار الله، وهو كذلك لم يطلع الله عليه أحدًا، لا ملكًا مقربًا، ولا نبيًا مرسلاً، إلا ما أوحاه الله عز وجل إلى رسله أو وقع فعلم به الناس، وإلا فإنه سر مكتوم، قال تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ الآية [لقمان: ٣٤]، وإذا قلنا: إنه سر مكتوم، فإن هذا القول يقطع احتجاج العاصي بالقدر على معصيته، لأننا نقول لهذا الذي عصى الله عز وجل وقال: هذا مقدر علي: ما الذي أعلمك أنه مقدر عليك حتى أقدمت، أفلا كان الأجدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك ؟

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]، فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتوم لا يطلع عليه إلا بعد وقوع المقدور تطمئن له النفس، وينشرح له الصدر، وتنقطع به حجة البطالين.

وقوله: «خيره وشره». الخير: ما يلائم العبد، والشر: ما لا يلائمه.

ومعلوم أن المقدورات خير وشر، فالطاعات خير، والمعاصي شر، والغنى خير، والفقر شر، والصحة خير، والمرض شر، وهكذا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب عقده الشيخ رحمه

....

الله ليبيِّن أنّ الإيمان بالقدَر من الإيمان بربوبية الله، وأنّ مَن أنكر القدر فقد أشرك في توحيد الربوبيّة، فالإيمان بالقدر من الإيمان بالربوبيّة، فالذي لا يؤمن به فإنه لا يؤمن بربوبيّة الله سبحانه وتعالى، لأنّه جَحد قدره وعلمَه وأنكر أن يكون ما يجري في هذا الكون بتقدير الله ومشيئَتِه، ووصف الله تعالى بالجهل وبالعجز، إلى غير ذلك.

والقدَر: مصدرُ (قدَرْتُ الشيء أقدره): إذا أحطت بمقداره.

فالقدَر هو: إحاطة الله سبحانه وتعالى بالأشياء وعلمُه بها قبل كونِها، ثم كتابتهُ لها في اللّوح المحفوظ.

قال: «وقال ابن عمر» ابن الخطاب رضي الله عنهما: «والذي نفسُ ابن عمر بيده» أقسم عبد الله بن عمر بالله سبحانه وتعالى لتأكيد الأمر وأهميته.

«لو كان لأحدهم مثلُ أحدٍ ذهبًا ثم أنفقَه في سبيل الله ما قبِلَهُ الله منه حتى يؤمن بالقدر». سببُ مقالة ابن عمر هذه: أنّه لَمّا وُجد في آخر حياته رضي الله عنه مَنْ يُنكر القدَر، وسُئل عن ذلك، أجاب بهذا الجواب.

وذلك أنّه ظهر بالبصرة في آخر عصر الصّحابة بعد عهد الخلفاء الراشدين وبعد خلافة معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه وفي آخر حياة ابن عمر وابن عبّاس وغيرِهما من الصّحابة ظهر بالبصرة رجلٌ يُقال له: مَعْبَد الجُهَني، يُنكر القدر، وكان يَحْيَى بن يعمر وحُمَيْد بن عبد الرحمن الحِمْيَري: لَمّا ظهرت هذه المقالة بالبصرة قدما إلى الحجاز حاجّين أو معتمِرين، وقالا: «سنسأل أوّل مَن نلقى من الصّحابة»، وهكذا المسلمون قديمًا وحديثًا إذا أشكل عليهم شيء يرجعون إلى علمائهم ويسألونهم.

فكان أوّل من لقيا: عبد الله بن عمر- رضي الله تعالى عنهما-، وقد وفّقهما الله لهذا الصحابي، العالِم الجليل، لقياه وهو يدخُلُ إلى المسجد الحرام، فأمسكا بكتفَيْه، فقالا: يا أبا عبد الرحمن، حَدَث عندنا في البصرة رجلٌ يقول كذا وكذا.

فكان جواب عبد الله بن عمر: أنّه أقسم بالله: «لو كان لأحدهم» أي: هؤلاء

....

الذين يُنكرون القدر.

«مثل أحد ذهبًا» هذا أبلغ تقدير وأكثر تقدير.

«ثم أنفقه في سبيل الله» النفقة في الجهاد في سبيل الله من أعظم النفقات أجرًا، فهو مبلغٌ كبيرٌ صُرِف في مصرفٍ عظيم، يُرجى لصاحبِه الأجر العظيم، ولكن هؤلاء إذا أنفقوا هذا المبلغ في هذا المصرِف العظيم، وهم يُنكرون القدر؛ فإنّ الله لا يتقبّلُه منهم، لأنّهم لم يؤمنوا بالله عزّ وجلّ، والله لا يقبل إلّا من المؤمنين: «ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر» فدلّ هذا على كفرهم، لأنهم لم يؤمنوا بالقضاء والقدر.

وقوله: «ثم استدل» إلخ.. أي: لم يقل هذا القول من عنده، بل لَمّا قال هذه المقالة العظيمة، ذكر دليلَها من سنّة رسول الله ﷺ.

ولذلك ابن عمر لَمّا ذكر هذه المقالة وهذا الجواب ذكر دليلَه من سنّة رسول الله ﷺ فقال: «حدّثني أبي» عمر بن الخطّاب رضي الله عنه، «قال: بينما نحن جلوسٌ عند النّبي ﷺ إذ طلع علينا رجلٌ شديدُ سواد الشعر، شديدُ بياض الثّياب، لا يُرى عليه أثرُ السفر، ولا يعرفُه منّا أحد، فجلس إلى النّبي ﷺ، وأسند ركبتيه إلى ركبتيه» يعني: أسند ركبتيه إلى ركبتي النّبي ﷺ مقابِلاً له جلوسَ المتعلِّم من المعلِّم، «ووضع يديه على فخذيه» تأدُّبًا مع رسول الله، «وقال: يا محمد أخبرني عن الإسلام؟، قال: الإسلام: أن تشهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسولُ الله، وتقيمَ الصلاة، وتؤتي الزّكاة، وتصوم رمضان، وتحجّ البيت إن استطعتَ إليه سبيلاً، فقال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصدِّقُه»، لأن من العادة أنّ السائل لا يكون عنده علم، فكونُه قال: «صدقتَ»، هذا دليلٌ على أنّه كان عالمًا بالجواب.

ثم قال: «أخبرني عن الإيمان؟، قال: الإيمان أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتُبه، ورُسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدَر خيرِه وشرِّه، قال: صدقت، قال: فعجبنا له يسألُه ويصدِّقُه.

ثم قال: أخبرني عن الإحسان؟ قال: الإحسان: أن تعبُد الله كأنّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنّه يراك، قال: صدقت، فأخبرني عن السّاعة؟» يعني: متى قيام

....

السّاعة؟ قال الرّسول ﷺ: «ما المسئولُ عنها بأعلم من السّائل» أي: أنا لا أدري وأنت لا تدري متى تقومُ السّاعة، لأنّ هذا من علم الله سبحانه وتعالى الذي اختصّ به، لا يعلمُه أحد، لا ملَك مقرّب ولا نبيٌّ مرسل، لا أفضل الملائكة وهو جبريل، ولا أفضل البشر وهو محمد ﷺ.

«قال: فأخبرني عن أماراتها؟» أي: علامات السّاعة التي إذا حصلت فإنّ قيام السّاعة قريب، قال: «أن تَلِد الأَمَة ربّتَها، وأن ترى الحُفاة العُراة العالة رعاة الشاة يتطاولون في البُنيان». قال: ثم خرج الرّجل، ولبثنا مليًا، ثم قال الرسول: «اطلبوا السّائل»، فخرجوا يطلُبونه فلم يجدوه. قال: «هذا جبريل أتاكم يعلّمكم دينكم» تمثّل صورة بشرٍ، وجاء من أجل أن يعلّم الصّحابة دينهم عن طريق السّؤال والجواب بينه وبين رسول الله ﷺ وهم يسمعون.

فأركان الإيمان: الإيمان بالله، وهو: التصديق الجازم بوحدانيّة الله سبحانه وتعالى، واستحقاقِه للعبادة وحدَه لا شريك له، وذلك يشمل أنواع التّوحيد الثلاثة: الإيمان بتوحيد الرّبوبيّة، والإيمان بتوحيد الألوهية، والإيمان بتوحيد الأسماء والصّفات.

فمن جحد نوعًا من هذه الأنواع لم يكن مؤمنًا بالله عزّ وجلّ.

ويدخُل في ذلك: الإيمان بالقدَر، لأنّه من توحيد الرّبوبيّة، ومن أفعال الله سبحانه وتعالى، فهو داخلٌ في توحيد الرّبوبيّة، لكنه أفرده بالذكر تأكيدًا له.

«وملائكته»: تؤمن أنّ لله ملائكة، خلقهم سبحانه وتعالى من نور، خلقهم لعبادته: ﴿يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفۡتُرُونَ﴾، ينفّذون أوامره سبحانه وتعالى في مُلكه، كلّ نوع من الملائكة له عملٌ خاص في هذا الكون يأمر الله تعالى به.

فالإيمان بالملائكة من الإيمان بالغيب، لأننا لا نراهم ولكن الله أخبرَنا عنهم وأخبرنا عنهم رسولُه ﷺ، فنحنُ نؤمن بهم.

ومن لم يؤمن بالملائكة أو لم يؤمن ببعضهم؛ فإنّه كافرٌ بالله عزّ وجلّ.

«وكتبه» وهي: الكتب التي أوحاها الله تعالى إلى رُسله، مثل: التوراة والإنجيل

....

والقُرآن والزَّبور، وصحف إبراهيم، إلى غير ذلك من الكتب التي ينزّلها الله على رسله بواسطة جبريل- عليه الصلاة والسلام-، فيها أوامرُ الله سبحانه وتعالى ونواهيه، وفيها إصلاح البشريّة.

فمن لم يؤمن بالكتب من أوّلها إلى آخرها فإنّه كافر: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾، فلابدّ من الإيمان بجميع الكُتب.

«واليوم الآخر» يوم القيامة، يجب الإيمان باليوم الآخِر، وهو: ما بعد الموت ممّا أخبر الله تعالى به وأخبر به رسولُه ﷺ من أحوال البَرْزَخ، ثم البعث والنُّشور، والقيام من القُبور، ثم الوُقوف في المحشَر، ثم الحساب، ثم الميزان، ثم تطايُر الصحُف فالمؤمن يأخُذ كتابه بيمينِه وغير المؤمن يأخذ كتابه بشمالِه، ثم المُرور على الصّراط، ثم الاستقرار في الجنّة أو في النّار، هذا كلُّه يشمله الإيمان باليوم الآخِر.

فمن لم يؤمن باليوم الآخر فإنّه ولو آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله إذا جحد البعث واليوم الآخر كان كافرًا بالجَميع.

«وتؤمن بالقدر» هذا هو محلّ الشّاهد، وهو أن تؤمن بقضاء الله وقدره، وأنّه لا يجري في هذه الكون شيءٌ إلّا وقد علمه الله في الأزَل وكتبه في اللّوح المحفوظ وشاءه وأراده سبحانه وتعالى ثم خلقَه وأوجَدَه.

فالإيمان بالقضاء والقدر يتضمن أربع مراتب:

المرتبة الأولى: الإيمان بعلم الله الأزَلي بكل شيء، وأنّه يعلم سبحانه وتعالى ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون، كلُّ ذلك يعلمُه الله سبحانه، لا يخفى عليه شيء.

المرتبة الثانية: أن الله كتب في اللّوح المحفوظ كلّ شيء. فالذي يُنكر الكتابة في اللّوح المحفوظ لم يكن مؤمنًا بالله سبحانه وتعالى ولم يكن مؤمنًا بالقدَر.

المرتبة الثالثة: إرادة الله ومشيئتُه للأشياء، فكل شيء يقع ويوجد فهو بإرادة الله.

١٣٩) وعَنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ أَنَّهُ قَالَ لابْنِهِ: (يَا بُنَيَّ إِنَّكَ لَنْ تَجِدَ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى تَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، ومَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَقَالَ: رَبِّ، ومَاذَا أَكْتُبُ؟ قَالَ: اكْتُبْ مَقَادِيرَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ» يَا بُنَيَّ سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ مَاتَ عَلَى غَيْرِ هَذَا فَلَيْسَ مِنِّي».

المرتبة الرّابعة: خلْق الأشياء، فكلّ شيء في هذا الكون فهو من خلْق الله سبحانه.

فكلّ شيء في هذا الكون فهو من خلْقه سبحانه وتعالى، من خيرٍ أو شر، من كفرٍ وإيمان، طاعة ومعصية، غنًى أو فقر، مرض أو صحّة، حياة أو موت، إلى غير ذلك.

لكنِ الشر بالنسبة إليه لا يكون شرًا، لأنّه خلقه لحكمة ووضعه في موضعه، فهو بالنسبة إليه ليس شرًا، وإنّما هو شرٌ بالنسبة لمن وقع عليه ومن قُدِّر عليه بذنوبه ومعاصيه، فإنّه شرٌ بالنسبة للمحلّ الذي يقع عليه، أما بالنسبة لله فهو خير، لأنّه عدلٌ منه سبحانه.

١٣٩) الشـرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: عن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى. . .».

أي: لن تجد طمأنينة الإيمان وراحته وذوقه إلا أن تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، وهذا هو الإيمان بالقدر، فإذا آمن بهذا انشرح قلبه، وعمل بما شرع الله له، ويأخذ بالأسباب، وهو مطمئن القلب؛ لأنه لن يصيبه إلا ما كتب الله له، وهذا تفسير للقدر من باب تفسير الشيء ببعض معناه.

وهكذا قال الصحابة لعبد الله بن فيروز الديلمي التابعي المعروف لما سألهم؛ فأخبروه: أن الله لن يقبل منه شيئًا حتى يؤمن بالقدر، وإلا فإن أعماله حابطة، وهذا

وفِي رِوَايَةٍ لأَحْمَدَ: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ تَعَالَى القَلَمَ، فَقَالَ لَهُ: اكْتُبْ، فَجَرَى فِي تِلْكَ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ»

وفِي رِوَايَةٍ لابنِ وَهْبٍ: قَالَ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالقَدَرِ خَيْرِهِ وشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ بِالنَّارِ».

وفِي المُسْنَدِ والسُّنَنِ عَنِ ابنِ الدَّيْلَمِيِّ قَالَ: أَتَيْتُ أُبَيَّ بنَ كَعْبٍ، فَقُلْتُ: فِي نَفْسِي شَيْءٌ مِنَ القَدَرِ، فَحَدِّثْنِي بِشَيْءٍ لَعَلَّ اللهُ يُذْهِبُهُ مِنْ قَلْبِي، فَقَالَ: «لَوْ أَنْفَقْتَ مِثْلَ أُحُدٍ ذَهَبًا مَا قَبِلَهُ اللهُ مِنْكَ حَتَّى تُؤْمِنَ بِالقَدَرِ، وتَعْلَمَ أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، ومَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ، ولَوْ مُتَّ عَلَى غَيْرِ هَذَا لَكُنْتَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ». قَالَ: فَأَتَيْتُ عَبْدَاللهِ بنَ مَسْعُودٍ، وحُذَيْفَةَ بنَ اليَمَانِ، وزَيْدَ بنَ ثَابِتٍ، فَكُلُّهُمْ حَدَّثَنِي بِمِثْلِ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ. حَدِيثٌ صَحِيحٌ رَوَاهُ الحَاكِمُ فِي صَحِيحِهِ.

يدل على أنهم أرادوا: أنه يكفر بذلك؛ لأن الله قال: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ والذي لا يقبل أعماله ونفقاته هو الكافر الذي لم يتحقق فيه الإيمان.

فمن أنكر القدر فقد أخل بشيء من الإيمان، وبركن من أركان الإيمان وبذلك يحبط عمله.

وقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عوف مرفوعًا: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماء والأرض بخمسين ألف سنة»[1] فالأمر قد أحكم، ومضى به علم الله وكتابته، وهو الخلاق ومدبر الأمور على ما قدرها سبحانه وتعالى.

وهذا هو الحق، وهو منهج أهل السنة والجماعة، من كان عليه كان على الحق، ومن حاد عنه حاد عن الحق.

---

(١) رواه مسلم (٢٦٥٣).

....

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: أفاد حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أنه ينبغي للأب أن يسدي النصائح لأبنائه ولأهله، وأن يختار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال «يا بني!»، وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظاهر.

قوله: «لن تجد طعم الإيمان». هذا يفيد أن للإيمان طعمًا كما جاءت به السنة، طعم الإيمان ليس كطعم الأشياء المحسوسة، فطعم الأشياء المحسوسة إذا أتى بعدها طعم آخر أزالها، لكن طعم الإيمان يبقى مدة طويلة، حتى إن الإنسان أحيانًا يفعل عبادة في صفاء وحضور قلب وخشوع لله عز وجل، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلة، فالإيمان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم.

قوله: «حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك». قد تقول: ما أصابني لم يكن ليخطئني، هذا تحصيل حاصل، لأن الذي أصاب الإنسان أصابه، فلابد أن نعرف معنى هذه العبارة، فتحمل هذه العبارة على أحد معنيين أو عليهما جميعًا:

الأول: أن المعنى «ما أصابك»، أي: ما قدر الله أن يصيبك، فعبر عن التقدير بالإصابة، لأن ما قدر الله سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب.

الثاني: ما أصابك، فلا تفكر أن يكون مخطئًا لك، فلا تقل: لو أنني فعلت كذا ما حصل كذا، لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول: لو أني فعلت كذا ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئًا، وأيًا كان، فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلابد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبًا للإنسان، فإنه لن يمنعه شيء، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت طعم الإيمان، لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه، ولا يمكن أن يتغير أبدًا.

قوله: «وما أخطأك لم يكن ليصيبك». نقول فيه مثل الأول، يعني: ما قدر أن

....

يخطئك فلن يصيبك، فلو أن أحدًا سمع بموسم تجارة في بلد ما وسافر بأمواله لهذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات، نقول له: ما أخطاك من هذا الربح الذي كنت تعد له لم يكن ليصيبك مهما كان ومهما عملت، أو نقول: لم يكن ليصيبك، لأن الأمر لا بد أن يجري على ما قضاه الله وقدره، وأنت جرب نفسك تجد أنك إذا حصلت على هذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان.

قوله: «فقال له: اكتب» القائل هو الله عز وجل: يخاطب القلم، والقلم جماد، لكن كل جماد أمام الله مدرك وعاقل ومريد، والدليل على هذا قوله تعالى في سورة فصلت: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِى خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ الْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ اسْتَوَىٰٓ إِلَى السَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا﴾، أي لا بد أن تنقادا لأمر الله طوعًا أو كرهًا، فكان الجواب: ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: ٩-١١] فقد خاطب الله السموات والأرض وأجابتها ودل قوله طائعين على أن لها إرادة وأنها تطيع، فكل شيء أمام الله، فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل.

قوله: «قال: ربي وماذا أكتب؟». «ماذا»: اسم استفهام مفعول مقدم، و«اكتب»: فعل مضارع مرفوع بالضمة الظاهرة، هذا إذا ألغيت «ذا»، أما إذا لم تلغ، فنقول: «ما» اسم استفهام مبتدأ، و «ذا»: خبره، أي: ما الذي أكتب ؟ والعائد على الموصول محذوف تقديره: ما الذي أكتبه؟

وفي هذا دليل على أن الأمر المجمل لا حرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا، فإننا نقول: إذا كان الأمر مجملاً، فإن طلب استبانته لا يكون معصية، فالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله سبحانه وتعالى، ومع ذلك قال «رب وماذا أكتب؟» قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة، فكتب المقادير.

وقوله: «حتى تقوم الساعة». الساعة هي القيامة، وأطلق عليها لفظ الساعة، لأن كل شيء عظيم من الدواهي له ساعة، يعني: الساعة المعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور.

....

قوله: «يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا». أي: الإيمان بأن الله كتب مقادير كل شيء.

قوله: «فليس مني». تبرأ منه الرسول ﷺ لأنه كافر، والرسول ﷺ بريء من كل كافر.

قوله: «وفي رواية لأحمد: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب..».

هذه الرواية تفيد أمرًا زائدًا على ما سبق، وهو قوله: «فجرى في تلك الساعة»، فإنه صريح في أن القلم امتثل، والحديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللزوم بأنه سيكتب امتثالاً لأمر الله تعالى، فيستفاد منه ما سبق من كتابة الله سبحانه وتعالى كل شيء إلى قيام الساعة، وهذا مذكور في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، وقال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ﴾، أي: من قبل أن نبرأ الخليقة، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢].

قوله: «إلى يوم القيامة». هو يوم البعث، وسمي يوم القيامة، لقيام أمور ثلاثة فيه:

الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، كما قال تعالى: ﴿لِيَوْمٍ عَظِيمٍ ۝٥ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المطففين: ٥-٦].

الثاني: قيام الأشهاد الذين يشهدون للرسل وعلى الأمم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾ [غافر: ٥١].

الثالث: قيام العدل، لقوله تعالى: ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

قوله: «وفي رواية لابن وهب». ظاهره أن هذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث.

قوله: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار». في هذا دليل على أن الإيمان بالقدر واجب ولا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به، فإنه يحرق

....

بالنار.

وقوله: «أحرقه الله بالنار» بعد قوله: «فمن لم يؤمن» يدل على أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات:

الأول: الإيمان والجزم بالقدر بمراتبه الأربع.

الثاني: إنكار ذلك.

وهذان واضحان، لأن الأول إيمان والثاني كفر.

الثالث: الشك والتردد.

فهذا يلحق بالكفر، ولهذا قال: «فمن لم يؤمن»، ودخل في هذا النفي من أنكر ومن شك.

وفي قوله: «أحرقه الله بالنار» دليل على أن عذاب النار محرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البدع يتكيفون لها حتى لا يحسون لها بألم، بل هم يحسون بألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حديث الشفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حتى صاروا حممًا[١]. يعني: فحمًا أسود، وقد دل عليه القرآن في قوله تعالى: ﴿وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الحج: ٢٢]، وفي قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ﴾ [النساء: ٥٦].

قوله: «في نفسي شيء من القدر». لم يفصح عن هذا الشيء، لكن لعله لمّا حَدَثَت بدعة القدر، وهي أول البدع حدوثًا صار الناس يتشككون فيها ويتكلمون فيها، وإلا، فإن الناس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما أن رسول الله ﷺ خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم بأن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا[٢] حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشبه، فلهذا يقول ابن الديلمي: «في نفسي شيء من القدر..».

---

(١) البخاري: (٦١٩٢)، ومسلم: (١٨٣).

(٢) الإمام أحمد في «المسند» (٢/١٧٨)، وصححه أحمد شاكر (٦٦٦٨).

....

قوله: «فحدثني بشيء لعل الله أن يذهبه من قلبي». أي: يذهب هذا الشيء، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضي الله عنهم، كأبي بن كعب، فلكل داء طبيب.

قوله: «لو أنفقت مثل أحد ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر». هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الذين لا تقبل منهم النفقات هم الكفار.

قوله: «ولو مت». «مت» بالضم، لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر «مت»، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٨] في إحدى القراءتين، وهي على هذه القراءة من مات يميت بالياء.

قوله: «علي غير هذا، لكنت من أهل النار». جزم أبي بن كعب رضي الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها.

وقوله: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك». المشار إليه الإيمان بالقدر، وأن يعلم الإنسان أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه، وهؤلاء العلماء الأجلاء كلهم من أهل القرآن.

فأبي بن كعب من أهل القرآن ومن كتبة القرآن، حتى إن الرسول ﷺ دعاه ذات يوم وقرأ عليه سورة: ﴿لَمْ يَكُنِ﴾ البينة، وقال: «إن الله أمرني أن أقرأها عليك»، فقال: يا رسول الله ! سماني الله لك. قال: «نعم». فبكى رضي الله عنه بكاء فرح أن الله عز وجل سماه باسمه لنبيه، وأمر نبيه أن يقرأ عليه هذه السورة[١].

وأما عبد الله بن مسعود، فقد قال النبي ﷺ: «من سره أن يقرأ القرآن غضًا كما أنزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد»[٢].

---

(١) البخاري: كتاب التفسير/ باب تفسير سورة «لم يكن» (٤٦٧٦)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة/ باب من فضائل أبي (٧٩٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: بَيَانُ فَرْضِ الإِيمَانِ بالقَدَرِ.

«الثَّانِيَةُ»: بَيَانُ كَيْفِيَّةِ الإِيمَانِ بِهِ.

«الثَّالِثَةُ»: إِحْبَاطُ عَمَلِ مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

وأما زيد بن ثابت، فهو أحد كتاب القرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه(١).

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الذي أسر إليه النبي ﷺ بأسماء المنافقين(٢).

والحاصل أن هذا الباب يدل على وجوب الإيمان بالقضاء والقدر بمراتبه الأربع.

فيه مسائل:

الأولى: بيان فرض الإيمان بالقدر. دليله قوله: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره».

الثانية: بيان كيفية الإيمان. أي: بالقدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك.

ولم يتكلم المؤلف عن مراتب القدر، لأنه لم يذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مراتب جمعت اختصارًا في بيت واحد، وهو قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجاد وتكوين

والإيمان بهذه المراتب داخل في كيفية الإيمان بالقدر.

الثالثة: إحباط عمل من لم يؤمن به. تؤخذ من قول ابن عمر: «لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبًا ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»، ويتفرع منه ما ذكرناه سابقًا بأنه يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الكافر هو الذي لا يقبل منه العمل.

الرابعة: الإخبار أن أحدًا لا يجد طعم الإيمان حتى يؤمن به. أي: بالقدر،

---

(١) الإمام أحمد في المسند (١/ ٢٦)، والحاكم وصححه، ووافقه الذهبي (٣/ ٢٩٥).

(٢) البخاري: كتاب فضائل القرآن / باب جمع القرآن (٤٧٠٢).

(٣) البخاري: كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة (٣٥٣٣).

«الرَّابِعَةُ»: الإِخْبَارُ بِأَنَّ أَحَدًا لا يَجِدُ طَعْمَ الإِيمَانِ حَتَّى يُؤْمِنَ بِهِ.
«الخَامِسَةُ»: ذِكْرُ أَوَّلِ مَا خَلَقَ اللهُ.
«السَّادِسَةُ»: أَنَّهُ جَرَى بِالمَقَادِيرِ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ.

وهو كذلك، لقول عبادة بن الصامت لابنه: يا بني ! إنك لن تجد طعم الإيمان.. إلخ.

وقد سبق أن الإيمان بالقدر يوجب طمأنينة الإنسان بما قضاه الله عز وجل ويستريح، لأنه علم أن هذا أمر لابد أن يقع على حسب المقدور، لا يتخلف أبدًا، «و لا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا، لأن «لو» تفتح عمل الشيطان»، ولا ترفع شيئًا وقع مهما قلت.

الخامسة: ذكر أول ما خلق الله. ظاهر كلام المؤلف: الميل إلى أن القلم أول مخلوقات الله، ولكن الصحيح خلافه، وأن القلم ليس أول مخلوقات الله، لأنه ثبت في «صحيح البخاري» : «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الذكر مقادير كل شيء»[(١)]، وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العرش، وسبق لنا تخريج الروايتين، وأنه على الرواية التي ظاهرها أن القلم أول ما خلق تحمل على أنه أول ما خلق بالنسبة لما يتعلق بهذا العالم المشاهد، فهو قبل خلق السماوات والأرض، فتكون أوليته نسبية.

السادسة: أنه جرى بالمقادير في تلك الساعة إلى يوم قيام الساعة. لقوله في الحديث: «فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة».

وفيه أيضًا من الفوائد: توجيه خطاب الله إلى الجماد، وأنه يعقل أمر الله، لأن الله وجه الخطاب إلى القلم ففهم واستجاب، لكنه سأل في الأول وقال: «ماذا أكتب؟».

السابعة: براءته ﷺ ممن لم يؤمن به. لقوله: «من مات على غير هذا، فليس

---

(١) البخاري: كتاب التوحيد / باب وكان عرشه على الماء (٦٩٨٢).

«السَّابِعَةُ»: بَرَاءَتُهُ ﷺ مِمَّنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِهِ.

«الثَّامِنَةُ»: عَادَةُ السَّلَفِ فِي إِزَالَةِ الشُّبْهَةِ بِسُؤَالِ العُلَمَاءِ.

«التَّاسِعَةُ»: أَنَّ العُلَمَاءَ أَجَابُوهُ بِمَا يُزِيلُ الشُّبْهَةَ، وذَلِكَ أَنَّهُمْ نَسَبُوا الكَلَامَ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَطْ.

مني»، وهذه البراءة مطلقة، لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرًا مخرجًا عن الملة.

الثامنة: عادة السلف في إزالة الشبهة بسؤال العلماء. لأن ابن الديلمي يقول: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت» بعد أن أتى أبي بن كعب، فدل هذا على أن عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم.

التاسعة: أن العلماء أجابوه بما يزيل شبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله ﷺ فقط. لقول ابن الديلمي: «كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ»، وهذا مزيل للشبهة، فإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله، زالت الشبهة تمامًا، لكن تزول عن المؤمن، أما غير المؤمن، فلا تنفعه، فالله عز وجل يقول: ﴿وَمَا تُغْنِي ٱلْآيَٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوْ جَآءَتْهُمْ كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]، لكن المؤمن هو الذي تزول شبهته بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، ولهذا لما قالت عائشة للمرأة: «كان يصيبنا ذلك تعني الحيض، فنؤمر بقضاء الصوم، ولا نؤمر بقضاء الصلاة»[1] لم تذهب تعلل، ولكن لا حرج على الإنسان أن يذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن عُبادة بن الصّامت» الصحابي الجليل، من السّابقين الأوّلين إلى الإسلام، وأحد النقباء المعروفين.

«أنه قال لابنه» وهو الوليد بن عُبادة بن الصامت قال له ذلك عند وفاته لما قال

---

(١) البخاري: كتاب الحيض/ باب لا تقضي الحائض الصلاة (٣١٥)، ومسلم: كتاب الحيض/ باب وجود قضاء الصوم على الحائض (٣٣٥).

....

له ابنه الوليد: يا أبت أوصني، فقال: أقعدوني، فأقعدوه، فقال هذا الحديث في القدر.

«يا بني» (يا): هذه حرف نداء، و (بُني) تصغير (ابن)، وذلك من أجل العطف والشَّفقة، مثل قول لقمان: ﴿يَبُنَيَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱنۡهَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾، فالأب يوصي أولاده بتقوى الله عزّ وجلّ، وبالتمسّك بالدين والعقيدة، هذا من واجب الآباء نحو أبنائهم، أن يوصوهم بتقوى الله وبإصلاح العقيدة وبالتمسُّك بالدين والأخلاق الفاضلة.

«إنّك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أنّ ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليُصيبك» طعم الإيمان: حلاوته ولذته، وذلك لأنّ الإنسان إذا آمن أنّ ما يجري عليه فهو بقضاء الله وقدره؛ فإنّه يستريح، لا يجزع عند المصيبة، ولا يفرح فَرَح بَطَرٍ عند النعمة، لأنه يؤمن أنّ هذا بقضاء الله وقدره، فيرتاح ضميرُه وتطمئنّ نفسُه ولا يجزع ولا يسخط، قال تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾، قال علقمة: «هو الرجل تُصيبه المصيبة فيعلم أنّها من عند الله فيرضى ويسلّم».

فمن آمن بالقضاء والقدر فإنّه يجد طعم الإيمان وراحة الإيمان عند الشدائد والمصائب والمنغّصات، فلا يكون فيه جزع ولا تسخُّط ولا تضايُق، وإنّما يؤمن أنّ هذا قضاء وقدر وأنّه لابدّ منه.

أمّا الذي لا يؤمن بالقضاء والقدر فإنّه يُصبح في قلق وفي همٍّ. فإذا أصابه شيء فإنّه يجزع ويسخط ويلوم نفسَه: لماذا لم أعمل كذا؟، ليتني عملت كذا، ليتني فعلتُ كذا، ثم يُصبح في عذاب أشدّ من ألم المصيبة.

ثم قال: «سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «إنّ أوّلَ ما خلَق الله القلم، فقال له: اكتب، فقال: ربِّ، وماذا أكتبُ؟» القلم هو: خلق من خلق الله سبحانه وتعالى، لا يعلم مقداره وصفته وكيفيّته إلّا الله سبحانه وتعالى، لأنّه من عالم الغيب.

والمكتوب فيه هو: اللوح المحفوظ، ففيه: قلم، وفيه كتابة، وفيه مكتوب فيه

....

وهو اللّوح المحفوظ.

«فقال له: اكتب مقادير كلّ شيء حتى تقوم السّاعة» فهذا فيه: أنّ كلّ ما يجري في هذا الكون فهو مكتوبٌ بالقلم- بقلم المقادير- في اللّوح المحفوظ، من أوّل الخلق إلى آخر الخلق، حتّى تقوم السّاعة، لا يخرُج عن هذا شيءٌ في هذا الكون أبدًا، لا في الماضي ولا في الحاضر ولا في المستقبل، لا من الخير ولا من الشّر، لا من المحبوب ولا من المكروه، كلّه مكتوبٌ ولابدّ أن يقع.

ثم قال عُبادة رضي الله عنه: «يا بُني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غيرِ هذا فليس مِنّي» من مات على غير الإيمان بالقضاء والقدر ولم يتب إلى الله سبحانه وتعالى قبل موته فإنّ محمدًا ﷺ بريءٌ منه. فهذا وعيدٌ شديد حيث تبرّأ منه رسولُ الله ﷺ.

قال: «وفي رواية لأحمد: «إنّ أوّل ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب. فجرى في تلك الساعة بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة» رواية أحمد مثل رواية أبي داود والترمذي، وفيها: أنّ الله جل وعلا أمر القلم عندما خلقه أن يكتب مقادير الأشياء، إلّا أنّ لفظة رواية أحمد: «إلى يوم القيامة»، والرواية التي قبلها: «إلى أن تقوم الساعة» والمعنى واحد، الساعة ويوم القيامة بمعنًى واحد، ولكن هذا من باب التأييد للروايات بعضها ببعض.

«ولابن وهب» عبد الله بن وهب: الإمام المحدِّث، من أصحاب الإمام مالك، توفّي على رأس المائة الثّانية، وله مؤلّفات مشهورةٌ في الحديث والرّواية.

قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنّار» هذا نوعٌ آخر من الوعيد، وهو أنّ من أنكر القضاء والقدر فإنّ الله يُحرقه بالنّار، فدلّ على أنّ الإيمان بالقضاء والقدر أمرٌ واجب، وأنّ إنكاره موجبٌ لدخول النّار.

قال: «وفي المسند والسنن» المسند هو: «مسند الإمام أحمد»، والمراد بالسنن هنا: «سنن أبي داود»، «سنن ابن ماجه».

«عن ابن الدَّيْلَمي» ابن الدَّيْلَمي هو: عبد الله بن فَيْرُوز الدَّيْلَمي، أحد كبار التّابعين،

....

وأبوه فيروز الذي قتل الأسود العَنْسي الذي ادّعى النبوّة في اليمن، والديلمي نسبة إلى جبل الدَّيْلَم في بلاد فارس، فأصلُه فارسيّ، ممّن جاءوا إلى اليمن من الفُرس، وأسلم وحسُن إسلامُه، وابنُه من كبار التّابعين والأئمّة المشهورين رحمه الله.

قال: «أتيتُ أُبيَّ بن كعب» الأنصاري، الصحابيّ الجليل، أقرأ الصّحابة لكتاب الله عزّ وجلّ.

«فقلتُ: في نفسي شيءٌ من القدَر» هكذا طلبةُ العلم الذين يبحثون عن الحقيقة، ويبحثون عن العلم النّافع إذا أشكل عليهم شيء، لا يَعْتَمدون على رأيِهم، وإنّما يرجعون إلى أهل العلم، فهذا ابن الدّيلمي رجع إلى الصّحابة لَمّا أشكل عليه أمرُ القدر.

«فحدِّثني بشيء» يعني: أخبرني بشيء عن رسول الله ﷺ، لأنّ أُبيّ بن كعب من خواصّ صحابة الرّسول ﷺ.

«لعلّ الله أن يُذهبَه من قلبي» هذا دليلٌ على أنّ الإشكال يزول بالعلم، وعلى أن الوساوس تزول بالعلم النّافع، لا شفاء لها إلّا العلم، والعلم إنّما يطلب عند أهله، لا يطلب من المتعالمين والمبتدئين والصحافيّين الذين يعتمدون على قراءة الكتب، هؤلاء قُرّاء، وليسوا علماء، وما يُخطئون فيه أكثر ممّا يصيبون، فلابدّ من الرّجوع إلى أهل العلم الرّاسخين في العلم.

«فقال: لو أنفقتَ مثل أُحدٍ ذهبًا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدَر» لأنّ العمل وإن كان جليلًا فإنّه لا يُقبل إلّا إذا صحّت العقيدة، ومن صحّة العقيدة: الإيمان بالقضاء والقدر، لأنّه من أركان العقيدة.

«ولو مِتّ على غير هذا لكنتَ من أهل النار» هذا- أيضًا- مطابِق لحديث رسول الله ﷺ الذي مرّ قريبًا: «من لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنّار».

قال: «فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمان وزيد بن ثابت» هؤلاء أقطاب من أقطاب العلم، من صحابة رسول الله ﷺ.

يُروى: أنّ أُبيّ بن كعب أحاله إلى عبد الله بن مسعود، ولَمّا أجابه عبد الله بن

....

مسعود أحاله على حُذيفة بن اليمان، ولَمّا أجابه حُذيفة بن اليمان أحاله على زيد بن ثابت، فكلّ واحد منهم يُحيلُه على أخيه لأجل أن يزول ما في قلبِه.

يقول ابن الديلمي: «فكلهم حدّثني بمثل ذلك عن النّبي ﷺ» أنّ الإيمان بالقضاء والقدر أمرٌ لابدّ منه، ولا يقبل الله من أحدٍ عملاً إلّا به، ومن لم يؤمن به فهو من أهل النّار، نسأل الله العافية والسّلامة.

فيُستفاد من هذه الأحاديث التي أوردها المصنِّف رحمه الله في هذا الباب فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: وُجوب الإيمان بالقضاء والقدر، وأنّ ذلك من أركان الإيمان الستّة.

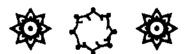
الفائدة الثانية: أنّ الله سبحانه وتعالى كتب مقادير الأشياء في اللوح المحفوظ بعد علمه بها سبحانه وتعالى أزَلاً، ففيه: ثُبوت كتابة القدر في اللّوح المحفوظ.

الفائدة الثالثة: أنّ القلم من أوّل المخلوقات، وهل هو قبل العرش أو بعده؟ على القولين السّابقين، والرّاجح: أن العرش هو السّابق.

الفائدة الرابعة: أنّ من لم يؤمن بالقضاء والقدر فهو إمّا كافر وإمّا مبتدع.

الفائدة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وُجوب الرُّجوع إلى أهل العلم عندما يعرِض للإنسان مشكِلة، فإنّها لا تزول إلّا بالرجوع إلى أهل العلم، وذلك لقوله تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

الفائدة السادسة: في هذه الأحاديث دليلٌ على أنّ أهل العلم لا يقولون إلّا بما دلّ عليه الدّليل من كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.



١٤٠) الشـرح:

١٤٠) ٦١- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي المُصَوِّرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «قَالَ اللهُ تَعَالَى: ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً». أَخْرَجَاهُ.

---

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** يريد المؤلف من هذا الباب بيان أن التصوير من جملة الكبائر التي تقدح في التوحيد، وتعرض فاعله لغضب الله والنار وتنقص إيمانهم وتضعفه.

«**والمصورون**»: هم الذين يضاهئون بخلق الله في تصوير الحيوانات سواء باليد أي: بأي آلة إذا كان المصور من ذوي الأرواح.

قوله: «**من أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي..**»: هذا استفهام بمعنى النفي، أي: لا أحد أظلم ممن عمل هذا العمل وهذا العامل، والمراد التحذير والتنفير من هذا العمل، وهذا الأسلوب جاء في القرآن في مواضع كقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ وغيرها.

قوله: «**يخلق كخلقي**»: أي: يصور كتصويري، فإن كانت عندهم قوة، فليخلقوا ذرة يكون لها صفات الذرة من العقل والمشي وغيرها، وهي مع صغرها فهي حيوان عجيب، أو ليخلقوا حبة لها صفات من الإنبات والنفع للناس، فإن كانوا يعجزون في الجماد والنبات، فكيف في الحيوان؟

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «باب ما جاء في المصورين». يعني: من الوعيد الشديد.

قوله: «ومن أظلم». «من» اسم استفهام والمراد به النفي، أي: لا أحد أظلم، وإذا جاء النفي بصيغة الاستفهام كان أبلغ من النفي المحض، لأنه يكون مشربًا معنى التحدي والتعجيز.

قوله: «يخلق». حال من فاعل ذهب، أي: ممن ذهب خالقًا.

والخلق في اللغة: التقدير، قال الشاعر:

....

ولأنت تفري ما خلقت وبعـ ض الناس يخلق ثم لا يفري

تفري، أي: تفعل، ما خلقت، أي: ما قدرت.

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقدير، وهذا هو الغالب، والخلق بالنسبة للإنسان يكون بعد تأمل ونظر وتقدير، وأما بالنسبة للخالق، فإنه لا يحتاج إلى تأمل ونظر لكمال علمه، فالخلق بالنسبة للمصور يكون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل.

قوله: «يخلق كخلقي». فيه جواز إطلاق الخلق على غير الله، وقد سبق الكلام على هذا والجواب عنه في أول الكتاب.

قوله: «فليخلقوا ذرة». اللام للأمر، والمراد به التحدي والتعجيز، وهذا من باب التحدي في الأمور الكونية، وقوله تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِۦٓ﴾ [الطور: ٣٤] من باب التحدي في الأمور الشرعية.

والذرة: واحدة الذر، وهي النمل الصغار، وأما من قال بأن الذرة هي ما تتكون منها القنبلة الذرية فقد أخطأ، لأن النبي ﷺ يخاطب الصحابة بلغة العرب وهم لا يعرفون القنبلة الذرية، وذكر الله الذرة لأن فيها روحًا، وهي من أصغر الحيوانات.

قوله: «أو ليخلقوا حبة». «أو» للتنويع، أي: انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح.

قوله: «أو ليخلقوا شعيرة». يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المراد الحبة من الشعير ويكون هذا من باب ذكر الخاص بعد العام، لأن حبة الشعير أخص من الحب. أو تكون «أو» شكًّا من الرواي.

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة أو شعيرة.

فإن قيل: يوجد رز أمريكي مصنوع.

أجيب إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا هو السر في قوله: «أو ليخلقوا حبة»، ثم قال: «أو ليخلقوا شعيرة»، لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها الله، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾ [الأنعام: ٩٥]، وقال تعالى:

....

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ﴾، أي: اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيأوا كل ما عندهم، ﴿وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ٧٣].

قال العلماء: لو أن الذباب وقع على هذه الأصنام فامتص شيئًا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منه، فيكون الذباب غالبًا لها، ﴿ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ﴾، أي: العابد والمعبود، ﴿وَٱلْمَطْلُوبُ﴾، أي: الذباب.

ويستفاد من هذا الحديث، وهو ما ساقه المؤلف من أجله: تحريم التصوير، لأن المصور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيًا لله في صنعه والتصوير له أحوال:

الحال الأولى: أن يصور الإنسان ما له ظل كما يقولون، أي: ما له جسم على هيكل إنسان أو بعير أو أسد أو ما أشبهها، فهذا أجمع العلماء فيما أعلم على تحريمه، فإن قلت: إذا صور الإنسان لا مضاهاة لخلق الله، ولكن صور عبثًا، يعني: صنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجار شيئًا على صورة حيوان وليس قصده أن يضاهي خلق الله، بل قصده العبث أو وضعه لصبي ليهدئه به، فهل يدخل في الحديث؟

فالجواب: نعم: يدخل في الحديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشترط فيها القصد، وهذا هو سر المسألة، فمتى حصلت المضاهاة ثبت حكمها، ولهذا لو أن إنسانًا لبس لبسًا يختص بالكفار ثم قال: أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول: التشبه منك بهم حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك، لو أن أحدًا تشبه بامرأة في لباسها أو في شعرها أو ما أشبه ذلك وقال: ما أردت التشبه، قلنا له: قد حصل التشبه، سواء أردته أم لم ترده.

الحال الثانية: أن يصور صورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محرم لعموم الحديث، ويدل عليه حديث النمرقة حيث أقبل النبي ﷺ إلى بيته، فلما أراد أن يدخل رأى نمرقة فيها تصاوير، فوقف وتأثر، وعرفت الكراهة في وجهه، فقالت عائشة رضي الله عنها: ما أذنبت يا رسول الله؟ فقال: «إن أصحاب

. . . .

هذه الصور يعذبون يوم القيامة، يقال لهم: أحيوا ما خلقتم»[1] فالصور بالتلوين كالصور بالتجسيم، وقوله في «صحيح البخاري»: «إلا رقمًا في ثوب»، إن صحت الرواية هذه، فالمراد بالاستثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها.

الحال الثالثة: أن تلتقط الصور التقاطًا بأشعة معينة بدون أي تعديل أو تحسين من الملتقط، فهذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين:

فالقول الأول: أنه تصوير، وإذا كان كذلك، فإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويرًا، إذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هذه الصورة على هذه الورقة، ونحن متفقون على أن هذه صورة، فحركته تعتبر تصويرًا، فيكون داخلًا في العموم.

القول الثاني: أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصور، وهذا الرجل ما صورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابًا في آلة التصوير، ثم خرج من هذه الآلة، فإن رسم الحروف من الكاتب الأول لا من المحرك، بدليل أنه قد يشغلها شخص أمي لا يعرف الكتابة إطلاقًا أو أعمى في ظلمة، وهذا القول أقرب، لأن المصور بهذه الطريقة لا يعتبر مبدعًا ولا مخططًا، ولكن يبقى النظر: هل يحل هذا الفعل أو لا؟

والجواب: إذا كان لغرض محرم صار حرامًا، وإذا كان لغرض مباح صار مباحًا؛ لأن الوسائل لها أحكام المقاصد، وعلى هذا، فلو أن شخصًا صور إنسانًا لما يسمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الذكرى للتمتع بالنظر إليه أو التلذذ به أو من أجل الحنان والشوق إليه، فإن ذلك محرم ولا يجوز لما فيه من اقتناء الصور؛ لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك.

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجواز وما أشبهه، فهذا يكون مباحًا، فإذا ذهب الإنسان الذي يحتاج إلى رخصة إلى هذا المصور الذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني، فصوره،

---

(١) البخاري: كتاب اللباس/ باب من كره القعود على الصور (٥٦١٢)، ومسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صور الحيوان (٥٦١٢).

....

فإن هذا المصور لا نقول: إنه داخل في الحديث، أي: حديث الوعيد على التصوير، أما إذ قال: صورني لغرض آخر غير مباح، صار من باب الإعانة على الإثم والعدوان.

الحال الرابعة: أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين:

النوع الأول: أن يكون مما يصنعه الآدمي، فهذا لا بأس به بالاتفاق، لأنه إذا جاز الأصل جازت الصورة، مثل أن يصور الإنسان سيارته، فهذا يجوز، لأن صنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى.

النوع الثاني: ما لا يصنعه الآدمي وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نوع نام، ونوع غير نام، فغير النامي، كالجبال، والأودية، والبحار، والأنهار، فهذه لا بأس بتصويرها بالاتفاق، أما النوع الذي ينمو، فاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهور أهل العلم على جواز تصويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السلف والخلف إلى منع تصويره، واستدل بأن هذا من خلق الله عز وجل، والحديث عام: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي»، ولأن الله عز وجل تحدى هؤلاء بأن يخلقوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيها روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا فيكون تصويرها حرامًا، وقد ذهب إلى هذا مجاهد رحمه الله أعلم التابعين بالتفسير، وقال: إنه يحرم على الإنسان أن يصور الأشجار، لكن جمهور أهل العلم على الجواز، وهذا الحديث هل يؤيد رأي الجمهور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب: يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران:

أولاً: العموم في قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

ثانيًا: قوله: «أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة»، وهذه ليست ذات روح، فظاهر الحديث هذا مع مجاهد ومن يرى رأيه، ولكن الجمهور أجابوا عنه بالأحاديث التالية، وهي أن قوله: «أحيوا ما خلقتم»، وقوله: «كلف أن ينفخ بها الروح»[1] يدل على أن المراد تصوير ما فيه روح، وأما قوله: «أو ليخلقوا حبة أو

....

ليخلقوا شعيرة»، فذكر على سبيل التحدي، أي: أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه.

* ثالثًا: **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** هذا الباب عقده المصنِّف رحمه الله في «كتاب التّوحيد» لأنّ التصوير سببٌ من أسباب الشّرك، ووسيلةٌ إلى الشّرك الذي هو ضدّ التّوحيد، كما حدث لقوم نوح لَمّا صوّروا صور الصالحين ونصبوها في مجالسهم وآل بهم الأمر إلى أنْ عبدوهم من دون الله، فأوّلُ شركٍ حصل في الأرض كان بسبب الصور وبسبب التّصوير.

وكذلك قوم إبراهيم الذين بعث إليهم الخليل- عليه الصلاة والسلام- كانوا يعبدون التماثيل التي هي صور مجسّمة لذوات الأرواح، وكذلك بنو إسرائيل عبدوا التمثال الذي هو على صورة عجل صنعه لهم السامري.

فدلّ هذا: على أنّ التصوير سببٌ لحُدوث الشرك ووسيلةٌ إلى الشّرك، وذلك أنه إذا صنعت الصورة وعلّقت أو نُصبت وهي صور للزُّعماء والصّالحين والعلماء فإنّها في النهاية تعظَّم، ثم الشيطان يأتي النّاس ويقول لهم: إنّ هذه الصور فيها نفعٌ لكم، وفيها دفعُ ضرر، فيعظّمونها ويتبرّكون بها، ويذبحون لها وينذرون لها، حتى تُصبح أوثانًا تعبد من دون الله.

فقوله رحمه الله: «باب ما جاء في المصوِّرين» يعني: من الوعيد الشديد والنّهي والزّجر عن ذلك.

قال: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله تعالى» مثل هذا الحديث الذي يرويه النّبي ﷺ عن ربّه يسمّى بالحديث القُدْسي، نسبةً إلى القدس وهو الطهر، لأنّه من كلام الله سبحانه وتعالى الذي رواه عنه رسوله ﷺ.

فقوله: «قال الله تعالى» هذا فيه إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنّه يقول ويتكلّم كما يليق بجلاله سبحانه وتعالى، ليس ككلام المخلوق، وإنّما هو كلام الخالق جل

---

(١) البخاري: كتاب اللباس / باب من صور صورة (٥٦١٨)، ومسلم: كتاب اللباس/ باب تحريم تصوير صورة حيوان (٢١١٠).

....

وعلا.

«ومن أظلم ممّن ذهب يخلق كخلقي» هذا استفهام إنكار بمعنى النفي، أي: لا أحد أشدُّ ظلمًا من المصوِّر، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾، ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَىٰٓ إِلَى ٱلْإِسْلَٰمِ﴾ أي: لا أحد أظلم من هذا، فهو أظلمُ الظّالمين.

قوله تعالى: «يخلُق كخلقي» يعني بذلك المصوِّر، لأنّ المصور يحاول أن يوجد صورة تشبه الصورة التي خلقها الله سبحانه وتعالى.

وقوله: «فليخلقوا ذرة» هذا أمر تعجيز وتحدٍّ، وهو تحدٍّ قائم إلى يوم القيامة.

«أو ليخلُقوا حبّة» حبّة من النّبات: حبّة بُرّ أو دخن أو غير ذلك من الحبوب.

«أو ليخلُقوا شعيرة» أي: حبّة شعير، هم يستطيعون أن يعملوا صورة حبّة، صورة شعيرة، صورة ذرّة، لكن لا يستطيعون أن يجعلوا فيها الخواصّ التي يجعلها الله في هذا المخلوق، وإنّما عمله أن يستطيع أن يجعل مجرّد شكل ورسم أو تمثال فقط.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ﴾، فالله وحده يجعل حبّة فيها خصائص الحبّة من الحياة والنموّ والطعم، لأنّ الحبّة فيها حياة، ولذلك إذا بُذِرَتْ نبتَتْ، وتسمّى حياة نموّ، أمّا حياة الحيوان فإنّها تسمّى حياة حركة، فالحياة على قسمين: حياةُ حركة، وهذه في ذوات الأرواح، وحياةُ نموّ وهي في الحبُوب والبُذور التي جعلها الله سبحانه وتعالى لإنباتِ الأشياء.

«أخرجاه» أي: أخرجه البخاري ومسلم- رحمهما الله.

۞ ۞ ۞

١٤١) الشـرح:

١٤١) ولَهُمَا عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ القِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهِئُونَ بِخَلْقِ اللهِ».

ولَهُمَا عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ يُجْعَلُ لَهُ بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا نَفْسٌ يُعَذَّبُ بِهَا فِي جَهَنَّمَ».

ولَهُمَا عَنْهُ مَرْفُوعًا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ، ولَيْسَ بِنَافِخٍ».

ولِمُسْلِمٍ عَنْ أَبِي الهَيَّاجِ قَالَ: قَالَ لِي عَلِيٌّ: «أَلا أَبْعَثُكَ عَلَى مَا بَعَثَنِي عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ أَلَّا تَدَعَ صُورَةً إِلَّا طَمَسْتَهَا، ولا قَبْرًا مُشْرِفًا إِلَّا سَوَّيْتَهُ».

---

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: ولهما عن عائشة مرفوعًا: «أشد الناس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

ولهما عن ابن عباس مرفوعًا: «كل مصور في النار يجعل له بكل صورة».

وقد أجمع العلماء على أن التصوير لذوات الأرواح من الكبائر والمحرمات إذا كان له ظل، أما إذا لم يكن له ظل كالصور في الجدران والألواح والملابس وغيرها فقد رخص في هذا بعض التابعين، وأجمع الأئمة الأربعة والجمهور على أنه محرم أيضًا كالذي له ظل، وهذا هو الصواب؛ لأن الأحاديث تعم ما كان له ظل، وما لا ظل له، وتشمل التصوير الشمسي وغيره. ومما يدل على عمومها أن النبي ﷺ لما قدم على عائشة ورأى عندها سترًا فيه تصوير تغير وغضب، وقال: «إن أصحاب هذه الصور يعذبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم»، والستر ليس فيه شيء من الظل ومن جنسه التصوير الشمسي، ويدل عليه ما وقع يوم الفتح لما كان على الكعبة صور فقدم له أسامة ماء فمحاه النبي ﷺ.

فالواجب الحذر من هذا، وأن يبتعد المؤمن عن هذه المحرمات، ويجب إزالتها وإتلافها وطمسها.

قوله: ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته، مشرفًا: مرتفعًا.

وقد نهى النبي ﷺ عن البناء على القبور؛ لأنه من وسائل الشرك، وكذلك

....

الصور من وسائل الشرك، وإنما وقع الشرك في قوم نوح بسبب هذه الصور.

أما ما يتعلق بما وقع هذه الأيام من الحاجة إلى الصور فهذا يقيد بقيده، من باب الإكراه إذا اضطر الإنسان إلى ذلك، فيفعله وهو كاره له، كالصور لحفيظة النفوس، وما أشبه ذلك.

والصور تمنع دخول الملائكة كما في الحديث الصحيح(١).

ويستثنى من ذلك ما كان ممتهنًا، فهذا لا يجوز تصويره، ولو كان ممتهنًا، لكن إذا استعمل ممتهنًا في الفراش، فلا يمنع دخول الملائكة، كما أن الكلب الذي للحرث والزرع والماشية لا يمنع دخول الملائكة؛ لأنه مأذون فيه ومرخص فيه، فلو اشترى بساطًا فيه صورة وجعله وسادة، فهذا لا يضر لأنه ممتهن، والله أعلم.

*** صور المجاهدين الأفغان داخل في هذا المنع؛ لأن الجهاد يقوم بدون صور، وكذلك لا ينبغي التصوير بأشرطة الفيديو.**

*** تحنيط الحيوانات لا ينبغي؛ لأنه إضاعة للأموال، بلا فائدة وقد يحتج بها الناس بأنها صورة، وقد يعتقد فيها باطلًا كما يعتقده بعض الناس أنها تمنع الجن، وما أشبه ذلك.**

*** والمنع في الحديث يشمل الصور التعليمية وغيرها.**

*** ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «أشد». كلمة أشد اسم تفضيل بمعنى أعظم وأقوى.

قوله: «الناس» للعموم. والمراد الذين يعذبون.

وقوله: «عذابًا». تمييز مبين للمراد بالأشد، لأن التمييز كما قال ابن مالك:

اسم بمعنى من مبين نكره ينصب تمييزًا بما قد فسره

والعذاب يطلق على العقاب، ويطلق على ما يؤلم ويؤذي وإن لم يكن عقابًا، فمن الأول قوله تعالى: ﴿أَدْخِلُوٓاْ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ﴾ [غافر: ٤٦]، أي:

(١) رواه البخاري (٥٩٤٩)، ومسلم (٢١٠٦).

....

العقوبة والنكال، لأنه يدخل النار والعياذ بالله، كما قال الله تعالى: ﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، ومن الثاني قول النبي عليه الصلاة والسلام: «السفر قطعة من العذاب»[1] وقوله: «الميت يعذب بالنياحة عليه»[2].

قوله: «يوم القيامة». هو اليوم الذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك.

وقوله: «أشد» مبتدأ، «والذين يضاهئون» خبره، ومعنى يضاهئون، أي: يشابهون.

«بخلق الله»، أي: بمخلوقات الله سبحانه وتعالى.

والذين يضاهئون بخلق الله هم المصورون، فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذا المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة بجسمها، والوصفية أن يصنع صورة ملونة، لأن التلوين والتخطيط باليد وصف للخلق، وإن كان الإنسان ما خلق الورقة ولا صنعها لكن وضع فيها هذا التلوين الذين يكون وصفًا لخلق الله عز وجل.

فيستفاد من الحديث:

تحريم التصوير، وأنه من الكبائر، لثبوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله عز وجل.

وجوب احترام جانب الربوبية، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله عز وجل، لقوله: «يضاهئون بخلق الله»، ومن أجل هذا حرم الكبر، لأن فيه منازعة للرب، عز وجل، وحرم التعاظم على الخلق، لأن فيه منازعة للرب سبحانه وتعالى، وكذلك هذا الذي يصنع ما يصنع فيضاهي خلق الله فيه منازعة لله عز وجل

---

(١) البخاري: كتاب العمرة/ باب السفر قطعة من العذاب (١٧١٠)، ومسلم: كتاب الإمارة/ باب السفر قطعة من العذاب (١٩٢٧).

(٢) البخاري: كتاب الجنائز/ باب ما يكره من النياحة على الميت (١٢٢٩)، ومسلم: كتاب الجنائز/ باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه (٩٣٣).

....

في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته، فيستفاد من هذا الحديث وجوب احترام جانب الربوبية.

قوله: «ولهما». أي: البخاري ومسلم.

قوله: «كل مصور في النار». «كل» : من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشيء، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان.

قوله: «يعذب بها». كيفية التعذيب ستأتي في الحديث الذي بعده أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ.

وقوله: «كل مصور في النار» أي: كائن في النار.

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخوارج كينونة خلود، لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئة أن المراد بالمصور الكافر، لأن المؤمن عندهم لا يدخل النار أبدًا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لدخول النار وقد يدخلها وقد لا يدخلها، وإن دخلها لم يخلد فيها.

وقوله: «بكل صورة صورها». يقتضي أنه لو صور في اليوم عشر صور ولو من نسخة واحدة، فإنه يجعل له في النار عشر صور يقال له: انفخ فيها الروح، وظاهر الحديث أنه يبقى في النار معذبًا حتى تنتهي هذه الصور.

قوله: «كلف». أي: ألزم، والمكلف له هو الله عز وجل.

قوله: «وليس بنافخ». أي: كلف بأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه.

قوله: «عن أبي الهياج». هو من التابعين.

قوله: «قال لي علي». هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

قوله: «ألا أبعثك». البعث: الإرسال بأمر مهم، كالدعوة إلى الله، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ [النحل: ٣٦].

قوله: «على ما بعثني». يحتمل أن تكون «على» على ظاهرها للاستعلاء؛ لأن المبعوث يمشي على ما بعث عليه، كأنه طريق له، وهذا هو الأولى، لأن ما وافق

....

ظاهر اللفظ من المعاني فهو أولى بالاعتبار، ويحتمل أن «على» بمعنى الباء، أي: بما بعثني عليه.

وقد بعث النبي ﷺ عليًا إلى اليمن بعد قسمة غنائم حنين، وقدم على النبي ﷺ وهو في مكة في حجة الوداع[١].

قوله: «أن لا تدع». «أن «مصدرية، «لا»: نافية «تدع» : منصوب بأن المصدرية، وهي بدل بعض من كل من «ما» في قوله: «على ما بعثني»، لأن النبي ﷺ بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلك، لكن هذا مما بعثه النبي ﷺ.

قوله: «صورة» نكرة في سياق النفي فتعم.

وجمهور أهل العلم: أن المحرم هو صور الحيوان فقط، لما ورد في «السنن» من حديث جبريل أن النبي ﷺ قال: «فمر برأس التمثال يقطع، فيصير كهيئة الشجرة»[٢]، وسبق بيان ذلك قريبًا.

قوله: «إلا طمستها». إن كانت ملونة فطمسها بوضع لون آخر يزيل معالمها، وإن كانت تمثالاً فإنه يقطع رأسه، كما في حديث جبريل السابق، وإن كانت محفورة فيحفر على وجهه حتى لا تتبين معالمه، فالطمس يختلف، وظاهر الحديث سواء كانت تعبد من دون الله أو لا.

قوله: «ولا قبرًا مشرفًا». أي: عاليًا.

قوله: «إلا سويته» له معنيان:

الأول: أي سويته بما حوله من القبور.

الثاني: جعلته حسنًا على ما تقتضيه الشريعة، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ﴾ [الأعلى: ٢]، أي: سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان.

والإشراف له وجوه:

---

(١) مسلم: كتاب الجنائز / باب الأمر بتسوية القبر (٩٦٩).

(٢) الإمام أحمد في المسند (٢/ ٣٠٥).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: التَّغْلِيظُ الشَّدِيدُ فِي المُصَوِّرِينَ.

«الثَّانِيَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى العِلَّةِ، وهُوَ تَرْكُ الأَدَبِ مَعَ اللهِ لِقَوْلِهِ: «ومَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ كَخَلْقِي».

«الثَّالِثَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى قُدْرَتِهِ وعَجْزِهِمْ، لِقَوْلِهِ: «فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً أَوْ شَعِيرَةً».

الأول: أن يكون مشرفًا بكبر الأعلام التي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب)، ونصائب أصح لغة من نصائل.

الثاني: أن يبني عليه، وهذا من كبائر الذنوب، لأن النبي ﷺ: «لعن المتخذين عليها المساجد والسرج».

الثالث: أن تشرف بالتلوين، وذلك بأن يوضع على أعلامها ألوان مزخرفة.

الرابع: أن يرفع تراب القبر عما حوله فيكون بينًا ظاهرًا.

فكل شيء مشرف، أي: ظاهر على غيره متميز عن غيره يجب أن يسوى بغيره، لئلا يؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك.

فيه مسائل:

الأولى: التغليظ في المصورين. تؤخذ من قوله: «أشد الناس عذابًا..» الحديث.

الثانية: التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي».

فمن ذهب يخلق كخلق الله، فهو مسيء للأدب مع الله عز وجل لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه.

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم، لقوله: «فليخلقوا ذرة أو شعيرة».

لأن الله خلق أكبر من ذلك وهم عجزوا عن خلق الذرة أو الشعيرة.

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابًا. لقوله: «أشد الناس عذابًا..»

«الرَّابِعَةُ» : التَّصْرِيحُ بِأَنَّهُمْ أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا.

«الخَامِسَةُ» : أَنَّ اللهَ يَخْلُقُ بِعَدَدِ كُلِّ صُورَةٍ نَفْسًا يُعَذِّبُ بِهَا الْمُصَوِّرُ فِي جَهَنَّمَ.

«السَّادِسَةُ» : أَنَّهُ يُكَلَّفُ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ.

«السَّابِعَةُ» : الأَمْرُ بِطَمْسِهَا إِذَا وُجِدَتْ.

الحديث.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

لقوله: «يجعل له بكل صورة نفس يعذب بها في جهنم».

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح. لقوله: «كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ»، وهذا نوع من التعذيب من أشق العقوبات.

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت. لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها».

وتؤخذ من حديث الباب أيضًا: الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبور، لقوله: «أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»، لأن في كل منهما وسيلة إلى الشرك.

ويؤخذ منه أيضًا: إثبات العذاب يوم القيامة، وأن الجزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صورة صورها نفس فتعذبه في جهنم.

ويؤخذ منه: وقوع التكليف في الآخرة بما لا يطاق على وجه العقوبة.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** «ولهما» أي: البخاري ومسلم: «أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله».

قوله ﷺ: «أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة» في الحديث الأوّل: «ومن أظلم»، وفي هذا أنّهم أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة، فيدلّ على أنّ التصوير حرامٌ مغلّظ التحريم وأنّه كبيرة من كبائر الذّنوب، فهذا الذي يعتبرونَه فنًّا ويتعلّمونه ويتفاخرون به هو أعظم الذُّنوب.

وهم أشدّ النّاس عذابًا يوم القيامة إن لم يتوبوا إلى الله عزّ وجلّ.

«الذين يضاهئون بخلق الله»: «يضاهئون» يعني: يحاولون أنْ يوجدوا صورة

....

تشبه خلق الله سبحانه وتعالى، فالمضاهاة معناها: المشابهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ﴾ يعني: يشابهون من سبقهم من الكُفّار.

فهذا فيه: بيان علّة تحريم التصوير؛ أنّ فيه مضاهاة لخلق الله تعالى وإساءة أدب مع الله عزّ وجلّ.

قال: «ولهما عن ابن عبّاس: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كلُّ مصوِّرٍ في النّار، يُجعل له بكلّ صورة صوّرها نفسٌ يعذّب بها في جهنّم».

هذا الحديث- أيضًا- فيه وعيدٌ شديد؛ فقوله: «كلّ مصوّر» هذا يشمل جميع أنواع التصوير، سواءً كان نحتًا وتمثالاً، وهو ما يسمّونه: مجسّمًا، أو كان رسمًا على ورق، أو على لوحات، أو على جُدران، أو كان التقاطًا بالآلة الفوتوغرافية التي حدَثت أخيرًا، لأنّ من فعل ذلك يسمّى مصوِّرًا، وفعله يسمّى تصويرًا، فما الذي يخرج التصوير الفوتوغرافي كما يزعم بعضهم.

فما دام أنّ عمله يسمّى تصويرًا فما الذي يُخرِجُه من هذا الوعيد؟

وكذلك قوله: «بكل صورة صوّرها» عامٌّ أيضًا لكل صورة أيًا كانت، رسمًا أو نحتًا، أو التقاطًا بالآلة، غاية ما يكون أنّ صاحب الآلة أسرع عملاً من الذي يرسُم، وإلا فالنتيجة واحدة، كلٌّ من هؤلاء قصده إيجاد صورة.

وقوله: «يُجعل له بكلّ صورة صوّرها نفسٌ يعذّبُ بها في جهنّم» أي: كلّ صورة صوّرها بأي وسيلة إمّا بنحت وإمّا برسم وإمّا بالتقاطِ بالآلة الفوتوغرافية، كثرت الصور أو قلّت، تحضر هذه الصور التي صوّرها يوم القيامة، ويُجعل في كل صورة نفس يعذّب بها في جهنّم، هذه الصور تصلاه بالعذاب يوم القيامة، كما أنّ صاحب المال الذي لا يزكّيه يجعل الله مالَه ثُعبانًا يوم القيامة -أو في القبر- فيسلّطه عليه: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ﴾، كذلك الصور هذه تجعل فيها نفوس وتسلّط

....

عليه تعذّبه في نار جهنّم، فما بالُكم بالذي صنع آلات الصّور؟ سيعذّب بها يوم القيامة -والعياذُ بالله- كلّها. وهل يخلصه الذي يقول: الصورة الفوتوغرافية لا يعذب بها.

وقوله ﷺ: «يُجعل له بكل صورة «قيل: إنّ الباء سببيّة، أي: بسبب كلّ صورة، وقيل: إنّ الباء بمعنى (في)، أي: في كل صورة نفس يعذب بها.

قوله: «ولهما عنه مرفوعًا: من صوّر صورة» هذا نوعٌ آخر من الوعيد.

«كُلّف أن ينفُخ فيها الرّوح، وليس بنافخ» أي: تحضَر الصور كلّها التي صنعها، ويؤمر بأن ينفخ فيها الأرواح، وهل يستطيع أن ينفخ الأرواح؟ ولكن هذا من باب التعجيز والعذاب، بأن يُحمّل ما لا يستطيع وما لا يُطيق -والعياذ بالله- فيطولُ عذابُه.

ولولا أنّ في التصوير خُطورة وفيه فتنة؛ لَمَا رأيتُم فتنة النّاس به وكثرتُه، لأنّ الشيطان يحثّ عليه ويحرّض عليه، لأنّ فيه ضررًا على بني آدم، فهو يحثُّهم على فعله وعلى صنعتِه من أجل أن يتحمّلوا هذه الأوزار - والعياذُ بالله.

قوله: «عن أبي الهيّاج» الأسدي: تابعيّ جليل، وهو كاتب أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب رضي الله عنه.

«قال: قال لي عليّ: «ألا أبعثُك» أي: أُرسلك.

«على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟» أي: أرسلني إليه رسولُ الله ﷺ وكلّفني به، فعليّ رضي الله عنه يريد أن يكلّف أبا الهيّاج بهذه المهمة التي كلّفه بها رسولُ الله ﷺ.

«أن لا تدع صورةً» «صورة» نكرة في سياق النفي، فتعُمّ كلّ صورة مجسّمة أو مرسومة أو ملتقطة بالآلة.

«إلّا طمستَها» وطمسُها يكون بإتلافها، أو بقطع رأسها، حتى تصبح مجّرد شكل بدون رأس، لأنّ الصورة تتمّ وتتكامل بالرأس والوجه.

وليس معنى طمس الصورة كما يفعله بعض الجُهّال أو المتحيّلين أنّه يجعل خطًّا

....

في عُنُق الصورة فيُصبح كالطّوق، لأن الطمس: أن تُزيل الرأس إمّا بقطعهِ، وإمّا بتلطيخِه وإخفائه تمامًا.

فقوله: «ولا قبرًا مشرفًا إلّا سوّيته» المشرف: المرتفع، بأن يُبنى على القبر بناية من أجل تعظيم القبر، كما يفعل من بناء الأضرحة، أو يزاد عليها غير ترابها حتى تصبح مرتفعة أكثر من شبر، أو تجصص القبور ويكتب عليها، وما أشبه ذلك، فهذا كله حرام، لأنّه وسيلة إلى الشرك.

وقوله ﷺ: «ولا قبرًا مشرِفًا» يعني: مرتفعًا بالبناء، أو بالتّراب، ففي هذا: الأمر بهدم القباب التي على القبور والأمر بهدم الأضرحة، وأنّ هذا من مهمّة ولاة الأُمور، ومن مهمّة كلّ مسلم أن يعمل على إزالة هذا الشيء، فإن كان له سلطة وقدرة فيزيله باليد، وإن كان ليس له سُلطة فإنّه يتصل بولاة الأمور ويبلّغ ويبيِّن أن هذا أمر يلزمهم إزالته، لأن الرسول ﷺ أمر بإزالته. ويحذر المسلمين من البناء على القبور ويبيِّن لهم السنّة في دفن الموتى وما يلزم اتخاذه وعمله نحو القبور مما هو مشروع.

فهذه الأحاديث فيها فوائد ومسائل عظيمة:

المسألة الأولى: فيها إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنه يتكلم، وكلامه سبحانه وتعالى كسائر صفاته، يليق بجلاله سبحانه وتعالى ليس ككلام المخلوق.

المسألة الثانية: في الحديث دليلٌ على تحريم التّصوير بجميع أنواعه.

المسألة الثالثة: في الأحاديث بيان علّة تحريم التصوير، وهي: أنّه مضاهاة لخلق الله، وأيضًا هو وسيلةٌ من وسائل الشرك وهذه أشدّ.

المسألة الرابعة: في الأحاديث: دليل على أنّ التصوير من كبائر الذّنوب، وذلك لأمور:

أوّلاً: الرسول ﷺ قال عن ربّه: «من أظلمُ ممّن ذهب يخلُق كخلقي»، هذا يدلّ على أنّ التصوير كبيرة.

وثانيًا: وعيدُه بالنّار، والوعيد بالنّار إنّما يكون على كبيرة.

١٤٢) ٦٢- بابٌ

ما جَاءَ فِي كَثْرَةِ الحَلفِ، وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وجوب طمس الصور.

١٤٢) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أراد المؤلف بهذا الباب بيان أن كثرة الحلف نقص في الإيمان ونقص في التوحيد؛ لأن كثرة الحلف تفضي إلى أشياء:

١- التساهل في ذلك وعدم المبالاة.

٢- الكذب.

٣- ظن الكذب به.

فإن من كثرت أيمانه وقع في الكذب؛ فينبغي التقلل من ذلك وعدم الإكثار من الأيمان، ولهذا قال سبحانه وتعالى:

﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ فهذا الأمر للوجوب، فيجب حفظ اليمين إلا من حاجة لها، فالمؤمن يحفظها ويصونها إلا من حاجة ولمصلحة شرعية، أو عند الخصومة والحاجة إليها، ونحو ذلك، ولا يكثر منها لما سبق، ولأنه يظن به الكذب.

حديث أبي هريرة مرفوعًا: «**الحلف منفقة للسلعة ممحقة للكسب**» وفي لفظ «**للربح**» وهو يدل على أن كثرة الحلف من أسباب الوقوع في الخطأ، فهو يعتني باليمين يريد أن ينفق السلعة، ولكنه يقع في الحظر، وهو محق الكسب، وقلة البركة، فهي مروجة للسلعة؛ لأنه يحلف ويقول: والله إنها طيبة، إنها كذا وكذا، فيغري الناس الذين يشترون منه فربما صدقوه، لكنها ممحقة للربح الذي يتعاطاه بسبب تساهله في هذه الأيمان.

وفي حديث أبي ذر عند مسلم مرفوعًا: «**ثلاثة لا يكلمهم الله، ولا ينظر إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: المسبل إزاره والمنان بما أعطى والمنفق سلعته بالحلف الكاذبة**»[1] فتنفيق السلعة قد تكون بالكذب، أو بالصدق ولكن

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ: «الحَلِفُ مَنفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ». أَخْرَجَاهُ.

الإكثار منها توقع في الكذب، وربما جره الطمع إلى أن يكذب فالواجب أن يحذر.

ثم هذه الأيمان من أسباب محق البركة والوقوع في الحرام.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الحلف: هو اليمين والقسم، وهو تأكيد الشيء بذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي: الباء والواو، والتاء.

قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾. هذه الآية ذكرها الله في سياق كفارة اليمين، وكل يمين لها ابتداء وانتهاء ووسط، فالابتداء الحلف، والانتهاء الكفارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركه، أو يترك ما حلف على فعله، وعلى هذا كل يمين على شيء ماض، فلا حنث فيه، وما لا حنث فيه فلا كفارة فيه، لكن إن كان صادقًا، فقد بر، وإلا، فهو آثم، لأن الكفارة لا تكون إلا على شيء مستقبل.

وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب: نعم، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المجامع في نهار رمضان لرسول الله ﷺ: والله، ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني.

لكن إن حلفت على مستقبل بناء على غلبة الظن، ولم يحصل، فقيل: تلزمك كفارة، وقيل: لا تلزمك، وهو الصحيح، كما لو حلفت على ماض.

والمراد بعدم كثرة الحلف: ما كان معقودًا ومقصودًا، أما ما يجري على اللسان بلا قصد، مثل: لا والله، وبلى والله، في عرض الحديث، فلا مؤاخذة فيه، لقوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

وكذلك من حفظ اليمين عدم الحنث فيها، وهذا فيه تفصيل، لأن النبي ﷺ قال لعبد الرحمن بن سمرة: «إذا حلفت على يمين، فرأيت غيرها خيرًا منها، فكفر عن يمينك، وائت الذي هو خير»[1]، فحفظ اليمين في الحنث أن لا يحنث إلا إذا

---

(١) رواه مسلم (١٠٦).

....

كان خيرًا، وإلا، فالأحسن حفظ اليمين، وعدم الحنث.

والكفارة: إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا على سبيل التخيير، فمن لم يجد، فصيام ثلاثة أيام، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة[1].

قوله: «الحلف». المراد به الحلف الكاذب، كما بينته رواية أحمد: «اليمين الكاذبة»[2]، أما الصادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق.

قوله: «منفقة للسلعة». أي: ترويج للسلعة، مأخوذ من النفاق، وهو مضي الشيء ونفاذه، والحلف على السلعة قد يكون حلفًا على ذاتها أو نوعها أو وصفها أو قيمتها.

الذات: كأن يحلف أنها من المصنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه.

النوع: كأن يحلف أنها من الحديد، وهي من الخشب.

الصفة: كأن يحلف أنها طيبة، وهي رديئة.

القيمة: كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية.

قوله: «ممحقة للكسب». أي: متلفة له.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** مناسبة هذا الباب لكتاب التّوحيد: أنّ الاستهانة بالحلف بالله تنقّصُ التّوحيد، كما أنّ تعظيم الحلف بالله من كمال التّوحيد.

قوله: «بابُ ما جاء» يعني: من الوعيد في حقّ من كثر حلفه.

والحلف -كما سبق- هو: تأكيد شيء بذكر معظَّم بأحد حروف القسم، التي هي: الواو والباء والتّاء.

وكثرة الحلف معناها الإكثار من الأيمان في كلِّ مناسبة، وقد يكون في غير داع

---

(١) البخاري: كتاب الإيمان / باب الكفارة قبل الحنث وبعده (٦٢٨٤)، ومسلم: كتاب الأيمان/ باب ندب من حلف يمينًا فرأى غيرها خيرًا منها أن يأتي الذي هو خير (١٦٥٢).

(٢) ابن جرير (١٢٥٠٣).

(٣) الإمام أحمد في « المسند » (٢/ ٢٣٥، ٢٤٣، ٤١٣).

....

لليمين إلّا التغرير بالنّاس وخداع النّاس كحالة المنافقين الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿وَيَحْلِفُونَ عَلَى ٱلْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ وقال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، والحلّاف: كثير الحلف.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ لمّا ذكر الله سبحانه وتعالى كفّارة الأيمان في سورة المائدة في قوله تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِيٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ جعل في اليمين الكفّارة إذا حَنِثَ فيها وخالَفها ممّا يدلّ على عظمتها، لأنّ الكفّارة لا تكون إلّا من ذنبٍ وقع فيه الإنسان، فنقض اليمين يحتاج إلى كفّارة ممّا يدلّ على عِظَم اليمين.

ثم قال: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ ذكر العلماء عدّة تفاسير لهذه اللّفظة: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾ على قولين:

القول الأول: أنّ معنى ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾، أي: لا تحلفوا، نهيٌ عن الحلف، فلا يحلف الإنسان إلّا إذا دعت إلى ذلك حاجة، ويكونُ صادقًا في يمينه، كما قال ﷺ: «من حلف بالله فليصدُق، ومن حُلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله».

والقول الثاني: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ﴾، أي: بالكفّارة إذا حَنِثْتُم فاحفظوها، يعني: كفِّروا عنها، فالكفّارة حفظٌ لليمين واحترامٌ لها.

قال: «عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «الحلف» أي: اليمين.

«مَنْفَقَةٌ للسلعة» أي: مروِّجة للسِّلْعة وسببٌ لِنفَاقِها، وهو خُروجها من يد صاحبها إلى الزّبائن، لأنّ النّفَاق، معناه: الخُروج، ومنه سُمِّيت النفقة نفقة؛ لأنّها تَخْرُج من مُلك صاحبها، ومنه سُمّي المنافق منافِقًا لأنّه يخرُج من الدِّين.

فنَفاقُ السلع: رواجُها وخُروجها من ملك صاحبها بالبَيْع، لأنّ النّاس يصدِّقون

....

صاحبها فيشترونها، فإذا حلف أنّ هذه السلعة من النّوع الجيّد أو حلف أنّ هذه السلعة سميت بكذا وكذا أو حلف أنّه اشتراها بكذا، فإنّ هذا سبب لأن يصدِّقه النّاس وأن يشتروها منه، لأنّ المسلمين يعظِّمون اليمين، فيُحسنون الظنّ بهذا الحالف ويثقون به، ويقولون لولا أنّه صادقٌ لَمَا حلف، فيقبلون ما يقول ويعملون به، فيكونُ ذلك سببًا لرواج سلعه.

وقوله في: «مَمْحَقَةٌ للكسْبِ» المَحْقُ معناه: الإزالة، أي: أنّ اليمين تُزيل الكسْب إمّا بأن تُزيل البركة منه، ولو بقي، ولا ينتفع به صاحبه، وإمّا بأن تُزيل أصل المال بالتلف والآفات، فلا يبقى عنده هذا الكسب بل يمحقُه الله كما قال تعالى: ﴿يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِي ٱلصَّدَقَٰتِۗ﴾، فالمحق قد يكون معنويًا بمعنى مَحْقِ البركة من المال، فلا يكونُ مباركًا على صاحبه ولا ينتفع به ولا يتصدّق منه.

وقد يكون محقًا حسيًا بأن يُتلف الله المال بآفةٍ، أو بسرقة، أو بنهب، أو بتسلُّط ظالم، أو غير ذلك.

«أخرجاه» أي: أخرج هذا الحديث الإمام البخاري ومسلم في «صحيحيهما»، فهو متّفقٌ عليه، وهذا أعلى ما يكون من درجات الصحّة.



١٤٣) الشـرح:

١٤٣) عَنْ سَلْمَانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «ثَلاثَةٌ لا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ ولا يُزَكِّيهِمْ ولَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ: أُشَيْمَطٌ زَانٍ، وعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، ورَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ، لا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، ولا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ» رَوَاهُ الطَّبَرَانِي بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

---

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث سلمان مرفوعًا: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم..».

«أشيمط زان»: أي: شيخ أشمطه الشيب، والشمط: الشيب.

«عائل مستكبر»: أي: فقير مستكبر مع فقره يتكبر، والغني قد يتكبر من أجل المال، ولكن الفقير لا يدعوه إلى التكبر إلا أن هذه سجية له، وشيء استقر في قلبه.

ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه: ففي هذا حذر من هذه الخصال.

ومنها: زنى الشيخ الكبير، فإن هذا عظيم؛ لأن الشاب قد يتوب ويقلع، أما الشيخ فلا يحمله على هذا إلا أنه شيء استقر وبقي في قلبه.

قال العلماء: وهذا يدل على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي وضعفه.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «ثلاثة». مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم.

قوله: «لا يكلمهم الله». التكليم: هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه، فلا يسمى كلامًا على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولاً بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ﴾ [المجادلة: ٨]، وقال عمر رضي الله عنه في قصة السقيفة: «زورت في نفسي كلامًا»[١]، أي: قدرته.

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع.

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في «الصواعق

---

(١) البخاري: كتاب المحاربين/ باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت (٦٤٤٢).

....

المرسلة».

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسول ﷺ وأخذنا منهما عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتي الجدل قوم إلا ضلوا، علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه بحروف يفهمها المخاطب؛ إذ لو كان يتكلم بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدًا، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله عز وجل يخاطب كل أحد بلغته.

وقوله: «ولا يزكيهم». التزكية: بمعنى التوثيق والتعديل، فيوم القيامة لا يوثقهم، ولا يعدلهم، ولا يشهد عليهم بالإيمان، لما فعلوه من هذه الأفعال الخبيثة.

وقوله: «ولهم عذاب أليم». «عذاب» : عقوبة، و«أليم»، أي: شديد موجع مؤلم.

وقوله: «أشيمط». هو الذي اختلط سواد شعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بردت شهوته، وليس فيه ما يدعوه إلى الزنى، ولكنه زنى مما دل على خبث في إرادته، ولأنه عادة قد بلغ أشده واستوى وعرف الحكمة، وملكه عقله أكثر من هواه، فالزنى منه غريب؛ إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان بالله، فصار السبب المقتضي لزناه ضعيفًا، والحكمة التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سنه يستلزم أن يغلب جانب العقل، ولكنه خالف مقتضى ذلك؛ ولهذا صغره تحقيرًا لشأنه، فقال: «أشيمط» تصغير أشمط.

قوله: «زانٍ». صفة لأشيمط، وهو مرفوع بضمة مقدرة على الياء المحذوفة، والحركة التي على النون ليست حركة إعراب.

والزنى: فعل الفاحشة في قبل أو دبر، وقد نهى الله عنه وبين أنه فاحشة، فقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: ٣٢].

....

قوله: «عائل مستكبر». أي: فقير، قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، فالمقابلة هنا في قوله: ﴿فَأَغْنَىٰ﴾ بينت أن معنى عائلاً: فقيرًا.

والاستكبار: الترفع والتعاظم، وهو نوعان:

استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به.

واستكبار على الخلق باحتقارهم واستذلالهم، كما قال النبي ﷺ: «الكبر بطر الحق وغمط الناس»(١).

فالفقير داعي الاستكبار عنده ضعيف، فيكون استكباره دليلاً على ضعف إيمانه وخبث طويته، ولذلك كانت عقوبته أشد.

قوله: «ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه».

أي: جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما ساغ التأويل هنا، لأن النبي ﷺ هو الذي فسره بذلك، حيث قال: «لا يشتري إلا بيمينه..»، وإذا كان المتكلم هو الذي أخرج كلامه عن ظاهره، فهو أعلم بمراده، وهذا كما في الحديث القدسي: «عبدي، استطعمتك فلم تطعمني، استسقيتك فلم تسقني»، فبينه الله عز وجل بقوله: «عبدي فلان جاع فلم تطعمه، استسقاك فلم تسقه».

فقوله: «لا يشتري إلا بيمينه،ولا يبيع إلا بيمينه» استئنافية تفسيرية؛ لقوله: «جعل الله بضاعته»، ومعناها: أنه كلما اشترى حلف، وكلما باع حلف طلبًا للكسب، واستحق هذه العقوبة، لأنه إن كان صادقًا، فكثرة أيمانه تشعر باستخفافه واستهانته باليمين ومخالفته قوله تعالى: ﴿وَٱحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾.

وإن كان كاذبًا جمع بين أربعة أمور محذورة:

استهانته باليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين.

كذبه.

أكله المال بالباطل.

أنه يمين غموس، وقد ثبت عن النبي ﷺ، أنه قال: «من حلف على يمين هو

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان / باب تحريم الكبر (٩١).

....

فيها فاجر يقتطع بها مال امرئ مسلم لقي الله وهو عليه غضبان»[١].

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: قوله: «وعن سلمان» هو: سلمان الفارسي: الصحابي الجليل.

«أن رسولَ الله ﷺ قال: «ثلاثةٌ» مبتدأ.

«لا يكلِّمهم الله» إلى آخره، خبر المبتدأ، والمعنى: لا يكلّمهم الله يوم القيامة كلامَ تكريم وتنعيم، فهم يُحرمون من كلام الله عزّ وجلّ لهم يوم القيامة، وقد جاء في الحديث: «ما منكم من أحد إلّا سيكلّمه ربُّه، ليس بينه وبينَه ترجُمان»، أمّا هؤلاء فلا يكلِّمهم الله غضبًا عليهم، فيحرمهم الله من هذه النعمة العظيمة.

فهذا فيه: إثبات الكلام لله عزّ وجلّ، وأنّ الله يكلِّم عبادَه، ويتكلّم بما شاء من أمرِه سبحانه وتعالى.

والكلام من صفاته سبحانه، وهو من صفات الأفعال التي يفعلُها إذا شاء سبحانه.

«ولا يزكيهم»؛ أي: لا يطهّرهم؛ لأنَّ الزكاة تُطلق على عدّة معانٍ:

منها: النماء، والزيادة في الأموال، فإنّ الزكاة تنمِّي الأموال وتزيدُها.

ومنها: الطهارة قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ أي: تطهّرهم بها من الذُّنوب ومن البخل ومن الشُّحّ، فالزكاة تطهّر صاحبها من الصّفات الذميمة، وتطهِّرُ المال من الآفات ومن سائر الأشياء التي تُخِلُّ به.

كما أنّ الزكاة تدفع البلاء عن المسلم، وهي سببٌ لنُزول الغيث ونزول البركات، فتزيد في أرزاق النّاس، فهي خيرٌ كلُّها، ولذلك سُمّيت زكاة.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ أي: موجِع، من (الألم) وهو: الوجع، فمعنى (أليم): مؤلِم.

ثم بيّنهم ﷺ بعدما أجملهم، وذكر وعيدَهم ولما تطلّعت الأنظار إلى معرفتهم من أجل أن يُجتنب ما هم عليه، لأجل أن لا يكون الإنسان مثلَهم وبينهم.

فقال: «أُشَيْمِطٌ» خبر لمبتدأ مقدَّر، تقديره: هم أشيمط إلى آخره. والأُشَيْمِط:

---

(١) البخاري: كتاب الأيمان/ باب قوله الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَأَيْمَـٰنِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ (٢٥٣١)، ومسلم: كتاب الأيمان/ باب وعيد من اقتطع حق مسلم بيمين فاجرة (١٣٨).

....

تصغير (أَشمَط)، والأَشمَطُ هو: الذي بدأَهُ الشَّيب. وصغّره تحقيرًا له.

«زانٍ» أصله «زاني» بالياء، ثم حذفت الياء تخفيفًا، وهو صفةٌ لـ (أُشَيمِط) مرفوع، وعلامة رفعه: الضمّة المقدّرة على الياء المحذوفة، منع من ظهورها الثِّقَل.

والزنا قبيح، وكبيرةٌ من كبائر الذّنوب، قال تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾.

الثاني: «عائلٌ» المراد به: الفقير.

«مستكبر» الكبر قبيح؛ لأنَّ الإنسان مطلوبٌ منه التواضُع، والتواضع لربّه سبحانه وتعالى، والتواضُع لخلق الله عزّ وجلّ، فالاستكبار ضدّ التواضع.

والاستكبار يحمل الإنسان على الكفر أحيانًا وترك عبادة الله عزّ وجلّ استكبارًا، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

فالكبر كلّه قبيح من كلّ أحد؛ لأنَّ المطلوب من الإنسان التواضع.

ولكنّ الكبر من العائل- أي: الفقير- أشدّ؛ لأنّه لا داعي للكبر فيه؛ لأنَّ الغني قد يغترّ بمالِه ويستكبر من أجل المال ويرى أنّه له درجة ترفعُه عن النّاس بسبب مالِه، فيحملهُ المال والغنى على الكبر: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾.

لكن العائل ليس عنده سبب للكبر، فاستكبارُه من باب السجيّة القبيحة فيه، لأنّه استكبر من غير سبب، فدلّ على أنّ الكبر سجيّة فيه وطبيعةٌ فيه، لا من أجل سبب خارجيّ، فلذلك صار استكبارهُ أشدّ من استكبار الغنيّ.

والثّالث: - وهو محلّ الشّاهد من الحديث للباب-: «رجل جعلَ الله بضاعته» هذا عامٌّ للرجال وللنساء، ولكن ذكر الرّجال من باب التغليب، وإلّا فهو عامٌّ للرجال وللنّساء».

«جعلَ الله بضاعَته»، «جعل» فعل ماض من الأفعال التي تنصبُ مفعولَين: المفعول الأول الحلف بالله والمفعول الثاني: «بضاعَتَه».

فمعنى «جعل الله بضاعتَه»: أنّه لا يشتري إلّا بيمينه ولا يبيع إلّا بيمينه، كما فسّره ﷺ بقوله: «لا يشتري إلّا بيمينه، ولا يبيع إلّا بيمينِه».

١٤٤) وفِي الصَّحِيحِ عَنْ عِمْرَانَ بنِ حُصَيْنٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «خَيرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ»، قَالَ عِمْرَانُ: فَلا أَدْرِي أَذَكَرَ بَعْدَ قَرْنِهِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاثًا «ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَومًا يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ، ويَخُونُونَ ولا يُؤْتَمَنُونَ، ويُنْذِرُونَ ولا يُوفُونَ، ويَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ».

ومحلّ الشّاهد هو الجملة الأخيرة «ورجلٌ جعلَ الله بضاعَتَه، لا يشتري إلّا بيمينه، ولا يبيع إلّا بيمينِه»، فهو يُكثر من الحِلف بالله تهاوُنًا، فكان جزاؤه هذه العقوبات الثلاث: لا يكلِّمه الله، ولا يزكِّيه، وله عذابٌ أليم، والعياذُ بالله.

١٤٤) الشـرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** وعن عمران مرفوعًا: **«خير أمتي قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»** قال عمران: فلا أدري.. أقال بعد قرنه مرتين أو ثلاثة.

لكن المحفوظ من حديث عمر -رضي الله عنه- في المسند أنه ذكر مرتين، ومن حديث ابن مسعود كذلك كما هو هنا.

ثم بعد ذلك قوم يشهدون، ولا يستشهدون.. أي: أن الأحوال تتغير بعد القرون المفضلة الثلاثة حتى توجد الخيانة، وعدم الوفاء بالنذر، وشهادة الزور، ويكثر هذا؛ لضعف الإيمان وغلبة الجهل، وكثرة الأغلاط.

والوفاء بالنذر واجب، وهو من صفات المؤمنين، والنذر لا ينبغي كما في الحديث: **«أنه لا يأتي بخير، وإنما يستخرج من البخيل»** [١]، ولكن إذا نذر فعليه الوفاء، وهذا في نذر الطاعة. أما نذر المعصية، فلا يجوز الوفاء به، والصواب أن عليه كفارة يمين.

«يظهر فيهم السمن»: أي: سمن الأجسام؛ لكثرة الغفلة والإغراق في النعيم والشهوات، ولكن لا يلزم أن يكون كل سمين متوعدًا وسيئًا، بل قد يكون منهم الصالحون، وهذا إشارة إلى الغفلة والإعراض عن الاستعداد للآخرة.

---

١) رواه البخاري (٦٦٠٨)، ومسلم (١٦٣٩).

وفِيهِ عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ قَوْمٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، ويَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»

قَالَ إِبْرَاهِيمُ: كَانُوا يَضْرِبُونَنَا عَلَى الشَّهَادَةِ والعَهْدِ ونَحْنُ صِغَارٌ.

«خير الناس قرني»: هذا يعم الناس كلهم في هذا القرن وهم الصحابة، وهم خير الناس بعد الأنبياء، ثم التابعين ثم تابعي التابعين.

ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته. وهذا من قلة المبالاة والاستهتار؛ لضعف الإيمان وقلته.

أما المؤمن، فلا يشهد إلا عن صدق، ولا يحلف إلا عن حاجة.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار.

أي: كان السلف يؤدبون أبناءهم إذا شهدوا، وحلفوا حتى لا يعتاد هذا. إذا كذب؛ فيشهد على كذبه بالأيمان الفاجرة والعهود الظالمة؛ أي: يؤدبونهم ويوجهونهم حتى لا يعتادوه؛ لأن الصبي إذا اعتاده فقد يتساهل فيه في كبره، وهذا من عناية السلف بتربية أبنائهم على الأخلاق الفاضلة والتربية الصحيحة، وهذا هو الواجب على كل مسلم.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «خير أمتي قرني». «خير «مبتدأ، و«قرني»: خبر.

وفي لفظ لهما: «خيركم قرني»، وفي حديث ابن مسعود عند البخاري: «خير الناس قرني»، وهذا هو المراد، إذ المراد بالخيرية هنا الخيرية المضافة إلى الناس عمومًا وليس للأمة فقط، ولهذا ثبت عنه ﷺ، أنه قال: بعثت من خير قرون بني آدم»[(١)].

وعليه فالخيرية في القرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط.

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: إن القرن معتبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم

---

(١) البخاري: كتاب المناقب/ باب صفة النبي ﷺ (٣٣٦٤).

....

الناس الصحابة، فالقرن قرنهم، وإذا كان معظم الناس التابعين، فالقرن قرنهم، وهكذا.

قوله: «أمتي». المراد أمة الإجابة؛ لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير.

قوله: «فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثًا». وإذا كان عمران لا يدري، فالأصل أنه ذكر مرتين، فتكون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور.

قوله: «ثم إن بعدكم قوم». وفي البخاري: «ثم إن بعدكم قومًا» بنصب «قومًا»، وهذا لا إشكال فيه، لكن في هذه الرواية برفع «قوم» فيه إشكال، لأن «قوم» اسم «إن»، وقد اختلف العلماء في هذا:

فقيل على لغة ربيعة: الذين لا يقفون على المنصوب بالألف، فلم يثبت الكاتب الألف، فصارت «قوم».

وهذا جواب ليس بسديد، لأن الرواية ليست مكتوبة فقط، بل تكتب وتقرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف.

وقيل: إن «إن» اسمها ضمير الشأن محذوف، إلحاقًا لها بأن المخففة، لأن «إن» المخففة تعمل بضمير الشأن، قال الشاعر:

وإن مالك كانت كرام المعادن ....

فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة، فاسمها ضمير الشأن محذوف، وعليه يكون «بعدكم» : خبرًا مقدمًا، و«قوم» : مبتدأ مؤخر، والجملة خبر «إن».

وقيل: «إن» هنا بمعنى، فيكون المعنى ثم نعم قوم، وهذا فيه تكلف.

والظاهر: القول الثاني إن صحت الرواية.

قوله: «يشهدون» أي: يخبرون عما علموه مما شاهدوه أو سمعوه أو لمسوه أو شموه؛ لأن الشهادة أخبار الإنسان بما يعلم، قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن شَهِدَ بِٱلْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [الزخرف: ٨٦]، ولا يشترط أن تكون بلفظ أشهد على الصحيح، وقد قيل للإمام أحمد: إن فلانًا يقول: «إن العشرة في الجنة ولا أشهد». فقال: إن فقد شهد.

قوله: «ولا يستشهدون». اختلف العلماء في معنى ذلك:

....

فقيل: «لا يستشهدون»، أي: لا يطلب منهم تحمل الشهادة، فيكون المراد الذين يشهدون بغير علم، فهم شهداء زور.

وقيل: لا يطلب منهم أداء الشهادة، فيكون المراد أداء الشهادة قبل أن يدعى لأدائها، فيكون ذلك دليلاً على تسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها.

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النبي ﷺ قال: «ألا أخبركم بخير الشهداء: الذي يأتي بالشهادة قبل أن يسألها»(١). فهذا ترغيب في أداء الشهادة قبل أن يسألها، بدليل قوله: «ألا أخبركم بخير الشهداء». وظاهره: أنه معارض لحديث عمران، فجمع بعض العلماء بينهما بأن المراد بحديث زيد من يشهد بحق لا يعلمه المشهود له.

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيد: من يشهد بشيء من حقوق الله تعالى؛ لأن حقوق الله تعالى ليس لها مطالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسألها، فيكون المراد بهم رجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهم . وجعل بعضهم أن المراد بحديث زيد بن خالد أنه كناية عن السرعة بأداء الشهادة، فكأنه لشدة إسراعه يؤديها قبل أن يسألها.

وبعض العلماء رجح حديث عمران، لأنه في «الصحيحين» على حديث زيد بن خالد، لأنه في «مسلم».

قوله: «خير الناس». دليل على أن قرنه خير الناس، فصحابته ﷺ أفضل من الحواريين الذين هم أنصار عيسى، وأفضل من النقباء السبعين الذين اختارهم موسى ﷺ.

قوله: «ثم يجيء قوم» أي: بعد القرون الثلاثة.

قوله: «تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته». يحتمل ذلك وجهين:

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشهدون إلا بيمين، فتارة تسبق الشهادة، وتارة تسبق اليمين.

الثاني: أنه كناية عن كون هؤلاء لا يبالون بالشهادة ولا باليمين، حتى تكون الشهادة واليمين في حقهم كأنهما متسابقتان.

---

(١) مسلم: كتاب الأقضية / باب نقض الأحكام الباطلة (١٧١٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: الوَصِيَّةُ بِحِفْظِ الأَيْمَانِ.

«الثَّانِيَةُ»: الإِخْبَارُ بِأَنَّ الحَلِفَ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ، مَمْحَقَةٌ لِلبَرَكَةِ.

والمعنيان لا يتنافيان، فيحمل عليهما الحديث جميعًا.

وقوله: «ثم يجيء قوم» يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف؛ لأنه لم يقل: ثم يكون الناس، الفرق واضح.

تنبيه:

ساق المؤلف رحمه الله الحديث في بعض النسخ بتكرار قوله: «ثم الذين يلونهم» ثلاث مرات، وهو في «الصحيحين» بتكرارها مرتين.

قال إبراهيم: كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار[1].

قوله: «وقال إبراهيم». هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم.

قوله: «كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار» في نسخة: «على الشهادة والعهد:، والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم.

وقوله: «على الشهادة». أي: يضربوننا عليها إن شهدنا زورًا، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر.

وقوله: و«العهد». إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله: «ونحن صغار». الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب.

فيه مسائل:

الأولى: الوصية بحفظ الأيمان. يؤخذ من قوله تعالى: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾، والأمر وصية.

الثانية: الإخبار بأن الحلف منفقة للسلعة ممحقة للبركة. تؤخذ من قوله ﷺ: «الحلف منفقة للسلعة..» إلخ.

---

(١) البخاري: كتاب الشهادات/ باب لا يشهد على شهادة جور (٢٥٠٩)، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة / باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم (٢٥٣٣).

«الثَّالِثَةُ»: الوَعِيدُ الشَّدِيدُ فِيمَنْ لا يَبِيعُ ولا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ.
«الرَّابِعَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى أَنَّ الذَّنْبَ يَعْظُمُ مَعَ قِلَّةِ الدَّاعِي.
«الخَامِسَةُ»: ذَمُّ الَّذِينَ يَحْلِفُونَ ولا يُسْتَحْلَفُونَ.

الثالثة: الوعيد الشديد لمن لا يبيع ولا يشتري إلا بيمينه. تؤخذ من قوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه.. » إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزكيهم.

الرابعة: التنبيه على أن الذنب يعظم مع قلة الداعي: تؤخذ من حديث سلمان، حيث ذكر الأشيمط الزاني والعائل المستكبر، وغلظ في عقوبتهم؛ لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندهما.

الخامسة: ذم الذين يحلفون ولا يستحلفون. لقوله ﷺ: «ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه..».

ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي ﷺ حلف ولم يستحلف في مواضع عديدة، بل أمره الله سبحانه أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف.

في قوله: ﴿وَيَسْتَنۢبِـُٔونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِى وَرَبِّىٓ﴾ [يونس: ٥٣].

وفي قوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

وفي قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

وعليه، فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة، فإنه جائز بل قد يكون مندوبًا إليه، كحلف النبي ﷺ في قصة المخزومية، حيث قال: «وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها»[1]. فقد وقع موقعًا عظيمًا، من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم.

السادسة: ثناؤه ﷺ على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم.

---

(١) البخاري: كتاب الحدود/ باب كراهة الشفاعة في الحد (٦٤٠٦)، ومسلم: كتاب الحدود/ باب قطع السارق الشريف (١٦٨٨).

«السَّادِسَةُ»: ثَنَاؤُهُ ﷺ عَلَى القُرُونِ الثَّلاثَةِ، أَوِ الأَرْبَعَةِ، وذِكْرُ مَا يَحْدُثُ بَعْدَهُمْ.

«السَّابِعَةُ»: ذَمُّ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ ولا يُسْتَشْهَدُونَ.

«الثَّامِنَةُ»: كَوْنُ السَّلَفِ يَضْرِبُونَ الصِّغَارَ عَلَى الشَّهَادَةِ والعَهْدِ.

تؤخذ من قوله ﷺ: «خير الناس قرني..»، وقوله: «أو الأربعة» بناء على ثبوت ذكر الرابع، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه.

وقوله: «وذكر ما يحدث». لو جعلت هذه المسألة مستقلة، لكان أبين وأوضح، لأن الإخبار عن شيء مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته ﷺ.

السابعة: ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم.

الثامنة: كون السلف يضربون على الشهادة والعهد. تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد»، فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضًا عناية السلف بتربية أولادهم، وأن من منهجهم الضرب على تحقيق ذلك استنادًا إلى إرشاد نبيهم ﷺ، حيث أمر بضرب من بلغ عشر سنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب:

الأول: أن يكون الصغير قابلاً للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني: أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه.

الثالث: أن لا يسرف في ذلك كمية أو نوعًا أو موضوعًا أو غير ذلك.

الرابع: أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه.

الخامس: أن يقصد تأديبه لا الانتقام لنفسه، فإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدبًا بل منتصرًا.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قوله: «وفي الصّحيح»؛ أي: في «صحيح مسلم»، وهو في «صحيح البخاري» بمعناه.

....

«عن عمران بن حُصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خيرُ أمّتي قرني»، القرن يراد به: الجيل من النّاس، ويُطلق على الزّمان، ومقدار القرن من الزّمان: مائة سنة. وقيل: أربعون سنة. وقيل: غيرُ ذلك.

والمراد: أهل القرن، ليس المراد ذات القرن الذي هو الزّمان.

«خيرُ أمتي قرني» يعني: أفضل أمّة محمد ﷺ هم القرن الذين عاصروا الرّسول ﷺ.

وهذا بإجماع الأمة أنّ قرن الصّحابة أفضل هذه الأمة.

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾، قال سبحانه وتعالى في سورة الحشر: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ هذا في المهاجرين، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾.

وقال النّبي ﷺ: «لا تسبّوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفق أحدُكم مثل أُحُدٍ ذهبًا ما بلغ مُدّ أحدهم ولا نصيفَه».

إلى غير ذلك من الأدلّة الدالّة على فضل صحابة رسول الله ﷺ فقد أثنى الله عليهم في محكم كتابه، وأثنى عليهم رسولُه ﷺ وأجمعت الأمة على فضلهم وسبْقِهم، وأنهم خيرُ القرون، بل خيرُ الأمم، فمن سبّهم أو سبّ أحدًا منهم، فإنّه يكونُ مكذّبًا لله ولرسوله ولإجماع المسلمين.

قال ﷺ: «ثم الذين يلونهم» يعني التّابعين، فجيلُ التابعين لهم فضلٌ عظيم، وهم في المرتبة الثّانية بعد صحابة رسول الله ﷺ؛ لأنّهم تتلمذوا على الصّحابة،

....

وأخذوا علمَهم عن الصّحابة، فبذلك حصلوا على هذا الفضل العظيم، وصاروا في المرتبة الثّانية في الفضيلة بعد صحابة رسولِ الله ﷺ.

«قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرّتين أو ثلاثًا؟» هذا من تحرِّيه في الرواية رضي الله عنه، وهذه عادتُهم رضي الله عنهم؛ أنّهم لا يقولون ولا يجزمون إلّا بما يتأكدّون من صحّته وثُبوتِه عن رسول الله ﷺ وهذا من أمانتهم في الرّواية.

قال ﷺ: «ثم إنّ بعدكم قومٌ» «قومٌ» بالرفع، هذا في كثيرٍ من الروايات، وهو مخالفٌ للوجه اللّغوي؛ لأنَّ الوجه اللّغوي: أنّ يكون بالنصب، لأنّه اسم لـ (إنّ)، و (إنَّ) تنصب الاسم وترفع الخَبَر.

وبعض المحدِّثين يقول: (قوم) مرفوعٌ بفعلٍ محذوف، تقديره: (يجيء قومٌ)، فحُذفت (يجيء) وبقيت (قومٌ).

«يشهدون ولا يُستشهدون»؛ أي: يشهدون بدون أن تُطلب منهم الشهادة، بل يبادرون بها، ويتسارَعون بالشهادة من دون أن تُطلب منهم.

قال ﷺ: «ويخونون ولا يؤتمنون» يخونون أماناتهم وعهودهم، إذا ائتمنوا على شيء من الأشياء فإنّهم لا يحفظون الأمانة.

والخيانة في الأمانة من صفات المنافقين: قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتُمِن خان»، فالخيانة في الأمانة سواء كانت هذه الأمانة مالاً أو سرًا من الأسرار أو عملاً من الأعمال: كموظّف وُكِل إليه أن يقوم بعمل فخان فيه، أو مقاول تعهّد بإقامة عمل أو مشروع من المشاريع فخان فيه، وغشّ فيه هذا من الخيانة، فالخيانة قد تكونُ في الأموال، وقد تكونُ في الأسرار التي يؤتمنُ عليها، إمّا من الأفراد ،وإمّا من وُلاة الأُمور.

وقوله: «وينذرون ولا يوفون» النذر لغة: التزامُ الشيء. وشرعًا: التزام طاعةِ لله لم تكن واجبةً بأصل الشّرع، فالتزام العبد طاعةً لله لم تكن واجبة بأصل الشرع وإنّما تجب عليه بالنذر.

فإذا التزم عبادةً لله، فإنّها تجب عليه، ويجب عليه الوفاء بها؛ لقوله ﷺ: «مَن

....

نذر أن يطيع الله فليطعه»، وقال سبحانه وتعالى في وصف الأبرار: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾، قال تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ﴾، فالمسلم إذا نذر نذرًا لله من صدقة أو صلاة أو صيام أو حجٍّ أو عُمرة أو أيّ عبادة، فإنّه يجب عليه الوفاء به، فإن لم يفِ به كان عاصيًا وتاركًا لواجب يعاقَب عليه.

وإنْ كان الدخول في النذر منهيًّا عنه، لأنّه يحرج نفسه ويورِّط نفسه وهو في عافية وفي سعة، إنْ شاء فعل وله الأجر، وإنْ شاء ترك ولا إثم عليه، لكنّه إذا نذر فقد ألزم نفسه وأوجب على نفسِه فضاق عليه الأمر إن ترك هذا النذر ولم يفِ كان عاصيًا وآثمًا وكان قبل ذلك في سعة، ولهذا نهى النّبي ﷺ عن النذر وقال: «إنّ النذر لا يأتي بخير، وإنّما يُستخرج به من البخيل».

فالذي ينذر الطاعة ثم لا يفي بها هذه صفته عند الله، ويعتبر كاذبًا فيما بينه وبين الله.

فهذا يدلّ على وُجوب الوفاء بالنّذر إذا كان نذر طاعة، وأن ترك الوفاء به من علامات النّفاق، وأن هذا يكْثُر في آخر الزّمان، أنّ النّاس ينذُرون ولا يوفون.

ثم قال- عليه الصلاة والسلام- مبيِّنًا علامة هؤلاء: «ويظهر فيهم السِّمَن» يظهر فيهم سِمَنُ الأجسام، وذلك لأنّهم يرفّهون أنفسهم، ويشتغلون بملذّاتهم وشهواتِهم، وينسون الآخرة، وينسون الحساب.

قال: «وفيه» يعني: في «صحيح مسلم».

عن ابن مسعود: أن النّبي ﷺ قال: «خير النّاس قرني» في الحديث الأوّل: «خيرُ أمّتي» وهنا «خير النّاس»، أي: جميع النّاس، من هذه الأمّة وغيرِها.

«ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم» هذا فيه: الجزم بما شكّ فيه عمران رضي الله عنه، وأنّ الرّسول ﷺ ذكر ثلاثة قرون: قرن الصّحابة، ثم قرن التّابعين، ثم قرن أتباع التّابعين.

«ثم يجيء» يعني: من بعد القرون الثلاثة.

«قومٌ تَسبق شهادة أحدهم يمينَه، ويمينُه شهادَتَه» يعني: لا يبالون بالشهادة، ولا

....

يبالون بالأيمان، بل سابقون إليها، ويسارعون إليها بدون تحفُّظ، وبدون خوفٍ من الله عزّ وجلّ، يحلفون ويشهدون بكثرة.

فهذا فيه: ذمّ كثرة الشهادة، وذمُّ كثرة اليمين، فيكون مطابِقًا للترجمة، لأنّ الرسول ﷺ ساقه مساق الذّم، ففيه: النّهي عن كثرة الشهادة وكثرة الحلف، لأنّ في ذلك: استخفافًا بهما، فيكونُ منقِّصًا للتوحيد.

وقوله: «قال إبراهيم» المراد به: إبراهيم النخعي، التّابعي الجليل، من تلاميذ عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه.

«كانوا يضربوننا» يعني: السلف الذين أدركهم، قيل: إنّه يريد أصحاب ابن مسعود خاصّة. وقيل: إنّه يُريد أصحاب ابن مسعود وغيرَهم من السلف، كانوا يضربون الأطفال إذا سمعوهم يشهدون أو يحلفون، تأديبًا لهم ليربُّوهم على تعظيم الشهادة وتعظيم اليمين، حتى ينشأوا على ذلك.

فيُستفاد من هذين الحديثين مع أثر إبراهيم الذي نقله عن السّلف فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه فضلُ الصّحابة رضي الله عنهم، وأنّهم أفضلُ الأمّة، بل أفضل النّاس على الإطلاق.

الفائدة الثالثة: في هذا الحديث: فضلُ السلف على الخلف، وأنّ السلف بما فيهم القرون المفضَّلة- أفضل من الخَلف، في العلم، وفي العمل، وفي السَّمْت والأخلاق، ففي هذا ردٌّ على من يقول: طريقة السلف أسلم، وطريقة الخَلفِ أعلم.

الفائدة الرابعة: في الحديث علَم من أعلام النبوة: حيث إنّه ﷺ أخبر عن حُدوث أشياء وظهرت كما أخبر بها، فإنه بعد القرون المفضّلة كثُر الشرّ والفتن وظهرت البدع وحدث الشرك في الأمّة وبُنيت الأضرحة على القبور ونشأ التصوُّف، وغير ذلك من الشّرور التي لابست الأمّة ولا تزال الأمّة تعاني منها، كلّ هذا حدث بعد القرون المفضَّلة.

الفائدة الخامسة: في الحديثين دليلٌ على النّهي عن كثرة الحلف وكثرة الشهادة،

....

وهذا هو الشّاهد من الحديثين للترجمة.

الفائدة السادسة: في الحديثين دليلٌ على وُجوب حفظ الأمانة والنّهي عن الخيانة فيها.

الفائدة السابعة: في الحديثين دليلٌ على وجوب الوفاء بالنذر إذا كان نذر طاعة، لأنّ الرسول ﷺ ذمّ الذين ينذُرون ولا يوفون، وهذا تدلّ عليه الأدلّة الأخرى.

الفائدة الثامنة: في الحديث: ذمٌّ للاشتغال بالشهوات وترفيه النّفس، لأنّ ذلك يكسّل عن الطّاعة ويثبّط عن الطّاعة، وعلامته: ظهور السِّمَن على أصحابه.

الفائدة التاسعة: في أثر إبراهيم دليلٌ على وجوب العناية بتربية الأولاد، وأنّ هذه طريقة السلف الصّالح.

الفائدة العاشرة: في الحديث دليلٌ على أنّ الضرب وسيلةٌ من وسائل التربية، ففيه رد على من يمنع من الضّرب، ويقول: إنّه وسيلةٌ فاشلة، بل هو وسيلة ناجحة، دينيّة، إسلامية، عمل بها السلف الصّالح، وأمر بها رسولُ الله ﷺ وأمَر الله بها في كتابه، فهو وسيلةٌ ناجحة، إذا استُعملت على الوجه المشروع، ووُضعت في موضعها.

❁ ❁ ❁

١٤٥) الشـرح:

١٤٥) ٦٣- بابٌ

مَا جَاءَ فِي ذِمَّةِ اللهِ وذِمَّةِ نَبِيِّهِ وقَوْلُ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية. [النحل: ٩١].

---

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: أي: باب ما جاء فيه من تعظيمها والتحذير من إخفارهما والتحذير أيضًا من جعلهما للناس؛ لأن هذا وسيلة إلى إخفارهما، فالواجب على ولاة الأمور ألا يجعلوا للناس ذمة الله وذمة نبيه، وإنما يجعلون لهم ذمة الرئيس والملك وأصحابه.

وهذا من باب تعظيم ذمة الله وذمة رسوله، وهو من باب إكمال التوحيد والإيمان، وإخفارهما نقص في التوحيد ووسيلة إلى التلاعب.

قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾.

فمن عاهد بذمة الله أو ذمة رسوله، فعليه أن يوفي، وإن كان قد أخطأ في العهد بذمة الله ورسوله لكن عليه أن يوفي بذلك وعليه ألا يخفر بذلك.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

أي: لا تنقضوا العهود بعد أن أكدتموها بالأيمان الشديدة والمعاهدة، بل أوفوا كما قال سبحانه: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾ وقال ﷺ: «**يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء عند استه ينادي عليه: هذه غدرة فلان ابن فلان**». وهذا فيه وعيد عظيم، ويدل على وجوب الوفاء بالعهد.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: (ذمة الله وذمة نبيه).

الذمة: العهد: وسمي بذلك، لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته.

والله له عهد على عبادة: أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا.

وللعباد عهد على الله، وهو لا يعذب من لا يشرك به شيئًا، قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ

....

﴿قَرْضًا حَسَنًا﴾، فهذا عهد الله عليهم، ثم قال: ﴿لَأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾، وللنبي ﷺ عهد على الأمة، وهو أن يتبعوه في شريعته ولا يبتدعوا فيها، وللأمة عليه عهد، وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئًا.

وقد أخبر النبي ﷺ أنه ما من نبي إلا كان حقًّا عليه أن يدل أمته على ما هو خير[1].

والمراد بالعهد هنا: ما يكون بين المتعاقدين في العهود كما كان بين النبي ﷺ وأهل مكة في صلح الحديبية.

قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟﴾. أمر الرباعي من أوفى يوفي، والإيفاء إعطاء الشيء تامًّا، ومنه إيفاء المكيال والميزان.

قوله: ﴿بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾. يصلح أن يكون من باب إضافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله، أي: بعهدكم الله، أو بعهد الله إياكم؛ لأن الفاعل إذا كان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالبًا، مثل: قاتل ودافع.

قوله: قوله: ﴿إِذَا عَـٰهَدتُّمْ﴾. فائدتها التوكيد والتنبيه على وجوب الوفاء، أي: إذا صد منكم العهد، فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفاء، ثم أكد ذلك بقوله: ﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ﴾. نقض الشيء هو حل إحكامه، وشبه العهد بالعقدة، لأنه عقد بين المتعاهدين.

قوله: ﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾. توكيد الشيء بمعني تثبيته، والتوكيد مصدر وكد، يقال: وكد الأمر وأكده تأكيدًا وتوكيدًا، والواو أفصح من الهمزة.

قوله: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾. الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ أنه جعل الله عليه كفيلاً.

قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾. ختم الله الآية بالعلم تهديدًا عن نقض العهد؛ لأن الإنسان إذا علم بأن الله يعلم كل ما يفعل، فإنه لا ينقض العهد.

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة / باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء (١٨٤٢).

....

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: وقول الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء في ذمّة الله وذمّة نبيّه» الذِّمّة معناها: العهْد.

وما جاء يعني: من النّهي عن نقض العهود من كتاب الله وسنّة نبيّه، وما جاء من الوعيد في ذلك.

قال: «وقول الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا﴾ » هذا أمرٌ من الله سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهود، والوفاء: ضدّ الغدر والخيانة.

﴿بِعَهْدِ اللَّهِ﴾ المراد به: الميثاق الذي يُعقد بين النّاس، وأضافه إلى نفسه إضافة تشريف؛ ممّا يدلّ على تعظيم العهد، لأن الشيء إذا أضيف إلى الله فهذا دليلٌ على تعظيمه، مثل: بيتِ الله، وناقة الله، وعبد الله، فالإضافة هنا تقتضي تعظيم المضاف، فهي تدلّ على عظم العهد، ووجوب احترامه.

﴿إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ »؛ أي: عاهدتم طرفًا آخر من النّاس، وهذا يشمل الذي بين الله وبين خلقه والعهد الذي بين المسلمين وبين الكُفّار، ويشمل العهد الذي بين وليّ أمر المسلمين وبين الرعيّة، ويشمل العهد الذي بين أفراد النّاس بعضهم مع بعض.

فهذه العهود العامّة والخاصّة يجب الوفاء بها، لأنّ نقض العُهود من علامات المنافقين، قال سبحانه وتعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُم مِّن فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوا وَّهُم مُّعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ ، قال ﷺ: «آية المنافق ثلاث: إذا حدّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر».

ثم نهى سبحانه وتعالى عن نقض العهود، فقال: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ﴾ يعني: العهود، لأنّ العهد يسمّى يمينًا.

﴿بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ أي: بعد إبرامها وعقْدِها، لأنها إذا عُقدت وأبرمت وجب الوفاء بها والالتزام بها من الطرفين، حتى ولو كانت مع كفّار، قال تعالى: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ أي: أعلِن لهم

١٤٦) عَنْ بُرَيْدَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ أَوْ سَرِيَّةٍ أَوْصَاهُ بِتَقْوَى اللهِ وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، فَقَالَ: **«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ -أَوْ خِلَالٍ- فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ**

أنّك تريد إنهاء العقد الذي بينك وبينهم، حتى يكونوا على بيِّنة وعلى بصيرة، ولا تفاجئهم بنقض العهد بدون سابقة إنذار﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ﴾، هذا مع الكفّار، فكيف مع المسلمين؟

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ الواو: واو الحال؛ أي: والحال أنّكم إذا عاهدتّم فقد جعلتم الله كفيلًا عليكم.

والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى ينتقم ممّن نقض العهد؛ لأنّهم إنّما وثقوا بكم ووثقتم بهم باسم الله سبحانه وتعالى، فصار الله سبحانه كفيلًا وحسيبًا ورقيبًا على الجميع، ومن كان الله حسيبَه ورقيبَه ومحاسبه، فإنّه لن يفوت على الله جل وعلا.

١٤٦) الشـرح:

* **أولاً**: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: حديث بريدة بن الحصيب عند مسلم أن النبي ﷺ كان... فيوصيه في نفسه، وفي جيشه أن يتقي الله فيهم، وأوصى الجيش بتقوى الله.

«ادعهم إلى الإسلام»؛ أي: ادعهم إلى الشهادتين أولًا قبل كل شيء كما في حديث معاذ حين بعثه إلى اليمن، فإذا أجابوا ونطقوا بالشهادتين، علمهم بقية الفرائض.

قوله: «يجري عليهم حكم الله»؛ أي: في الأوامر والنواهي.

خصال أو خلال: شك من الراوي والمعنى واحد، وهذا من حرص الرواة رحمهم الله.

«فإن أبو فاسألهم الجزية»؛ أي: أبوا الدخول في الإسلام والهجرة، فاسألهم الجزية، واقبل منهم. وهذا في اليهود والنصارى والمجوس كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوا ٱلَّذِينَ لَا

مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الإِسْلامِ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ المُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ، فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى المُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ المُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ تَعَالَى، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الغَنِيمَةِ وَالفَيْءِ شَيْءٌ إِلا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ المُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ. وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ إِنْ تَخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تَخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ.

يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [براءة: ٢٩].

فالسنة أطلقت من يؤخذ منهم الجزية، والقرآن قيد بأهل الكتاب وألحقت السنة بأهل الكتاب: المجوس في أخذ الجزية لا في حل الطعام والنساء وغيره.

فاستعن بالله وقاتلهم: فيه وجوب الاستعانة بالله، وأن المؤمن يستعين بالله في قتال أعدائه، ولا يعتمد على قوته فقط.

وإذا حاصرت أهل حصن؛ أي: الأبنية والقلاع حيث كان يتحصن بها أهل الكتاب غالبًا، ولم يكونوا مع الأعراب في البوادي.

فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه.. فإنكم إن تخفروا ذمتكم.

الإخفار: مصدر أخفر (رباعي) هو نقض العهد.

أما الخفر: فهو (ثلاثي) من خفره يخفره؛ إذا حماه ونصره، ومنه الخفير وهو الحامي. فأخفره أي: أزال حمايته وعهده.

فالواجب على المسلمين ألا ينقضوا العهد والميثاق، ويخفروا، وليس لهم أن

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ. فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي، أَتُصِيبُ فِيهِمْ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

يجعلوا ذمة الله وذمة رسوله؛ لأنهم إذا وقعوا في الإخفار صار أسهل في حقهم من الإخفار في ذمة الله وذمة نبيه مع أن كلاهما لا يجوز، لكن بعض الشر أهون من بعض، وبعض الكبائر أشد من بعض.

وكذلك إذا طلبوا منهم أن ينزلهم على حكم الله، فإنه لا يقبل بل يقول: أنزلكم على حكم أصحابي، ولا بأس أن يقول: سوف أجتهد في إنزالكم على موافقة الشرع، ولكن لا أستطيع أن أنزلكم على حكم الله؛ لأني قد أخطئ؛ فيعرض عليهم اجتهاده حسب ما يوافق الشرع، لأنه إذا أخطأ يكون قد كذب على الله، فهذا من باب الحيطة، ومن باب الآداب الشرعية في إعطاء العهود والمواثيق وإنزال العدو إلى حكم يرضاه الله تعالى.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «إذا أمَّر». أي: جعله أميرًا، والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى والإمامة.

قوله: «أو سرية». هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربع مئة رجل، والسرية ما دون ذلك.

قوله: «أوصاه». الوصية: العهد بالشيء إلى غيره على وجه الاهتمام به.

قوله: «بتقوي الله». التقوي: هي امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهي مأخوذة من الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله، وذلك لا يكون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

وقال بعضهم: التقوى: أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله، وأن تترك ما نهى عنه الله على نور من الله تخشى عقاب الله.

قوله: «وبمن معه من المسلمين خيرًا». أي: أوصاه أن يعمل بمن معه من المسلمين خيرًا في أمور الآخرة، فيسلك بهم الأسهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كانوا على إبل أو خيل، ويمنع عنهم الظلم، ويأمرهم بالمعروف، وينهاهم عن

....

المنكر، وغير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

قوله: «اغزوا باسم الله». يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونوا دائمًا مستعينين بالله، ويحتمل أنه أراد أن يفتتح الغزو باسم الله.

قوله: «في سبيل الله». متعلق بـ «اغزوا»، وهو تنبيه من الرسول ﷺ على حسن النية والقصد، لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الذي تحصل به إحدى الحسنيين ما كان خالصًا لله، وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا.

وقوله: «في سبيل الله». تشمل النية والعمل، فالنية سبقت، والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: «قاتلوا من كفر بالله». تشمل النية والعمل، فالنية سبقت، والعمل: أن يكون الغزو في إطار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع.

قوله: «اغزوا». تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقول: لا تحقروا الغزو واغزوا بجد.

قوله: «ولا تغلو». الغلول أن يكتم شيئًا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبائر الذنوب، قال تعالى: ﴿وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٦١]، أي: معذبًا به، فهو يعذب بما غل يوم القيامة ويعزر في الدنيا، قال أهل العلم: يعزر الغال بإحراق رحله كله، إلا المصحف لحرمته، والسلاح لفائدته، وما فيه روح، لأنه يجوز تعذيبه بالنار.

قوله: «ولا تغدروا». الغدر: الخيانة، وهذا هو الشاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغدر بلا عهد، فلنا ذلك لأن الحرب خدعة، وقد ذكر أن علي بن أبي طالب رضي الله عنه خرج إليه رجل من المشركين ليبارزه، فلما أقبل الرجل على علي صاح به علي: ما خرجت لأبارز رجلين، فالتفت المشرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليساعده، فقتله علي رضي الله عنه.

قوله: «ولا تمثلوا». التمثيل: التشويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسان وغيرها، وذلك عند أسرهم؛ لأنه لا حاجة إليه؛ لأنه انتقام في غير محله، واختلف

....

العلماء فيما لوا كانوا يفعلون بنا ذلك:

فقيل: لا يمثل بهم للعموم، والنبي ﷺ لم يستثن شيئًا، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعل قومه، فكيف نمثل به؟!

وقيل: نمثل بهم كما مثلوا بنا، لأن هذا العموم مقابل بعموم آخر، وهو قوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلون بنا، فقد يفسر هذا بأنه ضعف، وإذا مثلنا بهم في هذه الحال، عرفوا أن عندنا قوة؛ ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية.

والظاهر القول الثاني.

قوله: «ولا تقتلوا وليدًا». أي: لا تقتلوا صغيرًا، لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم.

وورد في أحاديث أخرى: أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فانٍ ولا امرأة[١]، إلا أن يقاتلوا، أو يحرضوا على القتال، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه[٢].

واستدل بهذا الحديث أن القتال ليس لأجل أن يسلموا، ولكنه لحماية الإسلام، بدليل أننا لا نقتل هؤلاء، ولو كان من أجل ذلك لقتلناهم إذا لم يسلموا، ورجح شيخ الإسلام هذا القول، وله رسالة في ذلك اسمها «قتال الكفار».

قوله: «وإذا لقيت عدوك». أي: قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجًا لقتالهم، لأنك إذا علمت أنهم أعداء لك، فإن ذلك يدعوك إلى قتالهم، ولهذا قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾ [الممتحنة: ١]، وهذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ﴾ [المائدة: ٥١]، لكن خص في هذه الآية باليهود والنصاري لأن المقام يقتضيه.

والعدو ضد الولي، والولي من يتولى أمورك ويعتني بك بالنصر والدفاع وغير

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد/ باب في دعاء المشركين (٢٦١٤).

(٢) البخاري: كتاب المغازي/ باب غزوة أوطاس (٤٠٦٨).

....

ذلك، والعدو يخذلك ويبتعد عنك ويعتدي عليك ما أمكنه.

قوله: «من المشركين». يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصاري.

قوله: «خصال أو خلال». بمعنى واحد، وعليه، فـ «أو» للشك في اللفظ، والمعنى لا يتغير.

قوله: «فأيتهن ما أجابوك». «أيتهن»: اسم شرط مبتدأ، «ما»: زائدة، وهي تزاد بالشرط تأكيدًا للعموم، كقوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، والكاف مفعول به، والعائد إلى اسم الشرط محذوف، والتقدير: فأيتهن ما أجابوك إليه، فاقبل منهم وكف عنهم، فلا تقاتلهم.

قوله: «ثم ادعهم». «ثم» زائدة، كما في رواية أبي داود، ولأنه ليس لها معنى، ويمكن أن يقال: إنها ليست من كلام الرسول ﷺ بل من كلام الراوي على تقدير: ثم قال: ادعهم.

قوله: «ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين». هذه الجملة تشير إلى أن الذين قوتلوا أهل بادية، فإذا أسلموا، طلب منهم أن يتحولوا إلى ديار المهاجرين ليتعلموا دين الله، لأن الإنسان في باديته بعيد عن العلم، كما قال تعالى: ﴿ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ﴾ [التوبة: ٩٧].

قوله: «ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين». يعني: إذا لم يتحولوا إلى دار المهاجرين، فليس لهم في الغنيمة والفيء شيء.

والغنيمة: ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به.

والفيء: ما يصرف لبيت المال، كخمس الغنيمة، والجزية، والخراج، وغيرها.

وقوله: «إلا أن يجاهدوا مع المسلمين». يفيد أنهم إن جاهدوا مع المسلمين استحقوا من الغنيمة ما يستحقه غيرهم.

وأما الفيء، فاختلف أهل العلم في ذلك:

....

فعند الإمام أحمد: لهم حق في الفيء مطلقًا، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا.

وقيل: لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمة، إذ ليس من في البلد مستعدًا للجهاد ويتعلم الدين وينشره كأعرابي عند إبله.

فإذا أسلموا فلهم ثلاث مراتب:

التحويل إلى دار المهاجرين، وحينئذ يكون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين.

البقاء في أماكنهم مع الجهاد، فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة وفي الفيء الخلاف.

البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد، فليس لهم من الغنيمة والفيء شيء...

وقوله: «فإن هم أبوا». «هم» عند البصريين: توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، التقدير: فإن أبوا هم، وعند الكوفيين: مبتدأ خبره الجملة بعده.

والقاعدة عندنا إذا اختلف النحويون في مسألة: أن نتبع الأسهل، والأسهل هن إعراب الكوفيين.

قوله: «فاسألهم الجزية». سؤال استفهام، والفرق بين سؤال الاستفهام وسؤال العطاء: أن سؤال الاستفهام يتعدى إلى المفعول الثاني بـ «عن»، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٢].

وقد يكون المفعول الثاني جملة استفهامية، كقوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْ﴾ [المائدة: ٤].

وأما سؤال الإعطاء، فيتعدى إليه بنفسه، كقولك، سألت زيدًا كتابًا.

والجزية: فعلة من جزى يجزي، وظاهر فيها أنها مكافأة على شيء، وهي عبارة عن مال مدفوع من غير المسلم عوضًا عن حمايته وإقامته بدرانا.

والذمي معصوم ماله وذريته مقابل الجزية، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ يُعْطُوا ٱلْجِزْيَةَ عَن

....

يَدٖ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]، أي: يسلموها بأيديهم، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو ابنه، بل لا بد أن يأتي بها هو.

وقيل: ﴿عَن يَدٖ﴾: عن قوة منكم، والصحيح أنها شاملة للمعنيين.

وقيل: ﴿عَن يَدٖ﴾: أن يعطيك فتأخذها بقوة بأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه.

وقوله: ﴿وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾. أي: يجب أن يتصفوا بالذل والهوان عند إعطائها، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خدم، وموكب ونحو ذلك، وجعل بعض العلماء من صغارهم أن يطال وقوفهم عن تسلمها منهم.

قوله: «فلا فأرادوك». أي طلبوك، وضمن الإرادة معنى الطلب، وإلا، فإن الأصل أن تتعدى بـ «من»، فيقال أرادوا منك.

قوله: «أن تخفروا». بضم التاء وكسر الفاء، من أخفر الرباعي، أي: غدر، وأما خفر يخفر الثلاثي، فهي بمعنى أجار، والمتعين الأول.

وقوله: «أن تخفروا». «أن» بفتح الهمزة مصدرية بدليل رفع «أهون» على أنها خبر، وأن وما دخلت عليه محلها من الإعراب النصب على أنها بدل اشتمال من اسم «إن»، والتقدير: فإن إخفارهم ذممكم، والبدل يصح أن يحل محل المبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق.

قوله: «أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه». لأن الغدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم:، وقوله: «أهون» من باب اسم التفضيل الذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: «أهون» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه شيء من هذا المعنى، لأن قوله: «أهون» يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهوان، والأمر ليس كذلك؛ لأن إخفار الذمم سواء كان لذمة الله وذمة رسوله أو ذمة المجاهدين، كله ليس بهين، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته.

فهنا أرادوا أن ينزلوا على العهد بدون أن يحكم عليهم بشيء، بل يعاهدون

....

على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك.

قوله: «ولكن أنزلهم على حكمك». فإذا أرادوا أن ينزلوا على حكم الله، فإنهم لا يجابون، فإنا لا ندري أنصيب فيهم حكم الله أم لا ؟

ولهذا قال: «أنزلهم على حكمك»، ولم يقل: وحكم أصحابك كما قال في الذمة، لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد، فهي من الجميع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد.

وقوله: «لا تدري». أي: لا تعلم «أتصيب فيهم حكم الله أم لا»، وذلك لأن الإنسان قد يخطئ حكم الله تعالى.

وهذه المسألة اختلف فيها العلماء:

فقيل: إن أهل الحصن لا ينزلون على حكم الله، لأن قائد الجيش وإن اجتهد، فإنه لا يدري أيصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ فليس كل مجتهد مصيبًا.

وقيل: بل ينزلون أيصيب فيهم حكم الله أم لا ؟ فليس كل مجتهد مصيبًا.

وقيل: بل ينزلون على حكم الله، والنهي عن ذلك خاص في عهد النبي ﷺ فقط، لأنه العهد الذي يمكن أن يتغير فيه الحكم، إذا من الجائز بعد مضي هذا الجيش أن يغير الله هذا الحكم، وإذا كان كذلك، فلا تنزلهم على حكم الله، لأنك لا تدري أتصيب الحكم الجديد أو لا تصيبه؟

أما بعد انقطاع الوحي، فينزلون على حكم الله، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتبر صوابًا إذا لم يتبين خطؤه، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، وقد قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وهذا أصح، لأنه يحكم للمجتهد بإصابته الحكم ظاهرًا شرعًا وإن كان قد يخطئ، وإن حصل الاحتراز بأن يقول: ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورسوله، فهو أولى؛ لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحًا أن هذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما لو اتضح خلافه.

فيه مسائل:

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: الفَرْقُ بَيْنَ ذِمَّةِ اللهِ وَذِمَّةِ نَبِيِّهِ، وَذِمَّةِ المُسْلِمِينَ.

«الثَّانِيَةُ»: الإِرْشَادُ إِلَى أَقَلِّ الأَمْرَيْنِ خَطَرًا.

«الثَّالِثَةُ»: قَوْلُهُ: **«اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ»**

الأولى: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين. لو قال: الفرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين، لكان أوضح؛ لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها، فإن ذمة الله وذمة نبيه واحدة، وإنما الفرق بينهما وبين ذمة المسلمين.

والفرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصرين محرمة، وجعل ذمة المحاصرين بكسر الصاد ذمة جائزة.

الثانية: الإرشاد إلى أقل الأمرين خطرًا. لقوله: «ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك.. » إلخ، وهذه قاعدة مهمة، وتقال على وجه آخر وهو: ارتكاب أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، إذا كان لا بدَّ من ارتكاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قال تعالى: ﴿وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام: ١٠٨]، فسب آلهة المشركين مطلوب، لكن إذا تضمن سب الله عز وجل صار منهيًا عنه؛ لأن مفسدة سب الله أعظم من مفسدة السكوت عن سب آلهتهم، وإن كان في هذا السكوت شيء من المفسدة، ولكن نسكت لئلا نقع في مفسدة أعظم، وأيضًا العقل دل عليها.

وفيه قاعدة مقابلة، وهي: ترك أدنى المصلحتين لنيل أعلاهما، إذا كان لا بد من ترك إحدهما؛ فإذا اجتمعت مصلحتان، لا يمكن الأخذ بهما جميعًا.

فخذ بأعلاهما، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما، فخذ بأدناهما.

الثالثة: قوله: «اغزوا باسم الله في سبيل الله». يستفاد منها وجوب الغزو مع الاستعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه.

الرابعة: قوله: «قاتلوا من كفر بالله». يستفاد منها وجوب قتال الكفار، وأن علة

«الرَّابِعَةُ» : قَوْلُهُ: «قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ» .

«الخَامِسَةُ» : قَوْلُهُ: «اسْتَعِنْ بَاللهِ وقَاتِلْهُمْ» .

«السَّادِسَةُ» : الفَرْقُ بَيْنَ حُكْمِ اللهِ وحُكْمِ العُلَمَاءِ.

«السَّابِعَةُ» : فِي كَوْنِ الصَّحَابِيِّ يَحْكُمُ عِنْدَ الحَاجَةِ بِحُكْمٍ لَا يَدْرِي أَيُوافِقُ حُكْمَ اللهِ أَمْ لَا؟

قتالهم الكفر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكاة يقاتل، وإذا ترك أهل بلد صلاة العيد قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفرون بذلك.

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله، قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر.

الخامسة: قوله: «استعن بالله وقاتلهم». يفيد وجوب الاستعانة بالله، وأن لا يعتمد الإنسان على حوله وقوته.

السادسة: الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. وفيه فرقان:

أن حكم الله يصيب بلا شك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب.

تنزل أهل الحصن على حكم الله ممنوع، إما في عهد الرسول ﷺ فقط أو مطلقًا؛ وأما على حكم العلماء ونحوه، فهو جائز.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** ثم أورد الحديث الذي في «صحيح مسلم» وغيره، فقال:

«وعن بُرَيْدة» هو بُريدة بن الحُصَيب الأسلمي، الصحابي الجليل رضي الله تعالى عنه.

«كان رسول الله ﷺ إذا أَمَّر أميرًا على جيش أو سَرِيَّة» النبي ﷺ كان يعقِد الجيوش والسرايا للجهاد في سبيل الله، بعدما هاجر إلى المدينة وقَوِيَ الإسلام وأمرهُ الله بالجهاد، كان ﷺ يكوّن الجيوش والسرايا لمحاربة المشركين، امتثالاً لأمر الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَـٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ ، ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَـٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً ۚ﴾ ،

....

﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ ، إلى غير ذلك.

والجيش هو: العسكر العظيم الكثير؛ وأمّا السرية فهي القطعة من الجيش، تنطلق من الجيش وترجع إليه.

وكان ﷺ يؤمِّر على السرايا؛ وأمّا الجيوش فكان يقودُها بنفسه في الغالب عليه الصلاة والسلام.

فقوله: «إذا أمَّر أميرًا» فيه: أنّه لا بدَّ من نصب الأمير على الجيوش والسرايا لأجل أن ترجع إليه ولأجل أن يتولّى أمرها ويحلّ مشاكلها ونزاعاتها، لا بدَّ من الإمارة في الجيوش والسرايا، ولا بدَّ من الإمامة العظمى للمسلمين، لأنّ الفوضى وعدم وُجود الوُلاة فيه مفاسد عظيمة، وفيه شرٌّ كبير.

وفيه: أنّ تأمير الأمراء سواء على الأقاليم أو على الجيوش أو على السرايا يُرجع فيه إلى وليّ الأمر، هو الذي يؤمِّر وهو الذي يعزل، لأنّ ذلك من صلاحيّاته في حدود ما شرعه الله سبحانه وتعالى.

«أوصاه بتقوى الله» هذا من عناية الرّسول ﷺ بأمور المسلمين، وهكذا ينبغي لوُلاة أمور المسلمين أن يقتدوا بالرّسول ﷺ فيوصوا أمراءهم ومَن تحت أيديهم بتقوى الله.

وتقوى الله هي: فعلُ أوامره وترك نواهيه. سُميت تقوى لأنّها تقي من عذاب الله.

فالتقوى معناها: اتّخاذ الوقاية من عذاب الله وسخطه وغضبه، وذلك إنّما يكون بطاعته وترك معصيته خوفًا من عقابه ورجاءً لثوابه.

«وبمَن معه من المسلمين خيرًا»؛ أي: وأوصاه بمن معه من المسلمين ممّن تحت يده من السريّة أو الجيش خيرًا؛ بأن ينصح لهم ويتولّى أمرهم ويدبِّر شئونهم وينظر في مصالحهم، ويحلّ مشاكلهم، ويرفُق بهم، فليست المسألة مسألة إمارة فقط، أو نيل مرتبة فقط، أو نيل لقب.

ثم يقول -عليه الصلاة والسلام- للأمير وللجيش وللسرية، يقول للجميع:

«اغزوا» الغزو هو: قصْد العدوّ والذّهاب إليهم.

....

«باسم الله»؛ أي: مستعينين بالله، وهذا فيه: بَدَاءَة الأمور المهمّة باسم الله، وأنّ الإنسان إذا بدأ بشيء فإنّه يبدأ باسم الله، فإذا شَرَع في السفر، أو شرع في الغزو، أو شرع في الأكل أو الشُّرب، أو الدخول في البيت أو المسجد، وحتّى الدخول في محلّ قضاء الحاجة يقول: (باسم الله) قبل الدّخول، لأن هذا الاسم يعصمه من الشيطان، وتنزل عليه وعلى عمله وعلى فعله الرحمة والبركة، كما يُذكر اسم الله على الذّبائح عند التذكية، بل جاء في الحديث: «كلُّ أمرٍ ذي بال لا يُبْدأ فيه بباسم الله فهو أَبْتَر». أي: ناقصُ البَرَكة، وتُبدأ به الرسائل والمؤلّفات، وتُبدأ به الدروس والنصائح، وتُبدأ به سوره القرآن الكريم- ما عدا سورة براءة، فـ (باسم الله) كلمة عظيمة، تُبدأ بها مهامّ الأمور.

«في سبيل الله» يعني: أن الغزو لا يكون لطلب الملك أو لطلب المال أو التسلّط على النّاس، هذا شأن أهل الجاهلية، إنّما يكون الغزو لمصالح المغزوِّين، وليس للانتقام منهم إذا لم يصرُّوا على الكفر، وإنّما هي لمصالحهم، لأجل إنقاذهم من الكفر وإخراجهم من الظلمات إلى النور.

«قاتلوا من كفر بالله» القصد من الغزو هو: قتال الكفّار، لكفرهم، لأن الله خلق النّاس لعبادته سبحانه وتعالى، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، والمصلحة في العبادة راجعةٌ إليهم، لأنّهم إذا عبدوا الله أكرمهم الله سبحانه وتعالى في الدنيا والآخرة، أما إذا عبدوا غير الله، فقد ضرُّوا أنفسهم.

«اغزوا» هذا تكرارٌ منه ﷺ للتأكيد.

«ولا تَغُلُّوا، ولا تغدروا، ولا تمثّلوا، ولا تقتلوا وليدًا» يرسم لهم ﷺ الخُطّة التي يسيرون عليها في جهادهم، وهي خُطّة العدل والإنصاف والرِّفْق والحكمة.

«ولا تَغُلُّوا» الغُلول هو: أن يأخذ شيئًا من الغنيمة قبل القِسْمة، فالغنيمة تُجمع ثم يُقسَم حسب ما شرعه الله: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾.

فمن أخذ شيئًا منها بدون القسمة أو التنفيل الذي يمنحه القائد لبعض

....

المجاهدين لمزية فيه؛ فمن أخذ شيئًا بدون وجه شرعي من المغانم فهذا الغُلول، وهو كبيرة من كبائر الذّنوب، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾، ففي يوم القيامة يأتي الغالّ يحمل ما أخذه في الدنيا، يحمله على ظهره، إن أخذ بعيرًا جاء بالبعير على رقبته، وإن أخذ بقرة جاء بها يحملها على رقبته، وإن أخذ مالاً جاء به يحملُه يوم القيامة فضيحةً له في هذا الموقف العظيم.

«ولا تَغْدِرُوا» هذا الشّاهد من الحديث للباب، والغدر هو: الخيانة في العهد.

«ولا تُمَثِّلُوا» أ التمثيل معناه: تشويه جُثَث القتلى؛ بقطع آذانهم أو أُنوفهم أو أطرافهم، وهذا لا يجوز، لأنّ جُثة الآدمي لها حُرْمة حتى ولو كان كافرًا، فلا يجوز التمثيل به.

«ولا تقتلوا وليدًا» الوليد معناه: الصّغير من الكُفّار، لأنّه ليس منه خطرٌ على المسلمين، كما أنّها لا تُقتل -أيضًا- المرأة من الكُفّار، لأن النساء لسن من أهل القتال، وإنّما الأطفال والنساء يؤخذون أرقاء للمسلمين، وكذلك الشيخ الكبير الهَرِم لا يُقتل، إلّا إذا كان له رأي ومشورة في الحَرْب، مثل ما قُتل دُرَيْد بن الصِّمَّة سيِّد هوازِن، وكان رجلاً كبيرًا هَرِمًا لكن قُتل في غزوة حُنين لأنّه كان يعطي الآراء للكُفّار.

وقوله: «وإذا لقيت عدوّك من المشركين، فادعهم إلى ثلاث خصال [أو خِلال]» الخصال والخِلال بمعنًى واحد، ولكن هذا شكٌّ من الراوي، وهذا من الدقّة في الرواية، إذا كان الراوي لا يجزم باللّفظة التي قالها رسول الله ﷺ فإنّه يأتي بالكلمة التي تشابهها تحرُّجًا من القول على رسول الله ﷺ ما لم يقل، وإنْ كان المعنى صحيحًا، وهذا من احترام كلام رسول الله ﷺ وأنَّ أحدًا لا يُضيف إليه شيئًا، ويقول: قال رسول الله كذا وهو لم يجزم.

«فأَيَّتهُنَّ» بالنصب على أنّه مفعول للفعل المتأخِّر وهو «أجابوك».

«ما أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم» إذا قبلوا أيّ واحدة من هذه الخلال

....

الثلاث- أو الخصال- فاقبل منهم إجابتهم، وكُفَّ عنهم القتال، ولا تقاتلهم.

هذا فيه: أنّ القتال لا يجوز إلّا بعد الدعوة إلى الإسلام، ولا تجوز مفاجأتهم وقتالهم وهم لم يسبق لهم دعوة من المسلمين.

«ادعهم إلى الإسلام» قوله في الحديث: «ثم ادعهم إلى الإسلام» هذه رواية مسلم: (ثم)، وفي رواية غير مسلم بحذف (ثمّ)، وهو الصحيح، ويكون: «ادعهم إلى الإسلام» بداية الكلام.

فالكفّار يجب أن يُدعوا إلى الإسلام أوّلًا، فإن قبلوا فالحمد لله، لأنّ هذا هو المقصود، نحن لا نقاتلهم إلّا لأجل دخولهم في الإسلام، فمن شهد أن لا إله إلّا الله وأنّ محمدًا رسولُ الله وجب الكفُّ عنه، واعتبرناه من المسلمين، له ما للمسلمين وعليه ما على المسلمين، إلّا أن يظهر منه بعد ذلك ما يخالف الشهادتين فنعتبرُه مرتدًّا، ونعامله معاملة المرتدّ، أمّا إذا لم يظهر منه شيء، فإنّه يُقبل منه الإسلام، ولو مات بعد نُطقه بالشهادتين عاملناه معاملة المسلم في الميراث والجنازة وغير ذلك.

ثم إذا قبلوا الإسلام ف «ادعهم إلى التحوّل من دارهم» يعني: من مكانهم الذي يقيمون فيه.

«إلى دار المهاجرين» وهي المدينة في ذاك الوقت.

والهجرة في اللغة هي: ترك الشيء، قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ أي: اترُك الشرك.

أمّا في الاصطلاح الشرعي، فالهجرة صارت تُطلق على الانتقال من بلاد الكفر إلى بلاد المسلمين من أجل حفظ الدين.

«فإن أبوا أن يتحوّلوا منها، فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين» يعني: إن آثروا البقاء في بلدهم ولم ينتقلوا إلى المدينة فأخبرهم أنّهم يكونون كأعراب المسلمين، والأعراب: جمع أعرابي؛ وهو: ساكنُ البادية.

ولا شكّ أن سُكنى الحاضرة الإسلاميّة أفضل من سُكنى البادية الإسلامية لأنّ

....

«يجري عليهم حكم الله تعالى»؛ أي: حكم الإسلام، فيكونون مسلمين، ولكن «لا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء» الغنيمة هي: ما يستولي عليه المسلمون من أموال الكُفّار في أثناء القتال.

«فإنْ أبَوا» يعني: أبوا الإسلام، فينتقل معهم إلى الخصلة الثانية، وهي: طلب الجِزْية.

والجزية: مقدارٌ من المال يدفعه الكافر حتى يُحْقَنَ دمه ويعيش تحت ظلّ الإسلام وحكم الإسلام، ويبقى على كفره، لكن يكون خاضعًا لحكم الإسلام.

واختلف العلماء- رحمهم الله- هل تُؤخذ الجزية من كُلّ كافر كما هو ظاهر هذا الحديث، أو أنها تُؤخذ من أهل الكتاب فقط؛ لقوله تعالى: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ فخصّ الله في الآية أهلَ الكتاب: اليهود والنصارى، فالذين أوتوا الكتاب هم اليهود والنصارى، وأُلحِقَ بهم المجوس بسنّة رسول الله ﷺ فقال: «سُنُّوا بهم سُنَّة أهل الكتاب» يعني: في أخذ الجزية، فهم يُسَنُّ بهم سنة أهل الكتاب في أَخذ الجزية، أمّا ذبائحهم فهي حرام، بخلاف ذبائح أهل الكتاب ونسائهم.

والحكمة في أخذ الجزية في مقابل تأمينهم ولإتاحة الفرصة لهم ليتأمّلوا في أحكام الإسلام ويعيشوا تحت حكمه، فتظهر لهم سماحة الإسلام، وفضل الإسلام فيكون ذلك دافعًا لدخولهم فيه، هذا من الحكمة في أخذ الجزية ليتأمّلوا في الإسلام، ويجرّبوا العيش تحت ظلّه وعدله، ويتمكّنوا من سماع القرآن والسنّة، ويكون ذلك دافعًا لهم للدّخول في الإسلام.

وقوله: «فإن هم أبوا» يعني: أبوا دفع الجزية.

«فاستعن بالله وقاتلهم» هذه الخصلة الثالثة، وهي المرحلة الأخيرة معهم، وهي: القتال؛ لأنّهم أبوا الدخول في الإسلام، وأبوا دفع الجزية، فلم يبق إلّا القتال، وقد بلغتهم الدعوة، وقامت عليهم الحجة، وانقطعت معذرتهم فلم يبق إلّا

....

قتالُهم لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾، ﴿لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ يعني: لا يكون شرك ولا يفتنون المسلمين عن دينِهم؛ لأنَّهم إذا بقوا صاروا دُعاة إلى الكفر، وهم خطرٌ يهدِّد المسلمين لصرفهم عن دينهم، فالكفّار دائمًا وأبدًا يريدون صَرْف المسلمين عن دينهم: قال تعالى: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا۟ فَتَكُونُونَ سَوَآءً﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَوَدُّوا۟ لَوْ تَكْفُرُونَ﴾، وقال سبحانه وتعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟﴾، فالكفّار دائمًا في كلِّ مكان وزمان يحاولون صرف المسلمين عن دينهم، وقوله: ﴿وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ هذا هو الواجب؛ لأنَّ الله هو الخالق الرازق الرب المدبِّر الذي يستحقّ العبادة، وعبادة غيرِه باطلة؛ لأنّها بغير حقّ.

وقوله: «استعن بالله» هذا دليلٌ على وجوب الاستعانة بالله وعدم الاغترار بالقوّة، وأن المسلمين إنّما يقاتِلون بإعانة الله جل وعلا ويعتمدون على الله، ويطلُبون منه النصر والقوّة.

ثم قال ﷺ: «وإذا حاصرت أهلَ حِصْن» والمراد بالحِصْن: واحد الحُصون، وهي: الأبنية والقِلاع التي يتحصَّن بها المقاتلون.

والحصار معناه: تطويق الحُصون من كلِّ المنافذ، ومنعهم من الخروج والدخول، ووصول الأمداد إليهم. من الحصر وهو: الحبْس. وهذه خُطَّة من خطط الحرب.

«فأرادوك أن تجعل لهم ذِمّة الله وذِمّة نبيه» الذمّة: العهد.

«فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه» هذا نهي عن ذلك؛ احترامًا لذمة الله وذمة نبيه من النقض وعدم الوفاء.

«فإنّكم أن تَخفِرُوا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تَخفروا ذمّة الله» «فإنكم أن تَخفِرُوا» تنقضوا، الإخفار معناه: النّقض، والخفر معناه: الحماية. ولا يؤمن ممن أعطى ذمة أن ينقضها، فنقض ذمته أهون من نقض ذمة الله وذمة رسوله.

....

ثم قال ﷺ: «وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تُنزلهم على حكم الله، فلا تُنزلهم على حكم الله، ولكن أنزلهم على حكمك» يعني: على اجتهادك، تقول لهم: أنا أجتهد فيكم فرب الحكم الذي أرى أنّه حق وصواب، فإن وُفِّقت وأصبت فذلك من الله سبحانه وتعالى، وإنْ أخطأتُ فهذا من اجتهادي، ولا يُنسب إلى الله سبحانه وتعالى.

وإذا حصل خطأ في اجتهاد البشر فإنه لا يُنسب إلى حكم الله سبحانه وتعالى.

ولهذا قال في ختام الحديث: «فإنك لا تدري أتصيب فيهم حكم الله أم لا».

قال الفقهاء: هذا فيه دليل على الاجتهاد في الأحكام الفقهيَّة.

وفيه: دليل على أنَّ المصيب من المختلِفين واحد، فليس كلُّ مجتهد مصيبًا، وإنّما المصيب يكون واحدًا والبقيّة يكونون مخطئين.

فهذا فيه دليل على أنّ المفتي إذا أفتى بفتوى لا يقول: هذا حكم الله، وإنّما يقول: هذا اجتهادي الذي أراه، لأنّه لا يدري هل أصاب الحقّ أو لا، فلا ينسب إلى الله شيئًا لا يدري هل هو حقّ أو خطأ.

وفيه: الإرشاد إلى أخفّ الضررين، فإنّ نقض عهد الله سبحانه أشدّ من نقض عهد المخلوق، وإن كان الكلّ حرامًا، سواء كان مضافًا إلى الله أو مضافًا إلى المخلوق، ولكن نقض عهد الله أشدّ من نقض عهد المخلوق.

وهذا في المسائل الاجتهادية.

أمّا المسائل التي نصّ الله على حكمها؛ فهذا لا إشكال فيه، يقال: هذا حكم الله، تقول: الزنا حرام، هذا حكم الله.

تقول: الرّبا حرام، هذا حكم الله.

الشرك حرام، هذا حكم الله سبحانه وتعالى.

لأن الحكم في هذا واضح، وهذه أمور ليست من مسائل الاجتهاد؛ لأنَّ الله نصَّ على حكمها.

كذلك القاضي الذي يحكم بين النّاس لا يقول: هذا حكم الله، وإنَّما يقول:

....

هذا حكمي واجتهادي، وهذا الذي توصّلتُ إليه.

فيؤخذ من الآية والحديث مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: يؤخذ من الآية تحريم نقض العُهود، قال الله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَـٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَـٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾.

المسألة الثانية: في الحديث أنّ تكوين الجيوش والسرايا والغزو والجهاد من صلاحيّات الإمام، هو الذي يأمر بذلك وهو الذي ينظّم هذه الأمور ويُرجع إليه فيها.

المسألة الثالثة: في الحديث دليلٌ على أنّ الجهاد في الإسلام شُرع من أجل إعلاء كلمة الله ونشر الإسلام والقضاء على الكفر والشِّرك؛ لقوله ﷺ: «قاتلوا مَن كفر بالله».

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على تحريم قتل من لا يقاتِل من الكفّار كالطفل الوليد: «لا تقتلوا وليدًا»، وكذلك النساء، وكذلك الشيخ الكبير الهَرِم، وكذلك الرُّهبان في الصوامع، هؤلاء لا يجوز قتلُهم لأنّهم لا يقاتِلون، وكفرهم قاصرٌ على أنفسهم لا يتعدّى إلى غيرهم، أمّا إذا كان هؤلاء لهم رأيٌ ولهم دعوة إلى الكفر، فإنّهم يُقتلون دفعًا لشرهم.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على أنّ الكُفّار لا يقاتَلون إلّا بعد دعوتهم إلى الإسلام، وأنّه لا تجوز بداءتهم بالقتال قبل الدعوة؛ لقوله ﷺ: «ادعهم إلى الإسلام»، وهذا أوّل ما بدأ به ﷺ.

المسألة السادسة: فيه أنّ من أظهر الإسلام ونطق بالشهادتين فإنّه يُقبَل منه ويُكَفُّ عنه، حتى يتبيّن منه ما يناقض الإسلام، فعند ذلك يُحكم عليه بحكم المرتد لقوله ﷺ: «فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكُفَّ عنهم».

المسألة السابعة: في الحديث دليلٌ على مشروعية أخذ الجزية ممّن أبى أن يقبل الإسلام وبَذَل الجزية.

المسألة الثامنة: في الحديث دليلٌ على أن المسلمين يعتمدون في قتالهم للكفّار

....

على الله سبحانه وتعالى، ولا يعتمدون على حولهم وقوّتهم وكثرة جنودهم، ولا يغترون بذلك؛ لقوله ﷺ: «فاستعن بالله وقاتلهم».

المسألة التاسعة: في الحديث دليلٌ على أنَّ المسلمين لا يُنزلون الكُفّار المحاصرين على ذمّة الله وذمّة رسوله، يعني: على عهد الله وعهد رسوله، وإنّما يُنزلونهم على ذممهم هم؛ لأنَّه إنْ حصل خطأ، فإنَّه ينسب إليهم، ولا ينسب إلى ذمة الله وذمة رسوله.

المسألة العاشرة: فيه دليلٌ على أنّ الذنوب تختلف، بعضها أشدّ من بعض، وذلك أنّ نقض عهد الله أشدّ من نقض عهد المخلوقين، وإنْ كان الكلُّ حرامًا، ولكن الذنوب تتفاوت، وارتكاب أخفّ الذنوب أسهل من ارتكاب أعظمها.

المسألة الحادية عشرة: في آخر الحديث دليلٌ على مشروعية الاجتهاد في المسائل التي هي مَحَلٌّ للاجتهاد.

والمسألة الثانية عشرة: في الحديث دليلٌ على أنّ الصواب يكون مع واحد من المجتهدين ولا يكون مع جميعهم، بدليل قوله ﷺ: «فإنّك لا تدري»، وإذا كان هذا خطابًا للصحابة، وهم أقرب النّاس إلى العلم والإصابة، لأنّهم يتلقَّون عن الرَّسول ﷺ، فغيرهم من باب أولى من المجتهدين، فلا يغترّ الإنسان برأيه وباجتهاده؛ لأنَّه يحتمل أنّه مخطئ وأنّ الصواب مع مخالفه، فلا يغترَّ الإنسان باجتهاده أو يتعصّب لرأيه أو يشتدّ عندما يناقَش، هذا لا يجوز؛ لأنك مجتهد وهذا مجتهد، والصواب محتمل أن يكون معك وأن يكون معه، فلا يجزع الإنسان من المناقشة ومن المساءلة في المسائل الخلافية، ويقول: هذا اجتهادي وهذا الذي أرى، والإنسان عُرْضة للخطأ، ولا يقول هذا حكم الله في المسألة.

❁ ❁ ❁

١٤٧) الشـرح:

١٤٧) ٦٤- بَابُ

مَا جَاءَ فِي الإِقْسَامِ عَلَى اللهِ ، عَنْ جُنْدُبِ بنِ عَبْدِ اللهِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ : «**قَالَ رَجُلٌ: وَاللهِ لَا يَغْفِرُ اللهُ لِفُلَانٍ، فَقَالَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: مَنْ ذَا الَّذِي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أَنْ لَا أَغْفِرَ لِفُلانٍ؟ إِنِّي قَدْ غَفَرْتُ لَهُ وَأَحْبَطْتُ عَمَلَكَ**». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وفِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ القَائِلَ رَجُلٌ عَابِدٌ. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: تَكَلَّمَ بِكَلِمَةٍ أَوْ بَقَتْ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

---

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** أي: باب ما جاء فيه الوعيد، فإنه لما كان الإقسام على الله جرأة على الله، ونقص في التوحيد وضعف في الإيمان ذكره المؤلف هنا.

جندب: بفتح الدال وضمها لغتان.

حديث جندب قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال رجل: والله...**».

من ذا الذي يتألى عليَّ: التألي هو الحلف والألية اليمين.

والحديث فيه التحذير من التألي على الله، والإقسام عليه بأنه لا يفعل كذا، ولا يفعل كذا، والله لا يغفر لفلان ونحوها، فكل هذا ظلم وجور لا يجوز؛ لأنه ليس للإنسان علم من الله، ولا عندك حق عليه، ولو كان هذا الرجل فاعل كبيرة، أو صاحب معصية، بل عليك أن تدعو له بالهداية؛ لأن الله قد يغفر له، وأنت لا تدري.

وهذا فيه خطورة اللسان، فيجب حفظه والحذر منه، وهو نقص في التوحيد والإيمان.

في حديث أبي هريرة: أن القائل رجل عابد؛ أي: أن الذي حمله على هذا غيرته وعبادته التي يتعبدها على أن قال هذا الكلام السيِّئ، وفي هذا أن الإنسان قد يغار غيرة خاطئة خاسرة، فيجترئ بها على الله، وقد يكون غيورًا فيأمر بالمعروف

....

وينهى عن المنكر على غير بصيرة، وقد ينكر منكرًا على غير بصيرة؛ ولذلك يجب التقيد بالقيود الشرعية في إنكار المنكر والنظر إلى الحدود التي حدها الله.

أوبقت دنياه وآخرته؛ أي: أهلكتها؛ لأنها كلمة خطيرة. وفي الحديث:

«إن العبد ليتكلم بالكلمة من سخط الله لا يتبين فيها يكتب الله بها سخطه إلى يوم يلقاه»(١). أي: لا يتثبت فيها.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** الإقسام: مصدر أقسم يقسم إذا حلف.

والحلف له عدة أسماء، هي: يمين، وألية، وحلف، وقسم، وكلها بمعنًى واحد، قال تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ [الواقعة: ٧٥]، وقال: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤۡلُونَ مِن نِّسَآئِهِمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٦]، أي: يحلفون، وقال: ﴿لَّا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغۡوِ فِيٓ أَيۡمَٰنِكُمۡ﴾ [البقرة: ٢٢٥]، وقال تعالى: ﴿يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمۡ لِيُرۡضُوكُمۡ﴾ [التوبة: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ﴾ [النور: ٥٣].

واختلف أهل العلم في ﴿لَآ﴾ في قوله: ﴿لَآ أُقۡسِمُ﴾.

فقيل: إنها نافية على الأصل، وإن معنى الكلام: لا أقسم بهذا الشيء على المقسم به، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهذا فيه تكلف، لأن من قرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي.

وقيل: إن ﴿لَآ﴾ زائدة، والتقدير أقسم.

وقيل: إن ﴿لَآ﴾ للتنبيه، وهذا بمعنى الثاني؛ لأنها من حيث الإعراب زائدة.

وقيل: إنها نافية لشيء مقدر؛ أي: لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى: ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِيَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ فيه شيء من التكلف، والصواب أنها زائدة للتنبيه.

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعل،

---

(١) البخاري (٦٤٧٧)، ومسلم (٢٩٨٨)، الحميدي (١١٩)، والترمذي (٢٣١٩)، وابن ماجه (٣٩٦٩)، وأحمد (٣/ ٤٦٩)، والبيهقي في «السنن» (٨/ ١٦٥)، وفي الشعب (٤٦٥٧)، والبغوي (٤١٢٥)، وابن المبارك في «الزهد» (١٣٩٤).

....

مثل: والله، ليفعلن الله كذا، أو والله، لا يفعل الله كذا.

قوله: «والله لا يغفر الله لفلان». هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند القائل، وإعجابه بنفسه.

والمغفرة: ستر الذنب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يغطى به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر.

قوله: «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان». «من» : اسم استفهام مبتدأ، «ذا» ملغاة، «الذي» : اسم موصول خبر مبتدأ، «يتألى»: يحلف، أي: من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام للإنكار.

والحديث ورد مبسوطًا في حديث أبي هريرة أن هذا الرجل كان عابدًا وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول: أقصر. فوجده يومًا على ذنب، فقال: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ فقال: والله، لا يغفر الله لك.

وهذا الرجل الذي قد غفر الله له، إما أن يكون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبة، أو أن ذنبه هذا كان دون الشرك فتفضل الله عليه فغفر له، أما لو كان شركًا ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ﴾ [النساء: ١١٦].

قوله: «وأحبطت عملك». ظاهر الإضافة في الحديث: أن الله أحبط عمله كله، لأن المفرد المضاف الأصل فيه أن يكون عامًّا.

ووجه إحباط الله عمله على سبيل العموم حسب فهمنا والعلم عند الله: أن هذا الرجل كان يتعبد لله وفي نفسه إعجاب بعمله، وإدلال بما عمل على الله، كأنه يمن على الله بعمله، وحينئذ يفتقد ركنًا عظيمًا من أركان العبادة؛ لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلا بدَّ أن تكون عبدًا لله عز وجل بما تعبدك به وبما بلغك من كلامه.

وكثير من الذين يتعبدون لله بما تعبدهم به قد لا يتعبدون بوحيه، قد يصعب

....

عليهم أن يرجعوا على رأيهم إذا تبين لهم الخطأ من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ ويحرفون النصوص من أجله، والواجب أن تكون لله عبدًا فيما بلغك من وحيه، بحيث تخضع له خضوعًا كاملاً حتى تحقق العبودية.

ويحتمل معنى «أحبطت عملك»، أي: عملك الذي كنت تفتخر به على هذا الرجل، وهذا أهون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة، بطل وحده دون غيره، لكن ظاهر حديث أبي هريرة يمنع هذا الاحتمال، حيث جاء فيه أن الله تعالى قال: اذهبوا به إلى النار.

قوله: «تكلم بكلمة». يعني قوله: والله، لا يغفر الله لك.

قوله: «أوبقت». أي: أهلكت، ومنه حديث: «اجتنبوا السبع الموبقات»[(١)]. أي: المهلكات.

قوله: «دنياه وآخرته»؛ لأن من حبط عمله، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر؛ لأنه من أهل النار والعياذ بالله، وأما كونها أوبقت دنياه، فلأن دنيا الإنسان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملاً صالحًا، وإلا، فهي خسارة، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ [العصر: ١-٣] وقال: ﴿قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: ١٥]، فمن لم يوفق للإيمان والعمل الصالح، فقد خسر دنياه حقيقة؛ لأن مآلها للفناء، وكل شيء فانٍ فكأنه لم يوجد، واعتبر هذا بما حصل لك مما سبق من عمرك تجده مر عليك، وكأنه لم يكن، وهذا من حكمة الله عز وجل لئلا يركن إلى الدنيا.

وقوله: «قال أبو هريرة». يعني في الحديث الذي أشار إليه المؤلف رحمه الله.

فيه مسائل:

---

(١) البخاري / باب قول الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا﴾ (٢٦١٥)، وباب: رمي المحصنات، ومسلم / باب بيان الكبائر وأكبرها (٨٩).

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: التَّحْذِيرُ مِنَ التَّأَلِّي عَلَى اللهِ.

«الثَّانِيَةُ»: كَوْنُ النَّارِ أَقْرَبَ إِلَى أَحَدِنَا مِنْ شِرَاكِ نَعْلِهِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ الجَنَّةَ مِثْلُ ذَلِكَ.

«الرَّابِعَةُ»: فِيهِ شَاهِدٌ لِقَوْلِهِ: «إِنَّ الرَّجُلَ لَيَتَكَلَّمُ بِالكَلِمَةِ» إلخ.

الأولى: التحذير من التألّي على الله؛ لقوله: «من ذا الذي يتألى عليَّ أن لا أغفر لفلان»، وكونه أحبط عمله بذلك.

الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.

الثالثة: أن الجنة مثل ذلك.

هاتان المسألتان اللتان ذكرهما المؤلف تؤخذان من حبوط عمل المتألّي والمغفرة للمسرف على نفسه، ثم أشار إلى حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «الجنة أقرب إلى أحدكم من شراك نعله، والنار مثل ذلك»، ويقصد بهما تقريب الجنة أو النار، والشراك: سير النعل الذي يكون بين الإبهام والأصابع.

الرابعة: فيه شاهد لقوله: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة. . » إلى آخره. يشير المؤلف إلى حديث: إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يرى أن تبلغ حيث بلغت يهوي بها في النار سبعين خريفًا»[١]. أو «أبعد مما بين المشرق والمغرب»[٢]. وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسبب الهلاك، ولهذا قال النبي ﷺ: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة»[٣]. وقال لمعاذ: «كف عليك هذا» يعني لسانه. قلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال: «ثكلتك أمك

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٢٩٧، ٣٥٥) والترمذي: كتاب الزهد / باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس (٧/ ٧٦) وقال: «حسن غريب».

(٢) البخاري: (٦١١٢)، ومسلم: (٢٩٨٨).

(٣) البخاري: كتاب الرقاق/ باب حفظ اللسان (٦١٠٩).

«الْخَامِسَةُ» : أَنَّ الرَّجُلَ قَدْ يُغْفَرُ لَهُ بِسَبَبٍ هُوَ مِنْ أَكْرَهِ الأُمُورِ إِلَيْهِ.

يا معاذ! وهل يكب الناس في النار على وجوههم -أو قال: على مناخرهم- إلا حصائد ألسنتهم؟!»(١).

الخامسة: أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه. فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله: «قد غفرت له».

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** قال الشيخ رحمه الله: «باب ما جاء في الإقسام على الله» الإقسام على الله هو: الحلف على الله، فإن كان هذا الحلف على الله. بأنّه لا يرحم عباده ولا يغفرُ لهم ولا يُدخل أحدًا منهم الجنّة، فهذا محرّم، وهو سوء أدبٍ مع الله تعالى، لأنّ معناه: الحجْر على الله تعالى، ولا أحدٌ يمنع الله من أن يتصرّف في خلقه، وأن يرحم من شاء ويعذّب من شاء، وأن يغفر لمن شاء؟

فالذي يفعل هذا قد أساء الأدب مع الله، وتنقّص الله سبحانه وتعالى، فهذا النوع يُعتبر مُخلًّا بالتّوحيد.

فلذلك عقد المصنّف رحمه الله هذا الباب، وأجمل في الترجمة فقال: «باب ما جاء في الإقسام على الله»؛ لأنّ الإقسام على الله له احتمالان أو وجهان:

الاحتمال الأوّل: هو ما ذكرنا، وهذا ممنوع وحرام، ومخلٌّ بالعقيدة.

النوع الثاني من الإقسام على الله: أن يكون على وجه حسن الظنّ بالله أن يفعل الخير، وأن يغفر لعباده وأن يسقيهم المطر، وأن ينصرهم على الأعداء، فهذا لا بأس به، لأنّه حسن ظنٍّ بالله، وقد جاء في الحديث: «إنّ مِن عباد الله مَن لو أقسم على الله لأَبرّه»، وقال النّبي ﷺ: «رُبَّ أشعث أغبر ذي طِمْرين، مدفوع بالأبواب؛ لو أقسم على الله لأبرّه».

قال الشيخ رحمه الله: «عن جُنْدَب بن عبد الله» جندب: بفتح الدّال، ويجوز

---

(١) الإمام أحمد في «المسند» (٥/ ٢٣١)، والترمذي: كتاب الإيمان/ باب ما جاء في حرمة الصلاة (٢٦١٦).

....

الضمّ. والمراد به: جندب بن عبد الله البَجَلي، صحابي جليل، رضي الله عنه.

«قال: قال رسولُ الله ﷺ: «قال رجل» يعني: ممّن كان قبلنا من الأمم.

قولُه: «والله لا يغفر الله لفلان» هذا من النّوع الأوّل، وهو الحلف على الله أن لا يفعل الخير، وهو المحرَّم.

«فقال الله عزّ وجلّ: «من ذا الذي يتألّى عليّ»، يتألّى؛ يعني: يحلف، والألِيَّة هي الحَلِف، قال تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ﴾، ومعنى ﴿يُؤْلُونَ﴾ يعني: يحلفون.

ثم قال جل وعلا: «إني قد غفرتُ له» الله جل وعلا يغفر الذنوب، يوفّق العبد للتوبة ولو قبل الموت بلحظات، ثم يتوب الله عليه ويدخله الجنّة، وقد يكون الإنسان كافرًا عدوًا لله، ثم يمنّ الله عليه بالتوبة والإسلام، ويموت في لحظته ويدخُل الجنّة، وقد يكون الإنسان على عمل صالح وعلى عبادة ثم يرتد عن الإسلام في آخر لحظة ثم يدخل النّار، فالأعمال بالخواتيم: «إنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعلم أهل النّار فيدخلها، وإنّ أحدكم ليعمل بعمل أهل النّار حتّى ما يكون بينه وبينها إلّا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنّة فيدخلها»، فالأعمال بالخواتيم، والمدار على التوبة الصادقة، متى حصلت التوبة الصادقة قبل الغرغرة حصلت المغفرة، مهما كانت الذنوب والخطايا والسيّئات.

ولهذا قال المصنّف رحمه الله في مسائله: «فيه: أنّ الجنة أقرب إلى أحدنا من شراك نعله، والنّار مثل ذلك».

قال جلّ وعلا للذي تألّى عليه سبحانه: «أحبطتُ عملك» أي: أبطلته. فهذه الكلمة أبطلت عمله.

ففيه: خطر اللّسان، ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: «تكلّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته» يعني: أهلكت دنياه وآخرته.

١٤٨) ٦٥-بابٌ

لا يُسْتَشْفَعُ باللهِ عَلَى خَلْقِهِ عَنْ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِم رضي الله عنه قَالَ: جَاءَ أَعْرَابِيٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ: نُهِكَتِ الأَنْفُسُ، وجَاعَ العِيالُ، وهَلَكَتِ الأَمْوَالُ، فَاسْتَسْقِ لَنَا رَبَّكَ، فَإِنَّا نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ وبِكَ

فهذا الحديث فيه مسائل:

المسألة الأولى: فيه تحريم الإقسام على الله إذا كان على وجه الحجْر على الله سبحانه وتعالى أن لا يفعل بعباده خيرًا، وأنّه مخلٌّ بالتّوحيد.

المسألة الثانية: فيه خطرُ اللّسان، وأنّه قد يزلّ في كلمة تُهلكه في الدنيا والآخرة، فكيف بالذي يتكلّم بكلام كثير من سخَطِ الله؟

المسألة الثالثة: فيه ما أشار إليه المصنِّف أنّ الجنة أقرب إلى أحدنا من شِراك نعله، وأنّ النار مثل ذلك.

المسألة الرابعة: في الحديث دليلٌ على تحريم إعجاب الإنسان بنفسه واحتقاره للآخرين.

المسألة الخامسة: في الحديث دليلٌ على وجوب التحفُّظ عند إنكار المنكر من الكلام الذي يكون وبَالًا على صاحبه، لأنّ بعض النّاس عند إنكاره المنكر قد تحمله الغَيْرة فيتكلّم على العُصاة والمخالفين بكلام لا يليق، فيكون إثم ذلك عليه ووبالُه عليه، ففيه: أنّ الإنسان ينكر المنكر بضوابط، ولا يندفع في الإنكار إلى حدٍّ يزلُّ فيه بلسانه أو بيده، فيقع في منكر أشدّ، فإنكار المنكر له ضوابط؛ يقول الله جل وعلا: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾

١٤٨) الشرح:

*** أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** ذكر المؤلف هذا الباب؛ لأنه من كمال التوحيد والإيمان، ولأن هذا من وسائل الشرك، وهو الاستشفاع بالله على خلقه، فشأن الله أعظم من ذلك، فلا يستشفع بالله على خلقه بأن يقول لأحد: إني أستشفع بالله عليك، ولكن يستشفع بالمخلوق على المخلوق فيقال: يا فلان أنا أستشفع

عَلَى اللهِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «سُبْحَانَ اللهِ! سُبْحَانَ اللهِ!» فَمَا زَالَ يُسَبِّحُ حَتَّى عُرِفَ ذَلِكَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ؛ ثُمَّ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «وَيْحَكَ، أَتَدْرِي مَا اللهُ؟ إِنَّ شَأْنَ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، إِنَّهُ لا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ» . وذَكَرَ الحَدِيثَ. رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ.

بفلان عليك، فهذا لا بأس به، أما على الله فلا تجوز؛ لأن شأن الله أعظم من ذلك، ومن شأن المشفوع به أن المشفوع إليه يكون أعظم، وهذا لا يليق بالله؛ لأن الله فوق الجميع، بل يسأل الله بأسمائه وصفاته.

عن جبير بن مطعم قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله.

قال النبي ﷺ «سبحان الله» هذا يقوله ﷺ في الأمور العظيمة المحبوب منها والمكروه، وفي الأشياء التي تعظم أو يتعجب منها أو ينكرها.

ولها أمثلة كثيرة كحديث الأنواط، وحديث: أن الأمة شطر الجنة، وغيرها.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: استشفع بالشيء، أي: جعله شافعًا له، والشفاعة في الأصل: جعل الفرد شفعًا، وهي التوسط للغير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

قوله: «أعرابي». واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء، لأنهم أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله.

قوله: «جاع العيال، وهلكت الأموال»؛ أي: من قلة المطر والخصب، فضعفت الأنفس بسبب ضعف القوة النفسية والمعنوية التي تحصل فيما إذا لم يكن هناك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأموال؛ لأنها لم تجد ما ترعاه.

قوله: «فاستسق لنا ربك». أي: اطلب من الله أن يسقينا، وهذا لا بأس به، لأن طلب الدعاء ممن ترجى إجابته من وسائل إجابة الدعاء.

قوله: «نستشفع بالله عليك». أي: نجعله واسطة بيننا وبينك لتدعو الله لنا، وهذا يقتضي أنه جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرسول ﷺ.

قوله: «سبحان الله، سبحان الله». قال ﷺ استعظامًا لهذا القول، وإنكارًا له، وتنزيهًا لله عز وجل عما لا يليق به من جعله شافعًا بين الخلق وبين الرسول ﷺ.

....

قوله: «فما زال». إذا دخلت «ما» على زال الذي مضارعها يزال، صار النفي إثباتًا مفيدًا للاستمرار، كقوله تعالى: ﴿فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ﴾ الآية [الأنبياء: ١٥]، وكقوله تعالى في المضارع: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩].

وجملة «يسبح»: خبر زال.

قوله: «ويحك». ويح: منصوب بعامل محذوف، تقديره: ألزمك الله ويحك.

وتارة تضاف، فيقال: ويحك، وتارة تقطع عن الإضافة، فيقال: ويحًا لك، وتارة ترفع على أنها مبتدأ، فيقال: ويحه أو ويح له.

وهي وويل ووي كلها متقاربة في المعني.

ولكن بعض علماء اللغة قال: إن ويح كلمة ترحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى ويحك: إني أترحم لك وأحن عليك.

ومنهم من قال: كل هذه الكلمات تدل على التحذير.

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله ﷺ لهذا الرجل ترحمًا لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام، كأنه لم يعرف قدر الله.

قوله: «أتدري ما الله». المراد بالاستفهام التعظيم، أي: شأن الله العظيم، ويحتمل أن المعنى: لا تدري ما الله، بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي.

وقوله: «ما الله». جملة استفهامية معلقة لـ «تدري» عن العمل، لأن درى تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل، وتكون الجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تدري.

قوله: «إن شأن الله أعظم من ذلك». أي: إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا اللفظ.

قوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحدًا». أي: لا يطلب منه أن يكون شفيعًا إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: إِنْكَارُهُ عَلَى مَنْ قَالَ: نَسْتَشْفِعُ بِاللهِ عَلَيْكَ.

«الثَّانِيَةُ»: تَغَيُّرُهُ تَغَيُّرًا عُرِفَ فِي وُجُوهِ أَصْحَابِهِ مِنْ هَذِهِ الكَلِمَةِ.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّهُ لَمْ يُنْكِرْ عَلَيْهِ قَوْلَهُ: «نَسْتَشْفِعُ بِكَ عَلَى اللهِ».

«الرَّابِعَةُ»: التَّنْبِيهُ عَلَى تَفْسِيرِ «سُبْحَانَ اللهِ».

«الخَامِسَةُ»: أَنَّ المُسْلِمِينَ يَسْأَلُونَهُ الاسْتِسْقَاءَ.

صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول: نستشفع بالله عليك.

فيه مسائل:

الأولى: إنكاره على من قال: «نستشفع بالله عليك». تؤخذ من قوله: «سبحان الله! أتدري ما الله»، وقوله: «إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه».

الثانية: تغيره تغيرًا عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة. تؤخذ من قوله: سبحان الله هذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هذه الكلمة، وهذا دليل على أن هذه الكلمة عظيمة منكرة.

الثالثة: أنه لم ينكر عليه قوله: «نستشفع بك على الله». لأنه قال: لا يستشفع بالله على أحد، فأنكر عليه ذلك، وسكت عن قوله: «نستشفع بك على الله، وهذا يدل على جواز ذلك.

الرابعة: التنبيه على تفسير «سبحان الله!». لأن قوله: «إن شأن الله أعظم دليل على أنه منزه عما ينافي تلك العظمة.

الخامسة: أن المسلمين يسألونه الاستسقاء. وهذا في حال حياته، أما بعد وفاته فلم يكونوا يفعلونه، لأنه ﷺ انقطع عمله بنفسه وعبادته، ولهذا لما حصل الجدب في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه استسقى بالعباس، فقال: «اللَّهُمَّ! إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا». وتوسلهم بالنبي ﷺ كان بطلبهم الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايات: أن عمر كان يأمر العباس فيقوم فيدعو.

....

وبهذا نعرف أن القصة المروية عن الرجل العتبي الذي كان جالسًا عند قبر النبي ﷺ، فجاء أعرابي، فقال: السلام عليكم يا رسول الله! سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٦٤]، وإني قد جئت مستغفرًا لذنبي مستشفعًا بك إلى ربي، ثم أنشأ يقول:

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه فطاب من طيبهن القاع والأكم

نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصرف، قال العتبي: فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم، فقال: يا عتبي! بشر الأعرابي أن الله قد غفر له.

فهذه الرواية باطلة؛ لا صحة لها، لأن صاحبها مجهول، وكذلك من رواها عنه مجهولون، ولا يمكن أن تصح، لأن الآية: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ﴾ ولم يقل: إذا ظلموا، و«إذ» لما مضي بخلاف «إذا» والصحابة رضي الله عنهم لما لحقهم الجدب في زمن عمر لم يستسقوا بالرسول ﷺ، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم(١).

* ثالثًا: **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله**: الاستشفاع: طلب الشفاعة.

والشفاعة: هي الوساطة في قضاء الحوائج عند من هي بيده.

وهي بحسب المشفوع فيه؛ فإن كان المشفوع فيه خيرًا فالشفاعة حسنة وفيها أجر، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً حَسَنَةً يَكُن لَّهُۥ نَصِيبٌ مِّنْهَا﴾، وقال ﷺ: «اشفعوا تؤجروا».

أمّا إنْ كانت الشفاعة في أمر محرَّم فإنّها محرَّمة، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْفَعْ شَفَٰعَةً سَيِّئَةً يَكُن لَّهُۥ كِفْلٌ مِّنْهَا﴾، كالذي يشفع في إسقاط حد من حدود الله كحدّ الزنا، وحدّ السرقة، وحدّ الشرب، فإذا أراد أحدٌ أن يبطِله، وذهب إلى الحاكم من

---

(١) البخاري: كتاب الاستسقاء / باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء .

....

أجل أن يترك إقامة الحدّ بعدما تقرّر وثبت؛ فهذه شفاعة محرّمة، قال ﷺ: «تعافوا الحدود فيما بينكم، وما بلغني من حدٍّ فقد وجب»، وقال: «إذا بلغت الحدود السلطان فلعن الله الشّافع والمشفَّع».

هذا في الشفاعة عند المخلوق:

أمّا الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه: فهذا منكر عظيم، لأنّ المشفوع عنده يكون أعظم من الشّافع، فإذا استشفع بالله إلى أحدٍ من خلقه فمعناه: أن هذا المخلوق عنده أعظم من الله، فهذا تنقُّصٌ لجناب الله سبحانه وتعالى، وهذا مخلٌّ بالتّوحيد.

قوله: «جاء أعرابي» الأعرابي هو: ساكن البادية، والغالب على سُكّان البادية الجهل.

«نَهِكَت الأنفس» يعني: ضعُفت.

«وجاع العيال، وهلكت الأموال» وذلك بسبب تأخُّر المطر، لأنّ عيشة البادية على ما ينزّله الله سبحانه وتعالى في الأمطار، والمطر لا يستغني عنه أحد لا أصحاب الحاضرة ولا أصحاب البادية، كلُّهم بحاجة إلى المطر، فإذا تأخّر المطر تضرّر النّاس، وإذا نزل المطر وأنزل الله فيه البركة انتفع النّاس وانتعشوا، فالأمطار فيها خيرٌ للعباد.

ولا يحبسها الله جل وعلا إلّا بسبب الذنوب والمعاصي: ﴿وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُوا۟ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا﴾.

«فاستسق لنا ربك» وهذه عادة الصّحابة رضي الله عنهم، أنهم كانوا إذا تأخّر المطر أو انحبس المطر طلبوا من النّبي ﷺ أن يستسقيَ لهم.

والاستسقاء هو: طلب السُّقيا.

والاستسقاء: سنّة قديمة فقد استسقى موسى- عليه الصلاة والسلام- لقومه، واستسقى سليمان لقومه، واستسقى نبيُّنا محمد ﷺ لأمّته، فالاستسقاء مشروع.

فمجيء هذا الأعرابي إلى النّبي ﷺ وطلبه من الرّسول أن يستسقيَ لهم، أمرٌ معروف مستقرٌّ.

---

(١) ابن كثير في « التفسير » (٤/ ٥٤٠).

....

ولكن هذا الأعرابي لم يقتصر على ذلك بل قال: «فإننا نستشفع بالله عليك» وهذه هي الكلمة المنكَرة؛ لأنه جعل الله شافعًا عند الرَّسول ﷺ، والشّافع أقلّ درجة من المشفوع عنده، فهذا تنقُّص لله سبحانه وتعالى.

وقوله: «ونستشفع بك على الله» هذا أيضًا لا إنكار فيه في حياة النّبي ﷺ، لا بعد موته. ومعناه: طلب الدعاء من الرّسول لهم بالسقيا، كذلك طلب الدعاء من الصالحين الأحياء، لا بأس به.

ثم إنّه ﷺ نزّه الله عن هذا التنقُّص وهذا الجهل الذي وقع من هذا الأعرابي في حقّ الله، وقال: «سبحان الله! سبحان الله!» وهذه عادته ﷺ، أنّه كان إذا استنكر شيئًا يسبّح، أو أعجبه شيء يسبّح أو يكبّر.

قوله: «حتى عُرف ذلك في وجوه أصحابِه» لَمّا تأثّر وغضب، غضبوا لغضب الرّسول ﷺ، وتأثّروا من تأثُّر الرّسول ﷺ، وظهر ذلك على وجوههم رضي الله عنهم.

ثم قال: «ويحك!» (ويح) كلمة يُراد بها العِتاب، أو يراد بها الشَّفَقة أحيانًا.

«أتدري ما الله؟» هذا استنكار من النّبي ﷺ وبيان لجهل هذا الأعرابي في حق الله.

«شأنُ الله أعظم من ذلك، إنّه لا يستشفع بالله على أحدٍ من خلقه» لَمّا أنكر ﷺ ذلك ونزّه ربّه علّم هذا الجاهل ما يجب عليه من تعظيم الله.

فهذا الحديث فيه مسائل عظيمة:

المسألة الأولى: في الحديث دليل على مشروعيّة الاستسقاء عند تأخُّر المطر.

المسألة الثانية: في الحديث دليل على إنكار المنكر، فإنّ النّبي ﷺ أنكر على هذا الأعرابي ولم يسكُت عنه.

المسألة الثالثة: في الحديث دليل على تحريم الاستشفاع بالله على أحدٍ من خلقه، وأنّ هذا يُخِلُّ بالعقيدة وينقّص التّوحيد، وفيه إساءةُ أدبٍ مع الله سبحانه وتعالى، وهذا الذي عقد المصنّف هذا الباب من أجله.

المسألة الرابعة: في الحديث دليل على أنّ طلب الدعاء والاستشفاع بالحيّ جائز.

المسألة الخامسة: فيه مشروعيّة تعليم الجاهل، فإنّ النّبي ﷺ علّم هذا الجاهل

١٤٩) ٦٦- بَابٌ

مَا جَاءَ فِي حِمَايَةِ النَّبِيِّ ﷺ حِمَى التَّوْحِيدِ، وَسَدِّهِ طُرُقَ الشِّرْكِ عَنْ عَبْدِ اللهِ بنِ الشِّخِّيرِ رضي الله عنه، قَالَ: انْطَلَقْتُ فِي وَفْدِ بَنِي عَامِرٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقُلْنَا: أَنْتَ سَيِّدُنَا، فَقَالَ: «السَّيِّدُ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى». قُلْنَا: وَأَفْضَلُنَا فَضْلًا، وَأَعْظَمُنَا طَوْلًا؛ فَقَالَ: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ». رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

بعد ما أنكر عليه ونبهه على الخطأ الذي حصل منه من أجل أن يتجنَّبه.

المسألة السادسة: فيه مشروعية التسبيح والتكبير عند حصول أمرٍ منكر أو أمرٍ عجيب، بدل التصفيق الذي أحدثه من يقلدون الكفار.

١٤٩) الشرح:

* أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: هنا تكلم على حماية التوحيد من جهة الأقوال، قد تقدم طرق وباب حماية التوحيد من جهة الأفعال وحماية جناب التوحيد، والجناب هو الجزء منه، وهذا الباب في حمى التوحيد والحمى غير الذات، وخارج عن الذات، فهذه الترجمة أبلغ فيما يتعلق بالتوحيد وفيما يتعلق بالأقوال، فالرسول ﷺ حمى جناب التوحيد، وحمى حماه من جهة القول والعمل حتى لا يقرب الناس من الشرك، ويقعوا فيه، وحذر من وسائله وذرائعه الموصلة إليه، وهذا من كمال البلاغ.

السيد الله: هذا من باب التواضع خوفًا عليهم من الغلو، وإلا فإنه سيد ولد آدم ﷺ فقال ذلك تواضعًا، ولئلا يقعوا في الغلو، فهو دليل أنه إذا قيل للإنسان: أنت سيدنا، ينبغي أن يقول: السيد الله حتى لا يقع في قلبه شيء من التعاظم.

لا يستجرينكم الشيطان؛ أي: لا يجركم الشيطان إلى ما لا ينبغي، أي: لا يتخذكم جريًا؛ أي: رسلًا إلى ما يبعث إلى الشرك والغلو، والزموا الأقوال المعتادة كـ: أبا القاسم، يا رسول الله، يا نبي الله، ودعوا عنكم الأقوال التي قد تفضي إلى الغلو.

وَعَنْ أَنَسٍ رضي الله عنه ، أَنَّ نَاسًا قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، يَا خَيْرَنَا وَابْنَ خَيْرِنَا، وَسَيِّدَنَا وَابنَ سَيِّدِنَا، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ، أَنَا مُحَمَّدٌ، عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي الَّتِي أَنْزَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ». رَوَاهُ النَّسَائِيُّ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

لا يستهوينكم: لا يوقعنكم في الضلالة.

كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ﴾ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ﴾.

والمقصود من هذا سد الذرائع التي قد توصل الناس إلى التساهل إلى الشرك، فإنهم إن قالوا له يا سيدنا وغير ذلك من الألفاظ التي يأتي بها الناس الآن من الغلو، فقد يجرهم إلى أن يعبدوه من دون الله ويدعوه، ويستغيثوا به يزعمون أنه يعلم الغيب وغير ذلك، وقد فعلوا كما قال صاحب البردة:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ......

فوقع في الغلو حتى قال عن النبي ﷺ: أنه ينجي يوم القيامة، وأن من لا ينجيه النبي ﷺ فإنه لا ينجو، وهذا من أعظم الغلو، وقال: إن عنده علم اللوح والقلم، وإنه مطلع على كل شيء.

فالواجب على المسلم أن يحفظ لسانه، وأن يقتصد في قوله سواء مع الرسول ﷺ أو مع غيره، وعليه التأدب بالآداب الشرعية في أقواله وأعماله مع الرسل والصالحين والعلماء حتى لا يقع في الغلو الذي وقع فيه اليهود والنصارى، وأوصلهم إلى أن عبدوا أولياءهم واستغاثوا بأنبيائهم وصلحائهم وعلمائهم، ووقعوا في الشرك الأكبر والذنب الذي لا يغفر.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: «انطلقت في وفد بني عامر». الظاهر أن هذا وفد قدم على النبي ﷺ في العام التاسع؛ لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسمى عام الوفود.

....

قوله: «أنت سيدنا» السيد: ذو السؤدد والشرف، والسؤدد معناه: العظمة والفخر وما أشبهه.

وسيد: صفة مشبهة على وزن فيعل، لأن الياء الأولى زائدة.

قوله: «السيد الله». لم يقل ﷺ: سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه رد على قولهم سيدنا لوجهين:

الوجه الأول: إرادة العموم المستفاد من (أل)، لأن (أل) للعموم، والمعنى: أن الذي له السيادة المطلقة هو الله عز وجل، ولكن السيد المضاف يكون سيدًا باعتبار المضاف إليه، مثل: سيد بني فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك.

الوجه الثاني: لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه، لأن سيد كل شيء من جنسه.

والسيد من أسماء الله تعالى، وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده[(١)] وما أشبه ذلك.

ولم ينههم ﷺ عن قولهم: «أنت سيدنا» بل أذن لهم بذلك، فقال: قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة؛ لأن سيدنا خاصة مضافة و«السيد» سيادة عامة مطلقة غير مضافة.

قوله: «تبارك». قال العلماء: معنى تبارك، أي: كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون: إن هذا الفعل لا يوصف به إلا الله، فلا يقال: تبارك فلان، لأن هذا الوصف خاص بالله.

قوله: «وأفضلنا». أي: فضلك أفضل من فضلنا.

قوله: «وأعظمنا طولاً». أي: أعظمنا شرفًا وغنى، والطول: الغنى، قال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ﴾ [النساء: ٢٥] ويكون بمعنى العظمة، قال تعالى: ﴿غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ذِي الطَّوْلِ﴾

(١) أخرجه الإمام أحمد ومسلم كتاب صفات المنافقين (٢٧٨٨) بمعناه.

....

[غافر: ٣]، أي: ذي العظمة والغنى.

قوله: «قولوا بقولكم أو بعض قولكم». الأمر للإباحة والإذن كما سبق. وقوله: «قولوا بقولكم» : يعني قولهم: أنت سيدنا، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك.

وقوله: «أو بعض قولكم». يحتمل أن يكون شكًّا من الراوي، وأن يكون من لفظ الحديث، أي: اقتصروا على بعضه.

قوله: «ولا يستجرينكم الشيطان». استجراه بمعنى: جذبه وجعله يجري معه، أي: لا يستميلنكم الشيطان ويجذبنكم إلى أن تقولوا قولًا منكرًا.

قوله: «قالوا: يا رسول الله» هذا النداء موافق لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا﴾ [النور: ٦٣]، أي: لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعضًا، فتقولوا: يا محمد، ولكن قولوا: يا رسول الله، أو: يا نبي الله.

قوله: «ولا يستهوينكم الشيطان». أي: لا يستميلنكم الشيطان فتهووه وتتبعوا طرقه حتى تبلغوا الغلو، ونظير قوله تعالى: ﴿كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَـٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ﴾ [الأنعام: ٧١].

قوله: «أنا محمد عبد الله ورسوله». محمد اسمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له.

وهذان الوصفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول ﷺ، ولذلك وصفه الله تعالى بالعبودية في أعظم المقامات، فوصفه بها في مقام إنزال القرآن عليه، قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ووصفه بها في مقام الإسراء، قال تعالى: ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، ووصفه بها في مقام المعراج، قال تعالى: ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ووصفه في مقام الدفاع عنه والتحدي، قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣].

قوله: «ورسوله». أي: المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

فِيهِ مَسَائِلُ:
«الأُولَى»: تَحْذِيرُ النَّاسِ مِنَ الغُلُوِّ.
«الثَّانِيَةُ»: مَا يَنْبَغِي أَنْ يَقُولَ مَنْ قِيلَ لَهُ: أَنْتَ سَيِّدُنَا.
الثَّالِثَةُ: قَوْلُهُ: «وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيطَانُ» مَعَ أَنَّهُمْ لَمْ يَقُولُوا إِلَّا الحَقَّ.
«الرَّابِعَةُ»: قَوْلُهُ: «مَا أُحِبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَنْزِلَتِي».

قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي». «ما» نافية و «إن» وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول أحب، أي: ما أحب رفعتكم إياي فوق منزلتي، لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الاحوال.

قوله: «التي أنزلني الله». يستفاد منه أن الله تعالى هو الذي يجعل الفضل في عباده، وينزلهم منازلهم.

فيه مسائل:

الأولى: تحذير الناس من الغلو. تؤخذ من قوله: «ولا يستجرينكم الشيطان»، ووجهه: أن الرسول ﷺ جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان.

الثانية: ما ينبغي أن يقول من قيل له: «أنت سيدنا». وتؤخذ من قوله: «السيد الله»، فينبغي أن يقول من قيل له ذلك: «السيد الله».

الثالثة: قوله: «لا يستجرينكم الشيطان» مع أنهم لم يقولوا إلا الحق.

ظاهر كلام المؤلف أن هذا من استجراء الشيطان، فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من استجراء الشيطان.

ويحتمل أن المعنى: قولوا بهذا القول، ولكن إياكم أن تغلوا، فإن هذا من استجراء الشيطان، وهذا ظاهر الحديث كما سبق.

الرابعة: قوله: «ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي». أي: إني أكره أن ترفعوني فوق منزلتي، وهي العبودية والرسالة، ففيها تواضعه ﷺ.

* ثالثًا: **قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** سبق بابٌ يشبه هذا، وهو قول

....

الشيخ رحمه الله هناك: «باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التّوحيد، وسدّه كل طريق يوصّل إلى الشرك»، فما الفرق بين البابين؟

الفرق بين البابين: أنّ جناب التّوحيد معناه: جانب التّوحيد، وهنا: «حمى التّوحيد» وفرقٌ بين الجانب وبين الحمى، لأنّ الجانب بعض الشيء، وأمّا الحمى فهو ما حول الشّيء.

فهناك أراد المصنّف رحمه الله أن يبيّن حماية النّبي ﷺ للتوحيد نفسه من أن يقع فيه شرك.

وهنا أراد أن يبيّن أنّ النّبي ﷺ حمى ما حول التّوحيد، بعد حمايته التّوحيد، وهذا من باب العناية التامة بشأن التّوحيد.

قوله: «باب ما جاء» يعني: من الأحاديث.

«في حماية النّبي ﷺ» الحماية معناها: المنع، أي: منع النّبي ﷺ.

«حمى التّوحيد» أي: ما حول التّوحيد.

«وسده طرق الشرك» الطرق هي: الأشياء التي توصّل إلى الشيء، فالنّبي ﷺ سدّ الوسائل والأسباب التي تؤدّي إلى الشرك وإن لم تكن هي من الشِّرْك، لكن لَمّا كانت تؤدّي إلى الشرك منع منها النّبي ﷺ احتياطًا للتّوحيد.

قولُه: «عن عبد الله بن الشِّخِّير» هو عبد الله بن كعب بن عامر بن الشخِّير العامري نسبةً إلى بني عامر، قبيلة من قبائل العرب معروفة.

قال: «انطلقت في وفد بني عامر إلى رسول الله ﷺ» وذلك عام الوُفود، وهو العام التّاسع من الهجرة، فإنّ النّبي ﷺ لَمّا فتح الله عليه مكّة في السنة الثامنة من الهجرة، دخل النّاس في دين الله أفواجًا، فصاروا يتوافدون على الرّسول ﷺ يعلنون إسلامهم، فسمّيَ هذا العام عامَ الوُفود، وهذا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا﴾، والفتح المراد به: فتحُ مكّة.

قالوا للرّسول ﷺ يخاطبونه: «أنت سيدنا» على عادة العرب أنّهم إذا قدِموا إلى

....

كبيرٍ من كبرائهم أو ملكٍ من ملوكهم يمدحونه ويفخّمونه بالألفاظ، فظنّوا أن النّبي ﷺ كذلك يقال له مثل ما يقال لرؤساء العرب وملوك العرب، فقالوا: «أنت سيدنا وابن سيدنا».

فقال النّبي ﷺ: «السيِّد الله تبارك وتعالى» أراد ﷺ أن يسدّ باب الغلوّ في حقّه ﷺ، فقال لهم: «السيِّدُ الله» من أجل أن يترُكوا هذا اللّفظ.

والسيِّد يطلق ويُراد به: المالِك، كما يقال لمالك العبد: سيِّد، لأنّه يملكُه، فالله جل وعلا هو السيد، بمعنى أنّه هو المالك المطلق الذي له التصرُّف كما يشاء سبحانه وتعالى في عباده، فهو السيِّد والخلق عباده سبحانه وتعالى.

والنّبي ﷺ أراد أن يسدّ هذا المديح خوفًا عليهم من الغلو، كما أن الصّحابة لَمّا آذاهم منافق من المنافقين فقالوا: «قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ»، فقال النّبي ﷺ: «إنّه لا يُستغاث بي، وإنما يُستغاث بالله»، فأراد صلى الله عليه وسلم أن يسدّ هذا الباب، وإن كانت الاستغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه جائزة، كما قال الله تعالى في قصة موسى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾، والنّبي ﷺ قادرٌ على أن يردع هذا المنافق، ولكنّه أراد أن يعلِّم الأمّة الآداب ويبعدها عن الغلو، فقال: «إنّه لا يُستغاث بي، وإنّما يُستغاث بالله عزّ وجلّ».

وقوله ﷺ: «قولوا بقولكم» يعني القول المعتاد مع الرّسول ﷺ بأن يقال له: يا رسولَ الله، يا نبيّ الله، هذا القول المعتاد معه ﷺ وليس فيه غلو.

وقوله: «ولا يستجرينكم الشيطان» أي: لا يتّخذكم الشيطان جريًا له.

ثم ذكر المصنِّف الحديث الثاني فقال: «عن أنس رضي الله عنه: أن ناسًا قالوا: يا رسول الله، يا خيرنا وابن خيرنا، وسيّدنا وابن سيّدنا». أما قولهم: «يا رسول الله»، فهذا سليم، لكن قولهم: «سيدنا وابن سيّدنا» هذا الذي استنكره النّبي ﷺ.

وكذلك قولهم: وخيرنا وابن خيرنا» هذا أيضًا استنكره النّبي ﷺ لأن الرّسول

. . . .

ﷺ لا يريد المدح، وإنّما يريد أن يوصف بما وصفه الله تعالى به من الرّسالة والنبوّة، وكفى بذلك شرَفًا له ﷺ.

قوله ﷺ: «ولا يستهوينكم الشيطان» يستهوينّكم: يوقعكم في الهوى الذي يضلُّ عن سبيل الله عزّ وجلّ. أو يستهوينّكم: من الهُوِي وهو: الوُقوع في الهلاك، أي: لا يوقعكم الشيطان في الضّلال، أو لا يوقعكم في الهوى الذي يضلّكم عن سبيل الله عزّ وجلّ، فإنّ الشيطان يتدرَّج ببني آدم شيئًا فشيئًا إلى أن يُهلكهم. فعلى المسلم أن يحذر من الشيطان واستدراجه واستهوائه، ولا يتساهل مع الشيطان في شيء ولو كان صغيرًا فإنّه يكْبُر ويعظم.

ثم قال ﷺ: «أنا محمد؛ عبد الله ورسوله» هذا ما يمدح به ﷺ العبودية والرسالة.

«ما أُحبُّ أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عزّ وجلّ» هذا بيان الحكمة في منعه ﷺ أنّه خشي عليهم في مدحهم له أن يرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله وهي العبوديّة والرّسالة، لئلا يعتقدوا فيه جانب الرّبوبيّة، كما حصل للنصارى في حقّ عيسى، عليه الصلاة والسلام.

فعبده: فيه منع من الغلوّ.

ورسوله: فيه المنع من تنقص حقه ﷺ.

فلا تعتبره أنّه لا ميزة له على البشر في شيء، كما يقول الكفار: ﴿مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا﴾ ، لأنّه جُحودٌ للرّسالة.

ففي قولنا: «عبده ورسوله» منع من الإفراط ومن التفريط.

فهذان الحديثان يُستفاد منهما فوائد عظيمة:

الفائدة الأولى: فيه التحذير من الغلوّ في حقّه ﷺ عن طريق المديح، وأنّه ﷺ إنّما يوصف بصفاته التي أعطاه الله إيّاها: العبوديّة والرّسالة.

الفائدة الثانية: في الحديث النّهي عن وصف الرّسول ﷺ بالسيّد، وهذا فيه إشكال عند أهل العلم: حيث إنّه أنكر على من قال له: «أنت سيِّدُنا»، وقال «السيِّد

....

الله».

بينما جاءت أحاديث أخرى فيها إطلاق السيِّد عليه ﷺ وعلى غيره، فقد صحَّ عنه ﷺ أنَّه قال: «أنا سيِّد ولد آدم ولا فخر»، وقال في الحسن بن علي رضي الله عنهما: «إن ابني هذا سيِّد، وسيصلح الله به بين طائفتين عظيمتين من المسلمين»، وقال: «الحسن والحسين سيِّدا شباب أهل الجنَّة»، ولما جيء بسعد بن معاذ رضي الله عنه عام الخندق، قال ﷺ للأنصار: «قوموا إلى سيِّدكم».

فالعلماء اختلفوا في الجواب على ثلاثة أقوال:

القول الأوّل: تحريم إطلاق لفظ (السيِّد) على المخلوق، فلا يقال السيِّد إلّا في حقِّ الله سبحانه وتعالى، كما جاء في هذين الحديثين: «السيِّد الله» وهذا مرويٌّ عن الإمام مالك رحمه الله.

وأجابوا عن الأحاديث المخالفة بأنها أحاديث متقدّمة، وحديث: «السيِّد الله» متأخر لأنّه كان في عام الوفُود في السنّة التاسعة، فيكون ناسخًا للأحاديث التي تدلّ على جواز إطلاق لفظ (السيِّد) على المخلوق.

القول الثّاني: جواز إطلاق السيِّد على المخلوق عملًا بالأحاديث التي فيها ذلك: «أنا سيِّد ولد آدم»، «إن ابني هذا سيِّد»، «قوموا إلى سيِّدكم»، فيجوز إطلاق لفظ السيد على المخلوق كما في هذه الأحاديث.

وأجابوا عن حديث المنع بأنّه محمولٌ على كراهة التنزيه، فيكون النّهي للتنزيه.

والقول الثالث: الجواز مطلقًا بلا كراهة، إلّا إذا خيف من الغلو، فإنّ النّبي ﷺ خاف عليهم من الغلو، كما في الحديثين المذكورين، فإذا خيف على الإنسان من الغلو، يُنهى عن ذلك، أمّا إذا لم يُخفْ عليه من الغلو، فلا بأس عملًا بالأحاديث الكثيرة التي جاء فيها إطلاق السيد على المخلوق.

وهناك قولٌ رابع ألمح إليه المشايخ، وهو: أنّه لا يجوز إطلاق السيِّد على الشخص في حضورِه ومواجهته، ويجوز إطلاقُه عليه وهو غائب، لأنّ النّبي ﷺ إنّما استنكر هذا لَمّا واجهوه به ﷺ.

١٥٠) ٦٧- بابٌ

مَا جَاءَ فِي قَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧] عَنِ ابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه

تنبيه: الآن لفظ (السيِّد) صار يطلق على من يُعتقد فيهم النفع والضر، مثل من يسمّونهم السادة من أهل البيت أو السادة من الصوفية، وصار يصحب هذا القول اعتقاد في الأشخاص، وهذا لا شكّ في تحريمه.

فإذا أُطلق (السيِّد) على مثل هؤلاء فإنّه محرَّم؛ لأنّه ينبئ عن اعتقاد باطل وشرك بالله عزّ وجلّ، وأنّ هؤلاء ينفعون ويضرّون وتحلّ البركة منهم.

المسألة الثالثة: فيه ما عقد المصنّف هذا الباب من أجله، وهو حمايته ﷺ حمى التّوحيد وسدّه الطرق التي تُفضي إلى الشّرك، حيث إنّه منع من وصفه ﷺ بالسيادة وبالفضل وبالطَّوْل من أجل سدّ الوسيلة إلى الغلو وإلى الشرك، ففيه: شاهد للترجمة.

الفائدة الرّابعة: فيه المنع من الغلوّ في مدحه ﷺ سواءً في النثر أو في الشّعر، والشّعر أشد، لأنّ الشعر يُحفظ ويُرغب فيه أكثر من النّثر، وبعضهم إذا جاء لزيارة قبر النّبي ﷺ يقف ويدعو النّبي ﷺ يستغفر، ويقول: جئتك تائبًا يا رسول الله، يا حبيب الله جئتك تائبًا وما أشبه ذلك من الغلو، لأنّ التوبة إلى الله سبحانهن وليست إلى الرسول ﷺ.

١٥٠) **الشـرح:**

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله:** هذا الباب الأخير في الكتاب جمع أنواع التوحيد الثلاثة.

قال تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هذه الآية تبين عظمة قدرته - سبحانه وتعالى- وأنه يطوي السماوات والأرض، ومن كان بهذه المتانة، فهو أحق أن يعبد ويطاع، وهو الذي له الكمال في أسمائه وصفاته وأفعاله لا شبيه له، ولا ند له، ولا يقاس بخلقه، فهو القادر على كل شيء سبحانه.

عن عبد الله بن مسعود قال: جاء حبر من أحبار اليهود إلى رسول الله ﷺ

قَالَ: جَاءَ حَبْرٌ مِنَ الأَحْبَارِ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّا نَجِدُ أَنَّ اللهَ يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالأَرَضِينَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ، فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ. فَضَحِكَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، تَصْدِيقًا لِقَوْلِ الحَبْرِ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾ الآية.

فقال: .....

حبر: بفتح الحاء وكسرها، وهو العالم من علماء اليهود.

يا محمد إننا نجد الله يجعل السماوات والأرض على إصبع: أي أنه سبحانه يحمل هذه المخلوقات على أصابع خمسة فمع عظم هذه المخلوقات السماوات والأرض فإنه سبحانه يأخذها بيده ويهزها: «أنا الملك أنا الجبار» أين الجبارون؟ أين المتكبرون؟ أين ملوك الأرض؟ وتلا النبي ﷺ الآية تصديقًا له، وفي هذا إثبات الصفات لله، وأنه سبحانه له يمين وشمال، وأن كلتا يديه يمين كما في الحديث الآخر، وسمى أحدهما يمينًا والآخر شمالاً من حيث الاسم، ولكن من حيث المعنى والشرف كلتاهما يمين سبحانه وتعالى، وليس في شيء منها نقص.

وكذلك الكف قال: ما السماوات السبع والأرضين السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم.

* ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟﴾. الضمير يعود على المشركين، و﴿قَدَرُوا۟﴾: عظموا، أي: ما عظموا، أي: ما عظموا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته.

قوله: ﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ﴾. يحتمل أن تكون الواو للحال، أي: ما قدروا الله حق قدره في هذه الحال.

ويحتمل أن تكون للاستئناف، لبيان عظمة الله عز وجل، وهذا أقوى، لأنه يعم هذه الحال وغيرها.

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: وَالجِبَالَ وَالشَّجَرَ عَلَى إِصْبَعٍ، ثُمَّ يَهُزُّهُنَّ فَيَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَنَا اللهُ. وَفِي رِوَايَةٍ لِلْبُخَارِي: يَجْعَلُ السَّمَاوَاتِ عَلَى إِصْبَعٍ، وَالمَاءَ وَالثَّرَى عَلَى إِصْبَعٍ، وَسَائِرَ الخَلْقِ عَلَى إِصْبَعٍ». أَخْرَجَاهُ.

والقبضة: هي ما يقبض باليد، وليس المراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال: والأرض في قبضته، لكان تفسيرها بالملك محتملاً.

قوله «حبر». الحبر هو العالم الكثير العلم، والحبر يشابه البحر في اشتقاق الحروف، ولهذا كان العالم أحيانًا يسمى بالحبر وأحيانًا بالبحر.

قوله: «إنا نجد». أي: في التوراة.

قوله: «فضحك النبي ﷺ». ولولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكارًا، لأن من حدثك بحديث لا تطمئن إليه ضحكت منه، لكنه قال: «تصديقًا لقول الحبر»، فكانت إقرارًا لا غير، ويدل لذلك قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ الآية: فهذا يدل على أنه ﷺ أقره واستشهد لقوله بآية من كتاب الله.

قوله: «أصبع». واحدة الأصابع، وهي مثلثة الأول والثالث، ففيها تسع لغات، والعاشر أصبوع، وفي هذا يقول الناظم:

وهمز أنملة ثلث وثالثة ... التسع في أصبع واختم بأصبوع

قوله: «أنا الملك». هذه الجملة تفيد الحصر، لأنها اسمية معرفة الجزئين، ففي ذلك اليوم لا ملك لأحد، قال تعالى: ﴿يَوْمَ هُم بَـٰرِزُونَ لَا يَخْفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِنْهُمْ شَىْءٌ لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾ [غافر: ١٦]، وكل الناس الملوك منهم والمملوكون على حد سواء يحشرون حفاة عراة غرلاً، وبهذا يظهر ملكوت الله عز وجل في ذلك اليوم ظهورًا بينًا، لأنه سبحانه ينادي: لمن الملك اليوم، فلا يجيبه أحد، فيجيب نفسه: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾.

قوله: «حتى بدت نواجذه». أي ظهرت، ونواجذ: جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس.

قوله: ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ﴾ الآية.

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غيره، وأن السماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه، أي: يده تبارك وتعالى، لأن ذلك تفسيره ﷺ، وتفسيره في الدرجة

وَلِمُسْلِمٍ عَنِ ابنِ عُمَرَ مَرْفُوعًا: «يَطْوِي اللهُ السَّمَاوَاتِ يَوْمَ القِيَامَةِ، ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِيَدِهِ اليُمْنَى، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ؟ ثُمَّ يَطْوِي الأَرَضِينَ السَّبْعَ ثُمَّ يَأْخُذُهُنَّ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا المَلِكُ، أَيْنَ الجَبَّارُونَ؟ أَيْنَ المُتَكَبِّرُونَ».

الثانية من حيث الترتيب، لكنه كالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة.

قوله: «ثم يهزهن». أي: هزًا حقيقيًا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرته، وكان الرسول ﷺ يقرأ هذه الآية ويقبض أصابعه ويبسطها، فصار المنبر يتحرك ويهتز[1] لأنه ﷺ كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملوء بتعظيم الله تعالى.

قوله: «والماء والثرى على إصبع». هذا لا ينافي قوله: «الأرضين على إصبع»، لأنه يقال: «الماء والثرى على إصبع»، أي: الأرض كلها على إصبع، ويراد بالإصبع الجنس، وإلا لتناقض مع معنى الحديث الذي قبله: «الشجر على أصبع والماء على إصبع، والثرى على إصبع»، إذا النكرة كررت بلفظ النكرة، فالثاني غير الأول غالبًا، وإذا كررت بلفظ المعرفة، فالثاني هو الأول غالبًا، فيقال: الماء والثرى كناية عن الأرض كلها، أو أن الماء والثرى على أصبع وسكت عن الباقي، إما اختصارًا أو اقتصارًا.

قوله: «ثم يقول: أنا الملك». يقول ذلك ثناء على نفسه سبحانه، وتنبيهًا على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامل، وهو السلطان، فهو مالك ذو سلطان، وهذه الجملة كلا جزأيها معرفة، وإذا كان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر، أي: أنا الذي لي الملكية المطلقة والسلطان التام لا ينازعني فيهما أحد.

قوله: «أين الجبارون ؟». الاستفهام للتحدي، فيقول: أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطؤهم الناس بأقدامهم.

قوله: «يطوي الأرضين السبع». أشار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة / باب فضيلة الإمام العادل (١٨٢٧).

وَرُوِيَ عَنِ ابنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ فِي كَفِّ الرَّحْمَنِ إِلَّا كَخَرْدَلَةٍ فِي يَدِ أَحَدِكُمْ».

يرد العدد صريحًا في القرآن، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما السنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنها سبع.

قوله: «ثم يأخذهن بشماله». كلمة (شمال) اختلف فيها الرواة، فمنهم من أثبتها، ومنهم من أسقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشذوذ، لأنه خالف ثقتين في روايتها عن ابن عمر.

ومنهم من قال: إنه ثقة ولكنه قالها من تصرفه.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في «صحيح مسلم» أن الرسول ﷺ قال: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن، وكلتا يديه يمين»، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال.

ولكن إذا كانت لفظة شمال محفوظة، فهي عندي لا تنافي «كلتا يديه يمين»، لأن المعني أن اليد الأخرى ليست كَيَدِ الشمال بالنسبة للمخلوق ناقصة عن اليمنى، فقال: «كلتا يديه يمين»، أي: ليس فيها نقص، ويؤيد هذا قوله في حديث آدم: «اخترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة»[1]، فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال، يعني: النقص في هذه اليد دون الأخرى، قال: «كلتا يديه يمين»، ويؤيده أيضًا قوله: «المقسطون على منابر من نور على يمين الرحمن»، فإن المقصود بيان فضلهم ومرتبتهم، وأنهم على يمين الرحمن سبحانه.

قوله: «في كف الرحمن» هكذا ساقه المؤلف، والذي في ابن جرير «في يد الله». ففيما ساقه المؤلف إثبات الكف لله تعالى، إن كان السياق محفوظًا وإلا ففيه إثبات اليد. أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرى صحيحة.

قوله: «إلا كخردلة». هي حبة نبات صغيرة جدًا، يضرب بها المثل في الصغر

---

(١) الحاكم في « المستدرك » (٢/٣٩٦).

وَقَالَ ابنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يُونُسُ، أَنبَأَنا ابنُ وَهْبٍ، قَالَ: قَالَ ابنُ زَيْدٍ: حَدَّثَنِي أَبِي، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «مَا السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ فِي الكُرْسِيِّ إِلَّا كَدَرَاهِمَ سَبْعَةٍ أُلْقِيَتْ فِي تُرْسٍ» قَالَ: وَقَالَ أَبُو ذَرٍ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «مَا الكُرْسِيُّ فِي العَرْشِ إِلَّا كَحَلْقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ أُلْقِيَتْ بَيْنَ ظَهْرَيْ فَلاةٍ مِنَ الأَرْضِ».

والقلة، وهذا يدل على عظمته سبحانه، وأنه سبحانه لا يحيط به شيء، والأمر أعظم من هذا التمثيل التقريبي، لأنه تعالى لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفهام.

قوله: «قال ابن جرير». هو المفسر المشهور رحمه الله، وله تفسير أثري يعتمد فيه على الآثار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثار، وأتى بالصحيح والضعيف وما دون الضعيف أيضًا، وكأنه رحمه الله أراد أن يقيد هذا وجعل الحكم بالصحة والضعف موكولاً إلى القارئ، وربما كان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية، ويمحصه، ولكن لم يتيسر ذلك.

قوله: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس». الكرسي: موضع قدمي الله تعالى، هكذا قال ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: «ما الكرسي في العرش». أي: بالنسبة إليه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الرحمن ولا يقدر قدره إلا الله عز وجل، والمراد بالحلقة حلقة الدرع، وهي صغيرة وليست بشيء بالنسبة إلى فلاة الأرض.

* ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله: هذا الباب ختم به المؤلِّف رحمه الله أبواب «كتاب التّوحيد»، لأنه يشتمل على الأسماء والصّفات، لأنّ «كتاب التّوحيد» كلُّه يدور على توحيد الألوهيّة، ومكملاته ومنقصاته ومناقضاته، وفي هذا الباب ذكرُ الأسماء والصّفات من أجل أن يتكامل هذا الكتاب فيحتوي على جميع أنواع التّوحيد، لأنّ توحيد الألوهيّة يتضمّن توحيد الربوبيّة، ومن جملة توحيد الربوبيّة: الإيمان بالأسماء والصّفات، ولكن فُصلت الأسماء والصّفات بقسم خاص لوجود المخالفين فيها؛ من فرق الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ومَن أخذ بمذهبهم،

....

وقد أنكر عليهم الأئمّة مذهبهم هذا إنكارًا شديدًا، وألّفوا في ذلك المؤلّفات والرُّدود الكثيرة، لأنّ هذا تعطيلٌ لأسماء الله وصفاته، وإلحادٌ في أسماء الله وصفاته، والله تعالى يقول: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

فالله أثبت لنفسه الأسماء وأثبت له الصّفات، أثبت له السمع، والبصر، والقُدرة، والحياة، والعلم، والوجه، واليدين، وأثبت له سبحانه وتعالى صفات الكمال، فمن نفى ذلك عن الله فقد ألحد في أسماء الله، فهو من الذين قال الله- تعالى فيهم: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ﴾ أي: اتُركوهم ولا تلتفتوا إلى قولهم، لأنّه مخالف لكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ.

وفي قوله: ﴿وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾ تهديدٌ من الله سبحانه وتعالى لِمَنْ خالف في أسماء الله وصفاته بأنّه سيعذّبُه.

ولذلك عقد المصنف رحمه الله هذا الباب في آخر «كتاب التّوحيد» من أجل تكامل الكلام على التّوحيد.

قوله رحمه الله: «باب ما جاء» يعني: ما ورد عن النّبي ﷺ وعن السّلف الصالح في تفسير هذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وهذه آية عظيمة فيها عبر وعِظات، وأنّ هذا الكون بسمائه وأرضه وجباله وشجره ومائه وثرائه وجميع المخلوقات يجعلها الله سبحانه وتعالى يوم القيامة على أصابعه ويجمعها في كفيه سبحانه وتعالى، كما صحت بذلك الأدلة، فهذا يدلّ على عظمة الله سبحانه وتعالى، وصغر هذه المخلوقات الهائلة بالنسبة إليه سبحانه وتعالى ويدلّ عل عظمته وكبريائه وجَبَروته سبحانه، ولهذا قال جل وعلا: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ أي: ما عظّموه حقّ تعظيمه.

﴿وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ هذا بيان لعظمته سبحانه وتعالى، وسيأتي بيان ذلك في الحديث الذي يسوقه المصنّف رحمه الله.

....

﴿وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتُۢ بِيَمِينِهِۦ﴾ من كان يقدر على هذه الأمور، فإنَّه لا أعظم منه سبحانه وتعالى، كلُّ الكون -بمن فيه- كلُّه حقير وصغير بالنِّسبة إلى خالقه سبحانه وتعالى.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ﴾ هذا يشمل كلّ من تنقّص الله تعالى فإنّه ما قدره حقّ قدره، فيدخل في ذلك الجاحدون المعطِّلون الذين ينفون وُجود الله تعالى.

فالملاحدة ما قدروا الله حقَّ قدره، الذين نفوا وُجود الله ووجود الخالق.

وكذلك المشركون الذي أقرّوا أن الخالق الرّازق المحيي المدبِّر هو الله سبحانه وتعالى، واعترفوا بتوحيد الرّبوبية، ولكنّهم خالفوا في العبادة، وخالفوا في توحيد الألوهيّة، فعبدوا مع الله غيره من الأصنام والأحجار والأشجار والقبور والأضرحة، هؤلاء ما قدروا الله حقّ قدره، حيث إنّهم أشركوا معه غيرَه في عبادته، ممن لا يخلُق ولا يرزق ولا يملك نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا، هؤلاء ما قدروا الله حقّ قدره، حيث سوّوا به خلقًا من خلقه، وجعلوهم معبودين معه، يذبحون لهم، وينذُرون لهم، ويتبرّكون بهم، ويطوفون بقبورهم، ويتبرّكون بالأحجار والأشجار، ويعبدون الأصنام، جعلوا هذه الأصنام والجمادات، وجعلوا هؤلاء الأموات الرُّفات في القبور جعلوهم شركاء لله في العبادة، هؤلاء ما قدَروا الله حقّ قدره سبحانه وتعالى.

وكذلك ما قدر الله حقّ قدره مَن جحد الأسماء والصّفات، فمن أنكر الأسماء والصّفات الّتي أثبتها الله لنفسه وأثبتها له رسولُه ﷺ أو تأوّلها على غير معناها وألحد فيها؛ ما قدَر الله حقّ قدره، فالذي قال: «إنّ الله لا يوصف بصفات، ولا يسمّى بأسماء، وإنّما هذه مجازات لا حقيقة لها، فلا يوصف الله عنده بأنّ له يدين، ولا أنّ له وجهًا، ولا يوصف الله بأنه في العلو عالٍ على خلقه مستوٍ على عرشه»، ثم راح يؤوِّل هذه الصّفات إلى معانٍ لا تحتملُها، فهذا ما قدَر الله حقّ قدره سبحانه تعالى، حيث إنّه ألحد في أسمائه، وألحد في صفاته، ما قدر الله حقّ قدره،

....

ويدخُل في ذلك الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة والماتوريديّة، وكلّ من ألحد في الأسماء والصّفات أو جحد بعضها أو شيئًا منها فإنّه ما قدَر الله حقّ قدره ولا عظّمه حقّ تعظيمه، ويدخل في ذلك كلّ من خالف في الأسماء والصّفات فإنّه ما قدَر الله حق قدره ولا عظّمه حق تعظيمه ولا تأدّب مع ربه سبحانه وتعالى، بل صار يكذّب بما وصف الله به نفسه وسمّى به نفسه، فيقول: هذا غير صحيح، هذا مجاز، هذا ليس بحقيقة، إلى غير ذلك من مقالاتهم الباطلة، ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

كذلك ما قدر الله حقّ قدره من نفى القدر: فالقدريّة ما قدروا الله حقّ قدره، حيث نفوا القدر، وقالوا: «إنّ الأشياء توجد بدون قدر الله وأنّها أُنف- يعني: تحدُث بغير قدر الله، وإنّما العبد هو الذي يخلق فعل نفسه دون أن يكون لله قدرٌ سابق وعلمٌ سابق بهذه الأشياء، ﴿مَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾.

ويدخل في ذلك كلّ من ألحد في القدر من الجبرية ومن القدريّة، كلّهم ما قدروا الله حقّ قدره.

أيضًا: ما قدر الله حقّ قدره مَن عصى الله وارتكب ما حرّم الله من المعاصي، وترك ما أوجب الله من الطّاعات، ما قدر الله حقّ قدره، لأنّه خالف أمره سبحانه وتعالى، ولا شك أن من عصى مخلوقًا فقد تنقّصه فكيف بمن عصى الخالق، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لو أنّ إنسانًا تمرّد على أوامر ملِك من الملوك وأبى أن ينفّذ ما أمر به، فيكون ما قدر ذلك الملِك حق قدره، بل تنقّص هذا الملِك حيث إنّه لم يلتزم بأوامره ونواهيه، فكيف بالذي خالف أمرَ الله سبحانه وتعالى، وخالف نواهيه، وارتكب المنهي وترك الواجب؟ هل يكون هذا مقدِّرًا لله حقّ قدره؟

إذًا فكلّ مخالف لأوامر الله سبحانه وتعالى ونواهيه وأحكامه فإنّه ما قدر الله حقّ قدره، حيث لم يمتثل شرعَ الله، ومن لم يمتثل شرع الله فإنّه لم يقدُره حقّ قدره.

كذلك من حكم بغير ما أنزل الله، وجعل القوانين الوضعيّة بديلًا عن الأحكام الشّرعية التي شرعها الله لعباده ما قدر الله حقّ قدره، يقول - بلسان الحال أو بلسان المقال-: إنّ شرعك لا يصلُح للبشر، وإنّما يصلُح للبشر القوانين البشرية التي

. . . .

وضعها المخلوق، هكذا، ما قدر الله حقّ قدره سبحانه.

الحاصل؛ أنّ هذا بابٌ واسع، وأنّ قوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ﴾ يشمل كلّ من خالف في أمور العقائد وأمور الأحكام فإنّه ما قدَر الله حقّ قدره.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَٱلسَّمَـٰوَٰتُ مَطْوِيَّـٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ وَتَعَـٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ تفسير هذه الآية في هذه الأحاديث والآثار التي ذكرها المصنّف في هذا الباب.

أولُها: «عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حَبْرٌ من الأحبار» الحَبر- بفتح الحاء، ويجوز الكسر، هو: العالِم، وأغلب ما يُطلق ذلك على علماء اليهود قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ﴾ الأحبار في اليهود والرُّهبان للنصارى.

«فقال: يا محمد» اليهود يخاطبونه بهذا الخطاب، وأحيانًا يقولون: يا أبا القاسم، ولا يقولون: يا نبيّ الله، أو يا رسول الله، لأنّهم يجحدون رسالته ويحسدونه -عليه الصلاة والسلام- وإنْ كانوا يعترفون بأنّه رسول الله وأنّه نبيُّ الله في قَرارة أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ ، فهم يعلمون أنّه رسول الله، وأنّه نبيُّ الله، ولكنّهم جحدوا هذا تكبُّرًا وحسدًا لرسول الله ﷺ، وحسدًا للعرب، لأنّهم يريدون أن تكون النبوّة في بني إسرائيل ولا يريدونها أن تكون في بني إسماعيل، ولكنّ الله يختصّ برحمته من يشاء.

قال الحبر: «إنا نجد» يجدون ذلك في التّوراة.

«أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع» الأرضين: جمع أرض.

«والشجر على إصبع»؛ شجر الدنيا، شجر البر والبحر، فالشجر اسم جنس يشمل كلّ الشجر الذي في الدنيا.

«والثرى على إصبع» الثرى يعني: التراب: قال سبحانه وتعالى: ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾ أي: تحت التُّراب.

«وسائر الخلْق على إصبع» يعني: باقي المخلوقات.

....

فهذه خمسة أصابع عليها جميع المخلوقات العلوية والسفلية، كلّ إصبع عليه خلْقٌ من خلقه سبحانه وتعالى.

«فيقول: أنا الملك» ولا أحد ينازع في هذا، فدلّ على انفراده سبحانه بالمُلْك يوم القيامة، يقول الله جل وعلا: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ فيقول: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، ولا أحد ينازع في هذا فيدّعي شيئًا من ملك السماوات والأرض، لأنّه لا أحد يملك السماوات والأرض إلّا الله سبحانه وتعالى.

أمّا المُلك المؤقت في الدنيا، والملك الذي يُعطى لبعض النّاس فهذا عارية، ليس مُلكًا حقيقيًا، وإنّما هو عاريّة وامتحان يزول؛ ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٢٦) تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

فالأملاك ترجع إلى الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يرث الأرض ومن عليها: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

قوله: «فضحك النبي ﷺ» أي: لمّا سمع كلام هذا الحَبْر ضحك ﷺ سرورًا بهذا، لأنّ هذا إقرارٌ بما جاء في القرآن، وإقرارٌ بما جاء به الرّسول ﷺ.

«حتى بَدَتْ نواجذُه» النواجذ هي: أوائل الأضراس، كان ﷺ إذا ضحك يتبسّم فقط، وإذا بالغ في التبسُّم بدت نواجذه ﷺ.

«ثم قرأ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ فهذا شيء جاء به القرآن كما جاءت به التّوراة، والقرآن والتوراة والإنجيل والزّبور وصحف إبراهيم وموسى وكتب الأنبياء كلها من عند الله سبحانه وتعالى، وما دخل في التّوراة والإنجيل من التحريف فإنّما هو من اليهود والنصارى بعد الأنبياء. وقد بيّن الله تحريفهم في القرآن وفضح سرائرهم.

قوله: «وفي رواية لمسلم: والجبال والشجر على إصبع» في هذه الرواية زيادة

....

الجبال.

«ثم يهزُّهن» يحرِّكهنَّ سبحانه وتعالى.

«فيقول: أنا الملِك، أنا الله» هذا فيه: بيان عظمته، وربوبيّته ومُلكه سبحانه وتعالى، وعظيم قدْرته جل وعلا وتقرير انفراده بالملك.

قوله: «وفي رواية للبخاري: يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع» ذكر هنا أن أصابعه سبحانه استوعبت كلَّ الخلْق وأن يقبض السماوات والأرضين بيديه وهذا من عظمته سبحانه وتعالى. قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن رحمه الله: وقد وردت أحاديث كثيرة متعلقة بهذه الآية الطريق فيها وفي أمثالها مذهب السلف وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولا تحريف انتهى.

قال الإمام ابن خزيمة الإمساك على الأصابع غير القبض على الشيء. قال: فالإمساك على الأصابع قبل تبديل الله الأرض غير الأرض. انتهى بمعناه.

قال: «ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبّارون؟» هذا تحدٍّ منه سبحانه وتعالى لهؤلاء الذين يتجبّرون في الدّنيا.

والجبّارون: جمع جبّار، وهو المتعالي على النّاس بالقَهْر والغَلَبة والظُّلم والبَطْش بغير حق.

أمّا الجبّار من أسمائه سبحانه، فمعناه: المتعالي بحقّ.

«أين المتكبّرون؟» جمع متكبّر، والمتكبّر من الخلق هو: المتعالي، الذي يتعالى على النّاس بالظّلم والبَطْش، وكذلك يتعالى على الحق فلا يقبله. والمتكبر من أسماء الله الحسنى الكاملة يدل على العظمة والجلال والتنزه عن النقائص والعيوب ويتضمن صفة الكبرياء، قال تعالى: ﴿وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾.

قوله: «روي عن ابن عبّاس قال: ما السماوات السبع والأرَضون السبع في كفّ

. . . .

الرحمن إلّا كخردلة في يد أحدكم» تقدّم بيان معنى هذا من الآية والأحاديث، وأنّ الله سبحانه وتعالى يطوِي السماوات فيأخذها بيده اليُمنى، ويطوي الأرضين السبع فيأخذهن بشمالِه، ثم يقول: «أنا الملِك. . . » إلى آخره، وفي هذا الأثر ما يوافق ما سبق.

فقوله: «ما السماوات السبع في كفِّ الرحمن إلّا كخردلة» أي: أنّه سبحانه وتعالى يطوي السماوات السبع ويقبضُها بيده اليُمنى، ويطوي الأرَضين السبع فيأخذهنّ بشماله، فتكون في كفِّه سبحانه وتعالى كخردلة، والخردلة هي: أصغر شيء يُضرب المثل بصغيرِها.

فهذه السماوات العظيمة في كَفِّ الرحمن والأرضون الواسعة وما فيها في كفِّ الرحمن كالخردلة في يد واحدٍ منّا، هذا تشبيه لصغر هذه المخلوقات بالنسبة إلى الله، كصغر حبّة الخردل في يد المخلوق، وليس هو من تشبيه الله سبحانه وتعالى أو صفة من صفاتِه بصفات المخلوقين، وإنّما هو تشبيه لصغر المخلوقات بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى بصغر حبّة الخردل بالنسبة ليد المخلوق.

ثم قال: «وقال ابن جرير» هو الإمام المفسِّر: محمَّد بن جرير، صاحب التفسير المشهور الذي يُعتبر أُمّ التفاسير.

«حدثني يونس، أخبرنا ابن وَهْب، قال: قال ابن زَيْد: حدثني أبي قال: قال رسولُ الله ﷺ: ما السماوات السّبع في الكُرْسي إلّا كدراهم سَبْعة أُلقِيَتْ في تُرس» السماوات السبع: السماء الدنيا والتي تليها إلى السماء السّابعة على عظمتها وسَعَتها، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾، هذه السماوات السبع العظيمة الواسعة بطِباقها وتباعُد ما بينها هناك مخلوقٌ أعظم منها وهو الكُرسي.

والكُرسي مخلوق: قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فهو مخلوقٌ من مخلوقات الله سبحانه وتعالى.

وهو فوق السماوات، والسماوات بالنسبة إليه كسبعة دراهم أُلقِيَت في تُرس.

....

والتُّرس هو: القاع المستدير من الأرض، فلو ألقيت سبعة دراهم في قاعٍ من الأرض، ماذا تكون نسبة هذه الدراهم السّبعة إلى هذا القاع الواسع؟ تكونُ صغيرة جدًا.

وقد يُراد بالتُّرس: الصفحة من الفُولاذ التي يتّخذها المقاتِل وقايَةً بينَه وبين السّلاح يتترّس بها.

ولكن الظّاهر المعنى الأوّل، وهو أنّ المراد به: القاع المستدير.

فالسماوات السبع بالنسبة للكرسي تكون كالدراهم السبعة إذا أُلقيت في القاع الواسع المستدير، فتكون نسبتُها ضئيلة، ممّا يدلّ على أنّ الكرسيَّ أعظمُ من السماوات، وأنّها بالنسبة إليه صغيرة، والله جل وعلا يقول: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، فمصداقُ هذا في كتاب الله سبحانه وتعالى.

فدلّ على وُجود الكرسي، وأنّه مخلوق، أعظم من السماوات، وفي هذا ردٌّ على من فسّر الكرسي بالعلم، والصّواب: أنّ الكرسي غير العلم.

وفيه ردٌّ أيضًا على من فسّر الكرسي بالعرش، لأنّه سيأتي أنّ العرش غير الكرسي.

وقد جاء في الحديث: أن الكرسيَّ موضعُ القدمين، فهو مخلوقٌ مستقل، عظيم، أكبر من السماوات على سعتها، وأعظم من السموات على عظمتِها.

قال: «وقال أبو ذرّ» الصحابي الجليل، الزاهد، التّقي، الورع، العالِم، العابِد، الذي له سَبْق في الإسلام فهو من السّابقين الأوّلين، ومن المهاجرين - رضي الله تعالى عنه.

«سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلّا كحلقة أُلْقِيَتْ بين ظهراني فلاةٍ من الأرض» الكرسي سبق لنا أنّه مخلوق مستقلّ، وأنّه أعظم من السموات، لكن هناك مخلوق أعظمُ منه وهو العَرْش.

والعرش هو: سَقْفُ المخلوقات، وأعلى المخلوقات، وأعظمُها.

والكرسي بالنسبة إلى العرْش كحلقة من حديد أُلقيت بين ظهراني فلاةٍ من

١٥١) وَعَنِ ابنِ مَسْعُودٍ قَالَ: «بَيْنَ السَّمَاءِ الدُّنْيَا وَالَّتِي تَلِيهَا خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَبَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ، وَالعَرْشُ فَوْقَ المَاءِ، وَاللهُ فَوْقَ العَرْشِ، لا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِكُمْ». أَخْرَجَهُ ابنُ مَهْدِي عَنْ حَمَّادِ بنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ زِرٍّ عَنْ عَبْدِاللهِ. وَرَوَاهُ بِنَحْوِهِ عَنِ المَسْعُودِيِّ عَنْ عَاصِمٍ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللهِ. قَالَهُ الحَافِظُ الذَّهَبِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، قَالَ: وَلَهُ طُرُقٌ.

الأرض، والفلاة هي: المكان المتّسع من الأرض، لو ألقيتَ فيها حَلْقة من حديد، فماذا تكون نسبة الحلْقة إلى هذه الفلاة الواسعة؟ قد لا تُرى أو تكون شيئًا ضئيلًا، فكذلك الكرسي بالنسبة لعرش الرّحمن كحلقة من حديد أُلقِيَت في فلاةٍ واسعة من الأرض.

فهذا يدلّ على وُجود العرْش، وأنّه مخلوق من مخلوقات الله، وأنّه أكبر من الكُرسي، وأنّ الكرسي أكبر من السماوات، فهذا يدلّ على عظمة الخالق سبحانه وتعالى الذي هذه مخلوقاته العظيمة الهائلة.

١٥١) الشرح:

* **أولاً: قال الشيخ ابن باز رحمه الله: وعن ابن مسعود قال: «ما بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام...».**

* **وعن العباس مرفوعًا: «هل تدرون كم بين السماء والأرض قلنا الله ورسوله أعلم...».**

وهذه من أحاديث الصفات ومن أحاديث العلو، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على أن الله سبحانه فوق عرشه، فوق جميع الخلق، وعلمه في كل مكان، والأدلة على ذلك أكثر من أن تحصر.

وحديث ابن مسعود حديث صحيح جيد، وحديث العباس وإن كان في سنده انقطاع لكنه ينجبر.

وَعَنِ العَبَّاسِ بنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «هَلْ تَدْرُونَ كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ؟» قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «بَيْنَهُمَا مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سَنَةٍ، وَمِنْ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ مَسِيرَةُ خَمْسِمِائَةِ سنَةٍ، وَكِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ، وَبَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالعَرْشِ بَحْرٌ، بَيْنَ أَسْفَلِهِ وَأَعْلاهُ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأَرْضِ، واللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَوْقَ ذَلِكَ، وَلَيْسَ يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ مِنْ أَعْمَالِ بَنِي آدَمَ». أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ وَغَيْرُهُ.

وله روايات أخرى أن بين السماء الدنيا مسيرة إحدى وسبعين سنة أو اثنتين وسبعين سنة أو ثلاث وسبعين سنة، وجمع أهل العلم بينهما بأن السير يختلف، وأن خمسمائة عام بالنظر إلى سير الأحمال، وسير الأقدام، والسير العادي.

وثلاث وسبعون سنة بالنظر إلى السير الخفيف القوي، فإن مقداره يكون بمقدار السدس بالنسبة إلى سير الأحمال المثقلة، ونحو ذلك.

وعلى كل تقدير فهذا يبين عظمة الله وعلوه، وأنه لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

وفيه الدلالة على ارتفاع هذه المخلوقات، وسعة ما بينها من المسافات العظيمة وربك الخلاق جل وعلا هو الذي خلقها فهو أعظم منها وأكبر سبحانه وتعالى.

والحمد لله رب العالمين وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

* **ثانيًا: قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله:** قوله: «وعن ابن مسعود». هذا الحديث على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضي الله لم يُعْرَفْ بالأخذ عن الإسرائيليات.

قوله: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام». وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: «إن كثف كل سماء خمسمائة عام»، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله عز وجل بعيدًا جدًا.

....

قوله: «والله فوق العرش». هذا نص صريح بإثبات علو الله تعالى علوًا ذاتيًا وعلو الله ينقسم إلى قسمين:

أ) علو الصفة، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات الله، كما قال تعالى: ﴿لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النحل: ٦٠].

ب) علو الذات، وهذا أنكره بعض المنتسبين للإسلام، فيقولون كل العلو الوارد المضاف إلى الله به علو الصفة، فيقولون في قوله ﷺ: «والله فوق العرش»، أي: في القوة والسيطرة والسلطان، وليس فوقه بذاته.

ولا شك أن هذا تحريف في النصوص وتعطيل في الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين:

أ) من قال: إن الله بذاته في كل مكان، وهذا لا شك ضلال مقتض للكفر.

ب) من قال: إنه لا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا متصل بالخلق ولا منفصل عن الخلق، وهذا إنكار محض لوجود الله والعياذ بالله، ولهذا قال بعض العلماء: لو قيل لنا: صفوا العدم، ما وجدنا أبلغ من هذا الوصف.

ففروا من شيء دلت عليه النصوص والعقول والفطر إلى شيء تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم». يشمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منها والمسموع، وذلك لعموم علمه وسعته، وإنما أتي بذلك بعد ذكر علوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى.

قوله: «هل تدرون». «هل»: استفهامية يراد بها أمران:

التشويق لما سيذكر.

التنبيه إلى ما سيلقيه عليهم، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية: ١]، هذا تنبيه وتشويق إلى شيء من آيات الله الكونية.

وقوله تعالى: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: ١٠]

....

هذا تنبيه وتشويق على شيء من آيات الله الشرعية، وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣] تنبيه وتحذير.

وقوله: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُم بِشَرٍّ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٦] تنبيه وتحذير.

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا، فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشيء.

قوله: «كم». استفهامية.

قوله: «قلنا: الله ورسوله أعلم». جاء العطف بالواو؛ لأن علم الرسول من علم الله، فهو الذي يعلمه بما لا يدركه البشر.

وكذلك في المسائل الشرعية يقال: الله ورسوله أعلم؛ لأنه ﷺ أعلم الخلق بشرع الله، وعلمه به من علم الله، وما قاله ﷺ في الشرع فهو كقول الله وليس هذا كقوله: «ما شاء الله وشئت»؛ لأن هذا في باب القدر والمشيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسول ﷺ مشاركًا لله في ذلك، بل يقال: ما شاء الله، ثم يعطف بـ (ثم)، والضابط في ذلك أن الأمور الشرعية يصح فيها العطف بالواو، وأما الكونية، فلا.

قوله: «وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض». وذلك خمسمائة سنة.

قوله: «والله تعالى فوق ذلك». هذا دليل على العلو العظيم لله عز وجل، وأنه سبحانه فوق كل شيء ولا يحيط به شيء من مخلوقاته، لا السماوات ولا غيرها، وعليه، فإنه سبحانه لا يوصف بأنه في جهة تحيط به؛ لأن ما فوق السماوات والعرش عدم، ليس هناك شيء حتى يقال: إن الله أحاط به شيء من مخلوقاته.

قوله: «وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم». وقوله: «أعمال» إن قرنت بالأقوال صار المراد بها: أعمال الجوارح، والأقوال للسان، وإن أفردت شملت أعمال الجوارح وأقوال اللسان وأعمال القلوب، وهي هنا مفردة، فتشمل كل ما يتعلق باللسان أو القلب أو الجوارح، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفى عليه شيء من

فِيهِ مَسَائِلُ:

«الأُولَى»: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: «وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ القِيَامَةِ»

«الثَّانِيَةُ»: أَنَّ هَذِهِ العُلُومَ وَأَمْثَالَهَا بَاقِيَةٌ عِنْدَ اليَهُودِ الذِينَ فِي زَمَنِهِ ﷺ لَمْ يُنْكِرُوهَا وَلَمْ يَتَأَوَّلُوهَا.

«الثَّالِثَةُ»: أَنَّ الحَبْرَ لَمَّا ذَكَرَ لِلنَّبِيِّ ﷺ صَدَّقَهُ، وَنَزَلَ القُرْآنُ بِتَقْرِيرِ ذَلِكَ.

أعمال بني آدم في المستقبل، فهو يعلم ما يكون فضلاً عما كان، قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ﴾ [طه: ١١٠]، أي: ما يستقبلونه وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى: ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ﴾؛ أي: ما شأنها؟ قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ﴾؛ أي: محفوظة، ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي﴾: لا يجهل، ﴿وَلَا يَنسَى﴾ [طه: ٥١، ٥٢]: لا يذهل عما مضى سبحانه وتعالى.

فيه مسائل:

الأولى: تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾. وقد تقدم من حديث ابن مسعود، حيث أقر النبي ﷺ الحبر على أن الله يجعل السماوات على إصبع.. إلخ.

الثانية: أن هذه العلوم وأمثالها باقية عند اليهود الذين في زمنه ﷺ لم ينكروها ولم يتأولوها. كأنه يقول: إن اليهود خير من أولئك المحرفين لها، لأنهم لم يكذبوها ولم يتأولوها. وجاء قوم من هذه الأمة، فقالوا: ليس لله أصابع، وإن المراد بها القدرة، فكأنه يقول: اليهود خير منهم في هذا وأعرف بالله.

الثالثة: أن الحبر لما ذكر للنبي ﷺ صدقه، ونزل القرآن بتقرير ذلك. ظاهر كلام المؤلف بقوله: «ونزل القرآن» أنه بعد كلام الحبر، وليس كذلك، لأنه في حديث ابن مسعود قال: ثم قرأ قوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، وهذا يدل على أن الآية نزلت من قبل، لكن مراد المؤلف أن القرآن قد نزل بتقرير ذلك.

الرابعة: وقوع الضحك من الرسول ﷺ لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم. ففيه

«الرَّابِعَةُ»: وُقُوعُ الضَّحِكِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ لَمَّا ذَكَرَ الحَبْرُ هَذَا العِلْمَ العَظِيمَ.

«الخَامِسَةُ»: التَّصْرِيحُ بِذِكْرِ اليَدَيْنِ، وَأَنَّ السَّمَاوَاتِ فِي اليَدِ اليُمْنَى، وَالأَرَضِينَ فِي الأُخْرَى.

«السَّادِسَةُ»: التَّصْرِيحُ بِتَسْمِيَتِهَا الشِّمَالَ.

«السَّابِعَةُ»: ذِكْرُ الجَبَّارِينَ وَالمُتَكَبِّرِينَ عِنْدَ ذَلِكَ.

«الثَّامِنَةُ»: قَوْلُهُ: «كَخَرْدَلَةٍ فِي كَفِّ أَحَدِكُمْ».

«التَّاسِعَةُ»: عِظَمُ الكُرْسِيِّ بِالنِّسْبَةِ إِلَى السَّمَاوَاتِ.

دليل على جواز الضحك في تقرير الأشياء؛ لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهة.

الخامسة: التصريح بذكر اليدين، وأن السماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى. وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف.

وقوله: «في الأخرى» لا يعني أنه ينفي ذكر الشمال لما ذكره في المسألة التالية، وهي:

السادسة: التصريح بتسميتها الشمال. وقد سبق الكلام على ذلك.

السابعة: ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلك. ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن، فليقوموا بذلك.

الثامنة: قوله: «كخردلة في كف أحدهم». يعني بذلك قوله في الحديث: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في كف أحدهم»، هكذا قال المؤلف رحمه الله «في كف أحدكم» وقد ساق الأثر بقوله «كخردلة في يد أحدكم».

التاسعة: عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء. حيث ذكر أنها بالنسبة للكرسي كدراهم سبعة ألقيت في ترس.

العاشرة: عظم العرش بالنسبة إلى الكرسي. لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت

«العَاشِرَةُ»: عِظَمُ العَرْشِ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الكُرْسِيِّ.
«الحَادِيَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ العَرْشَ غَيْرُ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ.
«الثَّانِيَةَ عَشْرَةَ»: كَمْ بَيْنَ كُلِّ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ.
«الثَّالِثَةَ عَشْرَةَ»: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ السَّابِعَةِ وَالكُرْسِيِّ.
«الرَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: كَمْ بَيْنَ الكُرْسِيِّ وَالمَاءِ.
«الخَامِسَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ العَرْشَ فَوْقَ المَاءِ.
«السَّادِسَةَ عَشْرَةَ»: أَنَّ اللهَ فَوْقَ العَرْشِ.
«السَّابِعَةَ عَشْرَةَ»: كَمْ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ.

في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش.

الحادية عشرة: أن العرش غير الكرسي والماء. ولم أر من قال: إن العرش هو الماء، لكن هناك من قال: إن العرش هو الكرسي، لحديث: «إن الله يضع كرسيه يوم القيامة»، وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش.

وكذلك زعم بعض الناس أن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾، أي: علمه.

والصواب: أن الكرسي موضع القدمين، والعرش هو الذي استوى عليه الرحمن سبحانه، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم.

الثانية عشرة: كم بين كل سماء إلى سماء. وهو خمسمائة عام.

الثالثة عشرة: كم بين السماء والكرسي. وهو خمسمائة عام.

الرابعة عشرة: كم بين الكرسي والماء. وهو خمسمائة عام.

الخامسة عشرة: أن العرش فوق الماء. وهي ظاهرة.

السادسة عشرة: أن الله فوق العرش. وهي ظاهرة.

السابعة عشرة: كم بين السماء والأرض. وهو خمسمائة عام.

الثامنة عشرة: كثف كل سماء خمسمائة سنة.

التاسعة عشرة: أن البحر الذي فوق السماوات بين أسفله وأعلاه خمسمائة سنة.

«الثَّامِنَةَ عَشْرَةَ» : كِثَفُ كُلِّ سَمَاءٍ خَمْسُمِائَةِ عَامٍ.

«التَّاسِعَةَ عَشْرَةَ» : أَنَّ البَحْرَ الذِي فَوْقَ السَّمَاوَاتِ بَيْنَ أَعْلَاهُ وَأَسْفَلِهِ مَسِيرَةُ خَمْسُمِائَةِ سَنَةٍ.

وَاللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَصَلَّى اللهُ وَسَلَّمَ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِينَ.

وقد سبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها.

ويستفاد من أحاديث الباب:

أن الله لا يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم.

التحذير من مخالفة الله عز وجل.

والله أعلم، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وأسال الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد، آمين.

* **ثالثًا: قال الشيخ صالح الفوزان حفظه الله:** ثم قال: «وعن ابن مسعود» حديث ابن مسعود هذا يبيِّن المسافات التي بين السماوات والأرض والمسافة التي بين السماوات والكُرسي، والمسافة التي بين الكرسي وبين العرش.

قال: «بين السماء الدنيا» يعني: القريبة من الأرض، الموالية للأرض كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾

فبين الأرض والسماء الدنيا خمسمائة عام، وبين كلِّ سماء وسماء خمسمائة عام، وبين السماء السّابعة والكُرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، وكثف كل سماء من السماوات السبع خمسمائة عام.

إذًا تكون المخلوقات: أوّلاً: الأرض، ثم فوقها السماوات السّبع، ثم فوق السماوات السّبع الكرسي، ثم فوق الكرسي بحر ما بين أعلاه وأسفلِهِ خمسمائة عام، وفوق الماء عرش الرّحمن سبحانه وتعالى، والله جل وعلا فوق العرش، هذا ترتيب هذه المخلوقات حسبما جاءت به النصوص، وهي متباعِدة فيما بينها، فبين

....

السماء الدنيا والأرض خمسمائة عام، وبين كلّ سماء والتي تليها- يعني: السماء الثّانية والسماء الثّالثة والرّابعة والخامسة والسّادسة والسّابعة- بين كلّ سماء وسماء خمسمائة عام.

وكثف كل سماء خمسمائة عام.

وبين السماء السّابعة والكرسي- الذي مرَّ بنا أنّه أعظم من السماوات، وأنّها بالنسبة إليه كالدّراهم في التُّرس- بينهما خمسمائة عام، ثم فوق الكرسي بحر ما بين أسفلِه وأعلاه خمسمائة عام، ثم فوق الماء عرشُ الرّحمن سبحانه وتعالى: قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾، فكما أن في الأرض بحرًا يغمرها فكذلك في السماء بحر آخر غير البحر الذي في الأرض، وهذا البحر الذي في السماء بحر هائل عمقه خمسمائة عام، قال تعالى: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

فالعرش فوق هذا البَحْر، ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾.

إذًا يكون العرش هو أعظم المخلوقات، أعظم من هذا البَحْر، وأعظم من الكُرْسي، وأعظم من السماوات، وأعظم من كلّ المخلوقات، فالعرش هو أعظم المخلوقات، وأوسعُها، وأعظمُها، والله سبحانه وتعالى أضافه إلى نفسه فقال: ﴿ذُو ٱلْعَرْشِ ٱلْمَجِيدُ﴾ ﴿رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ﴾ فتمدح سبحانه وتعالى به وذلك لأنّه خلْقٌ عظيم، وخَلْقٌ فيه عبرٌ عظيمة يدل على عظمة خالقه.

ثم قال: «وبين السماء السّابعة والكرسي خمسمائة عام، وبين الكرسي والماء خمسمائة عام، والعرش فوق الماء»؛ أي: فوق هذا البَحْر.

«والله فوق العرش» فهو سبحانه وتعالى فوق مخلوقاتِه، عالٍ على خَلْقِه سبحانه وتعالى، العليُّ الأعلى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ﴾، ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، ﴿تَعْرُجُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيْهِ﴾، ﴿إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ﴾، وأدلّة علوّ الله جل وعلا على خلْقه كثيرة في الكتاب والسنّة والعقْل والفطرة حتى قال بعضُهم: «إنّها بلغت ألف دليل»، وقد ألّف الحافظ الذهبي رحمه الله كتابًا مستقلًا في العلو سمّاه: «العلوّ للعليّ الغفّار»، وهو مطبوع ومتداوَل، ذكر فيه النّصوص الدالّة على علوّ الله على

....

خلْقه، وقد أجمع أهلُ السنة والجماعة على علوّ الله سبحانه وتعالى بذاتِه على خلقه، ولهذا قال: «والله فوق العرش»، يعني: إذا كان العرش فوق المخلوقات والله فوق العرش، فدلّ على أنّ الله جلا وعلا هو العليُّ الأعلى فوق مخلوقاته جل وعلا، وأنّ المخلوقات كلّها بالنسبة إلى كف الرحمن سبحانه كالخرْدَلة في يد أحدِنا كما سبق فيما ورد عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.

قوله: «لا يخفى عليه شيء من أعمالكم» أي: مع علوّه على خلْقه لا يَتصوّر أحدٌ أنّه بعيدٌ عن عبادِه، بل له هذا العلوّ، ومع هذا لا يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم، فهو سبحانه وتعالى فوق العرْش وعلمُه في كلّ مكان، لا يخفى عليه شيء: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخۡفَىٰ عَلَيۡهِ شَيۡءٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ﴾، ﴿يَعۡلَمُ مَا يَلِجُ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَا يَخۡرُجُ مِنۡهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعۡرُجُ فِيهَاۖ وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ﴾، ﴿مَعَكُمۡ﴾ أي: بعلمه سبحانه وتعالى وإحاطته، لا تخفون عليه، ولا تخفى عليه أعمالُكم خيرُها وشرُّها، وكلُّ ما يصدر من عباده فإنّه يعلمُه سبحانه وتعالى من الطّاعات والمعاصي والخير والشّرّ، كلّه يعلمه سبحانه وتعالى، لا يخفى عليه شيءٌ من أعمالهم: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾

فلا يتصوّر أحدٌ أنّ الله إذا كان في العلوّ أنّه يكون بعيدًا عن عبادِه، وأنّه لا يعلم أعمالهم، فيتصوّر أنّ الخالق مثل المخلوق، إذا كان في مكان مرتفع فإنّه لا يعلم ما تحته، ولا يدري ما يحدُث بما تحته، هذا في حق المخلوق، أما الله جل وعلا فإنّه لا يخفى عليه شيء، والمخلوقات كلها على عظمها وسعتها ما هي بالنسبة إليه بشيء سبحانه وتعالى فهو محيطٌ بها، يعلمُها ويراها، ويسمع ما يحدُث فيها، ويرى ما يحدُث فيها، هو بكلّ شيء عليم سبحانه. ولا يحدث فيها شيء إلّا بقضائه وقدره وأمره.

....

فهذا فيه: الجمع بين العلوّ والعلم والإحاطة.

«وعن العبّاس» عمّ النّبي ﷺ.

قوله ﷺ: «أتدرون كم بين السماء والأرض؟» هذا فيه: السؤال يراد به التعليم والإرشاد، وليس هو من السؤال الذي يطلُب السّائل من المسئول أن يُخبره عن شيء لا يعلمُه، وإنّما هو من باب التقريب وإحضار الذّهن؛ لأنّ التعليم إذا جاء عن طريق السؤال والجواب كان أثبت.

قال ﷺ: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة»؛ أي: بين السماء الدنيا والأرض خمسمائة عام.

«وبين كلّ سماء إلى سماء خمسمائة عام، وكثف كلّ سماء» هذه هي الزيادة التي جاء بها هذا الحديث عما قبله، أي: غِلَظ كلّ سماء وسمكها.

«وبين السماء السّابعة والعرش بحر، بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض» هذا بيان عمق البحر.

والعرش فوق الماء، وهذا سبق، وهو في الآية الكريمة: ﴿وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ﴾ .

«والله تعالى فوقَ ذلك، وليس يخفى عليه شيءٌ من أعمال بني آدم» هذا كما سبق أنّ الله سبحانه وتعالى مستوٍ على عرشه، عالٍ على خلقه بذاته سبحانه وتعالى، ومع علوّه سبحانه- على مخلوقاته فإنّه يعلم ما في السماوات وما في الأرض، ولا يخفى عليه شيءٌ ممّا يحدُث في هذا الكون في أعلاه وفي أسفله، وجميع أعمال بني آدم على كثرة بني آدم وتفرُّقهم في الأرض واختلاف أمكنتهم فإنّ الله يعلم جميع ما يصدُر منهم: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ ، فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء على كثرة العباد، وتفرُّقهم في الأرض، واختلاف أمكنتهم، وتبايُن ما بينهم وخفاء أعمالِهم فإنّ الله جل وعلا يعلمُها: ﴿يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾ أي أخفى من السّرّ، بل يعلم ما في النفس وما في القلب قبل أن يتكلّم الإنسان، فالله يعلم ما يختلج في نفسك وما يدور في فِكْرك

....

قبل أن تتكلّم وقبل أن تعمل، فالله جل وعلا لا يخفى عليه شيء، وهو العليُّ الأعلى فوقَ مخلوقاتِه سبحانه.

يُستفاد من هذه النصوص فوائد عظيمة جليلة:

أوّلاً: فيه قَبُول الحقِّ مِمَّن جاء به، فإنّ النّبي ﷺ قبِل الحق من هذا اليهودي وفرح به عليه الصلاة والسلام.

ثانيًا: في هذه النّصوص مشروعيّة التحدُّث عن آيات الله الكونيّة، من أجل الاعتبار والاتّعاظ، وتعظيم الله سبحانه وتعالى وإفرادِه بالعبادة، وليس التحدُّث بهذه الأمور هو من باب الاستطلاع أو زيادة المعلومات فقط، وإنّما هو من أجل الاعتبار والاتّعاظ والاستدلال على استحقاق الله جل وعلا للعبادة دونما سواه، هذا هو المطلوب.

ثالثًا: فيها إثبات اليدين لله جل وعلا، والكف، والأصابع، ووصف يديه باليمين والشِّمال، وفي حديثٍ آخر: «وكلتا يديه يمين»، فهي شِمال لكنّها ليست كشِمال المخلوق، فشِماله يمين، خلاف المخلوق فإنّ شِماله لا تكون يمينًا، وإنّما هذا خاصٌّ بالله تعالى بأن «كلتا يديه يمين»، فله يد يمين وله شِمال كما في هذه الأحاديث، فهي يمين لا تُشبه يمين المخلوقين، وشمالٌ لا تشبه شمال المخلوقين، وله أصابع سبحانه لا تُشبه أصابع المخلوقين، بل تليق به سبحانه وتعالى.

رابعًا: في هذه النّصوص بيانُ المسافات التي بين هذه المخلوقات: المسافات بين السماء والأرض، المسافات بين السماوات، المسافات بين السماوات والكرسيّ، المسافات بين الكرسي والماء، وهذه مسافات عظيمة متباعِدة، ممّا يدلّ على عظمة هذا الكون، وعظمة هذا الكون يدلّ على عظمة خالقِه سبحانه وتعالى.

وفيها: الردُّ على أصحاب النظريّات الحديثة الذين لا يؤمنون بوجود السموات، ولا بوجود هذه المخلوقات العُلْويّة، وإنّما يظنّون أنّ هذا فضاء خارجي، وعندهم: أن الكون هو المجموعة الشمسيّة، ويعتبرون أنّ الشمس هي المركز لهذه المجموعة، وأنّ هذه الأفلاك بكواكبها تدور عليها -بما فيها الأرض، وهذا من

. . . .

الكذب على الله سبحانه وتعالى، والقول على الله بلا علم، والتخرُّص الذي ما أنزل الله به من سلطان، والنبي ﷺ بيّن هذه المخلوقات في هذه الأحاديث: أوّلاً: الأرض، ثم فوقها السماوات السّبع، ثم فوق السماوات السّبع الكرسي، ثم فوق الكرسي البحر، ثم فوق البحر العرش، والله جل وعلا فوق العرْش، فيجب الإيمان بذلك، وتكذيب هذه النظريّات الباطلة التي ما أنزل الله بها من سلطان. فالله أخبر أن الأرض قرار وأن الشمس تجري وأصحاب النظريات يقولون بالعكس.

خامسًا: في هذه النّصوص إثبات أنّ الأرضين سبع كالسماوات، والله جل وعلا لم يذكر في القرآن عدد الأرضين، ولكنّه أشار إلى هذا في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، فقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾، يدلّ على أنّ الأرضين سبع، وجاء مصرَّحًا بذلك في السنّة كما في الأثر الأوّل، وقوله ﷺ: «من اقتطع شِبْرًا من الأرض طُوِّقَه يومَ القيامة من سبع أَرضين»، فدلّ هذا على أنّ الأَرَضين سبع.

سادسًا: فيها بيان كيفيّة هذه المخلوقات، وأنّ بعضَها فوق بعض، فالأرض أوّلاً ثم السماوات، ثم الكرسيّ، ثم البَحْر، ثم العَرْش، وأنّ العرش هو أعظم هذه المخلوقات، وفيها رد على من يقول: إن العرش هو الملك، وأن معنى: ﴿ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ استولى على الملك.

سابعًا: فيها أنّ الكرسي غير العرش، وأنّه مخلوق مستقل، ردًّا على من زعم أنّه العرْش، أو أنّ المراد به العلم.

ثامنًا: في هذه النّصوص إثبات علوّ الله على عرشِه، ردًّا على الجهميّة والمعتزلة والأشاعرة ونُفاة العلوّ الذين ينفون علوَّ الله على عرشِه.

تاسعًا: فيها إثبات إحاطة علمِ الله -جلّ وعلا بكلّ شيء وأنّه لا تخفى عليه أعمال عباده صغيرُها وكبيرُها.

عاشرًا: فيها وُجوب إفراد الله تعالى بالعبادة، لأنّه إذا كانت هذه المخلوقات العظيمة حقيرةً بالنسبة إليه سبحانه وتعالى، وصغيرة بالنسبة إليه، وأنّه يتصرّف فيها

....

جل وعلا، ويعلم ما يجري فيها وما يكونُ فيها؛ فهو المستحقُّ للعبادة، وبُطلان عبادة ما سواه ممّن لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًّا ولا موتًا ولا حياةً ولا نُشورًا.

وبهذا انتهى شرح هذا الكتاب المبارَك: «كتاب التّوحيد الذي هو حقُّ الله على العبيد». والحمد لله رب العالمين، وصلّى الله وسلّم على نبيّنا محمّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.



الفهرس

الموضوع الصفحة

الفهرس